



HOWARD SPRING

هــوآارء سـهـرءءء

لؤلؤ المنازل

الفافاطلة

THE HOUSES
IN BETWEEN

مكتبة



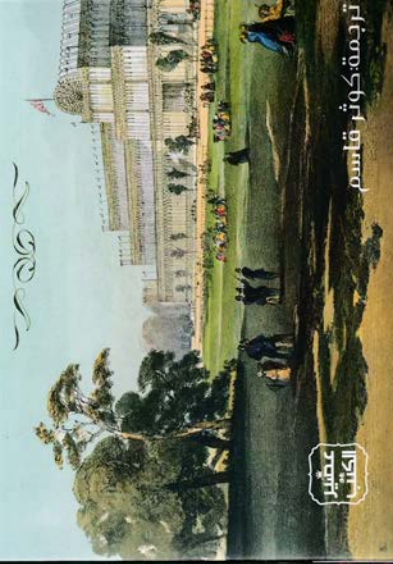
HOWARD SPRING

هــوآارء سـهـرءءء

لؤلؤ المنازل

الفافاطلة

THE HOUSES
IN BETWEEN

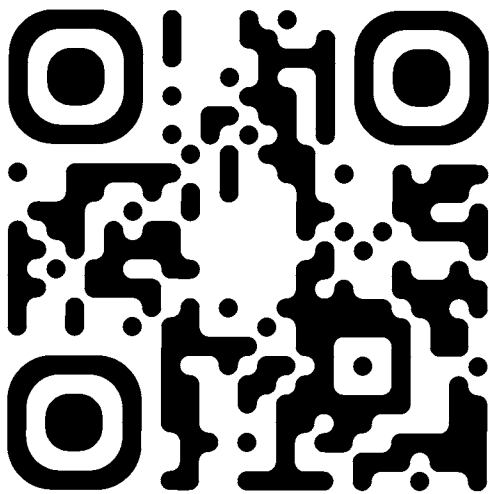


الكتب
عصير

الكتب
عصير

ترجمة كوني قاسم

ترجمة كوني قاسم



سجل في مكتبة
اضغط الصفحة

SCAN

لولا الملائك
~ ~ ~ ~ ~
~ ~ ~ ~ ~
~ ~ ~ ~ ~





للنشر والتوزيع

إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email: P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

● تأليف: هوارد سبرينج

● العنوان الأصلي: The House In Between

● ترجمة: كوثر قاسم

● العنوان العربي: لولا المنازل الفاصلة 1

● تدقيق لغوي: أحمد عطية

● الطبعة الأولى: يناير / 2025م

● رقم الإيداع: 27291 / 2024م

● تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

● الترقيم الدولي: 4-456-992-977-978

● حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب

مكتبة
t.me/soramnqraa



HOWARD SPRING

هــوارڊ سـبرينج

لولا المنازل

الفاتمة

THE HOUSES
IN BETWEEN



مكتبة

t.me/soramnqraa



ترجمة: كوثر قاسم

مكتبة

t.me/soramnqraa

مقدمة الكاتب

عندما اطلّعت على بضعة خطابات أرسلتها إلى وكلائي في عام 1940 البعيد، وجدت أنني سألتهم أن يبعثوا إليّ بنسخة من إحدى أغنيات مسرح المُنوعات تتضمن الكلمات: «لولا المنازل الفاصلة لرأيت «قصر الكريستال»»⁽¹⁾. لقد شغلت الدلالة المُشجّية لقصر الكريستال مخيلتي طويلاً، ورغبت في كتابة رواية تتناول التناقض بين ذلك الوعد الواهي بالسلام ووقائع الأعوام المروعة التي تلتّه. وإنّ نشر هذا الكتاب بعد الانتهاء من تحريره، في عام الاحتفال بالذكرى المئويّة لتشييد القصر، هو من قبيل المصادفة.

احتفظ عقلي بتلك الفكرة طويلاً. كانت تبرز من حين إلى آخر فأرجئ التفكير فيها. ولم يستقر رأيي على قالب لها حتى عام 1947، إذ دُعيتُ إلى حفل عيد ميلاد سيدة تبلغ التاسعة والتسعين من العمر. كانت مُسنّة، لكنها نشيطة صافية الذهن. تحدّثتُ إليها في مواضيع شتّى، وشعرتُ بالمهابة عندما فكّرتُ في مدى ذاكرتها. لقد وُلدتُ قبل أن تُولد فكرة بناء قصر الكريستال في عقل الأمير ألبرت! لقد بلغتُ من الكبر ما يجعل مُمكنًا أن تكون قد حضرت افتتاح القصر في الثالثة من عمرها! عندئذٍ علمتُ كيف سأنفذُ الكتاب. يجب أن يُمثّل سيرة ذاتيّة لامرئٍ كبير السنّ بما يكفي ليشهد على سير التاريخ

(1) شُيّد قصر الكريستال في «هايد بارك» في لندن لإقامة «المعرض الكبير»، الثقافيّ الصناعي، عام 1851 م. اجتمع فيه آلاف العارضين لتقديم نماذج من التقنيات المُتقدّمة التي طُوّرت في عصر الثورة الصناعية. بعد انتهاء المعرض الكبير نُقل القصر إلى تلّ «سيدنهام» جنوب شرق لندن. في عام 1936 نشب فيه حريق التهم معظمه. م

الفَتَّاك، منذ يوم الافتتاح إلى يوم عيد الميلاد ذاك. لكنني، مع ذلك، لم أشرع في الكتابة حتى يناير عام 1949.

في ما يتعلق بالأماكن التي تدور فيها أحداث الرواية فإن الإقطاعية البديعة التي تُدعى «تريسانت» قائمة في مقاطعة «كورنوال» الجنوبية، ولم يطرأ عليها أي تغيير حتى اليوم. لكن اسمها الحقيقي ليس تريسانت. بلدة «بورتفن» المذكورة في الكتاب لا تُدعى بهذا الاسم في الحقيقة⁽¹⁾. لم أدخل قط منزل الإقطاعية ولا أعلم صفاته، لهذا وجب عليّ أن أبتدع منزلاً. يجب أن يُعده القارئ، وعائلة جايلورد التي تعيش فيه، من وحي الخيال. إن جميع شخصيات الرواية، في الواقع، خيالية. لم يُبنَ على أرض الإقطاعية، التي أدعوها هنا تريسانت، كنيسة تضم قبور عائلة جايلورد. لكنها قائمة تكتنفها الكآبة والرطوبة في موضع آخر من كورنوال يبعد أميالاً عن تريسانت. لقد كَشَطْتُ بعض العفن عن القبور هناك. ولتحقيق مغزى الكتاب قَرَنْت بين الكنيسة والإقطاعية.

هـ. س.

(1) الاسم الحقيقي للبلدة المذكورة هو «بورتفن». تقع بالقرب من «هلستن»، وتُعد أقصى ميناء جنوبي في بريطانيا العظمى. يطل ساحلها على المحيط الأطلسي. م

تصدير كتبه جوليان ريمل

لو عاشت عمتي سارا أندريدج حتى اليوم لأتّمت مئة عام. لقد حضرتُ الحفل الصغير الذي أقيم احتفالاً بعيد ميلادها التاسع والتسعين. في ذلك الوقت كانت تتمتع بقدرٍ كافٍ من الحيوية والنشاط، وملأت البهجة الأجواء. كان العمر، كما يُقال، يجري بنا نحن المدعوّون. وما تركناه من أعوام وراءنا يزيد على ما نتوقع عيشه مستقبلاً. أظن أن هذه الحقيقة تحديداً هي ما جعلتنا نبتسم بمحبة وإعجاب لسارا العجوز، وهي تجلس في مقعدها الوثير منتصبه القامة رغم نحولها الشديد وشحوبها، تنتظر عيناها الزرقاوان النديّتان عبر النافذة إلى أشعة شمس مايو، التي تنير العشب والزهور والشجيرات المزدهرة. لقد نجحتُ، رغم كل الظروف، في تحدي سطوة السنين كما تمنّينا جميعاً، في قرارة أنفسنا، أن نفعل. لقد شابهُتُ بناءً يقف شامخاً في مدينة قُصفت بالقنابل؛ رمزاً يمنحنا الأمل.

أعدّدت من أجلها كعكة كبيرة زيّنها تسع وتسعون شمعة. كنا ندرك أنها لن تستطيع إطفاء جميع الشموع، لهذا أحضرنا منفاخاً صغيراً كي يعينها. وُضعت الكعكة على طاولة أمام مقعدها، وأضاء بعضنا شموع الاحتفال الثخينة بشموع الإشعال الرفيعة. سطع ضوء الشمس على الشموع فأوهن وهجها. اضطربت الشعلات، الباهتة الواهية، حول فتائل الشموع كأنها أطياف صغيرة يجهد كل منها لينفصل عن الخيط الفاني، الذي رُبط به منذ زمن بعيد. وضعتُ المنفاخ في يديّ سارا الرقيقتين اللتين خطّتهما العروق الزرقاء. وأشجنتني رؤيتها، هي نفسها التي تكاد تشبه طيفاً، تُرسل اللهب في

سهولة إلى العدم بنفخة تلو أخرى. عَلِقَ خيطُ دخانٍ رماديٍّ بضع لحظات في الهواء ينيره الضوء، ثم تلاشى. بعد ذلك انتشرت رائحة قويّة، حادّة ترابيّة، وكأنّ جميع سنوات عمرها تكثّفت فجأة والتحمت، مثل ربيعٍ ورديٍّ أُطلق من قارورة عطر.

لم تكمل سارا قرنًا من الحياة. خلال بضعة أشهر تلت ذلك الحفل كانت تستيقظ بضع ساعات فقط كل يوم، تقرأ قليلاً وتلعب الدومينو. ثم لظمت فراشها تمامًا تقرأ كتبًا في طبقات كبيرة. راقها أن يأتي البعض لزيارتها من حين إلى آخر للدردشة، لكن زائريها كثيرًا ما وجدوها نائمة. بعدما استيقظت من إغفائها في إحدى زياراتي لها أخبرتني بابتسامة أنها تنام حفاظًا على طاقتها.

قالت: «يجب أن ألزم الحذر إن أردتُ إتمامه».

لقد وُظِنَتْ نفسها، في ما أظن، على بلوغ المئة.

أردفت: «ستصل إليّ برقية من الملك. إنّ واحدًا من أحداث حياتي المهمة التي أتذكرها جيدًا هو رؤية الملكة. وسيكون من اللطيف أن أتلقى خطابًا من حفيدها».

لا أدري إن كان إرسال البرقيات إلى المئويين أحد التقاليد الملكية، لكن هذا ما ظنّته سارا وتطلعت إلى تلقّي برقيتها. على أن المُخصّصات الملكية أُعفيت من دفع تكاليف إرسالها لأن العمة قضت نحبها في ليلة رأس سنة 1948. لقد ذهب أحدهم كي يتمنى عامًا جديدًا سعيدًا لمن عاشت كثيرًا من الأعوام، منها السعيد ومنها الحزين، لكن جسدها المتعب زهد الحياة. بعدما رَسَتْ سفينة حياتها طويلاً سحبت مرساتها ورحلت. لقد كان حلول العام الجديد بـ «تريسانت» عاصفًا. أثارت الرياح جلبة شديدة طوال الليل. اكتست الحقول بحطام الأشجار. وسقطت شجرة دردار هائلة، فخلف سقوطها هامة حفرة كبيرة في الأرض. تساءلتُ إن كانت سارا قد استيقظت وأحسّت بذلك الاضطراب الجويّ، وإن كانت قد سمعت الارتطام العنيف وفكّرت في أشجار الدردار، التي ضمّتها الجدران الزجاجية الرقيقة لقصر الكريستال. هناك رأت الملكة وسط النافورات اللامعة، حيث تعزف الفرق الموسيقية

وتغني الجوقات، وتملأ الممرات مكنات كان من المفترض أن تُوحّد الأم ليبدأ العصر الذهبي.

في اليوم الذي تلا احتراق قصر الكريستال كاملاً اكتشفت كم ظلت تفاصيل يوم افتتاحه البعيد حيّة واضحة في ذاكرة سارا. ومع أنني لم أتأثر كثيراً بخسارة ذلك البناء الزجاجي الكبير الذي قام على تلّ «سيدنهام»، فقد وجدتّها شديدة الانزعاج ولم تتحدث عن أمر سواه.

قالت: «لقد حضرت حفل افتتاحه. إنّ هذا الحدث هو أوّل ما أتذكّر بوضوح من ذكريات طفولتي. أقيم الافتتاح في يوم مولدي، في الأول من مايو كنت هناك».

أطالت الحديث عن تلك الذكرى. في ذلك الوقت كانت سيدة مُسنّة، لكنها ما زالت تستطيع الحركة بلا صعوبة. عاشت في شقة صغيرة في لندن طوال الحرب العالمية الثانية. ثم تركتها لتستقرّ في تريسانت. في ذلك اليوم، في تلك الشقة الصغيرة، حدّثني عن قصر الكريستال، الذي أصبح رمزاً عميقاً في حياتها. لقد تعاضمت قيمة القصر في نظرها لأنها حضرت افتتاحه، وكان له معنى عميق في حياتها. بينما تنتقل من طور إلى آخر ظلت تعود إلى تلك الذكرى وتتأملها. قرأت كل ما قيل عن القصر قبل بنائه، وكل ما قيل في أثناء عهده المجيد إذ ينتصب في «هايد بارك». كان القصر رمزاً للسلام، ومن المفترض أن تجتمع فيه جميع الأمم على وفاق. كان حلمًا كريستاليًا تحطّم، فقاعة متلائيّة شاهدها تنفّقى.

سألتني: «هل يمكنك تصوّر ما هو أجمل من قصر من الكريستال أو أكثر رقة منه؟ ناولني ذلك الصندوق على سطح مكثبي هناك».

جلبت الصندوق ذا الغلاف الجلدي الأحمر ووضعتّه في حجرها. فتحتّه لتخرج حزمة من المحارم الورقية. فكّتها وأخرجت قطعة خزفية كانت جزءاً من كوبٍ عاديٍّ: مقبضه وبعض جانبه الخزفيّ الأبيض ذي الحلقة الزرقاء.

قالت وهي تقلّبه في يدها: «لن تستطيع أبداً تخمين ما هذا».

أجل، لم أستطع حقاً تخمين أي مشاعر أثارها ذلك التذكّار في نفس السيدة الكبيرة.

- هل تذكر كم استبد بنا الخوف في عام 1938؟ كان خوفنا مُبرِّراً إذ تأزَّم الوضع. لقد حفروا الخنادق في هايد بارك، واستُخرجت هذه القطعة حفراً. كان هناك كثيرٌ من بقايا الأواني الخزفية المُحطَّمة تشبهها. فبينما المعرض قائمٌ أُتيح لزائريه تناول الشاي ولم يلزم البعض الحذر. عندما انتهى المعرض ونُظِّف موضعه دُفنت قطع الخزف المُحطَّمة في أماكنها. هذه القطعة ممَّا أخرجته من حفروا الخنادق في موقع القصر. ألا تجد هذا الأمر عجيَّباً؟

بعدما أُجبتُها بالإيجاب قالت: «إنه أكثر عجباً مما تظن. بعد يوم الافتتاح الكبير كثيراً ما ذهبت إلى المعرض. لقد راجت زيارته لأن التثقيف هدفه. هناك تتقَّف وريث العرش، وأمره والده الأمير ألبرت بأن يكتب مقالاً عن العجائب التي رآها. لكن بيرتي الصغير، الذي لم يتجاوز العاشرة من عمره حينئذٍ، أسهب في الكتابة عن عادات قطاع الطرق. لا تسألني يا عزيزي لم أُقيم عرضٌ حول هذا الأمر، لكنه كان جزءاً من المعرض الثقافي وتطَّبع به مقال الصبي. لقد ظنَّ الأمير ألبرت أن الخلاص سيتحقق عندما يلتفُّ البشر حول مَكِنَّاته لا قطاع الطرق، وفهم الصبي المسكين أن اهتماماته صادمة. أنا لا أدري الكثير حول اهتماماته. لكن البشر، من بينهم قطاع الطرق، دائماً ما أثاروا فضوله أكثر من المَكِنَّات.

بعدما صُبَّ الشاي الذي أحضرته خادمة سارا قالت: «كنت أخبرك عن هذه القطعة الخزفية. إنَّ مُربَّيتي صاحبة الاسم الغريب «ميرسي كايت»⁽¹⁾ كثيراً ما اصطحبتني إلى المعرض في جولات تثقيفية، لكن هذا لم يرُقني كثيراً. ما راقني هو رؤية القصر كاملاً من الخارج، حيث يلمع الزجاج في شمس الصيف، وترفرف صفوف الأعلام أعلاه تحت السحب البيضاء. دائماً ما استمتعت بتناول الشاي بداخله. وبداع طفولي لم أستطع تفسيره قط، فتنتني الأكواب ذات الحلقات الزرقاء. وجدتها رائعة. لكنني في أحد الأيام أسقطت كوبي. انسكب الشاي على ثيابي فوبَّختني كايت. بكيت بكاءً شديداً فأخرجتني من القصر عَجْلةً وهي تصيح عليّ. لم ينهمر دمعي جرأً تَلَطَّخ ثوبي أو كلماتها الحادة، بل لأنني كسرت واحداً من تلك الأكواب الجميلة. (لَفَت

(1) يعني الاسم «ميرسي كايت» حرفياً: طائرة الرحمة الورقية. م

القطعة في المحارم وأعادتها إلى الصندوق، ثم أردفت) يروقني أن أرى هذه القطعة جزءًا من ذلك الكوب بالتحديد».

لم أدرك قبلاً كم شغل ذلك القصر ودلالته فكرها، والآن أسهبت في الحديث عنه: «أعرف أغنية قديمة من الأغنيات التي يدندنها الصُّبية العاملون. لا أتذكر من كلماتها سوى السطر القائل: «لولا المنازل الفاصلة لرأيت قصر الكريستال». إنني أعتقد أن فرصة رؤيتك إياه سانحة دائماً في أي وقت. لكن المنازل القائمة، من سوء الحظ، دائماً ما تفصل بينك وبينه. الآن أعد هذا الصندوق إلى المكتب، ولأصّب لك المزيد من الشاي. لقد ثرثرت بما يكفي. أخرج صندوق الدومينو».

أطلتُ التفكير في تلك المحادثة التي أجريتها مع العمة سارا حول المفارقة الساخرة، التي أدركتها بوضوح، عن قصرٍ للسلام ساطعٍ يخطف الأنظار، لكنه بالغ الهشاشة. على أنه، في رأيها، موجود دائماً مثل مدينة الربّ في نظر القديس أوجستين. ويمكن للجميع رؤيته لولا المنازل الفاصلة، الفاخرة والمتهاكة، وكل أولئك البشر، الأثرياء والفقراء، بنزاعاتهم وسجلاتهم؛ وضغائنهم ومخاوفهم، وفُرقتهم وتحالفاتهم وخياناتهم. أجل، سيكون من الأيسر رؤية الأبنية الشفافة البرّاقة لو لم يفصلنا عنها كل هذا.

في زيارتي التالية لسارا قالت: «بعدما تنتهي من تنظيم كتابي أريدك أن تعنونه «لولا المنازل الفاصلة». يؤسفني قول إن القصر فَقَدَ مكانته. أصبح مكاناً لعروض القلط والكناري وإطلاق الألعاب النارية. قلّة من الناس يدركون أنه الرمز الأبرز لكل ما حدث في العالم منذ وقت تشييده وحتى الآن؛ رمز لجميع النيات الحسنة والعجز المقيت عن فعل ما يجب فعله».

سألتها: «عمّ يدور الكتاب؟».

أجابتنني بتواضع: «إنها قصة حياتي. (ثم أضافت بابتسامة واثقة) وهي لم تنتهِ لأنني لم أمت بعد».

لقد كانت، في ما بدا، تكتب ذلك الكتاب منذ أعوام.

قالت: «لا شك أنني لم أحسن كتابته، لهذا أريدك أن تطلّع عليه. نظّمه. اجعله مقروءًا. أنت بارع في هذه الأمور».

على أنها لم تعطني المخطوطة حتى انتهت الحرب واستقرت في
تريسانت. ومن اللافت للنظر أن تلك المخطوطة لم يلزمها سوى تدخل طفيف
مني: حذفت بضع كلمات، وعدلت بضع عبارات. لهذا فإن من كتب هذا الكتاب
هي سارا: السيدة سارا أندريدج، الأنسة سارا راينبرو.

الأول من مايو عام 1948.

الفصل الأول

1

أتذكّر أنني كنت أقفز فرحًا وهتفت قائلة: «هل سأرى الملكة؟ هل سأرى زوج الملكة؟ هل سأرى...؟».

قالت مُربّيتي ميرسي كايت: «رجاءً توقفي عن القفز يا آنسة سارا كي أستطيع إلباسكِ ثيابكِ، وإلا فلن تري أي شيء على الإطلاق».

- هل سأرى؟

ضحكت مني قائلة: «هل سأرى؟ هل سأرى؟ لا أسمعكِ تقولين شيئًا من الصباح إلى المساء سوى «هل سأرى؟». ماذا تظنّين العالم؟ صندوق فرجة أُعدّ مخصوصًا من أجلك؟».

- هل سأرى السلام على الأرض؟

- يا إلهي! يا له من سؤال كبير تطرحه طفلة صغيرة!

- لقد سمعت أبي يقول إن المعرض يهدف إلى أن يحلّ السلام على الأرض والمسرة بحياة البشر⁽¹⁾.

(1) في إشارة إلى لوقا (2: 14): «الْمَجْدُ لِلَّهِ فِي الْأَعَالِي، وَعَلَى الْأَرْضِ السَّلَامُ، وَبِالنَّاسِ الْمَسْرَّةُ». م

قطّبت جبينها وأجابتنني قائلة: «يقول والدك الكثير، وسيُسمِعني بعض التوبيخ إن طال انتظاره. لن يسهم هذا في أن يحلّ السلام على الأرض بالتأكيد. هيّا، توقفي عن القفز».

توقفت عن القفز رغماً عني لأن يوماً رائعاً في انتظاري. كان الجو صحواً، إذ سطعت شمس مايو بعد أمطار الصباح. دار بخليدي أن المطر قد أُندي أوجُه قصر الكريستال، وستتلاً قطرات الماء في ضوء الشمس. عندما فكرت أن اليوم، إذ يحلّ عيد مولدي، سأدخل المعرض برفقة أبي على أحد جانبيّ وأمي على جانبي الآخر وسأرى الملكة، شرعت في القفز مجدداً.

أمسكت ميرسي كايِت بخصلة من شعري البني الطويل وجذبتها قائلة: «ستلزمين السكون؟ أم أخبر والدك أنك تشاغبين ولم أستطع تجهيزك للخروج في الموعد المحدّد؟».

أخبر والدك. حثّني هذا التحذير على الرزّانة لأن أبي ذو هيبة وجلال. دخلت الغرفة أُمّي، السيدة طويلة القامة التي ترتدي ثوباً أبيض لامعاً ذا حفيف، وقالت: «هل الأنسة سارا جاهزة يا كايِت؟».

- أوشكنا أن ننتهي يا سيدتي.

- عليك بالإسراع، لقد حان وقت الذهاب.

- أُمّي، هل سأرى؟

قاطعت سؤالي قائلة بفتور: «سترين كل ما سيُعَرَض يا صغيرة. أعيني كايِت على تجهيزك للخروج، وحال أن تنتهي انزلي إلى الطابق السفلي في الحال».

ثم غادرت يحفّ ثوبها.

عندما وصلتُ إلى منعطف الدرايزين الأخير رأيت أبي، ذا اللحية الشقراء الطويلة، يذرع الردهة المكسوّة بالبلاط الأبيض والأسود جيئةً وذهاباً. أخرج ساعة جيبٍ بدت لي مثل جوهرة لامعة كبيرة تتدلى من شريطٍ أسفل صدره. دقّق النظر إليها، ثم أعادها إلى موضعها.

عندما رأني اتجه إلى غرفة الجلوس المفتوحة وقال: «لقد أتت يا فلورنس».

خرجت أُمِّي استجابةً لتنبيهه، وأتى الخادم تيتلي يحمل قبة أبي الطويلة. عندما فتح باب المنزل رأينا عربة «فيكتوريا» في انتظارنا، ودوكلات جالسًا في مقعد السائق.

استقلينا العربة وجلست أوتوسط أبي وأُمِّي، ثم نظر دوكلات إلى الخلف سائلًا: «إلى أين نتجه يا سيدي؟». أجابه أبي: «إلى قصر الكريستال». وبدأت رحلتنا.

في طريقنا إلى قصر الكريستال شعرت بالضيق. لم أستطع الكلام، واكتفيت بالتطلع حولي. منذ مدة طويلة وأنا أسمع الكثير عن هذا اليوم الرائع. لقد سمعت أبي يخبر أُمِّي أن «جميع الأمم على وجه الأرض» قد دُعيت إلى حضور ذلك «المعرض الكبير»، الذي نظَّمه الأمير أملًا في أن يجلب السلام إلى الأرض والمسرة إلى حياة البشر. وعندما ذهبنا إلى الكنيسة الأحد الماضي تحدثت الواعظ عن الأمور نفسها: توحيد الأمم، والسلام، والحب. لهذا تفاجأت بأن كل ما أراه يبدو كالمعتاد، لم يتغير شيء.

بينما نقطع الطريق يداعبنا نسيم ذلك اليوم المنعش، لم أكن لأدَّهش لو رأيت جماعاتٍ من العرق الأسود والأصفر يختلطون بشعبنا الأبيض المعهود، يتبادلون التحيات والعناق والقبلات، ويرفعون أصواتهم يغنون ترانيم عيد الميلاد المجيد. لكنني كنت طفلة سخيفة لم أصب في توقعي.

قال أبي: «كان يوجد تخوُّف من وقوع اضطرابات، لكن الجموع تُظهر تهذيبًا شديدًا».

تصرفت الجموع بتهذيب شديد بالفعل. تطلَّعوا إلينا بتوقير فيما نمرُّ بهم. لكنني شعرت بخيبة الأمل لأنني لم أرَ بينهم وجهًا أسود، أو قمحيًا، أو أصفر. رغم ذلك كان اليوم رائعًا. عندما وصلنا إلى «هايد بارك» شعرت بالحماس عند رؤية الجموع الغفيرة. تقدمت العربة وسط مسارٍ مُكتظٍّ بالرجال والنساء. وعلى كل جانب من جانبيها شهدنا آلاف البشر، على مدى بصرنا، يُشرف عليهم قصر الكريستال. رأيتَه ينتصب شامخًا يعكس أشعة الشمس.

بدا ساحراً يُرسل نوراً ساطعاً، بحيث لم أكن لأدَّهش لو رفَعته الأعلام، التي ترفرف فوق سطحه وتنبسط وتتموج، وحلَّقت به نحو السماء.

لم يفارقني هذا التصور حول القصر قط، لا في ذلك اليوم ولا في الأيام اللاحقة حيث دخلته. لقد رأته مخيلتي الطفولية مركبةً سماويةً ضخمةً؛ سفينة هوائية كريستالية هبطت على الأرض لترتاح قليلاً، وقد تُقْلِع في أي لحظة وتأخذنا معها في رحلة عجيبة.

والآن عندما وِطئت قدمي تلك المركبة الزجاجية الهائلة، وجدت بداخلها حديقة ملاءى بزهور لم أتصور اجتماعها في مكان واحد قط. رأيت منها صفوفًا وضافًا وأحواضًا ذات ألوان رقيقة بديعة، وكثيرًا من النساء يرتدين ثيابًا بألوان بهيجة. هكذا تخضبت الأرض والأروقة الرائعة بأجمل الألوان. رأيت أشجار النخيل، وأرغناً يبعث بسلسلة من الأنغام تضيء على الأجواء رونقًا. شهدت المنصة التي قال أبي إنها المنبر. خلفها ارتفعت أشجار الدردار الكبيرة، وأمامها قامت نافورة تلمع وهي تنثر الرذاذ. رأيت هذا كله داخل المركبة الزجاجية الكبيرة. وعندما نظرت إلى الأعلى استطعت رؤية سماء مايو الزرقاء البهيجة تقطعها السحب البيضاء. أطلت النظر إليها حتى بدت لي السحب ساكنة، وأن السفينة الهوائية نفسها هي التي تتحرك. خِلْتُ أنها انطلقت بخفة نحو السماء تحملنا جميعًا: أشجار الدردار والنافورة، وحديقة الزهور والتمائيل وآلاف البشر، ترافقنا الموسيقى وتغريد العصفير التي لم تجفل، بل تابعت تنقلها بين فروع الأشجار. لقد تفاجأت برؤية العصفير هنا لأنني سمعت أبي يقول إن الملكة تخشى عليها وأرادتها خارج القصر. لم أفهم سبب خوفها قط، لكن هذا ما سمعت. علمت أيضًا أن الدوق ولنجتون⁽¹⁾ أرشد الملكة إلى طريقة إخراجها. ورغم أن أبي قال إن الدوق «رجل جدير بالثقة» فإن العصفير ظلَّت في القصر.

قلت: «أمي، لا يجدر بالملكة أن تثق بالدوق».

(1) كان دوق ولنجتون/ آرثر ويلزلي قائدًا عسكريًا ماهرًا، معروفًا بانتصاره في معركة «واترلو». وشغل منصب رئيس وزراء المملكة المتحدة. واجه تحديات في التعامل مع تعقيدات السياسة الداخلية، وتلقَّى انتقادات كثيرة. لم يكن إرثه السياسي بارزًا مثل إرثه العسكري. م

أجابتنى قائلة: «توقفي عن مدِّ رقبتي ولا تثرثري».

بعدئذٍ فاجأني صوت الأبواق؛ لقد نُفِخت بغتةً ولم أَتَوَقَّع سماعها. طارت العصافير عاليًا، وتواترت عن الأنظار وسط الأشجار. فكَّرتُ: «لا بد أن الملكة قادمة لهذا خشيت العصافير أن تراهن هنا».

بينما الجميع ثابتون في أماكنهم بدأ الأرغن يُصدِرُ لحن النشيد الوطني «حفظ الرب الملكة»، وغنَّت الجوقة كلماته. بدا صوتهن خافتًا، إذ تلاشى في أرجاء القصر الرحبة. لكن حالما انتهى الغناء علا الضجيج، إذ أخذ الجميع يهتفون ويلوِّحون بمحارمهم وبطاقاتهم. ثم رأيت الملكة.

كانت ترتدي اللونين الوردِيَّ والفضيَّ، وتسير برفقة زوجها. تمسك إحدى يديها بيد صبي صغير، يرتدي ثيابًا تشبه ثياب قاطني المرتفعات الاسكتلندية. ويمسك الأمير بيد طفلة صغيرة، قاصدين جميعًا المنصة التي دعاها أبي المنبر. هناك وقف الأربعة برهة فيما الجمع يهتف بقوة، تتراقص النافورة أمامهم، وخلفهم أشجار الدردار حيث تواترت العصافير عن الأنظار. سرَّني اختفاء العصافير لأن الصبي الصغير كان، في ما بدا، من الأطفال الذين قد يصوَّبون الحجارة نحوهم بمقلع.

فاق ذلك المشهد كل ما حدث تاليًا. كانت أجمل لحظات المعرض هي تلك التي رأيت فيها الملكة ذات الثوب الأبيض تمرُّ بالنافورة اللامعة، تمسك بيد الصبي الصغير، والعصافير مختبئة بين الأشجار في أمان. بعد ذلك أُلقيت بعض الكلمات. ثم شرع رجل يرتدي ثيابًا فاخرة في الصلاة، وواصل الحديث عن السلام وتوحيد جميع أمم الأرض. كلما سمعت حديثهم عن أمم الأرض جميعها تعاظم شعوري بخيبة الأمل، لأنني لم أرَ الأجانب المثيرين للاهتمام الذين توقعت حضورهم. كان هناك رجل أجنبي واحد انحنى تحيةً للملكة. قال أبي إنه أحد الصينيين «يخضع». كنت حينئذٍ أعلم تلك الكلمة الفصيحة، لأن ميرسي كايت اعتادت أن تقرأ لي بعض آيات الكتاب المقدَّس. عندما قرأت لي عن جِزَم الدُّرة التي «خضعت» لحزمة النبي يوسف سألتها ماذا تعني تلك الكلمة. أجابتنى قائلة إنها تعني اتخاذ المرء الوضعية التالية: انحنيت أمامي في تهذيب، ثم جَنَّتْ تمسُّ جبهتها أرضية غرفة الدراسة. قدَّم الصيني احترامه لكنه لم «يخضع» فعلاً. وكم بدا ضئيلاً لينوب وحده عن ذوي البشرة

السوداء والحمراء والقمحية والصفراء والعسجدية، الذين يُمتثلون «جميع الأمم على وجه الأرض».

استغرق وصولنا إلى مكان عربتنا وقتًا طويلاً ونال مني الإرهاق. لهذا في طريقنا إلى المنزل انحنى رأسي ناعساً. وبينما أنا بين اليقظة والنوم سمعت بعض ثناء أبي على كل شيء: «يا له من حدث رائع!»، «لم يشهد العالم معرضاً مثل هذا من قبل»، «إن الأمير مثال للصالح».

قلت ناعسة: «لم يحضر أناس سود، أو أناس قمحيون، أو هنود حمر».

قال أبي: «بالطبع لم تتوقعي رؤيتهم هناك يا طفلي العزيزة؟!».

- لقد توقعت أن أرى جميع أهل الأرض في سلام ومسرة.

- كلما قلَّ عدد الأجانب الذين نراهم هنا زاد رضاي. إنَّ خيرَ ضمانٍ للسلام على الأرض هو التجارة البريطانية. وهذا ما سيرُوجه المعرض الكبير.

لم أفهم مقصده، قلت: «ماما، هل رأيت العصافير؟ لقد عددتُ منها ستة. لماذا أرادتها الملكة خارج القصر؟».

أجابتنني أُمي بحدة: «هذا ما وجب فعله. ستفهمين كيف تُدار مثل هذه الأمور بمرور الوقت».

في غرفتي طرحت على كايث السؤال نفسه، فأجابتنني: «كان من الممكن أن يلطخوا بالأوساخ قبعتك يا عزيزتي».

عندئذٍ تساءلت لِمَ لم تُجب أُمي سُؤالي جواباً بسيطاً كهذا.

2

أظن أن أبي في ذلك الوقت كان في الخامسة والثلاثين من عمره. في تلك الأيام استطاع الرجال أن يتجمَّلوا بالوقار، بل وسَعُوا إليه، قبل حتى أن يصلوا إلى هذه السن. ميَّزَتْ وجه أبي لحية شقراء طويلة، وعينان زرقاوان جامدتان ثاقبتان. كان من الرجال القليلين الذين يمتلكون عربة «هانسوم» خاصة، وكان من مباهج صباحي رؤيته يتجه إلى مقر عمله في مركز المدينة. شغلَ منزلنا موقعاً في ميدان «بورتمان». وقد اعتدت النظر من نافذة الغرفة

التي كانت تُدعى غرفة الدراسة، رغم أنني لم أكن قد بدأت الدراسة بعد، لأرى الهانسوم قادمة من منطقة الإصطبلات، والحوذي دوكات مستقرًا في مقعده العالي الصغير. عندما تتوقف العربّة في الخارج يغادر الخادم تيتلي المنزل ركضًا ويقف منتظرًا. بعد ذلك بقليل يغادر أبي المنزل سائرًا بتؤدة -لقد اتّسمت جميع أفعاله بالتؤدة والوقار- ويفتح تيتلي باب العربّة. قبل أن يستقلها أبي يلتفت ويرفع قبعته الطويلة تحيةً. عندئذٍ أتصور أمي واقفة عند إحدى النوافذ تشاهده. بعد جلوسه في العربّة يناوله تيتلي نسخة مطوية من جريدة «تايمز»، وإن كان الفصل شتاءً يغطي ركبتيه بدثار من الفراء. يفتح دوكات الباب الصغير في سقف العربّة ويقول: «إلى أين نتجه يا سيدي؟»، فيجيبه أبي: «إلى مركز المدينة». كان من المُتَوَقَّع، في ما أظن، أن أبي قد يتّجه في أي صباح إلى قصر باكنجهام، أو مجلس العموم، أو أي مكان آخر. ورغم أن جوابه دائمًا ما كان «إلى مركز المدينة»، فإنه أوجب السؤال عن وجهته. وما يُوجِبُه أبي نافذ. ثم يرحلان، وتلمع قضبان العجلتين الصفراوين في ضوء الشمس صيفًا. وإن كان الموسم شتاءً فقد تُضاء مصابيح العربّة لشدة الضباب وقتئذٍ مقارنةً بالآن.

بخلاف تلك اللحظات لم أكن أرى أبي في غير عطلات نهاية الأسبوع، لأنه اعتاد تناول الغداء في أحد النوادي في مركز المدينة. ومع أنه درج على العودة إلى المنزل في الخامسة، فإن يومي كان ينتهي حينها. لقد تشابهت أيامي في تلك الفترة، وقضيت معظم وقتي بالطابق الثاني من المنزل، الذي استأثرنا به أنا وكايت. كانت كايت أقرب شخص إليّ. لقد تقطّع وجود أبي وأمّي في حياتي، لكن كايت كانت دائمًا معي. حتى اليوم لا أعلم إن كانت زوجة، أو أرملة، أو عانسًا. أتذكرها عجوزًا، لكنني لا أظن أنها كانت طاعنةً في السنّ حقًا. رغم مزاجها الحادّ فقد اتّسم طبعها بالحنان وكانت جديرة بالثقة. في بعض الأحيان أخلى مزاجها الحادّ مكانه لعاطفة قوية مُريبة. في ذلك الوقت لم أجد ما لا يروقني في تبدّل مزاجها إلى تلك الحالة، بل ونالت استحساني المُتَحَفِّظ. عندئذٍ كانت تدعوني روزي فسألتها: «لم تنادينني باسم روزي يا كايت؟ إنني الآنسة سارا».

أجابتني وهي تعانقني وتمسّد شعري البني الطويل، الذي كانت تشدّه في حالاتها المزاجية الأخرى: «لأنك يا عزيزتي تشبهين زهرة وردية، بل برعم زهرة وردية».

أحببت ذلك المزاج، بخاصة عندما ينتاب كايث في موعد النوم. سرّني، والدثار يغطيني، أن يغمرني الشعور بأنني برعم زهرة وردية وأن ميرسي تحبني.

اعتدنا تناول الإفطار معًا في غرفة الدراسة التي تطلّ على الميدان. لم تُرَوّد بكثير من الأثاث الفاخر، لكنها كانت مساحتنا الخاصة وفيها وجدنا راحتنا، لا سيّما والمدفأة موقدة والستائر مُسدّلة شتاءً. احتوت غرفتنا على مصباح بارافين، يتدلّى من السقف فوق طاولة دائرية كساها قماش أحمر اللون. كانت ميرسي تجلس إلى الطاولة، أمامها كتاب تقرأه لي، وأنا جالسة مرتاحة في مقعد بجوار المدفأة. أحيانًا يصعد تيتلي الدرج بتثاقل كي يفرغ وعاء الفحم في سطلّ غرفتنا. وفي السادسة يأتي ليسحب حوض الاستحمام المطليّ بالزنك من خزانة على منبسط الدرج، يضعه على البساط أمام المدفأة، ويصبّ فيه أربعة دلاء من المياه، اثنان منها دافئان والآخران باردان. كنت أعلم أن هذا الحدث يعلن انتهاء يومي. ثم أخلد إلى الفراش في الغرفة الصغيرة المُلحقة بغرفة الدراسة، وتمكث كايث في غرفة مجاورة. إن كان مزاجها وردياً وهي تدنّرني فإنني أنام سريعاً. وإن جافاها ذلك المزاج فإنني أظل مستيقظة مدة طويلة، أتساءل إن كانت أمي ستأتي لتتمنى لي ليلة طيبة. لكنني لم أعوّل كثيراً على مجيئها. على أنها عندما كانت تأتي، من حين إلى آخر، أجدها في كامل أناقتها ترتدي ثوب المساء مكشوف الصدر، يزيّن كتفها بعض الزهور، ويهفهف حولها نسيمٌ عطر. ثم تمسّ تنورتها الألواح الخشبية حول سريري فيصدر عنها حفيف. في تلك الأوقات دائماً ما ارتدت ثياباً بيضاء ووضعت زهوراً حمراء. وعندئذٍ كنت أنام وكأن ملاكاً جاء ليباركني.

عندما أعود بذاكرتي إلى الفترة إذ كنت فتاة في السادسة أو السابعة، أرى غرفة الدراسة القديمة ملاذاً آمناً ومريحاً قضيت فيه معظم أوقاتي. وغادرته، من حين إلى آخر، لأستكشف العالم في نزعات قصيرة أخضع لحماية مُشدّدة.

في الصباح، إن كان الجو صحواً، تأخذني كايث إلى الحديقة التي شغلت وسط الميدان. لم يُميّز تلك الحديقة سوى تواضع الحال، لكنني سمعت أُمي تقول لكايث إننا سنكون «في أمان» هناك. وأظن أننا كنا كذلك، حيث أحاطت بنا القضبان الحديدية السميكة لسور الحديقة، ولم يرتدّها سوى بضع فتيات يسرن برفقة مُربّياتهن مثلما أسير برفقة مُربّيتي. لم أعرف منهن سوى سالي جايلورد. عرّفتني بها كايث قائلة إنها المُبجّلة سالي جايلورد، وإن بإمكانني أن أقول لها «صباح الخير» فقط لأن أبي لن يرحّب بالمزيد. سألتها عن السبب وراء ذلك فأجابتنني: «من قلّ كلامه قلّ خطؤه. ومن لا يطرح الأسئلة لا يسمع كذباً».

جعلتنني هذه الإجابة أرغب في أن أطيل الحديث مع سالي جايلورد، لكنني أحجمت عن فعل هذا مدة طويلة. كانت، في ما بدا، الفتاة الوحيدة التي تستمتع بوقتها من بيننا نحن الفتيات اللاتي نرتاد الحديقة. لم تُسرّ مثلنا، بل دائماً ما كانت تركض خلف طوقٍ أو تقفز حبلاً، تتحدث إلى المُربّية بصوت عالٍ يبدو فيه الحماس، أو تغنّي. اختلفت ثيابها عن ثيابنا أيضاً. لا بد أن الفتية السّعاة، الذين يُصفّرون وهم يمرّون بقضبان الحديقة، رأونا جماعة مُضجرة من الفتيات الصغيرات، ما عدا سالي التي امتازت ثيابها، مثل سلوكها، بالإشراق. لم نرها في الشتاء، إذ كانت تظهر في مايو وتختفي بانتهاء الخريف مثل السنونوات. قالت كايث إن والدها اللورد بيرندج يأتي إلى المدينة في موسم الصيف فقط. لقد حُملت على الاعتقاد أن سالي جايلورد تتجاوز الحدّ. لكنني لم أعِ كم أن تلك الفتاة ذات تأثيرٍ بالغ الخطورة حتى ذلك الصباح، إذ مرّ بالقضبان صبي القصّاب، يحمل على رأسه صينية لحم ويصفّر، فصفّرت مثل شحورٍ تشاركه النغمة. توقف الصبي عن السير، لكنه واصل الصفير. وهناك وقفاً، هي وراء القضبان مثل طائرٍ سجينٍ قفصٍ وهو خارجه مثل طائرٍ حرٍّ، يُصفّران في تناغم.

عندما انتهيا لَوْح الفتى بيده قائلًا: «العوافي!».

لَوّحت سالي له بدورها وابتسمت قائلة: «العوافي يا فتى!».

اعترتني الدهشة أنا وفتاتين تقفان بالجوار. وخشينا أن يتخطّى الفتى تلك القضبان العالية، بطريقة ما، مُتجّهاً نحونا. لا أعلم حقاً كيف كنا سنتصرف

إن حدث هذا فعلاً. لكنه بدأ صغير لحن جديدٍ وابتعد يبدو عليه الابتهاج حالما ركضت نحو سالي مُربّيتها، التي كانت تجلس في مقعد بعيد قليلاً تتحدث إلى كايِت.

لقد أمسكتُ بذراع سالي، وخذلتها الكلمات إذ عنّفَتْها قائلة: «أتمزحين؟! أتمزحين?!».

هرعت كايِت تتبعها لصدّ هجوم العامّة إذا لزم الأمر، وقالت: «من أين تعلمتُ هذه النغمة؟».

أجابتها المُربّية في أسي: «لقد سمعتُ اللورد يُصفرّها. إنه يشجعها على مثل هذه التصرفات».

في ذلك الصباح عدنا إلى المنزل وقد تخأفتُ لدينا انطباعات سلبية حول عائلة اللورد بيرندج.

في أوقات ما بعد الظهرية الصحوّة اعتادت أُمي التجول بالعربة فيكتوريا في المتنزه. ومن حين إلى آخر كانت تصطحبني معها. من أجل تلك المناسبات كنت أرتدي أفضل ثيابي، وكان عليّ الجلوس بجوار أُمي والامتنال لأرفع آداب السلوك. لم تكن وضعيات الجلوس المريحة مسموحة. كانت أُمي نفسها تستقيم في جلستها تعلوها مظلة، وتظل ساكنة لا يتحرك سوى رأسها. رغم ذلك فقد أبهجتني تلك المناسبات وأثارت حماسي، إذ كنت أرى الكثير من الناس المتأنّقين، وجميع أنواع العربات الفاخرة، يقود خيولها البديعة حوذيون ماهرون. من حين إلى آخر عندما تقترب إحدى العربات من عربتنا تقول أُمي: «انحني للتحية». وبينما تمر عربة تلو أخرى تحني رأسها فأحني رأسي بدوري. في بعض المرات لاحظت أنها عندما تقول لي «انحني للتحية»، ثم تنحني كلتانا، لا يبادلنا رُكاب العربة التحية انحناءً. وبالمثل قد ينحني رُكاب إحدى العربات لنا تحيةً ولا ننحني لهم بالمقابل. لقد فهم عقلي الطفولي أن العالم مكان معقّد ومُلتبس، لكن هذا الأمر لم يُربكني. بل وجدت فيه متعةً.

ذات أصيل، بعد فترة وجيزة من صغير سالي في الحديقة، عرجنا أنا وأُمي بمنزل إحدى صديقاتها كي نصطحبها معنا إلى المتنزه. في العربة انحشرت بينهما تهتز مظلّتان فوق رأسي. استغرقت السيدتان في حديث لم أفهم منه

شيئاً. لكنني سمعت أُمي من حين إلى آخر تقول «إن إحداهن تكبر»، «الصغار يفهمون كل شيء»، وعبارات من هذا القبيل. أَدِينا الانحناء المعتاد بابتسامة، والانحناء دون ابتسامة، والا انحناء على الإطلاق. ثم ظهر رجل بالغ الأناقة على صهوة فرس أغبر فاخر، كان في رأيي بالغ الوسامة. لحظتُ أن استجابة مرافقتي لمرآه اختلفت عما أبدتاه عند رؤية جميع من سواه في المتنزه في ذلك اليوم.

ارتبكت كلتاهما فجأة، وقالت أُمي بصوت خافت: «إنه بيرندج».

قالت صديقتها: «أظن أننا يجدر بنا التعامي عنه».

أجابتها أُمي وهي تكاد تتنهد: «أوافقك الرأي».

كان ذلك الرجل والد سالي جيلورد. دققت النظر باهتمام بالغ إليه؛ راكب الفرس القادم، أتوقع أن أسمع في أي لحظة الأمر «انحني». ابتسم اللورد بيرندج، رفع قبعته، وتابع طريقه. لكن الأمر لم يصدر، وثبتت السيدتان نظرها على منكبي دوكات.

سألتُ: «هل كان هذا والد سالي جيلورد يا أُمي؟».

أجابتني بصرامة قائلة: «أنا لا أعلم من يكون هذا الرجل».

3

بعد هذا الحدث بمدة ليست بالطويلة تركتني كايت، وكان ما تسبب في مغادرتها أمر سخيف حقاً. لقد أخبرتكم بمصباح البارافين الذي يتدلى فوق الطاولة في غرفة الدراسة، لكنني لم أخبركم أن سقف تلك الغرفة زينته زخارف جصية رائعة. كان في منتصفه ملاك صغير جَدِل، لا تغطيه سوى قطعة قماشية صغيرة على الطريقة التي تُصوّر بها الملائكة الصغار. وقد نُبت الخُطّاف الحديدي الكبير، الذي تدلّى منه المصباح المُعلّق بالسلاسل، في سُرّة الملاك المسكين. في جلساتنا الشتوية الدافئة علا الصغير رأسينا يُنقلبه ذلك الحمل، ويجعلني من حين إلى آخر، عندما يشغل الأمر انتباهي، أتلوّى شفقةً عليه.

حلَّ الخريف التالي للصيف الذي صدحت فيه سالي بالصغير في الحديقة ولم تجب أمي وصديقتها، لسبب ما، تحية اللورد بيرندج. كنت أعيش فترةً مُضجرة، فقد اختفت سالي ولم تعد أمي تتجول بالعربة في المتنزه. لقد انتهى موسم الصيف، لكن هذا لم يعنِ مغادرة أبي وأمي المدينة مثلما تفعل معظم العائلات. كان معناه أن أمي لا ترغب في الظهور بعد الظهيرة وسط العامة من الشعب، الذين بقوا كي تظلَّ لندن عامرة قدر ما يمكن.

في إحدى أمسيات أكتوبر في ذلك الخريف كنت أنا وكايت جالستين في غرفتي، حيث تتقد نيران المدفأة والمصباح مُضاء. بعدما تناولنا الشاي أخذت كايت تقرأ في كتاب مهترئ، يتضمن حكايات خرافية أعرفها جميعها تمام المعرفة، حتى إنني أستطيع سردها عن ظهر قلب من أي موضع تُقرَّر التوقف عنده. انتابني الملل، وأظن أنني لم أكن أستمع إليها حتى. ملتُ في المقعد الخوصيِّ إلى الوراء، أسترخي على نحوٍ كان ليُلحِق بي تقريع أمي، عيناى على السقف. وسرعان ما وقعتا على الخطاف المثبت في سُرَّة الملاك الصغير.

قاطعتُ قراءتها بفضاظة قائلة: «ما وظيفة السُرَّة؟».

انتفضت كايت المسكينة، التي كانت تبدو ناعسة وتقرأ كأنها مَكْنَة. انزلقت نظارتها عتيقة الطراز إلى طرف أنفها، ونظرت إليَّ من فوقها يعلو الذعر وجهها.

قالت: «لا تسأليني هذا النوع من الأسئلة يا آنسة سارا».

لقد باغتها سؤالي وأثار ذعرها، فأدركت أنني ارتكبت إثماً عظيماً. أثار هذا انزعاجي لأن كثيراً ما قالت لي كايت: «من لا يطرح الأسئلة لا يسمع كذباً». وكثيراً ما سمعتُ أمي تقول همساً: «الفتاة ليست طفلة صغيرة كما تبدو»، وأشياء من هذا القبيل. لهذا شعرت بغتةً أنني بقيت خارج بقعة تملؤها حقائق ساحرة. انتابني غضب شديد حتى إنني قفزت من مقعدي، وقفت أمام كايت أقبض يديَّ، وقلت متجهمه: «أخبريني يا كايت! إن بجسدي سُرَّة. أخبريني ما وظيفتها».

- ستعلمين كل ما يخصُّ تلك الأشياء عندما تكبرين. إليك عني يا آنسة سارا. ليس من شأني أن أخبركِ بهذه الأشياء.

- ربما سأموت قبل أن أكبر. هكذا لن أعرف أبدًا.

أكدت لي وهي تستعيد بعض حزمها: «لن يضرُك عدم معرفة هذا الأمر في شيء».

عندئذ سمعنا وقع خطوات تيتلي المتثاقلة في الممر، ودخل الغرفة بدلو الفحم.

دفعني شيطاني إلى أن أقول: «إن لم تخبريني يا كايت فسأسال تيتلي». أتذكر تيتلي شابًا بهي الطلعة مرخًا، على وجهه ابتسامة فظة يكبحها فقط احترامًا لوالدي كما ينبغي. ذات يوم صادف أن كنت في الردهة فيما أبي يستعد لمغادرة المنزل، وصاحب ذلك العبارات الرسمية والطقوس المعتادة. مشط تيتلي كتفيه بفرشاة الملابس، ناوله قبعته، وفتح باب المنزل ثم باب الهانسوم. بعدما غادرت العربة وعاد تيتلي إلى الردهة رأني أقف هناك، وغمز لي بعينه. صدمتني هذه الإيماءة حتى النخاع، كما يقول الشباب المعاصرون. لقد شعرت أن تيتلي لا يحق له أن يغمز لي، خاصة لأنه بتلك الغمزة أخبرني بوضوح أن الطقوس التي تصاحب فعلًا بسيطًا مثل مغادرة أبي المنزل هي محض هراء. كنت أعلم أنني يجب أن أشعر بالغضب عند إبدائه أي تعليق سلبي على سلوك أبي. لكنني لم أغضب، بل شعرت بالسعادة. لقد وضع أحد البالغين ثقته الكاملة فيَّ بإيماءة وجيزة. قبل ذلك الوقت لم يسبق أن اختبرت شيئًا كهذا، وكان الشعور بالتواطؤ مشوقًا.

والآن في لحظة الاضطراب التي أعيشها أنا وكايت دخل تيتلي الغرفة، فصحت قائلة إنني سأسال تيتلي إن لم تُجب سؤالي.

وضع الفحم في السطل، أشعل النيران، ثم سأل: «ما الأمر يا كايت؟ ماذا الذي تريد معرفته؟».

صاحت ميرسي غاضبة: «اهتم بشؤونك الخاصة. لا داعي إلى أن تتلأأ هنا بعدما أديت مهمتك. فلتذهب الآن».

أجابها بلطف: «حسنًا، أنا ذاهب. (التقط دلوه قاصدًا الباب وقال) ليلة سعيدة يا آنسة سارا».

لم أسمح بذهابه بتلك البساطة، قلت: «إنها لا تريد إجابة سؤال بسيط. إنها لا تريد أن تخبرني ما وظيفة السُرّة».

غطّت ميرسي كايت أذنيها بيديها وبدت هَلِعة، لكن تبتلي ابتسم. التفت وهو يضع يده على مقبض الباب الخزفي ليقول: «هيا يا كايتي فلتخبريها». ثم سمعناه يبتعد قاطعاً الممر.

لَفْنَا الصمت بضع لحظات، ثم تأوهت كايت قائلة: «يا إلهي! تسألين رجلاً هذا السؤال يا آنسة سارا؟!».

أضافت كلماتها بُعداً جديداً للأمر. نظرت إليها بفضول نافذة الصبر، لكنها واصلت شكواها: «يا إلهي! سيكلفني ما حدث وظيفتي! أؤكد لك!».

عندئذٍ انتابني ندم شديد. لم أرد أن تخسر كايت وظيفتها لأن هذا يعني خسارتي كايت. ركنت إليها مثل نعجة صغيرة تتمسّح بأخرى كبيرة، وناشدتها ألا تظنني سيئة.

قلت: «إن طرحت سؤالاً ليس عليّ طرحه فلا تجيبيني».

لكن حالها أيضاً قد تبدّل، فقالت وهي تحيطني بذراعتها: «إن أصررت على المعرفة فسأجيبك بأنها الموضع الذي كان يربطك بوالدتك».

لم تقل المزيد، وقد أثار جوابها حيرتي أكثر من لو لم أحصل على أي جواب. لم أفهم ما قالت أتمّ الفهم ولم أستطع مواصلة الحديث عن الأمر. حار عقلي وشعرت أنني أخطأت التصرف وتسببت في الأذى. بعد ذلك بقليل أتى تبتلي بمياه الاستحمام. وبينما أتحمّم بذلت أنا وكايت جهدنا كي نبعد نظرنا عن سُرّتي.

في تلك الليلة بينما أنا مستلقية في سريري تضيء السّهارة غرفتي إضاءة خافتة ظللت أتأمل جواب كايت ولم أفهم، قبل كل شيء، لم يجب أن يُربط المرء بوالدته. أو، إن كان هذا ضرورياً، كيف يمكن أن يُربط المرء من نقرة مسطحة في منتصف جسده؛ نقرة مسطحة استقرت بها مياه الاستحمام مثل قطرة ندى داخل زهرة. في تلك الليلة، التي اتضح أنها كانت إحدى ليالي الخروج ليلاً، جاءني أُمي ترتدي الأبيض كالمعتاد.

عندما جلستُ على حافة سريري نهضتُ وعانقتها، لكنها ابتعدت على الفور وقالت بابتسامة خافتة: «لا، لا يا صغيرة. سيفسد مظهري».

وقفتُ تنظر إليّ فبرز طولها والأبيض يلفُّها ببريقه، أما زهراتها فبدت داكنة في ضوء الشموع الخافت.

قالت: «لقد جئتُ فقط لأقبلكِ. ظننت أنني سأجدكِ نائمة».

- أنا لا أستطيع النوم. أظل أفكر وأفكر وأفكر.

- ما الذي يقلقكِ يا صغيرة؟ أسرعِي في إخباري لأنَّ العربة في انتظاري.

- لا أستطيع أن أفهم كيف كنتُ مربوطة بكِ عبر سُرَّتِي!

عندئذٍ اشتعل البارود! عادةً ما كانت أُمِّي، المرأة طويلة القامة، ترتدي ثياباً تبرز طولها. الآن رأيتها تتضخم حيث تقف أمام السرير، وكأنها تمثال امرأة ساخطة تعرضت للإهانة.

قالت مثل ممثلة تراجيديا زُلزلت الأرض أسفل قدميها: «ماذا قلتِ؟».

استبد بي الخوف. إن كنت قد شعرت في غرفة الدراسة بأنني تجاوزت حدود الأدب عند حديثي مع كايت فالآن انتابني الشعور بأنني وحش ارتكب فظاعة. ارتميت على السرير وغطيت رأسي بثيابي. لكن عبثاً فعلت، فقد أزالها أُمِّي بصرامة وأمرتني قائلة: «انهضي».

بعدما أطعتها وأنا أرتجف كرَّرت سؤالها: «ماذا قلتِ؟».

أجبتها همساً: «لقد أخبرتني كايت أنني كنتُ مربوطة بكِ عبر سُرَّتِي».

الآن ظهرت كايت المسكينة عند الباب يبدو عليها الاضطراب، تلعثمتُ:

«سيدتي...».

أجابتها أُمِّي غاضبة: «غادري الغرفة».

قلتُ باكية: «لم يكن هذا خطأ كايت يا أُمِّي. لقد أزعجتُها وأشقيتها. سألتها

عن هذا الأمر، لكنها لم ترغب في إجابة سؤالي. ثم أتى تيتلي...».

شهقت أُمِّي: «تيتلي!».

عندئذٍ شعرت أن كل كلمة نطقها كانت تفرقني في مستنقع لن أستطيع النجاة منه. ثم أتى أبي إلى الغرفة يرتدي اللونين الأبيض والأسود ويسير بتؤدة.

قال: «لا يجدر بنا أن نتأخر على العربة يا فلورنس. لماذا تتحدثين عن تيتلي؟ ما الذي يحيكه الفتى الآن؟».

تجاهلته أمي وثبتت نظرتها الغاضبة عليّ قائلة: «كنتِ تقولين» ثم أتى تيتلي».

- أجل يا أمي. قلت له إن كايت لا تريد أن تجيب سؤالي فقال إنها يجدر بها إجابته. ثم أزعجتها مجددًا فقالت إنها الموضع الذي رُبطت منه بأمي.

- هل كان تيتلي هنا عندما قالت ذلك؟

- لا يا أمي. لقد أضاف الفحم إلى النيران وغادر.

هتفت على نحوٍ دراميٍّ: «حمدًا للرب! حمدًا للرب على ذلك!».

تطلعتُ إلى مُشفقة بضع لحظات وكأنها تنظر إلى شخص انتزع من فم كارثة كادت تودي به، ولأن حديثها إذ قالت: «استلقي وحاولي النوم».

ثم أمسكت بذراع أبي ليخرجنا من الغرفة. عند عتبة الباب سمعتها تقول لكايت: «لا تذهبي إلى غرفة الأنسة سارا الليلة».

بعد ذلك لم تأتِ كايت المسكينة إلى غرفتي سوى مرة واحدة فقط. في الصباح أحضرت إحدى الخادِمات فطوري، ثم أتى والدي ترافقه كايت باكية. كانت ترتدي ثياب الخروج، فعلمت في الحال أنها راحلة إلى الأبد. وشرعت في البكاء بدوري.

تأملنا أبي نحن الباكيّتين بضع لحظات، ثم قال: «انظري إلى نتائج مشاغبتكِ يا سارا. لقد تسببت في رحيل كايت عن المنزل رحيلاً مُخزياً، وتيتلي أيضًا. لقد غادر تيتلي، وهأنأ حضر كايت إلى هنا كي تتلقى اعتذاركِ قبل رحيلها. لقد أسأت إليها إساءة بالغة».

ألقيت بنفسي بين أحضان كايت واستحال بكائي نواحًا، قلت: «آه يا كايت! أنا آسفة. لم أقصد اقتراف إساءة».

قالت وسط نشيجها: «لا بأس. بالطبع لم تقصدي فعل ذلك يا زهرتي الوردية المسكينة. إنها جزء من جسدنا، ولا بد أن نتساءل عنها عاجلاً أو آجلاً».

قاطعها أبي قائلاً بحدة: «يكفي هذا يا كايث. لم نأت بكِ إلى هنا لتناقشي الأمر، بل لتتلقى اعتذار سارا».

مدَّت الكارثة كايث بالشجاعة، فقالت: «اعتذار! ماذا فعلت كي تعتذر؟ أنا لا أريد اعتذار الطفلة».

أجابها أبي بجفاء: «إنك لا تظنين أن ما تريدينه يُشكّل فارقاً في الأمر، أليس كذلك؟ أنتِ هنا الآن لأنه على أي طفلة حسنة التهذيب أن تقدّم اعتذارها إلى من تسببت له في الأذى حتى إن كان خادماً. لقد قالت الأنسة سارا إنها آسفة، إذن فقد انتهى الأمر».

عانقتني كايث بقوة، وغادرت الغرفة مُتّشحة بالسواد يبعث مظهرها على الضحك. لكنها أثارت إعجابي كثيراً في تلك اللحظة. لقد وقفت عند الباب، ثم التفتت تنظر إلى أبي وقالت: «أنت لم تعد سيدي!».

ثم خرجت وتبعها أبي.

لم تُذكر تلك الواقعة في حضوري مرة أخرى قط. بعد بضعة أيام أتت أمي إلى غرفة الدراسة، حيث جلستُ حزينّة أحملق إلى كتاب الحكايات الخرافية، وقالت: «هذه هي الأنسة ويل. ستبدئين تلقي دروسكِ على يديها. امنحي الأنسة ويل انتباهكِ واحترامكِ».

عندما دخلت أمي الغرفة ووجهت حديثها إليّ وقفتُ كما ينبغي للفتيات المهذبات التصرف. والآن كنت أنظر إلى الأنسة ويل عابسة، يملؤني الاستياء جرّاء رحيل كايث ووحدتي. ثم ابتسمتُ ساخرةً وقلت بوقاحة: «يبدو لي أن اسمها الأنسة أيل».

قرّعتني أمي: «هذا يكفي. لن تتجاوز الأنسة ويل عن أي سخافات».

لم أكرث لحديثها الغاضب لأنني عندما ابتسمت وأبدت تعليقي السخيف التقت عيناها بعيني الأنسة ويل وبادلتني الابتسامة. أخبرتني ابتسامتها أنها جعلتني موضع ثقّتها على نحوٍ أعمق من غمرة تيتلي.

كان اسم الأنسة ويل الأول هو مارجريت. لكنني عندما توقفت عن دعوتها الأنسة ويل، بعد ذلك بسنوات، راقها أن أدعوها ماجي. كانت الابنة الوحيدة لمُعَلِّم ريفيٍّ. قضى نحبه وتركها وحدها في العالم بعدما أدت دور طبَّاخته، ومدبرة منزله، ومرافقته، إذ ماتت والدتها في صغرها. تعلمتُ منه بعض اللاتينية والكثير من الفرنسية والأدب الإنجليزي، الذي شغفت به شغفًا شديدًا. تبيّنت الأنسة ويل في السابعة عشرة. رحل والدها تاركًا لها بضع مئات من الجنيهات تمكّن من ادخارها. ارتادت مدرسة في فرنسا تتلقّى دروسًا في الرسم والموسيقى. ظلّت هناك ما بقي ما تملك من مال. وكانت في التاسعة عشرة عندما أتت إلى منزلنا في ميدان بورتمان.

4

رغم أن الأنسة ويل نالت إعجابي عند نظرتي الأولى إليها فيجب ألا يُستنتج أنني أظهرت هذا الشعور. عندما صعد الدرج فتى شاب طويل يرتدي الزي الرسمي ويحمل صندوقها ذكّرني أن عالمي المستقر قد اضطرب. فأنا قلّمًا رأيت أُمي وأبي وسادت الرسمية علاقتي بهما، حتى إن تيتلي وكايت كانا أكثر أهمية منهما في حياتي. لهذا نظرت بلا لطف إلى الفتى الشاب الجديد، الذي تخضب وجهه بحُمْرة الجهد، وهو يضع الصندوق أرضًا. سألته: «من أنت؟».

- اسمي ستوت يا آنسة...

قالت مُربّيتي الجديدة: «الآنسة سارا».

- اسمي ستوت يا آنسة سارا.

- حسنًا يا ستوت. رجاءً خذ صندوق الأنسة ويل إلى غرفة نومها.

لقد استخدمت سلطتي الأمّرة لأن الحزن والخوف استبدّأ بي. كنت خائفة ألا أستطيع تكوين رابط قوي مع ستوت والأنسة ويل.

عندما رحل قالت الأنسة ويل: «الآن أريني كل شيء».

أجبتها عابسة: «ليس هناك ما أريك إياه».

صاحت مَرَحَةً: «ماذا؟ لا شيء على الإطلاق؟!».

- ثلاث غرف فقط.

- حسنًا، لنلقِ نظرة عليهم. هلا نفعل؟

ألقينا نظرة على الغرف الثلاث وأثاروا إعجابها كثيرًا، قالت: «يا للحظ السعيد! جميع الغرف تشرف على الميدان! وما أجمل الميدان اليوم! انظري إلى تلك الأشجار!».

كان الجو رائعًا حقًا في واحد من أفضل الأيام الخريفية. اكتست أشجار الدلب القائمة في الميدان باللون الذهبي، وصَفَت صفحة السماء الزرقاء. تحرَّكت قَلَّة من الحناطير وعربات هانسوم حول قضبان الحديقة المركزية، تثير نذرًا من الغبار.

قالت الآنسة ويل: «يعجبني هذا المنظر. أطلَّت غرفتي في فرنسا على أحد الميادين، لكنها كانت ضيقة على النقيض من هذه الغرف الثلاث. ولم يكن الميدان فسيحًا مثل ذاك أو مُنظَّمًا مثله. بل شاعت فيه الفوضى وقامت شجرة في منتصفه، حيث تجلس عجوز أسفل مظلة مُخطَّطة، تبيع الدجاج والفواكه والخضراوات. سأريك لوحة له. تعالي لتريها».

مدَّت يدها كي تمسك بيدي، لكنني أبيت قبولها. وتبعتها إلى غرفة النوم المخصصة لها، حيث فتحت قفل صندوقها لتخرج محفظة كبيرة تملؤها رسومًا بالألوان المائية. لم تكن مُتقنة، لكنني لم أدرك ذلك حينئذٍ لأن الرسوم كانت زاهية تبعث على البهجة.

قالت: «ها هي اللوحة. ألا ترين أنه ميدان صغير لطيف؟».

رغبت بشدة في الاحتفاظ باللوحة، لكنني لم أعرب عن رغبتى. قلت على مضض: «أجل».

- سنضع بعض هذه اللوحات في غرفة الدراسة.

غطَّى جدران غرفة الدراسة ورقُّ الحائط المطلي بالورنيش، لونه بني فاتح لا تزيّنه النقوش، كان من القدم بحيث أصبح ملمسه طريًا ولم تُعلّق عليه أي لوحات. اختارت الآنسة ويل قرابة عشرة رسوم وأعطتهم لي مع صندوق مشابك اللوحات.

قالت: «الآن علّقي اللوحات حيث ترغبين فيما أفرغ صندوقي. (أعطتني شرائط ورقية ضيقة رمادية ومقصًا، ثم أردفت) يمكنكِ قصّ إطارات ووضعها حول اللوحات».

- لم تسمح لي كايت باستخدام المقصات قط.

- ألم ترغبِي في استخدامها رغم كل شيء؟

- بلى.

- حسنًا، لقد حصلتِ على المقصات الآن.

- ماذا إن جرحت إصبعي؟

- ستعلمكِ تلك التجربة أن تتحلي بالحذر. وعلى الأرجح أنك لن تجرحي نفسك في المرة القادمة.

صنعتُ إطارات اللوحات دون أن أجرح نفسي. سحبت كرسياً في مختلف أرجاء الغرفة، وثبتُ اللوحات إلى الحائط. استغرقت هذه المهمة وقتاً طويلاً، وعندما خرجت الآنسة ويل من غرفتها كنت أنهي مهمتي. حينئذٍ أصبحتُ أكثر تهيؤاً لأن أَسَمَ باللطف سلوكي تجاهها.

قلت: «أرى أن اللوحات رائعة».

- أجل، تضيفي ألوانها رونقاً، وقريباً سنضع الكتب.

لم تثر الكتب اهتمامي لأنني لم أعلم شيئاً عن عالم الكتب. كان مجلد الحكايات الخرافية موضوعاً على المقعد المجاور للنافذة، ولم أملك كتاباً سواه بسبب غرابة الأفكار التي اعتنقها والداي في ما يتعلق بتعليم الفتيات. لكنها لم تكن غاية في الغرابة في ذلك العصر. ولولا واقعة السُرة الشائنة لطالت مرافقة كايت لي دون كتاب سوى ذاك. لكنه كان وسيلتي لتعلُّم القراءة التي لم يتولَّ أحد تعليمي إياها. لا أعلم بالضبط كيف تعلمتها. لكن هذا حدث، بطريقة ما، بواسطة ذلك الكتاب القديم. لم تستطع كايت الكتابة ولم أتعلمها بدوري. هكذا كان أمام الآنسة ويل صفحة بيضاء تنقش عليها ما تشاء. عندما قالت إننا سنمتلك الكتب قريباً حثّني التهذيب، الذي غُرس في عقلي رغم كل شيء، على أن أسألها أي كتب تعني.

أجابتنني مبتهجة كأن الحياة دون قراءة الكتب مستحيلة تمامًا: «جميع أنواع الكتب. يا إلهي! بالطبع يجب أن نمتلك الكتب. لديّ صندوق خشبي قديم مملوء بها يتجول في موضع ما على الطريق بين فرنسا وهنا. سيصل عاجلاً أو آجلاً. ثم سنحتاج إلى كتب المقررات التعليمية لنقرأها، وكتب التمارين لنؤدي الفروض الدراسية. يلزمنا حبر وأقلام، وممحاة ومساطر، ودفاتر الرسم وألوان الشمع والألوان المائية والفرشاة، وبعض الكتب الموسيقية. سنحظى بمتعة لا تنتهي. لقد منحني السيد راينبرو الإذن بشراء كل ما سنحتاج إليه. سنذهب في هذه الظهيرة لنبدأ رحلتنا».

قالت كلماتها بحماس جعل من هذه الأنشطة مغامرات ممتعة فشعرت برغبة شديدة في الخروج على الفور. اقترحت عليها ذلك، لكن في تلك اللحظة سمعنا طرقاً على الباب وضجيجاً على الدرج.

قالت الأنسة ويل: «لا بد أن هذه هي المكتبة. لقد أخذ السيد راينبرو القياسات ووعدني بإرسالها صباح اليوم».

ركضت لفتح الباب ودخل الغرفة ستوت ورجل يرتدي مئزرًا صوفياً أخضر، يتعرقان ويعلو صوت أنفاسهما. أسندا المكتبة إلى الحائط المقابل للمدفاة. كانت ذات أرفف مفتوحة، ومصنوعة من الخشب المطليّ بالأبيض. اكتسبت الغرفة إطلالة جديدة في وجودها هي والألوان المائية على الحوائط. لقد انتقل حماس الأنسة ويل إليّ. وشعرت أنني على أعتاب أحداث رائعة ومُشوِّقة.

قالت: «أرى الآن أننا لا نقتصنا سوى الخروج وابتياح بعض الزهور».

كتب ولوحات وزهور! لم تُزَيّن الزهور غرفة الدراسة من قبل قط. وكان ذلك اليوم لا يُنسى. فعلى الرغم من إشراق الصباح ودفء بداية الظهيرة فإن البرودة أصبحت قارسة بحلول موعد الشاي. لهذا قالت الأنسة ويل إن من الأفضل أن نشعل نيران المدفاة. فأخبرتها أن هذا غير ممكن لأن اليوم ليس الأول من نوفمبر. لقد حَكَمَ إشعال المدفاة في غرفة الدراسة، مثل كل شيء في منزلنا، قواعد لا يمكن خرقها. كانت المدفاة تُشعل أول مرة في الأول من نوفمبر، حتى الحادي والثلاثين من مارس إذ تُشعل آخر مرة. إن صادف أن كان الثلاثون من أكتوبر يوماً شديداً البرودة فلن يُشكّل هذا أي فارق؛ لن تُشعل

المدفأة. وإن سطعت الشمس في اليوم الأخير من مارس وأثبتت وجودها فإن هذا لن يُشكّل أي فارق؛ ستُشعل المدفأة. لقد سمعت أبي ذات مرة يقول، رغم أنه لم يكن مُولعًا بالتشبيهات، إن القواعد والضوابط مثل قضبان السكك الحديدية لا يمكن للحياة أن تستقيم دونها. لهذا تحدّد لكل الموجودات مكانها ومكانتها -من بينها، كما أظن، الأشخاص الذين لا يجب أن تنحني أُمي تحيةً لهم- وقد لزم الجميع أماكنهم. وتخصّص لكل شيء وقتًا، بما في ذلك إضاءة مدفأة غرفة الدراسة، وكان كل شيء يحدث في موعده المحدد.

والآن عندما ذكّرتُ الأنسة ويل بأن من المستحيل إشعال المدفأة ضحكت ضحكة خافتة ودقّت الجرس. بعد عشر دقائق أدّى الخادم الجديد ستوت اللازم. ثم جلست أنا والأنسة ويل بجوار المدفأة وكأسا الشاي على طاولة منخفضة تقوم بيننا. ساد جلستنا الدفء والبهجة. أُسدلت الستائر وأضاءت اللوحات الحوائط. زيّن الطاولة أصيص فخاري يحوي زهور الأقحوان البرونزية التي ابتعناها صباحًا، وازدانت المكتبة الجديدة ببعض الزينة. هناك جلسنا تصحبنا فرقة الخشب المتقد، وانبعث الدخان من ينابيع الفحم الحارّة. لم ينقصنا سوى أن نرفع تنورتينا لتغطيا رُكباتنا كي نشبه صديقتين مُسنّتين تستمتعان بوقتتهما أيما استمتاع.

رغم ذلك وخزني ضميري. ليس فقط بسبب الدفء السارّ الذي لفّنا في غير أوانه، بل ولأننا لم نكن جالستين إلى الطاولة. عندما كانت أُمي تستقبل زائرتها كنت أدعى إلى غرفة الاستقبال، من حين إلى آخر، كي أنحني تحيةً للضيقات وأتلّق منهن بعض الكلمات. كنّ يملأن المقاعد جالسات مُستويات، يوازنن الصحن والأطباق بمهارة على أصابعهن المتبيسة، ولم يجلسن إلى الطاولة. لكنني رغم مكوثي في غرفة الدراسة كان عليّ الجلوس إلى الطاولة. لقد نصّت القواعد والضوابط على أن ظهري يجب أن يظلّ مستقيمًا، وإن ارتكبت خطيئة الاسترخاء في جلستي تسرع كايِت إلى تأنّيبِي.

لهذا جلستُ في مزاج سعيد لكن عقلي حائر، مسترخيةً في مقعد من الخوص أمام النيران الحرون، التي لا تتخذ نسقًا واحدًا.

سألتني الأنسة ويل: «أنتِ في السابعة، أليس كذلك يا سارا؟».

لم تقل الأنسة سارا، انتبهوا إلى هذا الأمر لأنني لم أكن أعده.

- أجل يا آنسة ويل. بلغت السابعة في الأول من مايو.

- في أي وقت اعتدتِ الخلود إلى الفراش؟

- في الساعة السادسة.

- من الأفضل أن نجعل موعد النوم في السابعة لبعض الوقت، ثم سنؤخره إلى الثامنة.

حدّقت إلى الآنسة ويل وهي جالسة ترتشف الشاي في سكينه، وفجأة لاحظت في عقلي فكرة رهيبة: لم تكن خائفة من أبي وأمي! لقد عاشت كايث المسكينه في فزع دائم منهما. لا يزال صياحها قائلة «سيكلفني ما حدث وظيفتي!» يتردد في رأسي. لقد أحكما قبضتهما عليها، وفي كل ما تفعله كانت تسعى إلى تفادي إثارة غضبهما. كنت أعلم أنني أخشاهما أيضاً. بالطبع كان يسرّني أن تأتي أُمي إلى غرفتي تعبق برائحة زهور الميموزا، وأن تميل نحو سريري كي تقبلّني وتتمنى لي ليلة سعيدة؛ وأن يبتسم لي أبي ويلقي دعاة وهو يمنحني هديتي في عيد ميلادي أو عيد الميلاد المجيد. بسبب تلك اللحظات لم يكن خوفي منهما شديداً مثل كايث، وقد ارتكز على إدراكي إدراكاً ضبابياً مُبهماً أن رفقتي بهما لها حدود، وأن هناك عالمين: عالم البالغين وعالم الفتاة الصغيرة؛ وأنا، لهذا، لم نعش حقاً في العالم نفسه. والآن، تحدّث الآنسة ويل القواعد والضوابط، التي تنص على أنني يجب أن أخلد إلى النوم في السادسة قائلة: «سنؤخره إلى الثامنة».

عندما رُفعت طاولة الشاي قالت: «أخبرتني أمكِ أنك قد تعلمتِ القراءة. الآن أودُّ أن أستمع إليك تقرئين».

أحضرتُ كتاب الحكايات الخرافية وأخذتُ أقرأ. كانت تلك أول مرة أجهر فيها بالقراءة لأن كايث بدورها كانت ضليعة في وضع القواعد والضوابط. ونصّت إحدى تلك القواعد على أنها من عليه القراءة لي وألا أقرأ لها أبداً. على أن الآنسة ويل أثنت على قراءتي رغم تلعثمي. بعد ذلك حدثتني عن فرنسا حتى موعد النوم. وضعتُ خريطة كبيرة لذلك البلد على الطاولة. لم تكن واحدة من تلك الخرائط المنقّرة التي تُطبع على الكتان وتُطلى بالورنيش وتُزود ببكرات، بل مُلوّنة بهيجة رسمتها بنفسها على ورق سميك. حدّثتني عن حياتها في الريف، عن معارفها، والأسواق والأنهار ومزارع الكروم التي زارتها

في العطلات، وبعض الحفلات والمسرحيات التي حضرتها. رأيت فرنسا بلدًا ينخرط من يعيشون فيه من الرجال والنساء في شؤون حياتهم مثل إنجلترا بالضبط، ولا شك أن هذا الانطباع هو ما أرادت الأنسة ويل أن تُخلِّفه لديّ.

أُوتِي بحوض الاستحمام في السابعة بدلًا من السادسة، ووقفت أنتظر أن تخلع عني الأنسة ويل ثيابي كي تحمّمني. لكنها لم تفعل. قالت إن الوقت قد حان لأن أتولى الاعتناء بنفسى دون الحاجة إلى مُربيّة. أطعتها بسرور يمتزج بالرهبة. وعندما استلقيت في السرير خلدت إلى النوم أسرع من المعتاد. لقد شعرت بالسعادة، وكنت آمنة في قرارة نفسى. أظن أنني للمرة الأولى في حياتي شعرت، دون أن أعى بذلك، أن لي ذاتًا مُستقلة لا تابعة.

الفصل الثاني

مكتبة

t.me/soramnqraa

1

في صباح اليوم الأول من عام 1856، إذ كنت في السابعة من عمري، جاءت أُمِّي إلى غرفة الدراسة فيما أنا والآنسة ويل جالستان نتناول الإفطار. لم أعتد رؤيتها في ذلك الوقت المبكر من اليوم، لهذا تساءلت إن كنت قد ارتكبت خطأً أتى بها إلى هنا. لكنها كانت تبسم ومزاجها رائع. بدا عليها الابتهاج، ورأيتها أكثر جمالاً من المعتاد. كانت آنذاك في الثامنة والعشرين من عمرها فقط، أصغر سنّاً مما ظنّها عقلي الطفولي.

فاجأتني الآنسة ويل إذ قالت فيما ننهض: «صباح الخير يا سيدتي الليدي». اتسعت ابتسامة أُمِّي، تخضبت وجنتاها سعادةً وقالت: «طالعتِ الجريدة؟».

- أجل يا سيدتي. اسمحي لي بتهنئتكِ.

- هل أخبرتِ الآنسة سارا؟

- لا. ظننت أنك قد تودّين أن تكوني أول من يخبرها بالأمر.

قالت لي أُمِّي: «لقد منحتِ الملكة والدكِ لقب «فارس» يا عزيزتي. أود منك أن تنزلي إلى الأسفل الآن كي تهنّئيه. قولي له: «صباح الخير يا سير ريتشارد. أتقدم بتهنئتك. هل يمكنكِ تذكر ذلك؟».

قالت الأنسة ويل: «يجب أن تهنئي والدتك أيضًا، فقد أصبحت الليدي راينبرو».

قلت جامدةً إذ إنني لم أفهم حقًا ماذا حدث: «تهاني يا أمي». ورغم ذلك نزلت إلى الأسفل أقصد غرفة الإفطار، وانحنيت تحيةً لأبي أقول: «صباح الخير يا سير ريتشارد. أتقدم بتهنئتك».

ابتسم ابتسامة عريضة مثل أمي. رفعني عاليًا وقبّلني، ثم قال: «شكرًا لك يا سارا. الآن يجب أن تظلي هنا كي تتناولي الإفطار معنا أنا وحضرة الليدي». كان ذلك الصباح غائمًا. اتّقدت الشموع في حواملها الفضيّة التي تزيّن الطاولة. تدلّت قدماي من المقعد حيث جلست، ونظرت إلى الضوء الناعم الواقع على وجهي والديّ المتهلّلين. لم أكن قد رأيتهما بذلك الابتهاج من قبل قط.

قالت أمي: «كم أنت مشاكس يا ريتشارد لتخفي هذا الأمر عني! لا بد أنك تعلم به منذ بعض الوقت».

أجابها مَرِحًا: «استطعت تخمين الأمر قبل مدة طويلة يا حضرة الليدي. وكما تقولين أنا أعلم به منذ بعض الوقت».

- وتركتني أكتشف الخبر من الجرائد؟! لا شك أنك تمزح يا سير ريتشارد! ماذا لو أنني لم أرغب في الحصول على أي ألقاب؟ يحق لكم أنتم الرجال الرفض. لكن هل لنا نحن النساء خيار؟

- لا خيار لكنّ سوى الحب والاهتمام والطاعة. إنني أمرك بأن تصبحي ليدي راينبرو، ولأنك زوجة مطيعة فلا خيار لك سوى أن تقولي: «حسنًا يا سير ريتشارد».

انتابتنني الحيرة لأنني لم أرهما رائقي المزاج يتمازحان من قبل. لكنني، في الواقع، قلّما قضيت الوقت برفقتهما. ثم ملأت ذهني صورّ تشبه كتابات السير والتر سكوت. كانت كلمة فارس تعني لي رجلًا سلوكه باسل وأخلاقه نبيلة، رجلًا يتنقل على صهوة جواد بديع، ويقرقع الدرع التي يلبسها. يتقلّد تذكارات تمنحها له السيدات، يضع على رأسه خوذة مُزَيَّنة بالريش، يقاتل في الحروب ويبارز بقوة وحماس في مبارزات الفروسية.

كانا، في ما بدا، قد نسيا أنني حاضرة. قلت: «لم جعلتك الملكة فارسًا يا أبي؟».

تفاجأ والديّ قليلاً بسؤالِي، ثم أجابتنِي أُمِّي قائلة: «لولا العون الذي قدّمه والدك يا عزيزتي كان من الممكن ألا نكسب الحرب⁽¹⁾. هذا ما لم تنسه الملكة». قال أبي في ورع وهو يمسح فمه بفوطه المائدة: «حمدًا للرب أنها انتهت وانتهينا منها».

ولم يُتَح مزيدٌ من الوقت لأن أطرح مزيدًا من الأسئلة لأن ستوت أتى ليقول: «العربة جاهزة يا سير ريتشارد».

دار أبي حول المائدة، قبلَنِي ثانيةً وقال: «إن اليوم مميز، لهذا فأنتِ مُعفاة من دروسك».

- لكنني يا أبي أحب دروسي.

- جيد، لكن لا تصبِحي مسخًا صغيرًا. نحن لا نريد فتاة متحذلقَة في العائلة. فقط تعلّمي التهذيب والجمال مثل والدتك.

2

كنت أعلم أن أبي يذهب كل يوم إلى مركز المدينة حيث حيّ المال والأعمال. لكنني آنذاك لم أعرف كيف يبدو مركز المدينة أو ما يفعله أبي فيه لأنني لم أذهب إلى هناك، ولا أظن أن أُمِّي ذهبت إليه أيضًا. كانت توجد أماكن خاصة بالرجال، وأماكن خاصة بالنساء، وأماكن خاصة بالأطفال، تفصل إحداها عن الأخرى حدودٌ يحظر تخطّيها. كانت توجد أيضًا أماكن خاصة برؤساء الخدم، وأماكن للطهارة، وأخرى للخدم. وكان من قبيل الثناء أن تقول إن فلانًا «يعرف مكانه». بعض البشر، بالطبع، لم يعرفوا أماكنهم، ولزم أن يتولى أحدهم

(1) الحرب المقصودة هي حرب القرم (1853 - 1856). فيها تحالفت المملكة المتحدة، وفرنسا، ومملكة سردينيا، مع الإمبراطورية العثمانية في نزاعها مع الإمبراطورية الروسية. من أبرز أحداثها «هجوم لواء الفرسان الخفيف» (1854). انتهت بهزيمة الروس، ونتجت عددًا كبيرًا من القتلى والجرحى من الطرفين. م

«تعريفهم بها». لقد سمعت أبي يقول أكثر من مرة إن الوقت قد حان لأن يعرف الروسيون مكانهم. والآن أصبحوا يعرفونه إذ انتهت الحرب. لكن أمي قالت إن عون أبي كان ضروريًا لنتتصر فيها. أثار ما قالت حيرتي لأن أبي لم يذهب إلى الحرب. يعلم الجميع أن الأنسة فلورنس نايتنجيل المؤثرة شاركت في الحرب مُمرضةً. شارك في الحرب أيضًا الرجال الذين منحتهم الأنسة ويل البنسات عندما خرجنا للمشى، رجالٌ بلا معاشٍ أو معاشهم زهيد، أفقدتهم الحرب ساقًا أو ذراعًا، ينفخون في نايات من القصدير، أو فقط يجلسون مُستندين إلى قضبان هايد بارك قبعاتهم بجوارهم على الرصيف. لقد بلغت مسمعي كلمات مثل «معركة إنكرمان» و«حصار سيفاستوبول». سمعت عن هجوم الستمئة الشجعان. كان هذا الحدث أكثر ما أثار حماسي في كل ما عرفت عن «حرب القرم»، لأن اللورد بيرندج كان واحدًا من أولئك الأبطال الستمئة الذين هاجموا المدفعية الروسية في «معركة بالاكلافا». لكن في نظر فتاة نشأت نشأةً مماثلة لي لم تعنِ الحرب شيئًا. والآن أدعشتني معرفة أن أبي ساهم في كسبها.

إن هذا الموضوع مناسب لأن أسرد أمورًا لم أدرِ بها حتى وقت متأخر، تبدأ بجون راينبرو. لقد وُلد في كوخ لعامل مزرعة دخله عشرة شلنات في الأسبوع. من الغريب أن أبي يولي أهمية كبيرة لمعرفة كل شخص مكانه لأن جدّه هذا، في ما بدا، لم يعرف مكانه قط. رغم أن ما استطاع كتابته لم يتعدّ توقيع اسمه، وما قرأه كان على نحو مماثل، فإنه منذ نعومة أظفاره امتاز بالنشاط والطموح. توجد فجوة في قصة حياته لم يستطع أحد ملأها. لقد ركب البحر في سنّ الخامسة عشرة، ثم عاد ثريًا في الخامسة والثلاثين، بعدما أمضى كل تلك الأعوام في «الهند الشرقية». هذا هو كل ما يُعرف عنه، ولا يسع المرء سوى تخمين ما حدث. كان من الفقر ما يستبعد التحاقه بشركة «إيست إنديا»، التي كانت تُعبُّ خيرات تلك الأرض الغنيّة والتي، نظرًا، امتلكت الحق الحصري في ممارسة التجارة في الهند. لكنها، عمليًا، لم تغطّ المنطقة كلها. في ذلك الوقت كان ذلك المكان مؤاتيًا للمغامرات، سواء أكانت المغامرة مشروعًا مثل التجارة أم اتخذت مسارات أقل مشروعية. يمكن لقرار جون راينبرو ترك تلك العشرين عامًا للتخمينات أن يعني أيّ معنى تريد خلعه عليه.

لكن الأكيد أن بعد رجوعه إلى لندن بقليل تزوج فتاة ثرية، وسافر إلى محل ولادته في الشمال الشرقي من «يوركشير». هناك أصبح مالك أراضٍ امتدت أملاكه حتى تلال «كليفلاند». استخرج ابنه الحديد من تلك التلال. وكان ذلك الحديد هو ما يهتم به أبي في مركز المدينة. عبر تجارة الحديد شارك أبي في كسب الحرب ونال لقب فارس. لقد كان ذلك العصر هو «العصر الحديدي» الجديد. صُنعت من هذا المعدن قضبان السكك الحديدية في جميع أنحاء البلد. كان يُستخدم في تشييد الكباري وتصنيع المكنات من جميع الأنواع والأشكال. انتشر الحديد في كل مكان باستثناء منزلنا في ميدان بورتمان. لم نسمع هذه الكلمة تُذكر في بيتنا، ولم أرَ طوال حياتي التلال البعيدة التي يُستخرج منها الحديد، سوى مرة بعد سنوات طويلة. كل ما امتلكناه وما أصبحنا عليه كان نتاج عشرين عامًا من العمل الغامض في الهند الشرقية لم يعلم أحد عنه شيئًا، ولم يرَ أحد أن من الفطنة تقصّيه.

3

هل يبدو والداي مثل طيفين حضورهما باهت؟ لا يسعني سوى أن أصفهما بهذه الطريقة لأنهما هكذا كانا. لقد ألفتُ وجود ستوت، الذي خَلَفَ تيتلي بعد حادث السُرّة الرهيب الذي وقع قبل زمن طويل (هكذا يبدو الآن)، ومثله الحوذي دوكات وثريلفول رئيس الخدم. وبالطبع ألفتُ وجود عزيزتي الآنسة ويل أكثر منهم جميعًا. على أنني بدأت التعرف إلى والديّ قليلًا، إذ سُمح لي بتناول الإفطار معهما مرة في الأسبوع. ولأن القواعد والضوابط لا تزال مهمة فإن إفطاري معهما كان دائمًا يوم الأربعاء. أتذكّر صباح أربعاء مشرقًا في شهر مايو من العام حيث أصبح أبي السير ريتشارد راينبرو. ودَّعتُ الآنسة ويل في غرفة الدراسة كما أفعل دائمًا في مناسبات كنتك، كأنني راحلة عنها لأسابيع أو أعوام، وركضت إلى غرفة الإفطار. كانت تقع في مؤخرة المنزل، وفكّرت أن من المؤسف الجلوس هناك حيث لا أستطيع الاستمتاع بذلك الجو الصحو. لكنني على الأقل استطعت النظر إلى الخارج لأرى فناءً مُمهّدًا جدرانَه مُكلّسة، له باب أخضر وبه أشجار مُشدّبة في أشكال

لافتة للنظر تنمو في أحواض خضراء. كنت أول الواصلين كالمعتاد، وشرعت في تقليب الخطابات على الطاولة بجوار مقعد أبي. سرّني قراءة الاسم «سير ريتشارد راينبرو» مكتوبًا مرارًا بجميع أشكال خطوط اليد على مختلف أنواع الأظرف: بيضاء وزرقاء ورمادية. شعرت بالوجاهة وعلوّ الشأن. لحظت ظرفًا أكثر فخامة وجمالًا من الباقيين أمسكت به بحماس. كان مُربّعًا كبيرًا من الرقّ قشدي اللون، مُوجّهًا إلى السير ريتشارد والليدي راينبرو. ونُقش ظهره بشارة نبالة قرمزية اللون. حملته أقصد النافذة كي أدقق النظر فيه، وقد أثار حماسي بشدة. شعرت أنني سأسعد بتلقّي كثير من الخطابات في أظرف كهذا. كم سيجعلني مثل الوجّهاء! تضمنت الشارة قفّاز المحارب وخنجرًا يعلوهما خوذة، ودَيَّلَتها الكلمات: Fiat voluntas mea. ماذا يعني هذا بحق السماء؟ يجب أن أسأل الآنسة ويل. لكن هل سأستطيع تذكر تلك الكلمات الغريبة؟ لهذا اعتزمت تدوينها. كانت نسخة جريدة «تايمز» الخاصة بأبي مطوية بجوار خطاباته. فتحتها، قطعت شريطًا من حافة إحدى الصفحات، وبالقلم الرصاص الصغير الذي أحمله معي نسخت الكلمات الغامضة. خبّأت الشريط الورقي بعيدًا عن الأنظار، وبينما أخذ الخطاب لأضعه فوق كومة خطابات أبي دخلت أمي الغرفة. لَجَمَتني رؤيتها والخطاب في يدي.

قلت: «صباح الخير يا أمي».

- صباح الخير يا سارا. أرى أنكِ تلقيتِ خطابًا.

- لا يا أمي. هذا خطاب رائع المنظر، لكن يؤسفني قول إنه ليس لي، بل مُوجّه إليكما أنتِ وأبي.

سألتني بحدة: «إذن ماذا تفعلين به؟».

- كنت أتأمل شعار النبالة المنقوش على ظهره.

- لكن يا طفلي العزيزة لم يكن باستطاعتكِ رؤية شعار النبالة المنقوش على ظهر الخطاب ما لم تقلبيه. هل أنتِ معتادة التطفل على مراسلات والدكِ؟

جمدت في موضعي والخطاب في يدي أرتجف بشدة. فكّرت: «هكذا يسير الحال دائمًا. من المفترض أن أعلم ما يجدر بي فعله دون أن يُعلّمني أحد به. لم يخبرني أحد قط أن مسّ الخطابات محظور. والآن أصبحت مشاغبة لأنني

أقدمت على تلك الفعلة. إنني أفضّل تناول الإفطار مع الآنسة ويل، لأنني إن أخطأت التصرف فإنها تخبرني بخطئي بلطف وتوضح لي لماذا يُعد خطأً.

- طرحت عليك سؤالاً يا سارا. هل أنت معتادة...

- لا يا أمي. حدث هذا صباح اليوم فقط.

- ألم تخبرك الآنسة ويل ألا تُجيبني من يتحدث إليك قبل أن يُنهي حديثه؟

صعب عليّ احتمال ما يحدث، وشعرت أن لا علاقة له بسلوكي، بل بذلك الخطاب تحديداً. لقد رأت أمي شعار النبالة والكلمات التي تميّزه فيما ألقّبه في يدي.

قالت: «ضعيه من يدك».

أطعتها، ثم حاولت تهدئتها قائلة: «هذا الخطاب مُرسل إلى أبي وإليك أيضاً. هل يمكنني إعطائه لك يا أمي؟».

مدّت يدها فأعطيها الخطاب. ظلّت تقلّبه في يدها، تخضبت وجنتاها بحُمْرة، وبدا عليها الاضطراب. قالت أخيراً: «أنا لا أجرؤ على فتح خطابٍ مُرسل إليّ وإلى أبيك ما دام هنا ويمكنه فتحه بنفسه. (ثم قالت كأنها تناشدني ما زادني حيرة) رجاءً يا سارا، لا تلمسي أبداً الخطابات المُرسلة إلى الآخرين. يجب على المرء ألا يفعل فعل ذلك».

ثم أتى والدي وبدأ الإفطار. بعد بضع لحظات قال لأمي كما يفعل دائماً: «هل تسمحين لي يا عزيزتي بالاطلاع سريعاً على الخطابات المرسلة إليّ؟».

ودون انتظار جوابها تناول قطعة ورق عاجية توضع دائماً بجوار خطاباته، وشقّهم واحداً تلو الآخر، إذ اعتاد أن يفتح الخطابات جميعها قبل قراءة أيّ منها. ثم جمعهم في كومة، فذهب الخطاب المثير للاهتمام للغاية إلى قاعها. كانت أمي تراقبني لهذا تظاهرت بأنني لست مهتمة، لكنني بالكاد انتظرت أن يحين دور ذلك الخطاب. ومع أنه لم يُبد أيّ تعليق حول أيّ من الخطابات الأخرى فإنه عندما وصل إلى ذلك الخطاب قال: «هذا مُرسل إلى كلينا. (أداره وتطلع إلى شارة النبالة) إنه من بيرندج».

تضاعف حماسي في الحال لأن اللورد بيرندج وسالي جايلورد كانا بطلين في نظري. لم أنس قط أول مرة وقع نظري فيها عليه، إذ يقود فرسه في هايد بارك، يبدو وسيماً ونبيلاً. تذكرت كيف اضطربت أمي وصديقتها عند اقترابه إلى عربتنا

وأنهما لم تردّا تحيته. في طريقنا إلى المنزل حينئذٍ سألت ميرسي كايث ماذا يعني «التعامي» عن أحد الأشخاص فأجابتنى قائلة: «هذا يعني أن ذلك الشخص يودُّ التعرف إليك، لكنك لا ترغبين في التعرف إليه، فتعلمينه بهذا بالتعامي عنه».

- لكن لم قد نفعل ذلك؟

- توقفي عن إشقائي بالتساؤلات فأنا لست الشخص المناسب لإجابتها وأنتِ تعلمين هذا جيدًا. أنا فقط أخبركِ بما هي الأوضاع القائمة، والأوضاع القائمة هي شأن الآخرين. رغم ذلك فإن كثيرًا من هذه الأوضاع ليس كما ينبغي أن يكون، أو ليس كما يبدو. وكلما ابتعدتِ عن مثل تلك الأوضاع الشائكة كان هذا في مصلحتكِ. هذه النصيحة نافعة.

لقد أدّت تلك الثروة إلى إضفاء هالة نورانيّة حول اللورد بيرندج. ولم ينل شيء من تلك الهالة برحيله للمشاركة في الحرب فيما بعد. لهذا عندما قال أبي الآن عَرَضًا «إنه من بيرندج» ثبتُّ نظري على طبقي، لكنني أصخت السمع عندما قرأ الخطاب قائلًا: «إنه يدعونا إلى مرافقته إلى سباق الخيل الأسبوع القادم. سيذهب إلى هناك في عربة واسعة يجرّها أربعة خيول ويقودها بنفسه».

نظرت إلى أمي فلم تبدُ لي مهتمة بهذا الأمر الذي غمرني بالإثارة. رفعت نظرها عن واحد من خطاباتها كانت تقرأه وقالت بلا اهتمام: «هل ستذهب؟».

تأمل أبي الأمر عميقًا، مثلما يفعل دائمًا عندما يُطرح عليه أي سؤال. إن سألتُه: «هل أناولك المُرَبّي يا أبي؟» فسيفكرُ في السؤال قبل أن يجيب قائلًا: «أجل، شكرًا لك. هذا ما أراه».

والآن عندما سألتُه أمي: «هل ستذهب؟»، لتعود إلى خطابها في الحال دون انتظار جوابه، مال أبي في مقعده إلى الوراء حاملًا الخطاب في يده، وبالأخرى يُمسّد لحيته برفق، ثم قال أخيرًا: «أجل، إن وجدتِ في ذهابنا تسليتكِ يا عزيزتي».

نظرت أمي إليه نظرة سريعة وهي تقول: «حسنًا يا ريتشارد، لنذهب إذن. سيكون الأمر ممتعًا».

عندئذٍ غمرني الشعور بأنني مُقصاة عن العالم الذي يفعل فيه الكبار ما يشاؤون. أعني هل يمكن أن يقع في حياتي حدثٌ بروعة مرافقة اللورد

بيرندج وهو يقود أربعة أحصنة بديعة؟ واستغرقت في حلم يقطّعة، حيث أقطع الأرض تحت السماء الزرقاء، أسمع زعيق البوق ودوي ستة عشر حافرًا حديدًا. وبينما أتقدّم يتكشف السياج النباتي مثل انبساط شريط أخضر حافته العلوية غير مستوية، ويزدان بزهور الزعرور البيضاء. ثم قال أبي بنبرة صوته الأكثر غلظة، التي دائمًا ما جعلت القلق يستبد بي: «فلورنس، أنا لا أسمح بأن تُفتح جريدة «تايمز» قبل أن أفتحها بنفسي».

- لم تمسّ يدي الجريدة يا ريتشارد. لقد دخلت الغرفة قبل أن تدخلها مباشرة.

أكّد أبي قائلًا: «لقد مسّ أحدهم الجريدة. يعلم ثريلفول كيف عليه أن يضعها على المائدة، وهي بالتأكيد ليست في الوضعية المعتادة الآن».

تناول الجريدة وفتح صفحاتها بحدة فأصدرت حفيفًا، ثم صاح قائلًا: «يا إلهي الرحيم! لقد تمزقت!».

في ذلك الصباح اقترفت أخطاءً لم أدّر بها، بدءًا من العبث بالخطابات، ثم فتح الجريدة، وأخيرًا تمزيق شريط منها. لكن الآن أخبرني الغضب الذي يعلو وجه أبي أن تمزيق جريدة «تايمز» جريمة خطيرة تعادل تمزيق الدستور البريطاني.

مدّ ذراعًا ترتجف غضبًا وهو يعتصر الجريدة كأنه يخنقها، فشوّه مظهرها أكثر مما فعلت. سألتنا: «من فعل هذا؟».

تملّكني الخوف، لكنني قلت بثبات قدر ما استطعت: «لم أكن أعلم يا أبي أن الإمساك بالجريدة محظور. لقد رأيت ستوت يستخدمها في إشعال النيران ولم أعلم أن...».

سألني غاضبًا: «ماذا تعلّمت؟ إنني أنفق الكثير على تعليمك، ورغم ذلك لا تفقهين أبسط الأمور».

يا للعجب! كم يبدو هذا الموقف الآن سخيًا تافهًا، إذ لم تعد الجريدة القسم الصباحي الذي يتناول الحقائق التامة حول أسواق الأوراق المالية، أو أي موضوع آخر، الذي يجب أن يطالعه ربُّ الأسرة أولًا، ثم يتفصّل بإعطائه لأفراد الأسرة الأقل مكانة في الوقت المناسب. لكن الأمر كان جدّيًا حينئذٍ. لقد

ارتكبت، حقًا وصدقًا، خطأ شائنًا في نظر أبي. وقد شعرت بأسف شديد كما رأى أن المفترض بي أن أشعر. كان فتح الجريدة حقّه وقد رأى، فيما أظن، أن التعدي ببراءة على هذا الحق مائل دكّ الأساسات التي تقوم عليها العائلة. رغم ذلك تسلّل بعض الفرح إلى أسفي. فقد انتاب أبي غضب شديد حتى إنه لم يسألني لم مزقت الجريدة، التي حملها ونهض ليغادر الغرفة. وعند عتبة الباب قال: «يجب أن أتحدث إلى الآنسة ويل».

بعدما غادر قاصدًا مركز المدينة ذهبت إلى غرفة الدراسة، أتوقع أن تستقبلني الآنسة ويل واجمةً لأنني خيبت أملها فيّ. لكنها كانت مبتهجة تضع زهور التيوليب في مزهرية على المكتبة، والتفتت إليّ تزيّن الابتسامة وجهها. قالت برفق: «حسنًا، ليكن هذا درسًا لك يا سارا: دعي التايمز وشأنها. ما الذي أردت فعله بالجريدة من بين جميع الأشياء بحق السماء؟».

بدأت عدوى مزاجها السعيد تنتقل إليّ. قلت: «أردت كتابة ملحوظة قصيرة بعدما رأيت خطابًا منقوشًا بشاره نبالة جميلة وشعار أردت أن أسألك ماذا يعني. لم يكن معي ورقة لأنسخه عليها، لهذا مزقت قطعة من الجريدة».

- إذن كنتِ تعبثين بالخطابات أيضًا. لم يدرِ السير ريتشارد بهذا الأمر في ما يبدو.

- لقد نظرت إليها فقط.

- حسنًا، لا تفعلي هذا مرة أخرى. إن الخطابات أشياء خاصة للغاية.

- أجل يا آنسة ويل، لكن لماذا لا يجدر بي أن أفتح جريدة تايمز؟

- لأن والدك، رغم كل شيء، هو من يبذل ماله في شراء تلك الجريدة. إنها ملكه. وإن أراد أن يكون أول من يطالعها فيحق له تمامًا أن يفعل ذلك.

لهذا ستحترمين هذا الحق في ما بعد، أليس كذلك؟ الآن أريني الشعار.

أخرجت قطعة الورق المتغضنة وبسطتها على الطاولة. Fiat voluntas mea.

قالت الآنسة ويل: «إممم. هذا يعني «لتكن مشيئتي»». أرى في هذا غطرسة

وغرورًا».

الفصل الثالث

1

في الميدان تجهّز كل شيء لاستقبال فصل الصيف واشتدّ حماسي. كانت أوراق الأشجار والشجيرات لا تزال غضة. أُعيد طلاء قضبان سور الحديقة. ترافق أزيز جَزَاة العشب مع رائحة العشب المجزوز. وتزينت المنازل بطلائها الجديد. غلب عليها اللون الأبيض، وازدان الضلع السفلي لكل نافذة من نوافذها بزهور اللوبيليا، والأقحوان، والجيرانيوم في صناديق خضراء. كان الهواء نقيًا بالقدر المُتَوَقَّع في لندن. انطفأت نيران المدافئ التي أُوقدت طوال الشتاء، ووحدها نيران مواقد المطابخ ظلّت مشتعلة.

بينما أتنزّه مع الآنسة ويل شعرت بالأسف تجاه الفتيات، اللاتي يسرن ببطء على طول ممشى الحديقة مع مُربّياتهن. لقد مرّ وقت طويل منذ أن دخلت الحديقة آخر مرة، لأن الآنسة ويل لم يعجبها ما دعت «ذلك الروتين السخيف العقيم». ما فاجأني في تلك الظهيرة أن اثنتين من الفتيات أثارتا صخبًا، إذ كانتا تتقاذفان كرة وتطوّحانها بقوة عاليًا، حتى طارت فوق قضبان سور الحديقة. ثم وقعت وسط الطريق، وارتدت عن الأرض وصولًا إلى دَرَج منزل السيد بيرندج. ركضتُ كي أمسكها وأقذف بها إليهما. وعندما انحنيت يواجه ظهري الباب المُغلق سمعته ينفتح، ثم شعرت بعصا تنكز مؤخرتي. التفتُ لأجد اللورد بيرندج أمامي، نقف وجهًا لوجه.

قال: «عند التحية ينبغي لك أن تنحني تجاهي».

لكنني حينئذ لم أره. إن ما رأيته يتعذر وصفه لأن كثيرًا من الأفكار تسارعت داخل عقلي. فأنا لم أصادف اللورد بيرندج منذ أن عاد من الحرب، وكانت ساحة المعركة هي ما غبّش رؤيتي الآن. لقد ظلّ عقلي الطفولي، بطريقة ما، أن الجو ظلّ شتويًا طوال الحرب. لهذا تطلّعتُ إلى مُخاطبي عبر ضبابٍ يغشى جنودًا روسيّين حَسِنين قاتمين، يظهرون ويختفون في وابلٍ ثلجيٍّ رماديٍّ. تحركت فلورنس نايتنجيل وسط الاضطراب الشتوي تحمل مصباحًا، وتنحني من حين إلى آخر لتلقي نظرة سريعة مُشفقة على كومة من الثياب الممزقة، يصعب تمييزها من ركام الثلوج التي توسّدتها. ثم اجتمع صفٌّ تلو آخر من الفرسان بلغ عددهم ستمئة. ظلّت الثلوج تتساقط وهم يبتعدون بخيولهم التي تزداد سرعتها تدريجيًا، حتى اختفوا خلف ستارٍ ثلجيٍّ يرفرف. الآن سمعتُ دويَّ مدفعٍ وأضاء وميضٌ قرمزيُّ الستار الأبيض، ثم دار في عقلي مقطع من قصيدة تنيسون التي قرأتها كثيرًا:

«عَصَفَ بهم قصف المدافع

لكنهم رغم هول الوقائع

انطلقوا إلى برائن المنيّة

قاصدين قلب البليّة

الشجعان الستمئة».

كان المشهد الذي أراه شديد الوضوح والفضاعة حتى إن صباح مايو المشرق اختفى فجأة. أصبحتُ وسط الثلوج إذ يلهث الرجال وخيولهم، وتصرُّ الجلود التي يرتدونها صريرًا محمومًا. سمعت وقع الحوافر على الثلوج المتراكمة وصليل السيوف. أُطلقت القذائف المدفعية المتأججة من فم الجحيم، فسمعت صهيل الخيول العالي ونشيج الرجال الأجش. وبينما أنا واقفة هناك كالبلهاء أحمل الكرة الملونة في يدي كنت أنتحب كأن قلبي

سينفطر. ثم هرعت نحو اللورد بيرندج وألقيت نفسي بين أحضانه أبكي على صدره.

لا أستطيع تخمين شعوره وقتئذٍ. لقد أحاطني بإحدى ذراعيه فبثّ طمأنينة كبيرة في نفسي. سمح لي بالبكاء حتى انتهيت وابتعدت عن صدره فاعتراني خجل شديد، إذ رأيت خادمه لا يزال واقفًا عند باب المنزل المفتوح والآنسة ويل، للمرة الأولى منذ أن تعرفت إليها، تبدو ذاهلة كأن ما حدث يفوق قدرتها على التصرف. وحده اللورد بيرندج ظل هادئًا وقال: «حسنًا، أخيرًا أشرقت الشمس على وجهك».

ثم أخرج محرمة كبيرة كفكف بها عينيّ، ثم أمسك بها أنفي قائلاً: «أخرجي زفيرًا قويًا. (أطعته فأردف) جيد! الآن لنز إن كنتِ تستطيعين الشهيق دون فقاعات مخاطيّة».

بعدما اطمأن على حالي أعطى المحرمة إلى الخادم، الذي ركض داخل المنزل، وعاد على الفور يحمل أخرى.

قال اللورد بيرندج: «لقد رفعت قيمة فاتورة الغسيل الخاصة بي لهذا الأسبوع. وأرى أن عليك أن تخبريني سبب بكائك. لكن أولاً اسمحي لي».

أخذ الكرة من يدي وأرجحها قاذفًا بها بقوة، فانطلقت إزاء السماء الزرقاء لتقع في الحديقة. ثم التفت إلى الآنسة ويل وقال: «إن كنتما ذاهبتين في طريقي فتشرفني رفقتكما. أنا اللورد بيرندج. وإن لم أكن مخطئًا فإن العربة المحمّلة بالمياه هذه هي ابنة السير ريتشارد راينبرو. إن غبار الصيف في تراكم، لهذا يجب أن نوظفها في ترطيب الحيّ. إلى أين تتجهان؟».

قالت الآنسة ويل: «كنا نتمشى فقط».

- رائع! رائع! بلا أهداف أو مقاصد أو غايات! فقط نتمشى. هكذا أحب المشي أيضًا.

- لكن اسمح لنا بألا نزعجك يا سيدي. وأستميحك عذرًا من سلوك الآنسة سارا. لا أعلم ماذا دهاها.

- أظن أنني أفزعته عندما نكزتها بعصاي، لكنها كانت نكزة طفيفة حقًا. هل يسهل إفزاعك وإيذاؤك بهذا القدر يا سارا؟

تلعثمتُ: «لا يا سيدي. لم تتسبب عصاك في ما حدث، بل الروسيون».

عندئذٍ كنا قد شرعنا في السير ووصلنا إلى شارع «أكسفورد». توقف اللورد بيرندج بغتة ونظر إليّ متفاجئاً، ثم قال: «الروسيون؟ ما علاقة الروسيين بما حدث يا تُرى؟».

بُحت له بكل شيء. حاولت بطريقتي الطفولية المرتبكة أن أخبره بالمشهد الذي ابتدعته مخيلتي: الروسيين والقذائف المدفعية، الثلوج الكثيفة والشجعان الستمئة. استمع إليّ بهدوء وهو يقف منتصب القامة طويلها، يخفض عينيه إليّ إذ نقف بجوار نافذة عرض أحد المتاجر.

قال: «حسنًا! يا لهذا الرجل المدعو تنيسون الذي لن نستطيع محو خطئه أبدًا! انظري يا آنستي العزيزة سارا، لم تكن الحرب بمثل هذا الوصف ولو قليلاً. لم تهطل الثلوج قط يوم «هجوم اللواء الخفيف»، بل كان الجو أكتوبرياً لطيفاً. مع ذلك، لطف منك أن تبكي من أجلي. لكن لا تُكرّريها، ولنستمع بهذا الصباح المشرق. الآن سنعبّر الطريق لندخل شارع «بوند»».

أمسك يدي بيده، التي كانت طويلة ونحيلة لكن قبضتها قوية. عبرنا الطريق وسرنا على مهل في شارع بوند، نتوقف من حين إلى آخر لنتطلع إلى نوافذ عرض المتاجر. في المرايا استطعت ملاحظته. كان رشيق القامة. جعلته القبعة الحريرية الطويلة التي كان يعتمرها يبدو أكثر طولاً. وجهه ذو سُمرة، نحيل وحليق.

قال: «أظن يا آنسة...؟».

- الآنسة ويل يا سيدي اللورد.

- أظن يا آنسة ويل أنني لم أقطع شارع بوند من أحد طرفيه إلى الطرف الآخر قط دون أن أنفق المال. وفي الواقع لا أرى حرجاً في عادتي تلك. فهذا الشارع في نهاية المطاف عريقٌ فاخر، ألا تتفقين معي في ذلك؟ إن أردنا أن يظلَّ على حاله علينا دعمه. وأقل ما يمكننا فعله الآن هو أن ندخل متجر الحلوى الرائع هذا. في أعوام دراستي استطعت شراء جميع الحلويات التي أريد ولا تتعدى تكلفة ربع الرطل بنسًا واحدًا. الآن لا أعتقد أننا بهذا الحظ.

شرعت الآنسة ويل في رفض دعوته قائلة: «حقًا يا سيدي اللورد إنني لا أرى أن...».

قاطعها قائلاً: «أنا واثق أن الآنسة سارا تختلف معكِ كل الاختلاف. أليس كذلك يا سارا؟».

وفتح باب المتجر، دون أن يمنحني فرصة لإجابته، كي ندخل قبله.

شابه المتجر مغارة علي بابا، إذ تزيّن بملوّى برّاقة بجميع الألوان: نوجا بيضاء مُطعمّة بالمُكسّرات، وشكولاتة بُنيّة مُتوّجة بأكاليل صغيرة بنفسجيّة، ومعجون اللوز الذي يشبه كرات زجاجيّة قابلة للأكل خضراء وصفراء ووردية؛ وحلوى أدنبرة باللون الأصفر الباهت، والأخضر ذي المسحة الرمادية، والوردي والأرجواني. عُرض هذا كله -وكثيرٌ غيره- على صوان فضيّة وداخل زجاجات كريستالية، وسط سكّونٍ شديدٍ جعل البائعات يبدون مثل الشمامسة في كاتدرائية النكهات. ملأ منضدة البيع أهراماتٌ من الصناديق، يشغل أكبرها القواعد العريضة، ويقلُّ حجمها تدريجيّاً تجاه القمم. جميعها ذات ألوان جذّابة، وعُقدت حولها شرائط باللون الأزرق والقرمزي، يمكن لأحد الخدم أن يثبتها إلى صدره ل يبدو كأنه حامل أحد الأوسمة الشهيرة. غادرنا المتجر أخيراً معنا واحد من أكبر تلك الصناديق حجمًا. رغم مظهره الرائع لزم أن يُغلّف بورق أبيض فاخر مُخطّط بشرائط من الساتان باللون الأخضر الفاتح، وأن يُلفّ بشريط حريري أحمر. عندما خرجنا إلى الشارع مجدداً ابتسم اللورد بيرندج وقال: «لم يعد ربع الرطل يكفّ بنسّاً بالطبع».

بعدما عبرنا شارع «بيكاديللي» ودخلنا شارع «سانت جيمس» ودّعنا قائلاً: «إذن يا آنسة سارا، لا تذرفي مزيداً من الدموع من أجلي. إن خَطَرْتُ في ذهنك ففكّري فيّ بابتسامة وتمني لي التوفيق. هل ستفعلين ذلك؟».

- أجل يا سيدي.

انحنى فجأة ليمنحني قبلة وقال: «سأحتاج إلى تمنياتكِ».

ثم هرولاً صاعداً دَرَج أحد النوادي بخفّة.

فكرت أنني بالتأكيد سأتمني له التوفيق في ما يؤدُّ تحقيقه، وقلت للآنسة ويل: «أتعلمين يا ويلي؟ أنا لم أُسر في شارع بوند برفقة أبي قط!».

في تلك الليلة، بينما أنا في فراشي، انتبعت إلى أن الأشياء التي لم أفعلها برفقة أبي كثيرة. لم تدُر تلك الفكرة بخلي من قبل. والآن إذ لاحت في ذهني أثارت حيرتي واضطرابي، لأنني كنت واثقة أنني أفضل أداء مختلف الأنشطة برفقة اللورد بيرندج. أقول إن هذا أثار اضطرابي لأن أبي، رغم كل شيء، كان محور عالمي. هذا ما تعلمته وقبلته حقيقةً مُسلماً بها. والآن بدأت التساؤل عن صحَّتها، وفعلت شيئاً لم أفعله من قبل؛ غادرت سريري واتجهت إلى غرفة الدراسة.

لم أفكر قط في ما تفعله الآنسة ويل عندما تصبح وحدها. سرت بخُطى خفيفة حافية، فتحت باب غرفتها، وتقدمت نحوها بهدوء. كانت الستائر مُسدلة وسقط ضوء مصباح البرافين، الذي يتدلى من سُرة الملاك، على الطاولة ورأس الآنسة ويل المحني فوقها. كان شعرها الأسود الناعم مفروقاً من خط جبته البيضاء إلى قمة رأسها. واستغرقت في الكتابة حتى إنني استطعت التحديق إلى ذلك الخط الأبيض الفارق بضع لحظات قبل أن ترفع عينيه لتراني. اتضح لي أنها لم تكن تكتب على أوراق الخطابات، بل صفحات كبيرة لم أعلم حينها أنها تُدعى «قطع الربع». تكدّست رزمة صغيرة منها عند يدها اليمنى، وتبعثر على الطاولة عدد من الصفحات خطَّتها، في ما بدا، للتو. عندما نقلت بصرها من الورقة لتنظر إليّ مرّت بضع لحظات بدت فيها كأنها لا تراني. ثم استعادت حواسها متفاجئة وقالت: «يا إلهي! ظننت أنك نمت قبل ساعاتٍ يا سارا».

- لم أستطع النوم. تقلقني آثامي.

- يجدر بك ألا تضيفي إليها نزلة برد. عودي إلى غرفتك في الحال وواصلِي القلق أسفل الدثار الدافئ. سأتي لأتحدث إليك.

رغم ما قالته فإنني مكثت هناك طويلاً بما يكفي لأراها تجمع الأوراق كلها معاً، تُغلق عليها بداخل أحد الأدراج، وتضع المفتاح في حقيبتها. لم أكن أرثدي سوى ثوب النوم الوردِي، لهذا بعدما وضعت أوراقها جانباً أمسكت

بذراعي قائلة: «تحركي الآن. إن أردتِ التجوال ليلاً فارتدي خفًا ومبذلاً. إذا أصابتكِ نزلة برد فلن تستطيعي مشاهدة الجماعة ينطلقون إلى سباق الخيل». لقد وُعدت، على سبيل المكافأة، بالذهاب مع الأنسة ويل إلى هايد بارك، حيث سيجتمع اللورد بيرندج مع مرافقيه، كي نراهم ينطلقون إلى حيث يُقام سباق الخيل. لكن الآن، فجأةً، غادرتني الرغبة في فعل ذلك. عدت إلى سريري الذي لا يزال دافئاً، وقلت: «أنا لا أريد أن أراهم يرحلون. بل لن أراهم يرحلون». جذبتِ المقعد الخشبي المَطْلِيّ بالأبيض لتجلس بجوار سريري، وقالت: «لكنكِ رغبتِ بشدة في الذهاب يا عزيزتي سارا! كنتِ تتطلعين إلى لقاء الأنسة جايلورد».

لقد تضمنتِ المكافأة مقابلة سالي جايلورد. كانت بدورها ستري جماعة سباق الخيل ينطلقون، ثم ستعود معي أنا وويلي لتمضي اليوم معنا. أدخلتِ الأنسة ويل يدها المكتنزة قليلاً أسفل الدثار لتمسك بيدي في وُدٍ وقالت: «الآن أخبريني ما الأمر، أخبريني بكل شيء».

قلت: «إنني أحب اللورد بيرندج ولا أحتمل رؤيته يرحل مع أناس آخرين. إن لم أستطع الذهاب معه فإنني أفضّل ألا أذهب على الإطلاق. أعلم أن هذا سيئ، لكنني أصبحت أحبه أكثر مما أحب أبي!».

ظلت ويلي صامته طويلاً تمسك بيدي برفق. ثم نهضت أخيراً، وأخذت تسير في الغرفة على مهل جيئة وذهاباً.

قالت: «كم ستضطرب الأوضاع إن تصرف الجميع مثلك! لقد اشترى اللورد بيرندج صندوق شكولاتة من أجلك، وهذا شيء لم يفعله بابا قط، لهذا أصبحت تحببته أكثر مما تحبين بابا».

- أوه، لا! ليس هذا هو السبب.

- أمهليني لحظة واحدة. أعلم أن هذا ليس السبب الوحيد، لكنه ما تسبب في أن تدور تلك الفكرة في ذهنك. يعيش اللورد بيرندج حياة تبدو لك رائعة كأنه أحد الأبطال. يأتي إلى لندن في فصل الشتاء فقط، ثم يختفي في أحضان الريف. عندما يكون هنا ترينه يقطع المتنزه على صهوة فرسه بمهارة، وهذا شيء لا يفعله بابا أبداً. يستطيع أن يقود عربة

تجرها أربعة خيول، لكن بابا لا يجيد فعل شيء بهذه الروعة. يمضي بابا ساعات طويلة كل يوم في مكان مُضَجِر يُدعى مركز المدينة، لكن اللورد بيرندج لا يفعل شيئاً بهذه الاعتيادية. والأروع من هذا كله أن اللورد بيرندج يذهب للقتال في الحرب، وهذا ينمُّ عن شجاعة. على أنه ليس أكثر شجاعة من الرجال المُعوزين الذين نراهم بلا أذرع أو أقدام يتسوّلون في الطرقات، لكنك لا ترينهم أبطالاً. رغم ذلك فإن بعضهم ربما كانوا من الفرسان الستمّة، الذين ليسوا جميعاً ضباطاً أو لوردات كما تعلمين. والأدهى من ذلك أن اللورد بيرندج شارك في الحرب لأنه اضطر إلى ذلك لا لأنه أراد. ربما أراد الذهاب حقاً فأنا لا أدري بحقيقة الأمر، لكنه لم يملك الخيار لأنه جندي مُكَلَّف يؤدي مهام وظيفته. وهذا ما يفعله والدك. إن والدك مُضطر إلى كسب عيشه، وعيشك، وعيش الليدي راينبرو. لهذا عليه أن يذهب إلى المدينة كل يوم ولا يستطيع الهروب من لندن حال أن ينتهي موسم الصيف المجيد. لقد راكَمَ أسلاف اللورد بيرندج أموالاً كثيرة على امتداد العصور، وكل ما على اللورد بيرندج فعله الآن هو إنفاقها. لا يقع على عاتقه حتى أن يصونها لأن محاميه ووكلاءه يؤديون هذه المهمة من أجله. ثم إن أسلافه راكمو الأراضي أيضاً، فلا حاجة إلى أن ينشغل اللورد بيرندج بشيء سوى العيش في منزل فاخر شيد فوقها، وقنص العصافير وصيد الثعالب، أو أيّاً كان ما يفعله هناك فأنا لا أعلمه. انتبهي إلى أنني لا أتحدث عن اللورد بيرندج خاصتك، بل إن حديثي يصف أي لورد مثله، فهم يملكون الزمان والمكان كي يبدوا أبطالاً. لكن والدك مُضطر إلى الانضباط والتزام الدقة والحذر في عالم الأعمال ذي التحديات. لذا توقفي عن هذا التفكير السخيف. ولا تطني أن الرجل الذي يملك وقت فراغ طويلاً، ويُنزّه الفتيات الصغيرات في شارع بوند ويشتري لهم صناديق الشكولاتة، بالضرورة أفضل من رجل آخر عليه أن يعمل ليكسب عيشه. قد يكون أفضل، لكن هذا لا يرجع إلى الامتيازات التي كسبها دون أن يبذل أي جهد في اكتسابها. الآن انتهت عظتي. هل وفقت في التعبير عن فكرتي؟

- لقد منحتني الكثير لأفكر فيه.

ضحكت الأنسة ويل وقالت: «أظن أن هذا ما حدث، لكن لا تطيلي التفكير الليلة. اخلدي إلى النوم».

3

تكبرني سالي جايلورد بعام، هذا يعني أنها كانت في الثامنة في اليوم الأول لتعارفنا. لقد قابلتها من قبل كما ذكرت، وتبادلنا تحية الصباح. لكنني الآن سأمضي يوماً كاملاً بصحبتهما. أثار الوقت المرتقب حماسي.

كان صباح ذلك اليوم جميلاً، منعشاً وندياً، إذ وصلت أنا والآنسة ويل إلى المحفل في هايد بارك. لقد غادرنا مبكراً، لأن دوكات وجب عليه أن يقود العربة عائداً إلى المنزل كي يحضر أبي وأمي. أظن أن لا أحد اليوم يمكنه تصور كيف كان المتنزه في ذلك الوقت، إذ لم تكن السيارات قد اخترعت، بل ويتعذر على العقل تصورها، بخاصة في يوم سباق الخيول. كان المتنزه موضعاً ممتازاً لالتقاء الجماعة التي ستنتقل إلى «إبسوم». ملأ أرجاءه دويُّ العجلات ووميضها، وصريير ألجمة الخيول وطقطقة حوافرها وزفير مناخرها الحمراء. تقوّست رُكباتها اختيلاً. ووطئت سيقانها البنية الأرض بمرونة، تبدو بالغة الرقة والرشاقة رغم الأثقال التي تحملها. من حين إلى آخر علا صهيلٌ أو حممةٌ حماسيةٌ مثل بوق يملأ صوته الأرجاء. يحاكيه نهيقُ حمار، إذ حضرت جماعة الباعة الجوالون يرتدون لباسهم المعتاد، الذي تُزيّنه الأزهار اللؤلؤية مُقلّدين الأثرياء، بصحبة نسائهم اللاتي تتمايل ريشات قبعاتهن وكأنها طواويس تتباهى في صلف. رأيت كل هذه المناظر في وجود جمهورٍ سعيدٍ يهتف، وأشجار مايو التي طلع زهرها.

قبضت يدي بقوة على يد ويلي عندما رأيت العربة قادمة واللورد بيرندج في مقعد السائق. وجب عليّ أن أقاوم موجة شعوري بالأسف، إذ إنني قطعت لويلي وعداً بأن أحسن التصرف، وقد أحسنته.

ومضت صواميل العربة النحاسية التي لمّعت حديثاً في ضوء الشمس. كانت تجرّها أربعة خيول رمادية مُرَقَّطة. عندما توقفت عن الحركة لحظتُ أن غمامات الخيول زوّدت بدروع فضية، نُقش على كل منها شارة النبالة التي

طُبعت على الخطاب الذي أسأت التصرف وأخرجته من كومة خطابات أبي. حينئذٍ شغل اللورد بيرندج فكري، لكنني الآن أدرك أنني انتبعت، دون وعيٍ مني، إلى جميع تفاصيل تلك اللحظة الرائعة. ولا يلزمني سوى أن أغض عيني لأرى الثمالة المُصَفَّرة حول شكائم الخيول، التي وقفت تنبش الأرض بأناقة، واختلاج آذانها الطويلة الملساء. أرى أيضًا وميض أباذيم الأجمة، وعينًا نجلاء ناعمة لخيول منها التفت نحوي، فنظرت إلى الفجوة بين رأسه والغمامة. كانت تلك النظرة مُشوِّقة ومبهجة وغير متوقعة، مثل لمحة مفاجئة تجود بها ياقة ثوب نسائي مكشوفٍ على أحد الرجال.

ناول اللورد بيرندج سائسا الأعنة وغادر العربية. انتبعت إلى ربطة عنقه ورأس الثعلب الذهبي المثبت إليها، وقبعته الرمادية الطويلة والقفاز، وزهرة القرنفل الحمراء التي تُزيّن طيَّة صدره. رفع قبعته تحية للآنسة ويل، ثم انحنى ليُقبِّلني وهمس قائلًا: «هل تمنيت لي حظًا مُوفَّقًا؟». همست بدوري قائلة: «أجل يا سيدي».

شغل العربية سيد وسيدة وكذلك سالي جايلورد. غادرت سالي العربية تتجه نحوي أنا والآنسة ويل، وقالت: «مرحبًا! يُفترض أن أمضي اليوم معكما». أجابتها ويلي: «يسعدنا هذا».

قالت سالي: «جيد. يسُرُّني وجود من سيسعد».

قال اللورد بيرندج: «اعلمي يا آنسة ويل أن هذه الطفلة تنطق بكل ما تفكر فيه. إنها...».

توقف عن الحديث فجأة، إذ وصلت عربية هانسوم التي يستقلها أبي وأمي. فذهب لتحيتتهما بخفة وسرور شديدين، حتى بدا كأنه نسينا في لحظة. لَوَّح أبي بيده تحية لي وللآنسة ويل. رأيت أُمِّي فائقة الجمال، لكنها، في ما بدا، لم ترنا حتى. ساعدها اللورد بيرندج على ركوب عربته وهو يقول شيئًا جعلها تضحك. كم بدا الابتهاج في ضحكتها! عندما سمعها عدة أشخاص يقفون بالجوار رفعوا أبصارهم إليها وأشرق وجوههم. كانت تلك الضحكة مُعديّة مثل جميع الأشياء السعيدة.

بينما نشاهدهم يبتعدون ساد الركود الصباح فجأة. كان فكري معهم رغم أننا ظللنا في المتنزه بعض الوقت، لهذا لم أنتبه لكثير مما يدور حولي. ثم عدت إلى اللحظة الحاضرة عندما سمعت صوتاً يقول: «كم تكبرين يا سالي!». توقفت عربة مفتوحة يجرها فرسان أغبران بالقرب منا، يجلس بداخلها رجل وامرأة. بدا الرجل عجوزاً، لكنني الآن أعلم أنه وقتئذٍ لم يكن قد تخطى الخمسين من عمره. في ذلك الوقت لم أكن أعرف كلمة «مبتذل»، لكنها لو كانت ضمن حصيلة مفرداتي حينئذٍ لاستخدامها في وصف مظهره. بدت المرأة في سنٍّ أمي وتضاهيها حُسناً. وكما تسببت ضحكة أمي في إشراق الوجوه حولها أشرق وجهي، الذي علته الكآبة بعدما اختفت العربة عن الأنظار، إذ تطلَّعتُ إلى تلك السيدة الجميلة وهي تتحدث بلطف إلى سالي جيلورد.

قالت: «إنكِ تصبحين آنسة صغيرة!».

فاجأني سلوك سالي إذ لم تبتهج على الإطلاق. انتابها، في ما بدا، حرج شديد. نظرتُ إلى المرأة شزراً، ثم التفتت إلى الآنسة ويل وقالت: «إن سمحتِ فهلاً نرحل الآن؟».

بددت سرعة البديهة التي تُميّز الآنسة ويل بعضاً من حرج اللحظة، إذ قالت: «بالطبع».

ومدَّت إلى كل منَّا إحدى يديها كي تقودنا إلى العربة التي لم تكن بعيدة عنا.

بينما نبتعد قهقه الرجل الجالس في العربة المفتوحة وصاح قائلاً: «أقسم بأن هذا هو التعامي! لقد تعامت عنكِ الصغيرة يا إدوينا! ليكن هذا درساً لك». تحركت عربتنا ببطء وسط الزحام الشديد. وانتظرتُ سالي حتى غادرنا المتنزه لتقول: «كانت تلك المرأة أمي ومعها دوق «فالوشير». إنها الدوقة زوجته».

لقد تفاجأتُ عند معرفتي بأن لدوكات زوجةً. ولا أدري كم كان سيستغرق اكتشافي وجود امرأة في حياته لولا سالي جيلورد، إذ إنني لم أعلم عن دوكات سوى أنه دوكات وحسب. اعتدت أن أراه فوق عربة هانسوم أو فيكتوريا في مواعيد محددة. وعندما ينتهي من أداء مهامه يختفي زاهباً إلى منطقة الإصطبلات التي لم أعلم عنها سوى اسمها. كان «يعرف مكانه» ويلزمه. وبالمثل لزمتم مكاني ولم تطأ قدمي منطقة الإصطبلات قط.

بعدما أبدت سالي ملحوظتها حول والدتها ودوق فالوشير نفضتهما عن فكرها إذ إنهما، في ما بدا، لم يثيرا اهتمامها. أخذت تتطلع حولها، تُعلّق على جميع الأشياء التي تراها وهي تضحك وتشير إليها بإصبعها. أجل، كانت تشير إلى الأشياء بإصبعها حقاً! على النقيض مني أنا التي وُجّهت إلى اتباع الأوامر التالية وكأنها قوانين: «لا تشيرني إلى شيء بإصبعك. اجلسي ساكنة. لا تتحدثي سوى عندما يتحدث أحدهم إليك».

لهذا بدا واضحاً أن سالي جيلورد ليست فتاة حسنة التهذيب وفقاً لمعنى هاتين الكلمتين الذي أريد لي فهمه. كانت غريبة الأطوار، يقظة الذهن وعفوية. ظلّت تقفز في مقعدها. وكزت بذراعها الآنسة ويل الجالسة بيننا، وهتفت قائلة: «يا له من صباح رائع!».

ثم وقفت تمسك بكثف ويلي كي تحافظ على توازنها، وطرقت بقبضتها الباب الزجاجي في سقف العربة. فتحه دوكات ونظر من خلاله، فسألته سالي: «ما اسم هذا الفرس؟».

لم يدر بخلدي قط أن لفرسنا اسمًا، إذ إننا لم نذكر سوى العربات لا خيولها، قائلين: «سنستقل الهانسوم» أو «سنستقل الفيكتوريا». لهذا فُكّرْتُ: «يا إلهي! ما الجديد الذي ستأتي به تالياً؟!».

ارتسمت ابتسامة خجول على وجه دوكات كأنه سعيد لأن أحدهم اهتم بالفرس، وقال خَجَلًا: «راسكال يا آنسة».

ثم أغلق الباب.

قالت سالي: «إنني أحب معرفة أسماء الخيول. في إقطاعية «تريسانت» تُكتب أسماء خيول أبي على صفائح نحاسية مثبتة إلى مَعَالِفِهَا، وأتولى تلميعها بنفسِي. حالما ترين لونها زاهياً لا تصبحين في حاجة إلى استخدام مُلْمَعِ المعادن. إن البُصاق يفي بالغرض إن واطبتِ على تلميعها».

أَلْقَيْتُ نظرةً جانبيةً على الآنسة ويل. فعلى الرغم من أنها رحبة الصدر سهلة المراس فإنها، بالطبع، استقبحت لغة كتلك! سألتُها بهدوء: «أين تقع تريسانت؟».

قالت سالي وهي تقفز مرحاً: «في مكان يشبه الفردوس! لا يمكنكما تصور كيف تبدو تريسانت! أنا لا أفهم لِمَ نأتِي إلى لندن. إن مجيئنا إلى هنا صيفاً، إذ يصبح كل شيء رائعاً هناك، هو من قبيل العادة. وتلك عادة سخيفة للغاية. هل يمكنكما أن تتصوراً؟! (حدجتنا بنظرها عاقدة حاجبيها) هل يمكنكما أن تتصوراً ما هو أسخف من قضاء الشتاء في الريف، ثم الذهاب إلى بلدة فظيعة حالما يشرع الجمال في الازدهار؟».

وافقتها الآنسة ويل قائلة: «أُفِّرُ بأنني أفضِّل أن يتم الأمر على النحو المعاكس».

أذعنت سالي على نحو مضحك قائلة: «لكن هذا هو الحال. يُضطر المرء في صغره إلى احتمال الأوضاع كما هي».

قالت ويلي: «صدقت. يحدث هذا أيضاً في بعض الأحيان عندما يكبر المرء».

توقفت العربية أمام باب منزلنا الرئيس، فهتفت سالي قائلة: «لنذهب إلى الإصطبلات كي نرى راسكال يُوضع في الإصطبل الخاص به».

أظن أن الآنسة ويل عاشت لحظة من التردد والارتباك، لكنها قالت: «حسناً، هيا بنا. (رفعت الباب وأردفت) دوكات، واصل القيادة إلى منطقة الإصطبلات. تودُ الآنستان رؤيتها».

كانت تلك اللحظة من أشد لحظات حياتي غرابة حتى ذلك الحين. ولم تكن لتصبح أكثر غرابة لو قالت الآنسة ويل: «واصل القيادة إلى مدينة «تمبكتو» الإفريقية، لأننا بعد عدة ياردات سنصل إلى منطقة الإصطبلات. لكن دخولها

يعني دخول المنطقة المتوارية المخيفة، حيث تكمن الكائنات التي حالت بيني وبين «سلامتي»، كما اعتادت ميرسي كايت أن تقول. عند التفكير في الأمر بدأ قلبي يخفق بقوة بين أضلعي، ولم أفهم كيف استطاعت سالي جايلورد الحفاظ على رباطة جأشها.

فجأة غادرنا الشوارع الرحبة. مرّت العربّة عبر مدخلٍ مُقوَّسٍ لتصل إلى ساحة مرصوفة بالحجارة يقطع منتصفها مجرى تصريف. وعلى الجانبين قامت مباني من طابقين. كان هناك أبواب ذات مصراعين بالطابق السفلي تقود إلى الإصطبلات. رأيت سلاسل خشبية خارجية تقود إلى غرفٍ علويةٍ يعيش بداخلها الأهالي. لاحظت هنا وهناك أحد الرجال، أو النساء، أو الأطفال يقفون عند مداخلها.

عند واحد من تلك المداخل وقفت امرأة تحمل طفلًا هتفت بدوكات قائلة: «يا أَلْف! لقد ظهرت!».

لم تنتبه إلى أننا بداخل العربّة. عندما خرجنا منها أطلقت صيحة دهشة قاربت امتعاضًا، واختفت عن الأنظار.

هناك وقفنا حيث تعبق الأجواء برائحة روث الخيول وبولها، نسمع من حين إلى آخر حافرًا يضرب الأرض أو منخارًا يزفر في مَعْلَف. رأيت عبر أحد الأبواب المفتوحة سائسًا كُمّي قميصه مطويين، تتدلى حمّالتا بنطاله على جانبيه، يعمل بِمَحَسّة تمشيّط الخيول. رغم شيوع هذا المشهد فإنه لم يكن عاديًا في نظري. رأيت مثيرًا ومذهلًا.

أدارت سالي رأسها بسرعة تجاه الباب حيث اختفت المرأة عن نظرنا، وسألت دوكات: «هل كانت تلك زوجتك؟».

- أجل.

- ما اسمها؟

مرة أخرى ارتسمت على وجهه ابتسامة خجول يمتزج فيها الارتباك والسرور، وقال: «جيني يا آنسة».

- ما التي ظهرت؟

- أظن أنها تقصد سنّ طفلنا يا آنسة. إنه يشقيها كثيرًا.

أومأت سالي في دراية وقالت: «هكذا يفعل الأطفال».

عندئذٍ هبطت السيدة التي تُدعى جيني الدرج، فقالت سالي: «صباح الخير. يسعدني أن سَرَّ الطفل قد ظهرت».

خلع دوكلات معطفه ذا الأزرار الفضية ومعطفًا آخر أسفله. ثم ناولهما زوجته مع قبعته، فهرولت بهما إلى الطابق العلوي من فورهما. أخذ دوكلات يطوي كُمَّيه على مهل حتى أعلى مرفقيه. رأيت رسمًا مُبهمًا باللونين الأحمر والأزرق موشومًا على ذراعه اليميني. لم أره بذلك المظهر من قبل قط. لم أره من دون المعطف المُزَرَّر والقبعة الرسمية. لم أره مع زوجة وطفل. في الحقيقة، أنا لم أره قط.

صفع الفرس على خاصرته قائلاً: «هيا يا راسكال العزيز».

ثم إنني لم أَر راسكال العزيز قط. ما رأيته لم يكن سوى «واحد من الخيول».

بعدما أخرج راسكال من مجرّ العربة بدأت سالي، دون دعوة، تخلع لجامه. ظللت واقفة أمسك بيد الأنسة ويل وأتعجب. تعجبت من خلو الإصطبلات فجأة من الجميع، باستثناء من لديهم بعض الأعمال التي يجب تأديتها. فعندما وصلنا رأيت بعض الأطفال يركضون على الحجر المرصوف هنا وهناك، وبضع نساء يتطلّعن إلى الخارج عبر الأبواب والنوافذ العلوية. لكنهم الآن قد انسحبوا بهدوء. كان لوجودنا، في ما بدا، قدرة استثنائية على إثارة النفور، مثل مغناطيسٍ عكسيٍّ يطرد الأشياء.

تعجبت أيضًا من راحة البال التي نعمت بها سالي. كانت تُصَفِّر. فكَّت إبزيم اللجام بخفّة ورفعت الطوق عن عنق راسكال، الذي بدا بدوره مختلفًا. خُلع عنه رداؤه مثل دوكلات وأصبح فرسًا خالصًا. أُزيلت الغمامة عن عينيه واستطعت رؤيتهما. أصبح كائنًا آخر تمامًا يحمل اسمًا.

قبضت سالي على بعض عُرفه وسألت: «أين الإصطبل الخاص به؟».

ركض دوكلات وفتح أحد الأبواب. قادت سالي راسكال نحوه، صفعته على عجزه وهتفت قائلة: «إلى الداخل يا فتى».

دخل مُحدِّثًا طقطقة وتبعه دوكات، ثم التفتت سالي إلينا مبتسمة وقالت: «أودُّ أن أرى طفل السيدة دوكات، لكنني أعتقد أن إجراء هذه الزيارة اليوم غير مقبول. سيكون هذا من قبيل الفضول». قالت ويلي: «حسنًا، لنذهب كي نتناول الإفطار».

6

بعدما تناولنا الإفطار تساءلنا كيف سنقضي يومنا.

قالت سالي: «يمكنك زيارة منزلنا. لقد سألت والدي إن كان بإمكانك المجيء وأجابني بالموافقة، إن رغبت في ذلك».

قبلنا الدعوة، وسرعان ما اجتزنا الباب الذي ركضتُ بجواره، قبل بضعة أيام، لأعانق اللورد بيرندج. لم أهتم كثيرًا بالمنازل من قبل. في نظري كان يوجد أناس مثلنا يمتلكون منازل تشبه منزلنا، وأناس مثل دوكات يمتلكون بطبيعة الحال منازل من نوع آخر. لقد اكتشفت أن منازلهم هي تلك الغرف فوق الإصطبلات. ورغم أنني دائمًا ما اعتقدت أن اللورد بيرندج ينتمي إلى من «يشبهوننا من الناس»، فإنني الآن وجدت أن منزله، باستثناء مظهره الخارجي، لا يشبه منزلنا. إن ثراء عائلة راينبرو يمتد لبضعة أجيال، وقد كرَّسوا جهودهم طوال تلك العقود للحفاظ على ثرائهم. لكنني للمرة الأولى كنت في منزل يمتلكه أشخاص لم يحمل أسلافهم عناء كسب المال قرونًا. ولم يلزمهم سوى التفكير في كيفية إنفاقه بهناء.

كانت سالي معتادة أداء دور المرشدة. لكنني لا أتذكر الجولة التي قمنا بها بوضوح. ظلَّت تثرثر عن لوحات هولباين وفان ديك، جورج رومني وتوماس جينزبرو، بيتر ليلي وجون أوبي. أتذكر لوحة لفتاة مثيرة نصف عارية رسمها ويليام إيتي، علَّق على الحائط المقابل لها لوحة تتضمن بيرندج من عصر استرداد الملكية الإنجليزية، ينظر إليها مباشرة بعينين غامضتين يقظتين، على وجهه ابتسامة قد تنمُّ عن الإعجاب.

قالت سالي: «دائمًا ما تثير هاتان اللوحتان ضحكي. يقولون إنه كان جذابًا حضوره طاع».

كانت هناك أيضًا لوحة السير توماس جايلورد من العصر الإليزابيثي -قبل ولادة بيرندج الكبير- يبدو فيها وسيماً وكئيّباً. قالت سالي عنه عَرَضاً: «يقولون إنه كان عشيق الملكة، لكن هذا لم يثبت قط».

في ذلك الوقت لم أكن أدري ما تعنيه كلمة عشيق، وأظن أن سالي لم تعرف معناها مثلي. لكن الكلمة بدت رائعة ورومانسية. تذكرت الملكة في حفل افتتاح قصر الكريستال. لا شك أن كثيرًا من الرجال يقعون في حب امرأة مثلها.

أقرُّ بأن اللوحات لم تعن لي الكثير، لأنني لم أعرف شيئًا عن الرسم ولم أسمع قبلاً بأسماء أولئك الرسامين. لكن أشد ما أثار إعجابي هو رحابة المنزل، رغم أنه لم يكن أوسع من منزلنا حيث استقرت جميع التحف الفيكتورية التي ابتكرت. أما هنا فقد بدا كأن كل عصر جاد ببعض الروائع، ولم يُسمح لسواها بالبقاء.

أنهينا الجولة في الطابق العلوي من المنزل حيث يوجد مخدع سالي، مثل تنظيم منزلنا، وفيه تحديدًا برز الطراز الفيكتوري. غطى الدَّرَج قماش مُشَمَّع. اكتست الغرفة بكأبة فاقت كأبة غرفتي قبل مجيء ويلي. فُرشت الأرض ببضعة بُسُطٍ قديمة مهترئة. توسطت الغرفة طاولة خشبية بسيطة جلست إليها امرأة متواضعة الجمال في مقعدٍ خوصيٍّ. عندما دخلنا الغرفة نهضت وانحنى تحية لنا، لكنها لم تقل شيئاً. كانت هادئة متحفظة، وقدمتها سالي باسم المدموزيل لاج؛ مُربّيتها. عندما حان موعد مغادرتنا قالت لويلي: «ستُعيدن الآنسة سالي في الساعة الرابعة، أليس كذلك؟ هذا ما يعلمه سيادة اللورد».

أعدنا سالي في الرابعة، لكنني لا أتذكر جيداً ما فعلناه في الوقت الذي أمضيناه معاً. سيجمعنا كثير من الأنشطة فيما بعد. لكن ذكريات ذلك اليوم، بعد صباحه الباكر، تشوشت في ذهني.

يستعيد شريط ذاكرتي تماسكه ويخبرني بما حدث في وقت متأخر من تلك الليلة. أتذكر أنني علمت بما حدث لجماعة سباق الخيل في غيايبي حتى رأيتهم بعيني. لقد قاد اللورد بيرندج العربية عائداً من إبسوم، وأنزل ركابه هنا وهناك حتى لم يبقَ برفقته سوى أبي وأمي. أخيراً أوقف العربية خارج منزلنا، وغادرها ثلاثتهم ليبتعد بها الحوذي. وقف اللورد بيرندج مع أبي وأمي بجوار حافة الرصيف. وبينما يقود الحوذي الخيول مبتعداً انفتح باب العربية الخلفي، الذي لم يكن مغلقاً بإحكام، واصطدم بأمي. لم تكن ضربة عنيفة، وازرقت ذراعها على إثرها قليلاً. لكنها فاجأتها فابتعدت إلى الخلف بسرعة. تعثرت بتنورتها الطويلة وسقطت أرضاً، فتسببت تلك السقطة في إصابتها. انحنى الرجلان كي يرفعاهما، وأمسك كل منهما بإحدى ذراعيها. لكن قدميها عندما داست الأرض تأوّهت، وكانت لتسقط ثانية لولا عونهما. لقد كُسرت إحدى ساقها.

عندئذٍ كان ثريلفول قد فتح باب المنزل، فهتف به أبي قائلاً: «أرسل ستوت إلى الطبيب ماكينزي على الفور. لا! بل سأذهب بنفسي وسأحضره معي». لم يكن منزل الطبيب ماكينزي قريباً يسهل الذهاب إليه سيراً، لكن أبي ترك أمي ليعينها اللورد بيرندج وأخذ يركض. كان هذا مشهداً غير معتاد. قال اللورد بيرندج: «ضعي يدك حول عنقي». وحمل أمي كي يدخلها المنزل.

لم يكن النعاس قد غلبني منذ أن أويت إلى الفراش، لأن أحداث اليوم المثيرة جعلت النوم يجافي عيني. وتمنيت أيضاً، رغم تأخر الوقت، أن تأتي أمي إلى غرفتي كي تحكي لي بعض المغامرات التي عاشتها. عندما بلغ مسمعي صوت توقف العربية خارج المنزل غادرت سريري قاصدة النافذة. سمعت صرخة أمي والاضطراب في صوت الرجلين. ثم رأيت أبي يركض، تتضح صورته وتبهت في ضوء مصباح. انتابني الخوف. ظننت أن أمراً رهيباً يحدث... خِلْتُ أن أُمِّي تُحْتَضَر... ارتديت مبدلاً وأسرعت في النزول إلى الطابق السفلي. عندما وصلت إلى منعطف الدرج الأخير رأيت ثريلفول يغادر قاعة

الجلوس مهرولاً تجاه المطبخ، وهو يصيح آمراً إحدى الخادومات. كان باب غرفة الجلوس مفتوحاً على مصراعيه، لكنني لم أدخل. لقد توقفت عن الهرولة في الوقت المناسب. إن ما رأيته جعل قلبي يخفق بقوة. كانت أُمي مستلقية على إحدى الأرائك، يُرسل مصباحٌ قائمٌ ضوءاً خافتاً نحوها. لكنني لم أستطع رؤية وجهها وهي لم تستطع رؤيتي، إذ إن اللورد بيرندج، الذي قابلني ظهره، فصل بيننا. كان منكفئاً نحوها قد رفع يدها إلى شفتيه. غمرتني الدهشة عند رؤيتهما على هذا الحال. عاظم تشوش ذهني من زعري. استدرت في سكون وقررت حافية إلى منبسط الدرج الأول. هناك وقفت أرتجف حتى أتى والدي مقطوع الأنفاس برفقة الطبيب.

سمعت الطبيب ماكينزي يقول: «اهدأ يا سير ريتشارد، اهدأ رجاءً. أرى أن أياً كانت الإصابة فإن الشفاء منها لن يتخطى بضعة أسابيع».

الفصل الرابع

1

ليت ما بقي في ذهني من ذكريات تجمعني بأبي كانت أكثر وضوحًا، ليتها كانت أكثر سعادة. إن «أكثر سعادة» ليس التعبير الذي أقصده، فهو لم يجعلني تعيسة، بل أخبى وجودي. قد يشرق أحد الأيام مثل الفضة، فتصدر عن أبي بعض الكلمات أو الإيماءات تتسبب في طمسه، مثلما يطمس النفس كأسًا فضيةً لامعةً. وعندما يغادر تتلاشى غيمة الخُبُّ تلك ويعود البريق من جديد. الآن تخطر في بالي زيارتنا إلى قصر الكريستال في سيدنهام. أجرينا تلك الزيارة بعد ثلاثة أعوام من افتتاح الملكة القصر في هايد بارك.

كم خيب ذلك اليوم آمالي! فالقصر لم يشبه حاله السابق قط. أتذكر الآن أنه كان أكثر جمالًا بسقفه المتعرج وطرازه الجديد، لكنه لم يشبه سابق عهده حيث عشت تجربة سعيدة احتفظت بها ذاكرتي وأردت تكرارها. كان هناك فرقة موسيقية وجوقة كبيرة. ضجَّ البناء بالهتاف من أجل الملكة، لكن في تلك المرة لم تلفت الملكة انتباهي، بل أميرها.

كنا عائدتين إلى المنزل وقد نال مني الإحباط فسألت: «أبي، لم الأمير حزين؟».

لم يبدُ لي جوابه مفهومًا. كيف يمكن أن يفهمه أي طفل، وبخاصة طفلة عاشت حياة مثل التي عشتها؟

لقد قال: «أظن أن هذا يرجع إلى أنه يدرك أن أمر قصر الكريستال محض هراء. لقد بنى قصرًا للسلام وها نحن نخوض حربًا ضد الروسيين بالفعل! ذلك الرجل لا يدري بالواقع، بل يسبح في الأوهام. من المؤسف أن الملكة تزوجته. كان يجدر بها أن تتزوج رجلًا إنجليزيًا واقعيًا يقف على أرض صلبة. لقد قيل لي إن ذلك الرجل يحاول دائمًا دس أنفه في شؤون الدولة».

أسهب في الحديث عن ضرائب الحرب التي ستفلس الجميع، وعن الاثني عشر عاملًا الذين لقوا حتفهم في أثناء ترميم القصر في سيدنهام. قال إن تلك الواقعة كانت بمنزلة إنذار بلا شك، لكنني لم أفهم منطقه. صعب عليّ استيعاب ما قال ولم أجد له معنى. لم أفهم سوى أن اليوم الذي توقع أن أحظى فيه بكثير من المتعة أصبح مملًا وكثيبًا. وعندما حيّتنا أُمِّي في الردهة تَوَجَّ خيبتني بكلماته، فقد قال: «أتمنى أن تكون الأنسة الصغيرة سعيدة بإهدار وقتي في هذه الفترة إذ عليّ تدبُّر أمور بالغة الأهمية حقًا».

ثم اتجه إلى غرفة خُصِّصت لعمله في المنزل يدبُّ الأرض بقدميه. لمَّا رأنتني أُمِّي حزينة منحتني إحدى قُبلاتها النادرة وقالت: «يجب أن نلتمس العذر لبابا. يشغل فكره كثيرٌ من الأمور مثل الحرب وغيرها».

2

أقول إن جوابه، ذلك المونولوج المُتبرِّم فيما نحن عائدين من سيدنهام إلى المنزل، لم يبدُ لي مفهومًا في ذلك الوقت. لكنني عندما أتفكر فيه الآن أجد أنه يمثل بذور الكارثة التي دمَّرت زواج والديّ. لم يُكن أبي الاحترام لأي رجل «يسبح في الأوهام». كان هذا التعبير يعني في نظره رجلًا ليس مولعًا بعالم المال والأعمال، وقد شاركه الكثيرون -للأسف- الرأي نفسه. كان يرى أن أقدس أرض يمكن لرجلٍ «واقعيٍّ يقف على أرض صلبة» أن يطأها هي شارع «ثريدنيدل» والمنطقة المحيطة به. لقد حصر اهتماماته بالعمل، ولا أظن أن دافعه إلى فعل ذلك منطقيٌّ. كان من الممكن أن يترك الكثير

من المهام ليؤديها مرؤوسوه. لكنه لم يتعلم قط الحكمة من قول بربونت مورجان: «يمكنني إنجاز مهام العام كله بالعمل مدّة تسعة أشهر لا اثني عشر شهرًا». كان باستطاعته امتلاك منزل في الريف أو بجوار شاطئ البحر، لكنه لم يشتَرِ أحدها قط. لم يذهب للقنص، أو صيد الحيوانات أو الأسماك، ولم يرّقه الرقص. كانت المناسبات التي اصطحب أمي إليها هي عشاءات في المدينة، أو احتفالات رسمية من هذا القبيل. وفي كل صيف كان يؤجّر المنزل نفسه في «برودستيرز» حيث نمضي أسبوعين. يبدو لي أن رجلًا في مثل ثرائه عاش حياة رائعة. كانت جديرة بالإعجاب، إذ تميزت بالاستقامة والحزم وفقًا لقناعات أبي. لكنني الآن لا أشعر بالصدمة أو الذعر، اللذين انتابا قلبي الصغير عندما رأيت أمي مستلقية على الأريكة، واللورد بيرندج يميل نحوها يُقبّل يدها.

3

لقد داومتُ على تناول الإفطار في الطابق السفلي مرة في الأسبوع. ولبعض الوقت كنت أجلس إلى طاولة الطعام مع أبي فقط، إذ لازمت أمي غرفة النوم. عندما تمكنتُ أخيرًا من مشاركتنا الإفطار لم يكن الحال كسابق عهده. لم تُسد المودة طاولتنا قط، لكن آداب اللياقة على الأقل كانت تُتَّبَع كما ينبغي. وقد حافظ الامتثال الصارم إلى القواعد على سير الأمور على نحو لائق. لكنني الآن لاحظت بعض الفظاظة المتواصلة، وبعض العنف من حين إلى آخر. في أحد الصباحات، على سبيل المثال، بدت ثمار العنب على الطاولة شهية للغاية، فطلبت الإذن بتناول بعض منها. كنت أعلم أن اللورد بيرندج هو من أرسلها. فمنذ الحادث الذي تعرضت له أمي أصبح يرسل كثيرًا من الأشياء: زهورًا، وفواكه، وصناديق حلوى كبيرة تُلْفَها الأشرطة، مثل صندوق الحلوى الذي اشتراه لي في شارع بوند. وفي كل يوم كان يدقُّ باب منزلنا بنفسه ليسأل عن حال أمي وبيعت بتحياته إليها، في حين أن البعض اكتفوا بإرسال خدّمهم لأداء المهمة ذاتها.

عندما طلبت من أبي في تهذيب أن يناولني ثمار العنب نظر إليَّ بطريقة التي تثير الغيظ، إذ يبدو كأنه يحشد جميع قدراته الذهنية ليجيب طلبتي البسيط، وما لبث أن قال: «العنب... أجل، العنب. إن العنب يا سارا ليس ملكي، بل ملك والدتك. قد تأذن لك في أخذ بعض حبّات منه وقد لا تأذن. أظن أن اللورد بيرندج أرسله كي تتناوله شخصياً. ألا توافقيني الرأي يا فلورنس؟». كانت أُمي تقرأ خطاباً ولم تجبه، فألحَّ قائلاً: «ألا توافقيني الرأي يا فلورنس حول ثمار العنب هذه؟ تسأل سارا إن كان بإمكانها تناول بعضها. هل تعتقدين أن اللورد بيرندج قد يُرحَّب بمشاركة عطاياه؟ يرفض بعض الرجال ذلك».

دفعت أُمي الطبق عبر الطاولة ناحيتي، ثم نهضت وظلت واقفة تنظر إلى أبي بضع لحظات. أدهشتني نظرتها إليه، إذ بدا فيها الغضب والبغض. لكن أبي لم يلحظها لأنه بدوره كان يقرأ خطاباً. غادرت أُمي الغرفة، وشعرت أنها لولا العرج البسيط الذي تعانيه لكانت، كما يُقال، اندفعت خارجة. لم أدع إلى تناول الإفطار في غرفة الطعام مرة أخرى في ذلك الصيف. لكن في أحد الأيام في بداية الخريف استدعيت ويلي لتناول الإفطار مع أبي. لم تكن أُمي حاضرة، وجُلب إفطاري إلى غرفة الدراسة. لكنني لم أتناول شيئاً، إذ استبد بي اضطراب شديد وشعرت بأن كارثة قد وقعت. وقفت عند النافذة أتطلع إلى المناظر المعتادة. رأيت الرجل الذي يكنس الأوراق الصفراء بعدما نفضتها أشجار الدلب في الحديقة، ومختلف العربات التي تجرها الخيول. رأيت مُصلِّح نوافذ يحمل صفائح زجاجية مربوطة إلى حامل على ظهره، ومُنظِّف مداخن يدفع عربته المُحمَّلة بفُرَش يشبه شعرها رؤوس السود. تحركوا جميعاً في الفضاء الساكن أسفل سماء الخريف ذات الزرقة الباهتة. ثم وصلت عربة أبي إلى الرصيف، وراقبتها كي أراها تنطلق إلى مركز المدينة. لكنها اتجهت صوب منزل اللورد بيرندج، الذي استطعت رؤيته بوضوح لأنه شغل ناحية من الميدان تتعامد مع موقع منزلنا. خرج اللورد بيرندج بسرعة شديدة حتى بدا كأنه كان ينتظر العربة. ثم استقلَّها بجوار أبي وغادرا معاً.

في تلك اللحظة دخلت الأنسة ويل غرفة الدراسة تعلو الجدية وجهها. ظلَّت صامتة بعض الوقت، ثم قالت: «ما رأيك في الذهاب في عطلة يا سارا؟».

فكرت في برودستيزز قائلة: «لكننا حظينا بعطلتنا بالفعل».

- أجل، لكن من الممكن أن نحظى بأكثر من عطلة خلال العام. ستكون هذه العطلة أكثر طولاً، لكنني لا أعلم كم ستطول. يريدني السير ريتشارد أن آخذك بعيداً حتى، حسناً، حتى يستدعينا.

- لكن متى سنرحل؟

- ظهيرة اليوم سننتقل إلى «فولكستون»، وغداً سنسافر إلى «بولون» في فرنسا.

4

لكن بولون لم تكن وجهتنا، بل بلدة «مونتروي» البديعة القائمة على تلّ يشرف على نهر «كانش» الذي يتدفق ماؤه سريعاً، وتحيط بها الأسوار. لقد اجتاحني هذا الخبر مثل موجة رفعتني، كما لم يحدث في حياتي من قبل قط، إلى قمة الحماس.

شرعنا في حزم أمتعتنا حال أن قالت ويلي إننا ذاهبتان. ألححت في سؤالها لماذا؟ لماذا نحن ذاهبتان يا ويلي؟ لماذا نحن ذاهبتان فجأة هكذا يا ويلي؟ لماذا نحن ذاهبتان إلى فرنسا؟ لكنها تحفظت في جوابها وهذا شيء لم أعتده منها. واستنتجت وجود أسباب مُلِحّة تستلزم أن أتنحى جانباً.

قالت: «إن السير ريتشارد هو من اقترح السفر إلى فرنسا. عندما ذكرت له عائلة أندريدج قال إن هذا الاقتراح مناسب تماماً. إن بولون، في نهاية المطاف، قريبة من إنجلترا ومونتروي على مرمى حجر منها».

- من هم عائلة أندريدج؟

- لا تجلسي على هذا الصندوق فأنّ تعوقيني. إن أردتِ أخذ أي كتب معكِ يجدر بك أن تخرجيها من الأرفف. عائلة أندريدج هم أناس تعرفت إليهم عندما كنت أعيش في فرنسا. إنني على اتصال بهم، وكثيراً ما دعوني إلى الذهاب إلى مونتروي والمكوث معهم. كانت المدرسة التي ارتدتها هناك. واعتاد السيد أندريدج الذهاب إليها لإعطاء دروس الرسم

فهو فنان. أما زوجته فكانت تُدرّس اللغة الإنجليزية. لديهما صبي يُدعى دانييل. أظن أنه في الثانية عشرة الآن.

أمضينا النهار في هذه الثرثرة المفعمّة بالحماس، وحزم الأمتعة، وتناول الغذاء على عجل. بعد ذلك أخذتني ويلي إلى باب غرفة الجلوس ودفعتني برفق إلى الداخل. كنت قد ارتديت ثياب الرحلة، وفي انتظاري عربية مستأجرة ذات عجلات أربع أمام باب المنزل، حيث تُحمّل بصناديق الأمتعة. كانت أُمي مستلقية على أريكة تريح قدمها. بينما أقترَبُ منها مدّت يدها إليّ وجذبتني نحوها. لم أرَ وجهها خاليًا من العواطف بهذا القدر من قبل. كان ليعود إلى إشرافته في لحظات كتلك، لكنه ظل على جموده.

قبّلتنني ببرود شديد وقالت: «أحسني التصرف. أنا واثقة في الآنسة ويل تمام الثقة. تذكّري أنّك ستصبحين تحت مسؤوليتها بعض الوقت. يجب أن تطيعيها إطاعة تامة».

قلت جادّة: «حسنًا يا أُمي. بالطبع سأطيع ويلي فأنا أحبها».

نظرت إليّ بضع لحظات كأن خاطرة حزينة دارت في ذهنها، ثم قالت: «لا يكفي الحب دائمًا لأن يجعل الحياة أكثر سهولة».

كانت، في ما بدا، تحاول البوح بشيء. تبحث عن كلماتٍ يجب أن تقولها، لكنها لم تستطع العثور عليها. وبينما أقف هناك أتململ، ولا أتمنى سوى أن تنقضي هذه اللحظة كي تبدأ مغامرتي، وعقلي غير منتبه للمغامرة الكبيرة التي تأهّبت لها أُمي وربما تهيبّتها، قالت: «حسنًا إذن، فلتذهبي».

رأيت عبر النافذة الصندوق الأخير يُرَفَع إلى العربة، فاستدرت بلا لياقة وغادرت مسرعةً لأقف بجوار ويلي عند باب المنزل الرئيس.

بعد ذلك عشت تجارب جديدة مشوّقة تحتفظ بها ذاكرتي دون ترابط أو ترتيب. رأيت بحّارة وعمال السكك الحديدية، وسطوع الشمس على مياه القنال الإنجليزي. سمعت لغات أجنبية وتناولت طعامًا أجنبيًا، بقيادة ويلي التي شقّت طريقنا مثل مُقدّم السفينة. أظن أن الذهاب إلى مونتروي في تلك الأيام لم يكن مغامرة كبيرة، لكن عقلي المُكبّل رأى فيما يحدث مغامرة لا مثيل لها. وقد التقطت أنفاسي، مثلما قد يفعل أحد الصليبيين عند وصوله إلى

القدس، إذ أوصلتني ويلي إلى سريري في «أوتيل دو فرانس» وقالت: «لقد وصلنا. غداً سنزور عائلة أندريدج».

5

يؤسفني قول إن دانييل أندريدج كان يرتدي بذلة مخملية سوداء وياقة بيضاء من الدانتيل. لقد بلغ هذا الزي التقليدي من السخافة ما يجعل امرأة في مثل عمري تعجز عن كبح ضحكتها عند تذكره. لكنني لا أتذكر الزي الذي ارتدته حينها. ولم تبق صورة، من حسن الحظ، لتذكّرني به. ربما ارتدّيت بنظلاً يغطي أعلى حذائي الطويل وينتهي ببضع بوصات من الدانتيل.

انطلقنا للزيارة وقت الأصيل في ظلّ أجواءٍ لن أنساها أبداً. لقد شعرت بوجود اختلاف في ماهية الضوء عمّا خبرته قبلاً، حتى بدا في حديقة المنزل المحاطة بجدران بيضاء عالية كأنه اكتسب لوناً خفيفاً، وكان الهواء ساكناً بلا رياح. لقد سرت أنا والآنسة ويل في شارع ضيق مرصوف بالحجارة -يمكن وصفه على نحو أدقّ بالمرمر- يمتد على جانبيه جداران بيضاوان، تقطعهما هنا وهناك بوابات المنازل. دفعت الآنسة ويل باباً صغيراً أخضر اللون شقّ في بوابة، ثم اجتزنانه لنصبح أمام المنزل. كان منخفضاً طلي بلون أبيض جعله يبدو وامضاً في الجو الخفيفي، الذي ظل طوال اليوم دافئاً وضبابياً، لكنه الآن، مع زوال الشمس، أضفى رونقاً على الأشياء لتبدو خيالية.

لم يكن المنزل مثلاً في الترتيب، لكن جدرانه المستطيلة ازدانت بتعريشات تدعم زهور الياسمين والورود الحمراء. ملأت هذه الزهور الأجواء بعَبَقٍ ذكيٍّ قويٍّ، كأنها ظلت تتكثف بين الجدران العالية طوال الصيف. رأيت نافذة مفتوحة صُمّمت على الطراز الفرنسي، وفي المساحة العشبية أمامها جلست عائلة أندريدج في مقاعد من الحديد المطلي باللون الأخضر.

في ذلك الصباح سألت ويلي: «أخبريني شيئاً عن عائلة أندريدج».

عندئذٍ تذكرت ويلي أن تعليمي اللغة الفرنسية جزء من مهامها فأجابتني ضاحكة: «موجة بالفرنسية تعني أوند Onde، وأوندلير Onduler يعني

يتموج. la vraie fonction d'un Undridge est d'onduler. هذا يعني يا عزيزتي سارا أن من ينتمي إلى عائلة أندريدج يتحرك بسلاسة وانسيابية كال موجة».

بينما تقترب نهض أفراد العائلة الثلاثة وتقدموا نحونا، ففهمت على الفور ما قصده ويلي بحديثها عن الموجات والتموج. كانت السيدة أندريدج أكثرهم شبهًا بالموجة في حركتها، فقد أوحى مظهر تنورتها بأنها لا تملك ساقين، حتى إن قدميها لم تكونا ظاهرتين. تُعد امرأة جميلة وفقًا لمنظور فَنّاني ما قبل الرفائيلية. كانت طويلة، ونحيلة، وعنقها ممتلئ قليلًا. ذات وجه شديد البياض تتلألأ على صفحته عيان باللون الأزرق الداكن. بينما تتقدم نحوي أصدر القماش الحريري اللامع الذي لفّها حفيظًا كأنها تتزلج على ثلج خفيّ. أما السيد أندريدج فتمكنت من رؤية ساقيه. كان يرتدي بنطالًا رماديًا أغبش، ومعطفًا أسود فضفاضًا يرفرف، وربطة عنق كانت مُرتخية وترفرف أيضًا. استقرت قبعة سوداء مثل سحابة داكنة فوق شعره غير المُرتّب، خلعتها عن رأسه عندما صافح الأنسة ويل. لم يتحرك مثل موجة كزوجته، بل شابه نمرًا. كانت عيناه البرّاقَتان ضاريتين، وبدا ذقنه وأنفه المُدبَّبان كأنهما خُلقا لكشف ما خفي. ارتدى الفتى دانيال، كما ذكرت، القماش المخملي والدانتيل. كان رشيّ القامة جميع خطوط جسده متناسقة. تموّج شعره الداكن الطويل على جانب وجهه مثل جناح يرفرف، وبدا كأنه يمَشُّطه كل ساعة.

جلب السيد أندريدج مقعدين وطاولة جميعهم من الحديد المَطليّ باللون الأخضر. رأيت السيدة أندريدج عبر النوافذ الفرنسية تتحرك بخفة، ثم خرجت تحمل طاقم الشاي. وتبادل الجَمْع الكلمات التي تُقال في مثل تلك المناسبات. قالت السيدة أندريدج: «الآن لنحظى بكوب شاي ذي مذاق أصيل يا ماجي. أظن أنك تتوقين إلى شراب كوب شاي ذي مذاق أصيل. إن أحد الأشياء التي لا يجيدها الفرنسيون أبدًا هي إعداد كوب شاي ذي مذاق أصيل».

قال السيد أندريدج: «لكنهم يتفوّقون علينا في إعداد القهوة».

أذعنت زوجته قائلة: «أجل، يمكنهم إعداد كوب قهوة ذي مذاق أصيل ولا نستطيع نحن الإنجليز منافستهم في صنع المُعجّنات. تهذّب يا دانيال! هذه المُعجّنات من أجل الأنسة راينبرو».

وضع دانييل في طبقه أشهى قطعتين من المُعجَنَات بسرعة، وناولني طبق التقديم بما تبقى فيه، فيما والدته تواصل ثرثرتها: «وبالطبع فيما يتعلق بالخضراوات فنحن الإنجليز لا نجيد إعدادها».

قال السيد أندريدج: «لا يجيد الإنجليز إعداد النبيذ أيضاً».

وافقته السيدة أندريدج قائلة: «أجل، وهذا أيضاً!».

ثم رنّت ضحكتها الصادقة المقتضبة لتدلّ بوضوح على أن الإنجليز لا يجيدون إعداد النبيذ حقاً.

أكدت ويلي وهي ترتشف مشروبها أنه كوب شاي إنجليزي ذو مذاق أصيل، واستفسرت عن لوحات السيد أندريدج، التي دلت -وا أسفاه!- على أن الإنجليز لا يجيدون رسم اللوحات.

بينما يتحدثون نقل دانييل نظره من أحدهم إلى الآخر والجدّة تعلو وجهه كأنه أحد البالغين. من حين إلى آخر كان يرفع يده الطويلة النحيلة ليحكّ رأسه ويعبث بجناح شعره، فتقول والدته: «إن شعرك رائع للغاية يا عزيزي فلا تشعّته. هل معك مشط؟».

فيُخرج دانييل مشطاً من جيبه في صمت، دون أن يخرج عن إنصاته الشديد الغريب، ويمرّره في شعره ببطء كي يملّسه.

في هذه الجلسة أهمل وجودي تماماً حتى إنني جفلت عندما قالت السيدة أندريدج فجأة: «يا آنسة راينبرو...».

قالت ويلي: «لن يبدي أحد اعتراضه إن دعوتها سارا».

- حسناً، إذن يا سارا أظن أن التجول في الحديقة سيروقك. اصطحب سارا إلى البركة يا دانييل.

ألقي هذا الأمر بغتة كأني مُهرةٌ ستُقاد لتَرِد الماء، أو جروّةٌ حُكِمَ بأن يُربط حجر إلى عنقها كي يُقذف بها في البركة. نهض الجميع وأتت الفتاة بيرث. كانت مكتنزة الجسد تبدو مَرِحَة، أخذت ترفع طاقم الشاي فيما السيد والسيدة أندريدج وويلي يدخلون المنزل. وقف دانييل بجانبني حتى غادر الجميع. وفجأة ركل الطاولة الحديدية ركلة عنيفة أطاحت بها، وعبثت كلتا يديه بشعره عبثاً محمومًا حتى تشعّث خصلاته.

من أسفل تلك الكومة المُشعَّثة نظر إليَّ متجهًم الوجه، ثم أمسك بيدي قائلاً: «الآن سنرى البركة اللعينة إن كنت تريدن ذلك».

سرنا في طريق مُمهَّد وسط المساحة العشبية، وبينما نمشي غنى دانييل بصوت خافت لا يمكن لمن بداخل المنزل سماعه: «البركة اللعينة، البركة الشنيعة، البركة الغتية». كان ينظر جانباً ليرى إن كنت خائفة. وقد انتابني الخوف، إذ إنني لم أسمع مثل هذه الكلمات قبلاً في غير أحاديث الشوارع على لسان سائقي عربات الأجرة والباعة الجوالين. لكن حينئذ لم يوجد قوة تستطيع دفعي إلى أن أبدي لدانييل أندريدج أن كلماته أثرت بي على أي نحو. كانت البركة جميلة، دائرية لها حافة حجرية اكتست بالطحالب والحزاز. حولها حجارة مرصوفة يليها حوض زهور يزدان بألوان آخر أيام الخريف. وراءه سياج من أشجار الطقسوس المُشدَّبة. كان السياج ساحراً، غامضاً، مزدهراً يُخضِّبه الغروب، ورطباً بفعل قطرات مياه تنساب على حافة حوضه. قال دانييل: «ها هي البركة اللعينة. ما رأيك بها؟».

كانت تلك أول مرة أبقى فيها مع أحد الفتية بمفردي. لم يحدث كثيراً أن انفردت بأحد، باستثناء كايت أولاً ثم ويلي. في بعض الأحيان كنت أُصطحب إلى حفلات يحضرها فتية. وشاركني بعضهم دروس الرقص أيضاً، لكنهم كانوا كئيبين وخاضعين. لهذا شعرت أن ما أعيشه الآن مختلفاً بالمرَّة، وفكرت: «إن كانت هذه طبيعة الفتية عندما يصبحون بمفردهم فلا مانع لديَّ من ألا أرافق أي فتى مجدداً أبداً».

وقف دانييل يتطلع إلى البركة، يداه في جيبيه، ويزيل عن الحافة الحجرية قرصاً من الحزاز ذا لونٍ برتقاليٍّ زاهٍ بمُقَدَّم حذائه. سألته مستنكرةً سلوكه: «لماذا تُسبُّ؟».

لم يجبني، بل واصل كشط الحزاز بتصميم، ثم قال: «يستغرق نمو هذه الأشياء أعواماً».

- كان يبدو جميلاً للغاية، لكنك أفسدته.

قال: «هو من يراه جميلاً. ألا ترى أن غشاء الحزاز هذا جدير بالإعجاب؟ إنه جمال عَرَضِي يمَسُّ القلب أكثر من جميع آثارنا المُصطنعة».

فهمت أنه يُقَلَّد والده، قلت: «ألا تحب والدك؟».

لم يجبني مجددًا، بل أقحم أصابع يده العشر في شعره بقوة يُشَعِّثُه، حتى بدا مثل كومة مُحَطَّمة من جِزَم الذرة. ثم التفت إليَّ وغَضَّنَ قسمات وجهه ليبدو شنيعًا. جذب بأصابعه جفني عينيهِ، وسَّع منخاريهِ، وأخرج لسانه.

قال: «ما رأيك في هذا الجمال العَرَضِي؟».

- أرى أنك فتى بغيض.

بدا أن كلماتي سلَّته، قال: «أنا بغيض للغاية، لكنهم لا يعلمون هذه الحقيقة. إنني ثائر، وقد أتفوَّه بأشياء لا يناسب أذنيكَ سماعها».

لم أجد ما أجيب به كلماته، فتابع قائلًا: «يوجد شيء آخر أستطيع فعله. أستطيع أن ألطِّخ هذه البذلة اللعينة وأقول إنك من فعلها. ستنالين تقريعًا شديدًا».

فكَّرت في أمي، وقواعد الانحناء تحيةً والإحجام عن الانحناء تحيةً. رأيت أن دانييل من نوع الأشخاص الذين قد «يتعامى» المرء عنهم في المتنزه. لكنني لم أُرِد التعامى عن دانييل أندريدج، بل أردت تحدِّيه.

قلت: «لن تستطيع أن تفعل ذلك. أنا أتحداك».

انحنى إلى الأسفل، دفع بيده في البركة، وأزال حفنة من المادة الخضراء اللزجة عن جدارها الداخلي. ثم صفع بها صدر معطفه المخملي الأسود مثل مسطرين يحمل المِلاط، ودَهَنه بها حتى أصبح مُقَرَّزًا بيديه كريهتي الرائحة، وشعره الجامح، ومعطفه القذر. ثم دَلَّكَ صفحة وجهه بيديه اللزجتين. الآن بدا حقًّا أنه ثائر تمامًا كما ادَّعى قبلاً.

غَضَّنَ وجهه إحدى تغضيناته التي لا تُنسى يحاول أن يبدو أحول العينين، وقال: «الآن ليرسمني جالسًا على حافة البركة. لقد سئمت من الجلوس على حافة البركة اللعينة».

نظرت إليه مرتاعةً وقلت: «ستقول إنني من فعل هذا بك؟».

أجابني متوعَّدًا: «أجل، ولا أتمنى أن أعيش الموقف الذي ستواجهينه».

ثم شرع يسير تجاه الفُرجة التي شُقَّت في سياج الأشجار. عندئذٍ شعرت أنني حقًّا في ورطة. ليس بسبب ما سيقوله السيد والسيدة أندريدج لأن هذا

لم يشغل بالي قط، بل لأنني أجَلَلْتُ رأيي ويلي السليم إجلالاً كبيراً وخشيت أن تظن بي سوءاً. في تلك اللحظة ظهرت ويلي نفسها عند الفُرجة، بعدما سارت بهدوء فوق العشب، واصطدم بها دانييل.

عندما رأت مظهره جفلت رافعة يديها وقالت: «يا إلهي! ما الذي فعلته بنفسك يا دانييل؟».

أخفض دانييل نظره، ظل صامتاً بضع لحظات، ثم أشار نحوي قائلاً: «لماذا أحضرتها معكِ؟ إنها بغیضة. لقد لَطَخْتَنِي، لوَثَّنْتَنِي كُلِّي».

عندئذٍ انتظرتُ أن تصب ويلي غضبها عليّ، لكنها لم تقل سوى: «اجلس قليلاً يا دانييل».

أطاعها وجلس على حافة البركة الحجرية الدافئة. نقلت ويلي نظرها بيننا، ثم قالت: «أنت أكثر حماقة مما ظننتك يا دانييل».

تجهّم وجهه وقال: «أنا فتى كبير لعين، وذكي جداً».

- أجل، إنك من الذكاء بحيث تؤدّ أن تجعلني أصدّق أن سارا هي من فعلت هذا بك. تخبرني أنك مُلَطَّخٌ بالقذارة من أعلى رأسك إلى أخمص قدميك وهي من لَطَّخَكَ. لكن انظر إليها! هل فعلت فعلتها دون أن تتلطح ثيابها ببقعة واحدة من القذارة، أو تُبلّل يديها قطرة واحدة من المياه؟ أم إنها حظيت بوقتٍ كافٍ لتدخل المنزل وتغتسل وتبدّل ثيابها؟».

ظل وجهه متجهماً، لكن لم يوجد شيء ليقوله.

قالت الأنسة ويلي: «إذن ماذا ستقول لوالدتك ووالدك؟ سيكون عليك أن تفسر لهما ما حدث بطريقة ما، أليس كذلك؟».

بدا دانييل بائساً وهو يجيبها قائلاً: «أظن ذلك».

- حسناً، هل لديك أي أفكار عما ستقول؟

لم يملك دانييل أي فكرة عما يمكنه قوله. وتراءى لي أنه بعد لحظات قد يشرع في النشيج.

قلت: «يمكننا أن نقول إنه سقط في البركة».

عندئذٍ نظر إليَّ وتبدَّى في نظرتِه بعض الامتنان، لكن ويلي قالت بصرامة: «إن مظهره سيئ، لكنه ليس بهذا السوء. إن كان سيقول إنه سقط في البركة فعليه أن يدخل البركة. ولأنني لا أرى حلًّا آخر للأمر فسيدخلها».

بعد ذلك مباشرة وضعت إحدى قدميها أسفل ركبتيه، ودفعتها عاليًا فسقط إلى الوراء. حال أن أصبح داخل البركة انحنت لتمسك بمؤخرة ياقته وأخرجته منها.

بينما دانيل واقف يقطر قذارةً في مشهد كرهه قالت ويلي: «أنت من سيتولى تفسير ما حدث. لقد وقعت في مأزق وبذلنا قصارى جهدنا في إخراجك منه. لقد ودَّعتُ والديك نيابةً عن سارا والآن سنغادر. إلى اللقاء».

ثم أمسكت بيدي وبدأنا السير. مررنا بالمنزل حيث تظهر بضعة مصابيح ذات إضاءة خافتة على واجهته البيضاء. ثم اجتزنا البوابة الخضراء لنصل إلى الممرّ ذي الحجارة المرصوفة. وقطعنا الميدان الكبير وصولًا إلى أوتيل دو فرانس. عندئذٍ سمحت ويلي لنفسها بالصياح قائلة: «يا للشقي الصغير!».

6

شَغَلَ أوتيل دو فرانس بقعة صغيرة قريبة من الميدان، وتضمَّن فناءً تُطلُّ عليه الشرفات. كان مما أبهجنني أن أغادر السرير ركضًا إلى الشرفة لأرى الخيول في الأسفل تدقُّ الأرض المرصوفة بالحجارة، وأتنسَّم عَبَقَ الصباح إذ تمتزج رائحة القهوة والخبز الطازج. بعد الإفطار تجولنا في الميدان حيث نصبت الفلاحات كبيرات السنَّ أكشاكهن أسفل الأشجار، وأضاءت شمس الخريف ثمار التفاح والكمثرى، والكرنب والبصل والجرز، وجميع أنواع الأطعمة التي ترتبت في عددٍ من اللوحات اللامعة. سمعت ثرثرة متواصلة لم أفهم منها شيئًا، ونقيق الدجاج وزعيق البط. رأيت الخيول القصيرة المُشَعَّثة التي جرَّت العربات الريفية المربوطة إلى الأشجار. لاحظتُ بيرث تحمل في كل ذراعٍ سلةً خوصيَّةً كبيرةً، تساوم في السِّلَع وتفاوض في الشراء من كشك إلى آخر.

قالت ويلي: «سترى أنها حققت انتصارًا كبيرًا إن أتممت تسوق الصباح بتكلفة تقل عما توقعت بفلسين».

لقد سهوتُ عن عائلة أندريدج إذ فتنني الصباح الخريفي، الذي فاح برائحة خيوط العنكبوت النديّة، وملأته المناظر المتعددة في الساحة الملوّنة. لكن بيرث ذكّرتني بهم، فسألت ويلي: «لماذا تعيش عائلة أندريدج في فرنسا؟».

- يمكن للمرء أن يختار العيش أينما يريد، أليس كذلك؟ إنهم يحبون فرنسا. من ناحية لأنهم ليسوا أثرياء ويرون أن تكلفة المعيشة هنا منخفضة. ومن ناحية أخرى لأن حياتهم في إنجلترا لم تكن سعيدة.
- لم لم يكونوا سعداء؟

- لعدد من الأسباب. هل سمعتِ بالفنان دانتى جابرييل روزيتي؟
لم أسمع به، وكانت ويلي من الفصاحة ما جعلها تحجم عن إرباكي بذكر كثير من الأسماء و«الحركات الفنية» التي لم تكن لتعني لي أي شيء في ذلك الوقت.

تابعتُ: «وقع بينه وبين السيد أندريدج خلاف تضمن كثيرًا من الأمور غير المُستحسنة، بطريقة وبأخرى، ثم غادرت عائلة أندريدج البلد».

في ما بعد علمتُ بما حدث بينهما، شيئًا فشيئًا، ووجدته منطقيًا بسبب طبع روزيتي وطبع السيد أندريدج. كان الرسامون اليافعون، الذين ينتمون إلى رابطة ما قبل الرفائيلية، واثقين من أنفسهم تمام الثقة ويبهجهم التمرد. يستمتعون بأن يُصبحوا موضع النقد اللاذع، ويسخرون من أساليب من يكبرهم من الفنانين. إلى تلك المجموعة انتمى السيد أندريدج. صادق جون إيفرت ميليه، وروزيتي، وفورد مادوكس براون، وفنانين آخرين. وكانت زوجته موديلًا لمعظمهم. مثلت أم المسيح وإحدى الشحّازات. أصبحت فتاة إغريقية تحمل إبريقًا على رأسها، ومهاجرة ذات عينين نجلاوين تلقي نظرتها الأخيرة على إنجلترا. لكن أندريدج لم يكن في مهارة باقي الرسّامين. في الواقع، لم يكن رسّامًا جيدًا على الإطلاق. احتمله روزيتي ما دام استطاع إقراضه المال في مبالغ يزداد قدرها تدريجيًا. لكن أندريدج كان رجلًا رقيق الحال، ووقع الخلاف الأول عندما رفض أن يقرض روزيتي المزيد من المال. لذلك أخبره روزيتي، في وجود ميليه، برأيه في لوحاته ورماءه بسمكة رنجة مُدخّنة. كان

هذا السبب السخيف ما جعل عائلة أندريدج تنتقل إلى فرنسا منذ أعوام. هنا داوى فرانسيس أندريدج كبرياءه المجروحة. وسعى إلى أن يصبح «فناناً» في لباسه، وكلامه، وفي كل شيء دون النجاح في الفن. بالغت زوجته في مدحه واضطّر دانييل إلى مجاراتها. رسم فرانسيس لوحة واحدة نالت شهرة واسعة تُصوّر البركة في حديقة مونتروي، على حافتها يجلس دانييل مُرتدياً المخمل الأسود والدانتيل وجناح شعره مثال في الترتيب، يحدّق إلى صورته على صفحة المياه. سُميت اللوحة بالاسم «انعكاس»، واشترتها إحدى شركات تصنيع مُلمّعات النحاس، لتوضع على جميع لوحات الإعلانات لعدة عقود مع التعليق: «من أجل الحصول على انعكاس مثاليّ استخدِم مُلمّع المعادن من إيزيرب». بعد ذلك رُسم دانييل المسكين مراراً، في وضعيات متعددة، على حافة البركة. لو كنت أدري بهذه الحقائق في ذلك اليوم حيث تقابلنا للمرة الأولى لما رأيته، فيما أظن، فتى بغيضاً.

7

بينما نشاهد بيرث تبتعد بسلّتيها الملتأتين قلت لويلي: «ظننت أننا سنعيش مع عائلة أندريدج».

- أمل أن نعيش في منزل عائلة أندريدج، لكنهم لن يكونوا هناك.

لم نعرف في ذلك العصر الإجراءات الروتينية المعقدة، التي تتمثل في جوازات السفر، والوثائق الرسمية، والصّرافة، وباقي ما استحدث في العصر الحالي. لقد تناقشتُ الأنسة ويل مع أبي حول أفضل ما يمكن فعله من أجلي في وقت الأزمة، وعندها تذكرت الزوجين أندريدج. كانا رقيقَي الحال ويرحّبان باستقبال المستأجرين. لهذا غادرنا في ذلك اليوم نفسه. لكن في أثناء حديثها مع العائلة في غرفة الجلوس، بينما يتصرف دانييل مثل صبي أحمق بجوار البركة، علمت ويلي أن وصولنا المفاجئ حدث في وقت تستعد فيه العائلة للسفر. لقد قبل السيد أندريدج للعمل مُوجّهاً لدراسة اللغة الإنجليزية في مدرسة في «بوربدو»، ووجب عليه السفر خلال بضعة أيام. لكن مدة إيجار منزل العائلة في مونتروي لن تنتهي حتى الربيع القادم، وإن رغبتُ

أنا والآنسة ويل في العيش فيه فسينتفع من تأجيله لنا. ستهتم بيرث بنا، وإن كان مكوث دانييل معنا ممكنًا فسيلائم هذا الوضع عائلة أندريدج تمام الملاءمة، فيما يحاولان التأقلم في بوردو. لم يتبق سوى أن تخبر ويلي أبي بهذا الأمر. وما أسرع ما وصلت إلينا موافقة الرجل المسكين! كان يشغل فكره أمر عائلتنا التي تواجه أزمة لم أدر بها حينئذٍ، وكم سَعد بمصادفة العثور على طريقة تبقيني بعيدًا في يد أمينة.

هكذا غادر السيد والسيدة أندريدج خلال أسبوع، وتركت أنا والآنسة ويل الغرف الرائعة ذات الشرفات في أوتيل دو فرانس، لنمكث مع بيرث ودانييل في المنزل الأبيض عريض الجدران. ظللنا هناك طوال الخريف والشتاء حتى الربيع، ويجدر بي ألا أتأخر في وصف ذلك الوقت السعيد، لأنني ودانييل حظينا بحياة لم نختبرها قبلاً. تحرر كلانا من القيود. عشنا أيامًا تسودها الديمقراطية، لو علم أبي وأمي بتفاصيلها لفزعا. سيكون من المريع في نظرهما أن إحدى الخادِمات -خادمة تتولى شؤون المطبخ لا مُربيّة تُتاح لها بعض الامتيازات- أُتيح لها رفقتنا. لقد تجوّلنا نحن الأربعة معًا كل يوم. وعندما أخلى الخريف مكانه للشتاء ازدادت جولاتنا لطفًا، إذ سِرنا بمحاذاة أسوار البلدة، مرورًا بالأرض الرطبة التي يقطعها نهر كانش. دخلنا الأكشاك حيث اشترينا القرفة، ومقاهي على جانب الطريق حيث جلسنا في مقاعد طويلة، نشاهد وجباتنا من البيض والبطاطا تُقلى على موقد يُشبه أُصيصًا ذا عين واحدة تتوهج. سُمح لي ولدانييل بارتشاف النبيذ الأحمر الدافئ لاذع المذاق، الذي تناولته ويلي وبيرث في قدحين كبيرين، مع البيض، والبطاطا، وشرائح خبز خشن اقتطعت من أرغفة تشبه الهراوات. رأينا فلاحين وعمالًا زراعيين يجلسون في الجوار، يدخنون ويبصقون، ويتحدثون اللغة التي لم أجدّها قط. ثم نعود إلى المنزل سيرًا قاطعين الطرقات التي تحدّها أشجار الحور، برفقة القمر أحيانًا، وفي أحيان أخرى بصحبة الصقيع الذي يعكس ضوء النجوم المتلألئة فيبرق. ثم نصل إلى جوار المدفأة والمصباح المُعلّق. تجلس بيرث في إحدى الزوايا للخياطة، تكتب ويلي فوق مكتب صغير، وننكفي أنا ودانييل على كتاب أسفل الضوء. كم بدا صبيًا عاقلًا حينئذٍ! كان يرتدي ثيابًا قديمة ويمسّط شعره متى يروقه فعل ذلك. لقد احتفل برحيل والديه بقصّ شعره القصّة التي يريدها ولم يعد يزعجه طوله. لم يسب ولم يغضّ وجهه. خلال

تلك الفترة أعفتني الأنسة ويل من الدروس بشكلها المعتاد. لكنني الآن أرى أن أنشطتها التعليمية لم تتوقف، بل كانت على أشدها. وأنها، لقصر المدّة التي كنت سأقضيها في فرنسا، قد عزمت على أن أتعرف البقعة حيث مكثنا بدلاً من الجلوس للاستماع إلى الحكايات السخيفة عن البلد نفسه. على أنها لم تصرّح لي بأيّ من هذا، وسرعان ما حلّ الصباح الذي أخبرتني فيه: «لقد انتهت عطلتنا يا سارا. سنعود إلى إنجلترا حال أن نُسوّي أمورنا هنا».

في أحد صباحات مايو اللطيفة تناولنا الإفطار في الهواء الطلق للمرة الأولى. جلسنا إلى إحدى الطاولات الحديدية الخضراء بهدوء شديد كي لا نزعج الطيور المغرّدة، التي كانت تقفز خلف الفتات المُلقى على الأرض. هناك جلست ويلي تمسك بخطاب في يدها وتقرأ الخبر الوارد فيه. خفق قلبي عندما انتبهت إلى أن الخطاب كان من نوع أعرفه.

سألتها: «هل أرسل اللورد بيرندج هذا الخطاب؟».

حينئذٍ كنا جالستين وحدنا بعدما تركنا دانييل ودخل المنزل. نظرت إليّ بعض الوقت دون حديث والخطاب في يدها، ثم قالت: «لا يا سارا، لم يرسله اللورد بيرندج، بل أرسلته الليدي بيرندج. أعني والدتك. لقد أصبحت هي واللورد بيرندج متزوجين».

الفصل الخامس

1

لا أستطيع أن أسهب في الحديث عن شعوري عندما سمعت الخبر الذي بلغّنتني به الأنسة ويل. لقد انتابتنى الحيرة والاضطراب. كان عليّ بذل قصارى جهدي لتقبّل أن أمي، التي عرفتھا الليدي راينبرو، أصبحت الليدي بيرندج. حتى إن ويلي لم تتجاسر على أن تفسّر لطفلة من أطفال ذلك العصر، في العاشرة من عمرها، ما الذي يعنيه الطلاق. لكنني أستطيع سرد بعض ما علمته شيئاً فشيئاً بمرور السنوات لأنتهي من هذا الأمر.

لقد انخرط اللورد بيرندج في حالتي طلاق. أوّلهما بصفته ما ندعوه الطرف المجني عليه عندما تركته زوجته من أجل دوق فالوشير. وثانيهما بصفته الطرف الجاني عندما قابل أمي. عليّ أن أذكر الجملة الطريفة، التي تبدو كأنها مُقتبسة من إحدى روايات ويدا، وهي أن اللورد بيرندج تنحّى عن منصبه العسكريّ. في تلك الأيام كان الرجال يقدمون على فعل مثل هذه الأشياء نتيجة لسبب كالطلاق. وقد ترك عضوية مجلس اللوردات إلى الأبد.

كان لتلك العلاقة أثر كبير في حياته لا يقل عن أثرها في حياة أبي، الذي تمتع بشيء من رحابة الصدر لا شك، إذ إنه لو أراد بعد وقوع الطلاق الحصول على «حضانة الطفل» لنالها. عندما أقرأ التعبير الشائع السابق الذي وضعته بين علامتي تنصيص، وأدرك أنا العجوز البائسة أنني ذلك «الطفل»

المقصود، فإنني أشعر بالامتنان الشديد لأبي لأنه أطلق سراحى. رغم ذلك فإن عليّ أن أقرّ، دون رغبة في ذمّه، بأنه على الأرجح تصرف على هذا النحو لأنه الأكثر ملاءمة له. فهو لم يكن من الرجال الذين يقدّسون الحياة العائلية قط، واستغرق في شؤون عمله كلياً. فلا شك أن الحصول على حضانة طفل في غياب زوجة بدا له قيّداً باهظ التكلفة. وفي نهاية المطاف ترك منزلنا القائم في ميدان بورتمان وغادر إلى «ألباني» مع أحد الخدم. لكنني لا أودّ أن أختتم حديثي عنه بوصفٍ ينتقص من قدره. لقد كان يستطيع أن يفرّقني عن أمي نكايّة بها، لكنه لم يفعل ذلك. لم يكن رجلاً يُعنى بالقلوب. لكنه، في ما بدا، قد تحرّى الإنصاف عند التصرف في هذه المسألة، وفقاً لمبادئه.

أكتفي بذكر هذه التفاصيل المضجرة، التي رغم كآبتها فإنها لم تؤثر بي. حينئذٍ لم أدرك سوى أن أمراً غريباً مثيراً للحماس قد وقع؛ لقد أصبحت أمي زوجة اللورد بيرندج وسأعيش معها ومع سالي جايلورد.

قلت لويلي: «ألن يعجبك الأمر؟».

أجابتنى بجدية: «أنا؟ ما علاقتي بالأمر؟».

- ستذهبين معنا! سنعيش جميعاً في تريسانت.

- لم يتضح هذا بعد. لا شك أن للآنسة جايلورد مُربّيتها الخاصة وقد تتولى رعايتكما معاً.

حلّ جوابها مثل غيمة في سماء صباحي. انتابتنى الكآبة ولم تسهل مواساتي.

قالت ويلي: «ابتهجي يا سارا فأنا، في نهاية المطاف، سأتركك يوماً ما».

- أعلم هذه الحقيقة، لكنك لن ترحلي قبل أن تبني شخصيتي. هذه هي مهمتك وفقاً لما سمعت أبي يخبر به أمي. عندما تنجزينها سأتمتع بقوة تمكنني من أن أعني بنفسى في غيابك. وعندئذٍ يمكنك الرحيل.

- صدقت. من المبهج أن أتطلّع إلى حدوث هذا الأمر، أليس كذلك؟

حزنت للافتراق عن دانييل أندريدج. لقد راسلنا والديه نخبرهما بأنني وويلي سنغادر مونتروي قريبًا. وأجابنا السيد أندريدج قائلاً إن على دانييل أن يمكث مع بيرث إلى أن يأتي بنفسه ليأخذه إلى بوردو. مرَّ قرابة أسبوع انتظرنا خلاله التعليمات المُتعلِّقة برحلتنا إلى تريسانت، ثم حدث شيء بالغ الروعة لم نتوقعه. اجتاز اللورد بيرندج وسالي جايلورد بوابتنا وانضما إلينا عندما جلسنا لتناول الشاي! لقد جاء ليصطحبانا إلى المنزل.

منذ تلك اللحظة اختلف سلوك دانييل اختلافاً أخرجني. لقد شعرت بفخر شديد لتحسن خُلُقهِ، لهذا فاجأني عدم ترحيبه بضييفنا. لقد جلسا إلى طاولتنا الحديدية الخضراء. أحضرت بيرث كوبين وصبّت ويلي الشاي. وبينما يسرد اللورد بيرندج مخطط رحلتنا شاركه الجميع الحديث وأسهبوا فيه؛ الجميع ما عدا دانييل الذي جلس هادئاً متجهماً.

أخبرنا اللورد بيرنادج بسفر دانييل الوشيك فسأله: «كيف هو شعورك أيها الشاب حول رحلتك إلى بوردو؟».

عبس دانييل مستاءً، شعّت شعره الذي بدأ يطول مجدداً، وأجابه بالفرنسية قائلاً إنه لا يفهم الإنجليزية.

قال اللورد بيرنادج: «Eh bien. Parlons alors en français. Ce voyage à Bordeaux. Vous serez content, sans doute, de revoir vos parents?».

فأجابه دانييل بالإنجليزية قائلاً إنه لا يفهم الفرنسية.

دُهِشت ويلي، ثم قالت: «دانييل، هلا تصطحب الآنسة جايلورد إلى البركة؟».

نهضت سريعاً وتأهّبت للحركة قائلة: «سأصطحبها بنفسي».

وبينما نحن ذاهبتان نهض دانييل وتبعنا. ظلَّ يتبعنا حتى البركة. لم يسر معنا قط، بل تباطأ في مشيه فظلَّ على بعد بضعة ياردات خلفنا. عندما

توقفنا أنا وسالي ننظر إلى المياه، التي كانت تزدهر ربيعاً مثل الطبيعة كلها،
بِقِي خلفنا يدها في جيبه ويضرب بحذائه حجراً عابس الوجه.
التفتت سالي إليه وقالت بحدة: «ما خطبك؟».

عندئذٍ غمرني سلوك دانييل بالخلج وخيبة الأمل. فقد رفع بصره، نظر إلى
وجه سالي مباشرة وقال: «لا تتدخل في غير شؤونك اللعينة».
توقعت أن ترتاع سالي مما قال، لكنها ضحكت وقالت: «على الأقل اتضح
أنه بشريٌّ. إنه يتحدث مثل صبية الإصطبلات».

شَعَثَ شعره، أخرج لسانه، وغَضَّنَ قسَمات وجهه ليبدو مخيفاً كما توقعت
أن يفعل.

ضحكت سالي مجدداً وقالت: «أستطيع فعل ما فعلت، لكنني لن أُلْكَدُ.
أعتقد أن مثل هذه الأفعال تجعل المرء يبدو أحمق غتياً».

أضحك دانييل استخدامهما المفاجئ لإحدى كلمات قاموسه الممنوعة فأرخی
دفاعاته.

عندما رأت سالي هذه الاستجابة أمرته قائلة: «تعال إلى هنا يا فتى، لن
يأكلك أحد».

تقدَّم دانييل على مهل ووقف بيننا يتطَّلَعُ إلى البركة. شَبَّكَت سالي ذراعها
بذراعه ولم تقل شيئاً. ورغم وقوفنا متباعدين فإنني استطعت الشعور
بالهدوء والرضا يداخلان دانييل. ظللنا هناك بعض الوقت نشاهد الضوء يلعب
على سطح الماء. ونستمع إلى خرير ماء النافورة الصغيرة ينصب في الحوض
الذي يفيض به، فينسب إلى البركة. لم نتفوه بكلمة حتى قالت سالي أخيراً:
«لنعد الآن بعدما رأينا البركة كما أمرنا».

تركتُ ذراع دانييل وسار ثلاثتنا عائدين إلى المنزل. بعد ذلك بعدد من
السنوات سأذكر هذا الموقف غير المعتاد، وتلك القدرة على خلق السكينة
التي أظهرت سالي امتلاكها مبكراً. رغم أن المنحى المفاجئ الذي ستتخذه
حياتها العملية سيفاجئني، مثله مثل كثير من الأمور.

أتذكر كثيرًا من الأحداث المتفرقة التي دارت في الأيام الأخيرة التي قضيناها في مونتروي. منها وجود ويلي على الغذاء في أوتيل دو فرانس، حيث مكث اللورد بيرندج وسالي، تقول مضطربة: «سيكون من المواتي يا سيدي اللورد، إن كان تكليفي برعاية الأنسة راينبرو سينتهي، أن أعلم في الوقت المناسب إن...».

تبعه جواب اللورد بيرندج ضاحكًا: «لم يكن قطع أرزاق الناس من ناموسنا أبدًا يا آنسة ويل».

ناموسنا... كم أطربت تلك الكلمة أذني. لقد أعجبتني.

أتذكر دفترًا لا أزال أحتفظ به من الرُّقِّ الأنيق، مغلفًا بالجلد الأزرق، نُقش على غلافه اسمي باللون الذهبي، واللورد بيرندج يقول: «أظن يا عزيزتي أنكِ سترغبين في تدوين أحداث الرحلة التي نوشك أن نبدأها. إليك دفترًا من أجل هذا الغرض».

أتذكر دانييل أندريدج وبيرث يهرولان من كشك إلى آخر في سوق الميدان الكبير في صباح اليوم الذي غادرنا فيه. وصناديق الأمتعة تُرفع إلى سطح عربة كبيرة مزخرفة استأجرها اللورد بيرندج من بولون ويجرُّها فرسان. ولأن اللورد بيرندج فضّل ركوب الخيل فقد خرج من الفندق يصفع ساقه بسوطه. خلع دانييل قبعته يُحيي اللورد بيرندج فارع الطول، الذي ربت على كتفه بالسوط بؤدّ وقال: «أنت فتى صالح، وينبغي لك أن تعلم هذه الحقيقة. لا تظن أن العالم بأكمله يسعى للنيل منك. هل تستطيع تذكر هذا؟».

- أجل يا سيدي.

- جيد جدًا. الآن حان وقت الوداع. ربما يجمعنا اللقاء مجددًا.

تصافحا، ورأيت عملة ذهبية تنتقل من راحة يده إلى راحة يد دانييل الذي علّت الدهشة وجهه. ثم أهدى بيرث مشبكًا ذهبيًا.

بعد ذلك، عندما انتهت الاستعدادات وامتطى اللورد بيرندج فرسه، قال لدانييل: «الآن يجدر بك أن تودّع الفتاتين. يمكنك تقبيلهما إن أردت».

ودّعنا بلا قُبَلات، بل تلامست وجناتنا، لمسة على ناحية والثانية على الناحية الأخرى على الطريقة الفرنسية. ثم ركبنا العربة حيث شغلت ويلي مكانها بالفعل، يرافقنا اللورد بيرندج على صهوة فرسه. وانطلقنا وسط الهتاف الحماسي لأهل السوق، الذين لم يعتادوا رؤية لورد إنجليزي يغادر أوتيل دو فرانس.

عبرنا البوابة حيث تُدفع رسوم إدخال البضائع، لنقطع الطريق المُحدّد بالأشجار الذي كثيرًا ما سلكناه لنذهب إلى مقهى المزارعين، حيث نحظى بمأدباتنا المُكوّنة من البطاطا ورشقات النبيذ الأحمر الساخن. ثم اتجهنا نحو الجنوب، كما يخبرني دفترني الذي لم أدوّن فيه شيئًا حينئذٍ، باستثناء أسماء الأماكن التي مررنا بها: «أبيفيل»، و«أميان»، و«باريس». ثم قصدنا الغرب مارّين بـ «شارتر»، و«لو مان»، و«رين»، و«بريست». كانت تلك المحطة نهاية وقتٍ رائع.

لقد عشت ذلك الحدث قبل زمنٍ بعيدٍ جدًّا، وأقرُّ بأن الدفتر الأزرق ليس ذا عونٍ كبير، إذ إنه لا يتضمن حتى أي تواريخ. ورغم أن تفاصيل ذلك الوقت ليست مُدوَّنة في الدفتر فإنها دُوّنت في قلبي، ولا يمكن لغير الموت أن يمحيها. لقد أصبحتُ هَرمة، نال مني التعب والوحدة. جميع من انطلقوا معي عبر طرقات فرنسا قد فارقوا الحياة. لكن في يومي هذا، الكئيب الذي لا يشبه حياتي القديمة، لا أزال آخذ غفوة من حين لآخر. وفي خلالها أعود مجددًا طفلةً تحيا في عالم جميل، أستقل عربة تتجه إلى ميناء بريست، معي سالي تُخرج رأسها من النافذة لتتهف باللورد بيرندج على صهوة فرسه قائلة: «أبي! أبي! ها هو القبطان رودا!».

4

لم يرَ اللورد بيرندج القبطان رودا ولم يسمع هتاف سالي، لهذا واصل التقدم الرصين على صهوة فرسه الذي يعدو خَبَبًا. أما أنا فقد رأيت القبطان يركض لاتبّعه. كان من الرائع أن ترى إيدي رودا يركض. فعلى الرغم من ضخامته فإن حركته امتازت برشاقةٍ مثل الفرس الذي يتبعه، وتناسقت بنيتة

على نحو رائع. احتوى حذاؤه الجلديّ الطويل، الذي يعلو ركبته، بنطاله ذا اللون الأزرق الداكن. اكتسى جذعه العريض بسُترة باللون نفسه. وغطّت رأسه قُبعةٌ مُخطّطةٌ حيكت باللونين الأحمر والأزرق، كان في قممتها شُرابة حمراء تدلّت على وجنته. رغم أنني رأيته يعدو ويقابلني ظهره فإنني لحظت لحيته السوداء، إذ كانت طويلة وملساء ترفرف خلفه. لكنني لم أرَ عينيه ذواتي الزرقة الصافية، أو أنفه المعقوف، سوى عندما تقابلنا وجهًا لوجه فيما بعد.

عندما غادرنا العربة أمام الفندق وقف اللورد بيرندج والقبطان رودا معًا يتحدثان، فيما الفرس يُقاد إلى الإصطبل. طالما رأيت اللورد بيرندج رجلًا فارع الطول، لكنه الآن بدا قصيرًا ضئيلاً. لقد فاقه رودا طولًا بعدة بوصات، وضخامةً في كل خط من خطوط جسده. لحظت أن يديه، اللتين تدليتا على جانبيه، تشبهان مطرقتين. تعبّق الهواء حوله برائحة لازعة نتجها زيت السمك، الذي استخدمه كي يظل حذاؤه الطويل الكبير مرناً. وفاحت حوله رائحة أخرى لم أتبيّنها. كان في انتظار اللورد بيرندج منذ عدة أيام. ولم يوجد ما يشغل وقته لأن قاربه، الذي يُدعى سالي جيلورد، ظلّ راسياً وعلى متنه ابنه ويزلي رودا. كان من قبيل الخطر ألا يجد القبطان رودا ما يشغل وقته، إذ اتضح أن ما امتزج برائحة زيت السمك هو رائحة النبيذ الأحمر، والكونياك، وأي مشروب آخر استطاع الحصول عليه. لقد تبدّى بعضُ البشاشة التي أضفاها عليه الشراب في ابتسامة الترحيب التي التقى بها سالي، والتي أفسحت المجال لتطلّ أسنانه البيضاء اللامعة من مخبأ لحيته. كان يشبه قرصاناً في مزاج جيد قد يتبدل في أي وقت.

غمرت يده الضخمة يد سالي التي مدّتها إليه في الحال، وقال: «إن القارب العزيز يا حبّوبتي جاهز متى تحتاجون إليه».

5

في صباح اليوم التالي جلست أنا وويلي على أحد أرصفة ميناء بريست، نشاهد ويزلي رودا يحمل الأمتعة ليضعها على متن سالي جيلورد. لقد تُركت جميع الصناديق على الرصيف وظلّ القارب راسياً في الميناء. والآن كان

ويزلي يجدّف إلى الرصيف واقفاً في زورق كي يُحمّله ببعض الأمتعة. ثم
يجدّف عائداً إلى القارب لينقل إليه الأغراض.

من حين إلى آخر كان يبتسم لي ولويلي ابتساماتٍ خجول، لكنه لم يتمتع
ببشاشة والده ولا بِنَيْتِه. كان، في ما أظن، في العشرين من عمره حينئذٍ.
ضئيل الجسم، حليق الذقن والشاربين، وشاحب قليلاً. ميّز وجهه لمحة من
جمال أنثوي حزين. وامتلك صوتاً عذباً صافياً، رفعه في ذلك الصباح يصدح
بترنيمه حالما ابتعد عنا إلى المياه.

لقد أنشد:

«يصغر ما نُقدّم شكرًا لربنا المجيد

ويَتَفَهُ أمام كثير فضله ونعمائه

لذا نتعبّد لإلهنا العظيم، نذكر اسمه فرحين

ونحمده حمداً يليق بسلطانه».

كانت ذات لحن جميل وشاركته ويلي الغناء. وبينما يتجه ويزلي نحونا
للمرة الثالثة أو الرابعة قالت له: «تروقني هذه الترنيمات الميثودية⁽¹⁾».

وافقها الشاب قائلاً بهدوء: «أجل، أَلَف الألمانى أوجست سبانجنبرج هذه
الترنيمه وترجمها جون ويزلي».

- لم أكن أعلم ذلك. لكنها تروقني، ويعجبني اللحن. كان والدي يعمل
واعظاً محلياً.

(1) الميثودية طائفة مسيحية بروتستانتية تستمد أصولها ومعتقداتها وممارساتها من
تعاليم جون ويزلي، الذي سعى إلى إصلاح كنيسة إنجلترا. لكن الميثودية سرعان ما
انفصلت عن الكنيسة الأم وأصبح لها كنيسة مستقلة. تُولي الميثودية اهتماماً كبيراً
بالعمل الخيري والإحسان إلى الغير والعدالة الاجتماعية. سرعان ما اكتسبت شعبية
كبيرة بخاصة في المناطق الصناعية، إذ أعانت العمال على تحمل الأوضاع المعيشية
الصعبة. م

تفاجأ ويزلي وقال: «هذا عملٌ والدي أيضًا. لكن أُمي هي من أرادت أن أُدعى ويزلي تيمناً بجون ويزلي».

ثم شعر، في ما بدا، أنه قال ما يكفي. حملَ الزورق ببضعة صناديق أخرى، وابتعد مُجدِّفاً يترنم قائلًا:

«يا من مجده في الأعالي
ومنبع النيران السماوية النقيّة
ألهب شعلة الحب المُقدّس
في مذبح القلب والطويّة».

شابهت ثيابه ثيابَ أبيه، باستثناء القبعة الطريفة ذات الطراز المُتكلف. ومع أن رائحة الأسماك لازمته فإن رائحة الكحول لم تمتزج بها.

سطعت الشمس وتحرك الزورق الأزرق، الذي يُقاد بعناية، في تناغم على صفحة مياه الميناء الهادئة. كانت النوارس تحلّق ناعقةً إذ قالت ويلي:

«ستجدين الوضع الجديد غريبًا يا سارا، لكنني أرى أنك ستعيشين هانئة في مكان مناسب».

لم أفكر كثيرًا في طبيعة المكان حيث كنا متجهين. منذ رحيلنا العاجل إلى فولكستون كنت أعيش أيامي كما تأتي. واستمتعت على نحو خاص بساعات تلك الرحلة الرائعة التي انتهت الآن على رصيف ميناء بريست.

قلت لويلي: «سيكون من الغريب أن أرى السفن بدلًا من العربات، ورجالًا مثل القبطان رودا بدلًا من مُنظّفي المداخل».

- لا تتوقعي أن تري الكثير ممن يشبهونه من الرجال. لا أظن أنك ستريين كثيرين في حجمه في أي مكان. لو كثر أمثاله لأصبح الواقع مخيفًا.

لم يتبقَّ على رصيف الميناء سوى صندوق واحد هو أكبرهم حجمًا، وكان ويزلي يُجدِّف مرة أخرى تجاه الدرجات الحجرية أمامنا. عندئذٍ أتى القبطان رودا بصحبة فتاتين فرنسيتين تتعلق كل منهما بإحدى ذراعيه. لا شك أن

في لحظة كتلك كانت ميرسي كايت لتبعدني سريعاً عن الأنظار إلى أي مكان أصبح فيه «بأمان» وبمنأى عن سوء العالم. ولم تكن أُمي، التي لم أستطع تصورها الليدي بيرندج، لتستحسن أن أرى مشهداً كهذا رغم شيوعه في المواني. لكن ويلي، على النقيض منهما، ظلت مكانها. كان يوجد كوخ حجري مُربّع سقفه من الأردواز، تتدلّى بضعة أطواق نجاة من جدرانه الخارجية، وتستند إليه دُكَّة يستطع المرء الجلوس عليها. على هذه الدُكَّة جلسنا فيما القبطان رودا وفتاتاه يقتربون. كان يتحدث بصوته المرتفع، يكثر من ترديد «حبّوبتي»، ويضغط ذراعيهما إلى جانبيه. بدا الحماس في حديثهم باللغة الفرنسية التي لم أفهم منها سوى القليل. عقد ويزلي رباط زورقه وصعد الدرج، ليقف بالقرب منا يشاهد والده يقترب. استطعت الشعور بخجله لاضطرارنا إلى رؤية مثل هذا المشهد. غزت الحُمرّة وجهه، ولكي يخفي ارتبাকে التفت إلى الصندوق الجلديّ الضخم الذي يفوق ثِقَله قوَّته.

صاح القبطان رودا: «اتركه! اتركه!» (ثم انفصل عن الفتاتين، قَبْلَ كَلَّا منهما قُبلة صاخبة، صفع مؤخرة كل منهما، وقال) ارحلا الآن يا حبّوبتي». لكنهما وقفتا تصيحان: «المال! المال!».

لم يحرك القبطان ساكناً فقد فرغ منهما وانتهى الأمر. لهذا زمجر قائلاً: «ارحلا! لا مزيد من المال. أنتما جشعتان. ارحلا!».

عندما رأنا جالستين هناك غمزنا بعينه يحثنا على الإعجاب بمهارته في التصرف في موقف من هذا النوع. ولمّا رأى ويزلي لا يزال يعبث بالصندوق، في محاولة لإخفاء الخزي الذي علا وجهه، أمره قائلاً: «دَعُه».

ثم تقدّم نحوه، حمل الصندوق بيديه الضخمتين ليرفعه إلى كتفه، وهبط الدرج قاصداً القارب. ثم تناول المجدافين اللذين كانا ضخمين في نظري، لكنه، في ما بدا، رَاهُما في خفة الريشات.

بينما ينساب الزورق على سطح الماء صاح قائلاً: «والآن أيها الفتى ويزلي. هلا ننشد ترنيمة حلوة؟ ماذا عن «كي يمجدك القلب»؟».

وبينما نحن جالستان نشرف على المياه المتلألئة في ميناء بريست سمعنا ما سنسمعه كثيراً فيما بعد؛ صوت إدي رودا يصدح بترنيمة رائعة مؤثّرة:

«كي يمجدك قلبي يا ربي
حذر هذا القلب من الآثام
اقسم لي قلبًا لا ينسى
فضلك على كل الأنام».

تألق الزورق الأزرق في ضوء الشمس، التي تلالأت أشعتها على المياه
والمجاديف تقطعها. وأنارت القبطان كله، بقبعته الصوفية ذات الشُرَّابة،
ولحيته الطويلة وصدره العريض، وكتفيه اللتين تجدّان بسهولة كأنهما
تلهوان بلُعبة. صدح ذلك الصدر بترنيمة جميلة شرحت صدورنا، ورافقه شدو
ويزلي العذب. لم يكن القارب سالي جاييلورد بعيدًا، وبينما يصعدان إلى متنه
ويستندان إلى جانبه أنشدا الأبيات الأخيرة:

«أرشدنا يا إلهنا الرحيم
لنكن كما تحب ومثلما تريد
وانقُش على قلوبنا اسمك
اسم المحبة المجيد».

ثم وقفا بضع لحظات جنبًا لجنب يشرفان على المياه، قبل أن يصفع
القبطان رودا كتف ابنه ويهتف قائلاً: «أحمد الرب يا بني الحبيب ولا تنس
نعمه».

ثم قفز إلى الزورق وطرح الصندوق على متن القارب كأنه طرد قماشياً.

لقد خطَّط اللورد بيرندج لمفاجأتنا جميعًا بالذهاب إلى المنزل بحرًا، حتى إن سالي لم تكن تدري بالأمر، لهذا انتظرنا القبطان رودا في بريست. كان يروقه الترتيب لأحداث مفاجئة رائعة رغم أنني وويلي، بالطبع، لم نَرَ في رحلة القارب أي روعة. كان مرافقونا على علم بما ينتظرهم في قارب عامل صغير، وعلمتهم التجربة أن ليس من السهل أن يُصابوا بالدوار. لكنني لم أركب البحر سوى مرّة في رحلتي الوحيدة عبر القنال الإنجليزي، وقامت ويلي برحلات بحرية معدودة. كانت رحلاتنا تلك في سفن مُهيأة للترحال لا مركبة مثل سالي جايلورد، بدت صغيرة في نظرنا الساذج. مع ذلك بدأنا الرحلة وشقَّ القارب المياه وهو يميل جانبًا، في وضعية بدت لي في البداية خَطرة. لكن بمرور الوقت اعتدنا الحال، واتضح أنه إذا لم يحدث ما يفوق تلك الوضعية سوءًا فلن يصيبنا الدوار. هبَّت رياح خفيفة لا تسكن. أبحرنا غربًا عدة ساعات، ثم قيّدت المركبة نحو الشمال.

قالت سالي: «إننا نتجه مباشرة إلى «كورنوال» قاصدين تريسانت».

لا تزال ذاكرتي تحتفظ بذكريات تلك الليلة. كان من الرائع أن نرى مصابيح الإبحار تُضاء فيما الظلمة تزحف على الغرب ذي حُمرة الغروب، والشرق الداكن يزداد قتامة وتبرز النجوم. سلّم القبطان رودا اللورد بيرندج ذراع الدّفة، واتجه إلى المقصورة ليُخَمَّر شاي وجبتنا الأخيرة في ذلك اليوم. لقد أوتي بكل ما احتجنا إليه من طعام في سلّة نُقلت إلى القارب في بريست. دخلنا المقصورة لتناول وجبتنا تاركين ويزلي في قمرة القيادة. ثم دار نقاش حول موضع استلقائنا في تلك الليلة. اشتملت المقصورة على سريرين أراد اللورد بيرندج أن نرقد فيهما أنا وويلي، لكنني لم أرغب في النوم قط. لم أسهر طوال الليل من قبل قط، ورأيت الفرصة سانحة أمامي لفعل ذلك. سايرني اللورد بيرندج عندما أقسمت أنني سأنام حيث جلست. وفي الساعة العاشرة خلدت ويلي وسالي إلى النوم. أما أنا فجلست في قمرة القيادة على مقعد بجوار ويزلي فيما اللورد بيرندج والقبطان رودا، المتدثران بالملاحف، مستلقيان على سطح القارب يتوسدان أقمشة الأشرعة. تذرْتُ يملحف

أيضًا لأن الطقس بارد والظلمة تُلْقِنَا. في الأمام شقٌ بعض الضوء طريقه من فتحة في باب المقصورة الذي لم ينفلق تمامًا. في الأعلى تمايل الصاري إزاء النجوم. حولي تهاومت المياه، تلتغ وتفسح. وبالقرب من قدمي شابه الرجلان الراقدان على سطح القارب كومة داكنة، يصدر عنها شخير القبطان رودا عاليًا. أما اللورد بيرندج فغطَّ غطيظًا خافتًا متواصلًا مثل قطٍّ يخرخر.

فجأة سألني ويزلي بهدوء: «إذن ستعيشين في تريسانت؟».

حتّني السكون والظلمة على أن أجيبه بالنبرة الخافتة المتواطة ذاتها: «أجل، اللورد بيرندج هو والدي الجديد».

أخبرني ويزلي بأحد معتقداته الراسخة، إذ قال: «لا يُعد ما تقولينه صوابًا. إن ربنا الذي في الأعالي لا يمنحنا سوى أبٍ واحد هنا في هذه الدنيا. لكن اعلمي أن اللورد عاش موقفًا صعبًا. كرهت طليقته تريسانت كرهًا شديدًا رغم أنه يحب تلك الإقطاعية كثيرًا. لم يعجبها سلوكنا الخشن. أبغضت هدير الرياح والبحر شتاءً. ولم تستطع التناغم مع زوجها. هذا هو ما حدث يا عزيزتي وكما كان موقفًا عصيبًا! فقد أدرك الجميع هذه الحقيقة قبل انفصال الزوجين بوقت طويل. لقد رأيت والدتك، حضرة الليدي الجديدة، وهي امرأة جميلة. لكن قولك بأنك حصلتِ على أب جديد هي فكرة لا تنال استحساني ولا يباركها الرب».

لم أحر جوابًا. وفي غمرة البرد والظلمة أحاطني ويزلي بإحدى ذراعيه ليمدني ببعض من دفء جسده، فيما ذراعه الأخرى على ذراع الدفة. واصلت المياه المتوارية هسيسها ولثغها. وفي البعيد رأيت مصابيح سفينة أخرى بدت رمزًا للوحدة.

قال ويزلي: «لقد دعوت الرب أن يبارك تلك الزيجة السابقة، لكنني لم أر أي إشارة على إجابة دعوتي. لقد قال الرب إن الرجل يتّحد بزوجه ويصير الاثنان واحدًا، لهذا فإن الطلاق مبعوض. على أن اللورد ليس رجلًا سيئًا، إذ إنه يُطعم الجوعى ويلبّي حاجة البائسين. إن هذا العالم يثير حيرتي كثيرًا يا آنسة».

ثم تنهد حائرًا متعبًا. تقلّب القبطان رودا وصدر عنه نخير، ثم استقر في مكانه وشرع في الشخير مجددًا.

أردف ويزلي: «يثير حيرتي كثيرًا ذلك التناقض الذي يحكم البشر، إذ يمسك الرب بيمينهم ويمسك الشيطان بيسارهم. ها هو أبي مستغرقًا في النوم كما رأيته مستغرقًا في تناول الشراب. لكنني سمعته يتلو صلوات مؤثرة ويشرح الصدور بخطبه. ولا يسعني أنا وأمي سوى أن نحبه كما لو أنه أصدق شخص خلقه الرب، لأن الصدق كثيرًا ما يبدو في تصرفاته. هذا واحد من الألغاز التي لا نستطيع حلها يا عزيزتي. نحن لا ندري ما يخطط له الرب عندما يخلق أي إنسان».

ربما كان من المفترض أن أستاذ منه بعد كل ما قال، لكنني لم أفهم معظمه. لم تحمل كلمة الطلاق أي معنى واضح في نظري، ولم أربطها على أي حال بأمي واللورد بيرندج. لم أعلم سوى أنها زوجته الجديدة وأنه أبي الجديد، واستحسننت هذا التغيير. لكن هناك حيث تلفنا الظلمة والبرد -الذي كان يزداد شدة- والبحر يبدو قاتمًا وغامضًا ومتوعدًا بعدما ظلّ يلمع طوال اليوم، كانت كلماته تخبرني بأن شيئًا بغيضًا قد حدث، شيئًا لا يباركه الرب. أتساءل الآن إن كان عليّ أن أشعر بالاستياء منه حينئذٍ، لكن هذا الشعور لم ينتبني على أي حال. إنَّ المرونة الرائعة المذهلة التي تمتاز بها الطفولة جعلتني أسهو عن حديثه. ولم أنتبه إلى شيء سوى ذراعه التي تحيط بي، ودفعه، والطيبة النقية الحائرة فيه. سرعان ما غلبني نعاسٌ شعرت فيه بالبرد حولي وسمعت تناثر المياه، لكنني اختبرت الراحة والأمان في وجود ويزلي. استيقظت فزعًا إذ ضربت المياه الباردة وجهي. لقد اشتدت الرياح وقذفت رذاذًا من البحر على متن القارب. كانت الذراع لا تزال تلفني. ولأنني نمت نومًا هنيئًا لم أدرك سوى الآن أنها ذراع القبطان رودا لا ويزلي.

قال: «لقد غفوت غفوة قصيرة فقط يا حبوبتي».

أحببت الشعور بالاطمئنان الذي أمدتني به ذراعه وصوته الأجلج الخافت. جذبتُ الملحف إليّ وركنت إلى حضنه. هبَّت الرياح النشطة فانتنفتحت الأشعة، وألحت المياه في الهمس حولنا.

قال القبطان رودا: «إذن أنت ابنة حضرة الليدي الجديدة؟».

عندئذٍ أملتُ ألا أسمع المزيد عن الطلاق وبغضه وعدم استحسان الرب إياه. لكن لم يكن يوجد داعٍ إلى القلق فقد أردف: «أعتقد أن الحال الجديد

يُسعد اللورد. لم تشعر السيدة السابقة بالانتماء إلى مكان مثل مكاننا. كانت ممن يوددن السير في الغابة تختال في ثوب ذهبي. لا بأس في فعل هذا في الفردوس عندما ننال القيثارات والتيجان. لكن «بورتيفن» ليست الفردوس، رغم أنها في نظري كذلك. ستشهدين ما أخبركِ به يا عزيزتي عندما نصل إلى هناك. ولن يستغرق وصولنا طويلاً في وجود هذه الرياح النشطة اللطيفة. سنمر فقط ببضعة منازل، ورائحة سمك كريهة، ومدبغة حيث تُفرد الشبّاك الجديدة كي تجف، وزهور الجولق النضرة تزدان بها الجُرُوف. يقول المثل: «في موسم غياب الجولقيّات لا قُبلات». حمداً للرب أن ذلك النبات مزدهر طوال العام. (ثم ضحك وأضاف) بارك الرب هذا الزواج يا حُبُوتي. ستبكي عيناى هاتان دماً إن رأتا رجلاً صالحاً مثل حضرة اللورد يُحرّم الحصول على فرصة ثانية».

أظن أن عليّ استخدام كلمات معاصرة لأعبر عما شعرت به حينئذٍ. لذا سأقول إنني لم أستطع أن «أُكيّف نفسي» على الاستماع إلى أفراد الطبقات الاجتماعية الأدنى يتحدثون معي بحرية عن ينتمون إلى طبقتي. فقلت فجأة: «أجد القارب الذي تملكه جميلاً يا قبطان رودا».

- إنه ليس ملكي يا حُبُوتي، بل يملكه حضرة اللورد. لكنني وويزلي نعد مالكيه بالقدر نفسه. إنه يبدو الآن مُرتّباً، لكن انظري إلى حاله عندما نصطاد سمك البلشار، إذ يمتلئ به حتى يصل إلى رُكباتنا. يصطفق السمك ويشهق، ونظل نُخرج الشبّاك مملوءة به. في بعض الأحيان، مثل الآن، يطلبه حضرة اللورد. لكنه قاربٌ عاملٌ طوال العام.

كان يعبق برائحة سمك البلشار، إذ تنبعث من حذائه رغم الأجواء التي نفّتها الرياح القوية. أخرج قنينة من جيبه وجرع منها جرعة كبيرة. عندئذٍ شممت الرائحة الثانية التي كان تفوح منه.

قال وهو يمسخ فمه: «هذا مريح. من المريح أيضاً أن نحظى بإجازة للشراب من الرسول بولس إذ قال لتيموثاوس: «لَا تَشْرَبِ الْمَاءَ فَقَطْ بَعْدَ الْآنَ. وَإِنَّمَا خُذْ قَلِيلاً مِنَ الْخَمْرِ مُدَاوِياً مَعِدَتَكَ». أعتقد أن لا بأس في شرب جرعة من البراندي على النحو الوارد في الآية».

- أخبرني عن تريسانت.

- لا، لا يجدر بي فعل ذلك. إن تريسانت تخصّصت للورد، وسيرغب في أن يحدثك عنها بنفسه. لكن أخبريني ماذا قال لك الفتى ويزلي؟
كان هذا السؤال عقبة يصعب عليّ تخطيها، لأنني لم أستطع أن أخبره عن الطلاق الذي يبغضه الرب والوالد الذي يعبت ثملاً.

- يقول إنك واعظ محليّ. ماذا يفعل الواعظ المحليّ؟

نظر إلى الأشرعة بانتباه، شدّ أحد الحبال، ثم استراح في جلسته مجدداً.
قال: «لهذا الأمر تاريخ قديم يا حبّوبي. كان جون ويزلي من رجال الرب الصالحين، وأنقذ عديداً من الأرواح التائهة. كانوا يجتمعون في «حفرة جويناب»⁽¹⁾، متكدسين تكديساً شديداً، حتى إنهم يبدون مثل سمك البلشار في هذه المركبة عندما نحط بصيد وفير. يقف العزيز جون على حافة الحفرة، ينظر من الأعلى إلى المذنبين المساكين في الأسفل وكأنه مستقر على حافة هذا القارب ينظر إلى البلشار. كان فارساً عظيماً يطوف العالم على صهوة فرسه العجوز. يعجز عن إيقافه الغوغاء الذين يقذفونه بالحجارة والقاذورات، أو القضاة ومذكراتهم. يعدو فرسه من أحد أطراف إنجلترا إلى الطرف الآخر وهو كالملاك على صهوته. ثم يصل إلى حافة تلك الحفرة مشرفاً على جميع الخطاة، فينظرون إليه واقفاً تعلوه السماء. ها هو ذا العزيز جون يترجل عن فرسه، حول عنقه شريطا الياقة الأبيضان اللذان يضعهما رجال الدين، يتأبط الكتاب المقدس، ويلمع شعره الشائب. لا شك أنه بدا طيفاً برّاقاً لمن ينظرون إليه من الحفرة. ثم يشرع في الحديث. ربما يقول: «لنبدأ بواحدة من ترنيمات أخي تشارلز».

قد يشرع في تلاوة ترنيمة الرحمة قائلاً:

«أيا منبع الرحمة اقسّم لي

(1) حفرة جويناب = Gwennap Pit: المكان الذي ألقى فيه جون ويزلي عظامه بين 1762 و 1789 م. تكونت الحفرة الكبيرة نتيجة هبوط أرضي بعد التعدين في منتصف القرن الثامن عشر. بعد وفاة جون ويزلي تحوّلت إلى مدرّج دائري ذي مقاعد يكسوها العشب. م

بَعْضَ رَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ
أَيُمْكِنُ أَنْ يَقِينِي الرَّبُّ غَضَبَهُ
وَيَعْفُو عَنِّي أَنَا أَسْوَأَ الْمَذْنِبِينَ؟».

الآن يشاركه من في الحفرة الترنُّم، إذ إن لهذه الترنيمة القديمة لحناً عذباً. وبينما جون واقف هناك ينظر إلى المذنبين الذين يملأون الحفرة يدرك أنه حاز انتباههم. ويبلغ سمعه صوت غنائهم، الذي كان شجياً صادقاً، لأنك إن لم تكوني قديسة فسينفعك أن تظني نفسك أسوأ المذنبين، حتى إن كنت في الواقع بعيدة عن هذا بكثير. فالمرء يروقه الشعور بأنه متميز، بطريقة أو بأخرى، حتى إن كانت الحقيقة أنك لا تستطيعين تمييزه عن أقرب جيرانه مثلما لا تستطيعين التمييز بين شوكة وأخرى في العمود الفقري لسمكة بلشار. وبينما يفكرون في خطايا فظيعة لم يكن أكثرهم ليقترفوها، أخذوا في البكاء والنواح وفكروا: «لن يرحم الرب أمثالنا نحن الخاطئين المذنبين أبداً». عندئذ يداخل جون الشعور بالرضا ويفكر: «إنهم سيكونون! الآن لي عليهم نفوذ». ثم يدعو الرب أن يعفو عن أولئك الخاطئين. ويعمُّ الحفرة صمت لا يقطعه سوى أنة، أو آهة، أو صهيل يملأ جوَّ الصباح يُطلِّقه فرس جون المُقيَّد إلى أحد العواميد، الذي كان خادماً مطيعاً على دروب الرب لا شك. ثم يرفع العزيز جون يده ويلف الجمع صمت مهيب، إذ يتطلعون إليه وهو يقف على حافة الحفرة مُشْرِفاً عليهم. وتسطع الشمس عبر سحابة، فيغمره الضوء ويبدو كأن نور الرب يضيئه. لقد وقفتُ يا عزيزتي في تلك الحفرة في أحد الصباحات الربيعية وهذا ما تصوَّرت. لم يكن أحد ليذهل لو رأى الملائكة تنزل على طول أشعة الضوء التي تستقر برفق على كتف الرجل الكبير. ثم إن الكراوين قد غرَّدت، وعندما تغرد الكراوين يبدو الأمر كأنك تسمعين صوت الأرواح المذبذبة على حب الحياة في هذه الأرض، لكنها تتوق إلى التحرر منها حباً في الرب. كم الكراوين شجيرة! ستسمعين الكثير منها في تريسانت، لكنك لن ترينها في طريقنا إلى هناك». مكتبة سُرْ مَنْ قرأ

ثم واصل سرده: «بعد ذلك يشرع جون في الوعظ ويصبُّ كبريت الجحيم في تلك الحفرة. يستمع شاغلوها إليه وجَلِين، يصرخون ويئنون ويكون.

يطرحون أنفسهم أرضاً، ويتلوون ألماً كأنهم يشعرون حقاً بشوكة الشيطان تنغرز في منتصف أكتافهم. ثم تحلُّ الرحمة. تتبدل نبرة صوت جون. يُبْلِسُ جراحهم ببلسم محبة الرب. يريهم عمود الاتجاهات، يوضح أن له ذراعاً تشير إلى النعيم وأخرى تشير إلى الجحيم. الآن ينashدهم أن يتخذوا القرار الكبير. فترتفع من الحفرة هتافات حمد الرب وتسيبحة، وصيحات الفرح بدلاً من أهات اليأس يا حُبُّوبتي. يصبح أمام العزيز جون، صائد البشر، حصادٌ وفيرٌ تتخرَّق شبابه من كثرتة، لكن عليه الرحيل. إن الفرس العجوز في انتظاره، والعالم أبراشيته، وعليه الرحيل. كان مثل الرسول بولس الذي يخبرنا الكتاب المقدس عن رحلاته التبشيرية. كان الرسول بولس يقطع البحر المتوسط باحثاً عن الأرواح. وقد شابهه جون، في ما عدا أنه لزم أرضاً واحدةً وامتنطى فرساً عجوزاً لا سفينة. لكنهما واجها المعضلة نفسها، وهي العثور على من سيرعى الأرواح التي ساهما في إنقاذها. وقد حُلَّت المعضلة بالطريقة نفسها يا حُبُّوبتي. لم يكن ممكناً أن يصل القُسُوس المُعَيَّنون إلى جميع المناطق. لهذا عندما شرع الرجال والنساء، الذين اهتمدوا إلى طريق الرب، في بناء الكنائس حيث سيعبدونه، اضطرُّوا إلى قبول تولِّي جيرانهم الوعظ وتفسير كتاب الرب. هذا ما يفعله الوعَّاظ المحليُّون حتى يومنا هذا يا حُبُّوبتي. لا يوجد قُسُوس مُعَيَّنون في بورتيفن، لكنني وويلي وقلة آخريْن نعمل في سبيل الرب.

قلت: «شكراً لك يا قبطان رودا».

وشعرت أن جوابي المقتضب لا يلائم خطبته.

- الآن اخلدي إلى النوم. غداً سيكون كل ما تعيشينه جديداً. ستركضين هنا وهناك، سترين هذا وذاك. سترهقين تماماً بالتأكيد.

قرَّبني إليه، وكنت على أتم الاستعداد للنوم. أنعستني حركة القارب، ولمسة الرياح الباردة، وصوت البحر يرافقنا، فأغلقت عيني. دائماً ما راقني، عند الاستعداد للنوم، أن أتمسك بفكرة، أو بضع كلمات، وأجعلها تدور في ذهني. والآن تمسكت بهذه الفكرة: «غداً سيكون كل ما تعيشينه جديداً»، ودعوت أن يكون الغد صحواً. كنت أعلم أننا نعيش أيام مايو، لكن حتى في هذا الشهر يمكن أن تمطر السماء وألا تسطع الشمس. ليكن الغد يوماً صحواً

تزيّنه الشمس بضوءها؛ وألا يكون كل شيء جديدًا فقط، بل مشرقًا، ليس مختلفًا فقط، بل رائعًا.

أيقظتني أصابع تنقر جبھتي برفق. فتحت عينيّ لأرى الضوء الشاحب، الذي لم يكن نهارًا بعد، بل فجرًا. وكان اللورد بيرندج جالسًا بجواري. سألني بهدوء: «أتساءل إن كنتِ قد رأيتِ هذا المنظر من قبل يا سارا».

لم أكن قد رأيته قبلاً وكان بهجّة للنظر. بدت السماء على يميننا شاحبة. وبينما أشاهد كِسْف السُّحُب الصغيرة يتحوّل لونها من الرماديّ إلى الفضيّ ومن الفضيّ إلى الورديّ، ظهرت حافة الشمس المتوهجة فتألّق البحر الشاسع الذي يفصل بيننا وبينها. أخذتُ ترتفع بسرعة فأشرق النهار. لقد حلّ الغد وأصبح الحاضر، حيث سيكون كل ما أعيشه جديدًا. نظرت إلى الأعلى حيث الأشرطة التي رأيته داكنة طوال الليل قد ظهر الآن لونها الأحمر الضارب إلى البنيّ. كانت تلمع مثل كل شيء حولي. لم تكن هناك أرض أستطيع رؤيتها خلفنا أو أمامنا. لم أر سوى المياه البرّاقة، والشمس التي بدّدت حرارتها السُّحُب القليلة من السماء، والمركبة الصغيرة اللامعة التي تبحر إلى المنزل. أسعدني الشعور بالدفع من جديد. أدفأت أشعة الشمس وجهي ويديّ. ونَفِذْتُ، في ما بدا، من خلال الملحف الذي لفّني.

سألني اللورد بيرندج: «أتودّين أن أوقظ سالي؟ لقد نامت نومًا هنيئًا ولا ضير من أن تنامي بضع ساعات في مكانها. فأنا لا أريد أن أسلّمكِ إلى والدتك مرهقة حتى النخاع».

ناشدته أن أظل في مكاني، قلت: «أودّ أن أرى البرّ حال ظهوره. ثم إنك لن تسلّمني، بل سترعاني. سأعيش معك وأمي. هل تعلم ماذا قال لي القبطان رودا؟».

- أفضلُ تجنب تخمين هذا يا عزيزتي، فالقبطان العزيز يمكنه قول أي شيء. يستطيع كتابة المزامير أو الديكاميرون.

- ما هو الـ «الديكا...»، ما هو ما قلتَ؟

- إنه كتاب يتضمن قصصًا سيئة ممتعة.

- هل يمكن لشيء سيئ أن يكون ممتعًا؟ ذات مرة أخبرني أبي أنني لن أصبح سعيدة أبدًا إن كنت فتاة سيئة.

قال بحزم: «لا مجال للنقاش في هذا الأمر الآن يا سارا. ربما نسهب في مناقشته بعد عشرين عامًا. ماذا قال القبطان رودا؟».

- لقد قال إن كل ما سأعيشه اليوم سيكون جديدًا.

نظر إليّ بحنان وقال: «أجل، ستجدين أن الحياة التي نعيشها في كورنوال تختلف عن الحياة التي اعتديتها. أتمنى أن تصبحي سعيدة هناك».

نظرتُ إليه دهشةً، كيف يرتاب في سعادتي؟ ألا يعلم أنني أحبه؟ هل يمكن لشيء سيئ أن يكون ممتعًا؟ هل كان من السيئ أن أشعر بأن ما يحمل الوعد بالسعادة هو العيش معه في تريسانت لا لقاء أُمي هناك؟

على أنني أخفيت شعوري داخل قلبي وسألته: «هل القبطان رودا هو قبطان هذا القارب فقط؟».

- كان قبطانَ مركباتٍ أكبر حجمًا من هذه.

وأخبرني بعض الأمور عن القبطان رودا. على أنني، فيما الأعوام تمضي، علمت عنه أمورًا أخرى لا يمكن أن يخبر بها الكبار طفلة صغيرة. كانت «بورتيفن» بلدة صغيرة يسكنها صيادون ساحليّون. وُلِدَ إدي رودا لصياد من أولئك الصيادين، رجل ميثوديّ ضئيل خجول، لا شك أنه تساءل مبكرًا ما إن كان الرب قد اصطفاه ليصبح مثل النبي أيوب. فقد تسبب ابنه في أن تنهال عليه المصائب. في الرابعة عشرة بدأ إدي حياةٍ مرحٍ صاخبٍ بلا قيود. كان فتى وسيماً جامحاً يفوق والده حجمًا، قويًا كالخيول وعنيدًا مثل البغال. في الخامسة عشرة بدأ الشراب وملاحقة الفتيات. وفي السادسة عشرة أزهم روحُ والد إحداهن في حانة تريسانت التي تُدعى «ريتشارد جرينفيل». كثيرًا ما سمعتُ الأحاديث تدور حول تلك الليلة. كانت ليلة شتوية عصفت فيها رياح جنوبية غربية شديدة ببورتيفن. ملأتُ الطرقات بماء المحيط المالح، زلزلتُ المداخل، وانتزعتُ بلاط الأسطح الأرذوازي. في حانة ريتشارد جرينفيل جلس فتانًا ذو الحذاء البحريّ الطويل ماديًا ساقيه نحو المدفأة يرتشف الشراب. لم يتحدث إلى أحد. كان هادئًا مثل ثورٍ يافعٍ في مرعى. فجأةً انفتح باب الحانة بقوة، فاندفعت الرياح إلى الداخل تُوْرَجح مصابيح الزيت وضوءها أسفل

السقف الخشبي، وظهر ريتشاردز البَقَال قوي البنية ضخماً. أغلق الباب خلفه ركلاً، وتقدّم يدفع أمامه ابنته البائسة. لقد ابتلَّ شعرها وثيابها تماماً إذ ضربتهما موجة وهما قادمان من البقالة، التي تقع وسط الأبنية القائمة تحت الجُرف المُشْرِف على رصيف الميناء.

يدفعها ريتشاردز أمامه تحت ضوء المصابيح الأصفر، حيث يتجمّع دخان التبغ مجدداً بعدما بعثرتة الرياح. ثم يمسك بذراعها مُحمِلاً إلى إدي رودا الشابّ دون أن يقول شيئاً. يعلم الجميع ما تعنيه تلك المواجهة، لهذا يعمُّ الحانة الهدوء. يُسمَع هديرُ الرياح وهي تقطع الطريق، واهتزازُ الجدران، ودفقةٌ مفاجئةٌ كأن أحدهم سكب دلو مياه على الواجهة.

نظر إدي رودا إلى ريتشاردز وابتسم. ثم بصق في مِبْصَقة نحاسية عند قدمه، جرع شرابه، ونهض. ارتدى معطفه المُشْمَع الذي شغل مِعْلَقاً، اعتمر قبعته المُشْمَعَة، واتجه نحو الباب. ظلَّ الجميع على صمتهم، لكن ريتشاردز قطع طريقه وأمسكه بإحدى يديه يوقفه عن الحركة. نفّض إدي يده فلكمّه ريتشاردز. يقولون إنه لم يسبق أن ضرب أحد إدي رودا. لم يضربه والداه، وبالطبع لم يضربه فتية البلدة الذين ترأسهم مبكراً. يقولون إنه ثبت في موضعه، ثم التفت دَهْشاً. بدت عيناه مخيفتين حتى إن ريتشاردز لم يستطع مواجهتهما، ودفع ابنته خلفه إلى المقعد الذي كان رودا جالساً فيه. ثم لكّمه إدي أسفل ذقنه لكمةً طرحته أرضاً وأطاحت بإحدى الطاولات. سُمع صوت زجاج يتهشم، ضرب المطر الواجهة، ودوّت الرياح في الخارج. ركضت الفتاة نحو والدها، وصرخت صرخة مُروّعة تقول إنه أسلم الروح.

بدا الرجل ميتاً، وسال خيط دماء من جبهته يلطّخ الأرضية. التقط إدي رودا وعاء مياهٍ تخفيف الويسكي وصبّه دفعة واحدة على وجه ريتشاردز. عندما فتح الأخير عينيه حمله رودا على كتفه، دون أن يُوجّه كلمة للفتاة أو الرجال حوله، وخرج به إلى العاصفة الهادرة. تبعته ماري ريتشاردز، الفتاة الضئيلة اليافعة التي شابته قطرة مُبلّلة بائسة في تلك الليلة. سارت خلف رودا عدة أمتار حتى وصل إلى منزل الطبيب كيرنو. دقَّ الجرس، دفع الباب، ثم علا صوته فوق العاصفة الصاخبة يقول: «لقد أفقدت العجوز ريتشاردز وعيه وسأخذه إلى المنزل. أخبروا الطبيب أن يأتي ليفحصه».

ثم غادر وريتشاردز على كتفه مثل جُوال مغمور بالمياه، يثُنُّ من حين إلى آخر، والفتاة تلحق بهما. كانت ليلة شديدة القتامة، وكأن القرية أصبحت بوابة الجحيم. وفي الميناء الداخلي، الذي أُغْلِقَتْ بوابته فانعزل عن أثر العاصفة المباشر، كانت القوارب تضطرب اضطراباً شديداً. شاهدت ماري الظلَّ القاتم لجسدٍ يحمل آخر يترنح في مشيته أمامها، ثم ينعطف عند ناصية نحو صف المنازل أسفل الجُرف. عندما انعطفت عند الناصية بدورها ثقلت عليها وطأة الرياح المندفعة من عرض المحيط. لسعتها ثيابها المُبلَّلة. أمَّا الأمواج العالية التي تضرب حافة الميناء الجرانيتية فتناثرت فوقها كأنها رذاذ ثلجي. كانت تُصارِع الجو كي تخطو إلى الأمام. بالكاد تحرَّكت كأنها تقاوم قبضة يد قوية. لكن تلك القبضة، من حين إلى آخر، كانت تفوق قوتها وترغمها على الرجوع إلى الوراء. حثَّها بصيصٌ من ضوء المصابيح الذي يظهر خلف نوافذ المنازل على التقدم. طمأننتها رؤيته رغم أن عدم انطفاء المصابيح، بعد أن وصلت العاصفة إلى ذروتها، كان كالمعجزة. بدا من غير المعقول أن يستطيع أي شيء، من الأضواء الواهنة إلى المباني الصلبة، احتمال قوتها. لقد عمَّ القرية ظلام حالك تلاطمت فيه موجات هادرة يعلوها الزبد، وتسارعت الرياح الهوجاء ناحية الشاطئ.

لكن ماري خفضت رأسها، لهذا غاب عن نظرها الظلُّ الذي كان يترنح أمامها. ولكي تلتقط أنفاسها سارت جانباً متمسك بمقبض باب المنزل الأول الذي صادفته. عندما نظرت أمامها وقعت الكارثة التي تواطأت جميع ظروف الليلة الضارية لجعلها محتومة: تهدمت إحدى المداخل فأسقطت رودا أرضاً، وتدحرج والدها مسافة قصيرة بعيداً عنه. لم يتحرك أي منهما، ثم اصطدمت موجة بحاجز الأمواج فتكسرت، وغمرتهما حيث رقدا.

دَقَّت ماري بقوة الباب الذي تمسكت بمقبضه. خرج الأهالي، رفعوا رودا وريتشاردز من بين حطام المدخنة التي قوَّضتها الرياح، وحملوا كليهما إلى منزل ريتشاردز. عندما أتى الطبيب كيرونو كان إدي رودا يسير بلا هدف على قدميه. لقد أصيب بكدمات طفيفة ونال منه الإنهاك فقط. أما ريتشاردز فقد لقي حتفه.

فيما يلي الأسئلة المهمة التي طُرحت عند التحقيق في الواقعة، وأجوبتها.

المُحَقِّق: إذن يا حضرة الطبيب كيرنو أنت ترى أن سبب الوفاة هو ارتطام حجر برأس الرجل أحدث كسرًا في الجمجمة، ما أدى إلى انغراس شظايا عظمية في مخه؟

الطبيب كيرنو: أجل يا سيدي. هذا ما أعتقد.

المُحَقِّق: لكن كانت توجد إصابات أخرى بالجانب الآخر من الرأس. وقد استمعنا إلى أدلة تصف كيف أُلْحِقَت بالمُتَوَفَّى. هل كانت هذه الإصابات خطيرة؟

الطبيب كيرنو: للغاية.

- لو لم يضرب حجر المدخنة رأس المُتَوَفَّى هل تعتقد أننا كنا سنجري هذا التحقيق؟

- هذا سؤال تصعب إجابته يا سيدي.

- مع ذلك حاول أن تجيبه يا حضرة الطبيب. هل من الممكن أن تُثَبِّت الإصابات الأولى التي أُلْحِقَت بالمجني عليه أنها قاتلة؟

- كانت تلك الإصابات جسيمة.

- أتفهم ترددك يا حضرة الطبيب، لكن وظيفتي تتضمن أن أدفعك إلى أن تصدقني القول.

- أرى أن تلك الإصابات كانت لتُثَبِّت أنها قاتلة في غضون بضع ساعات.

- يوجد سؤال واحد آخر يجب أن أطرحه عليك. في رأيك هل ساهمت تلك الإصابات الأولى، بأي طريقة، في وفاة هذا الرجل؟ أعني هل تسببت، على سبيل المثال، في إضعاف الجمجمة، لهذا عندما ضربه الحجر وبدأ أثره القاتل كان، إن جاز التعبير، قد حظي ببعض العون؟

- لا يا سيدي. كانت توجد منطقة سليمة من الجمجمة بين موضعي الإصابات. يؤكد هذا أن الوفاة قد حدثت نتيجة الإصابة الثانية فقط.

- يسعدني أنك أجبتني إجابة أكيدة من صحتها، وإلا فإن المحكمة كانت لتُوجَّه تهمة خطيرة إلى إدوارد رودا. هذا الشاب الآن في وضع غير معتاد لم أر مثله خلال سنوات عملي الطويلة، ولا أعتقد أن واقعة مماثلة حدثت قبلاً. لقد أوضحت الأدلة أن إدوارد لَكَمَ رجلاً لكمة كانت، وفقاً لرأي

الطبيب، لتقتله في غضون بضع ساعات بسبب الإصابات التي ألحقها به. ويا لفداحة الموقف الذي كان ليجد نفسه فيه! لكن ريتشاردز، وفقاً لشهادة الطبيب نفسه، لم يمت نتيجة تلك الإصابات. أقول بكل جدية إن الأمر يبدو كأن عناية الرب قد تدخلت لتتنقذ رودا من عواقب شرّ نفسه. لهذا يجدر به أن يُفكّر جدّياً فيما حدث. من غير المحتمل أن تحدث معجزة ثانية لتتنقذ من يغفل عن الدرس الذي لقّنته إياه المعجزة الأولى. وحُكِمَ بأن الوفاة كانت إثر حادث.

بينما أقرأ هذا التحقيق في عواميد جريدة محلية باهتة استطعت أن أتصور بوضوح هذا المشهد القاتم، الذي وقع في غرفة كئيبة في مدرسة الأحد المحلية. سمعت كلمات المُحقّق الوعظيّة البليغة. رأيت إدي رودا، الشاب الضخم العايب، يتطلع حوله زاهلاً كأنه ثور يافع وُضِعَ في قفص في محطة السكك الحديدية. ثم يحلّ الصباح التالي لتلك الليلة الكارثية الهوجاء. تسطع شمس الشتاء الدافئة بقدر الممكن في كورنوال. يههمم البحر، وتتناثر زهور الجولق الذهبية على امتداد الجروف كأنها زخارف برّاقة. يقولون إن رودا خرج من غرفة المدرسة عندما انتهى التحقيق، ولزم قارعة الطريق الذي جرفته العاصفة الليلة الماضية، حتى رأى ماري ريتشاردز. تحدث إليها وأمسك بذراعها يحاول أن يوقفها، لكنها أفلتت منه وأسهرت باكيةً إلى المنزل الذي كان متجراً أيضاً. وستعيش فيه وحدها منذ الآن لأن والدتها قضت نحبها ولم يكن لها إخوة. تبعها رودا يسير بسرعة يتلفّت وراءه من حين لآخر. عندما وصلت ماري إلى باب المتجر كان رودا قد تجاوزه بعددٍ من الأمتار ويقف منتظراً. في الليلة الماضية وقفت تتمسك بمقبض باب منزل أحد الجيران، والآن وقفت تتمسك بمقبض باب منزلها في حيرة شديدة من أمرها. ثم فجأة ذهبت خلف رودا. سارا معاً، انعطفا يساراً، ثم اتجها شرقاً يقطعان الجروف حيث تنحدر الدروب حتى رمال الشاطئ الذهبية في ذلك اليوم الصحو، الذي يدعونه في تلك الأنحاء بـ «اليوم المُعار» عندما يحلّ شتاء. رأى الفضوليّون، الذين سرعان ما اختبئوا بين الخلنج والجولق على قمم الجروف، الظل البعيد

لهذين الاثنين يسيران جنبًا لجنب على الرمال. وسرعان ما تشابكت ذراعهما. لقد وُلدت الحياة من جديد بدافع من الحب والموت المفاجئ.

كانت ماري ريتشاردز في الخامسة عشرة حينئذٍ. تزوجها رودا وهي في الخامسة والعشرين، ولم ينجبا سوى ويزلي. إذا قلتُ إن إدي أصبح رجلًا آخر بعد ما حدث في تلك الليلة فستبتهج القلوب وسترى الواقع رومانسيًا، لكن هذا لم يحدث. على أنه أصبح رجلًا قلما ترى مثله في بورتيفن. أدارت ماري المتجر الصغير. ساعد تعاطفُ جيرانها في ازدهار تجارتها. وقد اعتمدت على موظفة مكتب بريد بورتيفن في إعلامها بوصول خطاب إليها من الخارج. كانت تتلقى بضعة خطابات كل عام. وبواسطة الطوابع التي تُلصق بها وتشير إليها موظفة مكتب البريد تمكنت من تعقب أوديسة رودا: إلى البحر المتوسط والهند، الصين واليابان، هاواي وفالبارايسو، وحول «كيب هورن» إلى أمريكا الشمالية. عندئذٍ استطاعت أن تقول: «سيكون هنا قريبًا».

عاد رودا إلى بورتيفن رجلًا عدوانيًا مزاجيًا ذا لحية طويلة. «يسرف في الشراب والسُّباب» كما وصفه الطبيب كيرنو، الذي تقدم في العمر وقَدِم إلى تريسانت في مناسبة عادية لا أتذكرها.

لقد قال: «عندما مات ريتشاردز كنت طبيبًا شابًا أتيت حديثًا إلى بورتيفن أمضي فيها عامي الأول. لم أرَ سوى الحالات المرضية المعتادة، مثل: الحصبة والنكاف، حتى تلك الليلة. لهذا يصعب أن أنساها، مثلما يصعب أن أنسى مظهر رودا بعد عودته من رحلته. أظن أنني كنت أول من رآه، إذ يسير مُختالًا على الطريق يحمل حقيبة البحَّار على كتفه، وترفرف لحيته السوداء الطويلة. كان في العشرين من عمره تقريبًا».

لقد قام رودا برحلة بحرية تلو أخرى حتى أصبح قبطان مركبٍ شراعيٍّ يبحر في البحر المتوسط للتجارة، وتزوج بماري ريتشاردز. سارت الأمور على ما يُرام فترة، ثم رافقت الفضائح عودته إلى الديار مجددًا، حتى حدث ما أرغمه على أن يلزم موطنه حتى نهاية حياته. لقد اصطدم مركبه بحاجزٍ مرجانيٍّ في البحر الأديرياتيكي، ما أدى إلى تضرر المركب والبضائع التي كان يحملها تضررًا شديدًا. ووقعت خسائر في الأرواح أيضًا. أوضحت التحقيقات أن القبطان رودا استدعي من مقصورته في اللحظة الحاسمة، لكنه لم يستطع

الوقوف على قدميه من الثمالة. بعد هذه الواقعة أصبح إدي رودا صيادًا ساحليًا في بورتفن، مثل والده الذي قضى نحبه.

في إحدى ليالي الخريف خرج اللورد بيرندج، الذي يهوى عيش المغامرات، للصيد مع رودا وابنه الذي كان في السابعة عشرة من عمره في ذلك الوقت. لم ترَضُ الليدي بيرندج الأولى عن تلك الجولات البحرية، التي يعود منها اللورد بيرندج بسترته الزرقاء وحذاء البحارة الطويل يعبق برائحة الأسماك. لقد أبغضت هذا النشاط وكل ما يتعلق به، ولم تفهم لِمَ كان بيرندج أكثر سعادة على متن قارب صيد في كورنوال منه في قاعة جلوس في لندن.

في تلك الليلة الخريفية سكنت الرياح، فتشكّل ضباب غمرهم وهم جالسون متكاسلين يتموِّج بهم القارب. فجأةً، من قلب الضباب، ظهرت سفينة شطرت قارب الصيد وواصلت إبحارها. كان الرجال الثلاثة سباحين ماهرين، لكن اللورد بيرندج لم يستطع السباحة لأن ساقه تلقت ضربة عنيفة أعاقَت حركته. ظلَّ إدي وويلي يسندان اللورد بيرندج بمساعدة إحدى العوارض الطافية حتى حلَّ الفجر، وشتَّتت الرياح الضباب، وأتى قارب آخر لإنقاذهم. هكذا، عندما أبحرنا من بريست إلى كورنوال، كنا في ذلك القارب الذي يملكه اللورد بيرندج، لكن عائلة رودا تستخدمه كأنه ملكها.

مكتبة

t.me/soramnqraa

7

عندما وصلنا إلى تريسانت أخيرًا كان التعب قد بلغ مني مبلغه. مع طلوع الفجر هدأت الرياح. غادرت الأنسة ويل وسالي جايلورد مقصورة القارب، ودخلها ويزلي رودا كي يشعل نيران الموقد ليُعد الشاي. تناولنا الإفطار والقارب هادئ، نرى الأشعة تتدلى مثل أجنحة منكسرة، والصاري يتمايل إزاء قطاع من السماء. توقفت عن النظر إليه لأنه جعلني أشعر بالدوار. وسرعان ما التجأت إلى إحدى الزوايا.

عندما سكنت الرياح ظننت أننا قد أحرزنا تقدمًا كبيرًا نحو ساحل كورنوال. لكن المسافة التي تفصلنا عن وجهتنا كانت لا تزال طويلة. لهذا بعد الظهيرة عندما هتفت سالي جايلورد قائلة: «أرى البر!» كنت من التوعك ما

أوهن حماسي. لمحت عيناى المرهقتان البرَّ الرمادى، لكنه بدا بعيداً يتعذر الوصول إليه.

أخبرنا ويزلى بأنَّ هبَّةَ رياح قادمة، وقد دامت ساعة. ثم وضحت الرؤية وظهرت المنازل والحقول والسيارات النباتية. لكن الرياح هدأت مجدداً وعاد الصاري إلى تأرجحه المثير للغثيان. عندئذٍ شعرت أنني لم أعد أملك مَعِدَةً لتضطرب. على أنني نجحت في استئثاره عصارة مراريَّةٍ وَغَثِيَتْ كل ذرة في جسدي. لهذا أَمَرَ اللورد بيرندج القبطان رودا ويزلى بحلِّ رباط الزورق أعلى المقصورة، ووضعه على متن القارب.

خاطب القبطان قائلاً: «أنا مُضطَرٌّ إلى أن أترك أمر الأمتعة لك. انقلها إلى تريسانت بأسرع ما تستطيع».

تطلَّب وصولنا إلى ميناء بورْتِفِن التجديف طويلاً. وعندما وصلنا إلى وجهتنا كنا على هذا الحال: يدا اللورد بيرندج على المجدافين، رأسي المسكين في حجر ويلي، وسالي تمسك بيدي الباردة. صعدت الدرجات الجرانيتية محمولةً بين ذراعي أحد مُرافقيّ. ثم أسرعْتُ سالي، التي تعرف المكان جيداً، تقودني إلى أحد المتاجر. هناك جلست، ونظرت عبر واجهته لأرى النوارس تحوم ناعقةً فوق فضلات الأسماك في الجانب الآخر من الميناء. نخر زعيقهم رأسي الذي يؤلمني، وأمضيت الوقت في المتجر الصغير تخنقني رائحة زيت المصابيح، والبصل، والشموع، وأقراص علاج الكُحَّة. لقد شعرت حينئذٍ بما لا شك أن الليدي بيرندج الأولى قد شعرت به مراراً، وهو أن ذلك المكان مريع.

بعد ذلك ركبنا عربة مغلقة جلبها اللورد بيرندج من أحد إصطبلات تأجير الخيول والعربات. كانت سالي ترفع صوتها كي تلفت انتباهي إلى زهور النرجس وزهور الجريس وما إلى ذلك. لكنني لم أنتبه إلى أي منها. لم أنتبه إلى دخول العربة الممر الطويل المؤدي إلى المنزل حتى صاحت سالي قائلة: «إنه روبر!». لقد انضمَّ كلب ضخَم إلى موكبنا. ظل يركض معنا الطريق كله إلى المنزل، يرحَّب بنا بنباح شديد يدقُّ رأسي. شعرت بساقي ذلك الكائن الضخم على كتفيَّ ولسانه على وجهي. سمعت جلبه الخدم الذين تفاجأوا بقدومنا. لا أتذكر حول دخولي تريسانت العزيز أول مرة سوى الشعور بنفسى بين ذراعي اللورد بيرندج يحملني إلى الطابق العلوي، وبالسريِر الدافئ الذي

استقبل جسدي المرتجف، وبأطراف أصابع أُمي تنثر الكولونيا على جبهتي.
أسدلت ويلي الستائر وخرجت تسير بهدوء. في تلك الغرفة الظليلة شعرت أن
السريـر قارب. وظننته مثل سابقه سيصـيـبني بدوار تُخفّف حليفتُه الرياح من
شدّته. لكنه كان دافئاً، وتسرب دفته إلى كياني على مهل. ومن البعيد سمعت
سالي تقول: «اهدأ يا روبر! لا تصدر صوتاً آخر!».

ابتسمت سعيدةً وغلبني النوم.

الفصل السادس

1

طالما رأيت الحاجز الرمليّ والدرب المؤدي إليه أجمل ما في تريسانت. في الصباح التالي لوصولنا سرت فيه للمرة الأولى من مرات عدّة تالية. إنني أكتب هذه المذكرات أينما كنت؛ أحياناً في تريسانت وأحياناً في لندن. عندما أكون في لندن وينال مني التعب - كما يحدث كثيراً الآن - أستلقي، أغمض عينيّ، وأتجول في ذلك الدرب البديع. أستطيع أن أعود إلى الغابة والبحيرة، والحاجز الرمليّ والمحيط، لأنتعش كيفما كان الجو. يمكنني أن أرى البجعات وسط المياه صيفاً، وأن أسمع تغريد الكراوين الكثيب شتاءً. أرى الربيع في زهور الجريس في الغابة، وزهور شقائق النعمان البيضاء تستظل بأشجار الزّان المزدهرة حديثاً؛ وأشجار الصنوبر التي تتلوى جذورها خارجة من التربة، لتعود إليها ثانية تجهد كي تتشبث بشقوق في الصخور. وفي يونيو المقدّس ينظر المرء نحو سماء الأيام الحارّة كأنه في كنيسة مفتوحة. في الخريف يتساقط ثمر الزّان والبلوط فوق أوراق الأشجار الحمراء الهشة، فتُحدث صوتاً تظنه خافتاً حتى تستمع إليه عندما يعمّ السكون، إذ يتكرر ويتكرر ليؤكد وجوده. وأسمع وقع أقدام تدوس رُكام عامٍ ينصرم. أمّا في الشتاء فتخرج من الغابة لتجد الحاجز الرمليّ أمامك والبحر الهائج وراءه. تدفع الرياح إلى الخلف، وتدفع أمواج الأطلسي بقوة لتتكسر على الرمال.

عندما استيقظت كنت بخير، لكنني شعرت بالخواء. غادرت السرير وأشرعت الستائر. رأيت في الأسفل البقعة المفروشة بالحصى، حيث توقفت عربتنا أمام باب المنزل الرئيس بالأمس. تساءلت إن كنت أستطيع رؤية المحيط، لكن هذا لم يكن ممكناً لأن المنزل يدير ظهره له، إذ يقوم أسفل تلّ تغطيه أشجارٌ تُخفي المياه وتصدُّ الرياح الأطلسية. وراء البقعة المفروشة بالحصى امتدت حديقة تنتهي بقضبان حديدية، وراءها انبسط مَرَج يجري فيه جدول صغير. في جانب المَرَج البعيد تعلو الأرض قليلاً وتغطّيها الأشجار. هذا أقصى ما استطعت رؤيته.

لا شك أن صوت حركتي بلغ مسامع الخدم، فقد انفتح الباب لتدخل خادمة معها صينية الإفطار. عدت إلى السرير لتضعها فوق ركبتيّ. سألتها إن كانت الآنسة ويل قد استيقظت، فأخبرتني أن الجميع استيقظوا قبل ساعات. كانت الساعة العاشرة وقد خرج الجميع. قالت إنهم اتجهوا إلى الحاجز الرمليّ، وإن كنت بخير يمكنني أن أنضم إليهم.

عندما خرجتُ إلى الهواء الطلق سعدت بوجودي وحدي. لقد أخبرتني الخادمة كيف أصل إلى الحاجز الرمليّ. وحالما اجتزْتُ الباب الرئيس وخرجت تستقبلني أشعة شمس مايو، دارت في ذهني فكرة جعلتني أثبت في مكاني. كانت تلك أول مرة يخبرني فيها أحدهم بكيفية الوصول إلى مكان! حتى تلك اللحظة كنت أرافق أينما ذهبت. لقد أخبرتني الخادمة أن أعبر حقولاً، وأسير بمحاذاة بحيرة، وأن أقطع الغابة. بالطبع لم يكن أبي ليرى أيّاً من هذا أمناً! والآن فاجأني شعور سعيد بأن قيودي قد انحلت، وأنني أستطيع فعل الكثير. وشرعت فجأة في الركض والغناء.

في صباح ذلك اليوم قطعت الطريق ركضاً وتلكؤاً. ركضت مبتهجةً بسطوع الشمس ونعيق الغربان وتغريد الوقواق، وزقزقة طيور الشحرور السوداء والسمنية الرمادية وهي تطير بين الأشجار. لكنني تلكأت إذ اجتذبتني منظر ساحر على حين غرة. لقد وصلت إلى البحيرة، ويجب أن أصف لكم كيف كانت. أظن أنها قبل أعوام شكّلت جزءاً من المحيط الأطلسي. كانت

طويلة وضيقة، عند طرفها الجنوبي يرتفع الحاجز الرملي الذي يفصلها عن مياه المحيط. إن حاولتُ أي عاصفة هوجاء كسر ذلك الحاجز فإنها تخفق في مسعاها، وتقفزه بالحصى والرمال التي تزيده ارتفاعاً. تمتد تلك البحيرة الصافية شمالاً. على ضفتها الغربية الصخرية نمت غابة كثيفة، وفي شرقها يوجد مرعى يأخذ في الانحدار تدريجياً. بعد ميلٍ من جريان البحيرة شمالاً فإنها تتسع غرباً نحو تريسانت. عند هذه البقعة رأيتُ ذلك المُسطح المائي الرحب للمرة الأولى. توقفت عن الركض كالحمقاء، ووقفت ذاهلة أنظر إلى المكان الذي ينتمي إليه قلبي حتى الآن.

تطلّعت إلى الطبيعة الساحرة من خلال الأشجار التي انتصبت في مَرَج صغير. من بين جذوع الزَّان الرمادية الملساء لمعت مياه البحيرة، التي تفرّقت أشعة الشمس على صفحاتها مثل اللآلئ. على سطحها رأيتُ أوراق الزنابق، التي ستدعم الزهور البيضاء والحمراء في الوقت المناسب لأن العام لم يكن مُتأهباً لهذا بعد. في مياهها أبحر زورق يستقله رجلٌ يدخن غليوناً ويُجَدِّف بتكاسل. استغرقتُ في مشاهدة هذا المنظر الخلّاب حتى رسا الزورق عند الشاطئ البعيد، حيث يوجد رصيف خشبيٌّ ومستودع للزوارق. غادر الرجل الزورق واتجه إلى كوخ قائم خلف أرض عشبية. كانت البحيرة أمامه والأشجار حوله، وتساعد دخان ذو مسحة زرقاء من مدخنته. عندئذٍ بدا لي أن لا مكان في العالم يفوق ذلك الكوخ سكيناً.

كم كانت حياتي مُضجرةً محدودةً النطاق حتى ذلك الوقت! على الرغم من أنني طفلة إحدى العائلات الثرية فإنني لم أزرُ سوى بضعة شوارع ومتنزهات في لندن. ولم أَر سوى البحر في «برودستيرز»، وبقعة صغيرة من فرنسا أثارت اهتمامي، لكنني لم أَر بها منظرًا كهذا. كان ما أبهجنى كثيرًا أنني عشت هذه المغامرة وحدي. شعرت فجأة أنني جديرة بالثقة بما يكفي لأؤمن على العالم بأجمعه.

لقد أخبرتني الخادمة أن أنعطف يميناً -يعني هذا الاتجاه جنوباً- فأصبحت أسير في دربٍ على يمينه الغابة، وعلى يساره ضفة البحيرة الغربية الصخرية التي زحفت إليها الأشجار، لكنَّ المرء بوسعه أن يرى المياه من خلالها. هكذا صحبتني الغابة، والمنحدر الصخري الذي انتشرت فيه الأشجار، طوال الدرب

إلى الحاجز. أود أن أصف ذلك الدرب مرة واحدة، وأؤكد أنني لم أر تفاصيله بهذا الوضوح في غير ذلك الصباح.

ملأت الغابة زهور الجريس كأنها بحيرة زرقاء يُلْفها الضباب. ولأن الأشجار لم تكن في أوج ازدهارها فقد تخللتها الشمس بنورها وأحالت لون جذوع الزَّان الرمادية، التي ارتفعت عاليًا، إلى الفضيِّ اللامع. لم تكن أوراق الأشجار قد طرحت عنها قشور الثمار بعد، فالتمع زَغْبُها الفضيِّ الدالُّ على عهد ازدهارها الفات. ازدان الدرب الذي تلكأت في عبوره بصخور ضارية إلى الحُمْرة، وأشجار صنوبرية جذوعها في خشونة جلد التمساح، تشقُّ جذورها الفريدة الأرض لتجد لها ملاذًا. لقد سقط بعض تلك الأشجار فتصدَّعت التربة حولها. لا شك أن سقوطها نزل بكثيرٍ من المخلوقات التي تمشي على رجلين أو أربع كالكارثة، مثل رحيل رجلٍ مُحسِنٍ يعتمد عليه بسطاء الحال في عيشهم.

يجدر بي ألا أطيل الحديث عن الغابة أو جولاتي في تريسانت، أو العُش الرطب الذي رأيت إحدى البجعات ترقد فوقه في ذلك اليوم، أو حيوان الغُرير الذي سمعت نحيه لاحقًا بعدما عرفت المكان جيدًا. لديّ كثير من الذكريات هناك، إن أطلقت العنان لقلمي قد يصيب من لا يعرفونني بالمل.

في ذلك اليوم، في منتصف الدرب الذي يمتد ميلًا بين الغابة والبحيرة، توقفت إذ رأيت كائنًا صغيرًا لكن جذعه طويل. نظر إليَّ لحظات، ثم ركض يتلوى في حركته بعيدًا عن نظري. الآن أعلم أن ما صادفته كان حيوان القاقم، لكنني لم أدرك هذا حينئذٍ. في تلك البقعة على يميني ارتفعت الصخور ارتفاعًا حادًا تتاخمها الأشجار الصنوبرية. وعلى حافة الدرب نمت بضع شجيرات اختفى بينها ذلك الكائن. ركضت ألحق به أملًا في أن أراه ثانية، وأخذت أباعد بين الشجيرات. لحظت وراءها فتحة تشبه بابًا صغيرًا شقَّ في الصخر. ظننت أنني أمام كهف وسحرتُ الفكرة لُبِّي. تأهبت لأن أنظر إليه من قرب، فسمعت حفيفًا يصدر عن أوراق الصنوبر التي تُظلل رأسي. نظرت إلى الأعلى فإذا القبطان رودا يعتمر قبعته ذات الشُّرابة، وينظر هادئًا إلى الأسفل حيث أكون. كانت إحدى يديه تحيط بجذع شجرة والأخرى تمسّد لحيته.

نظر أحدنا إلى الآخر بضع لحظات دون حديث، ثم هتف مَرَحًا: «صباح الخير يا حُبُوبتي. كيف حال المعدة العزيزة هذا الصباح؟ أمل أن تكون قد تحسنت».

تفاجأت بوجوده وبأنني كنت مُراقِبة رغم أنني ظننتني بمفردي. أجبته في تهذيب: «أنا بخير يا قبطان رودا شكرًا لك. لقد رأيت أحد الحيوانات. (أضفت في سذاجة) أظن أنه سنجاب».

تقدّم سريعًا يدوس بعض الحجارة وجثا بجواري. قال: «لقد رأيته. لم يكن سنجابًا، بل قاقمًا، وهو كائن شرس. لهذا لا تتبعه أبدًا يا حُبُوبتي. دعي الشجيرات وشأنها ولا تعبئي بها».

لم أخبره شيئًا عن الفتحة التي رأيته في الصخر، إذ بدا أنه يتعجل مغادرة المكان ليكمل طريقه. شرع في السير في اتجاه الحاجز الرملي وهرولت بجواره. لم نكن قد سرنا طويلًا عندما بدأت الغابة تنحسر، والصخور تتسربل بزهور السببب والخبازية القرمزية، وأوراق الأشجار السميكة الخضراء الداكنة، وزهور وردية وصفراء تشبه النجوم. بلغ تلاطم الأمواج مسامعنا. وفي الأمام رأينا ويلي وسالي جايلورد تجلسان على سور. ركضت نحوهما، وهناك حيث جلسنا استطعنا رؤية المحيط.

كم كان المنظر الذي تطلُّ عليه تلك البقعة جميلًا، إذ يواجه السُّور ضفة تكتسي بزهور الخلنج والسراخس والأرميريا الوردية. وأسفله تنحدر الأرض إلى البحيرة، التي لم تكن عميقة في تلك البقعة. هكذا يستطيع المرء أن يرى أقدام طيور مالك الحزين وهي تخوض المياه، وظلال الأسماك الداكنة التي تسكن حينًا وتسبح سريعًا في حين آخر. ثم تنتهي البحيرة بالحائل؛ الحاجز؛ نصف ميلٍ من الرمال اللامعة. يليه المحيط الذي يمتد إلى ما وراء حدود البصر.

لحق بنا القبطان رودا ودعانا جميعاً إلى تناول الشاي في كوخه.

سألته سالي: «من أين ظهرت فجأة؟ إنني أنا والآنسة ويل نتمشى هنا منذ ساعة أو أكثر. لكننا لم نرك في الجوار».

أجابها مرتاح البال: «عبرتُ حقلاً إلى منتصف الغابة العريضة. هيا يا حُبوباتي. أنا في حاجة إلى كوب شاي».

لم يتطلب وصولنا إلى الكوخ سيراً طويلاً، لكن المشهد حولنا اختلف كثيراً بعدما قطعنا تلك المسافة القصيرة. وصلنا إلى بوابة تقود إلى كوخ إدي الذي كان، في الواقع، واحداً من الأبنية الملحقة بإقطاعية تريسانت. بناء حجري صغير جميع أركانه مُدعّمة بالجرانيت. كان عتيذاً وراسخاً وخشناً بقدر ما كان الكوخ الذي رأيته بجوار البحيرة رقيقاً وحالماً. لقد علمت فيما بعد أن ذلك الكوخ، الذي تأملته في وقتٍ مُبكرٍ في رحلتي، هو أيضاً أحد أبنية تريسانت ويقوم بالقرب من إحدى بواباتها. أما كوخ إدي فيقوم على حافة الجرف ويحيط به سورٌ في مثل متانته.

خلع إدي قبعته ذات الشُّرابة، حكَّ رأسه، وقال مبتسماً: «لا يمكن لهذا الكوخ ألا يكون متيناً».

كان محقاً في ما قال. فقد اتسع الأفق أمامنا وملأ المحيط الشرق والغرب والجنوب. امتد الدرب الذي يقطع الجرف ميلاً حتى «بورتيفن»، التي تتمركز مساكنها حول مينائها. كانت تلك المنازل البعيدة هي الأقرب إلى الكوخ. فكَّرتُ كم يكون الشتاء قاسياً في هذا العُش الحجري الذي يجابه وحده رياح الكون العاتية.

قال إدي رودا وهو يمشط لحيته السوداء بأصابعه: «يبدو المحيط العزيز بهيئاً ووديعاً».

قالت سالي: «لكنه لا يكون بهذا البهاء والوداعة عندما تخرج قوارب النجاة. (أوضحت لي ما تقصد قائلةً) إن القبطان رودا قائد فريق الإنقاذ، ويتضمن فريقه والدي وويزلي».

هأنا أعلم مزيدًا من الحقائق المفاجئة الرائعة عن هذا العالم الجديد، الذي قُذِف بي في محيطه فجأة. إن حاولتم تصور والذي في إحدى قوارب النجاة فلن يمكنكم ذلك. لكن يسهل تصور اللورد بيرندج في أحدها، يرفع المجاديف ويغمرها في المياه إذ يصارع القارب الأمواج، والسحب الرمادية الضارية تندفع عبر السماء في ليلة مضطربة.

يسهل تصور هذا، لكن ليس في ذلك الصباح، إذ أجاب القبطان رودا: «أجل، الآن يبدو بهيًّا ووديًّا (ثم تقدّم إلى الأمام يقول) هيا إلى الداخل يا حُبوباتي».

لو كنت في ذلك الوقت أعلم قصة القبطان رودا وموت البَقال ريتشاردز لما سهل عليّ أن أتعرف في السيدة رودا على «الفتاة الضئيلة» ماري ريتشاردز. لقد ميّز القصر السيدة رودا: كانت قصيرة القامة، قصيرة الأنفاس، قصيرة العبارات. امرأة بدينة تتمايل في مشيتها، وجهها ذو حُمرَة وخطّها الشيب. جلبت الشاي إلى غرفة الجلوس، وضعت الصينية على طاولة من الخيزران، أومأت إيماءة مقتضبة تجاهنا، ثم خرجت. عبر النافذة رأينا ويزلي رودا يصلح أقفاصًا خوصيّة، لم أعلم أنها مصايد الكركند حتى أخبرتني سالي بذلك، ووالده يتحدث إليه. كم كنت جاهلة! انبسطت أمامي حياة كاملة يجب أن أعرف تفاصيلها. لا أقصد معرفة أغراض مثل مصايد الكركند فقط، بل وغرفة مثل التي جلسنا فيها لم أر مثلها من قبل، بدا كأن أهل البيت قلّمًا يشغلونها. كان أثاثها مُنجّدًا بشعر الخيول الشائك. ازدان سطح الأرغن بأصداف لؤلؤية كبيرة. رأيت على رفّ المدفأة منبرًا صغيرًا خفيًّا يجلس عليه مُجسّم الواعظ جون ويزلي. ووضِع كتاب الترانيم الميثودية في حامل النوتات الموسيقية. احتوت الغرفة على صورة واحدة فوق رفّ المدفأة نُقشت على الفولاذ، تُظهر جون ويزلي يلقي عِظَةً على حافة حفرة جويناب. استنتجت أن تلك اللوحة مستوحاة من الخطاب الذي ألّقه عليّ القبطان رودا. لقد تضمنت جميع التفاصيل التي أخبرني بها: وجهه الملائكي المتهلّل والشريطين الأبيضين حول عنقه، وسطوع الشمس عبر السحب ليغمر ضوءها الأعين الحزينة والأيدي المتضرّعة للخطاة المُقشّرة أبدانهم، حتى إن الفرس العجوز كان يقف جانبًا، متأهبًّا لينطلق برفقة البطل إلى المنبر التالي.

ارتشفنا الشاي وتناولنا كعك الزعفران. ولأن الغرفة اختنقت بهواء لم يتجدد قالت ويلي: «أتساءل إن كان ممكناً أن نفتح النافذة».

أجابتها سالي: «يجب أن نحصل على إذن من السيدة رودا».

ثم اتجهت إلى المطبخ وطرقت بابه. أتت السيدة رودا تمسح يديها في منظرها الخشن. بالكاد فتحت النافذة وبدأ عليها التردد. ثم فاجأتني عندما سألت سالي: «أتودين سماع الموسيقى يا آنسة سالي؟».

- أجل، أنا واثقة أننا جميعاً نودُّ ذلك ما لم نعطلك.

جلست السيدة إلى الأرغن بتثاقل، فركت يديها بفخذيها اللتين يغطيها المنزر، وبدأت العزف. حالما ارتفعت الموسيقى أتى القبطان رودا إلى النافذة ووسَّع فتحتها لأن زوجته لم تسمح بغير فُرجة صغيرة. هكذا أُتيح مُتسع يكفي ليدخل إيدي رودا وجهه الطَّلِق إلى الغرفة. صاحَبَ غناء السيدة رودا عزفها. ولم يشاركها الغناء القبطان رودا الذي يستند إلى النافذة فقط، بل وويزلي الجالس في مقعد طويل أمامه مصيدة كركند على الأرض.

لقد تفاجأت باقتراح السيدة رودا عزف الأرغن لنا. لكنني لم أجد غناء العائلة معاً غريباً، إذ لا يلزم المرء أن يعرف تلك العائلة طويلاً ليدرك أنَّ لا غرابة في هذا المشهد على الإطلاق. كانوا عائلة تحب الغناء مولعةً بالترانيم. لكن الغريب والمؤثِّر حقاً هو ما لحظته في وجه ماري رودا وهي تغني. لقد لأنَّ وجهها الجامد، وتبدَّى الجانب الرقيق بداخلها. طوال الغناء ثَبَّتَتْ عينيها على رودا عند النافذة ولم يَحِدْ بصر رودا عنها. لقد بدا كأن القرصان الوسيم سحراها.

وبينما تشدو قائلة:

«أستمَدُّ قوتي منك

وأخضع راضيةً أمامك».

صعب أن أقدر ما إن كانت تغني له أم للربِّ.

عندما انتهت الترنيمة هتف القبطان رودا: «أحسنيت يا عزيزتي. «امتلئوا بالروح مُحَدَّثِينَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا بِمَزَامِيرَ وَتَسَابِيحَ وَأَنَاشِيدَ رُوحِيَّةٍ، مُرَنِّمِينَ وَمُرَتِّلِينَ بِقُلُوبِكُمْ لِلرَّبِّ». أليس كذلك أيها الفتى ويزلي؟».

لم يجبه ويزلي. لقد أسقط مصيدة الكركند وهرول إلى السور الواطئ، الذي يمتد وراءه الجرف والدرب المؤدي إلى بورتقن. وراء السور استطعنا رؤية رأس فتاة وكففيها، وملحفاً يظهر منه وجه رضيع. الآن لحظت تبديلاً جديداً في وجه ماري رودا. احتقن واشتدت حُمرة كأنها غاضبة غضباً شديداً. أما القبطان رودا فقد اختفى من أمامنا. لا شك أنه دخل المنزل عبر باب خلفي. الآن صاحت السيدة رودا عبر النافذة قائلة: «عودي إلى حيث تنتمين يا لوسي إيفانز. اذهبي الآن لأن مكانك ليس هنا. لا أريد أن أراك في الجوار».

كانت تلوّح بقبضتها وترتعد غضباً. أسرعَت الأنسة ويل تحيطني وسالي بذراعيها وقالت: «علينا الرحيل».

هكذا رحلنا دون أن نوجّه كلمة للسيدة رودا التي، في ما بدا، قد غفلت عن وجودنا. عندما خرجنا إلى الطريق رأينا الفتاة تحمل رضيعها وتتجه إلى بورتقن، يتبعها صياح السيدة رودا. رغم ذلك فقد رأينا ويزلي يقفز فوق الجدار ويلحق بهما.

قالت سالي: «إن لوسي إيفانز مسكينة. دائماً ما يلاحقها صياح الجميع. فهي لم تتزوج لكنها أنجبت طفلاً».

4

إن سمع معظم الناس في عصرنا الحالي ذلك التعليق من فتاة في العاشرة، فسировون أنه يبدي نضجاً غير معتادٍ وغير لائقٍ أيضاً. لكن سالي قالت ما أرادت قوله بصراحةٍ وعقلانية. أعتقد أن آباء العصر الحالي سيرون جميع أحاديثها «تشبه أحاديث الكبار».

لكنها حينئذٍ لم تقل المزيد عن لوسي إيفانز. غادرنا منزل عائلة رودا، وانبسط أمامنا طريقٌ غير مستوٍ إلى الحاجز الرملي. سرنا على مهل فوق الرمال حتى حافة المياه، التي دائماً ما يرافق وصولها إلى ذلك الشاطئ هديرٌ لا يشبه خرير القطط الذي تُحدثه الأمواج عند معظم الشواطئ. في ذلك اليوم كان المحيط بهيئاً ووديعاً كما وصفه إدي رودا. لكن سالي أخبرتنا عن ضراوة الشتاء، والسفن التي تندفع نحو الشاطئ والجثث التي تنجرف إليه.

سألته ويلي: «هل شهدت لياليَ خرج فيها حضرة اللورد مع فريق الإنقاذ؟».

- أجل، بضع ليالٍ ليست كثيرة العدد، لكنني لا أنساها لأنني لم أستطع النوم فيها. إن التلّ والغابة يحميان تريسانت، لهذا عندما تهبُّ الرياح الهوجاء هنا يكون المنزل هادئاً. لكن هذا لا يطمئنني لأنني أعلم كيف الحال في الخارج. وحالما تعلمين ذلك لن تستطيعي أن تتدثري بملحفك وتخلدي إلى النوم، أليس كذلك؟ ستشعرين أنكِ نَذلة. لهذا أزدري أُمي. بالطبع لم ترغب الآنسة ويل في مناقشة هذه المسألة مع سالي، لهذا قالت: «حسناً، هل نواصل السير قليلاً، أم نعود إلى المنزل؟».

أبَّت سالي أن تُقابل كلماتها بالتجاهل، فقالت: «أعلم أن عليَّ ألا أحدث في مسائل كتلك، لكن لا ضير في أن أخبركِ بحقيقة شعوري».

ثم نفستُ عن أمر بدا واضحاً أنه يعتمل في صدرها منذ مدة طويلة. أخبرتنا عن ليلة عاصفة ذهب فيها اللورد بيرندج إلى بورتيفن، كما اعتاد أن يفعل عندما يصبح مُحتملاً أن يخرج قارب النجاة للإبحار. ثم قدم إلى المنزل رسولٌ يقول إن إشارات الاستغاثة قد لوحظت لهذا أبحر القارب. أوت سالي إلى فراشها في الوقت المعتاد، لكنها لم تستطع النوم لأن مخيلتها تصورت القارب الصغير المكشوف، الذي لا يعتمد على غير الأذرع المُجدّفة ولا يشبه القوارب الحالية المزوّدة بمحركات. توهمتُ الرياح تعصف بفريق الإنقاذ ذي المعاطف المُشمّعة، والأمطار ورذاذ المحيط يضربهم.

قالت سالي: «ما جعلني أطمئن قليلاً هو أن أُمي كانت مستيقظة، وستعطني بأبي عندما يعود إلى المنزل. لكنني سرعان ما سمعتها تؤوي إلى فراشها».

صعب على سالي تصديق ما فعلته والدتها. لهذا غادرت سريرها وتسلمت إلى باب غرفتها.

- كان من عاداتها أن ترفع صوتها عند تلاوة صلواتها. سألتها عن هذا الأمر ذات مرة فأجابتنني ضاحكة بأنها تفعل ذلك كي يسمعها الرب جيداً. في تلك الليلة استطعت سماعها. كانت تصلّي لنفسها. لم أسمع في دعواتها كلمة عن أبي أو القبطان رودا أو ويزلي. ظلّت تردّد: «باركني»، و«امنحني كذا وكذا»، لهذا ازدريتها. ثم جثوت أمام باب الغرفة ورفعت صوتي بالصلاة، أسأل الرب أن يحفظ جميع الرجال الذين قد تكون سفنهم في خطر، وأن يعين فرق الإنقاذ على نجاتهم وإعادتهم إلى منازلهم آمنين».

بعد هذا مباشرةً انفتح الباب وظهرت الليدي بيرندج تحمل شمعة، شعرها منسدل حتى خصرها والغضب يلتمع في عينيها. صاحت: «ماذا تقولين؟ هل أتيت لإهانتي؟».

عقد الغضب والحزن لسان سالي. أمسكت والدتها بذراعها وقادتها إلى غرفتها. أمرتها أن تؤوي إلى السرير، ثم غادرت وأقفلت الباب.

قالت سالي: «كان هذا ما أنهى العلاقة بيني وبينها إلى الأبد. فهي لم تسهر في انتظار أبي وحاولت منعي من السهر في انتظاره».

جلست سالي في سريرها، ثم سمعت الساعة في الممر الخارجي تدق العاشرة. كانت توجد شجرة ترتفع إلى نافذتها يسهل التحكم في فروعها كأنها درجات سلّم، لهذا فتحت النافذة وخرجت. لم تدفعها رغبة بطولية إلى فعل ذلك. فهي لم تفكر في غير الخروج من غرفتها، ولم تستطع النزول إلى الطابق السفلي لأن بابها مقفل. لكنها حالما أصبحت في فناء المنزل وجدت أنها في مأزق. فالخدم ساهرون في انتظار والدها وسيعيدونها إلى الفراش ثانية. ولم يعد ممكناً أن ترتدي ما يناسب الخروج في ليلة كتلك لأن معاطفها المشمعة في خزانة في الطابق السفلي، ولن تستطيع الوصول إليها دون أن ينكشف أمرها. لم تصل الرياح الجنوبية الغربية إلى تريسانت بكامل قوتها، لكن المطر كان يهطل بغزارة. وبينما تفكر في ما يجب أن تفعل كانت ثيابها الخفيفة قد تبللت بالفعل.

لكن المطر توفق فجأة. ووسط الغيوم التي أخذت تتبدد رأت سالي القمر يتهادى في السماء. لهذا قررت الذهاب إلى بورتيفن.

للوصول إلى هذه الوجهة يمكن السير على طول البحيرة والغابة حتى كوخ القبطان رودا، ثم السير مِيلًا فوق الجروف؛ أو مغادرة أراضي تريسانت واجتياز الطريق الرئيس. لو كانت سالي فتاة مثلي من فتيات المدينة لرأت أن سلك أيّ الطريقين بمفردها ليلاً أمرًا مرعبًا. لكن سالي تعلم كل شبر في طرقات تلك المنطقة، وكل حقل وشجرة، وكل فرد يعيش فيها. لهذا لم تضطرب جرّاء احتياج الطبيعة حولها. لكن اضطرابًا شديدًا انتابها نتيجة الخلاف الذي نشب فجأة بينها وبين والدتها، وكان قويًا لأنه مسّ حبها الشديد لوالدها. بدت اللامبالاة في وجهها، لكن غضبًا طفوليًا جاش في صدرها وهي تقطع الطريق تجابه الرياح، والأشجار ثائرة فوق رأسها، والسماء العاصفة تفتح أبوابها أمام القمر تارةً وتغلقها تارةً أخرى.

عندما عثرت على والدها علمت أنه هو والرجال الذين خرجوا معه قد أخفقوا في مهمتهم. وهذا ما زاد موقف والدتها في نظرها سوءًا. في منتصف طريقها إلى بورتيفن رأت عربة قادمة تومض مصابيحها، بداخلها رجل مصاب حزين يقوده الطبيب كيرنو إلى المنزل.

ركضت سالي إلى منتصف الطريق فتوقفت العربة وصاح الطبيب: «يا إلهي! ما الذي تفعلينه هنا يا صغيرة؟».

حالما استقلّت العربة صرخت إذ رأت والدها مُنْهَكًا، يستند رأسه الذي تُلْفُهُ ضمادة إلى الوراء، وعينه مغمضتان.

أجلسها في حجره وأحاطه بذراعه، ثم تمتم: «يا إلهي! لقد تبللت تمامًا يا سالي».

ولم يستطع قول المزيد.

عندما وصلوا إلى المنزل فغر الخدم أفواههم لمرأى الطفلة التي حسبوها نائمة، لكن الطبيب كيرنو قال: «اخلدي إلى النوم الآن يا سالي. غدًا ستفسرين ما فعلت».

أطاعته سالي وتركت والدها جالسًا في كرسيٍّ بجوار المدفأة في الردهة. على أنها علمت فيما بعد أن الرياح والمياه ظَلَّت تضرب قارب النجاة وهو يشق طريقه إلى سفينة فقدت مرساتها ثباتها. تتابعت الأمواج تصطدم بها فتطرح عن متنها الرجال أمام أعين فريق الإنقاذ، وتجرف عارضةً تلو أخرى حتى الصاري الرئيس. لكنهم لم يستطيعوا فعل شيء، وفي النهاية شاهدوها تغرق. طُرحت أقنان الدجاج والبراميل والمعدات المحطمة في المحيط. وحملت الأمواج غرضًا منها أصاب جبهة اللورد بيرندج وأفقده الوعي.

علمت سالي بهذا فيما بعد. لكن في تلك الليلة، بينما تفتح باب غرفتها حيث المفتاح لا يزال في القفل، غادرت والدتها غرفتها بعدما أيقظتها إحدى الخادومات. تبادلت سالي ووالدتها النظرات بضع لحظات، لكن أيًا منهما لم تبادر بالحديث.

لقد أخبرتني سالي بعد سنوات أن كليهما أدركتا أن لا داعي لأي حوار. قالت إنهما في تلك اللحظة وصلتا إلى مفترق طرق. لقد أوضح ما حدث أن والدتها عزمت على الرحيل في طريق لن تسلكه سالي. وفي الأسبوع التالي أتى دوق فالوشير للصيد.

5

كنا في الطرف الغربي من الحاجز الرملي، الذي امتد شرقًا لينتهي بأرض مرتفعة يكسوها العشب.

صاحت سالي: «ها هما!».

من البعيد رأينا فارسين قادمين نحونا. في تلك اللحظة التقطت عيناوي صورةً من تلك الصور التي لا تبته أبدًا بمرور الزمان. صوّرت صباح يوم في نهاية مايو حيث يشتدُّ وهج الشمس، على يميننا المحيط تتهاذى أمواجه هادئة لا هائجة؛ وتنبسط الرمال مثل بساطٍ ذهبيٍّ حتى ترتفع الأرض جروفًا، يمتزج على قممها الأخضر بالرمادي، ثم تمتدُّ شرقًا ناحية شبه جزيرة «ليزارد». تقدّم الفرسان بتمهّل، ثم خَبَبَا استحالة عدوّا. لهذا عندما توقفا أمامنا كانا

والفارسان يلهثون. وثب اللورد بيرندج أرضًا، فأمسكت سالي بأعنة فرسه وهو يساعد أُمي في التَّرجُل عن فرسها. كانت وجنتاها متوردتين وتضحك. لم أرها من قبل بهذا الحُسن والسعادة. لم تحدثني كثيرًا عن صباها، على أنني علمت أنها ترعرعت في الريف واعتادت ركوب الخيل. لكن أبي لم يستحسن أدائها هذه الرياضة وكان هذا يحزنها. لا شك أنها استعادت شبابها في تريسانت على أكثر من صعيد.

ورغم أن الأطفال كثيرًا ما يغفلون عن هيئة والديهم فإنني في ذلك الصباح رأيت أُمي امرأة رائعة الجمال. لقد عانقتني وقبَّلتنِي، ثم أمسكت بذراعيَّ تتطلع إليَّ. لحظتُ بعض الخجل في مسلكها، كأنها تتساءل كيف سأستجيب لملاطفتها بعد الاضطراب الذي شهدته حياتي. بدت كأنها تطلب مني السماح. وليسامحني الرب إن كان قد بَدَرَ مني ما دفعها إلى ذلك.

التفتتُ إلى اللورد بيرندج، ورغم أنني كنت طفلة حينئذٍ فإنني لحظت تهلُّ وجهيهما عندما التقت أعينهما.

قالت: «أليست فتاة جيدة؟ ألسنت سعيدًا لأنني لم أجلب لك مشاغبة صغيرة؟».

أجابها اللورد بيرندج ضاحكًا: «سنبذل قصارى جهدنا للانسجام معًا بالطبع، لكنها لا تبدو صعبة المراس. لقد اتفقنا جيدًا منذ البداية. أليس كذلك يا آنسة ويل؟».

قالت ويلي: «لقد حصلتُ على كنزٍ صغيرٍ في ذلك اللقاء الأول».

تخضبت وجنتاي خجلًا إذ تذكرت ذلك الصباح في شارع بوند، عندما قبِلْتُ بلا حياء جميع ما جادت به سماحته.

قال اللورد بيرندج: «لكنني حصلت على كنزي أيضًا».

والتقت عيناه عينيَّ أُمي ثانيةً. الآن لم أشعر أنني قريبة منه كما كنت في فرنسا. شعرت أنني قد نُحِيت جانبًا بعض الشيء، وألقى هذا الشعور بظلاله على الجمع الذي يتحدث بابتهاج فوق الرمال.

سألت فجأة: «بماذا سأدعوك يا سيدي؟ هل يمكنني أن أدعوك اللورد بيرندج؟».

أغرق في الضحك عندما قلت ذلك، ومازحني قائلاً: «ولم لا؟ فهو اسم رائع سُمِّي به أشخاص كثيرون أفضل مني. ما الذي يعيبه؟».

- لكنني لم أدعُ أبي السير ريتشارد.

لم يكن من الصواب أن أذكر أبي وقد انتبعت إلى هذا على الفور. لقد اختفت الابتسامة من وجه اللورد بيرندج ووجه أمي.

قالت سالي: «أنا أمقت بشدة قول ماما وبابا. من الآن فصاعدًا سأدعوكما أبي وأمي. وأرى أن سارا يجدر بها فعل الشيء نفسه».

سألني اللورد بيرندج: «هل يلائمك هذا الاقتراح يا سارا؟».

لقد لاءمني الاقتراح كثيرًا حتى إن كلمة «أبي»، حتى نهاية السرد، تعني لي اللورد بيرندج لا السير ريتشارد راينبرو.

6

بعد ذلك اللقاء قاد أبي وأمي فرسيهما إلى الطريق الذي يمتد من الشاطئ حتى كوخ رودا، وتقدَّما سيرا عبر الغابة. ركضت سالي أمامنا أنا وويلي، تجيبُ تغريدَ شحورٍ يتأرجح بين فروع الأشجار، التي تتاخم المنحدر الصخري على ضفة البحيرة.

صاحت الأنسة ويل: «حاذري السقوط في البحيرة».

- وماذا في هذا؟ إن سقطت يمكنني السباحة. لقد قطعت هذه البحيرة سباحةً، لكنني أفضل أن أسبح في المحيط.

حذرتها ويلي: «ليس من المستحسن أن تبلي ثيابك».

- يمكنني أن أبدلها. ثم إنني لا أصاب بنزلات البرد أبدًا. سيؤكد لك الطبيب كيرنو هذه الحقيقة. إنه يدعوني بالقردة الصغيرة القوية.

ثم مدَّت يدها نحو شجرة بندق كي ترينا أعشاش طيور السمنية والشحور. أخرجت البيوض الزرقاء ذات البقع السوداء، والخضراء المبرقشة بالبني. لم أكن قد رأيت مثلها من قبل، وطلبت من ويلي الإذن للإمساك بها.

قالت سالي بلهجة قاطعة: «لن تجدي مثلها في ميدان بورتمان. يا لُبح
أشجار الغار التي يلطخها السخام هناك! يسعدني أنني لن أراها هذا العام».
سألتها ويلي: «هل سيمضي حضرة اللورد الصيف هنا؟».

- لا، بل نحن من سنفعل. سيغادر أبي وأمي عاجلاً، اليوم تقريباً.

ثم ركضت خلف سنجاب برتقالي، وتركنا نستوعب ذلك الخبر المفاجئ.
عندما لحقنا بها كانت قد وصلت إلى البقعة حيث ينظر المرء عبر البحيرة،
فيرى الكوخ القائم على الأرض التي يكسوها العشب وراء مستودع الزوارق.
قالت ويلي: «ما أجمل هذا الكوخ!».

- قريباً سيصبح شاغراً. أتساءل لمن سيعطيه أبي للسكن.
سألتها: «هل يملكه أبي؟».

كنت متشوقة إلى النطق بتلك الكلمة التي اتخذت معنى جديداً.
- أجل. تمتد الإقطاعية قرابة ميل وراء ذلك الكوخ.

وقفتُ تتأمله يبرق في ضوء الظهيرة. ثم فاجأتنا الفتاة المدهشة إذ
قالت بجدية: «اعلماً أنَّ الأشياء ليست كما تبدو فلا تقطعا الأحكام بناءً على
المظاهر. ستدركان هذه الحقيقة هنا سريعاً. إنَّ القبطان رودا يضحك من
المحيط عندما يبدو بهيئاً ووديعاً لأنه يعلم الكثير عنه ولا ينخدع بمظهره.
لقد وقعت بعض الأحداث المؤسفة في هذا الكوخ حيث عاش السيد والسيدة
بِنتس. رحلت السيدة بعد ألم ومعاناة شديدين. والآن يعيش فيه السيد وحده».
لقد لظمت السيدة فراش المرض عامّاً. واعتادت سالي القراءة لها وهي
راقدة في سريرها.

قالت: «لا يستطيع السيد بِنتس قراءة كلمة. ها هو».

غادر الكوخ الرجل الذي رأيته يقود الزورق. وبدأ، فيما ظننت، هانئاً بجو
مايو الرائع.

- اعتاد الجلوس على جانب من السرير وأنا على الجانب الآخر. ولأن
السيدة بِنتس أحبَّت جميع آيات الكتاب المقدس كنت أفتحه عند أي
صفحة، وأبدأ من الموضع الذي تقع عليه عيناى. لقد راقها سماع جميع

قصصه وموضوعاته، مثل: برج بابل، والعهد الجديد، والقوائم الطويلة لرجال أنجبوا آخرين، مثلما أنجب القبطان رودا رضيع لوسي إيفانز. لامتها الأنسة ويل قائلة: «أتمرحين يا سالي؟! (ثم تذكرت «مكانها» كما ينبغي فاستدركت خطأها) أقصد يا آنسة سالي».

لكن سالي التي لم تفتها أحاديث البُستانيّين وفتية الإصطبلات قالت: «ادعيني بما شئت. لكن الجميع يعلمون بشأن إدي رودا ولوسي إيفانز».

ثم واصلنا السير تخبرنا سالي كيف اشتدّ تأوّه السيدة بِنْتَس وألمها بمرور أسبوع تلو آخر وشهر بعد شهر، حتى منع الطبيب كيرنو زيارات القراءة. قالت آسفةً: «لهذا لم أكن معها عندما رحلت».

منذ ذلك الحين عاش السيد بِنْتَس في ذلك الكوخ وحده. والآن بعدما رحلت زوجة أخيه، الذي يمتلك مزرعة، عزم على العيش معه. - لهذا سيصبح الكوخ شاغراً.

7

لقد ذكرت أنني في إحدى الليالي، عندما كنا نعيش في ميدان بورتمان، غادرت السرير وذهبت إلى غرفة الدراسة كي أستشير الأنسة ويل في مسألة تشغل بالي. وقد وجدتها جالسة إلى طاولة مستغرقة في الكتابة على صفحات كبيرة. حتى الآن لم أكن قد علمت أن الكتابة هي الجانب الأعمق في حياتها. لكنني عرفت شيئاً عن الأمر بعد ظهيرة يومي الأول في تريسانت. لقد دُعيت أنا وويلي وسالي إلى المكتبة بناءً على رغبة أبي، وهناك طلب منا الجلوس. قال: «يوجد كثير من الأمور التي يجب أن نناقشها. لكن أولاً، وصل خطابٌ من أجلك يا آنسة ويل».

تناول خطاباً من مكتبه وسلّمه إليها. ولم يغفل أي منا عن الحماس الذي علا وجهها حالما وقعت عينها عليه. كان التبدل في حالها من الوضوح بحيث قال أبي: «إن كنتِ ترغبين في قراءة خطابك في الحال فلتتفضلِي».

استماحته الأنسة ويل عذراً، وفتحت الخطاب يداها ترتجفان. قرأته سريعاً، وبدا الذهول في صوتها إذ قالت: «يا إلهي!».

سألها أبي: «لا ينقل الخطاب أخباراً سيئة، أليس كذلك؟».

نهضت ويلي ترتجف حماساً وقالت: «بلى يا سيدي اللورد. إنها أخبار رائعة، مذهلة».

نظرنا إليها متفاجئين وهي تجلس في مقعدها ثانية. ثم قالت لاهتة تتوالى كلماتها: «يصعب عليّ تصديق الأمر! سينشر السيد ديكنز إحدى قصصي في مجلة «هاوسهولد ووردز»⁽¹⁾».

مدحها أبي قائلاً: «هذا رائع. لم أكن أعلم أنك كاتبة».

لكنها بعدما أبلغتنا الخبر لم تقوَ على قول المزيد. ظلّت جالسة يرتعش الخطاب في يدها.

أردف أبي: «تستحقين التهاني عن جدارة. لا يمكن لأي كاتب أن يحظى بمُحرّر أكثر شهرة من السيد ديكنز. لقد قابلته في صالون الأنسة بوردت-كوتس. (أضاف مبتسماً) لكن معطفه المبهرج أثار نفوري».

استعادت ويلي نشاطها عند سماعها تلك الكلمات الانتقادية، واندفعت تقول: «سيكون من المؤسف يا سيدي أن نشكّل رأينا حول رجل عظيم مثله بناءً على بعض المبالغة في التأنق».

- بالطبع، أنت محقة. أسألك السماح. ولا أريد أن توهمك كلماتي بأنني لا أعني كم أن السيد ديكنز رجل عظيم.

وقد وافقته الرأي. قاربت سعادتي بالخطاب الذي تمسك به ويلي سعادتها به، لأن من أرسله إليها هو الرجل الذي أحبّبت كلتانا كتبه منذ مدة طويلة. لقد قرأت لي جميع كتبه، وقرأت بنفسها بعضها. وضحكنا وبكينا معاً عند قراءتها.

الآن لم أستطع ألا أقول: «رجاءً دعيني أراه».

(1) مجلة إنجليزية أسبوعية كان الكاتب الشهير تشارلز ديكنز يُحرّرها في خمسينات القرن التاسع عشر. م

ناولتني ويلي الخطاب، ورأيته مُذَيَّلًا بالتوقيع: «تشارلز ديكنز»، الذي سَطَّر بخطَّ يروح ويجيء أسفل مركزه مرارًا. ثم نظرت إلى ويلي في دهشة ورهبة.

قالت بهدوء كأن كلماتها ليست حقيقةً، بل خيالًا: «إنه يطلب المزيد من القصص».

قال أبي: «هذا رائع، لكنه قد يلغي كل ما عزمت على قوله. هذه فرصة رائعة يا آنسة ويل. لا شك أنكِ سترغبين في تركنا والذهاب إلى لندن للتواصل مع الأشخاص الذين ستنفَعُ علاقتك بهم».

لم يكن هذا، حسن الحظ، ما أرادته ويلي على الإطلاق.

قالت: «لا يا سيدي! لقد نشأت في الريف، وفيه أشعر بالسعادة أكثر من المدينة. إن جميع محاولاتي في الكتابة تدور حول الريف، وستظل كذلك».

- رغم هذا فقد تريدين الرحيل. إنكِ الآن تملكين حافزًا قويًا، وقد ترغبين في تخصيص مزيدٍ من الوقت للكتابة. سيصعب عليكِ فعل هذا إن واصلتِ رعاية هاتين الآنستين. أخشى أن تصعب عليكِ تلك المهمة كثيرًا لأنني والليدي بيرندج سنغادر إلى لندن عاجلاً، وستقع المسؤولية كلها على عاتقكِ».

قالت ويلي أن لديها متسعًا من الوقت للكتابة ويسعدها الاستمرار في وظيفتها.

- حسنًا، سيتعين علينا إيجاد الوقت لمناقشة المنهج لاحقًا. (توجَّه بالحديث إليَّ وسالي قائلاً بابتسامة) أقصد بالمنهج العمل الذي ستؤديانه. والآن فلنتركنا رجاءً. توجد بضعة أمور أود التحدث فيها إلى الآنسة ويل».

كانت مسألة لوسي إيفانز أهمَّ ما أراد مناقشته. وليست تفاصيل تلك المسألة، كما علمت فيما بعد، بالمُعقَّدة. كان والدها جنديًا خيالًا قاتل في حرب القرم مع اللورد بيرندج، وأصبح سائسًا في تريسانت بعدما انتهت الحرب. وعلى النقيض من إيفانز الضئيل الخجول ذي الساقين المُتقوَّستين، كانت زوجته طويلة القامة صارمة تُشبه في طبعها الرجال أكثر منه. مات إيفانز تاركًا زوجته وابنته اليافعة، وقد غادرتا الكوخ حيث عاشتا لأن مالكة

استردّه. على أن السيدة إيفانز مُنحت مأوى وعملاً في مطبخ تريسانت. كان غسل الأطباق هو الوظيفة التي توفّرت لها، لكنها ضجرت منها. لهذا سرعان ما تركت المنزل. ولأنها لا تملك مكاناً آخر للعيش فقد استولت على عُشّة مهالكة في أحد الحقول في ضواحي بورتيفن، وفيها استقرت مع ابنتها. نشب نزاع طويل بينها وصاحب الحقل حول هذا الأمر. لكن السيدة إيفانز بعدما أمضت في العُشّة عدة أعوام أصبحت في حيازتها ولم يعد يزعجها أحد. كانت تحاول ترميمها بلوح خشبي سرقة من مكان ما، أو صفيحة حديدية وجدت في آخر. ودارت في الشواطئ بعد العواصف الجنوبية تجمع الحطام. لقد أصبحت امرأةً صاحبةً مهارات لا تتحني أمام التحديات، تعتمد على نفسها وقادرة على الاعتناء بها. بَنَتْ مدفأة ومدخنة في إحدى زوايا العُشّة. كانت تصطحب لوسي إلى الحقول كي تلتقطا بقايا الحبوب بعد الحصاد، وتجمع الفاكهة والثمار العنبية من السياجات الشجرية في الخريف لتصنع المربى والنبيذ. قيل إن قدورها لم تخلُ من الأرانب -بريّة كانت أو غير بريّة- أو الطيور. فقد أجادت الصيد مثل جميع رجال المنطقة. لم تمرّ بأصواف الخراف العالقة بالسياجات دون أن تجمعها. مشطتها وغزلتها. خضّبتها بصبغات صنعتها من الفاكهة، وحاكت منها ثياباً لها. لقد زادت هذه الحياة نحافةً وصلابةً. أظهر الأهالي لها الاحترام وتوخوا الحذر في التعامل معها. كان ممكناً في عصر المكنات ذاك ألا تستطيع النساء -حتى الريفيات منهن- تأمين حاجاتهن. لكن بتي إيفانز واجهت الظروف وأخضعتها.

منحت بتي ابنتها لوسي كلّ حبها. رأت فيها انتصارها؛ ستبرهن على أنها تستطيع أن تنشئ طفلتها أفضل تنشئة، رغم حياتها الشاقة التي تتولى فيها جميع أمرها. كانت لوسي فتاة حسنة خجولاً لم تسمح لها أمها بالخروج حتى إلى بورتيفن، وتولّت تعليمها القراءة والكتابة. لقد طمحت السيدة إيفانز إلى أن تجعل لوسي فتاةً «ذات شأن رفيع» ستصبح «إنجازها العظيم». وفي الليالي المقمرة عندما تخرج بتي فإنها تقفل العُشّة تاركة الفتاة وحدها بصحبة كتاب وشمعة.

في إحدى المرات القليلة التي ذهبت فيها السيدة إيفانز إلى بورتيفن برفقة لوسي رأهما ويزلي رودا. في ذلك الوقت كان فتى في الثامنة أو التاسعة

عشرة. وقد عرف مثل جميع الأهالي هناك من تكونان. وفهم أيضًا منشأ سمعة الساحرات التي تلاحق الأم وابنتها التي تنعزل انعزالًا غامضًا. أشار إلى قبعته يحييهما خَجَلًا فابتسمت له لوسي. لم تكن الفتيات يبتسمن لوزلي، الفتى الجادَّ المتحفظ الذي لا يشرب الخمر، وعرفه الجميع واعظًا محليًا في الكنيسة الميثودية الصغيرة. لهذا تفاجأ عندما نال ابتسامة لم يعتدها. تبعهما بعض الوقت مضطرب القلب، حتى توقفت المرأة السمراء النحيلة. استدارت نحوه، وحملت إليه.

قالت بإيجاز: «انصرف».

فابتعد بهدوء.

ضحك بعض الواقفين في الجوار فتمنَّى ويزلي أن تنشق الأرض لتبتلعه. لكنه سمع صوت لوسي الرقيق يقول: «توقفي يا أمي! ليس من اللائق الحديث بهذه الطريقة».

ظلَّ صوتها يتردد في رأسه أيامًا، وشرع في التجول بالقرب من عُشَّتهما. وجد أنها أصبحت مسكنًا جميلًا تحسَّن حاله على مرِّ الأعوام. رأى أمامها حوض زهور تحدُّه أحجار بيضاء، بداخله تنحني زهور النرجس أمام رياح أبريل. كان واثقًا أن لوسي هي من شيَّدت ذلك الحوض واختارت ذلك النوع من الزهور.

في الأحد التالي ذهب ويزلي إلى الكنيسة الميثودية وكانت لوسي من بين المُصلِّين. خفق قلبه لمرآها وبالكاد استطاع الحديث. كان من عادته أن يقف في مدخل الكنيسة بعد انتهاء القداس كي يصافح الحضور ويودِّعهم ببضع كلمات. وقد صافح لوسي، ابتسم أحدهما للآخر، ثم سألهما: «هل أنتِ من زرع النرجس؟».

أجابته: «أجل».

لم تقل المزيد، لكن ويزلي رأى أنهما في تلك المحادثة المقتضبة قد تبادلا وعود الحب.

استطاعت لوسي الذهاب إلى الكنيسة لأن والدتها كانت غائبة. لقد وعدتها بأن تظلّ في المنزل، وللمرة الأولى أخلفت وعدها. لم يدِر المسكين ويزلي بأنها ابتمت له فقط لأنه ابن إدي رودا. ولم يعلم بأنها حضرت القداس لأنها لمّا رأت في لوحة الإعلانات أن الواعظ سيكون الابن ظنّت أن والده سيحضر أيضاً. لقد وقعت تحت تأثير السحر الذي، قبل أعوام، بعد التحقيق في واقعة موت البقال ريتشاردز، قد اجتذب ابنة الفقيد لتتبع إدي إلى الجروف.

قبل ذهابها إلى الكنيسة بوقت ليس بالطويل كانت بتي إيفانز ولوسي على الرمال القريبة من كوخ عائلة رودا تجمعان الخشب الذي جرفته العاصفة. في الحقيقة كانت بتي من أدّى العمل، وجلست لوسي تستمتع ببهاء الصباح الربيعي. إنّ المهمة التي كرّست الأم حياتها من أجلها، وهي جعل لوسي «فتاة ذات شأن رفيع»، لم تتضمن أن تشقى الابنة. كانت يدا لوسي بيضاوين وفي نعومة صوتها. أمّا السيدة إيفانز فقد تولّت جمع قطع الخشب الملطخة بالقطران، ذات الشظايا الجارحة، التي تبرز منها مسامير صدئة. لهذا كانت يداها مثل وجهها: خشنة وبشرتها سميقة.

جمعت حمولتها ولفّت حولها حبلاً أحضرته من أجل هذا الغرض. وعندما شرعت في رفعها على ظهرها سمعت من يقول: «هذا العمل ليس للنساء الحسان».

لقد أتى القبطان رودا عبر فُرجة بين الصخور حيث كان يشاهدهما، ووضع يده على الحمولة. تفاجأت لوسي بأن والدتها لم تأمره بالانصراف. ثم رفع الأخشاب على كتفه كأنها حقيبة مدرسية وقال: «لا يليق بامرأة مثلك حمل أشياء ثقيلة كهذه».

ظلت السيدة إيفانز على صمتها، لكنها لم تبعده. ثم ساروا جميعاً على طول الشاطئ معاً. غمرت السعادة لوسي لأن انضمام شخص إلى رفقتها أوهن الشعور بالعزلة الذي خبرته طوال حياتها وبدأ يخنقها، وكادت تطير فرحاً. لم تكن لتتفاجأ كثيراً بسماح والدتها للقبطان رودا برفقتها، لو كانت تعلم أن في إحدى الليالي المُقَمِّرة في الشتاء تَقَابِل إدي وبتي وجهًا لوجه

في غابة تريسانت. منذ مدة طويلة كان كل منهما يتفادى الآخر ظاناً أنه حارس منطقة الصيد، ثم ضحكا معاً في الغابة ارتياحاً. بعد تلك الليلة اعتادا الصيد معاً طوال الشتاء. وسرعان ما اكتشفت بتي إيفانز أنها ليست الكائن الرجولي الذي ظنّت أن الأعوام أحالتها إليه. لقد دلّها وجودها مع إدي في الغابة وحدهما على هذه الحقيقة.

اتجه الثلاثة نحو بورتيفن، ثم أسقط رودا الحمولة قائلاً: «يوجد جذع شجرة طافٍ. انتظرا دقيقة. سأحضره».

خاض المياه بحذائه البحري الطويل وجذب جذع الشجرة نحو الشاطئ. ثم رفعه وهتف سعيداً: «إنه ماهوجني! لهذا لن تحرقه يا حبّوبي. من الممكن أن تصنعي منه بضعة أرفف لوضع الأغراض أو رفّاً للمدفأة. دعيني آتي إلى بيتك كي أهتم بهذا الأمر».

الآن عادت بتي إيفانز إلى تحفّظها المعتاد قائلة: «لا. إننا لا نسمح لأحد بزيارة مكاننا. نحن لا نرحب بهذا، بل نحب أن نظلّ وحدنا. أليس كذلك يا لوسي؟».

وقعت الفتاة في حيرة بعدما ناشدتها والدتها موافقتها الرأي مباشرة. لقد نال إعجابها ذلك الوسيم المزهو بنفسه، ذو اللحية السوداء والأسنان اللامعة، والقبعة ذات الشُرابة التي تتأرجح بجوار أذنه. وقد سمعت قبلاً عن القبطان رودا. وصلت أسطوره إلى عالمها المنعزل. كان وحده من قطع بحار العالم في مجتمع لم يُبحر صيادوه إلى ما هو أبعد من ساحل «بريتاني».

ألقت الأصداف الصفراء التي كانت تجمعها ونظرت إلى والدتها. لقد رفعت بتي الأخشاب المعقودة بالحبلى على كتفها لأنهم اقتربوا إلى بورتيفن، ولم تكن لتقبل بأن يراها أهل البلدة تسيران مع القبطان رودا.

قالت لوسي: «أنا لا أحب أن أظل وحدي طوال الوقت».

كان هذا أقصى ما جرّوت على قوله. نظرت بتي إليها واستغرقت في التفكير. وجدت أنها بعدما تجعل لوسي فتاة رفيعة الشأن ستُضطر ابنتها إلى تركها. ستختلط بالبشر عاجلاً أو آجلاً. عندئذٍ ماذا سيحدث لها؟ كانت أفكار بتي حول إلحاق الفتاة بالسلك المهني مُشوَّشة. لكن القبطان رودا يعرف الكثير عن العالم وقد يساعدها. ربما حان الوقت لإنهاء هذا الحصار.

قالت على مضض: «حسناً».

عندئذٍ افترقوا. سارت بتي متناقلة في اتجاه على كتفها حملها، والقبطان رودا في اتجاه آخر يحمل الماهوجني. جمدت لوسي في موضعها بضع لحظات تنقل نظرها من أحدهما إلى الآخر. ثم أسرع خلف بتي.

9

للوصول إلى العُشة التي عاشت فيها عائلة إيفانز يجب السير في طريق نادرًا ما يقطعه غير عربات المزارع، ثم المرور من فتحة في السياج النباتي شقَّتْها السيدة إيفانز عندما استولت على العُشة. في البداية كانت ضيقة تكفي لكي تدفع بنفسها عبرها. لكنها اتسعت تدريجيًا رغم أن الفلاح مالك الحقل كان يغلقها من حين إلى آخر بفروع أشجار أزالها السيدة إيفانز في كل مرة. وفي النهاية خضع للأمر الواقع واتسعت الفجوة. لكن السير إلى العُشة مباشرة لم يكن ممكنًا، ولم تُقَمْ بوابة خاصة بها قط. وجب على المرء المرور عبر ذلك الحاجز.

هذا ما فعله إدي رواد وهو يحمل جذع الماهوجني في وقت لاحق من ذلك اليوم. كان باستطاعته أن يجلب معه بضع معدات أخرى، لكنه أراد الاحتفاظ بعذر للعودة مرة ثانية. كانت العُشة فارغة، لهذا ألقى بالجذع أسفل السياج وتطلع حوله. لقد تعلم في أثناء ذلك الشتاء ألا يستهين بمقدرة بتي على الاعتماد على نفسها، وما رآه الآن أكد له أنها تستحق التقدير. ابتسم إذ لاحظ كيف تمكَّنت من توسيع منطقتها خلسة على مدار الأعوام. لم تعد العُشة وحدها ملكها، بل والبقعة حولها. كانت من الذكاء بحيث لم تُشيد أي سور أو حاجز، لكنها أقحمت حوض خضراوات هنا وزرعت صف شجيرات فاكهة هناك، حتى أصبح المكان مُرتبًا كأن قاطنيه يعيشون في رغد. شكَّلت أشجار الزعرور الزاوية القائمة من السياج حيث تقوم العُشة. كانت مزدهرة تملأ الهواء بعبيرها. وفي تلك البقعة التي تشرف على بورتيفن، يستطيع المرء أن يرى المياه الزرقاء تتمدَّد متكاسلة في ضوء الشمس.

ابتسم رودا لأن جميع التفاصيل نالت استحسانه. وقف مثل قرصان يستمتع بمنظر البقعة التي سُرقت سرقةً مأكرة. ورغم أن الشتاء انقضى فقد ملأت كومة حطب زاوية السياج. كان هذا مثيّرًا للإعجاب أيضًا، إذ دلّ على أن السيدة إيفانز لا تسمح لمخزونها من أي شيء بأن ينضب.

عندما جاء في اليوم التالي ومعه المعدات وجد السيدتين في المنزل. دُعي إلى الدخول فكان أول من تخطو قدماه عتبة العُشة منذ أن أصبحت بيت بتي إيفانز. تضمّنت العُشة غرفة واحدة كبيرة سقّفها وجدرانها مُكَلَّسة. أرضيتها من القرميد حسن الترتيب، الذي جمعه بتي شيئًا فشيئًا في ليالي الشتاء الهادئة، وشيّدت المدفأة والمدخنة منه أيضًا. أمّا السقف فغطّته قطع قديمة من القماش المُشَمَّع فظلّ عازلاً للمياه. لم تُدرِ بتي ظهرها لأي قطعة قماش مُشَمَّع قط، جمعت المُهمل منها وسرقت بعضها. لاحظ رودا حاجب النافذة الخشبي، والعارضة الخشبية الثقيلة التي تُوضَع لإحكام غلق باب البيت. هكذا تنعم السيدتان بأمان كافٍ هنا في الليل. تأرجح مصباح البرافين من السقف، والأثاث أخذته السيدة إيفانز من الكوخ الذي أُخرجت منه قبل زمن طويل. تضمنت الغرفة خزانة أوانٍ خزفية، وطاولة وكُرسيين لتناول الطعام، وأريكة خشبية طويلة عالية الظهر بجوار المدفأة. لاحظ سريرًا يسع فردين تغطيه ستائر من قماش الخيش النظيف. ومن أجل الاغتسال علّق وعاء صفيحي على خطاطيف بالقرب من كومة الخشب في الخارج.

كان رودا سعيدًا كأنه طفل صغير لأنه يمضي هذا اليوم الصحو برفقة امرأتين. وابتهج ابتهاجًا شديدًا لأنه اقتحم المحظور. فمنذ استقرار هاتين المرأتين هنا أصبح وحده من سُمح له بدخول المنزل والجلوس فيه. أَرْضَى هذا غروره الرجولي. لقد أكّدت رجولته سطوتها مجددًا، وخوّلتها امتيازًا أخفق الجميع في الحصول عليه. هكذا ازدادت مكانته علوًا بمرافقة المرأتين اللتين يخشاهما الناس ويتجنبونهما رغم أنهما ماثار حديثهم.

قطع جذع الشجرة بالمنشار وصقله ونحته بالإزميل، وصاحب عمله الغناء والصفير. لم يتبادل ثلاثتهم سوى بضع كلمات، إذ اتجهت السيدة إيفانز إلى رقعة الخضراوات كي تعتني بها. أمّا لوسي فجلست في دُكَّة تستند إلى جدار

الكوخ الخارجي. أمضت وقتها في الخياطة تبتسم ابتسامات هادئة وتتطلع إلى المحيط.

لم يلحظ رودا قبلاً كم أن لوسي فتاة جذابة. فكَر: «هذه الآنسة الصغيرة ذات حُسن».

تعمد ألا يتم مهمته، وذهب لزيارتهما في اليوم التالي. ثبَّت رَفَّ المدفأة، وفي تلك المرة مكث لتناول الشاي الذي أعدته لوسي عن طيب خاطر. انزعجت والدتها، لكنها كبّنت شعورها. وحاولت أن تعيد رودا إلى مكانه الصحيح بشُكره على ما فعل من أجلهما، ثم سألته: «كم يكلفنا ذلك؟».

أغرق الرجل في الضحك، عبّاً غليونه، وجلس مرتاحاً على الدكّة يتوسط المرأتين. لم يكلف نفسه عناء إجابة السؤال بالكلمات، بل ضحك ودخّن غليونه راضياً فيما طيور الشحرور تغرد على أشجار الزعرور. وترتفع الأصوات الشجّية لطيور الزقزاق، التي تميل برأسها نحو جناحها، وتهول في الحقل. قال وهو يتأمل متكاسلاً سفينة تشقّ الماء: «هذه الحياة رائعة».

عندما نهض أخيراً قال: «ينقص هذا المكان الكثير يا حبّوبتي. يلزمكما طاولة صغيرة أمام هذه الدكّة. من العبث حمل تلك الطاولة الكبيرة من داخل البيت إلى خارجه».

هكذا شرع في إعداد طاولة، ثم أحضر الحصى ليملاً به الفراغات بين أحواض الخضراوات، وفكر في مسألة توصيل الماء. كان قرابة عشرة أمتار تمتد بين ظهر العُشّة والسيّاح النباتي، الذي يفصل ذلك الحقل عن الذي يليه. أسفل ذلك السيّاح انساب مجرى مائي هزيل لا يرقى إلى أن يُدعى جدولاً. على أنه كان نقيّاً لا ينحسر، ويكفي حاجة المرأتين. لكن رودا أوجب على نفسه الحفر ومراكمة الأحجار الكبيرة الملساء. وأخيراً أصبح هناك بركة في حجم حوض استحمام وفي مثل عمقه، يدخلها المجرى المائي من طرف ويخرج من الآخر. بالطبع كان مريحاً أن تغمر فيها المرأتان أكبر ما تملكان من أوعية، وتنتهيان سريعاً من جمع الماء الذي تحتاجان إليه.

في تلك المرحلة من علاقة رودا بالمرأتين كان ويزلي قد قابلهما في بورتيفن وصدّته بتي. فهي لم ترغب في أن يطوف حول بيتها مزيد من رجال

بورتيفن، بالأخص الشباب منهم مثل ويزلي رودا، إذ لا يليق بابنتها أيُّ منهم.
لكنها لم تكن تعلم أن قلب لوسي قد فُتن بالفعل.

10

لن تنسى لوسي شهري مايو ويونيو من هذا العام أبدًا. كانت تمطر بين الفنية والأخرى. وفي أحد أيام مايو، في ساعات النهار الأخيرة، أتى إيدي رودا عندما توقفت الأمطار. عندئذٍ بدا لها أن الجو صفا كُرمى له. في تلك المرة تحجَّج رودا، الذي امتلك مُسوِّغًا لزيارتها دائمًا، بالمجيء لإعداد حظيرة للدجاج. لكن السماء غامت مجددًا وأمطرت، فدخل مع المرأتين إلى العُشة ليحتموا بها. ولمَّا طال سقوط المطر أبدى رودا استعدادَه للعمل قائلاً: «يمكنني البدء الآن».

لكنه لم يعتزم العمل حقًا، وكان يعلم جيدًا أنه حتى إن تبَلَّل كليًّا فلن يمرض. لقد وجد العُشة مريحة وعزم على البقاء، بخاصة الآن بعدما قابلت السيدة إيفانز اقتراحه بالرفض وأقفلت حاجب النافذة. ثم أسقطت العارضة الخشبية توصل الباب، وأشعلت المصباح. في داخل البيت ساد الدفء إذ التهب نيران المدفأة، وارتفعت ألسنة اللهب الزرقاء والخضراء والبرتقالية من الأخشاب المتقددة التي تشربَّت بماء المحيط، وبتي تطهو الأسماك في المقلاة. سُرَّ رودا بالأجواء التي عبقَّت برائحة الطعام، وصاحبها وقَّع المطر على القماش المُشَمَّع، وقرقعة الأكواب والأطباق والملاعق فيما لوسي تبسط الطاولة. منحه مرأى رف المدفأة وباقي الأغراض التي صنعتها يداه شعورًا بالرضا والتملك. مال إلى الورا يسترخي في جلسته على الأريكة، ويدخن غليونًا كأنه في منزله. خلع قبعته الصوفية. فسقط ضوء المصباح والمدفأة على قرطين باللون الذهبي، على شكل حلقتين كبيرتين بما يكفي لمرور بيضة صغيرة عبر كلِّ منهما، علَّقهما في أذنه. كان جذابًا لأنه حقق انتصارًا على جميع الرجال بوجوده هنا بلا رسميات. كان يفيض رجولة. أدركت لوسي هذه الحقيقة، وسرَّتها على نحوٍ مقلق.

أصبحت الوجبة جاهزة فجلسوا إلى الطاولة، المرأتان في ناحية ورودا في الناحية الأخرى. ولأن الطاولة ضيقة تلامست رُكبات رودا ولوسي في الحال. وقع هذا الحدث عرضياً، لكنه كان حاسماً. لقد أدرك رودا، وهو ينظر إلى وجه الفتاة القريب منه، أنَّ هذا التلامس الوجيز أربكها لكنه أعجبها. وما بدأ مصادفةً أصبح الآن متعمداً، إذ راقه التسلي بتلك اللعبة أمام عيني بتي الغافلة عنهما. سرعان ما احتضنت رُكبته رُكبتي لوسي المضمومتين. وقد أدرك، إذ كان خبيراً في هذه الأمور، أنها سعيدة بهذا الوضع.

وبينما المطر ينقر سطح العُشة، وضوء المصباح الناعم ينير الطاولة، تحدّث رودا المبتهج بانتصارٍ آخر لم يسعَ إلى تحقيقه. لم يوجد في بورتفن من يستطيع الحديث مثل إدي رودا. لم يكن هناك من رأى العالم، شرقه وغربه، كما رآه. ليس حتى اللورد بيرندج. كان ينطلق في الكلام عن خواطره وأفكاره فيأسر حديثه مستمعيه. لهذا نجح في العمل واعظاً محلياً. بعد خمسين عاماً من الآن كان ممكناً أن يجمع رودا الأهالي عند أيّ ناصية يختارها كي يعبرَ بحريةً عن آرائه السياسيّة. لكن الرجال في ذلك العصر لم يُمنَحوا فرصة لقول كلمتهم في غير الكنيسة أو الحانة. وقد استغلَّ إدي المكانين. برع في وصف تحطُّم سفينة القديس بولس في البحر المتوسط بتعبيراته الخاصة مستعيناً بالتجارب التي عاشها، حتى تكاد تشعر أنك بداخل صفحات العهد الجديد تعيش أحداثه للحظات. وقد أثار دهشة الميثوديين في بورتفن. فهم لم يغفلوا عن سُمعته المُلطّخة، لكنه استطاع أن يلين قلوبهم بإقراره بأنّاه. عند سماعه يستشهد في عِظاته بـ: «الخاطئون الَّذِينَ أَوْلَهُمْ أَنَا»، تتراجع عن الحكم عليه. لكن إدي رودا لم يكن منافقاً، بل إنه أبعد ما يكون عن النفاق. كانت خطاياها تُحزّنه حتى يبكي قلبه ويشعر بكل دمة يذرفها. لكنّ نفسه كبّلها هوى لم يستطع مقاومته ولم يرغب في مجابهته.

بعدما رُفعت الأطباق عن الطاولة وجلس ثلاثتهم بجوار المدفأة استمعت بتي إيفانز إلى رودا مدهوشة، مثلها مثل لوسي، إذ بدأ يحكي ملحمة. على أنه الآن كان يخاطب لوسي؛ يُعرِّفها بنفسه عبر مغامراته، ويستغل كل ما أثبتت التجربة نفعه في هذه الحالة. في تلك الليلة عندما استلقت المرأتان على السرير جنباً جنب لم تستطع لوسي النوم. وخشية أن يُزعج تقلُّبها في

الفراش والدتها، أو يثير في عقلها الظنون، جمدت في موضعها تتطلع إلى السقف القاتم. تتصوّر السماء المُرصّعة بالنجوم وراءه، مثلما رأتها تخلو من الغيوم عندما قرّر رودا المغادرة أخيرًا، ومرّ عبر الفتحة في السياج كأنه جرم ضخم إزاء السماء، تنيره النجوم بضوئها.

لن تنسى لوسي ذكريات مايو تلك أبدًا. أمّا في يونيو فستتذكر دائمًا حصاد القش، والشمس المتوهجة، وزهور الأقحوان البيضاء وشقائق النعمان الحمراء تفتersh الحقول، وآلاف الكائنات الصغيرة تركض لتنجو بحياتها من شفرات المناجل التي تعمل بلا هوادة. في واحد من تلك الأيام وقفت بجوار بوابة الحقل ترى جزازات العشب تتقدم ببطء. فامتلاّت مخيلتها بصور جردان الحقول وفئرانها التي عاشت حياة بسيطة سعيدة، تبني بيوتها أسفل مظلات تثيرها الرياح وتزيّن الزهور، قد ظنّتها آمنّة لكنها الآن تنهار فوقها. لقد رأت أحد أعشاش الفئران بعدما عاث فيه المنجل. والآن التفتت تدير ظهرها للحياة بعدما أدركت قسوتها الحتميّة، وتطلعت إلى المحيط الذي فاق البرّ هدوءًا. شابه ذلك المخادع مُلاءةً حريريّة زرقاء هائلة، يمكن للمرء أن يرتاح فوقها، تهدده فيشعر بالأمان. لكن العواصف العاتية قد تهبّ منه في أي لحظة وتُنزل بالأرض الخراب.

في الآونة الأخيرة دارت مثل تلك الأفكار الكثيرة في عقلها، ولوّعت رغبات غامضة غريبة جسدها. التفتت لوسي لتلقي نظرة أخيرة على جامعي الحصاد، ثم شرعت في السير نحو العُشّة.

لقد تعلمت والدتها استعمال المنجل. في الحقول سارت المرأة طويلة القامة، التي زادت شمس الصيف سُمره ولَفّت خِرْقَةً قرمزيّة شعرها، تعمل بين الرجال مُتجهّمة ومُتحفّظة. كان من المفاجئ أن تطلب هذا العمل، وقد قُبِل طلبها على مضض. لكن ذهنها كان يجود عليها بالأفكار الجديدة. حتى الآن كانت راضية بالحيل التي دبّرت بها احتياجاتها واحتياجات ابنتها. لكن هذا لم يعد كافيًا. لقد أدركت أن المال يلزمها لتتمكن من أن تجعل لوسي فتاة ذات شأن رفيع. لهذا قررت أن تسعى لكسبه، ولامت نفسها على تأخرها في فعل ذلك. لقد أصبحت الفتاة في السابعة عشرة، وبدأت بتي تلحظ عليها علامات الضجر.

تجولت الفتاة الضَّجِرة بين السياجات النباتية تامةً الازدهار، التي تعبق بعبير زهور النسرين، وتستنير بالورود الياقوتية. برزت زهور الكامبيون واللُّخْنيس بألوانها الزاهية وسط زهور ملكة المروج التي تشبه الزَّبد الأبيض. على أحد جانبيها انساب الماء يُثري يونيو اخضرارًا، حيث يمرُّ المجرى الهزيل أسفل السياج ويعبر بربخًا حجريًا صغيرًا. ثم ينصبُّ بهدوء في الحوض الغائر الذي بناه إدي رودا.

في ذلك الوقت من العام، إذ تشتد حرارة الصيف، راقها موضع بيتها. وجدت الخلوة والانتعاش في البقعة التي يحدها ظهر العُشَّة، حيث يوجد بابها، والزاوية القائمة التي يصنعها ضلعا السياج النباتي. في تلك الناحية نمت شجيرات الورود ترتفع نحو السماء الصافية كما يحلو لها، وأحاطت السراخس الرطبة بحافة الحوض. هنا وهنت قوة الشمس الحارقة، فازدهرت بضع باقات من زهور الربيع على الضفة الظليلة المكسوة بالطحالب.

وقفت لوسي تتطلع إلى الحوض. جرى الماء ضعيفًا فاختلجت صورتها المنعكسة على صفحته الكريستالية. لقد شيدَهِ رودا حديثًا؛ لم تتراكم بداخله الرواسب لتخفي الأحجار البيضاء التي تتألق في قاعه. صعب على الفتاة مقاومة رغبتها في الاستلقاء بداخل المياه حيث البرودة والسكون. لم يحدث قط، وفقًا لما تخبرها به ذاكرتها، أن انغمر جسدها بأكمله في الماء. لقد اعتادت هي وبتي أن تسحبا الوعاء الصفيحي المعلق إلى جدار العُشَّة الخارجي، وتُسَخِّن الماء للاستحمام مرة كل أسبوع. لكن المرء لا يستطيع الاستلقاء في وعاء صفيحي. والآن راودتها فكرة جامحة، كانت تَبْعَةً من تبعات الاضطراب الحُلُو الذي أثاره إدي رودا في حياتها. لقد عزمت على أن تخوض حوضه عارية.

في ذلك الوقت كان النهار قد انتصف مثله مثل العام. بَعْدَ جامعو الحصاد عن العُشَّة قرابة نصف ميل، ونادرًا ما مرَّ أحد بتلك البقعة النائية. انعزل الحوض وسط الزاوية القائمة بين ضلعي السياج النباتي كأنه شيدَّ بداخل غرفة. وفصلت بينه وبين باب العُشَّة بضع خطوات مرصوفة بالحجارة. عندما لمستها قدمها الحافية لَفَّها النسيم البارد في تلك البقعة الظليلة، فتوقفت لحظات ترتعد قليلًا وتحيط صدرها بذراعيها. هكذا وقفت تحتضن نفسها،

يخفق قلبها بقوة إثر جرأتها، وفكرها سارح في أحضان أكثر دفئاً وحسّية. نظرت إلى الأعلى فرأت السماء صافيةً لانهائية، والنوارس تحلق بين الأزرقين حرّةً لا تشبهها. فتاقت إلى أن ترفعها الحياة عاليًا؛ إلى أن تحررها من قوقعتها. لكن رودا هو من رفعها. بعدما استلقت فوق صفحة المياه كادت تفقد وعيها عندما رآته أمامها. شعرت بالخزي، لكن الفرح برؤيته والارتباك من وجوده كبّلاها حتى عجزت عن التصرف. ومثلما قد رآته راحلاً في ضوء النجوم، كان الآن قادمًا في وهج السماء ذات الزرقة الفاتحة. اعتلى طرفًا من الحوض، ووضع على كل جانب من جانبيه إحدى قدميه. ثم رآته ينحني، وتقترب لحيته الطويلة إلى وجهها. كانت أكثر عجزًا من فأر يتقدم نحوه منجل. لم تستطع الفرار ولم ترغب به. بدا قرطا رودا مثل قمرين يهبطان من السماء من أجلها. للحظات رأت وجهه. لم يكن مبتسمًا كما اعتادت أن تراه، بل مُتجهّمًا. لحظت الورود التي أحاطته بهالة وهمية، والشمس بعيدة ساطعة كأنها تنظر إليها عبر نفقٍ مائل. ثم شعرت بيده تنغمس في الماء، وأصابه تحسس ظهرها، وذراعيه القويتين ترفعانها من الحوض. استلقت على صدره تقطر ماءً. رأسها على كتفه وعيناها مغمضتان. ثم حملها إلى البيت.

الفصل السابع

1

في اليوم الذي تَلَقَّت فيه ماجي الخطاب المُرسَل من تشارلز ديكنز تركتها أنا وسالي كي تتناقش مع أبي في بعض المسائل، التي تتعلق بمستقبل عدد من الأشخاص: مثلي أنا وسالي، ولوسي إيفانز ورضيعها الذي أَصَرَّت، للأسف، على أن تسميه ميرلن⁽¹⁾. لم يكن شأن لوسي ورضيعها يخصُّ أبي، إذ لم يعيشا في إقطاعيته ولا تقوم دعوى قضائية أو عُرفية بينهم. لكنه لم يكن رجلًا يقتصر إحسانه على تلك الحدود الضيقة. وحثَّ أَمْران على أن يولي لوسي إيفانز اهتمامًا خاصًا. أولهما هو صداقته القديمة بوالدها، وثانيهما هو تقديره للشرير الوسيم المدعوُّ بالقبطان رودا. حينما ظهرت تلك المسألة أمامي فجأة، في ذلك الصباح الذي رأيت فيه لوسي ورضيعها خارج كوخ رودا، الذي اختفى عن الأنظار إذ السيدة رودا تصيح عليها وويزلي يسرع خلفهما، كان الموقف حقًا يستدعي أن يتلطَّف أحدهم بالتدخُّل لحسمه.

فيما بعد سأتعرف إلى لوسي جيدًا وسأستمع إليها تحكي عن قصتها. لهذا لا يصعب عليَّ تصورها في ذلك الصباح تسلك طريق الجُرف ركضًا من كوخها إلى بورتفن تحمل رضيعها بين ذراعيها. ولا يصعب عليَّ استيعاب

(1) شخصية خيالية تظهر في أسطورة الملك آرثر لساحرٍ وُلد لعذراء وشيطان، سيصبح مستشار الملك الشاب. م

تشوش عقل تلك الفتاة الشابة، التي عاشت معزولةً في حصن بعيدةً عن ضغوط الحياة العادية، حتى تلقت ضربة شديدة مفاجئة قذفت بها في خضمّ الواقع. لقد نبذها الجميع ما خلا الفتى الذي لم تُحب. لكنها ظنّت، حتى تلك اللحظة، أنها إذا استطاعت مقابلة إدي رودا فستنحل عقدتها بطريقة ما.

عندما اتضح لرودا حملها توقف عن الذهاب إلى العُشة. وسرعان ما اكتشفت السيدة إيفانز ما اتضح له في ليلة عصبية. ظلت بتي خارج البيت طوال اليوم. وفي المساء عادت تحمل طردًا طويلًا أحاطته بالغموض، إذ رفضت أن تفتحه ووضعتة جانبًا. ثم جلست مع ابنتها لتناول العشاء. كانت بتي في مزاج رائق على نحو غير مسبوق؛ مبتهجة وتسهب في الحديث. لم تُمضِ المرأةُ ليلةً كذلك منذ وقت طويل لأن الأم عملت طوال الصيف، عازمة على كسب المال من أجل ابنتها. والآن، بعدما انتهى العشاء، شرعت في البوح. أخبرت لوسي بطموحاتها. وللمرة الأولى لم ترَ الفتاة أمامها المرأة المُنعزلة المُتَحَفِّظة، بل ابنةً تنتمي إلى عائلة. علمت أن لوالدتها شقيقة عملت ساقية. سلّتها بتي بحديثها، وأخبرتها كثيرًا عن الفرص التي تحظى بها الساقيات. قالت إنهن يصادفن جميع أنواع الرجال، من بينهم المُحترمون. وإن أحسنت الفتاة استغلال الفرص فإن تلك المصادفات قد تؤدي إلى نتائج جيدة. لقد أدّت مصادفةً إلى زواج شقيقتها من مندوبٍ لأحد متاجر الأقمشة. كان رجلًا حصيلًا استطاع بعد عشرة أعوام أن يفتح متجر الأقمشة الخاص به في «سوانزي».

أدهشت تلك الأخبار الرائعة لوسي. علمت للتو أن لها أقرباء يمتلكون متجر أقمشة! وتعدّز عليها تصور تلك الأبّهة. ضحكت والدتها ضحكة خافتة لأن في جعبتها مفاجأة أخرى أشدّ. كان موستن لويد -هذا هو اسم تاجر الأقمشة الفخم- يقظًا طموحًا. لم تَسْعه سوانزي. لقد سعى إلى الوصول إلى لندن. والآن يتحقق طموحه. كان سيفتتح متجرًا في لندن!

أطالت بتي الكتوم الحديث بعدما كبتت الكثير منذ وقت طويل. لقد قررت أن تتخذ خطوات عمليّة من أجل لوسي، لهذا أخذت تتقرب إلى أصحاب الثراء طوال ذلك الصيف. لم يلقَ خطابها الأول إلى ميج موستن لويد ترحيبًا حارًا. لكن بتي التفتت إلى أنها تلقت ردًا بالفعل، ما شجّعها على الاستمرار في

مراسلاتها. وشيئاً فشيئاً عاد الوُدُ القديم، ثم علمت بما أخبرت به سالي للتو! لم يكن بالخبر العظيم، لكن بتي رآته كذلك. فعائلة موستن لويد لم تُرزق بالأبناء. عندما يستقر الزوجان في لندن سيلتقيان لوسي كي يُقيماً طبعها. لقد تفضّل السيد موستن لويد نفسه بمراسلة بتي حول هذه المسألة لأنه لا يريد وقوع أي التباس. يجب أن تنصاع لوسي للأوامر. يجب أن تستعد للعمل في المتجر أو المنزل إن تطلب الأمر. قد يبدو هذا للبعض تفاوضاً حول توظيف خادم بخس الأجر، لكن بتي لم تره كذلك. كانت تعتقد أنها حالما يتعرّفان إلى لوسي سيجدانها فتاة رائعة، لهذا شعرت بالرضا. لقد أصبحت تراها وريثة ذلك المنزل الخالي من الأبناء.

والآن بعدما رفعنا الأطباق عن الطاولة وأقفلنا باب الكوخ وأضاءنا المصباح، فتحت أخيراً الطرد الذي جاءت به. لقد سارت إلى البلدة المجاورة ذهاباً وإياباً من أجل شراء تلك الأغراض، التي كلّفها كل ما كسبت من عملها الشاق طوال العام. بسطتها على الطاولة، تمرر يدها الخشنة بحنان على القلنسوة والفتستان، والتنورة التحتية والجوارب الطويلة، والحداء والقفاز والملابس الداخلية. حتى إنها اشترت مظلة تافهة سخيفة. لقد عازمت على أن تُري ميج موستن لويد ستري أن حياتها لم تذهب سُدى.

هتفت فارغة الصبر: «ارتدي هذه الثياب!».

أطاعتها لوسي، ثم وقفت أسفل المصباح تتألق في الدانتيل والزركشات، تجذب زوج القفازات البنفسجية على طول ذراعيها البيضاوين، والابتسامة العريضة تعلو وجه والدتها إذ تعقد رباط القبعة أسفل ذقنها في عقدة فراشية أنيقة. تراجعت بتي إلى الخلف تتطلع إلى ابنتها، وتأكد لها أن أهل بورترين إذا رأوها الآن فستبرهن على انتصارها!

ناولتها المظلة قائلة: «ارفعي هذه الآن!».

دُهِشت لوسي مما يجري. لقد أمضت يوماً طويلاً حارّاً بمفردها. والآن، بينما باب العُشة مُوصد في وجه الهواء، ونيران المدفأة تتأجج بعد طهو العشاء، ورائحة الدهن المقلي تزكم أنفها، شعرت فجأة بالدوار والغثيان.

كرّرت والدتها قولها: «ارفعي هذه الآن!».

فتحت لوسي المظلة في إعياء، وأمالتها على كتفها اليمنى إلى الراء. عندئذٍ، أخيرًا، اكتملت التحفة التي عملت بتي بجدٍّ كي تنجزها. لكن لوسي عندما نظرت إلى والدتها، الواقفة في الطرف المقابل من الغرفة تتطلع إليها جَذلة كأنها إحدى الفنَّانات، لم ترَ سوى ظلٍّ يهتز مثل العشبِ على سطح الجروف، أو رمالِ الشاطئ في يوم شديد الحرارة. انزلقت المظلة من بين يدها وتمسكت بحافة الطاولة. تقلصت معدتها فتقيأت، وتلطح ذقنها وطيأت ثوبها.

للحظات جمدت بتي في مكانها مرتاعةً، ثم أسرعَت إلى الأمام تحتقن عيناها غضبًا. التقتط المظلة وطَوَّتها، ثم ضربت بها رأس لوسي وكثفها. صاحت: «يا إلهي! أيتها الساقطة! أيتها الساقطة القذرة!».

2

لم ينجم غضب بتي، الذي دام لحظات فقط، عن البليَّة التي نزلت بالفتاة بقدرِ ما أثارته خيبة الأمل التي استبدت بها. لقد شعرت أن أحدهم لطَّخ لوحتها الفنية حالما حان وقت عرضها. داخلتها بعض الغيرة أيضًا لأنها استنتجت من يكون المسؤول عن تلك الفعلة. وأدانت نفسها لإخفاقها في أداء مهمة الحراسة التي دامت عمرًا طويلًا. اعتملت تلك المشاعر بداخلها، حيث عاش حلمها الجميل. تلاطموا تلاطمًا شديدًا لكنه وجيز، ليسقط أحدهم وراء الآخر في ضربة تلو أخرى على جسد لوسي.

سقطت الفتاة أرضًا إذ خارت قواها إثر ذلك الهجوم. كانت محطمة مثل أيقونة حفظها من يقدِّسها في كوة، ثم لعنها وهشَّمها فجأة. ارتمت بتي في كرسي لاهثة تحاول استعادة جمودها، وهي تنظر إلى الفتاة الشاحبة المنبطح وسط الكشكشات الأنيقة. ثم تجهزت للنوم، دون أن تنطق بكلمة، وأوت إلى الفراش. سمعت حفيف الحرير والفتاة تتجرد منه. ثم تسللت لوسي إلى السرير بجوارها. رقدتا متباعدتين، ولم تستطع أي منهما النوم.

لم يتبع تلك المواجهة مزيد من الضربات أو التقريرعات، بل التزامٌ جدِّي كئيب يشبه أداء حارسة سجن صارمة لواجبها تجاه سجينة هزيلة. ولم يتبقَّ ما يُذكر لوسي بتلك الليلة المريعة سوى الثياب. لكنها ذات يوم استيقظت من نوم لم تعرف فيه الراحة، ولم تجد والدتها في السرير. كانت النافذة مفتوحة ينساب ضوء الشمس عبرها، فسارت نحوها واهنة. عندما نظرت إلى الخارج رأت والدتها تُقَرَّبُ عود ثقاب من الثياب التي لم تبرح أرض العُشَّة حتى الأمس. والآن على طرف الحقل رأت الفتاة بقعة زاهية تشغلها التنورة الزرقاء ذات الكشكشات، والتنورة التحتية البيضاء، وزوج القفازات البنفسجي، والزهور مختلفة الألوان التي ازدانت بها القلنسوة البهيجة ذات الرباط الطويل. بدا واضحًا أن والدتها غمرت الثياب بزيت البارافين، إذ نشبت فيها النيران إثر لمسة عود الثقاب. عندئذٍ شاهدت بتي حلمها يرتفع راقصًا نحو السماء، مثل سرب طيور متوهجة طارت فجأة. هكذا أضيفت ذكرى سيئة أخرى إلى ذكريات لوسي، التي عادت إلى السرير ببطء ترتعد. ولم تتحرك حتى شعرت بوالدتها بجوارها، تضع يدها على كتفها قائلة: «إليك كوبًا من الشاي».

منذ تلك اللحظة استأنفت بتي جميع مهامها المعتادة. لكنها ثابرت على أدائها جلدًا لذاتها. فأصبح الحال أكثر سوءًا من تبادل اللوم والاتهامات.

لم يَبْحُ رودا بالسر بالطبع، وحملت بتي على عاتقها مسؤولية ألا يقترب أحد إلى العُشَّة. على أنها كثيرًا ما قابلت ويزلي يتجول في المنطقة خَجَلًا، فيُفِزِعُه صوتها الأجش إذ تصيح: «انصرف من هنا!». وعندما حانت ساعة الوضع ساعدت ابنتها بنفسها، ولم يَدِرْ أحد في بورْتِفَن بما حدث. لقد وُلِدَ الطفل في الساعة الثالثة من صباح يوم من أيام مارس المضطربة، إذ اندفعت الرياح عبر المحيط تعصف بالبلدة، وتهز ألواح العُشَّة الخشبية.

عندما ظهر خيط النور الأول سكنت الرياح. كانت لوسي راقدة حيث الهدوء الشديد، يبلغ سمعها ثغاء الحملان في الحقول. بلغ ذلك الصوت من الضعف والوحدة والعجز حدًّا جعل لوسي تتقلب في سريرها وتجذب الطفل إليها. فنهضت والدتها الجالسة بجوار المدفأة وأخبرتها بجفاء أن المولود صبي.

ظل الجو على برودته يسوده الهدوء. لكن بين الفينة والأخرى سمعت لوسي صوت مطرقة يأتي من البقعة حيث أعدَّ رودا الحوض. كان الدَّقُ حادًا، ودوؤبًا، ومخيفًا قليلًا، كأن والدتها تصنع نَعْشًا في الخارج. وبينما تغرب الشمس سحبت بَتي عبر باب العُشَّة مهذًا هزَّازًا بدائيًا قبيحًا، صنعته من الخشب المجروف. وضعتة بالقرب من المدفأة فأضاءته نيرانها. جلست تنظر إليه. وتحركه بيدها الخشنة تختبره. ثم انفجرت في البكاء.

نظرت لوسي إليها نظرة مَلَأها الحب والأسف، ثم قالت تواسيها: «لا تبكي يا أمي. إن الوضع أفضل مما ظننتُ. لقد خِلْتُ أنكِ تُعدِّين نَعْشًا».

نهضت بَتي تكفكف دمعها بمئزرها، وأجابتها بصرامة: «عندما تخبرين الدنيا ستدرकिन أن الفارق بين الاثنين ليس كبيرًا».

بعد ثلاثة أسابيع ستفكر لوسي أن الوضع حقًا قد يزداد سوءًا. لكنها الآن رأت أنهم أصبحوا ثلاثة بدلًا من اثنين. هذا، في ما بدا، هو كل ما حدث! وجدت الحياة رائعة حقًا في كثير من النواحي. لقد تعافت من آلام الوضع والرضيع بصحة جيدة. انقضى مارس وحلَّ أبريل بأيامه الصحوَّة وجوِّه البديع، إذ تغرد القَبَّارات وتخضرُّ براعم الأوراق على أشجار الزعرور. لكن والدتها ظلَّت على تحفظها القاسي. أدَّت جميع مهامها دون أن تبتعد كثيرًا عن العُشَّة. واستغرقت في الخياطة والحيَاكة من أجل الطفل. الآن يوجد أغراض أخرى عليها جمعها تختلف عن التي أحرقتها في الحقل. وتشغل فكرها مسألة اللحظة التي لا يمكن تأجيلها إلى الأبد؛ تلك اللحظة التي لا بُدَّ أن يخرج فيها ذلك الطفل إلى العالم. لم تدِرِ لوسي أن والدتها ليست عازمة على التصدي لتلك اللحظة. لقد خطَّطت بَتي لأن تُري بورتيفن ما يمكن لامرأة مثلها أن تصنعه من ابنتها. لكن تلك الصفحة قد طُويت والخيبة لا يتبجَّح بها أحد. لهذا، في الصباح الذي بلغ فيه الطفل شهرًا من عمره، استيقظت لوسي فلم تجد والدتها.

في البداية لم يقلقها هذا الغياب. لكنها عندما نهضت من السرير رأت على الطاولة علبة الكاكاو الصفيحية التي تعرفها جيدًا. لقد مثَّلتُ صندوق نقود بَتي، الذي أفقده كثرة الاستعمال لمعانه. لم تكن لوسي تعلم أين تخبَّته والدتها. كانت تُخرِجه عند نشوب الأزمات وتحسب مدخراتها كي تُرتَّب شؤون

حياتهما، ثم تخفيه ثانية في مكان ما. الآن رأتَه أمامها موضوعًا حيث ستره لا بُد. أزالَت غطاء العلبة في رهيةٍ من فحوى ظهور الصندوق بهذه الطريقة. أفرغته على الطاولة لتظهر ثلاثة جنيهاً، وبضعة شلنات، وكثير من البنسات وأنصاف البنسات. لم يوجد المزيد. لم تعثر على رسالة مكتوبة. لقد قالت والدتها كلمتها عبر تلك اللَّفَّة التي كان مفادُها: «إليك آخر ما يمكنني فعله من أجلك».

لم تتقبل المرأة ذات الكبرياء حقيقة إخفاقها. لم تقبل بالوقوف عاجزة وهي على يقين بأن البشر، الذين طالما استهانَت بهم، يضحكون منها سرًّا. كانت قادرة على العناية بنفسها والآن حان الوقت لأن تتعلم ابنتها الأمر نفسه. هذا ما أدركته لوسي وهي واقفة بجوار الطاولة، تمسك بالعلبة الصفحية، والعملات النقدية مُتفرِّقة أمام عينيها الدامعتين.

3

أخبرتني ويلي ألا أذهب لزيارتها قبل أن ترتب أمورها كما ينبغي. لقد ترك السيد بِنْتَس الكوخ بجوار البحيرة، حيث استقرت ماجي ويل مع لوسي إيفانز التي ستقوم على خدمتها، والصغير ميرلن الذي يقضي معظم وقته مستلقياً في ضوء الشمس على ملحف يفتersh الأرض العشبية. هكذا حلَّ أبي مشكلة لوسي. لم تكن الفتاة مؤهلة للعيش اعتماداً على مصادرها الخاصة مثل والدتها. ومنذ اختفاء بتي ظل حالها يزداد سوءاً. كانت تعيش اعتماداً على إحسان الطبيب كيرنو وبعض الجيران، وتداهم منزل إدي رودا وطفلها بين ذراعيها باستمرار. لكن إدي دائماً ما استطاع الاختفاء. أمَّا ويزلي، الذي عمَّق مصابُ الفتاة افتتانه بها، فكان يتبعها على طول الجُرف وعبر القرية. ويجد العامة فيما يفعل تسليّة رأى أبي أن عليه أن يضع حدّاً لها.

عندما رأيت لوسي في صباحي الأول في تريسانت لم ألمح سوى ظهرها وهي تفرُّ من تقريع السيدة إيفانز. لكن الآن أصبح بإمكانني النظر إليها من قرب. في أحد صباحات يونيو ذهبت أنا وسالي إلى كوخ ماجي ويل سيرًا، بعدما أخبرتنا أن موعد بدء الدراسة قد حان. كانت سالي تعرف الكوخ جيّدًا، في حين

أنني أزوره للمرة الأولى. عندما وصلنا إلى وجهتنا ثبتُ في موضعي أستوعب كل ما حولي. امتدَّ الممشى الذي يقود إلى الكوخ حتى حديقة صغيرة. على جانب ذلك الممشى كانت الأرض العشبية تنحدر ناحية مستودع الزوارق. هنا تبلغ البحيرة أقصى اتساعها، وتمدُّ ذراعها إلى التلال الواطئة على ضفتها المقابلة. تفتَّحت الزنابق مثل فناجين على أطباقٍ من أوراق الأشجار ذات الخُضرة الداكنة التي تخضَّبَت بالقرمزي. وكانت الزهور من الكثافة بحيث شكَّلت جُزْراً ملوَّنة بالأحمر والأبيض القشدي.

عندما سمعنا صوت ويلي استدرنا لنجدها عند شرفة الكوخ الجرانيتية.

سألتنا: «ألا تريان أنني محظوظة بالعيش في مكان كهذا؟».

وقد كانت حقاً كذلك. وقفنا في حديقته الصغيرة نستمتع إلى أصوات الطبيعة المُحبَّبة، من طنين الحشرات إلى تغريد الطيور. وفي الناحية المقابلة من البحيرة رأينا الرجال يورجون مناجلهم في حقل على أحد التلال.

قالت ويلي: «هيا ادخلا».

دخلنا الكوخ المتين ذا النسيم الرقيق. على يمين المدخل رأينا الغرفة التي جعلتها ويلي مكتبها. كانت مُكسَّسة، لا تتضمن سوى كتبها وطاولة وكرسي للكتابة، ومقعد مريح بجوار المدفأة. تزينت الحجرة بستائر من القماش المطبوع بالورود الزاهية. وعلى رفِّ المدفأة وضعت ويلي الصورة الوحيدة في الغرفة: لوحة لامرأة رُسمت بظلال الألوان الفاتحة.

هتفتُ قائلة: «هذه هي السيدة أندريدج!».

قالت ويلي: «أجل، لقد تسلمت هذه اللوحة قبل بضعة أيام. إنها هدية من عائلة أندريدج لرعايتي دانييل الشتاء الماضي. عادةً لا تنال لوحات السيد أندريدج إعجابي، لكن هذه ليست سيئة. (لم تكن اللوحة سيئة حقاً) لقد أرسلنا إليَّ خطاباً أيضاً يعتذران فيه لأنهما أوكلا إلينا أمر الصبي فجأة، ويوضحان أن السيدة أندريدج كانت حبلى عندما حللنا بمنزلهم. لا أفهم لِمَ لم يخبراني بهذا الأمر حينئذٍ! على أي حالٍ لقد وافقهما أن يظلَّ دانييل بعيداً حتى تستقر الأمور. والآن أصبح لديه شقيقة تُدعى ماري».

في ذلك الصباح تعرفتُ إلى لوسي إيفانز. لم تكن ترتدي زيًا رسميًا، رغم أن الناس في ذلك الوقت اعتادوا تحديد زيٍّ رسميٍّ لمن يوظفونهم من الخدم، ولم أرَ ويلي تدعوها بالخدمة قط. لا شك أن ماجي ويل استثنائية في عديد من النواحي.

قالت: «هذه لوسي إيفانز يا سارا، إنها من تشاركني العيش في الكوخ. والمستلقي على العشب في الخارج يركل الهواء هو ولدها. نحن ندعوه ميرلن. وهو ساحر بالطبع».

عندئذٍ صافحتُ فتاة كالبقرة، تشبه ثيابها ما ترتديه الفتيات الريفيات في الصيف. عندما أصفُ لوسي بالبقرة فإنني لا أهينها، بل أمتدحها. لقد وصف هومير هيرا بأن لها عينين نجلاوين مثل الثور. ولمَّا رأيتُ لوسي تصوَّرت إحدى بقرات «جيرنزي» الرشيقة، ذات الألوان البديعة والعينين الواسعين الناعميتين البريئتين. كانت لوسي مثالًا للهدوء والإذعان.

ولأن ماجي لا تستطيع أن تتولى مسؤولية أيِّ شخص، بأيِّ صفة، دون أن تطبَّق أساليبها التربوية الملائمة لكل حالة، فإنها تصرفت كما قالت لي فيما بعد: «ماذا كنت سأفعل بلوسي غير أن أصبح صديقتها؟ كانت الفتاة عاجزة. بعدما دلَّلتها والدتها وخدمتها طوال حياتها انقلب حالها. عندما قابلتها كانت في حال يُرثى له. لو أمرتها بأداء مهام الخدم التي لم تفعلها قط لزدتُ حالها بؤسًا، ولجعلتها تشعر بقلّة الحيلة. على أنني في الوقت نفسه لم أكن لأرتكب حماقة مثل والدتها وأعاملها كالدمية. لهذا فعلنا كل شيء معًا: التنظيف، والطهو، والبستنة، وتناول الوجبات. (ابتسمتُ) الشيء الوحيد الذي لم أشارك لوسي في فعله هو إرضاع الصغير ميرلن، ولم تشاركني لوسي في الكتابة قط».

4

طوال ذلك الصيف في تريسانت تجوَّلنا نحن الأربعة: أنا وويلي ولوسي وسالي، يصحبنا ميرلن الصغير في عربة أطفال تناوبنا على دفعها. اعتدت أنا وسالي رؤية لوسي جالسةً ترضع ميرلن أسفل أحد السياجات النباتية، أو على جذع شجرة مقطوع بجوار البحيرة. شاهدناها مدهوشتين، وسعدنا

كثيراً إن سمحت لنا، عندما يشبع الصغير الهادئ مثل والدته، بكفكة قطرات الحليب التي تلتُخ فمه. كنا جميعاً نستقل زورقاً معنا سلّة طعام، ونجذّف وسط الزنابق حتى نصل إلى ضفة البحيرة. هناك نتناول وجبتنا يرافقتنا الصغير على فراش بجوارنا، وتمسك لوسي بورقة من أوراق نبات الأرقطيون تُروّح على وجهه ببطء كي تُبعد الذباب. ثم أتلّقى دروساً في السباحة على يد سالي التي تسبح ببراعة كأنها سمكة.

لقد اعتدنا تناول الإفطار في المنزل ثم السير إلى كوخ ماجي. كنا نصل إليها في الساعة العاشرة تقريباً، ونتلّقى دروسنا في الكوخ أو على الأرض العشبية بجوار مستودع الزوارق حتى الساعة الواحدة. قرأنا ورسّمنا وكتبنا مقالات قصيرة. وثرثرنا باللغة الإنجليزية أو الفرنسية، التي لم نكن نتقنها، لكننا بمرور الوقت تمكّنا من قراءتها بدرجة مقبولة. كانت ويل تُدرّسنا بطريقتها المبتكرة الخاصة. وأهمّ ما تعلمناه منها، كما أتذكر، هو حُبّ القراءة، الذي يشبه حُبّ المشي؛ حالما تتعلّمه تصبح جميع الطرقات مفتوحة أمامك.

لقد شاركتنا لوسي إيفانز دروسنا. حينئذٍ استطاعت القراءة والكتابة بقدر ما نستطيعهما. وهي من اقترح علينا القراءة لتوماس مالوري، إذ كانت تمتلك نسخة من رواية «موت آرثر» أهدتها إليها والدتها، ولا أحد يعلم من أين حصلت عليها. في تلك الرواية قرأتُ الاسم ميرلن، ثم اختارته لولدها. أتذكر جيداً واحداً من الصباحات الصيفية الحارّة -لا بدّ أننا كنا في أغسطس- إذ استلقينا على العشب نمرّر الكتاب من يد إحدانا إلى الأخرى لنقرأه تناوباً. فجأة نهضت لوسي. حملتُ الصبي دون كلمة وهرعت إلى الكوخ. كنت مستلقيةً على بطني إذ حان دوري في القراءة، تستند ذقني إلى يدي والكتاب على العشب أمامي. بينما أقرأ وأركل بساقيّ الهواء نهضت ويلي قائلة: «توقفي لحظة يا سارا». توقفتُ عن القراءة، ونهضت لأجد أن لوسي وطفلها قد اختفيا. رأيت طيفاً قادماً نحونا، يبدو شاحباً قلقاً، يحمل سلّة خوصيّة. كان هذا ويزلي رودا. فأدركنا جميعاً أن خطباً ألّم بعائلته.

في أيام السبت والأحد كنت أحظى أنا وسالي بإجازة من دروسنا اعتدنا خلالها التجول في الريف سائرتين، أو على صهوة فرسينا القصيرين. قبل

مدّة من وصول ويزلي إلى منزل ويلي، بينما نسير في الريف الواقع فيما وراء بورتيفن، اقترحت سالي أن نذهب إلى العُشّة التي عاشت فيها لوسي طويلاً كي نلقي نظرة عليها. عبرنا الطريق حتى وصلنا إلى فتحة السياج، ثم مررنا من خلالها لنجد ويزلي رودا أماننا. كان يجلس على الدكّة خارج العُشّة كئيباً يحدّق إلى المحيط المتلألئ. يدها مرتختان على ساقيه وكتفاه محنيتان. لم يَخْفَ علينا نحن الطفلتين حزنه وهُمّه، وشعرنا بالشفقة نحوه.

قالت سالي: «مرحباً يا ويزلي. ما خطبك؟».

تنهّد وأنكر الواضح، أجاب: «تسألين عن الخطب يا آنسة سالي؟ لا يوجد أي خطوب، بل عُزلة. أنا هنا بمفردي».

ظننّاه يتحدث عن عُزلة مؤقتة في ذلك المكان، لكنه أضاف: «ما رأيكما في تناول كوب من الشاي؟ سأعده في لحظات».

فتح باب العُشّة فصاحت سالي: «لكنك لا تعيش هنا يا ويزلي!».

- بل هنا أعيش. «طُوبَى لِلرَّجُلِ الَّذِي لَمْ يَسْلُكْ فِي مَشُورَةِ الْأَشْرَارِ، وَفِي طَرِيقِ الْخُطَاةِ لَمْ يَقِفْ». لهذا لن أسير معه بعد الآن. لا، ليس أنا من يفعل ذلك.

هكذا علمنا أن ويزلي لم يعد يسكن مع والديه، وسرعان ما بلغ سمعنا ما حدث. لقد انتاب السيدة رودا القلق على رجليها وتمزقت بينهما. كانت تتولى شؤون البيت وتحاول رأب صدع عميق. عندما أبحر القارب سالي جايلورد كان إدي ويزلي لا يزالان ضمن طاقمه. لكنهما لم يتبادلا كلمة خارج نطاق المهمة التي بين أيديهما. وعندما عادا من تلك الرحلة افترقا، أحدهما إلى الكوخ والآخر إلى العُشّة. وفي بعض الأحيان عندما تذهب السيدة رودا إلى المرفأ لاستقبالهما يختلط الأمر بين يديها ولا تعرف إلى أين تذهب.

تقدمت الآنسة ويل مسرعة كي ترحب بزائرننا المفاجئ. قالت: «صباح الخير يا ويزلي. إن المجيء إلى هنا ليس من طقوسك المعتادة، أليس كذلك؟».

فتح السلّة التي يحملها قائلاً: «صباح الخير يا آنسة. فكّرت أن الأسماك الطازجة ستروقك. لقد اصطدت هذا القاروس بنفسني».

لقد توقّف حيث قابلته الأنسة ويل، التي سارت إليه كأنها تقطع طريقه كي لا يتقدم. أجابته: «شكراً لك. هذا من لطفك. ستأخذ سارا الأسماك إلى المطبخ وستعيد السلّة».

فعلت مثلما قالت، وفي المنزل لم أجد أثراً للوسي وطفلها. عندما عدت بالسلّة لحظت بعض التوتر. لم تقل ماجي أو ويزلي أي شيء. كانا صامتين يواجه أحدهما الآخر. أعطته السلّة ثم أمسكت بذراعه، وأخذت تسير في الاتجاه الذي جاء منه. سمح ويزلي لها بأن تقوده إلى الخارج مثل طفل مهذب لكنه خائب الرجاء وحزين. عندما أصبحا خارج مدى سمعي لحظت أن ويلي يتحدث إليه بجدية وهي لا تزال ممسكة بذراعه تقود سيرهما. ثم تركته يغادر، ووقفت تتطلع إليه حتى غابت صورته الوحيدة الحزينة عن الأنظار.

عندما عادت ارتجف صوتها قليلاً إذ قالت: «الآن تسلياً قليلاً».

ثم أسرع إلى الكوخ.

قالت سالي ثاقبة النظر: «ستعود بعدما تنفّس عن نفسها بالبكاء».

5

من حين إلى آخر كان أبي وأمي يبعثان إلينا بأخبارهما. لقد ذهبا إلى «اسكتلندا» حيث يمكنان عند بعض الأصدقاء، وسيعودان إلى تريسانت قريباً. كتب أبي إلى سالي: «يؤسفني قول إننا لن نستطيع العودة في يوم ميلادك. لكننا سنحاول تدارك غيابنا حالما نعود. آمل أن تتعاوننا أنتِ وسارا على إمضاء وقت رائع».

وقد حظينا بوقت رائع يختلف كثيراً عما قد يتوقعه! في يوم سبت من سبتمبر قدتُ أنا وسالي فرسينا في الغابة نتقدم على امتداد البحيرة. كانت تحاول التظاهر بأنها متصالحة مع غياب أبي عن عيد ميلادها الذي يحلُّ غداً. فباستثناء أعوام مشاركته في حرب القرم كانت تلك أول مرة يمضيان فيها عيد ميلادها مفترقين. لقد قررتُ ألا نقيم أي مظاهر للاحتفال حتى يعود، وعندئذٍ سنقيم حفلاً متأخراً. لهذا بينما نحن في الغابة نمتطي فرسينا

لم يشغل الاحتفال فكرنا. كان ذلك اليوم من أيام ذلك الموسم التي يسمُّها السكون. توقف كل شيء عن النمو، لكنه لم يشرع في الذبول. غشي السماء بعض الضباب فتخضبت زرقتها بالبياض. ولم تظهر موجة على سطح البحيرة. سار بنا فرسانا خبيبا في الطريق إلى الحاجز الرملي، حيث ستنتقل سالي عدواً وسأتقدم على مهل. على أننا سنخوض مغامرة مفاجئة من قبيل المصادفة.

في البقعة نفسها حيث رأيت القاقم، عندما قطعت ذلك الدرب للمرة الأولى، رأيت أنا وسالي قاقماً آخر يركض. اختفى عند الشجيرات نفسها المتاخمة للمنحدر الصخري، فخطر في بالي ما حدث سابقاً.

أوقفت فرسي قائلة: «أتساءل إن كان هذا الققم نفسه».

نطقت تلك الكلمة على هذا النحو لأنني أنا وسالي راقنا نطق بعض الكلمات باللهجة المحلية.

سألتني: «الـ... ماذا نفسه؟».

أخبرتها بما حدث في ذلك اليوم. قلت: «وبينما أبحث عنه بين الشجيرات نظرت إلى الأعلى فرأيت القبطان رودا وسط الأشجار الصنوبرية. أتذكرين؟ لقد أتينا معاً ووجدناكما أنتِ وويلي جالستين على السور الواطئ».

- أجل. مكثنا هناك طويلاً، وتساءلت كيف استطاع القبطان رودا الوصول إلى الغابة دون أن نراه. أتعلمين أنه لا يُفترض به أن يدخل الغابة؟ لكنه فيما يبدو يفعل ما يحلو له.

- كان ما حدث غريباً. شعرت بأنه لا يُرحَّب بوجودي في تلك المنطقة، لكنني قد أكون مخطئة في شعوري. لقد جثا بجواري وكاد يحملني لنبتعد.

- لقد سمعت أبي يقول إن ذلك القرصان يستطيع فعل أي شيء، إذن فهو كذلك.

ترجَّلنا عن فرسينا وقيدناهما إلى الأشجار، ثم قالت سالي: «لنلقِ نظرة. لن أتفاجأ إن اكتشفت أنه يدبُّ أمراً».

باعدتُ بين فروع شجيرات البندق الكثيفة، حَطَّتْ إلى الأمام، ثم التفتت تقول: «أبقي فروع الشجيرات متباعدة».

أطعْتُها فتقدَّمتُ تشقُّ طريقها، ثم قالت: «توجد فتحة، ربما يوجد كهف هنا».

عندئذٍ تركت الشجيرات ورائي وتبعتها. استطعنا المرور عبر الفتحة بسهولة، لكنَّ رجلًا في حجم القبطان رودا سيلزمه الانحناء. وجدنا أننا في ممرٍّ صخريٍّ. كان مُظلمًا فتبيَّنَّا ما حولنا تحسُّسًا. اكتشفنا أن السقف فوق رأسينا بالضبط، وأن عرض الممرِّ قرابة متر.

انتابني الخوف. لكنني تبعت سالي التي تقدَّمت بضعة أمتار، ثم قالت: «لم أعد أشعر بالسقف أو الجانبين. إننا في حجرة صخرية».

اكتشفنا أننا في حجرة ليست بالكبيرة. كانت، وفقًا لما أخبرتنا به أيدينا، دائرية تقريبًا. ركلت سالي شيئًا فسمعنا صلصلة. انحنيت، ثم قالت: «زجاجات!».

أما أنا فواصلت تحسُّس الجدار بيدي حتى خطوط بداخل ممرٍّ يشبه الذي دخلنا منه. قلت مسرورة باكتشافي: «أظن أننا نستطيع الخروج من هنا».

- حسنًا، تقدَّمي. سأحضر زجاجة.

تقدَّمتنا لنخرج إلى الغابة ندفع غطاءً كثيفًا من اللبلاب والظيان الأبيض. إن نظرت إليه من بُعدٍ فلن تستطيع تخمين ما يقع خلفه أبدًا. لقد شكَّل جزءًا من سلسلة أشجار تمتد قرابة مئة متر تقريبًا على طول منحدر واطئ.

جلست سالي تمسك بالزجاجة، وضحكت قائلة: «يا له من محتال! وجد نفسه مخبأً ذا مدخلين! ما أجمل هذا المكان!».

سألتها ببراعة: «لكن فيم يستخدمه؟».

أجابتني ضاحكة: «هنا يخفي البضاعة التي يهرَّبها بعيدًا عن مُحصِّلِي الضرائب. إنَّ أبي قاضٍ. ألن يكون من الممتع أن أفضح أمره ليقف أمام أبي متهمًا بتهريب النبيذ؟».

الآن بدأت أفهم ما يحدث لأنني قد سمعت عن مهرّبي البضائع⁽¹⁾.

قالت سالي: «لكننا لن نستطيع النيل منه. ما لم نمسك به في هذا المكان فلن نتمكن من إثبات ما يفعل. ثم إنني لا أشي بأحد. وأظن أن أبي يعلم بهذا الأمر. ذات مرة عندما عاد رودا من فرنسا سأله أبي: «ما الذي يجعل مذاق الأسماك أفضل بكثير هناك؟»، فأجابه رودا بابتسامة: «رائحتهم أجمل يا سيدي، ويدفئون القلب في الليالي الباردة». (ثم ربتت على الزجاجة قائلة) ما تحتويه تلك الزجاجات يفعل الأمر نفسه. ألا تتذكرين النبيذ الأحمر الدافئ الذي ارتشفنا بعضه مع ويلي في مونتروي؟».

بلى، كنت أتذكر تلك الأيام. لكنني وسالي لم نكن نعلم أن ويلي حرصت على أن يكون «نبيذنا» ماءً دافئاً مُلوّناً قليلاً. شرد ذهننا في نزهاتنا الرائعة في مقهى المزارعين، حيث الطعام الساخن والمشروب الدافئ والموقد المتوهج. ثم قالت سالي فجأة: «لنُقم حفل عيد ميلاد في الكهف غداً من أجلنا نحن الاثنين فقط! سنحضر مصباحاً وبعض الطعام. وسيتوفر لدينا كثير من الشراب». وكم كان هذا صحيحاً!

6

ذهبنا إلى حديقة الفواكه نحمل سلّة واقتطفنا ثمار الكمثرى والخوخ من التعريشات. اختلسنا الكعك من المطبخ وأخذنا كوبين خفية. انتشلنا مصباحاً من الإصطبلات وفي الساعة الرابعة انطلقنا.

لم يوجد داعٍ إلى إخفاء أمر زهابنا في نزهة إلى كهف اكتشفناه. لكن إحساسنا بالمغامرة بدأ بالتكثُر، الذي استحال تمرّداً حالما انطلقنا إلى الغابة. هناك رفعت سالي صوتها عالياً، تغني أحياناً لا أحد يعلم من أين تعلمتها:

(1) انتشر تهريب البضائع، بخاصة النبيذ، على نطاق واسع على طول ساحل إنجلترا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي. كان هذا الوضع نتيجة طبيعية للضرائب الباهظة التي فرضتها حكومة تلو أخرى على البضائع في أثناء حروب بريطانيا في تلك الفترة. م

«حافية قدمي عارية بطني

تغطي جسدي الأسمال

لا يهْمُ! ما دام لديّ نبيذ

يكفيني ويريح البال».

ثم قالت: «سنقع في إغواءٍ شديد، لكنّ ويلي هي المسؤولة عما سيحدث. لم يكن من المفترض بها أن تعلّمنّا تناول النبيذ».

كانت تركض مؤرّجةً المصباح، أمّا أنا فتبعها على مهل أحمل السلّة الأثقل. استدارت نحوي وحثّنتني على الإسراع قائلة: «هيا، أسرع! سنحتفل احتفالاً صاخباً، لهذا يجب أن تتعلمي هذه الأغنية. أنا لا يروقني امتزاج الشراب بالكآبة».

لكنني لم أستطع مجاراة مزاجها المرح وروحها المُغامرة، إذ لم يمض وقت طويل على توديعي العيش في ميدان بورتمان، حيث تخضع كل لحظة من حياتي للإشراف وتراقب كل كلمة أنقوه بها. لهذا تعذر عليّ الغناء عاليًا وسط الغابة حول «البطون العارية». تذكرت كيف أدّى فضولي حول سرّة الإنسان إلى هبوب عاصفة. لكنه، عَرَضِيًّا، قاد إلى ظهور ويلي في حياتي.

هتفت قائلة: «ألا ترين أنه كان يجدر بنا إخبار الأنسة ويل بوجهتنا؟».

توقفت سالي تنتظر أن ألحق بها وأجابتنني: «لا شك أن الأنسة ويل يسعدها أن نتركها وشأنها من حين إلى آخر. ربما تكتب الآن إحدى القصص من أجل السيد ديكنز».

سرعان ما وصلنا إلى الكهف، وأشعلت سالي عود ثقاب كي تنير شمعة المصباح. الآن استطعنا أن نرى كيف يبدو. اكتشفنا أنّ لا حاجة إلى أن نحضر معنا مصباحًا، فقد رأينا واحدًا مُعلّقًا إلى خطّاف في السقف.

كنا في حجرة شبه دائرية، يكفي ارتفاعها وقوف رجل منتصب القامة. إذا وقف في منتصفها رجل بدين فسوف يماسّ الجدارين على جانبيه. وقد

سادها الجفاف والبرودة. لم تتضمن سوى المصباح، وكثير من الزجاجات ذات سدادات من الفلين، وبرميل خشبي صغير ذي صنوبر.

تطلعت سالي حولها في رضا، ثم هتفت قائلة: «إذن هذا هو مخبأ المهرّب! يجب أن نستريح في جلستنا. سنحتاج إلى شيء نستلقي فوقه. تعالي معي». سارت نحو الممر الذي يقود إلى الغابة. انتزعنا ملء أذرعنا من السراخس التي لا تزال خضراء وحملناها إلى الداخل. أخذنا أيضًا بضعة فروع من الأشجار الصنوبرية التي تحطمت إثر عاصفة صيفية، بالكاد سنتمكن من إدخالها عبر الممر الضيق. عدنا نسحب حصيلتنا فأصدرت حفيفًا في إثرنا مثل ريش الطواويس. أسندنا الفروع إلى الجدار ووضعنا فوقها السراخس، ثم اتكأنا عليها كأننا جاريقان في إحدى السرايات كما تصورتنا مخيلة سالي. على الأرض وضعنا الجريدة التي احتوت على طعامنا وبسطنا المأدبة، ثم قالت سالي: «إن الحجرة باردة. يجب أن نتدفأ بالنبيذ».

لم نكن نعلم أن البراندي هو الشراب الوحيد في ذلك المخبأ. لكن الحظ حالفنا -أو لعلّه خاصمنا؟- إذ اكتشفنا أن البرميل الخشبي يحتوي على بعض البراندي، لأننا لم نفكر في إحضار فتّاحة السدادات. ولا أظن أننا كنا لنملك القوة اللازمة لاستعمالها. على أن البراندي كان في البرميل على بُعد فتحة صنوبر. ملأت سالي كوبينا حتى حافتيهما. جلسنا متجاورتين تحمل كل منا كوبًا، ورأيت المرح يقفز في عيني سالي.

أملت رأسها نحوي قائلة: «أشرب نخب صحتك يا شقيقتي العزيزة». وشرعنا في الشراب.

جرعنا البراندي كأننا نحمل أكواب ماء النبع البارد في يوم حارّ. وضعنا الكوبين على الأرض معًا. وشعرنا بحرقّة في حلقينا. كنا نلهث.

قالت سالي: «هذا النبيذ قوي. إنه أقوى مما ارتشفناه في مونتروي».

رغم أن سالي لحقت بنا في مونتروي متأخرًا، وشاركتنا نزهة واحدة إلى مقهى المزارعين، فإنها أصابت في ما قالت. كان ذلك النبيذ أقوى من كل ما توهمت أنني قد جرّبته.

- أجل، لم تعطنا ويلي شرابًا مثل هذا قط.

تأملت سالي الأمر، ثم قالت: «لا بد أن هذا النبيذ فاخر. يجب الحرص عند تناوله».

ورغم أن المنطق أشار علينا بأن ننبذه تمامًا فقد كنا نحتفل، وغَلَبَ الاندفاعُ التعقُّل. تناولنا الفواكه والكعك. وبينما نأكل رطبنا فمنا برشفة من حين إلى آخر. بهذه الطريقة لم يكن الشراب كريهاً.

شرعت سالي في الضحك قائلة: «هذا الشراب ممتاز. يجب أن أسأل القبطان رودا أن يخبرني باسم تاجر النبيذ الذي يتعامل معه».

بعدما أنهينا الطعام لم أعد أشعر بالبرد، بل وأصبح الكهف دافئاً مريحاً في وجود الأريكة التي صنعناها من أغصان الأشجار وضوء المصباحين الخافت. بدا المكان ملائماً للنوم وانتابني النعاس. شعرت بأن سالي بعيدة رغم قربها مني. وبالكاد تبيّنت كلماتها وهي تقترح عليّ السير إلى بورتيفن كي نحضر قدّاس المساء في الكنيسة الميثودية. قالت إنها لم تحضره قط، لكن علينا الذهاب كي نقابل القبطان رودا ونشكره على كرم ضيافته.

وإلى هناك ذهبنا لنختتم ذلك الصباح الكارثي ختاماً كارثياً يليق به. لكننا لم ننطلق في الحال لأن النعاس غلبني. لقد تراكت الرشقات الصغيرة حتى أصبحت جرعة كبيرة نأخذها للمرة الأولى. هكذا استلقيت وشاهدت سالي تستلقي بجواري. وسرعان ما خلدتُ إلى نومٍ وهميٍّ مضطرب، أسمع فيه همهمة سالي تتلملج بجواري.

عندما استعدت وعيي وجدت أن أحد المصباحين قد انطفأ. كان الكهف مُظلمًا بعض الشيء. شعرت بالبرد وآلمني رأسي. كانت سالي جالسة تفرك عينيها وتتناءب. كنت أشعر بالغثيان وبدا مظهر سالي مريعاً.

أخذتُ في البكاء قائلة: «أريد الذهاب إلى المنزل. لنعد إلى المنزل».

استبدَّ بسالي مزاج سيئ عنيد فقالت: «عودي إلى المنزل إن كنت تريدين ذلك، لكنني ذاهبة إلى بورتيفن».

بدا لي أن فكرة الذهاب إلى الكنيسة قد استحوزت عليها. لم تقل المزيد واتجهت إلى أحد الممرّين مُسرعة. تبعثها لأنني لم أقوَ على التفكير في الذهاب إلى المنزل وحدي. كنا نسير في الدرب حيث رأيت القاقم يركض

وقت الغروب. عندما وصلنا إلى طريق الجُرف الذي يؤدي إلى بورْتِفن تلوّنت السماء الغربية بظلالٍ بنفسجية وأرجوانية، وانعكس الغروب على صفحة المياه. في تلك اللحظات، إذ يتحدُّ البهاء والشجن، شعرت بأنني ضئيلة وعظيمة ووحيدة، حتى إنني عدت إلى البكاء. كانت سالي أمامي تترنح في مشيتها. وأدركتُ أنني أسير مثلها. بعد قليل وصلتُ إلى باب كنيسة صغيرة مطليةً بلونٍ رماديٍّ قبيح. هرولت كي ألحق بها، لكن الهرولة زادت حالتني سوءًا. أمسكت بذراعها ودخلنا معًا.

لقد أسفر النعاس الذي غشنا جرأء الشراب عن وصولنا متأخرًا. كان القدّاس ينتهي. هذا يعني أن الكنيسة امتلأت بالحضور لأكثر من ساعة. في ذلك الوقت في بورْتِفن كانت الكنائس الميثودية تمتلئ بالحضور. في وجود الحشد أصبح المكان حارًّا، وزاده اشتعال مصابيح الزيت حرارةً. عندما دخلته باغتتني رائحة كريهة فتقلّصت معدتي مجددًا. عاودتني جميع الأحاسيس التي أفسدت نهاية رحلتي على متن سالي جايلورد، وفاقمها الصُّخب. كان الحضور ينشدون الترنيمة الأخيرة:

«نظُنْ في أنفسنا الصدق
فَأَرِنَا يَا رَبُّ أَنَّنَا نعبدك بحق».

فيما بعد اعتادت سالي ترديد هذا المقطع والتشديد على البيت الأخير مازحةً، لكن الموقف حينئذٍ لم يسع المزاح. كان ويزلي رودا واقفًا على المنبر، ينير ضوء المصباح المُعلّق فوق رأسه وجهه الشاحب، والسيدة رودا تعزف الأرغن بإخلاص. أمّا إدي ذو القرطين المتأرجحين فكان هناك لا يخفي وجوده على أحد، يفغر فمه الكبير الذي يتوسط لحيته، ويعلو صوته الأجش ترنمًا. لم أعرف من الحضور سوى أولئك الثلاثة، لكن سالي تعرف الجميع والجميع يعرفونها. حالما دخلنا الكنيسة التفت الجمع إلينا. لحظتُ الدهشة تعلق وجوههم، إذ أدركوا أن المُبجَّلة سالي جايلورد وابنة زوجة أبيها تفضَّلنا

بحضور القدّاس. لا شكّ أن مظهرنا عمّق تلك الدهشة. فقد خرب هندامنا، بدت أعيننا جامدة، ولم تترك سالي سلّة الطعام ومصباح الكهف.

وقفنا بين جدار الكنيسة والصفّ الأخير من المقاعد الخشبية، إذ لم يوجد موضع للجلوس. عندما انتهت الترنيمة ختم ويزلي القدّاس بالدعاء. انفتح الباب وراءنا، وشرع الناس في الخروج. دفعني الحشد فلم تحتمل معدتي المزيد. وتقيّأت على أرضية الكنيسة في مشهد مثير للاشمئزاز.

لا أتذكر مما حدث بعد ذلك سوى التوعّك والخزي. حملني القبطان رودا بين ذراعيه واجتاز الباب إلى الشارع. هناك، وسط حشد من الأعين الفضولية، تقيّأت مجدداً وشاركتني سالي القيء. لكنها استعانت بسلّة الطعام مثل فرس مهذب شعر بالغثيان فاستعان بمخلاته.

لا شكّ أن أهل بورتيفن تسلّوا كثيراً في تلك الليلة. ولا أعلم ما كان ليصيبنا لو لم يمر بنا الطبيب كيرنو مصادفةً. كان رجلاً أعزّب يقع منزله على مرمى حجر. ألقي علينا نظرة واحدة، ثم حمل سالي وابتعد بها يتبعه رودا يحملني. بعد خمس دقائق استلقت كل منا بجوار الأخرى في سرير كبير، يدفعه قرميد ساخن يلفّه القماش. وسكن اضطراب معدتنا بعدما أعطانا الطبيب دواءً لنشربه. لا بدّ أنّه كان ذا تأثيرٍ مُنوّم، إذ سرعان ما غلبنا النوم.

الفصل الثامن

1

أتذكر أننا عندما أوشكنا أن نغادر مونتروي أعطى أبي مشبكًا ذهبيًا لخادمتنا، التي لم يرها من قبل ومن غير المحتمل أن يراها مجددًا. أتذكر أيضًا أنه عندما عاد إلى المنزل في خريف عيد ميلاد سالي أهدى طفل لوسي خشخيشة من العاج والفضة، وأحضر أوراقًا فاخرة من قطع الربع من أجل ويلي. جلب لسالي سلّة خياطة مُبطّنة بالحرير راقتها كثيرًا، رغم أنها أظهرت عزمها على ألا تستخدمها أبدًا. أهداني كُرة زينة جميلة عديمة الفائدة، وطائرًا من الفضة المذهّبة ذا عينين حمراوين. عندما أهدى لوسي أقمشة أنيقة كي تصنع منها ثيابها ظننته قد فرغ من توزيع الهدايا. لكنه عندئذٍ أخرج خشخيشة ميرلن، فأشرق وجه لوسي والأجراس الفضية الصغيرة تصلصل. مَنْ غيره كان ليتذكر الصغير؟ وما أشدّ حبي له!

في كوخ ويلي فتحنا جميع الهدايا. لقد ذهبنا إليها أنا وسالي برفقة أبي في اليوم التالي لعودته، وارتاحت أُمي في المنزل. كانت سعيدة تتألق جمالًا، لكنها لم تغادر المنزل كثيرًا، بخاصة في وقت الظهر. لهذا قالت سالي: «أظن أنها ستنجب طفلًا».

أعدّت ويلي الشاي، وبدأت مراسم فتح الهدايا. ثم جلس أربعتنا على الأرض العشبية بجوار البحيرة. كنا في نهاية الخريف، لكن الجو احتفظ

بدفئه. وأخذت ويلى تروي قصة ثمالتنا المريعة. كان من طبعها ألا تتوانى في ذكر ما يجب ذكره بصدق وإيجاز.

عندما انتهت من السرد سأل أبي سالي: «أين عثرتما على تلك الزجاجات؟». لم نكن قد أخبرنا أحداً بمصدر الشراب. سألنا الطبيب كيرنو والآنسة ويل عنه، لكننا التزمنا الصمت. على أننا اتفقنا على إخبار أبي بالحقيقة إن سألنا عنها. وهذا ما فعلته سالي الآن.

بعدما أجابته لم يقل أبي سوى: «سنناقش هذا الأمر غداً. لا تخبرا أمكما بشيء عنه. رجاءً يا آنسة ويل كوني في المنزل في العاشرة صباحاً».

أذكر أنه كان قاضياً، والآن أصدر أوامره فأنصَعْنَا له. ظلَّ على هدوئه الحازم، لكننا فضلنا لو أنه انفجر غاضباً. وتلاشت بهجتنا بالهدايا.

في صباح اليوم التالي تبعناه نحن الثلاثة نسير في رهبة. لا شك أنه أمضى ليلته يتأمل ما حدث، إذ توقف عندما دَنَوْنَا منه سائلاً: «قلتما إنكما أخذتما المصباح الذي عثرتما عليه في الكهف. إذن أين هو الآن؟».

لم تأخذه سالي معها إلى منزل الطبيب كيرنو ولم نعلم أين انتهى به المطاف. فتبرَّم أبي وواصل سيره.

بالطبع لم يكن المصباح في الكهف. هذا ما اكتشفناه حالما وصلنا إلى هناك. علَّق أبي المصباح الذي أحضره معه. وعثرنا على المصباح الذي انتشلناه من الإصطبلات مُعلَّقاً إلى خطَّاف. لكن الكهف خلا من باقي الأغراض. لقد اختفت الزجاجات والأريكة التي صنعناها من أغصان الأشجار.

انتابنا الذهول، لكن أبي ابتسم للمرة الأولى منذ سماعه بفعلتنا وقال: «هل تظنان أن الداهية سيقف مكتوف اليدين طوال هذا الوقت؟».

الآن أستطيع تصور الأفكار التي دارت في ذهن أبي القاضي. ربما قال: «لا زجاجات ولا مصباح يعني لا أدلة. طبعاً يمكن لهاتين الطفلتين أن تُقسِما يميناً حول وجود الزجاجات والمصباح وأن تصفا نوعه. يعلم كثيرون أن إدي رودا يمتلك مصباحاً من النوع نفسه. لكنني لست عازماً على أن أطلب من الطفلتين الإدلاء بشهادتهما في محكمة عامَّة. وحتى إن أدين إدي رودا فسيتمكن من العثور على مخبأ آخر. (ربما ابتسم أيضاً وأردف) لقد اشترت

من رودا بعض النبيذ بنفسي. ولا يستاء أهالي كورنوال من مُهرَّبِي النبيذ قط».

لهذا أطفأنا المصباح واتجهنا إلى كوخ إدي. هناك وجدناه يحْدق إلى المحيط. تبادل هو وأبي التحية بكياسة، ثم أعرب عن تمنِّيهِ أن يكون حضرة اللورد قد استمتع بإقامته في لندن، وأن تكون حضرة الليدي بخير. استفسر أبي بدوره عن حال السيدة رودا وويلزي. ثم شرعا في السير في الطريق الذي جئنا منه. وأبقى أبي رودا في محادثة معه حتى اضطرَّ إلى المجيء معنا. عندما اقتربنا من فتحة القاقم هتف بنا أبي: «توقفا أنتما الاثنان! معي شيء أحضرته لكما من لندن».

التفتنا إليه فوجدناه يقذف بكرة مطاطية من إحدى يديه إلى الأخرى. تفاجأنا إذ وجدناها هدية طفولية لا تشبه نوع الهدايا التي قد يحضرها لنا. ثم قذف بالكرة هاتفاً: «إليكما!».

لكنها لم تصل إلينا، بل سقطت بين الشجيرات التي تخفي الكهف. عندما ركضنا لنخرجها صاح: «ستخدشكما الشجيرات. دعوني أحضرها». وبعد لحظات هتف بنا قائلاً: «اسمعوا! وجدت ما يشبه الممرَّ هنا!». هكذا وجدنا أنفسنا، ومعنا رودا، بداخل الكهف.

أشعل إدي عود ثقاب وقال بلا اكتراث: «يبدو أن أحدهم يستخدم هذا المكان لأن به مصباحاً. (أردف دَهْشاً) إنه واحد من مصابيح حضرة اللورد. أتساءل من يخطط لماذا الآن!».

تطلع أبي حوله وقال: «يوجد ممرٌّ آخر. (سَلَكه ثم عاد قائلاً) إنه يقود إلى الغابة».

ثم نظر إلى رودا. ثبَّت كل منهما عينه على الآخر حتى أردف أبي: «سينفع مكان كهذا أحد المُهرَّبِين».

نظر رودا حوله يقيِّم الكهف وأجاب: «إنه مناسب تمامًا. (أضاف بتوقير شديد) لكنني لا أتصور أن من يعرف حضرتك قد يفعل شيئاً كهذا على أرضك».

- أجل، بالطبع لا يوجد دليل على أن الكهف يُستخدم في هذا الغرض. لكن إن كان هذا هو الحال فإنني أرجح أن المذنب لا ينتمي إلى منطقتنا. على أي حال إن سرتَ في الغابة ليلاً فكن يقظاً.

- هل تقصد أنني أخوض الغابة يا حضرة اللورد؟!

- يا عزيزي رودا أنا لا أشير إلى شيء سوى أنك قد تكون معتاداً السير في ضوء القمر من حين إلى آخر مثلنا جميعاً.

- أنا أمضي كثيراً من الليالي في المحيط، وعلى البرّ يوجد سريري الذي يعجبني الرقود فيه.

- أنت رجل رشيد. أتمنى أن يكون الجميع في مثل حكمتك.

هكذا انتهت المحادثة، ثم ودّعنا إدي في طريق عودتنا. وبينما نقرب إلى المنزل قال أبي: «لقد أخفناه حتى يبتعد عن هذا المكان، لكنه سيعثر على غيره. يؤسفني قول إن هذا هو كل ما استطعنا فعله. الآن اسبقاني إلى المنزل يا فتاتي لأنني أريد التحدث إلى الآنسة ويل بمفردنا».

وقد أسفرت محادثتهما عن توقف جولاتنا ونزهاتنا في عطلات نهاية الأسبوع. أصبح سائسٌ يتبعنا حيثما قُدنا فرسينا، ورافقتنا ويلي عند التنزه سيراً. إنني لا أدري إن كانت أُمي قد علمت بهذه المسألة، لكنها لم تُحدّثني عنها قط.

2

على أن أهل بورتيفن قد علموا الكثير عن هذه المسألة بعد إحدى العِظات التي ألقاها ويزلي رودا. كان ويزلي يتألم عند ملاحظة مسلك والده، مثملاً أوضح المشهد الذي شكّل رصيف ميناء بريست مسرح أحداثه. لقد علم مثل الجميع مَنْ يكون والد طفل لوسي إيفانز. والآن، بعدما مسّ ذلك المسلك شأن قلبه، مكث في العُشّة التي تشرف على بورتيفن، مُهتماً لخطايا والده مثل نبيّ يهتمُّ لشورور البشر جميعهم. ورغم أنه دائماً ما كان هادئ البال فقد أصبح سريع الانفعال. تذكّر المصباح الذي رآه في يد سالي. وبمرور الوقت ربط

بينه وبين عمليات التهريب. تساءل كيف لأبيه ألا يدري بها والسفن تُحمّل بالنبيذ أمام عينيه؟ ثم استنتج أن أباه من المُهرّبين. لكنه ظنّ أن دور إدي يقتصر على المراقبة فقط لأن «السُّكْرَ عَرَبْدَةٌ» كما يقول الكتاب المقدس، ما سيُريده عن الاقتراب من النبيذ.

لكن حالما تأكد له أن والده منخرط في ذلك الشأن الشائن تعاضم الألم الذي شعر به جرّاء ما حلّ بلوسي إيفانز، حتى إنه قرّر فضّح أمره. وقد نفّذ قراره في عِظَةِ ألقاها حول الآية: «وَمَنْ أَغَثَرُ أَحَدَ هَؤُلَاءِ الصِّغَارِ الْمُؤْمِنِينَ فِي فَخِيرٍ لَهُ أَنْ يُعَلَّقَ فِي عُنُقِهِ حَجَرُ الرَّحَى وَيُغْرَقَ فِي لُجَّةِ الْبَحْرِ».

لقد علمنا بهذه التفاصيل من السائس الشاب الذي رافقنا عند ركوب الخيل، إذ كان خادماً ورِعاً في كنيسة بورتيفن. وعلى الرغم من غضب ويزلي فإنه لم يستطع الإفصاح عن اسم والده. لكنّ الأهالي أدركوا من يقصد الواعظ الشاب بكلماته، ولم يرتابوا في أن الصغار الذين تعثّروا هم لوسي إيفانز وسالي وأنا.

ليس في مقدوري تخمين شعور إدي رودا عندما علم بأن أمره قد فُضح. لكن ما حدث بعد ذلك يؤكد أن العِظَة لم تبدّل حاله. فهو لم يكن مُهرّباً على نطاق واسع، أقصد نطاق من يعملون في التهريب ويراكمون من ورائه أرباحاً طائلة. ولم يستطع مقاومة إغواء شراء بضعة زجاجات من البراندي بسعرٍ رخيصٍ من حين إلى آخر، يُحمّلها على متن القارب قرابة ميلٍ بعيداً عن الساحل الفرنسي، كي يبيعها في أنحاء بورتيفن. هذا بالضبط ما فعله عندما انقضى ذلك الخريف وحلّ الشتاء. كان الظلام مُخيّماً عندما اقترب القارب سالي جيلورد إلى الميناء. لكنّ إدي لم يبحر ناحيته، بل اتجه شرقاً يقصد الساحل الطويل. ثم جدّف في زورق إلى الشاطئ. خبأ زجاجاته في شقٍّ بين الصخور دائماً ما استخدمه من أجل هذا الغرض، إلى أن يستطيع نقلها إلى مخبأ دائم أكثر أمناً لم يعثر عليه بعد. ثم عاد إلى القارب مُجدّناً. كان المدُّ يرتفع؛ عندما يحلّ النهار لن يوجد أثر لخطواته على الرمال. وعند الفجر قصد الميناء، يُبحر كأنه طاهر الذيل.

حدث هذا في فجر يوم سبت استطاع إدي خلاله أن يقرّر أين سيخبئ زجاجاته. ولا شك أن بساطة الفكرة التي لاحت في ذهنه أبهجتة.

في الليلة التالية لم يره أحد في الكنيسة الميثودية. كان من المُقرَّر أن يُلقَى ويزلي عِظَةً في كنيسة على بعد بضعة أميال وكان الشاطئ خاليًا. وضع إدي الزجاجات في الحوض الذي حفره من أجل بتي إيفانز -الحوض الذي رفع لوسي منه- وغطّاها بطبقة من الحصى. هكذا عندما يحلُّ الصباح لن يُرى سوى المياه الصافية.

لم يكن انخراط القبطان رودا في تهريب النبيذ أمرًا ذا بال. لم يتضمن مُهرِّبين يقطعون الجُروف، أو تبادل السباب والرصاص ليلاً، وما إلى ذلك. لم يكن عملاً، بل نزعة رجلٍ عاديٍّ إلى معاينة السلطات وكسب بعض المال في أثناء فعل ذلك. لكنه أدَّى إلى عواقب مؤسفة.

في اليوم التالي كانت السماء صحوًا والجو مشمسًا، حتى إن ويزلي لم يشعر أن حياة النُّسَّك التي يعيشها بهذا السوء. ولا حاجة إلى الشعور بالشفقة نحوه، فقد كان يميل إلى العزلة بطبعه. هكذا خرج في منتصف الصباح كي يملأ غلاّية من الحوض. هناك وقف ينصت إلى خرير الماء الخافت وسط الهدوء، ويشاهد الضوء يداعب صفحته. لفت انتباهه وميض أزرق وسط الأحجار البيضاء والصفراء. للحظات لم يلقِ بالاً للأمر، لكنه فجأة أدرك ماذا كان. لقد رآه كثيرًا. إنه قرط فيروزي من الأقراط التي اعتاد والده ارتداؤها. التقط عصا وحاول أن يرفعه من الماء، لكنه زاده غمرًا. ذهب إلى العُشّة، ارتدى الحذاء البحري الطويل، وشمّر عن ساعديه. ثم عاد إلى الحوض وخطا بداخله. أقحم يده في الماء يبحث بين الحصى حتى عثر على زجاجة. وسرعان ما أخرج الزجاجات جميعها، ومعها القرط الفيروزي.

لو استطاع أن ينظر إلى الأمر نظرة عقلانية لما وجد فيه ما يسيئه. لكن تفسيره لما رأى استحوذ على عقله. لقد ظن أن والده فعل ذلك انتقامًا منه بعد العِظَة التي ألقاها. لقد زرع دليلاً ملموسًا في مكان عيشه، ولا شك أنه سيخبر مأموري الضرائب سرًّا أين يمكنهم أن يجده. كان وحده تمامًا في العُشّة التي تطلُّ على البلدة يمضي يومًا عسيرًا. تدور في ذهنه جميع الأحداث التي بدأت بابتسامة لوسي إيفانز له في بورتيفن، ووصلت إلى تلك النهاية المريعة.

أفرغ معظم البراندي في خندق، لكنه أبقى زجاجتين دليلاً على اكتشافه. في تلك الليلة حملهما إلى كوخ إدي، وضعهما على عتبة بابه، تناول حجرة وحطّمهما. ثم وضع القرط بين شظايا الزجاج، وعاد إلى عُشّته راضياً، بلا شك، لأنه أجاد التعبير عن نظرتة إلى أحد الأشرار.

لكن إدي المسكين لم يكن شريراً، بل رجلاً طائشاً لم أعرف من هو أكثر منه تنميماً للكلام. على أن القطيعة أصبحت نهائية منذ ذلك الحين. ولم يصعد ويزلي إلى متن سالي جايلورد مجدداً قط.

3

بينما الشتاء يتقدّم كانت أشياء كثيرة في طريقها إلى النهاية، لكن تلك الحقيقة لم تكن قد اتضحت لنا بعد. في واحد من تلك الأيام شديدة البرودة، إذ الأشجار عارية والبحيرة رمادية كثيبة، سرنا مع ويلي إلى بورتيفن. لقد تضمنت نزهاتنا المفضلة السير إلى البلدة، ثم العودة عبر الجُروف إلى كوخ إدي رودا، ومنه إلى الغابة على امتداد البحيرة حتى المنزل. في ذلك اليوم امتلأت بورتيفن بأسمك البلشار المُتراصّة في أكوام من الملح على رصيف الميناء، تشبه تلال تخزين المحاصيل الجذرية التي تُرى في المزارع. كنت أنا وسالي على الجُرف عندما رفع المَوْجُّ عقيرته يخبر الصيادين باتجاه أسراب الأسماك. رأينا قوارب الصيد تبحر تجاه ملايين الأسماك، التي تُحدث قرقرتها اضطراباً في المياه يشبه أثر سفينة هائلة تقطع المحيط. ألقى الصيادون شباكهم، ثم رفعوها إلى السطح. وملأوا بصيدهم الدلاء والسُّلال حتى إن القوارب، عندما وصلت إلى الشاطئ، مالت حافتها تكاد تمسُّ المياه. واكتظّت بأعداد هائلة من الأسماك ذات الحراشيف التي نُقلت إلى الرصيف، حيث النساء والأطفال يعملون بهمة وسط زعيق النوارس، يراكمونها ويضعون الملح بين كل طبقة وأخرى. هكذا نتجت الأكوام التي رأيناها الآن. لقد غُطّيت تلك الأكوام بقشٍّ أُزيل بعدما حُفظت الأسماك في الملح، وسارعت الأيادي في تخزينها في السُّلال. كانت توجد صخور تشبه التي يدفعها لاعبو الكيرلنج

على الجليد، غُلِّقت إلى رافعات بواسطة حبال، كي تساهم في كَبْس الأسماك في السَّلال.

تسلَّلت الرياح الباردة القادمة من المحيط إلى حيث كُنَّا، لهذا لم تسمح لنا ويلي بالوقوف طويلاً. لكننا أطلنا الوقوف بما يكفي لنرى إدي رودا يعمل عند طرف أحد الأكوام وويلزي عند الطرف الآخر. لم تكن المصادفة هي ما فصل بينهما بالتأكيد، ولم ينظر أحدهما إلى الآخر. غنَّى النساء والرجال الترانيم وهم يعملون، وشاركهم ويزلي الغناء جاداً في عمله. أما رودي فصَدَحَ بتفاخر يلفت إليه الأنظار.

وقفنا نشاهدهم قليلاً، وعندما تأهبنا للرحيل هتف أحد الرجال بسالي قائلاً: «يا آنستي الصغيرة، هل أنتِ صاحبة اليوم؟».

ضحك البعض وعلا الاستهجان وجوه بعض آخر، ثم ساد الصمت. لقد نطق ذلك الرجل بالمسكوت عنه. لم تُوجَّه مثل كلماته إلينا من قبل، أو إلى إدي رودا بالطبع. لكنَّ الغضب استبدَّ بويلزي لا والده، كأنَّ الإساءة وُجِّهت إليه.

سار إلى منتصف صفِّ العاملين، ورفع ذقنه يتوعَّد المُسيء قائلاً: «لا يحق لك أن تتحدث إلى الأنسة بهذه الطريقة».

لا أعتقد أنَّ ذلك الرجل تعمَّد بقوله الإساءة إلينا، بل نطق بكلماته بعفويَّة مازحاً. لقد تفاجأ لأنها أخذتْ على محمل الإهانة. واشتد شعوره بالمفاجأة عندما رأى ويزلي لطيف الطبع يتحدَّاه كأنه أحد الملاكمين المحترفين. لقد برز فكُّ ويزلي أمامه بغتة فتحمَّست قبضته. ابتعد عدة خطوات ولكَّمه، ليسقط ويزلي على أكوام الأسماك المملَّحة. لم تكن اللكمة شديدة فلم يتأذَّ ويزلي، ونهض ليعود إلى مكانه في نهاية الكومة. لكن أثر ما حدث على القبطان رودا كان صاعقاً! لقد جمد في مكانه لحظات كأنه لا يصدق ما رآه. ثم اندفع نحو الرجل يهاجمه. أعمل قبضة يده في وجهه كأنها مطرقة، حتى تلتطَّخت كومة البشَّار الرمادية ببقع الدماء. لم يمنح إدي الرجل فرصة لالتقاط أنفاسه. وكان هجومه من السرعة والمفاجأة بحيث لم يستطع أحد أن يحول بينهما. ظلَّ يكيل له اللكمات حتى أصابني الغثيان جرَّاء رؤية وجه الرجل الدَّامي. تأوَّهت الأنسة ويل عالياً. أمسكت بيدينا وسارت بنا بعيداً. كنت

متوَعَكَّةٌ وعلى أتمَّ الاستعداد للرحيل، لكن سالي تملَّصت منها وركضت نحو موضع العراك.

بينما الجميع واقفون عاجزون أمام موجة العنف التي (كما يبدو لي الآن) انغمس فيها رودا تنفيسًا عن احتقاره لذاته، أمسكت سالي بطرف قميصه وصاحت تأمره: «رودا! توقف! توقف عن هذا الآن!».

وقد أطاعها. أخرجه صوتها من دوامة الجنون التي سحبته. سقطت يداها على جانبيه فبدت مفاصل أصابعه حمراء. نظر إليها، ثم مسحها في سترته. غادر الرجل الذي ضربه وعاد إيدي إلى موضعه في طرف الكومة. نظر إلى صفِّ العاملين حتى أبصر ابنه. سأله: «أنت بخير يا ويزلي؟».

لكن ويزلي لم يُجبه.

استأنف الجميع العمل، لكن بلا غناء. وبينما نبتعد مع ويلي في تلك الظهيرة ذات السماء الرمادية المكفهرة شعرنا بالتوتر خلفنا يضغط ظهورنا. كنت سعيدة بالمغادرة، والوصول إلى طريق الجُرف حيث قابلنا الرياح المنعشة، بعدما قطعْتُ أميالًا فوق المحيط ذي الأمواج المتلاطمة.

4

تركنا سالي وسلكت طريقًا متعرجًا يقود من الجُرف إلى الشاطئ. رأيناها في الأسفل تواكب خطواتنا، لكنها تحاذي المحيط. كانت الرياح جنوبية تزيد المدَّ ارتفاعًا. اندفعت الأمواج في تقَعُرات خضراء داكنة ذات قَمَم رمادية، عَلَتْ وتموَّجتْ، حتى سقطتْ تتكسَّر وتُدوِّي. لكن الرياح فصلتْ عنها قَمَمها الرمادية قبل سقوطها، ونثرتها رذاذًا على الشاطئ. غشي ذلك الستار الرمادي سالي. وركضت عبره مبتهجةً، مثلما تجري طيور زَمَار الرمل وهي تبحث عن طعامها على حافة بحر هائج.

بينما نقرب إلى كوخ رودا بلغ سمعنا هدير الأمواج على الحاجز الرملي وكأنه دويُّ المدافع. قطعنا الطريق القريب من الكوخ ركضًا يتشبث الهواء بثيابنا. هناك انضمت إلينا سالي، حيث وقفنا نشهد الاضطراب المهيّب،

والرياح المتواصلة تقطع أنفاسنا. من الأمام التصقت بنا ثيابنا وفي الخلف رفرفت. هكذا انحنينا أمام العاصفة مثل التماثيل التي تُنَحَّت في مُقَدِّم السفينة.

صاحت سالي وسط الصخب: «سيزداد الجو سوءًا».

رأيتُ أن من الكارثي حقًا أن يسوء الجو. لقد واصلتُ الأمواج تكسرها أمامنا ما جعل الأرض تهتز أسفل أقدامنا. وابتعدتُ هادئةً تسحب معها حصي يقعقع، لتمسك به الموجة التالية وتدفعه إلى الشاطئ. أمّا المحيط في عمقه فكان مُضْطَرَبًا مُتَمَوِّجًا كثيبًا، يعلوه زَبَدٌ وَحْدَه مع السماء ذات كِسْف الغيوم الرمادية الجارية. كان المساء يتقدم سريعًا. لم يُبَشِّر إلى غروب الشمس سوى شحوب ضارٍ ناحية الغرب. وانعطفت النوارس في تحليقها انعطافًا حادًا، تكاد تجعل الرياح مرئية.

تهلّل وجه سالي إذ قالت: «عندما تبدأ العاصفة فإنها عادة ما تستمر أربعة أيام. أليس هذا رائعًا؟».

في الناحية الشرقية حيث تنحدر الأرض شيئًا فشيئًا بعيدًا عن الحاجز الرملي كان الظلام قد حلّ. لم نعد نرى بداية الطريق حيث امتزج السواد بالرمادية. ومن هناك خرج أبي، كأنه يزيح ستارًا، على صهوة جواده بيتر الذي حمله في بالاكلافا. لقد أبهجه الجو، في ما بدا، مثلما أبهج سالي. تقدّم بسرعة كبيرة فوق الرمال المتينة. كان يعدو بفرسه ويدقُّ الأرض شديدًا. خفق قلبي الحالم بقوة عندما فكرت أنه، ومئات آخرين، قطعوا واديًا روسيًا يضيق اتساعه تحت وابل من النيران. سمعتُ هدير الأمواج كأنه قذائف المدافع، وتصورتُ السماء المُلبَّدة بالغيوم غبارًا أثارته المعركة. عندما مرَّ بنا صاح عاليًا. سمعنا صرير العنان ولهاث الفرس، ورأينا ذيله يرفرف. ثم أبطأ أبي سرعته عائدًا، مرَّ بنا مجددًا في صمت، ثم وجّه بيتر نحو المحيط. قفزت سالي حماسًا، وهتفت قائلة: «شاهدا ما سيحدث! إنه رائع!».

قالت ويلي: «لا يمكنه أن يخوض المحيط!».

- بل سيخوضه مثلما يفعل كثيرًا. فهو يروقه الشعور بأن بيتر سيفعل أي شيء من أجله.

خاض الفرس المياه خَبَبًا يطوِّح برأسه إلى أعلى وأسفل، وهو يقتحم الرياح التي عبثت بعُرفه. بدا ذيله خاتمةً بديعةً لخطِّ عنقه وظهره، إذ ارتفع كأن الرياح تسحبه. مالت أذناه المنتصبان إلى الأمام تيقُّظًا، ونقلت الرياح إلى مسامعنا زفير منخاريه المُتسعين. في تلك البقعة الرحبة المنعزلة تبدَّى رابط جوهريٌّ عميق، إذ مال أبي نحو عنق الفرس الرمادي يهدِّئه ويهمس في أذنه، ليتقدَّم بيتر نحو المحيط الهائج. لقد غابت الشمس عن الطبيعة حولنا. زالت الخُصرة الداكنة عن تقعُّرات الأمواج التي تخضبت بالأسود. أما قِممها البيضاء ذات المسحة الرمادية فطرحت بنفسها على الحاجز الرملي قانطةً.

تمكنت أنا وويلي من التقاط أنفاسنا أخيرًا عندما استقرت قدما بيتر الرشيقتان في المياه. سرعان ما أصبح وسط الأمواج، ولم أفهم كيف استطاع الصمود في وجه تلاطمها. بدا الأمر كأن المحيط الأطلسي كله يضطرب غضبًا من جسارته، لهذا دفع بأواجه نحو الشاطئ في صفوف متتابعة كي تعيد ذلك الدخيل الضئيل إلى مكانه. دبَّ الذعر في أوصالي إذ التحم الفرس بالمحيط، وشكَّلت أمواجه الهائلة أوديةً يختفي فيها الفرس وفارسه تارةً وأخرى.

مرَّ بنا رجل تبَيَّنَتْ أنه القبطان رودا. ركض نحو حافة المياه يقف وسط حطام الأمواج المتكسرة ويتطلع إلى المحيط. لم يكن بوسعه فعل شيء، لكن وجوده هناك طمأنني. كنت واثقة أنه إذا رأى أبي والفرس، اللذين صارا واحدًا، يسقطان فسيقذف بنفسه وسط الأمواج يحاول شقَّ طريق إليهما رغم أن محاولاته قد تكون يائسة، ولا أزال على ثقتي تلك. لكن الحال لم يستدعِ جهده، لأن الرجل وفرسه عادا ظافرين مُذهلين. لقد اعتليا قمةً موجة، وعندئذٍ استطعت رؤية رأس بيتر لا عَجْزه. غمرنا الارتياح فركضنا تجاه القبطان رودا حيث رذاذ الأمواج الغزير، غافلاتٍ عن الاضطراب حولنا.

كان أبي وفرسه يلهتان لهائًا شديدًا عندما صاح القبطان رودا قائلاً: «لقد فقدت عقلك يا بيرندج!».

أجابه أبي ضاحكًا: «الآن يجب العودة إلى المنزل وتناول شراب دافئ». ثم مال إلى الأسفل ورفع سالي ليجلسها على السرج أمامه وابتعد بالفرس. غادر رودا أيضًا دون أن يودَّعنا. وبينما أُمسك بيد ويلي نتبعهم شعرت بكآبة

مثل التي انتابتني في واحد من صباحات مايو، عندما تركنا أبي في «هايد بارك»، ورحل يقود عربته ذات الخيول الأربعة.

كنا نسير في الغابة المظلمة عندما حدثت نفسي بعقلانية قائلة: «طبعاً سيصطحب سالي. لِمَ قد يصطحبك؟».

لكنني، رغم ذلك، تمنيت لو أنه قد اصطحبني معه.

5

كانت سالي محقة، لقد ازداد الجو سوءاً. وللمرة الأولى في حياتي أدركت مدى قوة الرياح والماء. ظلَّت القوارب عالقةً في ميناء بورْتِفِن. هناك كادت الحياة تتوقف، كأن الشيطان نزل بالمنطقة يعيث فيها فساداً، ولا يمكن فعل شيء حتى يقرر الرحيل. حتى في منزل تريسانت رغم الجُرف والغابة اللذين يفصلانه عن المحيط فقد أفرعتني الرياح. كانت تعوي فوق الأسطح كأنها غاضبة لأنها لا تستطيع الوصول إلينا. وسقطت بعض الأشجار في الغابة. ظللتُ مستلقيّة في الفراش تبلغ سمعي الجلبة الضارية في الخارج، وتخلَّلها من حين إلى آخر تغريد الكراوين. دائماً ما بدا لي تغريدها الصوت الأكثر أثيرةً في الطبيعة. كان عذباً وحزيناً وقاسياً، كأنه نواح الوحدة. ورغم أنني كنت طفلة حينئذٍ فقد أثار بداخلي رؤى مُبهمةً مُزعجة عن عالم طُويت فيه صفحة البشرية، تتلاطم أمواج البحر على شواطئه المهجورة؛ شواطئ تخلو من آثار الأقدام، إذ يومض القمر المُحتضر وتنوح الكراوين.

بالكاد استطعت النوم خلال ليالي العاصفة. وحتى اليوم، مهما بعدتُ عن البحار والمحيطات، فإن هدير الرياح هو الشيء الوحيد الذي يبقيني مستيقظةً في الليل. ومثلما اقتحم بيتر الأمواج تقتحم مخيلتي الرياح حتى تصل إلى منشئها فوق التلال والأمواج المضطربة. تذهب إلى المحيط حيث تبحر القوارب التي يقودها رجال علقوا في قلب العاصفة بعيداً عن اليابسة، وتَجهدُ أعينهم التي أمضُها الرذاذ المالح عندما تطرف في كسل. إنَّ من يعيش بالقرب من البحار، ومن كان له أعزّاء يركبونها، لا يستطيع أن ينعم بالراحة عندما تهيج الرياح ويرتفع المدُّ.

أدركت أُمِّي الأثر الذي يتركه الطقس بي. وفي إحدى الليالي جاءت إلى غرفتي ترتدي لباس النوم وتحمل مصباحًا. أغلقت الباب بهدوء، وضعت المصباح على الطاولة، وجلست على حافة سريري. كم سعدت بمجيئها في تلك الليلة، مثل الأمسيات في عهد ميرسي كايت، عندما كانت تأتي إلى غرفتي متأهبةً لأمسية كبرى كي تتمنى لي ليلة سعيدة.

وضعت يدها على جبھتي وقالت: «أنتِ دافئة يا عزيزتي. ألا تستطيعين النوم؟».

أمسكت بيدها وقرَّبْتُها إلى صدري. قلت: «أجل، لا أستطيع النوم وسط هذه الجلبة. لكن عندما تنقضي فسأسقط في نوم عميق، ليلة تلو أخرى».

القمنا الصمت بضع لحظات، إذ الرياح تزعق في الخارج. حتى هنا ارتجتِ النوافذ مثل أسنان تصطكُ في فمٍ أخذ أحدهم بخناق صاحبه ويهزه.

أخذت تمسّد يدي، ثم سألتني فجأة: «هل أنتِ سعيدة؟».

هتفت: «إن سعادتي واضحة، كيف تشكين في ذلك؟!».

- أشعر أنني مذنبه. لقد قلبت حياتك رأسًا على عقب، أليس كذلك؟ إن المرء دائمًا ما يسعى خلف سعادته ويغفل عن سعادة الآخرين.

كانت، في ما بدا، تُحدّث نفسها بقدر ما كانت تتحدّث إليّ.

قلت: «أنا أكثر سعادة في تريسانت من أي مكان آخر في العالم».

ابتسمت وقالت: «ما الذي تعرفينه عن العالم يا صغيرتي العزيزة؟».

- لا أعلم ماذا يوجد في العالم ولا أبالي به. لكنني أعلم أن ليس ممكنًا أن أكون أكثر سعادة مما أنا عليه الآن.

لحظتُ، في ضوء المصباح الذي ينير وجهها، أنها أكثر سكينه ورضا مما رأيتهَا في أي وقت مضى.

قالت: «ألن تصبحي أكثر سعادة إن حظيتِ بأخ؟».

- سأبذل قصارى جهدي كي أصبح أكثر سعادة. لكن هذا قد يكون صعبًا.

- أنتِ طفلة فريدة يا سارا. وأريدك أن تعلمي أنك ستحظين بأخ قريبًا جدًّا.

- سيصبح نصف أخ لي ونصف أخ لسالي.

كان أبي قد دخل الغرفة قبل برهة وسمع المقطع الأخير من المحادثة، فقال مازحًا: «سيكون هذا رائعًا. عندما يقف بينكما سيصبح أخوكما كاملاً. (ثم مسد شعري أُمي وأُضاف) أنتِ واثقة أنه صبي، أليس كذلك؟».

- بلى، لا يراودني أي شك حول هذا الأمر.

- حسنًا، إذن سنسمّيه جاستن. الآن هيا إلى الفراش.

- بعد قليل. سأحاول أن أُعين سارا على النوم.

قَبْلَ أبي كلتينا وغادر الغرفة. أمّا أُمي فجلست بعض الوقت تمرر كفها على جبھتي، تداعب يدي، وتدندن لي أغنية. لم تفعل شيئًا كهذا من أجلي قط. وقد طمأنني فغلبنِي النوم.

عندما استيقظت كانت الرياح قد توقفت عن العواء. وعمّ الريف السكون كأنه يتعافى من الحمى.

6

لكن تلك الهدأة لم تدم طويلًا. لقد استيقظتُ صباح يوم الأحد لأجد العالم ساكنًا. في منتصف الأسبوع نفسه بدأت الرياح تهبُّ هبوبًا متقطّعا. وفي نهاية الأسبوع عاد الجنون المحموم من جديد. كانت أيام الهدنة قليلة لكنها لطيفة. اقتصر اضطراب الجو على المحيط، هكذا ظلَّ هائجًا مائجًا. لكن البحيرة استقرت، وانعكست على صفحتها سماء الشتاء ذات الزرقة الشاحبة. أمّا في الغابة فقد ساد الصمت. أصبحت الأشجار الكبيرة عارية، لكنها ظلَّت تؤوي عديدًا من الكائنات الحية. تلوّنت جذوعها بالحزاز الأخضر والأحمر والأصفر. وفي الزوايا بين مواضع تشعُّب الأغصان والجذوع نبتت السراخس ذات الحافّة المنشاريّة. ووجد بعضها جذورًا في الأغصان نفسها، لتنتب على طولها تغطّيها كأنها ريشات. التفّ اللبلاب حول الأشجار يتّخذ أنساقًا بديعة. تخللت أشعة الشمس الغابة، فأنارت أرضها البرتقالية حيث أوراق السراخس الذابلة. التمعت جذوع الزّان الرمادية، وجذوع البتولا البيضاء، وجذوع

الأشجار الصنوبرية الحمراء التي تشبه جلد قاطورٍ من عصر ما قبل التاريخ. ورغم أننا في ديسمبر فقد عثرنا على بعض من زهور البنفسج هنا وهناك. ونثرت زهور رقيب الشمس الشتوية عطرها في الهواء.

لم تهمد الغابة قط. دائماً ما تبدّت بها دلائل دوران عجلة الحياة بقوة. وعلى أشجار البندق ظهرت بالفعل العناقيد الزهرية، التي سرعان ما ستتأرجح في الهواء مُوشّاةً بحبوب اللقاح.

في طريق الغابة سرنا. اجتزنا كوخ رودا الذي واجه العاصفة، مثلما واجه كثيراً قبلها، مكشوفاً لا تحميه شجيرة أو غصن. لا شك أنه هناك في الأعلى، حيث يقوم على جُرف يعلو المحيط، قد تلقى ضربات شديدة عدّة. لكنه بدا حصناً صغيراً، جزءاً من صخور الجُرف نفسه، قاتماً ومنيعاً. زارت سالي السيدة رودا زيارة رسمية كي تطمئن على أحوال العائلة، إذ طالما كانت حريصة على أداء هذه الواجبات. لم يكن إدي في المنزل. قالت السيدة رودا إنه ذهب إلى بورتيفن لتصليح سقف عُشة ويزلي الذي انتزعته العاصفة.

واصل ثلاثتنا السير معاً لأنني وسالي، منذ واقعة البراندي، لم يعد من المسموح لنا الخروج دون ويلي. عندما وصلنا إلى عُشة ويزلي وجدنا عدداً من الجيران قد أتوا للمساعدة. لا شك أنه مرّ بوقت عصيب لأن السقف انتزع في بداية العاصفة. لكن الفتى العنيد ظل مائتاً في العُشة يحمي بإحدى الزوايا المغطاة بالقماش المُشَمَّع، لا يستطيع النوم، ويرى أغراضه غارقة في الأمطار. عندما وصلنا إلى هناك بدا شاحباً ومرهقاً، لكن عُشته استعادت ترتيبها. كان ويزلي محبوباً، لهذا زاره الجيران حاملين معهم الألواح الخشبية، ومنشاراً وبعض المسامير، وأغراضاً أخرى من أجل تصليح مأواه. وقف الرجال في ضوء الظهيرة الواهن يتحدثون عن العاصفة، وعن الأسطح وأنابيب المداخل التي تحطمت، والنوافذ التي تهشمت في بورتيفن.

تنبأ رجل مُسن قائلاً: «ستعود العاصفة مرة أخرى. فهي لم تنقُص بعد». لقد اتفقوا جميعاً على هذا الرأي. وسمعتُ تمنياتهم بألا تنخدع السفن بتلك الهدأة.

قال المُسن: «سنواجه وقتاً عصيباً إن اضطررنا إلى الذهاب خلفها».

أخبرتني سالي أنه أحد أفراد طاقم الإنقاذ. لم يكن من السهل تصديقها لأن الرجل بدا شيخًا وقورًا، لا يقوى على فعل شيء سوى حمل غليون والجلوس بجوار المدفأة.

سرعان ما غادر الجيران ولم يتبق سوى إدي رودا ويزلي. كان إدي فوق السطح واقفًا على سُلَّم قصير يشغل نفسه بعملٍ ما، رغم أن الآن بدا واضحًا أن لا شيء آخر يمكن فعله. نظر رودا إليه دون أن يقول كلمة، ثم دخل العُشَّة. ألقينا نظرة نحو الداخل فوجدنا نيران مدفآت موقدة بالفعل. لقد تسلل بعض الدفء إلى المكان رغم أنه لا يزال رطبًا. ملأ ويزلي الغلاية ودعانا لتناول الشاي. فوق رؤوسنا دقت المطرقة دقًا بطيئًا، حزينًا، لا حاجة إليه. نظرت سالي إلى الأعلى، وتبع ويزلي اتجاه بصرها لينظر إلى الأعلى بدوره. فرفعت أنا وويلي بصرنا تلقائيًا. كنا جميعًا، في ما يبدو، ننظر من خلال الألواح الخشبية إلى الرجل على السطح.

قالت سالي: «سنبقى إن طلبت من القبطان رودا البقاء».

تجهَّم ويزلي واستدار نحو المدفأة، يواجهنا ظهره العنيد دون أن يقول كلمة. أسند ذراعه إلى رفِّها، الذي أعده إدي رودا من أجل بتي إيفانز. أراح وجهه على ذراعه، وركلت قدمه حطبةً في كآبة.

هكذا خرجنا من العُشَّة في هدوء. كان إدي رودا قد هبط من السطح يحمل على كتفه سُلَّمًا، يتجه إلى بورْتِيفِن وطريق الجُرف حتى كوخه. شاهدناه يبتعد للحظات، ثم انطلقنا في الاتجاه الآخر نعود إلى المنزل.

7

شابة الألق الشتوي في الغابة ابتسامة تعقّل عذبة بين نوبتين من الجنون المُستعِر. في ليلة الخميس بينما أنا في فراشي انتبهت إلى دويّ الرياح المُتقطّع. وفي الصباح كانت تهبُّ بثبات. أتى الطبيب كيرنو على صهوة فرسه كي يفحص أمي، وسمعتة يتناقش مع أبي حول الجو ويتنبأ بهبوب العاصفة.

قال أبي: «سأكون في بورتيفن وسأعود الليلة إن دعت الحاجة إلى وجودي».

- أنا لا أحب ذلك. يجدر بك البقاء هنا حيث قد تدعو الحاجة إلى وجودك.

أجابه أبي بحدة: «هل تنتقد قراري؟».

- لا، بل أقول رأيي من قبيل الحذر ليس إلا.

- هذا الأمر يتعلق بفريق الإنقاذ كله. من حسن حظ من يتورطون وسط المحيط أننا لسنا بجماعة حذرة.

- إن أبحر القارب اليوم فلن تخرج معه ما دمت أستطيع منعك. (ثم امتطى فرسه وأضاف) لنأمل ألا يُضطر أحد إلى الإبحار. إن الجو سيئ ويزداد سوءًا بمرور الوقت. ستكون الليلة عاصية.

في ذلك اليوم غابت الشمس سريعًا. بحلول الساعة الرابعة كان الظلام قد حلَّ، واشتدت الرياح لتصبح عاصفة. عاد أحد الخدم من بورتيفن بخبر يفيد بأن سفينة شراعية شوهدت في عمق المحيط. كانت تبحر مائلة في مواجهة الرياح الجنوبية الغربية ومن الواضح أنها في مأزق. فتأهب فريق الإنقاذ للإبحار. خرج أبي فتبعناه أنا وسالي إلى الإصطبلات. كانت مثل «الخُن» كما يقول أهل كورنوال، هذا يعني أنها ملاذ دافئ. هناك لم يسهل تصور أن الجانب الآخر من التلّ تضربه العاصفة. كانت المصابيح مضاءة فشاع الدفء. انتشرت رائحة الخيول وصوت حركتهم الكسول يبتأن الاطمئنان. وأينا سائسًا يعمل بِمَحَسَّة تنظيف الخيول.

قال أبي: «ضع السرج على بيتر».

ثم انتعل الحذاء البحري الطويل وارتدى المعطف المُشْمَع واعتمر قبعة مُشْمَعَة. بعدما لبس زيَّ ركوب الخيل غير المعتاد ذاك غادر الإصطبلات، امتطى بيتر الأكبر، وانطلق به. في ذلك الوقت كانت الساعة السادسة، وشرع المطر في الهطول بغزارة.

بينما نحن سائرتان في طريق العودة إلى المنزل رأينا على يميننا وميضًا يتمايل قريبًا من الأرض. يعني هذا أن أحدهم قادم من الطريق المؤدي إلى عُشَّة ويزلي ويحمل مصباحًا. انتظرنا لنرى من عساه أن يكون لنجد أنها ماجي قادمة برفقة لوسي إيفانز، التي تحمل ميرلن في ملحف يُلْفُه قماش

مُشَمَّع. عندما دخلنا المنزل رأينا في ضوء الشموع كم تبدو لوسي شاحبة ومرتاعة. ساد الاضطراب الأجواء إذ تنازعنا قلقان. أصبح الجميع يعلمون أن أبي غادر المنزل على صهوة فرسه بيتر دون حاجة إلى ذكر سبب غيابه. فكَرْنَا في السفينة الشراعية التي أصبحت تثير قلقنا جميعًا. وفي خيالنا استطعنا رؤيتها رغم أنها الآن لا تُرَى من الشاطئ لأن الظلام حالك. رأينا الرجال بداخلها يضرب المطر وجوههم، والسماء المكفهرّة تخنقهم. علا المحيط الذي أهاجته الرياح فوق رؤوسهم، تتكسر أمواجه على متن سفينتهم، وينصب ماؤه على جوانبها. لقد اهتممنا جميعًا لأننا نعلم أن في بورترِفِن يجتمع إدي رودا وويلزي واللورد بيرندج، والرجل المُسن الذي وقف يتحدث خارج عُشّة ويزلي، ومعهم آخرون. ينتظرون قرار القبطان رودا بأن وقت الإبحار قد حان.

شغلت تلك الأفكار بالنا ونحن جالسات في صالة المنزل حيث اشتعلت نيران المدفأة، وبدا ضوء الشموع الناعم شاذًا غريبًا. سمعنا العاصفة تزداد ضراوة، ويصدر عنها مختلف الأصوات المفزعة: صراخ وزمجرة، قَرْعُ ودُقْ، وعويل طويل مرتجف. بدا الأمر كأن الطبيعة قد استحوزت عليها كائنات متصارعة. بعضها قويٌّ وعدوانيٌّ وبعضها الآخر ضعيف ومُضطهد. لكنهم جميعًا يصيحون ويصرخون انتصارًا أو يأسًا. دفعت تلك الأحوال المضطربة ماجي إلى القدوم إلى المنزل برفقة الفتاة وطفلها. قالت إن لوسي إيفانز رأت أن الوضع قد يزداد سوءًا واستبد بها القلق. لهذا فكرت ماجي أن تحضر الفتاة إلى هنا حيث ستحظى برفقة تطمئنّها. وقد ذهبت لوسي إلى المطبخ الآن.

لم تنهض أُمي من سريرها في تلك الليلة وكان هذا مصدر قلقنا الثاني. لقد شعرنا أن السكون لا الاضطراب هو ما يجب أن يَسِمَ ذلك الوقت. الآن يجب أن نعيش لحظات من الترقُّب حتى نسمع بكاء رضيع وُلد حديثًا، بدلًا من ذلك الصخب المحموم الذي يوحى بأن في الهواء مدائن تُقَصَف بالقنابل وتتهدَّم فوقنا. في ذلك اليوم أتى الطبيب كيرنو إلى المنزل مرتين. لم يكن من المتوقع أن تلد أُمي يومئذٍ، لهذا لم يُوَّتْ بالأُم ترينويث التي ساعدت في مجيء سالي إلى هذا العالم ومعظم شباب بورترِفِن أيضًا. لكنني سمعت آراء تُبدى حول شؤم عدم إحضار تلك العجوز إلى المنزل.

في تلك الليلة ضلَّ هدوء البال طريقه إلينا. جلسنا في صالة البيت بعض الوقت، ثم صعد ثلاثتنا إلى غرفة جلوس في الطابق العلوي تشاركناها أنا وسالي. كانت صغيرة شحيحة الأثاث لكنها أعجبتنا، وأرضانا الآن دفئها إذ كانت نيران المدفأة موقدة. بذلنا قصارى جهدنا في التظاهر بأن تلك الليلة لا تختلف عن غيرها. لقد سافرت ويلي مؤخرًا إلى لندن لأنها كتبت رواية كاملة، وهو إنجاز بدا لنا نحن الطفلتين معجزةً. لقد أرسلتها إلى السيد ديكنز، الذي أبدى رغبته في مقابلتها كي يناقش الكتاب معها، وأخبرها بأنه سينشره في مجلته عاجلاً. هكذا جلسنا فيما العاصفة تزار، لا ضوء حولنا سوى النيران المرتعشة تنير تنورة ماجي، إذ تجلس في مقعد غرفتنا المريح الوحيد، ونحن على الأرض بالقرب من قدميها. أخبرتنا أن السيد ديكنز دعاها إلى العشاء. حكّت لنا عن تلك المناسبة المبهجة والمشاهير الذين حضروها. وصفت لنا الشموع التي تبرز من ورود اصطناعية، وأخبرتنا أن الأجواء سادها شعورٌ عامٌ وصفته قائلة: «أبغضُ أن أقول هذا يا عزيزتي، لكنني لا أستطيع سوى أن أدعوه شعورًا عامًا ببعض الابتذال. وأنا سعيدة بعودتي».

في الغرفة الصغيرة بدا أننا في منأى عمّا يحدث. حاولنا أن نصرف اهتمامنا إلى حكايات ويلي، وحاولت ويلي أن تثير حماسنا. لكنها لم تستطع أن تبدد سطوة الواقع. تلعثمت في كلماتها عندما ارتفعت صرخة ملأت الأرجاء. أعقبها صمت وجيز تلاه دق على باب المنزل الرئيس. هبّت كل منا واقفةً وركضنا معًا إلى الطابق السفلي. تلهّفنا إلى سماع أي خبر حول ما يحدث في بورتفن، حيث تصارع السفينة الشراعية للنجاة، لا الحديث عن الورد الاصطناعية في عشاء السيد ديكنز. وربما سنحصل عليها الآن.

8

في ذلك الوقت كانت توجد دعامة مُثبتة إلى الجدار الخارجي فوق باب تريسانت الرئيس، تحمل هيكلاً زجاجياً بداخله مصباح زيت لم يكن ضوءه كافياً قط. وفي تلك الليلة، بينما نحن واقفات عند مدخل الباب المفتوح، شوّش المصباح المنظر أمامنا بدلاً من أن يساعدنا على رؤيته. لقد عبثت الرياح

بشعلته. وعمّقت أوراقُ الياسمين التي نمت حول الباب الظلمةَ عند مدخله. أمامنا سقطت ومضات الضوء الأسيرة على خاصرة فرس الطبيب كيرنو، وأسلاك عجلات عربته التي تتألق في المطر. شكّل مصباحاً العربية الأماميان مخروطين من الضوء، رأينا من خلالهما قطرات المطر تهطل لامعة. ثم نثرت هبةَ ريح الرذاذ في وجوهنا. هكذا بدأنا نختبر بعضَ ما يدور خارج المنزل.

ساعد الطبيب كيرنو أحدهم في النزول من العربية، ثم وقفا على الأرض المفروشة بالحصى. ارتدى كلاهما معطفاً وحرّملة ذات غطاء للرأس، وتقطّع سقوط الضوء على جسديهما المضطربين وسط الرياح والمطر. أتى سائس طلب منه الطبيب كيرنو أن يتولى أمر العربية والفرس. ثم تفضّل هو والسيدة ترينويث بدخول المنزل. وأغلّقنا الباب وراءهما بامتنان.

اصطحب الخدم السيدة ترينويث إلى المطبخ فيما الطبيب كيرنو يخلع ملّحفه. سألته ويلي إن كان يودُّ فحص حضرة الليدي. فقال إن لا حاجة إلى ذلك الآن. لقد جاء تحسباً لأي طارئ. ومن المحتمل أن يبقى طوال الليل.

سرّنا حضوره. كان بمنزلة قوة دعم وصلت إلى موقع عسكريٍّ مُحاصر. قُدناه إلى غرفتنا الصغيرة مبتهجات. جلب الخدم الشطائر إلى الأعلى، مع النبيذ من أجله وويلي والشاي لي ولسالي. أجلسناه في مقعدنا المريح واجتمعنا على الأرض حوله.

سألته ويلي: «أين حضرة اللورد؟».

- لا أعلم. لقد وعدني ألا يبحر مع قارب الإنقاذ. لكنه قد يقرّر فعل ما يجعله يخلف وعده.

قال إنَّ قارب الإنقاذ لم يكن قد أبحر عندما غادر بورتيفن، وإنَّ بعض المفرقات قد أُطلقت من السفينة الشراعية. هكذا علم الطاقم أنها تتدفع رغماً عنها نحو الشاطئ. لا شك أن السفينة الشراعية ستضع مراسيها عندما يحين الوقت، لكنها على الأرجح لن تثبت في هذا الجو. وإن تمكنت من بلوغ الشاطئ فإن موضع وصولها، وفقاً لحسابات إدي رودا، سيكون على الحاجز الرملي. لكنَّ إدي لن يجلس في انتظاره. سيأمر بخروج قارب الإنقاذ للإبحار عندما تصبح السفينة الشراعية قريبة بما يكفي. ربما يكون قد أطلق أمره بالفعل.

كانت الساعة الآن الثامنة. انتابني الشعور بأن أحدهم يوسعني ضرباً منذ ساعات. أصبح هدير الرياح فوق المنزل رتيباً، كأن قطاراً بلا نهاية يندفع عبر الهواء. سمعنا شجرة دردار خارج نافذة غرفتنا تَخِيط بأغصانها، ويصدر عنها صريراً كأن قوة هائلة تحاول اقتلاع جذورها من الأرض. سألت الطبيب إن كانت العاصفة قد بلغت ذروتها فقال إنه لا يظن ذلك.

خاطب ويلي قائلاً: «توجد فكرة تدور في ذهني. إن أبحر قارب الإنقاذ فقد يزول الخلاف بين القبطان رودا وابنه. سيجدان أنهما في القارب نفسه مرة أخرى وقد يتعقلان».

- هل رأيتهما الليلة؟

- أجل، إنهما مع البقية. يدعو الأب أن يوجد ابنه عليه بنظرة تُقرُّ بوجوده. أمّا الابن فيدعو ألا يقع في إغواء السير في طريق أبيه. ربما سيلقن الربُّ ويزلي درساً حول إدانة المذنبين قبل أن تنتهي تلك الليلة.

تحدثنا قرابة ساعة. ثم قال الطبيب كيرنو إنه يؤدُّ فحص حضرة الليدي وغادر برفقة ماجي. حالما تركا الغرفة دَوَّت صيحة طويلة مروعة. جمدت أنا وسالي في موضعنا وتبادلنا نظرات مرتعبة. لم يكن هذا سوى صوت الرياح، لكنها تهدر في أجواء مُضطربة جعلتنا نشعر بالضآلة والوحدة.

قالت سالي: «سأخرج. لم أعد أستطيع احتمال هذا الوضع. سأغادر المنزل وسأذهب إلى الحاجز الرملي. يجب أن أدري بما يحدث. هل ستأتين؟».

- أجل.

عندما عادت ماجي قالت إن أمي قلقة، تزعجها الرياح، وحرارتها مرتفعة قليلاً. سألت عن أبي فبذل الطبيب كيرنو جهداً كبيراً في طمأننتها عليه، وأكد لها أنه لن يبحر مع قارب الإنقاذ. لكنه لو صدق في ما قال لما أذنت لنا ماجي بمغادرة المنزل. لقد قالت على الفور إنها ستأتي معنا كي نحاول إقناع أبي بالعودة إلى المنزل.

مكتبة

t.me/soramnqraa

في الخارج ساد ظلام دامس. لكننا حفظنا خارطة الطريق عن ظهر قلب، حتى إننا استطعنا أن نقطعه معصوبات الأعين. على أن المصباح الذي أحضرته ويلي أثبت نفعه. عندما دخلنا الغابة وجدنا حطام العاصفة متناثرًا على الطريق، ومن حين إلى آخر أعاقنا الأغصان المحطمة طريقنا. على يسارنا تعاظم انحدار الأرض التي تقود إلى البحيرة وتعطل تقدمنا أكثر من أي وقت مضى. من حسن الحظ كانت الأمطار قد توقفت، لكن الرياح اندفعت تتخلل الأشجار فأنزلت زخاتها فوق رؤوسنا.

حتى الآن لم نكن قد سمعنا سوى جلبة الرياح التي تتباين أصواتها ووقع الأمطار العنيف. ورغم أننا لم نتعمق في الغابة بعد فإن صوتًا مختلفًا يندر بالشؤم بلغ سمعنا، صدر عن منبع الخطر وسبب القلق. كنا نقرب إلى مشهد مهيب كل ما عداه أثر له؛ لقد زمجر المحيط.

وقفنا بجوار كوخ إدي رودا ينير ضوء المصباح الخافت الحصى عند أقدامنا، نتطلع إلى فوضى الرياح والمياه. امتد المحيط جنوبًا وشرقًا وغربًا. كنا لنراه يملأ المدى لو وُجد شعاع من الضوء حولنا. ورغم الظلام فقد تعاظم شعورنا بأن قوة تدميرية هائلة تحرق بنا. أحاطتنا ويلي بذراعيها عندما استندنا -بالأحرى التصقنا- إلى السور الواطئ الذي يفصل الكوخ عن طريق الجرف، نحاول النظر عبر الزبد الذي تعصف به الرياح حولنا. غشيت سفح الجرف عتمة لا يظهر فيها سوى اعتلاج الأمواج الرمادية. ظلّت تلك الرمادية تبتهت في طريقها إلى الشاطئ حتى اختفت. لكن المخيلة بدأت العمل حيث توقفت الرؤية، وتصورت تموجًا لا يهدأ. استطاعت الرياح أن تُرهب عقولنا ونحن داخل أسوار تريسانت، لكنها هنا أصبحت حقيقة مادية أذهلتنا سورتها. سأشهد عواصف كثيرة تضرب ذلك الساحل على مرّ الأعوام، لكن أيًا منها لن تشبه ما حدث في تلك الليلة. ولن أنسى أبدًا عزف الرياح يتخلله صخب تكسر الأمواج على الحاجز الرملي بانتظام مهيب.

لم نكن وحدنا. لقد جاء الأهالي سيرًا عبر الجرف بعدما علموا برأي رودا القائل إن السفينة الشراعية إذا بلغت الشاطئ فستصل إلى تلك الدوامة تحتنا.

هناك وقفوا في جماعات قلقية من الرجال والنساء ورافقهم بعض الأطفال أيضاً. مرّ بنا بعض الرجال يقطعون الطريق الذي انحدر أسفل أقدامنا إلى الحاجز الرملي. تبعهم آخرون بدافع من ميل البشر إلى الاقتراب قدر الممكن من الكارثة، سواء أكان لتقديم يد العون أم المشاهدة في دهشة. وسرعان ما سلك الطريق نفسه جميع من اضطرب سيرهم وسط الرياح. صاح بعض الرجال الذين مرّوا بنا مُسرّعين يقولون إن قارب الإنقاذ قد أبحر من بورتيغن. في اللحظة نفسها أُطلّقت إشارة ضوئية أخمدت الرياح وميضها، الذي لمع وجيزاً يدلّنا على موقع السفينة الشراعية. كانت قريبة إلى الشاطئ، لكنها اختفت حالما خبا الضوء. على أن ذلك الوميض الذي لمع وسط الظلام كشف لي عن منظر حبس أنفاسي. لقد أراني رجلاً يُلَوّح بمشعله وسط الاضطراب. شعرت بقبضة ماجي تشتدّ على خاصرتي وسمعت شهقتها.

قالت سالي: «لقد تحطم صاري السفينة الرئيس!».

خلفنا كانت مصابيح كوخ رودا موقدة، يضيء نورها جميع نوافذه التي تواجه المحيط. لقد حدا الأمل اليائس السيدة رودا إلى فعل ذلك، لعلّ المنزل يصبح منارة تشدّ عزم الرجال الذين يخوضون الأمواج. وتنير طريق الأهالي الذين يعودون الآن من الحاجز الرملي، ويمزقون الجولق الذي نما على الجرف كي يشعلوا به النيران. صاح أحد الرجال قائلاً إن حطام الزوارق والقوارب، الذي كنت أراه من حين إلى آخر على الشاطئ صيفاً، سيمدّ النيران بوقود مستمر حال أن تشتعل. شاهدنا الجولق يحترق مُفرّقاً، وانتشرت النيران في الأرض يرتفع لهبها ويتطاير شررها كأنه رذاذ ناريّ. استشرت النيران حتى شابها مشعلٌ ضخماً يُخَضّب الأجواء بضوء أحمر فرأينا الأهالي على الحاجز الرملي. لقد وَسَمَتهم الضالّة وقلة الحيلة والإحباط. ولجؤوا، في ما بدا، إلى أي إلهاء يبذد شعورهم باليأس.

هتفت سالي وسط الرياح تقول إنّ علينا دخول الكوخ كي نرى ما يحدث بداخله. هناك وجدنا بضع نساء برفقة السيدة رودا أتين من بورتيغن. كُنّ مثل رجالهن يعلمن ما يجب فعله في ليالٍ كذلك. كان كوخ رودا المنزل الوحيد القريب من الموضع الذي قد تصل إليه السفينة الشراعية إن تمكنت من ذلك. وهناك سيكون عليهن رعاية الرجال إن ابتسم الحظ وعاد من يجب العناية

به. أحضرت النساء الدُّثْرُ وفعلن كل ما يمكن ليسود الكوخ الدفء. كانت المصابيح موقدة في جميع الغرف. تذكرتُ قَتامة الصالون الوقور حيث جلسنا في المرة الوحيدة التي زرت فيها ذلك المنزل، لكنه اختلف الآن في وجود الضوء. وضعت النساء الدُّثْرُ على البساط أمام المدفأة كي تدفأ. وعلى رفِّ المدفأة رأيت الأحجار تسخن كي تُنْقَلْ إلى أُسْرَةٍ أعددناها ارتجالاً. لقد احتوى كوخ رودا على سريرين فقط، لكن بعض تلك الأسرة المرتجلة افترش أرض الغرفة الآن. في المطبخ كان الماء يغلي في المراجل، وعلى الطاولات وُضعت زجاجات البراندي والأكواب. تفحصت سالي تلك الترتيبات بجديّة الكبار التي تبديها عند الاقتضاء، لكنها لم تقل شيئاً. لم يوجد ما يُقال. لفَّ الصمت النساء وهن جالسات يستبد القلق بهن بعدما فعلن ما في وسعهن. لقد علمت في ما بعد أن لكل منهن زوجاً أو ابناً ضمن طاقم الإنقاذ. وعلى الرغم من أن تلك التجمعات عادةً لا تخلو من إبر الحياكة وإبريق شاي يفرغ ليمتلئ، فإننا تركناهن في مطبخ الكوخ غير عابئات براحتهن، تستند أيديهن إلى حجرهن، وينتظرن.

خرجنا مجدداً إلى العاصفة التي لا تهدأ. على الحاجز الرملي رأينا قلب النيران ذا الحُمرَة يتوهج بثبات، وازداد الجمع حولها عدداً. شاهدنا الرجال والنساء يقتربون إليها حاملين الوقود ملء أذرعهم، ويلقون به نحو شعلتها. ثم سمعنا وقع خطوات فرس يتقدم ببطء من ناحية بورتيفن.

رأيت أبي قادماً على صهوة فرسه من طريق مظلم تقطعه الرياح لم أكن لأجروُ على السير فيه في تلك الليلة. كان هذا في نظري دليلاً على قدراته الاستثنائية. لكنني لم أكن أعلم شيئاً عن الخيول، بخاصة ما يشبه منها بيتر الذي لاح أمامنا الآن. كم ابتهج قلبي لانضمام تلك الصحبة إلينا، ولأن أحد مخاوفنا التي لا نبوح بها قد تبدد. لقد انتابني الخوف طوال هذا الوقت من أن يكون أبي قد أخذ مكانه في قارب الإنقاذ.

لم أكن لأتفاجأ لو غضب عند رؤيتنا خارجاً في ليلة كتلك، أو أمر ويلي بإعادتنا إلى المنزل في الحال. لكن في وقت عصيب كذاك، حيث وجب عليه تقبُّل حدوث كثيرٍ من الأمور المريعة، لم يرَ في حضورنا كارثة. عندما ثبت بيتر في مكانه، لا يحرك سوى رأسه إلى أعلى وأسفل فينتج عنه صلصلة،

ويحك حافره في الحصى، كم بدت تلك الأصوات الخافتة سارّة ورصينة وسط عاصفة الجنون! في تلك اللحظة فاقت رائحة الفرس ورود يونيو جمالاً.

أخبرنا أبي أنه قاد فرسه ببطء على امتداد الجُرف يحاول أن يجاري قارب الإنقاذ، لكنه لا يعلم كيف أبلى. لقد ابتلعه الظلام.

قال: «إن وصل أفراد طاقم الإنقاذ إلى السفينة الشراعية فسيلزمهم العودة إلى الميناء في بورْتِفن. إنَّ الوصول بقارب إلى هنا في ظهيرة أحد أيام الصيف من الصعوبة بمكان. وفي هذه الظروف سيكون انتحاراً».

سألته ويلي: «إذن لِمَ تَعُدُّ النساء الأسرّة في كوخ القبطان رودا؟».

كنت أراه كتلة قاتمة إزاء الغيوم المتسارعة يحدّق إلى السماء قلقاً. أجابها بعد لحظات: «لأن أولئك النساء من الصحافة بحيث يتجهزن لوقوع الأسوأ. إن جرفت الأمواج الرجال إلى الشاطئ هنا فسيصبحون في وضع ميؤوس منه».

الآن ظننت أنها ستخبره بأن الطبيب في تريسانت، وأنه سيعود إلى المنزل وربما يصطحبنا معه. ووقعت في حيرة: لا أدري أيجب أن أسعد أم أسف على رحيلي عن تلك الليلة المُضنية الاستثنائية. لكن في تلك اللحظة أنارت إشارة ضوئية أخرى بُقعة نضال السفينة الشراعية. بدا واضحاً، حتى لعيني غير الخبيرتين، أنها أكثر قرباً إلى الشاطئ مما كانت عليه عندما رأيناها آخر مرة.

صاح أبي: «ربّاه! إنها في ورطة! لقد انتهى أمرها!».

ثم انطلق ببيتر إلى الطريق المُنحدر ليختفي باتجاه الحاجز الرملي.

ظللنا في موضعنا تُلزِمنا الرياح سور الكوخ. بعد قليل رأيناه على صهوة فرسه يتحرك وسط الأهالي المجتمعين حول النيران. بينما ننظر إلى المشهد من أعلى الجُرف بدا كأنه مخيمٌ جحيميٌّ مفزع.

الآن بدأت تلك الليلة تكشف عن عاقبتها الكارثية الكبرى. لقد أدركنا أن ما يحدث يقترب من ذروته، فاتبّعنا خطى الآخرين. قطعنا الطريق نفسه نشعر برمال الحاجز تهتز أسفل أقدامنا، فيما الأمواج تتقدم واحدة تلو الأخرى تدقّ الشاطئ كالمتطارق. كدنا نسقط ونحن نشق طريقنا وسط الرياح نقصد النيران. كان الأهالي مجتمّعين على جانبها القريب إلى المحيط، حيث أرسلت هبّات الرياح ألسنةً من اللهب وزخّاتٍ من الشرر تجاه البرّ. حينئذٍ كانت

النيران قد بلغت حجمًا هائلًا. وحالما انضممنا إلى الحشد أتى عدة رجال يحملون على أكتافهم قاربًا أخرجوه من الرمال حفراء، ورَمَوْه رمية رجل واحد في قلب النيران. بينما يغوص الهيكل وسط الجذوات تطاير الشرر. اشتعلت النيران في أضلعه الضامرة ليتألق وهجها الأزرق والبرتقالي وسط البقعة التي ماثلت موقع جنازة اسكندنافية.

بينما نحن واقفون نتطلع إلى ذلك المنظر الكئيب سمعنا أحدهم يهتف بنا من حافة المحيط. التفتنا جميعًا إلى مصدر الصوت فإذا الرجل الذي يتولى مهمة المراقبة، هناك وسط الزبد ورذاذ المطر، يأتي مترنحًا يحمل على كتفه ثقلًا. عندما وضعه أرضًا بالقرب من النيران المتأججة بدا خفيفًا هزيلًا. كان هذا هو الرجل المُسن الذي سمعناه يتحدث بجوار عُشَّة ويزلي في ضوء الشتاء. لكن الزُّرقة غزت وجهه الضامر، وكانت إحدى يديه تقبض على حفنة من الأعشاب البحرية.

ساد السكون والأهالي يحدِّقون إليه؛ سكونٌ بشريٌّ فحسب، واستمر الهدير والعويل والفرقة. وسط تلك الجلبة التزم الجميع الصمت أمام الجسد فاقد الروح، يشغل فكرهم الرجال الآخرون في القارب الذي أُلقت الأمواج الفقيد منه.

عندئذٍ بدأت الجنازة الاسكندنافية. عندئذٍ تأكدت أولى خسائر المعركة، إذ لم يوجد ما يمكن فعله من أجل الرجل.
قال أبي: «ارفعوه إلى الفرس».

رفع الرجال الجثمان ليضعوه على السرج، وانطلق أبي يقود بيتر. هكذا حصلت النساء في كوخ رودا على مُهمَّتهن الأولى، التي تتجاوز مدى مهارتهن ويتعذر على عاطفتهن احتمالها. ولم تكن تلك الواقعة سوى مُستهل كارثة الليلة.

عندما ابتعد الفرس يحمل جثمان الرجل المُسن التفتنا جميعًا إلى المحيط. هناك، في الموضع الذي توقَّعنا أن تصل إليه السفينة الشراعية، رأينا ضوءًا ذا دخان كثيف. لم يكن مشعلًا يُلَوِّح به أحدهم هذه المرَّة، بل نيرانًا ملتهبة تتدفَّق كأنها تيار ماء، وينبعث منها دخان أسود. هكذا استطعنا أن نرى السفينة ومن فيها للمرة الأولى.

فيما بعد علمنا بما حدث. لقد أمر خادم السفينة بأن يربط خِرْقًا إلى طرف عصا ويغمسها في برميل زيت البارافين، كي يُلَوِّح بها عاليًا وهي تتقدّ كما فعل قبل قليل. لكن اضطراب السفينة كان من الشدّة ما جعل الفتى الذي يخوض رحلته البحرية الأولى يرتعد خوفًا ويقلب البرميل. انسكب الزيت على مياه المحيط التي تملأ سطح السفينة، ونشبت فيه نيران المشعل الذي أوقده الفتى.

اتجهنا جميعًا إلى حافة المياه دون سابق تفكير، نتقدم بقدر ما سمحت لنا شجاعتنا تجذبنا سطوة المشهد. كانت السفينة التي تبعد عنّا بضع مئات من الأمتار تتمايل تمايلًا عنيفًا. ترتفع إلى قمم الأمواج ثم تهوي إلى قيعانها. وتشبّع هيكلها بالماء حتى إنها لم تكن عُرضة لخطر الاشتعال. لكن سطحها الذي ترنح والأمواج تجرفها كان مُتأجّجًا.

فجأة صاحت امرأة ومدّت ذراعها في الهواء قائلة: «قارب الإنقاذ!».

ظهر القارب للعيان للمرة الأولى منذ غادر الميناء في بورتيفن. أضاءته نيران السفينة الشراعية حيث كان على قِمّة موجة. رأينا ظهور الرجال المنحنية والمجاديف الكبيرة التي تقاوم العاصفة. ثم اختفى في قاع موجة مجددًا.

كان أبي قد عاد ويقف معنا يمسك بلجام بيتر. تساقطت المياه المالحة فوقنا مثل المطر الغزير، وبلغت الرياح أقصى شدتها. كنا في أوج تلك الليلة المريعة.

صدر عن أبي تأوّه تبدّت فيه كل عاطفته. كان يردّد بصوت خافت: «عودوا الآن! عودوا!».

قال رجل يقف بجوارنا: «لن يستطيعوا فعل شيء لأنّ الألوان قد فات. ستصطدم السفينة في أي لحظة الآن. حتى إن وصلوا إليها فلن يتمكنوا من تغيير مسارها أبدًا وسط ذلك الاضطراب».

وبالفعل اصطدمت السفينة الشراعية. لحظنا أنها لم تعد تتحرك مع الأمواج. كانت ثابتة عند الضفة البعيدة للحاجز الرملي تنهال عليها الأمواج وتُخَمِد نيرانها. هكذا انطفأ الشرر الذي تطاير نحونا قبل أن يبلغ حافة الشاطئ، حيث ارتطم المحيط التائر ارتطامه الأخير، وتقهقر في موجات

بيضاء تهسّس، ساحةً معها حصى يصطكُ بعضه ببعض. ظلَّ هناك ضوء خافت مكّننا من رؤية الرجال على متن السفينة. كانوا، في ما بدا، سبعة أو ثمانية. لكن عددهم تناقص فيما الأمواج تصطدم بمركبهم. ألقى أحد الرجال بنفسه عمدًا نحو إحدى الموجات العاتية في طريقها إلى الشاطئ، يأمل أن تحمله إلى برّ الأمان. لكن هناك حيث يتقابل البرّ والمحيط بدا كأن لا شيء يمكنه النجاة من الاضطراب الصاخب. لقد ماثل تيار السّحب البحريّ في شدّته تيارات دفع الطاحون، يجرّد أعنى الرجال من قوتهم.

رغم ذلك شرع الجمع حولنا في الحركة. تفرّق الرجال والنساء على طول الشاطئ أملًا في أن يستطيع أيّ منهم مدّ يد العون لينقذ أحد المنكوبين. لكن صرخة مفزعة أطلقتها إحدى النساء ألزمتهم أماكنهم. كانت تلك المرأة نفسها التي صرخت قائلة «قارب الإنقاذ!»، لكنها في تلك المرة لم تنطق بأي كلمات. لم تستطع سوى الصراخ هلعًا لأن ما لمحہ نظرها، الذي شحذته لوعة وجود زوجها وابنها في قارب الإنقاذ، كان غاطس القارب نفسه مقلوبًا.

لقد مكّنتها ومضات الحريق الأخيرة من أن تبصر هذا المنظر، ثم غاب باقي المأساة في الظلام. لم يعد ثمة بديل عن مسح الشاطئ. وسرعان ما رأيت مجددًا يرتفع في الهواء ويخطّف مرة أخرى، خمّنت أنه يخصّ قارب الإنقاذ.

الآن سار الأهالي في مجموعات منفردة على امتداد الشاطئ، ومرّ البعض بنا يقصدون كوخ رودا حاملين رجلًا لم نملك الوقت الكافي لتنبّين إن كان حيًّا أم لقي حتفه. ظللت أنا وأبي وماجي وسالي حيث كنا، إذ لم تفضّل أي بقعة من بقاع الشاطئ الأخرى. تملل بيتر قلقًا، كان ينخر ويخدش الأرض بحافره. مسّد أبي عنقه وهمس إليه بكلمات مطمئنة يهدّئه.

فجأة سمعنا صيحة تأتي من المياه أمامنا. دنونا جميعًا من المحيط إذ تنحسر أمواجه. شعرت بالحصى يخدش قدمي، وبأن شيئًا كالأصابع القوية يحاول سحبني إلى الداخل. نظرنا إلى موضع الاضطراب نضيق جفوننا، لكننا لم نستطع أن نرى شيئًا. علا الصوت نفسه بصيحة أخرى، وفي تلك المرة علمت من أطلقها قبل أن يقول أبي كلماته جَزَعًا: «ربّاه! إنه إدي رودا!».

رأيناه للحظات كتلة قاتمة على الزبد المتفرق على الشاطئ. أسقط أبي لجام بيتر فأمسكت به سالي وتحرك للأمام. ابتعدت الأمواج برودا ليتواري عن أنظارنا. أمّا أبي الذي غمرته المياه حتى خصره فترنح إلى الوراء، إذ اكتسحته موجة أخرى وأطاحت به. عاد إلينا زاحفًا، وظل مستندًا إلى يديه وركبتيه يهز رأسه، ثم نهض.

قال: «رأيتَه يحمل أحدًا. أعتقد أنه ويزلي».

سار إلى المياه مجددًا فتبعناه تقود سالي الفرس، حتى وقفنا أمام حافة الأمواج التي تشبه قماش الدانتيل. لقد ذكرت أنه عندما غادر المنزل في تلك الليلة كان يرتدي الحذاء البحري الطويل ومعطفًا مُشمعًا. الآن خلعهما دون أن ينتبه إلى أننا بجواره وقفز إلى صهوة الفرس. لم تكن مُقدِّمتا ذلك الحذاء الكبير لتناسبا ركاب السرج، لهذا حتى تلك اللحظة كان يقود بيتر وساقاه تتدليان. مال نحو عنقه، تحدث إليه، ثم تطلّع إلى المحيط. حبسنا أنفاسنا لأننا أدركنا ما يعتزم فعله. وتسَلَّلت رطوبة جسدي وبرودته إلى قلبي.

الآن عاد الرجال الذين رأيناهم في الطريق إلى كوخ رودا يحملون جسدًا، وأتبعنا جميعًا الفرس الذي يوشك أن يخوض الأمواج.

توقف أبي عند الحافة واستدار يقول: «انتظروا قليلًا. إن رودا هنا وسأدخل المياه كي أخرجها».

أدهشني ما يحدث وصعب على عقلي استيعابه. رأيتَه يميل إلى الأمام وسمعته يقول: «بيتر، يا عزيزي! بيتر، يمكننا فعلها».

وبينما الرياح تعبث بذيل الفرس العزيز، والأمواج تضرب قوائمه، صهل فجأة في تحدٍّ وثقة، وتبعه أبي يهتف قائلاً: «أستطيع أن أراهما!».

ثم انطلقا يخوضان المحيط. اقتربنا إليه معًا، لكننا لم نَرَ سوى القليل. لم تجرف الأمواج بيتر. استطعنا أن نراه يخوض غمارها، ثم اختفى. عندئذٍ خفقت قلوبنا ونحن نحدِّق إلى لا شيء سوى العُباب، الذي يسرع نحونا ثم يبتعد بلا توقف.

لا أدري كم دام هذا الحال. بدا لي أن دهرًا قد مرَّ قبل أن نرى رأس بيتر يرتفع فوق قمة موجة عالية. لكنه انزلق وسط المياه واختفى. ثم علا ثانية،

لكن السَّحْبَ التَّحْتِيَّ كان من الشَّدَّةِ بحيث خفقت قلوبنا بقوة، علَّها ترسل قوتنا الضئيلة لتلتحم بقوته العظيمة، وهو يقاوم قبضة المحيط التي تجذبه إلى الخلف.

كانت ويلي تبكي، أمَّا سالي فصاحت قائلة: «بيتر! بيتر! هيا، هيا تعال!». لكنه، في ما بدا، كان يحاول عبثًا. أسف الرجال على مرأى الفرس يجابه المحيط، الذي شابَه جدارًا هائلًا يسدُّ طريق النجاة.

لكن الآن وصلت إلى الشاطئ إحدى الموجات الشاهقة التي تَبْلُغه بين الفينة والأخرى. كانت فرصة أحسن بيتر استغلالها. رأيناه يندفع إلى الأمام وقامته ترتفع، فعلمنا أنه قد نهض. ثم انتفض، استجمع قواه، وسار إلينا.

هرع الرجال إلى الأمام كي يساعدوا أبي. كان يجذب بيد واحدة رجلًا تضمُّ ذراعاه رجلًا آخر. سحبوهما الرجال إلى الشاطئ. أمَّا أبي فترنَّح على سرجه الآن، بعدما أتمَّ مهمته، وسقط جانبًا. سحبه بيتر ببطء مطأطئ الرأس وسط الزَّبَد الذي ينحسر. وأمست سالي باللجام تُوقِف بيتر وتمدحه همسًا، فيما أبي يركل بقدمه ليخرجها من الرِّكَّاب. وبينما هو راقد هناك نال منه الإنهاك لكنه حقق انتصاره، رفعت إحدى الموجات مجدافًا عاليًا وقذفت به إلى الشاطئ. كان مثل رمح أطلقه عدو حاقد مهزوم. وفي اللحظة التي نهض أبي فيها ضرب عَقْبُ المجداف منتصفَ ظهره فسقط. حاول النهوض ثانية، لكنه لم يستطع. وهناك، على حافة الشاطئ، تأوَّه ألمًا وأسند وجهه إلى يديه.

10

انتشرت الأخبار التي تتناول ما يحدث في بورْتِيفَن إلى القرى المجاورة. وقَدِم بضعة أطباء لتقديم العون إن دعت الحاجة إليه. بينما الكارثة في مراحلها الأخيرة اجتمع الأطباء في كوخ رودا، لكن واحدًا منهم ذهب إلى الشاطئ. وقد وصل في التوقيت المناسب ليرى أبي راقدًا على الشاطئ والمجداف يضرب ظهره، ويخمن سبب تأوُّهه كلما حاول النهوض.

صاح: «لا تتحرك!».

ثم التقط معطف أبي المُشَمَّع الملقى على الشاطئ، وضعه بالقرب منه، وأداره برفق فوقه. ثم سحبه بمساعدة أحد الرجال بعيدًا عن المياه ليصبح قريبًا من النيران المشتعلة.

حُمِلَ القبطان رودا وويزلي إلى هناك أيضًا. وبينما الثلاثة مستقلقون متجاورون لم يكن ممكنًا أن تحذر أيهم لا يزال حيًا ومن فقد حياته. لقد رقدوا في الضوء الأحمر أعينهم مغمضة، وأخذ بلل ثيابهم يتبخر بفعل الحرارة. هتف الطبيب ببعض الرجال القادمين من الكوخ قائلاً: «احملوا هذين الاثنين بعيدًا عن هنا. حاولوا صنع نقالة واثنوني بها».

انحنى سالي ثقبًل جبهة والدها وقالت: «لا يوجد ما يمكنني فعله من أجلك. سأعيد بيتر إلى المنزل».

وامتطت صهوة الفرس.

نَبَّهَتْها ويلي: «لا تذكرني أي شيء حول ما يجري هنا في تريسانت». في وهج النيران رأيت سالي تنظر إليها باستهانة وتقول: «وكأنني قد أفعل شيئًا كهذا! ما هو ظنك بي؟».

لم يوجد داعٍ إلى ذكر تلك الواقعة لأن المنزل شهد مأساة أخرى بالفعل. في تلك الليلة أتى إلى عالمنا جاستن جايلورد؛ طفل فقدت والدته روحها وهي تمنحه الحياة، ولم يستطع والده السير أو ركوب الخيل مجددًا قط.

الفصل التاسع

1

كانت العربُ خوصيةً مُبتكرةً يجرُّها حمار، يجلس فيها أبي مفعماً بالحيوية كما كان دائماً ولا يحمل رأسه شعرة بيضاء واحدة، حتى إن من لا يعرفه قد يظن أنه استقلَّها للمرح. واعتاد إدي رودا مرافقته يقود الحمار. متى خرجا فإنهما يتوقفان عند حواجز الحَلَبَة حيث يرعى بيتر الأكبر. فيمشي الأخير خبيباً، يعلو صهيله مُرحَّباً، ويرفع رأسه فوق الحواجز كي يمَسَّ أنفه راحة يد أبي في مشهدٍ يفطر القلوب. لم يمتدِّ أحد بيتر مجدداً قط، لكنه ظلَّ معنا طويلاً، تسرُّنا رؤيته يركض في الحَلَبَة جميلاً رشيقاً.

كان رودا من بدت عليه أمارات التقدم في العمر. تخلَّل الشيب شعره ولحيته، وتخلَّى عن قرطيه. لم يعد يدعو أحد القرصان الوسيم. أصبح رجلاً في منتصف العمر، لكنه يبدو أكبر من عمره الحقيقي. في تلك الليلة لقي ثمانية رجال حتفهم. كان أربعة منهم من أفراد طاقمه وأحدهما ابنه. هكذا اتخذت حياته مساراً آخر. توقف عن الذهاب إلى الكنيسة الميثودية ولم يعد يُرى في حانات بورتيغن. ومن الغرابة بمكان أن مقتاً شديداً سكن قلب السيدة رودا تجاه تلك النسخة الجديدة الوديدة من رودا. إنَّ الرجل الذي عرفته وتبعته بعدما كالَ لوالدها لكمَّة كادت تؤدي بحياته، ذلك الرجل المتفاخر الجذاب الذي تلتفت إليه الأنظار، قد مات فجأة. وحلَّ محله رجل عجز عن أن

يعيد إليها ابنها حيًّا في تلك الليلة. طوال ذلك الشتاء استحال الكوخ جحيماً. لم يمر به أحد دون أن يسمع صوتَ المرأةَ الحادَّ توبَّخٍ إدي، الذي ينحني خاضعاً كأنه صخرة تضربها موجة. ما فاقم غضبها أنه لم يكن يجيبها، ويجلس يدخن غليونَه صامتاً. لقد استبد بها الغضب حتى إنها لم تتمالك عن توبيخه في وجودنا. أتذكر في أحد الأيام أن سالي أصرَّت، من سوء حظنا أنا وويلي، على أن نذهب معها لزيارة العائلة عندما مررنا بالكوخ. دعتنا السيدة رودا لتناول الشاي، ولا يمكنني تصور سبب آخر لتلك الدعوة سوى رغبتها في وجود جمهور يشهد غيظها. قعقت الأكواب والأطباق عندما وضعتها على الطاولة غاضبة. ورغم أنها لم تتحدث إليه مباشرة في وجودنا، فقد كان من الواضح أن ذلك الغضب المكبوت مُوجَّه إليه.

أخيراً تحدث بصوته الهادئ يعبر عما يشعر به دون أن يخاطبه أي منا. قال: «هل تظنين أنني لا أفقده مثلك تماماً يا عزيزتي؟ هل تظنين أن قلبي ليس مفطوراً؟».

عندئذٍ التفتت إليه وصاحت: «تفتقده! لقد أبعدته أنت وفجورك عن حنان والدته في الأشهر الأخيرة من حياته. تتحدث عن قلبك؟ أنت لم تملك قلباً قط وأنا فقدت قلبي. لقد رحل ما يُبقي قلبي حيًّا، وليتني ألحق به سريعاً!». وقد لحقت به. كانت تاسع من فقدوا أرواحهم جرّاء عاصفة تلك الليلة. وبعدما انتقلت إلى مثواها الأخير توطدت صداقة أبي برودا، إذ تأدَّى جسد الأول وتأدّت روح الثاني على نحو يتعذر علاجه.

2

في منزل أبي في ميدان بورتمان سُرِّحَ الخدم وأُغلق المنزل. في تريسانت لم يوجد خدم من الرجال باستثناء إدي رودا، الذي لم يكن خادماً بالمعنى المعروف. لم يكن عيشه في المنزل بعد جنازة زوجته مُرتباً له، لقد حدث تلقائياً. ولا أظن أن الرجلين خاضا حديثاً حول أجره أو ساعات عمله أو أي شيء من هذا القبيل. لم يكن أبي يستطيع السير أو الوقوف دون عصي.

عندما لا يكون جالسًا أو راقدًا لزمته ذراع قوية، وكان إدي حاضراً ليمنحها له. داخل المنزل أمضى الرجلان معظم وقتهما في الغرفة الوثيرة التي تُدعى المكتبة، وإليها نُقل سرير أبي. في الليل كان رودا يضعه في الفراش، وفي الصباح يخرج منه ويعينه على ارتداء ملابسه. كانت توجد غرفة صغيرة متصلة بالمكتبة وُضع فيها سرير إدي. وشيئاً فشيئاً علا شأنه في المنزل وبرزت مكانته. لم يعد الخدم يدعونه باسمه أو بـ «القبطان». وكلما استشار أحدهم أبي حول أحد الأمور فإنه يقول: «تحدث إلى السيد رودا في ذلك».

أتذكر جيداً السكينة التي سادت المنزل بحلول الربيع، وأراها لافتة للنظر. لقد تلاشت مرارة المصائب المفاجئة التي نزلت بنا. لم يعاودنا الابتهاج، لكن الكآبة لم تلازمنا. لن أقول إن أبي أصبح مثل هنري الأول ملك إنجلترا الذي «لم يبتسم مجدداً قط»، لكن جدية لا تخلو من الحنان لازمته هو ورودا. لقد لاحظتها ولا يمكنني نسيانها أبداً.

واصل أبي الاهتمام بشؤون الإقطاعية. زار كل موضع فيها تقريباً كل يوم في العربة التي يجرّها الحمار، يستند ظهره إلى وسادة كبيرة من ريش البجع. وفي المساءات علّم رودا لعب الشطرنج، الذي وجدا فيه عزاءً كبيراً. في بعض الأحيان كان يطلب مني أو من سالي القراءة له. لكنه لم يبال كثيراً بمغامرات الخيال، كان يهدف إلى صُحبتنا.

تولّت امرأة يافعة اسمها أيمي، لا أتذكر لقبها وربما لم يخبرني به أحد قط، رعاية المُبجّل جاستن جيلورد. لقد أحضرها الطبيب كيرنو من بورتيفن. كانت إحدى ضحايا العاصفة التي بدّلت مسار عديد من الحيوانات. لقد مات طفلها بعد ولادته بقليل. وغرق زوجها، الذي أوسع رودا وجهه ضرباً في اليوم الذي شاهدنا فيه جمع أسماك البلشار، عندما انقلب قارب الإنقاذ. لهذا قد يتوقع المرء أنها أرضعت جاستن وهي تشعر بالمرارة، لكنها كانت راضية تماماً. ظلّت رابطة الجأش وعاشت مُطمئنة، رغم التجارب التي من شأنها أن تحيل معظم النساء اللواتي أعرفهن اليوم إلى حطام.

إن الربيع الذي يحلُّ مبكرًا هو أفضل أوقات العام في تريسانت. وفي واحد من أيامه الجميلة، بعد الشتاء المُفجِع، استلقيت أنا وسالي على الأرض العشبية المنبسطة أمام كوخ ماجي. تلالأت مياه البحيرة، تخضبت أشجار الزَّان بالخُضرة، وانتشرت زهور النرجس في كل مكان. كنا في انتظار ماجي كي نبدأ دروس الصباح، إذ رأينا موكبًا صغيرًا قادمًا نحونا من تريسانت. تقدَّم الحمار أبينزر على مهل، يجزُّ العربة الخوصيّة التي يجلس فيها أبي. وسار رودا برفقته يمسك بأذن أبينزر. كان هو من سمّى الحمار. وقد سرّني اختياره هذا الاسم، لأنه أظهر أنَّ أثرًا من روحه المرحّة لا يزال باقيًا.

يوجد مقطع من تهويدة ميثودية يُذكر فيها الحجر التذكاري أبينزر الذي نصبه النبي صموئيل تخليدًا لانتصاره، يقول:

«هأنا أضع «أبينزر»

حيث جئتُ يا رب بمعونتك

أدعوك بأن تشملني بلطفك

كي أبلغ موطني سالمًا في عنايتك».

وبالفعل عندما يجزُّ أبينزر العربة لم يسعنا سوى أن ندعو الرب أن يشملنا بلطفه. فعلى الرغم من أن الحمار كان كادحًا متجلّدًا يقطع أي مسافة لازمة، فإنه يفعل ذلك وفقًا لمزاجه وفي المدّة التي يراها مناسبة. في بعض الأحيان كنا ندعوه بن. أما ويلي فسمّته «منخار الفجأة»، لأنه اعتاد أن يباغتك بأنفه عندما تحمل جزيرة أو مكعبًا من السكر.

قدّم الرجلان في ذلك الصباح المعتدل، تتبعهما أيمي تدفع عربة طفلٍ نعلم أن جاستن بداخلها. لقد أخبرنا أبي سابقًا: «قريبًا سيبدأ جاستن تعرف الإقطاعية».

قال كلماته بجديّة شديدة. والآن، إذ بلغ جاستن جایلورد أربعة أشهر من عمره، كان يتجول في أنحاء الإقطاعية التي سيديرها ذات يوم.

عندما غادرت ماجي الكوخ توقَّف الموكب بالقرب من البوابة. ملت أنا وسالي نحو عربة الأطفال نتطلع إلى الوجه الوردِيِّ النائم، وجه أختنا غير الشقيق، المالك المستقبلي لكوخ ماجي، الذي لا يعبأ الآن بالعقارات أو مستأجريها. بينما هو نائم تحرَّك فمه يرشُف حليباً وهمياً. وبالقرب من الموضع حيث استلقيت أنا وسالي على الأرض العشبية كان ميرلن على ملحفه يقرقر ويركل الهواء. ترك إدي رودا أبنيذر وذهب ليرى ابنه. انتبهتُ إلى أن ماجي تلاحظه، وربما استحسنْتُ ذهاب لوسي إيفانز إلى البلدة المجاورة للتسوق. جثا رودا على ركبتيه يُشرف جذعه الضخم على الطفل الصغير. أدخل برفق إصبعه في القبضة المضمومة كي يفتحها. أمسك ميرلن بالإصبع، وأخذ رودا يؤرجح القبضة الوردية الصغيرة برقة. كانت تلك أول مرة يرى فيها رودا ابنه، الابن الذي بدأ إنجابُه مأساته. الآن لم يعد له ابن آخر ولا زوجة. لم يتبقَّ له من دمه سوى تلك النتفة المستلقية على البساط، تركل قدمها الهواء وتنظر عيناها البريئتان إلى السماء.

ارتجف صوته وهو يؤرجح القبضة الصغيرة إذ قال: «مرحباً! مرحباً يا عزيزي الصغير!».

خاطب أبي ويلي بهدوء قائلاً: «يا إلهي! لقد نسيت أن ابن رودا يعيش معك هنا».

- هذا أمر من الصعب أن ننساه يا سيدي.
- أجل، بالطبع. إذن ما الذي علينا فعله؟
- علينا؟ هل علينا فعل أي شيء؟ ألا يخصُّ هذا الأمر ذلك الرجل ولوسي إيفانز؟ ما شأننا به؟

تنهَّد، تلمل في جلسته بصعوبة، ثم هتف: «رودا!».

نهض رودا مسرعاً وانضم إلينا، لكنهما لم يتبادلا الحديث عن الطفل.

قال أبي: «جِلَّ رباط الطرد».

كان الطرد مُربَّعاً مُسطَّحاً مربوطاً إلى مؤخرة العربة.

سأل أبي ويلي: «هل توجد مساحة على حوائط كوخكِ تكفي لتعليق لوحة؟».

أجابته بابتسامة: «بالطبع يا سيدي. يوجد كثير منها لأنني أنتقي بعناية ما أُعلِّقه من لوحات».

- أجل، أتفهم ذلك. إنكِ تتمتعين بذوق رائع، وفي طريقكِ إلى أن تصبحي امرأة مشهورة أيضًا. لا أدري لِمَ تتكبدين عناء البقاء معنا هنا.

- ما دمتَ تأذن في وجودي هنا يا سيدي، والفتاتان تحتاجان إليّ، فيسعدني أن أظل معكم.

- هل تتفضّلين بتعليق هذه اللوحة؟ أنا لم أفتح الطرد، لم أنظر إليها، ولا أريدها أن تكون حيث يمكنني رؤيتها. لكن ابني قد يوّد أن يراها ذات يوم. هيا بنا يا رودا.

عندما غابا عن أنظارنا تناولت ويلي الطرد الذي يستند إلى جدار الحديقة، وقالت: «حسنًا، لندخل ولنكشف عن هذا الغموض».

اتضح أن أبي وأمي عندما كانا في لندن في الصيف طلب أبي أن يرسم جورج فريدريك واتس لوحة شخصية لها. لقد تركاها للفنان كي يضع لمساته الأخيرة التي استغرقت وقتًا طويلًا. والآن وصلت إلى المنزل أخيرًا، لكنني أعلم أن أبي لم ينظر إليها قط. هكذا علّقنا اللوحة في مكتب ماجي. وقد أسمتها «شبح اللورد العزيز».

4

بعدما أنجبت لوسي إيفانز طفلها واختفت والدتها بعد ذلك بقليل، ثم رحلت السيدة رودا وويلزي وبدأ رودا يتعلّق بطفله، بدا أن الوضع يتجهز لخاتمة رومانسية. لكنّ شيئًا كهذا لم يحدث. على أننا بعد هبوب العاصفة التي سرقت منّا الكثير، سنعيش موسمًا طويلًا من السكون والنضج المُتمهّل.

عندما انقلبت حياة لوسي، إذ اقتحم الواقع القاسي الصومعة التي أسرتها فيها والدتها، هرعت بطفلها تطارد رودا. لقد رأت فيه المرشد الذي أنار لها الطريق، وظنت الحمقاء أن فيه وحده ستجد الملجأ الذي احتاجت إليه هي وطفلها. لكنها أدركت خطأ ظنها. لقد وجدت في صحبة ماجي ويل ما لم

تعرفه قط. حظيت بصداقةٍ تخلو من التدليل الزائد والحب المريض، وبفرصةٍ لتلبية حاجتها الدفينة إلى التعلم، وببيتٍ يكبر فيه طفلها ويزداد قوةً ووسامة. في الصيف التالي استطاعت أن تتقبَّل حضور رودا النادر إلى الكوخ. لم يقر بأنه والد ميرلن قط. لقد فات أوان إقراره بتلك الحقيقة. ورأته لوسي زائرًا عاديًا يبدي بعض الاهتمام بطفل صغير.

سأذكر كيف رحلت أنا وماجي ولوسي عن تريسانت، على أنني قبل أن أصل إلى هذه النقطة سأذكر شيئًا لا أُحبُّ كتابته أبدًا. لكن يجب أن أذكره كي لا يصبح هذا الكتاب سجلًا للحظات سير الأمور على ما يُرام فقط، لأن الاضطراب انتاب علاقتي بأبي.

بدأ الأمر في الشتاء الثاني بعد رحيل أُمي حينما جلست في المكتبة أقرأ له. في ذلك الوقت كنت في منتصف عامي الثاني عشر، ولم يكن في المنزل سوانا. ظلَّ رودا في بورْتِفن ينجز أحد الأعمال، وذهبت سالي إلى حفلٍ للأطفال في أحد المنازل على بعد عدة أميال. كنت سأرافقها لكن صداغًا شديدًا أصابني في الظهيرة وطلبت إعفائي من الذهاب. وبينما يحلُّ المساء شاهدت سالي تبتعد في عربة مغلقة، ثم ذهبت إلى الغرفة التي تشاركناها في الطابق العلوي. اشتدَّ ألم الصداغ لهذا لم أشعل المصباح. وكانت القراءة آخر ما قد أرغب في فعله. جلست في ضوء المدفأة عيناوي مغمضتين أحاول النوم، لكن سرعان ما قاطعتني إحدى الخادِمات قائلة: «هلا تذهبين إلى حضرة اللورد في المكتبة يا آنسة سارا؟».

كان جالسًا إلى أحد جانبي المكتبة. سألني الجلوس في مقعد في الجانب الآخر بجواره مصباح قائم كي أقرأ له. فتناولت «مونت كريستو»؛ الكتاب الذي كنت أقرأه له أنا وسالي تناوبًا.

لم أكن قد انخرطت في القراءة طويلاً عندما قال: «ما هذا الهراء! ألا يمكننا أن نقرأ كتابًا أفضل؟».

نظرت إليه متفاجئة. لم يصل إليه ضوء المصباح، لكن ضوء ألواح الخشب التي تشتعل في المدفأة الكبيرة تموج على وجهه. كان عابسًا، ورأيت فيه خطوطًا عميقة ظننت أن الألم سببها.

سهوت عن ألم رأسي في الحال وسألته: «هل تتألم؟ هل أضبط وسائدك؟».

أجابني بحدّة: «لا».

فتذكرت بعد فوات الأوان أنه يبغض أي إيماءة إلى عجزه.

أردف: «إن ما يزعجني هو الهراء الذي تقرئين. فأنا لست صبيّاً».

الآن انتابني الاستياء. لم تزعجني كلماته بقدر طريقته في قولها. وتواصل الألم يدقُّ رأسي.

سألته بصوت خافت: «أي كتاب تودُّ أن أقرأ؟».

- لا تزعجي نفسك. لا تقرئي أي شيء. لِمَ لم تذهبي مع سالي؟

- أعاني الصداع يا سيدي. أصبح يصيبني كثيراً، وهذه المرة يؤلمني رأسي بشدة.

أملت بتلك الكلمات أن يشفق عليّ، لكنّ أُملي خاب، فقد قال: «عليك أن تقودي الفرس مثل سالي. من البغيض رؤية فتاة كبيرة مثلك تتخبّط على صهوة ذلك الفرس القصير بتمهّل كأنها جُوال. لا عجب أنك تصابين بالصداع. إنك تفقدين رشافتك ويجب أن تعتني بنفسك. تعال يا رودا كي تضبط تلك الوسائد. أشعر أنها قضبان حديدية».

لقد عاد رودا من حسن الحظ. ضبط الوسائد، سحب طاولة صغيرة، وأخرج أحجار الشطرنج.

ظلت هناك بائسةً حتى قال أبي: «أرى أنه يجدر بك الذهاب إلى فراشك مباشرة وأن تحاولي النوم. أم تودّين أن يفحصكِ الطبيب كيرنو؟».

أجبت: «سيختفي الألم بحلول الصباح».

وانسلتُ من الغرفة تعسةً.

5

لكنني ذهبت إلى الطبيب كيرنو في النهاية. في ظهيرة اليوم التالي قلت لسالي: «ألا ترين أن الوقت قد حان لأن أقود فرساً أكثر حيوية من ماكفليمسي

البليد؟ لا بدّ أن من البغيض روية فتاة كبيرة تتخبّط على صهوة ذلك الفرس القصير بتمهّل كأنها جُوال!..

قالت سالي ضاحكة: «لَمْ تهتمين لذلك؟ إِنَّ الفرس يوصلكِ إلى حيث تريدن الذهاب. لكنكِ لا تجيدن التعامل مع الخيول. هذا هو كل ما في الأمر. تخافينهم، أليس كذلك؟».

- بلى، قليلاً.

- حسنًا، يشعر الفرس بهذا ويستغله لمصلحته، لكن لا داعي لأن تنزعجي. إن شعرتُ تجاه الخيول بما تشعرين به فسأبتعد عنها. فركوب الخيل ليس النشاط الوحيد في العالم. كيف أصبح الصداق؟

- ليس بهذا السوء. لكنني أرى أمامي بقعًا تتراقص.

قالت ضاحكة: «إذن توقفي عن الشراب. وابتعدي عن الخيول. أنتِ على ما يُرام على طبيعتكِ».

لكن سالي لم تستطع إقناعي بكلماتها، ووافقتُ على أن أجرب ركوب فرسها ماكير. أذهلتني مهارتها عندما شاهدتها تقود فرسًا مثل ماكفليمسي. أمّا ماكير فتململ وتلوى وتحرك على هواه طوال الوقت. وبينما توشك جولتنا أن تنتهي اكتشفت أن هواه ذاك أملى عليه التخلص مني. لكنني عزمت بقوة على ألا أسمح لهذا بالحدوث. وعندما اقتربنا من الإصطبلات أصبح لديّ سبب وجيه لأن أقدم أداءً جيدًا. فهناك كان رودا يقف بجوار أبينزر، وأبي في العربة يشاهدنا ناقدًا. في تلك اللحظة، حالما اقتربنا إليهما، رفع أبينزر رأسه التافه وأطلق زعيقًا ساخرًا. كان نهيقه عاليًا إذ فتح فمه على اتساعه وبدت أسنانه الكبيرة الصفراء. انزعج ماكير كأن أبينزر قد قال: «أنت ماكير العظيم تسمح لهذا الجُوال أن يقودك في الترحال؟ ها، ها!»، وأطاح بي بفضاظة أرضًا.

كُسرت ذراعي اليميني. وعندما أتى الطبيب كيرنو ليفحصني أخبرته سالي بالصداع والبقع التي أراها. هكذا أصبحت أنا الطفلة متواضعة الجمال (مثلما نعتني أُمي في أحد خطاباتِها التي سأعثر عليها بعد مرور كثير من الأعوام) أقل جمالًا. كنت مخلوقةً قبيحةً ذراعها مُعلّقة في حمّالة وعلى أنفها نظارة طبية.

في ما بعد عندما تذكرت تلك الفترة أخبرتني ويلي: «أصابتك البثور أيضًا. في الحقيقة يا عزيزتي لم تكوني واحدة من أميرات الأحلام». كنت أدرك هذه الحقيقة وكنت تعسة. أعتقد أن ذلك الحال زادني قبحًا.

6

الآن أستطيع أن أتأمل ذلك الحال بعدسة البالغين، لكنني عشته بعاطفة الطفولة التي لا تعرف المنطق. لقد اختبرت مواقف عدّة تشبه ما حدث في المكتبة، نتج معظمها عن ضعف نظري. أظن أن معرفة الطبيب كيرنو بطب الأعين لم تكن واسعة، وأن النظارة التي منحني إياها لم تكن الأفضل في حالتي. لقد ساعدتني على رؤية الأشياء بوضوح أكبر. لكنني اعتدت تدقيق النظر في ما حولي، وأخبرتني ويلي أن تلك العادة مزعجة. ثم إنها لم تقلل من إصابتي بنوبات الصداق، التي تجعلني كئيبة المزاج. ترتّب على هذا أن أخلع النظارة عندما يغفل عني الجميع. ولأن عينيّ اعتادتتا النظر من خلالها، فقد وجدت أن نظري من دونها ساء أكثر من ذي قبل. لقد تضبّبت رؤيتي كثيرًا حتى أصابني الخوف، واعتقدت أنني أوشك أن أعمى. لكنني لم أخبر أحدًا بهذا الأمر. لقد وجدت بعض اللذة في المعاناة في صمت. حدّثتني نفسي قائلة إن المصاب سيقع، وعندما أوصل حياتي أتحسس العالم بيدي أو أدقّ بعضًا فإنهم سيشعرون بالأسف.

لو كنت أكثر نضجًا بما يكفي لأفهم نفسي لأدركت أنني بقولي هم قد قصدت أبي، بالطبع، ولا أحد غيره. كنت أتوق إلى نيل استحسانه، وأقلق جفاؤه بالي. ثم كانت واقعة الكلب روبر، الذي نبج شديدًا عند وصولنا إلى تريسانت أول مرة بعد سفرنا من مونتروي. حينئذٍ كنت مريضة يثقلني دوار البحر وغرابة كل شيء حولي، حتى إن ترحيبه العنيف بي كان مثل ضربات تنزل برأسي. أعتقد أن لقائي الأول بروبر حدّد نظرتي الدائمة إليه. كان مختلفًا عن باقي الكلاب التي تجوب المكان، وباغتنا بتصرفاته. اعتاد أن يندفع من العدم يتدلّى لسانه الأحمر مثل لبّاسة الأحذية، وأن يعبث مبتسمًا

دون أن يوقع الأذى. كان مُبْتَهَجًا بالحياة ابتهاجًا شديدًا يؤكد أن الرب موجود وكل شيء على ما يُرام، وإن كنت لا ترى ذلك فإنك نكد المزاج.

ذات يوم كنت أسير وحدي بالقرب من المنزل، فإذا بصاحب السعادة ذاك يركض خارجًا من بين شجيرات الورد مثل صاعقة سوداء. كانت نظارتي التي أبغضها في يدي. لقد خلعتها لأنها لم تشفني من الصداق وجعلت مظهري سخيفًا. لهذا لم أر سوى كتلة سوداء تندفع نحوي. حاولت دفعه عندما التصق بي يقابلني وجهه بابتسامة. لا بد أن محاولتي إبعاده أوهمته بأنني أودُّ مشاركته المرح. فقد ابتعد عدة ياردات، ربضً باسطًا أقدامه الأربعة على الأرض، ثم اندفع نحوي. أسقطني أرضًا وأشرف عليّ يمطرني نباحه. سقطت نظارتي من يدي، وآلمني رأسي جرأ الاضطراب والضوضاء. لم تستطع يدي إبعاده، وتملّكني الغضب منه لأنه أوقعني في هذا الحال البائس. كنا أسفل نافذة المكتبة مباشرة، وأدركت أن أبي ورودا جالسان عندها يتطلعان إلى الخارج. كان يوجد حوض زهور كبير أسفل النافذة تحده أحجار سائبة. عثرت يدي على إحداها دون وعي مني وهَوْتُ بها فوق رأس روبر. عندئذ أدرك أن ما يحدث ليس لعبة، وابتعد يعوي في أسى كأنني كسرت عظام جسده كلها. بالكاد وقفت على قدمي ونظرت إلى الأسفل أبحث عن نظارتي. ثم وجدت أنني أقف فوقها وأن عدستها قد انكسرتا، فأخذت في البكاء.

بينما أبكي سمعت صوت أبي يهتف عبر النافذة. لكنه لم يكن يتحدث إليّ، بل صاح قائلًا: «روبر! روبر! تعال يا فتى!».

عاد ذلك المُمَثِّل البارع ببطء كأنه ضُرب ضربًا مبرحًا. كان محني الرأس تنظر عيناه إلى الأعلى ليبدو بياضهما كأن قلبه مفطور. قفز عبر النافذة، وقف واضعًا قدميه الأماميتين على ركبتي أبي وبكى. أمسك أبي بأذنيه وداعب رأسه قائلًا: «يا فتاي المسكين! هل تأذيت؟! هل أسيء فهمك?!».

عندئذ كان من الممكن أن أكسر عنق ذلك الكائن البغيض! لقد بدا في كلمات أبي استهجان ما فعلت ولم يتوجه إليّ بالحديث، حتى إنه لم يلحظ تحطم نظارتي. هكذا ابتعدت أكاد لا أرى، وملأ حنقي العالم حولي.

أخبرت ماجي وسالي كذبًا بأنني أضعت نظارتي، وأمضينا وقتًا طويلًا نبحث عنها في تريسانت والكوخ. بعدما أمضينا صباحنا على هذا النحو وجد صبي البستاني إطارها وسط الحصى. ثبتَّ الطبيب كيرنو إليه عدستين جديدتين تطابقان السابقتين فأضعتهما مجددًا. وأصبحت معروفة بإهمالي نظارتي. أحيانًا كنت أضيعها حيث يمكن إيجادها. وفي أحيان أخرى كنت ألقى بها في البحيرة أو أتركها وسط السياج النباتي. ساءني خداعي لعائلتي فساءت صحتي. زادت البقع في وجهي فوصف الطبيب من أجلي دواءً كرهت مذاقه. وقد بالغت في إظهار تقززي منه كي ألفت الانتباه إليّ. لأنني إن لم أفلح في نظرهم في شيء فساأكون، أو سأحاول أن أكون، مريضةً «يهتمون لها»؛ طفلةً كئيبة ضعيفة النظر، وتبالغ في خوفها من الخيول والكلاب. إن لم أستطع أن أحظى بالحب فمرحبًا بالبغض.

في الخريف تغير كل شيء. لقد ساهم الكولونيل إدواردز، أحد جيراننا في تريسانت الذين لم أذكر شيئاً عنهم حتى الآن، في وضع حدٍّ لتلك الفترة التعيسة من حياتي. ذات يوم قدم إلينا وأخبر والدي أنه سيسافر إلى «ديفونشير»، حيث سيمكث عند أحد أقربائه شهرًا. قال إن ابنه وابنته اللذين كانا في مثل عمرنا أنا وسالي ذاهبان معه، ويسعده أن نرافقهم نحن الاثنين إن وافق أبي. وافق أبي في الحال، لكن ماجي فاجأتني إذ قالت: «أرى يا سيدي أن الأنسة سارا لا يجدر بها الذهاب. إن صحتها لا تحتمل السفر».

عندئذٍ شعرت بالغضب من ماجي للمرة الأولى في حياتي. دعوتها في سريري بالمتطفلة والفضولية التي يجب ألا تتدخل فيما لا يعينها. لكنها قالت كلمتها حازمة. اقترح أبي والكولونيل إدواردز أن التغيير قد يكون ما أحتاج إليه بالضبط. أصرَّ أبي على هذا الرأي بشدة حتى إن عقلي غير المتزن جمع مجددًا، وهتفت في تعاسة شديدة قائلة: «أرى أنك ترغب في التخلص مني!».

ارتفع حاجبا الرجلين دهشةً، وأخرجتني ويلي من الغرفة سريعًا.

خلال الأيام القليلة التالية لم تتحدث ويلي عن هذا الانفجار العاطفي. لكن بينما نحن سائرتان في الغابة الخريفية، بعدما سافرت سالي، جلستُ فوق جذع شجرة مقطوع. وعندما جلست بجوارها أحاطتني بذراعتها. لم أعتد هذا منها لأنها لم تنزع إلى التعبير عن عاطفتها.

حاولتُ الابتعاد مُتبرِّمة، لكنها ظلَّت ممسكة بي وقالت بصوت خافت: «اهدئي. حاولي الهدوء قليلًا».

كانت هادئة بدورها وكذلك الطبيعة حولنا. خيَّمت السماء الزرقاء على البحيرة الساكنة. لم يقطع السكون سوى سقوط أوراق الأشجار من حين إلى آخر. وعلى حافة المياه رأيت مالك الحزين طويل الساقين يقف ساكنًا يرفع كتفيه الرماديتين. لأنَّ عنادي وهذا اضطرابي. بدا الأمر كأن طمأنينة ويلي تنفذ إليَّ، وغفوت تغمرني سكينتها والهدوء حولي.

عندما استيقظت شعرت أنني أفضل حاليًا. كان أول ما قالته لي: «سنغادر إلى لندن غدًا. ستأتي لوسي وميرلن معنا».

سُررت بهذا الخبر، لكنني كبحت رغبتني في الهاتف فرحًا لأنني لم أستطع التوقف عن أداء دور أجدته.

قلت: «لكنني لا أستطيع السفر. إن لندن أبعد من ديفونشير، وقد قلت إن صحتي لا تحتمل الذهاب إلى هناك».

- حسنًا، فلتبقي إن كنت تفضلين المكوث في تريسانت وحدك لأنني ولوسي سنغادر على أي حال.

قلت بلهفة: «لا، بل يمكنني السفر».

- بالطبع يمكنك ذلك. لا أدري أي دور كنتِ تمثِّلين طوال هذا العام.

عاد غضبي الدفاعي مجددًا، فقلت بحدة: «أُمثِّل؟!».

- أجل يا سارا تمثِّلين، لهذا اعترضت على سفركِ إلى ديفونشير. اعلمي أنكِ إن تظاهرتِ بشيء فسيكون عليك احتمال عواقب ذلك التظاهر. إن تظاهرتِ بأنكِ مريضة لا تستطيعين حتى ركوب فرس فلن تنطلقني في جولة في مقاطعة أخرى، أليس كذلك؟

أَحْنَيْتُ رَأْسِي عَابِسَةً، وَتَابَعْتُ وَيْلِي حَدِيثَهَا إِذْ أَخَذْنَا نَسِيرَ إِلَى الْمَنْزَلِ: «يَجِبُ أَنْ تَتَعَقَّلِي يَا سَارَا. لَقَدْ رَأَيْتِكِ تَخْفِينِ نَظَارَاتِكِ وَتَتَظَاهَرِينَ بِأَنْكِ أَضَعْتِهَا».

- رَأَيْتَنِي وَلَمْ تَتَنَطَّقِي بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ؟!

- هَأُنَا الْآنَ أَقُولُ كَلِمَتِي وَاضِحَةً. لَقَدْ حَزَنْتَ لِرُؤْيَيْكِ تَدَبُّرِينَ الْحَيْلَ لِإِقْنَاعِنَا بِأَنْكِ مَرِيضَةٌ. هَذَا وَاحِدٌ مِنْ أَسْبَابِ سَفَرِنَا إِلَى لَنْدَنِ. وَلَمْ أَكُنْ لِأَصْدَاقِي عَنْ الذَّهَابِ إِلَى دِيْفُونشِيرِ لَوْ لَمْ أَخْطُطْ لِهَذَا الْأَمْرِ. إِنْنِي أُرِيدُ أَنْ تُفَحَّصَ عَيْنَاكِ كَمَا يَنْبَغِي. وَلَا أَظُنُّ أَنَّ عَلَّتَهُمَا شَدِيدَةً، لَكِنَّ الطَّبِيبَ كِيرَنُو قَدْ لَا يَكُونُ الْأَكْفَأُ فِي هَذَا الْمَجَالِ. لِهَذَا خَطَطْتُ لَتِلْكَ السَّفَرَةِ مَعَ حَضْرَةِ اللُّورْدِ. إِنَّهُ حَرِيصٌ عَلَيَّ أَنْ تَتَلَقَّيَ أَفْضَلَ رِعَايَةٍ مُمْكِنَةٍ.

قَلْتُ بِوَقَاحَةٍ: «هَرَاءُ. إِنَّهُ يَبْغُضُنِي».

نَظَرْتُ إِلَيَّ فِي أَسَى وَقَالَتْ: «أَمَامَكَ الْكَثِيرُ لِتَعْلَمِيهِ وَتَتَعَلَّمِيهِ يَا سَارَا، لَكِنَّ دَاعِي إِلَيَّ أَنْ نَخُوضَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ الْآنَ. عَلَيَّ أَنْنِي يَجِبُ أَنْ أُسَدِّي إِلَيْكِ هَذِهِ النَّصِيحَةَ: إِنْ ظَنَنْتِ أَنَّ النَّاسَ يَبْغُضُونَكَ فَلَا تَوْهَمِي نَفْسَكَ بِأَنَّ بَغْضَهُمْ هُوَ مَا تَرِيدِينَ. لَقَدْ كُنْتُ تَتَظَاهَرِينَ، كَمَا تَعْلَمِينَ، طَوَالَ الصَّيْفِ».

لَمْ أَعْ حَقِيقَةً مَا أَحْتَبِرُهُ حَتَّى بَيَّنَّتْهُ لِي كَلِمَاتُ وَيْلِي الرِّصِينَةِ. لَقَدْ كُنْتُ أَخْذَعُ نَفْسِي جَيِّدًا كَمَا أَمَلْتُ أَنْ أَخْذَعَ الْآخَرِينَ. لَكِنِّي الْآنَ أَدْرَكَتُ عَلَّتِي، وَهَكَذَا بَدَأْتُ التَّعَافِي.

8

الْآنَ حُلَّتْ مَسْأَلَةُ نَظَرِي. لَقَدْ أَصَابَتْ وَيْلِي فِي مَا قَالَتْ. لَمْ يَكُنْ ضَعْفُ نَظَرِي شَدِيدًا، لَكِنَّ الْعِلَاجَ الْخَاطِئَ لَمْ يَنْفَعْنِي. وَقَدْ حَصَلَتْ عَلَيَّ نَظَارَةٌ مَنَاسِبَةٌ جَعَلَتْنِي أَرَى بَوْضُوحَ تَامٍ. اخْتَفَتِ نَوْبَاتُ الصَّدَاعِ. بُشِّرْتُ بِأَنْنِي خِلَالِ بَضْعَةِ أَعْوَامٍ لَنْ أَحْتَاجَ إِلَى النِّظَارَاتِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَقَدْ كَانَ هَذَا صَحِيحًا. تَحَسَّنَتْ صَحَّتِي، وَرَغْمَ أَنَّي لَمْ أَصْبَحْ امْرَأَةً رَاضِيَةً الْجَمَالِ، فَإِنْنِي لَمْ أَكُنْ فِي حَاجَةٍ إِلَى التَّوَارِي عَنْ الْأَنْظَارِ.

الآن أودُّ أن أكتب عن ماجي ويل ولوسي إيفانز. كانت رواية ماجي التي تُنشر قصةً متسلسلةً في مجلة السيد ديكنز ستصدر كتابًا. لم تكن أول كتاب يُنشر لها، لكن الناشرين وثقوا بنجاحه. وأرادت ماجي أن تكون في لندن يوم إطلاقه. لقد اتضح أن الناشرين محقون. سرعان ما أشاد الجميع بروايتها «كورنيليا قنسطنطين»، ومنذ تلك اللحظة توالى نجاحات ماجي. أصبحت واحدة من أدبيات جيلها المرموقات. لم تكن من كاتبات الصف الأول. لكنها، إن أردنا المقارنة، في منزلة رودا بروتن⁽¹⁾. وبقدر فهمي تلك الأمور فإن هذه المكانة ليست سيئة وستتضح لاحقًا، لكنني الآن أودُّ سرد ما حدث في أثناء زيارتنا لندن، التي لم تعد منها لوسي إيفانز وميرلن.

عند عودتي إلى ميدان بورتمان لم أشعر بأي ألفة. كان من الممكن أن نمكث في أحد الفنادق، لكن أبي طلب من ويلي البقاء في المنزل، والتأكد من تهويته جيدًا وتبليغه بحاله.

قال: «لا أظن أنني سأذهب إلى هناك مجددًا أبدًا، لكن جاستن قد يفعل». عُيِّن بعض الخدم لعوننا خلال الشهر الذي سنمكثه هناك وفقًا للمعتاد فعله في تلك الأيام. أزالوا أغطية الأثاث في بعض الغرف، أشعلوا نيران المدافئ، وهكذا استقررنا. ولأن أبي إذا عزم على فعل شيء فإنه يتمه على أكمل وجه، فقد أذن لنا بتوظيف مُربيّة من أجل ميرلن كي تستمتع لوسي بالعطلة مثلي أنا وماجي.

كانت لوسي شابة يافعة حسناء، ابتسم لها الحظ إذ صادفت ماجي ويل. حتى الآن أمضت معنا ثلاثة أعوام، وقد تغيرت في أثنائها كثيرًا. لم تعد الفتاة طويلة القامة ذات الحُسن والرزانة تشبه المضطربة البائسة، التي رأيناها تبتعد عن كوخ رودا ركضًا بعد قليل من وصولنا إلى تريسانت. أصبحت التجربة التي مرّت بها جزءًا منها. أكسبتها وقارًا، جديّةً مُحبّبة، لاءمت طول قامتها وشعرها الأشقر وعينيها الزرقاوين. وعمّقت جاذبية ابتساماتها القليلة.

(1) رودا بروتن (1840 - 1920 م): روائية وكاتبة قصص قصيرة من ويلز. اتسمت رواياتها المبكرة بطابع الإثارة الذي يهدف على نحو رئيس إلى إمتاع القارئ. لهذا مال النقاد إلى تجاهل الأعمال الأدبية الأقوى التي كتبها لاحقًا. لُقبت بـ «ملكة المكتبات المتداولة». م

هكذا لم تفزعها أجواء ميدان بورتمان. وقد نالت استحسان أبي، حتى إنه كثيراً ما سأل ماجي أن تحضر لوسي معها ليتناولوا الشاي معاً.

بعد إحدى جلسات الشاي تلك، قبل رحيلنا إلى لندن مباشرة، أتذكر أنه قال: «لستُ كفوّاً للحديث عن كتاباتكِ يا آنسة ويل، لكنني واثق أنكِ أنجزتِ عملاً فنياً جديراً بالثناء، وهو لوسي إيفانز».

بعدما كانت لوسي خادمة ماجي أصبحت الآن مرافقتها والسكرتيرة الخاصة بها. نسختُ بخطّ يدها الواضح المُنمَّق خريشات ماجي في مخطوطاتها. ساعدتها بشتّى الطرق في تنظيم عملها. وفي ليالي الشتاء في تريسانت، حيث الصداق يفتك بي، كثيراً ما تصورتهاما جالستين في الكوخ الهادئ ذي الإضاءة الناعمة بجوار البحيرة تلفهما السكينة، فتداخلني الغيرة.

في إحدى الليالي بالقرب من نهاية أسبوعنا الأول في ميدان بورتمان كنا جميعاً في مزاج سعيد. لقد ذهبت أنا وماجي في عدة زيارات إلى أحد أطباء الأعين في شارع «هارلي»، وانتبهتُ إلى شهرتها عندما تحدث إليها كأنها أحد الوجهاء. في ظهيرة ذلك اليوم السعيد أخبرنا أنّ ما أعانيه لا يدعو إلى القلق. هكذا تناولنا عشاءنا وأنا أضع نظارتي الجديدة المريحة المدهشة. وعندما نظرت في المرأة وجدت أن بثرةً في ذقني تختفي. كانت تلك لحظة سعيدة عشناها جميعاً بجوار المدفأة في غرفة الجلوس. ثم أحضرت الخادمة خطاباً أرسل إلى ماجي.

بعدما قرأته قالت ضاحكة: «أنا لم أسمع بشيء كهذا من قبل قط!». لقد أرسل الخطاب إلى مكتب ناشر ماجي، ثم أُعيد إرساله إليها. وشرعت تقرأه جهراً:

«سيدتي الفاضلة،

أنا أوّل تاجر أقمشة في لندن أفكّر في افتتاح قسمٍ للكتب في متجرٍ. إنني واثق أن متاجر الأقمشة في المستقبل ستصبح مراكز تجارية بحق، تلبي احتياجات جوانب مختلفة من حياة البشر. ستغدو أماكن تجمع بهيجة يقصدها الزوج وزوجته للعشاء، أو تصفح الكتب، أو شراء أي غرض، من جوارب جديدة للأطفال إلى أثاث فاخر لغرفة الطعام يليق بمنازل الدوقات. لقد ولّى عصر متاجر الأقمشة عتيقة الطراز. على أن تجارة القماش ستظل

مزهرةً لأن من غير المحتمل أن تتراجع جودة الأقمشة الإنجليزية الأفضل في العالم. لكنها ستصبح صنفًا واحدًا من تشكيلة من البضائع ستجعل المراكز التجارية في لندن مثل البازارات في الشرق، باستثناء، فيما أمل، المُنغصات، مثل: الروائح الكريهة والازدحام، التي أتفهم أنها جزء من الحياة في المناخات الشرقية.

الآن لنعد إلى موضوعنا. إنَّ افتتاح قسم الكتب في متجر، المُعلن عنه على نطاق واسع، يوافق صدور روايتك «كورنيليا قنسطنطين» يوم الأربعاء المقبل. لقد جازفتُ بشراء ما لا يقل عن مئة نسخة من هذا الكتاب، وأعتزم أن أعرضها في موضع بارز في يوم الافتتاح. الآن يا سيدتي سأدخل في لبِّ الموضوع. إنَّ قلوب عامَّة القراء تملؤها رغبة محمودة في مقابلة الكاتبين والكاتبات أصحاب الأعمال الأدبية العظيمة، التي تجعل الأدب الإنجليزي، في رأيي المتواضع، الأفضل في العالم. وإنَّ من يُلَبُّون تلك الرغبة يُفلحون في تسديد ضربة لمصلحة الأدب الإنجليزي وأنفسهم. هل يمكننا -أنا وأنتِ يا سيدتي- أن ن عقد اتفاقًا من شأنه أن يسدّد مثل تلك الضربات؟ إن حضرتِ بشخصكِ افتتاح قسم الكتب، وإن أعلنتُ أنك ستتفضلين بتوقيع جميع نسخ «كورنيليا قنسطنطين»، التي سيشتريها الحضور وسيملأ مالها خزانتنا في يوم الافتتاح، فسيكون في هذا منفعتنا ومن ثمَّ هناؤنا، أليس كذلك؟ إنني واثق يا سيدتي أنك ستأخذين هذا الاقتراح غير التقليدي بعين الاعتبار، ثم ستبعين لي بردِّك. من الممكن أيضًا أن تدفعي رسم حضوركِ مُقدِّمًا (لنقل خمسة جنيهات استرلينية).

خادمكِ المطيع يا سيدتي،

موستن لويد».

قالت ويلي: «ما رأيكما في هذا الاقتراح؟ كم يبدو ذلك الرجل ماديًا بغيضًا!».

سألتها لوسي: «ماذا ستفعلين؟».

- أتمرحين؟ ماذا قد أفعل؟ إن وافقت على الذهاب فلن أستطيع النظر إلى عيني الناشر مجددًا.

قالت لوسي بهدوء: «لكنني أتمنى أن تذهبي».

- من أجل ماذا؟ أنا لست مهتمة بالمركز التجاري الذي يعتزم ذلك البغيض إنشاءه.

- لكنه يهمني. فذلك الرجل متزوج شقيقة أمي.

نظرت أنا وويلي إليها دهشتين لأننا لم نكن ندري بتلك الحقيقة المهمة. لقد تطورت شخصية لوسي على نحو يثير الإعجاب، لكننا لم يسعنا سوى أن نراها نبيدة؛ فتاة كان سقوطها في هوة الضياع وشيكاً فأنقذتها منه معجزة. والآن انتابنا الدهول إذ علمنا أن لها أقرباء على الأرجح أنهم أثرياء، بقطع النظر عن باقي صفاتهم.

أخبرتنا عن الخطابات التي تبادلتها والدتها وميج موستن لويد، ثم قالت: «كنت لأرغب في الذهاب حينئذٍ، لكنهما على الأرجح كانا سيُثقلان كاهلي. إذا ذهبت الآن فإنني أملك فرصة أكبر في اتخاذ موقف حازم. يجدر بي ألا أعيق طريق ميرلن».

- حسناً أيتها الحصيصة، هل تستطيعين احتمال رجل مزعج ضئيل يكتب مثل هذا الخطاب؟

- إن تحدثنا عن المظهر فهو ليس ضئيلاً، بل طويلاً ولا يبدو قبيحاً. كيف تعلمين ذلك؟

- لقد لاحظته عندما كنتما في شارع هارلي اليوم. ويوجد أمر آخر. أرادت أمي أن أذهب إلى خالتي وقتما بدأ زوجها العمل في لندن. لكنه الآن قد حظي ببضعة أعوام ليحقق نجاحاً، وقد حققه بالفعل. يدلُّ متجره على ذلك.

قالت ويلي ساخرة: «أصبح مركزاً تجارياً بحق؟».

- إن متجره رائع. وأظن أنه اكتسب اتزاناً بعدما أثمر عمله.

- يا للفتاة اليافعة جامدة المشاعر!

- إنني أفكر في مصلحة ميرلن.

تناولت ماجي الخطاب من الطاولة، رفعته كأنها تُقدِّر ثقله، ثم قالت: «إذن سننظر في قبول هذا الهراء المُنمَّق الذي اقترحه المُتَحذِلُ رغم كل شيء. ماذا تقترحين يا لوسي؟».

اتَّسم وجه لوسي بالجدية والوقار وهي تقول: «سأقترح عليك ما أريد منك فعله. إن رأيت أنني جاوزت الحدَّ فلتخبريني بذلك. سأتفهمك جيدًا».

ثم نهضت الفتاة الطويلة الفاتنة، دارت في الغرفة تتأمل المسألة مُقَطَّبَةً جبينها قليلاً. ثم وقفت بالقرب من ماجي، نظرت إلى الأسفل حيث حذاؤها، وقالت بهدوء تنتقي كلماتها بعناية: «أقترح أن تراسلي السيد موستن لويد بشأن قبولك دعوته. لكن لا تذكرني موافقتك كأنك تتفضّلين عليه بها دون إمعان النظر في عرضه. بل امتدحيه حتى يزهو بنفسه. سيبدأ شعوره بالزهو، قبل كل شيء، عندما يرى عنوان هذا المنزل وشارة النبالة الخاصة باللورد بيرندج على الظرف. ستشيرين إلى الأمور التي ذكرها في خطابه عن مستقبل المتاجر بطريقته نفسها. ستوافقينه الرأي، وسيتعاضم حماسه. على الأرجح أنه محق فيما قال رغم أسلوبه السخيف في صياغة أفكاره. إنني أرى أنه يجيد التعبير عن نفسه بالعمل لا الكلمات، ومتجره الذي لا يُعد سخيلاً دليل على ذلك».

توقفت عن الكلام، سارت في الغرفة مجدداً، ثم استأنفت حديثها: «عندما تقابلينه لن يصعب عليك أن تلاحظيه، وأن تتحيّني الفرصة لدعوته هو وزوجته إلى زيارتك هنا. لا أظن أنه دخل منزلاً كهذا من قبل لغرض آخر سوى أخذ مقاسات البُسُط والستائر. لهذا سيجد في تلك الدعوة إطراءً شديداً، وكذلك زوجته. يمكنك أن تدعي بعض الحضور الذين تتضاءل فرصة مقابلته إياهم في مكان آخر. بالطبع سيدعواننا الزوجان إلى منزلهما، أينما كان، وسنقبل دعوتهما. هناك لن يتعذر علينا أن نكتشف مصادفةً أن السيدة موستن لويد هي الخالة التي كان عليّ الذهاب للعيش معها قبل عدة أعوام».

وقفت يقابل ظهرها المدفأة، تهمز البساط بإصبع قدمها، وأردفت: «طبعاً توجد مسألة ميرلن. (عندئذٍ رفعت رأسها وعلا التصميم وجهها وقالت) هنا سنضطر إلى قول بعض الكذبات».

ظلت ويلي على صمتها وواصلت لوسي حديثها: «سنقول إن أمي ماتت فجأة ولم أكن أدر بشيء عن الخطط التي وضعتها من أجلي. لم أعلم سوى أن لديها شقيقة متزوجة بالسيد موستن لويد الذي افتتح متجرًا في لندن، لكنني رفضت التطفل على حياتهما لأنني لم أقابلهما قط. ولمّا أصبحت وحيدة

تزوجت صيادًا محليًا، مات غرقًا في محاولة إنقاذٍ انتهت بكارثة، وبقيت أنا وصغيري ميرلن في مواجهة العالم. على أن اللورد بيرندج هبَّ لمساعدتي لأن والدي كان جنديًا تحت إمرته في حرب القرم. هكذا نكون قد تخطينا الجانب المُخجل من القصة وعدنا إلى قول الحقيقة. بعد ذلك عشت معكِ، وأنا حقًا أدين لك بكل شيء. هذه هي الحقيقة والربُّ شاهدي».

بهذه الكلمات أنهت لوسي حديثها فجأة، وجثت أمام ماجي تُقبِّل يديها المرتاحتين في حجرها.

نهضت ماجي من مقعدها تاركةً لوسي جاثيةً وقالت: «لا داعي إلى التملُّق. يبدو واضحًا أنكِ نظرتِ في هذه المسألة بمنطقية بحتة فلا تقحمي العاطفة الآن. (صمتت لحظات ثم قالت) إن تظاهرتِ بأنكِ قد تزوجتِ فعليكِ أن تحصلي على لقبٍ جديد. هذا الأمر شائك لأن المرء يستخدم لقبه القديم عفويًا».

نهضت لوسي وقالت: «لم لا يطابق لقبِي لقب زوجي؟ تمتلئ قري كورنوال بأشخاص يحملون اللقب نفسه. هكذا سأصبح السيدة إيفانز بدلًا من الآنسة إيفانز. لقد غرق شخص من أفراد طاقم الإنقاذ يحمل هذا اللقب في تلك الليلة».

ارتجفت ماجي من تلك الواقعية القاسية، وسألتها: «ماذا إن ظهرت والدتك؟».

- لن تظهر. لا حاجة إلى الخوض في هذا الأمر لأنني أوقن أن والدتي قد ماتت.

- حسنًا، سأفكر في هذه المسألة لأنها ليست بالهينة، ويجب عدم التعجل في التعهد بتنفيذها.

- لا تنفّذها إن لم تقبلي بها. إنني أفكر في مصلحة ميرلن فقط.

- وأنا أفكر في مصلحتي، والوحشة التي ستسود كوشي. الآن يجدر بنا أن نخلد إلى الفراش.

إنني أكتب الآن بعد رحيل موستن لويد بزمان طويل، لكن متجره لا يزال يحمل اسمه ذا الاعتبار، ولا يفكر أحد في تغييره. حتى اليوم يرى المار في شارع «أكسفورد» واجهات المتجر الزجاجية تزدان بأحواض الزهور، والأعلام ترفرف أعلى طابقٍ جديدٍ بُني فوق الطابق الأرضي، إذ أصبح المتجر البسيط مركزًا تجاريًا بحق.

كان موستن لويد، مثلما أخبرتنا لوسي، طويلًا ولا يبدو قبيحًا. لبى دعوتنا لتناول الشاي، والمفاجئ أنه جاء مع زوجته في عربة فاخرة. لقد أدرك موستن لويد قيمة الوقت جيدًا ولم يتوان في عمله. وفيما بعد سمعته يقول: «لا يكفي أن تصنع ثروة. يجب أن تحرص على أن يراك الناس ثريًا». كانت تلك قاعدة يُطبّقها على ما يخصه هو وزوجته ومتجره.

لقد شرعنا في تنفيذ خطة لوسي. ذهبنا ويلي إلى افتتاح قسم الكتب وحدها، وعادت مُرهقة لكنها راضية بنجاحها في أداء مهمتها. لقد ألقت كلمة، كما لم تفعل من قبل، إذ دعاها موستن لويد إلى الحديث فجأة. لكنها، كما أخبرتنا، قد تدبّرت أمرها. بعد ذلك ذهبنا معًا لتناول الشاي في مكتبه الذي وصفته بغرفة جلوس صغيرة. هناك قابلت ميغ موستن لويد، وبينما يتناولون الشاي دعتهم إلى ميدان بورتمان. لكنها لم تدع سواهما.

والآن كانا في منزلنا يجلسان بجوار المدفأة. ارتدى موستن لويد معطفًا رسميًا بطول الركبة، طيّا صدره اللامعتان من قماش الساتان. بدا عليه الدهاء والحزم. لكن ابتسامة واسعة كثيرًا ما ارتسمت على وجهه، فتضيق عيناه حتى تصبحا مثل لؤلؤتين صغيرتين، يُزيّن جانب كل منهما مِروحتان جذابتان من التجهيزات. عندما تعرّفت إليه جيدًا اكتشفت أنه يُسخّر هاتين العينين المُتملّقتين، ونبرة أهل ويلز في الحديث التي تشبه الغناء، كي ينال ما يريد. هكذا ينجح في تحقيق كثيرٍ من مساعيه. وإن حدث أن لم تفلح المداهنة في نيل مبتغاه فإنه ينتزعه بضراوة، تتبدى عندما تختفي الابتسامة من وجهه، وتصبح عيناه قاسيتين كأنهما قطعتان من الحديد.

أما السيدة لويد -لنقل السيدة موستن لويد كما اعتادت أن تدعو نفسها- فكانت امرأة مكتنزة الجسد بشرتها ورديةً تبالغ في أناقتها. جلست في ضوء المدفأة الخافت في غرفة الجلوس تتألق ثيابها الفاخرة. كلما أدارت عنقها أو رسغيها، وعلا صدرها أو هبط، فإن ضوء النيران يسطع على قماش ثوبها البراق وتطريزه اللامع، والأساور وحلقات السلاسل الذهبية وقطع الأحجار الكريمة التي تقلدتها. تذكرت شقيقتها، المرأة السمراء النحيلة والدة لوسي إيفانز. وتعجبت من المرأة الهيليوغراف، التي تُرسل برقيات ترفها في كل الاتجاهات.

قدمتني ويلي إلى الضيفين قائلة: «هذه ابنة زوجة اللورد بيرندج». قال موستن الذي اطلع، في ما أظن، على سجل الألقاب النبيلة: «المُبجَّلة الآنسة جايلورد؟».

- لا. هذه سارا ابنة زوجة حضرة اللورد، ولم تنل أي ألقاب. كانت والدتها الزوجة الثانية للورد بيرندج. اسمها الآنسة راينبرو، فهي ابنة السير ريتشارد راينبرو.

خشيت أن يتسبب عدم حصولي على أي لقب في إفساد الخطة. لكن موستن لويد نظر إليّ باهتمام حالما علم من أكون وقال: «راينبرو الحديد، ليس كذلك؟».

لقد بدا عليه الرضا الشديد لأنني من عائلة تعمل في تجارة الحديد. قالت ويلي: «وهذه هي السيدة إيفانز. أتمنى أن تقابلا ولدها يومًا ما. أعتقد أنك ستحبينه يا سيدة موستن لويد. فهو طفل رائع، لكنه فقد والده للأسف. على أن اللورد بيرندج يولي لوسي، أعني السيدة إيفانز وابنتها عناية فائقة. لا أعلم كيف كنت لتدبر أمري دونها، فهي السكرتيرة العزيزة الخاصة بي».

صافحت لوسي خالتها، التي قالت: «أصبحت أرملة في سن صغيرة للغاية يا عزيزتي المسكينة!».

صبت لوسي الشاي في كوب وأخذته إليها، ثم سألتها: «هل لديك أبناء يا سيدة موستن لويد؟».

تنهّدت السيدة فتوهّجت زينتها، ثم قالت: «وا أسفاه! لا. أحياناً نأسف أنا والسيد موتسن لهذا الأمر. لكن عدم إنجابنا قد يكون رحمةً، رحمةً خفيفةً، لأنّ صحتي ليست على ما يُرام».

قال السيد موتسن لويد: «إن السيدة موتسن لويد عُرضة لخطر الإص...». قاطعته زوجته تتمتم: «لخطر وشيك».

- عُرضة لخطر وشيك يتمثّل في الإصابة بانهايار عصبي، لكن قوة العزيمة التي تتمتع بها لا تسمح لها أبداً بالاستسلام له⁽¹⁾.

ناولته لوسي كوب الشاي. ارتشفه وهو ينظر إلى زوجته كأنه يراها تقف على حافة هاوية، وتوشك أن تسقط فيها.

قال: «إنني لا أحبذ مدح السيدة موتسن لويد أمام الغرباء، لكنني آمل أن نكون قد تجاوزنا تلك المرحلة الآن. لهذا أقول إن على الرغم من وهنّ صحة السيدة موتسن لويد فإنها تستطيع الموازنة بين...»

قاطعته زوجته: «الموازنة المعقولة».

- الموازنة المعقولة بين الصحة الجيدة والاعتلال.

- الاعتلال التام.

- أجل، يمكن أن أصيغ العبارة على هذا النحو: الموازنة المعقولة بين الصحة الجيدة والاعتلال التام. إن السيدة موتسن لويد بارعة في العثور على الألفاظ الدقيقة.

قالت ويلي: «من حسن الحظ أنك قادر على توفير جميع وسائل الراحة اللازمة في مثل هذه الحالة».

قال ببعض الكياسة: «أجل، بالطبع. إن كانت السيدة موتسن لويد زوجة لا مثيل لها فأنا لست زوجاً بهذا السوء. لقد وفرت لها حياة هادئة. فهي لا تنهض من السرير قبل وقت الغذاء. وتحظى بقليلة بعد الغذاء وأحياناً في المساء أيضاً. هكذا تحافظ على صحتها».

(1) في العصر الفيكتوري ساد الاعتقاد أن النساء يعانين ضعفاً بيولوجياً متأصلاً؛ أجسادهن ضعيفة وأجهزتهن العصبية واهنة. رأى الأطباء أنهن، بطبيعة الحال، عُرضة لاعتلال الصحة والانهيار العصبي. م

لم يمكثا طويلاً. وقبل أن يرحلا دعوانا إلى تناول الشاي معهما في «كنزنجتون» يوم الأحد التالي. بعدما شاهدتهما ويلي يبتعدان في العربة الفاخرة قالت ضاحكة: «يبدو واضحاً أن السيدة موستن لويد تستمتع بحياتها كثيراً وأنها تتمتع بصحة تامة، ما خلا الدهون التي تملأ جسدها ولا تأخذها على محمل الجد».

ظلت لوسي صامته تستغرق في التفكير. فقطعت ويلي أطراد أفكارها قائلة: «أخبرينا في ما تفكرين».

- أفكر في أن معرفة ما يتحدثان فيه الآن من الأهمية بمكان، وأن تلك المرأة لن تمنح أي قريب لها ثروتها.

- لكنها لا تدري شيئاً عن هذا الأمر بعد!

- لكنكِ ذكرتِ اسم اللورد بيرندج. هكذا منحتها فرصة لو أرادت لاستغلالها. كان ممكناً أن تقول إن شقيقتها تزوجت الرجل الذي شارك في حرب القرم جندياً تحت إمرة اللورد بيرندج. لكنها تجنبت ذكر هذه الحقيقة.

- هل ستذكرين هذه الحقيقة لو كنتِ مكانها؟
لا.

- إذن فلتصبري. هل أنتِ نادمة على الشروع في هذه الخطة؟ هل استوحشتِ من تلك المرأة؟

علا الجمود وجه لوسي إذ قالت: «حتى الآن لم يحدث ما يستدعي الندم، أليس كذلك؟ ثم إنني لا أفكر إلا في مصلحة ميرلن».

10

اتجهنا في عربة مستأجرة إلى الميدان المنعزل في كنزنجتون، الذي تشغله منازل على الطراز الجورجي، حيث عاشت عائلة موستن لويد. كانت العربة كبيرة تسعنا جميعاً. لقد تسلمنا خطاباً من السيدة موستن لويد تخبرنا فيه أنها تودُّ رؤية طفل السيدة إيفانز.

سألت لوسي: «لماذا تريد أن تراه؟».

أجابتها ويلي: «يراودني السؤال نفسه. ربما هذا نذير، نذير خير».

خرجنا في يومٍ صحوٍ من الأيام الخريفية الأخيرة. عندما وصلنا إلى الميدان كان ضوء الشمس يتخلل الأشجار ويضيء النوافذ. لكننا افتقدنا الإحساس بهدوء الطبيعة ورونقها في منزل موستن لويد. لقد شابة معرضاً تكسو القطيفة والحريز المطرز أرضياته وجدرانها، وتملؤه أغراض غالية الثمن لكنها متنافرة. على أن تلك البهجة لم تُعبّر عن ذوق عائلة موستن لويد فقط، بل وما رآه معظم الناس الطريقة المناسبة لتأثيث منزل في ذلك العصر.

فيما يخصّ ترحيبهما بنا فلم يحدث ما يدعو إلى الاستياء. لقد أتى السيد موستن لويد إلى الردهة بنفسه مُسرّعاً لتحيتنا. داعب ذقن ميرلن قائلاً: «إذن هذا هو الفتى الوسيم، أليس كذلك؟».

ثم صعد إلى الطابق العلوي يرشد المربية التي أحضرناها معنا إلى غرفة السيد ميرلن، كما دعاه، حيث سيتناول الشاي وسيتسلى بالألعاب إلى أن تأتي السيدة موستن لويد لرؤيته. لقد انتظرناه في الطابق السفلي حتى عاد وقادنا إلى غرفة الجلوس، حيث تتألق زوجته في ضوء المدفأة. استفسرت ماجي عن صحتها فقالت إنها استيقظت من قيلولة الظهر قبل نصف ساعة. هكذا فهمنا أنها مُحصّنة، لفترة أطول قليلاً، من السقوط في الهاوية التي تتراقص على حافتها.

ساد الاغتراب لقاءنا. كان موستن لويد في مزاج رائع لأن قسم الكتب الذي افتتحه يثبت نجاحه. لقد أظهر بعض السماحة إذ أقرّ بدور ماجي في تحقيق ذلك النجاح. وسرّرتني رؤيته يبيدي لها احتراماً حقيقياً بلا تعالٍ. رغم أنني كنت طفلة حينئذٍ فقد أدركت أن شأن ماجي يعلو. في أثناء الأسبوعين الماضيين كثيراً ما تناولتُ أنا ولوسي الغذاء أو العشاء أو كليهما بمفردنا، لأن ماجي دُعيتُ إلى مقابلة شخصيات مرموقة في أماكن راقية.

لهذا رأيت أن موستن لويد أوفأها حقها عندما قال: «نرى أنا والسيدة موستن لويد في زيارتك هذه يا آنسة ويل بالغ الكرم منك، إذ خصصتينا ببعض وقتك بدلاً من قضائه برفقة الشعراء والروائيين».

ابتسمت ماجي وقالت: «تلك سطوة الجديد. أظن أن الحال سيختلف بعد بضعة أعوام».

الآن كنت أنا وماجي جالستين معه وحدنا. فقد نهضت زوجته قبل لحظات وقالت للوسي: «الآن يا سيدة إيفانز هل يمكننا أن نرى الصغير؟».

وعندما نهضت أنا وويلي بدورنا قالت: «لا. أنا والسيدة إيفانز فقط». في نهاية الزيارة رفض موستن لويد أن يغادر في عربة مستأجرة. أمر سائقه بأن يوصلنا بعربته الفاخرة إلى باب المنزل. وودَّعنا بنفسه كأننا زبائنه الدوقات يغادر متجره في شارع أكسفورد. لقد التزمت لوسي الصمت طوال الطريق إلى المنزل حتى أنهينا وجبة العشاء. وعندما جلسنا بجوار المدفأة قالت: «يجدر بي أن أخبركما بما حدث».

11

كان ميرلن طفلاً رائعاً يجذب الأنظار والقلوب. تولّت ماجي تربيته بأساليبها التي لم تعرف التدليل أو الحماية المفرطة. هكذا أصبح قويّ البنية يظهر الذكاء في ردوده عند التحدث إليه. لكنه قلماً ابتداءً محادثةً بنفسه. لقد نشأ في موضع لا يُقابل فيه سوى قلّة من الكبار ولا يختلط بالأطفال. لهذا كان مُحفّظاً على نحو راقني.

لقد صعدت السيدة موستن لويد الدرج بقوة وبأس ليس معهوداً في «المرضى». اصطحبت لوسي إلى غرفة كبيرة في الطابق الأول حيث تتّقد نيران المدفأة خلف حاجز فاخر. نهضت المُربيّة من مقعد وثير ونهض ميرلن، الذي تعلم آداب السلوك، من الأرض حيث كان جاثياً.

قالت لوسي: «ميرلن، هذه هي السيدة موستن لويد التي منحتك هذه الأغراض الرائعة كي تتسلى بها».

قال ميرلن: «مساء الخير يا سيدتي. أنا أصنع منزلنا».

جلست السيدة موستن لويد في المقعد الي تركته الخادمة وقالت: «هلا تصفه لي؟».

على البساط تفرّقت أكوامٌ من المكعبات الخشبية، لكن ميرلن لم يستخدمها في بناء المنزل، بل في رَسْمٍ مُخَطَّطه. لقد حدّد الطابق الأرضي في ناحية وغرف الطابق العلوي في الأخرى.

قال: «هذا هو المدخل. تصلين إليه من الأرض العشبية بجوار البحيرة. الموضع الذي لا يوجد به مكعب هو الباب. عندما تدخلين منه تجدين غرفة الأنسة ويل حيث تكتب الكتب. يجب أن تلتزمي الهدوء عندما تكون بداخلها، هكذا تقول أُمي. لكن الأنسة ويل تقول إنها تستطيع الكتابة مهما كان الإزعاج شديداً».

تابع وصف جميع غرف الكوخ واستمعت إليه السيدة موستن لويد بعناية. عندما انتهى من الوصف شكرته، ثم سألته: «هل تستطيع القراءة يا ميرلن؟».

- أجل يا سيدتي.

ناولته أحد كتب الأطفال فأظهر حماساً عند قراءته.

- هل تستطيع الكتابة؟

- لا يا سيدتي. تقول الأنسة ويل إنني يجب أن أبدأ تعلمها قريباً.

بعد ذلك ذهبت المُرِيَّة برفقة ميرلن إلى غرفة أخرى. جلست السيدة موستن لويد هادئة بضع لحظات تنظر إلى خواتمها، ثم باغتت لوسي بسؤالها: «هل علمتِ أن والدتك ماتت؟».

على الرغم من أن لوسي أكّدت لماجي أن والدتها رحلت فإنّ ما قالته لم يكن سوى حدس، ولم يصل إليها أي خبر عن هذا الأمر. لهذا تفاجأت بالحقيقة التي أكّدها سؤال خالتها.

قالت: «لا يا سيدتي».

- لا حاجة إلى أن تدعيني سيدتي. يمكنك أن تقولي خالتي. فأنا خالك، أليس كذلك؟

أجابتها لوسي وهي على وشك البكاء: «أجل».

- إذن لا تعامليني معاملة الحمقى. (صمتت قليلاً ثم قالت) قبل بضعة أعوام تساءلتُ لم توقفت والدتك عن مراسلتي فجأةً ونحن نرتّب لمجيئك

للعيش معي أنا وزوجي. لكنني لم أبال كثيرًا بانقطاعها عن الكتابة لأن كثيرًا من الأمور شغلت فكري. كنا قد وصلنا إلى لندن للتو وظننت أننا على وشك الإفلاس. لكن زوجي، من حسن الحظ، يجيد عمله. لقد فاقتني والدتك في كثير من النواحي. دائمًا ما كنت فتاة بليدة بدينة كسلانة...

- لكن يا سيدتي...

- اصمتي واستمعي إليّ. دعيني أقول الصدق حقًا مرّة واحدة فأنا أظهار بما يكفي. ستشهدين هذا إن عشتِ هنا.

- هنا؟ لكن يا خالتي ...

- قلت «إن» لأن لهذه المسألة كثيرًا من المزايا والعيوب. لقد تمتعت بشقيقتي بشجاعة أؤمن من كل ما ميّزني. لكن منطق الحياة غريب، وقد قُسم لها أن تتزوج رجلًا خجولًا بسيطًا مثل إيفانز، وأن أتزوج السيد موستن لويد. لقد انطوت شقيقتي على نفسها إذ أدركت أن حياتها سلسلة من قرار خطأ تلو آخر. وأظن أنها في النهاية فكرت: «فليذهب الجميع إلى الجحيم. سأمضي في الحياة وحدي أتولى جميع أمري». عندما توقفت خطاباتها اعتقدت أنني لن أراها مجددًا أبدًا. لكنني رأيتها قبل ستة أشهر تقريبًا. كانت تشرف على الموت في مستوصفٍ تابعٍ لواحدٍ من دور العمل⁽¹⁾ ليس بعيدًا عن لندن. لقد عثر العاملون هناك على واحد من خطاباتي القديمة بين أغراضها، أمل أن تكون قد احتفظت به لأنها كنت لي بعض المودة. لكنني واثقة تمام الثقة أنها لم تحتفظ به كي تلجأ إليّ لأن هذا ليس من طبعها. على أي حالٍ لقد أرسل المسؤولون إليّ خطابًا بشأنها، فذهبت أنا والسيد موستن لويد إليها وأخرجناها من ذلك المكان. لقد رحلتُ، إن جاز التعبير، في ترف. في أحضان الترف. كانت لوسي تبكي، إذ جادت ذاكرتها بمشاهد تُندي العين. تذكّرت المرأة السمراء النحيلة تنحني نحوها والحملان تثغو مع بزوغ الفجر، والثياب

(1) دور العمل = Workhouses: مؤسسات توفّر فرص العمل والمأوى للمعوزين في كل من بريطانيا وأيرلندا واسكتلندا. م

الفاخرة تشتعل في بقعة من الحديقة، وعلبة الكاكاو الصفيحية والمبلغ الضئيل بداخلها.

قالت خالتها: «لن أقول لا يوجد ما تبكي بسببه لأن ما يستدعي بكاءك كثير. لقد سمعتُ منها كل شيء في الأيام الثلاثة الأخيرة التي أمضيتها معها قبل رحيلها. كرّست أمك كل جهودها توفًا إلى رؤيتك ذات شأن، لكنك فطرت قلبها. لا تظني أنني تفاجأت بولدك. لقد أخبرتني بكل ما حدث، لكنها لم تدرك بأن الحظ ابتسم لك. وما أكثر ما أرادت العودة إلى القرية كي تراك. لكن كبرياءها ألجمتها عن فعل ذلك، أو ربما كان عنادها مانعًا. فسري الأمر كما تحبين. لقد ظننت أن حياتك قد خربت. لكن من حسن حظك أنك عثرت على تلك الأنسة ويل، التي لم نتفاجأ بوجودك معها وعلمنا بما فعلته من أجلك. أكّرر القول إنني واثقة أن شقيقتي كانت تفضل الموت على أن تأتي إلى بابي لتسألني معروفًا. لكنها لمّا وجدتُ أنني من جئت إليها، إذ نال الوهن من إرادتها، أخبرتني بما حدث وناشدتني أن أعنتي بك. لقد وعدتها بفعل ذلك، ولا أجد حرجًا في أن أخبرك بأنني قطعت ذلك الوعد كي أطمئنّها في ساعاتها الأخيرة، دون عزم على الإيفاء به إن لم أجده مناسبًا لي أنا والسيد موستن لويد. توقفي عن البكاء الآن بحق الرب. حاولي التحلّي ببعض صلابة أمك».

كفكت لوسي دمعها. نظرت دَهْشَةً إلى تلك المرأة، وتبدّى التوقير في نظرتها. لقد أملت أن تنطلي حيلتها على خالتها، لكن اتضح أنها تدري بجميع خطواتها. كانت تجلس متراخية في مقعدها مثل الحلوى الهلامية، لكن لوسي شعرت بصلابة الجوهر الذي يخفيه مظهرها.

سألتها: «كيف علمتِ بأمر الأنسة ويل؟ و... وكل شيء؟».

- بالتحقق من الأمر في مكان حدوثه، ليس هذا بالشيء الصعب. أؤكد لك أننا لم نكن لنفعل شيئًا من أجلك إن اتضح أنك تصبحين ساقطة تحمل بين ذراعيها طفلًا قذرًا مشاغبا. لكن التقرير جاء مُرضيًا جدًا.

- تقرير؟

- أجل، تقرير محامي السيد موستن لويد. لقد ذهب إلى بلدتك مدة أسبوع يمضي وقته في حانة في بورتفن، ونقل إلينا جميع أخبارك. أهنئك على الانتباه إلى ارتداء خاتم زواج والادعاء أنك أرملة. لو كنت مكانك لفعلت

الشيء نفسه. لكنَّ ما من رجل قد يجروُ على أن يفعل بي تلك الفعلة قبل أن يمنحني خاتم الزواج أولاً».

ثم ضحكتُ ضحكة خافتة، والتمع في عينيها السوداوين الضيقتين درايةً بالدنيا وأحوالها كان على لوسي، كما أدركت الآن، أن تأخذها بعين الاعتبار. لقد شعرت أنها دجاجة تلاحق ثعلبًا.

استأنفت الخالة حديثها قائلة: «اعلمي أن حظك سعيد، لأنك لو قَدِمْتَ إلينا عندما انتقلنا إلى لندن حديثًا لاضطُرتِ إلى العمل الشاق. في تلك الفترة لم نعرف راحة. ولم نكن نمتلك هذا المنزل أو طاقم خادميه. لا تنسي هذا الأمر أبدًا واعلمي أن زوج خالتكِ يستحق كل احترامك. لقد حظيت بأُمّ استثنائية، لكنني لا أظن أنك أدركتِ هذه الحقيقة قط. والآن لديك زوج خالة استثنائي. هذه حقيقة أنصحكِ بتذكرها. قد لا تكون خالتكِ ذات شأن، لكن الخدع لا تنطلي عليها. (ضحكت مجددًا، فصاحب بريق الأساور والقلادات تألّق عينيها، ثم أردفت) يوجد من البشر من تخضع الظروف لإرادتهم، والسيد موستن لويد واحد منهم. لقد قال لي: «ستتزوجين بي يومًا ما يا ميغ. لا يمكنك فعل شيء حيال هذا الأمر». ثم جاء اليوم الذي تزوجته فيه رغم أن خطواته في عالم الأعمال لم تكن قد توطّدت بعد. وقد قال: «سنفتتح متجرًا في سوانزي يا ميغ». وافتتحنا متجرًا في سوانزي ظللتُ واقفة خلف منضدة البيع به حتى ازدهر العمل، وأصابني ساقِي الدوالي التي لن أُشفى منها. هذا هو مرضي يا عزيزتي؛ دوالي الساقين. لكن من غير اللائق الحديث عنه، لهذا نتجنب ذكره. ثم قال: «ما رأيك بمتجر في لندن يا ميغ؟ في شارع أكسفورد؟». وقبل عام قال: «ما رأيك في كنزنجتون؟». وها نحن هنا».

الآن تبدّى الإعجاب في نظرة لوسي إلى خالتها. لحظت الكياسة واليقظة في عينيها. وتعجبت من سذاجتها عندما ظننتها فريسة تستطيع حيلها السخيفة الإيقاع بها.

أردفت الخالة: «وقد خضعت الظروف لإرادته فيما يخصك أيضًا. لقد قال: «ما رأيك في أن نجلب تلك الفتاة وابنها إلى لندن يا ميغ؟»، فدخلت حياتنا مباشرة. كان ما حدث مدهشًا. من المدهش حقًا كيف تنهياً الأحوال لتحقيق ما يعزم السيد موستن لويد على فعله. لقد علم أن الأنسة ويل ستسافر إلى

لندن إذ صدر كتابها. لهذا سألها أن تأتي إلى متجره في خطوة أولى تقترب بها إلى التعرف إليك ومعرفة طبعك. ثم دعتنا بدورها إلى تناول الشاي. هناك ظهرت أمامنا فجأة، إذ إننا لم نكن نعلم أنك رافقتها إلى لندن. وها أنتِ هنا الآن، وستبقين».

أزعج لوسي ثقة خالتها في مقدرتها على تسيير كل شيء وفق رغبتها، لهذا جرئت على أن تقول: «لكنكِ يا خالتي لم تسأليني عن رأيي! كيف تثقين أنني سأرغب في البقاء؟».

- أسألك؟ ألم أقطع وعدًا لشقيقتي؟ وماذا تقصدين بالرغبة في البقاء؟ ألا ترغبين في البقاء؟ هل تعتقدين أن جولات الأنسة ويل هنا ستدوم طويلًا؟ ماذا ستفعلين بعدما تنتهي؟ انظري إليك! إنني أستطيع قراءة كتابك مثل كتاب مفتوح. أنتِ مُدَلَّة، أمضيتِ عمركِ كله مُدَلَّة. في البداية دَلَّلْتُكِ أُمكِ، والآن اشكري الرب لأن الأنسة ويل بجانبكِ بعدما كنتِ، مثلما سمعت، على حافة الهاوية. لكنكِ من المسعودات؛ متى تحتاجي إلى العون تجدي من يمدُّ يده إليك. وفي هذه المرة ها هي يدي أمامكِ. لن يمتلئ هذا البيت بالأطفال، ليس أطفالاً على أي حال. هذه الحقيقة موجعة حزينة، ومن الآن فصاعدًا لن نتحدث عنها أبدًا. لكنها قائمة، وها هي تصبح دَرَجَة أخرى ترتقينها عندما احتجبت إليها. لهذا لا تتفوهي بترهات حول رغبتكِ في البقاء. ماذا سيحل بولدكِ؟ تهملكِ مصلحته، أليس كذلك؟

قالت لوسي بعدما غلبتها الخالة بالحُجَّة: «أجل يا خالتي».

- إذن فقد سوينا هذه المسألة. لا تخلعي الخاتم ولا تنسي أنكِ أرملة. يوجد أمر آخر. لا يعجبنا أنا والسيد موستن لويد الاسم ميرلن. لقد قررنا أن نبذله ليصبح ميرفن. إنه تغيير طفيف، ولن ينتبه الصغير إليه.

- لكن يا خالتي...

- هذا هو كل ما في الأمر. نرى أنا والسيد موستن لويد أنكِ فتاة مهذبة لطيفة وأن ميرفن طفل رائع ذكي، ذكي بما يكفي ليشارككِ على ما تفعلينه الآن من أجله عندما يكبر. ولا أقصد بهذا أن عليكِ أن تخبريه بالحقيقة. ماذا برأيكِ كان من الممكن أن يعمل زوجكِ؟

قالت لوسي كاذبة: «لم أفكر في هذا الأمر قط يا خالتي!».

- جيد، هكذا لن تُضطري إلى تذكر ما قد تنسينه. لقد فكرنا أنا والسيد
موستن لويد في أن نقول إنه كان مزارعاً ثرياً. قد يُفسّر هذا الأمر بطرق
عدّة وفي هذا ميزة. هل يناسبك؟

- يناسبني كثيراً يا خالتي.

- ستقلّك العربة إلى المنزل، وستعيدك إلى هنا حالما تصبحين متأهبةً
للعيش معنا. لا تهتمي بشأن الثياب أو أي شيء آخر. سنتسلى بالتسوق.

- أجل يا خالتي. أعتقد أن من المُسلي العبث بمتجر السيد موستن لويد.

- لقد طلب مني أن أخبرك بأن تدعيه العم توم. وسنذهب للتسوق في
شارع بوند.

الفصل العاشر

1

في السادسة عشرة من عمري غادرت تريسانت. حينئذٍ لم أظن أنني قد أعود إليها سوى ضيفة. لكن الحياة نادرًا ما تسير وفق توقعاتنا. وهأنا الآن في منزل تريسانت، وأواصل كتابة سيرتي الذاتية التي دوّنتها في أماكن عدّة، ومن غير المحتمل أن أغادره في سنّي هذه. لكن من يدري؟ إنَّ أهمَّ درس علّمتني إياه حياتي الطويلة هو أن أتوقّع المفاجآت. وإن سُئلت صياغة شعار عائليّ فلن أختار «لتكن مشيئتي»، الذي يُبرز التحدي والإقدام المُميّزين لعائلة جايلورد، بل سأختار «من يدري؟».

يجدر بي أن أذكر سريعًا التغيرات التي وقعت في الأعوام القليلة التالية لعودتنا أنا وماجي من لندن، بعدما غادرت لوسي إيفانز وابنها ميرفن، ذو الاسم الجديد، إلى منزل عائلة موستن لويد. لقد تحسنت صحتي واستغنيت عن النظارة الطبية إلى الأبد، أو بالأحرى إلى أن استعنت بنظارة الأوبرا ذات المقبض. على أن تلك الأخيرة دخلت حياتي متأخرًا، ولا تزال تساعدني في الحلقة غاضبةً إلى المزعجين حتى أربكهم بنظراتي.

لقد أدركتُ سخافة الرغبة في أن أشبه الآخرين أو أن أفعل ما يفعلونه. وعلى الرغم من إعجابي بسالي فإنني أحجمت عن التطلّع إليها وتقبّل ذاتي. لم أعد أرى غياب التناغم بيني وبين الخيول مُخجلًا أو مؤسفًا. توقفت عن

ركوب ماكفليمسي وذهبت حيثما أردت سيرًا. لقد خنقني الادعاء. وعندما اكتشفتُ أن ويلي تعلم بتظاهري، الذي نَجَمَ عن حنقي، انتابني الشعور بالخزي. لكنه كان شعورًا إيجابيًا، إذ دفعني إلى أن أصبح على سجليتي المُملة العادية.

على أنني أعتقد أن سارا راينبرو الجديدة الحقيقية راقت الجميع أكثر من سابقتها. أتذكر أن تلك الأعوام الأخيرة التي أمضيتها في تريسانت كانت هادئة مُستقرّة. استحسن أبي حالي واتفقنا جيدًا. ولأن مشاعر الفتيات تنزع إلى التبدل فإنني، منذ تلك الفترة، لم أعد أُكِنُّ له المشاعر القوية التي تملكتني في طفولتي. أصبحت ماجي ويل، أقصد الآنسة مارجريت ويل صاحبة الكتب المُحتفى بها، هي محور حياتي. لقد تعمّق حبي لها ونما إعجابي بها، مثلما قد تشعر الفتيات اليافعات عندما يخالطن السيدات الكبيرات. لقد أدركت حقيقة شعوري هذا قبل عودتنا من لندن. في ظهيرة اليوم السابق لسفرنا إلى كورنوال ودّعنا لوسي وميرفن وغادرا في عربة السيد موستن لويد. وفي مساء اليوم نفسه خرجتُ ويلي للعشاء فلم يبقَ معي في المنزل سوى بعض الخدم. ساءتني وحدتي وأويت إلى الفراش مبكرًا. لكنني لم أستطع النوم، وسرعان ما أدركت أنني ظللت مستيقظة في انتظار عودة ماجي.

كان الليل قد انتصف عندما سمعت صوت العجلات يتبعه وقع خطواتها على الدرج. عندئذٍ استرخيت في سريري وسحبت الغطاء حتى أذنيّ أستعد لنوم هانئ. لكن الباب انفتح، فنهضتُ لأراها تقف عند مدخله، تحمل شمعدانًا به شمعة موقدة. ثم دخلت الغرفة ووضعتَه على طاولة بجوار سريري. مالت نحوي تُقبّلني وقالت: «أردت فقط أن أتأكد أنك بخير. ظننت أنك قد تشعرين بالوحدة».

لم أعتد قبلات ماجي لهذا خفق قلبي فرحًا. أحطت عنقها بذراعيّ ومنحتها قُبلة أودعتها كل حبي لها.

قالت ضاحكة: «يا له من عناق قوي من فتاة شديدة مثل الدُب!».

ثم أرقدتني في السرير. ضبظت ثيابي وغادرت بهدوء. وسرعان ما غلبني النوم الهانئ الذي كنت أتوق إليه.

في بداية الربيع التالي لعودتنا من لندن انتقلت إلى كوخ ويلي وأصبحت السكرتيرة الخاصة بها. أَرْضَى هذا الحال الطفلة التي كُنْتُهَا. لقد جعلني أسابق سَنِّي، كما يقولون، ومنحني سعادة غامرة. أصبحنا نزور منزل تريسانت زيارات قصيرة دافئة. اعتدنا أن نتناول هناك وجبة واحدة على الأقل كل يوم. وسمعنا كثيرًا من مزاح أبي إذ ينتقد حياة الكسل التي تعيشها سالي، وينصحها بالاستفادة من تأمل حياة العاملات. أظن أنه كان يرى مسلكي في ذلك الوقت غريبًا ومن غير المحتمل أن يدوم. لا شك أنني حقًا كنت فتاة غريبة الأطوار قد يرسم سلوكها البسمة على الوجوه. وقد سَرَّنِي عثوره على سبب للابتسام.

قال: «كيف أصبحت السكرتيرة الخاصة بنا اليوم يا آنسة ويل؟».

- رائعة يا سيدي. وسرعان ما سيصبح من غير الممكن الاستغناء عنها. لكن ماذا سأفعل عندما تتركني؟ يومًا ما ستقع في الحب وسترغب في الزواج.

قلت بحدّة: «لن يحدث هذا أبدًا. لن أتركك أبدًا».

بدت الجدية في صوت سالي إذ قالت: «لا يقابل المرء في كورنوال من قد يجعله يبدأ في التفكير في حبّه».

نظر أبي إليها دَهْشًا، ثم قال: «إن الوقوع في الحب واحد من الأمور التي، فيما يبدو، لا بداية لها. لهذا يُدعى وقوعًا؛ فجأةً تصبحين مُغْرَمَةً. (صمت برهة، ثم قال وهو ينظر إليّ نظرة جادّة) أنتِ لا تشبهين والدتكِ أبدًا يا سارا». كنت لا أزال أضع نظارتي، تعلو الجدية وجهي، وحادّة نظراتي. لكنني بالطبع لم أستطع تخمين أي فكرة أو شعور قد قاده إلى إبداء تعليقه السابق. أحبته في جمود: «أجل. ويؤسفني قول إنني لن أشبه أُمِّي أبدًا».

قال: «لكنكِ فتاة جيدة. (ثم عاد إلى مزاحه قائلاً) آمل أن يكون الأجر الذي تدفعينه لها مُجزيًا يا آنسة ويل».

شاركته ويلي المزاح: «لا يا سيدي. لقد علمتني التجربة أنَّ أجر المُربّيات والسكرتيرات وما إلى ذلك زهيد للغاية. لهذا أستغلها».

كان هذا التعليق لاذعًا وربما أثار استياء أبي. على أنه بعد الظهيرة أتى إلى كوخنا برفقة إدي رودا يقود «منخار الفجأة». أخبر رودا أن يعود بعد ساعة، وفي أثنائها خاض هو وماجي حديثًا طويلًا أخبرتني به فيما بعد. لقد تساءل لم تتكبد عناء مواصلة العمل مُربّية الآن، إذ لم تعد في حاجة إليه. فأجابته قائلةً إنها سعيدة برفقتنا نحن الفتاتين وتودُّ أن تتّم المهمة التي بدأتها. ثم إن الصباحات تكون ملكًا لها. عندئذٍ أبدى أبي اعتراضين: أولهما أنه لا يرى من اللائق أن تعمل امرأة ناجحة مثلها مُربّية. لكن ماجي أجابته بصراحتها المعهودة قائلة إن من المؤسف أن عديدًا من الآباء، الذين عليهم أن يتحلّوا بالحكمة عند اتخاذ القرارات المتعلقة ببناتهن، يعهدون بمسؤوليتهن إلى نساء لسن ناجحات ولا يتمتعن بمؤهّلات المهنة التي يُفترض بهن أدائها. كان الاعتراض الثاني أنَّ أبي يرى الوقت قد حان لأن نستأنف نحن الفتاتين تعليمنا في المدارس. لم تستطع ماجي التدخل في هذه المسألة لأنه صاحب القرار فيها، فأكد أنه يريد سماع رأيها.

قالت إن على الرغم من أنها لا تعلم الكثير عن نوع المدارس التي يقصدها فإنها ترى أن الآنسة سالي، على الأرجح، ستنتفع بما تقدّمه إحداها أكثر من الآنسة سارا.

قال: «لا أريد أن أشعر أنني أفرّق بين الفتاتين في المعاملة».

- هذا بالضبط ما عليك الشعور به لأنهما فتاتان مختلفتان ولكل منهما ما يناسبها. سيسرّني أن تظل سارا حيث تكون. هذا هو الأفضل لها.

- لكن ماذا عنك؟ لا أظن أن حلمك هو البقاء في هذه البقعة النائية المهجورة. أي سبب يا ترى يطيل بقاءك هنا؟

- أرى يا سيدي أنَّ لو نعتَ شخص آخر هذا المكان بالبقعة النائية المهجورة لأفحمته بجوابك.

- أجل، هذا صحيح. لكن هل هذا المكان هو الأنسب لك؟! إنني أتساءل حول الغايات التي تودين أن تبلغها في الحياة.

- ليس لي غاية في الحياة سوى أن أعيش يومي راضيةً قدر ما أستطيع، وسعيدةً إن كانت السعادة ممكنة. إنَّ من يمضون حياتهم في وضع الغايات مُضجرون، وأحياناً يؤثرون سلباً على غيرهم. صدَّقني يا سيدي حينما أقول إنني راضية هنا، ويسعدني أن تأذن لي في البقاء فترة أطول. لكن تأكَّد أنني لا أعرف قيودًا. عندما أرى أن وقت رحيلي قد حان فسأرحل.

بعد تلك المحادثة غادرت سالي إلى مدرسة داخلية في «ساسكس». وبدأت حياتنا الجديدة في تريسانت، حيث أبي ورودا في المنزل، وأنا وماجي في الكوخ.

3

متى أكتب الكلمة «ديسمبر» تتبادر صورتان إلى ذهني. تتضمن الأولى لندن وسماءها ذات الضباب الكثيف، حيث يحلُّ الظلام في الثالثة والنصف عصرًا، ومنتاول الفطائر بجوار المدفأة والستائر مُسدلة. أما الثانية فهي تريسانت، حيث يصل إلينا ضباب البحر الرقيق لا الخانق، وتفتتح طلائع الكاميليا، وتعبق حديقة الكوخ بعطر زهور الشتاء.

في واحد من تلك الأيام عدت أنا وماجي إلى الكوخ بعدما سرنا في الغابة على امتداد البحيرة، حيث جمعنا أغصان العَسَلَة ذات الأوراق الخضراء الغضة. قبل أن ندخل الكوخ قصدنا الحديقة الخلفية الصغيرة كي نرى زهور الكاميليا. قريبًا ستزدهر حمراء ووردية خالصة، أو بيضاء موشاة بالأحمر أو الوردِي. لكن الآن تلوّنت طلائعها بالأبيض وازدان منتصفها بأسدية ذهبية. وقفنا نتطلع إلى تلك الزهور البديعة تتألق إزاء أوراقها الكبيرة اللامعة ذات الخُصرة الداكنة، فإذا رودا يصيح قائلاً: «هل يوجد أحد هنا؟».

ذهبنا إلى باب الكوخ الرئيس لنجده هناك، فقال بلا مقدمات: «لقد أرسلني حضرة اللورد كي أخبركما بأن الأمير ألبرت قضى نحبه».

لَفَنَّا الصمت لحظات، ثم قال رودا: «حصد الموت روحه مثل الجميع. يقولون إنه كان ألمانيًا».

لقد حان أجل الأمير، لكن إعلامنا المفاجئ برحيله أثّر بي عميقًا. ليس لأن زوج الملكة يعني لي أي شيء، بل لأنه كان جزءًا من إحدى ذكرياتي الرائعة. عندئذٍ تلاشى مساء ديسمبر حولي وأخذ مكانه صباح مايو الصحو، إذ ترفرف الأعلام إزاء السحب على قمة قصرٍ من الكريستال يتلأأ. كنت أمسك بيد أبي وأمي عندما دخلنا القصر رمز «السلام»، الذي سرعان ما سيغيب وستندلع الحرب. وسيسهم الحديد عظيم القدر والأهمية في كسبها، لهذا سيحصل أبي على لقب فارس. لكن المستقبل في ذلك اليوم لم يكن قد أثقلنا بأحداثه، وتدفقت موسيقى الأرغن مثل الأمواج تغمر روضة الزهور. الآن رأيت بعين الخيال اللحظة التي حُفرت في ذهني: سار الأمير وسط الأبهة يمسك بيد ابنته الصغيرة، والملكة تمسك بيد ابنهما الصغير. كانت ترتدي الوردي والفضي، لكنها اليوم ستكتسي بالسواد.

لقد عدت بذاكرتي إلى الورا لحظاتٍ فقط، لكنني استغرقت في الذكرى تمامًا، حتى كدت أجفل عندما رأيت ماجي تدير زهرة كاميليا بيضاء بين أصابعها، وتقول الجواب المعتاد في موقف كهذا: «تقدّم بالشكر لحضرة اللورد على إعلامنا بالخبر. هلا تتفضل بالدخول وشراب كوب من الشاي؟».

- أجل، شكرًا لك يا آنسة. فأنا قلّما أحظى بوقت ممتع هذه الأيام.

قالت ماجي ضاحكة: «إذن هيا تعال. دائمًا ما نستمتع أنا والآنسة سارا بجلسات شرب الشاي معًا، ويسرُّنا أن تنضم إلينا».

دخل رودا الكوخ قاصدًا المطبخ ووضع الغلاية على الموقد. أمّا أنا فرتبت الأواني الخزفية على المائدة، وقطّعت ماجي الخبز ودهنته بالزبد. لقد حلّ المساء فأسدلت الستائر، ونكزت حطب المدفأة بالعصا. كنا في ذلك الوقت من اليوم الذي أحتفي به سرًا، إذ يرحل النهار وتغشى الظلمة الفضاء الواسع، الذي يفصلنا أنا وماجي عن العالم؛ يعزلنا في محيط كوحننا الدافئ، ويلفنا بسكون لا يقطعه سوى نعيق البوم، أو زعيق مالك الحزين، أو تغريد الكراوين. في بعض الأحيان، عندما يكتمل القمر، كنت أقف عند عتبة باب الكوخ كي أستمتع بمشاهدة المساحة الواسعة، التي وجدت فيها

الدرع الحامي لخصوصيتنا. أرى سيقان القصب تنتصب في البحيرة التي ينيرها ضوء القمر، والبجعات ذات الأعناق المَحْنِيَّة تتمايل مثل زهرات بيضاء بهيَّة. أمامي الغابة القاتمة المهيبة، وفوقي السماء الرمادية. وطوال الليل يبلغ سمعي من البعيد همهمة الأطلسي المتواصلة، ودويُّ الأمواج عندما تتكسر على الحاجز الرملي: هدير يتبعه سكون، فهدير من جديد ثم سكون. لا يزال الزورق راقداً على صفحة المياه قائماً وساكناً كأنه تابوت. لقد بدا لي قائماً بذاته. وكثيراً ما تساءلت كيف سأشعر إن أصبحت مكانه: أرقد هناك طوال الليل ساكنة، وأستيقظ مبكراً مع شروق الشمس، التي تسطع أشعتها على الندى الذي يغطيني. في تلك الأيام أدركت كيف كان شعور كولرديج عندما كتب عن: «الدَّاء الفارغة على متن السفينة»، التي حلم بأن يملأها الندى كي يتسنَّى له أن يروي ظمأه. في ذلك المساء بدا كل شيء رائعاً في نظري، ما خلا وجود إدي رودا معنا. بعدما تناولنا الشاي أصرَّ على أن يغسل الأكواب بنفسه. ثم ملأ غليونه واسترخى في مقعد وثير.

قال وهو يحدِّق إلى النيران دون أن ينظر إلينا: «أظن أنكما لم تعودا على تواصل مع الفتاة لوسي إيفانز».

لم تكن ويلي تعرف المجاملة وتفضّل المواجهة الجذريَّة، لهذا قالت: «لا، أتلقَّى خطاباً منها كل أسبوع».

- ألا تبعث أبداً برسالة إلى الأهالي هنا؟

- نعم. ولا أتوقع منها أن تفعل ذلك، ألا توافقني الرأي؟ على أنها من حين إلى آخر ترسل تحياتها إلى حضرة اللورد. لكن لا يوجد سواه من قد تتذكره بامتنان، أليس كذلك؟

- ألا تتذكر رجلاً كبيراً مثلي نال منه الزمان؟

- ربما لم تنسك، لكنها لا تخبرنا بذلك.

- وجودها بين هؤلاء الغرباء لا يبدو صحيحاً في نظري.

طمأنته قائلة: «لا داعي إلى قلقك أو إلى قلقها يا قبطان رودا. إن الغرباء الذين تعيش معهم يعتنون بها جيداً».

- أودُّ أن أسمع منها هذه الكلمات. عندما يحين الوقت المناسب أودُّ أن تسمح لي بالحصول على عنوانها.

نهضت ماجي، ألقت بحطبة في المدفأة، وظلَّت واقفة على بساطها تنظر إلى رودا. على الرغم من وقوفها وجلوسه فإن انخفاض رأسها تجاهه لم يكن شديدًا بسبب فارق الطول الكبير بينهما. حينئذٍ كنت أمثالها طولًا بالفعل.

لكن تصميمها وعنادها الشديدين ارتسما على وجهها عندما أجابته قائلة: «طوال الفترة التي عاشتها لوسي في هذا الكوخ أبدت مقدرة كبيرة على اتخاذ قراراتها، لهذا لم أرَ قط أن الوضع بينكما يستلزم تدخلي. وذات مرة أخبرْتُ حضرة اللورد أن المسألة القائمة بينكما لن يسوِّيها غيركما. لكن الآن بعدما اختارت لوسي الرحيل عن هذه البلدة، ولا يبدو أنها ترغب في رؤية قاطنيها مجددًا، فلتتأكد أنني لن أمنحك عنوانها. لهذا لا تحدَّثني عن لوسي مجددًا أبدًا».

فاجأته الحدة في جوابها الحازم وبدا عليه الخجل، فتمتم: «لا يبدو وضعها صائبًا. أقصد وجودها وسط الغرباء عرضة للخطر».

وجَّهت ماجي طعناتها الأخيرة إذ قالت: «لا يخفى علينا كم كانت قريبة إلى الخطر هنا وسط أهل بلدها. والآن انتهى الحديث».

بدا واضحًا في كلماتها أنها تأمره بالمغادرة فنهض القبطان رودا. وبعدها رحل قلت: «لقد قسوت عليه يا ماجي».

- قسوت؟ لقد كنت أرعد خوفًا من أن يجيبني بغلظة. لكنها كانت فرصة مواتية لوضع حدٍّ لسخافته.

4

خلال الفترة التي أحاول سرد أحداثها بإيجاز ذهبت أنا وماجي إلى لندن في زيارات سريعة. لقد شهدت تلك الأعوام هوسًا بالمضاربات المالية، بخاصة في قطاع السكك الحديدية. كان جوزيف باكستون، الثري الذي بدأ حياته العملية بستانياً وبلغ أوج نجاحه، وفقًا لما يُقال، عندما صمَّم قصر

الكريستال، قد شرع في الاستثمار في أسهم السكك الحديدية قبل زمن طويل من افتتاح القصر في عام 1851. وقد اتَّبَعَ آلاف المواطنين الطريق نفسه، دون تبصُّر، تَوْقًا إلى تحقيق الكسب السهل السريع. سار النقيب هنري جريمشو في الطريق نفسه، لكنه لم يَجِنِ سوى الخراب. لقد امتلك والده مصنعًا في «لانكشير». ورغم أنه لم يكن رجلًا رفيع الشأن فقد امتلك المال اللازم ليتعيَّن ابنه ضابطًا في الجيش، أملًا في أن يساعده على نيل مكانة اجتماعية عالية⁽¹⁾.

لكن هنري الشاب كان رومانسيًّا حالمًا. تزوج بإحدى العاملات في مصنع والده زواجًا غير متكافئ من الناحية المادية. أمضى في الجيش وقتًا عصيبًا، لكنه استطاع احتماله. وتقاعد بعدما حصل على رتبة نقيب. في الوقت نفسه تقريبًا رحل والده تاركًا له ثروة معقولة. هكذا استطاع شراء منزل فاخر في الحيِّ الراقي «سانت جونز وُود».

تضمن ذلك المنزل حديقة، وبركةٌ يميل فوقها تمثال سيدة رخامية عارية، تمدُّ إحدى يديها إلى الأسماك الذهبية السابحة وسط زنابق الماء، وبالأخرى تحرص على ألا ترى أعين الأسماك الجاحظة ما يُخجلها. نَمَتْ في أرضه شجرة توت عتيقة أسفلها مقعد وثير للجلوس. وفوق تعريشة في مؤخرة المنزل أسدلت أشجار الوستارية أغصانها المزدانة بالزهور البنفسجية ربيعًا. هناك كان ممكنًا أن يعيش النقيب جريمشو وزوجته آني، الجذابة ذات الطبع الطفولي، حياةً سعيدةً معًا لو لم تلدغه أفعى الاستثمار في أسهم السكك الحديدية. لكنه لم يتمتع بالفطنة أو الخبرة الكافية بشؤون المال والأعمال. وفي أحد الصباحات الشتوية قارسة البرودة تطلَّعت السيدة الرخامية، باحتشام تامٍّ ولامبالاة شديدة، إلى الأسماك الذهبية وهي تقضم شعر أذنيه وشاربه خلال الساعات القليلة، التي مرَّت قبل أن يُرْفَعَ جثمانه من البركة في السابعة صباحًا.

(1) في بريطانيا بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر كان ممكنًا شراء الرتب العسكرية في وحدات المشاة وسلاح الفرسان في الجيش البريطاني. كي يحصل المرشَّح على أولى الرتب العسكرية يجب أن يُثَبِّت امتلاكه بعض المهارات، مثل: الرسم العسكري وإجادة أي لغة أوروبية بخلاف الإنجليزية. م

لهذا سعدتُ أني جريمشو التي تملك منزلاً فاخراً لكن دخلها لا يتعدى خمسة جنيهات في الأسبوع، بأن تحظى بنزِيلٍ هاديٍّ مثل ماجي ويل. لقد أدركت ماجي أنها، يوماً ما، ستستقر هنا في المنزل رقم 24 في شارع «بمبروك». وحتى يحين ذلك اليوم قررت أن تنزل به في أثناء زياراتها الكثيرة إلى لندن. كانت تبغض الفنادق. أصبح دخلها جيداً، بل وتوشك أن تكون ثرية. هكذا استطاعت دفع مقابلٍ مُجزٍ للسيدة جريمشو.

في ذلك المنزل مكثنا عندما قدمنا إلى المدينة. في الطابق الأول الذي يُطلُّ على الحديقة خُصَّصَ لماجى غرفة الجلوس، ودورة المياه التي لم تُشكَّل جزءاً معتاداً من البيوت في تلك الأيام، وغرفتان للنوم. تولّت السيدة جريمشو الطهو. وأدّت جلوري جاين، التي لن أصفها الآن، باقي المهام.

5

في الصيف السابق لديسمبر، الذي قصد القبطان رودا كوخنا في أحد أيامه ليخبرنا برحيل الأمير ألبرت، قابلنا أحدهم مصادفةً.

لقد قرأت جريدة «أوبزرفر» قبل عام تقريباً من زيارة رودا، وقصصت منها عدداً من الفقرات كي ألصقها بدفتر القصاصات الخاص بي. إنني لا أزال أحتفظ بدفاتري، وسأقرأ منها بعض العبارات التي أثارت اهتمامي.

تبدأ إحدى الفقرات كالتالي: «أخيراً أصبحنا نملك الفرقاطة الحديدية».

كنت أشعر عند ذكر أي شيء يتعلق بعنصر «الحديد» بأن الحديث يعنيني لأنني، رغم التغيرات التي شهدتها حياتي، أنحدر من عائلة راينبرو. لهذا استرعت تلك الفقرة انتباهي.

واصلت قراءة الفقرة التي تقول: «إنَّ من السارِّ معرفة أن شركة «التمز» للأشغال الحديدية، بعد الإحباطات المتكررة، قد تقدّمت كثيراً في العمل على الفرقاطة الجديدة، حتى إنها أنجزت بناء هيكلها وإن لم تنتهِ من صنعها. لقد أصبحت السفن المُدرَّعة من ضرورات الحروب البحرية».

عندئذٍ فهمت ما عاظم اهتمامي بتلك الفقرة. لقد سمعت السير ريتشارد يذكر شركة «التَّمز» للأشغال الحديدية ذات مرة، رغم أنه نادرًا ما تحدث عن الحديد في منزل ميدان بورتمان. تذكَّرت أحد الصباحات إذ وقفت عند الباب الرئيس أشاهده يرحل، ودوكات يميل نحو الباب في سقف الهانسون ليسأله كالمعتاد: «إلى أين نتجه يا سيدي؟».

توقَّعت أن يجيبه: «إلى مركز المدينة». لكنه قال: «إلى شركة «التَّمز» للأشغال الحديدية».

لقد خالف جوابه المعهود لهذا علقَ بذهني.

بعدما قرأت أن الحديد «من ضرورات الحروب البحرية» تذكرت أيضًا أن أمي أخبرتني بأن أبي حصل على لقب فارس لأنه ساهم في كسب الحرب. لقد اضطربت أفكاري عند قراءة تلك الأخبار. لكنني لم أخبر ماجي بشأنها واكتفيت بلبصقتها في دفترتي. ولمَّا ذهبنا إلى لندن في الصيف التالي طلبت منها أن نستقلَّ قاربًا في نهر «التَّمز» كي نرى السفينة الحديدية.

يوجد عديد من الأسباب التي تجعلني أتذكر ذلك اليوم، أهمها المقابلة غير المتوقعة التي أتيت على ذكرها. لم يكن ممشى «فيكتوريا» على ضفاف التَّمز قائمًا بعد؛ سيبدأ إنشاؤه بعد عدة أعوام. وفي «بلاكفرايرز»، حيث اختلف المشهد تمامًا عن الآن، استأجرنا أنا وماجي قاربًا تحرَّك بنا في مجرى النهر حتى البقعة المزدهمة بالسفن الشراعية، التي اعتادتها الأنظار فلم تتعلَّق بها طويلًا. لكن تلك الأشعة قريبًا ما ستختفي. سينضغط النهر بين الجدران الجرانيتية للسفن البخارية. سيطفو حديدها، وسيصاعد البخار من مداخلها، وستدوي صفاراتها في ليالي الشتاء وسط الضباب. كانت تلك المرحلة انتقاليةً يمرُّ بها كثير من الأشياء والأشخاص، وأنا من بينهم، رغم أنني لم أدرك هذه الحقيقة حينئذٍ.

لقد شاهدنا الفرقاطة الحربية، لكنني لا أستطيع تذكر الشعور الذي راودني عند رؤيتها. ثم قررنا العودة إلى بلاكفرايرز في عصر ذلك اليوم اللطيف، ذي النسيم الرقيق والسحب التي تتهمل في حركتها. كان المدُّ عاليًا، لهذا لم يلزم الملاح سوى أن يغمس مجدافيه في المياه، تاركًا أمواج مَصَّبٍ

النهر في بحر الشمال (الذي كان يُدعى بالمحيط الألماني أيضًا) تتولى المهمة.

نظرت أنا وماجي إلى الأمام ناحية الشاطئ فرأينا قاربًا يتقدم تجاهنا، يقوده فتیان بالكاد يجذّفان ضد التيار. كان قاربهما صغيرًا، وبدا أنهما ليسا معتادين التجديف. زاد المدُّ العالي مهمتهما صعوبةً وأخطأ تصويب مجدافيهما مرارًا فتأرجح القارب. لكنهما ضحكا عاليًا، إذ كانا يستمتعان بوقتتهما.

أقلق سلوكهما العاثر ماجي قليلًا، فشرعت في الحديث حَذَرًا، تخاطب الملاح الذي بدا ناقمًا: «ألا ترى أنه يجدر بك الاحتراس من القارب الذي يتجه نحوها؟».

بصق الرجل في الماء، ثم التفت نحونا يقول والحنق يعلو وجهه: «عليهما أن يحترسا مني. ليس على مثلهما أن يركبا النهر أساسًا».

لكنهما ركباه. بدا أنهما على وشك الاصطدام بنا. وهذا ما حدث بالفعل. لقد اصطدم مقدم قاربهما بهيكل قاربنا. كان القاريان من المتانة بحيث لم يقع أي ضرر. لكن وابلًا من السباب صدر من قاربنا، يقابله وابل من الضحك والعبارات الفرنسية من القارب الآخر.

لقد وجد الملاح في ما حدث دليلًا على ما قال وصاح غاضبًا: «هذا ما قصدته بالضبط. هؤلاء الأجانب اللعناء يجب ألا يركبوا النهر. هؤلاء الأجانب اللعناء يجب ألا يأتوا إلى هنا. (ثم أضاف في إشارة ضمنية إلى التمرّد الهندي على حُكم الشركة البريطانية «إيست إنديا»، الذي وقع قبل بضعة أعوام حيث خدم النقيب جريمشو) لقد أفسدوا الأمور تمامًا في الهند. وها هم يأتون إلى إنجلترا ويسلبون رجلًا إنجليزيًا شريفًا لقمة عيشه».

وبينما القاريان يضطربان ضد تيار النهر قبض على حافة القارب الآخر بيده الضخمة. بصق ثانيةً في دوامة النهر البُنْيَة التي يعلوها الزبد. وأبدى نقمته على جميع البشر من مختلف الأعراق الذين، من سوء حظهم، لا يتحدثون لغته الأم بمثل طلاقته ولباقته، إذ قال: «أجانب لعناء لا يستحقون الحياة».

انفجر أحد الفتيتين في الضحك مجددًا وقال: «توقف عن قول هذا يا رجل. وابتهج قليلًا لأن الحياة قصيرة».

سأله المَلَّاح دَهْشًا: «أنت إنجليزي؟».

- بالطبع. أعتذر على اصطدامي بقاربك اللعين. لكن لا ضرر قد وقع على أي حال.

كان معطفه مُلقى على أحد مقاعد القارب وكمًّا قميصه مرفوعين إلى ما فوق مرفقيه. مدَّ ذراعه يقبض على حافة قاربنا بالقرب من ذراع المَلَّاح، فبدأ التناقض الشديد بينهما. كانت إحداهما مفتولة يكسوها الشعر، عليها وشوم باللون الأزرق والأحمر والأخضر. أمَّا ذراع الفتى فكانت نحيلة ناعمة، وسمراء مثل الخبز المَحْمَص.

حدَّقت ماجي إلى صاحب تلك الذراع، ثم قالت: «يا إلهي! ألسنت دانييل أندريدج؟».

ضحك مجددًا. بدا واضحًا أن مزاجه رائق. قال: «الآن انتبهت إليَّ؟ لقد عرفتِكِ حالما رأيْتُكِ. هذا يعني أنني تغيرت كثيرًا! (ثم قال للفتى رفيقه) هذه هي الآنسة ويل يا سباستيان، وأظن أن هذه هي الآنسة راينبرو». قال سباستيان بإنجليزية رديئة: «راينبرو؟ رجاءً الحديث ببطء». فصاح المَلَّاح منتصرًا: «ها هو الأجنبي اللعين!».

عندما وصلنا إلى شاطئ النهر دفع دانييل الأجرة للمَلَّاح الواقف هناك في انتظار قاربه. ثم التفت نحو مَلَّاح قاربنا، ووضع نصف كراون في يده قائلاً: «سيكفي هذا لتجديد مظهر القارب بطبقة من الطلاء. مع السلامة يا صاح. واصل الدفاع بلسانك عن الوطن كي يبقى عَلمُه اللعين مرفوعًا». أجابه المَلَّاح: «إن تفوَّهت بمزيد من هذا الهراء فسأوسعك ضربًا. سواء أكنت إنجليزيًا أم لا فيجب ألا تقود قاربًا».

لكن نصف الكراون انتزع الحقن من كلماته.

بعد ذلك سرنا نحو شارع «ستراند»، وعرفنا دانييل برفيقه سباستيان ريمل. كان يماثله عُمَرًا وإنجليزيتَه ليست متقنة، رغم أنه ودانييل، كما علمنا، في لندن منذ الربيع. أخبرنا أن السيد والسيدة أندريدج لا يزالان في بوردو؛ وأن سباستيان هو ابن مدير المدرسة التي يعملان فيها؛ وأن هذه هي المرة

الثانية التي يحضره فيها دانييل إلى لندن كي تتحسن إنجليزيتها. كانا يمكنان في «تشيلسي» عند الأرملة شقيقة السيدة أندريدج.

في طريقنا إلى «لودجايت سيركس» انطلق دانييل في الكلام مَرَحًا، يتنقل بين لغتين بكل سرور، تارة يتحدث إلينا وأخرى إلى سباستيان. دعتهما ماجي لزيارتنا في «سانت جونز وُِد»، لكنهما لم يستطيعا قبول الدعوة. كان عليهما العودة إلى فرنسا خلال يومين، ولديهما ارتباطات ستشغل وقتها كله.

قال سباستيان: «أنا أرى أنتما المرة القادمة، لا؟».

ذُكرني سباستيان المُهذَّب وهو يحاول دُؤوبًا تركيب الجملة الإنجليزية السابقة بالقدیس لاکون، وهو يحاول تحذير الطرواديين من حصان طروادة. ثم غادرا ضاحكين ليعبرا الطريق في حرارة الصيف.

عندما عدنا إلى المنزل قالت ماجي: «أرى أنهما فتیان لطيفان للغاية. لقد تَغَيَّرَ دانييل تَغَيُّرًا محمودًا بدرجة غير معقولة».

وكان هذا ما ظننته أيضًا.

6

لقد ملأت الزخارف والألوان غرفة الجلوس الكبيرة الخاصة بنا، التي نرى من نوافذها حديقة المنزل وحدائق المنازل المجاورة، إذ كانت أني جريمشو والنقيب الراحل يميلان إلى البهرجة. وبعدها عاشا في الهند فترةً اكتسب ذوقهما طابعًا شرقيًا. لكن ماجي لمَّا رأت أنها قد تستقر في هذا المنزل أمرت بإجراء تعديلات جذرية بلا رأفة. لهذا رُفعت المقاعد الأبانوسية ذات النقوش الدقيقة والمفارش الفاخرة التي تغطيها. أُزيلت الأفيال العاجية والأبانوسية الزائقة. أُخلي سبيل دلو الفحم المصنوع من ساق فيلٍ مُحنَّطة، وجلد النمر ذو الأسنان المُكشَّر عنها والعينين المُحملقتين. اختفت الصواني النحاسية والشمعدانات على هيئة أفاعٍ ذات قلنسوات. زال مُجَسِّم مُصَغَّر لـ «تاج محل» بداخل قُبَّة زجاجية، وسيف غريب مُفَزَّع قالت السيدة جريمشو أن اسمه

«تلوار». لم نعلم إلى أين انتهى المطاف بهذه الأغراض وأخرى غيرها، ولم نبال إلا بخلو غرفتنا منها.

قالت ماجي: «إن كنت سأستقر في هذا المنزل فسأجعله يشبهني».

وقد خالف ذوقها ما يُعد أنيقاً وعصرياً في ذلك الوقت، لهذا جُرّدت الغرفة من كل ما تضمنته. على أن المدفأة كانت من الرخام الأبيض الأنيق فتركت كما هي. ثم طُليت الحوائط باللون الأخضر الباهت، ودُهنَت الأشغال الخشبية بطبقة من الأبيض اللامع. كنا نمكث في فندق في لندن في أثناء إجراء تلك التعديلات، ونذهب إلى المنزل كي نعاينه ونبدي رأينا به. ذات مرة دخلت السيدة جريمشو غرفة الجلوس معنا. كانت تسلك مسلك السيدات الراقيات، لكن بعض تصرفاتها دلّت على تواضع نشأتها. لقد أعربت عن استيائها بلا كياسة قائلة: «يا للبرود! أصبحت الغرفة باردة وقد اعتدت أنا والنقيب الدفء. إنني لا أستطيع العيش في غرفة كهذه».

قالت ماجي: «ربما ستعجبك عندما نزودها ببعض الأثاث».

- كان النقيب يحرص على أن نحظى بالأفضل. لقد أثّث هذا المنزل ليحاكي قصور الشرق.

قالت ماجي ضاحكة: «لكننا الآن في الغرب وهذا ليس قصرًا، بل مكتب امرأة عاملة».

نقلت السيدة جريمشو نظرها في الغرفة كأنها تبحث عن حاملٍ لستارٍ من القماش المخمليّ القرمزيّ، وأذعنت قائلة: «ستجعله بعض اللمسات مقبولا أكثر. في الشرق أتيح أمامنا جميع أنواع الأقمشة الفاخرة لنختار من بينها».

- لكنني لا أريد سوى بعض الأثاث البسيط.

عندئذٍ تنهدت ونفضت يدها من الأمر قائلة: «إن كان هذا هو ما تريدين فيمكنك أن تلقي نظرة على الأغراض في العليّة».

استرعى ما قالت انتباه ماجي لأن الأغراض القديمة أثارت اهتمامها، وسألته: «أي أغراض تقصدين؟».

- أظن أنها سقط متاع كان في العلية عندما عدت أنا والقبطان من الشرق. هناك وضعتها العائلة التي اشترى منها النقيب المنزل عندما جدّوا الأثاث. لقد تركناها حيث وضعوها لأنها، بالطبع، لم تنل إعجابنا.

وفي عصر ذلك اليوم من يونيو، عندما جلسنا لتناول الشاي، كانت أغراض العلية قد فُرِشت حولنا. هكذا تضمنت الغرفة مائدة عشاء من طراز «هيبلاويت»، حولها ستة كراسٍ تشبه ظهورها الدروع ومقعداتها جلدية ذهبية لامعة، بالإضافة إلى طاولة للكتابة وبضع طاولات أخرى، إحداها ذات حافة مُتموجة وثلاثة أرجل مخرّبة رمادية. وجدت ماجي كل ما احتاجت إليه في هذه الأغراض وأريكة وثيرة عثرتُ عليها في مكان آخر. لكن السيدة جريمشو أصرّت على وضع خزانة كتب عالية تستند إلى أحد الحوائط. وكم سَعِدت ماجي عندما أقصى التبدُّل في عالم الصيحات هذا الغرض لتصبح العلية مكانه المناسب.

على أن السيدة جريمشو لم تستسلم للأمر الواقع في الحال. لقد خاضت معركة يائسة انتهت بخسارتها ذات يوم، عندما أطلت برأسها من باب الغرفة وتودّدت إلى ماجي قائلة: «ولا حتى التلوار على سطح المدفأة؟». فأجابتها ماجي حازمة: «ولا حتى التلوار على سطح المدفأة».

7

دخلت جلوري جاين الغرفة تحمل صينية الكعك والشاي، على رأسها قبة صغيرة وفوق ثوبها منزر قصير. لو كانت فتاة نحيلة رقيقةً لناسبها هذا الزي الرسمي، حتى إنه كان ليجعلها فاتنة. لكنني عندما أتذكّر جلوري جاين أتصوّر الرجال الذين يؤدون أدوار السيدات البدينات في عروض التمثيل الإيمائي، التي سأراها في ما بعد. لقد لاءمت الأزياء التي ارتداها أولئك المُمثّلون الشخصيات النسائية التي يؤدونها، لكنها تظلُّ أزياء تنكريّة. لهذا كنت أشعر بالارتباك عند النظر إليهم، وبأنّ ما أراه خطأ. كان هذا المزيج العجيب من الصواب والخطأ، هذا النشاز، يعني ملاءمة الممثل للدور الذي يؤديه. وقد كان لمرأى جلوري جاين الأثر ذاته في نفسي. بدا شعرها البرتقالي المتوهج كأنه،

في أي لحظة، سيُسحِل النيران في الحافة المُكشَّكة لقبعتها الموصليَّة. كسا المتزجر جذعها الضخم كأنه ورقة شجرة تستر بدن حوَّاء. كانت كأنها في حفلٍ تنكريٍّ، لكن صورتها الهزلية لاءمت الدور الذي تؤديه. وعند سماعنا السيدة جريمشو توبَّخ جلوري جاين لأن قبعتها ليست مضبوطة لم نستبعد أنها، خلال عيشها في الشرق، كانت تُبعد الفيلة بمنشأة الذباب.

إنَّ من المعتاد في الشمال حيث نشأت السيدة جريمشو أن يُدعى المرء باسمين، على سبيل المثال: «جون ويلي» أو «سارا آن». لهذا كانت تذكر اسم جلوري جاين بهذه الطريقة، رافضةً الإقرار بأن جاين هو لقبها وليس اسمها. لكنه كان لقبها. وقد تأرجحت السيدة جاين، والددة جلوري جاين، بين العيش «في رحاب المسيح»، كما ذكرت ابنتها، والانغماس في اللهو الصاخب والشراب. لقد تآقت جلوري جاين إلى ساعات الفراغ القليلة، التي تحظى بها مرةً كل أسبوع، كي تذهب إلى حيِّ «برمندزي» الفقير حيث تعيش والدتها الأرملة، ينتابها الفضول حول الحال الذي ستجدها عليه. كانت تروي لنا تفاصيل تلك الزيارات بلا تحفُّظ، ويبدو في حديثها إعجابها بوالدتها المُتلوِّنة. هكذا استنتجنا أن الضجر كان ليسود حياة جلوري جاين لو كانت السيدة جاين ذات طبع ثابت.

ذات مرةً قالت: «إنها مثل المسرح. لا يمكنني أبداً تخمين ما سأراه على خشبته حالما ينزاح الستار». ثم قرقرت في ضحكها.

في بعض الأحيان بينما هي مستغرقة في أحاديثها تلك كانت السيدة جريمشو تهتف بها من أسفل الدرج قائلةً: «جلوري جاين! كفى ثرثرة. اتركي الصينية وانزلي إلى الأسفل. لا يعجبني مظهر التُّحف النحاسية».

لكن هذا الهتاف لم يدفع جلوري جاين إلى المغادرة سريعاً، بل كان يحثُّها على إفشاء الأسرار. فتضع إصبعها على شفثيها، وتخفِّض صوتها كأنها عرَّافة على وشك البوح، وتقول: «استمعا إليَّ! إنني أَسْتخفُّ بهذه السيدة. وسأخبركما بأمر مُسلٍّ لم أبُح به من قبل. هل تعرفان ماذا يوجد على منضدة التزيين الخاصة بها؟ ليست صورة النقيب الراحل بالطبع، بل ريشة! ماذا تفعل الريشة هناك؟ هذا هو ما أريد اكتشافه. فيم تفكر عندما تنظر إليها في

سكون الليل؟ ليس النقيب الراحل بلا شك. توجد ممارسات غريبة تحدث في الشرق مثل الزواج العرفي. هل سمعتم به؟

- يجدر بك المغادرة يا جلوري جاين. إن صبر السيدة جريمشو ينفد.
- كانت مَحْظِيَّة المهراجا. صدقاني! لقد استنتجت الأمر بنفسي مثلما أفعل كل شيء. هل تقول إن منظر التحف النحاسية لا يعجبها؟ سأضربها بها في يوم ما!

وفي مرة أخرى قالت: «استمعا إليّ. سأخبركما بأمر مُسَلٍّ لم أُبَحْ به من قبل، وهو كيف حصلت على اسمي. إنَّ أبي وأمي مُضِحِكان. أحبُّ أحدهما الآخر بجنون. أمضيا حياتهما يلهوان وأنفقا كل نقودهما في الشراب. لم يبخل أبي على أمي بشيء. لكنها عندما حملتني وأوشكت أن تضع دَقَّتْ حطبةُ رأسه في الميناء، علمتُ أنها قُطِعت من شجرة ماهوجني. على أي حالٍ لقد نجحتُ في أداء مهمتها وأزهقتُ روح الرجل. ومع رحيله عن الدنيا ومجيئي إليها فقدت أمي عقلها. لجأت إلى المسيح. لم تمر قطرة شراب من حلقها. وأصرَّت على تعميدي. لهذا أتت بتاجر الخردة العجوز أَلْف هيجينبوتوم ليصبح عرَّابي، والقبالة العجوز جراني بوبلويل لتصبح عرَّابتي.

في طريقهما إلى الكنيسة قال أَلْف: «هلا نشرب كأسًا؟ إن اليوم صحو ونحن في بدايته».

قالت جراني بوبلويل: «كأسًا واحدة فقط يا أَلْف فأنا أعرفك».

- أنا لست جَمَلًا على أي حال ولا يمكنني عبور الصحراء عَطِشًا.

قالت: «إذن انتبه لما ستفعل فالיום مميز في حياة الطفلة».

ثم مسحت فمها كأنهما خرجا من الحانة رغم أنهما لم يدخلها بعد.

بعد ذلك استقلا عربة لأنهما تأخرا، لكنهما لحقا بالمراسم. اصطف الثلاثة وسارت الأمور على ما يرام، حتى سألهم القسُّ عن اسمي. صدقاني حين أقول إن المُغْفَلين لم يفكروا به قط! لكن الحماس بهذه المناسبة كان قد أخذ من المرأة العجوز مبلغه فمَجَّدت الرب فجأة هاتفة: «جلوري بي!».

سأل القسُّ: «أيُّ اسمٍ اخترتم يُمثِّل الاختصار «بي»؟».

عندئذٍ مَجَّدت أمي الربَّ بدورها قائلة: «جلوري بي!».

التفت القسُّ إلى العجوز أَلْف يسأله بحذرٍ، إذ كان يعلم طباع رعيَّته جيِّداً: «أيُّ اسمٍ اخترتم يُمثِّل الاختصار «بي» يا سيد هيجينبوتوم؟».

كان العجوز متجهِّماً لأنَّه لم يستطع شراب كأسٍ أخرى على حساب الحانة بسبب هذه المراسم، فقال: «من أين لي أن أعرف؟ سمَّها جلوري البغيضة جاين».

فأجابه القسُّ حازماً: «حسنًا، لا تقل المزيد في مكان مقدَّس كهذا سيد هيجينبوتوم».

ثم أنهى المراسم سريعاً وكتب اسمي «جلوري بي جاين». إنني أعلم أن هذه القصة حقيقية لأنني سمعت العجوز أَلْف يحكيها كثيراً، ولديَّ شهادة مكتوب فيها اسمي بهذه الطريقة».

في اليوم الذي رأينا فيه السفينة الحديدية وضعت جلوري جاين الصينية، ذهبت إلى النافذة ونظرت إلى السيدة الرخامية، ثم قالت: «أتساءل فيم تُفكِّر هناك وحدها في ضوء القمر؟ أنا واثقة أنه شيء لا يتسبب في أن تُخضَّب الحُمرة وجه العذراوات!».

لقد راق ماجي طبع جلوري جاين. نادراً ما قاطعت أحاديثها أو أرسلتها لتؤدي عملها. والآن أجابتها قائلة: «أظن أن هذا أمراً لن نعرفه أبداً».

- وما الذي تُفكِّر فيه تلك المرأة في الأسفل؟ لماذا وضعت الريشة هناك؟ أليست تذكيراً بالأيام الخوالي؟ لا عجب أن النقيب المسكين انتحر. أو ربما أنهى حياته لأن ضميره وخزه. لا شك أن له مغامراته الخاصة بدوره!

عندئذٍ هتفت السيدة جريمشو: «جلوري جاين! لا تقفي عندك تثرثرين. هيَّا لتلمَّعي تماثيل الأبقار المقدسة».

- الأبقار المقدسة وأجراس المعابد وتماثيل بوذا! لن تُصدِّقا كم نشترى من مُلمَّع النحاس كل أسبوع! استمتعي بالكعك يا آنسة ويل. لقد صنعتُه بنفسِي. ولا تؤاخذيني إن دُقت به طعم المُلمَّعات!

وقعت تلك الأحداث، كما ذكرت، في الصيف السابق لوفاة زوج الملكة. وفي الصيف التالي له واصلنا أنا وماجي السفر إلى لندن. حينئذ كنت في الخامسة عشرة فقط، لكنني اكتسبت نضجًا أكثر مما قد تُوحى به سنوات عمري. لقد قابلت كثيرًا من الشخصيات خلال زيارتنا إلى لندن. كانت ماجي تبغض المناسبات الاجتماعية، لكنها اضطرت إلى حضور بعضها. وعادة ما نجحت في الحصول على دعوة لي كي أعيئها على احتمالها. في إحدى المرات قصدنا «جاذزهل»، منزل السيد تشارلز ديكنز في «كنت»، لقضاء عطلة نهاية الأسبوع برفقته، إذ كانت ماجي واحدة من كُتّاب مجلته الجديدة. استقلينا القطار إلى محطة «كنت» حيث وجدنا عربة في انتظارنا. عندما وصلنا إلى المنزل استقبلنا كلبان: أحدهما بوليسيٌّ ضخْمٌ والآخر من فصيلة «سانت برنارد». وعلى العشاء قابلنا السيد تشارلز ديكنز نفسه. كان مَرَحًا يسهب في الكلام، وبعد العشاء اصطحبنا في جولة طويلة في الريف سيرا على الأقدام. لقد أحسن ضيافتنا رغم معاناته ألم الأعصاب الحادّ وانشغاله بكتابة «آمال عظيمة». وفي وقت لاحق من العام نفسه بعث إليّ بنسخة من ذلك الكتاب. كان غلافها من الجلد المتين المُزخرف بالذهبي، ومُرسلّة إلى: «الآنسة سارا راينبرو؛ وصيفة مارجريت ويل متعددة المهام، الجادة الصموت، المُخلِصة ذات الكفاءة». يشير هذا الوصف بوضوح إلى الشعور بالرهبة الذي كان ينتابني في مناسبات مثل عطلة نهاية الأسبوع المذكورة. على أن تلك اللقاءات ساهمت في تشكيل شخصيتي وبَنَتْ ثقتي بنفسي شيئًا فشيئًا. ولمّا وجدت الجميع يرونني «وصيفة ماجي متعددة المهام» فقد أوليت عملي معها اهتمامًا أكبر. وأخيرًا أصبحت ألتقى أجرًا على ما اعتدت تأديته، منذ مدة طويلة، بدافع الحب. لكن ذلك الحب لم ينل منه شيء.

على أنني كثيرًا ما تساءلت كيف كان السير ريتشارد والسيدة راينبرو لينظرا إلى هذا الحال المعكوس، إذ أصبحتُ أعمل في خدمة ماجي. إنني أرى أنهما لم يكونا ليسعدا بتعلّمي كسب عيشي، تعلُّلاً بأنهما لم يبذلا مالهما كي أتعلّم هذه المهارة. ثم إنني تماديت كثيرًا وتعلّمت الكتابة الاختزالية!

لقد واظبت لوسي إيفانز على مراسلتنا منذ رحيلها، لكن خطاباتها قلَّت شيئاً فشيئاً. ثم مرَّ زمن انقطعت فيه الخطابات تماماً. لهذا اقترحتُ على ماجي أن نذهب في زيارة إلى منزل السيد موستن لويد للسؤال عن حالها، أو أن ندعوها إلى زيارتنا في «سانت جونز وُد».

لكن ماجي قالت: «لا. لقد شهدت حياتها تغيراً كبيراً، وسنساعدُها في التكيف معه إن تركناها وشأنها. لندعها تتواصل معنا متى تريد».

على أننا في عصر اليوم حيث قابلنا دانييل أندريدج تلقيناً خطاباً منها. هنأت فيه ماجي على صدور كتابها الجديد، وأبدت بعض آرائها الثاقبة بشأنه، واقترحت زيارتنا في اليوم التالي للغد ما لم نخبرها أن هذا الموعد غير مناسب. سعدت ماجي بهذا الخطاب. كانت لوسي مقربة إليها، وقد ساهمت كبيراً في أن تصبح ما هي عليه الآن. ثم أتى هذا الخطاب ليبرز الرزاة التي تتمتع بها وقدرتها على التعبير عن نفسها جيداً.

عندما توقفت عربة لوسي أمام البوابة الرئيسة كنا في غرفة الجلوس، التي تُشرف نوافذها على مؤخرة المنزل، لهذا لم نرها. لكن صادف أن كانت جلوري جاين في غرفة النوم الخاصة بنا في المقدمة. عندما رأتها هرعت إلينا تقول: «أتى ضيوف في عربة فاخرة! لا شك أنهم قادمون من أجلك يا آنسة ويل! لا يأتي مثلهم لزيارتها أبداً».

بدا بعض التقريرع في صوت ماجي عندما قالت: «أعتقد أن السيدة جريمشو تودُّ منك أن تجيبي جرس الباب».

- إننا في عصر يوم الخميس إذن فقد غادرتُ المنزل. أين تذهب بكامل أناقته في عصر كل خميس بانتظامٍ كدقات الساعة؟ هذا ما أرغب في معرفته. إنها تتقدم في العمر، لكنها لا تزال تتمتع ببعض الحيوية. ودائماً ما تعود من الخارج مبهتجة. هذا ما أصفه بالمريب!

ثم غادرت تضبط قبعتها الصغيرة، التي شابته زهرة أقحوان تستقر فوق زهرة عباد الشمس.

قلت: «أتساءل ما هو رأي جلوري جاين بنا وماذا تقول عنا».

- لا رأي لها لأنها لا تفكر حقاً في أي شيء. وما تقول له تفسير آخر وهو ليس بالمهم.

لقد أنارت شمس الصيف غرقتنا، وفي ضوءها دققنا النظر إلى لوسي فلم تربكها نظراتنا. كسا قدها الطويل ثوباً أزرق باهت يكاد يبدو رمادياً. لفها المسلمين بنعومتهم من رأسها إلى أخمص قدميها. تموجت طياتها على طول جسدها حتى ذيله الطويل. وكانت قبعتها ومظلتها وقفازها باللون الأزرق الباهت.

أمسكت ماجي يدها بحنان تمنع النظر إليها، وقالت: «لا يسعني سوى الإعجاب بمن علمك التأنيق. هل السيدة موستن لويد هي من تولّى الأمر؟ حقيقة لم أظن قط أنها تتمتع بهذا الذوق الرفيع!».

جلست لوسي إلى الأريكة فانبسطت تنورة ثوبها مثل سحابة حول قدميها. تطلعت إليها ببعض الرضا، ثم وضعت يديها ذات القفازين على ركبتيها، وقالت: «لا، ليست الخالة ميج. فهي لم تعد قادرة على أن تغادر فراشها حتى تغادر المنزل. إنَّ العم توم هو من يختار ثيابي».

أتت جلوري جاين تحمل صينية الشاي. نظرت إلى الضيفة بتوقير وإجلال. وضعت الصينية على الطاولة أمامها كأنها تقدّم قرباناً. وعادت بظهرها إلى وراء تغادر الغرفة.

صبت ماجي الشاي قائلة: «إذن السيدة موستن لويد ليست بخير؟».

- أجل، لكن ليس تماماً. مضى قرابة ستة أشهر منذ أن لظمت الفراش، وهي ترفض أن يفحصها الأطباء. لقد مرضت فجأة. كنت أنا والعم توم، الذي يروقه اصطحابي إلى الخارج، في الأوبرا نسمع غناء سيمز ريفز. لقد سألت الخالة الخروج، لكنها قالت إن عليّ المكوث في المنزل كي أعني بميرفن. بالطبع رأينا ما تقول هراء لأن الصبي سيكون نائماً وخادماً المنزل كثيرات. لهذا خرجت أنا والعم توم معاً. إنه مولع بالغناء مثل الشعب الويلزيّ كله. (أخرجت أصابع يدها من القفاز وأعادته إلى رسغها ثانية، ثم أمسكت بكوب الشاي قائلة) كان من المؤسف أن يقرر العم توم تناول العشاء في الخارج في ذلك اليوم. فعندما ذهبنا إلى

مطعم «رولز» قابلنا بضعة ممثلين شهيرين. أثارت الأجواء حماسه ومكثنا هناك حتى وقت متأخر. عندما عدنا إلى المنزل كان جَدِّلاً. قالت الخالة ميج إنه ثمل. لكنني واثقة أنه لم يكن كذلك، بل سعيداً يصدق بأغنيات سيمز ريفز. كانت الخالة قد أمرت الخدم بألا يرفعوا العشاء، وظلت مستيقظة في انتظارنا حتى وقت متأخر. لهذا عندما وجدت أننا لا نرغب في الطعام أوت إلى الفراش منزعجة. وفي صباح اليوم التالي لم تغادر السرير. لم تغادره منذ ستة أشهر.

الآن خلعت قفازها وبدأت ترتديه في اليد الأخرى شاردة، ثم رفعت رأسها فجأة تنظر إلينا وقالت: «هذا هو كل ما في الأمر».

ثم ضحكت ضحكة مقتضبة. على أن الصدق بدا في وجهها الجميل. لبعض لحظات لَفْنَا صمْتٌ وجدُّته غريباً، فقطعته بالسؤال عن صغيرنا ميرفن، الذي اعتدنا رؤيته يفترش العشب بجوار البحيرة يركل الهواء، وشاهدنا باهتمامٍ لوسي تُرضعه؛ ميرلن ولد القبطان رودا.

قالت: «يكبر على نحو ممتاز، ويرغب العم توم في أن يتبنَّاه. يقول إن من الممكن تغيير اسمه قانونياً. إنه خبير بهذه الأمور. هكذا سيصبح اسم ابني ميرفن موستن لويد. ولأن العم توم لم ينجب أطفالاً، ولا يريد أن يختفي الاسم الذي تحمله مؤسسته من الوجود، فستُخدم هذه الفكرة مصلحة الجميع».

سألتهما ماجي: «هل السيدة موستن لويد راضية عن هذه الفكرة؟».

- لم نناقشها في الأمر بعد.

- هل ترين أنها سترحب بقדومي لزيارتها؟

تأملت لوسي الأمر وهي تقضم الكعك بأسنانها المُنْمَقَة، ثم قالت: «ربما ليس الآن. لننتظر قليلاً لنرى كيف ستتقدم صحتها، اتفقنا؟ ظننت أنك ترغيبين في أن تعرفي كيف تسير حياتي».

سألتهما ماجي وهي تملأ لها كوب الشاي مجدداً: «إذن كيف تسير حياتك؟».

- على نحو ممتاز كما أخبرتكما، أليس هذا واضحاً؟

عند رحيل لوسي خرجنا لنودّعها. بدت فاتنة وهي تجلس في «الفيكتوريا»
تعتمر قبعتها وتظلّ المظلة وجهها. وبينما العربية تبتعد لوّحت لنا بيد اكتست
بالأزرق الباهت.

عندما دخلنا المنزل قالت جلوري جاين وهي تحمل صينية الشاي: «استمعا
إليّ! سيسعد حظ أحد الرجال بهذه الفتاة. إنها ممن أدعوهم «مُنْتَقَات على
الفرّاة»!«.

10

منذ التحاق سالي بالمدرسة الداخلية لم أعد أراها كثيرًا. في أيام عطلاتها
اعتدنا أنا وماجي قضاء بعض وقتنا في لندن. وعندما نذهب إلى تريسانت
فإن سالي عادةً ما تكون في الخارج، تمكث في منزل أقارب إحدى صديقاتها
من المدرسة. في بعض الأحيان كانت تجلب صديقاتها للمكوث معها. لكنهن
اعتدن قضاء يومهن كله في ركوب الخيل والسباحة، وفي الشتاء يحضرن
الحفلات المُقامّة في المنازل المجاورة. تردّدت إلى المنزل فتيات لِبَقَات
مُعتدّات بأنفسهن. وطالما اشتدّ خجلي عند لقائهن إذ ظننتُ أنهن سيروني
فتاة مُضجرة كئيبة. على أن سالي واطبت على مراسلتي. سمعت منها كثيرًا
عن دوللي ديورست؛ تلك الفتاة التي التحقت بالمدرسة حديثًا. وتأكد لي أنها
تروق سالي.

لهذا عندما عدت مع ماجي إلى كورنوال في نهاية ذلك الصيف لم أتفاجأ
بوجود دوللي ديورست في تريسانت. كانت هي وسالي في الخارج عندما
ذهبنا إلى المنزل لتحية أبي. وحينما خرجنا للعودة إلى الكوخ رأينا الفتاتين
تركضان نحونا مبتهجتين. كانت المعنويات ترتفع أينما توجد دوللي، تلك
الفتاة القصيرة البدينة داكنة البشرة برّاقة العينين، التي تُخلف انطباعًا
مباشرًا بالذكاء.

هتفت سالي وهي تقترب إلينا: «هذه دوللي. لقد طُرد كلانا من المدرسة.
هل أخبركما أبي؟».

لم يكن قد أخبرنا بهذا الأمر وفاجأني ابتهاجهما به.

قالت ماجي: «هيا ادخلا وأخبرانا بما حدث».

في أثناء الساعة التالية علمنا بما هو أكثر من سبب طردهما. كان والد دوللي ديورست أحد مُصنّعي الصوف الأثرياء في «برادفورد». عاشت عائلتها في منزل حجريّ وسط غابة من أشجار الزّان في «كوتنجلي»، تبعد عن المدينة عدّة أميال. تمتّع العائلة بمكانة بارزة كما يليق بكبار تجّار الصوف، وكان السيد ديورست رفيع الشأن عضوًا في البرلمان.

لقد قادت المصادفة الغريبة دوللي إلى الاهتمام بالعاملين لدى والدها. قبل أن نلتقيها بمدة طويلة ذهبتُ إلى برادفورد لحضور حفل للأطفال. وقد ربّت والدها للمرور بها في العاشرة، بعد الاهتمام بشؤون عمله في البلدة، كي يصطحبها إلى المنزل. لكنه وصل متأخرًا. وجد الحفل قد انتهى. وأخبره المضيف قَلْبًا أن دوللي مرضت فأرقدتها في الفراش واستدعى الطبيب.

صعد السيد ديورست إلى غرفة النوم حيث المدفأة موقدة ويُرسَل مصباحُ ضوءه الناعم. كانت دوللي راقدة في السرير تتأوه بخفوت. لقد شهد والدها احتضار زوجته وولده ولم يتبقّ من عائلته سواها. لهذا طالما بالغ في القلق عليها. لكن الطبيب طمأنه أن لا حاجة إلى القلق. لقد تناولت الطفلة طعامًا أدّى إلى اضطراب معدتها، لهذا أعطاها مُحفّزًا للقيء. وقال إنها ستصبح بخير بعدما تنام جيدًا. أصرّ المضيف على رحيل السيد ديورست وبقاء دوللي في المنزل تلك الليلة ثم المغادرة غدًا. لكن الهلع استبد بالسيد ديورست. ظنّ أنها انتزعت من براثن الموت. وقرّر البقاء بجوارها.

عندئذٍ قال ميدجلي، الرجل الناجح في عمله والفخور بالطبقة العاملة التي يرجع أصله إليها: «إذن سأبقى مع حضرتك. لن أتركك تجلس هنا وحدك مُغمّما».

هكذا جلسا معًا في الغرفة الملحقة بغرفة النوم، يدخان سيجار ميدجلي ويشربان الويسكي الخاص به حتى الخامسة صباحًا، إذ سمعا صوت دوللي. دخلا غرفة النوم ليجداها جالسة في سريرها تبتسم. كان السيد ديورست يرى ابتسامتها نورًا يشرق من الفردوس.

قالت: «أعِدني إلى المنزل».

حاولا إقناعها بأن تلزم الفراش حتى النهار، حيث ستتناول الإفطار ثم سيغادران في وقت مناسب. لكنها لم تقبل بذلك، وظلّت على عنادها تكرر: «أعدني إلى المنزل».

هكذا أذن السيد ديورست لرغبتها. فقصدَ ميدجلي المطبخ حيث سخّن مرق اللحم من أجلها. وأيقظ حوزيّ السيد ديورست النائّم بجوار الموقد يعلو غطيطة. كان الفرس قد أودعَ الإصطبل، فخرج الحوزي يرتجف بردًا ويصب اللعنات في فجر «يوركشير» حيث تساقطت نُدُف الثلج. بعدما تحصّنت دوللي بالمرق الساخن والمعطف يلفّها حملها والدها إلى العربة. هناك جلست في حجره يتلفّعان يملحف من فراء الدّب.

قال والدها: «الآن اخدي إلى النوم. قريبًا ستصبحين في سريرك».

لكنها لم ترغب في النوم، بل أرادت عيش هذه المغامرة التي لم تخضها من قبل. كانت البلدة مظلمة وساكنة. جادت السماء الداكنة ذات المسحة الأرجوانية بثلوجٍ أنارتها مصابيح العربة بضوئها الشاحب، وتشتّت وقّع حوافر الفرس وسط حبّاتها التي تتراكم على الطريق. راق دوللي الحركة وسط هذا السكون، واستمتعت بالدفء هنا تحت فراء الدّب وبين أحضان والدها، فيما البرودة قارسة في الخارج.

فجأة شقّ السكون قرع أجراس فقالت: «هل تفتح الكنائس أبوابها؟».

أجابها والدها ضاحكًا: «لا، هذه ليست كنائس، بل مصانع. وتبدأ العمل في السادسة».

كانا يقطعان الطريق الذي يقود إلى «كوتنجلي». والآن حيث التلال على أحد جانبيها والوادي على الناحية الأخرى، رأت دوللي أبنيةً مُنارةً وسط الظلام. إنها المصانع! الآن أدركت أن ذلك الفضاء القاتم لم يكن موحشًا. رأت أطيافًا تسرع وسط الثلوج: رجالًا ونساءً وأطفالًا. تفاجأت بأعدادهم، التي سرعان ما قلّت. وبدأ القلّة الذين تراهم يركضون.

قالت: «انظروا! إنهم يركضون».

- ستركضين مثلهم إن أوشكت عقارب الساعة أن تشير إلى السادسة، في حين أن عليك الوصول إلى العمل على رأس الساعة وإلا فستخسرين بعضَ أجرك.

- أنا؟! (تصوّرت نفسها تركض وسط الثلوج مع الأطفال فارتجفت وقالت) لكنني لست مضطرة إلى فعل ذلك.

- أجل، أنتِ واحدة من سعداء الحظ.

مكتبة

t.me/soramnqraa

- لماذا أنا من سعداء الحظ؟

- لأنك تملكين والدًا عمل بجدّ في شبابه.

- هل يعمل هؤلاء الناس بجدّ؟

- بعضهم يفعل والبعض الآخر لا.

- هل من يعملون منهم بجدّ يصبح أبناؤهم سعداء الحظ ولا يذهبون إلى المصنع؟

- امتنّي لما تملكين يا دوللي وكُفّي عن الجدل.

توقف قرع الأجراس في تمام الساعة السادسة. ورغم ذلك ظلّ البعض يركضون وسط الظلام، تشاهدهم دوللي في ضوء المصابيح لحظات، ثم يختفون. رأتهم بعيدين للغاية رغم قربهم. كانت البرودة والظلام والثلوج المتساقطة، في ما بدا، ينتمون إلى عالم لا صلة له بعالمها، حيث تنعم بدفء فراء الدّب وذراعي والدها. تذكرت إحدى ليالي الصيف السابق وهي في العربة مع والدها عائدين من زيارة أحد الأصدقاء في الريف، إذ ظهر حيوانٌ في ضوء مصابيح العربة يقطع الطريق ببطء، فقال والدها: «انظري! هذا غُرير».

حينئذٍ لم يجذب المشهد نظرها بقدر ما أثار ذهنها. فكّرت في الحياة الليلية العجيبة التي تعيشها مثل تلك الكائنات المنعزلة، المتناحية، التي تحيا في عالم مجهول.

والآن كان البشر الراكضون في الظلام خارج العربة الوثيرة على القدر نفسه من الانعزال عنها ويتعذر عليها فهم عالمهم.

قطع صوت والدها تسلسل أفكارها، إذ قال: «لا شك أن من البهيج السير إلى العمل في الصباح الباكر صيفاً، حيث ينبلج الفجر ويتنفس الصباح. في بعض الأحيان تداخلني الغيرة من هؤلاء الناس».

في تلك اللحظة تحرك في ضوء المصابيح صبيٌّ ظنَّته دوللي آخر العاملين المتأخرين، الذين لا يثير حالهم الآن غيرة أحد. لم يسبق الريح مثل الباقيين، بل اضطرب في مهبطها يترنح وكأنه نعسان، ثم سقط فجأة. راقبته تترقب نهوضه، لكنه ظل في مكانه. وواصلت العربية حركتها الرتيبة حتى تخطته بثبات. ملأته تلك الاستجابة بالذعر؛ لقد واصلوا طريقهم في لامبالاة وجمود، تاركين تلك الكتلة البائسة راقدة وسط الثلوج.

عندئذٍ صرخت دوللي صرخة عالية تلقائية امتزج فيها زعرها وشفقتها، ما حدا بوالدها إلى إيقاف العربية وقال: «ابقي حيث أنت، سألقي عليه نظرة». لكنها تبعته تتدثر بالملحف فوق ثياب الحفل الرقيقة. وفي برودة الرياح بالكاد التقطت أنفاسها. كان ذلك الصباح قارساً.

على جانب الطريق قامت أسوار حجريّة عالية تحيط بحدائق المنازل الواسعة. أسفل واحد من تلك الأسوار رقد الصبي ساكناً كأنه جريدة قديمة دفعت بها الرياح إلى هناك، أو معطف بالٍ تخلّص منه صاحبه. هتف السيد ديورست به، لكنه لم يتلق جواباً.

قال منزعجاً: «ماذا يجب أن نفعل الآن بحق السماء؟ ستلقين حتفك إن ظللت واقفة في هذا الجو».

قالت دوللي: «يجب أن نأخذه إلى المنزل».

وانحنى نحو الصبي تمسُّ بيدها وجنته. شعرت بها نحيلة وباردة وشاحبة. وبدا لها في الثامنة من العمر تقريباً.

- عودي إلى العربية ولا تنسي أنك مريضة.

- إن ما يعانیه أشدُّ مما أصابني في أي وقت مضى ويبدو أن الجوع سبب مرضه، في حين أن شراحتي هي ما أمرضني.

كان الحوذي قد عاد بالعربة وأوقفها بالقرب منهم فهتفت دوللي: «أسرع، إنه يموت».

هذا ما ظنّته حقًا، واستبد بها خوف شديد. ثم استقلّت العربة وتبعها والدها يحمل الصبي.

قالت: «احتضنه مثلما احتضنتني».

ودثرت الصبيّ بفراء الدّب وهو راقد بين أحضان والدها.

عندما وصلوا إلى المنزل كان الخدم قد استيقظوا. استحسنت دوللي الجهود التي بذلوها حديثًا. لقد أنعش الدفء الصبي. لكنه كان فزعًا مثل عصفور مُتجمّد أفاق ليجد نفسه في إحدى غرف البشر، وعقد الخوف لسانه. أعطته مدبرة المنزل مشروبًا ساخنًا، وبدّلت الأسمال التي كان يرتديها. ثم أرقدته في سرير دافئ وأخبرتاهما أن النعاس سرعان ما غلبه. ولمّا سرد لها السيد ديورست أحداث الليلة قالت: «يجدر بك أن تخلدي إلى الراحة يا آنسة دوللي».

أردف الوالد قَلْبًا على ابنته لا الصبي المتشرد: «يجب أن تستدعي الطبيب كِرشو في الصباح كي يفحصها. وفي أثناء وجوده هنا يمكنه أن يفحص الصبي. سأخلد إلى النوم بضع ساعات لأن عليّ اللحاق بالقطار المبكر إلى لندن».

ذهبت دوللي إلى غرفتها إذ الثلوج لا تزال تتساقط والشمس تشرق على استحياء. عبر النافذة رأت البياض يكسو أرض الحديقة، وأغصان الأرز الداكنة تحمل النُدف. أوت إلى الفراش يغطاها دَفء النيران التي أوقدها الخدم، وتدور في ذهنها فكرة أثارت حماسها: عندما يغادر والدها ستُجري محادثة طويلة مع ذلك الصبي.

11

لكن الصبي رحل ولم تره دوللي مرة أخرى. بينما هي نائمة جاء الطبيب كِرشو. ألقى عليها نظرة فاحصة، وضع يده على جبهتها وبالأخرى جسّ نبضها، إذ تخبره مدبرة المنزل بمرضها. قال: «دعوها تواصل النوم».

وتعهَّد بإرسال الدواء اللازم لها. أخبرته مدبرة المنزل بالصبي فذهبا إلى غرفته ليجداها فارغة. هناك عثرا على سُلَّم يستند إلى حافة النافذة، قد تركه البستاني بعدما أتمَّ تنظيفها، وآثار نَعْلٍ على الثلوج. كان هذا كافياً لتفسير كيف رحل «البربري». لكن دوللي عندما نظرت إلى آثار قدميه فيما بعد، رأتها ضئيلةً آبهةً وكأنها خطوات عصفور فرَّ من قفصه.

قال الطبيب كِرشو ضاحكاً: «لا يبدو أنه يعاني مرضاً شديداً. أظن أن نوبة إغماء طفيفة أصابته. إن أجسادهم خشنة قوية. سيصل دواء الأنسة دوللي إلى المنزل خلال ساعة. احرصى على تدفئتها ولتظل المدفأة في غرفتها موقدة».

لو لم ترَ دوللي الفتى قط، أو لو رآته مرة ثانية، لاختلف الأثر الذي تركه بها. لكنه دمج موضع مروره بحياتها مثل الجَمْر. لزمها زمن طويل حتى تكفَّ عن التفكير بشأنه، لكنها لم تنسه قط. ظلَّت صورته تتردَّد إلى ذهنها، كان رمزاً ينبثق من ظلام المجهول، ثم يتلاشى فيه. شيئاً فشيئاً فتنها المجهول، إذ أصبح الصبي مبعوثه وصورته المُتجسِّدة. وبمرور الأعوام لجأت إلى القراءة عن العالم والتفكَّر في أحواله. حاولت بنفسها تقصِّي الحياة التي يعيشها عمَّال المصانع. لم ينظر والدها إلى اهتماماتها بعين الرضا. لقد قال: «امتنِّي لما تملكين يا دوللي وكُفِّي عن الجدل»، لكنه اعتاد التظاهر بأنه رجل ليبراليٌّ. لهذا سَعِدَ بأن ينال شرف استضافة جون راسكن⁽¹⁾، الذي جاء إلى برادفورد لإلقاء محاضرة. في ذلك المساء، بعدما قدَّم ضيفه الشهير إلى الحضور، اضطرَّ إلى المغادرة للإيفاء بالتزام آخر. هكذا تسنَّى لدوللي، التي استمعت إلى كلمات السيد راسكن جَذْلَةً وأثرَ بها عميقاً، العودة إلى المنزل برفقته، وأن تجري معه محادثة دامت ساعة قبل عودة والدها. كان مروره بحياتها عابراً مثل الصبي الهارب. لكنه لم يختفِ ليصبح طيفاً يجوب خيالها، بل تواصل معها عبر عدَّة خطابات وأسدى إليها بعض النصائح حول القراءة.

(1) كان جون راسكن (1819 - 1900) ناقدًا فنيًا ومفكرًا اجتماعيًا إنجليزيًا بارزًا. تناول بالكتابة موضوعات متنوعة، مثل: العمارة، والأدب، والتعليم، والاقتصاد السياسي. في عام 1871 م بدأ كتابة «رسائله إلى العمَّال والكادحين في بريطانيا العظمى»، التي نُشرت تحت عنوان «فارس كلافيجيرا». م

على أن السيد ديورست لم يستطع فهم ابنته قط. ودَّ بشدة الفخر بها، لكن أفكارها صدمته. كانت في السادسة عشرة عندما سألته على الإفطار في أحد الصباحات: «ألا ترى أن تدنِّي الأجور له علاقة بانتشار البغاء بين الفتيات العاملات في مصانع برادفورد؟».

انتابه الارتياح عندما فكَّر أن دوللي قد سمعت بتلك الكلمة. وعندما انتبه إلى أنها تتفوه بها برصانة كأنها تعي معناها، أدرك أن أمامه وضعا يجب إدارته بحزم. هكذا أرسل دوللي إلى مدرسة تغادرها الآنسات الشابات وهن يتمعن باللياقة كما ينبغي. لكن دوللي، على أي حال، غادرتها سريعا.

12

سرعان ما انسجم دوللي ولوسي معًا. بعد قليل من التحاق دوللي بالمدرسة، بينما الفتاتان مع عدد من الطالبات في نزهة برفقة إحدى المعلِّمات، ظهر رجل ثمل يترنح في مشيته على الطريق. أسرع المعلمة توجَّه انتباه الفتيات إلى زوجين بديعين من الحمامات كانا، دون أن تدري بذلك، يمارسان الحب علنًا في غياب تامٍّ ظريفٍ للوعي بالذات.

شرعت سالي الخبيرة بسلوك الطيور والحيوانات في الضحك فانتقدتها دوللي قائلة بحدة: «لا يوجد ما يضحك في الثمالة. إنها محاولة للهروب من الأوضاع الاجتماعية التي لا تُطاق».

مرَّ الرجل الثمل بهن يغازلهن بالنظرات فطار زوج الحمامات. ثم استأنف الجمع السير تتبعهن سالي ودوللي على مهل.

قالت سالي التي أخبرتها دوللي كثيرًا عن نظرياتها الاجتماعية، وأرتها خطابات السيد راسكن: «إن ما قلته هراء. يثمل البشر لأنهم يحبون الشراب. لقد رأيت لوردات غارقين في الثمالة مثلهم مثل العمَّال. لقد ثَمَلَ إيرل «فالوشير»، زوج أُمِّي، حتى رقد أسفل طاولة وقد رأيته على هذا الحال. هل ينتمي هذا الإيرل إلى من تصفين أوضاعهم الاجتماعية بأنها لا تُطاق؟».

أجابتها دوللي حازمة: «أجل، بالطبع».

- أؤكد لك أنه لا يرى وضعه الاجتماعي بهذا السوء. إن الفقراء يثملون بشرب الجعة أما الأثرياء فيثملون بشراب نبيذ السيد راسكن.
غزت حُمرة الغضب وجه دوللي لأن قدوتها تعرضت للإساءة. توقفت عن السير وقالت مدهوشة: «ما الذي تتحدثين عنه بحق السماء؟».

- نبيذ السيد راسكن. ألم تسمعي به من قبل؟

لم تسمع به دوللي من قبل وهذا ما أخبرت به سالي.

- إذن لأخبرك بأن والد السيد راسكن تاجر نبيذ. هذا هو مصدر المال الذي ينفقه ابنه السيد راسكن. إليك معلومة أخرى. طالما أسهبت في الحديث عن الروائع التي ينتجها مصنع الناشط الاجتماعي ويليام موريس. لكن ألم تتسألي قط من أين حصل على المال اللازم لإنشائه، يا من ترفعين شعار: «لا خير في نقود لم تُكسب ببذل الجهود»؟ إن جون راسكن وويليام موريس ينتميان إلى الفئة التي يُقال لها: «امتنوا لما تملكون وكفوا عن الجدل».

اعتادت دوللي ترديد مقولة والدها من قبيل السخرية. والآن كرهت أن تستخدمها سالي ضدها.

قالت: «لكنك لم تخبريني من أين حصل ويليام موريس على المال؟».

- كان أحد الشباب المساكين مديناً لوالد ويليام ببعض المال، لكنه لم يستطع سداذه. لهذا عرض أن ينقل إلى السيد موريس ملكية أسهمه القليلة في شركة تعدين. لم تكن ذات قيمة كبيرة، لكن موريس الأب وافق على هذا الاقتراح. ثم ارتفعت قيمة تلك الأسهم فجأة دون أي تدخل من جانب السيد موريس. أصبح يملك مئتي ألف جنيه رغم أن قيمة الأسهم في الأصل كانت مئتين واثنين وسبعين جنيهًا. هذا ما أدعوه «كسب النقود دون بذل أي جهود».

- كيف يمكنك أن تعلمي بهذه الأمور؟

قالت سالي التي أخبرتها ماجي ويل بهذه المعلومات: «هذه حقائق أكيدة».

- إن كان الأمر كما ذكرتِ فسأستحسن وقوع المال في أيدي أمينة.

- أتفق معك في هذا الرأي، لكنه يختلف عن الدافع إلى الثمالة الذي ذكرته. إنني أحاول أن أريك أن إصلاح العالم لا يحدث عبر ترديد الشعارات الرثانة، دون دراية بالحقائق، مع سوء فهم شديد لرغبات البشر. إن كنت ترى أن العالم ينقسم إلى فقراء شرفاء وأثرياء ملاعين فلن تستطيعي إصلاح الكثير، لأن ما يسعى إليه أغلب البشر هو تحقيق الثراء وإن كان فاحشًا، والتضحية بالنزاهة في سبيل التخلص من الفقر. على أننا قد نتقدم إلى الأمام قليلًا إن انعكس هذا الحال.

هكذا اعتادت الجدال الذي يجمع بين الهزل والجدِّ. صعب على باقي الفتيات استيعاب أحاديثهما وابتعدن عنهما. رآهما الجميع زوجًا عجيبًا تجمعهما صداقة طريفة. ورغم دهشة مديرة المدرسة عند سماعها بواقعة «طعام عائلة فوستر» فإنَّ المُعلِّمات لم يتفاجأن بما حدث بالطبع.

لقد اهتمت دوللي اهتمامًا كبيرًا بإعداد ما سمَّته «سجلَّ الحالات». وجدت سالي هذا الأمر مُسلِّيًا لأن جميع البشر أثاروا اهتمامها، لكنها عرفتهم رجالًا ونساءً وأطفالًا لا «حالات». لقد تعرَّفت إلى فوستر بستانيَّ الحديقة، الذي عاشت عائلته في كوخ عند بوابة المدرسة، واعتادت أن تناديه باسمه الأول فرانك. ورغم أن المُعلِّمات زجرنها عن فعل ذلك، وأخبرنها أن تدعه بلقبه إن اضطرَّت إلى الحديث إليه، فقد واصلت مخاطبته كما يروقها. أمَّا دوللي فسجَّلته في دفترها كالتالي: «ف. فوستر، بستاني». وأضافت ملحوظات تفيد بأنه في الأربعين من عمره، متزوج من «جيرترود فوستر»، ولديه ثلاثة أبناء. دوَّنت أيضًا أن «جون فوستر في العاشرة من العمر» كثيرًا ما يُصاب بنزلات البرد؛ وأن «دايزي فوستر في السادسة من العمر» مُصابة بالكُساح؛ وأن «ألكسندر فوستر في الثالثة من العمر» يرتدي أسما لا تناسب مقاسه. قرأت سالي في سجلِّ دوللي، بعدما أذنت لها بقراءته، أن الرطوبة منتشرة في كوخ العائلة وأن مطبخه بدائيٌّ. علمت أيضًا أن الوالدين وأبناءهم ينامون معًا في غرفة نوم واحدة رغم أن «جون فوستر يقترب من سن البلوغ»؛ وأن «ف. فوستر يتقاضى جنيهاً واحدًا فقط كل أسبوع»؛ وأن جيرترود فوستر حامل لكنها في حالة صحية سيئة. على أن سالي كانت لتصف حالهم دون حاجة إلى تدوينه قائلة إن كوخ فرانك فوستر مثل الخرابة، وأن عائلته جماعة

من البؤساء، وأن السيدة فوستر المسكينة ستنجب طفلًا آخر رغم أنها بالكاد تُطعم الباقين.

ذات يوم كانت سالي ودوللي وفتاة تُدعى مونيكَا، لا تستلطفها أي منهما، يسرن في الممر المؤدي إلى المدرسة بالقرب من كوخ فوستر. وهناك وجدن أبناء العائلة الثلاثة يلعبون الحَجَلَة. لم تكن الأرض حول كوخهم مرصوفة، وقد ارتكبوا خطيئة القفز فوق بقعة في الممر المفروش بالبلاط الثمين.

مرّت مونيكَا بالأطفال منزعة وقالت على مسمع منهم: «يبدو أنهم يعانون سوء التغذية. لم لا يلزمون مكانهم؟! تلقى فوستر أمرًا مباشرًا بأن يحرص على ألا يلهوا في الممر».

قالت دوللي: «لا شك أن مالك هذا المكان قبل أن يصبح مدرسة اهتم بكلابه كثيرًا. هل انتبهتما إلى مأوى الكلاب الفاخر؟».

- أجل، إنه من الطراز الممتاز.

قالت دوللي: «إن في تركه مُهملاً إهدارًا شديدًا. سيصبح مكانًا رائعًا يمرح فيه صغار عائلة فوستر. فالتهوية به جيدة وهذا شيء لا يتوفر في كوخهم».

بعد تلك المحادثة اختفى «سجلُّ الحالات» الخاص بدوللي. بالطبع كانت مونيكَا المشتبه به الأول، لكن إدانتها لم تُثبت قط. لقد علمت دوللي أن مناقشة حادة أُجريت في مكتب مديرة المدرسة، حيث وُضع أمامها دفتر يتضمن كلمات مثل: «حامل»، وعبارات مثل: «سن البلوغ». جُن جنون المرأة واستدعت دوللي توبّخها قائلة إنها فتاة شقية ذات تفكير منحرف، وجودها في المدرسة خطر على براءة الطالبات. وعلى الرغم من طلاقة لسان دوللي فإنها لم تقل شيئًا. لم تر جدوى من الكلمات. وفُصلت من المدرسة. حدث هذا في وقت متأخر من يوم السبت إذ فات أوان أمر الفصل الفوري الذي قررت مديرة المدرسة تنفيذه، وفي اليوم التالي يحلُّ الأحد يوم العطلة. هكذا غادرت دوللي المكتب محكومًا عليها بالرحيل عن المدرسة في صباح الإثنين. وأُرسلت البرقيات اللازمة في هذه الحالة.

لم تنزعج دوللي مما حدث لأنها كانت تفخر بالتضحية بالذات. لكن سالي اهتمت للأمر. أغضبها الحماقة التي تبدّت في تعامل الإدارة مع ما حدث. وأدركت أن دوللي، رغم عنادها وغرابة أطوارها، مُحقّقة في موقفها. رأت أن

مساعدة العائلة التي تعيش في الكوخ البائس كان دافع صديقتها النبيل، وأدركت أن والدها سيؤيد موقفها. لهذا دعمت دوللي وتأهبت لمشاركتها في تنفيذ خطة وضعتها لفئة أخيرة.

وفي يوم الأحد وقت الغداء، حيث الأطباق أمامهما ملؤها اللحم والملفوف والبطاطا، وقفتا وثبتت كل منهما إلى ظهر الأخرى ورقة قد أخفتها بعيداً عن الأنظار كُتِب عليها: «طعام لعائلة فوستر». وبينما الجمع متفاجئ يحاول استيعاب ما يحدث حملت الفتاتان طبقيهما تغادران القاعة سريعاً. واستطاعتا مغادرة البناء قبل أن تهبَّ المديرية من مقعدها في الطاولة الرئيسة وتهتف بالمعلمات قائلة: «الحقن بهما. ابقين في أماكنكن يا فتيات».

لكن الفتيات سرعان ما احتشدن عند النوافذ يهتفن بحماس وهن يشاهدن المطاردة. تباطأت حركة سالي ودوللي كي لا ينسكب الطعام، فسبقتهما المعلمات وواجهنهما. دار نزاع غير لائق فتلطَّخ ثوب الأحد الذي ترتديه مديرة المدرسة بالمرق. ظلَّت تجذب الطبقين بقوة حتى استحوزت عليهما، وأبعدتهما سريعاً فسقط الطعام بلا لياقة على زهرة وردية. ثم انتزعت إحدى المعلمات الدبوسين المُثبت بهما الورقتان إلى ظهر الفتاتين. ظلَّت هذه اللِّفَّة مثار حديث الطالبات بعض الوقت ثم نسيْنها. أصبحت سالي ودوللي في طيِّ النسيان. وسُرَّح ف. فوستر من العمل.

الفصل الحادي عشر

1

في عام 1873، في الخامسة والعشرين من عمري، كنت في منزل «سانت جونز وُد» أنتظر وصول ماجي مع أخي غير الشقيق جاستن جايلورد من «إيتون». كنا في أحد أيام نهاية الصيف والجو شديد الحرارة، فجلست أسفل شجرة التوت في الحديقة حيث يستطيع من في المطبخ رؤيتي. حالما أخذت مكاني أتت أني جريمشو تقول: «الحرارة عالية جدًا يا آنسة راينبرو. هلا أحضر من أجلك مشروبًا باردًا منعشًا؟».

كانت أني المسكينة تجهد في إرضائنا. متى نتحرك تظهر فجأة أمامنا لتعرض مختلف خدماتها. لقد ساءت أحوالها. استبد بها الهوس الذي حطّم زوجها. قبل عام تقريبًا من ذلك اليوم أتت إلى غرفتنا تبدو شاحبة، وأخبرت ماجي بأحزانها.

قالت باكية: «أنت ماهرة في كتابة الحكايات. لهذا أنا واثقة أنك تستطيعين أن تدلّيني على طريقة للخروج من هذه الفوضى».

ثم اشتد بكائها وبلّل الدمع وجهها، فقالت ماجي: «اجلسي وسأجلب لك بعض الشاي».

كنا في فترة ما بعد الظهيرة إذ يحين موعد خروج جلوري جاين. عادت ويلي بكوب الشاي، وعندما استعادت السيدة جريمشو بعضًا من هدوئها سألتها بضع أسئلة تحاول فهم سبب اضطرابها.

لكنها عادت إلى البكاء قائلة: «عندما تزوجت النقيب اختلف الواقع كثيرًا عما تصورت. لن تصدّقيني يا آنسة ويل إن أخبرتك كم أحببته. كنت عاملة بسيطة أنسج الأقمشة...».

حاولت ماجي تبديل مسار الحديث الرومانسي، وشيئًا فشيئًا اتضحت الحقائق. كانت آني جريمشو تُضارب بالمال القليل الذي تبقى معها. وعندما خسرت حاولت يائسة إنقاذ موقوفها عبر اقتراض المال. فتكررت مأساة المغفلين، إذ وقعت ضحية لأحد المُرابين الذين يشترطون دفع فائدة أحوالت دَيْنَها من حبة إلى قُبّة. الآن لم تعد تدري كم أصبح دَيْنُها أو ما عليها فعله. لقد «اختلف الواقع كثيرًا» كعادة الحياة. وناشدت ماجي مجددًا قائلة إنها ظاهرة في الكتابة.

- يؤسفني قول إن مهارتي في ما يخص المال تتبدّى في عدم تدخل في شؤونه التي لا أفهمها وتركها للمحامي. أرى أن من الصواب أن ندعه يُسوّي هذا الأمر.

وافقتها السيدة جريمشو الرأي واستطاع دانييل أندريدج، الذي أصبح محامياً، إخراجها من مأزقها. لكن ما تبقى بحوزتها لم يكن كثيرًا. لهذا اضطرت إلى بيع المنزل واشترته ماجي منها. على أنها ظلت تعيش فيه تؤدي مهام الخدمة والطهو، وبدأت أكثر سعادة مما عهدناها في أي وقت مضى. لم تكن امرأة تستطيع الاضطلاع بالمسؤوليات حتى إن كانت هيئة مثل امتلاك منزل. والآن بعدما تحررت منها وحصلت على وظيفة تكسب منها دخلًا أصبحت أكثر ابتهاجًا. ومن حين إلى آخر كانت تهوّل إلى ماجي لتستشيرها في ما تودّ فعله.

بعد هذا التبدل في ظروفها تحسّنت العلاقة التي تجمعها بجلوري جاين. لقد زالت الأبقار المقدّسة وأجراس المعابد وتمائيل بوذا التي اعتادت التذمر من مظهرها. رحّبت بها جلوري جاين ترحيب جنديّ برقيبيّ جرّد من رُتبته،

وأصبحنا صديقتين. حتى إن السيدة جريمشو ذهبت إلى برمندي لتقابل والدتها.

قالت جلوري جاين: «استمعا إليّ! لن تصدّقا ما سأقول! لقد غنّت ورقصت على طريقة أهل «لانكشير» في الشمال وضحكنا حتى استلقينا على قفانا! لم يكن أحد يتصور أنها بتلك الروح المرحّة!».

2

في ديسمبر التالي سيبلغ جاستن السادسة عشرة. ساد التحفظ علاقة الأخوة التي تجمعنا لأن أحدا قلّم رأى الآخر. لقد أمضيت معظم سنوات نشأته في لندن، حتى إنني عند مقابله في تريسانت في أثناء زيارتنا المتباعدة، عادةً ما لاحظت قفزاته من مرحلة نمو إلى أخرى. لهذا دائماً ما أثار حاله اهتمامي. كان يتقدم على النحو الذي أراده أبي. أسعدني هذا لأنني وسالي، كما ظننت، قد خيّبنا آماله. لم يُقابل اختياراتنا بالمعارضة قط. لكنني كنت واثقة أن أبي، الذي أصبحت أدرك جيداً مكانته الكبيرة في حياتي الآن في وجود أخي غير الشقيق، كان ليُفضّل أن تختلف اختياراتنا، خاصة ما اختارته سالي. بين الفينة والأخرى كنت أشعر بوخز الضمير عندما أتأمل حاله وحيداً في المنزل، بعد التحاق جاستن بالمدرسة الداخلية، يجلس إلى طاولة الشطرنج مع إدي رودا، أو يتجول في أراضٍ تريسانت يقود أبنيّر العنيد المتشبث بالحياة عربته. ولم أكن لألومه لو نعتنا بالجاهدين في تلك الفترة.

عندما عادت سالي إلى المنزل قبل زمن طويل بعد طردها من المدرسة لم ينزعج، بل كان راضياً لأنه سيحظى برفقتها مجدداً. لكنها ودولي مكثتا في تريسانت قرابة أسبوعين، ثم ذهبنا إلى منزل دولي بالقرب من برادفورد. هناك اضطرب الحال لأن السيد ديورست لم يتقبل الخبر بهدوء مثل اللورد بيرننج. لقد تلقى كل منهما خطاباً من مديرة المدرسة. لكن أبي كان قد سمع القصة بأكملها من سالي، وسرّه أن يأتي أحد أفراد عائلة جايلورد بلفتة

مُعَبَّرَةٌ. لهذا اكتفى بقوله لماجي: «إن ظننت تلك المرأة أن أيَّ امرئ سيحتمل القواعد التي تضعها فهي تعيش وهماً».

لكن السيد ديورست استاء ممَّا حدث. فكَّر أن دوللي الساخطة على الأوضاع المعيشية ستجد كثيرًا مما يثير اهتمامها في برادفورد، ذات المنازل المتلاصقة، التي يشترك قاطنيها في مرحاض خارجي واحد، وما إلى ذلك. لم يكن العاملون لدى السيد ديورست، على النقيض من اللورد بيرندج، أصدقاءه أو جيرانه. ولم يجد داعيًا إلى التظاهر بأنهم كذلك. لقد رأى في ميجدلي، الذي استطاع تحقيق النجاح رغم بدايته المتواضعة، دليلًا على أن «النظام القائم» يلائم من يملكون الصلابة والإرادة. إنَّ فرصة الصعود متاحة، ولأنها ضئيلة فسيسقط غير الجديرين بها وسيصعد مُستحقُّوها إلى القمة. كانت الفرصة في نظره قائمة، هذا هو بيت القصيد. وما دامت كذلك فلا يوجد ما يدعو إلى السخط أو التذمر. وقد عيل صبره عندما انتهى من إحدى خُطَبه الأبويَّة لتقول دوللي كأنها لم تستمع إلى كلمة مما قال: «يجب أن أُسْتَعِيد سجلَّ الحالات من تلك المرأة. إنه ملكي ولا يحق لها الاحتفاظ به».

لقد سمع السيد ديورست بذلك الدفتر، إذ أخبرته مديرة المدرسة بمحتواه الشائن.

أردفت: «أودُّ منك أن تكتب إليها خطابًا تطلب فيه إعادته. يملأ ذلك الدفتر معلومات قيِّمة».

لكن السيد ديورست حسم أمره وأبى التدخل في هذه المسألة. لهذا في اليوم التالي ذهب دوللي وسالي إلى برادفورد سرًّا لاستشارة أحد المحامين. ولأنهما لم تعرفا محاميًّا بعينه فقد تسلَّيتا بالبحث وسط واجهات المكاتب عن لوحة نحاسية تشير إلى أيِّ منهم، حتى عثرتا على واحدة. صعدتا الدرج ضاحكتين يُداخلهما الشعور ببعض الرهبة والتسلي، لكنهما جادَّتان تمامًا في ما تفعلان. لقد عزمتا على مواصلة حملة «طعام لعائلة فوستر»، رغم أنهما لم تعلما بأن عائلة فوستر أصبحت في حاجة أشد إلى الطعام الآن.

دخلتا مكتبًا حديثًا ذا أثاث جديد وصناديق لامة، تتضمن قليلًا من الوثائق ولم يُطبع عليها اسمٌ بعد. كان المحامي شابًّا مبتدئًا ذا شارب أشقر خفيف يرتدي معطفًا رسميًا بطول الركبة. لم يطابق مظهره صورة المحامي التي

تَوَقَّعتها، وبالمثل لم يرَ الشاب في الفتاتين الخجولتين مُتَوَرِّدتي الوجنات ما أُوحت به كلمة «عملاء».

لم يتضمن المكتب سوى مقعد واحد لعميل واحد أجلس فيه إحداهما والأخرى في مقعده، ثم جلس على حافة مكتبه. من بين الضباب أرسلت شمس الخريف أشعتها عبر النافذة لتضيء البساط التركي المُستعمل، الذي خطَّط المحامي لوضعه في غرفة المساعد عندما يجني المال الكافي لشراء بساط جديد وتوظيف مساعد. تساءل إن كان عليه أن يقدِّم لهما شراب الشيري والبسكويت وفقًا للعادات المُتَّبعة. ثم تذكر أنه لا يملك سوى زجاجة شراب واحدة وأن الآنستين تبدوان يافعتين. ساد الأجواء الحذر والترقب وهم جالسون في ضوء الشمس يستمعون إلى طقطقة الحوافر وصرير العجلات الحديدية، إذ تجرُّ الخيول العربات فوق الطرق المفروشة بالحجارة في الخارج.

تولَّت دوللي الحديث وأعجب سالي مقدرتها على سرد ما حدث كاملاً بوضوح وترتيب. ثم ختمت حديثها قائلة: «ذلك الدفتر ملكي. لهذا أمل أن تستطيع إعادته إليَّ».

ترك الشاب المكتب واستغرق في التفكير ينظر إلى وجهها النضر المستدير أسفل القبعة ذات الفراء، وفراء اليد الذي ضمَّ يديها. لقد حلَّ الخريف باردًا هنا في الشمال.

قال: «أرى أن حُجَّتِكَ قوية. سأكتب الخطاب اليوم وسألتقى ردًا عليه بعد الغد تقريبًا. ثم سأراسلك بالنتيجة».

نهضت دوللي قائلة: «لا، لا ترسله رجاءً. سنأتي لزيارتك هنا ثانية كي نسמע منك ما حدث».

لقد أرادت تفادي استفسار والدها عن الخطابات المرسلة إليها. وسرَّ الشاب لأن الفتاتين ستزورانه مجددًا.

في زيارتهما الثانية هناك وجدتَا مدفأة موقدة ومزهريّة بها ثلاث أقحوانات على مكتبه. لقد اشترى المحامي مقعدًا ثالثًا، وقنينة «شيري» وضعها في صينية مع ثلاث كؤوس. قدَّم اعتذاره عن تقديم الشراب عندما رفضتاه، وأخبرته دوللي أنها ترى المشروبات الروحية القويّة كارثة قوميّة.

قال: «يؤسفني قول إن الجواب الذي حصلنا عليه ليس مُرضياً». ثم تناول خطاباً من مكتبه وشرع في قراءته.

«سيدي،

رداً على خطابكم المُرسَل بتاريخ الأمس، ينبغي لي أن أقول إن من المستحيل إعادة الدفتر الذي أشرت إليه لأنه تعرّض للتلف. بسبب محتواه الفاحش فقد وضعته وسط نيران المدفأة، مع خالص التحيات».

صاحت دوللي: «يا للصفاقة! ليشتل طبعها النزق! رجاءً ستكتب إليها خطاباً آخر لنوجّه إليها تهمتين. (ثم قالت كأنها قاضي القضاة نفسه) أخبرها أننا بصدد مقاضاتها لإتلافها ملكية خاصة بفرد آخر والتشهير به. لقد قالت إنني كتبت كلمات فاحشة. هذا تشهير، أليس كذلك؟».

- يمكن القول إن دفتركِ تضمن معلومات سرّية.

تورّد وجه دوللي أسفل قبعتها الجديدة حماساً إلى تحقيق العدالة وقالت: «إذن لنجرب. ليديّب الذعر في أوصالها».

- لن أترك حجرًا دون أن أحرّكه ضدها.

قالت غاضبة: «الحجر الوحيد الذي لا أريده أن يتحرك هو شاهد قبرها، وسأحرص على تثبيته جيداً. سنأتي لزيارتك يوم الاثنين».

في يوم الاثنين سلّم المحامي إلى دوللي سجلّ الحالات. لقد حظي بوقتٍ كافٍ لقراءته، والآن كان ينظر إلى دوللي باهتمام وتسلّ.

قال: «ها هو. لقد أرسل دون خطاب».

- شكراً لك. أرايت العجوز الكاذبة؟! أعتقد أننا جمّدنا الدم في عروقها. إن رفع دعوى قضائية ضدها ليس في مصلحة المدرسة. لا تعمل الدعاوى القضائية في مصلحة أحد سوى المحامين، أليس كذلك؟

راقته صراحتها فعايها قائلاً: «أنتِ مُعارضة، أليس كذلك؟».

- مُعارضة؟

- أجل، تعارضين كل الأشياء والأوضاع.

- بالتأكيد!

- إذن أنصحك بألا تحاولي معارضة القانون. أؤكد لك أن هذه فكرة سيئة. سأرسل إليك فاتورة بأتعابي.

قالت وهي تمسك بمحفطتها: «ألا يمكنني الدفع الآن؟».

- لا! يجب أن تمنحيني بعض الوقت لحسابها.

لكنه لم يرسل تلك الفاتورة قط. ورغم أنه انتبه إلى أن هذه الطريقة ليست المثلى لإدارة عمله فقد أدرك أن تصرفه على هذا النحو هو الواجب في حالة كترك. ولم يداخله الشعور بالندم على هذا التصرف قط. بمرور الوقت أخذت صناديقه تمتلئ بالوثائق، وتمكن من توظيف مساعد وشراء بساط جديد، واشترى نبيذ الشيري غالي الثمن كما يحلو له. ومن حين إلى آخر خطرت تلكم الفتاتين في ذهنه، وتذكر الصباحين الخريفيين الباردين اللذين جمعاهم. حينئذ كان يغفل عن توبيخ ساعي مكتبه على صفيره في أثناء العمل.

3

حدث هذا قبل زمن طويل من جلوسي أسفل شجرة التوت في انتظار جاستن وماجي. وتلته أعوام مررنا فيها بتغيرات كثيرة، بخاصة سالي. أدت زيارتها منزل دوللي في الشمال إلى اكتشافها كثير من الحقائق. لقد ذهبت سالي إلى الشمال من قبل، لكنها لم تشهد منه سوى البقعة الراقية، حيث المنازل الفاخرة والأراضي البرية موطن طيور الطيهوج، التي يقصدها الأثرياء في رحلات الصيد. رأت أودية الأحجار الجيرية، والأنهار النقية، والرقعة المنبسطة حيث تضفي السراخس مسحة عنبرية على الأميال المزدانة بالزهور الأرجوانية أسفل السماء الباهتة الخريفية. لكنها الآن، بإرشاد من دوللي، رأت شمالاً جديداً حيث استحالت الأنهارُ مصارفَ تلوّثها مخلفات المصانع. وفي التلال التي كانت بهجة للنظر شُقت طرق وممرات وأزقة مسدودة مفروشة بالحجارة، ازدحمت بمنازل متلاصقة دون بقعة يمكن أن

ينبت فيها برعم أخضر. لقد اعتادت سالي حياة الصيادين والمزارعين الذين يُقاسون الجو المتقلب والرياح العاتية. لكنها هنا قابلت بشرًا كانوا، فيما بدا لها، سلالة مختلفة تقطن عالمًا آخر حديدًا، يتبدَّى صخبه في وقع أحذيتهم على الحجارة، وصرير عجلات عربات الشحن الكبيرة، والصوت الجديد الذي وجدته بغيضًا، وهو ضجيج المَكِنات الدائرة.

قادتها دوللي، المُبَشِّرة المُخْلِصة، في أرجاء ذلك العالم الجديد. وعندما عادت إلى كورنوال أصبحت مثلها تتأجج حماسًا. لكن حماسها إلى التغيير كان أكثر شدة بسبب حياة الهدوء والسكينة التي تعيشها في الريف. وبينما تسير في الغابة يصل إلى سمعها هدير المحيط، أو تشاهد البجعات في البحيرة، هزَّها الاختلاف بين العالمين. وأدركت أن لا أحد من سكانهما سينال السعادة ما دامت فجوة الجهل والتجاهل تفصل بينهما.

4

هتفت أني جريمشو من نافذة المطبخ قائلة: «أستطيع سماع العربية قادمة يا أنسة راينبرو».

ذهبتُ إلى باب المنزل الرئيس لأرى جاستن يهبط من العربة، ثم يفتح بابها كي تنزل ماجي. بعدما غادرتها خرج شخص ثالث لم أتوقع قدومه. كان فتى طويل القامة وجهه مألوفًا، لكنني لم أستطع تذكره. تقدَّم جاستن نحوي، أمسك بيدي وقال: «هذا موستن لويد أحد أصدقائي في المدرسة. لقد أوصلناه معنا».

أجل، كان ميرفن موستن لويد أمامي؛ ميرلن إيفانز، أو في الحقيقة، ميرلن رودا. تساءلت كم من ذكريات الماضي عُلِّقَ بذهنه. هل يتذكر البحيرة والأرض العشبية وعيدان القصب؟ ماذا عن الزورق وتغريد الكراوين، والحزاز على الأشجار في الغابة؟

قال جاستن: «هذه أختي يا ميرفن، سارا راينبرو. لسنا أشقاء لهذا لا تحمل لقبتي».

صافحني ميرفن بيده الطويلة الباردة. كانت قبضته حازمة، لكن عينيه الداكنتين ابتسمتا لي. لم يكن أشقر مثل والدته. ثم ذهب ليدفع أجرة سائق العربة ودخل جاستن البيت يحمل حقيبته.

همست ماجي إليّ: «لا تتفوهي بكلمة. تظاهري بأننا لا نعرفه».

لقد رأينا ميرفن آخر مرة في ذلك اليوم البعيد، إذ استقلَّ هو ولوسي العربة يغادران ميدان بورتمان للعيش مع عائلة موستن لويد. لكننا لم نره خلال سنوات نشأته قط. الآن أصبح في السادسة عشرة. ولم نعلم عن عائلته سوى أن ميچ موستن لويد وافتها المنية. لقد أصبح السيد موستن لويد ذائع الصيت بما يكفي لتنتشر الجرائد مثل هذا الخبر الذي يخصه، وقد قرأناه بعد عام من قدوم لوسي الحسناء ذات الرداء الأزرق الشاحب لزيارتنا. شعرت جلوري جاين بخيبة الأمل لأن تلك الزيارة لم تتكرر. وداخلنا نحن أيضًا الشعور نفسه. لكننا لم ننقم على لوسي، بل تمنينا لها التوفيق.

ذات يوم أخبرتني ماجي التي يثير اهتمامها السلوك الإنساني وتحسين تحليله: «إن لوسي من الفتيات اللاتي يستطعن النجاة من أي كارثة؛ حريق، أو فيضان، أو زلزال، أو أيّ كان. لا يلزمها سوى أن تقف أعلى درج حيث يراها المُسعِفون وسيهرعون لإنقاذها. سيوجد دائمًا من يمنحها موضعًا في قارب الإنقاذ، أو يزيل أطنانًا من الأنقاض كي يعثر عليها».

- لكنها تبدو رقيقة ومهيضة الجناح.

ضحكت ماجي وقالت: «أوافقك الرأي. تشبه لوسي زهرة دائمًا ما ستُلهم أحدهم إنشاء دفيئة حولها لحمايتها. حالما رحلت والدتها هبَّت بورتفن لمساعدتها. كان إدي رودا ليعتني بها، وكذلك ويزلي. لكنها لم تختَر أيًا منهما. وتشبَّثت بي».

- لقد أصابت فيما فعلت.

- هذا واضح. إن حدس لوسي لا يخطئ. كنت دعامتها حتى ظهرت عائلة موستن لويد. هل تتذكرين قولها: «إن مصلحة ميرلن هي ما يهمني»؟ أعتقد أنها صدقت في ما قالت. لكنني أتساءل كيف كانت نظرة السيدة موستن لويد إليها في النهاية. ليس لدي شك أنها، في البداية، رأت لوسي فتاةً خجولًا وديعة. لكن الحقيقة تجلّت للمرأة المسكينة مثلنا جميعًا.

تناولنا الشاي في الحديقة، وسرعان ما اتضح لنا أن جاستن يُكِنُّ احتراماً وتقديرًا عميقين لميرفن، الذي يكبره بتسعة أشهر. استنتجنا أن هذا يرجع إلى أن جاستن مُولع بالرياضات، لكنه لا يجيدها. لم تكن تضجّره مثلي. وعلى الرغم من مواظبته على ممارستها فإنه لم يستطع اكتساب المَلَكَة التي تفرّق بين الهواية والبراعة، وقد حازها ميرفن. ثم علمنا أن في أحد الأيام وقع حادث تصادم بين قاربين طرح بجاستن في النهر، فأسرع ميرفن يقفز في المياه ليخرجه.

قال جاستن: «لولاة لغرقت بالتأكيد».

قال ميرفن ضاحكًا: «في ذلك الخندق المائي؟ وحولك عشرات الرجال؟».

- رغم ذلك فإنك من أنقذني.

قلت: «يجدر بك أن تطلب من سالي تعليمك السباحة فهي تجيدها».

- سالي؟! لا تبالي سالي بمثل هذه الأمور هذه الأيام. نادرًا ما تكون في تريسانت. ودائمًا تتجول في أحياء أقل حظًا بصحبة الأنسة ديورست. لكن انتظري حتى آخذ ميرفن إلى تريسانت. سنمتطي الخيل وسأفوقه مهارةً في ركوبها.

وقد وافقته الرأي لأنه ورث حب الخيول عن والده.

سألته ماجي حذرةً: «هل سيذهب ميرفن إلى تريسانت؟».

- لم نتفق على موعد محدد لتلك الزيارة بعد، لكنها ستحدث ذات يوم بلا شك. إنه من كورنوال أيضًا، رغم أن اسمه يبدو ويلزيًا.

قال ميرفن بهدوء: «هذا الاسم زائف. إنه ليس اسمي؛ ليس اسم عائلتي.

تدعى أمي السيدة إيفانز. كانت متزوجة بمزارع ثري في شمال كورنوال».

نظرة ماجي إليّ نظرة ذات مغزى مُفادها: «شمال كورنوال بالطبع».

أردف ميرفن: «عندما مات، قبل أن تبدأ ذاكرتي العمل، ذهبت أمي للعيش

مع خالتها التي كانت متزوجة من السيد موستن لويد. (ثم سألت في تهذيب)

ربما سمعتم به؟».

أجابته ماجي: «أجل، بالطبع. وأنا واثقة أننا سنسمع المزيد عنه. لا بد أنه رجل رائع».

- إن العلاقة التي تجمعنا جيدة للغاية. كانت أُمي مُعسرة وقد اعتنى بكلينا. لقد بدّل اسمي عبر وثيقة قانونية، واضعًا علامة واصلت بين الاسمين موستن ولويد ليكون اسم العائلة الذي سيُورث. وأصبح يكتب اسمه على النحو نفسه رغم أنه لا يحق له فعل ذلك. (ابتسم فظهرت أسنانه الناصعة وأردف) إنه متفاخر، لكنه رجل جيد. عندما ماتت زوجته خالة أُمي، تولّت أُمي إدارة المنزل.

بعد تلك المحادثة بقليل غادر في عربة مستأجرة وذهب ثلاثتنا إلى برودة الحديقة. رغب جاستن بشدة في أن ينال صديقه استحساننا وسألنا مباشرة: «ما رأيكما في ميرفن؟».

أجابته ميج: «إنه فتى وسيم جدًا».

- أجل، بالطبع. إنه على درجة من الوسامة. لكنني أعني كيف تريناه؟ قالت ماجي ضاحكة: «لا تتعجّلني في أمر كهذا يا جاستن. لقد بلغت من العمر ما يجعلني لا أمتدح شخصًا في غضون ساعة من لقائي به».

- إذن سأخبرك برأيي فيه. لقد أوسعت أحد الفتیان ضربًا من أجله. لم يكن جاستن عنيفًا بطبعه، لهذا أثار ما قال اهتمامنا.

- كان فتى أحمر متغطرًا نال والده مؤخرًا لقب بارونيت. بينما نلعب الكريكت وقف حارسًا لبوابة الويكت، فاصطدم بيده مضربٌ لَوْح به لاعب آخر. بدأت مفاصل يده تنزف فقال أحدهم: «اربطها بمحرمة».

عندئذٍ هتف قائلًا: «يا موستن-لويد، هلا تبيعني بعض المحارم؟».

تغاضى ميرفن عن فحوى كلماته وقال: طبعًا. أنا جاهز دائمًا لكسب المال بنزاهة. هل تودُ خياطة شارة النبالة الخاصة بالعائلة بها؟ أم إن اللقب حديثٌ جدًا فلم يُسجَل بعد؟».

كان ذلك الجواب جيدًا، لكنني رأيت أنه يستحق جوابًا من نوع مختلف. لهذا لَكَمته قائلًا: «إنني لا أسمح لأمثالك من التافهين بالاستهانة بصديقي».

سألته ماجي: «أين وُلد في كورنوال؟».

- في منطقة ما لا أعرفها في الشمال. كان طفلاً صغيراً عندما غادر كورنوال ولا يتذكر الكثير. يتحدث عن غابة وضفة حيث تنمو زهور وردية. إنَّ هذا الوصف ليس بالمُحدَّد.

- إذن فهو لن يذهب إلى تريسانت في هذه العطلة؟

- نعم، سيذهب مع والدته إلى جنوب فرنسا.

6

عاد جاستن إلى كورنوال ليُطيل البقاء لا لقضاء بضعة أيام فقط. لقد خطَّط للقاء ميرفن صباحاً وقضاء النهار في مشاهدة مباراة كريكت.

لهذا قالت ماجي: «أرى أن ظهيرة اليوم، إذ الفتیان غائبان، موعد مناسب لزيارة لوسي. هل تودَّين الذهاب؟».

وددت الذهاب فعلاً وانطلقنا بالعربة. لقد لحظت التغيرات التي طرأت على المنزل القائم في كنزنجتون قبل حتى أن ندخله. تذكرت أن موستن لويد، في زيارتنا الأولى إلى العائلة قبل وقت طويل، هرول إلى الباب ليرحب بالكاتبة الصاعدة. ولم نَرَ في ذلك الحين سوى بعض الخادِمات اليافاعات. لكن الآن كان الحاجب هو من فتح لنا الباب. وبعد ذلك أحضر رئيس الخدم الشاي إلى غرفة الجلوس. بعد حياة الحرية التي عشتها في تريسانت عادت بي هذه الأجواء إلى الطقوس والرسميات في منزل السير ريتشارد في ميدان بورتمان.

في غرفة الجلوس المزدحمة شابهت لوسي السيدة ريكاميه⁽¹⁾. كانت جالسة على أريكة مثل أريكة ريكاميه تتخذ وضعية تشبهها وأقرُّ بأنها تماثلها جمالاً. أظن أنها في ذلك الوقت كانت في أوائل الثلاثينيات من عمرها. وبدا من غير المعقول أن يكون لامرأة مثلها ابن في طول ميرفن.

(1) جوليت ريكاميه سيدة فرنسية مرموقة، اشتهرت بجمالها وذكائها وكياستها. اجتذب صالونها الباريسي الشخصيات الالامعة في عهد نابليون. م

تحدثنا في شتّى الموضوعات بعض الوقت. أثنت ماجي على جمالها صراحةً، فابتسمت تتقبّل الإطراء بلا خجل لأنها، في ما أظن، قد اعتادته. قالت: «إن الجمال الباهر مزعج نوعًا ما؛ يريد كثير من الفنانين رسمي. لكن السيد موستن-لويد منح جون ميليه فقط الإذن بذلك».

كانت اللوحة المقصودة مُعلّقة فوق رفّ المدفأة، فاتجهت أنا وماجي إليها كي نتأملها. لقد ازدحم رفّ المدفأة بتلك التُحف التي دائميًا ما أشرنا إليها جميعًا باسم «الأبقار المُقدّسة». وبين تلك الأبقار المُقدّسة استرعى غرض انتباهي. كان علبة صفيحية يمكن أن تحوي مسحوق كاكاو بقيمة ستة بنسات، لكنها تبرق على النقيض من المظهر المعتاد لتلك العلب، وكأنها تُلَمّع مع باقي التُحف كل يوم. شدّ ذلك الغرض عن المجموعة حتى إنني تناولته.

عندئذٍ قالت لوسي التي كانت تلاحظنا من أريكتها: «أحضريه إليّ».

وضعته بين يديها فأخذت تُقلّبه وسرحت بأفكارها بعيدًا.

عندما جلست أنا وماجي قالت: «لأخبركما ماذا يكون هذا. أنتما الاثنان تعلمان كثيرًا عن حياتي ومن العبث التظاهر أمامكما».

ثم أخبرتنا عن قصة علبة مسحوق الكاكاو التي ذكرتها سابقًا: عندما استيقظت في تلك العُشّة صباحًا لتجد أن والدتها قد رحلت، وتعثّر على تلك العلبة على الطاولة بداخلها بضع عملات نقدية ادخرتها والدتها.

ثم ناولتني العلبة قائلة: «هلا تعيدينها إلى موضعها؟ إنها إحدى معالم الغرفة وسيلحظ ضيوفي غيابها. أسمعهم يقولون لأي ضيف جديد: «يجب أن ترى علبة مسحوق الكاكاو الخاصة بالسيدة إيفانز». تلك العلبة مزحة كبيرة، جزء من صورتني كشابّة رقيقة. غرض يعود إلى طفولتي حيث كنت أحتفظ بالخرز والحصى الجميل والأصداف. هذه هي الكذبة. هل ترين أنني شابّة رقيقة يا آنسة ويل؟».

أكدت ماجي: «أعتقد أنك في صلاصة الحديد».

ابتسمت لوسي كأن هذا التعليق أرضاها أكثر من الإطراء على جمالها، ثم قالت: «هذا سرٌّ أشاركه معكما. إنني معروفة بالرّقة والرهافة كأني قطعة من الخزف، أو زهرة نسرين، أو شيء من هذا القبيل. حتى إن السيد موستن-

لويد يراني على النحو نفسه تقريباً رغم أنه يعلم قصة العلبة الحقيقية. لكنه يرى الوفاء في تعلُّقي بالأثر الوحيد الباقي لي من أمي. على أنني أدرك جيداً أنني لا أستطيع خداعك يا آنسة ويل».

- لا تفكري حتى في محاولة ذلك.

- لن أفعل. إنكِ تدركين أنني أحتفظ بهذا الغرض تنبيهاً كي لا أنسى. إذا نظرتِ بداخله ستجدين المبلغ نفسه الذي عثرت عليه في ذلك الصباح، زهيداً لا يكفي لمواجهة العالم.

بدلت ماجي مسار الحديث قائلة: «انتابني الأسف عندما قرأت خبر رحيل السيدة موستن-لويد».

- كان رحيلها راحةً لها لأن ألمها اشتدَّ، وانتابها الهمُّ أيضاً. لقد أمضيت وقتاً طويلاً بجوارها وأوقن أنها كانت مشغولة البال، رغم أنها لم تخبرني بذلك.

سألتها: «ما الذي كان يشغل بالها؟».

- ظروف الحياة التي تشاركها زوجها. ليس من الهين أن يتقدّم الرجل ويتعذّر على المرأة مجاراته.

قالت ماجي: «ظننت أن التناغم بينهما على أتمّه. اتضح لي هذا في المرات القليلة حيث رأيتهما معاً».

- لكن ما رأيته قليل جداً.

عارضتها ماجي بحدّة: «لوسي -اسمحي لي أن أدعوك باسمكِ رغم أنكِ، على غير المعتاد، تدعينني الآنسة ويل- إنني أنصحكِ بألا تخدعي نفسك. أدركين أنكِ تخدعين نفسك؟ هذه أول مرة أرى فيكِ خداع الذات».

تخضّب وجه لوسي بالحُمرة وقالت: «ماذا تقصدين؟».

- أقصد أن الانسجام ساد علاقتهما وكانت لتستمر على النحو نفسه لو لم تدخل حياتهما.

- لكنني دخلتها دون إضمار الشرِّ، إذ لم يشغلني سوى مصلحة ميرفن. ثم ظننت تلك المرأة أنها تستطيع التحكم بي. لن تصدّقكم الاستئساد الذي اضطررت إلى احتماله.

- أُصَدِّقْ، وكنت لأخبرها أن لا جدوى من المحاولة. لكنكِ لم تخذعيني، وأنصحكِ الآن بالكفِّ عن خداع نفسك.

حدجتها لوسي بنظرة باردة وقالت: «لم أعد أنال استحسانكِ، أليس كذلك يا ماجي؟».

- لن أقول إنكِ تحظين باستحساني أو تخسرينه. من أنا لأحكم على الغير؟ لكن الحيلة التي تخدمين بها نفسك لا تنطلي عليّ.

غيّرت لوسي موضوع الحديث قائلة: «إذن كان ميرفن في منزلكما الأمس؟».

- أجل، لهذا جئنا لزيارتكِ.

- أدرك ذلك.

سألتها: «لماذا اخترتِ شمال كورنوال؟».

- لأن ميرفن لا يتذكر الكثير حول الماضي ليعلم إن كان قد وُلد شمالاً أم جنوباً. بالطبع لن أعود إلى الجنوب أبداً، لكن هواه قد يقوده إلى مكان نشأته يوماً ما، وقد يتجول في المناطق الخطأ.

قالت ماجي: «يعجبني ذكاؤك كثيراً يا لوسي، لكنني أعتقد أنه خانك هذه المرة. إن جاستن وميرفن صديقان، ويوماً ما سيذهبان إلى تريسانت معاً. أرى أنكِ إن أخبرتِه بالحقيقة فإن احتمال انزعاجه منها ضئيل جداً. وبعدئذٍ يمكنه أن يواصل التظاهر بأنه من شمال كورنوال إن أراد ذلك، لكن القرار له».

تأملت لوسي قولها طويلاً، ثم سألتها أخيراً: «لِمَ تعتقدين أن القرار له؟».

- لأن الحقيقة إن انكشفت وهو في تريسانت فسيعيش موقفاً حرجاً. وقد يصعب عليه مسامحتكِ حتى إن تظاهر بخلاف ذلك. لا تنسي أن الفتى عزيز عليّ. لقد نشأ في منزلي وأعتقد أنني أعرف بعض طبعه. أؤكد لكِ أنه عندما يذهب إلى تريسانت سيلامس المكان ذاكرته، وسيدرك أين هو.

اضطربت لوسي قليلاً لأول مرة منذ بداية اللقاء وقالت: «من السخف ذهاب ابن اللورد بيرندج إلى «إيتون»! لقد التحق بها ميرفن قبله».

ضحكت ماجي بشدة وسألتها: «هل حقًا تصدِّقُين هذا الهراء؟! لقد انتسب جاستن إليها قبل ولادته إن جاز التعبير. دائمًا ما يتلقَّى أبناء عائلة جايورد تعليمهم هناك».

الآن خرجت لوسي من شخصية السيدة ريكاميه. نهضت وأخذت تتجول في الغرفة طويلة القامة نحيلتها مثل شجرة البتولا، ثم قالت أخيرًا: «أعطني نصيحتك يا ماجي».

- هذا ما فعلته للتو. لكن أخبريني: كم شخصًا في بورتيفن يعلمون أن والدتك تكون شقيقة السيدة موستن-لويد؟
- لا أحد. أنا واثقة من ذلك.

- إذن لا يوجد هناك من سيعني له هذا الاسم شيئًا عند سماعه. يكمن الخطر الوحيد في ذاكرة ميرفن والأسئلة التي قد تقوده إلى طرحها. هذا ما عليك الحذر منه.

- لكن اللورد بيرندج يدري بهذا الاسم بالطبع!
- لا حاجة إلى قلقك بشأن معرفة اللورد بيرندج بهذه الحقيقة. يمكنك الاعتماد عليه مثلما يمكنك الاعتماد عليّ.

عندئذٍ أسرع لوسي نحوها، أمسكت بيدها وقالت: «أوقن أنني أستطيع الاعتماد عليك وطالما وثقت بك. لا تخفي أنني نسيت، أو سأنسى أبدًا، ما أنا مدينة لك به أو المعروف الذي قدّمته لميرفن».

ابتسمت ماجي وقالت: «من الرائع أن يحظى المرء بمن يستطيع الاعتماد عليه. لكن لا تعتادي الصدق فقط مع من يخدمون مصالحك يا لوسي. قد يقودك هذا إلى الوحدة في نهاية المطاف. سأنصحك نصيحة أخيرة: أخبري السيد موستن-لويد بما تفعلينه وبدوافعك لفعله».

- سأتمكن من جعله يتفهمني ويتصرّف بمعقولية.
دققت ماجي النظر إليها وبدت في وجهها أمارات التسلي، ثم قالت: «أنا واثقة من ذلك. ولا تنسي أن ميرفن عندما يذهب إلى تريسانت سيقابل إدي رودا، لكن لا حاجة إلى أن يعرف من يكون. إنني لا أعارض أن يبقى والده

ميثًا. (أومأت لوسي فأردفت ماجي) هل تودّين أن أراسل اللورد بيرندج بخصوص هذا الأمر؟».

- افعلي هذا رجاءً يا ماجي. ستكتبينه على نحو أفضل مني بكثير.
قالت ماجي ضاحكة: «إذن ستفعل كل منا ما تجيد. أقرُّ بأن ثمة مناحي لا أحلم حتى بمنافستك فيها».

7

رافقنا جاستن إلى محطة القطار في «بادنجتون»، ثم عدنا لنجد خطابًا من ميرفن يقول فيه:

«عزيزتي الأنسة ويل،

سأسافر مع أُمي إلى فرنسا الأسبوع المقبل، لكن هل يمكننا أن نجتمع خلال الأسبوع الحالي؟ سأسعد كثيرًا إن تمكنت من استضافتكما أنتِ والأنسة راينبرو في ملعب «لورد» للكريكت يوم الخميس.

مع خالص الاحترام،

ميرفن موستن-لويد».

قلت: «أنا لم أحضر مباراة كريكت قط».

- أنا مثلك أيضًا، لكنني أرى أن علينا الذهاب.

وقد ذهبنا بالفعل. في صباح الخميس الصحو أتى ميرفن لاصطحابنا إلى الملعب في عربة موستن-لويد الفاخرة. هناك استمتعنا بالجلوس أمامنا العشب الأخضر البهيّ، تمرُّ السحب هادئةً عبر السماء الزرقاء، ويركض اللاعبون بأزيائهم البيضاء ذهابًا وإيابًا. لم نهتم أنا أو ماجي بتلك اللعبة التي يستمتع بها ميرفن ويفهم قواعدها جيدًا، وبدا لنا أنه لم يأخذنا إلى الملعب كي نشاهد المباراة. جلس بيننا الفتى الوسيم الذي يسرُّنا الخروج بصحبته. وكنت واثقة أن ذهن ماجي، مثلي تمامًا، ازدحم بذكريات طفولته المبكرة التي تلاها كثير من التغيرات تحجبها عن وعيه. على أننا أدركنا أن اللحظة التي سيشرع فيها في الحديث عن تلك الذكريات قد اقتربت.

وقد حان موعدها في استراحة الغذاء حيث جلسنا على العشب الدافئ. فتح ميرفن سلّة الطعام التي أخرجها من العربة، ثم قال والابتسامة تعلو وجهه: «لقد اخترت هذا الغذاء بنفسى. أمل أن ينال إعجابكما».

كانت أصناف الطعام جيدة، لكنها تقليديّة قليلاً: دجاج بارد، فطيرة اللحم البارد، سلطة خضراوات، سلطة فواكه مع القشدة، وزجاجة نبيذ أبيض. وفي منتصف الغذاء حانت اللحظة، إذ قال: «أتعلمين بماذا تذكّرني هذه الأجواء يا آنسة ويل؟».

مازحته ميج قائلة: «يعني الدجاج البارد والسلطة مئات النزهات الخلويّة المعتادة».

قال ضاحكاً: «صحيح تماماً، أعذر عن ضحالة خيالى. لكن هذا الغذاء لا يذكّرني بأي نزهة، بل بالاستلقاء على أرض عشبية، حيث بُسّط الطعام على قطعة قماش تفتش العشب. لكن بدلاً من ملعب الكريكت الأخضر أرى بحيرة وزورقاً، وعيدان القصب تنتصب على الضفة».

- كم أصابت والدتك في إخبارك بالحقيقة!
- عندئذٍ تمنيت لو عاشت جدّتي طويلاً. لقد راقني كل ما سمعته عنها. كانت في ما يبدو لي شخصاً رائعاً.
- أنا لم أقابلها قط لأنها رحلت قبل زهابنا إلى تريسانت للمرة الأولى. أقصد برحيلها هجرانك أنت والدتك، وهذا التصرف ليس رائعاً.
- أجل، أتفق معك. لكن لا أحد مثاليّ، ألا توافقيني الرأي؟

- يَنُمُّ سؤالك عن رزانة بالغة يتمتع بها فتى يافع مثلك، بخاصة إن تعلّمت ألا تذري المخطئين. إنّ من يحلمون بعالم مثاليّ سَكَّانه مثاليّون دائماً ما يعيشون في تعاسة، ويتحاملون على العاديّين من البشر الذين نراهم حولنا كل يوم. لهذا لا تروقني شخصية جدّتك بقدر ما راقتك. لقد أرادت أن تتقيّد والدتك بتصوراتها الخاصة عن الكمال. ولأنها لم تفعل ذلك رحلت وتركتها في ورطة. تخلّت عنها وهي في أمس الحاجة إليها. ليس منّا مُنزّه عن الخطأ، وفي زلّ من توهمنا عصمتهم تبعات بالغة السوء.

لهذا حَرِيٌّ بنا ألا نُمَجِّد أحداً، وأن نتفهَّم إخوتنا المخطئين كي نستطيع التعايش معاً.

ارتسم على وجه ميرفن ابتسامة راقتنا، إذ امتزج فيها الخجل والعبث في الآن نفسه، وقال بتهذيب: «لن أطرح المزيد من الأسئلة إن كانت ستأتي بسيولٍ من كلماتٍ كتلك لتجرفني».

أراحت ماجي يدها على يده التي يستند بها إلى العشب وقالت: «لا تؤاخذني».

- لا فائدة فقد فات الأوان. أنتِ تنصحيني بألا أُمَجِّد أحداً وقد حدث هذا بالفعل. إنني أَجِلُّ أُمي وأراها بلا قصور.

طمأنته ميح: «لا بأس في ذلك». مكتبة سُر من قرأ

- لقد خشيتُ أن يتسبب ما ستخبرني به في أن أبغضها أو أزدريها. وكم كانت مخطئة في ظنِّها! (ثم خضبتُ الحُمرَة وجهه إذ قال في تحدٍّ) لقد أتى إلى هذا العالم كثير من الأطفال غير الشرعيين. وأصبح بعضهم مشاهير ومن عظماء التاريخ. (جثا على العشب يجمع الأغراض في سلَّة الطعام وأردف) لا أقصد أن هذا ينطبق عليَّ لأن العمل في المتجر يسرُّني وسأكون راضياً به. (توقف عن الحديث لحظات، ثم رفع نظره عن العشب إلى ماجي وقال) توجد مسألة أودُّ استشارتك بشأنها: هل يجب أن أخبر جاستن بالحقيقة؟

- أنت من عليه اتخاذ هذا القرار. إن أخته سالي جایلورد تدري بالأمر، وكذلك اللورد بيرندج والده. وفق ما أعلم هؤلاء فقط من يعلمون الحقيقة، بخلافي أنا وسارا والدتك والسيد موستن-لويد.

- إذن سأخبره، يؤسفني إخفاء هذا السر عنه. الآن أخبراني عن تريسانت. سرُّنا تبدُّل مسار الحديث من هذه المسألة إلى تريسانت.

قال: «أتذكر يوماً رأيت فيه رجلين؛ أحدهما ذا لحية والآخر يجلس في عربة يجرها حمار أتذكَّره جيداً».

- هذا والد جاستن والقبطان رودا خادمه.

- أعلم أن والد جاستن لا يستطيع المشي.

- إن ذهبت إلى تريسانت فستقابلهما. يتحرك اللورد بيرندج في عربة لأن عموده الفقري أُصيب في حادث قبل أعوام.
- لقد أخبرني جاستن بهذا الأمر.

قلت: «وقعت الإصابة في يوم ولادة جاستن. لم يرَ والده يمشي قط، على النقيض مني».

- الآن سنغادر المباراة خشية أن تضجركما ولأنني جئت بكما إلى هنا كي نتحدث. لا بد أنكما خَمَنتما ذلك.

قلت: «لقد قضينا وقتًا رائعًا. شكرًا لك يا ميرفن».

وكنّت صادقةً في ما قلت، ففي ذلك اليوم تبدّدت بعض الغيوم التي قد تعكّر صفو حياة ميرفن ولوسي.

قال خَجَلًا: «يوجد أمر آخر أودُّ قوله. إن أُمِّي تحبُّ كثيرًا يا آنسة ويل. (أضاف ضاحكًا) لكنها تخشاك قليلًا. على أنني أرى أن هذا يرجع إلى أنها ترغب بشدة في نيل استحسانك، وأتفهّم تلك الرغبة. لقد أخبرتني بالكثير عنك، وأودُّ شكرِك على ما فعلته من أجلنا».

تأثرت ماجي بكلماته فطرفت عيناها في ضوء الشمس الساطع، وقالت: «هراء! أنا فقط مُربيّة، ومن واجبي أن أحاول مساعدة من حولي على النضج».

8

قبل شروعي في الكتابة هذا الصباح تطلّعت إلى صورة التّقطت في تلك الفترة، تظهر فيها سارا راينبرو عندما تزوجت بدانييل أندريدج. كانت فتاة لا تلتفت إليها الأنظار. ليست بالطويلة ولا بالقصيرة. ليست بدينة، لكنها ليست نحيلة. لا تتمتع بالحُسن، لكنها لا تبدو مُنفرة. لا تُعدّ مثالًا للأناقة لكن مظهرها مُرتّب. أرى في الصورة شابة يافعة عاديّة في منتصف العشرينيات، حول عنقها سلسلة نستنتج أن ساعة جيبٍ تتصل بها، لكنها توارت عن الأنظار في موضع ما من صدرها. لا يعلو وجهها ابتسامة أو عبوس، لكن نظرها استقرّ على منظر يسرّها؛ كنت أنظر إلى ماجي.

تلك سارا راينبرو التي بدأ فكرها ينشغل بدانييل أندريدج، الذي يتميز بكل ما تفتقر إليه. كان طويلًا ووسيمًا وأنيقًا. صُحبته سارة وحديثه مُسلٍّ. جادًا وطَمُوح في عمله. منذ لقائنا العابر عندما ذهبنا لرؤية السفينة الحربية الحديدية أصبحنا نلتقيه كل صيف. كان يسافر من فرنسا مع سباستيان ريمل للمكوث عند خالته في تشيلسي. ولأنني أنا وماجي استقررنا في لندن فقد اعتدنا الترتيب للقاء. ذهبنا إلى المنزل القائم في شارع «تشيني» لزيارة خالته، التي اختلفت كثيرًا عن شقيقتها الصغرى والددة دانييل. كانت امرأة يقظة الذهن حادة المزاج ميسورة الحال. عمل زوجها محاميًا في شركة حمامة شهيرة ولم يُرزقا بالأبناء. لزمّت الحرص في إنفاق المال في كل شيء باستثناء ما يخصّ دانييل. بدا واضحًا في زيارتنا الأولى لها أنها تعيش العام كله تطلُّعًا إلى الشهور القليلة التي يمضيها معها. كانت تعيش في عزلة عن العالم، ثم يأتي دانييل لتصبح ما كانت جلوري جاين لتدعوه «ربة اللهو والمرح». تذهب لحضور الحفلات والمسرحيات. تخرج في نزاهات ريفية وعلى ضفاف «التمز». وتقيم حفلات عشاء في منزلها. كانت الشابة الذابلة بداخلها تزدهر في الموعد نفسه كل عام، عندما تشرق شمس دانييل في حياتها. لقد تكفّلت بمصاريف التحاقه بكلية «بالويل». وفي أثناء عامه الأخير هناك وافتها المنية فجأة. لقد أرسلت إلينا خطابًا تدعونا فيه أنا وماجي على العشاء، على أن نحضر في السادسة والنصف. ذهبنا في تلك الساعة المبكرة واكتشفنا أنها تودّ استشارتنا حول أصناف المائدة. لقد اعتادت، عندما تكون وحدها، تناول بيضة مسلوقة وقطعة خبز وكوبًا من الشاي. لكنها خطّطت لإقامة عشاء مميز احتفالًا بعودة دانييل من بالويل وعلاماته الممتازة. سألتنا أتضع طاقم خزف «سبود» أم «ورسستر»؟ كأس «ووترفورد» الكريستالية أم الكأس التي ابتاعها في فيينا؟ عرضت أمامنا العشرات من مفارش المائدة لنختار من بينها. وأعاد الخدم ترتيب الزهور التي تُزيّن غرفة الطعام.

عندما نالت جميع التجهيزات استحسانها جلست تنتظر سماع صوت عجلات العربة ودقّ دانييل الباب. لحظتُ أن يديها ذواتي العروق البارزة ترتشعان في جحرها. كان ذلك المساء حارًا. لهذا اقترحت عليها أن أفتح النافذة أو أن أجلب لها شرابًا باردًا.

قالت: «أحضري لي بعض البراندي يا عزيزتي».

ذهبت إلى الخزانة الجانبية وهي تُرَوِّح على نفسها بالمحرمة. وضعت الكأس في يدها، وبعدما شربت منه القليل قالت: «لا تقلقي أنا بخير. (صمتت لحظات ثم أردفت) وإن لم أكن كذلك فاعتني بدانييل. لا تنسي أن عيني ستراقبكما من مكان ما».

فاجأني قولها حتى إنني شهقت وقلت: «سيدة جيمستون...!»

قالت بجديّة: «أخدعي نفسك كما يحلو لك، لكنك لا تستطيعين خداعي. أنتِ مُدلهة في حبه، سواء أكنتِ تدركين هذه الحقيقة أم لا».

لقد أدركت حقيقة شعوري، للأسف!، لكنني ظننت ألا أحد يلحظه وكنت واثقة أن دانييل لا يدري به. لكن الآن انتزعت سرّي تلك المرأة التي تبدو على حافة الموت. لقد زعزعني إفصاحها عن الحقيقة، وارتجف جسدي كله مثل يديها.

قالت: «اقتربي إليّ. إن كنتِ لا تستطيعين الوقوف فاجئي هنا».

جثوت عند قدميها وشعرت بيدها الواهنة تمسّد شعري. قالت: «اهدئي يا صغيرة. ما أقبح ما فعلتُ الآن! اهدئي يا صغيرة. لا مكان للقلق الليلة تحديداً».

رفعت رأسي أنظر إليها فحاولت الابتسام كي تطمئنني. ثم تغصّن وجهها ذو التجاعيد ألماً.

صرخت: «ماجي!».

هرعت ماجي التي لاحظت ما يحدث لتحيطها بذراعيها كي لا تسقط. أرقدناها أرضاً ووضعنا وسادة أسفل رأسها، وأرسلنا إحدى الخادومات كي تستدعي الطبيب. لكنها رحلت قبل مجيئه.

الفصل الثاني عشر

1

على النقيض من السيدة جريمشو كانت السيدة جيمستون تؤمن على المال. أعني أنها استطاعت الحفاظ على ثروتها. على أنني أرى أن من يؤمن على المال هو من يعلم كيف ينفقه بذكاء لا من يكتفي بحراسته. رغم ذلك فإنني لا أذمر من طريقتها في العيش لأنها خدمت مصلحتنا أنا ودانيل. لم تكن من البخلاء، إذ إن نوبات البزخ والسخاء، كما ذكرت، انتابتها في أوقات محددة. لكنها أمضت معظم حياتها في تقشُّف، تستثمر أموالها وتسجِّل وضعها المالي في نهاية كل عام في دفترٍ تسليّتٍ بقراءته. في عام واحد فقط وجدتُ وضعها المادي أسوأ منه قبل اثني عشر شهرًا، فكتبتُ توبّخ نفسها: «هذا لا يجدي نفعًا! يجب أن أحسن التصرف».

وقد نجحت فيما اعتزمت فعله، فتمكنت في العام التالي من كتابة: «إن سفاهاتي الأخيرة، حمدًا للرب، لم تأتِ بالعواقب المُستَحَقَّة. ووضعِي المال الآن أفضل مما كان في أي وقت مضى».

توجد فقرة أخرى كتبت فيها: «سألني زِيدي كوجان شراء مواقد جديدة. فأجيبته ضاحكة: «ماذا عن بناء برج حمام وشراء حمامات بيضات كي تلائمه أيضًا؟»».

عجزت عن فهم تلك الكلمات عندما قرأتها للمرة الأولى وأنا جالسة مع ماجي ودانيل نراجع وثائق المرأة العجوز بعد وفاتها. ولم يفهمها أي منهما أيضًا.

لقد ورثت دانيل منزلها وثروتها كلها. كان لا يزال أمامه بضعة أعوام من العمل الجادّ قبل أن يصبح محاميًا مُرافِعًا، لهذا قرّر عرض المنزل للإيجار. قال: «على الأرجح أنني سأعيش هنا إن تزوجت. لكنني لا أريد أن أنشغل بأمره في الوقت الحالي».

كان هذا بعد أسبوع تقريبًا من الجنازة؛ ذلك الحدث الكئيب الذي لم يحضره سوى ثلاثتنا. لم تأت السيدة أندريدج التي لم تكن على وفاق مع شقيقتها قط. وبعدها تزوجت كل منهما أدّى ابتعادهما إلى قطيعة استحالت عداءً. لقد استخفّ السيد جيمستون، الذي كان صعب المراس مثل زوجته، بالسيد أندريدج وأساء إليه واصفًا حياته بالتافهة. رأى أن الفنان الحقيقي هو من يطلب الأثرياء لوحاته كي تزيّن حوائط منازلهم، مثل فريدريك لايتن وجون ميليه. أمّا أندريدج المسكين، الفنان حينًا والمُعَلِّم حينًا، العاجز عن كسب المال الذي يُمكن إنمائه، فكان في نظره ابنًا مُخجلاً غير كفء لمجتمع «الفردانية» الذي عاش فيه. لقد وجد الزوجان جيمستون أن من المؤسف أن يحظى الزوجان أندريدج بطفلين في حين أنهما، اللذين يتمتعان بجميع الصفات اللازمة لتحسين النسل البريطاني، لم يُرزقا بأي أبناء. وأدّت هذه النظرة إلى نقمة شديدة بين الشقيقتين، حتى إن السيدة أندريدج لم تذكر شقيقتها في ردّها على خطاب دانيل، الذي أخبرها فيه برحيلها.

قالت ماجي: «ما يفاجئني هو سماح والدتك لك بزيارة خالتك».

- لم تسمح لي بذلك. عندما جئت أنا وسباستيان إلى المدينة للمرة الأولى مكثنا في بيت ضيافة مُريع في «بلومزبري». هناك أمضينا وقتًا مضجرًا كئيبًا. لهذا في زيارتنا التالية - تلك المرة التي كدت فيها أقلب قاربكما - قلت لسباستيان: «لنذهب لزيارة خالتي. سمعت أنها امرأة لا تُحتمل، لكن لا شيء قد يفوق ما نَحتمله الآن سوءًا. هكذا أجرينا زيارتنا الأولى. (أردف ضاحكًا) لقد رأيتمانا في ذلك اليوم، وستتفقان معي عندما أقول إننا كنا فتيين رائعين بهيجين. لقد سخرنا جاذبيتنا كلها

كي ننال إعجابها، فوقعت المرأة في حيرة. راقبتنا عينها الحذرة، لكننا ثبتنا أمام نظراتها. أوهمنّاها بأننا جئنا رغبةً منا في زيارتها فلانت شدّتها. وعندما أشرت إلى أنني سأقع في ورطة إن علم والدِّي بزيارتي لها رضيت تمامًا.

توقف عن الكلام قليلًا يملأ غليونه، ورأيت إيماءاته تفيض برجولة ساحرة. استأنف حديثه قائلاً: «ما تبع ذلك كان مزعجًا. لقد اندفعتُ فيما فعلتُ إذ كنت يافعًا. ورغم حداثة سني حينئذٍ فإنني سرعان ما أدركت أنني أُستغل في لعبة ليست بالظريفة. كانت الخالة تدرك أن شقيقتها الصغرى لا ترضى عن زيارتي لها لهذا قرّبتني إليها. اقترحتُ أن أمضي الصيف عندها بدلًا من بلومزبري. هكذا نقلنا أنا وسباستيان أمتعتنا إلى منزلها. ثم بدأت تجود علينا بمصروف الجيب. لكنني لم أدرك حقيقة ما يحدث حتى فات الأوان؛ أصبحت أُستلطف السيدة، وقد استلطفتني أيضًا».

قالت ماجي: «لا حاجة إلى أن تدع هذا الأمر يزعجك. دائمًا ما تكون النزاعات العائلية بغيضة. لكنك استطعت تهدئة النزاع بينهما قليلًا».

- بالتأكيد فعلتُ ذلك، لكن المؤسف أن فقر والدِّي هو ما سمح بما حدث. كان مكوثي في بيت الضيافة رغم حاله المتواضع عبئًا يثقلهما، ولم يستطيعا رفض ما تمنحني الخالة إياه. كانا ليرفضانه لو قدّمته لشأنٍ يخصّهما. لكنهما علما بطموحي إلى الالتحاق بـ «أكسفورد» كي أدرس المحاماة، وأدركا جيدًا أنها من يستطيع مساعدتي في تحقيقه لا هما. لهذا سمحا لي بقبول ما تقدّمه على مضض. لكن الشعور بالنقمة بينهم لم يخدم، حتى إنهم لم يتبادلوا الخطابات قط. كان هذا الوضع مؤسفًا. ثم عبث بشعره فتذكّرت الصبي المشاغب بجوار البركة في حديقة مونتروي.

بدا آسفًا إذ قال: «لكنني لا أظن أن تصرفي كان ليختلف رغم كل شيء. لقد توطّدت العلاقة التي جمعتني بالخالة. أنا أكيد أنها أصبحت أكثر سعادة في تلك الأعوام الأخيرة. لقد تعرّف أحدها إلى الآخر شيئًا فشيئًا، ونالت بعض الصفات التي تميّزها احتراممي. صراحةً لا أظن أنني أخذت دون أن أعطي. لكن كل هذا المال الآن....».

- لا تشغل فكرك بهذه المسألة ولا حاجة إلى تبرير موقفك. أؤكد لك أن الطرفين لو نحيا قليلاً من كبريائهما جانباً لاستقام الوضع. لِمَ تُثَقِّل قلبك بما أخفقا في فعله؟

قال ضاحكاً: «أشكرُ يا آنسة ويل. لقد أراحتني كلماتكِ مثل النبيذ الأحمر الدافئ الذي شاركته معنا في مقهى المزارعين».

تطلَّعتُ إليه واقفاً وسط الغرفة الملأى بوثائق السيدة جيمستون والضحكة تعلو وجهه. ووددتُ أن أخبره أنني وسالي، ذات يوم في تريسانت، تذكَّرنَا ذلك النبيذ. وفي محاولتنا لإحياء الماضي ثملنا بشارب القبطان رودا. وددتُ أن أخبره بالكثير، وأن أقول له: «الآن أخبرني ماذا كنت تفعل خلال تلك الأعوام؟». لكنه واصل الحديث قائلاً إنه سيؤجِّر المنزل، ولن يبيعه لأنه «على الأرجح سيعيش هنا إن تزوج».

بعدما قال ذلك أعدت بصري على مهل إلى المهمة في يدي، وحللت عقدة شريط أحمر آخر.

2

لأن دانييل لم يعتزم العيش في منزل «تشيني» فقد مكث في نُزل في شارع «تشانسري»، بدا في نظري بعيداً جداً رغم قربهِ. كان شاباً مجتهداً يطمح إلى أن يصبح ضليعاً في القانون. خلال السنوات القليلة التالية التقيناه أنا ماجي لماماً. بين الفينة والأخرى كان يبعث إلينا برسالة رسمية مهذبة يسألنا فيها الذهاب إلى المسرح معه، ثم تناول العشاء في أحد المطاعم. أمضى ثلاثتنا بعض عطلات نهاية الأسبوع ننتزهِ في الرِّيف. في إحدى تلك النزّهات اصطحبنا دانييل إلى قَمَّةٍ تُلّ «ليث».

بينما نحن جلوس هناك نتأمل سماء الصيف الساطعة تعلو الرِّيف تحتنا قال: «وصل إليّ خبر كنت أتوقعه منذ فترة. لقد عُقدت خطبة سباستيان العزيز وشقيقتي».

كان سباستيان الذي لم نقابله منذ مدة يماثله عمراً. هذا يعني أن شقيقة دانييل تصغره بكثير. تذكّرت أنها وُلدت في بوردو في الشتاء الذي أمضيته في مونتروي. وبالطبع لم تكن قد بلغت العشرين. أمّا أنا، البائسة التي تتقدّم في العمر، فكنت محض صديقة؛ فتاة يشاركها شاب وسيم أخبار عائلته. عندئذٍ داخلتنِي الغيرة من شقيقة دانييل التي لم أقابلها قط.

قال: «إنهما يخططان للزواج عاجلاً، في الربيع القادم على الأرجح. لهذا سأسافر إلى بوردو».

لقد التحق سباستيان بالعمل في شركة للنقل البحري في بوردو منذ وقت طويل. أخبرنا دانييل أنه يبلي في وظيفته بلاءً حسناً ويمكنه تحمّل تكاليف الزواج.

قال: «لكن إنجليزيتَه غير المتقنة على حالها. ستساعده ماري في كتابة خطابات الشركة».

كان هذا هو نوع الأحاديث التي أجريناها في العشاءات بعد المسارح، وفي أثناء نزهاتنا سيراً، وفي المرات القليلة التي أتى فيها إلى منزل ماجي ليقضي معنا مساءً هادئاً يدخل غليونه. في واحد من تلك المساءات في الشتاء البارد رافقناه إلى الباب الرئيس كي نودّعه، وشاهدناه يبدأ رحلة عودته سيراً إلى «تشانسري». كان شاباً يقظاً مفعماً بالحيوية يسير بخطوات سريعة واثقة تحت النجوم اللامعة. لقد تحدث في جميع الموضوعات عدا ما وددت التحدث بشأنه، مثل: المسرح والكتب، ونشأته في مونتروي، والمرحلة الأخيرة التي يجتازها حالياً كي يصبح محامياً مُرافِعاً. كانت تلك الليلة الوحيدة التي فقدت فيها سلطتي على مشاعري نحوه. عندما أقفلت الباب الرئيس وهنت قدرتي على التماسك وركضت إلى الطابق العلوي، تاركةً ماجي هناك دون حتى أن أتمنى لها ليلة طيبة. في غرفتي جلست في المقعد بجوار السرير وبكيت. لقد عاودني الشعور بالرفض، الذي اختبرته في تريسانت وأنا أرثدي النظارات. إلى اللقاء يا سارا. ترددت في ذهني كلماته العفوية، اللطيفة، الأخويّة على نحو بغيز. لم يؤلمني لطفه العابر بقدر شعوري بالشفقة على ذاتي. لقد لاحظت منذ زمن طويل أن هذا الشعور يلزمني. وحاولت مقاومته حتى ظننت أنني تغلبت عليه. لكنني تذكرت ذلك اليوم البعيد الذي علمت فيه أن ماجي

تلاحظ التغير في سلوكي، فغزت حُمرَة الخزي وجهي واستهنت بنفسي. اشتدَّ بكائي وساء حالي. كنت واثقة أن ماجي تعلم ما يدور خلف باب غرفتي المغلق، وأنها ستطرقة وستدخل لتطمئنني بكلماتها.

لكنها لم تفعل. سمعتها تخذل إلى النوم في الغرفة المجاورة. صدمني تصرفها لأنه جعلني أدرك ما كنت أتوق إليه؛ جعلني أدرك أنني لم أعد سيِّدة نفسي، بل كنت في انتظار تربيّة حنون كأنني عاجزة. أثار الشعور بالخزي والعجز غضبي. وأدركت أن ماجي تركتني كي أواجه حقيقة شعوري. هكذا أويت إلى الفراش أعاني صداً شديداً، ولم أستطع النوم طوال الليل. سمعت صوت باعة الحليب على الطريق وقعقة العربات والصفائح قبل أن يغلبني النعاس. واستيقظت في الظهيرة لأجد الغرفة ظليلة لأن أحدهم قد أسدل الستائر.

عندما جلست إلى طاولة الغذاء قالت ماجي: «مرحباً! رأيت أن من الأفضل أن تنالي القدر الكافي من النوم. هل تشعرين بتحسّن؟».

-أجل، شكراً لك.

- هذا جيد.

3

في الربيع التالي تزوج سباستيان ريمل وماري أندريدج. رافقتُ ماجي دانييل إلى بوردو. أمّا أنا فتذكرت واجبي حَجَلَةً، واغتنمت تلك الفرصة لزيارة أبي في تريسانت. لقد مضت ثلاثة أعوام منذ زيارتي الأخيرة له. أدّى انشغال فكري بدانييل إلى شعوري بأن حياتي تنسلُّ من بين يديّ بسرعة كبيرة. جعلني أكثر تأثراً بعلامات التقدم في العمر التي اشتد ظهورها في تريسانت. للمرة الأولى رأيت أبي عجوزاً. لازمه الألم: سكن عينيه وأثقل جبينه وزمَّ شفثيه. وفي بعض اللحظات، عندما يفقد حذره، كان يبدو مُنْهَكًا. لفظ «منخار الفجأة» نفسه الأخير. كُرِّم عند دفنه بشاهد قبر في الحقل نفسه حيث يرقد بيتر الأكبر منذ زمن بعيد. وحلَّ محله حمار آخر يقود عربة أبي. ظلَّ

إدي رودا مُرْشده، ونال مظهره النصيب الأكبر من التغيُّر خلال الأعوام الثلاثة الفائتة. ابيضَّ شعر رأسه ولحيته تمامًا، وكانت زرقه عينيه صافيةً صفاءً مُربِّكًا. ازداد نحافة لكنه لم يبدُ مريضًا، بل فيلسوفًا كبيرًا مُعافى تأمل الحياة طويلاً وهزمها بتقبُّل جميع أحوالها. كان أنيقًا يرتدي بذلة رمادية من الجوخ ووشاح عنق أزرق مُرَقَّطًا بالأبيض.

لم يكن في زيارتهما سوى فتجولت وحدي في الغابة حتى الحاجز الرملي، حيث البحر الهادئ صيفًا. اتخذت طريق الجُرف إلى بورتيفن حيث لم يعرفني أحد. وصعدت إلى الحقل حيث عاشت لوسي إيفانز ووالدتها، ومن بعدهما ويزلي رودا، في عُشَّة لم يتبقَّ منها سوى بعض الأخشاب المُتَعَفِّنة. جلست على العشب أُشْرِف على البلدة ومن ورائها المياه الزرقاء اللامعة، التي فرَّقَتني عن فرنسا حيث كان دانييل. أثقلتني عاطفتي واستيعابي أن حال تريسانت الذي عهدته في طريقه إلى النهاية. لكنني لم أكن تَعِسة إذ لم يوجد ما بوسعي فعله لتبديل وضعي العاطفي أو وضع أبي الصحي. تركت معاندة الأقدار كي لا يعيا الذهن والروح، واستغرقت في تأمل ما حولي. شاهدت النوارس تحلّق في الهواء متكاسلةً ويدي تقبض على أعشاب الزعتر والبرسيم. لهذا عندما أتى القبطان رودا كنت هادئة المزاج. سقط ظلُّه على وجهي ففتحت عينيَّ اللتين أغمضتهما قليلًا أحاول تفسير همهمة البحر البعيد. رأيت البذلة من الجوخ، والعصا منغرسه في الأرض يستند إدي إليها ثابتًا، والعينين الزرقاوين تطالعان الأفق المهيّب.

بعد لحظات قال: «يسرُّني يا حُبُّوبتي مجيئك لزيارتنا أخيرًا. يشعر حضرة اللورد بوحدة شديدة في غيابكم أنتم الشباب انشغالا بأموركم الخاصة. لهذا تسعده زيارتك كثيرًا. لقد اعتاد أن يقول: «أفْضَل الموت على محاولة تكبيلهم بجوار هذا الجسد العاجز». على أن وجودك هنا يُدْخِل البهجة إلى نفسه، لكن المسكين أصبح من الصعب عليه إظهار مشاعره».

صمتنا قليلًا، إذ تضجُّ تلك البقعة بالذكريات. هنا، في صباح كئيب، التقت لوسي إيفانز علبة مسحوق الكاكاو التي تلمع الآن في كنزنجتون. هنا، في أحد أيام الصيف السابق لذلك الصباح، تسبب إدي في حملها. وهنا

رأيتُه يصلِّح سقْف العُشَّة بعد العاصفة من أجل ويزلي، الذي قابل اهتمامه بالتجاهل.

قال يبعثر أفكاري: «أحياناً أجلس هنا أتأمل الأيام الفائتة وأسأل الرب أن يغفر لي آثامي. وأنا واثق أنه قد غفر لي. رغم أنني لم أعد إلى الكنيسة ولا أنشد الترانيم، فإنني يا حبُّوبتي أشعر أن الأمور على ما يُرام. إن الفتى أمانة على ذلك».

رفعت رأسي مدهوشةً أنظر إلى عينيه الزرقاوين اللافتتين للنظر، وقلت: «الفتى؟ أي فتى؟».

أجابني بهدوء: «فتاي بالتأكيد. الفتى الذي أنجبته عن طريق الخطيئة في هذه البقعة».

وأشار بعصاه إلى بقعة ينبت فيها العشب بين القطع الخشبية.
- لكن...

قاطعني واضعاً يده على يدي التي تستند إلى العشب: «لا داعي إلى الخوف يا حبُّوبتي. وتوقفي عن الارتجاف الآن».

كنت حقاً أرتجف. لكن بعض ثباته سرى من يده إليّ، فتوقف جسدي عن الارتجاف. أبعد يده قائلاً: «هذا أفضل».

لم يكن عَجْلاً. أخرج غليونه، ملأه، ثم أشعله. تأمّل لحظات الشعلة الصغيرة، التي بهت وهجها وسط أشعة الشمس الساطعة. اشتعل عود الثقاب حتى أصابعه الخشنة فأطفأه، ثم ألقى بالمتبقي منه وسط العشب. وبين أنفاس عميقة يسحبها كي يبقى الغليون مشتعلًا تحدث بتمهّل قائلاً: «إنني أعرفك منذ زمن طويل يا حبُّوبتي. لقد أصبحت فتاة شابة وأنا رجل عجوز. توجد كثير من الأمور التي يجب ألا يتحدث فيها كلانا. لكنني عرفتُك طويلاً ولديّ ما أتوق إلى أن أخبر به بشراً، لهذا سأخبرك به. ليس من الصواب أن يحبس المرء تلك الأشياء بداخله. (توقف عن الكلام قليلاً يضغط التبغ المتقدم بإصبعه ثم أردف) أظن أنك والآنسة ويل وجميع من يعلمون بتلك المسألة ترون أن لا ضير من مجيء الفتى إلى هنا وهو يحمل الاسم الفخم موستن-لويد. تظنون أن ذلك الاسم لم يُذكر في تريسانت قط. أوكد لك أن لوسي

إيفانز ترى أن لا ضير في ذلك. تظن أن لا أحد سمع بذلك الاسم هنا في هذه البقعة النائية. لكنها تجهل بعض الأمور. فهي لم تدرِ أيَّ آثمٍ كنت، ولم تعلم بالمحادثات الطويلة التي أجريناها أنا وأمها جالسين في الغابة يعلونا قمر الصيف».

في تلك الأوقات باحت والدة لوسي التي تتحفّظ في قولها مع الجميع بمكنون نفسها. علم القبطان رودا عن شقيقتها وزوج شقيقتها وما تتمناه للوسي.

أردف: «لهذا عندما أتى الفتى مع السيد جاستن وقَدَّمه لي باسم السيد موستن-لويد، اضطرب قلبي كأنه سفينة ضربت موجةً هائلةً مُقدِّمها حتى إنه كاد يغرق. وفكَّرت في أن أتججج بأي عذر سخيٍ لمغادرة الغرفة. كان الفتى أنيقًا وسيماً -لم يكن ليبدو كذلك لو عاش مع والده- ويتحدث بلباقة كأنه دوق. لكنني رغم هذا كله كنت سأعرفه. بهذا الاسم أو دونه كنت سأعرف ولدي، الذي لم يبقَ لي سواه. هذه حقيقة مثل تسبيح الملائكة في السماء».

تساءلت: ماذا سأفعل الآن؟ ما الذي يمكنني قوله لماجي حول هذا الأمر الذي تسببت نصيحتها إلى لوسي في حدوثه؟ انتابني الاضطراب وعادوني الارتجاف. فوضع إدي يده على يدي مجدداً، وبالأخرى دقَّ بغليونه إحدى الصخور يُخرج الرماد.

قال: «ذات مرة ذهبت إلى بلدة «بلمث» يا آنسة سارا. وعلى خشبة المسرح هناك شاهدت شاباً راقياً، وعجوزاً متشرّداً هو والد الشاب الراقي، لكن الأخير لا يدري بذلك. (ضحك كأن الذكرى كانت بالغة السخافة وسرّني سماع ضحكته) ثم يخبره ذلك المتشرّد بالحقيقة ويطلب المال. وقبل أن تنتهي المسرحية يقترب الشاب الذي يوشك أن يتزوج ابنة اللورد إلى الإفلاس. لهذا لا يجد ما يفعله سوى أن يخطّط لقتل والده، لكن ابنة اللورد تسمعه فتقول: «لا تقتل العجوز المسكين. أنا أحبك لذاتك، سواء أكان ذلك المُسن موجوداً أم لا». ثم يتزوجان، ويحضر العجوز مراسم الزفاف في الكنيسة يرتدي صداراً أنيقاً في طيّته زهرة بيضاء ويمسك بقبعة طويلة. كانت تلك هي المرة الوحيدة التي ذهبت فيها إلى المسرح وقد أضحكنتني حتى أسقمني الضحك».

في حقل مجاور كان الفلاحون يجزّون الحشائش. بلغ سمعي صرير المناجل، وحفيف العشب والزهور، وصوت احتكاك أحجار الشحذ بحافّات النصال حيث توقّف جامعو الحصاد عند السياج النباتي على مقربة منا. وعبق الهواء برائحة المحصول.

توقف إدي رودا عن الحديث يتأمل بدوره الطبيعة حوله، ثم قال كأنه القديس بولس يصل إلى رأيي حاسم في إحدى رسالاته إلى أهل تسالونيكي: «الآن لأننا بشر كرّمنا الرب فليس علينا التصرف مثل ذلك العجوز. إن ارتكب المرء خطيئة فليحتمل عواقبها. لقد ضحكت منه عندما شاهدت المسرحية، لكنني الآن أشفق عليه لأن نفسه لا تتحلّى بالشرف. لنفترض أنني كنت في فرنسا أو الصين أو على أي جزيرة، وجاء أحدهم يقول: «انظر إلى ابنك يا إدي رودا: ذلك الفتى الذي يجرف الروث عن ساحة الإصطبل، أو الأبله الذي يجرّ إحدى العربات النقل اليدوية، أو المتسكع الذي يجوب الشواطئ ينقّب عما يمكن بيعه». عندئذ سأمتلك سبباً وجيهاً للظهور في حياته سعياً إلى تحسين حاله. ورغم أن تدخلني قد لا يكون ذا نفع كبير يا آنسة سارا لأن طباعنا لا تتغير تمامًا، وقد تصبح البذرة في كنفنا شجرة بلوط أو شجرة شائكة، فإننا «نحاول». لكن اللامنطقي على الإطلاق هو الظهور في حياة الابن حيث يعلو شأنه لا يغرق».

تنفست الصعداء عندما انتهى خطابه الطويل تلك النهاية المرضية وقلت: «أوافقك الرأي، ليس من المنطقي التدخل في هذه الحالة».

أجابني ضاحكاً: «مع ذلك فإن الوضع يظل غريباً. يعلم حضرة اللورد الحقيقة التي أعلمها بدوري. لكن أهدنا لا يبوح بها للآخر، بل نجلس صامتين أمام رقعة الشطرنج نستمع إلى صوتي ابنينا عبر النافذة. لهذا أشاركك بالأمر يا آنسة سارا. ليس من الصحي أن نترك الرطوبة تستشري في قبو النفس. والآن قد دخل بعض الضوء قبوي بعدما أصبحت تدرين أنني أعلم الحقيقة. إن رأيت أن الصائب إخبار الآنسة ويل بمعرفتي بالأمر فلتخبريها وسيسعدني ذلك».

وقد أخبرت ماجي بما حدث فلم تقل سوى: «حسنًا، هكذا أصبح الوضع القائم ولنأمل خيره».

مع اقتراب قيد دانييل محامياً مُرافِعاً غادر المستأجرون منزله في تشيلسي وبدأ تأثيثه. لقد أصبح بإمكانه تحمل تكلفة العيش في بيت فاخر كهذا، وإن ظلَّ دخله بعد القيد صغيراً بعض الوقت.

قال: «يمكنني أيضاً الاستقرار هناك مع خادم أو اثنين حتى أعثر لي على زوجة».

لقد استخدم المستأجرون أثاث السيدة جيمستون الذي لم يعد عصرياً حتى تهالك. أفرغ دانييل المنزل تماماً، بما في ذلك «الأبقار المقدسة»، لأنه من حسن الحظ لم يبلغ من الورع ما يحذوه إلى الاحتفاظ بمثلها. أخضعه للتنظيف الشامل وأعاد طلاء جدرانه الداخلية والخارجية. ثم أثَّث بعض غرفه الضرورية. هكذا تبدَّل حال المنزل الذي طالما أغمَّني. أصبح يرْفُل في الضوء والهواء. عندما تجولت أنا وماجي مع دانيال في الغرف ذات الستائر والبسط الجديدة والأثاث القليل، حيث هبَّ نسيم الصيف عبر النوافذ المفتوحة، هناه كلانا على إنجازهِ.

قال راضياً عن نفسه: «يتطلب الأمر القدرة على رؤية الصورة الكاملة. يجب أن تَرَى النهاية قبل البداية، ثم تشرعين في العمل لتحقيقها».

قرَّعته ماجي: «لا داعي إلى التفاخر. إنَّ ما يراه معظم الناس هذه الأيام هو دَخْلٌ لا يتعدى ثلاثين شِلْناً في الأسبوع ومتاع قليل. وعليهم أن يتدبروا أمورهم في أوضاع كتلك. لا فضيلة أو براعة في تأثيث منزل جيداً إن لم تكسب بنفسك المال اللازم لشرائه أو تأثيثه».

نظر إليها نظرة جانبية حائراً، ثم شَعَثَ شعره متسائلاً: «ماذا فعلت الآن كي تغضب ماجي العزيزة؟».

تجاهلت سؤاله قائلة: «إليك أمر آخر. عندما يُلْزِمك القاضي حدَّك، وسيتعيَّن عليه فعل هذا كثيراً بلا شك، فلن تستطيع أن تشعَّثَ باروكة المحامي».

استعاد مزاجه المرح قائلاً: «يمكن تزيين الباروكات لتصبح رائعة. هذا ما لاحظته بعد مراقبة لباس العاملين في المحاكم. أفكَّر في أن أحظى بشرائط

حمراء وبيضاء وزرقاء مُضَفَّرَةٌ إلى ذيل الباروكة الخاصة بي. وعلى الأرجح أنني سأطلب من سارا تنفيذها بيدها».

قالت: «لقد حان الوقت لأن تطلب يد سارا».

وغادرت الغرفة مستاءة.

في البداية لم أفهم كلماتها. لكن بعد لحظات، عندما باغتني مغزاها، أصابتني الدهشة. فاجأتني جرأتها على قول شيء كهذا. ارتجفت ركبتاي ولم أعد أستطيع النظر إلى دانييل. تمنيت أن يغادر كي يتركني أواجه لحظة الخزي وحدي. كنا في غرفة الجلوس في الطابق الأول وأنا واقفة بجوار النافذة المفتوحة، أتطلع إلى الستائر المطبوعة بالزهور ترفرف داخل الغرفة، تكاد تبعثر مزهريّة قائمّة هناك. ما دمت حيّة فلن أنسى أبداً منظر تلك الستائر، وعبير الزهور الذي يقاوم رائحة الطلاء الكريهة. لم يسعني سوى الارتجاف في انتظار سماع وقع خطواته، التي ستخبرني أنه تبع ماجي، حتى أرتمي في مقعد أحاول استعادة رباطة جأشي. لكنني لم أسمع وقع خطوات تغادر الغرفة أو تقترب إليّ لأن الأرضية فُرشت بالبساط الوثير. لهذا جفلت عندما وضع يده على كتفي يديرني ناحيته برفق.

قال: «يبدو أن لا أحد سواك من بين ثلاثتنا يجهل حقيقة أنني أحبك. (شابّ الحزن ابتسامته إذ أردف) لكنني لست متفاجئاً. كيف لك أن تخمّني حدوث أمر كهذا؟ كيف قد ترين أنني سأبلغ من الصّلف ما يجعلني أجتريّ على حبك؟».

لم أستطع سوى أن أقول: «أنت؟ صلف؟».

- ألا ترينني الآن بهذه الطريقة؟

هزرت رأسي نافيةً في صمت. كان وجهي يرتجف بشدة حتى إنني لم أستطع الكلام. وبالكاد تفاديت اصطكاك أسناني.

لم يقل المزيد، لكنه ضمّني إلى صدره. فتنسّمت التبغ والطلاء والزهور. كم كان مزيجاً غريباً، تعبق به لحظة حيّة بداخلي إلى الأبد.

أحياناً تبدأ بعض أيامنا بالغيوم دون أمل في انقشاعها قبل الغروب. نتوقع أن يسوء الجو وأن ينهمر المطر. نقول إن الرياح الهوجاء قد تهبُّ فتُسقط الأشجار، وقد يضرب البرق فيحرق مخازن الغلال. لكن تلك الأيام الباهتة الراكدة، مع أنها ليست صحوة أو مشرقة، فإنها تمرُّ آمنة بلا أذى أو مفاجآت. ثم بغتةً تخرق الشمسُ غيمةً، وتتطلَّعُ مستاءةً إلى البشر الذين رضخوا لتلك الأجواء المضجرة الكثيبة. تتخلَّلُ أشعتها الغيوم، فيتلاًل الندى وتزهو الطبيعة. تستحيل زنانة اليوم معبدًا ترنُّ أجراسه. ويعود إلى الأرض بهاؤها. تمدُّ الحلزونات قرونها وتزحف ببسالة وإصرار. لقد شعرت أنني في تلك الفترة عشت مثل هذه الأيام.

قالت ماجي بجديّة: «يجب ألا تصبّحي جميلة. أنت الآن تواجهين خطر التجلُّل وهذا يفسد جميع حساباتي». ذكّرتها: «كانت أُمي جميلة».

عندئذٍ استغرقتُ في التفكير بعض الوقت، ثم قالت: «قلّما تلوح والدتك في خاطري، لكن ذكرك لها الآن يجعلني أفكّر فيها. أتذكر المرة الأولى حيث رأيتها. كانت خادمة كبيرة تفتقر إلى الحكمة قد تسببت في وقوع مشكلة. غضبت والدتك شديدًا حتى إن حديثها فقدَ ترابطه. لهذا لم أفهم بالضبط ماذا حدث ولم يهمني الأمر. كنت أنظر إليها وأفكر كم أنها جميلة وأن الحياة ليست عادلة. لقد تعلمت منذ وقت طويل أن عليّ تدبر أمري دون الاعتماد على الجمال وأنني (أكّدت بتصميم) سأنجح في المضي قدمًا. لكنني، رغم ذلك، عندما نظرت إليها تمنيت لو أن الرب يوزّع الجمال بين النساء بتساوٍ أكبر قليلًا. على أن هذا الأمر لا يُشكِّلُ فارقًا في ما يخصُّ الرجال، بل إن رؤية أي رجل وسيم دائمًا ما تصيبني بالقشعريرة».

- لكن دانييل وسيم!

قالت بهدوء: «تخلّي عن تلك النظرة يا عزيزتي، كنت لأعارض هذا الزواج لو كان وسيمًا. وبينما نتحدث والدتك إليّ تساءلتُ أي آية في الحسن ستكون

ابنتها. ثم قابلني وجهك العابس فأبهجني وارتحت عميقًا. هل تدركين أن ما نتحدث عنه الآن وقع قبل عشرين عامًا؟».

صمتت برهة، ثم قالت فجأة: «عندما تغادرين هذا المنزل لن أسمح لأحد بالعيش فيه. لن أستطيع احتمال ذلك. قد آتي بمن يؤدي المهام اليومية. لكنني لن أستطيع العيش هنا مع سواك».

لقد مضى وقت طويل منذ أن دخلت ماجي غرفة الدراسة في ميدان بورتمان حتى الآن. نظرت إحدانا إلى الأخرى نستحضر ذكريات أعوامنا الطويلة معًا، أعوام نادرًا ما افترقنا خلالها. أدركتُ كم ترفقت بي العناية الإلهية إذ أهدتني هذه الصديقة، وحاولتُ أن أخبرها بمكنون صدري. لكن شعوري بتلك اللحظة اختلف عن شعورها بها. فبينما يمتلئ قلبي بربيع جديد يوهن حزني للرحيل عنها، غشي حزنُ الافتراق قلبها. على أننا، حمداً للرب، ظللنا مُقَرَّبَتَيْن طوال حياتها. فقط لم نعد من القرب ما يمكِّننا من أن نقرّر فعل ما نريد وقتما نريد، دون اعتبار لأحد في هذا العالم سوانا.

6

في الربيع التالي في لندن تزوجنا أنا ودانيل. كنا لنقيم حفل الزفاف في كورنوال لو استطاع أبي حضوره، لكن وضعه الصحي لم يسمح له بذلك. على أنه طلب منا قضاء شهر العسل في الكوخ حيث عاشت ماجي في تريسان. لقد تشوّشت ذكريات الزفاف في ذهني. في أوّل ما يخطر منها ببالي أستيقظ بالكوخ لأرى دانيل في مِبدل النوم والخُفّ، شعره غير مرُتب، ينظر إلى الخارج عبر النافذة.

سمعته يقول: «هذا المنظر ساحر. ليس حقيقياً. لا يمكن أن يكون حقيقياً».

غادرت الفراش، تَلَفَعْتُ بوشاح، ووقفت بجواره عند النافذة تحيط ذراعي بكتفه. كان المنظر البديع أمامي مألوفًا، لكن عينيّ نظرنا إليه نظرة جديدة، حتى كدت أَرَدُّ معه أنه حقًا لا يمكن أن يكون حقيقياً. كنا في الصباح الباكر

إذ يبرز الفجر، لكن أشعة الشمس لم تنتشر بعد. رأينا الطبيعة في ضوء شاحب، حيث نهض الليل كي يفسح مكانه للنهار. شاهدناه يغادر الأرض العشبية والبحيرة في هيئة موجات من الضباب تضطرب وتتفرق وتتلاقى في ارتفاعها عاليًا، فترق ويصفو سطح البحيرة. على صفحة المياه رقد الزورق بجوار الجسر الخشبي. وخاضت المياه ثلاث بجعات، نصع بياضهن وسط الظلال الرمادية حولهن، ينفضن النوم عن أجنحتهن. لم يقطع السكون سوى حفيف تلك الأجنحة، وزقزقات ناعسة أخذت تعلو مع طلوع الضوء، لتصبح تغريدات مُدوية لطيور السمينة والشحرور. لم أدرك فقط ما استطعت رؤيته وسماعه، بل وما كان يدور في الخفاء، مثل: خير حيوانات الغُرير وهي تجرُّ أقدامها إلى بيوتها على ضفاف البحيرة في الغابة، وهرولة الثعالب البرتقالية الماكرة بحذر إلى أوكارها.

كانت نافذتنا تطلُّ على الناحية الشرقية، حيث الأرض الواقعة في الجهة المقابلة من البحيرة تتضح لأعيننا شيئًا فشيئًا. وسرعان ما رأينا الحيوانات تنهض في حقولها. أطلَّت الشمس أخيرًا فأُسْرعت أذيال الليل في ابتعادها مثل أشباح كشف الشروق أمرها. الآن كانت جميع الطيور تنشد أغانيها. طارت البجعات فجأةً نحونا قريبةً من سطح كوخنا، ترفرف أجنحتها البديعة صاخبة. وحلَّقت السنونوات سريعةً هادئةً فوق سطح البحيرة الصافي. لقد صحا الصباح.

تركت دانييل يقف هناك مدهوشًا، وذهبت إلى المطبخ كي أعدَّ القهوة على موقد الزيت. ثم حملتها إلى غرفة النوم مع بعض البسكويت. بعدما تناولنا الطعام ارتدينا ثياب الخروج وقطعنا الأرض العشبية، التي تزدان بزهور زرقاء وحمراء، ثم ركبنا الزورق. لقد وصلنا الليلة الماضية في ساعة متأخرة ولم يرَ دانييل المكان. وبينما هو جالس يجذِّف إلى الحاجز الرملي كان مأخوذًا بما يراه.

لم تكن الساعة قد تخطَّت الساعة إذ تبثُّ الشمس حرارتها اللطيفة لا الشديدة. بلَّ الندى كل شيء حولنا: أخشاب الزورق، والحقول شرقًا، والأشجار المزدانة بالبراعم الخضراء غربًا. كانت الصخور القائمة على جانب الغابة رطبةً تلمع. وبينما نخوض الصباح بهدوء كأننا داخل أحد الأحلام، رأينا

من حين إلى آخر واحدًا من طيور مالك الحزين، يُحيل جسده الطويل النحيل في رشاقة ومهارة إلى مركبة جوية، يمرُّ أمامنا ضاربًا بجناحيه ببطء يقصد المحيط.

عندما احتكَّ الزورق بالرمال غادرناه لنقطع الحاجز الرملي. ثم وقفنا نتأمل منظر المحيط الهائل وساحله يغمرها الصباح بإشراقه. انبسطت الأرض يسارًا ويمينًا حتى توارت بلطف عن نظرنا. ومثلها امتد أمامنا المحيط الذي لم يُعيّن حدوده، بل تماهى في ضبابٍ أزرقٍ وفضيٍّ.

هناك وقفنا يحيط أحدها الآخر بذراعه، وتبرز ضآلتنا وسط رحابة الأرض والمحيط والهواء. على أن ذاتينا اللتين تسعان العالم بأكمله استشعرتا عظمته، ووجدتني أقول: «هل تدري أنني قبل فترة ليست بالطويلة أمضيت ليلتي باكية، لأن في زيارتك لنا أنا وماجي لم نتحدث إلا عن الأمور الاعتيادية؟».

قال دانييل: «لنتحدث الآن عن الأمور الاعتيادية. لنتحدث عنك».

- هل تراني اعتيادية جدًا يا عزيزي؟

قرَّبني إليه في طريق عودتنا إلى الزورق قائلاً: «يزخر هذا الصباح بأمور غير اعتيادية تثير عواطفِي بقوة ويصعب عليَّ تصديقها. أهمها أنك من الآن فصاعدًا ستصبحين جزءًا اعتياديًا في حياتي. وهذا يكفيني للمضي قدمًا».

خلال الشهر الذي أمضيته في كورنوال تناولنا العشاء مع أبي وإدي رودا كل يوم. لقد قلَّ خروج أبي من المنزل شيئاً فشيئاً، وازداد السيد رودا أهمية في نظر الجميع في تريسانت.

قال أبي: «عندما أرحل سيتولى إدي مسؤولية تسيير الأمور حتى يصبح جاستن مُتأهباً للاضطلاع بها».

لم يكن من المجدي أن أحتج على ذكره «الرحيل». فقد بدا واضحاً، حتى لمن لا يعنيه شأنه بقدري، أن علينا توقع النهاية قريباً. كنا جالسين وحدنا في المكتبة، حيث يشتعل حطب المدفأة رغم النهار المُشمس، وهو مستلقٍ على أريكة يغطيه دثار.

قال يحاول الابتسام بمشقة: «لا يُقام في هذا المنزل ما يكفي من حفلات الزفاف. وقد تمنيت لو أن سالي تزوجت قبل انتقالها. هل ترينها؟ كيف حالها؟ تبدو لي الحياة التي تعيشها غريبة».

لم أستطع أن أخبره الكثير عن سالي. كانت قريبة إلى قلبه، لكن حياتها بعيدة عن تصوره.

أردف: «أنا لم أذهب إلى حيث تعيش قط. كيف هو ذلك المكان؟».

لم يسهل عليّ وصفه له. عندما ذهبت لزيارة سالي ودوللي ديورست في «منزل التجمّع»⁽¹⁾ في برمندزي حيث تعيشان، رأيت نساءً وأطفالاً لم يروا حقلاً أو غابة أو بقرة ترعى، أو فرساً حرّاً لا يُسخر في جرّ العربات. تحدثت إليهم أحاول أن أصف لهم الجنوب حيث الحقول وقت الحصاد، وكيف يبدو المحيط حين الهدوء والعاصفة. لكنهم لم يروا مثلهم في الشمال من قبل،

(1) «حركة التجمّع» = Settlement Movement: حركة اجتماعية إصلاحية بدأت في ثمانينيات القرن التاسع عشر في المملكة المتحدة. تضمنت إنشاء «منازل التجمّع» في الأحياء الفقيرة حيث يعيش المُتطوِّعون من طبقتي المجتمع العليا والوسطى، من بينهم الاختصاصيون الاجتماعيون، وسط فقراء الطبقة العاملة. يعينونهم على العيش عن طريق التعليم والبرامج الاجتماعية. هكذا يجتمع الأثرياء والفقراء في المجتمع أملاً في تدعيم الصلة الاجتماعية بينهم. م

فعجزت عقولهم عن تصور ما أقول. والآن كنت حاولت أن أصف لأبي «منزل التجمُّع» ذا الحمَّامات الكثيِّبة التي تعبق برائحة صابون الفنيك وشمع النحل، والشوارع حوله التي تزدحم بمنازل متواضعة تعلوها سماء ضبابية. تعذَّر على ذهنه تصور أن تلك المنازل، رغم تردِّي أوضاعها، لا يكفي دخل العمَّال تكلفة استئجارها؛ وأن عائلات كاملة منهم تعيش في غرفة واحدة من غرفها. قال: «هذا مُحيرٌ. لمَ تختار سالي هذه الحياة؟».

لمَ يختار أي أحد هذه الحياة؟ لمَ لا تدعهم يتدبرون أمرهم؟ هذا ما دار في ذهني لكنني لم أستطع النطق به.

قلت: «يصعب إجابة هذا السؤال. لكن ما يبدو واضحًا لي هو أن دافع سالي ودولي ديورست للاستقرار في التجمُّع ليس واحدًا، لكنهما لا تدركان هذه الحقيقة. سالي هناك لأنها تحب البشر حبًّا شديدًا. دولي هناك لأنها ساخطة على الأوضاع سخطًا شديدًا. أظن أن هذا يجعلهما ثنائيًا مؤثرًا، لكنني أحيانًا أتساءل إن كانتا ستنفصلان يومًا ما».

- هذا مُحيرٌ.

- لا أفهم لمَ يحيرُك هذا. إن سالي مثلك تمامًا.

قال متفاجئًا: «أنا؟ ما علاقة ما يحدث بي؟».

- لا تستهن بنفسك فأنت رجل رائع. أحببت جميع من يحيطون بك وصادقتهم، وهذا ما تحاول سالي فعله. لقد وجدتُ من يحتاج إليها أكثر من حاجة عائلتها إليها. هذا هو كل ما في الأمر. إنها تسير على نهجك. همهم قائلًا إن كلماتي هراء فلم أسهب في مدحه. لكنني سعدت بإخباره تلك الحقيقة بنفسي.

ظهر زبدي كوجان في حياتنا رجلاً حقيقياً من لحم ودم، بعدما قرأنا اسمه في عبارة غامضة في مذكرات السيدة جيمستون. على أنه بدا شديد النحافة كأنه جلد على عظم، عندما قابلناه مرةً قبل زواجنا.

ذات مساءً أتى دانييل لزيارتنا في منزل ماجي وقال: «وصل إليَّ خطاب من زبدي كوجان أتذكرانه؟ الرجل الذي طلب مواعد جديدة».

اقتبست ماجي ما قرأناه سابقاً قائلة: «ماذا عن بناء برج حمام وشراء حمامات بيضات كي تلائمه أيضاً؟».

- أجل، هذا هو فتانا. اتضح أنه مُحصل الإيجار الذي وظفته خالتي، وسيزورني غداً في منزل «تشيني». إنني أحصي مصادر دخلها المُعقدة تدريجياً. ويبدو أنها تملك كثيراً من المنازل.

ثم طلب مني الذهاب إلى «تشيني» كي نقابل السيد كوجان معاً. كان من المفترض أن يزورنا في الثالثة من عصر اليوم التالي. وقبل خمس دقائق من ذلك الموعد، ونحن واقفان عند نافذة غرفة الجلوس، رأينا رجلاً ضئيلاً في الجهة المقابلة من الشارع يسير جيئةً وذهاباً. نظر إلى المنزل، أخرج ساعةً من جيبه، أعادها إلى موضعها، ثم واصل السير.

قال دانييل: «لا شك أن هذا هو كوجان ينتظر أن تدق الساعة الثالثة. لندعوه «زبدي ذا الدقة في المواعيد»، أو «كوجان الكاذب».

ثم ركض إلى الطابق السفلي ليفتح باب المنزل وهتف قائلاً: «يا سيد كوجان».

رفع الرجل بصره إليه، ثم نظر إلى ساعته مجدداً وبدا حائراً في أمره. قال دانييل: «هيا تفضّل!».

عندئذٍ عبر الرجل الطريق، وبعد لحظات انضمَّ إليَّ في غرفة الجلوس. كان قصيراً لم يتجاوز طوله خمس أقدام، وعلا القلق وجهه النحيل المترهل. ارتخى شاربه وتدلّت خصلة من شعره على جبهته. كان يرتدي

معطفاً بطول الركبة يبدو عتيقاً، وتزيّنت إحدى طيَّتي صدره الساتان بشريط أزرق رمز النفور الشديد من الكحول السام.

وضع على الطاولة حقيبة مستندات سوداء رثّة وقال: «أعتذر على تطفلي قبل موعدني يا سيدي. إن الوقت من ذهب».

- إذن لم تضيعه في التلكؤ على الجانب الآخر من الشارع؟

تفاجأ السيد كوجان بهذا السؤال وقال: «أقصد وقتك يا سيدي، وقتك هو ما أخذه بعين الاعتبار. إنني منضبط في مواعيدي كالساعة. إن قالت السيدة جيمستون إن لقاءنا في الثالثة فلا أتعبّل في طرق بابها أو أتأخر عنها دقيقة واحدة».

- أتفهمك. لكنني لم أجدها بتلك الدقة قط.

قال السيد كوجان في توقير: «هذا لأنك الوريث يا سيدي. لكنني عرفتها دقيقةً ولا أجرؤ على تصوُّرها في حال مغاير».

سادنا الصمت بضع لحظات بدا في أثنائها غير مرتاح لأن الوقت، الذي من ذهب، يمرُّ هباءً. كان جالساً بالقرب من الطاولة، يده الضئيلة على قفل حقيبة المستندات متأهباً لفتحها والشروع في العمل حالما يتلقى الأمر.

ولأن دانييل لم يحثّه على البدء، بل وقف عند النافذة هادئ البال تصلصل بعض العملات المعدنية التي يعبث بها في جيب بنطاله، تنحنح السيد كوجان وقال: «يُفترض بي إنجاز مهمتي خلال نصف ساعة. نصف ساعة فقط كل شهر. لم تأذن لي السيدة جيمستون في أكثر من ذلك».

انتاب دانييل الاستياء فجأة وقال بحدّة: «ترقد السيدة جيمستون في قبرها. ولا أسمح لها بأن تتحكم في وقتي، أو لك».

خُيِّلَ لي أن تنهيدة ارتياح، لم أسمعها حقاً، صدرت عن السيد كوجان. فكّرت أنه ربما تمنّى طويلاً أن يحتجّ أحدهم على تسلط السيدة جيمستون، لكنه لم يجرؤ حتى على تصوّر حدوث ذلك. هل أراد أن يقول بنفسه تلك الكلمات أمامها، لكن قلبه المرتبك لم يجد قط الشجاعة اللازمة؟ على كل حال لقد عارض أحدهم السيدة جيمستون أخيراً حتى إن لم تكن موجودة، وهذا أفضل من عدمه. لهذا استرخت يده التي تقبض على قفل الحقيبة.

قال دانييل: «هل لك في كأس شيري؟».

خفض عينيه الزرقاوين النديتين إلى طية صدر معطفه حيث الشريط الأزرق، وقال: «هذا لطف بالغ منك يا سيدي. جزيل الشكر لك».

أحضرتُ زجاجة الشراب والكؤوس وبعض البسكويت. رفع السيد كوجان الكأس يتطلع إليه في الضوء، ثم تناوله كخبير بالشراب.

قال دانييل: «في صحتك! لماذا إذن تضع الشريط الأزرق؟».

- في صحتكما يا سيدي ويا سيدتي! إنني أضعه، كما قالت السيدة جيمستون، كي أمثل قدوة. فالمستأجرون كثيرًا ما تأخروا في دفع الإيجار، وقد رأت أن هذا يرجع إلى إفراطهم في تناول الشراب. كان من المفترض بي أن ألفت انتباههم إلى الأمر من حين إلى آخر، لهذا اقترحتُ أن أضع الشريط الأزرق كي يدعم ما أقول.

- من أين تجمع الإيجارات؟ أي نوع من العقارات تلك؟

أجابه السيد كوجان وهو يرفع كأسه إلى الضوء مجددًا، كأنه يرى من خلالها منظرًا خلابًا جامعًا لممتلكات السيدة جيمستون: «متفرقات».

ثم أنهى كأسه ليعيد دانييل ملأها، فجرعها حتى تورّد خداه الغائران.

قال دانييل: «متفرقات! يا لها من إجابة وافية!».

مال السيد كوجان في مقعده إلى الوراء ماذًا قدميه إلى الأمام، تستقر إحدى يديه على الطاولة والأخرى تدير الكأس. قال: «شبكة واسعة النطاق يا سيد أندريدج. ظننت أنك الوريث ستكون على علم بتفاصيلها. من بينها منازل فاخرة، ليست في نطاق عملي، يُسدّد إيجارها بواسطة صكوك مصرفية كل ثلاثة أشهر. بالإضافة إلى جميع أنواع المنازل الأخرى: منفصلة وشبه منفصلة، أكواخ جذابة منتظمة في صفوف أنيقة، وخرابات لعينة مُنفرة».

لم يَلَمْ دانييل السيد كوجان على النطق بكلمات غير لائقة لأن الأخير قالها تلقائيًا غير واعٍ بأنها تستحق اللوم. طحن قطعة بسكويت تحت أضراسه، وبدا أنه قد يرخي حزام صدره في أي لحظة.

نقل نظره في الغرفة مستحسنًا ما يراه وقال: «منزلك هذا رائع حقًا يا سيد أندريدج، وقد بذلت مالك في تأثيثه جيدًا. إن ما أزعجني في عملي مع

السيدة الراحلة هو حرصها الشديد على المال، الذي كانت تمتصه من دماء الناس. حتى إنني اضطررت إلى خداعها في بعض الأحيان، بالسكوت عن حال بعض المستأجرين المعوزين. كنت أجدهم مستعدين للرحيل، أمتعتهم المتواضعة على الأرصفة يبللها المطر، وأطفالهم يكون. هذا ما كنت أقابله أنا القادم لتحصيل الإيجار فأبدو رغم طيبة قلبي وحشًا كاسرًا. أحيانًا كنت أسدد دينهم من مالي الخاص، وأضعه في هذه الحقيبة. ثم أسلمه لها وأريها دفاتر الإيجار مضبوطة. لكن هذا المنزل الذي نحن فيه الآن يظل على حاله بلا طبقة طلاء جديد أو ترميم على مدار العام. وفي كل شهر تجلس السيدة طوال نصف ساعة مثل عنكبوت عجوز في مركز شبكتها، وتقول: «الوقت من ذهب يا كوجان. لا تضع وقتي»، أو «يجب أن يتحسن أداؤك. لم أوظفك لإخلاء المستأجرين، بل لتحصيل الإيجار منهم». عندئذ أفكر أن ما تفعله هراء! هراء يا سيد أندريدج! أي طريقة في العيش تلك؟ إنني أتجاوز حدَّ اللياقة في الحديث. لكنك يا سيدي، بطريقة ما، تمنحني بعض الحرية رغم أنني معتاد على التقييد في هذا المنزل».

قَرَّب دانييل زجاجة الشراب إليه مجددًا، لكنه وضع يده على كأسه وقال بإصرار: «كفى يا سيدي. قطرة أخرى وسأتفوه بما لا يليق. لقد ألمحت إليك بالحال السابق ويجب ألا أقول المزيد».

- كانت توجد منازل في حاجة إلى مواقد جديدة تحدثت عنها إلى السيدة جيمستون. أخبرني عنها.

- تحدثت؟! بل توسَّلت إليها جاثيًا! في واحد من تلك المنازل عاش ثلاث عائلات يستخدمون مطبخًا واحدًا، يتمثل في فرن صغير بجوار المدفأة. ولأن جداره الحديدي قد احترق فإن نزر اللحم الذي يطهونه فيه يتدخَّن ويفسد مذاقه. لقد شهدت هذا الحال المؤسف يا سيد أندريدج، لكنني عندما أخبرتها به قالت: «موقد جديد؟! لم لا تهديهم حمامات بيضاء أيضًا؟». أثر بي جوابها عميقًا، حتى إنني عندما عدت إلى منزلي تساءلت: «ولم لا أهديهم الحمامات كي تطير في سماء الشمال؟». لا أدري يا سيدي إن كنتَ على دراية بالعوادات الصينية، لكنهم شعب مدهش. أرغب كثيرًا في زيارة إمبراطورية الصين السماوية. وأظن أنني

لو كنت من شعبها لأصبحت سعيدًا. إنهم يربطون آلة الفلوت إلى ذيول الحمامات! تصوّر البهجة التي تسود الأجواء إذ تُحلّق الطيور تصدح بموسيقى روحانيّة. يكفي أن تملأ نصف الكأس يا سيدي. تصوّر هذا المشهد في برمندزي. سيُعين الجمالُ الأهالي على احتمال الحياة، هو والمواقد الجديدة بالطبع. إنني يا سيدي رجل واسع الخيال. وفي بعض الأحيان تعوقني مخيلتي عن أداء وظيفتي. أحيانًا أتصور تلك الحمامات مُحلّقة، تُزيّن السماء بمختلف الألوان، وتغرّد ترنيمةً عذبة. لكن السيدة الراحلة سخرت مني.

جرع شرابه، ثم أخرج ساعته وقال: «يا إلهي! إنها الرابعة يا سيدي! علينا الشروع في العمل».

قال دانييل: «في موعد آخر يا سيد كوجان. لنقل بعد غد في الثالثة تقريبًا لا بالضبط».

9

في كورنوال يطلقون على طائر السمنية اسم جريبيرد، واعتادت سالي القول إنها تشعر بالألفة في «التجمّع» لأنه يقع في زقاق «جريبيرد». يوجد شيء يبعث على الأسى في أسماء شوارع الأحياء العشوائية، التي يتضمن معظمها كلمات مثل: الفردوس، والملائكة، والرياض؛ شيءٌ يشير إلى رونق فائتٍ وبهاءٍ ماضٍ، غابا منذ زمن طويل مع رحيل أوّل من سكنوها. لقد دارت في ذهني تساؤلات كثيرة حول زقاق جريبيرد: هل أنشأه أحد أبناء كورنوال المغتربين؟ هل بنى طائر جريبيرد عشّه في شجرة هناك؟ كانت هناك شجرة، لا شك في ذلك، لأن الحجارة الملساء المرصوفة بها أرضه غابت عن دائرة في منتصفه. ولا يزال ممكنًا رؤية خشب جذع الشجرة في تلك الدائرة، لكن وطأت آلاف الأقدام ساوته بالأرض. يروقني أن أظن تلك الشجرة إحدى أشجار الزعرور. وأنها، فيما مضى، خضبت الصباحات الربيعية في الزقاق بأوراقها الخضراء وعبّقه بزهورها البيضاء. وعلى فروعها غرّد طائر جريبيرد تحت السماء الزرقاء.

للوصول إلى الزقاق يجب أن نقطع شارعًا طويلًا قاتمًا قذرًا، تنبعث منه روائح كريهة يُخلّفها مصنع لإنتاج الغاز ومصنع للمُخلّلات وورشة دباغة، وصناعات أخرى تُميّزها الروائح اللاذعة المُقزّزة. تقوم به أيضًا دكاكين مُنفّرة حيث يُباع التبغ والجرائد، وصالونات حلاقة متسخة، ومتاجر أقمشة رتّة؛ وبِقالات ومحلات جزارة تثير الغثيان، حيث يملأ الذباب الهواء بالأزيز ويزحف على أحشاء مُلطّخة بالدماء.

على هذا الحال كنت أجده في جميع المواسم: في ليالي الشتاء حيث الضباب الرمادي أو الأصفر يفاقم وطأة المكان على روحي، فيما مصابيح الغاز تنير إنارةً باهتةً فيُلطّخ ضوءها الكئيب الهواء والنوافذ؛ وفي الصباحات الباردة حيث تقطعه الرياح ركضًا كأنها قطع من الذئاب القطبية تعوي؛ وفي الصيف حيث ترتفع الحرارة وتشتد رائحته الكريهة؛ وفي الربيع الذي يضفي عليه أحيانًا مسحة من عالم بديع يزدهر، وتصفو السماء.

ما أسهل أن يغفل المرء عن مدخل زقاق «جريبيرد» ما لم يعرف معالمه! على إحدى جانبيه قام متجر للأعشاب تزدهم واجهته بقرون خشخاش مُغبرة، وأوعية مملوءة بجذور وبذور مجفّفة، وصناديق بها حبوب تعد الرجال بالحيوية والنساء بالشفاء من جميع الأمراض، وكومة من الكتب القديمة المُغلّفة، مُشار إليها باسم «مؤلفات أرسطو». أمّا على الجانب الآخر فقام متجر لبيع الطيور يفطر منظره القلوب. كان يرتجّ بأجنحة سجيّة، ويضجّ بزقزقة وصياحٍ وصريرٍ يصدرون من أقفاص صغيرة، فيُثير في ذهن المارّ به صور الحقول والغابات. لقد احتوى على طيور التفاحي والدغناش والقبّرات، ورأيت هناك عندليبًا لم يُغرّد قط. تضمّن أيضًا أحواضًا قدرة تسبح بها أسماك ذهبية، عادةً ما طفا بعضها مُتحلّلاً فوق سطح المياه. رأيت به أقفاص فئران مُزوّدة بعجلات يركض بداخلها سجنائوها يحاولون التغلب على الضجر. ودائمًا ما ساده الهرج والمرج.

بين هذين المتجرين امتد ممرّ ضيق تنتشر فيه القمامة، لا سبيل آخر لدخوله أو الخروج منه، مثلما يبدو للغرباء، سوى ذلك المدخل. لكن كل من يعرفون الزقاق جيدًا، مثل سالي ودوللي ديورست، يعلمون أن له مدخلًا آخر. كان الزقاق مستطيلاً، وقد احتلّ المنزل الذي مثل «التجمّع» معظم ضلعه

القصير، الذي يقابل الداخل من الممرّ، وقام على جانبه جداران عاليان يبلغ عرض كل منهما عشر أقدام. في عهد ازدهار زقاق «جريبيرد» كان ذلك المنزل مثلاً للأناقة لأن مالكة عاش به. أراد أن يشغل منزله ذلك الضلع كله، لكن مخطّط البناء لم يملأه. وبقي الجداران كأنهما جناحان يُتَمَّان الضلع، تجد عليهما آثار أقدام وأصابع، وفي بعض الأحيان ترى الأطفال يتدربون على تسلقهما بسرعة ومهارة مثل القروء. في ما وراءهما امتدت مساحات يكسوها العشب تقود إلى طريق مُلتَوٍ مُهْمَل، استخدمه الرعاع مخرجاً للهروب من رجال الشرطة الذين يطاردونهم ليلاً.

عندما يحلّ الليل لا ينير الزقاق سوى ضوء مصابيح الغاز الذي يتفرق عبر نوافذ بعض المنازل، ونوافذ «التجمّع»، ونافذة السيد كوجان. لقد قام منزله على الناصية، تطلّ إحدى نوافذه على الشارع الرئيس الكثيب والأخرى على الزقاق. وعلى حافتيهما يوجد حوضان مطلّيان بالأخضر ومُخصّصان للبستنة على الطريقة الصينية. في إحدى الأمسيات الصيفية رأيت السيد كوجان يكتسي برداء على الطراز الصيني مُطرّاً بالتنانين، ويعتمر قبعة أسطوانية قصيرة من المخمل الأسود لها شُرابة، مُستغرّقاً في الاعتناء بحوضيه، حيث ازدهرت نباتاته وقام مُجسّم على هيئة جسور خشبية صغيرة فوق جداول مائية من الزجاج. طفت فوقها زنابق من نشارة الخشب لُصقت بالغراء إلى الزجاج. وأسفل تلك المياه الوهمية وُضعت أسماك ذهبية مُركّبة من أعواد الثقاب مطلّية بالأصفر.

كانت الزنابق والأسماك الذهبية مشغولات فنية مُتقنة لا تكفي مهارة أصابع السيد كوجان لصنعها، بل ابتكرتها السيدة الصغيرة. لقد رأيت خارج أحد منازل الزقاق طاولة صغيرة معروضة فوقها مختلف الأغراض: وسادة للدبابيس ومآزر، صناديق مُلصّقة بها أصداف بحرية، ودُمى خشبية صغيرة، وما إلى ذلك. على كل منها مُلصّق يوضّح سعرها. بجوارها صندوق سجائر بلا غطاء تجد بداخله بعض العملات المعدنية. صنعت جميع تلك الأشياء السيدة الصغيرة، التي أُطلق عليها هذا اللقب لتمييزها عن السيدة والدتها، التي عاشت معها في غرفة واحدة في الطابق الأول من أحد الأبنية.

على أن السيدة الصغيرة الهزيلة لزمت الفراش ولم تخرج قط. في كل صباح كانت السيدة والدتها ترتب الطاولة، وفي الليل تُدخلها إلى غرفتهما مع حفنة النقود في صندوق السجائر.

عندما رأيتُ ذلك الدكان البائس المنعزل سألت سالي: «ألا يُسرق المال؟ أو تُستبدل العملات المعدنية؟».

تفاجأت سالي بسؤالي وأجابتنى بحدة: «نعم. من يجروُ على فعل ذلك لن يستطيع العيش هنا طويلاً».

لقد سدّد السيد كوجان إيجار غرفة السيدة من ماله الخاص أكثر من مرة. وصنعت السيدة الصغيرة هدايا رقيقة من أجله.

في إحدى زوايا الزقاق قامت مضخة لأن المنازل لم تحتوِ على مصدر للمياه. وفي زاوية أخرى منه قام مرحاض جافٌ مشترك لجميع المنازل هناك ما عدا «التجمّع»، الذي تضمّن مرحاضه الخاص. هكذا كان حال زقاق «جريبيرد» القابع خلف الشارع الرئيس، الذي ساهم في إرسال دانييل إلى جامعة «باليول» وتمويل دراسته القانون.

الفصل الثالث عشر

مكتبة

t.me/soramnqraa

1

قابلت أنا ودانيل سالي ودوللي ديورست في «بادنجتون». وسافرنا إلى كورنوال معًا للاحتفال ببلوغ جاستن، الذي أصبح اللورد بيرندج منذ عامين، سن الرشد. كان ابني ريتشارد قد بلغ سبعة أشهر من عمره، وللمرة الأولى افترقت عنه وشعرت بالسوء حيال الأمر. فأنا لم أذهب إلى تريسانت منذ وفاة والدي، أو بالأحرى قبل رحيله ببعض الوقت. لقد مات فجأة ولم أحضر جنازته. لهذا عندما انطلق القطار من بادنجتون وسط قتامة صباح ديسمبر، مارًا بنوافذ يوهن الضباب إضاءتها، لم أفكر إلا في التغييرات التي قد أجدها. على رأسها غياب أبي عن جلسته مع القبطان رودا.

لقد بلغني أنا وماجي ويل أول ملمح منها قبل بعض الوقت. حينئذٍ كان ميرفن موستن-لويد يدرس في جامعة «أكسفورد». أمّا جاستن فأصبح مُلازمًا ثانيًا من ضباط المشاة، وقد حصل على رُتبته قبل رحيل أبي بقليل. كان الملازم اللورد بيرندج في التاسعة عشرة من عمره رجلًا وسيماً. وبطبيعة الحال لم يعد يرى ميرفن كثيرًا كما اعتاد في إيتون، لكن علاقتهما ظلت متينة. في العطلات الجامعية كانا يذهبان معًا إلى تريسانت، أو يمكث جاستن بضعة أيام في منزل موستن-لويد في كنزنجتون. كان تاجر الأقمشة فخورًا باستضافة صديق «ابنه» حامل اللقب.

ذات صباح، حال بدء إجازة جامعية طويلة، ذهب ميرفن إلى بيت ماجي في «سانت جونز وُد»، ودعاها إلى حضور مباراة كريكت في ملعب «لورد» برفقته. لا أدري كيف جرؤ على تلك الفعلة لأن ماجي تخصص الصباح للعمل، وقد أخبرته بتلك الحقيقة من قبل. لو أقدم غيره على فعلها لوُبِّخَتْه، لكن الفتى الشاب كان قريباً إلى قلبها.

سألتُه: «لماذا؟ أين جاستن؟ ظننت أنه يمكث في منزلك بضعة أيام! لم لا يذهب معك؟».

- لقد دعوته لكنه قال إنه لا يستطيع الذهاب. يوجد عمل سينجزه طوال اليوم حتى المساء، حيث سنصطحب أُمِّي إلى المسرح. ولأنني لم أرغب في حضور المباراة وحدي فكرت في الذهاب إلى «هامبستيد» لزيارة صديق من الجامعة. لكن حالما غادرت المنزل شعرت أن تلك الفكرة مُملّة، وأنني حقاً أريد مشاهدة تلك المباراة. أنتِ تعلمين كم أن الجلوس وحدك طوال اليوم مضجر. رجاءً احضري يا ويلي.

مازحته قائلة: «إن سنُضطر إلى إعالتي عندما أتقدم في العمر. أنا امرأة عاملة، يجب أن أعمل كي أكسب قوت يومي».

- حسناً، اتفقنا. إن خُيرت بين العيش في منزلي أو في إحدى دور العمل فلتختاري الأهلون عليك. هل يمكننا اصطحاب سارا معنا؟

ثم قَدِمَا إلى منزلي وحثّاني على الخروج معهما، فسعدت بمشاركتهما وقتي. حينئذٍ لم أكن قد أنجبت ريتشارد، وفي غياب دانييل طوال اليوم أضجرتني المكوث وحدي.

كان النهار قد انتصف عندما وصلنا إلى الملعب في عربة مستأجرة. عند البوابة رأينا أمامنا عدة عربات أخرى. ظللنا حيث كنا ننتظر ابتعادها بعد نزول الركّاب، فإذا جاستن ولوسي إيفانز يغادران إحداها ويعبران البوابة. لم ترهما ويلي؛ كانت تنظر عبر النافذة إلى الجانب المعاكس. فأسرعتُ إلى النظر إلى الجانب نفسه.

لكن ميرفن رأهما، ثم قال: «انظري يا ويلي، إنني أستحق كل التوبيخ الذي سألتقاه منك وسيخيب ظني فيك إن لم تقرّعينني على ما سأقول الآن. لقد غيرت رأيي مجدداً، وعليّ الذهاب إلى صديقي في هامبستيد».

قالت: «عجباً! تشغلني عن عملي مصدر رزقي، ثم تهفو إلى صديقك في هامبستيد؟! فلتذهب يا قاطع الإلهام مع صديقك إلى «هاديس» علَّكما تجدان الجحيم حقاً هناك».

كانت تحاول أن تهوّن الأمر ساخرة، لكن الغضب والحيرة انتاباها. أردفت: «هيا ارحل. ستعثر لنفسك على عربة أخرى بالتأكيد».

غادر ميرفن عربتنا ليستقلّ أخرى يغادرها أحد الرُكَّاب، ثم ابتعدت به.

قالت ماجي: «لقد ضاع الوقت. لنذهب الآن إلى البلدة لتناول الغداء في أي مكان».

2

لقد أمسك جاستن بيد لوسي يساعدها في الخروج من العربة على نحو وشی لي بأنه مُغرَم بها. كنت مُغرَمة بدوري، لهذا تأكّد لي أنني لم أخطئ في استنتاجي، وليس شعوره هذا بالمفاجئ. فعلى الرغم من أن لوسي كانت شابة عندما وُلد جاستن، ولا بد أنها الآن في منتصف الثلاثينيات، فإنها بدت أصغر من عمرها الحقيقي. حتى إنها بدت أصغر مني سنّاً. كان ممكناً لمن يراها أن يظنها امرأة في منتصف العشرينيات تتمتع بالجمال والهدوء والرزانة. لا، لم يكن شعوره نحوها مفاجئاً، لكنه يشغل البال.

بينما نتناول الغداء لم يكن غضب ماجي قد هدأ، وسألتني حانقة: «ما الذي دهاه؟ يا لأولئك الشباب! يهدرون وقتك دون مبالاة».

عندئذٍ أخبرتها بما رأيت، فدهشت حتى إنها لم تُعلّق على الأمر، بل أعربت عن ندمها على الكلمات القاسية التي وجّهتها إلى ميرفن.

قالت: «يا إلهي! يا للفتى المسكين! ما أشد حاجتنا إلى ضبط ألسنتنا! نحن لا نرى سوى القشور، ونسحق بكلماتنا قلوباً قد يؤلمهما حتى الزغب».

لقد اكتشفنا كم تأثّر ميرفن بما رآه في الملعب من جاستن نفسه، الذي زارني في تشيلسي في عصر اليوم التالي. كان هو وميرفن قد خطّطا للسفر إلى تريسانت خلال بضعة أيام، لكن ميرفن ألغى السفارة.

تذمّر جاستن قائلاً: «الأمس ذهب إلى هامبستيد لزيارة أحد أصدقائه. وعندما عاد بدّل رأيه حول كل شيء! هل تصدّقين هذا؟ سيسافر هو ذلك الصديق إلى «ألمانيا» بعدما سوّيا الأمر في خمس دقائق. كان سيذهب معي أنا والسيدة إيفانز إلى المسرح، لكنه لم يستطع حتى فعل ذلك، إذ كان عليه حزم أمتعته. وقد غادر مبكراً هذا الصباح».

- ماذا عن المسرح؟ هل ذهبتما أنت والسيدة إيفانز؟

- بالتأكيد! وبعد ذلك تناولنا العشاء معاً.

- حسناً، لقد حظيتَ برفقة ممتعة على أي حال.

نظر إليّ بحدة، لكنه تغاضى عن تلميحي. قال: «ماذا عنكِ؟ هل يمكنكِ المجيء إلى تريسانت؟ هل يستطيع دانييل ترككِ أسبوعاً أو اثنين؟».

- أنا واثقة أنه لا يستطيع فعل ذلك. وإن كان يستطيعه فأنا من لا يمكنني تركه. لم لا تسأل سالي؟

- لقد سألتها الذهاب معي. لكنها قالت إن كثيرين سواها يحتاجون إلى الإجازة أكثر منها، وإنها قد تُرسل معي عدداً من الأطفال الذين سيرون تريسانت فردوساً. تصوّري وصولي إلى تريسانت مع بعض مشاغبتي برمندي!

سألته إن كان قد ذهب إلى برمندي قبلاً فقال: «يا إلهي! لا! تلك المرأة ديورست تفرعني أشد الفزع حتى إن قابلتها في أرضي».

- لن يكون من الممتع اصطحابها إلى العشاء في الخارج؟

- لا، لأنها ستُحلّل الفاتورة. وستقدّم لي تقريراً عن عدد الأحذية والملابس التي كان ممكناً أن نشتريها بذلك المال.

- لكن السيدة إيفانز ستطلب الحلوى بلطف فقط.

تغاضى عن تعليقي بشأن السيدة إيفانز مجدداً. أخبرته أن ماجي ويل على وشك إتمام أحد كتبها. ستنتهي من كتابته خلال بضعة أيام. وإنني واثقة أنها سترغب في أخذ عطلة.

- ماذا؟ عطلة بعد تأليف كتاب؟ لم أظن قط أن هذا العمل مُرهق. بل يسهل كثيراً إن كان المرء يمتلك الموهبة، أليس كذلك؟

كان يافعاً شديد البراءة رَقَّ قلبي له. قلت: «صدَّقني إن ماجي تحتاج إلى الراحة. اصطحبها معك رجاءً».

تحدث بعض الوقت عن إلغاء السفر تمامًا. كنت أدرك أنه، منذ رحيل أبي، يتجنب الوجود في تريسانت في غياب رفقة مؤنسة. ثم إنه لم يتأقلم بعد على الوضع الجديد، حيث أصبح المسؤول عن الإقطاعية. وكثيرًا ما قال: «سيهتَم رودا بهذا الشأن».

أقنعتة قائلة: «أعتقد أنه ينبغي لك الذهاب. لا شك أن إدي رودا يتوق إلى التجول معك في أرجاء تريسانت والحديث عن نفسه».

وافق أخيرًا على السفر واصطحاب ماجي معه. ولا يصعب تصور دهشتها وهي في انتظاره في محطة قطار بادنجتون بعد بضعة أيام، إذ رآته قادمًا خلف حامل الأمتعة مع لوسي إيفانز. أخبرتني ماجي أن لوسي بدت فاتنة وأن البهجة غمرت جاستن. لقد حصل على رفقة المؤنسة بالفعل.

3

لقد علمتُ بتلك المفاجأة من خطاب كتبته ماجي في القطار، وأرسلته إليَّ خلال رحلتها. استنتجت من كلماتها أن القلق استبد بها وأفسد عطلتها. شعرتُ بالأسف عند قراءة الخطاب، وترقَّبتُ صدعًا في علاقة ميرفن وجاستن. لكن ما لم نعلمه أنا وماجي أن المشهد الذي رأيناه عند مدخل الملعب لم يكن أوَّل ما يجمع بين جاستن ولوسي؛ وأن لوسي تدرك مشاعر جاستن نحوها منذ عدة أشهر؛ وأن الحزم الذي يقبع خلف مظهرها الرقيق حنَّها على إنهاء ذلك الوضع بطريقة أو بأخرى.

أخبرتني ماجي فيما بعد أن ثلاثتهم حالما وصلوا إلى المنزل واستقبلهم إدي في ردهته، تعرَّف الأخير على لوسي إيفانز رغم أنه لم يرها منذ عشرين عامًا تقريبًا. كان التغير في حاله كبيرًا مقارنةً بها. احتفظت ذاكرتها بصورة الرجل القوي الذي يلمع قرطاه أمام وجهها في ضوء الشمس، وهو يحملها

من الحوض إلى العُشَّة. لكنها الآن رأت رجلاً كبير السن أشيب يبدو وقوراً في ثيابه المرتبة، كتفاه محنيتان وعيناه الزرقاوان رطبتان.

لحظت ماجي زهوله عندما رأى شبح الماضي الجميل أمامه، وبالكاد استطاع ضبط أعصابه عندما صافحه جاستن قائلاً بفخر: «هذه هي السيدة إيفانز يا إدي، والدة السيد ميرفن موستن-لويد. ستمكث لدينا بعض الوقت». قادت إحدى الخادِمات ماجي ولوسي إلى غرفتيهما. كانت غرفة ماجي في مؤخرة المنزل، تطلُّ على الغابة التي تنحدر بعيداً. تقدَّم المساء، وأضفى الغروب حُمرة على قمم الأشجار، حيث حلَّقت الغربان ناعقةً، حيناً تقف وتطير حيناً، تستقبل الليل صاحبةً كالمعتاد. فكرت ماجي: «ربَّاه! الآن تصيح الطيور إثر التقاء الماضي بالحاضر».

كان الإنهاك قد نال من روحها، إذ لم يمضِ الكثير على إتمام كتابها وأرهقتها أحداث اليوم. فارتمت على السرير لتغفو في الحال. ولم تستيقظ حتى سمعت رنين الجرس يُعلن حلول موعد الطعام. نثرت الماء البارد على وجهها، ونزلت إلى الأسفل بثياب السفر المُتَغَضَّنة.

عندما كان أبي على قيد الحياة شاركنا إدي رودا الوجبات أحياناً وفقاً لهواه، إذ لم تُقيَّد القواعد واللوائح نظام المنزل. وفي تلك الليلة جلس كل من جاستن ولوسي وماجي إلى طاولة الطعام، أمَّا رودا فوقف بعيداً. كان الوقت متأخراً وقد تناول عشاءه بالفعل. لقد غابت الشمس، لكن الليلة كانت حارَّةً وأثقلت الحرارة الهواء. لهذا فُتحت النوافذ على اتساعها، وحرك نسيم دافئ لهب الشموع القائمة على الطاولة. بدَّلت لوسي ثياب السفر، والآن كانت ترتدي ثوباً حريريّاً باللون الأزرق الفاتح يتلأأ في الضوء المُختلج. بدا عليها الهدوء والارتياح كأنها لم تمضِ اليوم في السفر المُرهق. أمَّا جاستن فارتدى ثياب المساء، التي تضمنت في تلك الأيام المعاطف الرسميَّة والقمصان الناعمة والياقات المُنَشَّاة. كان قميصه كَتَانِيّاً ذا أزرار ألماسيَّة، وثبَّت إلى سُترته زهرة قرنفل حمراء. لا شك أن رودا فكَّر، مثل ماجي، أن وقتاً طويلاً قد مرَّ منذ أن جلس فردان على هذا الحال في غرفة الطعام في تريسانت.

أخبرتني ماجي أنهما كانا من الجمال والتناغم ما جعلها ترتجف في الغرفة الحارَّة، فيما العثُّ يطير عبر النافذة ويتراقص حول لهب الشموع.

كانت طاولة العشاء صغيرة، وخلت الغرفة من الإضاءة في غير مساحتها الضيقة. وقف رودا في الظل لا يستطيع جاستن رؤيته، لكنه قابل ماجي التي تمنّت أن يغادر. لم يوجد داعٍ إلى حضوره إذ تقدّم خادمة العشاء. لكنه بدا مفتوناً بجمال المرأة ذات الرداء الأزرق الفاتح، التي كانت له ذات مرة.

عندما أوشكوا أن ينهوا الطعام قال جاستن: «أخرج من الظل يا إدي. تعال لتجلس هنا كي نتحدث».

ودفع بقدمه أحد الكراسي ليجلس فيه رودا الذي بدا عليه الإعياء، ولم يعتد قط أن يدعو جاستن باللورد بيرندج، فقال: «تفضّل يا سيد جاستن».

عزم جاستن على ركوب الخيل، لهذا سأله عن الفرس المفضّل لديه: «كيف حال جاك-بودنج؟».

- ليس في أحسن حال يا سيدي. عندما علمت أنك قادم ذهبت كي ألقى عليه نظرة فاحصة. لكن ما رأيته لم يعجبني. بدا واهناً، ولم يخبرني السائس الجديد الأحمق بشيء عن الأمر. حدث هذا الأمس، وبحلول الصباح لم يتحسن حاله. لهذا استدعيت السيد مورو، الطبيب البيطري الجديد في بورترين. إنه معروف بمهارته يا سيد جاستن وقد حضر على الفور. قال إن الفرس لا يبدو بخير وأعطاه دواء. ثم اضطر إلى المغادرة سريعاً لأنه مشغول بعمل آخر. قال إنه لا يعلم متى سينتهي منه بالضبط، لكنه سيأتي مجدداً حتى إن تأخر الوقت.

قال رودا كلماته بتثاقل وهو جالس إلى الطاولة الصغيرة تتقد الشموع بينه وبين لوسي إيفانز، وتكاد رُكباتهما تتلامس.

انزعج جاستن من هذا الخبر. نهض وأخذ يتجول في الغرفة، ثم قال: «الآن تحديداً عندما أحتاج إليه؟ هذا مقيت!».

بدا واضحاً أنه كان يتوق إلى التباهي بمهارته في ركوب الخيل. قال إدي: «ربما مرضه ليس شديداً. وسيؤكد لنا هذا قريباً على أي حال. لن يطول غياب السيد مورو أكثر».

حينئذٍ أعلن الخدم وصول الطبيب البيطري، فاعتذر جاستن إلى ماجي ولوسي. وذهب معه في كامل أناقته إلى الإصطبلات. بعدما رأتهما ماجي

في الخارج يمرّان بالنافذة المفتوحة، خلفهما سائس يحمل مصباحًا، غادرت المنزل إلى الليل الدافئ الذي غاب عنه القمر. سارت على مهل في الدرب الذي يقود إلى الكوخ، حيث أمضينا أنا وهي أيامًا سعيدة، وحيث شاهدت لوسي إيفانز ابنها، ابن إدي رودا، على العشب يركل الهواء مُفَعَّمًا بالحيوية. لم تكن قد ابتعدت كثيرًا عندما انضمت إليها لوسي. شعرت ماجي باقتربها إليها كأن رياحًا جليديّة هبت من المحيط الدافئ. استدارت نحوها فلحظت ما لم تنتبه لوسي إليه؛ كان رودا أيضًا قادمًا يقطع الدرب نفسه.

سرعان ما اجتمع ثلاثتهم ووقفوا ساكنين ينتظر كل منهم أن يتحدث الآخرين، حتى خاطب رودا لوسي قائلاً بحدة: «ما الذي تخططين له؟ ألا تعرفين مكانك؟».

- بلى، لهذا جئت إلى هنا. وأريد أن يعرف اللورد بيرندج مكاني أيضًا. لا أريده أن يسيء الفهم.

اتضح أن رودا لم تَفْتَه أدقّ الإيماءات حيث كان واثقًا في ظلام غرفة الطعام، فقد قال: «إنه مُغرَم بك».

أجابته دون زهو أو تفاخر: «أجل».

قال رودا بقسوة: «إن فلتمنحيه ما منحتَه لي ولينتهِ الأمر عند هذا الحد».

جفلت ماجي لكن لوسي ظلّت على هدوئها وقالت صادقة: «لا يمكنني فعل ذلك. إن نظرة المرء إلى تلك الأمور تتبدّل مع تقدمه في العمر. والمعضلة أن جاستن لا يريد هذا أيضًا، بل يرغب في الزواج بي».

- لا بد أنه فقد عقله. إنه يعلم أن لديكِ ابنًا في مثل عمره، بل أكبر قليلًا في الحقيقة.

- بالطبع يعلم بهذه الحقيقة، لكنها لا تشكّل أي فارق في نظره. يريد الزواج بي رغم كل شيء.

سألته ماجي: «هل تريدان الزواج به؟».

- لم تدر الفكرة في ذهني حتى.

- إذن لم لا تخبريه بذلك؟

قال لوسي فارغة الصبر: «ألا تعلمان أي شيء حول هذه الأمور بحق السماء؟ لا جدوى من الرفض مثلما لا يجدي المنطق مع المجانين. هذا الأمر شائك ليس كما تظنان».

سألها إدي: «ماذا ستفعلين؟».

- سأصدمه حتى ينبذني ويدعني وشأني. سأخبره بالحقيقة هنا حيث ستشهد أنت والآنسة ويل على ما أقول.

سأدهم الصمت طويلاً، ثم قال رودا أخيراً: «لم أكن لأشير عليك بفعل هذا يا لوسي إيفانز».

وبدا التهديد في صوته.

- لو علمت كيف ألح عليّ في طلب الزواج في الأشهر الماضية القليلة لأدركت أن لا مخرج من هذا الوضع سوى هذا: أن أخبره الحقيقة في وجود من يعلمها؛ أن أخبره أن أمي كانت شريفة وأن ابني لقيط، وأنت والده يا إدي رودا.

ازداد صوتها حدّة، وللمرة الأولى اضطرب ثباتها إذ قالت: «أنت لا تدري ما عانيته، ولا أريد مزيداً من المعاناة. إنني راضية بالعيش في بيت السيد موستن-لويد ولا أريد أي رجل في حياتي. إن الرجال يثيرون نفوري».

أخيراً باحت لوسي ببعض مكنون قلبها. لقد ذاقت غدر العالم وقسوته مبكراً جداً. ورودا هو المَلوم في ذلك، لكنها لم تؤنّبهُ.

فيما بعد أخبرتني ماجي: «عندئذٍ فسّرت لي كلمات لوسي كثيراً من جوانب شخصيتها كان يجب أن أفهمها قبلاً. لقد أشفقت عليها كثيراً».

على أنها أجابت لوسي الآن قائلة: «لم لا تسافرين في رحلة طويلة دون أن يعلم جاستن بوجهتك؟ وإن أردت إخباره الحقيقة فسأتولى الأمر في غيابك. ألا ترين أن هذه الطريقة أقل ميلودرامية؟».

لكن لوسي حسمت أمرها قائلة: «لقد جئت إلى هنا لأخبره الحقيقة بنفسي وهذا ما سأفعل. أكرّر أنني لا أريد مزيداً من المعاناة. لقد أجبت دعواته مجاملة ولم يسعني سوى فعل ذلك. فهو يسألني الذهاب معه إلى هنا وهناك فأرفض بلطف. فيلحُ في السؤال فأضطر إلى الموافقة. لقد أمضيت كثيراً من عمري

في تلك المجاملات. ويمكنني المواصلة على هذا المنوال، لكنني أبى ذلك. لقد بدأ ميرفن يلحظ ما يحدث. على كل منا أن يمضي في طريقه». ثم التفتت يحفُّ ثوبها وسط الليل الدافئ، وشرعت في السير عائدةً إلى المنزل.

قطع رودا طريقها قائلاً: «اسمعي يا لوسي إيفانز. لقد أسمعنا ما عانيت وما ستفعلين. لكن هذا الأمر لا يخصك وحدك، بل يخص ابني الذي لا يعلم أنني والده مثله مثل السيد جاستن. والأهم أنهما لن يعلما بهذه الحقيقة أبداً. لقد عرفت ابني وأحببته، ولا أجد غضاضة في أن أصبح ممسحة لحذاءه إن كان هذا في مصلحته. لكنني طالما أيقنت أن أفضل شيء يمكنني فعله من أجله -بالأحرى الشيء الوحيد- هو أن أبتعد عنه. وهذا ما فعلته عامًا تلو عام لأن نظرتي إلى نفسه ستختلف، وستختلف نظرة جاستن إليه، إن علما أن عديم الفائدة إدي رودا والده. تطلب هذا مني جهدًا شاقًا. من الشاق على المرء أن يزدهر ابنه مثل زهرة لا يجروء حتى على تنسُّمها. وذار أن تضيعي جهدي عبثًا يا لوسي إيفانز. إن كلينا مذنبان، لكن لا داعي لأن يعاني صديق السيد جاستن بسببنا».

كان دافعه ولاءات عميقة متعددة: لصديقه، وابنه، وابن صديقه. لكن سالي تخطَّته وابتعدت دون كلمة. لقد ألقى خطابه واثقًا كأن مُبتغاه مُحقق لا بُدَّ. والآن بعدما ابتعدت قليلًا صاح يائسًا: «أتوسَّل إليك... أنا رجل هَرَم... لم يتبقَّ لي الكثير». لكن لوسي ظلت على صمتها.

أمسكت ماجي بذراعه وفاجأها كم نحلت. كان يرتجف فأدركت أنه استشعر هزيمته. حينئذٍ كان يجب أن يحدث ما يريح باله، ما يعيد إليه الشعور بأنه لن يعيش مُلطَّخًا بالخزي. لكنه سيتلقَّى الآن ضربة عنيفة أخرى. في الأمام ظهر ضوء مصباح يتأرجح وسط الظلام، يحمله أحدهم في الطريق من الإصطبلات إلى المنزل. رأت ماجي رجلًا آخر يمتطي فرسًا ويبتعد به، فاستنتجت أنه الطبيب البيطري عائداً إلى بيته. وبينما يقتربون إلى المصباح أثار ضوءه صدر جاستن.

كان واقفًا وحده خارج باب المنزل الرئيس وصاح: «هل هذا أنت يا رودا؟».

سرعان ما انضم إليه ثلاثتهم ووجدوه ساخطاً.

سأله رودا: «كيف حال جاك-بودنج يا سيد جاستن؟».

لم يجب جاستن سؤاله، بل قال: «أين كنت؟ لِمَ تختفي دائماً عند الحاجة إليك؟».

لحظت ماجي أمارات الحزن على وجهه، وأنه يوشك أن يبكي، مثل طفل يعاني خسارة لا يمكن تعويضها.

أمسكت بيده تحاول طمأنته وسألته بلطف: «ما الأمر يا جاستن؟ ماذا حدث؟ لقد خرجنا أنا والسيد رودا للتنمشي قليلاً».

احتدَّ قائلاً: «إنه يخرج للتنمشية اللعينة كثيراً. لِمَ لا يهتم بشؤون المكان؟ لِمَ لم يرعَ جاك-بودنج؟ إن العجوز الأحمق اللعين يتجول في الأنحاء كأنه أحد اللوردات».

عندئذٍ أدركت ماجي أن جاك-بودنج إما مات وإما حُكم عليه بالموت، وأن هذا الخبر فطر قلب جاستن. لكنها تدري أيضاً أن قلب رودا مفطور، وأنه لن ينتبه إلى ألم قائل تلك الكلمات القاسية. لهذا ترقبت اشتعال النار في البارود. خاطبه رودا بلقبه للمرة الأولى قائلاً: «أعتذر يا حضرة اللورد. لكن طوال معرفتي بوالد حضرتك، ووالده من قبله، لم يخاطبني أحد بهذه الطريقة قط. أنا لست معتاداً هذا ولا أقبل اعتياده في تلك السن».

أظهر ضوء المصباح لحيته البيضاء الطويلة، والتماع عينيه غضباً إثر تداعي عالمه فجأة.

أردف: «عليَّ المغادرة. إن الوضع في تريسانت ليس كسابق عهده وعلى الأرجح أنه سيزداد سوءاً. لقد حان وقت الرحيل».

عندئذٍ ثاب جاستن إلى رشده وقال: «اقترب إليَّ يا رودا».

ولمَّا ثبت رودا في مكانه تقدَّم نحوه جاستن، ووضع يده على كتفه قائلاً: «سامحني، كنت أهذي كالأحمق. لقد مات جاك-بودنج لهذا أنا منزعج».

وتوقف عن الحديث لأنه شعر بغصة في حلقه. هناك وقف الشابُّ اليافع مضطرباً، تمسك إحدى يديه بالمصباح والأخرى على كتف رودا.

سحب رودا كتفه من أسفل تلك اليد وقال: «أنت محق فيما قلت يا حضرة اللورد. أنا عجوز أحمق لعين وأخرق. لم أعد ذا نفع لأحد. ولا يستمع أحد إلى كلماتي. إن هذا العالم يثير حيرتي. لا أفهم لم يرغب البشر في العبث بأمور من الصواب أن ندعها وشأنها...».

وابتعد متثاقلاً يواصل حديثه الذي يفقد ترابطه شيئاً فشيئاً، حتى أصبح همهمة يحدث بها نفسه في طريقه خلف المنزل.

انتاب ماجي خوفٌ لم تستطع تحديد مصدره. تفاقم ظلام الليل واشتدَّت الحرارة. شعرت بخطر مُحْدِق، لكنها لم تدرِ بشأن من تقلق.

دخلت لوسي المنزل. تطلعت ماجي إلى الظلام حيث اختفى رودا، ثم قالت لجاستن: «إنه تعس. اذهب إليه وامنحه بعض المواساة».

لكن كلمات رودا ورحيله المفاجئ قد آلمه، فقال: «أنا أيضاً تعس وأحتاج إلى المواساة».

ودخل المنزل يتبع لوسي إيفانز كأنه سيجد ما يحتاج إليه في الداخل. زرعت ماجي الحديقة ذهاباً وإياباً، إذ السماء يضيئها برق لا يصحبه رعد أو مطر. تذكَّرت رودا الذي قابلته قبل زمن بعيد على رصيف ميناء «بريست»، الوسيم قوي البنية الواثق بنفسه، الذي تتعلق فتاتان فرنسيتان بذراعيه، والذراع النحيلة الهزيلة التي أمسكت بها قبل قليل. فكَّرت أن ذلك الرجل لم يعد يملك سوى كبريائه، وقد شهدتها تسقط أرضاً إثر ضربة تلقَّتها. والمؤسف أن جاستن، من بين جميع الناس، هو من وجَّه تلك الضربة. طالما افتخر إدي بجاستن الذي لم يخبر وجود الأم في حياته قط -هل هذا ما اجتذبه إلى والدة صديقه؟- ولم يكن بجواره والد مُعافى يعينه في نشأته. لكن إدي صحبه في دروس ركوب الخيل. هو من أعطاه دروساً في الإبحار وكشف له أسرار الغابة. عندما أصبح المسؤول عن الإقطاعية أرشده حول إدارتها. على أن هذا التفاني ثقل عليه في الأعوام الأخيرة في وجود «صديق السيد جاستن». ارتعدت ماجي رغم الحرارة. رأت في ما حدث نذير سوء يخيفها.

دخلت المنزل وتمنَّت لجاستن ولوسي ليلة طيبة. في غرفتها استدعت خادمة وقالت: «هلا ترين إن كان السيد رودا هنا؟ اسأليه أن يمنحني قليلاً من وقته».

عندما علمت أن إدي ليس في المنزل تفاقم شعورها بالقلق. فكتبت رسالة قصيرة تخبره فيها أن يقابلها عند عودته.

قالت: «رجاءً ضعي هذه الورقة في غرفته حيث يمكنه أن يراها حالما يعود. فهمتني؟ إن الأمر مهم».

أخذت الخادمة الرسالة وقالت: «أظن أنه حزين على موت الفرس يا أنسة. رأيته ذاهباً إلى الإصطبلات يحمل مصباحاً».

جلست ماجي في مقعد مريح في انتظاره، تتطلع إلى نافذة الغرفة المستطيلة التي يضيء نور خافت الظلام وراءها بين الفينة والأخرى. خشيت أن يرى الفرس الهامد، فيظن أن ما حدث خطأه هو «العجوز الأحمق اللعين». أدركت أن من العسير تسكين ألم جرحه، وأن عليها اختيار كلماتها بعناية؛ كلمات كان يجب أن يقولها جاستن نفسه.

بعدما دقت الساعة الحادية عشرة سمعت جاستن ولوسي يذهب كل منهما إلى غرفته، لكن رودا لم يأت. على أنها لم تفقد الأمل. استراحت على السرير دون أن تبدل ثيابها، مُرهقة إثر الحرارة والانفعال. كانت تغفو وتفيق، ثم استغرقت في النوم. وعندما استيقظت كان الفجر قد طلع. لم تشرق الشمس، لكن ظلمة الليل قد تلاشت. أصبح الهواء بارداً. انقطع البرق. أطلقت طيور الزرزور صفير الدهشة والإجلال. ولم يأت رودا.

غادرت السرير وانتعلت حذاءها تنصت إلى صمت المنزل العميق، إذ الجميع نائمون. قصدت المطبخ كي تعد القهوة على موقد الزيت. تناولت بعض البسكويت. ثم غسلت وجهها بالماء البارد في حوض المطبخ، وخرجت إلى الصباح. استبشرت بالجو الصحو وهذا اضطرابها. لقد أشرقت الشمس واختفى نذير السوء. حاولت إقناع نفسها بأن جاستن وإدي عندما يستيقظان سينظران إلى الأمور في ضوء جديد. وقصدت البحيرة تتخذ الدرب الذي يحاذي حافة الغابة، على يسارها المياه تبرق في ضوء الشمس التي تعلو الأرض الواطئة وراءها. لقد مضى وقت طويل منذ أن كانت هناك، وسارت مبتهجة لأنها تجد كل شيء على حاله. تركت الكراوين المياه وحلقت تغرد أمامها. غمر الضوء التعريجات في جذوع الصنوبر الحمراء. وركضت الأرناب. كان نسيم الصباح منعشاً كأنه مشروب بارد. لهذا قررت السير حتى الحاجز

الرملي، حيث الهمهمة الدائمة كأنها لحن متواصل يقطعه تغريد الطيور، وخفيف أوراق الأشجار، وطققة الأغصان الشائخة المغطاة بالحزاز.

لا يسمح ذلك الدرب برؤية البعيد لأنه يلتوي ويلتف. لهذا فجأة تبدى أمام ماجي مشهد أدركت، حالما رآته، أنها غادرت تبحث عنه. كانت في البقعة حيث رأيتُ غُريراً، منذ زمن طويل، يقطع الدرب وتبعته إلى الشجيرات حيث اختفى. ثم سمعتُ صوت رودا فنظرتُ إلى الأعلى لأجد يده تحيط بجذع شجرة. لكنه الآن لم يكن يحيط بجذع شجرة، بل تدلّى جسده من غصن شجرة سميكٍ يمتدُّ عبر الدرب. اقتربت ماجي إليه، كما أخبرتني، دون شعور بالصدمة، وكأنها قد علمت أن حياة رودا أصبحت على المحك منذ أن حثَّت جاستن على الحديث إليه فرفض.

عندئذٍ فاض قلبها بالحزن لا الذعر. لقد خلع الرجل الكبير، الذي دائماً ما اعتنى بهندامه سواء أكان في تريسانت أم على متن القوارب، ياقته وشاح عنقه الأزرق المُرَقَط بالأبيض. كان الشاح مطوياً وُضع على حجر أملس فوقه الياقة، حتى إن زَرَّها قد خُلع أيضاً وُضع في مركز الدائرة التي شكَّلتها، يبرق في ضوء الصباح. لكن البريق غاب عن عيني رودا. كانتا جامدتين مثل أعين الأسماك الرمادية التي تصطفق وتركل الهواء وهي تُحتضر في قاربه، مثلما اصطفق جسده وركل الهواء لا شك، هنا وسط الظلام وحده، فيما الأشجار تظهر في برق السماء حيناً وتختفي حيناً. كانت لحيته رطبة بالندى. وتبدى غياب الروح عن جسده في هيئة عنكبوت، نسج خيوطاً امتدت من أطراف لحيته حتى كتفيه؛ شبكةً علقت بها قطرات الندى المتلألئة. وتلطح طرف حذائه بكتلة من روث الخيول. عندما رأتها ماجي انفجرت في البكاء. وتصوّرت الرجل الكبير واقفاً في الإصطبل يحدّق إلى الفرس الهالك، يغمره شعور شديد بالتقصير والعجز، دفعه إلى تناول الحبل الملقى هناك يومئذٍ إليه بما عليه فعله. ولازمها البكاء حتى عادت إلى المنزل.

عادت لوسي إيفانز إلى لندن وحدها. لقد أصرَّت على السفر في الحال بحزم شديد فاجأ جاستن لا ماجي، التي تساءلت: أيكون شعورها بالمسؤولية عن موت الرجل الكبير هو الذي دفعها إلى الابتعاد عن المشهد؟ ولأن جاستن لم يدرِ بما حدث بين لوسي ورودا شعر أنه المسؤول عن اتخاذها قرار الرحيل، لكن صعب عليه قبول الافتراق عنها.

قال: «لكنني أحتاج إلى وجودكِ هنا الآن أكثر من أي وقت مضى. أريدكِ أن تكوني معي».

لم تأسف ماجي لمرأى جمود لوسي مع جاستن. واستحسنَت ما حدث لأنه قد يُريه لوسي أخرى تختلف عن صورتها في خياله المُغرَم. لم تتدخل في الخلاف بينهما، لكنها سعدت بانتصار لوسي فيه.

وعندما رأت أن صورة لوسي اهتزت في عينيه انتحت بها جانباً وقالت: «إن ذلك الحادث المؤسف في مصلحتكِ. الآن اعملي بالنصيحة التي أسديتها إليك الليلة الماضية. غادري البلد بعض الوقت. وراسلي ميرفن في ألمانيا. ستجدين أنه على استعداد لترك صديقه هناك واللاحاق بك».

بقيت ماجي مع جاستن. وحضرا معاً جلسة محكمة الوفيات، حيث أُصدر الحكم التالي: شق إدي رودا نفسه في أثناء نوبة جنون.

على أنه حظي بجنائز مهيبة، إذ جاد جاستن بكل ما يمكنه فعله من أجله، حتى بدا وكأن الفقيد كان سيد الإقطاعية. وُضع نعشه في إحدى عربات المزرعة، وجرَّه إلى المقبرة فرسان قويَّان يلمع جلديهما مثل الحرير في شمس الصيف. شيع جنازته جميع العاملين في الإقطاعية ومستأجريها، وأعضاء فريق الإنقاذ، وكثيرون من أهالي بورْتِفِن والمناطق المجاورة. لقد عاش إدي رودا حياة هادئة منعزلة في سنوات عمره الأخيرة. لكن طريقة موته أعادت إحياء أسطورة القرصان، الذي أثار إعجاب البلدة ورهبتها. دار الحديث مجدداً عن قتله والد الفتاة التي تزوجها لاحقاً، وسفره بحرًا، والنساء اللاتي تسبب في حملهن، وخطبه الحماسية وتهريبه النبيذ. لكن أكثر ما تناقلته الألسن من هذه الأحداث هو اللكمة التي وجَّهها في حانة بورْتِفِن،

اللكمة التي أزهقت روحًا وجعلت كثيرين منهم يقولون الآن: «لقد نجا من حبل المشنقة، لكن المشنقة نالت منه في النهاية يا حُبوباتي. هذا مضحك، أليس كذلك؟ يا لسخرية القدر!».

لكن ماجي تركت الحكم عليه. بينما تقف بينهم أمام النعش المفتوح، بجوارها جاستن، فكَّرت في الزمن وقسوة مروره. لقد تعرفت إلى رودا قبل ميلاد جاستن. ومنذ ذلك الحين غيَّب الموت كثيرين: والدتي، ووالد جاستن، والسيد ديكنز الذي مدَّ لها يد العون في بداية مسيرتها الأدبية. كانت فتاة شابة عندما رأت إدي للمرة الأولى يتصرف بلا خجل أمام عيني ويزلي في بريست. والآن أصبحت امرأة كهلة. بجوار القبر كان الجمع ينشدون: «يرحلون مثل حلم يتلاشى بطلوع الصباح ويُنسَوْنَ»⁽¹⁾.

لكن ماجي فكَّرت: «لقد رحلوا، إذن أي أهمية قد يحملها تذكُّرهم أو نسيانهم؟». ثم بكت رودا، وبكت نفسها وباك-بودنج، وبكتنا جميعًا.

5

شغلت فكري هذه الأمور وأخرى مثلها، والقطار يتجه بنا غربًا في شتاء ديسمبر، كي نحتفل ببلوغ جاستن سن الرشد. جلس أربعتنا في مقصورة خاصة، وكان دانييل يقرأ جريدة «تايمز».

قال بهدوء: «لا تعجبني الأحوال في «جنوب إفريقيا»».

سألته دوللي ديورست: «لماذا؟ ما الذي يحدث هناك؟».

أجابها مستاءً: «أعتقد أن عقلك لا يغادر حدود زقاق «جريبيرد» أبدًا».

لم يتغير طبع دوللي رغم مرور الأعوام. ظلَّت كلماتها حادة جازمة مهما اختلف موضوع الحديث.

قالت: «إنه زقاقك. ولا حاجة إلى أن أتجول بعقلي خارج حدوده. فهناك حيث أعيش أرى جميع ضروب البؤس الإنساني».

(1) مقطع من ترنيمة ألفها عالم اللاهوت آيزاك واتس مستوحاة من المزمور التسعين من سفر المزامير. م

- حسنًا، فليكن. إنه زقاقي ولا حيلة لي في الأمر. لكنني أنفقت المال لتحسين أوضاعه، وبذلت كل ما في وسعي كي تصبح منازل ملائمة للعيش. وما أوصل بذله للنهوض به يفوق كثيرًا ما قد أتكسبه منه. ورغم تلك الجهود فإن أوضاعه سيئة كما كانت دائمًا بسبب أحوال المستأجرين. سيؤكد لك السيد كوجان أنه لم يعد في حاجة إلى تسديد إيجار منزله منذ أن أصبحت مالكته. (بدل مسار المحادثة سائلًا) كيف حال السيد كوجان يا سالي؟

- يُسلِّنا بعبادته الصينية. ولن أتفاجأ إن تناول طعامه بأعواد الصينيين. آمل فقط ألا يدمن الأفيون مثلهم. لكن السيدة كوجان ستهتم بهذه المسألة.

كان يوم زفاف السيد كوجان والسيدة الصغيرة مميّزًا. لقد عثر السيد كوجان على عربة «ريكشا» المفتوحة في متجر خردوات، وهي ما أوحى إليه بأن السيدة الصغيرة ليست مُضطرة إلى أن تعيش في عزلة. لقد اعتاد زيارة السيدتين، وكثيرًا ما أبدى إعجابه بمهارة السيدة الصغيرة في نحت المُجسّمات المُصغّرة. كانت تلك مهارة صينية لهذا راقته. وبينما تعمل كان يقرأ لها. عثر على قطع من العاج في متاجر الخردوات وابتاعها من أجلها، أمّا هي فصنعت أحجار الشطرنج من أجله. تردد في الزقاق أن السيدة الصغيرة مصابة بالشلل من الخصر إلى الأسفل. كانت تعاني ما يُدعى الآن «شلل الأطفال». لقد سكن الزقاق مهاجرون رحّالون، لكن بعضهم عاشوا هناك طويلاً بما يكفي لأن يتذكّروها تُحمَل عبر مدخل البيت المُقوّس ويُصعد بها الدرج. وقتئذٍ كانت في الخامسة من عمرها. لكنها لم تهبط ذلك الدرج حتى الآن، إذ أصبحت شابة في العشرين.

قبل قليل من عثور السيد كوجان على الريكشا ماتت السيدة. أصابتها نزلة برد وإنفلونزا قادا إلى التهاب رئوي شديد أودى بحياتها. ولم يبقَ من يعتني بالسيدة الصغيرة سوى السيد كوجان. عندما رأى الريكشا أدرك ما عليه فعله. وجب عليه أن يحرّر السيدة الصغيرة من سجنها. لهذا اشترى الريكشا وقادها إلى الزقاق، حيث أصبحت غرفة في أحد الطوابق الأرضية شاغرة،

ونقل السيدة الصغيرة إليها. الآن أصبح من السهل عليه حملها ليُجلسها في مقعد الريكشا، كي يصطحبها في جولة في الأنحاء.

كثيرًا ما رأيت المشهد التالي ولم أشاهده قط دون أن أتأثر به: يقف زبدي كوجان بين ذراعي العربة السخيفة بعدما توقف أمام واجهة إحدى المتاجر. أمّا راكبة عربته، النحيلة كأنها حمامة صغيرة، فتمتّع بصرها بما حُرِم من رؤيته طويلًا، مثل: الأسماك الذهبية البائسة، والفئران التي تركض ركضًا محمومًا في متجر الحيوانات الأليفة، والزهور، والفاكهة، والخضراوات. عندما ترى الخيول تتقدم متناقلة تجرُّ العربات تشهق انشدها وسرورًا. وإن توقفتُ لأتحدث إليهما كانت تقول لي: «من الرائع أن أرى الحياة مجددًا! لقد أعاد لي السيد كوجان عيني».

في بعض الأيام لم يسمح عمل السيد كوجان بأن يقود الريكشا كي يُنزه ديانا. كان اسمها ديانا مورف، لكنها كادت تنساه لأن الجميع يدعونها السيدة الصغيرة. في زقاق «جريبيرد» كثيرون لم يعلم أسماءهم أحد سوى السيد كوجان لأنه قرأها في سجلات الإيجار. عُرف قاطنو الزقاق بألقاب مثل: العجوز النزق، وبيلي كبير الأنف، والأعرج. وظلّت أسماءهم الحقيقية مجهولة. كان منهم كثيرون على استعداد لأن يضطلعوا بتلك المهمة كي يعاونوه عندما ينشغل في العمل. لكنه لم يأتَمَن غيره على «حملته الغالية» قط. (لقد أصبحتْ غالبته بطبيعة الحال ولا حاجة إلى أن أخوض في الحديث عن هذا الأمر). على أنها عندما كانت تعيش وحدها اهتمت سالي ودولي بإعداد وجباتها. وبينما ينقضي الربيع ويحلُّ الصيف ذهبَت الريكشا إلى أماكن أبعد. رأت عينا ديانا المياه الجارية والسفن تبحر عبرها، والأشجار تكتسي بالأوراق الزاهية.

ذات يوم عندما ذهب السيد كوجان إلى تشيلسي كي يُسلم دانييل دفتر الحسابات قال: «من مميزات الريكشا يا سيدي أن ظهر من يجرُّها يقابل راكبها. إن ديانا سعيدة للغاية يا سيدي، حتى إنني لا أقوى على إطالة النظر إليها».

بجوار مقعد عامٍّ عند ضفة النهر يوقف السيد كوجان العربة. وبينما يجلس هناك يدخّن غليونته تملأ «حملته الغالية» صفحات دفترِ برسم السفن، والطيور، وأوراق الأشجار المزدهرة تتطلع إلى السماء، وصبية عراة

أجسادهم هزيلة يجترئون على خوض النهر البني العكر. ذات يوم أخرج السيد كوجان واحدًا من تلك الدفاتر خَجَلًا وأراه لدانيل، الذي أخذه إلى النافذة وأطال النظر فيه. ثم أعاده إليه قائلاً: «اعتنِ بها جيدًا يا سيد كوجان. إنك تؤدي عملًا عظيمًا».

أعاد السيد كوجان الدفتر إلى حقيبة المستندات مع دفاتر الإيجار والحسابات، وقال: «لا أدري كيف أخبرك بالأمر يا سيدي. لكن يجدر بي أن أعنتي بشؤونها كلها. هل فهمت ما أقصد يا سيدي؟».

- هل ترغب في التكفل بها؟

- لا يا سيدي، بل أريد أن أسألها الزواج بي.

علت الدهشة وجهينا أنا ودانيل لأن الحُمرَة خَضُبَتْ وجه زبدي كوجان، وتلعثم، ولم يستطع النظر إلى أعيننا.

قال: «إنني أرى أنها لا تستطيع النجاة إن تركت وحدها. أعني ما الذي ينتظرها هي وأمثالها في هذا العالم؟ نحن نساعدُها قدر ما نستطيع. أنت تفعل ما في وسعك باركك الرب. لكن هذا العالم لا يرأف بالضعفاء أو المُنطَوَّيين».

طُفِقَ قفل حقيبة المستندات وسط صمتنا، الذي امتد إلى أن قطعه السيد كوجان قائلاً: «أعلم أن كثيرين سيقولون إن فتاة مثلها لا تصلح لزوج حقيقي، وربما يكونون على حق. لكنني لا أريد سوى الحب يا سيدي؛ ذلك الرابط العميق الذي يَحْتِكُ على السعي بجد، وتقدير مصلحة محبوبك على مصلحتك، وأنت تدرك جيدًا أن لا مكافأة في العالم ستعدل ما تشعر به عند فعل ذلك. هذا هو ما أرغب فيه يا سيدي».

كان من الغريب أن يتحدث السيد كوجان عن الحب والتضحية في تلك الغرفة، حيث دُكِّرَ كثيرًا بأن الوقت من ذهب خلال نصف الساعة الثمينة التي خُصِّصَتْ له كل شهر.

أبدت تعليقي على الأمر الذي قد حُسم بالفعل قائلة: «حسنًا يا سيد كوجان. يبدو أننا لن نستطيع شفاءك من توهّم الحمامات المربوط إلى ذيولها الفلوت تُحَلِّق في سماء زقاق «جريبيرد»».

ورغم أننا لم نسمع تغريد تلك الحمامات في ليلة الزفاف فإنها كانت مذهلة. مدَّ السيد كوجان حباًلاً متقاطعة من جانب إلى آخر على طول الزقاق. علَّق بها الفوانيس الصينية. وعندما حلَّ الظلام أضاءها جميعها. ثم حمل العروس من غرفتها إلى الكنيسة وعادا منها في الريكشا. اجتمع الجيران كلهم، من بينهم العاملون في «التجمُّع». كنت أنا ودانيل هناك أيضًا. لقد تكفَّل دانييل بمأدبة الزفاف، التي بُسِطت على طاولات خشبية امتدت من أحد طرفي الزقاق إلى طرفه الآخر. جلب الأهالي كراسيهم الخشبية وجلسوا حيثما شاءوا. أحضر النَّزق الأوكرديون الصغير وبيلي الهارمونيكا وعزفا الموسيقى طوال المساء. كانت تلك الليلة حارَّة بلا قمر. ظلت الفوانيس ساكنة، تشتعل شموعها مُرسلة ضوءاً ناعماً أخفى اتساخ الستائر الرثة عند النوافذ وسلَّات القمامة البالية بجوار الأبواب. حرص دانييل على أن تملأ الجعة المأدبة. فشرب الحضور وطعموا وعلا صوتهم مَرَحًا. كان الجميع مبتهجين ما عدا دوللي ديورست الجالسة بجواري.

نهضت فجأة وقالت بحدة: «لا أستطيع احتمال هذا الوضع! إنني أمقت المُسكِّنات. (لوَّحت بيدها تشير إلى الزقاق بأكمله قائلة) نحن نجعل كل هذا يبدو مُحتملاً، في حين أن ما علينا فعله هو القضاء عليه».

تناولت سالي زجاجتي جعة على غير عاداتها. وكانت تبتسم ابتسامة عميقة فبدت كالملاك. دفعت دوللي لتعود إلى الجلوس في مقعدها وقالت: «حباً بالرب يا دوللي حاولي حب الناس مثلما تمقتين النُّظُم».

لكن دوللي لم تعمل بنصيحتها. ذهبت إلى «التجمُّع»، وشاهدت في تجهم الطاولات تتفكك لتُجمع في إحدى الزوايا، والجمع يواصلون الرقص والغناء على ألحان موسيقى بيلي والنَّزق.

في الختام خفت ضوء الفوانيس حتى انطفأت. تألَّقت النجوم على صفحة السماء الداكنة فوق الزقاق. ثم رفع السيد كوجان حملته الغالية وصعد بها الدرج برفق، كأنه يحتضن بين ذراعيه كنزاً.

الفصل الرابع عشر

1

يسرُّني تذكُّر أن ميرفن حضر حفل بلوغ جاستن سن الرشد. فمنذ انتحار إدي رودا لم يقابل أحدهما الآخر. لقد تخرج ميرفن في أكسفورد بتقدير متواضع. وعندما وصل أربعتنا إلى تريسانت وجدناه هناك.

كانت تلك أول مرة يتقابلان فيها دون أسرار أو غموض. لقد علم ميرفن أنه ابن إدي رودا، وعلم جاستن بهذه الحقيقة أيضًا. ورأى كلاهما أنها لا تشكُّل أي فارق.

لا حاجة إلى الإسهاب في ذكر تفاصيل الحفل لأنه لا يختلف كثيرًا عن غيره وقد سار كالمعهود: يبدأ باستقبال المزارعين والمستأجرين، ثم تُبسَّط المأدبة حيث تُلقى الخطابات وتُشرب الأُنخاب. استمتعتنا جميعًا بالحفل عدا دوللي ديورست، التي أكَّدت أنها ترى فيه لمحة من العصر الإقطاعي، الذي لا يحتمله العقل الإصلاحي الحديث.

في المساء التالي أقيم حفل عشاء راقص دُعي إليه كبار مُلاك الأراضي لم أشهد مثله منذ أن وطأت قدمي تريسانت، ولن يُقام في المنزل حفل فاخر مثله مجددًا أبدًا. ربما لهذا أتذكَّره بوضوح شديد. منذ ميلاد جاستن أصبح تريسانت مكانًا هادئًا انعزل مالكة المُقعد. لكنني الآن رأيته كما اعتدته قديمًا؛

كما أَراده جاستن منذ ذلك الحين فصاعدًا. لقد اجتمع بمستشاريه القانونيين في لندن وأنفق كثيرًا من المال. قرَّر أن يُجهَّز منزل ميدان بورتمان الذي هُجر طويلًا للعيش مجددًا. وظَّف به طاقمًا كاملاً من العاملين. وأحضر منهم رئيس الخدم والحاجب للمساعدة في حفله. إن قاعة الرقص هي كُبرى الغرف في تريسانت. الآن رأيت فيها ستائر وتُحفًا جديدة. أنزلت الثُرَيَّات، نُظِّفت، ثم علَّقت مجددًا تُشبه جليدًا بَرَّاقًا. وعادت اللوحات من لندن بعد تنظيفها زاهية ألوانها التي بهتت بمرور السنين.

في نهار ديسمبر الغائم ذاك، بينما خادمت المطبخ يعملن على قدم وساق، جلسنا نحن القلَّة الماكثون في المنزل إلى طاولة الإفطار، نتمنى عامًا سعيدًا لجاستن. وقد كان حقًّا سعيدًا. بدا أن تعلُّقه بِلوسي إيفانز قد زال، وأنه يتطلَّع إلى المستقبل. تمنيت لو كانت ويلي معنا كي تعيش الأجواء الجديدة في المنزل الذي عرفته هادئًا، وكي ترى الإشراق على الوجه الذي اتَّسم بالحزن والاضطراب عندما رآته آخر مرة. على أنها أرسلت إلى جاستن خطابًا وهدية، وأعربت عن أسفها لأنها كاتبة مقيدة إلى مكتبها تكتب سلسلة أدبيَّة لجريدة أسبوعية.

لقد سعدتُ برؤية سالي آنسة راقية مجددًا. في بعض الأحيان كان ممكنًا لمن يراها في «التجمُّع» أن يظن أنها ترتدي الأسمال التي يتخلص منها ساكنو الزقاق. وتساءلتُ كيف ستختلف نظرتهم إليها إن رأوها الآن واقفةً مع جاستن أسفل الثريا تستقبل المدعوين.

قالت ضاحكة: «لا شك أن إحدى فتيات دعوة الليلة ستقف في مكاني هذا قريبًا. عليَّ الآن أن أؤدي دورها حتى تأخذ مكانها».

كادت سالي تبدو جميلة رغم أن الحُسن لم يكن من سماتها قط. لكنها كانت سعيدة من أجل جاستن، سعيدة لمرآه هو وميرفن معًا مجددًا. وقد أضفى هذا الشعور على قسماتها ألَّقا. بعدما أمضت بضعة أيام في كورنوال حيث الرياح الشديدة زال الشحوب عن وجنتيها. كانت ترتدي ثوبًا ناعمًا ورديًا، وتلألأت الألماسات حول عنقها ورسغيها. جذبت الأساور الأنظار إلى يديها. بدتا خشتين غليظتين، حُفرت بهما شقوق تجمعت فيها الأوساخ، إذ لم يكن ممكنًا تصويب ما لحق بهما في بضعة أيام.

لم يسعني سوى الذهاب إليها وتقيلها، ثم ابتعدت عنها خطوة أقول متفاجئة: «لديك بعض الشعرات الرمادية يا سالي!».

- وأنت أيضًا يا سارا!

أنكرت الأمر بحدة فصاحت: «دانييل، هلا تأتي إلى هنا لتخبر زوجتك أن الزمن لا يتوقف؟».

كم نحن اليافعون حمقى نعاند المحتوم! لم أنتظر مجيء دانييل وهرولت إلى غرفة النوم، حيث لا تزال الشموع متقدة على طاولة الزينة. دققت النظر في رأسي وكأنها ستستحيل رمادًا أمام عيني! وقد عثرت على الشعرات الرمادية: ثلاث، أو أربع، أو خمس، أو ست، فيم تهم الدقة؟ لم يكن الشيب بالقدر الذي رأيته في رأس سالي، الذي بدوره يُعد ضئيلاً، لهذا لم أنتبه إليه من قبل. لكنني عندما رأيت الشعرات الرمادية الآن ارتعدت وكأنهم ندف تنذر بهبوب عاصفة ثلجية. عندما دخل دانييل الغرفة كان الدمع يترقق في عيني. مازحني وسرعان ما هدأت. لكنني منذ ذلك الحين لم أعد أرى نفسي شابة قط. كان من «الطبيعي» أن يغزو الشيب شعر ويلي، وأن يرحل عن الدنيا كباري. لكنني لم أواجه حقيقة فنائي قط. أعلم أن الناس في هذه الأيام يقولون: «سارا أندريدج العجوز؟ ألا تزال حيّة؟! لا بد أنها من الخالدين!». لكنني في تلك الليلة وعيت أن الخلود وهم.

وقف دانييل خلفي يضع يده على كتفي المكشوفة، ويبتسم إلى صورتي في المرأة التي تضيئها الشموع، ثم قال: «تجعليني أتذكر اللورد بايرن إذ يقول: «يعلو ليلاً صوت الاحتفالات البهيج، لكنك تتجاهلينه وتنصتين إلى دوي المدافع البعيد»».

تجهّمت قائلة: «لقد كتب هذه القصيدة عن معركة «واترلو» التي قاتل فيها الدوق ولنجتون. وقد شاهدت الدوق والملكة يفتتحان قصر الكريستال. ما قلته يجعلني أشعر بالكبر أكثر من أي وقت مضى».

- لا أبالي، حتى لو كنتِ شاهدتِ هانيبال يعبر جبال الألب. هيّا، كفكفي دموعك ولنهبط إلى الأسفل كي نقابل أعيان البلد. ألا يثير الأمر حماسك؟
- لو استطعت الآن التضحية بجميع الأعيان لأقبل ريتشارد الصغير وأتمنى له ليلة طيبة لفعلت.

- لكنك لا تستطيعين ذلك. إذن ستكتفين بتقبيلي عوضاً عنه. ثم سترافقينني لنرى القادمين في العربات التي أسمع دوران عجلاتها.

2

كانت قاعة الرقص المُجَدَّدة غاية في الفخامة عندما قصدناها للرقص بعد العشاء. وقد تعمَّدنا البقاء خارجها كي تبرز فخامتها أمام جاستن لحظة دخوله. لمعت بلّورات الثريّات الثلاث فوق رؤوسنا. أنارت الستائر الجديدة المُطرَّزة، الخضراء والذهبية، التي أُسدلت على النوافذ. وفي ضوئها تألّقت الزهور الزاهية، التي جُمعت من شتّى الدفيئات كي تزدان بها الأرجاء. ذاعت موسيقى الفالس من الشُّرفة التي سُيّدت كي تضمّ الموسيقيين، فيسمع الحضور عزفهم دون أن يرونهم. رافقني جاستن إلى ساحة الرقص، ثم تبعنا دانييل وسالي. والمُسلّي أن ميرفن رافق دوللي ديورست، التي بدت مُرغمةً على الرقص كأنها إحدى المؤمنات تُضطر إلى السجود للأوثان لأسباب دبلوماسيّة بحثة.

أخبرني ميرفن أنها همست له قائلة: «توجد من تبحث عن الشيب في رأسها، لكن البحث عن القمل هو ما يشغل وقتي!».

في تلك الليلة أثار تصلُّب دوللي بين أذرع من يراقصونها حيرة المدعوّين، مثله مثل ثياب سالي الأنيقة، وحليّها النفيسة، وسلوكها اللائق تمامًا. كان الجميع يعلمون أنها تعيش في «تجمّع» في الطرف الشرقي من لندن. لكن انظروا إلى فخامتها الآن! لهذا تساءلوا: «أيهما سالي جايلورد؟ هذه أم تلك؟». إنّ من يعرف منهم تاريخ عائلة جايلورد يدرك أنها أنجبت عدة نساء فريدات؛ فتيات عزّبات سافرن إلى الخارج ليعشن مع الهمج واللانصرانيين. على أنهن عشن بينهم حياة النبيلات. لكن العيش في الطرف الشرقي من لندن يختلف تمامًا!

ولا شك أن الحضور شعروا بالارتياح لأن جاستن لا يخالف المتفق عليه. أصبح الآن واضحاً لهم أن مستقبل تريسانت في أمان في يد من يعرف واجباته، ومن يعتزم أن يعيد المكان إلى حاله السابق.

بينما نرقص قال جاستن: «هكذا يجب أن يكون حال تريسانت. هل ترين أنني نجحت في تنظيم الحفل؟».

كانت تلك ليلته المميزة فقلت بؤد: «لقد نجحت في تنظيمه نجاحًا باهرًا».

- يتوقف هذا على نظرتك إلى الأمر. أنا واثق أن ما حدث اليوم يفطر قلب الأنسة ديورست. لقد وضعتُ نظرية حول قلبها: إنه واحد من ابتكارات جايمس وات، وهو يضخُّ الحبر لا الدماء. بالأمس خضنا حديثًا طويلًا، أو بالأحرى هي من تحدثت إليّ. أخبرتني بنظريات غريبة قد وضعتها. إنها ترى أن التعليم يجعل جميع المواطنين صالحين. لكن انظري إلينا نحن خريجو إيتون. أقرُّ بأننا لسنا طالحين، لكننا لا نستطيع أن نُميز الألف من كوز الذرة.

بعدما وصلت رقصة الفالس إلى نهايتها وجدتني برفقة الكولونيل هاكس الفصيح، الذي أخبرني أن طلاقة لسانه تفسد عليه الأمسية.

قال وهو يربت على يدي: «لا تتورطي في إلقاء خطاب أبدًا يا عزيزتي. لقد حاولت التملص من الأمر، لكنني لم أستطع لأنهم ألحوا عليّ. إنَّ إعداد هذا الخطاب يشغل فكري منذ عدة أيام، لكنني أعتقد أنني أحكمت صياغته. بإذنك!».

ثم ابتعد يُخرج ورقة من جيبه، وانفرد بنفسه في إحدى زوايا الغرفة كي يراجعها.

استمر الرقص حتى الساعة الواحدة وشعرت بالإرهاق. نظرت حولي أبحث عن الكولونيل هاكس أمل أن يبدأ فقرته. إن إلقاء الخطابات يتبع الرقص، لهذا كان الوقت ملائمًا للبدء. ومن حسن الحظ شاركني باقي الحضور الحال نفسه. لقد سمعت أحدهم يقول: «هيا يا هاكس. إن الوقت يمضي».

تنحى الكولونيل هاكس بصوت حازم قد يجمع أي تمرّد، فاتجهت جميع الأنظار إليه. عندئذٍ جلست في أحد المقاعد كي أنال قسطًا من الراحة في أثناء إلقاء الخطابات.

اختلس الكولونيل نظرة أخيرة إلى ورقته، ثم رفع صوته قائلاً: «حسنًا، نحن جميعًا نتمنى لبيرندج كل الخير. كل الخير حقًا. بالتأكيد نتمنى له ذلك.

حسنًا، لنعرب عن أمنيّتنا تلك بالطريقة التقليدية الرائعة، أقصد بغناء «إنه فتى رائع مَرِح».

بالكاد نهضت عن مقعدي وشاركت الحضور الغناء. كان جاستن فتى رائعًا مَرِحًا بحق، ولا يمكن لأحد أن يُنكر هذه الحقيقة.

هتف الكولونيل: «حان وقت خطابك يا بيرندج».

وبدا مرتاحًا لأنّ عناءه انتهى وسيتولى غيره تلك المهمة الشاقة.

قال جاستن: «أشكركم جميعًا على الحضور الليلة. أتمنى أن تكونوا قد استمتعتم بوقتكم في تريسانت قدر استمتاعي باستضافتكم فيها. إن هذه هي البداية فقط. فأنا أودُّ أن تصبح تريسانت كما تعذّر أن تكون في حياة أبي. بالطبع لا أعني أن تصبح مركزًا للاحتفالات. إن تنظيم الحفلات من حين إلى آخر أمر ممتع، لكن إقطاعية مثل تريسانت أعلى قدرًا من هذا. أريدكم أن تعلموا أنني أدرك قيمتها، وعندما أعود سأواصل العمل على النهوض بها. أعتقد أنكم الآن تتساءلون ماذا أقصد بقولي عندما أعود. توجد بعض الاضطرابات في إفريقيا كما تعلمون. لكنني لم أرغب في الحديث عنها كي لا أفسد متعتكم. ويؤسفني قول إنني سأشارك في تلك الحرب. بينما أنتم نائمون في هذه الليلة السعيدة سأرحل إلى لندن كي أنضمّ إلى كتّيبتي العسكرية. أشكركم مجددًا، وإلى اللقاء».

جلست أنا ودانيل في غرفتنا طويلًا يبلغ سمعنا صوت العربات تبتعد في ظلام الليل. بدت لي قرقتها وكأنها دويُّ العتاد الشيطانيّ، الذي يزداد شيطانيّةً منذ تلك الليلة حتى اليوم، مثل: البنادق والذخائر، والعربات الحربية والشاحنات العسكرية، التي جابت أراضي المعارك عبر التاريخ. استمعنا إليها تبتعد، واحدة تلو الأخرى، تصرُّ جلودها وعجلاتها وينسحق الحصى أسفلها. سمعنا أيضًا طقطقة حوافر، ثم هتف صوتٌ وكأنه نفير البوق يقول: «وداعًا يا بيرندج. تذكّر أن والدك شارك في معركة بالاكلافا. اجعلنا فخورين بك يا فتى».

كان هذا الكولونيل هاكس الذي شارك في فكِّ حصار «لكناو» ضمن أحداث التمرد الهنديّ.

جلست على السرير يعوقني إرهابي عن الحديث، إذ أربكتني تلك الأخبار المباغطة الكارثية. ذرع دانييل الغرفة ذهابًا وإيابًا يخلع ثيابه مشغول الفكر. تحرّر من معطفه، وبينما يحلّ ربطة عنقه قال: «كنت محقة. لقد سمعتها». نظرت إليه حائرة فأردف: «أقصد دويّ المدافع رغم أصوات الاحتفالات». ثم تطلّع إلى الخارج عبر النافذة المفتوحة. أطفأ أحد الخدم مصابيح الباب الرئيس فسادت الظلمة. تلاشت أصوات رحيل آخر المدعوّين. ووسط الهدوء سمعنا وقع الخطوات المتثاقلة على أرض الممر المكسوة بالبساط، إذ يأوي أهل البيت إلى الفراش. مرّ جاستن بغرفتنا يُصفرّ وصاح: «تصبحان على خير يا سارا ويا دان. ليلة طيبة لكما ونومًا هنيئًا».

أغلق دانييل النافذة وأسدل الستائر، ثم جلس على السرير بجواري. أحاطني بذراعه وقبّلني يواسي حزني الصامت. لكن الكلمات سرعان ما اندفعت من بين شفّتي.

قلت فجأة: «ماذا يحدث؟ تستمر هذه الاضطرابات والحروب في الاندلاع. لكننا عامّة الشعب لا نعلم حتى عمّا تدور».

علت الجديّة وجهه ولم يستهن بسؤالِي. دائمًا ما أخبرني الحقيقة، وأنا إلى الأبد ممتنة له على فعل ذلك.

قال: «لقد شنت الإمبراطورية البريطانية الحرب الحالية ضد مملكة الزولو، وأرى أنها خطوة يائسة. إن السبب الرئيس لنشوب الحرب هو أن جنوب إفريقيا دولة غنيّة يسعى لسيادتها الهولنديون والإنجليزيون، في وجود ملك الأفارقة السود بالطبع. لكن في الوقت الحالي -في الوقت الحالي فقط- لا يُشكّل الأفارقة السود سوى مصدّ يؤجّل اصطدام الطرفين الثانيين، اللذين سيتسببان في وقوع الاضطرابات. ذات يوم سيخضع الأفارقة لفترة ما. ثم سيتحمّم على الطرفين الهولنديين والإنجليزيين أن يتواجهوا ليقرّرا أيهما هو صاحب النفوذ هناك».

لم نستطع النوم في تلك الليلة. تضمنت غرفتنا مدفأة أوقدها دانييل. ووضع شموعًا جديدة في الحامل المخصّص لها. وأطلقنا الحديث معًا.

قال: «أتذكر ذات يوم أن السيدة جيمستون، مدبرة شؤون منزل ويلي، تحدثت عن الوقت الذي تزوجت فيه بابن مدير عملها، الذي كان ضابطاً في الجيش. لقد قالت: «ظننت أن حياتي ستصبح رائعة». لكنها لم تكن رائعة على الإطلاق، بل مبتذلة وكئيبة. هكذا أصبحت حياتنا جميعاً. انتظري يا عزيزتي ولا تقاطعيني فأنا لا أتحدث عن حياتنا أنا وأنتِ معاً. فحيثما تهب العواصف العاتية يمكن أن توجد زوايا دافئة، وقد وجدنا معاً إحداها. إنني أدرك هذه الحقيقة جيداً. لكنني أتحدث عن الحياة كما تبدو في نظري منذ أن شرعت ذاكرتي في العمل. إن من سوء حظك أن تكون أولى الذكريات التي خزنها عقلك إحدى اللحظات الأكثر تفاؤلاً في تاريخ البشرية».

- لقد أضجرتك بالحديث عنها يا عزيزي: عن قصر الكريستال، وفستان الملكة الأنيق، والموسيقى والنافورات. أحياناً أرى أن خوضي تجربة مثل تلك في سن صغيرة مُحيطٌ ببعض الشيء.

ارتدى دانييل مبذل النوم وأشعل غليوناً، ثم قال: «لست وحدك من عانى هذا الأثر يا عزيزتي. أرى أن زوج الملكة قد ضلَّ حتى نفسه بإقامة عرضه الفاخر، وكأنه ظنَّ المدينة المُقدَّسة ستهبط من السماء لترقد بين مضخَّات المحركات البخارية ومكابسها. المجد للرب في الأعالي، وعلى الأرض مُتَّسع للتوسع في إنتاج المُحرَّكات البخارية التي ستجلب الازدهار وزيادة جميع صادرات بريطانيا».

- وبعد عامين من افتتاح القصر خضنا حرباً ضد روسيا، عامين فقط! وبعد ستة أعوام من افتتاحه وقع التمرد المؤسف في الهند. وبعد تسعة أعوام بدأنا تشييد السفن الحربية الحديدية، وهنَّأتنا جريدة «أوبزرفر» (أكاد أرى المقال أمام عيني الآن) لأننا: «أصبحنا في الوقت الحالي على الأقل آمنين من هجمات «أصدقائنا الطيبين» في الجهة المقابلة من القنال الإنجليزي». ثم أوشكنا أن ندخل في حرب ضد أمريكا. والآن نخوض هذه الحرب التي تقول إنها بداية لوضع أكثر سوءاً.

- لا يبدو هذا السَّجل رائعاً أو يُبشِّرُ بمستقبل واعد.

عندئذٍ صحت يائسة: «ما خطبنا جميعاً بحق السماء؟».

- لستِ أوّل من يطرح هذا السؤال يا عزيزتي، ويؤسفني قول إنكِ لن تكوني آخر من يطرحه. استريحي الآن. ضعي رأسكِ على الوسادة وحاولي النوم.

لكنني لم أستطع النوم فواصلنا حديثنا. وعندما حلّ النهار نزلنا إلى الطابق السفلي حيث قابلنا سالي ودوللي وميرفن. كانوا يذرعون المنزل قلقين، وبدا أنهم لم يستطيعوا النوم أيضًا. سرعان ما انضم إلينا جاستن إلى طاولة الطعام، ولم يقل أي منا ما قد يشير إلى أن ذلك الإفطار يختلف عن غيره. ورغم أن الألسنة عجزت عن النطق بالكلمات فإن القلوب سمعتها. لم يسمح جاستن لأحد بأن يرافقه في العربة إلى محطة القطار. فودّعناه عند الباب الرئيس، ومن الغريب أن أحدًا منا لم يبكِ سوى دوللي ديورست. وقفنا جميعًا نحدّق إلى الطريق الذي انعطفت العربة عند ناصيته، وفجأة لم نجد دوللي معنا.

كانت سالي من اكتشف غيابها فسألت: «أين دوللي؟».

أجابها ميرفن: «لنمنحها بعض الخصوصية».

عندئذٍ فكّرت في مزحة جاستن حول قلب دوللي الميكانيكي، وتعاظم شعوري بأنني لن أستطيع فهم الرجال أو النساء أبدًا.

3

يصعب وصف صلة القرابة بين جاستن وابني ريتشارد. إن جاستن هو أخي غير الشقيق. وأمي (التي لم يرها قط) هي أمه، لكن والده ليس والدي. كان تقريبًا خال ريتشارد؛ نصف خال إن جاز التعبير، وقد تقابلا مرة أو مرتين فقط. لهذا كان من المنطقي أن يدعوه ريتشارد الخال جاستن، وفي السابعة من عمره أظهر اهتمامًا كبيرًا به. أصبح الخال ريتشارد بطلًا في نظره، وقد اعتز بجميع أغراضه المتبقية التي استطاع الحصول عليها. في غرفة الصغير كان يوجد صندوق وضع فيه زرًا من إحدى بذلات خاله العسكرية، وسوطه، وعقب القلم الرصاص الذي عُثر عليه في جيب جاستن،

والشكيمة التي عَضَّ عليها جاك-بودنج في ما مضى، وأشياء من هذا القبيل. أظهر ريتشارد اهتمامًا كبيرًا بعائلة جايورد أيضًا، رغم أنه ليس فردًا منها. لقد علم أن جدّته لأمه كانت الليدي بيرندج، ورأى أن هذه الحقيقة كافية لإثبات انتمائه إلى تلك العائلة.

ابتدع خيال ريتشارد قصة مُحكمة البناء استنادًا إلى الأغراض القليلة الخاصة بجاستن التي جمعها. رأى أن الشكيمة كانت في فم الفرس الرائع الذي امتطاه الخال جاستن، وانطلق على صهوته يضربه بالسوط كي يتقدّم سريعًا لمحاربة الزولو، وأن قائد الزولو كان يمتطي فرسًا لونه أسود يناقض بياض فرس جاستن. خالَ أنهما تجابها عنيفًا حتى إن المحاربين السود والبيض ثبتوا في أماكنهم لحظات، ثم تنحّوا جانبًا كي يشاهدوا المواجهة. أطاح جاستن بيديه قائد الزولو، الذي قفز فجأةً يحمل رُمحًا، فاضطرب فرس جاستن وطرّحه أرضًا. وعندما وقع جاستن ضرب قائد الزولو رأسه بعصا غليظة. ظنَّ المحاربون أنه مات وانطلقوا يواصلون المعركة. ابتعد موضع القتال عن تلك البقعة وعاد جاستن إلى وعيه. ثم استطاع، بطريقة ما، أن يُحرّر الشكيمة من اللجام، وخلع زرًا من معطفه. وضع الشكيمة والزرّ والسوط أرضًا. ثم أخرج القلم الرصاص وخطَّ رسالة وهو يُحتضر يقول فيها: «امنحوا هذه الأغراض لابن أختي ريتشارد أندريدج كي يحتفظ بها». وعُثر عليه ميتًا تقبض يده على القلم الرصاص، وتعلو ابتسامة الرضا وجهه.

لم تعجبني تلك التخيلات، وأخبرت ريتشارد مرارًا بنهاية جاستن الحقيقية المؤسفة.

أسأله: «كيف استطاع أن يمتطي فرسًا وهو من الجنود المشاة؟».

فيجيبني قائلاً: «لقد استعاره من كولونيل بجواره».

فأسأله ألا يعلم أن جاستن كان واحدًا من الجنود المشاة الذين شكّلوا أضلاع المُرَبَّع المميت يحمون بأجسادهم وينادقهم باقي الجنود في مركزه في معركة «أولوندي»، ما أدّى إلى إضعاف قوة الزولو بعد سبعة أشهر من رحيل جاستن عن تريسانت؟

فيسألني إن كان ما أقول صحيحًا كيف إذن يملك رسالة الخال جاستن الأخيرة؟

ثم يريني الدليل: كلمات خربشها على ورقة. ثم غَضَّنها ولَوَّثها بالتراب، وفَرَكَها بقطعة لحم في المطبخ كي تتلَطَّخ بالدماء.

4

كنا في تريسانت وريتشارد في السابعة من عمره إذ قال: «أنا لم أر مقبرة أجدادي قط».

كنت ضجرة من هوسه ذاك، فقلت غاضبة: «كم مرة قلت لك يا ريتشارد أن أفراد عائلة جايلورد ليسوا بأجدادك؟».

عبس وجهه وقال: «تعلمين يا ماما أن جدتي كانت الليدي بيرندج وأن ابنها اللورد بيرندج كان خالي».

حاولت أن أوضح له الأمر مرة أخرى، فقلت بهدوء: «تزوجت جدتك اللورد بيرندج بعدما وُلدت أمك. لهذا فإن أمك لا تجمعها بعائلة جايلورد رابطة الدم. هل هذا واضح؟».

كان يدري بكل هذه الحقائق لأننا أجرينا هذا الحديث كثيراً من قبل.

قال: «أجل يا أمي. هذا واضح، لكن....».

- لا «لكن» يا ريتشارد. لا تنحدر أمك من عائلة جايلورد. ووالدك، كما تعرف جيداً، ابن رجل فقير يحاول كسب عيشه بالتدريس والرسم.

تناولنا الإفطار على طاولة صغيرة في إحدى زوايا غرفة الطعام، حيث اللوحات الشخصية لأفراد عائلة جايلورد على الجدران حولنا. من بينهم لوحة أمي التي لم يستطع والد جاستن النظر إليها قط، وعَهَدَ بها إلى ماجي ويل، ثم علَّقها جاستن هنا. تطلع ريتشارد إلى اللوحات حوله، حتى ثَبَّتَ نظره على لوحة جدّته.

كنت أعلم في ما يفكّر. وكى أَشَتَّتْ أوهامه عن أجداده سألته: «ماذا تريد أن نفعل هذا الصباح؟».

فأجابني: «زيارة مقبرة أجدادي».

كان والدي يمتلك مصنعًا لإنتاج الحديد، ويتبع الصورة النمطية لرجل أعمال يتاجر في سلعة صادف أن زاد طلبها زيادة محسومة. أمّا أمي الفاتنة فكانت ابنة قسّ من قسوس «كنيسة إنجلترا» في «نورفوك»؛ رجل بدأ حياته بالعمل في متجر أقمشة في القرية. كانت له ابنة أخرى لم ألتقها قط تعمل ممثلة، لم يسمح والدي لأمي بالتواصل معها قط.

كان السيد أندريدج والد دانييل، كما نعلم، رجلًا فقيرًا عنيدًا يتوهم أهمية لم يحظَ بها قط. عندما قابل السيدة أندريدج أول مرة كانت امرأة هزيلة تمتهن الخياطة. أقنعها أولًا بأن تصبح موديلًا لأعماله، ثم أن تصبح زوجته.

إنَّ تقلُّبات المجتمع الإنجليزي، حيث تُشبه الموهبة والجمال والثروة والضمير، أو غيابه، موجاتٍ تدفع المواطنين إلى قممها أو قيعانها، قد جمعت بين هذين الرجلين وهاتين المرأتين (من يدري أي ثنائيات أخرى غريبة اجتمعت في الأزمنة التي سبقتهم؟)؛ والنتيجة الحالية هي ريتشارد ذو السبعة أعوام، الذي يتوهم انتسابه إلى «أجداد» لهم تاريخ طويل متواصل من الفخامة والاستقامة.

كنتُ فخورًا به. لو كانت ثمة علاقة بين اللوردية والوسامة لأصبح لوردًا صغيرًا. كان أكثر نحافة مما وددت أن يكون، لكن صحته جيدة ووسامته شديدة. لقد اندمجت فيه العناصر المختلفة، على رأسها أمي، لتنتج بهاءً قلما ترى الأعين مثله. أمّا في ما يتعلق بطبعه فقد ورث واقعية جدّه راينبرو، التي لا تسمح لأحد بخداعه، يتخلّلها نزعة جدّه أندريدج إلى خداع نفسه.

بالطبع لم أرَ كل هذا عند النظر إلى ريتشارد حينئذٍ. لقد أحببته، وقلقت بشأنه من حين إلى آخر، مثل جميع الأمهات. لكن أعوامًا كثيرةً قد مرّت منذ ذلك الحين، وفيها فكّرت طويلًا في ريتشارد وفي كثير من الأمور.

نهضت من الطاولة أقول: «حسنًا، هيا نذهب لنرى المقبرة».

تبدّل حاله على الفور. غمره الحماس والحيوية. وتمسّك بيدي مبتهّجًا لنبدأ المغامرة.

كنا في يومٍ ربيعيٍّ حيث السحب تتهاوى وسط السماء الزرقاء. ملأ الأجواء تغريد الطيور وثغاء الجملان. ورغم أن النباتات تزدهر مبكرًا في كورنوال فإن الأشجار تُورق متأخرًا، لهذا لم يظهر على أغصانها الآن سوى وُريقات صغيرة. أحاطت تلك الأشجار بالكنيسة وحجبت بعض جدرانها. ووسط الأرض العشبية في فنائها، حيث نبتت زهور البنفسج الزرقاء والبيضاء وزهور الماميران الذهبية اللامعة، انتصبت شواهد قبور العامة من الناس. تتكوّن بعضها من أحجار متداعية، وبعضها الآخر من الأردواز الأملس أزرق اللون، انسابت على سطحه الحروف والزخارف التي نقشها الحرفيّون من الأهالي. أمّا مقابر عائلة جايلورد فكانت بداخل الكنيسة. دفعت بابها الخشبي الثقيل ذا الصرير. عندما دخلنا لم يكن سوانا في ذلك المكان الذي دائمًا ما يبدو مهجورًا. بعدما أذنت لريتشارد بالتجول كما يحلو له جلست في أحد المقاعد الطويلة بالقرب من الباب. وفي الحال داهمني الشعور الذي دائمًا ما ينتابني هناك. شعرت أن الكنيسة نفسها قبر ضخم. كان زجاج نوافذها مُضربًا. وتموّج الضوء الأخضر الباهت، الذي يسقط عليها من خلال الأشجار المحيطة، كأن البناء يهتز تحت سطح الماء. تسرّبت البرودة التي حُبست هنا منذ قرون من أحجار الأرضية فبرد الهواء. وانتشرت رائحة العفن الذي استطاع أي زائر رؤيته وتحسّسه. إن فركت القبور فستفتت الحجارة لتجد بين أصابعك ترابًا ذا مسحة خضراء. انتشرت بقع العفن الزرقاء على القضبان الخشبية لحاجز المذبح. وكان الحديد الذي غطّى بعض القبور متآكلًا صديدًا. لم أكن لأتفاجأ برؤية الفطريات تنمو في شقوق الحجارة. وذات مرة عثرت على ضفدع يقرفص مرتاحًا أسفل منصة الواعظ، التي صُممت على شكل عُقاب يبسط جناحيه النحاسيين اللامعين بتحدٍّ وتصميم. على المذبح أحنّت زهور الياقوتية رؤوسها الزرقاء الثقيلة، ونفثت رائحة الموت التي تملأ

الكنيسة. كان الأشدُّ وطأةً بين كل هذا هو البرودة والصمت، الذي لا يقطعه بل يُفاقمه حفيفُ الأشجار بفعل الرياح، وزقزقةُ الطيور المفاجئة، ووقعُ حذاء ريتشارد وهو يتنقل في رهبة من قبر إلى آخر يقرأ النقوش على الشواهد. لم أجلس قط في ذلك المكان دون أن أسمع الأبيات التالية كأن صوتًا خفيًا يتمتمها:

«هنا يَسْكُنُ الوجود

ولا يعلم سوى صوت الجمود

حيث رياح هامدة وموجات مُستوية

تتابع في أوهامٍ أبديةٍ مُلتبسة».

قال والد دانييل عن مؤلفها، ونيران الغيرة من شهرته تأكله: «اعتدت أن أقابل روزيتي برفقة سوينبرن؛ ذلك القصير ذي الذقن الصغير». ربما يكون سوينبرن الشاعر كما وصفه، لكن الأكيد أن شعره أثار بداخلي الاضطراب.

نظرت إلى ريتشارد المفتون، المُستغرق في أحلامه المُلتبسة، ثم علا صوتي يشقُّ الصمت على نحو فاجأني إذ قلت: «ألا يجدر بنا الرحيل يا عزيزي؟ المكان بارد جدًّا».

نظر إليّ مستاءً يضع إصبعه على فمه وهمس: «ششش!».

ذهبت حيث يقف أمام قبر أحد اللوردات، الذي «عانى النقرس مدة خمسة عشر عامًا وصبر على معاناته كمسيحيٍّ حقيقيٍّ»، وزوجته الليدي التي رحلت في الثلاثين من عمرها «عند ولادة طفلها العاشر». لقد اجتمعت العائلة كلها هنا. فوق قبور عدد من أفرادها نُحتت تماثيلهم، وجاورتهم تماثيل زوجاتهم وتماثيل بعض الجراء تتمسح بأقدامهم. نُحت بعضهم في صورة فرسان مُدرَّعة متجهمة. وبدا بعضهم الآخر عاجزين على نحو يثير الشفقة، تغطي لحاهم الطويلة المنحوتة ياقاتهم المُكشكشة. لكن الجمود وسَمهم جميعًا. أمّا

من لم تُنحت تماثيلهم فقد خُلدت ذكراهم عبر ألواح تزيّن الجدران. نُقش عليها باليونانية أو اللاتينية عبارات، إن طابقت المكتوب بالإنجليزية على بعضها، فستكون وصفاً لجميع أفراد العائلة بأنهم مثال في الاستقامة والبسالة، أزواج مخلصون وآباء صالحون وأصدقاء محبوبون، يحسنون إلى المساكين وهم دعائم الدولة. نُعتت جميع النساء بالعفيفات الوَرعات الولّادات. أمّا أطفال العائلة الذين ماتوا صغاراً فتمتّعوا بالحُسن كلهم، ولو طال عمرهم لجعل مستقبلهم الواعد من إنجلترا مملكة الإيمان والعلم.

أشارت النقوش أيضاً إلى أنهم عملوا في خدمة الملكة إليزابيث وأووا الأمير تشارلز. حاربوا مع دوق «مالبرو» في معركة «بلاينام» البريّة ومع نيلسون في معركة «ترافلجار» البحريّة. وعلى الرخام المُلطّخ والنحاس الذي زال لمعانه تتابعت أسماء المعارك الكبرى: ميندن وترافلجار، وكوبنهاجن وواترلو. رغم ذلك فقد شعرت أمام جميع القبور بأن ساكنيها «أوهام مُلتبسة»، باستثناء قبر واحد لم يُنحت فوقه تمثال، بل نُقشت بضع كلمات على شاهده، حيث يرقد اللورد بيرندج خاصّتي بعد عشرين عاماً من التعاسة؛ ولوح رخاميّ جديد على الجدار فوق القبر، يسجّل موت جاستن في إفريقيا.

ثبّت في مكاني أمام القبور، إذ الضوء الأخضر الباهت يواصل تموّجه، والرياح وأجنحة الطيور تؤرّجح أغصان الأشجار. وشيئاً فشيئاً فهمت المغزى من وجود باقي النصب التذكارية، وكيف أن كلّاً منها لا شكّ قد واسى قلب زائر يعاني الوحدة والفقد حديثاً. فكرت أن كلّاً منّا سيلزمه كنيسة لنفسه إن سجّلت على شاهدها جميع خطايانا وأخطائنا، والقليل من أعمالنا الصالحة وخصالنا الحميدة، التي تنير ظلام حياتنا وقسوتها. لهذا حتى إن لم نفعل سوى الصبر على النقرس كمسيحيّين حقيقيّين فلنسجّله، فهو فعل يستحق الخلود.

قلت: «يجدر بنا الرحيل يا عزيزي».

- إن كنتِ تشعرين بالبرد يا ماما فهل يمكنكِ انتظاري في الخارج؟ لن يطول غيابي.

تركته هناك، وبينما أغادر مدخل الكنيسة المسقوف شعرت كأنني «لعازر» الذي أحياه المسيح بعد موته. غمرني الربيعُ بضوئه وألوانه ولقّني

الجوُ بدفته. علت رفرفة الطيور التي تمتلئ مناقيرها بالطعام وهي تُحلّق عائدةً إلى أعشاشها حيث صغارها الجوعى. أعلن الجرس المتصدّع في برج الكنيسة حلول الظهيرة بصوته المكتوم. جلست على بلاط أحد القبور يكسوه الحزاز. ثم وقع نظري على شاهد قبر من الأردواز لم يُكتب عليه سوى: «إدي رودا، قبطان أعالي البحار»، مع تاريخ ميلاده ووفاته. لقد نسيت أنه دُفن هنا. ولمّا رأيت مزهرية تملؤها زهور النرجس أمام شاهد قبره تساءلت من يتذكر إدي رودا ولماذا يتذكره. على حافة البلاط الذي يُحدّد موضع قبره حطّ شحرون، ثم أدار رأسه ينظر إليّ بعينه اللامعة. ولمّا اطمأن إلى سكوني أخذ يدقّ البلاط بصدفة حلزون. عمِلَ منقاره الأصفر كمّاشةً تمسك بجسد الحلزون الرخو. أما عنقه فكان رافعةً، والبلاط مثل سندان الحدّاد. وتوالى دويُّ الطرق حادًا وواضحًا وسط غمرة الموت والحياة في فناء الكنيسة.

نهضت لأسير على الأرض العشبية غير المستوية فرأيت ما لم ألحظه قبلاً: كانت توجد كوة شُقّت في جدار الكنيسة. نظرت عبرها فرأيت الكنيسة من الداخل، وكأنها لوحة قديمة باهتة بحاجة إلى الترميم. كان ريتشارد منحنيًا تجاه أحد القبور. للحظات لم أفهم ماذا يفعل. ثم انتبهت إلى أنه يمسك سكين جيبٍ يكشف بها الحجارة العفنة عن القبر، ليسقط ترابها في صندوقٍ صفيحيٍّ صغير.

غضبت من نفسي لأنني سهوت عنه رغماً عني، وهرولت عائدةً إلى مقعدي. لكن اليوم لم يعد في نظري مشرقًا، وكان قلبي يخفق بقوة. ساءني ذلك القدر من التراب والأطلال. ودعوت الرب أن يحمي ابني من الكآبة!

لكنه عندما خرج من الكنيسة لم يبدُ كئيبيًا. وضع السكين والصندوق الصغير في جيبه، وكان وجهه صافيًا يعلوه الهدوء.

في طريق عودتنا إلى المنزل قال: «لقد نسيت شيئًا يا ماما. كانت جدتي والدة الخال جاستن. هذا يعني أن لديّ بعض الدماء التي كانت تجري في عروق الخال جاستن».

يكبر جوليان ريمل ريتشارد بستة أشهر. لم أقابله قط هو أو والدته ماري شقيقة زوجي حتى تلك الظهيرة، حيث كنت في انتظار قدومهما وسباستيان ريمل زوج ماري. بالطبع كنت أعرف سباستيان، أو بالأحرى قابليته، إذ لا يمكنني أن أدعي معرفة الفتى الانطوائي المتحفظ الذي رافق دانييل في لندن، عندما بدأت أنا وماجي ويل السفر إليها. سيرافق دانييل ثلاثتهم.

مرَّ الشتاء السابق للحالي عصيبًا في لندن. في تشيلسي عانينا عاصفة ضبابية تلو أخرى. أو ربما كانت عاصفة واحدة متواصلة تتجه شمالًا، بين الفينة والأخرى، كي تحظى بعطلة في «مانشستر» أو «شفيلد»، ثم تعود إلينا في أوج نشاطها. انشغل دانييل كثيرًا بالعمل حتى إنه اعتاد، بعد عودته من الهيئة القانونية في «تيمبل» وتناول العشاء، أن يذهب إلى مكتبه لمواصلة العمل حتى موعد النوم. راقه أن أجلس معه ما دمت ألزم الهدوء. وقد تدربت على هذه المهارة كثيرًا في أثناء حياتي مع ماجي. كانت أسعد أوقاتي في ذلك الموسم الكئيب أمضيها جالسةً بجوار المدفأة أقرأ كتابًا، ودانييل جالس إلى مكتب فوقه مصباح مَطْلِيٌّ بالأخضر يتقد.

بعد انقضاء عيد الميلاد المجيد مباشرةً بلغتنا أخبار مؤسفة مفاجئة. كان والد دانييل ووالدته عائدتين في عربة مستأجرة من عشاء في بوردو، إذ فقدت السيدة أندريدج الوعي فجأة. كان الوقت متأخرًا، والجو هناك يشبه ما نعانیه في لندن. أشار السيد أندريدج إلى الحوذي بإيقاف العربة، وخرج إلى ضباب الطريق الكثيف كي يأمره بالتوجه إلى منزل أي طبيب قريب. اضطرب السائق عند سماع الخبر، ولأنه لا يستطيع الرؤية بوضوح وسط الضباب انطلق بالعربة وقدم السيد أندريدج لا تزال على عتبة الباب. تحركت العربة فجأة فطرحته أرضًا، وداسته عربة أخرى قادمة من الخلف. عندما وصل السائق الذي لا يدري بما حدث إلى منزل الطبيب عجز عن تفسير غياب راكبه السليم، واكتشف جثمان السيدة أندريدج راقداً في عربته.

هكذا اضطرَّ دانييل إلى السفر إلى بوردو في ذلك الجو المريع. عندما عاد كان مصابًا بالبرد والكحة، وظل مريضًا باقي الشتاء. حالما تحسّنت صحته

أخبرنا طبيبه أن عليه مغادرة لندن بضعة أسابيع. لهذا جئت إلى تريسانت مع ريتشارد كي أجهّز المنزل. كان عليّ التأكد أن الغرف والأسرة مُهيأة لاستقبال الزوّار، لأن تريسانت لم يعد كما كان.

8

كان في موت جاستن خرقٌ للمعتاد في عائلة جايلورد. فعلى امتداد تاريخ العائلة الطويل خَلَفَ وريثٌ ذَكَرٌ وريثاً ذَكَراً آخر. كان منهم الصالح والطالح، والمنعزل عن العالم والمنخرط في خدمته. عَبَرَ بعضهم الحدود للقتال في الحروب، ولزم بعضهم الوطن يرعون أراضيهـم. منهم من التحق بالسلك القضائي، ومنهم من لم يغادر كورنوال قط. لكنهم جميعاً، مع اختلاف طباعهم وأفعالهم، أنجبوا أبناءً يخلفونهم. ربما كان جاستن لينجب ابناً من لوسي إيفانز لو لم يسبقه إدي رودا إلى ذلك.

الآن كانت سالي تدير تريسانت. عاد المنزل الذي بُنيَ لعيش حياة الرفاهية إلى الجمود بعد رحيل جاستن، وتولّى العناية بشؤونه خادم واحد وزوجته. أمّا الإقطاعية الزراعية فقد حافظت سالي على نظامها. كانت حازمة في إدارتها مثل والدها. وحرصتُ على ألا يهمل السيد مريمان، وكيل الأعمال، حجراً مُتصدّعاً، أو بوابة مرتخية، أو بلاطة متخلخلة، أو مصرف مياه مسدود. لكنها باعت منزل ميدان بورتمان وصرفت طاقم الخدم الكبير الذي وظّفه جاستن.

قالت: «لقد أصبحتُ أحمل ذلك اللقب البغيض «مالكة الأرض»، لكنني بالطبع مالكة الأرض الغائبة».

وامتزج في كلماتها الهزل والانزعاج. نظرنا عبر نوافذ «التجمّع» إلى زقاق «جريبيرد»، الذي تخنقه الحرارة في ظهيرة يومٍ صيفيٍّ. جلست النساء على عتبات أبواب بيوتهن، أو في كراسي سحبنها إلى الخارج. رقد بعض الكلاب في الظل تلهث. وقفز الأطفال متكاسلين على قدم واحدة من مربع إلى آخر رُسم على الأرض بالطباشير. كانت سالي المالكة الغائبة لتريسانت، ودانيل المالك الغائب لذلك الزقاق، لكن الحاليين اختلفا. إن إقطاعية تريسانت التي

لا تتضمن المنزل والأرض الزراعية فقط، بل الكثير من الأموال المُستثمرة والعقارات الحضريّة النفيسة التي يقع معظمها في لندن، قد زادت سالي ثراءً. أمّا زقاق «جريبيرد» فقد استنزف أموال دانييل استنزافاً متواصلًا.

كنا جالستين فيما يُدعى «غرفة الراحة»، الواسعة بعض الشيء، والمؤثّثة بمقاعد خوصيّة مريحة. اكتست أرضيتها بألواح خشبية مُصنّفة. وكانت المجلات الموضوعة على الطاولات، المُوزّعة هنا وهناك، تهدف إلى التثقيف. لقد أُتيح لجميع نساء الزقاق المجيء إلى هنا لنيل بعض الراحة. زُوّد المكان بمهود حيث يمكن للأمهات ترك أطفالهن إن اضطررن إلى الخروج للتسوق أو العمل. وكانت الجدران زرقاء باهتة كأنها نُظّفت بحليب مقشود.

عبر الباب المفتوح بلغ سمعنا صوتٌ حادًّا. أدركت أنه صوت دوللي ديورست الذي ازداد حدة بمرور الأعوام.

قالت: «يا جاييلورد! يوجد ما لا يقل عن خمس نساء جالسات في الزقاق! ألا يجب دعوتهن إلى غرفة الراحة؟».

ابتسمت سالي لي وهتفت قائلة: «حسنًا يا حضرة المدير».

وخرجنا معًا إلى الزقاق.

منذ بضعة أشهر أصبحت دوللي ديورست مديرة «التجمّع»، وهي امرأة لا تتولى أمرًا دون البدء في إصلاحه على الفور. أوضحت أن الرغبة في الإصلاح دون سعي لتحقيقه لا تؤدي إلى شيء. قالت إن على فريق عمل «التجمّع» أن يتعلموا من اليسوعيين التنظيم والانضباط. وكانت الخطوة الأولى التي اتخذتها لتحقيق الإصلاح هي عدم استخدام الأسماء الأولى في الحديث. ستُدعى «المديرة» وسيُنَادى باقي أعضاء فريق العمل بألقابهم. وبدلًا من انتظار مجيء الضيوف إلى «التجمّع»، قررت أن عليهم الذهاب لإحضارهم.

قصدت أنا وسالي الزقاق. نهض كلب كسلان وتشمّم أقدامنا. ابتسم الأطفال لسالي خجلين. ثم أتى أحدهم إلينا وقال: «أعطينا بنسًا يا آنسة».

أجابته سالي: «تعلم جيدًا كيف يمكنك أن تكسب بنسًا يا توم، أليس كذلك؟».

- لكنني لا أملك مُلمعًا للأحذية يا آنسة.

- تعلم ماذا قد تقول المديرية حول هذا الأمر، أليس كذلك؟

عبس توم وقال: «تلك اللعينة!».

وانطلق إلى أحد المنازل.

قالت سالي: «نحن نحاول تطبيق نظام المُحفّزات والمكافآت. من ينجح من الأولاد في الحفاظ على حذائه نظيفًا - إن كان يمتلك واحدًا - يحصل على بنس في الأسبوع. ولمن لا يملك مُلمّعًا للأحذية تقول المديرية إن البصاق وقطعة من القماش يلبّيان الحاجة. (بدا في صوتها فتور الهمة على غير عادتها إذ أردفت) وهناك أحواض النوافذ».

كان مظهرها من التواضع بحيث إنني لم ألحظها. لكن الفضول الآن دفعني إلى النظر إلى الأعلى. فرأيت أحواضًا مُتفرّقة على حافّات نوافذ الغرف العلوية.

قلت: «لكن لا توجد زهور في أي منها!».

- هذا لأن الهدف منها ليس زراعة الزهور، بل تعليم قاطني الزقاق فوائد تناول الخضراوات الطازجة.

نظرت إلى الأحواض مجددًا وانتبهت إلى أنها تحتوي على بعض الخس وعيدان البقدونس الذابلة تُكدّر رؤيتها النفوس، باستثناء حوض واحد حيث زُرع نبات الكبوسين المُزدهر.

قلت: «وحده السيد كوجان يخرق القواعد. انظري! هناك نحلة!».

كانت نحلة كبيرة مكسوّة بالزغب تطير أسفل نافذته، تطنّ وهي تنتقل من زهرة إلى أخرى.

نظرت إليها سالي مشدوهة وقالت: «لم أرَ نحلة في هذا الزقاق قط!».

وقفنا نتأملها مسرورتين كأننا نشهد زيارة ملاكٍ إلى زقاق «جريبيرد». في هدوء الظهيرة الحارّة سمعنا أزيز أجنحتها، وهي مُعلّقة في الهواء أمام الزهور قبل أن تنغمس في رحيقها. بدا وكأنها تُعبّق الزقاق برائحة حقول البرسيم. كانت بهيجة لا تعي كم البؤس والقذارة في البقعة التي اخترقتها. حتى في تشيلسي كان ظهور النحل غير معتاد، أمّا هنا فشابه الأمر معجزة.

بينما نشاهدها انتبهت إلى صوتٍ خافتٍ خلفي. التفتُ فإذا الصبي توم يقترب خلسةً وفي يده ما يشبه سلاحًا.

- سالي، انظري! ما الذي ينوي فعله؟

- اترك هذا الشيء! لقد أنذرتك بشأنه من قبل. ضعه أرضًا!

لكن الصبي لم يُطعها. عند سماعه أمرها علا الاستياء وجهه ذا الملامح الحادّة. ورأيت إصبعه تضغط الزناد. كان يمسك بندقية هوائية؛ محض لعبة تطلق بضع رصاصات صغيرة صوتها خافت جدًا. ورغم فرصة نجاحها الضئيلة فقد أصابت هدفها الصغير. استدرنا حالما ضغط الزناد لنجد النحلة راقدة على ظهرها، انكسر أحد أجنحتها، وأقدامها تقبض على الهواء.

مرّ بنا توم سريعًا، دهس النحلة، ثم قال: «إنها تلسع، فهمت؟ لقد أنقذتكما منها. وحذائي نظيف بما يكفي رغم ما فعلت، انظري؟ أستحق بنسًا».

أمسكت سالي بذراعي قائلة: «هيا نعود إلى الداخل. أنا أشعر بالغثيان». عندما دخلنا غرفة الراحة ارتمت في مقعد. لقد أثّر بها ذلك التصرف الوحشي عميقًا. كان القشّة الأخيرة التي قصمت ظهرها بعدما تكبّدت مثله الكثير.

قلت: «سأجلب لك كوبًا من الشاي يا سالي».

كانت تسترخي في مقعدها ويدها الخشتتان الملطّختان في حجر تنورتها الرسميّة. لم تعد ترتدي المتاح من الثياب القديمة، بل زيًّا رسميًا. كانت التنورة رماديّة من القماش الناعم، ذات شريط أحمر يُحدّد حافة جيبيها. أما تنورة المديرّة فسوداء شريطها أزرق.

عندما عدت بكوب الشاي لم تكن سالي وحدها. وجدتُ معها امرأة هزيلة كريهة لا شك أنها والدّة توم. بدت أسنانها الصفراء إذ تقول بحدّة: «سمعتكِ تصيحين على توم، لكنني لا أسمح بذلك. لن نتلقى الأوامر من أمثالك. لدينا الحق في فعل ما يحلو لنا، فهمتِ؟».

كانت تذرّع الغرفة ذهابًا وإيابًا يدها على خاصرتها. لكن سالي لم تنهض من مقعدها. كانت عيناها مغمضتين ولم تقاطع جعجعة المرأة، التي

بدا كأنها تُحدِّث الهواء. لهذا احتدم غضبها قائلة: «يجب أن تنهضي عندما يتحدث أحدهم إليك وأن تمنحيه انتباهك بدلاً من الجلوس وكأنك الملكة». وخطت إلى الأمام عازمةً على أن تنهض سالي. وضعت كوب الشاي ووقفت أحول بينهما.

قلت: «الآنسة جايلورد متوعدة. إن الجو حارٌّ».

بالغت في تقليدي قائلة: «إن الجو حارٌّ!». ألا نحتمل جميعاً الحرارة كل عام في هذه الحفرة اللعينة؟».

- هذا ما تفعله الآنسة جايلورد أيضاً.

- توقفي عن الكلام! من الذي يخاطبك؟ يمكنها رفع مؤخرتها عن هذا المقعد والتحدث إليّ كما يجب، أليس كذلك؟

- نعم، لا يمكنها فعل هذا الآن. يجدر بك المغادرة وأن تدعيها وشأنها.

- تقولين أغادر؟ ها قد عادت الأوامر! وحان دورك في إلقائها الآن! من تظنون أنفسكم أيها اللعناء لتأتوا إلى هنا بأوامركم؟ يا ربّي! من طلب رأيك؟

دخلت دوللي ديورست الغرفة. كانت تمسك بقلم رصاص نقرت به على طاولة كأنها رئيس شركة يعيد النظام إلى اجتماع.

- ما سبب هذه الجلبة؟ ما الذي يحدث هنا؟ تحدّثي أولاً يا سيدة دروموند.

- ها هو المزيد من الأوامر اللعينة! «تحدّثي أولاً يا سيدة دروموند!».

عادت إلى التقليد الكريه، لكن ثقتها الآن تزعزعت. لقد نظرت إليها دوللي بجمود وقالت: «أجل، تحدّثي أولاً. وإليك أمر آخر: لا تستخدمِي هذه اللغة عند مخاطبتي».

ألقت عليها المرأة نظرة جانبية وشبكت ذراعيها النحيلتين إزاء مئزرها الخشن، ثم قالت: «لن أخبركِ بشيء، فهمتِ؟».

- حسناً، اجلسي إذن ولنسمع غيركِ. ماذا حدث يا جايلورد؟

فتحت سالي عينيْن امتزجت فيهما الحكمة والإرهاق، كأنها ترى دوللي للمرة الأولى.

قالت: «لن تفهمي».

- سأحاول. إن دوري هنا هو فهم ما يجري. لقد وقع خلافٌ حادٌ بينكِ أنتِ والسيدة. أريد أن أعلم سبب وقوعه كي أصلح بينكما.

- لماذا تدعينها السيدة دروموند وتدعينني جايلورد؟

- لأنكِ واحدة من فريقتي.

- هراء! أنتِ تثيرين نفوري.

رغم أنني أعلم أن سالي تمرُّ بوقتٍ عصيبٍ فقد فاجأني جوابها. غزت حمرة الغضب وجه دوللي، وبدأ أن السيدة دروموند تتسلَّى بما يحدث حتى إنها خاطبت دوللي قائلة: «أجل، هراء! هيا أسمعينا هراءكِ مجددًا».

- انهضي يا جايلورد. انهضي كي تعتذري.

أغلقت سالي عينيها فتقدّمت دوللي نحوها مثلما فعلت السيدة دروموند قبل لحظات. لكن الأخيرة هي من تدخّلت للفصل بينهما هذه المرة.

كشّرت عن أنيابها الصفراء ووقفت تزود عن سالي قائلة: «إن لمستِها بيديك فسأقتلع عينيك».

كانت إحدى مميزات دوللي أنها لا تخشى أحدًا. حطّت إلى الأمام، ووضعت يدها على كتف السيدة دروموند تحاول أن تنحّيها جانبًا. فانقضّت المرأة النحيلة الشرسة على رسغها بأسنانها، وأمسكت بشعرها تُشعّته حتى انسدل على كتفيها.

ثم أخذت تهزُّ رأسها وهي تقول لاهثة: «ستُبعدين يدك عنها، فهمت؟ فهي أفضل منكِ بعشر مرّات. إنها تُحسن معاملتنا وترانا بشرًا. سأقتلع عينيك لقد حذرتكِ».

لحظتُ أن المرأة عازمة حقًا على تنفيذ وعيدها. كانت تسحب أصابعها المتشبّثة بشعر دوللي تجاه وجهها وتُحرّك إبهاميهما نحو عينيها. انتابني ذهول وفزع شديدان بحيث لم أستطع سوى الجمود في مكاني، كأني أشاهد قاقمًا يعضُّ عنق أرنب.

نفض شجارُهما الخمولَ عن سالي. ولأنها أمضت وقتًا طويلًا في زقاق «جريبيرد» فقد أدركت أين يكمن مصدر الخطر. نهضتُ، أخذتُ خطوة إلى

الأمم، وصفعت السيدة دروموند صفعةً قويَّةً دوَّت في الغرفة كأنها طلقة نارية. هَوَّت يدا السيدة دروموند على جانبيها. ارتمت في مقعد، وشرعت في النحيب تخفي عينيها بمئزرها الخشن. ألقت سالي على كل منهما نظرة ملؤها النفور، وغادرت الغرفة.

تبعَتْها إلى العليَّة حيث اعتادت النوم. لقد تلاشت الطاقة التي تبدَّت في صفعتها. كانت شاحبة وسقيمة، قد سئمت كل شيء. لكنها لم تسترح. سحبت حقيبة سفر قديمة من أسفل السرير، وأخذت تملؤها بممتلكاتها القليلة كيفما اتفق. جلستُ على السرير ذي الإطار الحديدي، ونقَلْتُ نظري في الغرفة التي حظيت فيها سالي ببعض الخصوصية منذ أعوام. كانت أرضيتها عارية وحوائطها مُكسَّسة. لا أثاث بها سوى السرير، وخزانة ذات أدراج تُباع بثمان بخس في متاجر الأثاث المُستعمل، وكرسي خشبي. رأيت صورة لجاستن تستند إلى بضعة كتب فوق الخزانة، بجوارها عُلبة مبيد للحشرات. تضمنت الكتب الكتاب المُقدَّس، و«رحلة الحاج»، وبعض خُطب الواعظ تشارلز سبورجون، وعدداً من روايات ماجي ويل. عندما جثت سالي تضع أغراضها في الحقيبة واجهني رأسها. وفي ضوء الظهيرة القاسية، حيث يتلظى ذلك الجُحر أسفل سطح الأرذواز، لحظت كم شابت. لم أرَ بضع شعرات رمادية فقط كما كان حالها في حفل جاستن. لقد بدت كهلة. أدركت أنها الآن بلغت نهاية رحلة، وقريباً ستبدأ رحلة جديدة لا شك. لكنني لم أستطع أن أحزُر أي وجهة ستقصد. تذكرتُ سالي الطفلة التي أطلقت الصفير لفتى القصاب في ميدان بورتمان؛ التي أسعدت دوكات عندما سألتها عن اسم فرسه؛ التي أجادت ركوب الخيل والسباحة في تريسانت، وثملت معي في كهف إدي رودا؛ والتي قادها حبها للبشر، باندفاع في البداية ثم عن روية، إلى مشاركتها دوللي ديورست الطريق نفسه. من بين جميع أفراد عائلة جايلورد الذين قابلتهم، أو قرأت عنهم، كانت سالي أقربهم إلى قلبي. والآن بعدما خلعتِ القميص والتنورة وألقت بهما على السرير، تقف في ثيابها التحتية، بدت امرأة تتقدم في العمر بسرعة ولا تولي نفسها العناية اللازمة.

تحدثت للمرة الأولى منذ أن جئنا إلى غرفة الراحة قائلة: «لقد تخلصت منه حمداً للرب! إن الأزياء الرسميَّة لا تروقني. (ارتدت قميصاً وتنورة سوداوين

وأردفت) لقد أمضيت حياة سعيدة في تلك الغرفة الصغيرة. (ثم قبّلتنني وقالت) يسعدني وجودك هنا في نهاية هذه الرحلة. أنا جاهزة الآن، لكن هل يمكنك الخروج لحظات وانتظاري عند عتبة الباب؟».

أطعتها وأغلقت الباب برفق. لم أكن بحاجة إلى أن تخبرني سالي لم رغبت في الانفراد بنفسها. لقد جئت بجوار السرير تحمّد الرب على السعادة التي عاشتها في تلك المساحة، وتساءله أن يرشدها في خطواتها التالية. كانت من أبناء عائلة جايلورد، ويومًا ما سترقد مع باقي أفراد العائلة في قبور الكنيسة الرطبة، حيث يمتدّ سكون لا يقطعه سوى حفيف الأغصان وزقزقة الطيور، ولن تحظى بأيّ تمجيد. لكن الآن، بعدما فارقت سالي الحياة بالفعل، أشهد على طيب حياتها الملهمة إذ أتذكر تلك اللحظة تحديدًا: عندما وقفتُ على مُنبَسَط الدرج وهي جاثية بداخل غرفتها بجوار حقيبتها، حيث وضعتُ علبة مبيد الحشرات خاصتها.

الفصل الخامس عشر

1

سأُسلّم هذه الصفحات إلى جوليان ريمل عندما أنتهي من كتابتها، ولن أشعر أنني أثقل عليه فهو مدين لي بمعروف.

لقد أخبرني قبل فترة ليست بالطويلة: «أتعلمين يا عمتي العزيزة؟ إن زيارتي الأولى إلى تريسانت هي ما حدّد مسار حياتي».

إن جوليان يميل إلى المبالغة ويتفوه بعبارات من هذا القبيل؛ ليست صحيحة تمامًا، لكنها تتضمن بعض الحقيقة بحيث يصعب تكذيبها. وبالطبع اختلف الأثر الذي تركته تريسانت فيه عن أثرها فيّ حينما ذهبت إليها طفلةً.

عندما قدّمت عائلة ريمل مع دانييل رأيتهم ثلاثيًا غريب المظهر. لم أكن قد قابلت منهم سوى سباستيان، لكن تلك المقابلات القليلة حدثت قبل زمن طويل لهذا نسيت هيئته. والآن رأيتَه رجلًا برجوازيًا أوشك أن يبلغ الأربعين، مكتنز الجسد يبدو جادًا ومسؤولًا. شعره قصير وشاربه مُشدّب وكلاهما رماديّان. لقد كوّنْتُ صورة عنه من أحاديث دانييل. علمت أنه بعد أعوام من الاهتمام الشديد بالعمل والانتباه الدقيق إلى مصروفات البيت، أصبح شريكًا في ملكية شركة النقل البحري، التي بدأ العمل فيها في شبابه. لقد سنحت أمام سباستيان الفرصة لاتخاذ تلك الخطوة قبل بضعة أعوام، وقد اغتنمها

بجسارة باذلاً كل بنس يملكه واضطُرَّ إلى اقتراض المال. منذ ذلك الحين أصبح لتسديد ذلك القرض الأولوية القصوى في حياة عائلة ريمل. لم تغفل ماري عن هذه الأولوية عند ذهابها إلى السوق لشراء الخضراوات، أو شراء حذاء جديد لجوليان. وتذكَّرتها جيداً عندما قرَّرت عدم شراء قبعة جديدة لنفسها أو ملاءة جديدة للسريِر. لقد عاشوا في ذلك العناء عشرة أعوام. ورغم أنه انتهى فإن العادة التي شكَّلتها استمرت. لهذا دائماً ما لُحِظَ حرص الزوجين ريمل الشديد على المال، وكأنه قطيع من طيور السلوى يجب الاقتراب منها بحذر خشية أن تُحَلَّقَ بعيداً. لقد حكى لي دانيِل واقعة غريبة تُبرِز عاداتهما تلك. رغم ضآلة المبلغ الذي تركه السيد والسيدة أندريدج بعد رحيلهما المأساوي، فإنه أعان الزوجين ريمل على تسديد قسم كبير من دينهما، لكنه لم يكف ليُسَقِط عبئه كله عن كاهليهما. على أن الزوجين الراحلين تركا أيضاً قلة من الممتلكات الشخصية: أورتا ماري بضع قطع من المجوهرات، وأهديا سباستيان ساعة السيد أندريدج الذهبية. لقد أوضحا وهما على قيد الحياة أنهما يودَّان أن تظل تلك الأغراض تذكارات، لكن الزوجين ريمل باعاهما. هكذا وفَّرا باقي المبلغ اللازم لسداد الدَّين وحانت اللحظة التي تحدَّثا عنها طويلاً. طالما قالوا إنهما سيحتفلان بها. قد يذهبان إلى المسرح وبعدها يتناولان العشاء في الخارج. وربما بعد ذلك سيسافرون جميعاً في عُطلة. لكنهما بينما يعيشان تلك اللحظة تبادلا النظرات، وأدرك كل منهما أن الآخر يتهيَّب البذخ. لهذا لم يقيما أي احتفال. لزم المنزل يتأملان حالهما سعيدين بعد انزياح العبء الثقيل. ألم يكن واضحاً، بعد سداد الدين، أن حسن التدبير يقتضي ادِّخار المال بدلاً من الترف؟

لقد دارت هذه الأفكار في ذهني عندما نظرت إلى وجه ماري وأنا في محطة القطار أستقبل العائلة. مع أن والدها إنجليزي فإنها لم تسافر خارج فرنسا قط ونادراً ما غادرت بوردو. كانت إنجليزيتها ممتازة لكنَّها ذات لُكنة فرنسية. بدت زوجة فرنسية تقليدية من الطبقة المتوسطة: قصيرة مكتنزة الجسد بعض الشيء، سمراء البشرة، يعلو بعض الزغب شفتها العليا.

ارتدى الزوجان ريمل ثياب المدينة قديمة الطراز، التي لم يُبدِّلها طوال عُطلتها معنا ولا تلاثم ريف كورنوال الربيعي. وقد تنافر مظهر ابنهما

جوليان تنافراً شديداً مع مظهرهما، مثله مثل السياجات النباتية وجميع المناظر الريفية. لم أقابل طفلاً لا يناسبه قياس ملابسه بهذا القدر قط. كان مظهر زوج من أحذية رقص الباليه موضوعاً بين زوج من القباقيب ليبدو أكثر تناغمًا. إن جوليان طويل القامة قياساً إلى عمره، نحيل، أسمر البشرة، وخصلات شعره مجعّدة طليقة. كثير الحركة وفضولي. يستفسر حول كل شيء يصادفه. لقد علمت في ما بعد أن والد سباستيان ريمل، الذي امتلك مدرسة خاصة صغيرة، تزوج بفتاة يهودية جميلة أجادت عزف البيانو وعملت معلّمة للموسيقى. لم يحظ سباستيان بشيء من جمال والدته أو حسنها الموسيقي الرفيع. لكن هاتين الصفتين لا شك كُمنتا في موضع ما بداخله، لأنهما برزتا في طبع جوليان حفيد السيد أندريج الكبير.

2

لقد قلت إنَّ الأثر الذي تركته تريسانت في نفسي وأنا طفلة يختلف عن أثرها في جوليان. وتبدّى هذا على الأكثر في تجواله في المنزل. لقد استأثرت الغابة والحقول، في نظري، بالبهاء كله. أمّا جوليان ففتنه المنزل. لقد وصف لي دانييل بيت عائلة ريمل في بوردو. علمت أنه كان نظيفاً يفوح برائحة مُلّع شمع النحل، مُطهّراً ومنفّراً كأنه غرفة انتظار في مستشفى. ولأنني الآن أعرف جوليان جيداً فإنني أتفهم كم أثقل منزله روحه، وكيف أنه في تريسانت، إذ أُطلق سراحه، تحرّرت سجيّته مثل عفريت العُلبة؛ عفريت لم يعرف حتى ذلك الحين كم أن العالم خارج عُلبته رائع. لقد عقَد المكانُ لسانَ الصبي الثرثار. كنت أجده يقف أمام الحوائط جاداً هادئاً يتأمل المنسوجات الجدارية. يمرُّ يده فوق إحدى المنحوتات. يقف على مسافة من اللوحات الشخصية لأفراد عائلة جايلورد مأخوذاً بألوانها المتألّقة. أو يُمسك بمشغولات فضية يتفحصها.

لقد أثرى المكان بصره. بعدما باعت سالي منزل ميدان بورتمان نُقلت جميع الأغراض التي تراكمت هناك إلى الأغراض التي تراكمت هنا. لهذا أصبح المنزل يشبه متحفاً لم نشغل سوى قلة من غرفه. طاف جوليان في

الباقى منها حيث غطت اللوحات الحوائط. وجب عليه أن يتقدّم بحذر وسط المناضد على الطراز التيودوريّ، والمقاعد على الطراز اليعقوبيّ، والخزانات ذات الأدراج على طراز الملكة آن، والمرايا التي ابتكرها توماس تشبنديل على الطراز الصينيّ. وأينما ينظر يجد ما يجعله يتمتم بعذوبة: «c'est beau!». كنت أسأله بقدر ما أعرف من الفرنسية: «لم لا تخرج إلى الهواء المنعش؟». فيجيبني بالفرنسية وهو يُلَوِّح بيده مستغرّقاً في تأمّله: «بعد قليل يا عمّتي العزيزة، بعد قليل».

3

اعتاد دانييل أن يصطحب ريتشارد وجوليان في نزهات سيرٍ طويل. لهذا أمضيت كثيراً من الوقت مع سباستيان وماري. كنت أودُّ أن نخرج جميعاً معاً، لكن الزوجين ريمل لم يعتادا التريُّض ولم أستطع تركهما وحدهما. على أن وجود البحيرة خفّف من وطأة تلك الأوقات المضجّرة. لقد راق سباستيان الصيد في المياه الراكدة كفرنسيّ حقيقيّ. لهذا كنا نجهّز سلّة الغذاء، نستقلُّ زورقاً، ونجذّف في البحيرة. تفضّل سباستيان بالإقرار بأنه في عطلة، إذ اعتمر قبعة قشّيّة كبيرة فقط، ولم يخلع هو أو ماري ثيابهما السوداء. أظن أنها زهدت العطلات واشتاقت إلى منزلها في بوردو حيث تؤدي مهامها المعتادة. كانت قليلة الكلام. إن حاولتُ من حين إلى آخر حثّها على الحديث فإن سباستيان، الذي يحدّق عابساً إلى غمّاز الصيد الملوّن بالأخضر والأبيض، يهمس لنا أن نصمت وكأن كلماتنا ستخترق المياه وستخيف قاطنيها. أحياناً كان يرمي بالصنارة بقوة ويُخرج شصاً بلا صيد. فيُلقي نظرة حادّة على ماري وكأنه يتساءل كيف يمكن لصيادٍ أن يغنم في مركبة تثرثر فيها النساء. عندئذٍ ترميني ماري بالنظرة نفسها فألزم الصمت، وبالكاد أجروّ على التنفس فيما الزورق يتهادى فوق السحب المُنعكسة على سطح البحيرة. لكن بين الفينة والأخرى تخرج سمكة صغيرة تعيسة الحظ تتلوّى بعد أن علقت بالشصّ. يُخلّصها منه سباستيان بأصابعه المكتنزة، ويضعها على أوراق السراخس التي بطنٌ بها سلّة الصيد. ثم تناوله ماري غلبة العجين في صمت،

يأخذ منها قطعة يُطعم بها الشَّصَّ، ويرميه في المياه. عندئذٍ يسمح لنفسه بالحديث قائلاً: «أخيراً اصطدت المزيد! هل تريانه؟!». وعندما يصطاد ما يكفي لغذاء قطيطة متوسطة الحجم نجذف إلى الضفة، نجلس على الصخور أسفل الأشجار، ونتناول غذاءنا.

لم تكن تلك العُطلة مُنعشة لي، لكنها أرَّتني كيف ينظر الزوجان ريمل إلى ابنهما جوليان. بينما نحن جالسون يُطلُّ علينا ضوء الشمس الذي يتخلَّل الأشجار، ويتوهَّج على صفحة المياه عندما تعبث بها الرياح وتصفع موجاتها الصغيرة تجاه الزورق، شرعوا في الحديث بدقَّة وحذر عن مستقبل الصبي. كان عزيزاً عليهما مثلما أصبح دَينهما بمرور الأعوام. وأحياناً تحدَّثا عن «دَينهما» كأنه صديق حميم رحل مؤخراً بعدما ساعدهما كثيراً على التزام الحيلة ووقاهما من الحماقات الماديَّة.

قالت السيدة ريمل: «أتذكر يا سباستيان اليوم الذي كدت فيه أستسلم لإغراء شراء الستائر المطرَّزة عند بيع مدام لافيت-موري ممتلكاتها؟ يا إلهي! كان هذا خطراً وشيكاً!».

لقد بدا لي أن جوليان حلَّ محل «الدَّين الصديق». لم يكن لدى والديه فكرة واضحة عما يريدانه أن يصبح، أو عن قدراته حتى. لكن رأيهما قد قرَّ على أن «الأفضل» هو ما يستحقُّه، وأنهما يستطيعان أن يُوفِّرا له ذلك «الأفضل» عن طريق ادِّخار المال. هكذا سيتمكَّنان من نفع جوليان وتجنُّب الزلل مادياً في الوقت نفسه.

بعدما ينال الإرهاق من سباستيان جرَّاء الحديث الدقيق الحذر ورياضة الصباح الشاقَّة فإنه يتمدَّد على العشب، يغطِّي وجهه بقبعته، وسرعان ما يغطُّ في النوم غطيّاً خافتاً. عندئذٍ، إن جرؤْتُ على الحديث، يحين دور ماري في أن تهمس لي أن أصمت وهي تشير إلى اللورد الغافي. فأبتعد قليلاً وأستغرق في أفكاري. وبطرف عيني أرى ماري تمسك بمحرمة مُتأهِّبةً للترويج بها إن جرؤَ الذباب على الاقتراب من سباستيان.

قبل بضعة أيام ذهبت إلى معرض «ريميل» في شارع بوند، والآن سيَتَّضح ما قصده جوليان عندما قال إن زيارته تريسانت حدّدت مساره المهنيّ. لقد حلّت الحُفّرات والمغارات والأنفاق محل المتاجر في ذلك الشارع. وزحفت إليه الحشائش مثل جيش احتلال مُتأهّب، إن مُنح الفرصة، لأن يشغل المكان إلى الأبد. لم يحتوِ المعرض على الكثير. لقد أُرسل كل نفيس إلى مكان آخر. لكن جوليان أبقى عددًا من الأغراض الثانويّة كي تدعم رأيه القائل إن الحرب لن تُغلِق مكانًا شهيرًا مثل ذلك.

لا يزال يعيش في شقّته أعلى المعرض. على رفّ المدفأة رأيت البلاطة الخزفية على الطراز الإسباني-الموريسكي، التي منحتها إياها منذ زمن بعيد. حينئذٍ لم يكن أيّ منا يدرك قيمة البلاطة المُلقاة في إحدى زوايا الغرفة المُكدّسة. لقد التقطها، نظّفها، وفتنه لمعانها. ولأنني رغبت في أن يأخذ معه غرضًا يذكّره بزيارة سرّته فقد أهديتها إليه.

دائمًا ما شعرت بالفخر عند الظهور مع جوليان أمام المجتمع، وبالسرور عندما أجلس معه على حدة. إنه طويل القامة يمتاز برفعة السلوك. ثيابه رسميّة كلاسيكيّة. يلمع شعر رأسه وشاربه وذقنه الذين خطّهما الشيب، ويُبرز سواد حاجبيه وقارهم. تتأرجح النظارة أحادية العدسة الفاخرة إزاء قميصه الحريريّ الناعم، التي لا يستخدمها إلا في تدقيق النظر إلى تحفة أو لوحة. لقد شكّلت خصاله ومظهره «أدوات» أتقن استغلالها وكأنه نجم سينمائيّ بارع.

قصد جوليان مطبخه كي يعد لنا القهوة. خلال الأيام القليلة الماضية كنت أكتب في هذا السّجل عن الفترة التي زار فيها تريسانت للمرة الأولى، وأردت التحدث إليه حول الأمر. وضع كوبي القهوة على الطاولة وأضاف إلى كل منهما ملء ملعقة من البراندي.

قال: «هذا الشراب غرض آخر أنقذته من بين الخراب يا عمّتي العزيزة. (رفع الزجاجاة ينظر إليها في الضوء وأردف أسفًا) لكنها لا تدوم مثل الأغراض الأخرى التي حزتها. لقد عشتُ حياة غريبة».

- لكنك عشتها كما أردت.
- أجل، أظن ذلك. قد أبالغ في النُّبل وأقول إنني أفضّل لو كنت من رسم إحدى لوحات فان جوخ، حتى إن ترتّب على هذا أن أعاني ضيق العيش، على أن أبيع خمسين لوحةً جمعتها من أعماله مقابل مبلغ هائل. لكن هذا القول يظلُّ افتراضاً. مع ذلك فإن من الغريب ألا يملك المرء سوى حسّه، أن يجوب العالم يُنقّب عن التحف التي ابتكرها الآخرون، دون أن يتمتّع بأي موهبة مثل النجارة أو رسم اللافئات حتى.
- أنت تتمتّع بمهارة رائعة تُدعى تذوق الجمال. وماذا تعني بأنك لا تملك سوى الحسّ؟ إن هذا العالم يزداد ابتذالاً بمرور الوقت. ومن يتمتّعون بالحسّ الرفيع لا ينزلقون إلى الهمجية التي تُغرّقه. إن لم يكن باستطاعتك صنع الأعلام فإن في حفاظك عليها قدرًا من الأهمية.
- دائماً ما في تنجحين في قول الكلمات الحكيمة التي تمد بالراحة.
- إنني أبادل راحة بأخرى. فأنت ممن يريحني الحديث معهم. على أنه لم يعد يوجد الكثيرون حولي، مريحون كانوا أو غير ذلك.
- أجل، هذا ما أشعر به الآن. إن أوراق الأشجار في تساقط.
- كم عمرك الآن يا جوليان؟
- اسمحي لي يا عمتي العزيزة بألا أجيب هذا السؤال. قد يكون في جوابه وقاحة في حقك.
- لن يكون أكثر وقاحة من التلميح إلى أنني من الكِبَر بحيث تحظر الإشارة إلى عمري. على أي حال توجد مرحلة عندما يبلغها المرء يصبح فخوراً بطول عمره. أجبني.
- في الخامسة والستين.
- لو طال عمر ريتشارد لأصبح في العمر نفسه. قلت: «إذن أظن أن أحداث زيارتك الأولى إلى تريسانت قد انمحت من ذاكرتك».
- أجل، نسيت معظمها. لكن ما بقي منها في ذاكرتي ينبض بالحياة.
- كيف رأيت ريتشارد؟

لقد اعتدنا الصراحة في محادثتنا، بخاصة حول الأمور التي حدثت قبل زمن طويل، لهذا صارحني قائلاً: «في البداية بدا لي غريب الأطوار قليلاً. على أننا اتفقنا وعادةً ما رافقنا العم الطبيب دانييل. لكننا كدنا نتشاجر مرة واحدة فقط».

- لم أدر بهذا الأمر قط. أخبرني به.
- أولاً، دعيني أملأ كوبك مجدداً. (ضحى بالمزيد من البراندي) الليلة سأقابل أحد رجال المقاومة الفرنسية خلال الحرب العالمية الثانية. لقد وعدني بزجاجة شراب «أرمنياك».
أشعل سيجاراً، تأمل دخانه بضع لحظات، ثم قال: «لنأخذ خطوة صغيرة إلى الخلف قدرها ستة عقود، لنقف أمام باب كنيسة».

5

لم يستطع العمُّ الطبيب دانييل أن يرافق الصبيين طوال الوقت. لقد واصل العمل في منزل تريسانت، ومن حين إلى آخر وجب عليهما ابتكار وسائل تسليتهما. أخرج ريتشارد صندوق خاله جاستن. وسرد القصة المذهلة التي أُلِّفها عن محتوياته. استمع جوليان إليها بتعجب دون حماس. لم يستطع التأكد من صحتها. اشمأز من الورقة المُغضَّنة المُلطَّخة بالدماء. ولم تجتذب محتويات الصندوق نظره أو تُثّر عقله. لا شك أن محادثتهما كانت عجيبة في غياب دانييل المترجم الفوري. فريتشارد لا يتحدث الفرنسية، وتردّد جوليان في الحديث بالإنجليزية التي تعلّمها من أمه وقلّمًا يمارسها.

تركت قصة ريتشارد أثراً باهتاً في مُستمِعه الوحيد ما أحبطه، فاقترح أن يخرجوا للتنزه في الإقطاعية. تجوّلوا هنا وهناك في الصباح الربيعي، حتى وصلا إلى فناء الكنيسة. كانت على حالها المعتاد: ساكنة وموحشة، حولها تغرّد الطيور على الأشجار التي اخضرّت أوراقها وسط الحزاز الرمادي.

قال ريتشارد: «يجب أن ترى قبور أجدادي»، لكن جوليان لم يجتز باب الكنيسة.

لا يزال الباب نفسه ينتصب هناك بعد ستين عاماً من ذلك الصباح حيث وقف الصبيان أمامه، ولا أحد يدري منذ متى يقوم في مكانه قبل ذلك اليوم. إنَّ مصراعيه لوحان من البلوط؛ مجرد قطعة من الخشب. لكنه يتَّسم ببهاء من نوع فريد يتعذر وصفه، وكأنه موسوعة لتاريخ الطبيعة في المنطقة على مرَّ القرون. لم يصقل أحد ذلك الباب أو يُلَمِّعه قط. منذ أن طَعَّمه الحدَّاد بالمشغولات الحديدية البديعة لم تمسَّه سوى يد الزمن، التي زادت تناعماً مع الحجارة والحزاز الذي يكسو الأشجار حوله، مثله مثل الكنيسة نفسها. كان طرازه العتيق قروياً، وقد اتَّسم بالحكمة والجمال اللذين تزدان بهما وجوه العجائز في الريف.

لا يلحظ مثل هذه التفاصيل في ذلك الباب سوى من يستطيعون الشعور بها، مثل جوليان. لم يكن قد درس شيئاً عن الفنون، لكنه امتلك حسّاً رفيعاً ستُصقله المعرفة فيما بعد. لهذا ثبت في مكانه أمام لَوْحي البلوط بعدما دخل ريتشارد الكنيسة. في ذلك اليوم سطع ضوء الشمس على الباب. مرَّ جوليان يده على خشبه الدافئ وعلى حديد مفصلاته، وخلص إلى أنه لم يرَ في تريسانت ما يعادله جمالاً.

عاد خطوةً إلى الوراء، وجلس على بلاط قبر يتأمل الباب في انتظار ريتشارد، الذي أتى أخيراً ليسأله بجدية: «ألا تريد أن ترى مقبرتنا؟».

- لا أريد الدخول هناك أبداً.

- كان أحد أجدادي من الأبطال الصليبيين.

- يا إلهي! أنت مفتون بأجدادك!

- هل لديك أجداد أبطال؟

- من المؤكد أننا ننحدر من آدم وحواء، لكن السجلات منذ ذلك الحين إلى الآن مفقودة مع الأسف.

- هذا يعني أنك لا تمتلك أيّاً منهم.

قال جوليان بفضاظة: «اصمت! انظر إلى هذا الباب. أنا أحقق إليه منذ نصف ساعة!».

- ماذا به؟

- ألا تراه جميلًا؟

اقترب ريتشارد إلى الباب، ركله وقال: «إنه متين».

- بالطبع هو كذلك. وسيظل قائمًا في مكانه عندما تترقد أنت نفسك وسط أجدادك.

أخرج ريتشارد سكين الجيب وبدأ يخدش الخشب. لكنه لم يفلح في ما يفعل لأن الخشب شديد الصلابة. وفي الحال اندفع جوليان نحوه يسأله بحدة: «ماذا تفعل؟»

- سأنقش اسمي.

- رجاء لا تفعل.

- لم لا؟

شعر جوليان بأن فعلة كهذه بمنزلة ارتكاب جريمة. ليست جريمة ضد الكنيسة، بل ضد قطعة الخشب منقطعة النظير. لكنه لم يستطع تفسير شعوره وأخفق في التعبير عنه.

قال مترددًا: «لأن هذا الفعل ليس جيدًا».

أجابه ريتشارد ضاحكًا: «لا فائدة من هذا السكين. سأتي غدًا وسأجلب معي مطرقة وإزميلًا».

- لا. يجب ألا تفعل ذلك.

كانت نبرة صوته آمرة أغضبت ريتشارد، فقال: «سأفعل ما يحلو لي ولتحاول إيقافني».

تحلّى جوليان منذ طفولته بفطنة لم يمتلكها ريتشارد قط. لقد أدرك أن هوس ريتشارد الشديد نقطة ضعف يمكن التأثير فيه عن طريقها، فاستغلها قائلاً: «هذه مسألة شرف. الآن سأواجهك في قتال واحد».

كان هذا تحديًا من غير الممكن أن يرفضه ريتشارد.

قال: «حسنًا، لننتقل».

- إن ربح القتال فلن تخدش الباب؟

- أعدك بهذا وعد شرف.

لم يضعوا قواعد لذلك القتال. لم يصبح مباراة ملاكمة أو مصارعة. فقط خلعا معطفيهما، وهناك وسط شواهد القبور في فناء الكنيسة تعاركا. أمسك كل منهما بتلابيب الآخر، تبادلًا للكلمات والصفعات، وترنُّحا. حتى سقطا أرضًا لاهثين.

وضع جوليان، ذو الخمسة وستين عامًا، سيجارًا جديدًا في الحامل العاجي وأمسكه بأصابعه العاجية.

قال: «كم كنا حمقاوين! كأن النقش على ذلك الباب كان ليُشكَّل أي فارق! ربما كان سيزيده قيمةً، مثل الأسماء المنقوشة على الأخشاب في إيتون. إنها تُثري الزمان، أليس كذلك؟ ينقش الناس أسماءهم، يموتون ويتحلَّلون، ويبقى الخشب يحمل آثارهم. لكننا أخذنا الأمر على محمل الجد. لم أكن قد انخرطت في قتال من قبل. وبعده تمنيت ألا أقاتل مجددًا... ثم وجدتني في «معركة فردان»! لكن... لنعد إلى الصبيين الأحمقين. كانت توجد جرَّات من الزهور على بعض القبور ازدهر النرجس في تربتها. لكننا دهسناها وتمرَّغنا فيها مثل الثيران. لقد ربحت، لكن لا تسألني كيف حدث هذا يا عمتي العزيزة. فأنا لست خبيرًا في القتال ولا شك أنني تفوَّقت على ريتشارد مصادفةً. لقد تعثر وسقط أرضًا، فجتثت فوقه أخنقه حتى استسلم. عندئذٍ نهضت وتركته يستجمع قواه. وبينما أنتظره عادت الطيور التي أفزعناها إلى التغريد. لكننا لم نُفزع الحلزونات. لحظت حلزونًا يزحف على شاهد قبر إدي رودا الذي استلقى ريتشارد بجواره. لقد نُقش عليه أن إدي كان قبطان أعالي البحار».

- وهل أوفى ريتشارد بوعده؟

- أجل. أحيانًا أتمنى لو أنه لم يف به. لقد تمنى بشدة أن يُجاور اسمه جميع من يُجلُّهم في الكنيسة. هذه حقيقةٌ رغبته. وقد منعه من تحقيقها.

مكتبة

t.me/soramnqraa

أعدنا العائلتين أندريج وريميل إلى لندن معًا. مكثت عائلة ريميل ليلةً في منزلنا في تشيلسي. وفي صباح اليوم التالي، بعدما ذهب دانييل إلى عمله، رافقتهم إلى محطة القطار. لم تُفصح ماري عن سرورها الشديد بالعودة إلى بوردو. أمّا سباستيان قليل الكلام، الذي يرتدي بذلته البرجوازية، فقد علّق سلّة الصيد على كتفه. بدا مظهره غريبًا مثل كثير ممن نراهم على رصيف قطار دوليٍّ، غريبًا فقط في أعيننا المنعزلة. كان جوليان من أعرب في ثرثرة وغمغمٍ عن امتنانه لنا على العطلة، واستمتعاه بالزيارة، وأمله في تكرارها. أملت بدوري أن يأتوا لزيارتنا مرة أخرى، لكنني توقعت أن ماري لن ترحّب بالأمر. لقد قالت إن جوليان كاد يصبح جامحًا، وبدا واضحًا أنها تعتزم أن تُعيده إلى الانضباط.

كنا في أول مايو؛ يوم ميلادي. عندما انطلق القطار أطلّ جوليان من نافذته، وظلّ يلوّح لي حتى غاب عن الأنظار. بعد ذلك استقلّيتُ عربة أقصد «سانت جونز وُد». لقد خططت ماجي ويل للاحتفال بي باصطحابي إلى الغداء.

كنت في السابعة والثلاثين وظننت، حينئذٍ، أنني أنقذّم في العمر. لكن على الرغم من بلوغ المرء سنّ كبيرةً مثل السابعة والثلاثين فإنه يستطيع الاستمتاع بصباح مايو. وتملّكني أيضًا الشعور بالراحة الذي تُودّع به جميع المضيفات، حتى أكثرهن اجتهادًا، ضيوفها الأكثر معزّة لديها.

علّت أشجار السلاسل الذهبية والكرز سور حديقة منزل «سانت جونز وُد» تُشرف على الطريق، حيث تطقطع حوافر الفرس أسفل السماء البهية الزرقاء والسحب البديعة البيضاء. توهّجت أشجار الكستناء بزهورها الحمراء مثل الشموع. حتى إنني شعرت ببهجةٍ في سماع نداء بائعي الحليب وصبية القصّابين.

لم تكن السيدة جريمشو هناك لتستمتع بتلك المسرّات الدنيوية. لقد رحلت عن الحياة واجتمعت بزوجها القبطان، لتصبح جلوري جاين من تعني بمنزل ماجي بمساعدة فتاة شابة. لم تستطع جلوري جاين القراءة، لكنها

أدركت أهمية عملها مُدبِّرةً لمنزل إحدى الكاتبات المرموقات. لقد ازدحمت أوقات ماجي بالعمل بحيث كان ممكناً ألا أستطيع رؤيتها في ذلك اليوم لو لم نتفق على اللقاء. فتحت جلوري جابن الباب وحيّتني بغمزة من عينها كان أُملي ليخيب لو لم تستقبلني بها. لقد طرحْتُ ربّة المرح الصهباء كثيراً من هزلها القديم ونما إحساسها بالمسؤولية. لكن بعض عبثها تبدّى في تحيّتها المعتادة لي أنا قاطنة المنزل السابقة.

قالت لي نظرتها: «يا للعجب! ويا لغرابة أحوال هذا العالم! أتساءل ماذا دهاك لتختفي هكذا!». لكن ما نطقْتُ به كان: «السيدة في الطابق العلوي ومعها الأنسة جايلورد. إنهما في انتظارك».

7

تفاجأتُ بخروج سالي أخيراً من عزلتها. فبعدما صفعتُ السيدة دروموند في ذلك اليوم شديد الحرارة في صيف العام الماضي غادرتُ منزل «التجمّع» دون أن تُودّع دوللي ديورست. مشينا معاً في شوارع الطرف الشرقي من لندن وهي تحمل حقيبتها، حتى بلغنا حياً يمكن أن تمرَّ به عربة مستأجرة. استقلّيتُ العربة معها وأوصلتها إلى منزلي في تشيلسي. ظلّت صامتة طوال الطريق فتركناها لأفكارها. لقد أدركتُ أن تسوية المعضلة التي تواجهها الآن تقع على عاتقها وحدها. لم يوجد ما يمكنني فعله سوى أن أكون بجوارها، مُتأهبة لتقديم أي عونٍ قد تحتاج إليه.

مكثتُ لدينا بضعة أيام تمضي معظم وقتها في غرفتها. ثم شكرتنا على حسن الضيافة وقالت إنها خطّطت للمكوث لدي ماجي ويل بعض الوقت. لقد لحظتُ خطأ يد ماجي على خطابٍ أرسل إليها في ذلك الصباح. وبعدها غادرت في اليوم التالي شعرت بالأسف، والغيرة، والانزعاج، لأننا خذلناها ولم نستطع منحها ما تفتقد إليه. لكنني تغلّبت على تلك المشاعر. بالطبع ليس ممكناً أن تجد سالي في منزلٍ يعيش فيه زوج، وزوجة، وطفل «مُتطلّب»، ما يمكن أن تمنحه ماجي. لقد علمت أن ماجي توقفت عن العمل أسبوعاً وبالتأكيد غمرتها بالتفهّم. لكنها لم تفصح لي عما دار بينها وبين سالي في ذلك الأسبوع، بل

قالت بإيجاز بعدما غادرت سالي منزلها دون أن يعلم أحد وجهتها: «أعتقد أنها ستكون بخير».

لقد طمأنتها سالي قبل مغادرتها قائلة: «لا تقلقي بشأنني. سأعود في الوقت المناسب أو، بعبارة أخرى، في الوقت الذي يراه الرب مناسباً». وطوال المتبقي من ذلك الصيف والخريف والشتاء التاليين لم تتواصل معنا. لم ترسل إلينا حتى بطاقة بريدية. والآن ها هي أمامي تبدو على ما يُرام: امرأة سمراء ممشوقة القوام مفعمة بالحيوية. رأيت على الأرض حقيبتها القديمة. لقد ازدادت اهتراءً، وعُقدت بحبلٍ رفيعٍ طرفاه مهترئان على نحو لم يكن القبطان رودا ليستحسنه ولأسرع إلى تدعيمه. بدت سالي بحقيبتها كأنها مُتسكعة قدمت لتستريح لحظاتٍ فقط.

عانقتني فقلت تلقائياً: «سالي! أين كنتِ بحق الرب؟!». - في «أندورا».

وكان أندورا إحدى ضواحي لندن الشهيرة. لكنها إمارة لم أعرف عنها سوى اسمها الذي استحسنته أذني. وفي الحال تذكّرت السيدات جايلورد -أنجبت العائلة اثنتين منهن في القرن الثامن العاشر- اللاتي اختفين مثل سالي، وذاع أنهن في الشرق الأوسط ولم يعدن إلى البلاد مرة أخرى. لكن سالي عادت، وهذا أمر يستحق الامتنان. سألتها: «أين تقع أندورا بحق السماء؟».

- إنها إمارة كاثوليكية تقع في شرق جبال «البرانس». لقد أمضيت هناك شتاءً قارساً بعدما وصلت إليها مصادفةً. لكن وجودي بها كان مشيئة الرب.

قبل فترة من رحيل سالي عن «التجمّع» كانت، من حين إلى آخر، تذكّر الربّ بتلك الطريقة الحميمية العفوية، التي أثارت غضب دوللي ديورست أكثر من مرة. أتذكر يوماً قالت فيه سالي ما دفع دوللي إلى أن تحتدّ قائلة: «اعلمي يا سالي أن «العقلانية» مذهبي، لهذا أستخدم عقلي. وإن كان إلهك هو من أعطاني العقل فهذا خطؤه لأن ما يُعطى يُستخدَم. ويخبرني عقلي أن فكرة وجود فردوسٍ خرافيٍّ في السماء بلا جدوى. إنني أريد أن يحظى البشر بفردوسٍ أرضيٍّ».

وضعت سالي يدها على كتف دوللي وابتسمت قائلة: «أعلم بحقيقة رغبتكِ منذ «طعام لعائلة فوستر». ولا أريدكِ أن تغضبي مني. أنا لست متزمتة، لكنني بدأت التفكير بجدية حول الروحانيات، والتساؤل إن كانت المسيحية هي السبيل الوحيد لما تدعيه الفردوس الأرضي. (أضافت برقة، إذ خشيت أن تجرح شعور دوللي) إنني أعتقد أن نظرتكِ إلى الأمور الروحانية ضيقة، لأن رؤيتكِ محدودة بقول الترنيمة: «فردوس الأطفال الصغار هناك في الأعالي حيث السماء الزرقاء الساطعة»⁽¹⁾.

سألته دوللي بحدة: «وما مدى اتساع رؤيتكِ؟».

- لا أزال أحاول تكوينها. لكنني بدأت أعي حقاً معنى الآية: «مَلَكُوتُ اللَّهِ دَاخِلُكُمْ»، التي يبدأ عن طريقها تحقيق الفردوس الأرضي. وإنَّ الآية: «هُوَذَا الْآنَ وَقْتُ مَقْبُولٍ. هُوَذَا الْآنَ يَوْمُ خَلَاصٍ»، تتضمن مفهوماً آخر يروقني.

حينئذٍ لم تكن الفجوة التي ستفصل بينهما نهائياً قد اتسعت، لهذا قالت دوللي ببعض الود: «إنك تتأثرين بأي كلام مُنمَّق».

- لا يا دوللي. ليس الدين مَنْ وَعَدَ بفردوسٍ أرضيٍّ قريبٍ، بل المصلحون. يقول كبار السنُّ المتقاعدون إنه تحقَّق في الماضي. ويَعِدُّنا المهاجرون الشباب إلى إنجلترا بتحقيقه في المستقبل القريب. ودائماً ما توجد خطوة سيأتي اتِّخاذها بالفردوس بالأرضي: لنقْضِ على الرأسمالية، لنقْضِ على الأرستقراطية؛ لنقْضِ على البرجوازية؛ لنستأصل الديمقراطية، لنستأصل الديكتاتورية. هيا نُنشِئ المسابح والمتنزّهات للمواطنين. لننتخِص من الحشرات ومن سلطة مُلَّاك الإقطاعيات. دائماً ما توجد عقبة علينا اجتيازها. ثم نجتازها فيذكر المصلحون غيرها. سيتحقَّق الفردوس بعد إصلاح النظام الانتخابي، أو بعد التطهير الشامل. إنني مثلكِ أتوق إلى أن أرى جميع العقبات مُذَلَّلة. لكنكِ تعتقدين أننا نستطيع أن نجعل العالم مثاليّاً، وفقط عندما ننجح في فعل هذا سنقول: «ها هو الفردوس أخيراً!». على أنني أوْمَنُ بأن العوالم المثاليّة لا يمكن أن

(1) ترنيمة كتبها ألبرت ميدلين بعنوان: «There's a Friend For Little Children»

عام 1859. م

توجد على الأرض. وأسعى فقط لتحسين الوضع دون أوهام. وحاليًا أجد السلوى في هذا المُعتَقَد: إن ملكوت الله بداخلنا هنا والآن، رغم نواقصنا، مثل مُتَنَزِّه يقع وسط حيٍّ عشوائيٍّ. وكم تكثر العشوائيات بداخل أرواحنا!

ضحكت دوللي من وصفها قائلة: «تحدّثي عن نفسك! ولنترك الدعم الروحيّ لأعضاء «جيش الخلاص»⁽¹⁾. فأنا لا أريد منافستهم في هذا المجال». - حسنًا، هذا يكفي الآن. يجب أن أذهب إلى السيدة دروموند كي أضع لبخةً جديدةً على ذراعها.

- لم لا تُرين زوجها الفظّ البدينَ كيف يعدّها بنفسه؟ - لقد أريته، لكنه لا يفعل شيئًا رغم ذلك. (ثم ابتسمت عابثةً تقول) يجب أن تصطحبيه الليلة إلى جولات العقلانيّ تشارلز برادلو كي يسمعه يتحدّى الربَّ أن يُميته خلال دقيقة. ربما ستعيده بعض «العقلانيّة» إلى رشده.

8

أحضرت جلوري جاين القهوة وغمزت بعينها مجددًا، تشير لي أن أفكّر ما الذي دهمى الآنسة جايلورد كي تذهب للتسكع في أرجاء العالم. قالت سالي: «أردت فقط أن أنفرد بنفسي. ولم أقصد الذهاب إلى أندرودا. فأنا لم أسمع بهذا المكان قبلاً قط، مثل كثيرين منا. لكن ثمة أسماء تسحرني، مثل بعض الشخصيات التي نسمع بها أو نقرأ عنها فنتمنى أن نقابلها. تؤثر بي أسماء الأماكن، مثل: «آرل»، و«تاراسكون»، و«قرقسون»، على النحو نفسه. شعرت أن تلك المناطق قد تمنحني شيئًا وهذا ما حدث بالفعل. لقد منحتني أندورا. فبينما أتجوّل هناك سمعت اسم هذه الإمارة يُذكر للمرة الأولى. وفي الحال شعرت أن عليّ الذهاب إليها. لكن القول أسهل من الفعل!».

(1) مؤسسة خيرية مسيحية مستقلة أسسها الواعظ ويليام بوث وزوجته في شرق لندن عام 1865 م. تهدف إلى تقديم الدعم الماديّ والروحيّ للمعوزين. م

حدث هذا في آخر الصيف، بعدما تجوّلتُ وهي تحمل حقيبتها البالية في أراضٍ كثيرة، تنقلها قدماها أو العربات الريفية، وتمكث في النُّزل أو الأكواخ. لقد سمعتُ بآندورا للمرة الأولى في كوخٍ يقع عند سفح جبال البرانس، حيث أقامت مع امرأة ريفية وابنتها ترعيان بعض الماعز وتزرعان بضعة فدادين. لم أكن لأجرؤ على فعل شيء كهذا لكن سالي فعلته. ربما كانت هبتُها الكُبرى أن جميع الناس على اختلافهم يستلطفونها. كانت روحها تتألق، تبثُ شيئاً جميلاً وعفويّاً وطليقاً، لا يسع من حولها سوى التأثُّر به لأنه قوة حيّة تلقائية، مثل ينبوعٍ ينهل المرء منه دون استئذان أو شكر.

كانت المرأة الريفية أرملة. مات زوجها في وقت مبكر من ذلك العام، لكنها ستتزوج قريباً. لم تكن قد تخطّت الأربعين، لكن حياة العمل أشقتها. لم تتطّلع إلى زواجها الجديد. كانت محض خطوة عملية اتخذتها كي تحظى بيدٍ قويّة تعينها في زراعة أرضها. أحياناً كان الزوجُ المستقبلي يأتي إلى الكوخ. رجلٌ جادٌ يرتدي بذلة ويعتمر قبعة كلاهما سوداوان، له شارب أسود، يسمُ الحزن وجهه، وقلماً يتكلّم. لكنه من حين إلى آخر يأخذ في الصفير. قالت سالي إنها لم تسمع مثل صفيّره قبلاً، وكأنه عندليب. لهذا اعتادتُ التسلُّل من الكوخ بعد الغروب لتستمع إلى صوته العذب، دون أن تُشَتَّ انتباهها برؤيته. كان يسترسل في ألحانه، فتجلس المرأتان في صمت تستغرقان في الخياطة والحيّاكة في ضوء المصباح. وعندما تعود سالي إلى الكوخ عادةً ما يتسلُّون بأوراق اللعب، حتى يرحل الرجل أخيراً فيسمعن لحنه الحزين يخبو وهو يبتعد سيراً في الوادي الصخريّ.

قالت: «أحياناً كنت أبلغ من التأثّر مبلغاً يجعلني أغادر الكوخ مجدداً، لأقف خارجاً أستمتع إلى موسيقاه البديعة يتردد صداها وسط التلال، والسماء سقفي تملؤها نجوم كأنها كرات فضيّة وهّاجة. كان صوته شجياً يدعو للبقاء، لكن المرأتين لم تتأثّرا به. كنت أعود إلى الكوخ لأجدهما يتحدثان عن مهام الغد».

كانت الابنة التي لم تتخطّ العشرين متزوجة برجل من آندورا. لقد قدمّت من الحصن الجبليّ لتساعد أمها في أعمال المزرعة وخياطة فساتين الزفاف.

كانت خيَّاطة حسناء، سيَّأتي زوجها ليحضر الزفاف، ثم سيعودان معًا إلى بيتهما.

ساعدت سالي في قطف الحصاد القليل وبقيت حتى موعد الزفاف. قابلت زوج الابنة صاحب الاسم الرنَّان: فرناندو كالاترافا. كان في منتصف العشرينات، أسمر البشرة ووسيمًا. قَدِمَ يركب بغلاً فخورًا به كأنه حصان عربي. اتَّسم سلوكه مع سالي بتهذيبٍ وتحفظ شديد، وحاول إثرائها عن الذهاب إلى أندورا. أخبرها أنها بقعة بدائية على قمة الجبال.

- عندما تعيشين هناك، إن احتملتِ ذلك، ستجدين الصخور في كل مكان حولك: ستقفين عليها، عندما تنظرين إلى الأعلى سترينها، ستحيط بك وأنتِ جالسة بجوار المدفأة لأن البيوت بُنيت من صخور مُكدَّسة فوق صخور.

قال إن على المرء أن يكون عُقابًا، أو ثعلبًا، أو دُبًّا، كي يستطيع العيش هناك، وإنَّ الأحق هو من لم يُولد في أندورا ويُفكَّر في العيش فيها. لقد وصف موطنه بفخر شديد. أخذته الحمية وبدأ مستعدًا للهجوم على من يسيء إليه، حتى ضحكت سالي فابتسم. لقد عقدت العزم على الذهاب إلى أندورا، حيث ارتفعت الأرض الأوربية لتُشرف على فرنسا من ناحية، وعلى إسبانيا من ناحية أخرى.

نال الزوج المستقبلي إعجاب فرناندو. سمَّاه «عندليب المزرعة». ونصح أم زوجته بأن تسدَّ فمه يوم الزفاف كي لا تصبح موهبته مسار حديث أهل الوادي.

في تلك الليلة مكثت سالي مع فرناندو وزوجته في نُزلٍ بعيد. وتركوا الكوخ للعروسين، اللذين سيشرعان في حصاد البطاطا في الصباح التالي. قال فرناندو إن على سالي أن تشتري بغلاً ما لم تكن مُولعة بصعود الجبال على الأقدام. اختار لها البغل المناسب وساوم في سعره. وعندما انطلقوا سرَّته رؤية سالي تجيد ركوبه. كان مطيَّة مُروَّضة، ولم يلزم سالي التي اعتادت ركوب الخيول الجامعة سوى الجلوس فوقه. لكنها سرَّت بأن تحظى بتقدير فرناندو.

انطلق الثلاثة في فجر أحد أيام سبتمبر وتناولوا السير والركوب. توقفوا بعد فترة من صعود الطريق لتناول الخبز والجبن والبصل. ثم استكملوا رحلتهم حتى وصلوا إلى منطقة تخلو من العشب والشجيرات والأشجار. هناك رأت سالي طيور العُقاب مُحلَّقة، وبقعة من صخور مُنيعة دخلوا عبرها كهفًا. بداخله ربطوا القائمتين الأماميتين لكل بغل. تناولوا قليلًا من الطعام. وغنى فرناندو أغنيات بهيجة. ثم تدثروا بالعباءات وخلدوا إلى النوم. عند الفجر استأنفوا رحلتهم، وسرعان ما وصلوا إلى قمة السلسلة الجبلية حيث الشمس الدافئة، التي يتألق البرُّ والبحر في نورها. لكنها هنا أشرقت على صخور فوق صخور تطقطع فوقها البغال، ويعلو رنين أجراسهم، فيما غناء فرناندو يهزُّ الهواء الصافي الشفاف وكأنه زجاج رقيق.

عندما توقف فرناندو عن الغناء كانوا قد بلغوا موضعًا حيث ينظر المرء إلى الأسفل فيرى شلالات مائيّة تتدفّق، وحقولًا تشبه محارم خضراء مائلة على الجبال. بالكاد ظلُّوا يهبطون الطريق الطويل المكسوّ بالأحجار السائبة، حتى أصبحت الصخور بيوتًا ذات مداخن، وكنيسة، ونُزلًا. واتضح أن المحارم الخضراء حقول شوفان وشعير. أخيرًا، إذ تتّجه الشمس غربًا فتميل الظلال الأرجوانية شرقًا حيث يعيش قلة من الناس، تبدّى أمام سالي ذلك المكان الذي كانت تحلم به. وهناك مكثت طوال المتبقي من ذلك الخريف، والشتاء، وبداية الربيع.

أهدت فرناندو البغلَ فأذهله كرمها. لو أخبرته سالي أنها من الثراء بحيث تستطيع شراء عشرات البغال لما صدّقها. لم يكن ليصدّق تلك الكلمات من المرأة المتواضعة ذات الشعر الرمادي والثياب القديمة، التي امتطت بغلاً بمهارة مثله. لكنها لم تخبره بحقيقتها، لقد جاءت إلى بقعة كذلك كي تنسى حياتها. على أن هديتها عادت عليها بالنفع لأن فرناندو كان رجلًا ذا شأن بعض الشيء؛ صاحب أملاك، ولولاه لصعب عليها العثور على بيت حيث يمكنها المكوث بمفردها فترة طويلة. لقد صادف أنه يملك كوخًا شاغرًا: مُكعَّبًا حجريًا ينتصب وحده فوق نتوء صخري، يمرُّ به درب تسلكه قطعان الماعز، بُني متينًا وكأنه سيقوم حتى يوم الدينونة. يُخلف غلق بابهِ الخشبي ذي المسامير الحديديّة الشعور بدخول كهفٍ لا منزل. نوافذه طويلة شديدة

الضيق شَقَّتْ من قبيل الضرورة لا الرفاهية. اشتمل على حجرة واحدة مُلَحَق بها حجرة صغيرة للنوم، لكن سالي لم تحتج إلى المزيد. توفّر لديها طاولة، وكرسي، ومصباح، وبضعة أرفف. وصنع فرناندو لها سريرًا من سُيُورٍ جلدِيَّةٍ مَدَّها على إطار خشبي، حيث تنام مُتَلَفَعَةً بعباءة. اعتادت تناول وجبة واحدة يوميًا في نُزُل، وأمضت باقي اليوم تعيش على الخبز والقهوة. أمام باب كوخها كانت تجلس على الصخور، تتأمل الجهة المقابلة من القرية حيث السلسلة الجبليَّة التي تتدفق عبرها الشلالات، ووراءها تقع فرنسا والقنال الإنجليزي وإنجلترا، حيث بِرْمَنْدزي وتريسانت. لقد حظيت بوقت طويل لتأمل سبب ابتعادها في جلساتها هناك صيفًا وخريفًا، وفي ليالي الشتاء الطويلة حيث القمر الفضي يعلو الوادي الأبيض، ويسود سكونٌ يخال المرء في غَمَرَتِه أنه يستطيع سماع انفجار النجوم.

عاش قَسُ الكنيسة في بيت لا يختلف عن بيتها في شيء سوى أنه يتضمن حجرة ثانية، تعيش فيها شقيقته مدبرة منزله. كانا شقيقين يجذبان الأنظار. الأب ميجيل قرويٌّ بدينٌ حكيم. أمَّا السينوريتا، هكذا يدعوها أهل القرية، فتمتَّعت بلطف وكياسة. قصدت منزل جارتها الجديدة في زيارة تشبه زيارتنا الرسميَّة، ورحبَّت بها بالإنجليزية. طالت ثرثرتها وسُرَّت بوجود من يمكنها التحدث إليه، وكأنها عانس قابلت إحدى جاراتها الإنجليزيات القديمات في بلد أجنبي. وسرعان ما عرفت سالي قصة السينيوريتا.

تدبَّر الشقيقان القرويَّان عيشهما عن طريق عمل ميجيل في الكنيسة والسينيوريتا في الخياطة. كانت الإبرة سلاحها الصغير الذي شَقَّت به طريقها في الحياة. لقد مكَّنتها من خياطة ثياب زوجة السفير الإنجليزي في مدريد، ثم أصبحت وصيفتها. وعندما غادر السفير وزوجته إلى إنجلترا اصطحباها معهما. لقد مكثت السينيوريتا طويلًا مع تلك السيدة حتى أصبحت لا تستطيع الاستغناء عنها. ولمَّا تقدَّم السفير في العمر لم يلتحق بوظيفة أخرى. استقرَّت العائلة في إنجلترا يمضون حينًا في لندن وحينًا في الريف، في زيارات وترحال دائمين. ثم مات السفير وتزوجت السيدة، التي كانت تصغره في العمر كثيرًا، ورافقتها السينيوريتا إلى منزلها الجديد. وبعد عشرين عامًا ماتت السيدة، فعادت السينيوريتا قبل عام لرعاية ميجيل.

قالت سالي: «بعد كل هذه الأعوام لا شك أنك تفتقدين حياتكِ القديمة». أجابتها السنيوريتا بهدوء: «لا، بعد كل هذه الأعوام أصبحت أفقد الحياة هنا».

تصغر السنيوريتا سالي عمرًا. كانت قد تخطت مرحلة الطفولة بقليل عندما بدأت العمل في المنزل الإنجليزي قبل عشرين عامًا. أصبحت مُترجمة سالي الفورية القيّمة وضامنتها. فبعدما جاءت المرأة الغريبة من اللامكان مع فرناندو وجوكوند كالترافا نظر الأهالي إليها بارتياح وتحفظ حتى صادقتها السنيوريتا.

تعرفت سالي إلى الأب ميجيل وراقتها بساطته ونباهته، رغم أنه نادرًا ما قرأ الكتب، وكان أكلًا، ويتعكّر مزاجه عندما ينفد تبغه. لكن نهمه بهذه المتع الدنيوية ساهم في إضفاء البهجة على وجوده في عمله أو منزله. لقد دعت السنيوريتا سالي على العشاء في إحدى أمسيات منتصف الشتاء. كانت السماء تتلج منذ عدة أيام. ورغم أن الثلوج توقفت الآن فإن العاصفة لم تهدأ. لقد صفت السماء ولمعت نجومها، لكن الرياح اشتدت وعلا عواؤها. ضمت سالي عباءتها إليها وهي تقطع درب الماعز من كوخها إلى الطريق المغطى بالثلوج الآن. لم تفصلها عن منزل القس مسافة بعيدة، لكن الرياح القارسة زادت طولًا، فامتنت سالي لاقتربها من وصول وجهتها. بدت الستائر الحمراء التي تتجه نحوها دافئة، فغذت السير مبتهجة كأنها عابر سبيل رأى فجأة بيتًا منيرًا.

كانت المدفأة متقدة. الأب ميجيل مرتاحًا في مقعده ينتعل حُفًا مريحًا. وانتشرت رائحة طعام ساخن. عندما رأى سالي أفرغ النبيذ في وعاء وقربه إلى المدفأة. فعادت ذاكرة سالي إلى مقهى المزارعين في مونتروي حيث رأيت النبيذ يُدقًا بتلك الطريقة البدائية.

صبَّ الأب ميجيل النبيذ في الأكواب والسنيوريتا تأتي بالطعام الشهي. اتسع منخاراه وأشرق وجهه يترقب اللذة الوشيكة. استنتجت سالي أن الشقيقين قلما يحظيان بمأدبة كذلك، وسرها أن تتسبب في ذلك الابتهاج الواضح بالنعم الدنيوية.

عندئذٍ سمعوا دقًا على باب الكوخ. لقد أتى العالم القاسي إلى بابهم في هيئة شابٍّ حزينٍ باكٍ، يتلعثم في التعبير عن مُصابه. كان سببُ أساءه انهيارُ أرضيّ؛ بضعة صخور دفعَتها الثلوج الثقيلة أسفل منحدر أحد التلال؛ حدثٌ لم يكن ليعدو كونه ضوضاء ليلية بلا أهمية أو تبعات، لكن زوجة الشابِّ كانت في طريقه. اصطدمت الصخور بظهرها ورأسها. والآن هي راقدة في السرير لا تتحدث أو تتحرك. يداها على صدرها، وتحمل جنينًا من المفترض أن يُولد بعد شهر.

كان الطعام الشهوي على الطاولة وبخار النبيذ الدافئ ينبعث من الأكواب الفخارية. وبينما الشابُّ يحكي شرع الأب ميجيل في جمع أغراضه، يتجهَّز لمجابهة وخبز الرياح وعرقلة الثلوج كي يؤدي واجبه.

ربت كتف الفتى، أعطاه كوب نبيذ دافئ، ولم يقل سوى: «اشرب هذا. (ثم تناول عصاه وأضاف) هيا بنا».

خرج الأب دون أن يتناول النبيذ يحيط كتفي الفتى بذراعه. وخاض الرياح التي اندفعت عبر الباب تؤرجح ظلال المصباح.

9

عندما جلسنا في غرفة ماجي في صباح مايو ذاك لم تحكِ لنا سالي تجربتها في سردٍ متواصل. لقد جمَّعتُ مقاطع من قصَّتها على مدار أشهر، بل أعوام، بخاصة في أثناء زياراتي لها في برمندي. لقد عادت إلى برمندي لا «التجمُّع».

ذات مرة قالت: «ليس الأب ميجيل رجلًا مُدهشًا، بل بسيطًا عفوياً. وقد اكتشفت مجددًا أن البسطاء يمكنهم أن يؤدوا في حياتنا دورًا أكثر أهمية من دور الشخصيات المرموقة والمشاهير. لقد أتينا بالنُّخبة إلى زقاق «جريبيرد»، لكن ما فعلناه لم يكن مُجدياً».

حينئذٍ كانت سالي في السَّتين من عمرها إذ أصبح زقاق «جريبيرد» ماضيًا بعيدًا. في تلك السنِّ كانت نحيلة، برزت تجاعيدها، وانحصرت حيويتها في عينيها البرَّاقَتين.

قلتُ إنني لا أتذكر وجود أي نُخبة في زقاق «جريبيرد» فأجابتنني: «لقد أتينا بفكرهم وأساليبهم. كنا مُصلِحين يا سارا، وكم أصبحتُ أرتاب في المُصلِحين! في كثير من الأحيان لا يكون الإصلاح سوى محاولة لأن نجعل الناس يشبهوننا نحن الفخورون بمثاليَّتينا المُتوهِّمة. رغم أن أشكال الناس وأذواقهم تتباين فإننا نظنُّ أن الخيَّاط الخاص بنا هو الأنسب لهم. إن المُصلِحين غالبًا ما يملؤهم الغضب. يُبغضون من يختلف معهم، ثم يُبغضون العامة عندما يرفضون جهودهم الإصلاحية. أعتقد أن دوللي ديورست في النهاية بغضت جميع الناس في زقاق «جريبيرد»».

قلَّما كانت سالي تتحدث عن دوللي ولم ترها منذ أعوام. لكن من يقرأ الجرائد يسهل عليه معرفة أخبارها. لقد أصبحتُ دوللي ديورست امرأة مشهورة. افتتحتُ مكتبًا لدراسة الإحصائيات وكتابة التقارير وتكديس «سجَّلات الحالات». انضمت إلى الهيئات واللجان المَلَكِيَّة، وألقت الخطابات في الاجتماعات العامة. رأى مُحَبُّوها من الجماهير أن الوقت قد حان لالتحاق النساء بالبرلمان، لأن النساء أمثال دوللي ديورست عندما يتولَّين القيادة ستُحلُّ المشكلات الناجمة عن الشراب المُسكر والفقر والبطالة. ستتوقف الحروب الشنيعة وسينتهي تعرُّض النساء لتعنيف الرجال. ستختفي المعاناة والألم. ولن تذرف الأعين مزيدًا من الدموع.

قلت: «كنتِ تحدِّثينني عن الأب ميجيل».

- أجل، لقد تقبَّل وجود الشرِّ. ذات مرة قال لي: «تبرز حاجة الإنسان إلى الربِّ في وجود الشيطان، إذ يصبح أمامه طرفان عليه اختيار أيهما يتبع. هذا هو كل ما في الأمر». قلت: «بل يوجد المزيد. على المرء أن يناضل في سبيل الطرف الذي اختاره». فابتسم لي الرجل المُحنَّك ذو الجبهة الضيقة التي يغطِّيها شعره الأسود، وقال: «حسنًا، ناضلي إن أردتِ ذلك. سينتصر الخير في النهاية، لكن لا تظنِّي الطريق إلى تحقيقه قصيرًا. هذا النضال طويل الأمد».

أردفت: «أثارت شخصية الأب ميجيل حيرتي طويلاً. حتى الآن أشعر بالخجل أحياناً عندما أفكر أنني، في أثناء جدالنا حول أمر لا أتذكره، قلت بحدة: «أرى أنك تحاول ضمّي إلى كنيسة». لقد تفاجأ بجوابي. نظر إليّ طويلاً ثم قال: «من دواعي سرور المرء أن ينضم إلى بيت الرب. إن الشَّلَال غزير، وعلى قطرة الماء أن تتخذ الخطوة الأولى نحوه. في الوقت الحالي أميل إلى صرفكِ عن التفكير في الانضمام إلى الكنيسة».

طرحتُ عليها سؤالاً طالما رغبت في معرفة جوابه: «كيف أصبح ذا مكانة كبيرة لديك؟».

استغرقت في التفكير، ثم أجابتنِي: «لقد أكَّد الفكرة التي تأملتُها طويلاً حتى اعتنقتها. (ابتسمتُ وأردفتُ) نحن نميل إلى من يشاركنا آراءنا، بخاصة تلك التي استغرق توصلُّنا إليها زمناً طويلاً، أليس كذلك؟ لقد آمن بوجود مملكتين أرضيتين، هنا والآن، أحدهما مملكة الرب والأخرى مملكة الشيطان. لم يرَ أن علينا إصلاح هذا وتغيير ذاك حتى نستطيع دخول مملكة الرب. لقد آمن بأن مملكة الرب بداخلنا، علينا فقط أن ندرك وجودها. آمن أيضاً بأن من الممكن «إصلاح» كل شيء وتظل حياة البشر على الأرض جحيمة. لقد أدرك جيداً أن هذه الفكرة لا تهاجم الإصلاح، بل الأوهام».

- وإلى أين أوصلتِ تلك الفكرة؟

- بدا لي أن ما يدعوهُ الناس «إصلاحاً» في عصرنا هذا حتميٌّ مثل الرياضيات، وليس بوسع المرء فعل الكثير لإسراعه أو إيقافه، رغم أن الكثيرين يدَّعون أنهم رعاة «الإصلاح» ومُحدِّثوه، وهكذا يتكسَّبون، بل ويصبحون قادة. يشبه ذلك الإصلاح عملية ميكانيكية، مثل تصليح غرض في ورشة. لكن إصلاح النفوس، الذي يجعل البشر يتبعون الخير لا الشر، ليس ميكانيكياً. إنني لا أرى أن الوعظ، أو التعليم، أو التدخُّل بأي صورة مباشرة قد يُحدِّثه. إنه كينونة. وليس من السهل أن نكون على هذا الحال. يجب أن نواصل ملء مصابيحنا عسى أن: «يُضيء نورُكم هَكَذَا قُدامَ النَّاسِ...».

قلت أمازحها بوَدٍّ: «لهذا قرَّرتُ المجيء إلى عشوائيات برمندزي كي يضيء نورُك».

لم أظن أن تلك الكلمات قد تجرحها. لكنها أسندت رأسها إلى ذراعيها على الطاولة المكسوة بقماش مهترئ، واهتز كتفها بكاءً. لقد أمضت في منزل ذلك الحي الفقير، حيث تخفق جهود قاطنيه في التخلص من الحشرات والحفاظ على نظافتهم، قرابة ربع قرن من الزمان. لا شك أن تعليقي العابر جعلها تواجه فجأة آثار حياتها وتداعياتها. لكنها لم تبك ندماً، أو أسفاً على ما كرّست له جهودها. لقد بكت فقط لأن قصورها البشري ساءها. ثم قالت أخيراً: «توجد ظلمة شاسعة، وشعلة صغيرة جداً!».

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل السادس عشر

مكتبة
t.me/soramnqraa

1

عندما صحبتني ويلي إلى الغذاء في نهار يوم ميلادي عام 1885 م، إذ أصبحتُ في السابعة والثلاثين من العمر، رأينا لوسي إيفانز تسير جيئةً وذهابًا في بهو المطعم. كانت ترتدي ثوبًا باللون الأزرق الفاتح يهمس للأرضية عندما تتحرك. ورغم تقدمها في العمر فقد بدت امرأة جذابة. لم أعلم كم كانت سنها تحديدًا. عندما تعرّفت إليها في تريسانت ظننت أنها تكبرني بتسعة أو عشرة أعوام. لكنها لم تبدُ بأي حالٍ في أواخر الأربعينات من عمرها عندما قابلناها في ذلك اليوم. لقد حافظتُ على رشاقة قامتها. لم تظهر شعرة رمادية في رأسها. وأخفق كثير من الرجال، الذين اجتازوا باب المطعم قادمين من شارع «ريجنت»، في مقاومة النظر إليها ثانيةً بعد اللمحة الأولى وهم يتركون قبعاتهم وعصيّهم. لقد استحققت تلك المرأة ذات الذقن المُدبَّب الدقيق، والعينين الزرقاوين، والبشرة الناعمة الخالية من التجاعيد، جميع نظرات الإعجاب والاستحسان.

كي أصف لقاءها بي أنا وويلي لا يسعني سوى أن أقول إنها تفضّلتُ علينا بلطفها. كنا مثل امرأتين من عامّة الشعب ابتسم لنا الحظ ذات يوم إذ تعرّفت إلينا تلك الأميرة ولم نسقط من ذاكرتها المَلَكِيَّة. والآن عندما رأتنا تذكّرتنا

واكثرث لوجودنا. ثم تفضّلت بمدّ يدها الرقيقة ذات القفاز الحريري الأزرق نحونا كي نمسّها.

كم كانت فاتنة! لو نظرتُ في زمننا الحالي إلى ظلال وجنتيها الوردية أسفل عينيها الزرقاوين، التي زادهما جاذبيةً ظلّ قبعتهما ذات الحافة العريضة، لقلتُ إن صالون التجميل الذي تذهب إليه ممتاز. لكن في ذلك العهد لم تكن تلك الصالونات قد انتشرت بعد. أقرُّ حقاً بأنها كانت متألّئة وصلبة كأنها ياقوتة.

نظرتُ إلى الساعة على حائط البهو وقالت: «أنا في انتظار ميرفن. لقد تأخر قليلاً».

جلستُ على أريكة رمادية تبرز رقة ثوبها. وأسندتُ طويق مظلّتها أرضاً بجوار حدائها الأنيق. لقد خرجتُ من حدادها بكامل أناقتها.

بالطبع لم يوجد داعٍ لذلك الحداد التامّ فالسيد موستن لويد لم يكن سوى زوج خالتها. لكنها بعد موته، الذي تلا فترة مرض قصيرة، أقامت الحداد كأن الراحل كان زوجها. أظن أن حدادها كان سدادَ دينٍ لرجل أحسن إليها على نحو لم تكن لتحظى به لو كانت بالفعل زوجته الحبيبة المخلصة، رغم أن جميع أملاكه كانت ستؤول إليها هي وميرفن بالطبع. والآن أخيراً، بعد استراتيجية طويلة تطبّقها منذ أعوام، نالت مركزاً مرموقاً وعزّزته: لم تعد مُعالة، بل مالكة.

هذا ما دلّني عليه مسلكها في ذلك الصباح. عندما وصل ابنها نهضتُ كأنها الملكة الأم، مع أنها لا تزال تبدو صغيرة جداً لا يلائمها هذا اللقب، كي تستقبل الأمير الحاكم.

في تلك الفترة، وفترة تليها ليست بالقصيرة، تحلّى الرجال بالأناقة. وقد تبدّت أناقة ميرفن في بنطالٍ مُخطّطٍ ومعطفٍ رسميٍّ أسود، ورباط عنق حريريٍّ رماديٍّ ذي لؤلؤة سوداء. كان يمسك بقبعة حريرية، يلف يديه قفازين جلديين رماديين، ويضع عصا ذات رأسٍ عاجيٍّ أسفل ذراعه. لقد أبرز أناقته طول قامته ووجهه ذو الشارب المُهذّب، الذي تعلوه ابتسامة صادقة. لم نتقابل منذ مدة، والآن رأيت ميرفن موستن-لويد في الثامنة والعشرين من عمره لا يقلُّ وسامةً عن القبطان الراحل إدي رودا.

أخفض رأسه كي يطبع قُبلة رقيقة على وجنة أمه وقال: «تبدین رائعة يا أمي».

ثم حيَّانا أنا وويلي تحية حارَّة أبهجني صدقها. حينئذٍ كنت في عمر يخوِّلني قراءة السلوك، ولم أجد في مودة ميرفن تصنعًا. لقد بذلنا أنا وماجي كل ما نستطيع من أجله في الكوخ بجوار البحيرة في تريسانت، وسرَّني تذكُّره هذه الجهود. لكن بدا لي أنه يترقَّب أمرًا. ألقى نظرة فاحصة على منطقة الانتظار التي لا يشغلها الكثيرون الآن، وقال: «أرجو ألا تمانعي يا أمي في أن نصبح ثلاثة. لقد دعوت فتاة على الغداء أوشتك أن تصل».

سألته لوسي برصانة جديرة بالإعجاب: «هل أعرفها يا عزيزي؟».

- لا، لكنك ستحبِّينها. اسمها إنيد جوثرسن.

قلت: «اسمها لنا. يجب أن ندخل».

وبينما نجتاز الباب الدوَّار قالت ماجي: «ستحبُّها؟! إن لوسي بالغة الأناقة اليوم ولا أظن أنها ترغب في منح المزيد من الحب الأمومي».

واجهت طاولتنا باب قاعة الطعام، وبعد لحظات ألقينا النظرة الخاطفة الأولى على إنيد جوثرسن. كانت فتاة ضئيلة رقيقة سمراء، ترتدي ثوبًا باللون الأحمر الداكن. بينما يتقدم ثلاثتهم إلى الطاولة الخاصة بهم لحظت أن يد ميرفن تستقرُّ أسفل مرفق إنيد، وأنها التفتت مرةً تنظر إليه بابتسامة. لحظتُ أيضًا أن في تلك القاعة ذات المرايا لم تغفل لوسي عن تلك الإيماءات. ثم وارتهم أُنصُص النخيل وزهور الطاولات عن نظري.

عندما أوشتكنا أن ننهي غداءنا انضمَّ إلينا الوسيم هنري روكبي، رئيس دار النشر التي تنشر روايات ماجي. كان هناك يتناول الغداء مع جورج ميريدث الذي غادر للتو⁽¹⁾.

قال: «لأجلس هنا وأتناول كأس البراندي والقهوة بصحبتهما».

(1) جورج ميريدث (1828 – 1909): Goerge Meredith: روائي وشاعر إنجليزي. من أشهر رواياته «Diana Of The Crossways» و«The Egoist». ترشَّح لنيل جائزة نوبل في الأدب سبع مرات. م

جلس في المقعد أمامنا، أشعل سيجارًا، وأمسك بيد ماجي المرتاحة على الطاولة يقول: «متى ستتزوجين بي؟».

أجابته ضاحكة: «لن أتزوج بك كي لا تخلو حياتي من المرح، الذي أجده في تلقّي عرض الزواج بك أسبوعيًا».

ترك يدها على الطاولة برفق ليمسك بكأس أدارها ببطء أسفل أنفه يتنسمها، ثم قال: «إنني دائمًا ما أشبه النساء بالنبيذ. البراندي في رأيي هو ثاني أفضل شراب، بعدك أنت «البرجندي» الخالص. لقد رأيت زجاجة فاتنة من النبيذ الألماني الفاخر، تجلس مع شابّ والآنسة جوثرسن، التي أراها زجاجة نبيذ «موزل» الفوار.

- هل تعرف الآنسة جوثرسن؟

- أنا عزّابها. غريب، أليس كذلك؟

- لماذا يُعد الأمر غريبًا يا هاري؟

- لأنني رجل عابث يا ماج -تعرفين هذه الحقيقة لهذا لا تقبلين الزواج بي- وتلك الفتاة مثل الملاك.

- سيكون الفردوس ممتعًا إن كانت الملائكة زجاجات «موزل» فوار.

- تطابق الفتاة الصورة التي كوّننا ذهني عن الملائكة، رغم أن تصوّراتي الدينية لا يُعوّل عليها. أراها رائعة يُميّزها الإيثار.

صبّت ماجي القهوة قائلة: «حدّثني عنها».

- كان والدها جاك جوثرسن زميلي في «أكسفورد» طالبًا واعدًا. انتُخب رئيسًا لاتحاد طلاب الجامعة، وفاز بجائزة «نيوديجات» للشعر الإنجليزي. التحق بالعمل في وزارة الشؤون الخارجية، وتوقّعت أن يصبح وكيلًا للوزارة. لكننا توقّفنا عن اللقاء مدّة، قرأت بعدها في الجرائد خبر زواجه بابنة أحد النبلاء. ثم علمت أنه ترك الوزارة كي يتفرغ للكتابة. وهذا ما يفعله منذ ذلك الحين.

- لم أسمع به قط. ماذا يكتب؟

- لم يسمع به سوى بعض المتخصّصين. إنه من مؤرّخي القرون الوسطى. يكتب عن كل ما يتعلق بتلك العصور: الحياة اليومية، والحياة الدينية،

وتكلفة غسيل الثياب، وسجلات النجارين. أعتقد أن لديه معجبيه من القراء، وتصدر كتبه عبر دور النشر الأكاديمية. أظن أنه يعيش على الكفاف وبالكاد يتدبّر أمره. فهو لم يرث أي مال مثله مثل زوجته التي رحلت منذ أعوام. وإنيد ابنتهما الوحيدة. لديهم منزل صغير في «بيزووتر» غرب لندن. وتكرّس إنيد حياتها لوالدها.

- ورغم تلك الظروف تنجح في أن تظلّ فتاة رائعة مثل نبيذ «موزل» الفوّار.

- أجل، إنها رائعة. من الفتى الذي معها؟ هل تعرفينه؟

- ميرفن موستن-لويد. أنا بمنزلة عرّابته. وزجاجة النبيذ الألماني الفاخر هي والدته.

- «موستن-لويد» متجر الأقمشة؟

- نحن ندعوه مركزًا تجاريًا.

- أشتري جواربي من هناك.

- لا داعي للكلام عن جواربك يا هاري، لأنك عندما تذكر شؤون حياتك المنزلية يصعب أن أحزر إلى أين سيصل حديثك.

- تعمل أربع عشرة كاتبة عزباء لصالح دار النشر خاصتنا، لكن أيًا منهن لن تقبل الزواج بي.

- إنهن يُرجّحن أن تقصر انتباهك على العمل.

عندئذٍ قلتُ: «إنهم راحلون».

مرّت لوسي وميرفن وإنيد بالقرب من طاولتنا. ابتسمت إنيد لهنري روكبي ولوّحت له بيدها.

قال: «تبدو إنيد أنيقة جدًا. أتساءل من أين حصلت على المال لشراء ذلك الثوب. يبدو مُختارًا لمناسبة خاصة».

- تبدو فتاة يافعة حسناء.

- والشابُّ يجيد التأنق دون أن يبدو أحرق مثل كثيرين من تجّار الأقمشة. من أين اكتسب ذلك الذوق الرفيع؟

- من إيتون وأكسفورد.

- يا إلهي! هل تلزم الدراسة فيهما كي يبيعني الجوارب؟

- لا أدري، لكن ألم يكن والد جورج ميريدث تاجر أقمشة؟

بدا روكبي دَهْشًا، قال: «ظننت أن جورج يُبقي هذا الأمر سرًّا يا ماج!».

قالت: «لا تبقى تلك الأمور سرًّا. وأنا لا أطيق ذلك العجوز الوسيم المتفاخر».

2

سرعان ما أحببَني إنيد مثلما أحببتها، ورأتني حليفًا لها ضد حماس ميرفن. لقد أراد التعجيل بالزواج، لكن إنيد التي لم تتخطَّ العشرين لم ترغب في الزواج ما دام والدها في حاجة إليها. رفضت رفضًا قاطعًا اقتراح ميرفن توظيف مدبرة منزل وسكرتيرة لدى السيد جوثرسن. واصطحبَني إلى منزلهما في «بيزووتر» كي أرى بنفسي كم يلزم وجودها هناك. أجريت تلك الزيارة بعد شهر تقريبًا منذ أن رأيتها أول مرة. كنا في يونيو إذ تناولنا الغداء مع ميرفن في متجر «موستن-لويد». ثم خرجنا لنسير في حرِّ الصيف إلى بيزووتر. وددت أن نستقل عربة، لكن إنيد التي تربت على الاقتصاد في المعيشة عارضت الأمر، ولم أرغب في زعزعة مبادئها الجديرة بالإعجاب.

في طريقنا إلى المنزل حدَّثتني عن ميرفن، وكيف التقته أول مرة عندما ذهبت إلى متجر «موستن-لويد» لشراء بضعة أشياء تحتاج إليها.

قالت: «لا أرضى بترك أبي وحده ما لم يكن نائمًا أو معه رفقة. ولا يقيم خدم في منزلنا، بل تأتي امرأة للخدمة في الصباح الباكر. وأحيانًا يأخذ أبي قيلولة بعد الظهيرة. في ذلك اليوم أتى الكولونيل سلين لزيارة أبي».

سألته من يكون الكولونيل سلين فأجابته أنه أحد قرَّاء والدها راسله الشتاء السابق يُعلِّق على واحد من كتبه، وبعدها قدَّم نفسه إليه.

دفعها ولاؤها لوالدها إلى أن تقول مُمتعة: «نادرًا ما نتلقَّى الزيارات. إن من الشائن ألا يتلقَّى أبي التقدير الذي يستحقه فهو رجل رائع. منذ أعوام لم يتقرَّب إليه رجل على شاكلته».

عندئذٍ شعرتُ بالحرج نِيَابَةً عن هنري روكبي.

أردفتُ: «أثار ذلك الرجل حيرتنا. تساءلنا لم يزعجنا بزيارته. لكن اتَّضح أنه مُتحدِّث لبق تكلم في شتَّى الموضوعات. وراق السيد جوثرسن السماع عن عالم يختلف عن عالمه. هكذا أصبح الكولونيل سلين زائرًا مُرحَّبًا به في منزلنا الصغير. ذات مرة قدَّم اعتذاره عن عدم استطاعته زيارتنا لبعض الوقت لأنه سيزور بعض أصدقائه في الشمال. لقد قال: «يمكنك أن تُخبر حماك يا جوثرسن بأنني سأكون في الجوار. هلا تفعل هذا يا عزيزي؟ ربما يسمح لي وقتي بزيارته»».

عندئذٍ عرفتُ العائلة أن الكولونيل سلين يعلم أن اللورد أفونمير هو حمو السيد جوثرسن.

- إن جدِّي طاعن في السنَّ وشديد الفقر. لكننا تساءلنا إن كان الكولونيل سلين رجلًا وصيلًا تقَرَّب إلينا ليتعرَّف إلى اللورد. انزعج جدِّي وأرسل إلى أبي أحد خطاباته يتذمر فيها كالمعتاد، إذ كتب: «جاك، من يكون الرجل المدعو سلين؟ و«كولونيل» في ماذا بحق الجحيم؟ لا يوجد لديَّ ما يمكنه سرقة، لكن الأمر نفسه لا ينطبق عليك. لهذا خذ حذرك».

في ذلك اليوم حيث قابلتُ إنيد ميرفن جاء الكولونيل للزيارة مُبتَهجًا يطيل الحديث عن اللورد أفونمير العجوز.

- لحظتُ على أبي التسلِّي الرزين، لهذا قررت الخروج للتسوق. كانت قبعة الكولونيل سلين الحريرية على الطاولة في ردهة المنزل بجوار حقيبتني. تذكَّرتُ أنني تركت فيها بضعة جنيهاً فحملتها وخرجت. كان الكولونيل يخبر أبي عن «تركيا»، حيث كان مُلحقًا عسكريًا في سفارتنا هناك.

في متجر «موستن-لويد» اختارت إنيد بعض المحارم وقفازين وما إلى ذلك، لكنها عند الدفع لم تجد أي مال في حقيبتها. ارتبكت الفتاة المسكينة وغزت حُمْرة الخجل وجهها. ارتابت العاملة ذات الرداء الأسود في أن تلك الزبونة تعاني هوس السرقة، وتبدَّل حديثها من «بالطبع يا سيدتي» إلى «لا يا آنسة».

بالطبع كانت إنيد تعلم جيدًا كم جنيه، أو حتى فلس، في حقيبتها. فأخبرتها يائسة: «لكنني واثقة أن المال كان في حقيبتني».

عندئذٍ أتى ميرفن بعدما لحظ أن المعاملات لا تسير بسلاسة كالمعتاد في المتجر، وسأل ما المشكلة. طرح سؤاله بابتسامة عذبة تبدى فيها لطفه وتفهمه، حتى إن إنيد لم تعد ترى أنها تواجه أي مشكلة على الإطلاق. ثم أعطى العاملة جنيهين وضعتهما مع الفاتورة في علبة معدنية صغيرة، وجذبت مقبضاً فاندفعت العلبة عبر سلك علوي قريب إلى السقف، يمتد إلى الجهة المقابلة من المتجر وصولاً إلى موظف خزينة الدفع⁽¹⁾.

شعرت إنيد أنها لا تزال موضع ارتياب فأسرعت تكتب اسمها وعنوانها على قصاصة ورقية، وأكدت أنها ستعيد المال خلال يومين. قرأ ميرفن ما كتبت، ثم تطلع إليها بسرور يسألها: «هل تجمعك صلة قرابة بجاك جوثرسن؟».

أبهج سؤاله إنيد إذ وجدت أن والدها، الذي تثق أنه يستحق الشهرة والتقدير، يعرفه ذلك القديس الذي هب لنجدها. أمّا ميرفن فرأى من حسن حظّه أن أستاذه في أكسفورد أرغمه على قراءة واحد من كتب جوثرسن، وأنه يتذكر بعض ما يناقشه الكتاب. وشعر أن العلبة المعدنية، التي تحتوي على باقي الحساب، عادت من الجهة المقابلة من المتجر بسرعة كبيرة. وضع ميرفن المال تلفّه الفاتورة في يد إنيد وقال: «ربما ترغبين في أن تستقلي عربة إلى المنزل».

قلت: «لكن أين اختفى المال؟ هل اكتشفت ما حدث؟».

قالت إنيد إنها لم تعرف أين اختفى. لم يكن لديها أدنى فكرة عما حدث.

3

لم يحتوِ منزل عائلة جوثرسن، القائم في شارع مُتفرّع من طريق «بيزووتر» الرئيس، على غرف واسعة. لكن الباب القابل للطّي الذي يفصل بين غرفتي المنزل الرئيسيتين في الطابق السفلي قد أُزيل. هكذا حظي السيد جوثرسن بمكتب كبير بعض الشيء. إلى ذلك المكتب اتجهت أنا وإنيد في

(1) تدعى طريقة الدفع المذكورة «Cash Railway». م

يوم يونيو ذاك، حيث قابلتُ والدها للمرة الأولى. لقد اختلف مكتبه عن جميع المكاتب التي رأيتها قبلاً. كان يشبه برجاً للحمام. غطى حوائطه من الأرضية إلى السقف صفٌّ تلو آخر من مقصورات صغيرة، امتلأت برِزَم من الأوراق المعقودة بشريط أحمر. وفي منتصف الغرفة المزدوجة انتصبت منضدة الكتابة التي ازدحمت بدورها برِزَم الأوراق المعقودة. وبخلاف مقعد المنضدة ومقعد بجوار المدفأة، لم تشتمل الغرفة على أثاث آخر. سرعان ما سأدرك أن مكتبه أدقُّ تمثيلٍ لحياة الباحثين.

كان يقول: «لم قد يرغب المرء في تكديس الكتب يا سيدة أندريدج؟! إن ملخصات الكتب هي ما يهمُّ. لا يوجد في العالم كتاب لا يمكن تلخيصه في عشر ورقات. والمكتبات؟ إن مكتبة مثل «بودلي» مكان كارثي يا سيدة أندريدج، مُحاصِرة وسط أميال من الوحل! أمّا هنا في هذا المكتب فتوجد الأسُس الراسخة، ومواطئ القدم الوطيدة، التي سترشدك في طريق المعرفة». عندما دخلتُ المكتب قابلني أولاً ظهره العريض يلفُّه مِبْدَلُ رجالي صوفيٌّ عُقد رباطه بإحكام. شابه السيد جوترسن، الذي ينظر من النافذة، دُبّاً يقف على قائمتيه الخلفيتين. ارتدى الدُبُّ خُفاً منزلياً وأحاطت برأسه غمامة من دخان التبغ. استدار يتقدّم نحونا بخطى ثقيلة، ثم مدَّ يداً سمينةً اعتصرت يدي وهو يتطلّع إليَّ بعينيهِ الثاقبتين. كان سمين الوجه ضخم اللُغد وصوته حادُّ. يغطي رأسه المستدير زغب أشقر قصير. من الواضح أن إنيد لم ترث جمالها الداكن منه.

قال: «إذن أنتِ تعرفين هنري روكبي؟ كان فتى واعداً في الجامعة، لكن يؤسفني قول إنه لم يُنجز شيئاً ذا قيمة. كيف حاله؟».

أخبرته أن هنري روكبي يبدو بخير فقال: «كثيراً ما ألوم نفسي على تقصيري معه. فأنا لا أرغب في أن يشعر أنني أهمله. يجدر بي أن أزوره، لكنني لا أستطيع الحركة مثل السابق».

لم يلزم من يراه أن يكون طبيباً كي يرى أن الراحة هي أفضل ما يمكنه فعله. حتى إن المجهود البسيط الذي بذله في تلك المحادثة جعله بالكاد يتنفس. وعندما حان وقت رحيلي اعتذر لي عن عدم استطاعته النهوض.

قالت إنيد: «من الأفضل أن تأخذ قيلولة يا أبي».

- أجل، إن الحرارة العالية تصيبني بالإرهاق. أخبرني هنري روكبي أنني لم أنسه يا سيدة أندريدج. أبلغيه اعتذاري وقولي له إنني سأتواصل معه قريبًا. لقد مضت ثلاثة أو أربعة أعوام على لقائنا الأخير!

4

تلت الغداء حيث قدّم ميرفن إنيد إلى والدته فترةً من الاضطراب. بعد أسبوع تقريبًا عندما ذهبت أنا وماجي لزيارة لوسي استقبلتنا في السرير. كان السرير بديع المنظر تستحق رؤيته فقط الرحلة إلى كنزيجتون. كان مسنّده على هيئة صدفة مرجانية كبيرة بيضاء ذات مسحة رمادية وأضلاعها ذهبية. أمّا الدثار فكان باللون الأخضر البحريّ يتفرّق الدانتيل الأبيض على حافته، فتظهر من خلاله الملاءة أسفله. استوت لوسي في السرير جالسةً يستند رأسها إلى وسادة تزدان بإطار من الدانتيل تستقرّ في تجويف الصدفة، كأنها أوندين حورية البحر في أتمّ صحتها. ملأت الأجواء الربيعية الغرفة، وهزّ النسيم الستائر برفق فشابهت أشرعة تكاد تنبسط.

أمسكت ماجي بيد لوسي وقالت ضاحكة: «ماذا خطّطت؟ رحلة إلى «كيثيرا»؟⁽¹⁾».

أوحى إليّ ذلك المنظر البديع بأن لوسي توشك أن تخرج من صدفتها إلى نور الصباح برفقة أنغام الفلوت. كانت عيناها فاتنتين. وذكرني جمالها بقول شكسبير: «كزهور البنفسج تفضّل جونغو حسنًا وأريجها أذكى من أنفاس أفروديت». حينئذٍ لم أكن قد رأيت امرأة في تلك السنّ تتمتع بذلك القدر من جاذبية الشباب، ولم أرَ مثلها حتى اليوم.

ضمتّ لوسي شفّتيها في حيرة من سؤال ماجي الذي لم تفهمه. وضعت يدها على طاولة بجوار السرير تزدان بزهور النرجس، ووعاء للفاكهة، وبعض الروايات.

(1) وفقًا للميثولوجيا الإغريقية فإن جزيرة «كيثيرا» اليونانية هي مسقط رأس ربّة الجمال أفروديت، التي وصلت إلى شاطئها في صدفة بعد ولادتها. م

قالت: «أشعر أنني مُتعبة، بل مُنهكة».

ضحكت ماجي مجدداً وقالت: «إذن ليكن الرب في عون أي رجل سيراك في كامل صحتك».

عندئذ أخذت لوسي في البكاء، ثم قالت وهي تكفكف عينيها بمحرمة مُعطرة: «لن ينظر أي رجل إليّ فأنا عجوز. لقد ضحيت بأجمل سنوات عمري. وفي المقابل لا أنال سوى نكران الجميل».

- هل تتحدثين عن ميرفن؟

أجابتها وهي تنتحب: «لقد طرحني جانباً كأنني قفاز قديم». نظرنا إليها -القفاز القديم- وتبادلنا نظرات التسلي.

قالت ماجي: «أجل، علينا الآن أن نرسلك إلى المعارض الخيرية لبيع الأغراض المستعملة أو دار رعاية الأطفال المُشردين».

وأخذت بعض حبّات العنب تتناولها بشهية وتسلي. ثم سمعنا دقاً على الباب، ودخلت الخادمة تحمل صينية بها كأس.

كانت تتقدّم في رهبة وتبجيل كأنها في غرفة يحوم الموت حولها، ثم تمت: «المُهدّي يا سيدتي».

بدا فتور الهمة في صوت لوسي إذ قالت: «اتركيه هنا. فلا طاقة لديّ لأخذه الآن».

رمتنا الخادمة بنظرة حادة كأننا نستجوب سيدتها ونقسو عليها. ثم ضبطت وسادتها وغادرت.

قالت ماجي وهي تُخرج بذرة من بذور العنب من فمها: «نظراً إلى تضحيتك بأجمل سنوات عمرك فاعلمي أنك لست في حال سيئ».

أنبتتها لوسي بنظرتها وقالت: «أنت قاسية ولا تفهميني. أنا لم أعرف الحب قط».

كسرت ماجي جَوْزَةً بأسنانها القويّة، وبأصابعها السمراء أخرجت اللب من القشرة. نظرت إلى لوسي ملياً وقالت: «أجل، لم تعرفيه قط».

- كان من الممكن أن أتزوَّج بجاستن.

بالطبع كان يمكنها ذلك، لكن جوابها صدمنا وعجزنا عن الردّ.
أزعج صمتنا لوسي فأردفت بتحدّ: «كان من الممكن أن أتزوَّج بجاستن
أصبح أنا مالكة تريسانت لا تلك المرأة المجنونة».

عندئذٍ تبدّد في نظري بهاء تلك الغرفة الفاخرة، وتساءلتُ كيف يا تُرى
يكون حال منزل سالي المتواضع في هذا اليوم الصحو. ثم نهضتُ جاهزة
للرحيل، أحدج لوسي إيفانز في عرشها الحريريّ بنظرة تكاد تفشي شعوري
بالازدراء.

نهضت ماجي بدورها وقالت: «إذن ترين أن من البغيض تضحيتك بأجمل
سنوات حياتك؟».

- أجل، أرى ذلك.

- إذن تحلّي ببعض المنطق السليم علّك ترين أن ميرفن قد يبغض تقديم
تلك التضحية من أجلك. إنه فتى رائع. إن أردتِ ألا تخسريه فأطلقني
سراحه.

احتدمت لوسي غضباً وقالت: «أنتِ لا تعلمين شيئاً عما تتحدثين لأنك لم
تخلقي للحب».

خشيتُ أن يثير ذلك التعليق سخط ماجي فناشدتها: «هيا بنا».

لكنها أمسكتُ طرف الملاءة الحريريّة بأصابعها، غصّنتها هازئة، ثم
تركتها تسقط وهي تقول: «تتحدّثين عن الحب؟!».

ثم مسحتُ ملمس الحريري الفاخر عن أصابعها كأنه لوّثها، وبعد لحظات
أردفت: «أنصحك بأن تغادري السرير يا لوسي. وحده وجود ميرفن يمنحك
دافعاً للحياة. وإن هذا الهراء لن يروقه».

في الطابق السفلي أتى رئيس الخدم كي يفتح لنا الباب، وسأل بجديّة
احترافيّة: «كيف حال سيدتي؟».

أجابته ماجي بحدّة: «ستظل حيّة».

فأجابها بغمرة غير احترافيّة مُفادها: «نحن ندرك حقيقة الأمر ولن
تستطيع خداعنا».

بادلته ماجي إيماءة الإدراك تلك آسفةً.

قالت إنني إن منزل عائلتها لم يشهد أي مظهر من مظاهر التسلية منذ وقت طويل. لهذا شعرت بحماس شديد عند استضافتها بضعة أشخاص لتناول الشاي، كأنها تُنظّم عشاءً في «مانشن هاوس». لقد اتضح أن تلك المناسبة حقاً مهمة لأن في حفل الشاي ذاك قابلت لوسي إيفانز ألويشس سلين.

في ذلك العام حصل دانييل على ترقية، وشعرت بفخر شديد عند وصولي إلى منزل السيد جوترسن برفقة دانييل أندريدج «مستشار الملكة». قلماً كنا نخرج معاً، وعندما نخرج فإننا عادةً ما نذهب إلى عشاءات رسمية حيث يكون دانييل، في أغلب الأحيان، أحد المُتحدّثين. كان يأخذ خطاباتهِ على محمل الجدّ. وراقه، في طريقنا إلى مناسبات كتلك، أن يتأمّل الأفكار التي سيطرحها. دائماً ما كانت خطاباتهِ ممتعة تجذب الاهتمام، يُلقِيها بمرح وسلاسة لا توحى بالجهود التي بذلها في إعدادها. لا شكّ أن مُستمعيه اعتقدوا أنني امرأة سعيدة الحظ لأنني أشارك ذلك الرجل الرائع حياته. بالطبع كنت محظوظة. لكنهم لم يتفهّموا - ولم أتوقّع أن يتفهّموا - أنّ اهتمام دانييل المتزايد بالمناسبات العامّة، وتنامي ثروته وشهرته كمحامٍ، وتفكيره في الانخراط في العمل السياسي، كل هذا أدّى إلى شعوري بأن وجودي في حياته أصبح هامشياً لا محورياً. لهذا كان من النادر أن يرافقني في مناسبة ثانوية عديمة الأهمية، مثل التي نظّمناها إنني. وعندما أقول إنني شعرت بالفخر لوصولي برفقة مستشار الملكة فإنني أعني جيداً ما أقصد. إنني أقصد أن الزمان قد مرّ ولم يعد وجودي برفقة دانييل، سواء أكان مستشار الملكة أو خياطاً أو شحاذاً، يغمّرني بالسعادة.

كان ذلك اليوم ممطراً. استقلينا عربة «هانسوم» من مقرّ عمل دانييل. وعندما وصلنا إلى وجهتنا وجدنا السيد جوترسن وإنني وميرفن، وماجي والكولونيل سلين هناك. همست لي إنني تقول إن الكولونيل سلين لم يكن مدعوّاً. لقد أتى في زيارة غير متوقعة. سرّني وجوده لأنني تطلّعت إلى لقاء الشخص الذي سمعت عنه أحاديث كثيرة أثارت فضولي. كان في أتمّ الأناقة، مثل ميرفن، لكنهما اختلفا. لقد شعرت أن سلين ارتدى ملابسه كما يرتدي مُمثّل ملابس الدور الذي يؤدّيه. لا أقصد أن ملابسه لم تكن تليق به، أو أنه بدا

غير مرتاح في ارتدائها. لكن الشعور بأنه يتنكر انتابني ولم أستطع تفسيره. كان طويلًا، ذا سُمرَة، ووسيمًا. تناسقت ملامحه باستثناء ملمح واحد شدَّ عن البقيَّة. تبدَّت الرجولة والصرامة في فكه الحادَّ وشفتيه الصارمتين، وأنفه الكبير، وحاجبيه المستقيمين الأسودين. لكن بينما أنا واقفة أتحدث معه، بعدما قدَّمته إنيد إليَّ، أدهشتني عيناه. لقد شابها الأعين الأنثويَّة، يبدو فيهما الذعر والمكر في الآن نفسه. كانتا نجلاوين، مثل عيني غزال، لونهما بني داكن. لم تنظرا إليك مباشرة، بل ترحزحت نظرتهما عنك في دورانهما حولك. بدا أنهما تحاولان دائمًا النظر جانبًا، كي تلاحظا ما يجري في جميع الأرجاء، كأن الخطر سيظهر من أي مكان. فجأة شعرت نحوه بشفقة يتعذر تفسيرها، كأنه فريسة. لكنني بالكاد حاولت التوفيق بين هذا الشعور وحقيقة أنني لحظت الصيَّاد فيه أيضًا. لقد بدا غزالًا مذعورًا بعينيه البديعتين ورموشهما الطويلة، ومُطارِدًا يحمل بندقيته ويتسلل من صخرة إلى أخرى، في الوقت نفسه.

الآن لم يتبقَّ على اكتمال الجمع سوى وصول لوسي، وقد رأيتها أنا والكولونيل سلين قادمة. كنا واقفين معًا عند النافذة الواسعة، نشاهد قطرات المطر الفضية تدقُّ الأرض، ثم يتعالى بخارها الأبيض بتمهُّل ليملأ الهواء. عبر النافذة المفتوحة بلغتنا الرائحة التي لا يعرفها أحد الآن لأن الطرقات أصبحت مُعبَّدة؛ رائحة التراب الندي بالمطر. تنسَّمها الكولونيل سلين. وتراءى لي أنه شديد التأثير بالروائح.

الآن عارضُ صوته، مثل عينيه، هيئته العسكرية. كان صوتًا كالمخمل البنيِّ الداكن، رقيقًا يُلَاطِفُ الأذن، أعجز عن تصور سماعه يهتف بالأوامر، إذ قال: «لا يوجد ما يُذكِّرني بصباي مثل رائحة امتزاج المطر بالتراب. وأشجار الزعرور أيضًا. أتذكَّر أنني كنت أحتمي أسفلها أشاهد قطرات المطر تسقط على التراب منفردة. ثم تتحد ويتكوَّن المعجون، فتنتشر تلك الرائحة المُميِّزة وتختلط بعبير أشجار الزعرور. كنت في العاشرة من عمري تقريبًا».

- أين أمضيتَ صباحك يا كولونيل؟

- في قرية إنجليزية بعيدة. عشت هناك مع أُمي.

- هل كان والدك ميتًا؟

- لا، لا. لكنني عندما أفكر في تلك الفترة أتذكر حياتي في وجود أمي فقط. أظن أن أبي سافر إلى مكان ما. أجل، سافر. لا شك أنه سافر.

تحدثنا عن إنيد وميرفن، فقلت: «ما أغرب الطريقة التي جمعتكما! لو لم تُضَع إنيد نقودها لربما ما التقيا قط. إنها واثقة أن المال كان في حقيبتها. أين اختفى يا تُرى؟».

قال بلهجة قاطعة: «نشال».

وعندما تساءلت هل يمكن لأحد أن يتمتع بخفة يد بهذا القدر قال: «هذه حيلة بسيطة. ستذهلين إن علمت ما يستطيع أولئك الأشخاص فعله».

لحظت أنه يُمشط شاربه إلى الأعلى بسبابة يده اليسرى في لازمة متكررة. هكذا تبدى أمامي كم أن أصابعه نحيلة، لكنها قوية.

قال: «أيًا كان من نسل مالها فقد أسدى إليها معروفًا. إن موستن-لويد، من الناحية المادية، مُرشح رائع للزواج».

- أجل، إنه كذلك. لكنه يملك ما هو أكثر قيمة من الثراء.

- بالتأكيد، لا شك. لكن تلك الناحية تثير اهتمامي. في غياب المال لا يكفي جاه العائلة للعيش.

ضحك ضحكة حزينة. ثم أردف يُمشط شاربه: «قال لي أحدهم إن موستن-لويد وُلد من زيجة سابقة لوالدته وحصل على لقبه عبر شهادة».

تساءلت من أخبره بهذا الأمر بحق السماء! بالطبع ليس إنيد.

أردف: «نظرًا إلى الحياة التي وفرتها لابنها فهي امرأة مُميّزة لا شك. هل تعرفينها؟».

- أجل. أعرفها منذ أعوام، تمتدّ علاقتي بها إلى طفولتي. إنها امرأة مُميّزة، على نحو ما.

- أخبريني عنها.

رأيت فيما قال تطفلاً ونظرت مباشرة إلى عينيه النجلاوين. لا شك أن عينيّ أظهرتا شيئاً من الصرامة، أو الامتناع من تخطّيه الواضح حدود اللياقة، لأن عينيه انسحبتا على الفور. وبينما يقطع دانييل الغرفة نحونا أخذتا تضطربان بحثاً عن مهرّب.

قلت: «دانييل، لا أظن أن إنيد قدّمتك إلى الكولونيل سلين. هذا هو زوجي يا كولونيل، دانييل أندريدج».

لقد ازداد جسد دانييل اكتنازًا. وبوجهه الطَّلَق الذي ازداد تورُّدًا وكياسته كان يجذب الكثيرين إلى تبادل أطراف الحديث معه. ثم يتصاعد النقاش إلى الموضوع الذي ينظر فيه إلى مُحدّثه نظرة جانبية، إذ يداه خلف ظهره والابتسامة لا تفارق وجهه، وي طرح السؤال الحاسم ذا الجواب الحتمي. وعندما تمسك الضحية بالطَّعم وتقع في الفخ، يُميل باروكته إلى جبهته، ثم يعبث بشعره مثلما اعتاد أن يفعل صبيًا، ويقول: «حسنًا يا سيد (فلان)، وفقًا لما قلتَ فإن هذا بالتأكيد يعني (كذا). ألا توافقني الرأي؟». ولا يسع السيد (فلان) سوى الموافقة، وهو يلعن في أعماق نفسه ذلك الوجه الصادق البشوش. تمنيت لو شهدت مواجهة مثل تلك بين دانييل والكولونيل سلين. لكنني لم أرَ سوى هوائيي الكولونيل يختلجان تجاه الوافد الجديد، الذي قد يكون خَطِرًا.

قلت: «ها هي والدّة ميرفن قد وصلت يا كولونيل».

كان المطر يهطل بغزارة. تتراقص قطراته على سطح العربة، تلمع على معطف الحوذي، وتُحيل لونَ الفرس البنيّ إلى الأسود.

قال الكولونيل: «يا إلهي! سيغمرها الماء».

وانطلق من فوره إلى الخارج بخفّة، ليظهر بعض لحظات في ممرّ الحديقة القصير. لقد خرج ميرفن أيضًا ليقابل والدته. لكن الكولونيل سبقه ورافق لوسي عبر الممرّ المرصوف، يُظللّها بالمظلة بحذر بالغ كأنها مكعب السكر الذي اعتادت ميرسي كايِت ذكره عندما تُمطر السماء ونحن خارج المنزل.

كانت تقول: «ستعودين إلى المنزل سالمة، لا تخافي. ماذا تظنين نفسك؟ مكعبًا من السكر؟».

وإن كانت في مزاجها العاطفي فإنها تقول: «بالطبع أنتِ كذلك! أنتِ مكعب السكر الوردِي خاصّتي».

وإن ابتهجّت بالمطر وركضت بعيدًا عن مظلتها الخضراء عتيقة الطراز -مثلما فعلتُ كثيرًا- كي أستمتع بالرداذ البارد على وجهي المُتّجه إلى

السماء، فإنها تتذمر قائلة: «حسنًا، تبَلَّي بالماء وسأقْلُبُكِ بملعقة حتى تختفي وأتخلص منك إلى الأبد أيتها المزعجة».

اختفى ميرفن ولوسي والكولونيل عن نظرنا إذ دخلوا المنزل. لقد ذهبت إنيد إلى الردهة كي تستقبل ضيفتها. أمّا أنا فلزمت النافذة تسافر أفكاري على هذا النحو الغريب إلى سنوات طفولة بعيدة، حتى دخل الجميع الغرفة. سمعت الكولونيل يسأل لوسي بصوته المخملي: «هل أنت بخير يا سيدتي؟ هل تأذيت؟»، كأنه سبح في نهر «نياجرا» كي ينقذها من موت وشيك. لكنها لم تُجبه، وتقدّم السيد جوترسن، الذي لم يفارق مِبدله وخُفّه حتى في مناسبة كتلك، كي يصافحها.

قال للكولونيل سلين: «يا للعجب! إن السيدة إيفانز يا كولونيل ليست حلوى السكر. كيف حالك يا سيدتي؟ من بالغ لطفك الحضور اليوم».

وقفت لوسي بينهما حائرةً أتُساير من يراها رقيقة مثل حلوى السكر، أم تقول إنها امرأة شديدة البأس لا تهتم للسير تحت المطر من العربة إلى باب المنزل. لكنها الآن، بعدما خلعت وشاحها، بدت حقًا مثل الحلوى. كانت ترتدي ثوبًا حريريًا مُخطّطًا يشبه عيدان الحلوى الشهية، التي كنت أراها زاهية تملأ الزجاجات المعروضة في واجهات المتاجر في طفولتي. انساب الحريري ذو الخطوط الخضراء والبيضاء من خصرها إلى قدميها. ازدان صدر ثوبها بكشكشات باللونين نفسهما. وبدت قبعتها الكبيرة خضراء كأنها مَرَج، حتى إنني لم أكن لأتفاجأ لو ظهرت الطيور فجأة تُغرّد حولها. لقد وصلت الحورية تكتسي ربيعًا.

تسلّيتُ بملاحظتها تُرينا كم أنها تعرف «مكانها» جيدًا، وأن الشابين إن بلغا من الوقاحة ما جعلهما يُقرّران الزواج -هكذا ذكّراها بمرور سنين عمرها- فستقبل الدور الذي أُعطي لها. جلستُ بجوار السيد جوترسن الذي أحاطت به هالة من الحكمة والخبرة أكسبته وقارًا، مع أنه بالتأكيد لم يكبرها سنًا بكثير وربما لم يكن أكبر منها أصلًا. وتمكّنتُ، حيث تشغل موضع الوالدة الوقور، من أن ترسم لنفسها صورةً مشابهةً لآثَرٍ مُحطّمٍ التفّ حوله لبلاب مُزدهر.

كان دانييل وماجي أكثر من يستمتعا بوقتيهما. دائماً ما تبدى تقديرُ ماجي مناسباتِ كتلك في ابتسامتها المُتسلية. أمّا دانييل الذي يقف بعيداً عن الجميع، يعلو وجهه ابتسامة ملائكية وتشعّث بضع خُصلات من شعره، فقد أوحى مظهره ببراءةٍ أدرك جيداً أنها تخفي نظراً ثاقباً. ولأن ميرفن وإنيد لم يعباً بسواهما فقد وقع على عاتق الكولونيل سلين توزيع أطباق الشطائر وأكواب الشاي.

قال: «سأحضر لك كوب شاي دافئ يا سيدة إيفانز. أخشى أن تصابي بالبرد».

قال السيد جوثرسن: «هراء! كفى ثرثرة عن بضع قطرات من المطر يا سلين. إن السيدة إيفانز تبدو بصحة ممتازة. يا للعجب! يصعب أن أُصدّق أن ميرفن ابنها فهي تبدو شقيقته. لكنني أبدو جدّ إنيد بالتأكيد».

نقلت لوسي نظرها منه إلى الكولونيل، تحاول مسيطرة رأي كلّ منهما. غادر دانييل زاويته يحمل كوب الشاي وقال: «لقد قرأت مؤخراً مقالاً في مجلة «كورنهيل» يا كولونيل. كتبه جندي سابق بإدارة الخدمات الطبية بالجيش. يؤكّد فيه أن التعرّض للجو ليس مؤذياً. وهو يعرف رجالاً يُبلّهم المطر يوماً تلو آخر، وتجفّ ثيابهم فوقهم، ولم يصبهم أي سوء. وفقاً للنظرية التي وضعها فإن قلّة التهوية تتسبب في الإصابة بنزلات البرد أكثر من الخروج في المطر. ما رأيك؟ كيف كانت تجربتك بصفتك جندياً؟».

نظر الكولونيل إلى وجه دانيال المبتسم، دارت عيناه هنا وهناك، ثم قال: «أجل، لقد اطلعت على هذا المقال بنفسي. إن كاتبه هو...؟».

لكن تلك الحيلة الصغيرة لم تنطلِ على دانييل. لم يخبره بالاسم وحافظ على ابتسامته ينتظر جوابه. بعد لحظات قال: «حسنًا، دعك من اسمه. كيف كانت تجربتك؟ أين أخذتك الحملات العسكرية التي شاركت فيها؟».

عندئذٍ تدخلت ماجي لتُسعِفَه قائلة: «رجاءً يا كولونيل، سأخذ كوباً آخر من الشاي».

بدا الامتنان في عيني الكولونيل وهو يأخذ منها الكوب، وسرّني رؤية دانييل يعود إلى زاويته. لاحظت أن لوسي حدجته بنظرة ملؤها الجفاء. ثم

تركت مقعدها بجوار السيد جوثرسن لماجي ويل، التي سرعان ما دفعته إلى الحديث بحماس عن مكتبته العجيبة.

سمعتها تقول: «لكن يا عزيزي، ماذا تفعل بحق السماء عندما ترغب في القراءة؟ ليست الكتب معرضًا للحقائق فقط. إن الكاتب يعبر عن رؤيته عبر خيالاتٍ وتفاصيل قد تبدو ثانويةً أو غريبة».

- تتحدثين مثل الروائيين الحالمين. أنا لا أقرأ الكتب، بل أستخدمها.

تركتها عند هذه الجملة والحُمرَة تغزو وجه ماجي لأن عبارة «الروائيين الحالمين» دائمًا ما أغضبتها. وجلستُ أتحدث مع ميرفن. لقد اجتذب دانييل إنيد بحديثه. والآن أُتيح للكولونيل أن يفعل ما بدا واضحًا أنه يرغب في فعله منذ وصول لوسي إيفانز، وهو مخاطبة سيادتها.

ظلَّ الجمع على هذا الحال حتى وصلت عربة لوسي عند البوابة. لقد توقف المطر، ولاح بعضُ من السماء الزرقاء من بين الغيوم الرمادية المُتَلَكِّئَة.

نهضت لوسي، استأذنت في الانصراف، ثم التفتت إلى الكولونيل تقول: «هل أوصلك إلى أي مكان يا كولونيل؟».

نظر سلين إلى ساعته وقال: «يا إلهي! إنها الخامسة مساءً! لديّ موعد في النادي في الخامسة والنصف. هل يمكنني أن أستقلَّ عربتكِ إلى هناك؟ ستُسدِّين إليّ معروفًا كبيرًا. وجهتي هي نادي «جاريك»».

ثم غادرا معًا وشاهدنا العربة تنطلق بهما. وسرعان ما وصلت العربة التي طلبها دانييل لنغادر بدورنا.

قال دان: «نادي «جاريك»؟! هذا غريب، أليس كذلك؟ لم أره هناك قط رغم أنني عضو في ذلك النادي منذ سبعة أعوام. دعيني أخبركِ بما سيحدث. سيتقدم بشكر السيدة جزيل الشكر، سيشاهد العربة تبتعد، ثم سيتجه إلى مدخل النادي. وعندما تختفي العربة عن الأنظار سيعود إلى عُليَّته في أي حيٍّ فقير، ليرتاح خالغًا مَشْدَه».

- مَشْدُ! بالطبع لا يا دانييل.

- أكاد أجزم بأنه يرتديه. وأؤكد لك أنه مُترهل الجسد مثل بيضة نصف مسلوقة. من العجيب أن يسمح البعض للآخرين بخداعهم دون بذل أقل مجهود لتبيين الحقيقة.

- من يتعرض للخداع الآن؟

- عائلة جوثرسن. ذلك الرجل ليس بكولونيل. لو اتَّخذا أبسط التدابير الاحترازية وطالعا قائمة ضباط الجيش لوجدا أنها لا تتضمن اسمه.

- هل تظن أن لوسي إيفانز أعجبت به؟

- لقد حدجتني بنظرة حادة عندما حاولت إرباكه. إنه من نوع الرجال الذين قد يحظون بفرصة.

- مع من؟

- مع السيدة إيفانز. إنه يملك عينين تستجديان التعاطف، ويوحى مظهره العام بالقوة والنفوذ. تضعف كثيرات من النساء أمام هذا المزيج. ثم إن السيدة إيفانز تعيش لحظة اضطراب.

- السيدة إيفانز امرأة حازمة جدًا.

- بالتأكيد. لكن لا تنسي أن كل شيء، في ما بدا، قد تهيأ لأن تصبح أخيرًا مالكة مؤسسة يعمل فيها ابن مطيع. لكن ميرفن، في الوقت نفسه، عثر على عروس له. قريبًا ستترك السيدة إيفانز وحدها في ذلك المنزل الواسع، معها كل الوقت للتخطيط لتعقيد الوضع. ولأنها لم تتزوج قط فقد تروقها الفكرة. ستأتي بردًا حادًا دون وعيٍ منها على ميرفن والآنسة جوثرسن، كأنها تقول: «إن ظننتما أن أمري قد انتهى لأنني تركت وحدي فأنتما مخطئان».

لم يسعني سوى الضحك على تحليله المسألة على هذا النحو، وقلت: «أنت تُحلل المشكلات العائلية كأنها مسائل رياضية».

- إنني أمتلك عقلًا رياضياتي.

- إن أرادت الزواج فستعثر على عديد من الرجال المناسبين. اعتاد كثيرون منهم الذهاب إلى منزل موستن لويد عندما كان حيًا.

- ليس الأمر سهلاً لأن وضعها في المنزل حينئذٍ كان مُلتبسًا. ألا تتفقين معي؟

- لا أظن أنها كانت أكثر من مدبرة منزل موستن لويد ومفخرته.

- ربما. لكنك تعلمين كيف يُفكّر الناس.

- إذن حُكِمَ على لوسي بأن تصبح ضحية رجل أرعن؟

- لا أظن ذلك. لا أظن أنها من سيصبح الضحية على المدى البعيد.

بالغت في التعبير قائلة: «تقصد أن الحزن يُدمي قلبك على الكولونيل سلين؟».

- لا يُدمي الحزن قلبي على أحد. (فتح النافذة في سقف العربة وأمر السائق بالتوجه إلى مقر عمله، ثم أضاف) توجد أطنان من العمل عليّ إنجازها.

6

بعدما تركني دانييل عدت إلى المنزل حزينّة ومُحبّطة. حاولت تجاهل مزاجي لأنه غير معقول. سألت نفسي كيف لها أن تعتقد أن الحال سيظل كما كان. إن التغير سمة الحياة، والأحمق فقط من يظن أن جميع التغيرات ستكون للأفضل. رغم ذلك فكّرت بلهفة في عهدنا السابق، حيث اعتاد دانييل أن يجلب عمله إلى المنزل، ويجلس بأوراقه أسفل المصباح الأخضر، وأنا أقرأ بجوار المدفأة. بالطبع اتسع عمله الآن، ولزمه الاطلاع على الكتب ورزَم من الوثائق ليس من المعقول أن يحملها جيئةً وذهابًا من منزله إلى مكتبه. لكنه لا يمضي وقته كله في المكتب، أليس كذلك؟ أحيانًا يذهب إلى نادي جاريك، وإلى أماكن أخرى لم أعرفها. وعندما يتسنّى لنا الحديث معًا فإن محادثتنا كثيرًا ما شابته ما دار في العربة: تحليل هادئ لوضع لا يخصُّ أيّا منا! لقد قال: «لا يُدمي الحزن قلبي على أحد». لكننا عشنا عهدًا كان ليلتفت إليّ بعد مقولة كتلك ليضيف: «ما عدك!». ربما لم أكن حقًا استثناءً لديه قط، لكنني رغم ذلك وددت سماعه يقولها.

لقد اتسعت البقعة الزرقاء التي لاح بعضها ونحن نغادر منزل عائلة جوثرسن وطردت الغيوم. خضَّب ضوء الشمس الوجود، وبدت الأشجار المُبتَلَّة بالمطر منتعشة راضية. التمتع زجاج النافذة في ومضات ذهبية، ورأيت على رأس الفرس الذي يجرُّ العربَة قبة قشيَّة سخيَّة برزت أذناه من خلالها. لكن بهاء الطبيعة لم يُحسن مزاجي. فكَّرت في الأيام التي اعتاد فيها دانييل زيارتنا مساءً، عندما كان يدرس في لندن وأنا أعيش مع ماجي، ويتحدث عن كل شيء باستثناء ما أريد سماعه. شعرت كأنني عدت إلى تلك الفترة الكئيبة. تذكرت الليلة التي غادر فيها كالمعتاد وركضت لغرفتي أبكي ساعات. الآن لم أرغب في البكاء. لكنني، رغم سطوع الشمس، شعرت أنني أرتدي معطفًا رماديًا وأسير في طريق رماديٍّ تحت المطر. عندئذٍ تمنيت أن يحظى ميرفن وإنيذ بالسعادة. هذا ما آل إليه الحال: أن أتمنى السعادة، التي أفنقر إليها، للآخرين.

7

ذهبت إلى غرفة ريتشارد أنتوي قضاء نصف ساعة معه ومع الآنسة ماكينزي، التي تؤدي الدور الذي أدَّته ماجي ويل في حياتي مسبقًا. على أنني ارتبت في أنها تحمل أياً من خصال ماجي. وقلت في نفسي للمرة المئة إن من السخيف مني ألا أدِّرس ريتشارد بنفسه. رأيت أنني أستطيع تولِّي الأمر على نحو أفضل بكثير من الفتاة الضئيلة المذعورة، التي دائماً ما تقف خجلةً عندما أدخل أنا أو دانييل الغرفة، والتي خشيتُ أن يُشقيها ريتشارد. لقد أظهر نضجاً مبكراً في الحديث والقراءة والكتابة. أحياناً كانت الآنسة ماكينزي اليافعة تخطئ في نطق كلمة يعرفها فلا يدعها تنسى خطأها أبداً. أتذكر ذات مرة أنني كنت في غرفة الدراسة أستمع إليها تقرأ له، حتى وصلت إلى جملة تقول: «إن ربطة العنق مُعَوَّجة». دائماً ما كانت ترتبك عندما تعطي الدروس في حضوري، ربما لهذا السبب نطقت الجملة بهذه الطريقة: «إن ربطة العنق معوَّجة». ولأن ريتشارد كان ما يدعونه الآن «طفلاً استعراضياً»، فقد قفز من مقعده في الحال وأخذ يركض في الغرفة يضحك مثل بابا نويل ويغني: «إن ربطة العنق معوَّجة، معوَّجة تماماً. اضبطيها حالاً».

ظَلَّتْ الأَنَسَةُ ماكينزي جالسةً أصابعها متشابكة على الكتاب المستقر في جِحرها، ورأسها مَحْنِيٌّ أَسْتَطِيعَ رُؤيةَ الدرب الأبيض الذي يفرق شعرها عبر تَلِّ فروة رأسها. لقد شعرتُ بمهانة شديدة، ولحظتُ دمعة تسقط على الكتاب. كان ما هَمَّنِي بِقَدْرِ معاناتها هو لامبالاة الصغير. لقد واصل الاستعراض والغناء حتى أَمْسَكْتُ بذراعه وحثثته على الخروج من الغرفة. أُنَبِّتُهُ على ما فعل، لكنني لم أَتَوَقَّعَ أي فارق لأنني جَرَّبْتُ الأمر نفسه من قبل دون نتيجة.

في ذلك المساء وأنا في غرفة الجلوس وحدي بعثت الأَنَسَةُ ماكينزي برسالة مع إحدى الخادِمات، تسأل إن كان ممكناً أن أَمْنَحُها قِليلاً من وقتي. فهي لم تتحلَّ بالشجاعة قط للقدوم إلى بابي وطرقه وطلب الإذن بنفسها.

عندما وصلتُ إلى عتبة الباب كنت أقرأ بجوار المدفأة. وقفتُ في الظلِّ تتردد في الدخول حتى طلبت منها أن تتقدَّم، ثم وقفت مضطربة حتى أمرتها بالجلوس. بدا واضحاً أنها أَمْضَتْ وقتها تبكي، وقد أتت تسألني إن رأيتُ أن عليها ترك وظيفتها. لكنها قبل أن تمنحني فرصة للردِّ أخذت تحكي عن والدتها، الأرملة التي تعيش في «ورسترشير» في ظروف صعبة. رغم تلك الظروف كان عليَّ أن أُسَرِّحها لأنها لا تَلْبِي ما يحتاج إليه ريتشارد. لكنني، كالحقماء، تأثَّرت بحالها، وحثثتها فقط على أن تصبح أشد حزمًا في التعامل معه. قالت إنها باقية على رأس عملها، وبدا عليها الارتياح والذعر جرَّاء هذه النتيجة. ورغم تقريعي ريتشارد ونصيحتي لها فإنني كثيراً ما سمعته بعد ذلك يسألها، وهو ينظر إليها نظرة ماكرة: «هل ربطة عنقي معوجة يا آنسة ماكينزي؟».

عندما ذهب إلهما في تلك الليلة كانا يلعبان الداما. وقفتُ برهةً أشاهدهما، في أثنائها حرَّكت الأَنَسَةُ إحدى قطعها فقال ريتشارد منزعجاً: «لقد حرَّكت هذه القطعة عمداً. وضعيتها هناك كي أُلَاحِظَ بها. أنتِ تحاولين مساعدتي في كسب المباراة. إنكِ تجارينني لكنني أَسْتَطِيعُ هزيمتكِ دون أن تفعلي هذا».

ثم أَسْقَطَ جميع القطع أرضاً، وجثت الأَنَسَةُ ماكينزي المدعورة تجمعهم.

كنت أتميزُ غضباً، قلت بحدة: «اتركيهم. انهضي!».

نهضتُ فأمرتُ ريتشارد بجمع القطع. فعل ما أمرته به ووضع اللعبة في الصندوق.

قلت: «الآن اعتذر إلى الآنسة ماكينزي».

غمغمت: «حقاً يا سيدة أندريج ليس هذا ضرورياً».

عندئذٍ وددت صفعها، قلت: «اسمحي لي بأن أقرر ما هو الضروري. هيا يا ريتشارد!».

عبسَ لحظات ثم قال بتثاقل: «أعتذر عن فعلتي المعوجة».

كان قوله إهانةً وجَّهها لي ولها. لهذا، للمرة الأولى والأخيرة في حياتي، صفعته. نزل باطن كفي على خدِّه في صفعة حادة غاضبة. ضحك الصبي ساخراً وأخذت الآنسة ماكينزي تبكي. شعرت بالغثيان لمرأهما واندفعت خارجة من الغرفة. ذهبت إلى غرفة النوم، أطفأت المصابيح، ورقدت في السرير مُنهكة. بدأ رأسي يؤلمني، وفجأةً أيقنت ما شككت فيه منذ مدة؛ سأرزق بطفل آخر. عندئذٍ قرَّرت أنني من سيتولَّى أمره، ولا مكان للآنسة ماكينزي هذه المرة. سأنجب فتاة وسأسمِّيها فيرونيكا! ثم استغرقت في نوم عميق.

الفصل السابع عشر

مكتبة

t.me/soramnqraa

1

لم أستطع حضور حفل زفاف ميرفن وإنيد في كنيسة «سانت جورج» في ميدان «هانوفر» لأنه أقيم في الشتاء، وفي تلك الفترة لم يلائم مظهري حضور المناسبات العامّة. لكنني قبل الزفاف ذهبت لرؤية المنزل الذي اشتراه ميرفن في ميدان «هانوفر»، حيث سيشارك السيد جوثرسن الزوجين العيش. هكذا تغلّب ميرفن على خوف إنيد من ترك والدها وحده. هناك رأيت أوّل مصعد نُفِّدَ في منزل عائلي. بدا غريبًا، لكنه لبّي الحاجة. كان يحمل السيد جوثرسن دون أن يعاني خفقان القلب إلى الطابق العلويّ، حيث ضُمّت عدة غرف لتصنع الجناح الخاص به. فيه رُتّبَت مقصوراته كلها، وأُلِحِقَت دورة المياه بغرفة نومه. عندما عاينت المنزل مع إنيد كانت عاجزة عن التعبير عمّا كان، في نظرها، شرفًا حظيت به. رأت أنها أصبحت حبيبة رجلٍ ابتاع ذلك المنزل وأثّثه كما رأيناه الآن، وجّهّزه بمصعد، وخصّص لوالدها جناحًا لم يحظَ به قط، ففاضت مشاعرها. وبينما تقف هناك في غروب شمس ذلك اليوم الخريفيّ، نظرتُ من نافذتها العالية إلى الميدان حيث ينتصب تمثال «ويليام بيت» للمثال فرانسيس شانترى، وسمحت لعينيها بأن تجودا بدموع السعادة.

قال ميرفن إن موقع ميدان «هانوفر» ملائم «لمصلحة العمل»، إذ لا يلزم الوصول إلى المتجر سوى السير في شارع «أكسفورد» دقيقتين فقط. كان

يروقه الحديث بتلك الطريقة كأنه وُلد ليصبح رجل أعمال. أحيانًا تساءلت ماذا كان ذلك الفتى الرائع ليفعل لو عاش الظروف نفسها التي واجهها والده بالتبني. تساءلت أيضًا هل تعلم إنيد أنها، فيما يتعلق بمكاسبها المادية، ليست مدينة لميرفن بل لرجل من ويلز، ذكي، مادي، تلقى تعليمًا متواضعًا، لم تلتقه قط؟ ثم رأيتُ أنها، بالأحرى، مدينة للحرائق التي التهمت متجري موستن لويد في جنوب ويلز. لقد ارتاب موستن لويد في أن الحرائق مفتعلة. لهذا أعلن مكافأة كبيرة مقابلًا لاكتشاف الجناة. لكن لم يتقدّم أحدٌ لنيل تلك المكافأة قط. ربما كان سبب الحرائق أن أبنية المتاجر في جنوب ويلز سريعة الاشتعال، وهي ما دفع موستن لويد إلى البحث عن متجر مضاد للحرائق في لندن.

كان دانييل، الذي علم بتلك الحقائق المثيرة للاهتمام مؤخرًا، لينزعج لو أنني أخبرته بها الفتاة اليافعة المُغرّمة الواقفة بجواري، أو أي أحد على الإطلاق. لهذا لم أقل شيئًا. وبعدما شاهدنا العربات تقطع الميدان، واختبرنا بعض مصابيح الغاز الجديدة، خرجنا نتجول معًا، ثم جلسنا في أحد صالات الشاي نتحدث عن فساتين الزفاف.

2

تقبّلت لوسي إيفانز، في ما بدا، فكرة خسارة ميرفن. زالت الكآبة التي انتابتها وأصبحت تلاطف إنيد. لم يذهب ألويشس سلين إلى منزل عائلة جوثرسن مجددًا قط، لكن ميرفن أخبرني أنه كثيرًا ما تردّد إلى منزل كنزنجتون. تساءلتُ أي أعذار تحجّج بها لإجراء لتلك الزيارات، وأخبرني ميرفن أن زيارته الأولى إلى هناك كانت لإعادة بعض المال. لقد فهمتُ مما قال إن الأمر بدأ على هذا النحو: بعدما غادرت لوسي وسلين حفل الشاي معًا أعرب الكولونيل عن سروره لمراى السماء المُشرّقة، لأن الرطوبة المتواصلة تُسبّب الملاريا التي أصيب بها في الخارج. ولأنه، كما أخبرتني إنيد، متى يأت على ذكر «الخارج» يتسلّ بالحديث بلا توقف، فقد ذكر أنه احتفظ ببعض الأوراق النقدية التركيّة في أثناء عمله مُلحقًا عسكريًا في القسطنطينية.

خاطب لوسي قائلاً: «هذا رائع، أليس كذلك؟ سأريك بعضها».

لكن المحفظة التي تحتوي على الأوراق النقدية، واأسفاه!، قد اختفت. صاح الكولونيل سلين غاضباً: «يا له من أمر بغيض! كانت نقودي الخاصة في تلك المحفظة والمصارف مغلقة الآن. لكن ضياع المال ليس ما يغضبني، إذ يمكنني الذهاب إلى المصرف غداً رغم أن ما حدث سيضعني في موقف محرج الليلة. ما يغضبني هو ضياع المحفظة. كانت هدية من صديق عزيز، وزير تركي».

فتش جيوبه كلها مجدداً، لكنه لم يعثر على المحفظة.

قال: «سأضطر إلى نشر إعلان ضياعها ووضع مكافأة لمن يجدها. اللعنة! سامحيني يا سيدة إيفانز، لم أستطع ضبط نفسي. إنني مستعد لبذل مئة جنيه في سبيل استعادتها».

اقتрحت لوسي برقة حلاً لمسألة حاجته الحالية إلى المال حتى تعود المصارف إلى العمل غداً. لكنه رفضه؛ لن يقبل أبداً اقتراض المال من امرأة رائعة كريمة، على استعداد للثقة برجل في مأزق تأسف لحاله، لكنه يظل غريباً عنها.

سألها والابتسامة على وجهه: «ما الذي تعرفينه عني يا سيدة إيفانز؟ وبالمناسبة، ما الذي أعرفه عنك؟».

قالت لوسي: «ربما يعرف أحدنا الآخر جيداً بما يكفي لأقرضك المال. (فتحت حقيبتها وأردفت) يؤسفني قول إن النقود في حقيبتي الآن لا تتعدى ثلاثة جنيهات. الآن هل تسمح لي بأن أقول إنني، في ما أظن، أعرفك جيداً بما يكفي لأن أدعوك إلى زيارتي وتناول الشاي بصحبتني عندما تُعيد المال بعد ظهيرة يوم ما؟».

منحته بطاقة الزيارة الخاصة بها فقبلها الكولونيل، وأخذ الجنيهات الثلاثة على مضض.

قلت لميرفن: «لا أظن أن إعلانه عن المحفظة المفقودة قد لبى الحاجة».

فأجابني: «لقد عُثر عليها. في تلك الليلة أحضرها حوذي عربية أُمي إلى المنزل. لقد علقتُ خلف مساند العرببة. كانت المحفظة أنيقة، مصنوعة من

جلد فاخر أحمر اللون، نُقش عليها أحرف اسمه الأولى باللون الذهبي. لقد أرتها أُمي لي هي والأوراق النقدية التركية. احتوت المحفظة أيضًا على ورقتين نقديتين إنجليزيّتين من فئة الخمسة جنيهات. وقد أعرب عن امتنانه الشديد لأُمي عندما أعاد إليها الجنيهات الثلاثة».

أقرُّ بأن تلك الخاتمة فاجأتني. عندما سردت القصة لدانيل انتقدها بإيجاز. قال: «أولاً: إن مصداقية الرجل موضع شك. رغم أنه يقول إنه كولونيل فإن اسمه ليس مُدرجًا في قائمة ضباط الجيش. يقول إنه عضو في نادي «جاريك» وأنا واثق أن هذه كذبة. لهذا أنظر إلى أي شيء يتعلق به، لنقل، دون سذاجة. والآن، إن أردت أن تقنعي شخصًا سليم النية بأنك جديرة بالثقة، فأني وسيلة لتحقيق هذا أسهل من أن تدسّي محفظة فاخرة، تحمليها معك لأن إظهارها قد ينفعك في مواقف عدّة، وتحتوي على جميع الأدلة التي تدعم ما تحدّثت عنه؟ لقد ذهب إلى تركيا وها هي الأوراق النقدية التركية. ليس مُتسوّلاً وها هي الجنيهات العشرة. أوكد لك أنه كثيرًا ما استغل تلك المحفظة والورقتين النقديتين لتأكيد مصداقيته».

- لكن يوجد شيء لا أفهمه يا عزيزي. إن أراد أن يبرهن على جدارته بالثقة بأن يُري لوسي النقود التركية وماله الخاص، فلم لم يفعل هذا وحسب؟

شعّت شعره ونظر إليّ بشفقة. قال: «لا خبرة لديك بالنفوس يا سارا. ألا ترين أهمية إثارة بعض الشك في عقلها؟ هل هو كاذب؟ هل سيُعيد مالي؟ هل تصرفت كالحمقاء؟ ثم تبديد الشك. أوه! إنه صادق. هكذا تتطلّع إلى رؤيته مجددًا، فخورًا لأن ظنّها الأول بشأنه اتّضحت صحته في النهاية. أرى أن السيد سلين ماهر جدًّا. على الأرجح أن لديه خبرة في هذه الأمور. فهو، على النقيض منك، خبير بالنفوس. لكن لا تبالي بما قلت للتو - باستثناء أن الرجل يكذب - لأنه محض حدس، ولا يوجد دليل قاطع يثبت صحته».

سيمرُ بعض الوقت قبل أن أسمع بالسيد برنادر كابلز. إن تداعيات أفعال شخصيات مثله تتجاوز إدراكي، ولا أدري ما الذي كان يخطُّط له بالضبط. لقد دافع عنه دانييل وقضت المحكمة ببراءته. تحدّث هو ودانييل حول أمور كثيرة، وصادف أن ذكر السيد كابلز «أحد المعارف المشتركة بينهما»، وهو الكولونيل سلين. لم يعبأ دانييل بهذا الأمر، لكنه قصّه عليّ فأثار فضولي، وقلقي.

حينئذٍ كانت لوسي إيفانز قد تزوجت الكولونيل سلين منذ عام تقريبًا. عُقد الزواج في تكثُم، بلا ضجّة أو احتفال، بعد قليل من زواج ميرفن وإنيد. ثم سافر الزوجان إلى الخارج وعادا مؤخرًا.

الآن أودُّ أن أذكر تفسيري لما فعل الكولونيل سلين. لقد رأيت في مراسلته السيد جوترسن بشأن كتابه فعلًا اعتاده: وهو استغلال أي وسيلة يأتي بها عقله ليقدّم نفسه إلى عائلة راقية كي ينتفع بأي ميزة من مزايا الاختلاط بها. رأيت أنه قادر على ارتكاب فعلات شائنة تافهة، مثل سرقة بضعة فلسات من حقيبة إنيد، رغم أن عائلة جوترسن خيّبت آماله بعدما قابل اللورد الفقير، الذي طالت علاقته بسباقات الخيل وسوق الأوراق المالية ووسمها سوء الحظ. على الأرجح أنه كان يستعد لإنهاء مغامرته عندما أشارت التبعات المدهشة لسرقته الصغيرة إلى أن الفرصة لا تزال محتملة، بل وأصبحت واضحة عندما اكتشف الوضع الذي وجدت لوسي إيفانز نفسها فيه. هكذا فسّرتُ ما حدث. على أن أمرًا واحدًا أثار حيرتي. لقد بدا واضحًا أن الرجل فقير، لكن واقعة الأوراق النقدية التركيّة أشارت إلى أنه يحوز بعض المال. لقد وافقت دانييل في رأيه القائل إن الرجل على الأرجح يعيش في عُليّة في حيّ فقير، لكنه استقر في شارع «جرمين» الراقي في بناية رفيعة المستوى. إنني أعلم بهذا الأمر لأن ماجي ويل قابلته في «بيكاديلي» ذات يوم. كان في كامل أناقته يسير مُؤرّجًا عصاه ويبدو، كما يقولون، يكاد يطير من السعادة.

حيّاها هاتفاً: «طاب يومك يا آنسة ويل. إنني في نزهة أروّح عن نفسي بعد اضطراب هائل. حتى الجنود المخضرمين مثلي يسأمون من الانتقال

من معسكر إلى آخر. لكن هذا ما وجب فعله لأنني لم أعد أستطيع تحمّل «ألباني».

أخبرها أنه انتقل للتوّ من ثكنة «ألباني» العسكرية إلى بناية جديد، وسألها الذهاب معه كي تلقي نظرة على ترتيبه مسكنه. لم تكن غالبية النساء ليقبلن دعوة كتلك، لكن ماجي لم تعبأ بأرائهن حول المقبول وغير المقبول. لقد أثار شخصه فضولها. أرادت الروائية بداخلها أن تستكشف جميع نواحي حياته. هكذا رافقته بسرور إلى شارع «جرمين».

قال: «هنا أنا فقط. وعادة ما أتناول الطعام في نادي جاريك». صعدا الدرج حتى وصلا إلى باب فتح سلين مزاجه.

قالت لي ماجي: «الغريب أن غرفة الجلوس لم تكن شاغرة. وقف فيها رجل قصير أسمر البشرة، يتطلع حوله كأنه مالك البيت. كيف دخل هناك؟ لا بد أنه يملك المفتاح».

هتف الكولونيل متفاجئاً: «كابلز!».

انحنى كابلز تحيةً لماجبي وقال: «معذرة يا كولونيل. سأغادر فوراً».

قال سلين: «ذلك الرجل هو وكيل مالك العقار. أظن أنه جاء ليتحقّق أن كل شيء في مكانه».

أخبرتني ماجي أن مسكنه كان فاخراً ولا شك أن تكلفته عالية. بدا أيضاً أن سلين يملك من المال ما يُمكنه من الإنفاق كما يحلو له. أصبح يصطحب لوسي إيفانز إلى أرقى المطاعم. أحياناً يصطحب ميرفن أيضاً. ودائماً ما يطلب ما لذّ وطاب ويدفع ثمنه.

لم يكن ذلك الوضع لائقاً. لا أدري كيف رأى ميرفن تودّد الرجل الصريح إلى أمّه ولم أستطع سؤاله. لقد استغرق في سعادته الخاصة حتى إنه بدا مُستعدّاً للترحيب بأي شيء قد يأتي به العالم.

بدأ بطني في البروز وقلّما غادرت المنزل. على أن ماجي زارتني ذات مساء وقالت: «اليوم تناولت الغداء بصحبة هاري روكبي في «كافيه رويال». احزري من رأيت هناك».

- يا له من سؤال سخيف يا ماجي! كيف لي أن أحزّر؟!

- حسنًا، حسنًا، لا تدعي الحدث السعيد القادم يفسد مزاجك. إنه الكولونيل. كان يتناول الغداء مع الرجل القصير الذي رأيته في مسكنه في شارع جرمين. بدا الاثنان زوجًا من المتأمرين. ماذا كان اسم ذلك الرجل؟ هل تتذكرينه؟

- كابلز، أليس كذلك؟

- بلى، كابلز.

والآن، بعدما عاد الكولونيل والسيدة سلين من شهر العسل الطويل، يعيشان في منزل كنزنجتون حيث يوجد سرير لوسي البديع، ظهر مجددًا في ظروف مشتبه فيها هذا الاسم: كابلز، برنارد كابلز.

4

بعد قليل من انفعالي على ريتشارد والأنسة ماكينزي أغلقت المحاكم أبوابها وبدأت الإجازة الطويلة. وجدت في هذا الحدث فرصة لفعل ما يجب عليّ فعله من قبل. أخبرت الأنسة ماكينزي أننا لن نكون في حاجة إليها بعد انتهاء الإجازة، ووعدني دانييل بانتقاء مدرسة يلتحق بها ريتشارد.

قال: «سأتشاور في الأمر مع بعض الزملاء في سفرتي إلى «اسكتلندا»».

لم أكن سأسافر معه. في حالتي وقتئذٍ لم أرغب في مغادرة المنزل أو لقاء الناس. لكن دانييل حرص على تلبية تلك الدعوة لأن آرثر بلفور مُسافر بدوره برفقة عدد من السياسيين. كنت أعلم أن دانييل يودُّ أن يتقرب إليه. لقد ألقى خطابًا في أحد اجتماعات بلفور وتلقّى رسالة من الرجل عالي الشأن يمتدحه فيها.

لقد خضت مع دانييل نقاشًا صريحًا طويلًا بشأن ريتشارد. لُمتُه على إهمال الصبي والسماح له بفعل ما يحلو له. ولم أتقبَّل «العمل» سببًا أو عذرًا لانغماسه المتزايد في شؤونه الخاصة.

صحت غاضبة: «لو لم يكن ريتشارد جزءًا من «عملك» فأخبرني أي شيء أحقُّ بأن يكون جزءًا منه. إن الصبي يزداد غرورًا وأنانية. يوجد عديد من النساء حوله، لكنه لا يتبع الآداب الواجبة عند التعامل معهن».

قاد هذا النقاش دانييل إلى العثور على قسّ شابّ ليس بالبعيد عن أكسفورد، يعمل مُعلِّماً سعيّاً إلى كسب بعض الجنيهات. كان راعي أبراشية يعيش في ساحل «نورفوك». هكذا افترقنا جميعاً في ذلك الصيف. ذهب دانييل شمالاً، وريتشارد شرقاً، وأنا غرباً إلى تريسانت. لكنني لم أغادر وحدي، وافقت ماجي ويل على الذهاب معي. أقفلت منزلها لأن جلوري جاين سافرت معنا. وانضمّ إلى جماعتنا عضو رابع؛ توم تشادرتن. ربما تساءل من رأونا نغادر بادنجتون إن كان قد تعرّض لحادث سير مُروّع. كان في الرابعة عشرة من العمر. وُضع على أنفه المكسور شريط لاصق. حول عينيه كدمتان كانتا سوداوين وقد استحال لونهما إلى الأصفر المُخضّر القبيح. حُلِق شعره من أذنه اليمنى إلى قمة رأسه ووُضع شريط لاصق على امتداد هذا المسار. وسمّت جسده ندوب متفرّقة؛ آثار جروح ماضية تعافت، لكنها ستلازمه إلى الأبد. كان نحيلًا وشاحبًا، صامتًا وغامضًا. ارتدى ثيابًا مُرتّبة بدا غير مرتاح فيها.

إن سالي هي من أرسل توم تشادرتن إلينا. كنا حينئذٍ في الصيف الأول بعد عودتها من أندورا. لقد ذهبْتُ أنا وماجي لزيارتها وطلب إذنهما في المكوث في تريسانت. رغم أنها أخبرتنا سابقاً أن نذهب وقتما نشاء فإننا لم نغفل عن الإقرار بأنها مالكته.

كان عيشها صعباً. إنّ ما قرّرتُ فعله، بإيجاز، هو عيش حياة الفقر مع الفقراء.

سألتها: «ما الذي ترغبين في فعله من أجلهم؟».

أجابتنني: «فعله؟ أنا لا أريد فعل أي شيء سوى أن أصبح واحدة منهم وأشاركهم حياتهم، إن سمحوا لي بذلك».

لم يسهل على سالي أن تصبح فقيرة. فهي لم تستطع بيع تريسانت أو أي شيء فيه. لقد حسم القانون الأمر قبل أن تُولد بزمٍ طويل. وظلّ العمل في الإقطاعية قائماً أيّاً كان ما اختارت فعله بحياتها. كان إيراد الإقطاعية الضخم ملكها. وقرّرتُ تخصيص مبلغ كبير منه لدعم العمل الذي آمنت بأهميته. لكنها لم تأخذ لنفسها أكثر مما يسمح لها بالبقاء على قيد الحياة في الطرف الشرقي من لندن. ورغم ضآلته فقد أخذته على مضض، تشعر أنه عائق بينها

وبين جيرانها المضطرين إلى العمل لكسب كل فلس. كانت تحصل على قرابة ثلاثة جنيهات في الأسبوع وهذا «كثير يا عزيزتي سارا مقارنة بما يكسبه جيراني. إن معظمهم يُعيلون زوجاتهم وأطفالهم اعتمادًا على مبلغ أقل. (ثم أفصحت عن هدفها قائلة) أنا فقط أريد أن أعلم كيف تسير حياتهم، وكيف يُدبرون أمرهم. لكنني قد لا أستطيع البقاء هناك طويلاً».

سمت نفسها ماري براون. كانت واثقة أن سعيها سيخيب إن عُرف أنها تملك خيار الثراء رغم أنها نبذت الثروة. إن ذاعت تلك الحقيقة فستصبح هدفًا لجميع الاستغلاليين والأتكاليين في الحيّ، وسيخرب ما تتوق إليه: أن يتقبلها جيرانها شيئًا فشيئًا لتصبح واحدة من أهلهم. لهذا السبب عندما زرناها أنا وماجي غادرنا العربية بعيدًا عن الحيّ، ووصلنا على أقدامنا نرتدي أردأ ثيابنا. رغم ذلك فإن حديثنا، وحديث سالي، ناقض هياتنا. إن كلماتنا أكثر خصوصية وكشفًا عنّا من ثياب تكسوننا. لهذا في العام الأول من مغامرة ماري براون لم تحرز تقدّمًا. لقد بدا واضحًا أنها لا تعمل. كان حديثها «راقياً». لهذا راقبها الفقراء بحذرٍ فطريّ.

الآن أصبحت سالي صلتى الوحيدة بالطرف الشرقي من لندن. لقد باع دانييل جميع العقارات التي تركتها له خالته، باستثناء ما كان منها في حالة جيدة. وقد فعل هذا لسبب رأيته وضيعة.

قال: «علينا أن نراقب أولئك الراديكاليين اللُعناء. سأترشح لمنصبٍ مهمٍّ قريبًا. ولن ينفعني لغوهم بأنني مالك عقارات في حيّ عشوائي في الطرف الشرقي».

- لكنك يا عزيزي لا تترجّح منها، بل تخسر. أنت مثال رائع لمُلاك العقارات. تشبّث برأيه قائلاً: «سيستغلّون هذا الأمر ضدي. سأبيع كل شيء».

وبالفعل باع كل شيء. غادر السيد كوجان وزوجته عُشهما المُشرف على زقاق «جريبيرد». ولأن ما تركته السيدة جيمستون لدانييل كثير ظلّت مهام عمل السيد كوجان كثيرة. لقد انتقل إلى منزل صغير في ضاحية في «ويلسدن». هكذا أصبحت سالي، كما ذكرت، صلتى الوحيدة بالطرف الشرقي من لندن. لم أذهب إلى زقاق «جريبيرد» مجددًا قط، لكنني سأعرف شارع «روبن هود» جيدًا. لا شك أن من شيّد تلك المنطقة كان ذا مُخيّلة بالغة الاتساع، رومانسيًا

جَدًّا، وحالماً كبيراً. هناك كان عديد من الشوارع، اختلفت أسماؤها لكن أشكالها تطابقت. في جميع تلك الشوارع المتطابقة بُنيت منازل متطابقة قبل زمن طويل، جميعها تخنقها الحرارة صيفاً، وجميعها باردة كثيية شتاءً. لا يوجد بأيّ منها جذع شجرة أو غصن، برعم أو ورقة، أو أي شيء يجذب الأعين ويشرح الصدور. على جانبي أحد الشوارع كانت المنازل تفتح أبوابها على الرصيف مباشرة. خلف كل منزل من تلك المنازل فناءٌ خلفيٌّ شديد الضيق. في كل فناء من تلك الأفنية باب يقود إلى درب ضيق، ترى في الجهة المقابلة من ذلك الدرب باباً خلفياً لفناءٍ خلفيٍّ آخر، خلفه منزل آخر يطابق منزلك. على هذا النّسق شُيِّدت المنطقة. كانت رتيبة كثيية مُمتدّة. لا يبعد عنها النهر كثيراً. لهذا، في ليالي الشتاء، تشعر به يتسرّب في كل شارع وكل منزل فيها. ترى انبعاثاته عالقةً في الهواء - كأنها أنفاس غولٍ مُجمّدة - تُنيرها مصابيح الدكاكين الخافتة والإضاءة الأكثر وهجاً في الحانات. وتسمع أنينه الكئيب العتيق جرّاء السفن التي تشقّ ماءه.

في تلك البريّة عاش أهالي شارع «روبن هود»، من بينهم ماري براون. كنّا ندخل منزل سالي من الرصيف، ولا نغفل عن أن جداراً عالياً يسدّ نهاية ذلك الشارع. دائماً ما شعرت أنه ممرٌ مسدودٌ في سجنٍ يقوم في طرفه الجدارُ منعاً لهرب السجناء. شابهت أبوابه أبواب زنانات المساجين. عندما تدخلها تصبح في ممرٍ مرصوفٍ بالحجارة وتكتشف، وأنت تتجول فيها، أن الطابق السفلي كله مرصوف بالحجارة. على يمينك ترى باباً يقود إلى غرفة الجلوس التي تطلُّ على الشارع. بجواره درجٌ يأخذك إلى الأعلى حيث غرفتا النوم. كان يرتفع بين الجدران بلا درابزين كامل، أو حتى مقبضه، ويسوده الظلام حتى في الظهيرة. لكننا لن نصعده الآن، بل سنفتح الباب الذي أمامنا، لندخل المطبخ ذا الأرضية الحجرية. هنا توجد مدفأة بلا فرن بجوارها. إن أردت طهو اللحم فعليك أن تفعل ما يفعله الجميع: يجب أن تدقّ مسماراً في الحافة الأمامية لسطح المدفأة. ثم تُثَبَّتْ إلى المسمار أحد طرفي حبلٍ يتدلّى اللحم من طرفه الآخر. وتضع أسفله وعاءً صفيحياً حيث تتجمع الدهون المتساقطة. ثم تجلس هناك تدير هذا السيخ المُرتجل حتى ينضج اللحم.

يوجد باب يقود من المطبخ إلى غرفة غسل الأطباق مساحتها بضعة مترات. تحتوي على صنوبر يمدُّ بماء بارد؛ مصدر الماء الوحيد في المنزل. من تلك الغرفة الصغيرة تخرج إلى الفناء الخلفي، الذي يوجد في طرفه مقصورة تحتوي على مرحاضٍ جافٍّ. هذا هو كل شيء. وما الغرفتان العلويتان سوى مكعبين صغيرين، تطل إحداهما على الشارع والأخرى على الفناء الخلفي. أينما تنظر ترى النافذة الأمامية أو الخلفية للمنزل المجاور. وللإضاءة يمكنك الاختيار بين مصابيح الزيت أو الشموع.

لقد وصفتُ تلك المنطقة وذلك المنزل وصفًا دقيقًا لأن فيهما عاشت سالي باقي حياتها.

ولأن قاطنيها لم يذهبوا في زيارات رسمية إلى الوافدين الجدد إلى تلك الغابة المرداء فقد مكثت سالي هناك طويلًا لا تعرف أحدًا من جيرانها. ابتاعت أثاث منزلها من متاجر الأغراض المستعملة. لم يسعها سوى فعل ذلك لأنها، منذ تلك اللحظة، أصبحت لا تملك «رأس المال». لم يتوفَّر لها سوى ثلاثة جنيهات أسبوعيًا، وإن أرادت أن تملك المزيد فعليها الادخار من هذا المبلغ الضئيل. لهذا اختارت الأغراض التي ستبتاعها بعناية: بعض الأشياء الضرورية لغرفة الجلوس في الطابق السفلي التي أصبحت غرفة نومها، وأواني الطبخ. لم تكن متاجر الأغراض المستعملة تنقل بضائعها؛ على المشتري نقلها بنفسه. ولمَّا استقصت سالي تدابير الفقراء وجدت أنها لا تحتاج إلى استئجار العمَّال، بل يمكنها تأجير عربة اليد. كان هذا ما فعلته، ونقلت الأغراض إلى منزلها في عدة جولات. عندما وصلت إلى الخزانة ذات الأدراج، أثقل قطع الأثاث الذي اشتريته، خلعت الأدراج وأدخلتها المنزل واحدًا تلو الآخر. وبينما تجرُّ هيكلها بتصميم قال رجل يتسكع في الشارع: «لنساعدكِ يا ستِّ». وحمله إلى غرفة الجلوس.

هنا أرادت سالي أن تعيش وأن تصبح، بمرور الوقت، إحدى الجارات الطيبات. لم تدِر أي وسيلة ستساعدُها في تحقيق هدفها، لكنها قررت تسخير الغرفتين العلويتين لخدمة أغراض إنسانية. ستصبح إحداهما غرفة نوم احتياطية، فلا أحد يعلم متى قد يقع طارئ. وأصبحت الأخرى مخزنًا لما قد يحتاج إليه الجيران. وفقًا لما سمحت به مُدَّخراتها ابتاعت الثياب المستعملة

وعَلَّقَها في تلك الغرفة. كان المطبخ بمنزلة غرفة معيشتها. لم يتضمن سوى قليل من الأثاث مثل غرفتها في أندورا. وتبدَّى الترف الذي سمحت لنفسها به في مقعدٍ خوصيٍّ قاعدته مكسورة.

والآن لم يوجد ما تستطيع سالي فعله سوى العيش والانتظار. بدأت تتخذ الهيئة التي سيُرسِّخها مرور الزمن. لزمت ارتداء الثياب الرثة السوداء. رفعت شعرها في لفَّةٍ ثَبَّتَها ببضعة دبابيس. كانت لا تزال تتمتع بقوة بدنية كبيرة من المَعين الذي ملأته في صباها وشبابها. لكن طبيعة حياتها، التي لم تستلزم بذل مجهودٍ بدنيٍّ كبير، أكسبتها بدانة. وبمرور الأعوام أصبحت نسخة أقل أناقة وأكثر قذارة من الملكة فيكتوريا «أرملة وينزر». شابهتها حتى في إيماءاتٍ تظهر من حين إلى آخر، مهما حاولت السيطرة عليها، حتى نهاية حياتها، مثل نظرة ضَجِرَة حادَّة إلى السُّفهاء، كأنها تقول: «لا تسلية في ما نشهد».

في أسبوعها الأول في شارع «روبن هود» سمعت قطيطة تنثُر خارج منزلها. خرجت إلى غسق الليلة الصيفية ورأتها تنكمش على نفسها في مجرى التصريف. انحنت نحوها، وبينما تتفحصها سمعت شيئاً يضرب الجدار في نهاية الشارع. رفعت عينيها لترى بضعة صبية يُثَبِّتون الحجارة إلى مقاليعهم. كانوا قذرين وحُفَاة وقُساة الملامح. ودَّت أن تنقضَّ عليهم لتوبُّخهم. لكن الإتيان بهذا التصرف، في بداية نزولها بالمنطقة، من شأنه أن يخلق العداء. لهذا كظمت غيظها ووقفت هناك، تقابل الصبية وتفصل بينهم وبين القطيطة. كان هذا التصرف ليُجدي نفعاً في أي موضع في بورتيقن، لكنه لم يُجدِ أي نفع في برمنديزي. ضربت بضعة أحجار أخرى الجدار خلفها، وأصابَت إحداها ركبتهَا. حملت القطيطة ودخلت منزلها. لكنها سمعت الأحجار تضرب الباب الرئيس بعض الوقت، كأنها أسهم أُطلقت من أقواس الصبية الطويلة.

اتَّضح أنها قطيط في سنٍّ صغيرة لا تسمح له بترك أمه وحاله يُرثى له. في ضوء مصباح الزيت في المطبخ رأت القُمَّل يتقافز على جسمه. لقد ضربت حجرة وجهه وأصابته بجرح ينزُّ دمًا. أصاب الجرب جلده وتلطخ فراؤه بالقذارة. كان أسود اللون باستثناء صدره وقوائمه، وطرف ذيله وطرفي

أذنيه. رقدَ في حجر سالي التي داعبت فراءه، فقفز القُمَّلُ إلى تنورتها. ثم انقلب على ظهره ينظر إلى سالي بعينين زرقاوين بديعتين، مثل مياه المحيط الذي تُشْرِفُ عليه بورتيفن صيفاً، وشرع فمه الوردِيّ الصغير يتثاءب. أخبرتني سالي: «كان أوّل روحٍ في برمندزي تقترب إليّ بلطفٍ وتمنحني ثقتها».

في أثناء تجوال سالي في ذلك الحيّ لاحظت عيادة جراحٍ كانت ذات يوم، في ما بدا، دُكَّاناً. تدلّت ستائر خضراء رخيصة خلف واجهتها، وعلى بابها لوحة كُتِبَ عليها:

«واريك راسل، طبيب

تخرّج في «كلية الأطباء الملكيّة»

ساعات العمل: بدءاً من السادسة مساءً».

لقد رأت عديداً من الأهالي يجتازون باب العيادة، وفي اليوم التالي اجتازته بنفسها تحمل القطيط في سلّة. كانت أرضيّتها مكسوّة بقماشٍ مُشَمَّع، وأحاطت جدرانها كرايس خشنة. لم تتضمن أي أغراض أخرى سوى تعليمات كثيرة طُبعت بحروف كبيرة، ولُصقت إلى الجدران: «لا تبصق هنا وإلا فستُطرد. لا تبصق في أي مكان آخر وإلا فستصيب غيرك بالعدوى»؛ «قبل الأكل اغسل يديك وبعد الأكل نظّف أسنانك»؛ «استمرّ في مكافحة الحشرات. كلما قتلتهم قلّ ما سيلسعك منهم»؛ «كفى هراء عن برد الليل. نَم ونوافذ غرفة نومك مفتوحة»؛ «لن يصيبك القُمَّل قبل أن يصيبك بيضه أولاً. ابحث عن بيض القُمَّل، وإن رأيته تعالَ كي أغسل شعرك»؛ «لا أريد أن أراك هنا. سيعينك الماء والهواء النقيّان على أن تتركني في سلام».

كانت توجد نصائح أخرى كثيرة من هذا النوع. بالإضافة إلى أن قراءتها أثارت حماس سالي لمقابلة ذلك الطبيب، فقد صرفت ذهنها عن الأعين الملتهبة، والوجوه ذات البثور، والعطس والسعال الذي أحاط بها. ملأ المكان الرجال والنساء والأطفال. بين الفينة والأخرى انفتح باب يقود إلى غرفة

داخليّة، يخرج منه مريض ليدخل آخر بلا دعوة. حرصت سالي على أن تكون آخر من يدخل. كانت تدرك أن زيارتها تلك غير معتادة، وإن ظلَّ أي مريض بشريّ بعدها فعلى الأرجح أنها لن تلقى الاهتمام اللازم.

أخيراً حان دورها. وفي غرفة تعبق برائحة المنظّفات وشمع النحل، مؤنّثة بأرفف تحمل زجاجاتٍ مُعنونة، وحوض، ومكتبٍ بغطاءٍ أمامه كرسيّ دوّار، رأت واريك راسل. في البدء قابلها ظهره. لم يكن يرتدي معطفه، وقد شمّر عن ساعديه يغسل يديه جيّداً في الحوض. كانت المياه تخرخر، وهو يُصفرّ، وأضاءت شمس الغروب الشعر الأصهب في يديه ورأسه. رغم انحنائه فوق الحوض فقد بدا ضخّم البنية. وعندما استقام والتفت إليها يجفّف ساعديه بمنشفة بدا أن طوله يبلغ مترين. كان طوله، في الواقع، ينقص عن المترين بسبعة سنتيمترات.

قال وهو لا يزال يجفّف ساعديه، ويحدّق إليها بعينين زرقاوين تشبهان عيني القطيط، أنارتا وجهه ذا الحُمرة: «حسنًا، ماذا تريدان بحق الجحيم؟». عبثت سالي بمقبض السلّة، طأطأت رأسها، وقالت خَجَلَة: «لا أعلم أين يمكنني العثور على طبيب بيطري. تساءلتُ إن كان باستطاعتك فحص هذا القطيط».

ارتمتي على الكرسي الدوّار تمتدُّ ساقاه الطويلتان أمامه، وروّح على نفسه بالمنشفة.

قال: «يا إله السماوات! تقول قطيطاً لعيناً!».

ثم نهض وفتح باباً آخر غير الباب الذي دخلت عبره سالي الغرفة، وهتف أسفل درَج: «بولي! انزلي».

فكّرت سالي أنها ارتكبت حماقة؛ وأن مدبرة المكان ستأتي لترافقها إلى الخارج؛ وأن هذا ما تستحقه لأنها تطفّلت على رجل أنهكه العمل. نزلت بولي راسل الدرج بسرعة، ودخلت الغرفة يزدان رأسها بشعرٍ أصهب مثل زوجها، وترتدي ثوباً أخضر طويلاً شابّهت فيه زهرة. لم تتخطّ، في ما بدا، العشرين. ورغم طول قامتها فقد بدت ضئيلة بجوار الطبيب.

أراحت يدها على كتفه قائلة: «ما الأمر؟».

- لقد أحضرت هذه المرأة قطيطةً لعينًا. إنني أكدح في العمل صباحًا وظهرًا ومساءً. أكافح الجرب والسُّعار والدُّراق والكُّساح، وحصوات المرارة، والزُّهري، والسرطان، والإمساك. وعندما أتهيأً لتدخين غليون ونيل لحظات من السلام يظهر أمامي قطييط لعين. ماذا نفعل بامرأة كهذه؟ إنها تبدو عاقلة.

أجابته بولي: «سنفحص القطييط».

- حسنًا، هيا نفحص اللعين. أظن أننا سنفتتح فرعًا للحيوانات الأليفة قريبًا.

بعد لحظات كان القطييط بين يديه، وأخبرتني سالي: «ثمة أمور لا يخطئُ حدس المرء بها. لقد كانت يداه عطوفتين».

أمسك القطييط برفق، ابتسم له، وقال: «ماذا كنت تفعل أيها الشقيُّ الصغير؟».

بدا في صوت سالي المزاح والرزانة إذ قالت: «قبل الأكل يغسل يديه وبعد الأكل ينظف أسنانه».

التفت إليها والابتسامة تعلو وجهه، قال: «أتمنى أن يكون فعلك مثله. فأنا لا أريد أن يأتي بك المرض إلى هنا؛ إن ما لديّ من العمل يكفيني. من أنتِ بالمناسبة؟ لا يشبه حديثك نساء المنطقة».

- اسمي ماري براون. أعيش في شارع «روبن هود».

نظر إليها نظرة ثابتة وقال: «بالطبع، إنه حيٌّ رائعٌ لعين. بولي، يجدر بك اصطحاب هذا إلى الأعلى. (ناولها القطييط وخاطب سالي قائلاً) تعالي لأخذه بعد أسبوع. طابت ليلتك».

5

لم يلزم سالي الانتظار أسبوعًا. بعد خمسة أيام وصل إلى شارع «روبن هود» قطييط نظيف تمامًا وفي أتمِّ صحة. أتت بولي راسل تحمل السلَّة وسألتها سالي الدخول. كانت عازمة على تقبُّل الطرف الشرقي من لندن

على أي حال، لكن وجود جيران مثلهما ليسوا بعيدين عنها سرّها. لقد فُكّرَتْ طويلاً في عائلة راسل. لم يكن من اليسير أن يغفل المرء عن الطبيب راسل. لقد اعتاد قيادة درّاجة في المنطقة التي دعاها أبراشيته. وفي ذلك العصر لم تكن عجلات الدراجات متطابقة، بل تسير كل منها على عجلتين: إحداها عالية تشبه بنساً كبيراً والأخرى واطئة تشبه بنساً صغيراً. ورغم أن الأهالي لقبوه بـ «الطبيب مالك البنسين» في إشارة منهم إلى الدراجة، فقد عبّر هذا اللقب، في الحقيقة، عن أجره الزهيد مقابل خدماته الطبية. ولأنه في بعض الأحيان لم يأخذ حتى بنسين فقد كان ذلك اللقب، كما صرّح دائماً، يدعو إلى التفاؤل اللعين. لاحظت سالي أن الطبيب راسل حالما يهبط من درّاجته أمام باب أي منزل، يُسرّع صبي من مخبئه ويقف بجوارها كأنه يحرس عربة ملكية. لا يعني هذا أن الحاجة دعت إلى حراستها. لقد كانت الدراجة مميزة، ومن قد يلحق بها ضرراً فسيلحق بنفسه الأذى. لكن الرغبة الصادقة في خدمة الطبيب بأي صورة كانت دافع أولئك الصبية. رآته سالي يدخل الحانات، التي كانت حينئذٍ تبدأ العمل من الصباح الباكر حتى الحادية عشرة ليلاً، ويُخرج من يجده من الرجال ثملاً أو يوشك أن يثمل قائلاً: «هيا، عد إلى المنزل وضع رأسك في دلو ماء بارد. أنت لا تستحق زوجتك. يكفي المال الذي أهدرته هنا هذا الأسبوع لشراء ثوبٍ لها أو أحذية للأطفال. ولا تنس أنك مدين لي ببعض الشلّات. إنني أحتاج إلى الطعام مثلما تحتاج إلى الشراب».

ويراقب الرجل الذي علا الخجل وجهه يغادر بخطوات متثاقلة، ثم يبتعد بدرّاجته وهو يُصفرُّ أحدث ألحان أغنيات مسرح المُنوعات.

لقد تزوجت بولي الطبيب راسل منذ عامٍ فقط. كانت سالي تجلس في المطبخ، يخرُّ القטיפ في جِبرها وإبريق الشاي على الطاولة، وتستمع إلى الفتاة المفعمة بالحماس، التي أسهبت في الحديث عن عزيزها واريك وعمله. علمت أن واريك ابن مالك متجرٍ صغيرٍ في «نورفوك». أعقد عليه أبواه كل ما يملكان. كانا فخورين به، وحرصا دائماً على إبعاده عمّا دعواه «الطبقات الدنيا». عقدا العزم على أن يصبح واريك «سيداً»، وعندئذٍ ستؤتي تضحياتهما بثمارها. لقد كرّس الزوجان راسل حياتهما لرؤية الاسم «واريك راسل» على

لوحة باب منزل في شارع «هارلي» الراقي، أمامه عربية فاخرة بها حوزي أنيق الثياب.

كانت تضحياتهما كبيرة لأن إيراد متجر «نورفوك» بالكاد لبَّى حاجات العائلة الأساسية، وقد نفدت المُدَّخرات. ثم بدأ والده الاقتراض دون أن يخبر ولده بشيء. كان واثقًا أن الأمور ستسير على ما يُرام لأن الطالب واريك، الذي يرتاد حرم «جاي» الجامعي، يحرز تقدمًا رائعًا في دراسته، بخاصة في الطب والجراحة. لكن الذهاب إلى هناك يعني اطلاعًا على أحوال برمندزي. هكذا أزيلت الحواجز التي فصلت الفتى عن الفقراء ومعيشتهم. وما أقسى ما رآه يومًا بعد يوم.

بعد تخرجه في الجامعة بدأ الكتابة في المجلات الطبية واستوقفت مقالاته الأنظار، ليس في إنجلترا فقط، بل وفي أوروبا كلها. قبل عدة مناصب في مؤسسات متخصصة مختلفة، وبدأ صيته يذيع. ثم وقع حدثان، من المفارقة الساخرة، في يوم واحد. أفلس راسل الكبير، الذي يلحُّ عليه دائنوه في سداد دينه منذ فترة؛ واستقال واريك من المنصب الذي يشغله ليصبح الطبيب ذا البنسِن. دارت بين الأب وابنه مواجهة حادة. اتُّهم واريك، الذي يجهل مشكلات العائلة المالية، بأنه وطواط يمتص دماء عائلته كي يهدرها على جماعة من المتشرِّدين القذرين. وتوالى اللوم حتى إن الشابَّ ضخم البنية، المستاء مما تسبب فيه دون علمٍ منه، الحزين لاكتشافه الأليم دوافع والده الخفية، اعتلَّت صحته. لكنه لم يستسلم. عندما استعاد بعضَ عافيته ذهب في سياحة إلى «كوتسولدن».

قالت بولي ضاحكة: «هناك قابلني أنا ابنة القسِّ الريفِّي. وها نحن نحاول موازنة الجوع على نحوٍ معقول».

أفسحتُ سالي لها المجال للحديث، يغمرها الشعور بالرضا الشديد. فكَرَّت: «لم أطلب منها أن تُحضِر القطيط. لم أطلب منها كشف النقاب عن حياتها بهذه الطريقة». كان ما حدث عفوياً، وهو ما أملتُ حدوثه بالضبط. وإن أتت بولي راسل إليها فربما يأتي الآخرون أيضًا. سألتها: «كم تبلغ تكلفة علاج القطيط؟».

- لا أكثر من بنسِن.

ومنذ ذلك الحين أصبح اسم القطيط «بنسِن».

كان توم تشاردتن، المُسافر إلى كورنوال معي أنا وماجي ويل، واحدًا من الصبية الذين ألقوا الحجارة على سالي وبنسين. عندما خرجت بولي بالقطيط إلى منزل سالي كان يتسكع في شارع «روبن هود».

ركض نحوها وسألها: «ماذا تفعلين هنا يا سيدة بنسين؟».

رفعت بولي غطاء السلّة وأرته القطيط المُعافى. مسّد الصبي الفراء الأملس قائلاً: «أليس رائعًا؟».

كان سعيدًا بمداعبة القطيط الصغير مثل سعادته بإلقاء الحجارة على أي كائن يتحرّك.

سألها: «أين تأخذينه يا سيدة بنسين؟».

ذكرت له وجهتها، وأخبرته أن الصبية أصابوا وجه القطيط وأن زوجها كان يعالجه.

ربط عقل الصبي غير الألمعي بين الصورتين: القطيط الذي أمامه والقطيط الذي قد أدخلته سالي منزلها.

قال فخورًا: «أنا من فعل هذا! وأصبته في المحاولة الأولى!».

ثم أخرج المقلع وأراه لبولي.

- إذن بينما يحاول زوجي إصلاح الأمور تأتي أنت لتُخرّبها؟!

لم يفهم توم تشاردتن قصدها فقالت: «ألم يعالج فكّك؟».

- بلى.

- إذن لا تتصرف بحماقة.

ابتعد توم يسير بتمهل، وربما تذكّر الظهيرة حيث جلس في زاوية من الشارع، يُمسك وجهه بيديه ويتأوّه. ترك الطبيب راسل درّاجته، دقّق النظر إليه وسأله: «ماذا كنت تفعل؟ تحاول بلع كرة الكريكت؟ افتح فمك».

ثم أخذ توم إلى العيادة مباشرة، أزال الحويصلة في فكّه، وأرسله إلى المنزل أحسن حالًا. لا شك أن تلك الأفعال تركت أثرًا في عقل الصبي، فبعد

مرور عدة أيام من عودة بنسّين إلى سالي رأى توم القطيط في الشارع، وصبيّاً من «شِلَّتِه» يجذب رباط المقلاع المطاطي للخلف. كان توم قائد جماعته ويفوقهم حجماً، والآن أكّد سلطته عليهم بأن لَكَم الصبي فأسقطه أرضاً، وحمل القطيط إلى منزل سالي.

ركل الباب بحذائه، ثم قال: «يُستحسن أن تُبقي هذا القطيط في الداخل». شكرته سالي، لكنه ظلّ واقفاً.

قال: «أنتِ صديقة الطبيب؟».

- أجل.

- ما اسمك؟

- ماري براون. ما اسمك أنت؟

- توم تشادرتن.

- شكراً لك يا توم على إحضار بنسّين. الأسبوع الفائت أذاه بعض الصبية.

- لقد فعلتها.

- لماذا؟

أجابها منزعجاً: «لا أدري. (ثم بدأ يبتعد مُردِّفاً) سأخبر الرجال ألا يفعلوها ولا مرة ثانية لأنك من معارف الطبيب».

- شكراً لك يا توم.

وقفت سالي هناك بضع لحظات تحمل بين ذراعيها بنسّين، ثم عاد توم فجأة وداعب فراء القطيط قائلاً: «إنه صغيرٌ شقيّ لطيف».

عندئذٍ شعرت سالي أن بنسّين أصبح آمناً وأنها، بصفتها صديقة الطبيب، أحرزت بعض التقدم.

7

كانت الضوضاء تسود شارع روبن هود. عند ناصيته قامت حانة «فورسترن»، التي لم تشبه الحانات التي تبعث على الاسترخاء في روايات

تشارلز ديكنز. كانت كثيية المنظر رديئة الحال، تملكها شركة لصنع الجعة هي وعديداً من الحانات مثلها. عرف توم وهاجي تشادرتن تلك الحانة منذ صباهما، لأن والديهما متى يتحصّلا على المال يذهبا إلى الحانة وينفقاها هناك. تُرك هذان التوءمان لحالهما بعض الوقت، يصيحان في الصندوق الذي شكّل مهدهما. لكن في ليلة شتوية انقلب بعض الفحم في مدفأة المطبخ المتّقدة إلى البساط البالي، وامتلاّت الغرفة بدخان خانق. كان الطفلان يصارعان الموت عندما هرع الجيران لنجدتهما حالما انتبهوا إلى الرائحة. ولأن الزوجين تشادرتن والدان مُراعِيان للغاية فقد قرّرا ألا يُخاطرا مرة أخرى. هكذا اصطحبا الطفلين معهما إلى الحانة، وهذا نوبات غضبهما بإعطائهما رشقات من الجعة أو شراب «الچن».

كانت عائلة تشادرتن مصدراً رئيساً للإزعاج في شارع روبن هود. أصبح توم وهاجي الآن من الكبر ما لا يستلزم اصطحابهما إلى الحانة. لكن والدين عادةً ما رجعا إلى المنزل في الحادية عشرة ليلاً يُغنيان. وكثيراً ما انتهى الغناء بمشاجرة تؤدي إلى صراخ السيدة تشادرتن، إذ يضربها زوجها أو يطردها إلى الشارع. لم يُحدث تدخل الجيران فارقاً كبيراً، وعادةً لم ينزل السكون بالمنطقة قبل منتصف الليل.

في الصباح يخرج السيد تشادرتن إلى عمله اليومي. يقصد المصانع أو ما شابه كي يجمع الخزف المعيب، مثل: الأكواب المثلومة، والأطباق المتصدّعة، والأحواض المنبجعة. يضع هذه الأغراض في سلّة كبيرة، يحملها فوق رأسه ويوازنها بيد واحدة، كي يبييعها جوالاً في شوارع الطرف الشرقي. يسير بتثاقلٍ هاتفاً، يعتمر قبعة مطبوعة بمُرَبَّعات سوداء وبيضاء، يلفّ حول عنقه السميك وشاحاً له الطراز نفسه، وبينهما يظهر وجهه قاسي الملامح ذو العينين الضيقتين المحقنّتين. كان هتافه المميز، الذي يشبه الغناء، إعلان تجارته. لقد عرفه الأهالي ولم يلزم التنويه بوصوله إعلان آخر. لكن في شارع روبن هود لم يوجد داعٍ إلى الهتاف، لأن من يحتاج من قاطنيه إلى الأنية يذهب إلى منزل «الإناء الفارغ» - هكذا لقّبوا السيد تشادرتن - ليبتاها. لكنه كان فخوراً بصوته كأنه مطربٌ أوبراليٌّ إيطاليٌّ. ولأن الطيور المُغرّدة لم تحل بالمنطقة فلم يوجد منافس له.

كانت ضوضاء الصباح تلك مؤقتةً تطاق. لكن في ليالي السبت كانت الفرقة الموسيقية لـ «جيش الخلاص» تقف بالقرب من الحانة، تفرع الطبول وتنفخ الأبواق. وقلماً هداً الضجيج من فجر الأحد حيث يعلو هتاف بائعي الحليب، إلى مسائه حيث الصيحات المفزعة للصبية الحفاة مُوزَّعي جرائد الآحاد. كان صراخهم بالأخبار التي دائماً ما تتضمن «الجرائم المروعة»، يتداخل مع صيحات بائعي الفحم وطعام القطط، ومُنظّفي المداخل ومُصلّحي المغازل؛ وشاحِذي المقصّات وجامعي الخُرْدَة، مع أنغام الأرغن اليدويّ الذي يعزفه موسيقيُّو الشارع تسوّلاً، وهلمَّ جرّاً.

في تلك البريّة ترعرع توم تشادرتن وشقيقته هاجي. فكَّرْتُ سالي أن من الغريب كم تحب هاجي الليل. كانت نادراً ما تُرى في الخارج نهاراً. وطالما مرّت سالي بها في الطرقات ليلاً. تراها تأكل وجبة السمك والبطاطا المقلية قليلة التكلفة أسفل مصابيح الغاز، تُحدِّق إلى واجهات المتاجر المحليّة، وتخفي في الأزقة الخلفية. دائماً ما كان شعرها مُتَسَخَّاً غير مُرتَّب وملابسها بالية، من بينها جوربٌ صوفيٌّ طويل أسود اللون وممزَّق. دائماً ما تكون بمفردها، وتريد أن تظلّ كذلك، حتى إن التقرب إليها شابه الاقتراب إلى غزالة بريّة. لكن توم فاقها لطفاً.

ذات مساءً حدث ما رآته سالي انتصاراً كبيراً. سمعتُ دقّاً على باب منزلها لتجد توم يقف على عتبة، يعلو وجهه التعبير المعتاد: يبدو كأنه يودُّ الفرار لكنه يبذل قصارى جهده للوقوف ثابتاً.

قال وهو يمسك عظمة يكسوها بعض اللحم: «هذه من أجل قطك».

قالت سالي: «شكراً لك يا توم. هل تؤدّ الدخول وإعطائها له بنفسك؟».

فكَّرَ توم في الأمر، ثم قال: «أجل».

في المطبخ طلبت منه سالي الجلوس، فجلس في الكرسي الخوصيّ يشاهد بنسين يعبث بالعظمة على بساط المدفأة. ومن حين إلى آخر كان ينحني ليداعب فراءه.

قال: «لقد تخلّصتُ من مقلامي».

لم تجرؤ سالي على سؤاله عن سبب ذلك، ثم أردف توم الذي يُفضّل الموت على البوح بالسبب الحقيقي: «هذا لأنني ذاهب إلى العمل. يجب ألا أظلّ طفلاً لعيناً».

لقد علمت سالي ما يكفي عن حياة الصبية مثل توم، لتدرك أن عليهم كسب عيشهم حالما يتعلمون المشي.

قالت: «في سنّك هذه يا توم أظن أنك عملت كثيراً».

- أجل، لقد عملت في كل شيء.

قدّمت له سالي الشاي والخبز، وسرد لها أحداث حياته حتى تلك اللحظة. اتضح أنه هو وشقيقته لم يلتحقا بالمدرسة، ولا يستطيعان القراءة أو الكتابة. انخرطت هاجي في العمل عدة مرات، لكنها تهرب منه دائماً. أمّا توم فأدّى جميع مهام الصبية السّعة، ومُوَزَّعي الجرائد، وما إلى ذلك.

قال راضياً: «الآن سأبدأ العمل وحدي. لن أعمل لدى أحد، بل سأصير رئيس نفسي».

علمت سالي أن السيد تشادرتن ابتاع عُدّة مسح الأحذية من رجل يعاني الروماتيزم ولا يستطيع الانحناء. سيحلّ توم محل ذلك الرجل ليبدأ كسب المال.

جرت تلك المحادثة في مساء يوم سبت، وطوال الأسبوع الذي يليه لم ترَ سالي توم. لكن في مساء السبت التالي زارها الفتى وأخبرها عن مغامرات أسبوعه. اشترى بعض اللحم من أجل بنّسين، وأعطاهم ورقة مُغَضّنة تحتوي على حلوى رخيصة، بدا واضحاً أنه يمسك بها منذ فترة.

قال: «هذه من أجلك. لقد اشتريت شيئاً من أجل هاجي أيضاً».

عَبَرَ توم الطريق إلى منزله قبل الحادية عشرة مباشرة. ثم علت أصوات الثرثرة والغناء والشجار، التي أعلنت انتهاء جلسة الشراب في حانة فورسترن. كان من المتوقّع أن يحلّ الهدوء تدريجياً، لهذا أوت سالي إلى الفراش في غرفة الجلوس في الطابق السفلي. لكن الخلاف المعتاد اشتدّ حدّة وضراوة حتى إن سالي فرغت. نهضت، ارتدت ثيابها، وقصدت النافذة تتطلع إلى منزل عائلة تشادرتن، الذي تستطيع رؤيته في ضوء مصباح الشارع. بلغت الجلبة

حدًا دفع الجيران إلى الذهاب إلى منزل العائلة، ودقّ بابه بعضهم يطالبون بقليلٍ من الهدوء اللعين. فتحت تشادرتن الأب الباب، وجهه مُحْتَقِنًا غاضبًا، يبدو مثل ثور على وشك الهجوم. تراجع الأهالي إلى الخلف خائفين، وانحنى الرجل يحمل السلّة المملوءة بالآنية بجوار الباب، رفعها بيديه فوق رأسه ثم قذف بها نحوهم. تفرّق الجمع وارتطمت السلّة ارتطامًا عنيفًا، فتناثرت الشظايا الخزفية. ثم عاد تشادرتن إلى منزله صافعًا بابه.

اشتعل الشجار داخل المنزل من جديد، وعلا صوت تحطّم المزيد من الآنية الخزفية. ثم طار وعاء قضاء الحاجة عبر النافذة الأمامية ليصطدم بعمود الإنارة. عندئذٍ قَدِمَ مُشْعِلُ المصابيح يحمل عصاه على كتفه لأداء وظيفته الثانية وهي إطفاء الحرائق. وقف وسط الحُطام ثابتًا وأطفأ النيران. لم يعبأ بأيّ مما يدور في العالم حوله سوى مهمته. وقد أَدّاهَا، ثم رحل.

بعدما انطفأ المصباح تعذّر على سالي رؤية ما يحدث في الشارع. لكن بدا واضحًا أن الجيران سلّموا بأن الشجار الحادّ سيستنفد نفسه، وعادوا إلى منازلهم. دَوَّى الرعد عدة مرات في منزل تشادرتن، بدا آخرها كأن قذيفة مدفعية ضربته. ثم تلاشت العاصفة في غمغمات توهُن شيئًا فشيئًا، حتى حلّ الصمت الميمون.

رأت سالي أضواء المنزل تنطفئ. وبتنهيديّة يمتزج فيها الحزن والارتياح اتجهت إلى سريرها. لكنها لم تدخله، فقد بلغ سمعها صوت جديد مُتَرَدّد مذعور. لقد استرعت الجلبة في الشارع انتباهها كله، فغفلت عن الصوت الذي يأتي من الخلف. أنصتت إليه لتسمع ما يشبه خربشة لا طرْقًا، على الباب الذي يقود إلى الفناء الخلفي. تناولت شمعتها، عبرت المطبخ إلى حجرة غسل الأطباق، وفتحت الباب.

عندئذٍ هتفت: «يا إلهي! ادخلا بسرعة».

ترنّح توم تشادرتن في مشيته يستند إلى شقيقته. أقفلت سالي الباب خلفهما وقادتهما إلى المطبخ. أسدلت الستائر وأضاءت مصباح البرافين. في ضوءه القوي تأكد لها ما رآته في بصيص الشمعة. كان توم تشادرتن يقطر دمًا. لطّخت الدماء وجهه، وصبغت يديه حينما حاول مسحها عن عينيه. نَزَّت قطرات الدماء من أذنه وتساقطت من ذقنه. أعانته هاجي على الوقوف، إذ

بدا أنه سيخزُ صريعاً إن تركته. كان ينشج ويتأوه، لكن الفتاة ظَلَّت جامدة. نظرت إلى سالي نظرة ارتياحٍ تركت الانطباع بأنها، بعدما أوصلت حملها المُرَّوع ستهرب، ستختفي في ظلمة الليل، في متاهة الأزقة والشوارع الخلفية التي تخلَّت تلك البرية. كان وجهها مكدوماً.

قالت باقتضاب: «طلب أن أحضره إلى هنا».

في تلك اللحظة لم يوجد مُتَسَّع للاستفسارات أو التأخير. أجلس سالي توم في الكرسي الخوصي. وضعت وسادة انتزعتها من سريرها أسفل رأسه النازف. وكتبت رسالة تستدعي فيها الطبيب راسل. أملت أن يأتي. كانت واثقة أنه سيأتي رغم أن الساعة قد تخطت منتصف الليل. أعطت هاجي الرسالة، فتحت باب غرفة غسل الأطباق، وانطلقت الفتاة نحو الظلام دون كلمة. شعرت سالي أن الصبي آمن في تلك الغرفة المظلمة الساكنة، مثلما شعرت بالأمان في الظلمة الثائرة في تريسانت وما حولها. وبينما تجلس في انتظار الطبيب فكَّرت في تريسانت. لم يوجد ما يمكنها فعله من أجل توم تشادرتن سوى الإمساك بيده وسماع تأوهاتِه.

بعد مرور نصف ساعة مرَّت دهرًا أتى واريك راسل أخيرًا. كانت معه بولي، وتسللت هاجي خلفهما. هكذا ملأ الغرفة الصغيرة خمسة أفراد. نظرت بولي سريعًا حولها، تناولت غلّاية وملأتها بالماء من صنوبر غرفة غسل الأطباق. ثم أشعلت موقد زيت، ووضعت فوقه الغلّاية. الآن بدأت سالي تشعر بالدوار. فكَّرت: «تغلي بولي الماء. سنحظى جميعًا بالشاي. (ثم انتبهت قائلة) كان من المفترض أن أغلي الماء!». لكن بولي والطبيب راسل تجاهلها. لقد أدركا جيدًا ما يجب فعله، وعمل الفريق المُكوّن من شخصين في صمت. أفرغت بولي الطاولة، فتحت حقيبة الطبيب، ووضعت أدواته على قماش أبيض. جذبت وعاءً من أحد الأرفف، صبَّت فيه الماء المغلي، ثم غمست فيه الأدوات. قال الطبيب: «انظروا إلى هذا الأنف اللعين المضرج بالدماء! سيبدو مثل ويليام ثاكري⁽¹⁾ طوال حياته».

(1) واحد من أشهر الروائيين الإنجليز في العصر الفيكتوري، ميّز وجهه أنفه الذي كُسِر في سنوات ارتياده المدرسة. م

تلا ذلك حلق شعر توم، وخياطة جرحه بدقة، وتنظيف أنفه وتنشيطه بجبيرة. ثم خلع توم تشادرتن القناع الدموي ليبدو شاحبًا، يتألم وينشج. قال الطبيب: «من حسن حظّه أن الجمجمة لم تنكسر. ما الذي ضربه؟». أجابته هاجي: «مزهريات، وحذاء، وأبزيم حزام الرجل الكبير، الذي ألقى بتوم على الدَرَج. وألقى بي أيضًا».

فحصها الطبيب واتضح أن إصابتهما أقل شدة.

قالت سالي: «لديّ غرفة شاغرة».

اعترض الطبيب: «يجب أن يذهب إلى المستشفى. أراهنك أن غرفتك الشاغرة تملؤها الحشرات، مثل جميع الغرف في تلك المنطقة اللعينة. هل تملؤها الحشرات؟».

أقرّت سالي عابسة: «يوجد القليل».

- حسنًا، لنأخذه إلى الأعلى.

هكذا استلقى توم في سرير الغرفة العلوية، وارتمت هاجي على طرف السرير تنام بعرضه. عندما عادت سالي والطبيب إلى المطبخ كانت بولي قد نظّفت الفوضى، وضعت ثلاثة أكواب في أطباقهم على الطاولة والغلاية على موقد الزيت.

قالت: «نستحق كوبًا من الشاي. أمل ألا تمانعي في ذلك».

أشعل الطبيب غليونه، وجلس يتنهد راضيًا. قال: «الآن أخبرينا ماذا حدث؟».

حينئذٍ لم تكن سالي تعلم ما حدث، لكنها في ما بعد علمت أن سبب تلك العاصفة كان بسيطًا. لقد أخبرها توم تشادرتن فخورًا بما فعله بالشلّات القليلة التي كسبها في أسبوعه الأول من العمل ماسح للأحذية. لم يشتري لنفسه سوى ما يسدُّ به رمقه من المقاهي المتنقلة. لكنه اشترى حلية رخيصة -قلادة رديئة- من بائع جَوَالٍ كلّفته شلنًا. وأعطى أمه المال كله لأنه تربّى على أن كلّ ما يملك هو حقٌّ لوالديه، وأن عليه أن يُسلّمهما كل بنس معه. ولأنه أخفق في فعل ذلك، واقتطع بوقاحة قليلًا من ماله كي يبتاع حلية من أجل هاجي، فقد أثار سُخطَ الوالد الثمل. رغم ذلك كان ممكنًا أن يمرّ الأمر بركلة أو صفقة

كالمعتاد، لو لم يحتد توم الفخور بحاله الجديد قائلاً: «لن تحصل مني على مزيد من المال كي تشتري شرابك اللعين. سأصير رئيس نفسي، فهمت؟». كان توم من الحمافة ما دفعه إلى الردّ على هذا النحو. لقد تأدّت مشاعره، وكان عقله اليافع في حيرة من العاقبة المباغته لما رآه تصرفاً حميداً. لكن قوله ذاك بدأ العاصفة. حينئذ رأى الأب الإشارة الأولى على أن القاعدة المطلقة التي وضعها ستُلغى يوماً ما. ودفعه سخطه إلى انتزاع مزهرية زجاجية من رفّ المدفأة ونزل بها على رأس ابنه. كان توم يخلع حذاءه يستعد للذهاب إلى النوم عندما ضربته المزهرية، فرمى الحذاء تلقائياً وأصاب عين والده «الإناء الفارغ». ثم احتدم العراك في المنزل، إذ أخذت هاجي صفّ أخيها. ووصل إلى نهايته بوجود الشقيقتين في غرفة سالي العلوية يتألمان.

لم يعد التوءمان إلى منزلهما مجدداً. ذهبت هاجي إلى منزل عائلة راسل لترى إن كان يمكنها احتمال العمل. أمّا توم فمكث في غرفة سالي يتعافى ببطء من الصدمة النفسية والألم الجسدي. نصح واريك راسل بعدم إخبار الزوجين تشادرتن بشيء، ورأهما أسوأ والدين في أبراشيته. قال مُتَوَعِّداً: «إن علما أين يمكث الطفلان وأثارا المتاعب فسأقاضيهما بتهمة الاعتداء والضرب، وسأذيقهما الويل».

لكن الزوجين تشادرتن لم يثيرا أي متاعب. ربما ضاقا ذرعاً بالتوءمين مثلما ضاق التوءمان ذرعاً بهما. وخلال بضعة أيام ارتكبا فعلة طائشة مباغته كعادتهما. لقد فرّا ليلاً تهرّباً من سداد إيجار المنزل المتراكم. هكذا خسر توم وهاجي بيتهما.

بعد أسبوع تقريباً من هذه الواقعة ذهبت أنا وماجي لزيارة سالي كي نطلب منها الإذن بالمكوث في تريسانت. في المطبخ وجدنا توم تشادرتن يتماثل للشفاء. بعدما سمعنا قصته كانت ويلي من قال: «ألن يكون من الرائع أن نصطحبه معنا كي يحظى بعطلة رائعة؟».

وها نحن نغادر من بادنجتون، يتوسّطنا توم تشادرتن.

في ذلك الوقت كان لديّ ما يكفي من الأسباب للقلق. لقد غادر ريتشارد إلى مُعلِّمه الجديد، واهتممت لأن حال الصبي لا يسير على ما يُرام. سافر دانييل إلى اسكتلندا. وتمنيت له مقابلة ناجحة مع السيد بالفور، دون انتباه إلى أن سير المقابلة جيدًا قد يساهم في أن ينحرف مسار حياة دانييل بعيدًا عني، إذ لم يوجد عقل لا يفهم الشؤون السياسية على نحو أسوأ مني. وانشغل فكري بالطفل الذي أحمله.

لهذا تولّيت ماجي أمر توم. أمّا أنا فأمضيت وقتي أتجول في المنطقة. أجلس على التلال أسفل الشمس. أغمر جسدي بالمياه من أن إلى آخر. وأزور في حنين الأماكن المرتبطة بوالدتي واللورد بيرندج، وسالي وإدي رودا. كان من المزعج أن أشعر بنفسني كهلة، قد اختبرت الحنين إلى الماضي بما يكفي. كنت أرى توم عند الوجبات، وسرّني ملاحظة التحسن في مظهره. لقد مكثنا في تريسانت شهرًا، وقبل انتهاء تلك المدة كان الضماد اللاصق قد أزيل من رأسه وأنفه. طال شعره، اختفت كدماته، واكتسبت بشرته سُمره. ازداد وزنه، وربما للمرة الأولى في حياته زال القُمل من رأسه. وخشية أن يتأثر وضع سالي في برمندزي استمر التظاهر بأن المنزل يملكه أحد أصدقاء ماجي الأثرياء، وقد سمح لنا بالمكوث فيه لأنه مسافر في الخارج.

كان سلوك توم همجيًا كالمتوقع، ولم يكفِ شهرًا لتصويبه. بدا أن أكثر ما أثار حماسه هو رؤية الكائنات الحيّة تتحرك: الطيور المُحلّقة، الأرناب التي تعدو فوق التلال المكسوة بشجيرات الجولق، الكراوين المُتململة، والبجعات الهادئة التي تسبح بتأنٍ. لقد فاق ما رأى احتماله، ولحظت ماجي أنه صنع لنفسه مقلعًا جديدًا. رأته عند البحيرة يقذف البجعات بالحصى. ولأن المنزل احتوى على بندقية هوائية فقد استخدمتها ماجي في تعليمه التصويب نحو هدف ثابت. حققت هذه الخطوة المرجوَّ منها عدة أيام، لكن الأهداف المتحرّكة هي ما استهواه. وذات يوم، دون معرفتها، ترك الهدف الثابت وأخذ البندقية الهوائية إلى البحيرة. ثم عاد إلى المنزل يحمل نورسًا ميتًا، مدهوشًا بإمكانيات سلاحه. بعد هذا الحدث عرضت ماجي المال على

صَيَّادٍ من بورتيفن ليصطحب توم في قاربه، وقد شغل هذا النشاط معظم وقته في الفترة المُتَبَقِّيَّة من العطلة. كان أكثر سعادة عند قضاء الوقت مع الصيَّادين. لكنه توقف عن الذهاب معهم بعد رحلة هَبَّت فيها رياح شديدة، نثرت رذاذ الماء على متن القارب وراكبيه. أخبرونا أنه كان مذعورًا وشحب شحوبًا شديدًا. لحظنا أيضًا أن ظلام الريف أخافه. كان ينام ونافذة غرفته مغلقة بإحكام والستائر مسدلة، كي لا يسمع ضجيج طيور مالك الحزين والبوم والكرابين.

علمت أن ماجي لم تُرضِها نتائج ما استطاعت فعله من أجله. لقد قالت: «أودُّ أن أستبقِّيه هنا عامًا. لكنني بلغت من العمر ما لا يمكِّنني من أداء هذا النوع من المهام».

بدا عليه الارتياح ونحن ذاهبين إلى محطة القطار عندما انتهت العطلة. كان بخير، لكن توقه إلى العودة إلى لندن لم يكن خفيًا. عندما وصلنا إلى بادنجتون انشغلنا مع مسؤولي الأمتعة كالمعتاد بضع لحظات فقط، وفي تلك اللحظات اختفى. لم نستطع العثور عليه في أي مكان، واضطُررنا إلى العودة إلى المنزل دونه. لكننا علمنا في ما بعد أنه ذهب إلى برمندزي في تلك الليلة، وقَدَّم فخورًا النورس إلى سالي، بعدما أخذه للتحنيط لدى مُحَنِّط هاوٍ في بورتيفن دون معرفتنا. عندما زرتها تاليًا كان النورس قائمًا على رفِّ المدفأة. رأيت المنقار الأصفر الضاري ذا الطرف الأحمر، والعينين البريَّتين المتغطرسيتين، والريش ذا التناسق والبهاء. لم يجلب معه من تريسانت سوى شيء قتله. وبعدها ناول سالي هديته غادر مسرعًا ولم تُعرَف وجهته.

الفصل الثامن عشر

1

وُلدت فيرونيكا في منزل تشيلسي في ديسمبر عام 1885. وكان وجودها سببًا كافيًا لعدم ذهابي مع دانييل إلى «ستينهامبتن»⁽¹⁾، حيث خاض معركته البرلمانية الأولى صيفًا. في ذلك الوقت أصبحت ستينهامبتن بلديةً حسنة السمعة إلى حدٍّ معقولٍ رغم تاريخها غير المُشرَّف. كانت من أكثر الأحياء فسادًا سياسيًا. في القرن الثامن عشر وجد الإقطاعي مالِكُ أراضيها بين مستأجريه معارضين لآرائه السياسية. فقرَّر التصدِّي لهذه العقبة باتِّخاذ إجراءٍ بسيط، وهو هدم منازل المعارضين، دون أن يمسَّ منازل الناخبين الذين تعهَّدوا بالتصويت وفقًا لأهوائه. حينئذٍ انتخب أهالي ستينهامبتن عضوين من أعضاء البرلمان، بدلًا من واحد، وهذه ممارسة سياسية نافعة في أي وقت من أوقات الإجهاد البرلماني أو الحيرة البرلمانية، وبأقي أشكال الفساد. على أن رؤساء الوزراء في ذلك العهد لم يبلغوا من الفساد حدًّا يجعلهم يغفلون عن الإيفاء بالتزامات الحكومة المادية. لهذا تقاضى الإقطاعي وابنه خمسة آلاف جنيه إسترليني كل عام دون بذل أي مجهود يُذكر. ثم مرَّت الأعوام حتى مُدَّ خط للسكة الحديدية عبر هذا الحي، وتطورت الصناعة فأصبحت البلدة في

(1) اسم البلدية المذكور مُحَرَّف، لم يستخدم الكاتب اسمًا صريحًا. م

ازدهار. لكن دانييل لم يفز بالمقعد البرلماني رغم أن السيد بلفور ذهب إلى هناك لدعمه.

أتذكّر حديث البعض عن ذلك الدعم خلال حفل عشاء أقمناه، حيث دعونا للمرة الأولى الرجال من النوع الجديد الذين أصبح دانييل يرافقهم. لقد تعجّبوا من دعوة دانييل السيد بلفور إلى مساندته في الانتخابات البرلمانية، ومن تعليقه أهمية على إرادة الرجل الطيبة. قال أحدهم إن بلفور يشبه سمكة «ثعبان الماء» تحاول الوقوف على ذيلها. واتّفقوا جميعاً، باستثناء دانييل، أن الرجل غير مؤثّر ولا أمل في أن يحظى بمستقبلٍ سياسيٍّ واعد.

قال دانييل وهو يحمل كأسه مبتسماً: «رغم كل ما قلّتموه، لنشرب نخب أ. ج. بلفور؛ دون أن نغفل عن أنه /بن أخت رئيس الوزراء اللورد سالزبري». علت الأصوات احتجاجاً على ما قال، لأن الرجال في تلك الدوائر دائماً ما دافعوا عن النزاهة التامة التي تتميز بها الحياة السياسية، حيث تغيب محاباة الأقارب والمحسوبية وجميع النقائص الأخرى.

قال أحدهم: «أخبرني أنك لا تقصد أن سالزبري سيسمح بأمر كهذا؟!». لم تغادر الابتسامة المشرقة وجه دانييل، وأجاب: «بالطبع لن يسمح بهذا. لكنني واثق أنه بمرور الوقت سيلحظ ما لم يلحظه كثيرون».

- وما هذا الذي سيلحظه؟

- إن بلفور واحد من أكثر السياسيين عناداً ودهاءً وموثوقيةً في هذا البلد. لا تنخدعوا بهيئته أو سلوكه الظاهر. لنناقش هذه المسألة بعد خمسة أعوام ولنرَ من ممّا على حق.

انتهت تلك المحادثة بالرجال يهزّون أكتفاهم اعتراضاً. وعندما شكّل اللورد سالزبري حكومته وعيّن بلفورد وزير الدولة للشؤون الاسكتلندية، ابتسموا واثقين أن سالزبري، بصرف النظر عن رأي دانييل في هذا الأمر، أدرك بحكمته المنصب المناسب تماماً لابن أخته. لكن بعد عام، عندما استقال مايكل هيكس بيتش، عُيّن بلفورد وزير الدولة للشؤون الأيرلندية. وهذا منصب مختلف حتى إنني أدركت حساسيته، بسبب الحركة القومية الأيرلندية. وفي

العام التالي لهذا أدّى رحيل أحد الأعضاء المُمثّلين لبلدية «ستينهامبتن» إلى إجراء انتخابات فرعية، وعندئذٍ انضمّ دانييل إلى عضوية البرلمان.

2

لم أصطحب فيرونیکا إلى تريسانت حتى صيف عام 1890. هناك كنا جماعة: أنا وفيرونیکا التي اختُصر اسمها بمرور الوقت، مثل جميع الأسماء، إلى نیکا؛ وريتشارد في الثانية عشرة من عمره حينئذٍ؛ وميرفن وإنيّد موستن-لويد وابنتهما الصغير إدوارد، الذي سيُكَمِّل عامه الرابع في سبتمبر من ذلك العام؛ والسيدة ألويشس سلين. كان الغائبان عن هذا الجمع، كما سنرى، هما دانييل والكولونيل سلين. لم يحظَ دانييل باستراحة في إجازة الصيف الطويلة. راقه قضاؤها في دائرته الانتخابية وسط أصحاب الأصوات الانتخابية، وفي حفلات المبيت وسط أصحاب النفوذ. كان ليُرْحَب بتنظيم حفلٍ من هذا النوع في تريسانت. لكن الوجود في تريسانت في تلك الأيام كان يعني أن تتناول المُتاح من الطعام وأن تؤدي بنفسك غالبية المهام. لهذا لم يكن إقامة حفلٍ هناك ليُحَقِّق المرجوَّ منه. وقد قال إن من الممكن أن ينضم إلينا في نهاية العطلة.

قبل تلك السّفرة علمتُ من ميرفن أن الكولونيل سلين سافر إلى الخارج مع صديقه برنارد كابلز. لقد زارني ميرفن قلقًا يسألني إن كنت قد رأيت والدته مؤخرًا. ولمّا أخبرته أنني رأيته سألني عن رأيي في ما يخصّ حالها. قلت له إنني ظننتها مريضة جدًّا.

على الرغم من أنني قلّما رأيت لوسي منذ زواجها فإنني، قبل زيارة ميرفن لي، كنت قد زرتها في كنزنجتون. وعدتُ من تلك الزيارة منزوعةً للغاية. بدا الأمر كأنني ذهبت إلى معرضٍ لأرى لوحة جميلة أعرفها طويلًا، لكنني وجدتُها مُتَشَقِّقة ومُتَسَخَّعة ساء حالها كثيرًا. الآن أصبح واضحًا أن لوسي تكبرني عمرًا. كانت مُنْهَكَة، وما فاق مظهرها سوءًا أنها بدت خائفة. احترتُ في ما عليّ فعله، إذ يخجل المرء من أن يقول لامرأة عُرِفَتْ بجمالها: «يا إلهي!

كم تبدين بحالة سيئة!». لقد تفاجأت بانهايارها المبالغت، وشعرت أن ما تسبّب فيه مكيدة خبيثة. لقد بدا واضحاً أن لوسي لم تتنحّ عن مركزها، بل أطيح بها. الآن يجب أن أعود إلى الورا لأوضح ما أطاح بلوسي. يمكننا البدء من حفل الشاي الذي أقامته إنيد، عندما وقفتُ أنا والكولونيل سلين عند النافذة نشاهد المطر المتساقط، وحَدَّثني عن طفولته. تضمّنت التلميحات التي ألقاها شيئاً من الحقيقة. كان طفلاً وحيداً، ابناً لحدّاد في قرية إنجليزية. أبغض الحدّاد ابنه ذا العينين النجلاوين رغم أنه لم ينجب سواه. وبالمثل أبغضه الصبي، وخافه، ورَكَنَ إلى أمه مثل صوِص أسفل جناح الدجاجة الأم. كانت طفولته تعسة. وكلما تقدّم في العمر تفاقم ارتياحه في الرجال وميله إلى السعي وراء الحنان الأموميّ لدى النساء.

في الثامنة عشرة، وهو يعمل في متجر البقالة في القرية، تلقّى خبر موت أمه. كان جميع زبائنه تقريباً من السيدات، وبالطبع لم يزعجه هذا الأمر. لقد مات والده في العام السابق إثر ركلة فرسٍ أُحضر إلى ورشة الحدادة كي يُثبّت الحَدَوَات إلى حوافره. لهذا كان العام الذي يليه أسعد أعوام حياته: أمضاه في الثرثرة مع السيدات الكبيرات نهائياً، والمكوث في الكوخ مع أمه ليلاً. بعد موت أمه كان ليوصل حياته كلها في الثرثرة الممتعة مع الزبائن في المتجر والانعزال في الكوخ ليلاً، لو لم تقلب امرأة شابة نظام حياته. كان يستلطف النساء الكبيرات اللاتي يجلبن له بعض البيضات، أو سلّة خضراوات، أو يعرضن عليه رتق جواربه. لكن تلك المرأة الشابة، رغم أنها تزوّجت حديثاً، أكّدت له أن المرأة قد ترغب في رجالٍ آخرين غير زوجها. لم تُدر تلك الفكرة في عقله من قبل قط، وكان النظر إلى عيني المرأة الجريئتين يربكه أشدّ الإرباك. ولأنها أدركت أثرها فيه أصبحت تتلذّذ بتعذيبه بمداعبات كانت تبدو غير مقصودة. لكنه واجه تلك المسألة بالهرب مباشرة. لقد اختفى؛ لم يعلم أحد في القرية أين ذهب.

في النظرة التالية التي سنلقياها على حياته سنراه يقود عربة يقطع طرقاً ريفيّة في مقاطعة أخرى. لقد عثر على مسكنٍ في إحدى بلداتها، وعمل لدى شركة يمتلكها تجّار المواد الغذائية الذين يزودون متاجر البلدة بالبقالة. هناك عاش المدعوّ ألان سيمبل سعيداً، الذي سيصبح في ما بعد الكولونيل

سليّن، يقطع حائاً فرسه على جرّ العربّة بين السياجات النباتيّة المزدهرة،
ينقل طلبيات الشركة.

ذات يوم بُعث ألان برسالة إلى مكتب السيد برنادر كابلز، المحامي الشابّ
الأنيق مكتنز الجسد، ذي العينين الماكرتين، الذي وصل مؤخراً إلى البلدة.

على الأرجح أن ألان سيمبل لم ينسَ قط ذلك الصباح الصيفي، حيث رأى
السيد كابلز للمرة الأولى واقفاً في مكتبه ينعكس الضوء الساطع على حذائه
وشعره الأسود الناعم، تُجلجل إحدى يديه العملات المعدنية في جيبه، وتعبث
الأخرى بالسلسلة الذهبية السمكة لساعة جيبه، التي تحيط ببطنه المُكوّر
مثل حبالٍ تطوّق هيكل قارب.

لم يستطع السيد كابلز مقاومة الرغبة في الاطلاع على ظواهر وبواطن
من حوله. لكنه لم يَرْتَمِ على الناس، بل حامَ حولهم بحذرٍ من بُعد، متأهباً
دائماً للابتعاد سريعاً إلى وَكْرِهِ. على أنه في ذلك الصباح أجرى محادثة ودّية
مع ألان، الذي غادر وهو يشعر أنه عثر أخيراً على رجل لم يُثّر خوفه. كان
حلم ألان سيمبل الخفي، مثل كثير من الناس، أن يصبح ما هو ليس عليه. ودَّ
أن يكون رجلاً مُحَنِّكاً واثقاً بنفسه، رجلاً يجوب العالم ويندمج في مجتمع
النُخبة، يهابه الرجال وتعجز النساء عن مقاومة سحره. خلبت لُبّه خرائط
البلاد البعيدة ومخططات المدن الأجنبية، وأمضى وقته يرتحل بين صفحات
الكتب. عرف لندن رغم أنه لم يذهب إليها قط. وذات مرة صحَّح إحدى
معلومات كابلز الخاطئة حول تضاريس باريس. بينما يقود العربّة وسط
الأجواء الخريفية البديعة تصوّرها جندولاً، أو قارباً، أو مُحَفَّة. ويستغرق في
خياله سعيداً كأنه في «فينيسيا»، أو خليج «القرن الذهبي»، أو وسط أبهة
المدن العريقة في الشرق.

قابل كابلز: «يجب أن تسافر إلى الخارج في العطلة التي ستأخذها المرة
القادمة. تعالَ معي إلى فرنسا».

نظر ألان إليه مدهوشاً وقال: «فرنسا؟! لكنني لا أملك المال».

- تقول مال؟! لن تملك المال أبداً إن واصلت العيش بهذه الطريقة.
يستطيع أيّ امرئٍ يرغب في المال الحصول عليه. ومن ثمَّ سيُمكنه

الحصول على ما يستطيع المال شراءه. أنت لا تريد قضاء حياتك في مطالعة صور الأماكن في الكتب بدلاً من زيارتها، أليس كذلك؟ ثم جلس يتحسس سلسلة ساعة الجيب وقال: «لنعبث بأوراق اللعب». اكتشف ألان أن ما يمكن فعله بأوراق اللعب كثيرٌ مقارنةً بالألعاب البسيطة، التي تسلى بها مع أمه في الأمسيات الشتوية. قال كابلز: «أفهمت ما أعني؟ لنفترض أننا كنا نلعب الورق رهاناً على المال، كيف كان ليصبح حالك؟».

أجابه آسفًا: «مُفلسًا».

أسقط كابلز الأوراق من إحدى يديه إلى الأخرى ل يبدو كأنه يعزف الأكورديون، وقال: «بالضبط».

في الصيف التالي سافرا إلى فرنسا. لقد تعلّم ألان الكثير عن حيل أوراق اللعب. أصبح خصمًا خَطِرًا لأغلب الناس. لكنه ظلّ في نظر كابلز مبتدئًا. كانت الرحلة إلى لندن طويلة. وفي أثنائها أدّى ألان دور السائح البريء الذي يختبر حظه في اللعب مُتردّدًا، ثم يُظهر الدهشة عندما يربح وعندئذٍ يُقرّر الانسحاب. لقد اتخذ الخطوة الأولى في الطريق المُهلك للكسب السهل.

عندما وصلا إلى الفندق حيث يمكنان قال كابلز: «انظر يا ألان. إن الهدف من هذه السفارة أن أريك ما قصده بكلامي. إن ظننت أنني كنت سأدفع تكاليف عطلتك فأنت مخطئ. ما أودُّ أن تفهمه هو أنك قد تجعل الآخرين يدفعون ثمن أي شيء تريد».

وأعطاه المبلغ المربوح الذي لم يكن قليلاً.

- لماذا تفعل هذا من أجلي يا سيد كابلز؟

- من أجلي؟ من قال إنني أفعل هذا من أجلي يا ألان؟ هل سمعت قبلاً عن التبشيريِّ؟ إنه بإيجازٍ من يجد المتعة في جعل الآخرين يشبهونه. يساعده هذا في تبديد وحدته.

- أنا لا أفهمك.

- لن يروقني أن تفهمني بهذه السرعة. عليك أن تمنح نفسك الوقت يا ألان. فأنا، على أي حال، أكبرك بعشرة أعوام. ربما سيفهم أحدنا الآخر جيدًا خلال عشرة أعوام.

3

خلال العشرة أعوام التالية سُجن برنارد كابلز مدّة خمسة أعوام بتهمة اختلاس أموال زبائنه، وحلّ بالأن سيمبل الكثير. حالما عادا من باريس ترك ألان وظيفته لدى شركة البقالة، وعمل في خدمة كابلز بطرق سرّية عدّة. وسواءً أكان مُوسرًا أم مُفلسًا، فإنه دائمًا ما اتّكل على قائده المُذهل الذي يرتدي قناع الرجل الشريف ذائع الصيت، لكنه خلف هذا القناع يعيش حياة رآها ألان، الذي سرعان ما تغلّب على وخزات ضميره، غير قانونية وناجحة على نحو خيالي. الآن أصبح يضحك من المُغفلين في موطن رأسه، الذين جعلوا الحياة عبثًا عليه. ليتهم يرونه الآن! لقد عثر على رجل عظيم يعامله على أساس المساواة.

ظلّ هذا ظنّه حتى يوم صيفيٍّ، حيث كان هو كابلز في عطلة في جنوب فرنسا مع عدد من أصدقاء كابلز. عندما عاد ألان إلى الفندق حيث تشارك هو وكابلز غرفة الجلوس توقف عند الباب إذ سمع عدة أصوات في الداخل. قال أحدهم: «هل أحضرت سيمبل المُغفل معك هذه المرة؟».

- بالطبع. لا نزال مثل يدٍ وقفّازها.

- أفهمك. أنت اليد وهو القفّاز الذي يخفيها. هذا عمليّ للغاية. أتمنى أن أجد مثله.

- يمكنك أخذه إن أردت. لقد سئمت منه.

لم يدخل ألان الغرفة. غادر يتجنّب كابلز حتى المساء. عندما تقابلا تاليًا كان كلاهما في مزاج سيئ. لقد تبدّد شعور ألان الواهن باحترام الذات. أما كابلز فقد تلقّى خبرًا، لم يدر به ألان، مضمونه أن مُضاربةً في سوق الأوراق المالية قد عقد الآمال على أن تضاعف ثروته، أدّت إلى خسارته كل ما يملك

تقريبًا. لم يُشر أيُّ منهما إلى ما يدور في عقله، لكنهما كانا من الاستياء ما أدّى إلى أن يخوضا جدًّا حادًّا. ثم فعل ألان فعلته عندما خشي المرأة الشابة في قريته: هرب دون أن ينطق بكلمة. كان الهروب -من الصبية المستهزئين به، والمرأة الشابة اللعوب، والصورة التي رأى نفسه عليها الآن- هو مهارته الوحيدة.

4

عندما هرب ألان من كابلز، أو بالأحرى من إدراكه حقارة شأنه التي جعله كابلز يراها، كان مُضطربًا ضائعًا تعوزه الرعاية. ودَّ لو أنه يستطيع العودة صبيًّا مجددًا مات والده، تجلس أمه بجوار المدفأة تحيك الثياب وهو جالس أسفل المصباح يقرأ عن «ريو» أو «فاما جوستا». اكتشف أنه في غياب عقلٍ مُوجِّه لا يفلح حتى في أن يكون مُجرِّمًا، أو أن يؤدي الأنشطة المشتبه فيها حيث يفصل بين الجريمة والقانون شعرة رمادية. من حين إلى آخر عثر على عمل حقيقي وعدَّ هذا الأمر مقياسًا لفشله. دائمًا ما تاق إلى العثور على رجل قوي يستطيع الثقة به، أو امرأة يعود في رفقتها طفلًا صغيرًا مع أمه.

ليس من المفاجئ أن رجلًا في وحدته وكأبته قد تزوج، بل أنه امتلك الشجاعة للزواج. وربما لم تترك له مود سكيرو خيارًا. لقد استأجر غرفة في منزل والدتها الذي يقع في منطقة بين الرقي والعشوائية. عندما ذهب إلى هناك أول مرة قابلته والدتها الأرملة. بدت رفيقة سكن مريحة. لم تستفسر عن موعد مجيئه أو ذهابه، أو اختفائه أحيانًا. حتى إنها خاطبته بلقب «سير»، ما يؤكّد مبالغته في العناية بمظهره وأسلوب حديثه.

قالت المرأة ذات مرّة: «يبدو لي أنك عشت حياة الرغد».

فشرع ألان على الفور يخبرها بأيامه الخوالي. وعندئذٍ اكتشف موهبته في التأليف. أمضى كثيرًا من الأمسيات الدافئة بجوار مدفأة السيدة سكيرو، يخبرها مزيجًا مُقنعًا من الحقائق والخيالات التي سيصبح خبيرًا في حبكها. بحلول ذلك الوقت كان قد زار أماكن عدّة، ومكّنته مطالعة الكتب واللوحات

من تخيلُ المزيد. استمتعت السيدة سكيرو بحديثه، وشرعت في رتق جواربه وكيّ قمصانه.

ذات يوم أخبرته أن عزيزتها مود عائدة إلى المنزل، هكذا سمع عنها للمرة الأولى. كانت مود تعمل في متجرٍ محليٍّ كبيرٍ للأقمشة حيث تقيم الفتيات.

قالت الأم: «لا يمكنك يا سير تصوّر كيف تسير حياتهن: يشقّين من الصباح حتى التاسعة مساءً كل يوم باستثناء أيام السبت، حيث يعملن حتى الحادية عشرة؛ تُلَاحَظُ أفعالهن وتُفَرَضُ غرامات مالية عليهن عند ارتكابهن أهون الأخطاء؛ أمّا الطعام فإنني إن علمت أن مود تتناول شيئاً مثل هذا في إفطارها فسأنام هانئة».

وضعت اللحم المُقَدَّد والكلى على الطاولة، فاختلطت رائحتهم الشهية بعبق القهوة. كان على الطاولة أيضاً خبزٌ هشٌ طازج، تكفي قسمة منه لينشرح الصدر. رغم ذلك انتاب ألان سيمبل القلق. فكّر: «دائماً تأتي فتاة لعينة وتُفسد كل شيء».

واصلت السيدة سكيرو الحديث عن ابنتها، تثير في نفسه الرغبة الملحة في الهروب إلى الأمان.

قالت: «كل ما تريده ابنتي هو بيت دافئ. طالما قلت لها إنها ربّة منزل. لم يكن عليها تحمّل هذا العمل كل تلك المدة. لقد وضعتُ بعض المال جانباً، وأمامها الكثير لفعله هنا. توجد أيضاً الأمور المؤسفة التي تواجهها جميع الفتيات. لو كنت مكانها لوبّخت المدعو السيد ماثيسن قائلة: «ربما تبيع القماش لكنني لست بائعة هوى. انتهى!».

5

اتخذ ألان قراره. في ذلك المساء أخبر السيدة سكيرو أنه مُضطر إلى السفر إلى «بروكسل»، لأن هناك مشكلة تتعلق بشركته الوهميّة يجب تداركها على الفور. قال إنه سيغادر اليوم التالي ولا يعرف متى سيعود. حزم حقيبة يعتزم العثور على غرفة جديدة، على أن يرسل السيدة سكيرو بعد مُضيّ

بعض الوقت يخلق عذراً -مثل: «يجب أن أقيم في مكان أقرب إلى محلّ عملي»- ويسألها أن ترسل باقي أغراضه.

في الصباح ودّع أحدهما الآخر بأسفٍ حقيقي. وقالت السيدة سكيرو: «عندما تعود ستكون مود هنا. ستصل خلال بضعة أيام».

تفاجأت به ينحني ويُقبلها، ثم أسرع إلى البوابة حيث تنتظر «الهانسوم». شاهدته يبتعد تشعر بالفخر، وفكرت: «نادراً ما تُرى عربة فاخرة مثل تلك في هذا الشارع ما لم يُقام زفاف أو جنازة».

قرّر سيمبل زيارة أحد أصدقائه المشتبه فيهم، ومناشدته استضافته إلى أن يعثر على غرفة جديدة يستأجرها. لكن صادف أن كان لدى ذلك الصديق عملٌ مشتبه فيه في تلك الليلة، وبسهولة أقنع سيمبل بمشاركته. نتيجة لذلك، في الساعة العاشرة، كان سيمبل يفرّ مُترنحاً جرّاء ضربة من هراوة ضابط شرطة على رأسه، راکضاً في أزقة «سوهو» الخلفية. اختبأ في مداخل الأبواب المظلمة، ثم تسلّل بخفة يتقدّم تدريجياً حيث رجا أن يجد الأمان. عندما وصل إلى طريق عامّ توقف عن الهروب. كان رأسه يؤلمه بشدة. شعر أنه سيسقط وأن عليه الراحة في السرير. رأى بعين خياله سرير الدافئ وصحبة السيدة سكيرو المريحة. كاد يشعر بها تضبط الدثار حوله. وفي الحال قرّر العودة إلى المنزل.

فتحت مود سكيرو الباب لتهتف: «السيد سيمبل!».

حينما رآته عرفت على الفور من يكون. وعندما اندفع إلى الداخل يستند إلى الحائط ضحكت. ارتمى على كرسيّ فأغلقت الباب وأقفلت مزلاجها قائلة: «أفرطت في تناول الشراب؟».

حاول النهوض لكن الصنّج في رأسه جلجلت، فعاد إلى الجلوس قائلاً في إباء: «أنا لست ثملاً. استدعي أمك».

- يجدر بك الذهاب إلى الفراش. هيّا، أعطني ذراعك.

كان من الإنهاك بحيث عجز عن رفض مساعدتها، أو منحها تفسير أو طلبه. أحاطته بذراعا تعينه على صعود الدرج، ثم تركته يرتمي على السرير. رفعت قدميه عن الأرض، وألقت بالغطاء فوقه.

في الصباح لم تجلب له إفطارًا سوى كوب قهوة مُرَكَّزة. رفعت حاجب النافذة، لكن أشعة الشمس لم توقظه. كان راقداً حيث ارتمى يبدو ميتاً لا نائماً. انتابتها الحيرة. لقد ظنَّت أنها ستجده مريضاً، لكنه ليس كذلك. ولم تفح منه رائحة الشراب. ثم لحظت الكدمة على جبهته يكاد شعره يخفيها. عندئذٍ قرَّرت ألا توقظه. أنزلت حاجب النافذة وخرجت من الغرفة المظلمة على أطراف أصابعها. فكَرَّت: «ربما كانت أُمِّي على حق. لقد قالت إنه رجل مُهذَّب وربما لم يقرب الشراب قط».

في المطبخ كانت تعدُّ وجبة الغداء عندما سمعت أحدهم يجرُّ قدميه. التفتت لترى سيمبل واقفاً، تستند كل يد من يديه إلى جانبي مدخل الباب.

قال بلباقة: «أعتذر عن إزعاج الليلة الماضية. أين السيدة سكيرو؟».

- لا تهتم لأُمِّي الآن يا سيد سيمبل. سأخبرها بكل شيء لاحقاً. أنا مود، وإليك نصيحتي: عُدْ إلى غرفتك، اخلع ثياب الخروج ونم مرتاحاً. يبدو أنك تحتاج إلى راحة طويلة.

التفت يغادر دون كلمة. سمعته يصعد الدرج. وبعد ساعة، عندما انتهت من إعداد الطعام، أخذت وعاء حساءٍ وبعض الخبز المُحمَّص إلى الأعلى. لقد اتَّبَع نصيحتها. كان مُستلقياً في السرير يغطِّيهِ الدثار، لكنه مستيقظ. ساعدته على الجلوس، ضبطت الوسائد خلف ظهره، ووضعت الصينية في حجره. تناول الطعام بنهم. ثم أحضرت المياه. مسحت بإسفنجة وجهه ويديه، ضغطت الإسفنجة الدافئة برفقٍ على الكدمة مرة تلو أخرى، وقالت: «سيجعلك هذا تشعر بتحسن. الآن حاول العودة إلى النوم. سأتي لألقي عليك نظرة أخرى الليلة».

أنزلت حاجب النافذة، وفي جوِّ الغروب الهادئ شعر بالراحة. سُرَّ جسده بالدفء ومعدته بالطعام، وهذَّأت المياه الدافئة رأسه. ثم نام وهو يُفكِّر مذهباً أن الفتاة الشابة تستطيع منح الطمأنينة مثل الأم.

عندما استيقظ كان الغروب الخفيفُ القصير قد تلاشى، والستائر الحمراء مُسدلةٌ أمام حاجب النافذة. وكما لم يحدث من قبل، رأى النيران متقدة في المدفأة. بجوارها جلست مود في مقعد مريح مستغرقة في الحياكة. على الطاولة بجوارها مصباح مُضاء، سقط نوره على جانب وجهها.

ولمّا كان ناعساً، يملأه الشعور بالعافية والأمان، والأهم من ذلك، الشعور بوجود من يعتني به، ظلّ في مكانه يتطلّع إلى مود. بعد برهة توقفت أصابعها النشيطة عن العمل واسترخت في حجرها، ثم أغلقت عينيها. تأثّر سيمبل على نحو يتعذر وصفه عندما رأى فتاةً يغلبها النعاس وهي تعمل. فكّر أنها قد أرهقت نفسها في انشغالها بأمره واعتنائها به.

ثم سقطت قطعة فحم في صينية الرماد ففتحت مود عينيها. اتجهت إلى السرير ووقفت تنظر إليه. وضعت يدها على جبهته، وأعجبه الشعور بها.

قالت: «لقد نلت قسطاً وافراً من النوم. تبدو أحسن حالاً وحرارتك طبيعية».

ثم غادرت لتعود بوجبة خفيفة، وشرعت في الحديث: «إن الظروف التي أدت إلى حالنا هذا مُسلّية. لم تتوقع أُمي مجيئي قبل عدة أيام، إذ كنت أمضي أيام العمل الأخيرة القليلة قبل الاستقالة، وفي أثنائها أزعجوني أيّما إزعاج. إنّ استقالاتي في نظرهم تعني القول: «إنّ بإمكانني المضي قدماً بدونكم وشكراً لكم»، لهذا عابوا كل ما أفعل. عندئذٍ قلت في قرارة نفسي: «تبّاً للعمل!». ثم حزمت أمتعتي وغادرت دون إخبارهم بشيء. استقلت القطار الليلي وفاجأت أُمي. لا بد أنني وصلتُ بعدما رحلت مباشرة. يمكنك تصوّر الثثرة المُحبّبة التي تلت وصولي. وفي أثناء حديثنا، كأن مفاجأة عودتي لا تكفي، فاجأتنا برقية مُرسلة إلى أُمي تقول: «ميني على فراش الموت. احضري في الحال». هكذا انشغلنا في تجهيز حقيبة أُمي، وإحضار عربة لإيصالها، وما إلى ذلك. ثم قالت أُمي: «من الجيد أن السيد سيمبل ليس هنا. ستتولّى العناية بالأمر». لا أظن أنه سيعود قبل أسبوع بأي حال ومثله ستكون مدة غيابي. إلى اللقاء». ثم غادرت إلى «هنزلت». لكنني الليلة الماضية وجدتُك أمامي! أليس هذا مُسلّياً؟ اضحك معي!».

ألقت بعض الفحم في المدفأة، ولزمت الصمت لحظات. سمعا وقع أقدام على الطريق، ثم عاد الهدوء واستطاع سيمبل سماع القرقرة الخافتة اللطيفة التي يصدرها المصباح. بدا له أن المدفأة والمصباح المتّقدين وسط الهدوء، في وجود امرأة تحيك، هم جوهر أسعد الأوقات التي عاشها طوال حياته.

قال: «أخشى أنني عندما أعود إلى مكتب الشركة سأصبح في مأزق. عليّ أن أكون في بروكسل الآن كي أسوّي المسألة».

قالت بحزم: «ستتغيب عن العمل بضعة أيام يا رجل. دعهم يفعلون ما يحلو لهم. جميعنا نبالغ في القلق بشأن نظرة رؤسائنا لنا. على أن رجلاً مثلك يستطيع الحصول على وظيفة جيدة في أي مكان. أخبرني ماذا حدث؟».

كان قد ابتدع قصة بالفعل. قال: «عندما رحل جميع العاملين بقيت في المكتب مع جنكنسن كي نتناقش باستفاضة حول المشكلة الواقعة. كانت توجد عدة أمور يجب تسويتها إن أردت حقاً النجاح في تداركها. لكننا ارتكبنا خطأ الخروج للعشاء، في حين كان علينا أن نلزم ما نفعل. لهذا عندما عدنا إلى المكتب اضطررنا إلى العمل في عَجَلَة، حتى وجب أن أسابق الريح كي لا يفوتني القطار. وهذا ما فعلت، صدّقيني! لحسن الحظ رافقني جنكنسن إلى محطة القطار. هناك وجدت أن القطار بدأ يتحرك، وكنت لألحق به لو لم يحاول مسؤول الأمتعة الأحقق منعي. لقد قاومته ونجحت في الإفلات منه. عندئذ كنت لأستطيع اللحاق بالقطار لو لم يمسك بي مجدداً. لكنني سقطتُ، وهكذا باءت محاولاتي بالفشل. لقد أُصِبتُ بتلك الكدمة إثر اصطدامي بحافة عربة يد تركها أحد مسؤولي الأمتعة. وعندما استعدت وعيي كنت في قاعة انتظار. أراد الجمع نقلي إلى إحدى المستشفيات، لكنني رفضت الذهاب. قلت إنني أستطيع العودة إلى المنزل. وأخبرت جنكنسن أن يُبقي حقيبتي معه لأنها تحتوي على جميع الوثائق المهمة. يمكنني استعادتها وقتما أشاء».

توقف عن الحديث راضياً عن حبكة قصته، ثم أردف: «أعتذر عن سير الأمور على هذا النحو. لقد أردت الذهاب، فأنا أحب زيارة البلاد الأجنبية...». ثم أخذ يسرد مزيجه من الحقائق والخيالات، الذي وجدته مود ساحراً. وللمرة الأولى اتّسع نطاق رحلاته ليشمل تركيا وبلاد فارس.

قال: «توجد «أصفهان»، ويا لها من مكان! ما أجمل حدائق الزهور يضيئها ضوء القمر في ليلة فارسية!».

قالت مود: «لم أرَ البحر قط سوى في «مارجيت». كان السيد ماثيسن ليصطحبني إلى أي مكان. أراد أن يأخذني إلى «بريدلنجتون» رغم أنه مُعلّم في إحدى مدارس الآحاد لديه زوجة وأربعة أبناء! كم قرّعته!».

ثم مسحت يديه ووجهه بالإسفنجة، ونام نوماً عميقاً. عندما نهض صباحاً اعتنى بحلاقته، وتفاجأ برغبته في أن يبدو أكثر وسامة في نظر مود. على

طاولة الإفطار رأى خطابين. أحدهما مُرسل إلى مود من والدتها تقول فيه بإيجاز: «كانت خالتكِ ميني قد ماتت عندما وصلت. الجنازة غداً. سأعود في اليوم التالي لها. ملحوظة: لقد تركتُ لكِ خمسمئة جنيه، وهو ليس مبلغاً كبيراً مقارنةً بما توقَّعتُ. لكنها مؤخرًا ازدادت قرباً إلى الربِّ. وأنفقت الكثير في شراء أقمشة مذبح الكنيسة وما إلى ذلك. أملك».

كان الخطاب الثاني مُرسلاً إلى سيمبل من أحد دائنيه يبدأ بـ: «سيدي: ما لم...».

قرأ سيمبل الخطاب بوجهٍ كئيب. ثم نهض، ألقى به وسط نيران المدفأة، وشاهده يختفي. ثم عاد إلى الجلوس إلى الطاولة وقال: «إذن تلك هي النهاية». قالت مود: «أمل أنك لم تتلقَّ خبراً سيئاً يا سيد سيمبل».

- ليس سيئاً وليس جيداً. كما قلتِ الأمس، لن أجد صعوبة في العثور على وظيفة جديدة.

- تعني أنهم اجتروا على طردك من العمل؟
أوماً لها. لقد اتخذ قراراً آنياً مفاجئاً. سيصبح رجلاً جيداً. سيتبع الطريق القويم. وإن كان سيمحو ماضيه فعليه أولاً أن يمحو عمله الوهمي.

6

قالت السيدة سكيرو: «لا أفهم لم لا تمكثين حيث أنت؟ ما الداعي إلى هدر المال في حين أنك تملكين هذا المنزل الجيد؟».

لم تستحسن مود هذه الفكرة لأنها عروسٌ جديدةٌ أرادت منزلاً خاصاً بها. لكن سيمبل راقه اعتناء امرأتين به بدلاً من واحدة، وانحاز إلى رأي السيدة سكيرو. دائماً ما سينحاز إلى السيدة سكيرو. وبعد شهر من زواجهما كان غضبها مُبرَّراً، إذ صاحت: «لقد سئمت من هذا الحال. تجلسان هناك مثل عجوزين مُتحيَّين لأرعاكما كأنني خادمة زهيدة الأجر».

لا شك أن سيمبل لم يكن ليتزوجها قط لو لم يتزوجها على الفور دون تفكير. لقد لفَّه وهجٌ دافئٌ من الشعور بالرضا. كان في خطر داهم، ولما

فرَّ منه وجد نفسه في ملائٍ منشودٍ على نحوٍ فاق تصوُّره. بالطبع سيتلاشى الوهج، لكن السيدة سكيرو ومود حافظتا عليه دافئاً مدَّةً طويلةً بما يكفي ليُعقد الزواج أولاً.

عثر سيمبل على وظيفة، تقريباً. لم يخبرهما كثيراً عنها، وعلَّ أجره الزهيد بالفرصة المهمة التي يوفِّرها له هذا العمل.

قال: «لم أقبل بأوَّل وظيفة أُتيحت أُمامي. كان ممكناً أن أتقاضى ضعف أجري الحالي. لكنني أردت عملاً يمنحني فرصة، وصدَّقاني لقد حصلت عليها. إن استطعت التضحية ببعض المال فقد أصبح شريكاً لا عاملاً».

لم يصطحب سيمبل مود في نزهاٍ قط، إذ إنه حالما يصل إلى المنزل يلزمه. وعندما تذرَّمت مود من الوضع دافعت السيدة سكيرو عنه قائلة: «إنَّ لأنَّ يُقدَّس البيت. يجب أن تكوني شاكراً لهذا يا ابنتي. يشيع أن تجدي الرجال كثيرٍي الترحال يبحثون عن المتعة خارجاً، لكنك ستبحثين كثيراً قبل أن تعثري على رجلٍ يدرك قيمة البيوت».

هكذا مرَّ الشتاء في غليانٍ بطيءٍ مكبوت، يفورُ بين الفينة والأخرى، حتى وقعت الكارثة في مطلع العام التالي. عاد ألان إلى المنزل في ليلة باردة ليجد أن مود في الخارج والسيدة سكيرو في مزاجٍ رائعٍ سعيد. حال أن خطا داخل المنزل عانقته هاتفة: «أهلاً بالأب الجديد!».

استغرق استيعاب ألان ما سمع بعض الوقت. عندما فهمه أخيراً ارتدَّ إلى الوراء، وقال تلقائياً: «لكنني لا أستطيع ذلك».

قالت تضحك بعفوية: «ربما تظن أنك لا تستطيع ذلك. لكن صدَّقني لقد فعلتها!».

ابتعد عنها مصدوماً وصاح: «أؤكد لك أنني لا أستطيع ذلك. تدري مود بالأمر جيداً».

وفرَّ إلى غرفته، أقفل بابها، وأخذ في النشيج.

تلا ذلك المساء شهرٌ من البؤس، حيث لم يفكر ألان في شيء سوى الهروب. واحتملت مود صامتةً عابسةً ما صبَّته أمها عليها من غضب. لكن ذات ليلة، في غرفة النوم، انهار التجاهل الفخور الذي واجهت به ألان. كانت يائسة، ما جعله يخشاها ويبغضها.

اعترفت بأن السيد ماثيسن نالها. قالت: «لكن صدقًا يا ألان لم أعتزم فعل ما حدث. صدقًا. كانت لحظة زلل».

شعر بالغثيان. قال: «ترى أمكِ فيما حدث وصمة عار. لكنكِ لستِ أول فتاة تخطئ، ولن تكوني الأخيرة».

تمسكت به تبكي امتنانًا لرأفته، ثم أسندت رأسها إلى كتفه هامسة: «خذني بعيدًا عنها يا ألان».

- أريد ذلك، وسأفعله. لكنني أحاول التفكير في أفضل طريقة.

أخبرها أن عليهما أن يمتلكا منزلًا خاصًا بهما. قال: «لا أعني مكانًا مستأجرًا مثل هذا، بل علينا أن نشترى منزلًا. لم نُورِّد المال إلى جيب صاحب العقار كل أسبوع؟ لنبدأ من جديد بداية صحيحة».

توقفت عن البكاء وأنصتت إليه إذ أردف: «يتطلب هذا الأمر أن تودعي الخمسمئة جنيه المصرف باسمي. ولن نُبدِّدهم، صدِّقيني. سنُحيلهم ممتلكاتٍ من نوع آخر. أؤكد لك أن ثلاثمئة جنيه تكفي لشراء منزلٍ جميلٍ لنا، وستذهب مئة جنيه أخرى لتأثيثه. هكذا يتبقى مئة جنيه. والآن إن لم تستحسنني ما سأقول فأخبريني في الحال. علينا أن نفكر في المستقبل. وعليه فإنني أرى أن المئة جنيه ستصنع كل الفارق في مركزي المالي في الشركة. لا أعني أنها ستجعلني مليونيرًا في شهرٍ أو عام. لكن الرجل الذي يشارك برأس المال في أي عمل تجاري يحتل موقعًا يختلف عن الرجل الموظَّف. إن لم تعجبكِ هذه الفكرة فلا بأس».

وقد أعجبتها الفكرة، فقال: «لكن حذاري أن تخبري أمكِ بكلمة عن الأمر».

أخذت في البكاء مجددًا وقالت: «أنت حكيم جدًا».

- على أحدنا أن يتولَّى التفكير لكينا.

جرؤت على أن تقول: «لثلاثتنا».

- حسنًا إذن. لثلاثتنا. هيا اذهبي إلى النوم.

ثم قبلها وهو يخفي نفوره، ونامت مود هائلة كما لم يحدث منذ مدة طويلة. رقد سيمبل في فراشه مستيقظًا، يفكر في السفن والقطارات التي تنقله عبر القارَّات. وبعد أسبوع وصل إلى فرنسا في جيبه خمسمئة جنيه.

8

بعد ذلك مرَّ وقت طويل في حياة سيمبل تغشاه الظلال، لا يبدو واضحًا سوى أنه أمضاه في الخارج. كان سريعًا في تعلم اللغات، وقد استفاد جيدًا من الفرص التي هيأتها له رحلاته مع كابلز. عثر على وظيفة دليلٍ سياحيٍّ لدى إحدى وكالات السفر، وربما سافر إلى القسطنطينية والأماكن الأخرى التي تحدث عنها.

لكنه كان عاطلًا عن العمل، ويعيش في لندن على الكفاف يعتمد على الحظ و«الشطارة»، عندما قابل كابلز مجددًا. حدثت تلك المقابلة على متن حافلة في شارع أكسفورد. عندما صعد إليها سيمبل لم تكن تحمل سوى راكب آخر فقط، فجلس في المقعد خلفه. ولم يستطع مقاومة إغراء ذيل المعطف الطويل، المنبسط تجاهه بلا حماية. اختلس منه محفظة، فالتفت إليه كابلز يوبِّخه ضاحكًا بهدوء كي لا يسمعه السائق: «الآن! يجب أن تبذل مجهودًا أكبر من هذا! ألن تتعلم أبدًا؟».

استنتج سيمبل أن كابلز رآه يصعد الحافلة وأعدَّ له ذلك الفخَّ الصغير. طالما خشي سيمبل كابلز بقدر ما أحبه. كان آخرَ شخص يودُّ رؤيته مجددًا، فقد أدرك أنه إذا اجتذُب إلى عالم ذلك الرجل ثانيةً فلن يقوَ على أن ينتزع نفسه منه. ولا جدوى الآن من الادِّعاء أنه يعيش حياة نزيهة؛ لقد وشى بنفسه.

مدَّ كابلز يده فأعطاه سيمبل المحفظة حَجَلًا. حملها في إحدى يديه يصفع بها يده الأخرى، وهو مُستغرق في التفكير بضع لحظات. ثم أخرج

منها بعض الأوراق ليضعها في جيبه، وأعادها إلى سيمبل الذي وجد بداخلها بعض الأوراق النقدية المطوية.

قال كابلز: «هذه المحفظة جيدة يا ألان. أريدك أن تأخذها. ستجد بطاقتي بداخلها. أنتظر في الساعة السادسة».

ثم غادر الحافلة تاركًا سيمبل يرتعد. أراد سيمبل أن يجمع المحفظة والأوراق النقدية كي يرسلها بريديًا إلى العنوان على البطاقة. لكنه في الساعة السادسة كان يصعد الدرج إلى شقة كابلز في شارع «جرمين».

- يا عزيزي ألان! رغم عيوبك الكثيرة فإنك تدرك قيمة الالتزام بالمواعيد. ضع هذا في عقلك: لا تُبْقِنِي منتظرًا أبدًا. هيّا، ادخل.

في الأعوام الطويلة الماضية طالما زار كابلز فكر سيمبل. دائمًا ما رآه في صورة سجين خاضع خنوع، إن تعثر به الحظ وقابله فستكون له اليد العليا. لكنه رأى الآن كابلز القديم، الأنيق صاحب اليدين اللتين لا تشوبهما شائبة، ذا الكياسة، الذي اكتسب سمة جديدة تبعث على الرهبة؛ كانت مزيجًا من تأهب وحقد يشعر بهما رجل مُعتدّ بذاته طُرح أرضًا، ثم عاد ليقف على قدميه مجددًا بعدما لُقّن دروسًا مهمة.

حدثت تلك الزيارة في ليلة شتوية. جلس سيمبل في مقعد مريح، حيث المدفأة متقدة والستائر مسدلة، بجواره قُدّمت سجائر فاخرة. لم يسمع حتى همسة في الشقة. وأقلقه الشعور بأن الغرفة قد تكون مُبَطَّنة. لكن ما الداعي للقلق؟ إن كابلز صديق قديم ساعده في تغيير روتين حياته المُضجر، وكان في تلك الليلة مثال اللطافة.

قال: «لقد تحسّن مظهرك يا ألان، أتدرك ذلك؟ تحسّن كثيرًا حتى إنني أكاد لا أعرفك. تحتاج فقط إلى قليل من العناية، لكن الهيئة العامة جيدة. أعتقد أنني أستطيع مساعدتك في هذا الأمر. ماذا كنت تفعل؟ كيف واجهت العالم؟».

لقد اعتاد ألان الشراب. أعاد كابلز ملأ كأسيهما. التهبت النيران. وبدأ ألان يشعر بسعادة لم يعرفها منذ مدة طويلة. انطلق في الحديث عن أعوام افتراقهما. وأخبره بكل شيء عدا قصة زواجه.

- هذه ملحمة يا ألان! يمكن أن تسهم في تحقيق إنجاز كبير. انظر إليّ يا بُني العزيز. لن أتكلّف التواضع، لهذا سأسألك: كيف أتدبّر شؤوني المالية في رأيك؟ كيف أحظى بكل هذا؟ (لَوْح بسيجاره ليشمل الستائر والبُسْط والمدفأة وزجاجة الشراب) حاليًا لم أعد أنجز العمل بنفسي، بل أقف بعيدًا عن الأنظار. أنت رجل ذكي وتفهم ضرورة هذا. على أن إقامتي السابقة المؤقتة في ذلك المكان قادتني إلى التعرف إلى عديد من الأشخاص تختلف مميزاتهم. والآن أصبح اختصاصي هو اكتشاف المميزات، والنظر في كيفية توظيفها على النحو الأمثل، وتهيئة الفرص لاستغلالها. وقد حان الوقت لأن ننظر إليك يا ألان. إنك تتمتع بمظهر جذاب، وسافرت كثيرًا. يجب أن نعمل عقلنا في هذه المُعطيات حتى نأتي بفكرة. إنني أقترح عليك الأمر فقط... إيلس!..

لقد ظنّ ألان أنهما بمفردهما في الشقة. لكن باب الغرفة انفتح، ودخلها رجل يرتدي زيّ الوصيف الرسمي. أبرز ارتداؤه ذلك الزيّ التنافر الشديد بين مظهره وملابسه، ما جعل ألان يراه مُجرِمًا. كان إيلس قصيرًا بدينًا. يداه ضخمتان مقبوضتان. شعر ألان بالنفور من مرآهما لأنهما شابهتا قبضتي والده، حدّاد القرية، الذي كان يضربه فيكدمه من حين إلى آخر. كان إيلس مفتول العضلات. جبهته غائرة، أنفه مكسور، وبرز ذقنه أسفل وجهه كي يوازن أعلاه.

قال كابلز: «أنا والكلونيل سلين جاهزان يا إيلس. (غادر الوصيف فأردف) يجدر بك أن تبدأ صفحة جديدة يا ألان. أرى أن الكلونيل سلين سيؤدي الغرض، ما رأيك؟».

وبعض دقائق أتى إيلس بعربة العشاء الشهيّ.

9

تحلّى كابلز بالصبر في التصرف مع الكلونيل سلين؛ فكرته الجديدة. منحه ما يكفي من المال للتأنق، ولتلبية حاجاته دون سَفَه. أعطاه أوامره -اللطيفة غير المباشرة، لكنها نافذة- حول السلوك الواجب عليه اتّباعه.

- أتعلم يا سلين؟ أنت لست مجرمًا بطبعك. لا بد أنك قد رأيت بنفسك أن سيرك في ذلك الاتجاه لن يوصلك إلى شيء. لقد كنت عرضة لخطر كبير؛ كان ممكنًا أن تقع بسهولة في يدَي رجلٍ أخرج لا يُحسِن توجيهك. حينئذٍ أين كان سينتهي بك المطاف؟ أنت ضعيف الشخصية. يؤسفني قول إنك لو لم تقابلني لواصلتَ العيش مثل ملايين البُلداء، الذين يقبلون بأيِّ مما تعطيههم الحياة. الآن فُكِّر جيدًا فيما سأقول. يحظر عليك ارتكاب أي فعل يُعاقب عليه القانون. إن كنت ستعمل لديّ فستؤدي عملك مُواطنًا يمتثل للقانون. لديك نقاط ضعف، لكن يمكن تحويلها إلى قوّة جاذبة. عليك أن تتعرف إلى الناس، أقصد بذلك أن تدخل منازلهم. إنك تُحسِن الحديث. سافرتَ هنا وهناك. سيستلطفك الكثيرون. ستخبرني بكل ما تعرف عنهم: طباعهم، حكاياتهم، منازلهم. واترك الباقي لي. سيفاجئك ما قد تقود إليه ملاحظة أبسط الإيماءات. اليوم لو كنتَ برفقتي على الغداء في أحد المطاعم لأريتكَ رجلًا سيصبح بحوزته الآن ما لا يقل عن خمسة آلاف جنيه شراءً لصمته، لأنه عندما كان جالسًا مع عائلة مكارتنى استنتج مما لحظه وسمعه أن أحدهم بعينه هو عشيق السيدة مكارتنى».

رأى سلين أن مهمّته رائعة على نحو يتعذر تصديقه، إذ لم يلزمه سوى أن يكون جذابًا يمتثل للقانون. كان يتوق إلى إرضاء برنارد كابلز، وبعدما استحسن الأخير فكرته أشرق وجهه مثل طفلٍ نال المديح. كان من القانونيّ أن يراسل أحد الكُتّاب كي يثني على كتبه، أو كتبها، ثم يطلب الإذن بالزيارة. قال: «بالطبع سأختار المُوسرين من الكُتّاب، أو من لديهم معارف ذوي نفوذ. ما رأيك؟».

لم يبالغ كابلز في مدحه، لكن الفكرة أعجبهته. اصطحب سلين للعشاء في الخارج، وأعطاه المال ليملاً خزانة ثيابه بملابس السهرات الرسمية. استطاع سلين، بصفته دليلًا سياحيًا قد تعلّم قليلًا عن اللوحات، أن يقترح على كابلز منزلًا يتضمن بعض النفيس منها، وعن روائية مهووسة بإنفاق مدخراتها في شراء المجوهرات الثمينة.

لكن استجابة كابلز أثارت إحباطه، فقد قال: «لا تقلق يا ألان. واصل البحث. وستعلن الفرصة الكبيرة عن نفسها يومًا ما».

لم يمتلك سلين عقلًا مبدعًا، وبعدها سمع قصة الابتزاز التي حكاها له كابلز، تصوّر أن «الفرصة الكبيرة» ستشابه تلك القصة. كانت معظم جهوده بناءً على تخمينات بعيدة لم تُحقّق أي نتائج، ولم يبدُ أيُّ منها أكثر ربحًا من التطفل على منزل جوثرسن. لقد ذهب إلى هناك للتقرّب من اللورد أفونمير الذي كاد يطرده، فقد أثار اهتمامه سباق الخيول الذي سيُقام في «سانداون بارك» في الساعة الثانية والنصف يوم الأربعاء التالي أكثر من حدائق الزهور الفارسية.

ثم فجأةً أصبحت خطوة سلين لدى عائلة جوثرسن «الفرصة الكبيرة» التي كان يبحث عنها. فبعدها خالف الأوامر بسرقة بضعة جنيهات، ظهر ميرفن موستن-لويد في الصورة. وبعده ظهرت لوسي إيفانز. كانت تلك الفرصة كبيرة بما يكفي لأن تدفع كابلز إلى إغداق المال على سلين، والعيش في فندق كي يشغل سلين شقّته.

في تلك الشقّة كان سلين مشغول البال، يُفكّر في مود سكيرو التي أصبحت مود سيمبل. لم يكن يعرف إن كانت حيّة أو ميتة، فقد مرّ زمن طويل يقارب عشرة أعوام. عندما فكّر أنها قد لا تزال حيّة ارتعد خوفًا. انتابته الرغبة في الهروب مجددًا. ولأنه أخفى حقيقة زواجه عن كابلز لم يجروُ على إخباره بها الآن.

تعلّل بأن خطّة الزواج من لوسي إيفانز لا تبدو له معقولة، وراوغه بحجّة ضعيفة قائلاً: «نستطيع الحصول على المال بطريقة أخرى».

لقد أتى كابلز لزيارته في ساعة متأخرة. جلس تهتز ساقه المكتنزة فوق ساقه الأخرى، وتمسك يده المكتنزة بكأس الشراب. كان في مزاج رائع جدًّا. ارتشف شرابه، وسأله: «هل تتخاذل؟ بالتأكيد لست تتخاذل يا بُني العزيز».

- لا يعجبني الأمر.

- من طلب إعجابك بالأمر؟ تعالَ يا إيلس!

عندما مرّر إيلس بنيته العضلية عبر الباب أردف كابلز: «أرغب فقط في أن أتحقّق مقاس هذا الغرض. ارتدّه وتعال».

عاد إيلس سريعاً ومدَّ يده التي تشبه المطرقة ليراها كابلز. كانت أصابعه تنقلد براجم معدنيّة، تشبه ما يرتديه المجرمين. تفحصها كابلز بيده ذات الخواتم مختلفة الأشكال، وقال: «حسنًا، إنها تفي بالغرض».

اتخذ إيلس خطوة للوراء، ثم أدّى بضع حركات راقصة، انتهت به يلغم الهواء بعنف.

- ما رأيك بالبراجم المعدنيّة يا ألان؟ هل أعجبتك؟

أجابه جافّ الحلق: «أنا لا أعلم شيئاً عن هذه الأغراض».

- إذن فأنت أكثر حظاً ممن يعرفونها. شكراً لك يا إيلس.

ارتشف كابلز الشراب وأخرج محفظة من جيبه. أخرج منها بعض الأوراق وقال: «أريدك أن تكون أكثر حذرًا في المستقبل يا ألان. لا أفهم لم تُصرّ على أن تكتب لي التقارير حول المنازل التي قد تستحق الانتباه. بل وتوقعها أيضًا! إن بضع كلمات تخبرني بها شخصيًا تكفي. ما الجدوى من مراكمة الأدلة ضد نفسك بهذه الطريقة؟ ماذا إن وقعت تلك الأوراق في الأيدي الخطأ؟ (طوى الأوراق التي أخرجها من محفظته ليضعها في جيبه) الآن عليّ الذهاب فالوقت قد تأخر. سيسعدني زواجك يا فتاي العزيز، فأنا أمقت حياة الفنادق».

10

كان كابلز رجلًا صبورًا. لم يفعل شيئًا طوال شهر العسل الطويل، الذي أمضاه الكولونيل والسيدة سلين في الخارج، سوى إرسال خطاب أو اثنين كل شهر كي يُذكّره بوجوده. لكن الردود التي وصلتته عليها لم تعجبه. كانت تشبه هديل حمامٍ راضٍ، وفي بعض الأحيان ضحك كابلز عندما فكّر أن سلين قد يخال أنه بلغ مكانة تتيح له العصيان.

حالما عاد الزوجان ذهب إلى زيارتهما على الفور. كانا بصحة ممتازة. ولحظ كابلز أن سلين لم يبدُ في حال أفضل من الآن قط. بعد العشاء اجتمعوا في غرفة الجلوس يتناولون القهوة. فكّر كابلز أن تلك اللحظة تسودها سكونية وأمان بالغان. ولا شك أن إمكانية وقوع ما يُهدّد الزوجين بدت مستحيلة.

كانت الليلة خريفية باردة والمدفأة موقدة، حيث يُدخّن كابلز سيجارًا ويتناول البراندي، ويدور حديث دون رسميَّات حول الأماكن التي زارها.

قال: «أمل أن يكون الحظ قد حالفك في الكازينوهات يا سلين».

قالت لوسي: «لا! كنا نقصدها بين الفينة والأخرى للمرح فقط. لقد رغبت في أن أرى كيف تبدو تلك الأماكن لأنني لم أسافر كثيرًا من قبل. من حين إلى آخر غامرنا ببضعة جنيهاً، لكن سرعان ما توقفنا حتى عن هذا».

- هذا من حصاصتك يا سيدتي. أتمنى لو كنت مكان سلين لديّ زوجة حسيّفة تعتني بي. (دخّن سيجاره وأردف) أجد الشقة في شارع جرمين مناسبة تمامًا يا سلين. أتعلمين يا سيدتي أنني سكنتها بعدما غادرها الكولونيل سلين؟ (أضاف بابتسامة) ولم أعرّ فيها على شيء يثير الشبهات.

قالت لوسي باحتشام: «بالطبع لا!».

- لا يتوقع المرء العثور على شيء كهذا يخصّ الكولونيل سلين بالتأكيد. لكن حقًا يا سيدتي، ليس البشر معصومين، بل وأحيانًا يهملون الأدلة التي تؤكد هذه الحقيقة. حتى أنا لديّ عيب سترينه وضيّعًا بلا شك. إنني لا أستطيع أن أقاوم إغراء دسّ أنفي في شؤون الآخرين.

وافقته لوسي قائلة: «إن الفضول من طبع كثيرين منا».

- قبل مدة ليست بالطويلة حدثت واقعة تبرهن على صحة رأيي. حينئذٍ كنت أعيش في شقة أخرى أجرتها إلى صديق يُدعى سيمبل؛ ألان سيمبل. هل قابلت سيمبل يا سلين؟

كان سلين قد نهض ليملاً أكواب القهوة ورأسه محنيّ. هناك وقف عدة لحظات، وجهه مخفيّ، ثم قال: «سيمبل؟ لا».

- حسنًا، هذا لا يهم. امتلكت أنا وذلك الرجل نسختين من مفتاح الشقة. كنت أعيش في فندق، لكنني اعتدت الذهاب إليها في زيارات سريعة. ذات يوم قصدت الشقة وهو في الخارج. أتعلمين يا سيدتي؟ لم أستطع مقاومة إغراء التفتيش في الأوراق التي تركها في حقيبته. وجدت بينها

وثيقة زواج. لا شيء غير عادي في هذا الأمر، باستثناء أن سيمبل عرّف نفسه بصفته أعزب! لقد اتضح أنه متزوج من فتاة تُدعى مود سكيرو! مازحته لوسي قائلة: «إن حديثك هذا يكشف عن لؤم يا سيد كابلز. كفى سخرية من حماقة الرجل».

- حماقة؟ أجل، أنت محقة يا سيدتي، هذه هي الكلمة الصحيحة. بالتأكيد قد تكون المدعوة مود سكيرو ميتة. توجد احتمالات كثيرة في وضع كهذا. لكن لنفترض أنها لا تزال حيّة، عندئذ يكون في عدم حرق وثيقة الزواج إهمالٌ بمنزلة جريمة! لكن احتفاظ الرجل بها عشرة أعوام كاملة هو حدث نقرؤه في الروايات يا سيدتي!

قالت لوسي مَرَحَةً: «حسنًا، لننسّ اللؤم ولنلعب. لنرَ كيف سنُكَمِّل هذه القصة، التي أخبرتنا بأحداثها حتى الآن، إن كنّا روائيين. فلتبدأ يا سيد كابلز». ارتشف كابلز البراندي، تمعّن في طرف سيجاره المتوهّج، وقال: «يؤسفني قول إنني لست بارعًا في هذا الأمر، إذ تلائمني الحقائق لا الأوهام. لكن لنرَ الآن. لننسّ أنني كابلز، وليصبح كابلز آخر الشرير في الحكاية، ويقول: «إذن ألان سيمبل متزوج؟ أتساءل إن كانت الزوجة لا تزال حيّة». ولأنه رجل فضوليّ جدًّا لن يهدأ باله حتى يحصل على إجابة لتساؤله. تخبره الوثيقة باسم الكنيسة حيث عُقد الزواج. يذهب إلى هناك ليجد المنطقة عشوائية بائسة نوعًا ما. يستفسر من الباعة عن الأمر حَذَرًا، ويكتشف أن ألان سيمبل هجر مود وهي حبلى. لقد مات الطفل وظلّت مود في الحي، تعيش مع والدتها في جدال لا يتوقف، وتكسب عيشها بالعمل في المتاجر الصغيرة. يعلم أن مود أصبحت حانقة على الحياة وهذا ليس مفاجئًا، نظرًا إلى هجر زوجها والأعوام الخائفة التي أمضتها مع والدتها. لكن الزمن يمرُّ، ويأتي بالنهاية. تموت الأم، وتختفي مود... هل يُضجركما حديثي؟».

- لا يا سيد كابلز. أخشى أنني لن أستطيع تأليف حكاية بهذا الإتقان.

- حسنًا، لنرَ الآن. يجب أن نظلّ على تواصل مع مود بطريقة ما. كيف سنفعل ذلك؟ كانت ابنة أحد التجّار المحليين صديقتها. لا تزال تراسلها من حين إلى آخر، وعن طريقها استطاع كابلز الحصول على عنوان مود. (أردف وهو يبتسم في وجه لوسي) لا تنسيا أن كابلز شرير مُتلوّن مثل

الحرباء، يستطيع فعل أي شيء. لنقل الحقيقة الكاملة وهي أنه مُدان سابق خبر الحياة في سجن «دارتمور».

احتجّت لوسي: «أبقى حكايتك معقولة وإلا فإنني وألويسس لن نتابعها».

- لا، لا يا سيدتي! لقد حثثتني على البدء، ويجب أن تمنحيني حرية الإبداع. أصرُّ على أن كابلز قادر على فعل أي شيء. لكن ما الذي اكتشفه الآن؟ لقد اكتشف أن ألان سيمبل شرير بالقدر نفسه، لأنه يعتزم ارتكاب جريمة تعدد الزوجات!

- هجر وتعدد زوجات! ستقع جريمة قتل في هذه الحكاية تاليًا يا سيدي! أجابها بهدوء: «من يدري؟ سيتزوج سيمبل، المُتزوج فعلاً، من فتاة ثرية. وهذه هي فرصة كابلز الكبيرة. لقد وقع سيمبل في قبضته. نحن الروائيين نستخدم هذا التعبير، أليس كذلك؟ وهذا ما آل إليه الوضع باختصار: سيأتي كابلز بمود سكيرو إن لم يُعطه سيمبل أموال زوجته الثرية.

- لقد وضعت المسكين في مأزق كبير. ماذا إن رفض؟

- لقد غيّر اسمه بالطبع، ولم يعد ألان سيمبل. لكن يومًا تلو آخر تصله خطابات مُوجّهة إلى ألان سيمبل. في البدء يُسلّي الأمر زوجته، ثم ينتابها الفضول وتطرح التساؤلات. ثم ماذا يحدث؟ سيصبح الوضع غريبًا. سيشبه وجع الأسنان الذي يُفسد على المرء حياته. ماذا كنت لتفعلي لو حدث أن بدأ ألويسس يتلقّى خطابات مُوجّهة إلى ألان سيمبل؟ أرى أن استلامك خطاب واحد فقط، بعد قصتي هذه، سيفزعك.

- أكمل قصتك يا سيدي. كيف تسير الآن؟

ابتسم كابلز وقال: «إنها مُتسلسلة. سنكملها في الزيارة التالية. كيف كنت ستسردينها يا سيدتي؟».

إن نسختك من القصة مُتقنة التفاصيل بحيث لم يعد ممكناً العودة إلى البداية. الآن يجب المتابعة من الموضع الذي أوصلتها إليه. كيف كنت لتكملها يا ألويسس؟

التفتت إلى زوجها الجالس في مقعد وراءها. ورأت ما لاحظته كابلز بعض الوقت. بدا سلين شاحبًا كأنه يُحتضر.

هرعت نحوه قائلة: «ما الخطب يا ألويشس؟ أنت ترتعد!».

- إنه التغير في الجو. لقد اعتدت الشمس الساطعة. أمل ألا أكون قد أُصبت بالملاريا.

هكذا نسي أمر اللعبة المسلية. مكث كابلز بضع دقائق يروقه أمران: قلق السيدة على زوجها، وإتاحة الثروة قرع الأجراس واستدعاء الخدم، كي يهرولوا في الأنحاء مثل الجان، يُدفئون الأسرة ويوقدون المدافئ ويأتون بالمشروبات الساخنة. لقد تَوَعَّك سيّد البيت! لهذا أصبح المنزل في اضطراب مُنظَّم، إذ تعطي لوسي الأوامر لتُنَفَّذ بسرعة وكفاءة من أجل سلامة السيّد. أعرب كابلز عن أسفه واستأذن في الرحيل. لا شك أنه لم يكن آسِفًا. فلا بأس في نخسة بالمهماز كي لا ينسى الفرس العجوز نفسه.

11

لازم سلين الفراش مصدومًا من إعلان كابلز نيّته الحقود. في المساء التالي لليوم حيث حكى كابلز قصته كانت لوسي في غرفة الجلوس وحدها، عندما جلب لها رئيس الخدم خطابين.

قال: «هل تعرفين رجلًا يُدعى السيد ألان سيمبل يا سيدتي، أم أن خطأ قد وقع؟».

جفلت لوسي، ثم حاولت أن تتمالك أعصابها، وقالت: «اتركه. سأسأل الكولونيل سلين».

عندما أصبحت وحدها مجددًا جلست والخطاب في يدها ترتجف. بعد برهةٍ تمكنت أخيرًا من فتح الظرف، الذي احتوى على ورقة فارغة من أوراق كتابة الرسائل. كانت تلك الورقة، بطريقة ما، أكثر ترويعًا من أشدّ الخطابات شرًا؛ لقد صرخ فراغها قائلاً إن لا حاجة إلى الكلمات. ألقت لوسي الورقة والظرف وسط نيران المدفأة. وبينما اللهب يستحيل قشرة حمراء، تطقطق إذ تستحيل بدورها رمادًا، اشتعل قلبها سُخْطًا على ما حدث لها، ثم انطفأت نيرانه بعدما أحدثت الدمار.

لكن وجب عليها أن تتأكد، أو بالأحرى أن تملك الدليل على صحة ما تأكّد لها. كانت تعلم أين يضع سلين مفاتيحه في غرفة الملابس. إلى هناك ذهبت، أخذتها إلى الأسفل، وجرّبت واحدًا تلو الآخر حتى عثرت على مفتاح مكتب سلين في قاعة الجلوس. وسرعان ما عثرت على ما أرادت. فالرجل لم يكن مُخادِعًا فقط، بل وأحمق. لقد وجدت حزمة من الخطابات عُقدت بشريط أزرق، قرأتها جميعها دون أن يخزها ضميرها. كان تاريخها قديم، وجميعها من أمه. كتبتها بعدما شبَّ بقليل، ووجَّهتها إلى ألان سيمبل في مسكن في قرية بجوار البحر، حيث أخذ عطلته الأولى بعيدًا عن المنزل. وصلت إليه تلك الخطابات يوميًا، وفي بعضها شكرته أمه على خطابه العزيزة. «تشتاق أملك إلى رؤيتك مجددًا». تلك هي الأغراض التي اختار الاحتفاظ بها خفية خلال حياة كاملة من الجريمة.

أعادت الخطابات المعقودة بالشريط الأزرق وفي داخل أحدها زهرة جافة. والآن، رغم أن لوسي أجادت الانسلال من خلال شقوق الحياة وتصدُّعاتها، فإنها كادت تبكي جرّاء المأزق الذي أقحمت نفسها فيه. تناولت الخطاب الثاني الذي نسته على الطاولة بجوار المدفأة حتى الآن. كان مُوجَّهًا إليها:

«السيدة سلين العزيزة،

أطلب الإذن في المجيء للزيارة بعد ظهيرة الغد، كي أطمئن على صحة الكولونيل سلين. هل يمكنك إرسال عذرتك لي؟ إن وجدتها أمام شقتي في الثالثة عصرًا فسيكون هذا رائعًا. مع أطيب الأمنيات يا سيدتي.

خادمك المطيع،

برنارد كابلز».

غزت حُمرَة الغضب وجه لوسي من الأمر غير المباشر، لكنه ليس مُبطَّنًا أيضًا، المكتوب بوقاحة في ذلك الخطاب. أدركت أن كابلز لا يناشدها تحقيق طلبه، بل يتحدَّاهَا أن ترفضه. الآن فهمت سبب بؤس سلين الشديد رغم وعكته الصحية البسيطة. الآن هي اللحظة المناسبة للاستعانة بأصدقائها إذ لم يتأزم الموقف بعد. لكنها خجلت من الاعتراف بأنها ليست امرأة متزوجة، وأنها حمقاء وساذجة. في اليوم التالي جاء كابلز في عربتها، ورافقه إلى غرفة الجلوس.

قال: «أثق يا سيدتي أن صحة الكولونيل سلين...».

هتفت بحدَّة فاجأته: «توقَّف!».

فهزَّ كتفيه حائرًا.

مكتبة

t.me/soramnqraa

- لديّ دفتر شيكات هنا. كم تريد من المال؟

- أرى أن أحدنا يفهم الآخر. لكنك يا سيدتي لا تفهمينني أتمَّ الفهم.

صمتَ ينتظر ردَّها، لكنها لم تعطه كلمة أخرى. لهذا اضطرَّ إلى مواصلة الحديث.

- لا تستلزم مسألة من هذا النوع عقد اتفاق سريع يا سيدتي، بل إنها تتوقَّف على ما قد يصبح ضروريًا من وقت إلى آخر وفقًا لما تُملِّيه الظروف. حاليًّا الأمور مستقرَّة. وأؤكد لك أنك تستطيعين النوم قريرة العين. لهذا أعيدي دفتر الشيكات إلى موضعه.

- لا شكَّ لديّ أن إحجامك عن ممارسة سلطتك الآن يرضيك. لكنني أنصحك أن تأخذ ما يمكنك الحصول عليه الآن، إذ يُتاح لك ذلك، لأنني أستطيع الخروج من دائرة سلطتك بكل سهولة. ليس عليّ سوى أن أفصح حقيقة الأحقق الراقد في الطابق العلوي.

- أجل، هذا هو ما عليك فعله. لكن الحياة لا تقتصر على الفعل فقط، بل توجد عواقب لفعلاتنا علينا احتمالها. لا شكَّ أنك قيِّمتِ الوضع الذي أصبحت فيه: امرأة انتهزت فرصة الزواج برجل يصغرها سنًّا بكثير اتضح أنه أحق سيئ السمعة. أظن أيضًا أنك فكرت في شعور السيد

ميرفن موستن-لويد، عندما يجد نفسه محطّ الأنظار بعد انكشاف هذا الأمر...

سادهما الصمت بضع لحظات، ثم أردف كابلز: «أرى أنني سأغيّر رأيي. هلا تُحرّرين شيكًا فارغًا من أجلي؟ أعدك بشرفي أنني لن أملأه بأكثر من خمسمئة جنيه».

تردّدت لوسي طويلاً، ثم تناولت قلمها، وبدأت المأساة. طوى كابلز الورقة الصغيرة ووضعها في محفظته حذرًا.

قال: «لا تشغلي نفسك باستدعاء العربّة. يروقني السير في تلك الأجواء إذ يوشك الخريف أن ينتهي».

بعد بضعة أيام اكتشفت أن الشيك قد ملئ بنصف جنيه. وقد أفرعها هذا الأمر مثل الورقة الفارغة الموجهة إلى ألان سيمبل.

الفصل التاسع عشر

1

كان كابلز وسلين قد سافرا إلى الخارج في صيف عام 1890 عندما رافقتنا لوسي إلى تريسانت. غالبًا ما كانا مسافرين وهذا، في ما أظن، هو ما منح لوسي مُتَنَفِّسًا للحياة. أدركتُ أنها محظوظة؛ أكثر حظًا من أي وقت مضى. لقد تصوَّرت أن حِيلَ المُبْتَزِّين لا تختلف؛ وأن الضحية تقع في الفخ وتُجرَّد من ممتلكاتها بأسرع ما يمكن؛ وأن سرعان ما سيحين الوقت حيث ستُضطر إلى بيع عربتها وأحصنتها وستُسَرَّحَ خدمها، وقد تجد نفسها تعاني وحدها في نُزُلٍ رخيص. لكن أيًّا من هذا لم يحدث. وظلَّ منزل كنزنجتون متماسكًا.

كثيرًا ما زار كابلز المنزل عندما لا يكون هو وسلين مسافرين، وقد اضطرت إلى احتمال رَفْعِ الكُلْفَةِ في الحديث ومزاحه السخيف. كان يقول: «كيف حال إوزَّتنا الذهبية؟». وقد رأت في طرحة ذلك السؤال تحديدًا لمكانتها. كانت تدرك جيدًا أن لكابلز ضحايا من الإوزِّ ذبحهم بلا رحمة. لكنها في نظره كانت الإوزَّة التي تبيض ذهبًا لهذا حافظ عليها. أصبح الحال كأنه يتفضَّل عليها بثروتها. ظلَّ رأس مالها ملكها شريطة أن يكون دخلها تحت تصرف كابلز. كان يستقلُّ العربة وقتما يريد؛ من حين إلى آخر يبقى في المنزل بضعة أيام كي يؤكد سلطته؛ ويطلب أيَّ مبالغ مالية يحتاج إليها، للسفر في عطلة أو ما

شابه، دون تردد. أصبحت دعامةً ثابتةً في عالمه المتقلقل. حالما يبدأ ذلك العالم في الترنح سينتزع كل ما تملك.

على أن لوسي لو سلّمت بالأمر الواقع لأصبحت الحياة ممكنةً لها. لقد اكتشفت في نهاية العام الثاني أن رأس مالها ازداد زيادة كبيرة. بين الفينة والأخرى كان كابلز يأمرها: «أخبري وكيلك أن يشتري لي كذا وكذا»، أو «أخبريه أن يبيع كذا أو كذا». وقد أبت طاعته مرة أو اثنتين. لكنها لمّا اطّلت على التقارير المالية كما علّمها موستن لويد، وجدت أن كابلز كان محقًا في رأيه. لهذا أصبحت تطيعه، رغم علمها أن ازدياد بيض الإوزة حجمًا يخدم مصلحته لا مصلحتها.

فيما يخصّ سلين فإنها كانت لتتخلص منه لو لم يلزم استبقاؤه لحفظ ماء الوجه. في مساء اليوم حيث وصل الخطاب الموجه إلى ألان سيمبل صعدت إلى غرفة النوم لتقول: «انزل لتناول الإفطار في الصباح. أريد التحدث إليك». ثم غادرت الغرفة ولم تدخلها مجددًا قط. لقد اكتشفت عجزه الجنسي ولم تعبًا للأمر، لأنها كانت شبةً كأنها حورية. لكن ما اكتشفته الآن هو نوع آخر من الضعف، ولم ترأف به قط.

متى يمكث الرجلان في إنجلترا يؤو منزل كنزنجتون الثلاثي الأكثر غرابةً على الإطلاق. ما يتوَلد فيه من مشاعر أو يدور من محادثات تقع بين لوسي وكابلز. لقد أعجبتها قسوته، لكنها ربما لم تدرك حقيقة شعورها هذا قط. وراق كابلز كيفية تعاملها مع الوضع وازدراؤها إياه وسلين. كان سلين بمنزلة ساعيًا داخل المنزل وخارجه. ظلّ دليلًا سياحيًا ينفع عند الحاجة إلى اللغات، ويتولّى إتمام الإجراءات الروتينية المضجرة، مثل: حجز الفنادق وتذاكر القطارات وما إلى ذلك. ووجب استبقاؤه، بالطبع، لأهميته الاستثنائية بصفته متزوجًا بامرأتين.

ذات مساء بينما الثلاثة يتناولون القهوة معًا بعد العشاء قال كابلز: «هل تمانعين في صبّ كوب آخر من أجلي يا لوسي؟».

نهضت لوسي، التي لم يعد يناديها «سيدتي»، لتغادر الغرفة. ثم توقفت عند الباب لتقول: «وظيفتي هي منح المال اللازم لشراء القهوة لا صبّها. اطلب من خادمك فعل ذلك».

ابتسم كابلز مُعْجَبًا بجوابها وقال: «أجل، هيّا يا سلين كن طيِّبًا وصُبَّ
القهوة».

وقد أطاعه سلين.

2

خضع عدد من الناس لمراقبة كابلز، لسبب أو لآخر، وكانت مود سيمبل
واحدة منهم. لم تدرِ أنها مُراقَبة، ولم يعلم توم تشادرتن لماذا طُلِبَ منه
مراقبتها. لقد شعر فقط أن من الرائع أن يتحدث إليه بلطف رجلٌ وجيهُ مثل
السيد كابلز، وأن يعطيه من حين إلى آخر جنيتها كاملاً دون أن يفعل شيئاً.

في شارع «فيلرس» قام بناءٌ ليس واضحاً الغرض من تشييده. يدخله
بضعة رجال ويخرجون منه باستمرار استنتاج كابلز أنهم ساكنوه. وتردّت
إليه بضع فتيات حيث يُقمن فترات مؤقتة على نحو مثيرٍ للشبهات. فيه عاشت
امرأة تدعى مود سكيرو تعمل خادمة. كان هناك رجل عجوز يرتدي الحرير
البنفسجي دائماً، استنتاج كابلز أنه مالك المنزل أو مستأجره الرئيس، اعتاد
الخروج للتمشية في ذلك الشارع جيئةً وذهاباً. وأحياناً يطول سيره إلى ممشى
ضفة «الْتَمَز». كان بناءً غريباً مريباً يلفت الأنظار، لكن مود سكيرو وحدها
هي من أثارت اهتمام كابلز به. الآن أصبحت امرأة في منتصف الثلاثينيات
فضّة غليظة. دائماً ما غادرت المنزل في ليالي الخميس في الساعة السادسة،
تسير حتى الضفة، ثم تتجه يميناً ناحية «ويستمنستر».

لقد لاحظ كابلز الفتى ماسح الأحذية الذي يجلس بُعْدَتِه في نهاية شارع
فيلرس. كثيراً ما توقف عنده كي يلمّع حذاءه، ودائماً ما أغدق عليه من المال.
لكن لم يسهل حثُ الفتى على الحديث. كان خجولاً ومتحفّظاً. على أن توم
بمرور الوقت عرف اسم زبونه الكريم الظريف، أصبح يتطلّع إلى مزاحه
اللطيف ويتحدث بحرية في وجوده. لاءم هذا الوضع كابلز أشدّ الملاءمة، لأن
توم لم يعمل في شارع فيلرس فقط، بل وعاش في قبو هناك.

قبل الساعة السادسة في مساء أحد أيام الخميس، بينما كابلز يعلو عرش ماسح الأحذية، وتوم يجثو في خدمة قدمه، مرّت بهما مود سكيرو. ألقت على توم تحية «العوافي!»، وواصلت السير تجاه ويستمنستر.

سأله كابلز: «هل تعرف تلك السيدة؟».

- تقريبًا. إنها تمرُّ من هنا.

- هذا غريب! هذا غريب!

- لماذا؟ ما الغريب في هذا يا سيد كابلز؟

- أكاد أجزم بـ... لكن، لا. إن كنت تعرف السيدة فلن تُقدِّم على فعل شيء كهذا. فالصداقة مُقدَّسة.

- ما الذي تُلَمِّح إليه يا سيد كابلز؟ أنا لا أعرف السيدة تمامًا. نتبادل «العوافي!» فقط. وهي تعيش في منزل يقع في هذا الشارع. هذا كل ما أعرف عنها.

- حسنًا، ما دمتا لصديقين فسأطلب منك شيئًا أمقت أن يفعله صديق بصديقه. أودُّ التأكد أنها تواصل العيش في هذا الشارع. ولنفترض أنها قررت الرحيل عنه للعيش في مكان آخر، هل يمكنك أن تتحرّى خبرًا كهذا يا توم؟

كرّر توم قوله: «ما الذي تُلَمِّح إليه؟ أنا لست «بصاصًا» يا سيد كابلز. ولا أريد أي عمل يتعلق بالتجسس».

- يسعدني سماعك تقول هذا يا توم. دعنا من الأمر.

- لكن ما الذي تُلَمِّح إليه؟

- لا أستطيع تفسير الأمر لك يا توم. لقد كنت صادقًا معي، وسأبادلك الصدق وأقول إنني صراحةً لا أستطيع تفسير الأمر. أنا فقط أريد أن أعلم أين تعيش السيدة. إن قرّرت فجأة مغادرة هذا المكان أودُّ أن أعلم أين ستذهب. لا تسألني تفسيرًا لأنني لا أستطيع إخبارك. لكن يمكنني أن أخبرك بهذا: أنا لست مُهتَمًّا بشيء من شأنه أن يؤذي السيدة، بل قد تسمع ما يخدم مصلحتها يومًا ما. الآن لا تقل كلمة أخرى حول

هذه المسألة. أستطيع أن أرى ارتيابك بي لهذا للنس الأمر. إنني أمقت
ارتياب الناس بي.

تغضن جبين توم المسكين قلقًا. لقد أدرك مبكرًا أن الودودين المرحين
من البشر قليلون.

قال: «لكنني أستلطفك يا سيد كابلز. ولا أريدك أن تظن أنني أرتاب فيك.
أنت تعاملني جيدًا، ولا تنظر إليَّ كأنني حثالة».

- إنني لا أفرق في المعاملة بينك وبين الآخرين يا توم لأننا جميعًا بشر.
لدينا ما يميزنا ويُعيننا. وعندما أرى في شخص ميزة احترامها. إنَّ ظنَّك
أنني أريد استغلالك لأن تصبح...
- بصَّاصًا.

ابتسم كابلز من تلك الكلمة الطريفة وقال: «لأن تصبح بصَّاصًا يجعلك
ترتاب بي. هذا أمر جدير بالثناء يا توم. إليك تقديري لصدك. (أعطى توم
جنيهاً وأردف) ولا حاجة إلى قول المزيد عن هذه المسألة».

وضع توم العملة في جيبه، وشاهد السيد كابلز يبتعد في وقار وكبرياء لم
ينل منهما شيء. ظنَّ أنه لن يرى زبونه الأفضل مجددًا. لكن بعد بضعة أيام
عاد السيد كابلز إلى العرش مجددًا لبقًا ولطيفًا كال المعتاد.
قال توم من تلقاء نفسه: «إنها لا تزال هنا يا سيد كابلز».

- من يا توم؟ من هنا؟

- السيدة التي تقول «العوافي!».

لامهُ كابلز قائلاً: «توم، هل أصبحت بصَّاصًا؟».

- لا يا سيدي.

- يسعدني سماع ذلك. لا أريد أن يخيب ظني فيك.

- كنت أفكر في هذه المسألة يا سيد كابلز. وتوصلت إلى أنك لن تؤذي
حتى ذبابة.

- هذا يعني أنني كشفتُ عن نفسي بسهولة يا توم. لقد اكتشفت نقطة
ضعفي، ولست أول من يستطيع ذلك. إن جميع أصدقائي، عاجلاً أو

آجلاً، يقولون الشيء نفسه: «أنت مثال لرقّة القلب يا كابلز». حسناً، هذا هو الطبع الذي جبلني الربُّ عليه.

3

في بداية تعارف مود سكيرو بآلان سيمبل اعتادت أن تقول: «اضحك معي!». لكنها الآن لم تجد ما يثير ضحكها. لقد أصبحت امرأة يقظةً عمليّة، ترتاب في أيّ من يحسن إلى الغير. كانت واثقة أن الإحسان لا يُقدّم دون دافع. وبدأت تتساءل أي دافع يجعل برنارد كابلز يمرّر جنيهاً إلى توم تشادرتن بين الفينة والأخرى. لقد وجدت توم فتى بريئاً. تطوّرت تحيتهما العابرة إلى حديث ودّي، ثم إلى تناول القهوة معاً من كُشك عند ضفة النهر. ذهباً مرّة إلى مسرح المنوعات، تبعها تناول الكِرشة المطبوخة خلف الواجهة الرطبة لمطعم رخيص. كانا وحيدين. وعندما سنحت الفرصة لكسر وحدتها لزمت مود الحذر، وأكثرت من الإنصات لا الحديث. تحدث توم عن طيب خاطر، ولمّا أخرج الجنيه الكامل كي يدفع تكلفة العشاء أخبرها من أين اكتسبه.

علمت مود باهتمام السيد كابلز بها وأثار الأمر فضولها بشدة، لكنها لم تسمح لتوم برؤية ذلك. طالما تساءلت عن مصير آلان سيمبل والخمسمئة جنيه خاصّتها. كان ذلك المبلغ ثروة في نظرها. وبينما تتأمل مسألة التجسس الغامضة شعرت أنها مرتبطة، بطريقة ما، بثروتها المسروقة. وإن كان السيد كابلز يراقبها فإن مراقبتها له، في ما رأت، تستحق بذل المال والوقت. دفعت بضعة شلنات لواحد من معارفها المعوزين وحصلت على المعلومات اللازمة. علمت أن وقت السيد كابلز مُوزّع بين شقة في شارع «جرمين» ومنزل في «كنزنجتون». ولمّا راقبت منزل كنزنجتون رأت زوجها والسيد كابلز يغادرانه في عربة «فيكتوريا» مفتوحة.

كادت سرعة تطور الأحداث تطرحها أرضاً. ابتعدت تحاول أن تقرّر ما عليها فعله. وكانت سريعة الخاطر بما يكفي لتدرك أن دقّها باب المنزل وسؤالها عن السيد آلان سيمبل لن يفيداً في شيء. إن ذلك السيد سيمبل

الجديد، المتألق في ثيابه، المستريح في أحضان الترف، الراكب عربة تخرج من منزل فاخر، بالطبع لم يعد السيد سيمبل القديم.

أخيرًا اقتربت إلى المنزل، ينبض قلبها بقوة لكنها تبدو متماسكة، وسألت عن السيد كابلز. ثم أسعفها الحظ وأخبرها بالاسم الذي تريد معرفته.

- السيد كابلز ليس هنا. لقد خرج مع الكولونيل سلين.

غامرت قائلة: «هل السيدة سلين في المنزل؟».

دقق الخادم النظر إليها. كانت يداها خشنتين وثيابها بسيطة. لا يناسب مظهرها الوقوف عند باب ذلك المنزل.

- هل لديك موعد مع السيدة سلين؟

فكرت مود أن السيدة سلين أبعد ما تكون عن انتظارها، لكن ها هي هنا. وإن كانت تلك السيدة قد سمعت بالاسم «سيمبل» فسيثير وجودها فضولها.

قدّمت ورقتها الرابعة قائلة: «لا، ليس لديّ موعد معها. لكن إن تفضّلت وأخبرتها أن السيدة سيمبل تطلب مقابلتها فربما ستقابلني».

تركها الخادم بضع لحظات، ثم وجدت نفسها في غرفة الجلوس. اضحكوا معي!

هناك كانت لوسي إيفانز واقفة. ظلّت واقفة ولم تسأل مود الجلوس.

قالت: «ماذا تريدين؟».

لم تسعَ مود وراء ألان سيمبل، بل أرادته خارج حياتها تمامًا. ولم يكن هدفها الابتزاز. لم ترد سوى استرداد المال الذي سُرق منها قبل زمن طويل.

لهذا أجابتها على الفور: «خمس مئة جنيه».

وكانت لتختفي من حياتهما حالما تحصل على ما رآته «حقّها». لكن لوسي لم تعلم شيئًا عن سرقة سيمبل. وبدا لها واضحًا بما يكفي أن ذلك المبلغ هو القضمة الأولى الكبيرة في الوجبة الوفيرة، التي تسعى تلك المرأة لنيلها. زرعت الغرفة ذهابًا وإيابًا تفكّر كيف ستصرف. لن تسمح بتكرار الابتزاز مجددًا. لن تنضم تلك المرأة إلى قائمة راعي الإوزة الذهبية. إن ظهور زوجة سيمبل تطور سلبي خشيت أن يتسبب في أذى كبير. إن الأمر يخرج عن سيطرتها. وشيئًا فشيئًا تزداد لامبالاتها بالمظهر العام ورغبتها في استعادة

حريتها بكشف جريمة سيمبل. هكذا ستتخلص منه، ومن كابلز، ومن أي مخلوق مثل تلك المرأة.

توقفت عن السير، التفتت إلى مود، وقالت: «ألا ترين أن من الغريب دخولك المنزل بهذه الطريقة كي تطلبي من امرأة لا تعرفينها خمسمئة جنيه؟ لم قد أعطيك هذا المبلغ بحق السماء؟».

- أرى أنك لم تتفاجئي بظهوري الآن. أنت تعلمين أنني لا أطلب سوى حقي. لقد تزوجت بزوجي.

- لا أعلم شيئاً عما تتحدثين عنه، ولا يوجد ما يثبت قولك. إن كان الكولونيل سلين زوجك لا زوجي فما عليك سوى إثبات الأمر في المكان المناسب. إن تعدد الزوجات جريمة كبيرة. سيُسجن وعندئذ لن تناله أي منّا. (أضافت ضحكة) سيصبح هذا وضعاً ممتازاً.

انتابت مود الحيرة جرأ المنعطف الذي اتخذته المسألة. لم تأت لتسترد زوجاً -بخاصة إن كان سيُسجن- بل لتستعيد ثروتها. جلست دون دعوة، تشعر أن المسألة تتعقد. كادت تشرع في الحديث عندما فتح كابلز باب الغرفة بلا استئذان وأسرع إلى الداخل. لم يرَ الجالسة في المقعد يقابله ظهرها، وقال بفضاظة: «خدمك مُهملون لُعاء يا لوسي. كانت حدوة الفرس متخلخلة. انخلعت واضطّررنا إلى التوقف».

نهضت مود فرأها كابلز. لم تُقر عيناه بمعرفتها، لكن عقله هبَّ للتفكير في تداعيات وجودها هناك. تفاجأت مود بنظرته الباردة، والعدائية التي شعرت أن لوسي تفيض بها.

قالت لوسي: «لقد أسديت لك النصيحة الوحيدة الممكنة. تصرفي كما يحلو لك».

ثم دقت جرساً وأتى خادمٌ ليرافق مود إلى الخارج، التي شعرت أن الحياة لم تعد بسيطة كما بدت عندما قدّمت لقبها ورقة رابحة.

عندما أصبحا وحدهما قال كابلز: «اجلسي. أي نصيحة تتحدثين عنها؟ ماذا قلت لها؟».

- هل تعرفها؟

- بالطبع أعرفها. ماذا أخبرتها؟

- قلت إن كانت تريد أن تقدّم المعلومات التي ستؤدي إلى اتهام زوجها بجريمة تعدد الزوجات فلتفعل. لقد احتملتكما طويلاً، لكن ما حدث اليوم كثير. أنت تعلم جيداً كيف تُدار هذه اللعبة. وما دمت راضياً عن سيرها فسأشعر بالراحة قدر الممكن. لكنني لا أطيق الهواة؛ يجعل وجودهم الحياة لا تطاق على الإطلاق.

حدّق كابلز إلى أظفاره اللامعة لحظاتٍ، ثم نهض، ولم يقل سوى: «أجل، إن الهواة مصدر للإزعاج. يفسدون جميع الأعمال».

لم يكن واثقاً هل أصبحت لوسي حقاً لا تبالي بالفضيحة، أم أن ما قالتها تظاهراً يهدف إلى إيقافه عند حدّه. لكنه لم يكن متأهباً لاختبار الأمر في الحال. ربما يحين وقت الاختبار لاحقاً. لكن الأكيد، في الوقت الحالي، أن الخطوة التي اتخذتها مود كارثية. لقد أدّت إلى وضع حرج، قد يدفع لوسي إلى طردهم جميعاً.

4

بعد بضعة أيام من هذا الحدث انطلق كابلز وسلين إلى عطلتهما المعتادة خارج البلاد. جلست لوسي إيفانز تقرأ الجريدة، وبعدها انتقلت من قراءة أخبار الأسواق المالية إلى باقي الأخبار صادفت الفقرة التالية:

«قُتلت امرأة وضُرب شابٌ ضرباً مبرحاً في «هامبستيد هيث» في عشية العطلة. يُدعى الشابٌ توم تشادرتن وهو في المستشفى الآن، وقد أدلى بإفادته إلى الشرطة. إنه يقول إن اسم المرأة مود سكيرو، وإنها منذ بعض الوقت تعمل خادمة في نُزل في شارع «فيلرس». لقد أصبحا صديقين منذ بضعة أشهر، وخطّطا للذهاب إلى مهرجان «هيث» مساء العطلة. لقد استمتعا بوقتتهما بضع ساعات. ثم انضم إليهما رجل لا يعرفه أيُّ منهما، لكنهما قبلاً صُحبتا، ودفع تكلفة جميع التسالي طواعيةً. بعد ذلك قصدوا حانةً حيث أكثروا من الشراب. كان الظلام يحلُّ عندما غادروها سائرين متشابكي الأذرع

يغنون، حتى وجدوا أنفسهم في منطقة نائية من «هيث» حيث لا أحد حولهم. وهناك جلسوا وسط بعض الشجيرات. أخبر الشاب الشرطة أن الغريب غشيته العاطفة فأحاط المرأة بذراعه وقال: «انصرف يا تومي». ابتعد توم تشادرتن مسافةً، وجلس ناعسًا من أثر الجعة. عندما عاد بعد قليل إلى مُرافقيه وجد الرجل واقفًا والمرأة راقدة أرضًا. رغم الظلام أخاف سكون المرأة توم. سأل الرجل: «ماذا فعلت بها؟»، فانطلق الرجل راکضًا. لحق به الفتى تعثرًا فاستدار وضرب رأسه ضربةً قويةً فقد الوعي على إثرها. في وقت لاحق عثر عليه أحد المارة وأفاقه، ثم ذهب مع الفتى إلى حيث ترقد المرأة. استدعيت الشرطة وأُخذ الفتى إلى المستشفى. نُقلت جثة المرأة إلى المشرحة، حيث أوضح فحصها أن المرأة تعرضت للخنق. تشير العلامات على عنقها إلى استخدام الجاني حبل رفيع، واستنتجت الشرطة من مظهر إصابات الفتى أن المعتدي كان يتقلد براجم معدنيةً.

عندما قرأت لوسي إيفانز هذه الفقرة تذكرت أين سمعت العبارة «براجم معدنية». كانت تتجول بالعربة مع كابلز وسلين في عصرٍ خريفٍ في هايد بارك، حيث الأشجار ذهبية والجو لطيف يبعث على الاسترخاء. ومن العجيب أن الثلاثة كانوا في مزاج رائع. كثيرًا ما تساءلت لوسي كيف يمضي كابلز وقت فراغه. وفي تلك اللحظة تعذّر عليها أن تتصوّرهُ يمضي وقته في أداء الأنشطة المُتوقَّع أن يقترحها عقلٌ متوقّد الذكاء مشتبّه فيه لا يهدأ. لقد وشت عيناه البنيتان اللامعتان الثاقبتان ببعض حقيقته. لكن باعتماره القبعة الرمادية الطويلة، وارتدائه غطاء الكاحل الأبيضين⁽¹⁾، وتقلّده زهرة القرنفل في طيّة صدره، بدا مظهره بعيدًا كل البعد عن أي عمل مشتبّه فيه. ووسط الأجواء الراقية، حيث الخيول اللامعة والعربات الأنيقة والمظلات تتمايل، كان اثنان من ضباط الشرطة يقتربان من الإمساك برجلٍ شرع في الركض. لكنه لمّا رأى طريقه مقطوعًا توقّف، استدار يواجه مُلاحقيه، ولكّم فكّ أحدهما عنيفًا، حتى علت طقطقة انكساره فوق ضجيج اللحظة المُتحمّض.

(1) قطعة من اللباد تُزرَّر حول الكاحل لحماية الجورب والحذاء من الوحل والأمطار. م

جفلت لوسي وأغمضت عينيها، واصلت العربة السير، وعندما فتحتهما مجددًا كان المشهد العنيف قد اختفى كأنه لم يحدث قط. لكن سلين قال: «يا لها من لكمة قوية! لا شك أنه كان يرتدي براجم معدنيّة».

سألت: «ما هي البراجم المعدنيّة؟».

أجابها سلين ضاحكًا: «اسألني برنارد فهو خبير في هذه الأمور».

ثم غزا الجليدُ المحادّة، إذ قال كابلز بصوت هادئ تقشعر منه الأبدان: «يومًا ما يا ألويشس ستفقت من فمك كلمة لا تُحمد عُقباها».

انقبض وجه سلين عند سماعه هذا التهديد. ورأت لوسي أن لحظة العنف التي تركوها، في ما بدا، خلفهم لا تزال معهم وتتبدّى في كل شي: في ظلال الغروب التي بدأت تُخضّب مناظر الحديقة؛ في الوجوه العابرة التي يلمحونها في موكبهم الفاخر والوجوه الحاسدة المُقصاة عنه؛ وفي قلبي الرجلين اللذين لا يعنيان لها شيئًا لكنهما الآن يلعبان أكبر دورٍ في حياتها.

عندما غادر كابلز تلك الليلة قالت لسلين: «الآن فلتجب سؤالي. ما هي البراجم المعدنيّة؟».

فأخبرها سلين بالموقف الذي شهده في شقة شارع «جرمين»، عندما رقص إيلس على أطراف أصابعه يمزّق الهواء بقبضتيه المُدرّعتين.

والآن قُتل مود سكيرو، التي أثارت استياء برنارد كابلز. وكان الرجل الذي قتلها يتقلّد براجم معدنيّة.

5

كانت زيارتي إلى لوسي إيفانز بعد هذه الأحداث بقليل. وأقلقني مظهرها حتى إنني شعرت، كما ذكرت، بأنها لم تتخلّ عن سلطتها، بل أُطيح بها. لقد قلّت زياراتي إلى منزلها. لم يعجبني الكولونيل سلين والرجل المدعو كابلز، الذي كثيرًا ما صادفته هناك. أمّا دانييل فلم يذهب معي لزيارتها قط.

كم سهل إقناعها بالذهاب معنا إلى تريسانت! كانت تتوق إلى الصحبة، وأظهرت تبعيّة غير معتادة منها. كانت تقول لي صباحًا: «لنقض اليوم معًا

يا سارا»، ولم أجد عذرًا للرفض. فقد استمتع ميرفن وإنيد بقضاء الوقت مع الأطفال على النقيض مني. كانا يخرجان مع ابنهما إدوارد وفيرونيك، يمضون ساعات طويلة سعيدة، معهما ريتشارد ذو الاثني عشر عامًا، يعينهما حينًا ويعوقهما حينًا. ثم يعود خمستهم في نهاية اليوم مُجهدين مُشعَّتين، لكنهم سعداء. يقول ميرفن: «لم لا تأتين معنا يا ماما؟ ستنفعل تلك النزلات بالغ النفع». ويُرِي إدوارد الصغير جدَّته الأصداف والحصى والزهور الذابلة؛ تذكارات المغامرات اليومية. حينئذٍ، عند النظر إلى لوسي، أصبح ممكنًا للمرة الأولى سماع طفلٍ يدعوها «جدَّتي» دون دهشة. لقد تركت البليَّة التي نزلت بها آثارها العميقة في هيئتها.

خلال تلك العطلة لم نبتعد أنا وهي عن المنزل كثيرًا. من حين إلى آخر كنا نحمل سلَّة الغداء إلى الأرض العشبية، التي تحدُّ البحيرة خارج كوخ ماجي ويل، حيث عاشت معها لوسي وصيفةٌ في سنوات ميرفن الأولى. اكتشفتُ أن تلك البُقعة واحدة من أماكنها المفضَّلة. وإن كان بهاء المناظر الطبيعية وذكريات الأوقات الهادئة النافعة تمنح السلام، فإن تلك البُقعة هي منبعه. شيئًا فشيئًا شعرتُ أن لوسي لا تنشد سوى السلام والتحرر من ذكرى، أو خوف، أو تجربة تعذب روحها. وأدركتُ أنني لا أستطيع أن أفعل من أجلها سوى ما أُعينُ به سالي جايلورد على عيشها في برمندزي: أن أكون بجوارها حتى تهدأ الأمواج المضطربة.

ذات يوم كنا هناك. أنهينا وجبتنا وشاهدنا باقي الجمع الذي انطلق إلى الإبحار في الزورق. عبر البحيرة بلغت أصواتهم سمعنا، والتمعت أشعة الشمس على قطرات الماء المتساقطة من المجدف الذي يحركه ميرفن. بينما يبتعدون عن مرمى نظرنا استحضرت لوسي، مثلي، ذكريات حلوة مُرَّة لأيام كنا فيها يافعتين، تمتد أمامنا حياة طويلة ملأى بالفرص. لكن ها نحن الآن، في طرفة عين، جالستان على شاطئ البحيرة، نكتفي بالمشاهدة، مثقلتين بالتجربة ولا نتطلَّع إلى الكثير.

استلقت لوسي على العشب الدافئ. أمَّا أنا فظللت جالسة أتأمل البحيرة والغيوم والتلال. شعرت بيدها تتسلل نحو يدي، وتمسك بها كأنها تستمد منها الطمأنينة. شددتُ عليها بُودُ فقالت: «لم لا تكرهينني؟».

لم أجب سؤالها بالكلمات، بل بشدة ودية أخرى على يدها. عندئذ جلست فجأة وقالت: «يجب أن تكرهيني. لقد قتلت شخصين».

مجددًا لم أجد ما يُقال. كنت واثقة أنها ستبوح بمكنون صدرها، وفي البوح عاجلاً سلامتها.

- أولهما إدي رودا. لقد اقتدته إلى الموت. هذه حقيقة مثلما نحن جالستان معًا الآن.

لقد أدركت قسوة سلوكها تجاه إدي رودا وأقرت بها. لكنني لم أترك هذه الحقيقة تخز عقلها مثل سكين حاد. لهذا قلت ما يمكنني قوله حول هذا الأمر. لقد شارك إدي رودا في ذلك الخطأ القديم، وهذا ما أوضحته لها. لكنني لم أصدق أن انتباهًا حديثًا لعواقب دورها في تلك المسألة هو ما تسبب في الاضطراب الواضح في شخصيتها.

لهذا سألتها: «ماذا الذي تريدين قوله أيضًا يا لوسي؟».

أخرجت من جيبها الفقرة المنشورة في الجريدة، السابق ذكرها، وأعطتها لي. لم أكن قد رأيته من قبل، واسترعى انتباهي على الفور الاسم «توم تشادرتن». لم أعرف من كانت المرأة مود سكيرو، ولم تعرف لوسي الفتى.

وبينما نتبادل الأسئلة عن هذا الخبر قطع رجل لا نعرفه الأرض العشبية يقصدنا، وسألنا بهدوء وتهذيب: «هل إحداكما هي السيدة سلين؟».

نهضت كلتانا وأجابته لوسي: «أجل، إنها أنا».

أذكر أن مظهر ذلك الرجل نال استحساني. لكنني لا أتذكره لأن هيئته كانت عادية على نحو يخدم مهنته.

قال: «أعتذر عن التطفل يا سيدة سلين. وأتساءل إن كان ممكناً أن تجيبي بعض الأسئلة. (أردف بابتسامة) أتمنى أن تقبلي بذلك لأنني سافرت من لندن إلى هنا لأطرحها، من شرطة العاصمة البريطانية تحديداً».

لقد استنتجت ما قال على الفور. وأظن أن لوسي استنتجتة أيضاً.

قال: «رغم ذلك تظل حرية الاختيار ملكك».

قالت لوسي: «سأجيب من الأسئلة كل ما يمكنني. هلا ندخل الكوخ؟».

- شكراً لك يا سيدتي. لم نكن لنزعجكِ لو لم يخفق سعيينا في أماكن أخرى. إننا نحاول العثور على رجل يُدعى برنارد كابلز. وتساءلنا إن كان باستطاعتكِ مساعدتنا. هل سمعتِ به من قبل؟

جلسنا في غرفة الكتابة القديمة الخاصة بويلي. نظر المحقق إليّ وسأل: «من هذه السيدة؟ لا أمانع في وجودها إن لم تمنعني في هذا يا سيدة سلين. لكن من قبيل الإجراءات الشكلية ينبغي لي أن أعرف من الحاضر معنا».

- أنا زوجة السيد دانييل أندريج، مستشار الملكة.

لم يبدو أن جوابي أثار إعجابه. قال: «دانييل أندريج؟ أجل، سمعت به بالطبع».

لم يحمل قلمًا أو ورقة. بدا رجلًا لطيفًا مألوفًا لا تقيده الرسميات. لكننا لم نغفل عن وقار، أظن أنه نتاج العمل في المؤسسة العريقة التي قَدِمَ منها. سألتُه: «هل يمكن أن نعرف اسمك؟».

- أجل، أجل، بالطبع. سميث. هنري سميث.

كان اسمه عاديًا مثل باقي سِماته. مال في مقعده إلى الوراء، تستند إحدى ساقيه إلى الأخرى، ويعبث بزرِّ صدره.

قال: «والآن، ربما اطَّلعتِ على خبر مقتل المرأة المدعوة مود سكيرو في «هامبستيد هيث»؟».

- أجل، قرأتُ فقرةً في إحدى الجرائد حول الأمر.

- ذكرت الجرائد فتى اسمه توم تشادرتن، تتذكرينه؟ (أومأت) بالطبع خضنا أحاديث مطولة معه. هل تعرفينه؟

- لا.

- هل وقعت عيناكِ عليه قط؟

- لم أره قط.

- لكنكِ تعرفين الرجل المدعو برنارد كابلز؟

- أعرفه جيدًا.

- ظننت أنك ربما سمعت منه عن الفتى توم تشادرتن. لقد أخبرنا الفتى أنه هو وكابلز يعرف أحدهما الآخر.
- لا، لم أسمع به قط.
- حسنًا، لا ضير في إخبارك القليل عنه. يقول الفتى إن كابلز سعى إلى التعرف إليه، منحه إكراميات سخية، وسأله أن يُبقي عينه على مود سكيرو. ثم قُتلت المرأة. هكذا يصبح مُشتبهًا به، أليس كذلك؟
- بلى، أظن ذلك.
- لهذا نرغب في سؤال السيد كابلز بعض الأسئلة. لديه شقة في شارع «جرمين»، لكن لا أحد هناك. لقد أثار اهتمامنا منذ أعوام، لهذا فإن معلوماتنا عنه كثيرة. نعلم، على سبيل المثال، أنه معتاد قضاء وقت طويل في منزلك في كنزنجتون كأنه منزله الثاني، صحيح؟
- أجل، يمكنك وصف الأمر بهذه الطريقة. إنه صديق زوجي الكولونيل سلين.
- الكولونيل سلين، في ما يبدو، ليس في المنزل؟
- أجل. يسافر هو والسيد كابلز في أرجاء أوروبا في عطلة طويلة كل عام. هذه المرة سافرا قبل بضعة أيام من ال...ال....
- جريمة القتل.
- أومأت لوسي.
- ستقدمين لنا عونًا كبيرًا إن أعطينا عنوانهما.
- لا أعرف عنوانهما.
- ألا يرأسك زوجك طوال تلك العطلات الطويلة؟
- أسمح لي بأن أكون صريحة تمامًا معك؟
- أجل، بالطبع. أتمنى لو كنت كذلك منذ بداية حديثنا.
- لقد أجبت جميع أسئلتك بصدق.
- هذا ما أراه أيضًا، شكرًا لك يا سيدة سلين. ما الذي تريدن قوله؟

- إنَّ زوجي عندما يسافر لا يرسل لي كلمةً لأنه يسعد بالخلاص مني كما أسعد بالخلاص منه. إن أحدنا يمقت الآخر. والآن لا أعلم عنه وعن السيد كابلز سوى أنهما يفعلان المعتاد كل عام. لقد غادرا لندن إلى باريس. من عادتهما المكوث هناك بضعة أيام، ثم يرحلان إلى وجهة أخرى لأنهما لا يبقيان في المكان نفسه طويلاً أبداً. لكنني لا أعلم إلى أي الأماكن يذهبان أو ما يفعلانه فيها. أعلم فقط أنهما يعودان بعد شهرين أو ثلاثة أشهر من السفر، وتؤسفني رؤيتهما.

سادت لحظات من الصمت نظر سميث في أثنائها إلى لوسي نظرة تعاطف.

قال: «إن فأنتِ لا تستطيعين مساعدتنا؟».

- لا يمكنني المساعدة بالطريقة التي تريدها. كنت لأفعل لو استطعت ذلك.

عندئذٍ سألها بنبرة حادة جعلتني أنقل نظري فجأةً من لوسي إليه: «كنتِ لتفعلني حقاً؟ لو علمتِ مكان زوجكِ وكابلز كنتِ ستخبريني به؟».

للمرة الأولى ترددت لوسي في إجابة سؤاله، ثم سألتُه: «ولم لا أفعل؟».

- إنه محض استفهام يا سيدة سلين، ولكِ حرية الجواب أو عدمه. كنتِ ستخبريني به لو علمتِه؟

- لا أعلم. لا أستطيع إجابة سؤالٍ افتراضيٍّ.

- أتفهمكِ.

توقفاً عن الحديث مجدداً. نهض السيد سميث وسار نحو النافذة. تأمل بهاء الخُصرة والبحيرة بعض الوقت. ثم استدار يتكئ على حافة النافذة.

سألها: «هل تعلمين أن لقب زوجكِ ليس سلين، بل سيمبل؟».

كشف لي هذا السؤال ما تعانيه تلك المرأة البائسة المُنهكة. نظرت إليها فرأيتها ترتجف. أجابته بصوت خافت: «أجل».

- هل يدري كابلز بهذا الأمر؟

- أجل.

- هل كان كابلز يبتزك؟

- أجل.

- هل تعلمين أن المرأة التي قُتلت في «هامبستيد هيث» كانت زوجة سيمبل؟

- أجل.

- هل قابلتها من قبل؟

- مرة.

- هل كانت تبتزك؟

- طلبت مني خمسمئة جنيه.

- هل علم كابلز بهذا الأمر؟

- أجل.

- أليس من المرجح أن يحاول أحد المُبتزّين التخلص من الآخر؟

- هذا افتراض. لن أجيب سوى الأسئلة التي تتعلق بالحقائق.

أعجبني أنها رغم اللحظة العصبية التي تمرُّ بها استطاعت الحفاظ على بعض رباطة جأشها. لقد فاجأت السيد سميث بصلابتها، وبدا لي أنه أعجب بها بدوره. بعدما انتهى وابل الأسئلة ترك النافذة عائداً إلى مقعده وسألها: «هل تمانعين إن دخّنت؟».

وبينما يدخّن غليونه كفكف جبينه، ثم قال: «لقد انتهت الأسئلة. ما سأقوله الآن غير رسمي. عندما سألتكِ يا سيدة سلين إن كنتِ ستخبريننا بمكان كابلز، على افتراض أنكِ تعرفينه، أقرُّ بأنني توقّعت ألا تفصحي عنه، إذ حالما نمسك به سيصبح كل ما سنعرفه منه ذاتئاً بطبيعة الحال. ولا أظن أن عاقبة كتلك ستعجبكِ. لهذا ظننت أنكِ قد تريدين أن يحظى سلين وكابلز بفرصة للإفلات من العدالة. لكن ما توقّعتُه يظلُّ افتراضاً كما تقولين. وأصدّق أنكِ لا تعرفين أين هما».

- شكراً لك. تأكّد أنني أجبت جميع أسئلتك بصدق. ولم يكن الأمر سهلاً.

- كان من حسن الحظ، أقصد من حسن حظكِ أننا عند بدء التحريات لم نكن نعلم أن مود سكيرو هي مود سيمبل، أو أن الكولونيل سلين هو ألان

سيمبل. لولا ذلك لكانت تلك الحقيقة المؤسفة قد ذاعت. وما لم يظهر قاتلُ تلك المرأة أو مُشاركُ في قتلها فستظل هذه الحقيقة سرًّا.

ثم ابتسم ونهض قائلاً: «يتضمن عملنا معرفة كثير من الأسرار. أدعو الرب أن يصبح بعضها لدى العامة يوماً ما، ومنها ما يمكنني حفظه حيث لن يبلغ أحداً أبداً. (صافح لوسي قائلاً) سنبدل قصارى جهدنا للإمساك بكابلز يا سيدة سلين. لكنني أمل أن تخفق مساعينا، وألا تَرَيه أو ألان سيمبل مجدداً أبداً».

6

لم ترَ لوسي كابلز أو سلين مجدداً قط. لم تنشر الجرائد المزيد حول جريمة القتل في «هامبستيد هيث». لكن الفقرة المنشورة مسبقاً، لا شك، قد وصلت إلى يدي كابلز. لو لم يصبح توم تشادرتن جزءاً من الواقعة لربما عاد كابلز إلى لندن. لكن حالما نُقل الفتى إلى المستشفى، حيث ستستجوبه الشرطة، تبذرت احتمالية عودته. لدى كابلز خبرة سابقة تبرهن له على كفاءة الشرطة في التعقب. لن يلزمهم الكثير حتى يعلموا أن مود سكيرو كانت السيدة سيمبل؛ وأن السيد سيمبل هو الكولونيل سلين؛ وأن سخاء السيد كابلز مع توم تشادرتن يعني ارتباطه بما قد يحدث لأَيٍّ منهما. سيختفي إيلس، لكن شقّة شارع «جرمين» لا تستطيع الاختفاء. ومهما بلغ حرصه يمكن للشرطة العثور على ما يدينه هناك.

بعد أعوام طويلة من تلك الفترة -عشرون عاماً في ما أعتقد- كنت أمضي عطلة نهاية الأسبوع عند صديقة في الريف، وكان من بين المدعوّين للحفل الذي أقامته السير هنري سميث؛ قائد الشرطة الريفية. خضت حديثاً طويلاً معه. أخبرني أنهم عجزوا عن الإمساك بكابلز حتى فات أوان فعل أي شيء. لقد أطلق على نفسه الرصاص في «مونت كارلو» قبل وقت ليس بالبعيد. سألته إن كانوا قد توصلوا إلى أي شيء يخصّ الكولونيل سلين فأجابني: «لا يزال حياً. رأيته الصيف الماضي».

علمت منه أن سلين وكابلز افترقا بعد قليل من مقتل مود سكيرو.

- بقدر ما أعلم لم يتقابلا مجدداً قط. يجيد سلين عدة لغات كما تعلمين. دائماً ما ابتهج بالوجود في أي دولة سوى موطنه. مكث في فرنسا يتجول هنا وهناك ويؤدي بعض الوظائف الصغيرة. ثم حصل على الجنسية الفرنسية أخيراً، وقبل بضعة أعوام تزوج أرملة فرنسية.

أثارت تلك الأخبار دهشتي فقال سير هنري: «من الذكاء منه فعل ذلك. طالما كان فقيراً ضعيف الإرادة مُهاناً. لكنه خضع لسيطرة غيره التامة، وتشكّل كأنه صلصال في يد صانع الفخار. لو لم يقابل كابلز قط، ذلك الرجل الذي فاق سوؤه أقصى ما قد تتصورين، لأمضى حياته نكرةً قانعة. لكن تلك «المدام» هي أفضل ما يمكن أن يحدث له. إنها عجوز ضخمة كأنها دجاجة كبيرة سمينة يستكين أسفل جناحها. لقد أبقاني أحد أصدقائي في «الشرطة الوطنية الفرنسية» على اطلاع بأفعاله. وذهبت لألقي عليه نظرة الصيف الماضي عندما كنت في «أميان». لقد انتقلت بالسيارة إلى «دولون». هل استقليتها؟».

هزرت رأسي نفياً فقال: «ستفعلين، إنها مدهشة. هناك وجدته. يملك الزوجان متجرًا صغيراً اسمه «سيمبل للتبغ». لقد عاد لاستخدام اسمه الحقيقي. دخلت ذلك المتجر واشتريت بعض التبغ الرديء. رأيت سيمبل هزلاً، واهناً، له شارب أبيض. كان جالساً في مقعد يقرأ جريدة أسبوعية تصدر في غرب إنجلترا. على طرف أنفه نظارة ذات إطار معدني. قلت له بالفرنسية: «هل تقرأ الجرائد الإنجليزية يا سيدي؟». فأجابني: «لقد وُلدت في إنجلترا يا سيدي، لكنني الآن فرنسيٌّ. إن مسقط رأسي هو القرية التي تصدر فيها تلك الجريدة». قال سير هنري أن سلين أشار إلى صورة رجلٍ وجيه نُشرت في الجريدة، وقال مبتهجاً: «لقد مات، أصبح جثة هامدة. أمّا أنا فلا أزال هنا، حياً وموفور الصحة. أتعلم يا سيدي أن في صَبانا اعتاد ذلك الرجل رمي بالحجارة، والصياح استهزاءً بي في الطرقات؟ لكن انظر إليه الآن، لقد أصبح جثة هامدة. من حين إلى آخر أقرأ خبر موتهم. أرى صورهم في هذه الجريدة. فأقصّها وألصقها في دفترتي أنا الذي لا أزال حياً وموفور الصحة. هل تودُّ أن ترى دفترتي يا سيدي؟».

أخرج الدفتر الذي تملأ صفحاته صور بائعي الحبوب ومستلزمات المنازل المعدنية وما شابه. أسفل كلٍّ منها بعض السطور التذكارية المقتطعة من

عمود «المواليد والوفيات والزيجات». شابه الدفتر مقبرة صغيرة مثيرة للشفقة، لكن سيمبل كان سعيداً به.

قال سير هنري: «كاد الرجل غريب الأطوار يطير من السعادة بدفتره. والآن حان دوري في السؤال يا سيدة أندريدج. أخبريني كيف حال السيدة التي ظنت نفسها زوجته؟».

- لقد رحلت. ماتت قبل عشرة أعوام. ودُفنت في تريسانت حيث جئت لزيارتنا في ذلك اليوم.

- عذراً على فضولي، لكن أي لُقب نُقش على شاهد قبرها؟

- سلين. لقد عاشت الباقي من حياتها تستخدم هذا اللقب.

في يومٍ كذاك فُكِّرتُ أن أشعة الشمس ستتناثر على المقبرة مثل برقشةٍ مضيئة، بعدما تتخلَّل أوراق الأشجار والحزاز. كم من شواهد قبورٍ ولوحاتٍ تذكاريةٍ أصبحت تخصُّني هناك! ف وراء الباب الخشبيَّ الرماديَّ ذي المفصلات الكبيرة، الذي يقود إلى الكنيسة التي ينفذ إليها الضوء الأخضر الباهت دائماً، حيث شاهدتُ ريتشارد ذات مرَّة يكشط العفن عن القبور، قد علَّق لوح ابني التذكاري في موضع لا يبعد كثيراً عن لوح جاستن. هناك القبر حيث ترقد أُمي واللورد بيرندج. وفي الخارج، حيث العشب الطويل والأقحوان يسكنون في غياب الريح، يوجد شاهد القبر المنقوش بالعبارة: «لوسي سلين؛ أرملة الكولونيل ألويشس سلين». يقوم على أحد جانبيه شاهد قبر «إدوارد رودا؛ قبطان أعالي البحار»، وعلى جانبه الآخر شاهد قبر «ويزلي رودا». أصبح الثلاثة يرقد كل منهم على مرمى حجرٍ من الآخر، حتى إن العظام لو استطاعت حفر الأرض مثل الخُلد، لتمدَّدت كي تمسك لوسي بيد كل منهما. وبعد كلِّ ما دار بين أولئك الثلاثة وتسبب في تفريقهم -رغم أنهم يرقدون الآن معاً- لم يبقَ سوى ميرلن الصغير، الذي تواطأ مع إنيد جوترسن لينجبا إدوارد آخر. من العجيب أنهما، دون تخطيط، قد اختارا اسم القبطان رودا لابنهما؛ ذلك الفتى الذي، إن أصبت في قراءة الإشارات، أراد أن يمَدِّ دماء رودا إلى عائلتي الصغيرة.

الفصل العشرون

1

عندما انتهت العطلة وعدنا جميعًا إلى المدينة طالعت أنا ولوسي الجرائد باهتمام شديد. لكننا لم نقرأ فيها طيف موجةٍ على سطح تلك البركة المظلمة. في ذلك الشتاء كثيرًا ما زرتها. أصبحنا أكثر قربًا من أي وقت مضى. لقد خلّصتها تجربتها العصبية من كثيرٍ من عيوبها. أصبحت أكثر لطفًا وأقلّ أنانية. ولم أتفاجأ عندما قالت لي في الربيع: «ما نفع الاحتفاظ بهذا المنزل؟ أتساءل هل ستقبل سالي تأجير الكوخ بجوار البحيرة لي؟ إنَّ كل ما أحتاج إليه هو مكان مثل ذلك. وأرغب في العيش هناك أكثر من أي مكان آخر أعرفه».

- هل سيرضى ميرفن بابتعادك كل تلك المسافة؟

- هل تظنين أن الأمر يهّمه؟ كنت فيما مضى أنجح في إيهام نفسي باهتمامه. لكن لديه إنيد، والصغير إدوارد، وطفلاً آخر سيولد قريبًا. ستسير حياته على ما يُرام في غيابي.

كان جو ذلك اليوم رائعًا. علّقت لوحاتها الشخصية، التي كلّف السيد موستن لويد جون ميليه برسمها، فوق رفّ المدفأة في الغرفة حيث كنا جالسين. تأملتُ هيئتها المنعشة مثل ندى الصباح في تلك اللوحة، تظهر خلفها أبهى صورةٍ للطبيعة البديعة. بدت حقًا كأنها ربّة الربيع؛ امرأة فتنت

إدي رودا وأهلكته، وقيدت موستن لويد إليها بسلاسل التعلق، وجعلت قلب جاستن يخفق ولعًا.

تبعث لوسي نظري. وتطلعت برهة إلى جمالها الفائق.

قالت: «ظننتُ تلك المرأة أن العالم كله رهن إشارة من إصبعها وملكا لها. ربما لم تعلمني الحياة الكثير. لكنني على الأقل تعلمت أنها مُخطئة. هل تصوّرت قط أن الحياة يمكن أن تستقيم في غيابها؟ أؤكد لك أنها لم تستطع فعل ذلك، لكنني فعلت».

قلتُ: «رغم ذلك أرى أنها كانت لطيفة جدًا».

- تتحدثين كأنها قد ماتت. على أي حال لننس الأمر. هل ستأتين معي لزيارة سالي؟

2

بعد بضعة أيام ذهبنا لزيارة سالي. لم نرتّب معها لتلك الزيارة لأنها لا تسمح بذلك. لقد اعتادت أن تقول: «لا أعلم ماذا عساه أن يشغل وقتي. يجب أن تأتوا وتختبروا حظكم معي كما يفعل الجميع».

كان النورس المُحنّط الذي أحضره توم تشادرتن من تريسانت قبل بضعة أعوام لا يزال قائمًا على رفّ المدفأة في المطبخ. لقد سألتُ سالي لم احتفظت بذلك الأثر المؤسف، فأجابتنني: «لأن توم تشادرتن قد يعود يومًا ما لزيارتي. أودُّ أن يعلم أنني احتفظت بهديته».

والآن قد عاد توم تشادرتن. عندما خرج من المستشفى سُئل إن كان يوجد أي مكان يمكنه الذهاب إليه فأجاب: «أجل، الآنسة براون في برمندي». ولم يحتج إلى قول المزيد. لقد ذاع صيت «الآنسة براون من برمندي»، بعد عملها مع «واريك راسل من برمندي».

بعد ظهيرة أحد الأيام كان توم راقدًا في سرير غرفة سالي الشاغرة. لقد فعل الأطباء من أجله كل ما يمكن فعله. خيَطَ رأسه بغُرَزاتٍ عدّةٍ كأنه غلافٌ جلديٌّ لكرة قدم. لقد أجاد السيد إليس أداء مهمّته. هكذا أُضيف إلى وجه

توم، الذي نال نصيبًا من العلامات سابقًا، بضع علامات جديدة ستدوم إلى الأبد. لكن تلك الندوب لم تكن أسوأ ما أصاب توم. فعلى الرغم من مظهرها الكريه فإنها ستلتئم. لكن جروح قلبه بدت عصيّة على الالتئام. لقد أوشك أن يلقي حتفه أو أن يزهق روحًا. والأدهى من ذلك شعوره المرير بأن المال الذي أخذه من كابلز يجعله شريكًا في قتل مود سكيرو، كأنه قادها إلى حتفها. ولم يستطع التغلب على هذا الشعور. ثم التجأ إلى سالي. عندما ذهب إليها احتوته. لقد ذاع الكثير عن «ماري براون» وأثرها في حياة البائسين، ونُشر عنها القليل. على أنها، بإيجاز، كانت تفتح بابها لمن يطرقونه وتُكرّس كل ما تملك لهم. سرعان ما أدركت أن الخلل أصبح في نفس توم لا جسده. لم يتذكر النورس القائم على رفّ المدفأة، لكنه تذكر القط بنسين. وأمضى ليلته الأولى عند سالي جالسًا في مقعد يرعى القط. تساءلت سالي ماذا عساها أن تفعل، إن كان يوجد ما يمكنها فعله، من أجل توم تشادرتن. ثم أخبرته، كخطوة أولى، أن يصبح مسؤولًا عن بنسين. يجب أن يشتري له الطعام وأن يتأكد أنه تناوله، وأن يرشّه بالمسحوق المضاد للبراغيث ويمسّط فراءه بانتظام. أدى توم جميع هذه المهام بجدية واهتمام شديدين، في محاولة للتمسك بالشعور الإنساني بالمسؤولية. وبعد الظهيرة طلبت سالي منه أخذ قسط من الراحة. والآن كان راقدًا في السرير، والقط مُستكنٌّ عند قدميه.

في تلك الفترة أجرت لوسي زيارتها الأولى إلى برمنديزي، وفاجأها ما رآته. لقد عرفتُ تريسانت جيدًا، حيث الراحة والفخامة والانعزال عن العالم. وكان تريسانت ملكًا لسالي، تكفي كلمة منها ليعود المنزل إلى سابق عهده وتتنعم بالعيش فيه. أتذكر أن لوسي، عندما زرتها أنا وماجي ويل ووجدناها راقدة في سريرها الفاخر، قالت مستاءة: «كان من الممكن أن أصبح أنا مالكة تريسانت لا تلك المرأة المجنونة». لكنني واثقة أنها لم تَعِ قط ما كانت تلك المرأة المجنونة تفعله. لا بد أنها خالت سالي تعيش في واحةٍ ترفٍ في صحراءِ الفاقة في برمنديزي، تبسط يدها بسخاء. لكن ها هي سالي الآن واقفة في المطبخ الذي لا يرى من نافذته سوى القمر يد المغطى بالسحاب والأردواز الرمادي. وعندما وصلنا إلى بيتها كانت جاثية، نهضت تمسح يدها في مئزرها الواسع، وقالت: «عذرًا على حال الأرضية، ستجفُّ سريعًا. كانت في حاجة إلى التنظيف».

ثم تناولت دلو الماء المتسخ حيث انغمست خِرقة وفرشاة، وخرجت تصبُّه في مصرف الساحة الخلفية. نظرت لوسي إليّ مدهوشة، إذ لم يفاجئها مظهر سالي فقط، بل واكتشافها حقيقة الأنشطة التي تؤديها. لقد مرّت أعوام منذ لقائهما الأخير. وإنَّ سالي الحالية مكتنزة الجسد، التي ترتدي حذاءً عملياً رخيصاً ومئزراً واسعاً فوق ثيابها السوداء البالية، ذات الشعر الرمادي غير المُعتنى به واليدين الحمرأوين من أثر المنظفات، التي بدأت التجاعيد تحفر وجهها وترسم خطوطاً في زاويتي عينيها البرأقتين، بالطبع لم تكن «سيدة» تتسلَّى بالتنظيف.

سمعنا قرقعة الدلو عندما رمته سالي في غرفة غسل الأطباق، ثم دخلت المنزل. علَّقت مئزرها خلف الباب. دَقَّقْتُ النظر إلى لوسي وقالت: «أتساءل إن كنتِ ترينني قد تغيرت بقدر ما أرى التغيير فيكِ. ماذا حدث لكِ؟».

لقد اتفقنا ألا يدري أحد، حتى سالي، بما حلَّ بلوسي. فأجبتها: «لوسي ليست بخير. ربما تعلمين أن زوجها هجرها؟ لقد سافر في عطلة حول القارّة الخريف السابق، ولم تعلم عنه شيئاً منذ ذلك الحين».

قالت بصراحة يمتزج بها بعض الفظاظ كعادتها: «لقد عاد هذا عليها بالنفع. عندما قلتُ إنها تغيرت لم أعنِ أن التغيير للأسوأ. إنها أفضل من أي وقت مضى؛ تبدو أقلَّ إعجاباً بنفسها وانشغلاً بها. الآن لأعد لكما الشاي. كيف حال ابنكِ يا سارا؟ (وضعت أكواباً كبيرة ثقيلة على الطاولة وأردفت بابتسامة) لم يعجبه مظهر هذه الأكواب عندما زارني زيارته الوحيدة ولم يستطع الشراب فيها. لم يرغب في الحديث عن شيء سوى جاستن وتريسانت، لكنه وجد المكان هنا غير ملائم لإجراء هذا الحديث. لم يفاجئني أنه لم يعد قط. لقد خيَّبت آماله مثلما خيَّب آمالي. كيف ستتصرفون معه؟».

في الحقيقة لم أكن أدري كيف سنتصرف معه. لهذا تملَّصت من الأمر قائلة: «من المبكر الحديث عن هذه المسألة. سيخضع للروتين المعتاد ثم سنرى النتيجة».

صبَّ الشاي ووضعت شرائح الخبز والزبدة في أطباقنا. قالت: «أتذكركين أن توم تشادرتن أتى إليّ بعد عراك مع والده قبل بضعة أعوام؟ لقد تلطَّفتما أنتِ وويلي بالاستجابة لطلبي وصحبتهما معكما إلى تريسانت في عطلة.

أعتقد أنني حينئذٍ أخبرتكما أن شقيقته أتت معه. تُدعى الفتاة هاجي، لكنني أظن أن اسمها الحقيقي هاجر. لقد اهتم الطبيب راسل وزوجته بأمرها، وأصبحت تعيش معهما منذ ذلك الحين خادمةً ورفيقةً سكن. لكن تلك المُسمّيات لا تهم، لأن كلاً منهم يخدم الآخر بطريقة أو بأخرى. لقد أحسنا الاعتناء بالفتاة وتهذيبها، سترينها. ستزورني هي والسيدة راسل قريباً وهذا تطور كبير، لأن هاجي بدت مثل قطعة برية عندما قابلتها أول مرة».

- لقد ذكرتها. قلت إن الحلية التي جلبها توم من أجلها هي ما بدأ العراك.
- أجل. حينئذٍ لم تكن تستطيع القراءة أو الكتابة، لكنها تجيدهما الآن.
تستطيع الطهو أفضل مني وهي لطيفة جداً. لكن ينبغي لها الرحيل عن برمندزي. لا بأس بعيش نساء كبيرات صلبات مثلي هنا، لكن واريك راسل قلق على صحة هاجي. إنها لا تعاني أعراض السّل النشط، لكن يبدو أنها عرضة للإصابة به.

سمعنا وقع خطوات في ردهة البيت فهتفت سالي: «اتركي الطفل في العربة وادخلي. (ثم قالت لنا) لا تنسيا أن سالي جايلورد ماتت. ومن تعيش هنا هي ماري براون».

لم أكن قد قابلت السيدة راسل من قبل. لكنني وفقاً لما أخبرتني به سالي عنها توقعتُ أن أرى الآن امرأة صهباء مفعمة بالحيوية والنشاط. بدت هاجي تشادرتن شعلة خافتة في ضوء السيدة راسل الساطع؛ كأنها نبتة متواضعة تنمو بجوار زهرة دوار الشمس. لكنني أقرُّ بأن السيدة راسل لم تزعجني مثلما يفعل كثير من الشخصيات المفعمة بالحماس. لا يمكن لدفع حضورها أن يزعجك أكثر من دفع يوم صيفيٍّ، عفويٍّ وصحيٍّ. ولا يصعب تصوُّر واريك راسل يتجول في «كوتسولدز» كئيباً بعد مرضه ليعثر على السلوان هناك.
دعنتي أنا ولوسي قائلة: «تعاليا كي تريا مُدَلّلي».

ذهبنا إلى الردهة لنرى الصغير روبن راسل راقداً في عربة الأطفال. كان نائماً يُرَقِّق مظهره القلوب مثل جميع حديثي الولادة؛ أولئك الجملان في المراعي الباردة. نظرت هاجي تشادرتن إلى الأم وطفلها بافتتان. عندئذٍ تساءلتُ إن كان الافتتان أجمل ما يُعاش. لا بأس في الشعور به في مرحلة ما بالطبع. لقد مررتُ بأطواري الخاصة من الافتتان. افتتنت باللورد بيرندج

وماجي ويل، على أن النضج خلّصني من هذا الشعور. لكن إن بقيت هاجي تشادرتن هنا في برمندزي تعيش مع السيدة راسل تحت السقف نفسه فسيصعب عليها التخلص من هذا الافتتان. كانت في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة تقريبًا. فتاة سمراء، نحيلة ورقيقة. برز هدوؤها مثل تألق السيدة راسل. تحدثت فقط عندما يُوجّه إليها الحديث. كانت فصيحَةً يخلو كلامها من لهجة الكوكني التي تميز حديث توم وأهالي شرق لندن. واستنتجت أنها خلال الأعوام الثلاثة أو الأربعة الماضية حاكت محاكاة هادئة، لكنها شغوف، عادات قدوة محبوبة.

عندما غادرنا أنا ولوسي قلت: «لم نتحدث مع سالي عن موضوع زيارتنا. أعني استئجار الكوخ».

- ما رأيك في تلك الفتاة، هاجي تشادرتن؟
لم أرُحِبَ بمشاركة الآراء المبنية على الانطباعات الأولى، لهذا قلت بإيجاز: «أرى أنها جيدة».

- لقد أعجبتني للغاية. أرى أنني وهي سننسجم جيدًا.
نظرت إلى لوسي متفاجئة. سألتها: «فيم تفكرين الآن؟».

- إن استلزم الحفاظ على صحة الفتاة رحيلها عن برمندزي فلم لا تأتي معي إلى كورنوال؟

- لتحظى بعُطلة؟

- لا، لتعيش معي، بالطبع إن رغبتُ في ذلك وإن وافقت سالي على تأجير الكوخ لي. إن الخدم في كنزنجتون هم آخر من أريد حولي هناك.

وقد تحقّق ما اقترحت لوسي. بحلول صيف ذلك العام كانت قد باعت المنزل الذي دخلته قبل زمن طويل امرأةً يتيمةً غامضة. وعاشت مع هاجي تشادرتن في الكوخ بجوار البحيرة.

إن الأول من مايو يوم مناسب لاحتفال المرء بعيد ميلاده. عادةً ما يكون جوه صحواً. أتذكر البريق والألق الذي ازدان به عندما بلغت الخامسة والأربعين من عمري. ملأت زهور النرجس مزهرية كريستالية على طاولة الإفطار في منزل تشيلسي. سقط الضوء على النافذة وأوجه المزهرية، فتوهجت بالأزرق والأحمر أسفل الزهور الذهبية الفاتحة. لا تروقني أعياد الميلاد الآن. لكنني حينئذ كنت من الحماسة بحيث أتطلع إلى ما سيقوله الأصدقاء وسيرسلونه لي، وأنا أجتاز عتبة أخرى من عتبات الحياة القليلة.

سواء أكان اليوم احتفالاً بعيد ميلاد أم لا فإن دانييل ينشغل بفتح خطاباته. لقد وصل الليلة الماضية متأخراً من حدثٍ سياسيٍّ أو ما شابه بعدما خلدت إلى النوم. صباح اليوم هتف من غرفة الملابس قائلاً: «أعواماً مديدة سعيدة يا سارا». كنت واثقة أن من بين الخطابات الكثيرة والطرود الصغيرة على الطاولة بجوار طبقي توجد هدية منه لي. فهو لم ينسَ هذه التفاصيل قط. أعدت سكرتيه الخاص قوائم كثيرة، من بينها قائمة بتواريخ أعياد الميلاد الواجب تذكرها. ولم يراودني الشك في أن تاريخ ميلادي مُسجَل بأمان مع تواريخ ميلاد القادة السياسيين، والشخصيات البارزة في دائرته الانتخابية، والناخبين الذين قد يُدير بعض الاهتمام الشخصي أصواتهم إلى الاتجاه الصحيح. وقد عثرت على هديتي: زمردة ملساء مُثَبَّتة إلى قاعدة فضيَّة لتصنع مشبك زينة. قلت: «شكراً لك يا دانييل. إنه جميل».

- أعجبك؟

- أحببته.

قال: «جيد».

ثم مدَّ يده يربت على يدي وعيناه على الخطاب الذي يحمله. كان هذا، كما علمت، كل ما سأنال منه.

على الرغم من أن اقتراح ويليام جلاستون -الذي انتُخب رئيساً للوزراء العام الماضي- بأن يحكم الشعب الأيرلندي نفسه قد لاقى نجاحاً، فإن دانييل

احتفظ بمقعده في البرلمان، بل وازداد مؤيدوه عددًا. لقد جذب دانييل الأنظار بخطاباته المعارضة للحكم الداخلي الأيرلندي في البرلمان الجديد. عُرف بانتقاده جلاستون. وبدا متوقعًا أنه سينال منصبًا وزاريًا حالما يفوز حزبه بالانتخابات.

واصلت مطالعة خطاباتي. راسلتي لوسي من كورنوال وبعثت لي بباقة من زهور الكاميليا. كتبت: «جمعت هاجي الزهور. ستتفاجئين عندما ترينها مجددًا. لن يقلق الطبيب راسل على صحتها الآن. عمّقت الشمس سُمرتها وأصبحت تفيض حيويةً. تعلمين أنني في البدء كنت قلقة؛ تساءلت كيف ستعتاد فتاة لها مثل نشأتها حياة الريف المنعزلة. لكنني عبثًا قلقت. إن حبها لتلك الحياة يزداد يومًا تلو آخر. وكل أسبوع تبعث بباقة زهور إلى توم في برمندي. لا شك أن من يزورون عيادته يسعدون بمراها».

كان من المفاجئ حقًا أن يصبح لتوم تشادرتن عيادة. لقد كشف عن موهبته القطّ بنسبٍ الذي استمتع بوقته فوق أسطح برمندي وأزقتها. وعادةً ما عاد إلى المنزل متسخًا، وأحيانًا مجروحًا، بعد المرح. ذات يوم عاد أذنه ممزقة وملطخة بالدماء. أدهش سالي قلق توم على القط واعتناؤه الفائق به وخضوع القط له. قبل عودة توم كثيرًا ما داوت سالي القط بنفسها، عندما يحتاج إلى المداواة، لكنه كان مشاغبًا وصعب عليها ضبطه. على أنها سرعان ما لاحظت الألفة بين توم والحيوانات وأنه يستطيع فهمها. عندما أحضر عصفورًا أصابه أحدهم بمقلع، وصنع له جبيرة من أعواد الثقاب، ملأ قلبها الأمل في أن يكون ما لحظته هو ما تبحث عنه؛ ما سيداوي اضطراب نفسه.

لم يحصل توم على شهادة ليصبح طبيبًا بيطريًا. لكنه أرسل للعيش عامًا مع طبيب بيطري، وعاد بعدما نال بعض المعرفة وطدّت موهبته الفطرية. لم يُعلّق لوحة تحمل اسمه أو مهنته، رغم أن واريك راسل كان يدعو «زميلي الشاب تشادرتن». لكن أصبح من المعروف بين الأهالي هناك أنه يعتني بالمرضى والجرحى من الحيوانات والطيور، وانشغل بعلاج حيوانات الفقراء الأليفة. واصل العيش مع سالي، لكنه أقام «عيادته» في غرفة مستأجرة في الشارع نفسه. هناك أمضى وقته بين الأقفاص والصناديق، تتابعه أعين الكناري الحادة، وأعين الكلاب الحزينة، وأعين القطط الحذرة في أثناء عمله.

تحلّى بالصبر في معاملة تلك الكائنات المسكينة ونجح في أداء واجبه نحوها. يسعد برفقتها أكثر من رفقة البشر، الذين قلّت حاجته إليهم. وقد تنامي احترام الأهالي له. كانوا لا يزالون يعتقدون أن الرحماء أمثاله هم خاصّة الرب. على هذا الحال أصبح عيش توم، وشعرت سالي أن هذه الحياة هي الأنسب له. كان يربح قليلاً من الشلنات وفيضاً من الاحترام.

نهض دانييل، مسح فمه بفوطه المائدة، وقال: «يجب أن أغادر الآن. لا أظن أنني سأستطيع القدوم على العشاء. ألقى نظرة على هذا وأخبريني برأيك». ألقى خطاباً بجوار طبقي وغادر بعدما طبع قبلةً على مؤخرة عنقي. وضعت ذلك الخطاب جانباً وتابعت قراءة خطاباتي: أحدها من ويلي والآخر من ريتشارد. كنا نتشارك يوم الميلاد نفسه، وفي ذلك العام بلغ الخامسة عشرة. راسلني من «رجبي» حيث التحق بالمدرسة الداخلية كاتباً:

«أمي العزيزة،

أكتب هذا الخطاب لأتمنى لك أعواماً مديدة سعيدة. أظن أن في موعد قراءتك هذه الكلمات سأكون قد حصلت على مضرب الكريكت الجديد الذي وعدتني به. هنا تسير الأمور بخير إلى حدٍّ معقول، لكنك تعلمين دون حاجة إلى تكراري القول إن ارتياد المدرسة ليس فكرتي عن السعادة. متى سنقنع والدي بأن يسمح لي بالانضمام إلى سلاح الفرسان؟ لم أرسل إليك أي هدية لأن من الصعب إيجاد شيء مناسب هنا. لكنني سأجده يوماً ما، ثقي في ذلك. أبعث بحبي إليك وإلى نيكاً.

ابنك المُحبُّ،

ريتشارد».

وضعت الخطاب أشعر به مثل قُبلة دانييل على مؤخرة عنقي. قرأت خطابات ويلي وميرفن وإنيد. وأخيرًا قرأت الخطاب الذي تركه لي دانييل، ولحظت أنه مكتوب بخط يد شقيقته، ماري ريمل.

«أخي العزيز دانييل،

أبغض أن أُسيّر إليك بهوم العائلة، لكنني وسباستيان في كرب عظيم سببه جوليان. لقد أوشك أن يبلغ السادسة عشرة، لكن يشعر كلانا أنه يفتقر إلى الجدّة، وتزداد تلك الخصلة تأصّلًا فيه بمرور الوقت لا تقل. إنّ سباستيان المسكين، مثلما تعلم، سعى جاهدًا في عمله. جازف ماليًا مجازفات كبيرة كي يبني نفسه، وتكبّد ديونًا تطلّبت تضحية طويلة. لكنه فعل كل هذا دون تردّد كي يؤسّس قاعدة عائلية متينة يستطيع جوليان البناء فوقها. لقد اقترحنا عليه امتهان المحاماة أو الطب أو العسكرية. لكنه لا يأخذ تلك الاقتراحات على محمل الجدّ. وعند اقتراح اتّباعه خُطى والده كان من الفظاظة بحيث قال إن لا أحد يستطيع إقناعه بفعل ذلك، وإنه يُفضّل الشقاء مثل البحّارة على أن يظلّ حبيس مكتبٍ يُراكم جسده الدهون، يعيش حياة لعينة مثل حياة أولئك البائسين. (أعتذر عن كتابة هذه الكلمات يا عزيزي دانييل فجوليان هو من نطق بها لا أنا).

إنني وسباستيان نتابع باهتمام كبير وجهة حياتك عظيمة الشأن، وهذا ما يجعلنا نرى أنك ستفهم كربنا.

أعني كيف يمكن لوالدين أن يتصرفا مع ابنٍ حياته بلا وجهة؟ إنه يُهمل دراسته، ويملاً غرفته بالتفاهات: كتب قديمة لا تهتمه موضوعاتها، لكن يروقه تصنيفها أو تجليدها أو نممتها؛ ومطبوعات قديمة؛ وأُطر لوحات منقوشة؛ وقطع بالية من الدانتيل والأقمشة المطرّزة. يحظر عليّ لمس هذه الأغراض التي لا يمكن أصلاً أن يلمسها غيري، لأنني أرى أن توظيف خادم لدى العائلة إسراف مزموم. إن هذه الأغراض العتيقة هي محور اهتمامه. وعلينا ألا نمسّها، بل ندعها تُراكم العتّ والغبار.

يرى سباستيان أن تبدُّلاً تامّاً في ظروف حياته قد يسهم في تغيير فكره. لقد تركت فرنسا في سنٍّ مبكرةٍ ودرست في إنجلترا، وقد يكون خلاص ابن أختك المسكين في فعل الشيء نفسه. إن إرسال جوليان إلى إنجلترا مجازفة مالية، لكن سباستيان عازم على الإقدام عليها. لن نسألك استضافة الفتى في منزلك. (عند هذه الجملة كتب دانييل: «هذا ما تفعلي به فعلاً ولن يمكنني استضافته»). لكن هل يمكنك العثور على عائلة جادّة شروط استضافتها معقولة؟

ها أنا قد أوضحت لك المسألة، وتطلع إلى جوابك. لن يُكلّف سفر جوليان في واحدة من السفن التابعة لشركة سباستيان الكثير. أختك المُحبّة ماري.»

بطريقة ما أبهجني هذا الخطاب المُحِبُّ. وصعدت إلى الطابق العلوي لأرى نيكاً، ذات الأعوام الثمانية.

4

لقد عزمْتُ على ألا تنشأ نيكاً مثلي: فتاة يفصلها دَرَجٌ عن العالم، وهُوَّةٌ نفسية عميقة عن والديها. إنني لا أنسى أبداً الليلة حيث ساعدتني ميرسي كايث على التسلل إلى الطابق السفلي لأرى الزهور تملأ التُّحَفَ المزدانة بها طاولة العشاء؛ والصباح حيث سُمح لي بتناول الإفطار، من قبيل الامتياز، مع أبي وأمي وجرؤْتُ على العبث بالخطابات وجريدة «تايمز»؛ والأمسيات عندما تأتي أُمِّي ترتدي الأبيض، وتقبِّلني قبل ذهابها إلى مناسبات كنت أخالها رائعة. لم يكن ممكناً أن تعيش نيكاً تجربة مثل تلك الأخيرة لأنني نادراً ما خرجت لحضور المناسبات، رائعة كانت أم لا، ولا يمكنني أن أبدو في جمال أُمِّي أبداً. لقد أملتُ أن يمنح وجودي نيكاً الطمأنينة، لكنني كنت واثقة أنه لن يثير حماسها.

هكذا، في صباح ذلك اليوم، كانت نيكاً لتتناول إفطارها معي وتثرثر كال المعتاد، ما لم تكن تتماثل للشفاء من الحصبة. على أن صحتها قد تحسنت الآن بقدرٍ يُمكنني من اصطحابها للخارج.

بينما أٌصعد الدرج انتبهت إلى أنني تطلَّعت إلى اليوم ليس لأنه عيد ميلادي، بل لأن نيكاً ستتذكره مثلاً لا يفعل أحد. لن تشبه قُبَلتها أي قُبلة سألتقَّها اليوم. وستسعد بلحظاته كأنه عيد ميلادها. لن يكون في نظرها محض تاريخ تعرضه الرزنامة، بل عيداً. توقفتُ عند منبسط الدرج أذوق سعادتي. عبر النافذة رأيت أشجار الربيع التي تزدان بزهور الكرز الوردية والبيضاء وتفيض بالعناقيد الذهبية. لم أملَّ منظرها قط الذي لا ينال منه الابتذال أبداً، بل دائماً ما شابته تحولاته معجزة البعث. ثم قلتُ لنفسِي: «انتبهي وإلا فسيؤلمكِ هذا الشعور يوماً ما. ليس من الحكمة أن تفرطي في حب أي أحد، أو أن تحاولي -كما تفعلين الآن- أن تفرضي على ابنتكِ الطفولة التي تمنيتِ عيشها. ستختلف طفولتكِ، حتى لو عشتِها كما أردتِ، عن طفولة

نيكا لأنكما مختلفتان». كانت نيكا جميلة. بالطبع لم ترث جمالها مني، بل من أُمي.

صعدت منعطف الدرج الأخير وفتحت باب الغرفة البيضاء التي يملؤها ضوء الشمس، لكنني لم أجدها هناك. كنت واثقة أن خروجها غير ممكن. لكن قلبي الأحمق خفق بقوة وهتفت: «نيكا! عزيزتي نيكا! أين أنتِ؟».

عندئذٍ قفزتُ فوق ظهري من مكان اختبائها، فانسدل شعرها الذهبي الطويل على كتفيّ، وطبعت شفتاها الدافئتان قُبلاتها على عنقي وأذني. حاولتُ الارتفاع أكثر حتى استطاعت وضع رأسها على كتفي فتقابل وجهانا، وأودعتها عاطفتي في قُبلات حنون كثيرة.

قالت: «أنتِ تمنحينني قُبلاتكِ كلها، لن يبقى منها ما تمنحينه للآخرين». ثم قفزتُ أرضاً وانحنيت تحية لي. بدت وقورا رغم أنها لا تزال في رداء النوم.

قالت: «أتمنى لكِ سنوات طويلة سعيدة جدًّا جدًّا يا أُمي العزيزة. اليوم نحتفل بهذه المناسبة الميمونة».

- يا إلهي! من أين تعلمتِ هذه الكلمة البليغة يا نيكا؟

- من القاموس. إنني أرغب في إدهاشكِ بتعلم كلمة جديدة كل يوم.

أمسكت بيدي تقودني إلى خزانة في إحدى زوايا الغرفة، حيث يتدلى خيطٌ يمرُّ من ثقب مفتاحها.

أرشدتني قائلة: «الآن يجب أن تجذبي الخيط برفق».

أطعتها، فسمعت صوتًا يشبه قرعة الكريستال. سحبته مجددًا كي أسمع الصوت اللطيف.

- الآن افتحي باب الخزانة.

بداخلها كان الخيط مربوطًا إلى سوار فضيٍّ، تتدلى منه أجراس فضيَّة صغيرة. قطعت نيكا الخيط بمقص، وألبستني السَّوار.

قالت: «منذ الآن سيمكنكِ دائمًا سماع سارا راينبرو الصغيرة في قصر الكريستال. هزِّي يدكِ».

هزرت يدي فرنّت الأجراس الصغيرة. صَفَقَت نيكَا وهتفت جذلة: «ها هي! ألا تسمعين سارا الصغيرة؟».

- ماذا تقصدين يا عزيزتي نيكَا؟!

- لقد أخبرتني مرارًا أن والدكِ ووالدتكِ اصطحباكِ إلى قصر الكريستال. كنتِ حينئذٍ في الثالثة من عمركِ.
- أجل...

- إذن كان ذلك اليوم أحد الأيام الخاصة في حياتكِ؛ فيه أجريت زيارة ميمونة. عندما ذهبْتُ إلى المتجر مع العم ميرفن رأيت السَّوار يتدلَّى من عارضة. ولأن الرياح رافقتنا إلى المتجر رنّت أجراس السَّوار القريب من الباب. عندئذٍ قال العم ميرفن: «ما أجمل هذا الدويّ! إنه يشبه قرقعة الكريستال». إذن هكذا يُسمَع دويّ قصر الكريستال من مسافة بعيدة. لقد أصبحت السيدة أندريدج، زوجة مستشار الملكة وعضو البرلمان. لكن عندما تهزّي يدكِ ستسمعين سارا راينبرو في عمر الثالثة.

- أجل، فهمتكِ. شكرًا لكِ يا عزيزتي. إنها فكرة جميلة.

كانت جميلة وفريدة وحزينة. رنّت الأجراس الصغيرة مجددًا، وتساءلت إن كنت سأستطيع أن أحتمل سماع ذلك الرنين بعدما فسرت لي طفلي مغزاه. الآن يفصلني زمن بعيد عن سارا راينبرو في عمر الثالثة، التي تحيط بها الزهور والموسيقى والنافورات. وبدأت فكرة السلام على الأرض والمسرة بحياة البشر أكثر بعدًا. ثم لحظتُ أن يدي ثبتت في مكانها.

قالت نيكَا: «والعجيب أننا ذاهبون إلى قصر الكريستال اليوم».

- لكن يا عزيزتي لا خبر لديّ عن هذا الأمر.

- أجل، إنه سرُّ العم ميرفن. لقد أخبرني أن بإمكانني البوح به لكِ صباح يوم عيد ميلادكِ. سيصطحبنا إلى هناك في سيارته. هل استقلّيتِ سيارة من قبل يا ماما؟

- لا.

فأجابتنني بكلمة بليغة أخرى من قاموسها قاطلة: «إذن اليوم في هذه المناسبة الميمونة ستعيشين تجربة فذة».

وشرعتُ في القفز مرحًا، مثل طفلة في الثالثة جذبت ميرسي كايث خصلة من شعرها البني الطويل. لقد حدث هذا في يوم عيد ميلاد بعيد أيضًا.

5

لم يوجد ما يخصُّ ميرفن ولا ينال إعجاب إنيد، لكن تلك السيارة لم تعجبها. لقد اشتراها ميرفن في فرنسا، ولم يقدها سوى بضع مرات مسافات قصيرة في الصباح الباكر أو آخر الليل. لقد بلغ هذا التطور الكبير الجرائد. نُشِر أن السيد ميرفن موستن-لويد، «مالك المركز التجاري في غربي لندن»، واحد من أكثر الرجال العصريين. لقد أضاءت الكهرباء «المركز التجاري»، وأصبح من الممكن «الاتصال به تليفونيًا»، مثله مثل منزله الواقع في ميدان هانوفر.

وصل ذلك الاختراع الأخير إلى منزلنا في تشيلسي. لقد انضمنا إلى «شبكة الهاتف» منذ بداية العام. وبعدما تركتُ نيكاً في غرفتها لترتدي ثيابها رنَّ جرس الهاتف، وكان ميرفن المتَّصل. قدَّم لي اعتذاراته آسفًا لأننا لن نستطيع الخروج في سيارته. قال إنه قد علّق في شارع بالقرب من ميدان هانوفر الليلة الماضية. ولا تزال السيارة هناك، يحيط بها جمع من المُعجَّبين. أسفلها ميكانيكيٌّ يقف بجواره ضابط شرطة يحافظ على النظام. أأمانع في الذهاب إلى قصر الكريستال في عربة مستأجرة؟ عندئذٍ سيتسنى له إحضار إدوارد لأن إنيد لا تسمح للصبي بركوب السيارة أبدًا. إن ما حدث مؤسف لأنه كان يتطلع إلى أول جولة حقيقية له بالسيارة.

عندما وصل بعد موعد الغداء قال: «نالت إنيد فرصة لإثبات خطئي، إذ إنني حالما عدت إلى إنجلترا بعت الخيول».

- هذا تصرف يستند إلى حديث تام.

- لا، على الإطلاق. إنه تصرف منطقي. لقد تطورت وسائل النقل. ستواجهنا بعض المشكلات في البداية. لكنها ستُحلُّ خلال خمسة أعوام

تقريبًا. وبعد عشرة أعوام ستصبح الخيول من الروائع التي ترينها في حدائق الحيوان فقط.

طالما أبدى اهتمامًا كبيرًا بالاختراعات الجديدة وكيفية عملها، لكنه لا يبتكرها. كان عقله ميكانيكيًا لا مُبتكرًا. حالما يشرح له أحدهم واحدًا من المبادئ الميكانيكية يفهمها أتمّ الفهم، لكنه لا يستطيع التوصل إليها بنفسه. تمكن من إجابة جميع أسئلة الصغير إدوارد حول كيفية إبحار السفن البخارية وسير القطارات، وكيفية عمل المضخات، وما إلى ذلك. وآمن بأن لجميع تلك المكنات التي أدهشته مستقبلاً واعدًا.

- انتظري وسترين يا عزيزتي سارا. تسمح لنا تلك المحركات الآن بالتجول البطيء في أنحاء الأرض. لكن لا يلزمها كثير من الوقت حتى تستطيع أن تأخذنا للتنقل عبر السماء. إن العقل يُحتمّ ابتكار أحدهم مثل تلك المركبات يومًا ما.

لن يكون ميرفن مُبتكرها، لكنه سيدعمها قائلًا «إن العقل يُحتمّ» وجودها. يمكن لهذه العبارة أن تصبح شعار حياته. لا يوجد شيء لا يستطيع العقل فعله باستثناء استخدام اختراعاته استخدامًا رشيدًا. أصبحنا نعرف هذه الحقيقة الآن، لكنها حينئذٍ لم ترد في ذهن أيّ منا.

قصدنا سيدنهام في عربة «فيكتوريا»، وأشرفت نيكّا على إدوارد في زيارتهما الأولى إلى قصر الكريستال مثل امرأة راشدة، رغم أنها تكبره بتسعة أشهر فقط. تناولنا الشاي هناك. شاهدنا جماعة من البهلوانات على حبال عالية يؤدون استعراضات جعلتني أشعر بالغثيان. أصرّ الطفلان على المكوث حتى يحل الليل، كي نرى عروض الألعاب النارية تتوهج إزاء السماء القاتمة. وقد انتهت بعرضٍ يصوّر مشهدًا من معركة، حيث علا الضجيج واشتد التوهج على نحو جعل رأسي يدور. لم أشعر أن ذلك المكان هو قصر الكريستال الذي أعرفه. لقد شُيد في مكان جديد على طراز مختلف، بحيث شابه مدينة ملاء مبتذلة. لم أرَ ملكة أو دوقًا. لم تختبئ العصافير في أشجار الدردار المجاورة للنافورات ذات القباب المائية اللامعة، وسط موسيقى الأرغن التي تثير العاطفة. لم يتحدث أحد عن السلام. أما المكنات التي كانت لتجلبه بإعجاز،

فقد غادرت خزانات العرض الكريستالية، تزحف بيننا هنا وهناك، مثل سيارة ميرفن المعطوبة التي لن تظلّ كذلك طويلاً.

بينما أنا جالسة هناك مع نيك وإدوارد المشدوهين بتلك الأعاجيب المتّقدة، يقبض كل منهما على إحدى يديّ حماساً، بدأ رأسي يؤلمني. وأدركت، منذ تلك اللحظة، أن ذلك البناء لم يعد قصر الكريستال. لقد اختفى قصري وأصبح حلمًا؛ فقاعة لامعة تباعد طافية فوق جدول ذاكرتي التي، لا شك، ستُحَرَّف ذكراه شيئًا فشيئًا بمرور الأعوام، حتى لن يبقى في ذهني سوى بعض وهم ربما لم يحدث قط، بل تصوّرت تلك الطفلة ببراءتها الحاملة.

انتهت المعركة المتوهجة في انفجار أخير، وسرّني أن لحظة المغادرة قد حانت.

قال ميرفن: «يجب أن نعثر على عربة مستأجرة أخرى. كم هذا مزعج! لكن انتظري يا عزيزتي سارا. خلال بضعة أعوام سأستطيع إعادتك إلى المنزل بسرعة فائقة».

فكرت: «لا، لن تفعل. لن تُقلّني من هنا لأنني لن أرى هذا المكان مجدداً أبداً». ولم أره مجدداً قط بالفعل.

اتصل دانييل بي ليخبرني أنه لن يأتي على العشاء. رافقت نيك إلى فراشها، قبلتها، وتمنيت لها ليلة سعيدة. كانت مرهقة. جلست بجوار سريرها أمسك بيدها حتى يغلبها النوم، فقالت ناعسة: «لا تكوني تعسة يا أمي العزيزة».

سألته متفاجئة: «ما الذي يجعلك تظنين أنني تعسة يا عزيزتي؟». فتحت عينيها ولم تجب سؤالي، بل قالت: «يحسن بك ألا تشعرني بالتعاسة». ثم غلبها النوم.

عندما نزلت إلى الطابق السفلي سمعت رنين الهاتف. أسرع كي أجيبه لأن الخدم يخشونه كأنه ملعون.

سمعت امرأة تقول: «هل السيد أندريدج موجود؟».

- لا.

قالت بنبرة أمرة إذ ظننتني خادمة: «انقلي له هذه الرسالة من فضلك».

- معك السيدة أندريدج.

تلعثمت المرأة صاحبة الصوت الجميل، التي كنت واثقة أنها أكثر جمالاً. قالت: «أستميحك عذراً. الأمر لا يهم». وضعتُ سماعة الهاتف ووقفتُ أحدّقُ إليه لحظات. ففكرتُ أن الأمر لا يهم. لا يهم كثيراً حقاً. لقد توقعت حدوثه، والآن أصبحت على علم به.

6

تناولت العشاء وحدي، وهو أمر ليس من المُستحسن أن يفعله المرء في يوم عيد ميلاده. كان ممكناً أن أخرج مع ماجي ويل، أو أن تأتي لزيارتي. لكنها لم تكن في المدينة. بعد العشاء ذهبت إلى غرفة الجلوس حيث أوقدت المدفأة لأن الليلة كانت باردة. لقد أصبحت تلك الغرفة لي فقط، لأن دانييل عندما يكون في المنزل يروقه العمل في مكتبه بعد العشاء ما لم نستقبل الضيوف. لكننا قلماً استضفناهم. كان يعلم أنني أمقت التجمعات التي تهدف إلى تحقيق المصالح لا الإيناس، لهذا اجتمع بمصالحه في الخارج. ربما قد خذلته، فأنا بالطبع لم أبال بما أصبح شغل حياته الشاغل.

جلست في مقعد بجوار المدفأة أسترخي. لاحظت أن الصداق الناجم عن فرقة الألعاب النارية يزول. كان هذا غريباً. توقعت أن تُفارق المكالمات التليفونية شدته، لكنه تحسّن. من الغريب أنني شعرت بالارتياح. كنت أعلم منذ مدة طويلة أن الواجب وحده أصبح ما يجمع بيني وبين دانييل. لقد تساءلت إن كان قد عثر على رفقة في مكان آخر، والآن أصبح التساؤل يقيناً. بالطبع لا يرى أيُّ محامٍ في الصوت الذي سمعته في الهاتف دليلاً يؤكّد توقُّعي، لكنه يكفيني. وبعد لحظات قليلة من صدمة الحقيقة، انتبهت ببعض التسلي إلى أنني استعدت هدوئي التام.

كنت أعني أن هوى دانييل سياسي، أيًا كان ظنُ السيدة ذات الصوت الجميل. لم يكن ليسمح لشيء، حتى هي، بأن يعرقل جهوده في الحفاظ على منصبه. في الأيام الحالية حيث أكتب هذه الكلمات، لا يؤثر الانخراط في دعوى طلاق على مراكز الرجال. لكن الأوضاع كانت مختلفة حينئذٍ. ولعبتُ فضيحة السير تشارلز ديك دورها في تقديم العبرة لغيره. لقد سمعت نقاشاً حولها في

إحدى حفلات العشاء السياسي القليلة التي حضرتها، إذ قال دانييل إن السير تشارلز ديك أحمق. كنت واثقة أن دانييل وسيدته يلزمان الحذر. وأن وجودي ضروري كواجهة. لكنني لم أمانع في ذلك؛ لقد قام جدار يفصلني عن دانييل منذ مدة طويلة. ثم لاحظت في ذهني الأفكار التي راودتني في قصر الكريستال اليوم تطرد هذه الأفكار، في إشارة إلى أنها أقل أهمية.

قبل عهد بعيد، بعد موت أمي، وصل إلى تريسانت اللوحة التي طلب اللورد بيرندج رسمها لها. لم يستطع النظر إليها. لم يفتح قط الغلاف الذي احتواها. وطلب من ويلي الاحتفاظ بها في كوخها. عندما جدّد جاستن تريسانت علّقت تلك اللوحة في غرفة الجلوس. والآن أصبحت هنا في الغرفة حيث أجلس. لقد أهدتها سالي إليّ.

سطع ضوء النيران على وجه أمي ذي الجمال الأسر، الذي ينظر إليّ من بين الظلال. لم تكن قريبة مني، أو عزيزة عليّ، أو حاضرة في حياتي مثلما كنتُ لنيكا. لكنها رافقتني في ذلك الصباح البعيد، الذي تُلح لحظاته المشرقة في الطواف بخيالي. حينئذٍ شعرت بأنني مثل النبي موسى عندما وقف على جبل «الفسجة» ينظر إلى أرض الميعاد التي يتطلع إلى دخولها. لكنها لم تكن أمامي مثله، بل خلفي في الماضي. يوم افتتح القصر كانت أمي معي، لكنها ماتت. مات الدوق والأمير الذي سار مع الملكة وسط النافورات. ووالدي، الذي وفق بجانب يمسك بيدي، مات أيضًا.

لم يُنر الغرفة سوى ضوء المدفأة. عندما حرّكت ذراعي ذات السّوار الذي أهدتني نيكا، بدا رنين الأجراس الفضية بعيدًا، كأنه يأتي عبر سنوات ضائعة، بالكاد أسمعُه وسط حسيس النيران.

من الغريب أن موت والدي هو ما أعادني إلى حياته. لا شك أن الجرح الذي نال من كبريائه عندما تركته أمي كان عميقًا. لقد بلغت الآن من العمر ما يُمكنني من فهم شعوره. لم يحاول التواصل معي أو معها قط. ولم أعلم بوفاته حتى راسلتني شركة مستشارين قانونيين يطلبون مني زيارتهم، وأعطوني نسخة من وصيته. ورثت السيدة إيلا كاستيلو عشرة آلاف جنيه والمزمل الذي عاشت فيه. نال السيد جون كاستيلو، الذي استنتجت أنه ابنها، هدية سخية قيمتها خمسة آلاف جنيه. وأوصى للخدم ببعض الإرث.

كانت تلك المعلومات القليلة الثانوية هي كل ما حظيت به من ضوء لرؤية الحياة التي عاشها والذي خلال الأعوام الفاصلة بيننا. كان منزل السيدة كاستيلو يقوم في «بينر». ليس من الصعب الوصول إليه، لكنه بعيد عن المتطفلين.

شكّلت تلك المبالغ جزءًا يسيرًا من ثروة كبيرة كنت أنا وريتشارد المنتفعين الوحيديين بها. لا شك أن والذي علم بزواجي إذ ذُكرت في الوصية باسم سارا أندريدج، لكنه لم يعلم بوجود ريتشارد. رغم ذلك فقد ذكره في وصيته، إن وُجد، بصفته «الابن الأكبر للسيدة سارا أندريدج المذكورة». بدا من الغريب والمثير للشفقة أن يتخذ هذا الرجل قرار نقل ثروته لابنة لم تعن له شيئًا، وحفيد لم يتأكد من وجوده قط. لكنه كان رجلًا يرى أن من أهداف الحياة الرئيسية مراكمة المال وتوريثه العائلة. حتى إن الضربة المُشوِّشة التي تلقّاها مفهومه عن «العائلة» لم تكن قوية بما يكفي لتغيير ذلك المفهوم المُميّز لعصره.

لم أكن أملك كثيرًا من المال حتى ذلك الحين. لقد تقاضيت أجرًا من عملي مع ويلي وسعدت بكسبه. ثم تزوجت رجلًا ميسور الحال زاده نجاحه في عمله ثراءً. والآن أصبحت ثرية مُستقلةً فوق دانييل ثراءً. لكن هذا التطور لم يُحدث أي فارق في حياتي. فُكرت أن ريتشارد عندما يبلغ سنَّ الرشد سيصبح ثريًا مُستقلًا أيضًا. كان كبيرًا بما يكفي لاستيعاب هذه الأمور، وقد حدثته عنها هنا في هذه الغرفة مُسبقًا.

في جلستي بجوار المدفأة في تلك الليلة تذكرت اليوم حيث جلس الفتى الطويل الوسيم يستمع إليّ بانتباه شديد أخبره أن رجلًا لم يعرفه قط، ونادرًا ما سمع عنه، قد دفعه اهتمامه بـ «استمرارية» العائلة -رغم أن حياته العائلية الخاصة قد تشتتت- إلى الحرص على أن ينعم حفيده بحياة الرغد عندما يبلغ الحادية والعشرين من العمر. طوال حديثي مع ريتشارد ظلَّت عيناه على لوحة جدّته، ولم أكن في حاجة إلى أن يخبرني بما يدور في ذهنه. عندما انتهيت من الحديث قال: «هل يكفي هذا المال لشراء تريسانت؟».

- ما الذي وضع هذه الفكرة في رأسك يا عزيزي ريتشارد؟

- تعلمين جيداً يا أمي أن تلك الفكرة دائماً ما راودتني. لا أعني فكرة شراء تريسانت، لأنني لم أدرك أنني سأحصل على المال، بل فكرة أنها تخصني. (كان هذا حقيقياً). أرى أن الإقطاعية لا تهم الخالة سالي فهي لا تذهب إليها أبداً. وجدّتي هي الليدي بيرندج. إن عائلة جايلورد هم أسلافي.

قلت برفق: «لو كانوا أسلافك يا عزيزي لما احتجت إلى شراء المكان. كنت سترثه. وفي ما يخص مسألة بيعها فإنني واثقة أنّ الخالة سالي جايلورد (لم يكن ممكناً أن أخبره باسمها دون لقبها!) لو أرادت بيع تريسانت لباعتها منذ زمن طويل. من يملك مكاناً مثل ذلك لا يستطيع التصرف فيه كما يحلو له. تنقيّد الإقطاعيات بالشروط القانونية التي قد يحظر أخذها بيعها». قال بتحدّ: «لا وريث ذكر لتلك الإقطاعية غيري».

تركنا الأمر عند هذا الحدّ ولم نُنهِ النقاش، كما يحدث دائماً.

والآن في غرفة الجلوس بعد زيارتي الثانية إلى قصر الكريستال، أدركت فجأة أن ريتشارد قد يصبح حقاً وريث تريسانت. كانت الإقطاعية ملك جاستن. ثم آلت ملكيتها إلى سالي؛ أخت جاستن غير الشقيقة. لكنني أيضاً أخته غير الشقيقة. إنّ متّ قبلها ألن تصبح ملك ابني؟ لكن هذا الأمر، على أي حال، يستند إلى احتمالات بعيدة ومزعجة. وقد طردته من عقلي عازمة على تغيير فكر ريتشارد. فهو لم يكن مهتماً بتريسانت بصفته مسؤولاً عنها، بل لأن حيازته إياها ستعزّز شعوره بالعظمة.

7

في تلك الليلة سهرت حتى وقت متأخر على غير عادتي. كنت مستيقظة عندما عاد دانييل في الحادية عشرة والنصف. دخل غرفة الجلوس ليتناول بعض الويسكي. ثم جلب كأسه وجلس قبالي بجوار المدفأة.

قال: «هل أمضيت يوم ميلاد سعيد يا عزيزتي؟».

كنت أتقلّد مشبك الزمرد هديته. أجبت: «أجل، أشكر على اهتمامك يا دانييل. لكن نهاية اليوم كانت مزعجة ومرهقة. أتى ميرفن مع إدوارد،

واصطحبني أنا ونيكا إلى قصر الكريستال. أهدتني نيكا هذا السوار البديع. (هززت الأجراس) لكنني اكتشفت حقيقة وهم جديد اليوم. أظن أن هذا ما يعنيه التقدم في العمر: اكتشاف حقيقة الأوهام واحدًا تلو الآخر».

رفع عينيه ينظر إليَّ بحدة، لكنه تمكن من الابتسام وهو يسألني: «ما الذي سقط من القارب هذه المرة؟».

- أصبحت أعتقد أن قصر الكريستال لم يوجد قط.

ارتشف الشراب وقال راضيًا: «أجل، هذا الأمر! لكنكِ أخبرتني بذهابكِ إليه اليوم؟!».

- لم يكن ذلك قصر الكريستال خاصَّتي. لقد خلصت إلى أنه كان حلمًا.

- أنتِ حاملة بالفطرة.

- أتذكرُ الليلة التي أمضيناها في تريسانت، حيث استمعنا إلى قرعة العربات وعلمنا أن جاستن سيغادر صباحًا؟

- أتذكرها جيدًا. لقد نبَّهتِكِ إلى أن الأفكار التي طُرحت عند افتتاح القصر هي محض هراء.

فكرتُ: «أجل. لكنكِ نبَّهتني إليها بلطف، وطمأننتني طوال الليل».

أردف: «أتذكرُ أنني فسرت لكِ الأسباب التي أدت إلى ابتعاد جاستن. أخبرتكِ بصراع السود ضد الهولنديين والإنجليزيين، وأن الأفارقة سيخضعون -لفترة ما- ثم سيتحتَّم على الطرفين، الهولنديين والإنجليزيين، أن يتواجهوا. تتذكرين هذا الحديث؟».

- أتذكره.

- إذن راقبي سيسل رودز وصديقه جيمسون. إنهما يدبران أمرًا سيظهر قريبًا يتعلق بذلك الصراع.

- من يكون سيسل رودز؟

أنهى شرابه، وضع كأسه، ونهض. قال: «أتعلمين يا سارا؟ يجب أن تولي العالم الذي تعيشين فيه اهتمامًا أكبر. أنتِ تزدرين السياسيَّين، أليس كذلك؟».

- لم أكن لأصوغ رأيي على هذا النحو. إنني فقط أرى أن السياسيين
يمضون كثيرًا من الوقت في الاهتمام بالنوع الخطأ من المسائل.
- إنهم يمضون الوقت في الاهتمام بالمسائل الواقعية لا الأحلام الكريستالية.
وإنّ رودز يلعب دورًا محوريًا فيها لهذا من المُجدي مراقبة أفعاله. ليس
من الحكمة أن تكوني غافلة عما يحدث أمام عينيك. سأخلد إلى النوم.
ليلة طيبة يا عزيزتي.

أمسك بيدي، رفعها إلى شفتيه، وقبّلها. كانت تلك الإيماءة من روتينه
المعتاد قبل النوم. عندما أفلت يدي رنّت أجراس نيكارينا حزينًا، ولحظت أن
نيران المدفأة انطفأت.

الفصل الحادي والعشرون

1

في عام 1897 كان دانييل رجلاً رفيع الشأن بما يكفي ليستطيع أن يقول: «إن كنت تريدن مقعداً لمشاهدة موكب «ذا مول» يمكنني ترتيب الأمر». سألته: «ماذا عن ريتشارد ونيكا؟ سيروقهما الوجود هناك».

عند سماع دانييل اسم ريتشارد أظلم وجهه. على الرغم من أنه لم يهتم بريتشارد كما ينبغي، فإنه دائماً ما اغتمّ لأن ابنه ليس من النوع اللائق برجل مثله. كان ريتشارد لا يزال فتى أحلامه سخيفة غير واقعية؛ فتى عادياً مهذباً، لكنه أناني. لا يميزه عن غيره سوى رغبته الشديدة في أن يصبح ذا مكانة بارزة. كنت أعلم أنه لن يبذل أي جهد قط لنيل تلك المكانة، وإن رغبته الشديدة في الانضمام إلى سلاح الفرسان تستند إلى مهارته في ركوب الخيل. لقد حثت دانييل مسبقاً على أن يأخذ تلك الرغبة بعين الاعتبار، لكنه قال ساخراً: «أتساءل إن كان يعرف ما حلّ بالفرسان في حرب القرم. لقد قادهم الجوع إلى أكل خيولهم. صدّقيني يا عزيزتي، إن رغبة السيّد ابننا لا تتعدّى ركوب الخيل في مواكب الاحتفالات، حيث سينتعل الحذاء الطويل وسيقلّد درع الصدر اللامع، وستتمايل خصلات شعر الخيول المضحكة المثبتة إلى قبعته كأنه يُحقّق إحدى أمنيات الطفولة».

لم يغفر دانييل لريتشارد إعراضه عن نهجه، وقد أزعجني موقفه.
قلت: «أتعلم يا دانييل؟ أنت تشبه تمامًا تلك البرجوازية العنيدة المضجرة متصلة الرأي، أقصد أختك ماري».

كان يلقي نظرة سريعة على خطابه على طاولة الإفطار كالمعتاد. نظر إليّ مستاءً، وترك الخطاب الذي كان يقرؤه.

قال: «نيكا (كانت تتناول الإفطار معنا دائماً) إن أنهيت إفطارك أتمانعين في الذهاب إلى غرفتك؟».

غادرت نيكا فقال: «إن عزميت على الشجار معي فلا أريد أن تشهده نيكا». لاحظت أن تعليقي أذى مشاعره عميقاً، بخاسة لأنني لم أقل له شيئاً كهذا من قبل قط. لكنني قد عزميت على أن أدعه يفعل بحياته ما يريد وأن أتصرف كما يحلو لي. على أنني في تلك المرة تحاملت على نفسي مجدداً.

قلت: «أعتذر إن كنت قد أذيت مشاعرك يا دانييل».

- أذيت مشاعري؟ أظنن أن تعليقاً سخيلاً واهياً يفتقر إلى المنطق قد يجرح مشاعري؟

غزت الحمرة وجهه، وبدأ يُشعث شعره.

- ما قصدت قوله هو أن موقفك من ريتشارد يماثل موقف ماري من جوليان. يوجد شيء واحد أراد جوليان فعله، شيء واحد قد يكون شغفه، وقد عزمت على إبعاده عنه. ربما يمكن لريتشارد أن يصبح جندياً جيداً. تجاهل جملتي الأخيرة قائلاً: «جوليان؟! إن اهتمامك بذلك الفتى يقارب

الهوس».

أعدت النقاش إلى حيث أريده أن يكون، إذ قلت: «يبدو أن جوليان كان محقاً وأمه على خطأ، وربما تكون مخطئاً بشأن ريتشارد. أخشى كثيراً إن شعر بأننا نقمعه دون سبب معقول أن يتمرد على جميع القيود عندما يبلغ الحادية والعشرين. سيصبح رجلاً ثرياً في ذلك الوقت».

- ما كان عليه أن يدري بهذا الأمر قط.

كان محقاً فيما قال. وكثيراً ما ندمت على عدم الاحتفاظ بتفاصيل الوصية سرّاً.

أردف: «ثم إنَّ كثيرًا من الشباب يرحَّبون بالقمع إن كان يعني ارتياد مدرسة خاصَّة وتلقِّي تعليم جامعي».

قلت بابتسامة: «هلا نلزم الدعوى التي تتناولها المحكمة الآن؟ نحن لا نناقش حال كثير من الشباب، بل ريتشارد».

نهض يجمع الخطابات قائلًا: «إن عملي شاقُّ بما يكفي ولا ينقصني تشتيت أفكاري وتمزيقها إربًا في الصباح الباكر».

- عذرًا. لم أكن لأعرقل سير الأعمال في «ويستمنستر» عن عمدٍ قط.

كان هذا أقرب ما خضناه إلى شجار. ومنذ ذلك الحين لم أتناقش معه حول هذه المسألة مجددًا. لكن بعد مضي بعض الوقت، عندما سألتني عن حجز مقعدٍ لي في «ذا مول» واقترحت اصطحاب ريتشارد معنا، لم يفاجئني تجهمه. كنت لأسعد حقًا لو كان ريتشارد معي أنا ونيكا عندما رأينا الملكة مجددًا. كانت المناسبة احتفالًا باليوبيل الماسي لجلوسها على العرش، إذ رأيتها للمرة الرابعة في حياتي. لقد رأيتها للمرة الأولى في ثوبها الوردي الفضي بجوارها الأمير، تسير في قصري وسط الأشجار والنافورات والزهور، والموسيقى تملأ الأجواء. حينئذٍ، عندما رفعت بصري إلى الأعلى، استغرقت في النظر إلى السحب التي تقطع السماء الزرقاء، حتى بدا أن السفينة الكريستالية نفسها انطلقت في رحلة سماوية إلى فردوسٍ عُرفَ موضعه، إذ تعدُّ أنغامُ الترانيم بمجدٍ أبديٍّ ينتظرنا جميعًا: الملكة والأمير، الدوق والعصافير، حتى الصغيرة سارا راينبرو. رأيت الملكة للمرة الثانية في سيدنهايم عند افتتاح القصر هناك. وقبل عشرة أعوام نهضتُ أنا والآلاف معًا في مهابة وسكون، إذ تسير الملكة على مهل في ممشى كنيسة «ويستمنستر»، ذات السقف الداكن الذي يحجب السماء كابحًا المخيلة وأوهامها السخيفة. مرَّت الملكة بالقرب مني؛ امرأةٌ مُسنَّةٌ قصيرة، ترتدي ثوبًا من الساتان الأسود صدره منقوشٌ بالأبيض، وتعتمر قلنسوة بيضاء ذات قاعدة من المخمل الأسود. كانت من القرب إليَّ بحيث سمعت دقَّ عصاها الأرض وصوت أنفاسها. حينئذٍ بدا لي أن اتشاحها بالأسود يُوحِّد قلبينا حدادًا على ذلك الصباح، الذي يبدو مُمعنًا في البعد الآن، حيث بدا كل شيء ممكنًا في وجود زوجها الأمير، الذي دُفن مع الآمال العريضة عميقًا أسفل التراب. كانت تلك هي المرة الثالثة، إذ أُقيم

الاحتفال بيوبيلها الذهبي. والآن حان موعد الاحتفال بيوبيلها الماسي حيث سآراها للمرة الرابعة.

أجابني دانيال: «أرى أن من الأفضل أن يظلّ ريتشارد حيث يكون. يجب أن تصبح دراسته في «بالول» محور اهتمامه. لن ينفعه الانشغال عنها بأتفه الأسباب».

- لا أظن أن أكسفورد في يوم الاحتفال باليوبيل الماسي ستبرهن على ولائها للملكة بالانشغال الأساتذة الجامعيين في العمل.

لكن دانيال حسم الأمر قائلاً: «خُصّص لي أربعة مقاعد وهذا كثير. لقد أهديت اثنين منهم بالفعل، والباقيان لك. لا بأس في ذهاب نيكاً».

2

استيقظنا مبكرًا إذ لا يزال الندى يرطّب الصباح، لكن سرعان ما ستجفّف شمس منتصف مايو. صعدت الدرج وأنا أتأمل الجو لأجد طفليتي جاهزة. عندئذٍ عدت إلى عادتي القديمة، إذ أستوحي الاستعارات من كلماتي. وفي تلك المرة أنشأت استعارة بليغة بما يكفي: لقد شعرت حقًا بأنني جافّة قاحلة وأنا في طريقي إلى ابنتي النديّة.

قلت: «نيكاً! لا بد أنك استيقظت فجراً لتكوني جاهزة بهذه السرعة!».

- لم أستيقظ مبكرًا بما يكفي مثلما اعتادت الأنسة ويل الاستيقاظ.

أحبّت ويلي نيكاً وأمضت ساعاتٍ في الحديث معاً. فكّرت أنني كنت أقارب نيكاً عمراً عندما بدأت ويلي تراقب سلوكي الغريب في تريسانت، والحيل التي ابتكرتها للتخلص من نظارتي. لم تكن نيكاً في حاجة إلى تلك الحيل السخيفة لجذب الانتباه. الآن في الثانية عشرة أصبحت آنسة طويلة رشيدة القوام. مشّطت شعرها لتلمع خصلاته الذهبية حول وجهها البيضاوي. كانت عيناها رماديتين جادّتين. ارتدت ثوباً رمادياً داكناً ذا مسحة زرقاء، ولفّت حول خصرها نطاقاً من شرائط زرقاء داكنة تنسدل من الخلف حتى قدميها. وكان حذاؤها فضياً.

قالت: «أحياناً استيقظت الآنسة ويل في الرابعة صباحاً. كانت تعيش في الريف مع والدها، وتستطيع الخروج من الباب الخلفي إلى الحقول مباشرة. وسط الندى البارد سارت على العشب بلا حذاء تجمع الفطر. جمعت التوت لتصنع المربى لوالدها، وأحياناً اللسان لتصنع النبيذ. لا شك أنها كانت فتاة عملية. أريد أن أصبح فتاة عملية لا أضيع وقتي في الهراء، مثل الآنسة ويل».

- حسناً، هيا لنتناول إفطاراً عملياً. سنمضي وقتاً طويلاً في الخارج.

- لكنكِ لم تقبليني.

- إنني أحاول أن أتحدى بالعملية. أردت ألا يتغضن ثوبك.

ركضت نحوي فعانقتها بقوة. قالت: «لا تبالي بالثوب أبداً، فالمملكة لم تذهب لتراني. أتساءل من ستري؟! سيحضر الاحتفال جنوداً، وفرق موسيقية، وأمراء، وأميرات. لكن الجموع لن تبالي بهم، إذ إنهم جميعاً يرغبون في رؤية الملكة. ستجذب الأنظار مثل المغناطيس، رغم أن الآنسة ويل تقول إن هذا التشبيه مبتذلاً. لكن عندما يذهب الجميع لرؤيتكِ ماذا قد ترين؟

- أظن أنها ستري الدوق والأمير ألبرت الراحل والعصافير في القفص الكريستالي. ستري التمرد الهندي، والجنود الراحلين في حرب القرم، الذين كانت جثثهم من الكثرة فألقيت مع الخيول النافقة في ميناء بالاكلافا. يوجد الكثير لتراه.

- أجل، أظن أن المرء عندما يتقدم في العمر يصبح مثل «المعرض الوطني» الذي اصطحبتني إليه الآنسة ويل؛ يمتلئ بالآثار بحيث تحتارين إلى أين تنظرين. كم عمرها؟

- في السابعة والثمانين.

- أنا في الثانية عشرة بالفعل. إن ستة أمثال الثانية عشرة تعادل اثنين وسبعين. يلزمي فقط ستة أمثال ما عشته لأقاربها عمراً. (تنهدت) مهما طال حياة المرء تظل قصيرة، أليس كذلك؟

- إنها تطول بما يكفي معظم الناس. هيا لنتناول الإفطار.

كانت الساعة السادسة وتناولنا الإفطار وحدنا. لم تُثر تلك المناسبة اهتمام دانييل. كان قائد حزبه أهم لديه من الملكة، وسيستيقظ في السابعة

كي ينجز عمله كما ينبغي. لقد اعتاد القول: «لا أريد أي مُنْغصات تعوقني عن إنجاز عملي كما ينبغي».

غادرنا في السابعة، وفي الثامنة استقرينا في مقعدينا في «ذا مول». في ذلك اليوم الصحو سطعت الشمس، ارتدت الأشجار حُلَّة الصيف، وساد العالم -عالم لندن الصغير في يوم اليوبيل الماسي- البهجة والحيوية. كان في تلك المناسبة احتفاءً بالإمبراطورية. ملأت الجموع الطريق إلى قصر «باكنجهام» وقصر «كارلتون»، تنخرط في الهتاف والغناء بحماس وثقة كأن كل فرد منهم قد أنشأ تلك الإمبراطورية بجهوده الخاصة. بينما أنا جالسة هناك، بجواري نيكاستمتع بالأجواء في هدوء، تأملتُ شؤون الإمبراطورية، بخاصة سيسل رودز وصديقه جيمسون، الذي أخبرني دانييل قبل وقت ليس بالطويل بمراقبة أفعالهما. قبل عامٍ سُجِنَ جيمسون لقيادته غارةً على جنوب أفريقيا دون إذن الملكة، رغم أن تلك الغارة مثَّلت بعضَ جهوده في بناء الإمبراطورية⁽¹⁾.

على أنني كنت واثقة أن لا أحد يتذكر هذا الأمر الآن. ثم سألت نفسي: «ولماذا يتذكرونه بحق السماء؟ كُفِّي عن الشكوك والتساؤلات التي لا تنتهي واستمتعي باليوم».

سألتني نيكاست: «ألا يبدوون مضحكين يا أُمِّي عندما ترينهم مجتمعين في حشود؟».

وجدتُ كُـمَّ بلوزتي. كنت أرتمي ما ارتدته جميع النساء في تلك الفترة: تلك الأكمام الواسعة فوق المرفق، ثم تضيق عند الساعد حتى الرسغ؛ وحزاماً شَدَّ خصري لأبدو مثل الزنبور؛ وتنورة تتسع تدريجياً حتى قدمي. وعلى رأسي قبعة قشبيّة أنيقة تبرز منها بضع ريشات.

(1) كانت غارة جيمستون (29 ديسمبر 1895 - 2 يناير 1896) بقيادة ليندر جيمسون، وتخطيط من سيسل رودز رئيس وزراء مستعمرة «كيب» في تلك الفترة، محاولة للإطاحة بنظام بول كروجر رئيس جمهورية جنوب أفريقيا (ترانسفال)؛ إحدى جمهوريات البوير التي أسسها الناطقين بالهولندية في المناطق الوسطى والشمالية والشرقية من «جنوب أفريقيا» الحالية. تضمنت الخطة إحداث ثورة يقوم بها العمال الإنجليز في الجمهورية. لكنها باءت بالفشل وكانت من الأسباب الرئيسية لاندلاع حرب البوير الثانية. م

الآن أرى المرأة تصعد درجات المدرج نحونا، إذ كنا نجلس في أعلاه. أعتقد أنني لا أزال أتذكر صيحة الملابس الرائجة في تلك الفترة لأن ثيابها ماثلت ثيابي. علقت مقبض مظلة أرجوانية بساعدها الأيسر، ورفعت بيدها اليمنى تنورتها بعيدة عن الأرض، كاشفةً عند قدم جميلة.

قالت مبتسمة لي ولنيكا: «هل يمكنني المرور؟».

نهضنا فمرت امرأة تكبرها عمراً أولاً. ثم جلستا في المقعدين بجوارنا، بحيث أصبحت على يميني ونيكا على يساري. لاحظت مروحة تتدلى من سلسلة فضية طويلة التفت حول عنقها. حالما جلست فتحتها وأخذت تروح بها بقوة. ثم التفتت إليّ قائلة: «يا له من يوم! يا للزحام الشديد!».

عندئذٍ فكرت: «لا يمكنه فعل ذلك! لا يمكنه أن يطغى في خيانتة ويخبرها أنني سأكون هنا. لا يمكن أن يجرؤ على تلك الفعلة!». وأنا واثقة أنه لم يفعل ذلك. واثقة أنها لم تدرك بهويتي. لكنها حالما جلست في المقعد بجواري لم يراودني شك في هويتها. كان جمالها ناضجاً. بدت امرأة في منتصف الثلاثينيات، سمراء وحسنة ومرحة. لم تفارق الابتسامة وجهها، وأحياناً كانت تضحك لتبدو أسنانها المُنمقة، التي يبرز بياضها إزاء شفثيها الحمرابين. كان ذلك الفم جذاباً، كانت تفيض جاذبية.

بين الفينة والأخرى، منذ أن تحدثت إليّ على الهاتف، كانت تخطر في بالي وأحاول تصور هيتها. لقد راودني أمل يائس في أن أكون مخطئة في ظنّي أنها امرأة جميلة. وتمكنت من ألا أسمح لوجودها بإزعاجي عميقاً. سواء أكانت جميلة حقاً، أم تشبه إحدى الفتيات الطائشات الصاخبات اللواتي يراهن المرء على دراجاتهن في المتنزه، أو إحدى النسويات العصريات ذوات العقول التي لا تهدأ والأفواه اللاذعة التي لا تتوقف عن الكلام، فإنها ظلت بعيدة عني لأنني لم أدر عنها شيئاً. لكنها الآن ليست بعيدة عني، بل يمس ذراعها ذراعي. شعرت أن جسدي يحترق غضباً. فكرت في أن أبذل مقعدي مع نيكا. لكنني لم أستطع فعل هذا أيضاً، لأن فكرة مسّها نيكا أثارت نفوري. رغم شعوري هذا فقد أدركت أنني لا أنصفها. لم تكن مُنفرة على الإطلاق، بل أحاطت بها هالة من البهجة واللطف. وربما أحبته مثلما أحبته يوماً، إذ إنني لم أعد أستطيع أن أشعر نحوه بشيء سوى الشفقة.

رغم تلك الأفكار العقلانية فإن عقلي لم يحكم سيطرته على جسدي. شعرت بأعصابي توخزني سُخْطًا، وشعرت بمعنى الآية: «صَارَتْ قُوَّتِي كَالْمَاءِ، وَانْحَلَّتْ عِظَامِي».

ملأت الأجواء موسيقى الفرق العسكرية، وأشعة الشمس، ومرح الجموع. انبسطت أمامنا قبعات النساء ذات الريش، والحرير الأزرق والأخضر والأبيض والبنفسجي، وقبعات الرجال الطويلة. انخرط الحضور في الثرثرة بحماس. علت الثرثرة من طريق «ذا مول» نفسه تقطع الأرض المغطاة بالرمال إلى القصر. لقد أمضت الملكة ستين عامًا على العرش. ستين عامًا منذ أن قالت: «سأضطلع بالمسؤولية»، وألزمت والدتها دوقة «كنت» حدّها، حتى هذه اللحظة المشمسة الحارّة حيث ستأتي متّشحةً بالأسود لا شك، يدور كثيرٌ من الذكريات السيئة والجيدة في ذاكرة رأسها الأشيب.

فجأةً سكنت الثرثرات، كان سكونها تامًا بحيث استطعنا سماع تغريد طيور السمامة التي تحلّق فوق المنطقة. ثم علت الموسيقى مجددًا وصاح أحدهم: «إنهم قادمون!».

قال أحد الرجال في مُدْرَجنا بصوتٍ حادّ: «هلا تخفضن المظلات يا سيدات؟». ومثل الزهرات التي تنكفي على نفسها ليلاً تضامّت بتلات المظلات الرقيقة وتوارت عن الأنظار.

التفتت إليّ وهي تقول بابتسامة: «إننا محظوظات. يمكننا ترك مظلاتنا مفتوحة هنا إذ نجلس في القمة. لن نعيق أحدًا عن الرؤية».

ثم حدّثت المرأة الكبيرة على جانبها الآخر: «خذي المظلة يا أمي. لا شك أنك تشعرين بالحرارة العالية».

- لا، شكرًا لك يا عزيزتي بيرل. أنا على ما يُرام. لا تشغلي نفسك بأمرٍ. كانت عازمة على ممارسة اللطف، فقد سألتني: «ماذا عن الأنسة الصغيرة؟ (ثم مالت أمامي تسأل نيكًا) هل أنت مرتاحة يا عزيزتي؟ هل ترغبين في استعارة مظّلتني؟».

أجابتها نيكًا: «لا، شكرًا لك يا سيدتي. أستطيع أن أراهم! إنهم قادمون! أرى جنديًا على صهوة فرسٍ رماديٍّ!».

كان هذا اللورد روبرتس يحمل عصا المارشال. تبعه أفواجٌ من الضباط على خيولهم البهيّة. اتّضح أن الرجل ذا الصوتِ الحادِّ أحدَ الإنجليزيين، الذين يرون أن الهدف من حياتهم هو إنارة الأذهان، إذ أخذ يُعلّق بإيجاز على الأحداث. ها هم الفرسان الكنديون... هذا هو رئيس الوزراء الكندي في عربته... الآن تدخل الوحدة العسكرية الممثّلة لـ «نيوساوث ويلز»... الماوري هم أولئك الجنود السُمر... إليكم الفرسان الرُماة لمستعمرة «كيب».

استمر الحال على هذا المنوال: تطلق الحوافر، يضجُّ المكان بالموسيقى والحركة والألوان، فوقنا شمس حارقة؛ وتعلو هتافات حماسيّة على الطريق، يقابلها اهتمام وقور هنا على المُدرّج. الآن وصلت العائلات الملكية، وكان ذو الصوتِ الحادِّ يحفظ «*Almanach de Gotha*»⁽¹⁾ مثل قائمة ضباط الجيش. هذه هي الأميرة الصغيرة إينا... الآن يصل أمراء «الدنمارك»... «هانوفر»... «تِك»... «بلغاريا».

مرّ موكب الأمراء في عربات «لانداو» الفاخرة المكشوفة، تجرّها خيول تطرح رؤوسها عاليًا وتُبَلِّل الشكائم بلُعابها. قلت: «لن أستطيع احتمال الأمر. إلى متى سيدوم؟».

كانت تتشَمَّم زجاجةً تحتوي على أملاح الأمونيا المُنعِشة. قدّمتها لي، لكنني هزّزت رأسي رفضًا.

قالت: «يا لهم من مساكين! اليوم حارٌّ جدًّا. إن السلطات الملكية تعمل بجدٍّ، أليس كذلك؟».

لقد نُشِر في جريدة «تايمز» أن جلالتها ارتدت ثوبًا من الحرير الأسود مزركشًا بالدانيل، واعتمرت قلنسوة تطابقه، وحملت مظلة. كُتِب أيضًا: «جلستُ قبالتها أميرة «ويلز» وصاحبة السمو الأميرة كريستيان. قاد كلٌّ من دوق «كونوت» ودوق «كامبريدج» فرسيهما، الأول على يمين عربة جلالتها والثاني على يسارها. سبق العربة فيكونت ولزيلي بصفته قائد القوات المسلحة البريطانية. وخلفها مباشرةً حمل أحد فرسان الحرس الملكي الراية الملكية عاليًا».

(1) دليل العائلات الملكية وطبقة النبلاء في أوروبا. م

لا شك أن ذلك المشهد كان مهيباً، وأظن أنني رأيت بعضه، لكنني لا أتذكر أي شيء منه. لقد مثلَ اجتماع ذروة الإمبراطورية البريطانية وهي في طريقها إلى الكنيسة. لكن ما الذي كانت تعنيه الإمبراطورية البريطانية لي حينئذٍ؟ وفي غمرة تلك اللحظة البارزة أملت المرأة بجوارِي مظلّتها، فحجبت قسماً من مجال رؤيتي. لكنني كنت من الإرهاق بحيث لم أقوَ على سؤالها إبعادها. وعندما تنهد الحضور بعدما شاهدوا ذروة المجد، فقدت نيكاً الوعي.

حلَّ الهدوء فجأة. في الأسفل تقدّم الحشد إلى الأمام مثل أمواج المدّ على الرمال الصفراء. في المدرّج نهض الرجال وأخذوا يتمطّون، وأشرعت النساء مظلّاتهن طارداً أشعة الشمس الملتهبة.

- ظلّليها بمظلّتك يا عزيزتي بيرل. الحرارة شديدة ولا يمكن احتمالها. وقفنا نحن الاثنتان نشرف على نيكاً! أحطتها بذراعيّ فيما المرأة تظلّلتها من الشمس. تنسّمت رائحة رقيقة تعبق بها، لكن رائحة زجاجة الأمونيا التي وضعتها أسفل أنف نيكاً سرعان ما طمستها. أخذت المرأة الكبيرة المظلة فأمسكت تلك المرأة المدعوّة بيرل الزجاجة بإحدى يديها، وبالأخرى أشرعت المروحة التي تتدلي من السلسلة الفضية، تروّح بها على وجه نيكاً. قالت: «يا للصغيرة المسكينة! كم تبدو جميلة! أمل أن تكون قد رأت الملكة قبل إغمائها. كم عمرها؟».

لم تتوقع، في ما بدا، إجابة ولم أجبها. ثم مسدتُ جبهة نيكاً بأصابعها الطويلة، وقالت: «ها هي تفتح عينيها!».

سرعان ما استجمعت نيكاً قواها. نهضت ومَرَّرت كفها على وجهها. قالت المرأة المدعوّة بيرل: «لقد غُشي عليك يا عزيزتي. هل رأيت الملكة؟». أومأت نيكاً دون حديث. بدت واهنة لكنها تتعافى. وبدأ القلّة من المتعاطفين والفضوليين الذين تجمّعوا حولنا يبتعدون.

قلت إذ يفرغ المدرّج من شاغليه: «شكراً لك على عونك. ستصبح بخير الآن. سأخذها إلى ظلّ الأشجار».

نهضت نيكاً وابتسمت لتلك المرأة. صافحتها فشدت المرأة على يدها طويلاً، ووقفنا تتبادلان الابتسامات.

قالت نيكاً: «شكراً لك يا سيدتي. لقد رأيت الملكة حقاً».

ثم مدّت المرأة المدعوّة بيرل، التي لن أنسى اسمها أبداً، يدها إليّ. نظرتُ للمرة الأولى إلى عينيها، اللتين يتبدّى فيهما الصدق واللفظ. ورأيتُ الامتناع فيهما عندما أدركتُ، لسبب لم تعرفه قط، أنني أقابل بادرتهما على مضض. لكنها لم تسحب يدها، فصافحتها وأجبرت نفسي على الابتسام قائلة: «شكراً لك. رجاءً لا تكلفني نفسك مزيداً من العناء. سنكون بخير».

غادرتُ مع المرأة الكبيرة. وهبطتُ الدرج ببطء تستند نيكاً إلى ذراعي حتى وصلنا إلى ظلال الأشجار.

قالت نيكاً: «أليست امرأة رائعة؟ أمل أن أصبح امرأة رائعة مثلها عندما أكبر».

- تقصدين الملكة؟

- لا، أنا لم أرَ الملكة. لكن تلك السيدة أرادت بشدة أن أكون قد رأيتهما. لهذا لم أريد أن أخيب آمالها.

- أجل، يبدو واضحاً أنها سيدة لا يريد أحد أن يخيب آمالها.

3

لقد رأيت السلسلة الفضية تتدلى من عنقها والمروحة في نهايتها. لم أرَ من قبل امرأة تفعل ذلك، إذ لم يكن من المعتاد أن تُثبت النساء مراوحن إلى السلاسل. لم يكن من الصعب الحصول على سلسلة مثلها؛ كان طرازها جميلاً لكنه شائع. يمكن شراؤها من أي صائغ للفضّة.

لكن هل يجب أن أفعل ذلك؟ هل يوجد أي مغزى، أو طائل، من الإخلال بالتوازن الوقور الذي أدركنا به أنا ودانييل حياتنا؟ إن تقلّدت في وجوده مروحة تتدلى من سلسلة من ذلك الطراز فسأخبره دون كلمات: «الآن ترى. أنا لا أعلم بوجودها فقط، بل وأعلم من هي».

لم أحبّذ المبالغة في تدليل نيكاً لأنني عرفت في نشأتي بعض التدليل والإهمال. ولم أريد أن تختبر طففتي أيّاً منهما. على أنني أرسلتها إلى الفراش

عندما عدنا إلى تشيلسي. ليس خوفًا على صحتها، بل لأنها ثرثرت بشأن تلك المرأة بيرل ولم أستطع احتمال الأمر. رغم أنني كنت واثقة أن دانييل لم يخبرها عني أو عن نيك، فقد شعرت بالغضب لأنه جازف باكتشافها وجودنا، ولم تكن تلك المجازفة طفيفة. أمضيت فترة ما بعد الظهر في غرفة الجلوس، حيث حاجب النافذة مغلق ليحجب الحرارة، تشغل فكري جرأته ومجازفته بوضعي في موقف لا يُحتمل.

في صباح اليوم التالي ذهبت إلى شارع بوند، اشترت سلسلة، وثبتتُ إليها مروحة. كان دانييل كئيبيًا عند الإفطار، وقد ظننت خطأً أن شعوره يرجع إلى فقرة قرأها في جريدة ناولها لي عبر الطاولة. لقد وقع كثير من اللهو الصاحب في الطرف الغربي من لندن ليلة اليوبيل الماسي، وشارك في إحداث تلك الفوضى جماعة من طلاب أكسفورد. ألقى القبض على عدد منهم، وكان من بين الأسماء المذكور اقتيادها إلى مركز الشرطة في شارع «فاين»: ريتشارد أندريدج.

لم أستطع ألا أقول: «إذن لم يبقَ في أكسفورد في النهاية! ربما كان من الأفضل أن تمنحه واحدة من تذكرك الأربعة».

فاجأني أثر تلك الكلمات على دانييل. فقد أظلم وجهه، لكنه لم يبدُ غاضبًا، بل يتألم. قال: «ليتني فعلت».

ثم ترك الإفطار الذي وُضع أمامه للتو دون أن يمسه، وغادر الغرفة. في ذلك المساء ارتديت السلسلة ذات المروحة، لكن دانييل لم يرها. لقد عاد إلى المنزل بعدما أويت إلى الفراش. في صباح اليوم التالي قرأنا أن ريتشارد أُخلي سراحه، وأن القاضي مزح قائلًا إن تلك الصببانية من طبع الفتية؛ وإن المعنويات المرتفعة بإفراط، في يوم مميز كذلك، يمكن تفسيرها بالحماسة الوطنية المنشودة.

لم يقل دانييل سوى: «يا للعجز الأحمق!». وظلّ جالسًا في مكانه جامد الوجه، لم يفتح حتى خطابه. فاجأني رد فعله وأقلقني. سألته: «هل أنت بخير يا دانييل؟ هل وقع خطب ما؟».

- ما عساه أن يكون الخطب بحق السماء؟ ألا يمكنني أن أمعن النظر في أفكارى بهدوء؟

- تبدو تلك الأفكار بالغة الكآبة.

حدجني بنظره، وفي نظرته الغاضبة لحظت ألماً. لكنني لم أستطع فهمه. كان بعيداً عني.

نهض ليغادر قائلاً: «سأحضر عشاء الليلة».

- بالطبع يا دانييل. فالليلة نستضيف عائلة هيمينج...

- طلبت منهم ألا يأتوا.

كان ذلك اليوم غريباً ولن أنساه قط. أدت مهامى المعتادة، لكنني كنت أشعر بالغربة، بالضيق. ألقيت على نيكادروسها صباحاً، خرجنا للتمشية ظهراً، وأوصلتها إلى درس الموسيقى. ثم عدت لأصطحبها إلى المنزل سيراً. كان الجو جميلاً. زارتنى ويلي مساءً، وبعدما تناولنا الشاي معا صحبتها نيكاد إلى غرفتها لتخوضا واحداً من أحاديثهما الطويلة. وعندما نزلتا سألتني ويلي: «هل يمكنني أن آخذ نيكاد معي بضعة أيام؟ سنذهب إلى الريف غداً».

كان هذا معتاداً فكثيراً ما اصطحبت ويلي ابنتي إلى كوخ تملكه الآن في «هارتفوردشير». لكن عند مغادرتهما واقتراب موعد وصول دانييل ضحكت ضحكة عصبية، إذ دارت تلك الفكرة في ذهني: «يبدو أننا نجهّز المكان للمواجهة... في البداية ألغيت دعوة عائلة هيمينج... ثم غادرت نيكاد».

كان هذا المنزل، حيث رحلت السيدة جيمستون تقريباً بين ذراعيّ، وحيث أحبّني دانييل وأحبّته، هادئاً على نحو غريب كأنه في إصغاء. سمعت دانييل قادماً. وعندما دقّ جرس العشاء انتظرت دخوله غرفة الطعام قبلي. كانت الليلة حارة، وقد طلبت تحضير وجبة باردة تُترك على المائدة. لقد دفعني الشعور بالضيق إلى إبعاد الخدم. وضعت السلسلة حول عنقي، وعندما دخلت الغرفة كنت أروّح بمروحتي. ثم أقفلت الباب خلفي بهدوء.

وقف دانييل يقابلني ظهره، ينظر من النافذة وكأس الشراب في يده. كان ظهره منحنيّاً كأنه حزين، وعندما التفت أفجعتني رؤية وجهه الممتقع. لقد عزمت على أن أترك له الكلمة الأولى مهما كان ما سيحدث بيننا. لكن عندئذ لم

يسعني سوى أن آخذ خطوة نحوه، وأضع يداً على كتفه، وأقول: «أنت حقاً لا تبدو بخير. ما الخطب؟».

لحظت تقلصاً في وجهه وكانت عيناه غائرتين. حدّق إلى السلسلة والمروحة حائراً، ثم سألني: «كيف لك أن تحوزي هذه؟».

ودون أن ينتظر إجابتي مدّ يده يجذبها بقوة، حتى إن إحدى حلقاتها الدقيقة انقطعت. سقطت المروحة أرضاً، وظلّت السلسلة في يده. نظر إليها غافلاً عن وجودي، يتعمّق الألم الظاهر في عينيه.

سألته: «ماذا دهاك؟ ما المشكلة في ارتدائي سلسلة فضية؟ إنها ملكي. لقد اشتريتها».

نقل السلسلة من يد إلى الأخرى ثم ألقى بها على الطاولة.

قال: «حسنًا. فهمت».

- أتساءل إن كنت تفهم حقاً.

- فهمت. لكنك اخترت لحظة قاسية كي تطعنيني. (بعد صمت طويل أردف) لقد ماتت.

رغم أنني شعرت بالضيق طوال اليوم فقد توقعت حدوث أي شيء سوى هذا.

- آه! دانييل! يا عزيزي!

جلس إلى أحد مقاعد الطاولة في هذه الغرفة، حيث حرصت السيدة جيمستون قبل زمن طويل على أن تجري الاستعدادات على قدم وساق لأنه قادم من أكسفورد، وحاولت أنا وويلي إتمام التجهيزات بسلاسة رغم حماسنا لقدومه، وقتما كان يافعاً مرحاً. لكنه الآن بدا في الستين من عمره كأن حياته تنتهي.

جلست بجواره. كان مرفقه على الطاولة فوق السلسلة الفضية المقطوعة، ورأسه يستند إلى يده.

- أخبرني يا دانييل. أخبرني بما حدث.

- ما الجدوى؟ لقد انتهى الأمر.

لقد انتهت المرأة المدعوة بيرل، الصادقة البهيجة. غابت عن الحياة في لحظة.

كنت في صدمة، قلت: «أخبرني. هذا أفضل لك».

- كيف يمكنني أن أخبرك عنها؟ ما الذي يخولني الحق في أن أخبرك عنها؟

- فقط أخبرني.

- كانت عائدة إلى المنزل مع والدتها. استلقنا عربة هانسوم. ملأت الحشود كل مكان. تسكع الحمقى في الطرقات ينفخون الأبواق، ويلوحون بالخشخيشات، ويقذفون بالأشياء. ألقى أحدهم شيئاً، لا أعرف ما هو، شيئاً أفزع الفرس فاندفع راكضاً. واصطدمت العربة بعمود إنارة. (توقف لحظات عاجزاً عن إكمال حديثه، ثم أردف) لقد كُسر عنقها. ماتت في الحال.

أقدمت على وضع يدي فوق يده، لكنه نهض. وبعد لحظات سمعت وقع خطواته يذرع غرفته في الطابق العلوي. تناولت السلسلة من الطاولة؛ شبيهة ما ارتدتها الراحلة. فكّرت أن دانييل ربما أهداها إليها. لكن هذه الفكرة لم تؤذ مشاعري. لقد كُسرت هذه السلسلة، وكُسر عنق المرأة. فكّرت إن جميع الأشياء قابلة للكسر. لقد كُسر حبي لدانييل منذ زمن بعيد، لكنني، بطريقة ما أجهلها، شُفيت من هذا الكسر. وسيُشفى دانييل من كسره مثلي. أعتقد أن زوال حبي لدانييل من أشد الأمور التي عشتها غرابة. لكنني حقاً لم أعد أحبه. لو كنت أحبه لاختلف شعوري حول هذا الوضع، وحول ألمه. إن قلبي ملؤه الشفقة عليه، وعلى تلك المرأة التي لا شك رُوّعت قبل رحيلها. لكن الشفقة ليست حباً. لقد ابتدع الشعراء كثيراً من الأفكار لم أجدها واقعياً. «ليس الحب ما يتبدّل بتبدّل الأحوال»⁽¹⁾. لقد أحببت دانييل حباً خالصاً، لكن هذا الحب زال. كنت أقرأ أنا ونيكا كتاب «الكنز الذهبي» الذي أهدته ويلي إليها. قرأنا فيه سونيّة مايكل درايتون عن: «الشهقة الأخيرة إذ يلفظ الحب آخر أنفاسه»، وقد أنهاها قائلاً:

(1) بيت من سونيّة شكسبير رقم 116. م

«والآن، إذ الحبُّ يُحتَضَر، إن وددتَّ

قد تبعثين الحبَّ من الموتِ».

لكنني أدركت أن تلك الأبيات لا تمثلُ الواقع، لأنني كنت الآن أعيش لحظةً تطابق ما يصفه درايتون؛ لحظة مرارةٍ وصدمةٍ مفاجئةٍ قرَّبتُ أحدنا إلى الآخر. لكن شعلة الجاذبية بيننا لم تومض، لم تزهو الأرض القاحلة التي تفصل بيننا. أستطيع منح دانييل شفقتي، هذا ما شعرت به في صميم قلبي. يمكنني حتى منحه مودَّتِي، لكن هذا أيضًا ليس الحب الرومانسي الذي يبدع الشعراء في تصويره. وفيما يخضُّ المسامحة، فمن أكون أنا لأمنحها أو أطلبها؟ إن المسامحة مسألة عظيمة الشأن في نظري بعيدة عن فكري.

استمعت إليه يسير في الأعلى فوق رأسي، وبعد قليل صعدت إليه.

قلت: «هل يوجد ما يمكنني فعله الآن يا عزيزي لأخفِّف عنك؟».

نظر إليَّ طويلًا حائرًا، ثم قال: «أودُّ أن أخبرك كيف بدأ الأمر، وماذا كان يعني لي. من حقك معرفة ذلك. لقد شعرت منذ بعض الوقت أنك تعلمين الحقيقة».

- صحيح.

- ورغم ذلك احتملتني ولم تلقِ باللوم عليَّ.

لم تحرَّك تلك الكلمات أي مشاعر بداخلي. وقفت عند النافذة أنظر إلى ظلام إحدى ليالي منتصف الصيف يزحف ببطء على الطريق. كنت أعلم أن لا تقديره لي، ولا الطريقة التي واجهتُ بها هذا الأمر، هما ما جعلاه يتمسَّك بي. كان مُحَرِّكه طموحه، وخوفه من فضيحة ستلطَّح آماله العريضة. بخلاف ذلك، كان ليتركني.

قال: «لقد اكتسبت الحق في معرفة شيء عن هذا الأمر».

فَكَرَّت: «من بالغ كرمك يا دانييل أن تسلّم بأن زوجتك قد أحسنت التصرف، ما يخولها الحق في أن تخبرها عن عشيقتك». لكنني أشفقت عليه، لهذا لم أخبره بذلك.

قلت: «لا يا دانييل. لا تحدّثني عن الأمر. سأقبله ما لم تشرحه. متى ستُدفن؟». بالكاد أجابني: «غداً».

- أتودُّ أن أذهب معك؟ هل سيخفّف هذا عنك؟ نيكا ليست هنا. لقد ذهبت لزيارة ويلي.

لم تكن السيدة الكبيرة التي جلست بجوار المرأة في المُدرَج موجودة في المقبرة. حضر الجنازة قليلون لم أعرف أيّاً منهم. ارتديت ثوباً أسود قديماً تنافر مع ضوء الظهيرة الدافئ، والطيور والفرشات التي ملأت المكان. رأيت إكليلاً كُتبت فوقه كلمات بخطّ دانييل، لكنني لم أرغب في قراءتها. ترك هذا الإكليل وبضعة مثله جانباً، كي يوضعوا على القبر عندما يمتلئ. أما باقة الزهور الصغيرة التي حملتها، ولم أرفق بها أي تعليق، فقد ألقيتها على النعش عندما شرعت المجرفات تلقي بالتراب فوقه. لقد وقفت فراشة مُلوّنة على الزهور في يدي ونحن نحضر مراسم الجنازة المقتضبة وسط الحرارة الشديدة. وقد ألقيت الباقة والفراشة لا تزال فوقها. فرفرفت بأجنحتها وطارَت خارجة من القبر. عندئذٍ فكرت أن هذا الحدث الصغير يطلق العنان للمخيلة. لكنني لم أرَ في تلك اللحظة سوى النهايات القاسية لا الخيالات الحالمة. لقد رحلت المرأة التي تألّقت بجواري قبل بضعة أيام، لقد تمزقت الزهور أسفل التراب بالفعل، وستجد تلك الفراشة الليل بارداً والحياة قصيرة.

قلت لنفسِي: «يا لك من امرأة قاسية القلب، عاجزة عن الشعور، ذات عينيّن جامدتين». لكنني تذكرت أنني ذات يوم كنت أكثر تأثراً بالمآسي الدنيوية، ووحدها تلك الفكرة جعلت الدمع يترقق في عيني. أمسكت بذراع دانييل، وعبر دمعي المنهمر رأيت عينيّه جامدتين، رغم أن وجهه لا يزال يتقلص ألماً. غادرنا المقبرة متشابكي الذراعين، دون أن يقول أحداً للآخر كلمة، وعدنا إلى المنزل.

الفصل الثاني والعشرون

1

كان من المفترض أن ينهي ريتشارد دراسته في أكسفورد في صيف عام 1899. لكن في نهاية أبريل من العام نفسه أخبرني في أحد خطاباته: «سأكون حاضراً على مائدة إفطار يوم عيد الميلاد في الأول من مايو». في ذلك العام كان سيبلغ الحادية والعشرين.

قال دانييل غاضباً وهو ينظر إلى ساعته: «إن كان قادماً فليصل فوراً. فهو يعلم أن الإفطار في الساعة الثامنة. هذا لا يعني أن عليه المجيء من الأساس. لقد مكثت في أكسفورد طوال فترة دراستي، بل وتوظفت».

لقد شاب شعره. بدا سياسياً أكثر منه محامياً. في دائرته الانتخابية أحبه الأهالي وأخلصوا له. هكذا ظلّ ممثلاً برلمانياً لـ «ستينهامبتن» منذ انتخابه أول مرة دون انقطاع. ازداد وزناً وأناقة؛ يرتدي الحرير الفاخر وتتأرجح على صدره نظارة بلا إطار. كان يطمح إلى أن يُعيّن محامياً عاماً ثم مُدعياً عاماً. أصبح يحكي لي عن عمله اليومي وعن طموحاته. وقد استمعت إلى كلماته بتفهم دون أن أشاركه تلك الطموحات، حتى إنني شيئاً فشيئاً أصبحت مُضيفة السياسيين. ذات مرة كان جوزيف تشامبرلين في بيتنا ضمن المدعوين. في تلك الليلة وظّف دانييل رئيساً للخدم. كان يقيم تلك الدعوات من حين إلى آخر. منذ أن غادرنا المقبرة متشابكي الذراعين، بعد دفن تلك المرأة المدعوة بيرل،

لم نتحدث عنها أو عن تلك المسألة قط. توقعت أن ذكرها ستوخزها دائماً، لكن ألم وخزاتها أصبح أقل شدة ووضوحاً. أصبح يشاركني أفكاره ومشاعره اليومية العَرَضيّة، وأسعدني ذلك. لم ينجح في شغل منصب يُحوّله اتخاذ القرارات، لكن ذكائه ومهارته في الإقناع مكّناه من ترويج مشروعات الغير. والآن أصبح وكيل «هيئة العلاقات العامة».

كانت نيكاً واقفة عند النافذة تحمل طرداً أسفل ذراعها. لقد أثار حماسها في الرابعة عشرة أن يكون لها شقيق في الحادية والعشرين.

هتفت: «يا إلهي! يا له من وصول مميز! إن جوليان معه أيضاً!».

انضممنا إليها أنا ودانيل عند النافذة. رأينا عربية «بروم» يقودها حوزي يعتمر قبعة مزركشة تتوقف أمام المنزل. غادرها ريتشارد وجوليان: زوج الطواويس المختالين. اعتمر كل منهما قبعة طويلة وأمسك بعصا في يده. تباينت العقدة الفراشية غير المُحكّمة في عنق ريتشارد مع ربطة عنق جوليان الرمادية المضبوطة، ذات اللؤلؤة الكبيرة في منتصفها. كان جوليان يمسك بطردٍ مُربّعٍ مُسطّح.

غادر دانيل النافذة قائلاً: «اللعة!».

أمّا نيكاً فصَفَّقَت. تلا ذلك موجة من التحيات، وتمنيات عيد ميلاد سعيد منا جميعاً لريتشارد ومن الجميع لي.

قال ريتشارد بحماس: «الآن تعالوا كي تروا عربتي قبل أن تبتعد».

قال دانيل: «عربتك؟! ظننت أنك استأجرتها».

- لا يا سيدي. إنها ملكي.

خرجنا طائعين ورأينا العربية مرتابين، ثم قال ريتشارد: «حسناً يا جونسون. عُد في غضون ساعة ونصف».

جلسنا جميعاً ومعنا جوليان إلى الإفطار. قال دانيل نافضاً فوطه المائدة بقوة كأنه يُعَنِّف ريتشارد: «لم نهدر أنا أو أمك المال على عربات «بروم» قط». كان ريتشارد في مزاج رائق جداً، ابتسم قائلاً: «استقلاً عربتي متى شئتُما».

- سأله دانييل: «كيف حصلت عليها؟ (لم يفهم بعد أن ريتشارد عازم على تأكيد استقلاليتها) أنت لا تملك أي مال لتنفقه بذخًا، حتى اليوم».
- بالضبط، حتى اليوم. ولأن غروب شمس اليوم ليس بعيدًا فقد اعتمدت على اقتراض المال. وخلال الأسابيع القليلة الماضية تنقلت خارج أكسفورد أحاول تنظيم حياتي.
- هذا ما أدعوه إفساد نظام حياتك. إنني أعلم ما يطلبه مقرضو المال مقابلًا لخدماتهم. هذه طريقة غير موفقة لبدء حياة مستقلة يا بني. إن كان هذا ما تعتزم فعله.
- أجل، هذا ما أعزم فعله. لقد استأجرت منزلًا بالقرب من شارع «بارك»، مكث فيه جوليان الليلة الماضية معي. ما رأيك فيه يا جوليان؟
- أجابه جوليان ضاحكًا: «هالني الترف الظاهر في تأثيثه. لكن ذوقه لم يعجبني».
- سحقًا للذوق. أنا لا أفقه شيئًا عن هذا الذوق الذي تتحدث عنه.
- أجابه بالفرنسية ساخرًا: «هذا واضح يا عزيزي».
- لقد استأجرت المنزل واشترت عربية «بروم». ووظفت جونسون لقيادتها، ووصيفًا لي أيضًا.
- نظر إليّ دانييل عبر الطاولة منزعجًا. لقد صدمه اكتمال إعلان الاستقلالية، لكنه لم يفاجئني. كم كان غريبًا أن يتسبب جدّ راحل لم يتأكد قط من وجود حفيده، الذي لم يره بدوره قط، في حدوث ذلك.
- سأله دانييل: «متى ستعود إلى أكسفورد؟».
- لن أعود إلى أكسفورد، ولن تلحظ أكسفورد غيابي.
- وما الذي تعتزم فعله بحياتك؟
- سأمضي عامًا من التجوال هنا حُرًا، ثم سأنضم إلى سلاح الفرسان.
- لا يوجد ما يمكنني فعله لإيقافك.
- أجل. لا يوجد.

تبادل كلاهما نظرات تبدّى فيها رضا ريتشارد الممتزج بالسخرية وإحباط دانييل. ثم قال ريتشارد: «والآن إذ سوّينا الأمر لنسعد. لقد عوّضتك يا أمي عن جميع أعياد الميلاد التي لم أستطع أن أهديك فيها شيئاً».

ناولني علبة صغيرة عبر الطاولة وأردف: «افتحها الآن. أتمنى أن تعجبك». كانت رائعة. رقدتُ وسط ورقٍ رقيقٍ أزرق داخل العلبة، ولم أجرؤ على إخراجها. كان ارتفاعها ست بوصات تقريباً؛ حمامة من اليشم الأبيض الشفاف عيناها ياقوتتان. فكّرتُ في الأيادي التي رحلت عن العالم قبل زمن طويل، التي شكّلت بمحبة تلك التحفة البديعة وأمثالها. فكّرتُ في السماء الأجنبية البعيدة التي عملت الأيادي تحتها، وفي الأسقف المائلة المُشيّدة من بلاط مُلوّن وتستند إلى ركائز خشبية مطلية بالورنيش، وفي جميع التحف التي حفظتُ موهبة صانعيها. مسّت الهدية أعماق قلبي. درتُ حول الطاولة وقبّلت ريتشارد، ثم قلت: «أعجز عن وصف حبي لها يا عزيزي! لم يهديني أحد ما يفوقها روعة».

- يجب أن تشكري جوليان مثلما شكرتني فهو من عثر عليها. أنا لا أعلم شيئاً عن هذه الأمور.

قال جوليان: «بل نشكر إمبراطور الصين الراحل تشيان لونج راعي الفنون. على أن المرء لا يستطيع العثور على تحفة كذلك على عجلة. الآن هل يمكنني أن أعطي ريتشارد هديتي؟».

أزال غلاف الطرد المُرَبَّع الذي كان يحمله، وأسند إلى الحائط اللوحة ذات الإطار الذي أخرجها لينيرها الضوء.

قال: «آمل أن تعجبك يا ريتشارد. علّقها على أي حائط وحدها».

سادنا صمت تام. نقلَ ريتشارد نظره بيننا مرتبّكاً، لكنه لم يقل شيئاً. لقد فاجأنا اللوحة حتى إننا عجزنا عن الكلام. لم يرَ أيُّ منّا، سوى جوليان، رسماً مثلاً من قبل. بدا كأن الناظر إليها يستطيع أن يغترف من قماشها ألوانها الثرية الزاهية: الأحمر والأخضر والأصفر. على أنها لم تُصوّر سوى امرأة تبدو منهكة، جالسة إلى طاولة مطبخٍ تقشّر بصلة.

نقلْتُ نظري بين اللوحة والحمامة اليشميّة ذات الياقوتتين على الطاولة. كانت الأخيرة في سكونها تبدو سماويّة، وتشجب بهدوء المغلاة العاطفية والالتواءات التي تفيض بها اللوحة.

قال جوليان كأنه يُوجّه مسار أفكاره: «لهذه اللوحة أيضًا جمالها الرائع يا عمتي العزيزة. يومًا ما ستدركينه».

وضع دانييل نظارته كأنه واقف على إحدى منصات إلقاء الخطابات، يدقق النظر إلى اللوحة.

قال: «فنسنت؟ لم أسمع بأي فنسنت من قبل».

- اسمه فنسنت فان جوخ. كان فنانًا هولنديًا فقد عقله تحت سماء جنوب فرنسا. لقد قابلت في باريس كثيرًا ممن يعرفونه. كان فقيرًا ومات شابًا. قبل تسعة أعوام أطلق الرصاص على نفسه.

قال ريتشارد: «لقد تأخّر في توديع الحياة كثيرًا».

تنهّد جوليان قائلاً: «إنها لا تعجبك. دعني أحتفظ بها وسأهديك شيئًا آخر».

- لا، لا، لا تكن أحمق لعينًا. سأعلّقها لأنك أهديتها إليّ.

قالت نيكّا: «تبدو امرأة حزينة للغاية وعليها احتمال كثير من الآلام».

ابتسم جوليان وقبّل نيكّا. قال: «أنت رائعة. أحبيّك».

تخضّبت وجنتا نيكّا بحُمرة الخجل وقالت: «إنها تروقني. تبدو امرأة عملية لا تنشغل بالتفاهات».

- لقد رأيت كثيرًا من لوحات فنسنت، وأقرُّ بأنني أردت واحدة منها. لهذا

في زيارتي إلى فرنسا آخر مرة ذهبت إلى «آرل». بالطبع كان يمكنني شراءها من تجار الأعمال الفنية. لكنني أفوقهم خبرةً، لهذا لم أفعل ذلك.

إن ذهبتُم حيث عاش فنان فقير لم يمضِ كثير على رحيله فقد تعثرون على شيء قيّم. وقد عثرت على هذه اللوحة في غرفة خلفية في إحدى

المقاهي هناك. أظن أنه رسمها مقابل بضع كؤوس من المشروبات الروحية، لكنني حصلت عليها مقابل ألف فرانك. ثم زرت أبي وعرضت

عليه شراءها مقابل ألف وخمسمئة فرانك. لكنه يفضّل لوحات جان

ميسونييه، حيث يمتطي المارشالات صهوة خيولهم البهيّة ويتطلّعون إلى أرض المعارك البهيجة. لهذا كاد يطردني من المنزل. سأله دانييل: «دفعت ألف فرانك مقابلًا لتلك؟!».

- أجل يا عمي. والآن أصبحت ملك ريتشارد. وإليك نبوءة: دعه يحتفظ بها، وبمرور الوقت سيكسب ما لا يقل عن ألف جنيه إن أراد بيعها.

- ألف جنيه؟! لا توجد لوحة في هذا المنزل تبلغ هذه القيمة.

وافقه جوليان وقال بابتسامة: «أجل، صحيح. على أن البعض قد يدفعون هذا المبلغ مقابل لوحة الليدي بيرندج التي رسمها جورج فريدريك واتس، لكنني لست منهم».

بدا دانييل حائرًا كأن العالم الذي يعيش فيه عجيب ولا يفهمه. رفع يدي إلى شفتيه، قبل نيكًا، وودّع الشابين.

قال: «يجب أن أرى منزلك ذاك يا ريتشارد».

- يسرّني هذا يا سيدي. أنا لم أنس شراك المفضل.

- ولا تهدر المال على الترهات.

لم يجبه ريتشارد. وبعد رحيل دانييل قُدّم مزيد من الهدايا. لكن أيًا منها لم يجذب الأنظار مثل الحمامة اليشميّة واللوحة التي لم تمسني.

وصلت عربة ريتشارد فاستعد الشابان للمغادرة مبتهجين، معهما لوحة فنسنت.

عند الباب قالت نيكًا: «هل يمكنني أن أراها مرة أخرى؟».

أراها جوليان اللوحة، فتنهدت قائلة: «إنها رائعة».

لكنه لم يقبلها هذه المرة، ولحظت أنني أتساءل إن كان هذا قد أزعجها.

كان جوليان، مثل ريتشارد، في الحادية والعشرين. لقد سبقه إلى تلك السن قبل بضعة أشهر، لكن من يراهما يظن فارق السن بينهما كبيرًا. لقد أبدى جوليان نضوجًا يبرز صبيانية ريتشارد، التي لم يتوقف عنها قط. عندما اختليت بنفسى أتأمل هدية ريتشارد البديعة وأحتضنها بيدي، فكرت أنه بالطبع يراها لفئة رجولية. لكنها تفصح حاجة الصبي الماسة إلى تأكيد ذاته. كان يجهل الكثير عن الحياة. لو رأى تلك الحمامة اليشمية في نافذة عرض متجر لما علم أنها من اليشم، ولربما ظن الياقوتتين خرزتين زجاجيتين. لو أعجبته لظن أن ثمنها لن يتعدى خمسة جنيهات. ولو ذهب ليسأل التاجر عنه لدفع أي مبلغ يطلبه. لهذا لا شك أن جوليان وفر ماله عند شرائه تلك التحفة. إنني لا أعتقد أن ريتشارد أدرك حقًا كم تبلغ تلك الهدية من الجمال. لقد أهداها لي لأنها باهظة؛ أراد أن يثبت أنه رجل مُستقل يستطيع تقديم هدية فاخرة.

على أن الهدية التي اختارها جوليان له لم تكن باهظة ولم يرها أيُّ منا جميلة. لكن جوليان أكد على جمالها. وأجد من المثير للاهتمام أنني أوقن بصحة رأيه، وبأن النقص في إدراك جمالها قصور مني. إن ما حثَّ جوليان على شراء تلك الهدية لريتشارد هو شعور عميق بداخله، لكن ما حثَّ ريتشارد على شراء هديته لي ليس سوى المال.

عندما أنظر إلى الوراء بعد مرور كل هذه الأعوام، يتعذر عليَّ أن أصف واثقة شعوري تجاه الشابين حينئذٍ. إننا نحاول استحضار الماضي، ونؤكد دون روية أنه كان هذا أو ذاك. لكن النظرة الخاطفة التي نلقيها عليه قد تغبش الحقيقة مثل ضباب الصيف، أو تُجمّلها مثل رونق ليلة خريفية يلفُّ الحياة بالقي زائف. لهذا سأذكر الأمور كما أتذكرها، وسأحاول أن أنحي العاطفة جانبًا. يبدو لي أنني أحببت كليهما، لكنني تمنيت لو تمتع ريتشارد بعددٍ من خصال جوليان. لم أستحسن كثيرًا مما أصبح ريتشارد عليه، بخاصة كسله وتوهمه العظمة. لكن ما لم أستحسنه في جوليان لم يكن بالكثير، ربما راقني في طبعه كل شيء.

كم كان زبدي كوجان ليجب تلك الحمامة! فكُرت أن عليّ زيارته كي أريها له. لقد أشبع ولعه بكل ما هو صينيّ على نحو أقلّ تكلفة من شراء تلك التحفة، لكن سيروقه رؤيتها وحملها بيديه. عندما أرسلت والدّة جوليان خطابًا تطلب فيه منزلًا يمكث فيه الفتى فكُرت في عائلة كوجان. حينئذٍ كان قد مرّ وقت طويل منذ أن رأيت جوليان، لكن وفقًا لما تذكرته عنه بدا لي أن فتى مثله سيشعر بالألفة مع الغرائب في ذلك المنزل. واتضح أنني محقة. كم استمتعوا معًا! بعد قليل من سفر جوليان للعيش مع تلك العائلة ذهبت لزيارتهم في منزلهم الصغير في «ويلسدن». وقد اصطحبت نيكاً معي، حيث رأت جوليان للمرة الأولى. بعد ظهيرة يومٍ صيفيّ وجدنا ثلاثتهم جالسين في حديقة المنزل الخلفية الصغيرة. كانت حمولة السيد كوجان الثمينة جالسة في عربتها تشاهد الرجلين يعملان. لقد حانت لحظة رائعة في رحلة بدأت منذ بضعة أسابيع لتنفيذ عملٍ فنيّ، وهو نقل الخيال الذي أبهج السيد كوجان في سنوات عيشه في زقاق جريبيرد إلى الواقع. كان قد وضع مُجسَّمًا دقيقًا لحديقة صينية على حافة نافذة بيته هناك. ابتكرت السيدة الصغيرة زنابقه، وسبحت أسماكها الذهبية المُركّبة من أعواد الثقاب أسفل جسور خشبية صغيرة، امتدت فوق جداول مائية زجاجية. والآن رأيته أمامي، شيدته أيادي السيد كوجان وجوليان جسراً خشبياً حقيقياً. طُلّي باللون بالأحمر، وتقوس فوق حوض كان لا يزال خرسانيّاً عند وصولنا. لكن في قاعه سلّتين تحتويان على زنبقتين قال السيد كوجان وعيناه تلمعان أن إحداهما حمراء والأخرى بيضاء، وأنبوب ريّ اتصل بصنبور المطبخ جاهزاً لغمر الحوض بالماء.

كان من المبهج الوصول في لحظة مهمة كذلك، وسُمح لنيكا بفتح الصنبور. شاهدت السيدة كوجان وجوليان طرف الأنبوب داخل الحوض بتركيزٍ قلّق، يوحي بشكّهما في مقدرة شبكة مياه البلديّة على تلبية الحاجة. وعندما بدأت المياه تتدفق تنفّسا الصعداء. ثم ركض جوليان إلى داخل المنزل ليجلب الشاي إلى الحديقة.

أوحت جميع التفاصيل بأنهم حقاً استمتعوا بوقتهم. كانت الكراسي والطاولات الخشبية الصغيرة مطليةً بألوان بهيجة، وازدانت الفناجين والأطباق بالزخارف الصينية. أمّا السيد كوجان، الذي اختفى داخل المنزل، فقد خرج

يرتدي «الكيمونو» الغنيّ برسوم التنانين. وكان ليسعد بتقديم الأفيون لندخّنه بدلاً من تناول الشاي لو لم يسترّع مظهره انتباه الجيران، الذين استندوا إلى سور المنزل، ولم يصرفهم هتاف جوليان: «Ha! Nous épatons les bourgeois!»⁽¹⁾.

خلت الفناجين من المقابض، وكان الشاي ذا نكهة مُدخّنة وبلا حليب على الطريقة الصينية. لهذا تناولته بتقرُّز تخفيه محاولات بالتظاهر بالاستمتاع لم ينخدع بها أحد. غمرنا السكون ونحن نشاهد المياه ترتفع. أوضح السيد كوجان أنّ الغصن الصغير على جانب البركة هو شجرة صفصاف رأى بعين الخيال فروعها الغزيرة تداعب المياه؛ وأنّ الشجيرات التي تستند الآن إلى عصي كي تقف منتصبه هي أشجار كرز أبيض سينعكس بهاؤها على صفحة المياه.

مكثنا هناك حتى امتلأت البركة، وأُعطيَتْ نيكا وعاءٌ أخرجت منه بعناية شديدة الأسماك الذهبية لتسبح في المياه. مثّلت تلك اللحظة تنويجاً للعمل الفني. وقف جوليان والسيد كوجان على الجسر، الذي بالكاد يحمل رجلين، يميلان نحو المياه يشاهدان السرب الذهبي يسبح في الاتجاه نفسه. ثم استدارا معاً ليشاهداه يسبح في الاتجاه الآخر.

كانت تلك نهاية المغامرة الصغيرة التي سرّني عيشها. لكنها لم تكن بأيّ حالٍ نهاية المتعة التي تشاركها جوليان وعائلة كوجان. لقد أصرَّ جوليان على أن تمارس السيدة كوجان صناعة الفخّار. هكذا بدأت شهرتها التي كانت محدودة لكنها طويلة. لقد رعى جوليان موهبتها منذ البداية. تولّى حرق الفخّاريات تجهيزاً لاستخدامها وبيع ما راقه منها. وبمرور الوقت أصبح كل ما تبذعه السيدة كوجان يروقه، ولا يمكن شراؤه سوى في معرضه الخاص. كانت جميع الفخّاريات فريدة لا تتكرر قطعة منها. فقد آمن جوليان بما دعاه «الفريد قيمته». إنني أمتلك عددًا من تلك الأعمال، وهي بالتأكيد ذات جمال فريد.

(1) «إننا نصدم البرجوازية»: تُنسب هذه المقولة إلى شارل بودلير، وقد مثّلت هدفًا لـ «حركة الانحطاط» التي نشأت في فرنسا في القرن التاسع عشر، وتأثر بها رواد «الحركة الجمالية» في إنجلترا، ومن بعدهم الدادائية والسريالية. م

في صباح يوم بلوغ ريتشارد الحادية والعشرين (وبلوعي الثالثة والخمسين) غادر جوليان منزل عائلة كوجان -حيث أصبحت الآن شجرة الصفصاف تتدلى فوق البركة وتزدهر أشجار الكرز ربيعاً- واستأجر غرفة في شارع «كلارجس». لم يوظف وصيقاً، ولم يشتَرِ عربة «بروم». امتلك القليل من كل شيء، إذ تكفل بشؤونه المادية. لقد وجد عملاً لدى تاجر أعمال فنية في شارع بوند. ثم تركه وعمل لدى تاجر أعمال فنية آخر في باريس. والآن قد عاد ليعمل لدى تاجر أعمال فنية آخر في شارع بوند. في مطلع كل شهر كانت ماري ريمل ترسل إلى دانييل خطاباً تشتكي حياة ابنها عديمة القيمة: «لقد مرّت خمسة أعوام ولا تزال حياته بلا أساس، ولا يتحمل أي مسؤولية. أقرُّ بأنه لا يُكفّنا سوى الأسى، لكنه لا يتجهز لما قد تأتي به الحياة».

رأت ماري الحياةَ ريحاً عاصفةً قد تقتحم أي منزل في أي لحظة ما لم تكن شقوقه ملاءى بالنقود. وكان دانييل يزور بوردو من حين إلى آخر من قبيل الواجب الأخوي فقط لأن ماري أفرطت في إزعاجه. لكنني لم أرَ ماري وسباستيان سوى مرة واحدة منذ عطلتهما معنا في تريسانت. لقد زارانا في تشيلسي قبل عام، عندما انتقل جوليان إلى غرفته في شارع كلارجس. ازداد كلاهما وزناً وشيباً، وأصبح سباستيان مُختالاً على نحوٍ لا يُطاق. لقد تجلّى مرور الزمن أوضح ما تجلّى في رؤيتي سباستيان ودانييل جالسين معاً على طاولة الإفطار. عندئذٍ تذكّرتُ الشابين المرحين اللذين اصطدم قاربهما بقاربٍ استقلّيته أنا وويلي كي نرى السفينة الحربية الحديدية؛ تلك الأعجوبة التي يشقُّ صغارها الآن جميع المحيطات. كان دانييل يتململ رغبةً في المغادرة للعمل. أمّا سباستيان، الذي أدخل فوطة المائدة في ياقته، فأسهب في الكلام عن حدث تابع لـ «مجلس بلدية بوردو» الذي طالما دعمه، وكان ليصبح عُمدته لولا مكائد قاطعته ماري لتسردها في ثرثرة مضجرة وشعور بالظلم. أتذكر أنها ذكرت سفينة تابعة لشركة سباستيان. قالت إنها غرقت وغرق معها كل ما تحمل رغم أنها كانت ذات تغطية تأمينية عالية. لكنها لم تكن ملائمة

للإبحار وفقًا لما يردّه الراديكاليون. لقد أعادت الحديث حول تلك الواقعة مرارًا على نحوٍ أوحى لي بأنها تشعر بذنب يقض مضجعها. بعد تلك الثثرة صمت دانييل قليلًا، ثم نهض وأمسك بحقيبتها قائلاً: «الآن حان وقت العمل كما تعلمون...».

وترك الضيفين لي أنا ونيكا، التي لم ترهما قبلاً ولن تراهما مرة أخرى. بعد مغادرتهما سألتني بجديّة: «هل كان هذان والد ووالدة جوليان حقاً؟». - أجل يا عزيزتي.

تمتّت بجديّة: «كم هذا غريب! كأن فرسي نهر أنجبا غزالاً». - في قولك هذا فظاظة يا عزيزتي. ماذا توقعت؟ أن يكونا زوجاً من الملائكة؟

- لا، بل زوجاً من الغزلان بطبيعة الحال. عندما تخيّلنا سباستيان وماري زوجاً من الغزلان ضحكنا حتى تبدّد أثر الزيارة المُضجِرة. ثم سعدت نيكا إلى غرفتها ركضاً تغني:

«الآنسة الغزال
ليست في انشغال
بالشؤون البلديّة
في بوردو المديّة».

4

طوال العام التالي لانتقال جوليان للعيش وحده كثيراً ما زارنا، ولم يأت قط دون أن يجلب هدية لنيكا. أهداها أغراضاً بديعة - لكنها ليست باهظة - من السيراميك، أو الزجاج، أو الفضة، أو العاج المنحوت. في غرفتها أفرغت المكتبة من بعض الكتب لتضع كنوزها الصغيرة على أرففها. لقد سعدت

الفتاة اليافعة بتلك الهدايا، لكنها لم تعبأ كثيرًا بها على النقيض من ريتشارد الذي استحوذ عليه هوسٌ بآثار جاستن جابلورد. ظلَّ محتفظًا بها، وبالغ في الحديث عنها كأنه أحد اليعقوبيين يتحدث عن خصلة شعر الأمير تشارلز، أو بضعة خيوط من قماش زيَّه الاسكتلندي التقليدي. لكن تلك الآثار الآن لم تعد في «صندوق الخال جاستن». بل ترقَّت لتشغل خزانة صغيرة باهظة أملَ ريتشارد، بلا شك، أن تعزَّز أصالة مظهرها. كنت واثقة أن تلك الخزانة معروضة في مكان بارز في المنزل الذي استأجره، وأن ذلك الوصيف المدعو تريمير أعطي تعليمات بتوقيرها. تمنيت أن ينضج ريتشارد، لكنني عثرت على دليل جديد أكَّد أنه شديد البعد عن النضج. تناولت الصندوق حيث رقدت الحمامة اليشميَّة ورأيت أسفل الورق الأزرق الرقيق رسالة. فتحتها لأقرأ فيها التالي: «إلى أمي العزيزة، مع حبي وأطيب تمنياتي، ريتشارد».

لا غريب في هذا. لكنني تفاجأت بأن الرسالة مختومة بشارة نبالة عائلة جابلورد، وشعار التحدي الذي نسخته على ورقة قطعتها من جريدة «تايمز» وسألت ويلي أن يترجمه لي: *Fiat voluntas mea*.

لم أعد أغضب من أمور كتلك. فما الجدوى من الغضب؟ لم أستطع سوى التنهَّد. ألقيت الورقة وسط النيران، وكنت أجمع هداياي عندما دخلت نيكاً الغرفة.

قالت: «ماما، ازداد كويركي سوءًا. لا يريد تناول أي شيء. هلا تأتين لترينه؟».

لقد أنقذنا كويركي قبل عدة أشهر من متجر الحيوانات الأليفة بالقرب من زقاق جريبيرد. اضطررنا إلى المرور بذلك المتجر البغيض عند زيارتنا سالي في روبن هود، وهناك رأينا تلك الكتلة من الفراء الأحمر مُتكوِّرة في صندوق صغير لا يسع لما يفوق الفأر حجمًا. تطلعت نيكاً دهشةً إلى الجراء والقططيات المسكينة والعصافير الكئيبة، والأسماك الذهبية التي تسبح متناقلة في المياه، كأنها سباحو القنال المُنهكين في اللَّفَّة الأخيرة من التحدي عديم المعنى الذي يخوضونه.

عندما وقع نظرها على كتلة الفراء الأحمر المُنزوية هتفت: «إنه سنجاب! يا للصغير المسكين! يجب أن يكون في الغابات يتأرجح وسط الأشجار».

هكذا عدنا به إلى المنزل، وسرعان ما أخذ يقفز في أرجاء غرفة نيك. صنعُ له بيتاً في صندوق تغلقه فقط عند فتح نافذة الغرفة. لكننا خلال بضعة أسابيع غامرنا بفتح النافذة، وخرجنا تاركتين كويركي يقفز منها ليفعل ما يحلو له. شاهدناه بسرور يستكشف الأشجار والحديقة وذهبنا للتمشية. عندما عدنا وجدناه نائماً في صندوقه هائناً. ومنذ ذلك الحين لم نشغل بالنا بأمر النافذة.

لكن كويركي الآن أصبح خاملاً مثلما كان يوم اشتريناه. لهذا قلت: «يجدر بنا أن نأخذه إلى توم تشادرتن. مضى وقت طويل منذ ذهبنا إلى هناك». لم نتكلف ارتداء ثياب قديمة وأوصلتنا عربة إلى روبن هود، إذ زالت الحاجة إلى التنكر عند زيارة سالي. لقد اكتشف الأثرياء وجودها وإسهاماتها، واعتادت أن ترى أمام منزلها عربةً تقلُّ ذوي النيات الحسنة، الراغبين في «مشاهدة» الفقراء بهدف مساعدتهم. لكنها لم تتهاون في تقييعهم.

كانت تقول: «لا يمكنكم فعل شيء للفقراء، أي شيء، سوى أن تصبحوا منهم وتشاركوهم حياتهم البائسة دون التظاهر بأنكم لا ترونهم بائسين. إن التبرع بنصف رطلٍ من الشاي أو خزانة مستعملة لا يفيد».

كانت تُسمِعهم كلماتها بهتافٍ حادٍّ أصبح من عاداتها، وتُخضعهم لتدقيق عينيها اللتين تكشفان حقيقة نواياهم. ورغم وقوعهم في الحرج فقد نالت سالي إعجابهم، ومنهم من كرّر زيارتها.

قالت مَرِحَةً: «دائماً ما يأتين برفقة خادم. ألا يمكنكما تصور المحادثة التي تُجرى في منازلهن الفاخرة؟ إنني أتصورها كالتالي:

«يقول الزوج: «لكن يا عزيزتي، هل من الآمن الوجود وسط أولئك الناس؟».

- هذا ما يحثنا المسيح على فعله.

- كان المسيح مختلفاً يا عزيزتي. كان رجلاً.

- حسناً... ماذا إن اصطحبت روبرتس معي؟ وسيكون جونز في مقعد القيادة إن احتجت إليه.

- هذا مقبول. احرصني على أن تُنظّف العربّة عند عودتك. خذي معك قمصاني التي اهتمّرت أكمّامها. الآن علىّ الذهاب إلى شارع «ثريدنيدل». سأحدث إلى روبرتس. يجب أن يأخذ عصا معه».

كانت سالي تجيد التقليد، ومؤخراً اتسمت القصص التي تسردها ببعض الفظاظة. لكنها تعود إلى جديتها فجأة: «بالطبع إنهم يفعلون ما يظنونه الواجب الذي يُحتّمه الجانب الديني من حياتهم. أتساءل متى سيدركون أن الدين ليس محض جانب من حياة البشر، وأن الربّ ينظر إلى حياتنا كلها لا إلى جانب منها».

هكذا استقلينا عربّة، معنا كويركي راقداً في قطعة من الفراء. أنزلت نيكاً أمام باب عيادة توم تشادرتن، وواصلت طريقي إلى باب منزل سالي. رأيت عجلة تستند إلى الرصيف، فاستنتجت أن الطبيب واريك معها. تمنيت أن يكون هناك لأنني لم أقابل الرجل الشهير حتى الآن. وقد كان حقاً هناك! ملأ المطبخ طول قامته وغضبه. كان يذرعه بقدر ما سمحت له مساحته الضيقة فشابه نمراً حبيس قفص. قدّمتني سالي له، لكنني شعرت أن زيارتي ليست في الوقت المناسب، إذ تجاهلاني وواصل جدالهما.

هتف الطبيب: «إذن لماذا تعيشين في هذا المكان اللعين؟».

- لأنني امرأة ناضجة عاقلة قررت بإرادتي الحرة أن أفعل ذلك.

- أحياناً ينتابني الشك في كونك ناضجة أو عاقلة. لقد كبرت، لكن هذا لا يعني بالضرورة أنك ناضجة. وأحياناً أراك مخبولة.

- يحق لك أن ترى ما يحلو لك. إننا لا نتحدث عني على أي حال، بل عن روبن. لهذا لا تحاول التهرب من هذه المسألة. قد تملك أنت وبولي مُبرّرات لإبقائه هنا، لكنكما تعلمان مثلي -بل أكثر مني- حقيقة المصارف القذرة، والذباب والحشرات والقمل، والحُمى التي تنتشر بين الأطفال هنا. ولا ينجو منها معظمهم رغم علومك الطبية الجليلة. ومع ذلك تريان أن لا بأس في عيش روبن هنا، وارتياحه مدرسة هنا، وألا يرى من العالم سوى هذه البقعة، وألا يعرف سوى الأشقياء الذين لا خيار لهم سوى البقاء هنا. إنّ هذا التفكير يجعل منكما زوجاً من المجرمين،

وتذكّر كلماتي هذه: يومًا ما ستلومان أنت وبولي نفسيكما ندمًا على ما تفعلان الآن.

احتدّ الطبيب راسل: «لا تصدّقي هذا الكلام. إن كنا سنلوم أحدًا فسيكون ربّك المزعوم. انظري عبر النافذة! انظري إلى عالم الربّ البديع! إلى الإشراق والجمال في كل مكان! هذا هو صنّع الرب!».

- إن كان مزعومًا كما تقول فهو وهم؛ لا يقدر على صنع شيء. وإن كان الربُّ موجودًا، ووفقًا لمنطقك السخيف مسؤولًا عما يحدث، إذن فلتستسلم لأنك لن تستطيع مجابهة الربّ. لن تستطيع هزيمته على أي حال. ومن ثمّ غادر هذا المكان إلى شارع «هارلي» الراقي، كي تصف للمرضى مساحيق علاج الإمساك. إنّ العفن هنا من صنع الإنسان ولا علاقة له بالربّ، وهذا ما يجعل لوجودك في هذا الحيّ معنى. لكن لا جدوى من عيش روبن هنا. لقد أصابه التيفود مرّة، وفي القادمة لكن تكونا محظوظين بهذا القدر.

- ماذا تعنين بمحظوظين بحق الجحيم؟ أتظنين أنني أتجول في الأرجاء مُعوّلًا على الحظ؟ إنني أعيش استنادًا إلى العلم. وأعمل استنادًا إلى العلم أيتها الكاهنة. وسأموت استنادًا إلى العلم.

- قد يأتي هذا بنهاية روبن أيضًا.

ظننتُ أنه بلغ من الغضب نهايته، لكن إصرار سالي على تكرار ذلك الاسم بهدوء جعله يحتقن كأنه سينفجر. توقف عن السير يداه مقبوضتان. ثم تمالك أعصابه، وقال بابتسامة: «هذا الانفعال خطر على ضغط دمي. يجب أن أتوقف».

جلس في مقعد خشبي، ثم أردف بهدوء: «لا جدوى مما تقولين يا آنسة ماري براون. لقد رميتُ بنفسي هنا مثلك، وسط هذه الشوارع القذرة وساكنيها القذرين. لكنني لا أحبهم مثلما أعتقد أنك تحبينهم. بل وأحيانًا أبغضهم لجشعهم وقذارتهم وبلادتهم. لكن أقسم لك أنني لن أستسلم حتى أنظّف هذا المكان، حتى أرى العشب ينمو في أرضه، والرجال والنساء يسرون في شوارعه نظيفين أصحاء. حينئذٍ، ربما، سأغادره. لكنني ما دمت هنا فسيظل كل ما يخصّني معي، حتى آخر غرزة أخيطها. وهذا يتضمن روبن.

- الآن ابتعدت العاصفة وأراح يده على الطاولة. ربت سالي عليها، ورددت برفق شديد: «لا بأس. لا بأس. كل شيء بخير».
- تكادين تجعلينني أصدق أن كل شيء بخير حقًا. كيف تفعلين هذا؟ اربتي على يدي مجددًا.
- ثم أغلق هذا العملاق المهيب عينيه. وواصلت سالي التريبت على يده.
- قال: «أنتِ مثال للفضيلة وتفيضين بالحنان. يركض الأشقياء الذين لا سيطرة لي عليهم إليك، مثل طيور تحلق نحو منارة».
- ما الذي تعرفه عن المنارات؟ إن الطيور تندفع إليها لتلقى حتفها إذ تصطدم بزجاجها.
- حسنًا، إذن مثل العث الذي ينجذب إلى شعلة الضوء.
- لكنها تحرق أجنتها.
- اللعنة! ماذا إذن؟ ما الذي تفعلينه هنا؟ إنك فيما يبدو لا تفعلين شيئًا. وكثيرًا ما أتساءل بشأنك. لماذا أنتِ هنا؟ إلام تسعين؟
- يصعب إجابة هذا السؤال. يصعب أن أجيب أي أحد على هذا السؤال، حتى نفسي.
- حاولي.
- إن العشب الذي تريد رؤيته هنا سينمو، ولا أحد يستطيع إيقافه. ربما سيصبح عشبًا نافعًا، مراعي خضراء، ينعم فيها البشر. وربما سيصبح عشبًا ضارًا لأن البشر هجروا المنطقة. سينمو العشب بطريقة أو بأخرى. إنني أيضًا أدرك أهمية المصارف الصحية ودورات المياه والمدارس والمكتبات، وأن يحميك سقف متين، وأن تسترك ثياب لائقة. لا تظن أنني أجهل أهمية كل هذا. لكننا نعيش الأوضاع الصعبة الحالية لهذا المكان، أيًا كان ما سيغدو عليه العشب، التي تقتضي التجلُد. إنك تتحدث عن الفضيلة. لكن لا فضيلة في التجلُد عندما نرغم عليه. لا فضيلة في الفقر الذي لم يختره طواعية من عرف الثراء. إن الناس هنا يأتون إليّ لأنهم يعلمون أنني واحدة منهم، ولأنني لا أسألهم شيئًا لا

يملكونه. ورغم أنني لا أملك الكثير، فإنني أمنحهم شيئاً لن يجدوه سوى عندي، مثل توم تشادرتن في عيادته.

- وما هذا الذي تمنحينه لهم؟

- لا أعلمه بالضبط. لكنه ما يملكه المرء عندما يدرك الثراء في امتلاك لا شيء؛ عندما لا يسعى إلى امتلاك سوى القدرة على الصمود وقول: «لَتَكُنْ مَشِيئَتُكَ».

لتكن مشيئتي. لتكن مشيئتك.

كانت سالي تتحدث ببطء، وهدهوء، كأنها تحاول إفهام أجنبي لغتها الأم. والآن تأثرتُ بمرأى وجنتيها تتوردان، عندما وضعت يدها على يد السيد راسل قائلة: «هل ما أقول معقول، أم أنني أتحدث كالحمقاء؟ إنه شعوري، يصعب أن أصيغه في كلمات. وأخشى أن يبدو لبطلين مقدمين مثلك أنت وبولي غير مقنع».

نهض الطبيب وغادرنا فجأة، لكنه توقف عند الباب ليقول: «أعانك الرب». أخبرتُ سالي عن ريتشارد وشعار عائلة جايلورد. لكن ما قلته لم يُسلِّها ولم يثر غضبها.

تنهدتُ قائلة: «يا للحماقة!».

ثم أنت نيكاً. كانت يافعة مفعمة بالحياة مثلما كانت سالي فيما مضى؛ سالي التي ثملت معي في كهف إدي رودا، وقطعت معي الجروف، وأجادت ركوب الخيل والسباحة. عندما أحاطت ابنتي بذراعيها لحظتُ أظفارها المُتَشَقِّقة وتورم يديها اللتين تغمرهما في المياه الساخنة وصودا الغسيل، والجهد الشاق الذي تبذله للالتزام بأداب اللياقة هنا. وسرَّني الدفء الذي لحظته في عناق نيكاً لها.

قالت: «لقد ساعدت الشاب في أن يصبح ماهراً يا خالتي. يقول إن كويركي سيتحسن عاجلاً. أتعلمين ما الذي يفعله الآن؟ إنه يُدرَّب البراغيث على أداء عروض السيرك الصغير!».

ابتسمت سالي وقال: «إنه ماهر، أليس كذلك؟ أمَّا البراغيث عندي هنا فتؤدي عروضها دون حاجة إلى تدريب».

لم يتبقَّ الكثير من الطرف الغربي من لندن كما عرفته صبيّة، لكنه لم يكن كذلك حتى الفترة التي أكتب عنها الآن، وبعدها بكثير. كان قصر «دورتشستر» لا يزال قائماً. يمكن النظر إلى حدائقه من نوافذ الطابق الأرضي في منزل ريتشارد في شارع «ساوث». في أحد أيام يونيو كان جوليان ريمل هناك عندما ذهبت مع نيكال للزيارة. لقد أمضينا الصباح في التسوق، وقررنا المرور بريتشارد في زيارة سريعة. لقد فعل جوليان الشيء نفسه، لكن ريتشارد لم يكن في المنزل. قال تريمر أن السيد أندريدج لن يأت في موعد الغداء اليوم، وقَدَّم لنا شراب الشيري الذي ارتشفته أنا وجوليان ونحن نتطلع حولنا لنرى ما أصبح ولدي يمتلكه فقط لأنه حفيد والدي. تجلّى الترف في الأرجاء، ترف كان لينال استحسان السير ريتشارد راينبرو بالتأكيد. شابهت الغرفة حيث جلسنا منزل طفولتي الخانق. ومع أن منزلنا في تشيلسي اتسم ببساطة الأثاث والديكور، فقد اعتمد ريتشارد في تأثيث منزله على كثير مما استغنيا عنه. نُجِّدَت المقاعد بالأقمشة الفاخرة، مثل: المخمل والبروكار، وصُنعت منها الستائر وشراشف المائدة أيضاً. بدا أن الغرفة ينقصها قبعة تدخين ذات شُرَّابَة وجليون «ميرشام» ليكتمل طابعها. وُضعت مساند فاخرة للأقدام أمام المقاعد. احتوت غرفة الجلوس على حبلٍ من الحرير الثقيل يُجذَّب لاستدعاء الخدم. علَّقت شارة جامعته على لوحة خشبية فوق رفِّ المدفأة، ورُسِمت على وعاءٍ للتبغ. تعذرت رؤية الحائط إذ غطَّته لوحات أصلية ومنسوخة، وتذكارات تعرض مشاهد من الحروب وأنواع مختلفة من الأسلحة، وجماجم لحيوانات ذات قرون. لم أرَ من الكتب سوى «Under Two Flags» لويذا، «Trilby» لجورج دو موريه، و«A Cigarette-Maker's Romance» لماريون كروفورد. على الطاولة وُضعت مجلة «ستراند» مفتوحة على أحدث مغامرات شيرلوك هولمز. واكتست الأرضية ببساط ذي نقوش زهرية.

نظر جوليان إلى الضوء عبر كأس الشيري وقال: «نوع ممتاز... وكأس رائع».

أخبرني تعليقه المقتضب هذا بنظرته الحقيقية إلى المنزل.

سألته نيكاً: «أين المرأة؟ المرأة الحزينة التي تقشّر البصل؟».

- إنها في الخزانة. خضت أنا وريتشارد نقاشاً طويلاً حولها، لكننا لم نستطع العثور على مكان مناسب لها.

- أريد رؤيتها مجدداً، إن كنت تعرف أين توجد.

أخرج جوليان اللوحة من خزانة وأسندها إلى قدم مقعد. كانت لا تزال تشير حيرتي ولم أستطع استيعابها.

قالت نيكاً: «إنني أحبها، لكنني لا أدري سبب ذلك. يجب أن تفسرها لي يوماً ما».

ابتسم جوليان وقال: «أرى أنك ممن قد يسمعون ما أراد فان جوخ قوله. لدينا لوحات أخرى من أعماله، لكننا لا نعرضها لأنها تترك الحضور. يجب أن تأتي لتريها. يوجد الكثير لتريه هناك. ما رأيك يا عمتي؟ هل آخذ الصغيرة معي الآن؟ سنتناول الغداء معاً ثم سأعيدها إلى المنزل».

لامته نيكاً: «يجب ألا تدعوني بـ «الصغيرة»، بل ابنة خالي نيكاً أو نيكاً. أفضل نيكاً فقط».

- حسناً يا نيكاً. لنتظاهر بأنك راشدة. ما رأيك يا عمة؟ هل يمكنكِ المجيء معنا؟

لم أستطع الذهاب معهما. كنت أنتظر ضيفاً على الغداء في المنزل. شاهدتما يرحلان، ولحظت سرور نيكاً الشديد عندما أمسك جوليان بيدها وقادها خارجين من الغرفة. جلست هناك برهة، أنقل نظري بين بهرجة الغرفة إلى بهاء حدائق قصر دورتشستر. ثم فجأة أتى ريتشارد.

- أمي! ما لطف رؤيتك هنا! هل اعتنى بك تريمير جيداً؟

- أجل، شكراً لك يا عزيزي. لقد ظن أنك لن تعود. لهذا كنت على وشك المغادرة.

- كان لدي موعد قد ألغى. لكن يجب أن نتناول الغداء معاً. لنذهب إلى مطعم «رومانو».

اضطّرت إلى الرفض، ثم سألني مرتبگًا: «هل ترين المنزل جيداً؟».

- رائع يا عزيزي.

تطلع حوله يستحسن ما يراه. ثم قال: «يوجد شيء أريده. لكنني لا أجرؤ على سؤالك إياه يا أمي. سترينني وقحًا. لكن... هل يمكنك أن تمنحيني لوحة جدتي التي رسمها واتس؟ ليس كهدية بالطبع، بل كاستعارة دائمة؟».

تذكرت قوله إن الليدي بيرندج هي جدته وإنه الوريث الذكر الوحيد للعائلة. أردف: «سأفرغ لها مكانًا فوق رفّ المدفأة».

قلت برفق: «يؤسفني قول إن هذا غير ممكن يا عزيزي. إنها عزيزة عليّ. فهي الصورة الوحيدة التي أملكها لأمي».

- حسنًا... سامحيني على طلبي هذا، ستفعلين؟

- بالطبع يا ريتشارد.

- أنت واثقة أنك لا تستطيعين الغداء معي في رومانو؟

- أجل. لا تلح عليّ في السؤال اليوم.

فقبلني ورحلت.

مكتبة

t.me/soramnqraa

6

بعد ذلك بقليل بدأنا نسمع بالمدعو أ. ب. وبيزي. الآن بعدما نال ريتشارد حريته أصبح يأتي لزيارتنا في تشيلسي كثيرًا. وسواء أكنّا في المنزل أم اصطحبني أنا ونيكا إلى الغداء، فإن أ. ب. وبيزي لم يفارق لسانه. كان يقول أ. ب. بفخر كأنه نال شرف القرب من رجل عظيم. وعندما يقول اسمه كاملاً: أ. ب. وبيزي، فإنه يذكره كأن الجميع يعرفه، مثل: ه. ج. ويلز أو ج. ب. شو. كان أ. ب. وبيزي كاتبًا لا روائيًّا، لأنه لم يكتب رواية بعد. ورغم أنه لم يكتب سوى قصص قصيرة نُشرت في مجلة مثل «ستراند»، فإن ريتشارد بالغ في مدحه. جعلني هذا أستنتج أن أ. ب. وبيزي مزهوٌ بنفسه، وأنه يجعل من حوله يؤمنون بمجده قبل أن يحققه. لكن كيف تعرّف شخص مثل ريتشارد إلى رجل كهذا؟ لقد قال: «قابلته مع زميل في النادي، ثم قدما إلى المنزل لنمضي معًا بعض الوقت». هذا مفهوم، لكن كيف توطّدت علاقتهما؟ أثار الأمر حيرتي حتى ذلك اليوم حيث كنت أنا ونيكا في منزل ريتشارد ننتظر

قدومه ليصطحبنا إلى الغداء، وأخذت كتاباً سقطت من بين صفحاته قصاصة ورقية. عندما تناولتها قرأت دون قصد الكلمات التي خُطَّت عليها: «أنا مدين لك بعشرين جنيهاً، أ. ب. ويبزي». إن كان هذا ما يحدث فهو بالطبع يفسّر الكثير.

عندما التقيت بالسيد ويبزي لم يعجبني شخصه. وسرعان ما حدث اللقاء فقد قال ريتشارد: «أريد أن أقيم حفل عشاء في منزلي يا أمي. أمل أن تتمكني أنتِ وأبي من حضوره».

- سأعرض عليه الأمر اليوم، لكنه مشغول جداً. هذا الصيف عصيب على الحكومة. إنك تدري بالمشكلة القائمة مع جمهورية «ترانسفال»... قال ضاحكاً: «لكنني حقاً لا أفهم أولئك المدعويين برجال الدولة. هل يتسبب جماعة من مُزارعي «البوير»، أحفاد الهولنديين في جنوب أفريقيا، في وقوع مشكلة؟ يجب ألا يُسمَح لهم بذلك. على الدولة أن تتخلص منهم وتتولى السلطة».

- أجل يا عزيزي. أظن أن هذا ما ستؤول إليه المسألة. لكن على المسؤولين مناقشتها بترؤ أولاً حتى لا يبدو الأمر كما تصفه.

- حسناً، لنتوقف عن الحديث حول هذه المسألة الآن. لقد سئمتها فالصحف لا تذكر سواها. لن يهمني الأمر حتى يتدخل الجيش. لكن في الوقت الحالي ماذا عن العشاء؟ من قد أدعو؟ إنني أرغب في حضوركِ أنتِ وأبي ونيكا.

- لا تزال نيكا صغيرة لتحضر حفلات العشاء.

- إن تربيتكِ لها جعلتها أكثر نضجاً من عمرها. وهي لا تقابل ممّن في مثل عمرها سوى أبناء موستن-لويد بين الفينة والأخرى. إنني أودُّ حضورها.

تناقشنا حول من يجب دعوته، واقتрحت دعوة جوليان وويلي.

- جيد. سيستمع أ. ب. ويبزي بمقابلة ويلي.

- هل ستدعو السيد ويبزي؟

- بالطبع! لقد دعوته بالفعل، وستحضر معه امرأة ستصبح السيدة الرابعة. هكذا إن حضر والدي سنصبح ثمانية.

في مساء حارٍّ من يوليو عام 1899 اجتمعنا نحن الثمانية: دانييل وريتشارد وجوليان، ويلي ونيكا وأنا، جميعنا غاية في الأناقة لأن ريتشارد أراد ذلك، في انتظار وصول السيد وبيزي ورفيقته.

كان دانييل في مزاج جيد. لقد تقبَّل ريتشارد كما هو، ولم يعد يتطلع إلى ابنٍ ليس موجودًا. أدى التبدل في نظرته إلى تحسن العلاقة التي تجمع بينهما. قدَّم ريتشارد له أفخم أنواع الشيري. أمَّا دانييل، بعد سنوات طويلة من ممارسة مهارة الكلام، فقد أجرى معه حديثًا مشوّقًا عن الكريكت وأساليب شيرلوك هولمز وموضوعات عامة مُشابهة. سعدت لرؤية الودَّ يجمعهما، وبرؤية ويلي التي لم تزر هذا المنزل قبلاً تتطلع حولها واضعةً يدها على كتفي. لم أعتد منها تلك الحميمية، وقلقت بشأنها. لقد كانت، على كل حال، تتقدم في العمر. فُكِّرتُ: «لا بد أن ويلي في منتصف الستين». إن هذه السنُّ قريبة بما يكفي إلى السبعين، التي بدت لي نهاية كل شيء. لقد أصبحت الآن قامة أدبية رفيعة. كانت يافعة عندما بدأت الكتابة وعاشت حياة مُنتجة. في كل عام يصدر لها كتاب ناجح، وتنضم الأجيال الجديدة إلى قراءها. كانت محظوظة في العمل.

سألتها إن كانت بخير فأجابتنني: «أجد الحرارة مُرهقة. كم يبدو جوليان ونيكا ثنائيًا لطيفًا!».

لقد ابتعدا عنا وجلسا في مقعدين بجوار النافذة، يتطلعان إلى حديقة قصر دورتشستر. كانت نيكا سعيدة. بدا أن عمرها يفوق الرابعة عشرة بشعرها المرفوع مثل الشبَّات، وثوب السهرة الذي سمح بلمحةٍ على صدرها الآخذ في النضج. لم أستطع سماع حديثهما. لكنه، أيًّا كان، جلب الإشراق إلى وجهيهما. تذكرتُ أنها ترى أن والدي جوليان يجب أن يكونا زوجًا من الغزلان. أدركتُ كم يروقها، كم تتطلع إلى أوقات اصطحابه لها إلى الغداء، التي كثرت، والتحدث عن الأشياء التي تثير اهتمام كليهما. وتساءلتُ إن رآها مرَّةً أكثر من ابنة خاله الصغيرة، الذكية الجميلة، التي تسعده رفقتها.

كان من المفترض أن نتناول العشاء في الثامنة. وفي الثامنة والربع أعلن تريمير وصول السيد وبيزي والآنسة مونك.

كان السيد وبيزي يمسك غليوناً تشبه رائحته سمك الرنجة، يرتدي سترة نورفوك وبنطالاً بطول الركبة. وملأت ساقاه المكتنزتان جوربين طويلين من الصوف البُنِّي. أربكنا مظهره، ارتبكنا جميعاً سِواه.

خلع قبعة «بيري» وألقى بها على مقعد، فتناولها تريمير كأنه ألقى القبض عليها لانتهاكها آداب اللياقة.

قال: «لقد أتيت أنا وزوي على دراجتنا».

كانت زوي ترتدي بنطالاً نسائياً واسعاً لركوب الدراجة، وبلوزة بيضاء، وتعتمر قبعة قشّية. اقترح عليها ريتشارد خلع القبعة فخلعتها. أمسك السيد وبيزي بكأس شيري في يد وغليونه في الأخرى، وبعدما أخذ عدداً من الأنفاس العميقة بدأ ينفث الدخان كأنه سفينة بخارية سُحبت مرساتها لأنها على وشك الإبحار. تطلع حوله يدقق النظر إلينا، وأحبط محاولة ريتشارد تقديمه إلينا قائلاً: «لا داعي إلى ذلك يا ريتشارد. سرعان ما سيعرف أحدنا الآخر. لا تقدّم الشراب لزوي فهي لا تحتمله. وأملأ كأسِي».

أظن أنه حينئذٍ كان في الخامسة والعشرين. بدينٌ تبدّت الاستدارة في وجهه وربلتي ساقيه وقبضته التي تحمل كأس الشيري. وعلا شفثيه شارب أشقر كُثٌّ. تفاجأت إذ انتبهت إلى السطوة التي يتمتع بها رغم مظهره المُنفّر. كانت عيناه الرماديتان الضيقتان ثاقبتَي النظر. بدتا كأنهما تستطيعان فتح الأقفال فقط إن حدّق إليها. أمّا لامبالاته فلم تكن تظاهراً. لقد دقّق النظر إلينا في ثيابنا الحريريّة وأقمصتنا المُنشّاة كأننا في عرضٍ جُهّز لإمتاعه. دقّ المدفأة بغليونه، وضع كأسه، وقال: «حسناً، إنني جائع، وكذلك زوي. منذ العصر ونحن على الطريق».

أمسك ريتشارد بذراعي يقود الطريق إلى غرفة الطعام. تبعنا دانييل مع ويلي. وراؤه جوليان مع الأنسة زوي مونك، وأخيراً نيكاً مع السيد أ. ب. وبيزي. سمعته يسألها: «ما اسمكِ؟».

أجابته نيكاً بحدّة إذ استاءت، كما خمّنتُ، لأنها انفصلت عن جوليان: «سرعان ما ستعرف».

قال: «لا داعي للحدّة».

التفتُ إليهما فلحظت السيد ويبزي يسترق النظر إلى صدرها. وتمنيتُ لو لم تأتِ معي.

7

فاقم الطعام الذي تناولناه والنبيد الذي ارتشفناه من شدة الحرارة. بينما نحن جلوس إلى المائدة كانت شعلات الشموع ساكنة. لم تدخل نسمة عبر النافذة المفتوحة.

قال السيد ويبزي: «الآن امكثوا حيث أنتم. إننا مرتاحون، إذن فلنتحدث. من السخافة أن تنسحب السيدات بعد العشاء. نحن الرجال لا نريد الجلوس هنا للكلام عن المحذور، ولا تريد النساء الخروج للدردشة حول أغطية المقاعد».

قالت ويلي: «لكنني أريد الخروج بأي حال».

فخرجتُ، وتبعتها أنا ونيكا.

هتف السيد ويبزي: «عُدن. لنمكث هنا لأن المكان مريح».

فأطعناه عائداتٍ لنجده قد خلع سترة نورفوك وعَلَّقها على ظهر مقعده. مال إلى الوراء يشدُّ إبهاماه حمّالتي بنطاله، اللتين تركهما من حين إلى آخر تضربان صدره بصوت خافت، كأنهما اصطدتما بعجين.

ثم تفضّل قائلاً: «إن كان وصيفك يريد رفع الأطباق عن المائدة فليفعل الآن. يمكنه ترك النبيد والمكسّرات».

شرع تريمر في تنظيف المائدة كاظمًا غيظه. تألّقت الشموع على صفحة الماهوجني وأنارت النبيد الياقوتي.

- الآن اذهبي يا زوي لتساعدي ذلك الرجل. ليس تنظيف مائدة ثمانية أشخاص عملاً هيناً. ولأنك عاجزة عن الكلام فلتصباحي ذات منفعة.

غادرت زوي ولم أدرِ قط بما دار بينها وبين تريمر. قدّم ريتشارد السجائر للحضور، لكن السيد ويبزي أشعل غليونيه بلهب شمعة وارشف شرابه.

- قال: «إذن أنتِ مارجریت ویل الشهيرة. يسعدني لقاءك. لقد تأخرنا في إجراء هذا الحديث، أنا وأنتِ، لأن لديّ شكوى منك».
- يؤسفني سماع ذلك. إنني أحاول ألا أضّر أحدًا.
- لكنك تنجحين في عملك، وهذا هو جوهر شكوتي. لا تأخذي كلامي على محمل شخصي. إنني أتحدث إليك بصفتك مُمثلة للكتاب الناجحين؛ إنني أتحدث إليهم جميعًا. لقد كتبتم كل ما تريدون قوله في كتابكم الأول. لكنكم تعيدون كتابته مرارًا. إنكم تعوقون الغير. يوجد أناس يريدون أن يقولوا شيئًا؛ شيئًا لا يشبه التوافه التي هدفها التسلية. لكنهم لا يستطيعون نشر كلمة بسببكم. لماذا تواصلون الكتابة؟
- قالت ویلي بهدوء: «إنني أحب الكتابة. فهي تعيننا على الحياة جسدًا وروحًا...».
- لا تهتمُّ الروح الآن. إن وجود الروح لم يُثبت قط. وسنتحدث عن هذه المسألة لاحقًا...
- سألته ویلي برزانة: «هل علينا الحديث عنها؟»
- لا، إذن لننس هذه المسألة. إنني أرى، مع خالص احترامي، أن كثيرين منكم أنتم الكتاب المُتمرسين قد ادّخروا أموالًا كثيرة بلا شك، ويستطيعون العيش في رخاء دون إعاقه طريق من يريدون أن يقولوا شيئًا جديدًا. إنني أرى أيضًا، مع خالص احترامي، أنكم إن أخذتم عطلة مدتها، لنقل، عشرة أعوام فستُثري هذه الخطوة الأدب الإنجليزي.
- أقرُّ بأن ما يُميّز قولك هو خالص الاحترام. لكنني لم أقل قط أن هدفي إثراء الأدب الإنجليزي.
- لكن إثراء هدفي. لقد حان الوقت لأن ينشغل الروائيون بهذا العالم الذي يتغيّر على نحو رائع. لننظر إلى التطورات حولنا: الهواتف والتليجرافات، الكهرباء والسيارات! وتوجد النساء! لننظر إلى النساء!
- قال جوليان من وراء سيجاره: «سيسرُّنا الحديث عن النساء يا سيدي إن أعدت زوي من المطبخ».

توعده السيد ويبزي قائلاً: «سيحين دورك بعد قليل. لكنني الآن سأكتفي بقول إن زوي في المطبخ لأن هذا هو تُمليه الثقافة الصلِفة الآن. لقد أنتجتُ نساءً بلا عقول، ومطابخ بلا تقنيات. عند تطوير قليل من المكنات ستؤدي المطابخ العمل بنفسها. هكذا سيتسنى للنساء الخروج منها واستخدام عقولهن».

تمتم جوليان: «أتركن أحواضكن واستخدمن أنهانكن».

قالت نيكاً: «أتركن المغسلات وامرحن يا فتيات».

- أتركن البصل والثوم وادرسن العلوم.

- أتركن الأطفال الأشقياء وطالبن بحقوق النساء.

أنبهما السيد ويبزي قائلاً: «توقفا أنتما الاثنان، سأعود إليكما بعد قليل. يجب أن نناقش حال النساء، وشؤون التعليم، ومستقبل الإنسان في الفضاء، واقتراح برلمان عالمي! يجب أن يكون تفكيرنا كونياً! هذا العالم الصغير الذي نعيش فيه لا شيء؛ ذرة من غبار النجوم! إننا حيوانات مُفكِّرة يمكننا، مع التوجيه الصحيح، أن نحلّ مشكلاته في بضعة عقود. ثم نتجه لدراسة علاقة الأرض بالفضاء. ورغم وجود كل هذه الموضوعات لنفكّر فيها ونكتب عنها تغوي التوافه عقول الناس وتشتت انتباههم! إن غباء العقل البشري اللعين يصدمني».

قال دانييل: «لقد صدم الكثيرين. هذه حقيقة يجب تقبلها».

مدّ السيد ويبزي يده نحو سترته، أخرج غليوناً آخر، وأشعله. قال بين نفخاته وهو يحدج دانييل بنظره عبر الدخان: «وأنتم السياسيون! ماذا تفعلون لمواجهة؟ صارحني الآن ولا تخجل».

- إننا نحاول التعامل مع المشكلات عند وقوعها.

- بالضبط! هل سبق أن حاولتم منع المشكلات قبل وقوعها؟ هل سبق أن حاولتم تحفيز وقوع النوع الصحيح من الأحداث؟ انظر إلى الفوضى في جنوب أفريقيا! هل فعلتم أنتم السياسيون أي شيء؟ لا. لقد تركتم القيادة لرودز وجيمسون واليهود، الذين أحكموا سيطرتهم على مناجم الذهب. أولئك هم الفاعلون لا أنتم. وهم لم يتركوا لكم الخيار. لقد

ساقوكم إلى ما ستفعلونه خلال الأشهر القليلة القادمة، وهو إدخال البلد في حرب.

- هل سمعت قط عن معاملة البوير القاسية للسود في ترانسفال؟
نظر ويبزي إلى دانييل باستخفاف وقال: «ستكون هذه حُجَّتكم؟ إنها حُجَّة ضعيفة لعينة. هل تعتقد أن الإمبراطورية البريطانية ستدخل الحرب لمنع بضعة هولنديين من قمع السود؟ لا تمازحني».

لم يمنح دانييل فرصة للرد والتفت ينظر إلى جوليان. قال: «الآن حان دورك يا سيد ريمل. لقد أخبرني ابن خالك ريتشارد عنك».

قال جوليان ضاحكًا: «أمل أن يكون قد وصف شخصيتي بالرائعة بدرجة معقولة».

- أنت مُخلّد.

نطق السيد ويبزي جملة باستنكارٍ شديدٍ جعلنا جميعًا نلقي نظرات سريعة على جوليان، كأنه اتهمه بما هو أسوأ من الاغتصاب، وإشعال الحرائق، والخيانة العظمى.

- أنت تُخلّد الماضي وما فات. ولا تهتم بالمعالم التي على مرمى حجر منك. تنقّب عن المعالم التي تركتها البشرية وراءها في مسيرتها. تكدّسها في متحف فارضًا الرسوم على دخوله. لست سوى مُلتفتٍ إلى الوراء.

سأله جوليان: «ألا ترى أن لبعض الأشياء قيمة لا تختلف باختلاف الزمان؟ ألا توجد حقيقة وجمال لا يتغيران أبدًا؟».

- ماذا تظنني؟ طالب في مدرسة ابتدائية حكومية؟ لا يعني هذا أنني لم أذهب إلى إحدى تلك المدارس. فتلك هي البداية التي تُفرض عليك عندما تحاول أمك إعالة أسرتك ببيع الأحذية في متجر صغير. في الحقيقة لقد باعت مُلمّعات الأحذية وأربطتها أكثر من الأحذية نفسها، ولا تشبع العائلات من بيع تلك الأشياء. على كل حالٍ لستُ طالبًا الآن. إنني أدرك الحقيقة والجمال. وأعلم بما تدعوه للفريد قيمته. لكن دعني أخبرك بالتالي: يوجد نبذ جديد، إنه يختمر في كل مكان. وعليك أن

تعثّر على زجاجات جديدة لجمعه لا أن تُرينا كيف أنتجه السابقون. هذا هو الواجب. ربّاه! ألا تشعر بالاختمار؟ إنه يملأ العالم وسيقضي على كل شيء، الصالح والطالح، مثل: الحروب، والمَلَكِيَّة، ومبدأ الوراثة في التشريع. هذا محتوم، وكيف لنا أن نمنعه؟! هذا هو السؤال.

سأله دانييل: «والجواب؟».

- الجواب هو إرادة الإنسان. لا يُعجِز إرادة الإنسان شيء، شريطة ألا تشنّتها التوافه.

سألته ويلي: «هل إرادة الإنسان أحد الأمور الجديدة التي تختمر؟ ألم تكن موجودة دائماً؟».

- لكنها لم تكن قادرة مثلما هي الآن. ولم تملك قط الأسلحة التي تمدّها بها العلوم الحديثة. إن بروسبرو يُعلّم كالبان أسرارهِ، وأؤمن أن كالبان يمكنه استيعابها واستخدامها⁽¹⁾.

نهض يتجه إلى الباب المؤدّي إلى مطبخ تريمر، وهتف: «زوي! هيّا! يجب أن نرحل الآن».

قلتُ: «إنني أشعر بخيبة الأمل يا سيد وبيزي. لقد قرأت طالع الجميع سواي. لم استنيتيني؟».

ارتدى سترته وهو يدقق النظر إلَيَّ أنا وويلي. ثم قال بقسوة: «لا جدوى من إجراء هذا الحديث مع من هم في منتصف عمرهم. لقد قطعوا شوطاً طويلاً من عمرهم ويتجهون إلى ما ظلُّوا طوال حياتهم يقصدونه. لا يوجد الكثير مما يمكن فعله لتصحيح مسارهم. كل ما يمكنك فعله هو الاعتناء بابنتك. لا تدلّليها. اسمحي لها بأن تدرك حقيقة الحياة. أرسلها إلى جامعة لندن. امنحها الفرصة لتعلم بعض الشيء عن العلوم والاقتصاد. (لَوْح بيده المكتنزة قائلاً) ألقي بها إلى مهب الرياح».

(1) شخصيتان في مسرحية «العاصفة» لويليام شكسبير. كان بروسبرو، دوق ميلانو المنفي، ساحراً طبيّاً موهوباً، شغوفاً بالقراءة. حاول تعليم خادمه كالبان، المسخ الدميم، لغة البشر وسلوكياتهم. م

عندئذٍ رفرفت الستائر ببطء داخل الغرفة مثل أجنحة عملاقة، وهبَّت نسمة عبر النافذة المفتوحة حرَّكت لهب الشموع التي كادت تنطفئ، كأن الوجود يشدُّد على كلمات السيد ويبزي. ووسط الحرارة التي تشتد منذ ساعات سمعنا ارتطام قطرات المطر الكبيرة بالسقف.

قال تريمر: «يؤسفني قول إن عاصفة رعدية في بدايتها يا سيدي». وراء النافذة ومض البرق ودوَّى الرعد. قال ريتشارد: «يجدر بك الانتظار حتى تنتهي العاصفة يا أ. ب.».

- لا، يعجبني هذا الجو. إنه عظيم. مهيب. هيا يا زوي.

ثم تمنى للجميع ليلة طيبة وانطلق للرحيل. تبعه ريتشارد فتبعته بدوري. فتح تريمر باب المنزل، ودفع السيد ويبزي دراجته التي استقرت في الردهة إلى الخارج. عبر الباب رأيت المطر يتساقط وابلًا ورذاذًا. اتخذ السيد ويبزي المقعد الأمامي. أمَّا الأنسة مونك، التي انكششت بلوزتها البيضاء فور أن خرجت إلى المطر، فاتخذت المقعد الخلفي.

هتف السيد ويبزي في مرح: «ستغمرك الأمطار يا زوي. لا بأس. سنصل قريبًا وسنبذل ثيابك».

لَوَّح لنا يودِّعنا ورنَّ جرس الدراجة. ثم انطلقا يقودانها بسرعة رأساهما محنيَّان، تهسهس العجلتان المتصلتان بالقضبان الفضية. شاهدناهما حتى أصدر الجرس رنينًا وداعيًا إذ انعطفا عند الناصية.

سأل ريتشارد: «هل نفعلك وجود الأنسة مونك في المطبخ يا تريمر؟».

- أجل يا سيدي، كأنها خلقت لأداء هذا العمل.

الفصل الثالث والعشرون

1

عادةً ما أفكّر في حفل العشاء في شقة ريتشارد على أنه نقطة المنتصف في مسار حياتي. لقد أمضيت سنوات عمري بالتساوي تقريباً بين قرنين. وكان ذلك العام الأخير في القرن الأول منهما. يرى معظم الناس القرن العشرين، حيث تتفجّع الإنسانية وتنوح، عصر الفواجع. إن حياتنا الآن تشبه العيش في الغرف التي تعلو الإصطبلات. الأرض تحت أقدامنا واهية دقيقة، ونستطيع سماع الوحوش أسفل منا. نعلم أنهم ليسوا الدواب المُستأنسة المطيعة، التي تتحرك وفقاً لأوامرنا وتعمل لخدمتنا. أحياناً يتجمد الدم في عروقنا عندما نستمع، في ليالي الوحدة المظلمة، إلى حركتهم المُتوّعة، وحوافرهم التي تنبش التربة، والأنفاس الخشنة التي تزفرها أحلاقهم المتأججة. نتصور أعينهم ترتفع إلى سقوفهم، التي هي أرضياتنا الواهنة؛ تلك الأعين القاسية، الخضراء الفاتحة أو العسلية، التي تلمع فوق فكوكهم المتدلّية جوعاً. أحياناً، في أحلامنا، تتلاشى الأرضية، ونتبادل نحن والوحوش الأدوار، فتعمّ الفوضى. من لم يعرفوا من الدنيا سوى ما مثّل منها النصف الثاني من حياتي يشعرون بالغیظ والنقمة عند التفكير في سنوات النصف الأول منها. يرونها مراعي خضراء وأنهاراً هادئة، ويتحدثون عن الصباحات الطويلة الثمينة والمساءات الذهبية في العصر الفيكتوري. لكنها لم تكن كذلك. كانت

الوحوش موجودة حينئذٍ. دائماً ما توجد الوحوش. دائماً ما يقع مأوانا بينها وبين نجوم السماء التي، فيما يبدو، تنظر إلينا وإليها في ثبات، كأنها تتوقع بهدوء ولامبالاة أن الحمقى في مأواهم سيتنازعون تنازعاً شديداً، حتى إن الأرض أسفل منهم ستتهشم.

دائماً ما كان البشر متنازعين، وبمرور الزمن يُفَاقِمون وطأة تنازعهم. والسؤال الوحيد الذي يطرح نفسه هو: هل سيتوقفون، أم ستُجاوَز وطأة تنازعهم الحدّ؟

دائماً ما كان البشر في تنازع. لقد عشت طويلاً بما يكفي لأدرك هذه الحقيقة. إنني أقرب من بلوغ عامي التسعين وأنا أكتب هذه الكلمات. لقد وُلدت في عهد رأيت فيه بعينيّ دوقاً شارك في معركة واترلو. ثم شاهدت الفقاعة الكريستالية مُشيّدة، وسمعت الحديث عن السلام على الأرض. ثم رأيت رجال حرب القرم، من فقدوا أرجلهم وأذرعهم وأعينهم وآمالهم، جالسين أسفل قضبان هايد بارك يمدون أوعيةً صفيحيّة تسوّلاً، ونحن نتنزّه بالعربة داخل الحديقة حيث انحنت أُمي تحية للبعض وتعامت عن البعض الآخر. أصبح أبي فارساً لأنه ساهم في كسب الحرب. وقد أحببت اللورد بيرندج الذي شارك في هجوم اللواء العسكري الخفيف في تلك الحرب، ومَسَدْتُ خاصرة الدّابة الجميلة التي ساهمت، هي ومثيلاتها، في إلهام تينيسون كتابة القصيدة التي أثارت دهشتنا وفخرنا جميعاً. تلا ذلك أهوال التمرد العسكري في الهند، وفي واحد من صباحات كورنوال الهادئة شاهدت أخي غير الشقيق جاستن يبتعد بعربته لأن التنازع كان قائماً، ولم يعد قط. لقد حدث هذا منذ زمن طويل، حتى إن اللحظة حيث اختفى عن أنظارنا وعدنا إلى منزل تريسانت المُجدّد بدت، عند انتهاء ذلك القرن، لحظة ضاعت في ضباب الأحلام.

لقد وقع تنازع في «الصين»، ولقي اللواء تشارلز جورج جوردن حتفه في «الخرطوم»⁽¹⁾، وهَزَمْنَا البوير هزيمة نكراء في موقعة «تلّ ماجوبا»⁽²⁾. لقد رأيت السفن الخشبية ذات الأشرعة تصبح سفناً مُدَرَّعة ذات مراجل، والبنادق تصبح مدافع رشّاسة، والكرات المدفعية تصبح متفجّرات. وأخيراً، عند نهاية القرن، رأيتُ الجندي على الخيل الرمادي، الذي شاهده نيكّا بحماس يقود الموكب الكبير تجاه «كاتدرائية القديس بول» يوم الاحتفال باليوبيل الماسي، يقود موكباً كبيراً إلى بول كروجر في جنوب أفريقيا لخوض حرب البوير الثانية. وكثيرون ممن رحلوا معه لم يعودوا، من بينهم ريتشارد وترير وتوم تشادرتن المسكين.

كانت تلك هي الصباحات الثرية الطويلة والمساءات الذهبية في العصر الفيكتوري.

2

عندما أتأمل حالنا الآن يبدو لي أننا لا نزال كما كنا في ذلك العصر؛ لم نتقدم أو نتأخر. نحن ما كان عليه قابيل عندما تناول حجرًا وهشَّم به رأس أخيه. نحن مجرمون نستخدم عند القتل أي وسيلة نجدها حولنا. إن الوسائل تتطور، وتصبح أكثر فتكًا. والآن أصبحت تزداد فتكًا بسرعة كبيرة، حتى إن أرض مأوانا قد رَقَّتْ لتشبه غشاءً يضطرب جرّاء الفوضى. إنها الآن أكثر هشاشة، أكثر هشاشة بكثير، من الجدران الكريستالية التي أحاطت وهمي الطفوليّ.

(1) التنازع المقصود هنا هو تمرد تايبينغ: حرب أهلية نشبت في الصين، وامتدت من عام 1850 إلى 1864. قاد اللواء جوردن «الجيش المنتصر دائماً»، الذي تكوّن من جماعة من الجنود الصينيين بقيادة ضباط أوروبيين، ولعب دورًا كبيرًا في قمع التمرد. أصبح جوردن الحاكم العام للسودان، وقُتل يوم اقتحام قوات المهديّة الخرطوم عام 1885 م.

(2) المعركة الأخيرة الحاسمة في حرب البوير الأولى. م

لقد شكّل رجال لندن «جنود الإمبراطورية المُتطوِّعين». لكن البعض، من بينهم أ. ب. ويبزي، دعوهم «ضحايا تشامبرلين الأبرياء»⁽¹⁾. منحتهم قبعاتهم المائلة عريضة الحافات، وبذلاتهم الكاكية، ولغافات سيقانهم، مظهرًا بطوليًا أثار حماس جميع من رأوهم. وسيرسم ريتشارد كاتون ودقيل لوحة لأحدهم، تصوّره بضمادة ملطّخة بالدماء حول رأسه، في يده بندقية ذات حربة، ويبدو الذهول في عينيه، ستصبح تلك اللوح تجسيدًا لـ «المُعوز مشغول البال» في قصيدة روديارد كيبلينج؛ «ذلك الرجل ذو البذلة الكاكية الخادم وطنه جنوبًا»⁽²⁾.

لقد غالبتني عاطفتان. كنت فخورًا بريتشارد، إذ توجد في قلب الأم عاطفة لا منطقية تجعلها فخورًا برؤية ابنها يرتدي الزي العسكري. لكنني كنت خائفة أيضًا. لقد تكلم ريتشارد مثل الأطفال. تحدث عن الخروج لإتمام ما بدأه الخال جاستن، كأن ثمة أي تنمّة، أي نهاية، لهذا الطريق. لكنه، في نهاية المطاف، لم ينضم إلى سلاح الفرسان. لقد انخرط هو وترير في الجيش جنديين. لكنني لم أعلم شيئًا عن هذا الأمر حتى حصلنا على بذلتيهما العسكريتين، ثم قدما لزيارتي. لم تكن نيكا في المنزل. قدمت لهما الشاي، وسرّني ملاحظة موهبة ريتشارد في جعل من حوله يشعرون بالارتياح. لم يرتبك تريمر عند جلوسه لتناول الشاي معنا كما هو متوقع. كان يكبر ريتشارد سنًا وخبر العالم حتى أصبح بمنزلة والد الفتى. امتلك دراية بالحروب أيضًا، إذ انقضت فترة خدمته

(1) كان جوزيف تشامبرلين وزير الدولة للمستعمرات. دعم مخططات عدّة لتوسّع الإمبراطورية البريطانية في آسيا وأفريقيا وغرب الإنديز. كان أحد المتواطئين في شنّ غارة جيمسون. ويتحمل مسؤولية كبيرة في التسبب في وقوع حرب البوير الثانية. م

(2) حالما اندلعت حرب البوير الثانية بدأت الحكومة في تعبئة جنود الاحتياط. شكّل هذا كارثة واجهها عديد من العائلات الفقيرة، إذ فقد معظمها مُعيلها الوحيد. لهذا أطلق عدد من الصحف حملات خيرية لجمع التبرعات لصالح عائلات جنود الاحتياط. وقد استجاب كيبلينج لاندلاع الحرب عمليًا. لقد كتب، في غضون أيام، قصيدة «المُعوز مشغول البال» التي ساهمت في الحث على التبرع. م

في الجيش قبل بضعة أعوام بعد مشاركته في معركة «أم درمان». لم أكن أعرف هذه الوقائع عن حياة تريمير، وأنا واثقة أنني لم أكن لأعرفها قط لو اختلفت الظروف. شعرت برقته ولباقته في الإشارة إلى ماضيه على هذا النحو الآن. كان يحثني على الابتهاج. كان يخبرني أن ابني في يد أمينة.

- لا داعي لأن تقلقي بشأن السيد ريتشارد يا سيدتي. هذه الحرب هينة. لقد عشت ما هو أسوأ. سيثبت السيد ريتشارد جدارته وسيترقى ضابطاً، وسأصبح الجندي المرسل الذي يخدمه. سأعتني به.

بعدئذٍ حاولنا الحديث في أمور ثانوية، وأعطاني ريتشارد كتاباً. قال: «أعتقد أنك ستحبين قراءة هذا. إنه كتاب أ.ب. الأول».

في ذلك الوقت لم أكن مهتمة بالكتاب الأول للسيد ويبزي، الذي سيليه كتب كثيرة. لهذا وضعت الكتاب على الطاولة وسألته بحدّة بعض الشيء: «هل سدّد دينه لك؟».

- كيف تعلمين بهذا بحق السماء؟ على كل حال أجل، لقد فعل. كثيراً ما أقرضته المال ودائماً ما سدّده. إنه عفيف النفس في مثل هذه الأمور، لكنه ليس كذلك فيما يتعلق بالنساء.

أخبرته أنني خمنت ذلك، إذ كان السيد ويبزي أعزب لكنه يمتلك دراجة لشخصين.

أردف: «لقد رحلت زوي المسكينة، التي لم تكن الأولى، وحلّت محلها امرأة أخرى. لكنني لم أره مؤخراً. إنه مؤيد لحرب البوير، وقد خضنا مشاجرة». قال تريمير: «ذلك الفتى ليس بالجيّد».

اعترض ريتشارد: «بل هو جيّد حيناً وسيئ حيناً مثلنا جميعاً. إنه صعلوك، لكنه صعلوك عبقرى. سيذيع صيت أ.ب. ويبزي. سيسطع نجمه».

- حسناً يا سيدي. علينا المغادرة الآن. توجد عدة مهام يجب أداؤها.

ذهبت إلى الباب أشاهدهما يغادران. شابها بطلين وقاطعي طريق في الوقت نفسه، وهما يعتمران قبة من اللباد، أحد جوانبها مرفوع عالياً. لكنني لم أتوجّس شراً مثلما حدث عندما شاهدت جاستن. لم أشعر بأن تلك هي نظرتي الأخيرة لهما. لكنها كانت كذلك. كان دانييل من أدّى المهام نيابة

عنهما: بيع عربية «بروم»، وفسخ عقد إيجار المنزل، وتخزين الأثاث، وما إلى ذلك. لقد أُخبرتُ عبر الهاتف أنهما نُقلا فجأة إلى منطقة أخرى من البلد، وسرعان ما استدعيا للحرب في الخارج.

4

على مدار سنوات حياتي لم أشعر بحزنٍ شديد كالذي انتابني في عصر ذلك اليوم من شهر مايو عام 1900، عندما ذهبت إلى برمندزي لأرى سالي. كثيرًا ما زارني الحزن. لقد أحزنني دانييل، وأحزنني ريتشارد. وفي طفولتي في تريسانت أمضيت بعض الأوقات وحدي بجوار البحيرة أو المحيط، حيث انتابني حزن شديد لا تفسير له، رغم حلول ربيع الانتعاش أو صيف الحيوية. لكن تلك الأحزان لم تدم. في تلك الظروف دائمًا ما كان ينشأ في نفسي شيء، شيء يتسامى فوق الشعور بأن العالم يبكي ألماً على وحدته وضياعه. فأعود إلى الحياة بعد الموت كأُنني لعازر الذي أحياه المسيح؛ أدركُ حقيقة القبر ولا أنساها أبدًا، لكن أصبح حيّة أشعر بضوء الشمس يغمرني.

ما ساءني في ذلك اليوم هو الجنون الذي اتخذ ثوب الفرح. لقد أوقفتُ عربية يجرُّها فرس هزيل، يقودها حوذيّ يمسك اللجام بيدين مُتورمتين رأيت بهما عُقدًا، وينظر إليّ بعينين حمراوين حزينتين كأنه كلب عجوز، فيما أخبره بوجهتي. لقد علمت أن حصار «مافيكينج» الطويل في جنوب أفريقيا قد انفك، لكنني لم أتوقع أن يؤدي هذا الخبر إلى تلك العواقب. كانت المشاهد مريبة. بدا كأن الجميع تركوا العمل. بينما تتقدم العربية ازدادت كثافة الحشود في الطرقات. سار الرجال والنساء في صفوف، وتشابك عشرات منهم الأذرع بعرض الطريق. كانوا يهتفون ويغنّون. يتبادلون القبعات، ويلوِّحون بالخشيشات. ينثرون قصاصات الاحتفال، ويعزفون الهارمونيكا والكونسرتينا. كانت توجد فرق موسيقية تحمل الطبول والصفارات والأرغن اليدوي، تعزف الأغاني الوطنية، مثل: «جنود الملكة»، و«وداعًا يا دوللي، يجب أن أرحل عنك». رقص الأهالي وعلت أصواتهم. بجوار العربية كانت فتاة ترتدي تنورة فضفاضة تؤدي حركة العجلة الجمبازية ما سرَّ أعين الرجال. رأيت

كثيرًا من ربطات العنق الكاكية والحمراء. تزينت السُّترات بأشرطة حمراء وبيضاء وزرقاء. وازدانت بأزرار تحمل صور فريديريك روبرتس وهربرت كتشنر، روبرت بايدن-باول وجورج وايت؛ وجميع من رفعهم جنون اللحظة إلى مقام الآلهة. بدأت الحشود تتسلَّق العربة. كان الفرس يتحرك ببطء شديد، لهذا سهل عليهم تسلُّقها. لم يمكنه سوى التقدُّم سيرًا، إذ ازدحم الطريق مثل الأرصفة. أصبح الرجال واقفين على سطحها بخشخشياتهم. ثم انفتح بابها ودخلها البعض. كان من بينهم فتاة الجمباز، تبعها شاب أثارته رؤية مناطق محظورة. جلسا متراخين في المقعد قبالتني يتبادلان القبلات، ويتخطَّيان حدود الأدب على نحو مشين. جلس على جانبيَّ رجلان ثملان بفعل اللحظة والشراب. نظرًا إلى القفز والدقُّ على السطح، والتشابك قبالتني، وثقل الثمالة على جانبيَّ، توقعت أن تسقط العربة في أي لحظة. كنت فزعة، وفي الوقت نفسه انتابني حزنٌ كان من العمق ما لم أشعر به يومًا. لكن لم يوجد شيء أستطيع فعله. كان خروجي من العربة يعني الابتعاد عن بضعة وحوش يُحجِّمها قفص للانضمام إلى حشود الغابة المسعورة. لهذا لزمتم موضعي أرتجف.

شبَّك الشابان أيديهما، فملأني الذعر والتقرُّز عند التفكير في أنني قد أضطر إلى مشاهدة الطقوس الأخيرة في حفل مجونهما. لكنهما فتحا الباب ليغادرا العربة. ومثل كرميتين متشابكتين تسند إحداهما الأخرى شقًّا طريقهما وسط الحشود يقصدان شارعًا جانبيًّا.

الآن كنا نمرُ بمنطقة من المدينة أكثر هدوءًا وقذارة، حيث الشوارع أضيق والحشود أقل. قفز الرجال من سطح العربة أرضًا. وانتقلتُ إلى المقعد الأمامي تاركَةً الرجلين يتمايل رأس كل منهما على كتف الآخر لا كتفيَّ. كانا في العربة عندما وصلت إلى باب منزل سالي. وبدافعٍ من شعوري بالخلاص منحت الحوزي العجوز أجرة سخية، وأخبرته أن يصطحب الرجلين ويلقي بهما حيث يشاء وسط دوامة الاحتفال فخرًا بالوطن.

حتى هنا، في تلك الحفرة البائسة التي تُسمَّى شارعًا، انبسطت الأعلام وامتدت حبال الرايات من أحد جانبيه إلى الآخر. رقصت نساء كبيرات السن

غير مرتبات المظهر رقصاً عفويًا. وذرع الطريق صبية يرتدون نسجًا مطابقة
للبدلات العسكرية، وهم يغنون:

اللورد كتشنر وروبرتس
بولر ووايت الألوية
جنود بلدنا الأشاوس
متأهبون للقتال والتضحية
وعندما نمسك بكروجر
كم سيصبح سعيدًا
سنقوده إلى إنجلترا
وسنبداً مرحًا صاحبًا خطيرًا

في مطبخ سالي خارت قواي. أمضيت معها تلك الليلة، إذ ساءت الأوضاع
مقارنة بالنهار. ولم أجرؤ على مجابهة الصراخ الذي تخفى وراء قناع الفرح،
في محاولة للإفلات من حياة أفزع من أن يستطيع البشر احتمالها. لقد
ساعدتني عبارة قالها لي دانييل في أن أرى حقيقة الأمر. كنت مضطربة عندما
غادرت منزل سالي في صباح اليوم التالي ورغبت في الصحبة. لهذا طلبت
من الحوذي أن يتجه إلى مجلس العموم، وبعثت برسالة إلى دانييل أخبره
بوصولي. خرج وأخذني إلى شُرفة البناء المطل على نهر «التمز» لنتناول
الشاي.

قال بمزاج رائق للغاية: «علينا أن نحتفل يا سارا. يجب أن نطلب الشمبانيا
لا الشاي».

نظرْتُ إلى الفتى الذي قابلته في مونتروي قبل سنوات عدّة ولم أحر
جوابًا. أحيانًا كنت أشعر أنه الآن غريب عني أكثر مما كان عندما قابلته أول
مرة بجوار البركة في حديقة المنزل الهادئة. في تلك اللحظة فصلتُ محيطات

بين شعور كل منّا. صببت الشاي وارتشفته راضيةً أتطلع إلى بريق شمس مايو على المدّ القادم، الذي يتغصّن عند مقابلة النسيم المُعاكِس.

قلت: «لا أرغب في الاحتفال. لقد رأيت من الاحتفالات الأمس ما يكفيني طويلاً».

- كان هذا عرضاً حماسياً لشعور العامة، أوضح أن الشعب يؤيد الحكومة تأييداً تاماً.

لم أرغب في مناقشته في هذا الأمر لأنني رأيت أن تأييد أيّ شعبٍ حكومته تأييداً تاماً ليس مُجدياً، ولا يزال رأيي نفسه لم يتغير.

أردف: «يوجد سبب وجيه للاحتفال. إننا نتخطى وضعاً صعباً. سيكون فيما يحدث ضربة موجعة للقيصر فيلهلم»⁽¹⁾.

- ما علاقة القيصر فيلهلم بهذه المسألة؟

نظر إليّ تعلو الدهشة وجهه المكتنز المتورّد. كانت تلك استجابته لمعظم ما أقول: يعلو وجهه التساؤل كيف يمكن أن يعيش فرد في هذا العالم جاهلاً بما يدور فيه.

- أنت لا تعتقدين أنه سعيد بهذه الأحداث، أليس كذلك؟ هل نسيت البرقية العاجلة التي أرسلها إلى كروجر عندما اضطرّ جيمسون إلى التدخل في جنوب أفريقيا؟ لقد هنّأه على نجاحه في صدّ غارة جيمسون «دون طلب الاستعانة بقوى صديقة». لقد استخدم تلك الكلمات، كتب: «قوى صديقة». لقد أهاننا. هذا واضح، أليس كذلك؟ رغم أنه حفيد الملكة! لكنه لا يحبنا نحن الإنجليز يا عزيزتي. ويوماً ما، تدكّري كلامي، سيكون علينا إلزامه حدّه.

مرّت غيمة حجبت ضوء الشمس. بدا فجأة أن النسيم الذي قابل المدّ ازداد برودةً، وأن تيارات المدّ فقدت بريقها وأظلمت. كانت قادمةً من مصبّ النهر

(1) فيلهلم الثاني، ابن فيكتوريا أميرة بريطانيا وإمبراطورة ألمانيا وفريدريش الثالث إمبراطور ألمانيا؛ الحفيد الأول للملكة فيكتوريا. تُوجّ إمبراطوراً للإمبراطورية الألمانية بعد وفاة والده عام 1888. أدّى تناقض موقفه تجاه بريطانيا إلى توتر العلاقات بين البلدين. كان من المساهمين في اندلاع الحرب العالمية الأولى. م

العريض في «بحر الشمال»، الذي يُعرف باسم «المحيط الألماني»، وفقاً لما تشير إليه الخرائط.

قال دانييل: «بالتأكيد لا يمكن النظر إلى شيء مثل تلك البرقية وحدها. يجب النظر إليها في ضوء الاتجاه العام لسير الأوضاع. يوجد الفرنسيون، ولا أعتقد أنهم نسوا ما حدث في عام 1870»⁽¹⁾.

في طريقي إلى المنزل فكّرت أن الفرنسيين بالطبع لم ينسوا شيئاً. لا أحد، فيما يبدو، ينسى أي شيء. وجميع الأشياء تؤثر في الاتجاه العام لسير الأوضاع. فجأةً اقتحمتُ خيالي رؤيةٌ حول الاتجاه العام لسير الأوضاع، رأيتُ فيها المُحتفلين بالأمس قطعاً من الهمج المُضللين، يصيحون ويرقصون على منحدر بركانٍ يهتزُّ ساخراً مما سيقع.

5

- أنتِ قلقة بشأن ريتشارد.

هذا ما قاله دانييل عندما عاد في وقت متأخر جداً في تلك الليلة. لقد استحالت علاقتنا رفقةً هادئةً غريبة، ومعها نشأت عادات قليلة جديدة. من بينها أنه مهما تأخر في عودته إلى المنزل كان يأتي إلى غرفتي. وإن وجدني مستيقظة يجلس في المقعد بجوار سريري، يرتشف بعض الويسكي ليساعده على النوم، ويتحدث إليّ قرابة عشر دقائق قبل ذهابه إلى غرفته. في تلك الليلة، بعدما تناولنا الشاي معاً نهاراً، وجد حرارتي مرتفعة وعينيّ نديّتين. لا شك أن قلقي بشأن ريتشارد ساهم في مرضي حينئذٍ، لكنني كنت قلقة بشأن أمور أخرى أيضاً.

قال: «يجب أن يفصحكِ الطبيب».

(1) في عام 1870 وقعت الحرب الفرنسية البروسية (الألمانية) بين الإمبراطورية الفرنسية الثانية، والاتحاد الألماني الشمالي بقيادة مملكة بروسيا؛ سعيًا من فرنسا إلى تأكيد مكانتها المهيمنة في أوروبا، التي هدّدها طموح بروسيا إلى توحيد ألمانيا، بخاصة بعدما انتصرت في حربها ضد النمسا كخطوة في تحقيق ذلك. م

كانت الساعة الواحدة صباحًا، فأجبت: «لا شك أن الطبيب يكسح في العمل طوال اليوم، والآن يحصل على بضع ساعات من النوم. إن لزم مجيئه فانتظر حتى الصباح».

لكنه نهض عازمًا على الخروج، فمددت يدي كي أوقفه. لكنه أمسك بيدي قائلاً: «حرارتك مرتفعة جدًا. يجب أن أذهب لأستدعيه».

وقف في موضعه بضع لحظات، لا يزال مُمسِكًا بيدي، تبدو الرأفة في عينيه.

قال: «أنتِ تقلقين بشأن كثير من الأمور. (صمت لحظات، ثم أردف) أنتِ رائعة. رائعة... أنا...».

ثم أسقط يدي، وطبع قبلة على شفتي، ثم هرول خارجًا وهو يقول: «سأذهب في الحال».

كان طبيب عائلتنا يعيش على بعد بضعة منازل. رقدت في سريري أنتظره، وأفكر في طيبة قلب دانييل واهتمامه بي. شعرت بالامتنان له. كان من اللطيف أن أحظى بمن يعتني بي إذ شعرت بأن الحمى تخنقني. ورغم الدوار الذي أصابني كان ذهني صافيًا. أدركت أن امتناني لاهتمامه يشبه ما قد أشعر به نحو غريب قد يساعدني إن أصبت في حادث قطار. جعلتني تلك الفكرة أشعر بوحدة شديدة، واجتاحني موجة من الحرارة غمرتني من رأسي إلى أخمص قدمي.

قال الطبيب لينز كل إنني أعاني الإنفلونزا. أعطاني مُسكِّنًا ووعدني بالزيارة صباحًا.

6

إن صُحبتني ويلي قد عرّفتني إلى كُتّاب كثيرين، يمكن تصنيفهم على أساسات كثيرة. من بينها تصنيفهم إلى فئتين: الاجتماعيين الذين يهون الوجود في قلب الأحداث، ومن يفرون منها كأنها الطاعون. دائمًا ما يتحمس أفراد النوع الأول للزود عن «الأدب» في التجمعات العامة، وإلقاء الخطابات

الرسمية في اللقاءات، وحضور المجالس والمؤتمرات والاجتماعات؛ والظهور في المناسبات حيث يجلس الكتّاب الكبار الأكثر شهرة الذين ينتمون إلى النوع نفسه وسط البهرجة، يسمعون المديح ويتلقّون التكريم ممّن يتمنّون أن يحتلّوا الموقع نفسه ذات يوم.

دائمًا ما أبغضت ويلي سِرْب الإوزِّ الاجتماعي المتفاخر ذاك. لكنها الآن، كما وصفت حالها ساخرة، قد أصابتها الشهرة. لقد نُشر كتابها الخمسون. واغتنم أحد النقاد هذه الفرصة للحديث عن مارجريت ويل وحياتها المهنية لا عن كتابها الجديد فقط. كان المقال ذكيًا مُنصفًا، أوضح للقراء أن أساس نجاح هذا الكتاب الأخير جدية في العمل ووجهة نظر متماسكة -بالأحرى فلسفة حياتية- ستمنح هذه الكاتبة مكانة خالدة، وإن لم تكن بارزة، في الأدب الإنجليزي.

ثم أرسلت صحيفة «ديلي ميل» مراسلًا ليجري معها حوارًا. أفصحت فيه عن أنها كانت من ضيوف تشارلز ديكنز في منزله «جاذزهل»، وتحدثت إلى تينيسون، وتوماس كارليل، وكثيرين غيرهم لم ينل شيء من منزلتهم العالية بعد.

الآن أصبحت ويلي تذهب إلى كوخها في «هارتفوردشير» في نهاية كل أسبوع، وكان من المتفق عليه أن ترافقها نيكاً إليه دائماً. بعد ظهيرة يوم أحد زارها كاتبان واعدان هناك، قدّمت لهما الشاي وتجاذبوا أطراف الحديث. سرعان ما ذاع هذا الخبر فأتى المزيد لزيارتها. أصبح من المعروف أن الأنسة ويل تستقبل الزائرين بعض ظهيرة الأحاد من الثالثة حتى الخامسة. وقد تجد في كوخها قرابة عشرين شخصاً من الشخصيات البارزة، أو الطامحين إلى أن يصبحوا كذلك، أو الموهومين بأنهم كذلك، يتناولون شايها ويأكلون كعكها. أظن أن ويلي وجدت اللقاءات الأسبوعية مُسليّة على نحو يثير السخرية، لكن نيكاً استمتعت بها كثيراً. وكانت هيببي، التي تساعد جلوري جاين في مهام المطبخ، جزءاً من تلك المناسبات.

عندما تعافيت من الإنفلونزا دعنتي ويلي إلى أن أمضي فترة النقاهة في ذلك الكوخ. حدث هذا في يونيو. ظلّت نيكاً هناك بعد عطلة نهاية الأسبوع كي تستقبلني يوم الإثنين وتمكث معي. لم أكن قد ذهبت إلى ذلك المكان من قبل،

وسحرنى ما رأيته. شابه الكوخ أمثاله في لوحات بيركت فوستر. واجه ساحة عادة ما يتجول فيها الإوز. سبح البط زاعقاً في بركة أمام نُزُل في الجوار، ودسّ رأسه في مياهها باحثاً عن طعامه. لف تلك البقعة هدوء فردوسيّ كالذي ميّز القرى الإنجليزية في تلك الأيام، قبل وصول البترول ليبثد السلام على الأرض ويلوث السماء.

أحاط بواجهة الكوخ ونوافذه الزجاجية المُعشّقة بالرصاص تعريشات تدعم زهور الياسمين والعسلّة والورود، التي أخفت جدرانها وتسَلّقت نحو بلاط السطح الذي تكسوه الطحالب.

قام الكوخ على أرض مرتفعة قليلاً. كانت غرفة الجلوس واسعة تكوّنت من عدة غرف صغيرة ضُمّت معاً. وأطلّت نوافذه على منظر بهيج. كانت الحديقة أمامك؛ أرضٌ عشبيّة مُعتنى بها جيّداً بلغت مساحتها فداناً. ظلّت شجرة جوزٍ منتصفها، وأحاط بها سياج من شجيرات الطقسوس الكثيفة، التي تنتصب مُشدّبة متناسقة كأنها أسوار الحصون. وراء الحديقة انحدرت المراعي على مهلٍ نحو جدول. وعند الجانب البعيد من ذلك الجدول ارتفعت الأرض عاليًا بخفّة، لتشكّل حافة جبلية حيث اصطفت أشجار الزّان.

كان موضعاً جميلاً. وقفتُ عند النافذة المفتوحة أستند بإحدى يديّ إلى مقعد، إذ كنت لا أزال واهنة، أشاهد الغربان تحلّق فوق أشجار الزّان؛ أشجارى المفضلة.

مكتبة سر من قرأ

قالت نيكاً: «وهذا هو العرش يا عزيزتي».

التفتُ لأنظر إليها حيث وقفت تشير إلى مقعد كبير، تصورتُ ويلي تجلس في أحضانه ملكة. لكن من رأيته الآن جالسةً فيه أمامي كانت نيكاً، وأمّي. لقد مرّت الشمس فوق سطح الكوخ، والآن كانت تنحدر ناحية أشجار الزّان، فسَلَطَتْ ضوءها تجاه النافذة. ورغم أن ابنتي حينئذٍ كانت يافعة فإنها ذكّرنتني بأمي، التي نادراً ما تذكّرتها، في لحظة عاشت فيها سعادة كبيرة. كنت أصغر نيكاً سنّاً عندما رأيتهما واللورد بيرندج على صهوتي جواديهما يقطعان الحاجز الرملي قبل سنوات طويلة، إذ المحيط على يميني يقذف بأمواجه إلى الشاطئ. كانت أجمل امرأة رأيتهما عيناى. والآن أستطيع أن أتصور ما جال في قلبها ذي النبض السعيد وهي تسألني: «هل أنت سعيدة

يا عزيزتي؟». لكنني الطفلة الكثيبة لم أعلم إن كنت سعيدة أم لا في غمرة الاضطراب الذي شهدته حياتي.

الآن شعرت بالسعادة لأنني لم أفعل ما يتسبب في اضطراب حياة نيكاً رغم أنني استطعت فعله. نظرتُ إلى الفتاة التي تفوق أقرانها طولاً، وإلى حُسْنها الذي أعاد إلى الحياة جمالاً فتأتاً في لحظة من لحظات إشراقه. سرْتُ إليها وأحطتها بذراعي أسألهَا: «هل أنتِ سعيدة يا عزيزتي؟».

قالت: «كيف يصبح المرء سعيداً؟ أحياناً أتمنى لو اكتشفت هذا السر». لم تجبني بمرارة، حتى إنها قالت كلماتها بابتسامة. ثم وضعت طاقم الشاي على الطاولة وأردفت: «لكن جوليان لم يأتِ إلى هنا قط. من المؤسف ألا يأتي لزيارة ويلي».

7

علا صوت أ. ب. ويزي الحادُ أصواتَ الجميع. كان يهدف، بالطبع، إلى أن يصدم بعض الحضور الوقورين كما صدمنا في حفل عشاء ريتشارد.

- المرأة، لننظر إلى المرأة. حرّروا المرأة من الأصفاد التي قيدها بها الرجل منذ قرون وستتفاجؤون. الآن لننظر إلى أحزمة العفة...

قال أحدهم بصوت يبدو فيه الضجر: «لتنظر في أخذ استراحة من الكلام».

- لا داعي إلى المزاح الثقيل، دعني أنهي كلامي. لننظر إلى أحزمة العفة. تظنون أنها اختفت، لكنها لا تزال موجودة. إن كل ما يفرضه الرجل في التشريعات والأعراف الاجتماعية المتعلقة بالمرأة يعادل إضافة قفلٍ جديدٍ إلى حزام العفة. إن المرأة سجينه مثل نساء البُرْدَة الهنديات المعزولات. امنحوها الحرية. امنحوها الحق في التصويت. دعوها تلتحق بالجامعات وتعمل في مختلف المهنات وستتفاجؤون. إن الرجل بطبيعته يميل إلى تعدد الزوجات. لكنكم عندما تفكّوا أغلال المرأة فستجدون أنها، بطبيعتها، مثله في هذا الأمر.

قال الصوت الضَّجِر: «كل ما يريد أ. ب. ويبزي قوله هو أن المرأة يجب أن تنتقل من البردة إلى الحرملك».

قاطعه أ. ب. ويبزي: «والآن انظروا إليّ».

فأثار ما قال ضحك الحضور أخيرًا.

- لا داعي لمزاحم الثقيل. انظروا إليّ. إنني عازم على أن أنجب طفلًا من

نساء جميع الطبقات: من إحدى الخادِمات إلى إحدى الدوقات.

عندئذٍ قال أحدهم: «لننظر إلى المحار الذي يُضاف إلى النبيذ».

كان هذا المزيج مُحيرًا حتى لرجلٍ مثل أ. ب. ويبزي.

لقد قرأت رواية أ. ب. ويبزي الأولى التي منحها لي ريتشارد، وقد فاجأتني وأثارت إعجابي. اتضح أنه ماهر، يمتاز أسلوبه في الكتابة بالحيوية وقدر كبير من اللياقة. حالما تبدأ قراءة كلماته تصبح تحت سيطرته التامة وتستغرق في قراءتها كليًا. كان كتابه ذاك كافيًا لإقناعي بأن ريتشارد صدق عندما قال إن أ. ب. ويبزي سيصبح شهيرًا. أجاد الرجل إثارة الفضول والحيرة. لكن حديث قلمه اختلف عن حديث لسانه. تساءلت إن كانت ثرثرته الفظة تعويضًا عن كبت طفوليٍّ، أو ربما كانت محاولة مستمرة منه لجذب الانتباه. لكنه سيناله دون حاجة إلى فعل ذلك. تمنيت أن يدرك أن كتبه كافية. تمنيت أن يتحلى بضبط النفس وبعض اللياقة. فلا يلزم ذَكر الدُوريِّ أن يثير بجناحيه الغبار طوال الوقت.

في ذلك المساء جلست ويلي ذات الرداء الأرجواني الملكي، الذي بدت فيه فانتة، في عرشها المتمركز أمام إطار النافذة المزدهرة. كان ضيوفها في الحديقة يتجولون أو جالسين جماعاتٍ في مقاعد. استلقى ويبزي على العشب أسفل شجرة الجوز يرتدي سترته النورفوك، وبنطاله بطول الركبة، وينتعل حذاءً مُغَبَّرًا. لقد أتى على دراجته بصحبة فتاة لم أدر باسمها قط. جلست تستند إلى جذع الشجرة صامتةً مثل زوي. اتجهت جلوري جاين تحمل صينية تملؤها أكواب الشاي، مع نيكالتي تحمل الكعك، إلى الحضور الذين اجتمعوا حول هذا الثنائي.

استوى ويبزي جالسًا وقال: «الآن لننظر إلى هاتين المرأتين...».

قاطعته جلوري جاين قائلة: «انظر إلى هذا الكعك. (التفتت إلى نيكاً تأخذ شريحة من كعك الفاكهة وألقت بها في طبقه، ثم أردفت) والتّه به عن الهراء قليلاً. ستظلّ تنتفخ تباهاً أيها الشاب، حتى يأتي يوم ستنفجر فيه وستعم فوضى شديدة. من المؤسف أن أمك لم تفهم قط لم خلق الرب العصيّ والمؤخّرات في العالم نفسه».

لقد أصبحت جلوري جاين ضخمة البنية. كان كمّاً ثوبها مرفوعين يكشفان عن ذراعين ضخمتين. أصبح شعرها الأصهب الغزير كومة رمادية مُشعّثة. عندما هزّت رأسها استياءً من إزعاجه ازداد مظهرها ضخامةً ومهابةً. تفاجأ ويبزي بهجومها اللفظي عليه. وعندما شرع بعض الحضور في الضحك بدأ الحديث لإسكاتهم.

قال: «إن ما حدث نموذج لنوبة غضب امرأة مُحبّطة تحتاج إلى التنفيس عن غضبها في جهات أخرى. فتصبح حادّة المزاج سريعة الانفعال...». لقد فرغت صينية جلوري جاين من الأكواب فرفعتها كأنها ستضربه بها. أخفض رأسه بسرعة عند هذا الوعيد، لكن في عَجَلَتِه انسكب في حِجره كوب الشاي الذي كان يمسكه.

الآن بالطبع لم يعد الأمر مزحة. بدأ الحضور في مختلف أرجاء الحديقة يتجهون إلى مسرح هذا الحدث. وتقدمت ويلي بوقار صوب المشهد. لكن جلوري جاين أسقطت صينيّتها وشرعت في الضحك.

فزعت نيكاً وهتفت بها: «جلوري جاين! كيف يمكنكِ الضحك؟».

ثم تناولت محرمة من الصينية التي تحملها، جثت بجوار السيد ويبزي، وبدأت تمسح ثيابه.

في هذه اللحظة وصلت ويلي. انتزعت من نيكاً المحرمة وقالت بحدّة: «توقفي يا نيكاً! ادخلي الكوخ رجاءً. (ثم ألقت بالمحرمة إلى رفيقة ويبزي التي شحب وجهها وانتابها الذعر، وأمرتها كأنها قاضية تصدر حكم الإعدام) أنه الأمر».

قال ويبزي: «من بين جميع المُتسلّطات أنتِ...».

لكن ويلي قاطعته: «أنا لا أدعو الناس إلى هنا. من يؤدّ المجيء أُرْحَب به. لكن مناسبات كهذه ستصبح أكثر إبهاجًا إن راعى الحضور آداب اللياقة. أعلم أن هذا المبدأ قديم الطراز. لكن السيد وبيزي يعلم أنني امرأة تقليدية من الطراز القديم. ربما لن تصبح الآداب في العالم الذي يسعى السيد وبيزي إلى خلقه ضرورية. لكنني أود أن أنصحه، في بداية حياة مهنية ستصبح لامعة بلا شك، بأن الشيء الوحيد الذي يستطيع المرء تغييره هو نفسه. يؤسفني قول إنه لا يستطيع تغيير بنطاله هنا. فمثل هذه الثياب لا توجد في منزلنا نحن النساء المُحَبَّطات. ربما ركوب الدراجة تحت أشعة الغروب الدافئة ستلبّي الحاجة. وأرجّح أن يبدأ تنفيذ هذا الاقتراح فورًا».

خاطب وبيزي رفيقته قائلاً: «يجدر بنا الذهاب».

ربما قرّر المغادرة مراعاةً لرفيقته التي بدتْ بائسة تخيفها الأعين الفضولية المُتسلّية حولها. لكنه، على أي حال، وقف لحظات يشعل غليونه في إشارة تحدّ أخيرة. ثم دفع الدراجة عبر البوابة وغادرا معا.

8

حلّ القرن الجديد وعاشت الملكة فيكتوريا الأسابيع الثلاثة الأولى منه فقط. كان يومًا غريبًا ذلك الذي قرأنا فيه خبر موتها. أولاً، كان رحليها مؤثراً بما يكفي عندما يتأمل المرء. إنني لا أعتقد أن حياتها كانت سعيدة، لكن العمل الجادّ ساعدها على العيش. لقد فقدت زوجها الحبيب. ورغم الجدل الواسع والمزاح القاسي حول البذخ الذي أظهرته في جدادها عليه، فإنني أعتقد أن حبها لزوجها كان واضحاً، وفاق حبّ معظم النساء لأزواجهن. ثم أحزنها ابنها الأكبر. لقد علم الجميع بتوتر علاقتهما، وربما كان هذا الأمر هو العيب الوحيد لحبها الخالص لزوجها. لم يكن ممكناً أن يسرّها ابنٌ لا يشبهه. لكن الصبي الذي كتب مقالاً عن قطع الطرق بدلاً من المكنات والمنحوتات الرخامية لم يشبه والده، والآن أصبح ملكنا مكتنز الجسد غليظ الصوت. ولا شك أن الطريقة التي انتهى بها القرن أحزنتها. ربما راودها الأمل مثل الصغيرة سارا راينبرو وهي تشاهد النافورات تنثر الرذاذ في قصر الكريستال قبل

خمسین عامًا. لكن أملها قد انسحق، وانتهى عهدُها نهاية دموية كئيبة. كان ذلك القرن المنصرم مُلطَّخًا بالدماء، في أمريكا، وفرنسا، والصين، وأفريقيا. في كل مكان. لكنه انتهى وحلَّ غيره، لننتقل من «المساء الفيكتوري الذهبي» إلى «الفجر الإدواردي».

كان الأمر الثاني الذي حدث في ذلك اليوم، هو ذهابنا أنا ونيكا إلى معرض «ريميل» في شارع بوند. لقد اتصل بنا جوليان صباحًا ليرى إن كنا نودُّ تأجيل تلك الزيارة. لقد أخبرنا أن الطرف الغربي من لندن راكد؛ لم يفتح متجر أو مكتب أبوابه، ولن يستطيع افتتاح المعرض الخاص به للعمامة كما اعتزم أن يفعل. لكن إن أردنا أن نرى المكان فسيأتي لاصطحابنا.

وقرَّرتُ الذهاب. كنت أعلم أن تلك اللحظة تعني له الكثير. لقد سنحت له فرصة تأجير متجر في الطابق الأرضي من عقار في شارع بوند، فذهب إلى والديه في بوردو على الفور. لكنه لم يحصل سوى على نصف المبلغ الذي احتاج إليه وبسعر فائدة باهظ. عندما أخبرني بهذا الأمر بعد عودته انتابتنِي الدهشة والغضب. لقد شعرت بالبغض تجاه سباستيان وماري ريميل في بعض اللحظات، وكانت تلك إحداها. لكنهما، على أي حال، قد عاشا الفقر وما يصاحبه من قلقٍ وكدٍّ؛ في حين أنني، والقريبين مني، تهطل علينا المال دون بذل أي جهد سوى رفع أيدينا لتوقيع الشيكات. رغم ذلك فإن الشُّحَّ الشديد الذي أَكَّده المستند الذي عاد به جوليان جعلني غاضبة.

طالما شعرت بأنني أقل قدرًا من المنزل التي نلتها، وبأنني أمتلك المال رغم أن لا شيء يميِّزني، ولا حتى العمل. لكنني لم أتمتع قط بالجرأة للتحرُّر منه، كما فعلت سالي، سعيًا إلى الفقر النبيل. ولم أواجه صعوبة في طرد أي شعور بوخز الضمير. لقد أعجبني امتلاك المال وفعلُ ما مكنني المال من فعله. أعجبني استطاعتي أن أقترح على جوليان تمزيق المستند الذي وقَّعه، كي أُمَوِّلَ معرض «ريميل» دون اشتراط فائدة حتى يثبت نفسه، ثم نتفق على سعرٍ أقل بكثير مما طلبه والده. وهكذا دبرنا الأمر. كانت تلك بداية تحالف جديد بيني أنا وجوليان سيستمر طويلًا.

استقلينا عربة إلى ميدان «بيكاديلي»، ومن هناك بدأنا السير في أجواء ذلك الصباح الغريب. سادته وحشة تشبه قليلًا ما قد يشعر به المرء في

صباحات الأحاد. لكنني أدركت جيداً أن اليوم ليس الأحد. وشعرت بما ينتاب المرء عندما يحلُّ الظلام ليس لغياب النهار المحتوم، بل بفعل الكسوف الذي يجلب الظلال قبل أوانها. في الشوارع الجانبية تردد وقع خطواتنا وسط واجهات المتاجر المغلقة. سمعنا رفرقة أجنحة الحمام وهي ترتفع عن الأرض متفاجئة باقترابنا. هبَّت حولنا رياح شتوية بعثرت القمامة في مجاري التصريف. لم يُثقل قلبي الشعورُ بأن شيئاً ينتهي، بل الشعور بأن شيئاً ما يبدأ. كنا في بداية عام جديد، وحكم جديد، وقرن جديد. نخطو إليه في وحشة نحن الثلاثة، لا أحد في مدى بصرنا، فقط تصحبنا رياحٌ تعبث بالمصارف، وفئران تتسلل خلف صناديق القمامة، وحمام رمادي ذو أعين متلألئة.

كانت نيكا في الخامسة عشرة وجوليان في الثالثة والعشرين. بعد بمرور خمسة أعوام لن يبدو الفارق بين عمريهما كبيراً.

قال جوليان: «إن المصراع مغلق، كما تريان، مثل جميع المتاجر. لكن الإضاءة بالداخل جيدة. لندخل كي نلقي نظرة».

كان المصراع مغلقاً، لكنه لم يخفِ اللافتة. كانت باللون الأخضر الفاتح، لا تحمل سوى كلمة «ريميل» بحروف أنيقة. تطلع جوليان إلى الاسم بابتسامة خجول وقال: «يبدو حازماً عنيداً، أليس كذلك؟ لكن ما يوجد هنا (وضع يده على صدره) يخفق بقوة ويغمره الأمل والخوف. نيكا، هلا تأخذين المفتاح لتفتحي الباب؟».

نظرتُ إليه نظرة جانبية وسألته: «لم أنا؟».

- لأنكِ ابنة خالي الشابة الجميلة اللطيفة. والسيد ويبري لا يستحسن تنقيبي عن الأغراض القديمة. إذن سنبدأ بمن يمثل الشباب والجمال كتعويذة مضادة.

فتحت نيكا الباب، وعندما انغلق خلفنا وجدنا أننا في ممر مظلم.

قال جوليان: «الآن انتظرا هنا رجاءً حتى أدعوكما».

ثم اجتاز باباً على يميننا. كان المعرض فيما سبق منزلاً. ومثل جميع المنازل في ذلك الزمان والمكان، كان باب قابل للطي يفصل بين كل غرفتين من غرفه. دعانا جوليان فدخلنا وراءه. عندئذ وجدنا أن تلك الأبواب قد أزيلت

لتنشأ غرفة طويلة واحدة مملأها ضوء ناعم، ولا حاجة إلى أن أصف ما تضمنته. إن متاجر باعة التُّحف مألوفة بما يكفي، وكان هذا المعرض مثالاً ممتازاً من نوعه: اكتسى ببُسطٍ أنيقة، لم يكن مكتظاً، وبدا كأن العيش فيه لا يزال ممكناً. سقط الضوء من ثريات كريستالية ليلتمع على البلُّوط والماهوچني العتيق، وعلى أغراض من اليشم والبورسلين والزجاج والفضة، وعلى مقاعد مُنَجَّدة مزدانة بالرسوم وستائر مزركشة. امتلأت تلك المساحة بخامات جميلة وأشكال بديعة؛ آثار جمالٍ محفوظة تعود إلى بلدان متنوعة وأعوام بعيدة. إن دخول مثل هذا المكان، بعد المرور بضجيج شارع بوند الحديث، يشبه دخول معبد يغمره السلام. وفي ذلك اليوم، حيث المدينة حولنا صامته وباب المعرض مغلق، شعرت بوجود سَكينة ميمونة هناك، تهدئ قلبي المضطرب. كنت ممتنة، أكثر من أي وقت مضى، لأنني ساعدت جوليان في تحقيق حلمه. ساد المكان دفء النيران المتقددة في مدفأة صغيرة محاطة بالرخام، فبدا كأنه غرفة منزلية رائعة. فوق تلك المدفأة رأيت بلاطة خزفية مؤطرة، زاهية مثل ريشات الطاووس ذات بريق معدني.

قال: «ها هي! كانت هذه البداية! لقد نسيتهَا يا عَمَّتِي».

لقد نسيتهَا فعلاً، لكنني تذكرت الآن. تذكرت الفتى الجَذل الذي طرح أسئلة لا تنتهي على والديه الكادحين المُضْجِرِينَ، إذ ألْهَبَتْ كنوز تريسانت مخيلته. لقد راقني طبعه، وشعرت بأنني مسؤولة عن الاعتناء به. كان بمنزلة ابني. فتى يمكنني حُبُّه. فتى أحببته حقاً.

- شكراً لك يا جوليان على تهيئة المكان من أجلنا، بوجود المدفأة وباقي الأشياء.

- هذه لمسات زِبدي العزيز. (ثم هتف) تعالَ يا زِبدي وأظهر نفسك.

الآن تفاجأت بخروج كوجان زِبدي من حجرة جانبية صغيرة يبدو مثلما عرفته قبلاً. تجعله بعض التجاعيد حول عينيه يشبه طائراً كبيراً حكيماً.

- يؤسفني قول إن خالي السيد دانييل خسر مُحصِّل إيجارات رائعاً، لكنني ربحته مساعداً. أنا لا أستطيع الوجود هنا طوال الوقت، ومن أفضل من زِبدي لتولي مثل هذه المسؤولية في غيابي؟ إنه عاشق للأغراض القديمة، هذه هي النقطة الرئيسة. ويعلم الكثير عن حضارة الصين. أمّا الباقي فيسهل تعلمه.

في هذه الغرفة المضاعة وراء المصراع المغلق كانت الأجواء حالمة. على طاولة خشبية تشبه طاولات قاعات الطعام في الأديرة وُضعت الشطائر والفواكه في أطباق بورسلين «وورستر»، وصَبَّ جوليان الشراب في الكؤوس «اليعقوبيَّة» المنقوشة.

قال: «لنشرب نخب ريمل. لنشرب نخب العام الجديد. لنشرب نخب القرن الجديد».

بعدما شربنا الأنخاب وانتهت الوجبة الصغيرة غسل جوليان الكؤوس. ومنح كلاً منا نحن الأربعة كأساً منها تذكّاراً لهذه المناسبة. تمنيت له التوفيق من صميم قلبي، ثم تركناه مع كوجان مشغولين بتنظيم المكان. وخرجت أنا ونيكا إلى طرقات الشتاء يتفاقم شعورنا بوحشتها بعدما غمرنا النور والجمال، حتى أوقفنا عربة لتقلّنا إلى المنزل.

9

كان ثالث ما حدث في ذلك اليوم هو وصول خطاب من ريتشارد وجدناه في تشيلسي عند عودتنا. لم يحصل ريتشارد على الترقية التي تنبأ بها تريمير، الذي لن يصبح الجندي المرسال الذي يخدمه أبداً. لقد مات.

بعدما أسهب ريتشارد في الحديث عن تريمير كتب: «لن أسهب في الحديث عن تريمير. إن العمل الذي نؤديه يُعلّمنا الكثير عن حقيقة الرجال، وقد علمت الكثير عنه مما يصعب نسيانه. لن يسهل عليّ تدبر أمري في غيابه، لكنه قد علّمني بعض السبل لمواجهة أيامي من دونه. وربما يكون ما فعله أقصى ما يمكن لأحدنا فعله للآخر. لقد جُرّحت في الاشتباك الذي لقي فيه حتفه. لا داعي للقلق. لم يصبني سوى جرح سطحيّ، لكنه أدّى إلى إرسالني إلى «كيب تاون». هناك تأملت كثيراً من الأمور، من بينها أنني لم أكتب وصيتي قبل مغادرة إنجلترا. إن متُّ دون كتابتها فسيعني هذا أن كل ممتلكاتي ستصبح ملكاً لوالدي. لكنني لا أريد لهذا أن يحدث. أريد أن يؤول ما أملك إلى نيكّا. على أنْ امتلاك فتاة في سنّها كل هذا المال ليس مستحسنًا. لهذا حالما أُتيحت لي الفرصة ذهبت إلى محامٍ في «كيب تاون» ورَتَبْتُ المسألة. ستحصل نيكّا

على الإرث عندما تبلغ الحادية والعشرين. وقد دَوَّنتُ اسمكِ واسم الأنسة ويل-هل ستمانع في هذا؟- وصيَّتين عليها حتى سن الرشد. سيحقُّ لنيكا سؤال الوصيَّتين الحصول على ما لا يتعدَّى خمسمئة جنيه إسترليني كل عام حتى تتسلَّم الإرث في عام بلوغها الحادية والعشرين. الآن كفانا حديثاً عما يتعلق بالموت وهذه الشكليات. قد لا يلزم نيكا المال، وبالطبع لن تقولي لها شيئاً حتى يلزم الأمر... إنني على ما يُرام. ازددت اقتناعاً بأن حياة الجيش هي الأنسب لي. إن لم أتلُق ترقية وهذه الحرب قائمة فسأحصل عليها عندما يعود السلام. لا تقلقوا كثيراً بشأنني. لا تفكُّروا في حالنا نحن الجنود مثلما اعتدتُ التفكير في حال الخال جاستن واللورد بيرندج في حرب القرم. كم كان خيالي طفولياً! أعني لا تظنُّوا أنني في التحام دائم مع العدو، أعيش وسط القذائف. يمكن للحياة هنا أن تصبح مملة بما يكفي. لقد أمضيت كثيراً من الأوقات الهادئة تحت النجوم برفقة تريمر، الذي أجاد الحديث في جميع الموضوعات. أشار إلى ما لم يدر في ذهني قط، وهو أن هذه الحرب هي الأولى التي يشارك فيها الشباب الإنجليزي من جميع الطبقات، أبناء الطُّهاة وأبناء الدوقات كما يقول كيبلينج. لقد تركوا مهنهم بإرادتهم لينضموا إلى الجيش. لم يحدث أمر كهذا في حرب القرم أو التمرد الهندي أو الحروب الأفريقية الأخرى. لكن تريمر يقول إن الأمر لن يظلَّ اختياريّاً. يقول إن كل الحروب منذ الآن فصاعداً ستقوم بين جيوش مدنيّة، وإن إنجلترا قد تملك جيوشاً من المُجنِّدين إلزامياً! أقرُّ بأن تصديق هذا الرأي يصعب عليّ. لكن تريمر محقٌّ فيه، أليس كذلك؟»، إلى آخره.

بلى. كانت هذه إجابتي وأنا جالسة أمام المدفأة في ذلك اليوم الشتوي في الشهر الأول من القرن الجديد وخطاب ريتشارد في يدي، فيما نيكا في غرفتها في الطابق العلوي ترتّب أرفف مكتبتها كي تضع الكأس اليعقوبي. فكَرْتُ إن تريمر محقٌّ فيما قال. إن ما حدث أمر جديد، يميّز هذا القرن الوليد عن غيره. نهضت وسرت إلى النافذة، أطلع إلى الظهيرة الكثيبة، والشوراع الضبابية، والغيوم الكثيفة التي تغطي فوّهات المداخل. لقد دَوَّى الجو في أذنيّ، مثل طبول تُصدّر دمدمة مكتومة.

الفصل الرابع والعشرون

1

بدا لي غريبًا أن أهااتف نيكا في منزلها الخاص في «بلومزبري». سألت نفسي، للمرة الألف، أي ميزة قد يمنحها وجودها هناك؟ لو كانت عائلتها كبيرة يملأ أفرادها منزلًا صغيرًا لا يسمح لها بأي خصوصية لاختلف الأمر. لكن في منزلنا الكبير دائمًا ما حظيت بمساحتها الخاصة ونالت رغباتها الاهتمام الكافي.

لقد قالت سابقًا: «أظن أنها مسألة نفسية، لكن يصعب عليّ تفسيرها. إنني أرغب في مغادرة العُشِّ واستخدام أجنحتي الخاصة. لقد ربَّيتُ سنجابًا في ذلك المنزل، تجعلني هذه الحقيقة أشعر فيه بأنني لا أزال طفلة. (ضحكتُ عندما تذكرت كويركي المسكين، ثم تَوَرَّدت وجنتاها وقالت بتحدٍّ) وهناك الأغراض التي أهداني جوليان. لا أريد أن أتذكر كل هذا. إن الحياة هناك تجعلني أشعر بأنني لن أكبر أبدًا».

- ألن تأخذي تلك الأغراض معكِ؟ إنها رائعة. ظننت أنها تروقكِ.

- لن آخذ إلى عُشِّي الأغراض الزهيدة التي تمثل ذوق سواي لا ذوقي.

تنهَّدتُ قائلة: «حسنًا، لا تبالغي».

- لكنك تتفقين معي في أنه يجدر بي تثقيف نفسي، أليس كذلك؟ ما الذي أعرفه عن المجالات المهمة حقًا؟ مثل التاريخ، والعلوم، والاقتصاد. لننظر إلى حال الطبقة العاملة...

ارتجفت نفورًا عند سماع هذه العبارة التي تبعث بالذكريات، وقلت: «لا، لن أنظر إلى هذا الأمر الآن يا نيك. لا تنقطعي عن زيارتنا ويسرني كثيرًا أن منزلك يحتوي على هاتف».

- حسنًا، لكنك لن تشتتي انتباهي، أليس كذلك؟ لن تهاتفيني بلا داع.

- سأهاتفك فقط إن وقع موت في العائلة أو شيء من هذا القبيل.

- لا تسيئي فهمي يا ماما. اسمحي لي بأن أنال السعادة.

- لا أعتقد يا عزيزتي أنك ستجدين السعادة تعتمد على الوجود في منزل دون سواه، أو مكان بعينه.

أنهت ملاطفتها لي فجأة وقالت: «لا حاجة إلى إلقاء المواعظ!».

وركضت إلى غرفتها.

2

دارت هذه المحادثة بيننا قبل عامين، والآن شعرت بارتياح أكبر عند مهالفتها. لقد زال بريق المغامرة التي أرادت خوضها. أخبرتها عن جماعتنا المسافرة إلى تريسانت وقالت إنها تودُّ المجيء. هكذا أصبحنا سبعة: أنا ودانيل ونيكا، وميرفن موستن-لويد مع إنيد وابنهما إدوارد، وويلي. فكرت أن زيارتنا تلك ستبث الحياة في الإقطاعية. لقد مرَّ وقت طويل منذ أن اجتمع في تريسانت هذا العدد. وسيفيد نيكال الوجود مع أناس يختلفون عمن تمضي برفقتهم وقتها مؤخرًا.

كم بدا بعيدًا ذلك المساء حيث كانت في السادسة عشرة من عمرها ولم يمضِ عام على افتتاح معرض «ريميل»، إذ زارنا جوليان ليخبرنا مبهجًا عن الصفقة التي عقدها. لقد باع لزبون يجمع لوحات رسامي «سيينا» بعض الأعمال التي لم تستطع معارض أخرى أقدم وأكثر شهرة الحصول عليها. ثم

حان وقت الجلوس لتناول الشاي، وكانت سعادة جوليان غامرة. قال إنه ترك كوجان يتولى المسؤولية وأتى من فوره ليحتفل معنا. لم يكن إنجازَه بالكبير، لكنه الأوّل. وذكّرني حماسه بالفتى الذي قابلته للمرة الأولى في تريسانت. في مزاج مثل ذاك يصبح جوليان مُتحدّثًا بارعًا. والآن أمتعنا بالحديث عن تجواله في دار «كريستيز» للمزادات، حيث عثر على لوحة داكنة ترك عليها الزمن بصمته، تبدو عاديّة ومُهمّلة في إحدى الزوايا، ستُعرّض في اليوم التالي.

قال: «لكنني لم أستطع تجاهلها. أتعلمين يا عمّتي العزيزة؟ يوجد شيء لا أستطيع تحديد ماهيته يتحدث إلى ما نملك هنا (أوماً إيماءته الخاصة واضعاً يده على صدره) أقصد ذلك الذي يفهم ما لا يُقال. لقد رأيت بقعة واحدة واضحة من اللوحة، تفصيلة دقيقة، وشعرت أن بها شيئاً نفيساً أسفل الوحل والورنيش الذي يعلوها».

وقد اشترى اللوحة مقابل بضعة جنيهات في اليوم التالي. أردف: «ثم سألني دنستابل الذي يتفاخر بأن لا صفقة فنية رابحة قد أفلتت منه: «هل تنشئ متجرًا لبيع الخردة؟». فقلت ضاحكًا: «عندما أنتهي من ترميمها سأعرض عليك شراءها بخمسمئة جنيه». كان هذا ما فعلته بالضبط واشتراها. لقد ظهر أسفل الوحل رامبرانت يافعًا. لم تكن لوحة مهمة، لكنها جميلة».

في تلك الليلة اصطحب نيكاً إلى العشاء، وأصبحت تلك عاداتهما. من وقت إلى آخر حدث ما يستدعي «الاحتفال»، الذي اتخذ دائماً صورة العشاء مع نيكاً. كان جوليان يعيدها إلى المنزل سعيدة متوردة الوجنتين، يزيدها ابتهاجه جمالاً. وأصبح معرض «ريمل» أكثر ما يشغل اهتمامهما.

في السادسة عشرة ذهبْتُ للعمل هناك، وأصبحتُ مسؤولة عن دفاتر الحسابات وكتابة الخطابات مدة عامين. لقد مثّلتُ، في رأيي، العنصر الأكثر جاذبية في معرض النفائس ذاك. كانت سعيدة خلال هذين العامين. لكنني أحياناً شعرت بالقلق من كياسة جوليان ولطفه الشديد تجاهها. فكُرتُ أن هذا الحال ليس معتاداً، عليه أن يتقدّم خطوة أو يبتعد قليلاً. لكن لم يوجد ما يمكنني فعله حيال هذا الأمر.

كثيراً ما سافر جوليان إلى الخارج. ومع اقتراب نهاية عام نيكاً الثاني في معرض «ريمل» ذهب إلى فرنسا لجمع بعض لوحات الفنانين الانطباعيين.

كان من أوائل أبناء هذا البلد الذين أدركوا قيمة تلك المدرسة الفنية. وقد اعتزم جمع تشكيلة كبيرة من الأعمال التي تنتمي إليها. لقد قال: «على الأرجح أنني سأحتفظ بتلك الأعمال أعوامًا. لن أفاجئ العامة بها بعد. لكن الآن هو الوقت المناسب لشرائها».

سافر إلى فرنسا في آخر الخريف، وقد طالت سفرته عن المعتاد. كان يرسل نيكاً كل يوم تقريبًا، يبعث إليها بتوجيهاته واقتراحاته. ودائمًا ما أحضرت نيكاً تلك الخطابات معها مساءً كي تريها لي، يملؤها الفخر لأنه يعاملها كشخص مسؤول. كانت تعتقد أنه يسعد بكتابة تلك الخطابات لها -غاضّة الطرف عن العمل الذي يجمع بينهما- مثلما تسعد بتلقّيها منه. لقد قرأتها أحاول أن أعثر فيها على بصيص أمل. لكنها كانت خطابات عمل، تتبدّى بها لمحة من عاطفة القربة فقط. وقد حزنّت على ابنتي، حزنت وقلقت.

بعد ظهيرة يوم سبت في نوفمبر، إذ نيكاً في المنزل والمعرض مغلق، هاتفنا جوليان ونحن جالستان نتناول الشاي.

- لقد عاد ابن أخت زوجك يا عمتي العزيزة! ومعنوياته مرتفعة عاليًا.

- هل نجحت في مسعاك؟ هل عثرت على ما يستحق؟

- عثرت على أغراض كثيرة من بينها كنز ثمين. هل يمكنني المجيء للزيارة مساء اليوم؟ في السابعة؟ سنحتفل!

- بالطبع، إن نيكاً تتطلع إلى رؤيتك.

- أجل، نيكاً الصغيرة! لقد أحسنت صنعًا. سيروقه الكنز الذي سأحضره.

في أثناء تلك المحادثة كانت نيكاً بجواري، تقفز على أطراف أصابع قدميها حماسًا، تتلف إلى أخذ سماعة الهاتف من يدي. والآن عندما انتهت المكالمات هتفت: «كيف حاله؟».

- يبدو أنه في مزاج رائع. لقد عثر على أغراض جديدة، وسيأتي إلينا في السابعة. إنه يودُّ الاحتفال، لقد عثر على كنزٍ خاص.

قالت في حماس: «لا شك أنها إحدى لوحات فرانسيسكو جويا. لقد توقع أن يعثر عليها هذه المرة».

لكنني عندما تأملتُ الأمر استبعدتُ أن يكون هذا هو الكنز الذي يقصد. لقد صبيتُ الشاي عندما رنَّ الهاتف والآن عدت إلى جوار المدفأة. لكن نيكا لم تشاركني جلستي.

قالت: «يجب أن أذهب للنوم. ستسامحينني على تركي لك يا أمي، أليس كذلك؟ يجب أن أرتاح استعدادًا للمساء. أيقظيني في السادسة يا عزيزتي». وابتعدتُ راکضة. دائمًا ما قصد جوليان بالاحتفال الخروج مع نيكا إلى العشاء. وليس ممكنًا أن يعني شيئًا آخر الآن.

كان دانييل في الخارج يهتم بأعماله والمنزل هادئ. قبل السادسة شقَّ سكونه صوت نيكا تغني. لم يلزمني الذهاب إليها. لقد استيقظتُ، وسمعتها تصبُّ المياه في حوض الاستحمام.

أمضت في التجهز للخروج وقتًا طويلًا جدًا. وعندما وقع نظري عليها لم أرها بذلك الجمال قبلاً. لقد أدهشني حُسنها. إن أمي، كما ذكرت، اعتادت ارتداء الأبيض مع الورود الحمراء عند الخروج مساءً. وكان هذا ما ارتدته نيكا الآن. لقد تهيَّأت للحبِّ ما زادها نضجًا. وبينما أنا جالسة بجوار المدفأة مستغرقة في أفكارٍ سمعت بابًا يُقفل. التفتُ إلى الأعلى فإذا الجميلة اليافعة ترتدي ثوبًا أبيض مخمليًا، ينساب في طياتٍ أنيقة، وتزيّن وردة حمراء صدرها. ثبتُّ في موضعي دهشة. لقد باغتني الشَّبهُ بينهما في كوخ ويلي، لكن ثياب نيكا حينئذٍ كانت ريفية. ثم إن الوقت قد مرَّ. لقد كبرتُ ووقعتُ في الحب. والآن بدا أنها تعمدت محاكاة جدَّتْها بهاءً وأناقة.

اتجهت نحوي ووقفت بجوار المقعد حيث أجلس، مثلما اعتادت أمي الوقوف بجوار سريري. كانت تعبق بالرائحة نفسها التي أثارت حماسي وارتباكي في صغري. كانت واثقة، مُبتهجة، فخورة، كأنها تنتظر سماع دويٍّ أبواق انتصارها الوشيك. بادرتُ بمعانقتي، وعندما أحطتها بذراعيّ ابتعدت تضحك ضحكة خافتة وقالت: «لا، رجاءً يا عزيزتي. كي لا يفسد مظهري».

اعتادت أمي قول هذا أيضًا.

- هل يبدو ثوبي جميلًا؟

- أجل يا نيكا. إنه جميل جدًا.

- لم أريه لك لأنني أردته أن يظل سرًا. لقد اشتريته خصيصي من أجل الاحتفال الأول بعودة جوليان.

كدت أبكي وأنا أطلع إليها في زينتها إذ يوشك قلبها أن يتحطم. ثم دق جرس الباب الرئيس، وبعد بضع لحظات انتهى كل شيء. وصل جوليان مُتحمسًا مُشرق الوجه، برفقة فتاة ترتدي الفراء كأنها قادمة من غابة جليدية. التمعتُ عيناها مثل نجمتين أسفل قبعة ضيقة من الفراء البني. وأحاطت بها هالة من الحيوية. كانت فتاة جميلة سمراء شعرها داكن. رغم أنها وقفت تبسم فقد طعنت قلب نيك.

- إليك كنزي الفرنسي الذي وعدتك بإحضاره معي يا عمتي العزيزة. ونيكا، كم تبدين جميلة يا ابنة خالي الصغيرة! هذه مساعدتي الرائعة يا مارث، ستحبينها. وأنت أيضًا ستحبين مارث يا نيك.

قبّلت الفتاة وجنتي، ثم عانقت نيك بقوة سحقته الورد على صدرها. بدت مثل دبة ودود أحاطت بمخالبها رقاقة ثلجية. كدت أشعر باللحظة القاسية المفاجئة، حيث غزا الجليد قلب نيك النابض حماسًا.

دق جرس الباب مجددًا، وأتت خادمة تقول: «العربة يا آنسة فيرونيكا». أجابتها نيك بهدوء يخرج من صحراء اليأس والخسارة: «شكرًا لك. أخبريه أن ينتظر لحظات. (ثم التفتت إلى جوليان تقول) عذرًا، يجب أن أخرج للعشاء. لقد رُتب الأمر قبل أن أعلم بمجيئكما. يجب أن أحضر معطفي».

ذهبت إلى الردهة أنتظرها حتى هبطت الدرج ببطء ترتدي معطفها الأبيض وقفازها في يدها.

قالت: «لقد أخبرت أنني أن تطلب العربة إذ ظننت أنني سأستقلها معه. هذا من حسن الحظ، أليس كذلك؟ (ابتسمت بأسى) فهو يمنحني مهربًا».

- ماذا ستفعلين يا عزيزتي؟

- لا داعي لأن تقلقي بشأني. سأجول بالعربة حتى يغادرا. اصبريهما بأسرع ما يمكنك.

- حسنًا يا عزيزتي. (أحكمتُ العباءة حولها) الجو بارد جدًا.

- أجل.

بدأت أسنانها تصطك فاتخذت القرار: «أذهبى إلى غرفتك والزمى سريرك.
لن يعلموا أنك لم تغادري».

- يا لها من فكرة رائعة! إننى ذاهلة بحيث لم ترد فى ذهنى تلك الفكرة
البديهة! شكرًا لك.

ثم صعدت الدرج ببطء كما نزلته، تتشبث يدها بالدرازين. منحتُ
الحوزي أجرته وأخبرته أننا لا نحتاج العربى. ثم ذهبت إلى غرفة الجلوس كي
أؤدي واجب الضيافة الثقيل. وقد غادر الضيفان بعد نصف ساعة يتلهفان إلى
قضاء الوقت بمفردهما.

صعدت من فوري إلى نيكاً ركضاً. كانت غرفتها مضاعفةً ووجدتها جالسة
فى السرير تضحك. ثوبها الأبيض المخملى ملقى بلا اهتمام على مقعد، تنزف
فوقه الوردة الحمراء كأنها جرح.

قالت نيكاً: «لقد أردت الخروج بالعربة أتجول هنا وهناك دون أن أملك
فلساً أدفعه للحوزي! دون حاجة إلى الخروج أصلاً! ألا ترين هذا مضحكاً؟
أتجول فى عربة كريمة دون حاجة إلى الخروج أصلاً!».

عادت إلى الضحك ضحكاً هستيرياً. فمكثت معها أمسداً جبهتها حتى
غلبها النعاس.

3

امتلك سيلفستر جرونيه أحد المعارض الفنية الأقل شهرة من مثيلاتها
فى فرنسا. كثيراً ما حدثنا جوليان عنه، لكنه لم يذكر ابنته مارث. لقد نشأت
الفتاة فى متجر والدها وتعلمت أسرار تلك المهنة. فى أثناء زيارات جوليان
إلى باريس كثيراً ما مكث مع عائلة جرونيه. طالما أخبرنا أنه سيمكث مع تلك
العائلة. وقد ظننا أنها تتكون من زوجين. لكن اتضح أن جرونيه أرمل منذ
سنوات. وقد منح عطفه وخبرته إلى الشاب الذى عاد متزوجاً بابنته. كان ما
حدث فى نظر جوليان مغامرة استثنائية. لكنه فطر قلب نيكاً.

في اليوم التالي حلَّ الأحد لهذا لم تذهب إلى معرض «ريميل»، ثم قصده
يوم الإثنين كالمعتاد. عندما عادت إلى المنزل أخبرتني أنها لن تذهب إليه مرة
أخرى. قالت: «إن زوجة جوليان هناك. ستكون هناك كل يوم».

لقد علمت من حديثي القصير مع جوليان ومارث بنشأة الأخيرة في معرض
«جرونيه» وخبرتها في ذلك المجال. ولم أتفاجأ برغبتها في تسخير معرفتها
لمنفعة جوليان. هذا ما أخبرتُ به نيك، لكنها أجابتني بعناد: «سيختلف
الحال الآن لأنها تزوجت. لديها منزل يجب الاعتناء به».

لم أستحسن مكوث مارث في المنزل ووجود نيك في المتجر تتعلق تعلقًا
يائسًا بجوليان. لهذا لم أشعر بالأسف لأن القطيعة وقعت في الحال.

سألتها: «هل حدث شيء؟ هل كانت الأجواء غير سارة؟».

- لن تصبح سارة بعد الآن، حتى إنني قد أموت.

لا يموت المرء من ألم الحب يا عزيزتي، بل يواصل العيش. يندمل الجرح
ببطء، ويتصلَّب القلب قليلًا. لقد تعلم المرء أن الحياة ليست مكانًا لتحقيق
الرغبات. هذا ما فكَّرتُ فيه، لكنني قلت: «أخبريني بما حدث يا عزيزتي».

- ما الجدوى من إخبارك؟ تحدث أمور تبدو صغيرة لكن قلبك لا يراها
كذلك لأن له رأيًا آخر. لن تفهميني لأنك عشت حياة سعيدة.

- إنني ممتنة لكثير مما عشت. ماذا حدث؟

- لقد أمضيا الأمس كله في المعرض ولم أكن أعلم بذلك. يوجد رفٌّ يحمل
تماثيل من البورسلين رتَّبتها بنفسِي، لكنها قد بدَّلتها جميعها. عندما
ذهبت هذا الصباح فاجأني التغيير، لكنني لم أعلم أن تلك فعلتها. ولأنني
أفضِّل طريقي شرعت في إعادة التماثيل إلى ترتيبها القديم. عندئذٍ
قَدِمَا. وقبل أن تخلع قبعتها هرولت نحوي ثائرة. قالت إن طريقتها هي
الصائبة. هي من تفهم هذه الأمور لا أنا. ألن تكون فكرة رائعة إن تركت
هذه الأمور لها لأهتم بالخطابات وإجابة الهاتف؟ والكثير من الهراء.
هكذا ألزمتني منزلتي؛ أنا فتاة المهام المكتبية الروتينية. وبينما تُحرِّك
الأشياء هنا وهناك كانت تقول بالفرنسية: «انظر يا جوليان، هذا الترتيب

أفضل، أليس كذلك؟». فيجيبها: «أجل بالطبع، إنه أفضل». هكذا سيسير الحال دائماً. إذن ما الجدوى؟

بعد هذا الحدث بقليل تحدثت نيكاً للمرة الأولى عن وصية ريتشارد. عندما أخبرتها عنها بعد وصول خبر موت ريتشارد ارتجفت وناشدتني: «لا تحدّثيني عن هذا الأمر رجاءً»، ولم تذكرها ثانية حتى الآن. قالت إنها تودُّ الحصول على الخمسمئة جنيه التي يحق أن تنالها كل عام.

- لكنك يا عزيزتي تملكين كل شيء. أنا والدك نحرص على هذا. لديك منزل فيه مساحة تستطيعين فيها الانفراد بنفسك.

- لا أريد أن أكون تابعة.

- لكنك لا تصبحين مستقلة باعتمادك على مال ريتشارد لا مالنا.

لم يكن ردّي هذا مُوفّقاً. لقد أثار سخطها. ورغم أنني أدركت كم أنها منزوعة وتعاني فإن انفجارها الشديد فاجأني.

- أعلم أنني لا أصلح لأي شيء أو لأي أحد. أعلم أنك ترينني غولاً يتلهف إلى وضع مخالفه على مال رجل راحل. لكنني سأحصل عليه. إنه ملكي، ولا يوجد ما يمكنك فعله لإيقافي. حان الوقت لأن أبني كياني. لقد سئمت من كوني نكرة جاهلة لا تستطيع فعل أي شيء. إن الجميع إما يزدرونني وإما يرونني كائنًا لطيفاً يشغل وقتهم حتى يصل شخصاً حقيقياً. هذا هو ما أريد، أن أصبح شخصاً حقيقياً مستقلاً. وإن كان هذا المال سيساعدني في تحقيقه فسأحصل عليه.

طلبت من ويلي العشاء معي أنا ودانيل وناقشنا الأمر.

قالت: «عودي بذاكرتك إلى حيث كنت في عمر نيكاً. ماذا كنت تفعلين؟».

- كنت السكرتيرة الخاصة بك.

- حسناً، إن نيكاً تتحلّى بالمنطق مثلك.

رغم أن دانيل لا يهتم كثيراً بشؤون ولديه فإنه لم يتقبل هذا الأمر بسهولة. قال: «لا أرى أن الحالتين متشابهتان. أنتِ وسارا معاً منذ أن كانت طفلة. جمعتكما علاقة خاصة استثنائية، وكانت تعيش في منزلك تحت رعايتك.

تريد نيكا التحليق إلى ما تدعوه الاستقلالية وهذه مسألة مختلفة تمامًا. لن تخضع لأي رقابة من أي نوع».

سألته ويلي: «ما نوع الرقابة الذي تخضع له الآن؟ إن أرادت الخروج للاستمتاع بوقتها كما تريد فستخرج، أليس كذلك؟ ولن يرافقها أحد».

- لكنها تبنت أسفل سقفنا.

- يمكن للفتيات أن يحملن نهارًا، إذ لا يوجد وقت محدد لحدوث الحمل. هذا ما تخشاه، أليس كذلك؟

ثم نظرت إليه عبر الطاولة وعلى وجهها ابتسامة هادئة أثارت اضطرابه. أشعل سيجارًا وقال: «أود أن أكسر عنق جوليان. هو سبب إزعاجنا على هذا النحو».

- لن يُعيد كسر عنقه الحال إلى سابق عهده. دع نيكا تفعل ما تشاء. لتكن موافقتكما تعبيرًا عن ثقتكما في نفسيكما وفي ابنتكما. أنا أعرف نيكا، وأعرف كيف ربيتهما. ثقا في هذا. ثقا أن دعم قرارها في المحنة التي تمر بها تدبير سليم. فهي لم تسأم منكما، ولا تريد الهروب منكما رغم أن الوضع يبدو كذلك. لقد جُرحت كبرياؤها. ولن تحاول شفاءها بالجموح.

تحدثت ويلي بثقة وهدوء تسربًا إلى نفسيها. ثم قال دانييل: «تعالى إلى مكثبي في الأعلى لتتناول القهوة. مرّ وقت طويل منذ أن جلستُ للحديث بجوار مدفأتي الخاصة».

صارحته ويلي وهي تنهض بثقل من مقعدها قائلة: «لأنك تزداد حماقة. في هذه البقعة تحديدًا (أشارت إلى زاوية في الغرفة) ماتت خالتك السيدة جيمستون. كنت أنا وسارا معها ننتظر مجيئك من أكسفورد. أتساءل إن كانت سترضى عن المسار الذي اتخذته».

مدّ دانييل ذراعه كي تستند إليها في صعودها الدرج، وسألها: «ماذا عنك؟». أجابته وهي تلهث قليلًا: «لست راضية تمامًا. لقد كرّست حياتك كلها لهذا الهراء السياسي».

قال دانييل ضاحكًا وهو يساعدها على الجلوس في مقعده الجلدي الكبير أحمر اللون: «على أحدهم أن يؤدي هذا العمل البغيض».

- يؤسفني أنك من أخذ شؤون هذا العمل على عاتقه. لكن دعنا لا نتحدث عن هذا الأمر الليلة. إنك على كل حال لن تتخبط في المزيد منه. لقد وجَّهت نتائج حرب «البوير» ضربة قاصمة إلى مسيرتك المهنية. احذر يا بني. ستصبح مثار حديث الليبراليين قريبًا، وسيستمر هذا بعض الوقت.

لامها دانييل قائلاً: «من الذي يتحدث عن الهراء السياسي الآن؟». ثم صبَّ القهوة لنا والبراندي لنفسه.

قالت: «سأحظى بكأس مثلك، ويمكنك أن تناولني سيجارًا».

- سيجارًا؟!

- اليوم تتساقط التلميحات إلى الامتيازات الذكورية مثل أوراق الأشجار في الخريف. أجل، لقد اعتدت تدخين سيجار عصر يوم الأحد كي أُعزَّر الفكرة المأخوذة عني ووجدت أن التدخين يروقني.

ثم تنسَّمت كأسها، أخذت منه رشفة، ودخَّنت السيجار راضية.

ضحك دانييل. لم أره سعيد المزاج هكذا منذ فترة طويلة. قال: «أصبحت تشبيهن العرَّافات».

- إنني امرأة عجوز خبرت الحياة. ويومًا ما سأكتب مذكراتي. أتعلم رأيي ديكنز الحقيقي في صديقه وليم ثاكري؟ لقد أخبرني به في «جاذِهل». كنت جالسة في حديقة منزله أقرأ كتاب ثاكري الأخير، إذ خرج ديكنز من النفق إلى الحديقة قادمًا من الشاليه. لقد أهداه أحد معجبيه شاليهًا على الطراز السويسري، شُيِّد على أرض يملكها تقع في الجهة المقابلة من الشارع حيث يقع منزل ديكنز. وقد بنى نفقًا أسفل ذلك الشارع كي يعبره إلى الشاليه حيث يمضي وقته في الكتابة. في ذلك اليوم غادر الشاليه إلى المنزل، تناول كتاب ثاكري من يدي، وقال: «تقرئين هذا؟! دعيني أخبرك يا آنسة ويل بأن...».

أسهبْتُ في الحديث مستمتعة، وكنت أعلم أن لا شيء قد يوقفها عنه الآن.

بعد عامين من تلك الأمسية هاتفْتُ ابنتي ذات العشرين ربيعًا وأخبرتها بأننا ناهبين إلى تريسانت. أعلمتها بالجمع المسافر فقالت: «يسعدني ذهاب أبي. يا للرجل المسكين! ما الذي يفعله الآن؟».

لقد مرّت بضعة أشهر منذ كاد الحزب الليبرالي يمسح الحزب الذي ينتمي إليه دانييل من الوجود. ولم يعد دانييل عضوًا في البرلمان. بعد إخلاص طويل طوت ستينهامبتن صفحته أخيرًا. وعندما قرّر أهاليها تغيير اتجاههم كان التغيير جذريًا، فانتخبوا ممثلًا لهم من «حزب العمال»، الذي لم يكن أعضاؤه كثيرين بعد. هكذا اجتمع ذلك الرجل ممثل ستينهامبتن، والطبيب واريك راسل، وبضعة آخرون، حول كير هاردي⁽¹⁾ في مجلس العموم. الآن أدرك دانييل أنه بلغ أقصى ما يمكنه الذهاب إليه، وأنه لم يذهب بعيدًا. لقد أملتُ أن يستقر حاله بمرور الوقت. فالآن أصبح في تنقل محموم بين منزله، ومكتب المحاماة، ومختلف النوادي. أمضى معظم أمسياته في مكتبه في المنزل يترجم «هاكلبري فين» إلى اليونانية. لكنني رأيت أن التسلية الأكثر منطقية في وضعه هي حلُّ أحجيات تركيب الصور.

أجبت نيكاً قائلة: «إنه بخير. سنسافر الخميس القادم معًا، باستثناء ميرفن وإنيد وإدوارد. سيذهبون بالسيارة. كيف حالك يا عزيزتي؟».

أجابتنني مبتهجة: «في خير حال كالمعتاد. متى ستأتين لزيارتي؟ لقد مرت أسابيع منذ أن جنّت إليّ».

- لا أريد التطفل عليك.

- أي هراء تقولين يا أمي؟ كيف يمكن أن يكون وجودك تطفلاً؟

- في فترة ما، كما تعلمين...

- لا حاجة إلى العودة إلى الوراثة لأنني لا أعود إليه.

- حسنًا، انتظريني غدًا.

(1) كير هاردي = Keir Hardie: مؤسس حزب العمال البريطاني، ترأس زعامة الحزب منذ تأسيسه عام 1906 حتى عام 1908. م

وضعت سماعة الهاتفِ أَثَقَلْتُ في سعادتي. فعلى الطاولة تألقت المزهريّة بنافورة من زهور فورسيثيا الذهبية، ونشرت شمس مايو دفئها، وتآقت نيكاً إلى رأيّتي. دققت الجرس إعلاناً عن موعد القهوة التي راقني شرابها في ذلك الوقت. ثم زارني إدوارد موستن-لويد. كان يحمل باقة كبيرة من زهور التوليب الصفراء قَدَّمَهَا لي خَجَلًا. لم يأتِ الفتى الخجول اللطيف لزيارتي دون باقة من الزهور قط. كانت ربطة عنقه مائلة، وشعره الأسود الكثيف غير مرتّب. لم يستطع ترتيب هندامه قط. لكن زرقه عينيهِ الداكنة، التي أنارتها ابتسامته الخجول مثل زهور البنفسج في ضوء الشمس خلف رموشه الكثيفة، كانت فاتنة.

دعوته إلى الجلوس، وحاولت أن أسوِّي شعره بيدي قائلة: «ما بال شعرك هذا يا إدوارد؟ لم لا تحمل مشطاً؟».

أجابني: «لا جدوى من فعل أي شيء لترتيبه. لنتركه وشأنه. هذه جينات سلتية. لقد ورثتها عن جدّي الويلزي».

لكن جدّك لم يكن من ويلز. كان جدّك قرصاناً مُدَنِّباً يُدعى إدي رودا. لكنك على الأرجح لن تدري الحقيقة أبداً. هذا ما فكّرت فيه، لكنني قلت: «وكيف تمضي مايو هنا في لندن؟ ألا تشتاق أكسفورد إليك؟».

- سأعود الليلة. سيوصلني والذي بعربته إلى هناك، أو هذا ما أمل حدوثه. يمكن أن يحدث أي شيء عندما يقود والذي سيارته. هل يمكنني التدخين؟ (أشعل غليوناً تنافر مظهره مع وجهه البريء الشاب) لكن وصولي اليوم إلى أكسفورد لا يهم، إذ إنني سأبدأ العمل في متجر والذي خلال بضعة أعوام، ولا أظن أن دراستي في أكسفورد ستشكّل فارقاً في هذا. يفكر والذي في افتتاح قسم للتحف. وقد طلب مني المجيء إلى هنا لندناقش الأمر. إنه يودّ أن أخصص في التجارة في هذا القطاع. لقد ذهبنا لرؤية السيد جوليان ريمل. يريد والذي أن أمضي العطلة في معرض «ريمل» كي ألتقط الأفكار، بدلاً من التسكع كما أفعل الآن. في الحقيقة أرى في هذا بعض الاجترار من جانب الوالد. أعني ليس من السهل أن تطلب من رجلٍ استضافة آخر في متجره كي يفتتح متجرًا منافساً له وقد يؤدي إلى خسارته.

- كيف وجدت السيد ريمل؟

- في حالة سيئة. كان شاحبًا ونحيفًا وحادّ المزاج. سأراك في تريسانت قريبًا، صحيح؟ يتحدث أبي عن سفرة جماعية إلى هناك. في الحقيقة إنه لا يأخذ أمر دراستي في أكسفورد على محمل الجدّ. وأظن أن إدارة الجامعة تتساهل معي نظرًا إلى التبرع الكبير الذي قدّمه العام الماضي. أبلغني نيكًا تحياتي. كيف حالها؟

- لقد أنهيت الحديث معها عبر الهاتف للتو. تقول إنها في خير حال. إنها دائمًا كذلك. وأتطلع إلى رؤيتها. إلى اللقاء.

اعتمر قبعته وغادر يدخن غليونه. فجلست هناك طويلًا أفكر في جوليان ريمل الذي ساء حاله.

5

لم تعيش نيكًا عيشًا خشنًا قط. في تلك الأيام كان الحصول على خمسمئة جنيه كل عام يمكّنك من العيش مُنعمًا. وعندما عثرتُ أخيرًا على شقّة مناسبة وربّبتها دعّنتي للذهاب كي أراها. هناك شعرتُ أنها مرتاحة. كانت الشقّة في ميدان «راسل». تضمّنت غرفة جلوس كبيرة وغرفة نوم صغيرة. أنثتها بنفسها، ولم تحتوِ على غرض يُذكرها بمنزل تشيلسي أو جوليان. على طاولة أسفل نافذة غرفة الجلوس استقرّت آلة كاتبة؛ غرض ليس من المعتاد أن تجده في المنازل فاجأني. كانت نيكًا لا تزال ثائرة حادّة المزاج، لهذا تعذّر أن أطرح عليها أي سؤال. أملتُ أن تحدّثني طواعية عن نمط حياتها، لكنها لم تفعل. هناك وقفتُ أضغط برفق أزرار آلة الكتابة، وسألتها: «ماذا تفعلين بهذه؟».

- ليس الكثير. لكنني آمل أن أكسب عيشي بها.

عندما جلسنا لتناول الشاي كانت التساؤلات تملأ رأسي، فانتابني قلق شديد حتى إنها أشفقت عليّ.

قالت: «سألتحق بكلية التجارة. أريد أن أصبح سكرتيرة. قالت الآنسة ويل أن هذه فكرة جيدة».

- هل أتت إلى هنا؟

- لا، لقد ذهبت إليها لإجراء حديث مستفيض.

- هذا غريب. متى يحتاج أيُّ منا إلى إجراء «حديث مستفيض» يذهب إلى ويلي.

- ليس هذا غريبًا، بل منطقيًا.

نقلْتُ نظري في الغرفة البسيطة قليلة الأثاث، وشعرت بالارتياح لأنها تبدو مرتبة. فوق المدفأة علقت لوحة فان جوخ، التي أصبحت ملكها عندما مات ريتشارد. تساءلت فيمن تفكّر عندما تنظر إليها: ريتشارد أم جوليان.

التقت أعيننا فقالت: «لقد عثرت أخيرًا على من تروقه هذه اللوحة مثلي. مؤخرًا أتت السيدة موستن-لويد لزيارتي هنا. هل أخبرتها بمكاني؟».

- أجل، هل أخطأت التصرف؟

- لا، إنها سيدة لطيفة لم أرها منذ أعوام. أظن أنها فكرت أن فتاة تعيش بمفردها تتوق إلى الصحبة. لكنني، في الحقيقة، لا أشعر بالوحدة. على أي حال لقد أتت وأحضرت معها السيد إدوارد. (ضحكت للمرة الأولى) يا له من فتى غريب! ظلّت والدته تسوّي شعره قائلة: «ألا يمكنك فعل شيء حيال شعرك يا عزيزي؟». فيجيبها: «لا يا أمي. إنه معضلة سبقت ولادتي. هل أفزعك خادمة تحمل ممسحة؟». لكن اللوحة أعجبتة حقًا. لم يقل شيئًا عنها. فقط وقف يتأملها وهو يُصفرّ بهدوء ويداه في جيبه. عند مغادرته التفت ينظر إلى اللوحة وقال: «متى تريدي التخلص من هذه يا نيكافسأغامر بعشر شلنات لأحصل عليها». (الآن أغرقت في الضحك وأردفت) «كم عمر إدوارد؟».

- يصغرك بعام تقريبًا.

- يا إلهي! لقد شعرت أنني بمنزلة والدته.

- الآن هل يمكنني مساعدتك في غسل الأواني؟

- لا، لا تتعبي نفسك. لن يستغرق غسلها في الحوض على منبسط الدرج كثيراً من الوقت. ويجب أن أتدرب على الآلة الكاتبة. عندئذٍ فهمت أن وقت مغادرتي قد حان.

6

لقد أجريتُ هذه الزيارة في بداية الشتاء، وفي نهايته حصلت نيكاً على وظيفة السكرتارية التي أرادتها. كان دانييل من وفر لها الفرصة. لقد جمعت صداقة طويلة بينه وبين السير تشارلز كاري. شغلا مقعدين في البرلمان في الفترة نفسها، وكان السير تشارلز واحداً من أعضاء حزب المحافظين المنبوذ مؤخراً الذين نجحوا في الانتخابات البرلمانية الأخيرة. لقد قابلته مرة أو اثنتين. كان عجوزاً أشيب، يتقن استخدام قلمه مقارنةً بلسانه. عكف على تأليف النشرات السياسية. لم يترك أي حدث سياسي، ماضياً كان أو حاضراً، دون تعليق. شغل هذا النشاط وقته وأسعده. ولأنه ثري فقد دفع تكلفة طباعة نشراته السياسية. ولم تصدر أيُّ منها دون رؤية اسمه على الغلاف حيث يظهر صدره، الذي رأيته في حفلات العشاء يزدان بالشارات والأوسمة، كأنه لوحة إعلانية تعرض مكانته الرفيعة. في الحقيقة كان الرجل لطيفاً، مأمون الجانب معتلاً الصحة. اشتدَّ التهاب مفاصل أصابعه فمنعه من الكتابة. بدا له هذا الحدث الشخصي نذيراً حقيقياً بالظلمة الوشيكة، التي دفعته الأوضاع العامة إلى الكتابة عنها.

هكذا عثرت نيكاً على وظيفتها. كان السير تشارلز يعيش في ميدان «راسل» مثلها. لكنه، على النقيض منها، امتلك منزلاً منفصلاً لا شقة. لم يلزمها سوى عبور الميدان صباحاً كي يملي عليها كلماته، ثم تعود إلى شقتها لتكتبها على الآلة الكاتبة. وجب عليها كتابة النشرات السياسية، ومراسلات إلى جريدة «تايمز»، ومراسلات إلى النخبين، وخطبٌ عدَّة. فالآن، إذ أمكن السير تشارلز الاسترخاء في جلسته والكلام بدلاً من الكتابة، أصبح يسهب في الحديث عن الحماقات التي تملأ العالم. شغل العمل وقت نيكاً، وبدأنا أنا ودانييل نتقبَّل بهدوء نمط حياتها. لقد أحببت السير ريتشارد وزوجته، السيدة

«رفيعة المقام» ابنة أحد الإيرلات، ونالت بدورها إعجابهما. لم يُرزقا بالأبناء، ومن حين إلى آخر اصطحباها في المساءات إلى العشاء، أو المسرح، أو الأوبرا. على أن الأفكار السخيفة التي أفلقتني، أفكار تتضمن صحة فاسدة تأخذ كثيرًا من وقت نيكّا، قد تلاشت قبل أن تحظى برفقة إحدى أهم عائلات المجتمع.

في نوفمبر بعد عام بالضبط من رجوع جوليان من فرنسا مع زوجته، وستة أشهر من بدأ نيكّا المشاركة في إعداد تلك النشرات السياسية التي سمعت أ. ب. وبيزي يدعوها «طيور الأم كاري»⁽¹⁾، عُرضت المسرحية التي كتبها وبيزي في الطرف الغربي. لقد برهن بقوة على إيمان ابني ريتشارد بمستقبله الواعد. كان نجاحه كروائيّ سريعًا وتأمًا. انتشر اسمه في كل مكان. لقد أجاد تسخير جرأته في الحديث وحماسه. وبصمت علاقاته المشينة العابرة مع النساء سُمعته ببصمة حريفة مُلَطَّخة. ولم تعد الخادِمات من يشغلن المقعد الخلفي في دراجته.

لقد ذهبْتُ إلى العرض الأول لتلك المسرحية برفقة دانييل. قال: «ظننت أنك قد ترغبين في أن تري ما يفعله وبيزي. لقد تمكنت من الحصول على تذاكر أربعة مقاعد في الصفوف الأولى. هاتفي نيكّا لنر إن كانت تودُ الحضور وإحضار رفقة معها».

قالت نيكّا أن السير تشارلز وزوجته قد رتّبًا بالفعل لاصطحابها. لهذا أرسل دانييل التذكريتين إلى جوليان ريمل مُعربًا عن رغبته في رؤيته وزوجته هناك.

قال: «لا أريد أن يظن جوليان أنني غاضب منه. ستمنحنا تلك الدعوة فرصة للقاء على نحوٍ وديٍّ مجددًا. سنذهب للعشاء في مكان ما بعد العرض». في تلك الأيام كنا نتأق عند زهابنا إلى المسارح. إنني أتذكر الجمهور أكثر من المسرحية نفسها التي لم تلقَ نجاحًا لأن وبيزي كان روائيًّا لا كاتبًا

(1) وفقًا للفلكلور الإنجليزي الساحلي في القرن التاسع عشر جسّدت الأم كاري، الساحرة الشريرة، طبيعة البحار القاسية. كانت المسؤولة عن اضطراب المحيطات وإثارة العواصف المدمرة. لكنها لم تبحر وحدها، بل رافقتها «طيور النوء»، التي ينذر وجودها بوصول الساحرة الوشيك. م

مسرحياً، وبعد تلك التجربة ترك المسرح وشأنه. أتذكر الحرير، والمخمل، والألماس، والقمصان المُنشأة تملأ المقاعد. أتذكر النظر إلى الأعلى لأرى تشارلز كاري في مقصورته، عجوزاً ودوداً يشرف على خشبة المسرح بجواره تتألق زوجته. نيكاً تبدو رائعة في ثوب حريري بسيط باللون الأزرق الداكن، ذي نطاق فضيٍّ، ووردة حمراء تزيّن شعرها. أتذكر وصول جوليان طويلاً وسيماً، لا يقل منزلةً عن الرجال المرموقين من الحضور. تحيط به هالة تجعل من يراه يعيد النظر إليه ويتساءل من يكون. بجواره مارث، زوجته الضئيلة التي لم أقابلها كثيراً. الآن لاحظتُ كم أنها امرأة مثيرة، تبدو كأنها تزفر غموضاً مثل غابة وقت الغروب. فكّرتُ أنها ممن لن يروقني سبر أغوارهم. لفّ عنقها، حيث تنبض أوردتها حماساً، طوقُ من الألماس ذو طراز عتيق. فكّرتُ أن جوليان لا بد قد استعاره من معرض «ريميل» من أجل هذه المناسبة، إذ لم يكن باستطاعته شراء غرض نفيس مثل هذا بعد. في مقصورة غير مُضاءة تقابل مقصورة نيكاً لمحتُ أ. ب. ويبزي جالساً وحده يبدو متوتراً. هكذا أصبحنا جميعاً هناك: نحن الممثلون في مسرحية على وشك أن تبدأ.

عندما أضيئت الأنوار عند الاستراحة الأولى قال دانييل: «إن تشارلز كاري يومئ إلينا. يجدر بنا الذهاب إليه وتبادل التحيات».

عندما غادرنا مقعدينا تفاجأت برؤية جوليان ومارث يتبعاننا. لا شك أنهما لاحظا أن الجالسة مع عائلة كاري هي نيكاً التي لم يرونها منذ عام، عندما أعادت مارث ترتيب البورسلين فتركت نيكاً العمل في المعرض. سيتساءل جوليان ماذا تفعل ابنة خاله هناك، وستعزم مارث على الحصول على جواب لسؤاله. لن تتركه في حيرته. فكّرتُ أنهم لا بد سيلتقون. لا يمكن أن يستمر هذا الوضع السخيف، وقد حظيت نيكاً بعامٍ لاستعادة رباطة جأشها.

لكن نيكاً لم تكن في مقصورة كاري عندما وصلنا إليها. لقد علمت في ما بعد أنها لم تقوَ على ذلك اللقاء ففرت.

قال تشارلز كاري الذي لا يدري بشيء حول الأمر: «كانت هنا قبل لحظات. أظن أنها سئمت الجلوس وذهبت إلى الردهة تتمشى».

قالت مارث لجوليان: «سأذهب وراءها. سأعثر عليها من أجلك. ستري».

اندفعت خارجة من المقصورة وسرعان ما رأت نيكاً تتجول وحيدة. عانقتها، شَبَّكت ذراعيهما، وحاولت إرجاعها. في هذه اللحظة أتى أ. ب. ويبيزي.

قال: «لقد رأيتكِ من المقصورة المقابلة في المسرح، وفكرت في المجيء لإلقاء التحية. كيف تمضي العجوز ويل هذه الأيام؟».

لم ترغب نيكاً في شيء سوى التخلص منهما. قالت: «أعرِّفك بالسيدة جوليان ريمل. مارث، هذا هو السيد ويبيزي مؤلف المسرحية. أنت تعرف زوج السيدة ريمل يا سيد ويبيزي. لقد قابلته، أتتذكر؟ في عشاء في منزل أخي».

- أنت المؤلف؟ يا لها من ليلة مثيرة تشهدها حياتك!

أجابها ويبيزي بأسلوبه المباشر المشين: «لا أرى المسرحية مثيرة. إنها عنوان الملل. المثير حقاً هو الألباس الذي تتقلدينه. ويا للعنق المثير الذي يحتضنه! يقولون إن هذه الخطوط العنقية من علامات الإثارة».

توقعت نيكاً أن تفرَّ مارث خجلة، لكنها لم تفعل. بل داعبت عنقها، ونظرت في مرآة على الحائط تتطلع إلى الخطوط التي جذبت السيد ويبيزي. ثم التفتت إليه مبتسمة وقالت: «دائماً ما تميزت بها عنقي».

اضطربت نيكاً وقالت: «هل أنت قادم إلى المقصورة يا سيد ويبيزي؟ والديّ هناك. سيرحبان بلقائك».

- لا. أبلغيهما تحياتي. وعندما تقابلين العجوز ويلي صافحها نيابة عني تعبيراً عن استهانتي الخالصة.

تركتهما نيكاً، وكدنا نصطدم بها عند دخولها المقصورة إذ كنا خارجين. ثم قابلنا مارث في الردهة نتحدث إلى السيد ويبيزي.

هتفت: «يا جوليان! تقول نيكاً إنك تعرف السيد ويبيزي. (بعدما صافحه جوليان أردفت) يدعوننا السيد ويبيزي إلى مقصورته خلال الاستراحة التالية».

عند حلول الاستراحة التالية نهض جوليان ومارث، وفي الممرِّ قابلاً السيد دنستابل، خبير التحف الفنية وجامعها الشهير، الذي أجرى مع جوليان صفقات كثيرة، وبدأ الحديث. وقفت مارث معهما لحظات تبدو نافذة الصبر، تجذب كمَّ سُترة جوليان من حين إلى آخر. ثم تركتهما، وسرعان ما رأيتها

تصل إلى مقصورة ويبزي. سار جوليان والسيد دنستابل ببطء معًا، يتحدثان بجدية، وحالما رُفِع الستار عادا. بدا واضحًا أن جوليان لم يلحق بزواجه. على الأرجح أنه والسيد دنستابل استغرقا في الحديث، وتناولوا مشروبًا معًا، ثم عادا. لكن مارث لم تعد. في أثناء الفصل المسرحي الأخير نظرتُ إلى الأعلى مرة أو اثنتين، ورأيتها جالسة في مقصورة ويبزي. لم أقل شيئًا حول الأمر لجوليان الجالس بجواري. لكنني شعرت به يتصلب غضبًا.

في أثناء الجلبة والهرء الذي يسود انتهاء العرض الأول -مثل: دعوة المؤلف إلى خشبة المسرح، الذي استقبل هذه المرة استقبالًا باردًا، وانحنائه وحده لتحية الجمهور، ثم انحنائه للتحية مُمسِّكًا بيد بطلة العرض بعاطفة قوية، وما إلى ذلك- تسللت مارث إلى جوار جوليان وأمسكت بيده. سألتُه: «أين ذهبت يا عزيزي؟».

- عذرًا. لم أستطع ترك السيد دنستابل. أين ذهبتِ أنتِ؟
- ما أسخف ما حدث! لقد انتظرت طويلاً طويلاً أن تأتي لتأخذني. ثم حان وقت رفع الستار ولم أجد على إزعاج الحضور. لهذا سمح لي السيد ويبزي بالمكوث في مقصورته.
- هذا لطف منه.

- جوليان! أنت غاضب؟

- لا يا عزيزتي. أنا مجبول على الهدوء.
أعادت يده التي أمسكت بها إلى جِجْره كأنها غرض ضجرت منه. قالت: «هكذا هو الحال معك دائماً. تنشغل بالسيد دنستابل، أو السيد جوزيف دوفين، أو هذا أو ذاك. حتى في باريس عندما تمكث معي أنا وأبي لا تتحدث عن شيء سوى عملك».

ساد الصمت لحظات، ثم أردفتُ: «يوذُ السيد ويبزي أن نذهب معه إلى العشاء عندما ينتهي كل هذا».

وأشارت إلى خشبة المسرح.

- لكنكِ تعلمين أننا ذاهبين إلى العشاء مع خالي وزوجته؟!

قال دانييل: «لا تهتما لذلك. إن أردتما أن...».

قاطعهُ جوليان قائلاً بغضب: «بالطبع سنذهب معكم. إنها مسألة تهذيب وتفضيلات».

- إذن كيف سنُعَلِّم السيد ويبزي بهذا الأمر؟
أجاب جوليان بصرامة: «سيعلم به عندما يكتشف رحيلنا».

7

سرَّ الليدي كونستانس كاري أن تُعِد نفسها راعية للفنون. راقها جوليان عندما تعرفت إليه في مقصورتها في المسرح. وبعد بضعة أيام قالت لنيكا: «لنذهب إلى معرض ابن عمك اللطيف».

في ذلك الوقت لم تنشغل نيكا بكتابة نشرات السير تشارلز السياسية. فاستقلتَا عربة «بروم» يقصدها شارع بوند في ذلك الصباح الشتوي الرائق. كانت نيكا حزينة لأنها علمت بما لم يعلمه أحد منا في ذلك الوقت. لقد رأت مارث تقبل عن طيب خاطر مغازلات السيد ويبزي، ثم رأتها جالسة في مقصورته بمفردها طوال الفصل الأخير كله. وأخبرها حدسها بأن تلك المرأة السمراء الجذابة ليست مخلصاً لجوليان. جوليان!

لقد احتملت آلام العام الماضي وتغلبت عليها بعض الشيء بمساعدة فكرة واحدة، وهي أنها قد تنحّت جانباً كي يعيش جوليان سعيداً. لكن الآن تأكد لها أن لا أهمية لما فعلت. عندما تُتاح لتلك المرأة اللحظة والمزاج المناسبان ستخونه، مع ويبزي أو أي من يعجبها.

شعرت نيكا أن ما تعيشه الآن أسوأ ما أذاقتها الحياة، أسوأ من خسارتها جوليان. انتفض بقوة حبُّها الشديد له الذي كبته وحاولت تمزيقه إرباً، ونبض به قلبها. وبجانبه نما شعور لم تعرفه قبلاً قط، شعور أخافتها سَوْرته. لقد قالت لي في ما بعد: «كنت لأنزع جلد تلك المرأة حيّة لو كانت تحت رحمتي».

قالت الليدي كونستانس: «من اللطيف أن نشترى ملاحات أثرية أو شيئاً من هذا القبيل، ألا ترين ذلك؟ يجب أن يدعم المُوسِرون الفن، ألا توافقيني الرأي؟ دائماً ما رأيت هذا واجباً اجتماعياً».

انتزعت نيكاً ذهنها من شروده العميق وسألتها: «ما علاقة هذه الأماكن بالفن؟ إنها محض متاجر. الرجل الذي صنع الملاحات هو الفنان، وعلى الأرجح أنه ميت منذ قرون».

- لكن العاملين في تلك المعارض دائماً ما يتمتعون بلطفٍ شديد، ألا توافقينني الرأي؟ يتحلّون بأناقة المظهر والكلمة. دائماً ما أراهم قُسُوس الفن. إنني أظن أن حتى الربّ قد يصعب التعامل معه إن اقتربنا إليه مباشرة. لكن القسوس يمهدون الطريق بين الطرفين لأنهم يفهمونهما. لهذا سنبحث عن بعض الملاحات الجميلة».

غادرا العربية، ومدّت نيكاً ذراعها تساعد الليدي في صعود الدرجات.

- هذا الصعود متعب جداً يا عزيزتي. لقد كانت ساقي قويتين. اعتدت التزلج ساعات بلا توقف. أتذكر جولاتي في «ترينتم». هناك كانت تُقام حفلات رائعة احتفالاً بعيد الميلاد المجيد. وذات مرة في «هولندا» تزلّجت على طول الممرات المائية من «دوردريخت» إلى «أوترخت». لكن هل هذا ممكن أصلاً؟ أنا لست واثقة! على أي حال لقد تزلّجت من موضع إلى موضع بعيد آخر. لكن كل شيء تغير الآن. إن هذا المكان رائع جداً، رائع حقاً!

وقفت تستند كلتا يديها إلى عصاها تتطلع إلى المعرض حولها، ووافقتها نيكاً الرأي. لقد مرّ عام منذ أن جاءت إلى هذا المكان آخر مرة وبدا تطوره واضحاً. لقد اكتسب طابعاً خاصاً ورونقاً. لكنها رأت به منظرًا واحدًا فقط قبيحاً. كان أ. ب. وبيزي هناك يجلس مع مارث ريمل، دون سواهما في مرمى البصر.

قالت الليدي كونستانس بصوتها الواضح الحازم: «لقد أتيت لرؤية السيد ريمل».

قالت نيكاً: «أعرفكِ بالسيدة ريمل. مارث، هذه هي الليدي كونستانس. هل جوليان هنا؟».

- عذراً يا حضرة الليدي. لقد سافر زوجي إلى باريس وسيظل غائباً بضعة أسابيع. هلا تفضلان بالجلوس؟

ساعدت نيكالليدي كونستانس في الجلوس إلى مقعد بجوار المدفأة. رفعت العجوز المُسنَّة عصاها الأبوسية تشير بها إلى السيد ويبزي وقالت: «استأنفي العمل ومساعدة زبونك. سأنتظر».

- هذا ليس زبونًا يا حضرة الليدي، بل صديقًا مرًّا للزيارة.

قالت نيكال: «هذا هو السيد أ. ب. ويبزي. (لكن الليدي لم تعرفه فأردفت) إنه روائي».

- هل تكتب الروايات أيها الشاب؟ طالما رأيتُ أن الكتابة بعد وفاة تشارلز ديكنز ضرب من الوقاحة.

ذكرتها نيكال: «لقد رأيت السيد ويبزي مؤخرًا. إنه كاتب المسرحية التي ذهبنا لمشاهدتها. لا بد أنك رأيتَه يحيي الجمهور».

- تقصدين يودع الجمهور. (ضحكت ضحكة مكتومة وقورًا) أؤكد لك يا سيد ويبزي أن عرض تلك المسرحية لن يطول. من الوقاحة كتابة المسرحيات بعد وفاة شكسبير، ألا توافقني الرأي؟

أجابها: «ربما. إن من الوقاحة أن يُولد البشر منذ خلق آدم وحواء».

- على الأرجح أن هذا صحيح نظرًا إلى الأذى الذي تسببنا فيه. الآن استعد للرحيل. إنني أودُ الحديث مع السيدة ريمل عن الملاحظات. قد أرسل إليك دعوة إلى بعض الأمسيات، حيث ستقابل الناس وستسلك المسلك الذي ينبغي. لا ضير من تهذيب بعض الطباع.

انتاب السيد ويبزي الغضب. لقد بدأ ألفة الشهرة وجبها. كان في مرحلة اعتياد تلقي الاهتمام. لهذا قال بفضاضة: «ماذا يفعل الحضور في تلك الأمسيات؟ يجلسون ليستمعوا إلى زوجك يقرأ نشراته السياسية؟».

- هل تدري بالنشرات السياسية التي يكتبها السير تشارلز؟!

قال: «أمسح بها مؤخرتي».

توقَّع أن يدوي الرعد ويلمع البرق. لكن ما حدث لم يتعدَّ ضحكة مكتومة وقورًا مجددًا. عندما توقفت الليدي عن الضحك أشارت إليه قائلة: «إن كانت كتابتك رديئة مثل حديثك فأنت لست موهوبًا. لقد أشار تشارلز لامب إلى احتمالٍ مريع، وهو استخدام صفحات كتبه في العمليات التي تتلو تناول

الطعام. هذا التشبيه أفضل، ألا توافقني الرأي؟ لا جدوى من أن تحاول أن تصدمني بالحديث عن المؤخرات. إنني على دراية بالمؤخرات أيها الشاب. قد تتفاجأ إن علمت أنني وُلدت بإحداها. الآن حان وقت رحيلك».

بعدما رحل قالت: «يا له من رجل غريب! يفقد الثقة بنفسه وسط الناس. والآن يا سيدة ريمل...».

بينما السيدتان مستغرقتان في الحديث تجولت نيكاً في المعرض. ألقت نظرة بداخل الغرفة الخلفية التي يشغلها السيد كوجان، لكنها لم تجده هناك. وبينما تُعين الليدي كونستانس على الوصول إلى الباب إذ يغادران قالت لمارث: «لديّ رسالة أريد إيصالها إلى السيد كوجان. هل هو هنا؟».

كانت مارث تمسك بالباب تفتحه لهما، أجابتهما: «لا. لزمَ توصيل بعد الأغراض صباحاً وقد ذهب لإيصالها».

- لم أكن أعرف أن السيد كوجان أصبح مرسلاً.

سخرت منها مارث قائلة: «عذراً، يجب أن أبقى على اطلاع بالطريقة التي ندير بها شؤون عملنا».

كانت الليدي كونستانس قد بدأت هبوط الدرجات في طريقها إلى العربة عندما قالت نيكاً: «لا تهتمي للأمر يا مارث. سأتولى بنفسى الاطلاع على كيفية إدارتك شؤونك».

ثم هرولت تلحق بالليدي.

8

بعد ظهيرة ذلك اليوم زارتني نيكاً وقالت: «لنذهب معاً إلى ويلي مساءً». لقد استعادت كثيرًا من هدوئها مؤخرًا، لهذا أقلقني رؤيتها غاضبة مثلما كانت عندما غادرت المنزل. لكن غضبها لم يفاجئني عندما أخبرتني أنا وماجي ببقاء ويبزي ومارث في ردهة المسرح، وبخضوع الأخيرة له، وبما شاهدته في معرض «ريمل». لقد شدّدت على أسفها وحنقها لأن زوجة رجل مثل جوليان تفعل هذا به.

جلسنا في الغرفة الركينة التي عرفتها سنوات طويلة؛ تلك الغرفة حيث جلسنا ذات مرة تحيط بنا الأبقار المقدسة وتماثيل بوذا، حيث بكيت بعد زيارات دانييل البهيجة، وحيث رأيت ماجي في شبابي كهلاً بالفعل. لكن الآن شعرتُ بأنني عجوز، عجوز مثلما كانت ماجي حينئذٍ. شعرتُ بأنني أقترُب من فهم منطق الحياة الحزين. عبر النافذة رأيتُ شجرة التوت جرداء. لحظت طبقة من الجليد تغطي سطح البحيرة. هناك تقف السيدة العارية تنظر إلى الأسفل حيث وضع السيد جريمشو حدًا لمشكلاته. استقرت كتلة من الثلج الرمادي أسفل سور الحديقة، وبدأت السماء الرمادية قريبة. التفتُ إلى المدفأة، بجوارها جلست ويلي ونيكا وصينية الشاي بينهما. لكن الصغيرة لم تتناول شيئاً.

سألتها ويلي: «ماذا قصدتِ بقولكِ لمارث إنكِ ستبقي نفسك على اطلاع بكيفية إداراتها شؤونها؟».

- فكرت أن ما قلته قد يفاجئها أو يخيفها. ليس بإمكانني فعل شيء، أليس كذلك؟ لا يمكنني التجسس. (ارتعدتُ عند التفكير في هذا الأمر، ثم أردفت) لهذا أعتقد أنني لم أقصد أي شيء.

- بالضبط. ومن الجيد أن تدركي أنك، رغم ما قلته، لا تقصدين فعل أي شيء. يسعدني حقاً أنك لم تقصدي التدخل. (تناولت الكعك والشاي ثم سألتها) لم لا تذهبين إلى تريسانت بعض الوقت؟

- لكن ماذا سيفعل السير تشارلز من دوني يا عمّة ماجي؟

ابتسمت ماجي وقالت: «لن ينقلب العالم رأساً على عقب إن توقف عن الكتابة بضعة أسابيع. أؤكد لك أن لا أحد سيلحظ غيابه؛ هذه قاعدة تنطبق عليك يا نيكا وعلى معظمنا. اذهبي للمكوث مع لوسي إيفانز».

- لكن لماذا؟

- إنَّ ما أخبرتنا به لا يبرهن على شيء. إن قُدِّم لوالدكِ مثل هذا الدليل فسيسخر منه. ورغم ذلك يظلُّ الأمر مريباً. إن كان ويبزي وزوجة جوليان على علاقة غرامية فلا أجد ما يمكن لأي منا نحن الثلاثة فعله. إنني أودُّ أن تكوني بعيدة عن هذه المسألة قدر ما يمكن، وتريسانت هي أبعد مكان يلوح في ذهني. فأنا أعلم الكثير عن ويبزي وجوليان.

يتبجح ويبزي بإغواءاته ولا يتكتم عليها. لهذا إن كانت هذه الشكوك حقيقةً فسيدري بها جوليان. وما أعلمه عن جوليان يخبرني أن هذه المسألة ستجعله يثور. إن جوليان يحبك كثيرًا. (عندئذ تغضن وجه نيكَا أَلْمَا) لهذا، إن انكشفت تلك اللطخة، أريد أن يتأكد له أن لا علاقة لكِ بالمسألة كلها. وأعتقد أنكِ بمرور الوقت ستسعين بابتعادكِ. (أمسكتُ بيد نيكَا تقول) إنني أعلم بحقيقة شعوركِ يا عزيزتي. أعلم بحبكِ لجوليان وبغضكِ مارث. قد يقودك هذان الشعوران إلى التدخل على نحو سيجعلكِ تندمين لاحقًا.

قالت نيكَا بوجه جامد: «أنتِ محقة. لا أثق بأنني أستطيع السيطرة على تصرفاتي في وجود تلك المرأة».

- هذا ما يخيفني يا عزيزتي. قد تحاولين كشف المسألة. وقد لا يسامحكِ جوليان أبدًا.

- لا يعبأ جوليان بي بأي شكل من الأشكال.

- هذا هراء. توجد أنواع مختلفة من الحب في العالم. ولا يكون الحب رومانسيًا دائمًا. يجدر بنا أن نقبل نوع الحب الذي يُمنح لنا، ونمتنّ لأننا حظينا به. يجدر بنا أيضًا أن نمنح من الحب ما نستطيع. اذهبي إلى لوسي إيفانز وامنحها بعض حبكِ. ستسعد برؤيتكِ. فهي لم تعد ترى كثيرًا من الناس. غادري صباحًا، وسيبلغ والدكِ السير تشارلز بسفركِ. هل ترين أن ما قلتُ منطقيٌّ؟

- أجل. لكنه قاس جدًّا.

في الصباح رافقتُ نيكَا إلى محطة بادنجتون. وعندما انهار زواج جوليان انهيًا مؤسفًا سعدتُ لأنها عملت بنصيحة ويلي. لقد صادف أن وجدت نيكَا الكثير ليشغل فكرها، لأن لوسي إيفانز كانت مريضة عند وصولها وتدهورت صحتها سريعًا. وعندما وصل ميرفن إلى تريسانت كانت والدته تُحتضر.

الفصل الخامس والعشرون

مكتبة
t.me/soramnqraa

1

كانت هذه الأحداث ماضيًا عندما قمنا برحلتنا إلى تريسانت في مايو عام 1906. إن عزمي على اتخاذ تريسانت منزلي نشأ مع تلك الزيارة. لقد تساءلت في بعض الأحيان إن كانت سالي، ذات يوم، ستجد الحياة في برمندي غير محتملة وستغادر جُحرها هناك. لكن اتضح الآن أن هذا لن يحدث أبدًا. لقد أصبح منزلها في شارع روبن هود موطنها وملجأها. كان ممكنًا في وقت ما أن أعدّ مغامرة سالي تمرّدًا؛ مرحلة ستجتازها لتسعى إلى غاية أخرى. لكنني أدركت الآن أنها المحطة الأخيرة في دربِ قَدَرها.

قبل سفرنا إلى كورنوال ذهبنا لزيارتها. كانت عجوزًا ستبلغ الستين العام التالي. لكنها تمتعت بصحة جيدة وسكينة. أعدت كوب الشاي المعتاد ووضعت علبة البسكويت في زاوية من طاولة المطبخ. ليتني أستطيع أن أقول الآن إن كل شيء يخصّ سالي، مع فقرها، كان نظيفًا، مثلما يصف الروائيون قماش «التويد»: «رغم قِدَمه واهترائه فقد قصّه خياط ممتاز». لكن سالي، في الحقيقة، لم تملك ما ينطبق عليه هذا الوصف سوى وجهها. لقد منحتة سنوات عمرها، والطريقة التي عاشتها بها، سكينةً تثير العاطفة. وكأن وصفه كان في ذلك المقطع من الآية: «كَظَلَّ صَخْرَةً عَظِيمَةً فِي أَرْضٍ جَدْبَاءَ». أحيانًا كنت أقلق بشأن سالي، لكن حالها لم يشغل بالي قط بعد تلك الزيارة. لقد

بدا واضحًا أنها قد عثرت في تلك الحظيرة على ما لم يفلح كثير من البشر في العثور عليه في أي مكان آخر. كان القماش المشمّع على الطاولة متشقّقًا مُبقّعًا. لم تغطّ الستائر النوافذ. قالت لي ذات مرة: «يعني وجود أي قطعة قماشية في المنزل غسيلًا لا ينتهي. فالقذارة تنال من كل شيء هنا. لهذا فإن الحل الوحيد هو الاستغناء». في ذلك اليوم بدا واضحًا أن نظافتها الشخصية ليست تامة. انبعثت منها ومن ثيابها رائحة طفيفة غير مُستحبة، ولحظت قملة على عنقها. فكّرت: «لا أظن أن رائحة الملكة إليزابيث كانت زكية جدًّا. فالشائع أنَّ عليّة القوم ذوي الباروكات في القرن الثامن عشر كانوا مصابين بالقمل». وبصرف النظر عن تلك الأفكار فإنني قد أحببت سالي كما كانت.

وضعت يدها على ذراعي وابتسمت لي. عندئذٍ فكرتُ إن كان وجهها في سكونه يثير العاطفة فإن ابتسامته تنفذ إلى القلب. لقد أطلّت سالي الفتاة من وجه سالي المرأة، كأن رسمًا لرامبرانت في سنٍّ متقدمة قد تطبّع بالصبا للعبوب في إحدى لوحات جورج رومني.

قالت: «الأسبوع الماضي خضت تجربة استثنائية. إنني أعيش هنا منذ أعوام طويلة جدًّا لا أذكر عددها، لهذا فكرت أن أخرج لأرى العالم الراقي. بدت لي هذه الفكرة كأن القديس أنطونيوس قرّر أن يعين فينوس في اغتسالها ليتأكد أنه حصين ضد الإغواء. وقد تمشيت في شارع بوند! سرت على مهل أطلع إلى واجهات جميع المتاجر. كم من أغراضٍ رأيت! غليونات فاخرة ولحومًا وفطائر شهية! مررت بمتاجر الثياب والقبعات، وجذب نظري بريق الذهب وألقّ الجواهر في متجر «أسبري»! عُرضت أزياء ركوب الخيل تشبه ما اعتدت ارتدائه، والسُروج والسّياط الأكثر روعة! فجأةً انتبهت إلى أنني أستطيع شراء كل ما أريد، حتى إن كان تاجًا من الألماس! لقد اعتدت نفسي عجوزًا فقيرةً حتى إن تلك الفكرة أذهلتني. ثم بدت الرغبة في شراء تلك الأغراض تبعث على الضحك حتى إنني انفجرت ضاحكة. كنت أردي القلنسوة والوشاح القديمين، اللذين ترينهما مُعلّقين خلف الباب، وهذا الحذاء الطويل. (مدّت قدميها لأراه). أتى ضابط شرطة يسألني: «ما الخطب يا ماما؟»، فوجدت أنه يجدر بي مواصلة السير. ثم رأيت شيئًا أردت شراءه حقًّا، وهو زهور البنفسج. كان عجوز يجلس في إحدى الزوايا بسلةً ملائى بتلك الزهور فخطرت كورنوال في

فكري. تذكّرت صباحًا، قبل حتى أن أتعرف إليك، حيث كنت أتجول وحدي ووصلت إلى موضع خارج كنيسة تملؤه زهور البنفسج. لقد ذهبت إلى هناك على صهوة فرسي، ثم ترجّلت منه، ووقفت أمسك بلجامه أطلع إلى الزهور التي تلوّنت بالأبيض وجميع الظلال الزرقاء. وعلى ضفة نهر موحلة سمعت الكراوين تغرّد بتلك النغمة التي تميّز تغريدهم ربيعًا... أتعلمين؟ توجد لحظات في حياة المرء -ربما لا يتجاوز عددها أصابع اليد الواحدة- يشعر فيها أن كل شيء مثاليّ. بالطبع تعلمين؛ لقد أخبرتني بلحظتك المثاليّة في قصر الكريستال. كانت تلك اللحظة في ذلك الصباح البعيد إحدى لحظات حياتي المثالية. تألف الكون وتناغم معي، إذ اجتمع الصباح الربيعي وعبق الزهور، وملمس عنق الفرس وتغريد الكراوين، مع خلوتي التامة. لقد عاد كل هذا ليحيط بي في شارع بوند عندما تنسّمت البنفسج. لهذا اشتريت ثلاث باقاتٍ وواصلت السير. ثم وقع الحديث الاستثنائي؛ لقد قابلت أُمي!». توقفت عن الحديث، صبّت كوبًا آخر من الشاي، وقالت: «لقد رأيتها مرة. أتذكرين؟».

تذكّرت صباح الديرابي في «هايد بارك» عندما حزنّت لمرأى اللورد بيرندج يبتعد بعربته. ثم تحدّثت تلك المرأة الجميلة إلى سالي، لكن سالي لم تجبها. على أنها في ما بعد أخبرتني أنا وويلي بأنها والدتها دوقة فالوشير. أردفت: «رأيتُ عربية خارج أحد متاجر الثياب. لحظت زِيّ الحوذنيّ الرسميّ الجالس في مقعده العالي، وزِيّ الوصيف الواقف على الرصيف، وشارة النبالة. لولا تلك الأشياء لما عرفتُها قط. بالتأكيد تجاوزتُ الثمانين عامًا، ولازمَ خروجها من المتجر الطقوس الرسميّة. فتح الوصيف باب العربة، انحنى البائع تحيةً، وطرح الخيول رأسها إلى الوراء كأنها تقول: «ها هي الملكة قادمة». بدت عجوزًا لم أكن لأميّزها من بين جميع النساء في سنّها. وبالطبع لم تكن لتعرفني قط! لكنني لم أستطع المقاومة. خطوت إلى الأمام وقلت: «أتريدين زهور البنفسج يا سيدتي؟ زهور البنفسج الزكيّة؟». أمسك الوصيف بذراعي ودفعني إلى الوراء. لكنها نظرت إليّ وابتسمت وقالت: «لا تكن فظًا يا جاكسون». حدجني جاكسون بنظره لأنه تلقى اللوم بسببي. ثم استقلّت العربة وغادرت. كان هذا، في ما أظن، وداعًا يا ماما».

رفعت الكوب إلى شفتيها، فلحظتُ ضمادة قذرة بإحدى أصابعها. قلت: «لن يستحسن الطبيب راسل هذا».

- أجل، لن يستحسن هذا. في طبعي الكثير مما لا يبال استحسنه. يجدر بي أن أبدلها.

أزالت الضمادة وقطعة الشاش الصغيرة أسفلها وألقت بهما إلى نيران المدفأة. كان الجرح ملتهباً وبدا مُلوّثاً.

قالت: «تنتج هذه الجروح عن تنظيف أرضيات جيني جريفيث».

أخبرتني بهذه الحقيقة عَرَضاً كأنها خُلقتُ لتنظيف أرضيات جيني جريفيث. ربما خُلقتُ حقاً لتفعل هذا. كيف لي أن أبتّ في هذا الأمر؟

- جيني المسكينة في التاسعة عشرة توشك أن تضع طفلها الأول. لكنها مريضة ومزعورة. زوجها رجلٌ ضخمٌ فظٌّ في الخامسة والعشرين، من عمّال تفريغ السفن وشحنها. وهو عنيف جداً، فلا يجروُ أحد سواي أنا والطبيب راسل على الاقتراب من منزله. حالياً هو عاطل عن العمل أيضاً.

- إذن يمكنه تنظيف الأرضيات.

نثرتُ بعضَ مسحوق حمض البوريك في حوض به ماء دافئ، ثم أدخلت إصبعها فيه. قالت: «إن العالم يا عزيزتي سارا يمتلئ بمن قرّروا بأنفسهم ما يجب على الآخرين فعله. يجب أن يسمح الرجال للنساء بالتصويت. يجب أن يمنح الأثرياء أموالهم إلى الفقراء. يجب أن يجتهد الفقراء ويفيقوا من ثمالتهم. امتلأ ذهن صديقتي القديمة دوللي ديورست بهذه الأفكار، التي تمثلُ عماد السياسات الحزبية. وبينما يعملون على تحقيق هذه الأهداف -التي أرى أن من الواجب العمل على تحقيقها- يظلُّ العالم ملآن بمن يفعلون ما ليس عليهم فعله ويهملون واجبهم. على زوج جيني ألا يروّع جيرانه، وبالطبع عليه تنظيف الأرضية. لكنه لا يفعل، لهذا أؤدي واجبه. إنني أمضي وقتي في أداء مهام غريبة حتى تحين ساعتني. (ضحكتُ وهي تخرج إصبعها من الحوض، ثم أردفتُ) انظري إلى كل هذا الصديد اللعين. يجب أن أفرّغه».

وقد أدّت هذه المهمة بكفاءة. أولاً غلت الماء لتعقيم إبرة، ثم لَفْتُ إصبعها في ضمادة جديدة.

- تسببت في هذا الجرح شظية خشبية في أرضية قذرة. أتعلمين بما يدعوني ذلك الأحقق الكبير واريك راسل الآن؟ خادمة الرب. أرى في هذا إطرأً شديداً. لكنني لا أزال من الزهو بحيث لا أقرُّ بأنه يعجبني. دائماً ما فكرت أن مهمتي هنا تستحق لقباً، والآن قد حصلت عليه.

سألتها عن حال الطبيب راسل فأجابتنني: «منذ وفاة ابنه روبن...».

- هل مات روبن؟!

- مات وأصبح جثة هامدة. (لم تكن تُبدد عواطفها على ما انقضى ولا يمكن تغييره) التيفود هو السبب. لقد حذرت واريك، لكن النقاش مع ذلك الرجل مستحيل. ولا يمكن أن تنجب بولي طفلاً آخر أبداً.

غشيننا الصمت والحزن بضع لحظات، ثم قالت: «لقد منحته تلك الواقعة طاقة هائلة. إنه رجل غريب. لم يضع شاهد قبر على قبر الصبي، لا يوجد هناك سوى رقعة من العشب. لقد قال لي: «أقسم بأنني سأعمل حتى تصبح ذكراه خالدة في كل شارع وكل منزل في هذه المنطقة. سأعمل حتى يرقد وسط الفردوس». هذا ما دفعه إلى الانضمام إلى مجلس العموم. إنني أحب هذا الرجل. أرى فيه عقل دوللي ديورست وقلبي مُتّحدين. وهو يجعلني أشعر أنني عجوز حمقاء بليدة، أجلس هنا مثل عنكبوت هَرَم وسط هذه الشبكة القذرة».

استغرقت في التفكير، ثم قالت: «لكن طريقي قادني إلى هنا بطريقة ما. ولم يسعني سوى اتّباعه».

أخبرتها عن الرحلة إلى تريسانت التي خططنا لها، وسألتها إن كانت تشعر بالرغبة في العودة إلى هناك مجدداً. أجابتنني بعد تفكّر: «لا. قد تراودني رغبة ضعيفة يسهل التغلب عليها. لقد قدّمت الإقطاعية من أجلي كل ما يمكنها، وهي حاضرة هنا. (وضعت يدها ذات الضمادة على صدرها) أسعد بذكراها فهي عزيزة عليّ. لقد احتضنتني وأنا صغيرة. ساهمت في تكويني، وترسّخت بداخلي. لكنني لا أريد العودة كي أجمع الفتات. اسعدي بها يا عزيزتي. امكثي هناك وقتما ترغبين وقدر ما تشائين. ستصبح تريسانت ملكك عند رحيلي. هذا مذكور في وصيتي».

- سالي! يا عزيزتي...

نهضت لتصرفني قائلة: «الآن لا جدال أو عاطفية رجاء. يجب أن أذهب لألقي نظرة على جيني جريفيث. لذا يجدر بك المغادرة ما لم ترغب في الذهاب معي».

- لا أريد ذلك.

عادت ابتسامتها الساحرة مجدداً وقالت: «هذا ما ظننتُ. إذن اذهبي واعتني بعائلتك. وقبلي نيكا نيابة عني».

- بل أنا من سأقبلُك نيابة عن نيكا.

هكذا فعلتُ. وتعانقنا طويلاً حتى ابتعدتُ لتأخذ القلنسوة والوشاح من وراء الباب.

2

لقد أجرينا تلك الزيارة إلى تريسانت لهدفين. كنا جميعاً في حاجة إلى عطلة، ووجب الاهتمام ببعض الأمور الجنازية. أردت أنا ودانيل أن نرى لوح ريتشارد التذكاري، الذي عُلق بجوار لوح جاستن داخل الكنيسة. وأراد ميرفن التأكد أن شاهد القبر قد وُضع فوق ضريح والدته. لهذا في الصباح التالي لوصولنا كانت المقبرة وجهتنا نحن السبعة. ازدان ذلك الصباح بتغريد الطيور والنسيم الرقيق والخضرة الغضة؛ كان صباحاً شتوياً تجددت فيه الطبيعة تهيؤاً لإحيائنا ذكرى موتانا. فكَرْتُ في باقي الراحلين، وكم شعرت بالكبر! من بيننا نحن السبعة لم يستطع سواي أنا وويلي العودة بالذاكرة إلى يوم وصولي مُتَوَعِّكة إلى بورتيفن، ثم ركوب العربة إلى تريسانت. إن أُمي واللورد بيرندج، وإدي رودا وابنه ويزلي وزوجته كثيرة التوبيخ التي عانت كثيراً، وجاستن والدة لوسي؛ وكثيرين من الأهالي الذين لم أعرفهم جيداً مثل هؤلاء، وكثيراً من الحيوانات اللطيفة أيضاً، جميعهم قد رحلوا. والآن لحق بهم ريتشارد ولوسي إيفانز. من بيننا نحن السبعة لم يعرف سواي أنا وويلي جميع أولئك الراحلين. كنا نحن الاثنين واقفتين في فناء الكنيسة، حيث العشب رطبٌ والندى يملأ أوراق الأشجار العريضة كأنها أطباق الفناجين،

وزهور النرجس تنمو بكثافة وسط القبور. وقفنا بعيدًا عن باقي الجمع، مثل جنديَّين تفصلهما ذكرياتهما عن العامَّة الذين لم يشاركوهما انتصارات حروبهما ومآسيها.

وقفنا بعيدتين ننظر إلى المجتمعين حول قطعة من الجرانيت تحمل اسم «لوسي سلين، الزوجة الحبيبة للكلونيل ألويشس سلين»، وسنوات عمرها. فكَرْتُ أن المذكور لا يهمُّ إذ لم يعد يُشكِّل أي فارق. لقد أصبحت المرأة التي رآها ميليه مثلاً للجمال ترقد بالقرب من عظام إدي رودا أخيرًا. لكنها لن تثير عواطف الشبح المسكين الآن.

ذهبت ماجي لتجاوز ابن لوسي وإدي رودا وحفيدهما، ذلك الفتى حاسر الرأس ذو الشعر الجامح، الذي رأيت ذراعه مُمسِكَةً بذراع نيكّا. عندئذٍ أغمَّمتني طرافة الحياة التي لا تتوقف عن مفاجأتنا. فكَرْتُ: «لا يا إدي. لم يخطر في بالي قط، أنا الطفلة الصغيرة التي وقفت على رصيف ميناء بريست يعصف بها التغير الكبير الذي تشهده حياتها، وشاهدتك تودِّع الفتاتين الفرنسيَّتين، أنني سأعيش لأرى حفيدك وابنتي متشابكي الذراعين عن طيب خاطر».

انسللتُ بعيدًا عنهم إلى الكُوَّة في جدار الكنيسة، وتذكرت المرة الوحيدة التي نظرت فيها عبر تلك الفتحة، التي سُقَّتْ لَتمنح نظرةً على رحمة الربِّ للبائسين. في المرة السابقة رأيت ريتشارد مستغرقًا في حلم العظمة يكشفُ تراب القبور كأنه كنز نفيس. اضطرب قلبي وتساءلت ماذا قد تفعل الحياة بهذا الاهتمام المتفاخر. الآن أعلم أن رُفاته امتزج بتربة أحد المروج السمرء المُشمِسة في جنوب أفريقيا حيث، كما يخبرونني، تتفتح الزهور عقب هطول المطر مباشرة. لكن هنا، حيث تدير الطبيعة شؤونها بهدوء، والمعجزات من البطء ما يُؤخِّر إدراكنا إياها، علَّق نصبه التذكاري. لوح من الرخام رأيته يلعب مثل جمجمة مُبيّضة داخل الكنيسة القاتمة، التي تحيط بها أشجار عتيقة تخفي أوراقها الغضة أغصانها العجوز الملتوية المكسوة بالحزاز.

فتحتُ باب الكنيسة البلُّوطيَّ وأغلقتها ورائي أقصد الخلوة. سِرْتُ وسط حشد القبور، فوق أرضية تشكَّلت بدورها من بلاط الأضرحة، أسفل شبكة من راياتٍ مهترئةٍ لن تتموِّج في الهواء رفقة أبوابٍ تدوِّي انتصارًا. أحاط بي زخْمُ سنواتٍ مرَّت سجيئةً في هذا المحبس الحجري الكبير، حيث انتهى المطاف

بحيواتٍ كثيرةٍ. وقفت بجوار جناحي العُقاب النحاسيين، اللذين شابها شعلَةٌ تتوهج وسط الظلال. أقرأ ما كُتِبَ على اللوح المُعلَّق بجوار لوح جاستن، الذي ظننته أبيض لكن اتضح أنه عاجي:

مُكْرَس لذكرى ريتشارد أندريدج

1901 - 1878

الذي بذل حياته في حرب جنوب أفريقيا.

كانت جدّته زوجة تشارلز أورميستن جايلورد؛ اللورد

بيرنجد العاشر

«تتألق الشمس الذهبية عند الغروب فيحلّ الظلام

ليرقد المحاربون الأوفياء سريعًا سريعًا في سلام»⁽¹⁾.

لقد كتبت تلك الكلمات بنفسِي. فُكِّرْتُ أن ريتشارد قد يرغب في ذكر الصلة التي تجمعهم بعائلة جايلورد هنا، وقد حقّقت رغبته عن رضا. لكنني الآن لم أرَ من تلك الكلمات سوى 1901 - 1878. سريعًا.. سريعًا.. ما أسرع الرحيل!

عدت على مهل إلى مدخل الكنيسة وجلست في مقعد بجوار بابها، أفكّر في جاستن وريتشارد وتريمر وتوم تشادرتن المسكين، الذي سعى في مداواة المُصاب من الكائنات المسكينة حتى أُصيبَ بلا مداواة. وبعد قليل، عندما أتى الجمع يتهامسون ويقطعون ممر الكنيسة، انسللت خارجةً لأعود إلى المنزل وحدي. لكن بعد دقائق أتى دانييل يلحق بي راكضًا. شبّك ذراعه بذراعي، وسألني وهو يخفض نظره خجلًا مُعتذرًا: «هل تسمحين لي؟».

فُكِّرْتُ: «يا إلهي! «هل تسمحين؟»! يا للحياة وما تفعله بنا!». وغبّش البكاء

رؤيتي.

(1) مقطع من ترنيمة «For All The Saints» كتبها الأسقف ويليام والشم. م

كنت أعني أنني لست بحاجة إلى التردد على المقبرة لأرى القبور وشواهداها. فالراجلون إمّا أحياء في قلوبنا، وإما ننسأهم فيموتون حقاً. لكن في مساء ذلك اليوم ذهبت مرة أخرى وحدي، دون رغبة في رفقة أحد حتى ويلي.

مرّ النهار دافئاً كأنه أحد نهارات يونيو. لقد تبخّر الندى من الأرض إلى السماء، كي يعود إليها مثلما كان، أو رذاذاً من المطر، أو برّداً لاسعاً. كان العشب جافاً، وحلّت برودة طفيفة مع المساء. تلالأت نجمة، لكن الضوء المرسل من السماء خفت وسط الأشجار الكثيفة. غادرت الخفافيش أوكارها إذ تغرب الشمس. وفي هذا الموسم حيث يعلو تغريد العصفير امتلأت الأجواء بشتّى أنغامها العذبة. لكنها بعد يومٍ من الغناء نال منها التعب. وبينما يخفت تغريدها تولى الخيال ملأ الأشجار والسيجات النباتية بأجنحة تطوى للراحة، وأعين برّاقة تتطلّع إلى العالم من أعشاشها الحصينة، قبل أن تنغلق واثقة في لطف الظلام.

لكنني لم أكن وحدي على أي حال. رأيت فتاة تقف بجوار قبر لوسي أدركت أنها هاجي تشادرتن. تذكرت وصف سالي لها في تلك الأيام البعيدة، حيث عاشت هي وتوم في فزع من الإناء الفارغ والدهما: فتاة نحيلة سمراء شعرها كثيف جامح، تختفي كأنها شبح في الأزقة العشوائية حالما يقترب إليها أي غريب. الآن بدا لي أنها لا تزال شبحاً. رغم سكونها في تلك اللحظة فقد أحاطت بها هالة من الخفة، كأن كلمة عفوية مني ستجعلها تلتفت إلى الوراء - إذ وقفت يقابلني ظهرها - ثم ستنتقل إلى الخفاء. كنت أعلم أن الوقت الذي أمضته مع عائلة راسل، ومن بعدهما لوسي إيفانز، قد بدّل طبع الفتاة الخجول التي تهرب إلى طرقات حجرية وغابات حضرية. لقد أحببتها لوسي ومنحتها ثقتها بمرور الوقت. وعندما تعرفت إليها نيكاً، في فترة ابتعادها عن مأساة جوليان، راقبتها كثيراً.

بينما أنظر إليها اجتأني مجدداً إدراك الكوميديا التراجيدية التي تميّز خطط الحياة وحيلها غير المتوقعة، لأن هاجي أصبحت الآن فتاة موصرة. لم تنسَ لوسي إيفانز كم تدين لهذه الفتاة بالراحة التي شعرت بها في سنواتها

الأخيرة. لقد آلت الثروة الكبيرة التي تركها لها حاميتها الأول السيد موستن لويدي، على نحو رئيس، إلى حفيدها إدوارد. لكن حصّة منها وجدت طريقها إلى هاجي، التي أصبحت الآن تعيل نفسها. تعاظم اندهاشي بقدرة المال واستمراريته في تشكيل الأقدار. كم بدا غريباً أن من بين جميع من عرفتهم كانت ويلي فقط من تكسب ما يقيم عيشها! إن المُتسبّب في ثرائي هو «أعمال الحرب» التي أدّاها أبي في أثناء فظائع حرب القرم، وامتلاكه أرض تحمل الحديد في عصرٍ قاد فيه ذكاء أحدهم إلى مدّ شبكات السكك الحديدية لتربط العالم. هذه الأسباب هي ما جعلت ريتشارد ثرياً، وستجعل نيكاً ثرية بعد عام من الآن عند تنفيذ وصيته. كنت واثقة أن والدي نفسه لم يكن ليملك تلك الأموال الطائلة لو لم يشتر أحد أسلافه، الذي لم يُعرَف بشدة الورع، أرضاً صادف أن يمتلئ باطنها بثروات لم يحزر وجودها أحد. ينطبق الأمر نفسه على لوسي إيفانز والجيل الحالي من عائلة موستن-لويدي، والفتاة هاجي تشادرتن. لقد انتقلت تلك الثروة إليهم من الرجلِ الويلزيّ العمليّ المثابر، الذي بالطبع لم يتصور قط، في بداية ثرائه، أن طرق الحياة الغامضة ستوجه تيّار ثروته إلى فتاة حسنة لا يعرفها وابنها الذي أنجبته من قرصان من كورنوال، وزوجته ابنة الباحث، وابنهما، وهذه الفتاة الواقفة الآن بجوار قبر لوسي إيفانز! وهناك دانييل والسيدة جيمستون. الآن نصل إلى معرض «ريميل»، كانت حياة جوليان العملية لتتعرّس في بدايتها لولا تيّار المال الذي وجهته إليه: مال مشكوك في طريقة كسبه، أتى من زمن بعيد، وتلطّخ مصدره بحكايات عن كنوز شرقية. ومع أن كثيرين قبلوا امتيازات تلك الثروة الغامضة، أنا من بينهم، فإنني عرفت شخصاً واحداً، لن أعرف مثله طوال حياتي، ألقي نظرة على تلك الثروة ثم طرحها جانباً ليعانق الفقر. كانت سالي هي هذا الشخص. ولولا سالي لما عرفت هاجي تشادرتن. ولو لم أعرف هاجي تشادرتن لازدادت حياتي فقراً.

4

نظرتُ إلى الوراء متفاجئة إذ اقتربت إليها، لكنها لم تختفِ. مددت يدي أقول: «لا بد أنك هاجي تشادرتن».

صافحت يدها السمراء الدافئة يدي فقلت: «أنا السيدة أندريدج. أشكرك كثيرًا على الاعتناء بنيكا».

- كان من اللطيف للغاية الاعتناء بها، مثلما كان الاعتناء بالسيدة سلين. انتبهت إلى أنها تعرف لوسي بصفتها السيدة سلين. وابتعدنا معًا عن قبر لوسي حيث رأيت زهورًا استنتجت أنها من وضعها. شعرت أنني لا أريد إطالة البقاء مع الموتى. وتمتعت هذه الفتاة السمراء النحيلة بحيوية التجأت إليها ممتنة. لقد غاب الضوء عن السماء، وكان القمر محاقًا. لكن هاجي تحركت في الظلام بثقة من يعرف كل خطوة في ذلك الطريق، مثلي. كادت بومة بيضاء تمسّ وجهينا، إذ طارت بهدوء من ظلمة إلى أخرى عبر طريقنا. لكن هاجي لم تنزعج. فكرت أنها أصبحت الآن امرأة ريفية نموذجية.

قالت: «ستحزنني مغادرة هذا المكان. كنا سعيدتين هنا معًا، أنا والسيدة سلين».

- هل كنتما تعملان؟

- لا، لم نكن نعمل. هل تعرفينني؟

- أجل. إن ماري براون ابنة زوج أمي، وأزورها بين الفينة والأخرى. كثيرًا ما تحكي لي عنك.

- إذن فأنت تعلمين عن نشأتي. في تلك الأيام كثيرًا ما فكرت في السعادة، وفي الأشياء التي ستجعلني سعيدة. أظن أن أفكاري لم تختلف عن أحلام أي فتاة أخرى في مثل حالي، مثل سندريلا، تنتهي بالثراء والحصول على كل ما أريد. أحيانًا كنت أتجول حتى الطرف الغربي، أشاهد العربات تصل إلى منازل فاخرة حيث تُقام الحفلات الراقصة. تخرج منها الفتيات ويسرن أسفل المظلات حتى الباب الرئيس. وألمح الخدم والزهور والأضواء.

- هل شعرت بالحقْد؟

- لا. لا أعتقد أن هذا الشعور راودني قط، لقد بدا لي أنهم لا ينتمين إلى عالمنا نفسه. لهذا كان الأمر ليشبه الحقْد على الملائكة الذين يترنمون في السماء. كنت أغبطهن. وفي ليالٍ أخرى حيث أتجول في شوارع

منطقتنا اعتدت تمثيل دور أولئك الفتيات. توجد أبواب خلفية كثيرة في برمندزي كنت أصل إليها في فخامة. أجلس على سلات المهملات بجوارها في صَلف أنتظر أن ينفتح باب العربة. ثم أخطو إلى الخارج في حذائي الحريري لأسير نحو الأبهة!

ثم ضحكتُ. كانت ضحكة سعيدة صادقة لا تكشف عن مرارة أو ذكري تعيسة.

قالت: «لنضع هذا الوشاح حول كتفيك. (أخذت الوشاح المُعلّق على ذراعي ولَفّته حولي) إن الجو يزداد برودة».

واصلنا السير وسط الظلمة حيث تركض الحيوانات الضارية وتابعتُ الحديث: «قلت إنني والسيدة سلين كنا سعيدتين هنا. لقد تعلمتُ كيف يمكن للمرء أن يسعد دون بذخ. تلقيتُ هذا الدرس في منزل الطبيب راسل وزوجته».

- كيف شغلتما أنتِ والسيدة سلين وقتيكما؟

- يا إلهي! لم نجد صعوبة في هذا قط، نظرًا إلى الأعمال المنزلية وبعض البستنة والتنزّه والقراءة، وأحيانًا لم نفعل أي شيء على الإطلاق. أوكد لك يا سيدة أندريدج أن عدم فعل أي شيء من أهم طرق الاستمتاع بالحياة. فهو يبعث على الراحة، وأفضل كثيرًا من ملء اليوم بمهام وواجبات غير مجدية تبعث على الملل وتضيع الوقت ثثرة. نحن لم نُجر الزيارات الاجتماعية قط. تخيّلني أن تمسّط الأرانب ذيلها وتخرج لتناول الأعشاب في جحور بعض الأصدقاء! لكنها لا تفعل ذلك لأنها أكثر حكمة منا نحن البشر!

التمعت أضواء تريسانت أمامنا، لكنني لم أتعجل الوصول. كنت مستمتعة برفقتي.

- استمتعت السيدة سلين على نحوٍ خاصّ بالتمشية في الغابة بجوار البحيرة، ثم السير في درب الجُرف إلى بورتيفن. كنا نمرُّ عبر البلدة ثم نصعد التلّ. هناك كانت تجلس على كرسي قماشي قابل للطيٍّ أحمله معي، تُشرف على البلدة بأكملها حتى المحيط.

أجل، يمكنني أن أرى تلك البقعة بالضبط، والعُشَّة التي كانت قائمة هناك،
والحوض الذي حفره السيد رودا قبل خمسين عامًا وسط الخضرة. بالطبع لمَّا
جلستُ هناك ازدحم رأسها بالأفكار، وهي تشاهد شمس الصيف تبرق على
صفحة المياه.

- لكن الأفضل، في رأيي، كان الليالي الشتوية الطويلة، حيث أشعلنا
الحطب وجلسنا للقراءة بجوار ضوء المصباح. أحيانًا كانت كلُّ منا تقرأ
كتابًا مختلفًا، وأحيانًا أخرى كنت أقرأ لها. فقد ضعف بصرها.
أثارت كلماتها ذكريات مشابهة. فكم من ليالٍ أمضيتها برفقة ويلي في
الغرفة نفسها بالطريقة المُرضية نفسها!

الآن علا صوت الحصى تحت وطأة أقدامنا وهي تقول: «هكذا ترين كم
يعني لي هذا المكان! وسيحزنني الرحيل عنه».

- لكن هل أنت مضطرة إلى تركه يا هاجي؟
- ماذا عساي أن أفعل؟ الكوخ ليس ملكي. لقد أُعير للسيدة سلين فقط.
- ربما سيصبح ملكي يومًا ما. وفي الوقت الحالي أعدك بأنك إن أردت
المكوث فيه فلا شيء قد يمنعك. سأجعل المنزل نفسه مكانًا أفضل
للعيش. سيصبح حيًّا من الآن فصاعدًا لأنني سأتي إلى هنا كثيرًا.
وسأحتاج إلى رفقة. هل تقبلين بهذا الدور؟

- أوه، يا سيدة سلين!

- أرى أنك تقبلين.

- كان التفكير في الرحيل عن هذا المكان يفطر قلبي.

قلت وأنا أشعر بأنني امرأة لثيمة مُتلاعبة دائمة ما تفكّر في راحتها:
«إذن ابقِ هنا ورمّميه. الآن يجب ألا تقطعي تلك الحقول المظلمة إلى الكوخ
وحدك. هيا ادخلي. سأطلب من نيكا وإدوارد مرافقتك إلى الكوخ، وسيرافق
أحدهما الآخر في طريقة العودة».

ها أنا أتلعب مجددًا! وتأكدت راضيةً أنهما لم يفعلوا ما طلبتُ على مضض.

أجل، في أثناء تلك العطلة لم يمضيا وقتها معاً على مضض قط. أمّا دانييل، رغم الجمال الرفيفي كله، فقد لزم المنزل مشغولاً بترجماته إلى اليونانية، وهو عمل كانت هاجي لتراه بلا جدوى. انشغلت بدوري في وضع مخططات تخصّ منزل تريسانت. طوال سنواتٍ مضت تولّى مسؤوليته زوجان مُسنَّان لم يفعلا شيئاً سوى البقاء في المطبخ، ونفض الغبار عن باقي الغرف من حين لحين. قرّرت إحالتهما إلى التقاعد، وتوظيف عدد من الخدم النشطاء ترأسهم هاجي. اخترت غرفتين رائعتين جناحاً لها، وحددت الغرف التي أريدها مفتوحة. كان المنزل ملائماً بأثاثٍ ولوحاتٍ ومشغولاتٍ من البورسلين، ستسعد المتاحف والمعارض الفنية باقتراضها. أمضيت أياماً أفحص الغرف المزدحمة سيئة التهوية وأجردُ أغراضها في قائمتين: ما يجب الاحتفاظ به وما يجب إعارته، حتى أحصل على إذن سالي بالتصرف فيها عند عودتي. كنت أهدف إلى التخلص من معظم ما تعبأ به الغرف حتى لا يلزمها من العناية سوى التهوية، وتجهيز بضع غرف للجلوس والنوم بأفضل ما يتضمن المنزل من أثاث. الآن يمكنني القول إن هدفي قد تحقق قبل انتهاء ذلك العام. كنت أمضي وقتي في تريسانت، حتى بعدما أصبح ملكي، وسط الغرف الفارغة. أمّا فيما يتعلق بالإقطاعية وشؤونها الزراعية فقد تولّاها وكيل أعمال ممتاز منذ رحيل ريتشارد، تركته يديرها كما يشاء. انتقلت هاجي إلى المنزل، وأصبح كوخها بيت الزوجين المُسنَّين.

في فترة استغراقي في هذه التجديدات، وانشغال دانييل باليونانية وويلي بكتابة رواية جديدة، عاد ميرفن وإنيد إلى المدينة. رغم أن ميرفن أدرك جيداً مثلي أن لديه مديرين يستطيعون تسيير المتجر في غيابه فقد راقه الشعور بأن وجوده لا غنى عنه، ولم يُطل الابتعاد عن مقرِّ عمله. لهذا غادرا في صباح مايو في سيارته الجديدة، التي يعلو صوت مُحركها وتخلّف رائحة كريهة. ارتدى كلاهما نظارتين واقيتين، واعتمرت إنيد قبعة عريضة الحافة مُثبتة إلى رأسها برباطٍ من الشيفون، عُقد أسفل ذقنها على هيئة فراشة زرقاء كبيرة. بينما أنا واقفة عند الباب الرئيس مع نيكا وإدوارد نودّعهما حمدت الرب على

وجود زيجة ليست مأساوية. كانا، في ما بدا، سعيدين بتركنا جميعاً وراءهما، حتى ابنهما الحبيب إدوارد، لينعما برفقة أحدهما الآخر.

هكذا لم يبقَ مع الشابين سوى ثلاثة عجائز مُضجِرينَ منهمكين في شؤونهم الخاصة. كانت نيكاً في العشرين. حينئذٍ لم أَسْتَطِعْ أَنْ أَعْلَمَ إلامَ آلَ شعورها تجاه جوليان. فبعدها وقعت كارثة زواجه، وأخذ مرور الزمن يهدئ الاضطراب الذي أحدثته، لم تعد تتحدث عنه. ودائماً ما أظهرتُ هدوءاً، وجدته في بعض الأحيان غامضاً وربما مُضِلَّلاً، أمام الأعين المراقبة.

في التاسعة عشرة من عمره بدا لي إدوارد شاباً لطيفاً لم يفسده الثراء. كان هادئ الطبع ثابت العزم. كم اختلف عن الشاب جوليان متقلب المزاج المفعم بالحيوية والحماس! أما بدنياً فقد بدا كأنه نُحِتَ من جذع شجرة. كانت ويلي تدعوه: «ذلك الفتى المُرْبِع». إلى جانب السُمرّة التي ورثها عن والده تتمتع بصلابة البنية مثل جدّه، جوثرسن العجوز، الذي تحدّى جميع المخاوف والتنبؤات بموت وشيك. ولا يزال في جناحه في منزل ميرفن في ميدان «هانوفر» مُنكبّاً على أوراقه يعتني بأقفاص الحمام.

أصبح إصطبل تريسانت الآن خالياً من الخيول باستثناء الفرس المُنَهَك الذي يمتطيه وكيل الأعمال، لكننا تمكنا من تأجير فرسين. لقد تعلم إدوارد ونيكا ركوب الخيل على مهل في «هايد بارك». وقد تسلّى ميرفن بمشاهدتهما، إذ رأى في ركوب الخيول بعد اختراع السيارات مفارقة تاريخية. كان مما يبعث على البهجة مشاهدتهما يقودان الفرسين في الجو الصحو الذي دام طوال تلك العطلة، أو يستقلّان زورقاً في البحيرة، أو يخرجان صباحاً في نزهة طويلة معهما غذائهما في حقيبة ظهر.

قالت ويلي وهي تقف بجانبني نشاهدتهما ينطلقان ذات صباح: «يبدو أن الانغماس في شرب الشمبانيا المُنبّهة يدفع المرء إلى الترحيب بتناول أيّ مهدّئ».

- يا له من تشبيه غريب لهذا الوضع يا ماجي!

- ربما. لكن الثمالة بمختلف أنواعها تؤدي إلى الشقاء. لن تكون نيكاً أول سبّاحة يغلبها المحيط فتلجأ إلى حمّامات السباحة العامّة.

- إن واصلتِ التذمّر فلن أدعوكِ إلى حفل الزفاف.

- سيقام عاجلاً جداً إن كان من المفترض أن أحضره.

- ماجي! ماذا تقصدين بحق السماء؟

- لا تكثرثي لما أقصد. أنا في السبعين ولا أزال امرأة عاملة. يجب أن أذهب إلى مكتبي.

شاهدتها تصعد الدرجات المؤدية إلى المنزل ببطء. وانتبهتُ مجدداً إلى وطأة سنوات عمرها على جسدها وحركتها. ثم سرتُ على الحصى أسفل شمس الصباح ينخز الأسف قلبي. لقد صرفت ويلي اهتمامها إلى الكتابة، وعكف دانييل على الترجمة، وانشغل إدوارد ونيكا أحدهما بالآخر. أمّا أنا فلم ينشغل سوى فكري. فكرت في ويلي في السبعين من عمرها، المرأة التي لا تزال تتمتع بالشهرة وحبّ الكثيرين. وفكرت في ويلي الفتاة التي دخلت غرفة الدراسة في ميدان بورتمان في ذلك الصباح البعيد، التي لم يُثبّطها استقبالي البارد لها واستيائي، بل وقّدمت دفئها وحنانها لي. وأصبحتُ، منذ ذلك الحين حتى اليوم، شخصاً ألتجأ إليه عند الحاجة بلا قيودٍ ويجيبني بلا كلل. لقد أصبحت ذات شأن رفيع في حين أنني نكرة. ولم يوجد سبب يمنعها من أن تتحرر مني وهي تصعد إلى قمة مجدها. لكنها لم تفعل هذا قط. دائماً ما كانت أمينةً حكيمةً مهما اختلفت الظروف.

بينما أنا واقفة هناك مستغرقة في هذه الأفكار صدر عن الحصى صوت يعلن اقتراب أحدهم. التفتُ لأراها.

قالت: «لا أستطيع العمل، لكن هذا لا يحدث كثيراً. لقد عشت طوال تلك الأعوام حياة كاتبٍ يكدح في عمله لكسب عيشه كأنه فرس عادي مأجور. لكنني أعتقد أن حتى الخيول التي لا تشقى مثلي أحياناً تقول: «إلى الجحيم!». هكذا أشعر هذا الصباح».

شبّكت ذراعها بذراعي، وتنفّست النسيم الدافئ عميقاً. ثم أردفت ضاحكة: «نحن نقف في البقعة نفسها حيث دهست نظارتك. هل تتذكرين فعلتكِ تلك؟».

- أتذكرها جيداً. لا بد أنني أشقيتك كثيراً. كيف احتملتِ تلك الفتاة اليافعة ذات النظارة والبثور؟

- حتى النظارة والبثور لعبت دورًا في سير الأحداث. لا تنسي أنها السبب الرئيس لذهابنا إلى لندن كي يفحصك الطبيب. هكذا قابلت لوسي إيفانز موستن لويد. وفي النهاية قابلت نيك إيدوارد.

سرنا ناحية إصطبلات تريسانت الرائعة التي أصبحت الآن خاوية وأنا أقول: «كان من المفترض أن تظليّ معي حتى تُبنى شخصيتي. لكنك تتمسكين بي بقوة تشير إلى أنك لا تزالين ترتابين بي».

أجابتنني مازحة: «لا، لست بهذا السوء. أظن أنني الآن أستطيع أن أطلقكِ إلى العالم بأمان. (بعد لحظات أردفتُ) سأضطر إلى هذا على أي حال».

بدا في صوتها جدية بالغة جعلتني أنظر إليها بحدة، فقالت: «لنجلس هنا أسفل الأشجار. تصنع هذه الجذور الكبيرة مقاعد جيدة».

جلستُ على مهل، وجلست بجوارها أسفل إحدى أشجار الزان ذات الأوراق النامية حديثًا، تنحدر الأرض أمامنا نحو البحيرة. كانت تلك البقعة كما عهدناها دائمًا: يُشرع البجع أجنحته وسط أوراق الزنابق المسطحة ذات اللون الأخضر الداكن كأنه سفن شراعية تشقُّ الماء، تُطربنا الكراوين بتغريدها، وفي الجهة المقابلة من البحيرة تُرسل مدخنة الكوخ دخانًا أزرق إلى السماء. كم بدت الإقطاعية بديعة في ذلك اليوم! عزيزة وأنيسة. ومن موضعي رأيت هاجي تشادرتن تقف في الأرض العشبية أمام الكوخ حيث عشت أنا وماجي أيامًا سعيدة، ومرَّ بنا اللورد بيرندج في عربته الخاصة، مع إدي رودا يقود «منخار الفجأة». لكن وسط هذا البهاء غَمَرَ الأسى المرير قلبي، لأنني أدركت لم أتت بي ويلي إلى هنا. وجب عليها أن تخبرني بأنها على وشك الموت.

سألتني: «هل ستعترضين بشدة إن قلت إنني لن أعود معكم إلى لندن؟».

- أجل، سأعترض. لقد أكسبتني السنين بعض الأنانية غير المؤذية. أقرُّ بلا خجل أنني أستغلُّ أصدقائي. وأنت، قبل الجميع، من أريدها قريبة مني التجأ إليها عندما تتعقد الأمور.

أراحت يدها المكتنزة على يدي وواصلت حديثي: «أنت ملجأنا جميعًا، أليس كذلك؟ لجأت سالي إليك قبل حجَّها إلى أندورا، ودائمًا ما تأخذ نيك بنصائحكِ. لكن إن كنتِ تريدين البقاء هنا يا عزيزتي ويلي فعليَّ أن أحاول تدبر شؤوني من دونك. أتودِّين إخباري بالأمر؟

- لا، لا أودُّ الحديث عن الأمر، لكن يجدر بي البوح به. على أنه لا يوجد الكثير ليُقال على أي حال. منذ بعض الوقت أشعر أنني لست بخير. لكن صديقي الطبيب هاري بايتس يبذل ما في وسعه، وقبل قدومي إلى هنا مباشرةً خضعت لفحص التصوير بالأشعة السينية بناءً على توصيته. قال إنه سيفحص الصور المأخوذة، ثم سيرسل تقريره إلى طبيب بورتفن. من قبيل المصادفة الغريبة أن كلا الطبيبين كانا طالبين في «جاي». لكن انتهى بأحدهما المطاف بالحصول على لقب «فارس» والعمل في «شارع هارلي». أمّا الثاني فيعمل هنا في هذه البلدة المنسيّة. ورغم كل شيء ظلّت صداقتهما قويّة. لكن هذه مسألة عَرَضِيّة، الحقيقة أنني حصلت على النتائج.

لم أطلب منها أن تخبرني بالنتائج؛ لم تهم معرفتها في شيء. سألتها: «كم تبقى؟».

- قد أشهد الصيف. لكنني، على أي حال، آمل أن أتمّ كتابي. لا تقلقي ولا تخبري البقية بالأمر. إنني أجد هنا الهدوء اللازم للعمل. هذا كل ما يلزمهم معرفته. لكن الحقيقة أنني أرغب في أن أكتب كتابي الأخير هنا حيث كتبت الأول.

على مقربة منّا في الغابة استقرت صخرة دائرية عتيقة من الجرانيت وسط العشب؛ قطعة من الأرض ثابتة لا تتبدّل رغم تبدّل الأشجار والعشب حولها. على تلك الصخرة وقف زوج من العصافير يتودّد أحدهما إلى الآخر في زقزقة بهيجة. وقف المخلوقان الزائلان يفنيان حياتهما القصيرة على هذه الصخرة؛ تلك الشذرة من وجودٍ دفينٍ هائل، التي قد شهدت -وستشهد- كثيرًا مثلها يأتون ويرحلون.

قالت ويلي كأنها قرأت أفكاري: «انظري إلى هاجي تشادرتن! ما أجمل اللوحة التي ترسمها مع الطبيعة!».

لم يكن الناظر عبر البحيرة المشمسة يرى هاجي، بل أرضاً يكسوها العشب الأخضر، وفتاة ترتدي الأزرق تقف في وسطها، حولها معرض للزهور: الفورسيثيا الذهبية، وزهور الكمثرى البيضاء والحمراء والوردية،

وشجيرات الورد كثيفة الازدهار حتى إنها بدت حصناً أحجاره وردية. وفوق كل هذا ارتفعت الأشجار، وبرزت أوراقها الخضراء الغضة إزاء السماء الزرقاء. قالت ماجي: «إنَّ الحياة تستمر. كان هذا البهاء ملكي ذات يوم. الآن أصبح ملك هاجي».

احتجبت قائلة: «لا تحاولي مواساتي بشفقة تضع قناع الحكمة. تقولين إن الحياة تستمر، لكنني أراها تنتهي. وعلى أي حال تعطي كلماتك الآن صورة خاطئة عن واقع الحياة في معظمها! إن هاجي هنا من قبيل الحظ. وما أقل من يصعدون إلى خشية مسرحٍ مهياةٍ على هذا النحو في هذه الأيام! هاجي نفسها تدرك ذلك. مثلها مثل سالي وواريك راسل. ليست الحياة قصيرة فقط، بل ويعيشها معظم الناس في بؤس. يشقون في عنابر البحارة على متن السفن، وفي المناجم والمصانع والمسابك، وفي العشوائيات وسط القذارة. والغريب أنهم يُصدِّقون الوعد القائل بأن النجاة من هذا الحال في المزيد من المناجم والمصانع، والمزيد من التروس الحديدية التي يزداد دورانها سرعة. - أجل، إن الحياة قصيرة. ينتبه المرء إلى هذه الحقيقة من حين إلى آخر. يشقى البشر في عيشها ويختبرون الكآبة، والجميع يرحلون سريعاً. لست بحاجة إلى أن تخبريني بأن محيط البعض ليس ساحراً مثل الموضع الذي تقف فيه هاجي الآن. ثقي أنني أتخلَّى ببعض المنطق لأدرك هذا. لكن الحقيقة أن ما يشغل فكركِ هو حالك لا حال هاجي. تتساءلين ماذا فعلت لتتالي تلك الحظوة على الأرض. يزعجكِ هذا الأمر منذ بعض الوقت، أليس كذلك؟

أوماً فقط فواصلت حديثها: «حباً بالرب لا تسمح لي لأي شيء بأن يزعجكِ. احسمي أمركِ. إن رأيت طريقتكِ في عيش الحياة خطأ فافعلي ما تفعله سالي. وإن وجدتها صائبةً فلتعيشي بسعادة وإحسانٍ قدر ما تستطيعين».

- لكن توجد أوضاع أكثر تعقيداً. قد تزعجني طريقة عيشي وأتمنى تغييرها، لكن الشجاعة اللازمة لفعل هذا تنقصني. ما الحل إذن؟

- عندئذٍ يمكنكِ بين الفينة والأخرى الذهاب في عربة كبيرة إلى العشوائيات توزعين الحلوى والثلثاب، أو يمكنكِ تقبُّل الحقيقة وهي أنكِ مثل معظم الناس: لست مثالية، تراودكِ بعض الرؤى عن الكمال، لكنكِ لن تصبحي

ملاكًا. يروقني من يتقبلون هذه الحقيقة ما داموا صادقين مع أنفسهم واعين بمحدوديتهم. لكن أيًا كان ما تختارين فعله فلتسعي به. إن الفقير الذي تتعسه الغيرة، والثري الذي يتعسه خونه، كلاهما نقمة على هذه الأرض. اختاري أي طريقة تريدين لعيش الحياة وعيشها سعيدة. وحدها الشجاعة ستمكّنك من فعل ذلك. إن الشجاعة فضيلة محورية.

نهضت، وقفْتُ تستند بيدها إلى جذع شجرة الزّان تتطلع إلى البحيرة، وقالت: «إنني من المتفائلين. عشت حياة يسيرة لأنني وُلدت بموهبة تُمكن من كسب المال. عندما يقول الناس إن فلانًا موهوب قد يغفلون عن أنّ الموهبة عطية. إنّ ما بذلته لنيل موهبتي المُرِحة لا يفوق ما بذلته لنيل ثروتك. وأمل ألا أكون قد أسأتُ استغلالها. لهذا لا أطيق تفاخر الموهوبين. فالتواضع والامتنان خليقان بهم أكثر من غيرهم.

نهضت بدوري، وشاهدنا هاجي تدخل الكوخ. ثم سرنا على مهل في درب الغابة.

قالت ماجي: «أعتذر عن استرسالي في الحديث بهذه الطريقة، لكن يؤسفني أن أرى ثرائك سببًا في همّك. إننا البشر نولي المال أهمية كبيرة. لكن إنّ وُزّع مال الأرض كله على أهلها بالتساوي غداً فلن يحدث هذا فارقًا كبيرًا في طباعنا. لم يكن فارق الثراء بين الأخوين قابيل وهابيل كبيرًا، لكن هذا لم يمنع قابيل من قتل هابيل. وإن نظرتِ إلى أفراد العائلات المتقاربين في الفقر أو الثراء فلن تجدي مشاعر البغض والحقد بينهم أقلّ شدة. ما دمت لا تهتمّين بالماديات أكثر مما ينبغي فلا تهتمّي لها. عذرًا، إن التعب ينال مني سريعًا الآن. لنجلس قليلًا.

في البقعة حيث جلسنا كان بحرٌ أزرق من زهور الجريس خلفنا، وكسرُ من الضوء تنكز سطح البحيرة عبر الأشجار أمامنا.

- سأخبرك بشيء حدث قبل أعوام كثيرة في بداية عملي كاتبة، إذ كنت أملك بضع مئات من الجنيهات أودعتها مصرفًا. في تلك الفترة تلقيت خطابًا يفيد بأن شقيق أبي، الذي كان يعمل صرافًا، قبض عليه بتهمة الاختلاس؛ مع السؤال إن كان بإمكانني توفير المال اللازم لتعيين محام للدفاع عنه. لم أكن قد التقيت بهذا العمّ قط - ولم ألتق به حتى اليوم-

وصعب عليّ اتخاذ القرار. لم أكن واثقة أنني أستطيع مواصلة الكتابة، أو أنني قد أكتب ما سيلقى رواجًا. كان احتمال خسارتي كل ما أملك من مال قائمًا. وقد قررت المجازفة. ثم علمت أن المحكمة برّأته، وأنه سافر إلى أستراليا وهناك اغتنى. لكنه لم يردّ لي فلسًا ولم أطالبه بسداد دينه. قد نستخلص من التجربة درسًا وهو: لا تقرض المال. لكنني استخلصت منها درسًا آخر: أقرض المال ولا تبال، لا تسمح للمال بأن يقلقك بطريقة أو أخرى. إن تدبير المال أمر، والقلق بشأنه أمر آخر.

في ذلك الصباح أخذنا استراحات كثيرة. لكننا وصلنا أخيرًا إلى الكوخ الذي عاش فيه إدي رودا، ثم الحاجز الرملي الذهبيّ، والمحيط الواسع البهيّ. جلست ماجي وسط رقعة من زهور الزعتر والأرميريا الوردية تلهث قليلًا، وقالت: «أنتِ ثائرة على كثير من الأمور هذا الصباح، أليس كذلك؟ يصعب عليك تقبّل أن حياتنا تنتهي. لكن هذه حقيقة ولن يُغيّرُها شيء. كم برع صديقي تشارلز ديكنز في الكتابة عن فراش الموت! الشهر القادم ستحلّ الذكرى السادسة والثلاثون على رقوده في فراش موته. ودائمًا ما أحيي ذكراه في التاسع من يونيو. لكن لا يوجد الكثير ليُقال حول هذا الأمر المحتوم، حقًا. حتى القديس بولس أبهم عليه الأمر فقال: «وما أنكشفَ لنا بعدُ ماذا سنكون». حقًا... لم ينكشف لنا بعد ماذا سنكون. لكنني متأهبة للانتظار حتى تحين لحظة الانكشاف. الآن لنترك الحديث عند هذا الأمر. ليس لديّ المزيد لأقول عن مشكلاتك أو مشكلتي. لا مزيد من الكلمات التي تستحق السماع. لننتقل إلى هذا المنظر بهدوء.

جلسنا في هدوء نتطلع إلى المحيط، ورقعة الرمال المهيبة حيث رأيت الخيول تعدو وأجساد الراحلين التي أزهرقتها العاصفة راقدة في ضوء النيران، وحيث رأيت جاستن، في حلمي، طفلًا يخطو نحو المياه؛ وحيث الآن، أسفل شمس مايو، رأيت نيكًا وإدوارد في البعيد يقترّبون إلى الجُرف حيث ترتفع الرمال شرقًا. أمسك الفتى بيدها يساعدها في الصعود، وللحظات وقفًا جنبًا لجنب يتطلعان إلى المحيط. ثم ابتعدا يختفيان في ضباب الصباح.

الفصل السادس والعشرون

1

غادر إدوارد أكسفورد في خريف عام 1909، وتزوج نيكاً في مايو عام 1910. في أكتوبر عام 1911 وُلد نيكولاس موستن-لويد، أوّل أحفادي، في منزل «سانت جونز وُد» الذي أورثته ماجي نيكاً هو وكوخها الريفي. أما فيرا، حفيدتي الثانية، فقد وُلدت في مارس عام 1913. قدمت هذه الطفلة إلى العالم أسرع من المتوقع. لو علمتُ أنها ستولد في تلك الليلة لما ذهبْتُ إلى عشاء «الجمعية الأنجلو-ألمانية» بالطبع. كانت تلك الجمعية إحدى الجمعيات التي اقتنع دانييل بأهمية الانضمام إليها. لقد سئم عيش حياة فارغة. كان يدرك أن مسيرته السياسية انتهت. ولم ينزع إلى العودة إلى عمل المحاماة الشاق، إذ لم يعانِ حاجةً إلى المال وأثقلته وطأة سنوات عمره. ومع تساؤل الدور المهم الذي يلعبه، أو بالأحرى صيته الذي ذاع مسبقاً، تعاظم تفاخره ولم يعد يحتمل الابتعاد عن الأنظار. لهذا سعى إلى الانضمام إلى مختلف أنواع المجالس والمؤسسات التي منحتَه فرصة للظهور أمام العامة والتحدث إليهم، بصفته رئيساً، أو نائب رئيس، أو عضو لجنة، أو حتى عضو فقط. في الخامسة والستين كان مكتنز الجسد متورّد الوجه قصير النفس، فخوراً بشعره الغزير ناصع البياض. بدا لي أن مظهره يليق بالجلوس وزيراً في مجلس الوزراء.

لكن الحديث الطويل إلى العائمة أرهقه كما لم يحدث قبلاً. تمنيت أن يرتاح، أن يقلل الانخراط في تلك الأنشطة التي أثبتت في الحال كم أنها مُرهقة وبلا جدوى، أو يتوقف عنها تماماً. حتى إنني شعرت بالحنين إلى السكون الفارغ الذي ساد أيام الترجمة لليونانية. أصبح مكتبه حاويةً للكتيبات والنشرات السياسية والتقارير الرسمية. أعتقد أنه رأى نفسه قُطباً في هيكل رئيس مُعقد، إن انفصل عنه سيتفكك لتنتج عواقب كارثية بعيدة المدى. وقد نصب نفسه وزيراً بلا حقيبة وزارية لشؤون متعددة. شعرت بالأسف عند إدراك هذا الأمر. دائماً ما يكون من المؤسف إدراك حقيقة من أحببناهم يوماً، وحجبنا غموض الحب وضبابيته عن رؤيتهم. لكن هذا الشعور بالأسف أدّى إلى أن أغدق على دانييل حذباً واهتماماً. شابه الأمر دفناً حلّ على علاقتنا في خريفها؛ أصبحت الشمس التي كانت تبثُّ البهجة والحياة تبعث بأشعتها فقط لتنير أوراقاً ذابلة توقفت عن النمو وستسقط سريعاً.

لهذا السبب أصبحنا نخرج معاً الآن أكثر من أي وقت مضى. تطلبت الحياة التي يعيشها حضور عشاءات كثيرة راقه أن أرافقه إليها، وشعرت أنني مدينة له بدعمي. لقد نصحتني عزيزتي ويلي الراحلة ألا أقلق، لكنني قلقت حينذاك. وقلقت الآن إذ تساءلت إن كنت قد منحت دانييل كل ما يمكنني منحه إياه، وإن كان ميله إلى تلك المرأة الجميلة قبل سنوات طويلة لم يكن من المفترض أن يفاجئني أو يثير غضبي. كثيراً ما فكرت في اللقاء الوجيه بيننا، وكان الخزي ينتابني عندما أذكر إعراضي عنها بعدما أطلقت حُكمي عليها. عندما أعود بذاكرتي إلى الوراء لا أذكر سوى صوتها الرقيق ووجهها الجميل وسلوكها الرفيع، ويؤلمني إدراك نواقصي. فأنا لم أتحلّ بالجمال قط، لكن توجد صفات كثيرة استطعت أن أتحلّى بها، ولم أفعل.

لا يعني هذا أن حبنا الهامد عاد إلى الحياة. لقد علمتني التجربة أن حتى الصداقة إن انقطع حبها فلا يمكن وصله. وبالطبع لا يُبعث الحب بعد موته. لكنني تعاطفت مع دانييل لما أدركت الفشل الذي وسمَ حياته على جميع الأصعدة، وتأهبت لدعم الجهود التي يبذلها في طلاء ما تبقى له بطبقة من النجاح الظاهري. لم يكن رثاء حاله دافعي إلى عونه، بل إدراكي أننا مسافرين في رحلة كئيبة في القارب نفسه.

هكذا ذهبنا في تلك الليلة من مارس عام 1913 إلى عشاء الجمعية الأنجلو-ألمانية. في ذلك الوقت كان الألمان فزاعة. سرد الروائيون حكايات مزعجة عن هجوم مفاجئ من قبلهم على سواحلنا الغافلة. هتف السياسيون: «نريد الثمانية ولن ننتظر ثانية»، يقصدون بالثمانية تشييد المزيد من السفن الحربية. وفي تلك الليلة، إذ نحن واقفون وسط الجمع المستغرق في الضحك والثروة أسفل الثريات، في الردهة التي تقود إلى قاعة الطعام، تذكرت حزني يوم فكِّ حصار «مافيكينج»، وزيارتي دانييل في مجلس العموم، وحديثه عن الخطر الكامن وراء البحار. عندما أنظر الآن إلى الماضي عبر شبكة مُعقَّدة مُحِبِّطة من الأحداث التي وقعت منذ ذلك الحين، أرى أن ذلك اليوم في مارس عام 1913 -وليس ذلك اليوم في أغسطس في العام الذي يليه- هو ما يشبه هاويةً تفصل بين عالمين. إن جميع تفاصيله واضحة في ذاكرتي كأني، دون وعي مني، شعرت بأهميته. لقد ذهبنا إلى الفندق حيث يقام العشاء في سيارة. على الرغم من أنني ودانييل لم نفكر في شراء عربة قط، فقد أقنع ميرفن دانييل بشراء سيارة. ترتَّب على هذا توظيف سائقٍ خاصٍّ، وشراء إصطبل قديم بالقرب من المنزل حوَّلناه إلى مرأب، وأصبحت الغرف التي تعلوه شقَّة السائق. هكذا استطاع دانييل التنقل سريعاً من ارتباط إلى آخر. وحدها هذه السرعة أضفت على أنشطته أهميةً كانت تعدمها في الحقيقة. هذا بالضبط ما يحدث في عصرنا الحالي، إذ ينطلق رجال الدولة إلى أعمالهم في عجلة، يباشرونها وسط بريقٍ مُمَكِّنٍ مُغَوٍّ، هو عدوٌّ لدودٌ للمزاج الهادئ التأمليِّ اللازم لتناول القضايا الكبرى. في تلك المرحلة المتأخرة من مسيرة دانييل بدأ الحديث عن مواكبة العصر. وفي نظره، مثله مثل الكثيرين، حسبما لحظت، كان هذا يعني أن يصبح في عجلةٍ غير مُنتجة.

أتذكر السائق هنري شيب يرتدي الزيَّ الرسميَّ ذا اللون الأخضر الداكن يقابلني ظهره، والبرودة القارسة إذ تتساقط الثلوج. أتذكر أضواء الطرف الغربي، وموجة الدفء التي غمرتنا عند دخول الفندق. في ذلك العشاء، مثلما ذُكِرَ في بطاقة الدعوة، تقلَّد الحضور الأوسمة والشارات. سرعان ما أصبحنا وسط جمعٍ من تلك الأنواط، ونطاقات مشدودة على بلوزات بيضاء، وتنانير ذات حفيف، وصدور مزدانة بالجواهر لنساء جميلات. كان الجمع فخمًا؛ عالمًا راكِم ثروته طوال مئة عام ويُكثِّفها، في لحظات كتلك، وسط

مساحة ضيقة كي يراها الجميع. بينما أبتسم وأنحني تحيةً للقادمين واحدًا تلو الآخر يُقدِّمهم لي دانييل، فكَّرتُ أن هذا هو نتاج قصر الكريستال. لقد تقلَّدتُ السوار ذا الأجراس الفضية هدية نيكاً لي في عيد ميلاد بعيد، وبينما أحرك يدي أصابع يداً تلو أخرى سمعت الصغيرة سارا راينبرو، واستحضرت إيمانها الطفولي بأنها تقف على عتبة الرخاء والعدل. فكَّرتُ أنَّ القصر أفضى إلى هذه اللحظة التي تُمجِّد الصناعة والتجارة. لقد أدَّى إلى استحواذِ قلةٍ من الناس على ثروة هائلةٍ بضع لحظات. شعرت بأن القمة التي وقفنا فوقها كانت متقلقة، كأنها حجر يتأرجح على حافة هوةٍ سحيقة. وكما ذكرت، لم تفارق فاجعة عام 1914 هذا الشعور.

تلألأت الثريات فوق رؤوسنا. تحرَّك الخدم بيننا يرتدون زيًّا رسميًا مبهرجًا، وجوارب حريرية طويلة بيضاء اللون، تُلَوِّن المساحيق شعورهم، يقدِّمون المشروبات على صوانٍ مزخرفة. كنت في مزاج يسبغ الخيال على الواقع، فبدا هؤلاء الرجال كائنات من عالم آخر، لا يتجاوبون مع ما يدور حولهم، صامتين وبعيدين. ابتسمت لأحدهم لأرى أثر الابتسامة عليه، فقابلها بالنظرة الفارغة نفسها التي وجدتُها مُربكة، بل ومخيفة.

ثم دقَّت مطرقةٌ فسادَ صمتٍ، قطعه صوتٌ قويٌّ يدعو السادة والسيدات والأساقفة الحضور إلى أخذ أماكنهم. كم كانت مآدبات ذلك العالم البائد فاخرة! أرى أمام عيني قائمة الطعام مطبوعة بنقشٍ بارزٍ ذهبيٍّ على الرقِّ، ثم تتابعت الأطباق الفاخرة يصاحب كلاً منها نوع النبيذ المناسب. أتذكر استراحة في منتصف العشاء لتناول مشروب الفاكهة المثلَّج وتدخين السجائر الروسية، كي تهدأ المعدة وتتهيأ للمزيد. لم تُقدِّم السجائر في صندوق كالمعتاد، بل وُضع أمام كل سيِّد حزمة تضمُّ دزينة من سجائر «كورونا»، مربوطة بعقدتين فراشيتين: إحداهما باللون الأحمر والأبيض والأزرق، والأخرى بالألوان الألمانية. كان مُلحَقٌ عسكريٌّ من السفارة الألمانية يرتدي زيًّا رسميًا فاخرًا يجلس على يميني، وعلى يساري يجلس دانييل على رأس الطاولة. فكَّ المُلحَقُ العقدتين الفراشيتين، ضفَّرهما معًا بأناقة، وأعطاهما لي.

قال: «لتكن هذه هدية رمزيَّة يا سيدة أندريدج. جميعنا نتطلع إلى سماع زوجكِ المرموق. إن جهوده في خلق التفاهم المتبادل بين الأمَّتين لا تكلّ».

جلست هناك أَلْفُ قطعتي الحرير المُلوّن حول أصابعي، ووسط طنين المحادثات لم أَسْتَطِع سماع الرنين الرقيق لأجراس سوارِي. نقلت نظري بين الطاولات، حيث النادلون يصبُّون البراندي في كؤوس كبيرة، وبدأ لي أن جميع حداثق العالم وبساتينه قد استُلبت كي تتجَمَّل الأمسية بوافر من الزهور النضرة وأهراماتٍ من الفاكهة النادرة الثمينة. بينما يميل النادلون تجاه أكتاف السادة بثاقبات السجائر دَقَّت المطرقة مجددًا. وشرب دانييل، بصفته رئيس الجمعية، نخب الولاء للدولتين.

ثم طالت الخطابات وشرب الأنخاب والأغنيات الألمانية التي أدمعت أعين الحضور من أبناء هذا البلد. لكنني لن أذكر من تلك الأحاديث سوى كلمة ألقاها دانييل عندما شرب نخب «ألمانيا». لقد نُشر مقال في جريدة شهيرة يحث المواطنين الرجال على الانضمام إلى «الجيش الإقليمي»؛ تلك القوة العسكرية الاحتياطية، عنوانه: «الألمان قادمون». أشار دانييل إلى هذه المسألة فشعرت بالاضطراب ينتشر في القاعة، مثل ضباب يغشى تشيلسي في ليلة شتوية ساكنة. لكن بعد إحدى وقفات دانييل اللافتة للنظر قال: «لكنهم ليسوا قادمين. إنهم هنا. انظروا إليهم. كيف ترونهم؟».

عندئذٍ ابتعد الضباب، وهلّل الحضور بقوة حتى إنهم لم يطبقوا الجلوس. نهضوا يصفّقون ويلوّحون بقوائم الطعام وشرائط العقد الملونة. أمّا الألمان، الذين مثّلوا نصف الحضور، فقد لزموا مقاعدهم. ورأيت أعين كثيرين منهم نديّة بالدمع.

كنت أفكر في نيكّا، إذ لم تصرف تلك المناسبة ذهني عنها طويلاً. لهذا تملصت من خطاب أحد الأساقفة وخرجت كي أهاثفها. كان إدوارد من أجابني مبتهجاً: «لقد تأخرتِ يا سيدتي العزيزة، تأخرتِ كثيرًا. الآن أصبح لديك حفيدة».

طمأنني أن نيكّا بخير وأردف: «بالطبع لم يكن متوقعًا أن تلد اليوم، وإلا لما غادرت المنزل لأؤدي مهمة محددة. لن تحزري أبدًا ماذا فعلت».

مازحته قائلة: «حماقة جديدة بلا شك».

- يتوقف هذا على نظرتكِ للأمر. لقد انضمت إلى الجيش الإقليمي. ما رأيكِ في هذا؟

كنت قد عقدت الشريطين حول سوار نيكاً. والآن بدا مظهره، بطريقة ما، مفزعاً. عجزت عن إجابة سؤاله. قال: «هل تسمعينني؟ هل تسمعينني يا أمي؟». لم أستطع الكلام. تركت سماعة الهاتف تسقط من يدي، وعدت على مهل إلى قاعة المأدبة. وقفت عند مدخلها كي لا أزعج الجمع حتى ينهي الأسقف خطابه. وقد وصلت إذ بدأ يلقي كلمته الختامية: «وعلى كل حال، توجد رابطة صالحة تجمع بيننا وبينكم، ألا وهي أننا أُمَّتان مسيحيتان. هذه الحقيقة هي الضامن بأننا سنعمل على تحقيق ما نتمناه في صميم قلوبنا: وهو السلام على الأرض والمسرة بحياة البشر».

2

في مارس عام 1914 رأيت سيارة إدوارد تتوقف خارج المنزل، ثم يغادرها مع نيكاً. بدت تلك السيارة خرقاء مقارنة بالسيارات التي تقطع طرقات العالم الآن. رغم ذلك فإن تلك المركبات قد بدأت حينئذٍ تصبح سلسلة القيادة وتثبت كفاءتها، وقاد إدوارد سيارته الخاصة.

التفتُ إلى جوليان الذي أتى لتناول الغداء معي وبقي حتى وقت متأخر. قلت: «أنت نيكاً وإدوارد».

- إذن يجدر بي الرحيل.

كان كل منهما لا يزال مرتبكاً يلزم الرسمية في وجود الآخر، لكنني أقنعتهم بالموثوق.

- حسناً يا عمتي العزيزة، يجب أن أحاول التغلب على حماقتي. ويجدر بنيكاً فعل الشيء نفسه. وبعد ما تناقشنا فيه الآن، على أي حال، قد يكون ما بقي لنا من لقاءات ليس بالكثير.

- ما أقسى قولك يا جوليان!

لكن ما قاله كان منطقياً رغم كل شيء. في ذلك الصباح أُعلن في الجرائد أن السيد هربرت أسكويث، رئيس الوزراء، سيصبح وزيراً للحرب أيضاً. على طاولة الإفطار سألت دانييل: «ما الذي يحدث بحق السماء؟».

قرأ المقال وهزَّ رأسه منزعجًا، ثم أجابني: «سأتناول الغداء في نادي «أثينيوم». ربما سألتقط بعض الأخبار هناك».

كان يمقت الابتعاد عن قلب الأحداث، والاضطرار إلى التقاط الأخبار بدلًا من أن يُخَوِّل له الحق في معرفتها.

كدرتني الأخبار وردُّ فعله عند قراءتها. لهذا سعدت باتصال جوليان وسؤاله القدوم لتناول الغداء معي. تحدثنا في مختلف الأمور حتى موعد القهوة، ثم سألني وهو يشعل سيجارًا: «ما الذي يخطط له أسكويث؟ ما رأي الخال دانييل في هذا الأمر؟».

- لا أدري يا عزيزي. فما يعرفه لا يزيد على ما نعرفه أنا أو أنت. لكن ما قرأه لا يروقه.

- من قد يروقه خبر كهذا؟ وعليه رأيتُ أن علينا مناقشة مصير معرض «ريميل» تحسُّبًا لتطور الأمور إلى الأسوأ. أنا لست إنجليزيًا، بل فرنسيًا. وفي فرنسا يُطبَّق التجنيد الإجباري. سأستدعى للخدمة العسكرية.

قلت كذبًا أحاول السيطرة على خوفي: «لا يعني وقوع جدال في مجلس الوزراء وتبديل بعض المناصب كل هذا...!».

- لا، لنحدث بجدية. أكرِّر أنني فرنسي. انتقل أبي وأمي إلى فرنسا في عام 1870. لقد ماتا ولا شأن لهما بما يحدث. لكن ذكرياتهما هي إرثي. يبدو أن هذا الخبر يقلقك.

- الحقيقة أنني لا أريد أن أُؤخَذ على حين غرّة، هذا هو كل ما في الأمر. وأفكر في جانبك من المسألة أيضًا. إنك بمنزلة شريكة في معرض «ريميل». حتى لو ظلَّ كوجان على رأس عمله لما استطعنا أن نحملَه المسؤولية كلها. لقد ازداد خبرةً، لكن ليس إلى الحدِّ الذي يمكِّنه من الإدارة. والآن بعدما تقاعد يجب أن نجد من يتعهَّد المكان إن اضطررتُ إلى الرحيل. لن تتعدَّى مهمته سوى إبقائه متماسكًا حتى أعود.

- نتحدث كأنك رحلت بالفعل.

- إن تلك التهديدات والإنذارات تغدو وتروح. لكنها تشير إلى أن الأرض متقلقة. إن لم تقع الكارثة الآن فستقع لاحقًا. يجب التأهب لها.

- لا أستطيع أن أتصورك جنديًا يا عزيزي.

أجابني بضحكة، رغم أنه لم يضحك كثيرًا في تلك الأيام. قال: «حقًا يا عمتي؟ لكنني، على نحو غريب، أستطيع تصوُّر ذلك. سأنتمي إلى النوع الجذاب المفعم بالحياة، المزاجي لكنه متأهب دائمًا».

نظرت إليه أحاول قراءة شعوره. كانت ضحكته مريرة، ولحظت انقباضًا في خديهِ النحيلين.

- هل تبلغك أي أخبار عن مارث؟

- لا يبلغني عنها شيء سوى أسئلتكِ. (صمت لحظة ثم قال) أعذر يا عزيزتي. ما قلته لا يليق. لا، لا يبلغني عنها شيئًا.

ثم ناقشنا الترتيبات المتعلقة بالمعرض. قال إنه يعرف رجلًا اسمه روبرت فورنييه، يعمل في واحد من أفضل متاجر التحف في باريس.

- لديه خبرة كبيرة في هذا المجال ويملك ذوقًا رفيعًا. يملك أيضًا ساقًا واحدًا، لهذا لن يُستدعى للخدمة العسكرية أبدًا. أعلم أنه سيرحب بهذا العمل. فهو يتوق إلى قضاء بعض الأعوام في لندن، تليها بعض الأعوام في نيويورك. إن فكرنا في المستقبل فربما تصبح رغبته تلك مواتية. فأنا أحلم بافتتاح فرع في نيويورك، أو أن يصبح لديّ وكيل هناك. عندما أعود من الممكن أن أرسل فورنييه إلى نيويورك. لكن هذا الحديث يدور عن... المستقبل. ويجدر بي ألا أخلق بتفكيرٍ بعيدًا. لقد تعلمت بطرق عدّة، يا عمتي العزيزة، ألا أثق في الغد.

بدا في نظري يافعًا جدًّا، رغم أنه في السادسة والثلاثين وقد عانى الكثير. كان مزيحًا غريبًا من حماس الفنّان ويقظة رجل الأعمال. لقد وصف نفسه من قبل قائلاً: «عنيد لعين، أمه جميلة وأبوه مستعد لأن يلقى بها إلى الطرقات». قلت: «جوليان، لنفترض أن الأسوأ قد وقع، عندئذٍ لم يجب أن تحارب؟ أنت تجيد الفرنسية والإنجليزية، وقد يجدي انضمامك إلى الاستخبارات نفعا. ألا ترسل كل دولة بعثاتها إلى جيوش الدول الأخرى؟ يمكن أن تنضم إلى البعثة الفرنسية في مقر القيادة العسكرية البريطانية، أو شيء من هذا القبيل».

- توجد كلمة مُفحمة يقولها الفرنسيون تعبيرًا عن الازدراء. لن أذكرها أمامك، لكنني أقولها بداخلي ردًا على المتهربين من أداء واجبهم العسكري. هل يمكنني تناول المزيد من البراندي؟

قَرَّبْتُ قارورة الشراب إليه، وقال: «في عام 1870 كانت جدّتي امرأة عجوز تملك منزلًا صغيرًا في ضواحي باريس. أمر البروسيُّون بإخراجها من المنزل لينتفع به بعض ضباطهم. وعندما انتهت الحرب عادت إلى منزلها. لقد قابلتها مرة واحدة، إذ قدمتُ إلى «بوردو» لزيارتنا، لكنني أذكرها جيدًا. كانت نحيلة رقيقة، وجنتاها متورّدتان، ودائمًا ما تعتمر قبعة من الدانتيل. يمكنني تصور عودة تلك السيدة الضئيلة إلى منزلها. أراها تعثر على حُطام ساعاتها بعدما ضُربت بقضيب تذكية النيران. أرى لوحاتها مُزّقت واستُخدمت إطاراتها، مع أرجل طاولاتها المهشمة، حطبًا للمدفأة. لقد سُقَّت أرائكها بالسكاكين. رُميت كتبها وداستها الأحذية الضخمة. رُبَّت أوانيها الخزفية الجميلة على رفّ المدفأة لتُسَدَّ نحوها المسدسات. وسريرها، يا عمتي العزيزة، قد استُخدِمَ مرحاضًا. لا، لا أعتقد أنني سأُسعد بالانضمام إلى الاستخبارات. اسمحي لي بأن أقول إن الشعور بالتقرُّز يستبد بي. توجد في فمي مرارة لا تزول، وأريد أن أتطهر منها». نهض ليغادر حينما رأيت نيكًا وإدوارد عند باب المنزل الرئيس. لقد لاءم الزواج نيكًا. زكَّى جمالها وأكسبه نضجًا. بعد نحافة طويلة زاد وزنها قليلًا وأينع نهدها. والآن، في الثامنة والعشرين، بدت مثل الربة ديميتري، فوق جبهتها البيضاء وعينيها الزرقاوين يُكَلِّل شعرها الذهبي رأسها. تبعها إدوارد مثل حامٍ، كما يبدو دائمًا، يتولى حراستها. «بل بالأحرى ضابطٌ يحمي جواهر التاج»، هذا ما قاله جوليان في واحدة من المناسبات القليلة حيث رآهما معًا. لكنه الآن بينما يقف بجواري عند النافذة قال: «هذا سخيف. يجب أن يصحب نيكًا الملاك ميخائيل أو القديس جرجس أينما ذهب. لكنها في الواقع ترافق كلب الراعي الإنجليزي اللطيف هذا».

قلت ببعث الحدة: «لكنه على أي حال منحها زوجًا من الجراء. ولا بأس في أن يصرفا ذهنها عن الأساطير والماورائيات».

وصلت نيكًا، قبلتني، وصافحت جوليان بهدوء على النحو اللائق. لقد رآته في هذه الغرفة يقدِّم لنا مارث فخورًا في تلك الليلة الكارثية، لكنها الآن

أصبحت من النضج ما يحول دون انزعاجها من تلك الذكرى. في تلك الليلة بدا جوليان غازيًا أخضع العالم كله لإرادته، لكنه الآن قد تعلّم، كما قال، ألا يثق في الغد. فيما يتعلق بالمظهر فقد نحل قليلاً ونال منه الإرهاق بقدر ما أصبحت نيكا تبدو كالمملكات.

كانت زيارتهما عَرَضيّة. تبخرت جدية نقاشي مع جوليان، والآن تحدثنا عن طفلي نيكا، والأصدقاء، وهذا وذاك. لم يمكث جوليان طويلاً. عندما نهض ليغادر قال إدوارد: «سنذهب أنا ونيكا إلى وسط المدينة. إن استطعت الانتظار قليلاً يمكننا اصطحابك معنا».

- لا، شكرًا لك. سأسير قليلاً ثم سأستقل الحافلة. ينبغي لك السير أيضًا لأنك تزداد بدانة. يجب أن تحافظ على لياقتك. لا تنس أنك ملازم في سلاح المشاة. ابتمسم إدوارد قائلاً: «إنه التزام أؤديه في وقت فراغي فقط، وأتسلّى به». تطلع جوليان إليه يحاول سبر غوره، فبدا مثل عجوز ينظر إلى صبي. ثم قال بجدية: «لنأمل أن تدوم التسلية».

هتفت نيكا: «ما الذي تعنيه بحق السماء يا جوليان؟ هل تأخذ أولئك المتطوعين على محمل الجد؟».

أسرع يقول: «لا، لا. لا تكثرني لما أقول. الآن إلى اللقاء».

بعدما غادر قالت: «لقد أخافني. بدا جادًا فيما يقول».

طمأنها إدوارد قائلاً بابتهاج: «تدور أحاديث كثيرة حول الحرب، لكنني أراها فارغة. لا أظن أن الحرب حتمية. وحتى إن اندلعت فلن نكون جزءًا منها. من المنطقي أن يصبح الفرنسيون أول المشاركين فيها. (ضحك قائلاً) عند النظر إلى المسألة من هذه الناحية يصبح لدى جوليان العزيز سبب للتجهّم. إن وقعت الحرب فسيُضطر إلى المشاركة فيها».

- جوليان؟

- بالطبع، فهو لم يتجنّس قط.

- لم أفكر في هذه المسألة قط. إنني أعرفه منذ زمن طويل وظننته إنجليزيًا. عندما هربت زوجته البغيضة كانت الفكرة الأولى التي دارت في ذهني هي: «هذه عاقبة الزواج من أجنبية».

منذ انهيار زواج جوليان لم أسمعها تتحدث عن مارث حتى الآن. أردفتُ: «حتى إن كان فرنسيًّا فقد بلغ من العمر ما يجعله لا يصلح جنديًّا».

- هذا غير صحيح. فهو يكبرني بعدة أعوام بالطبع، لكنه لائق بدنيًّا للقتال. (نظر إلى جسده الضخم آسفًا وسألها) ألا تتمنين لو كان زوجكِ يمتلك قوامًا مثل الغزال؟

- لا، أنا راضية تمام الرضا بزوجي.

هكذا أجابته نيكاً ببعض الحدة.

3

في الأول من يونيو وصل روبرت فورنييه إلى لندن؛ رجل أَسمر في الثلاثين، يصعب تخمين أنه يرتدي قدمًا اصطناعية، تنقل مبتهجا بمساعدة عصا. لكن قدومه يظلُّ الحدثُ الأولُ في سلسلة سريعة من الأحداث المؤسفة. في اليوم التالي لوصوله ذهبت إلى شارع «بوند» لأتعرّف إليه. قدّم لنا جوليان الشاي في غرفة الجلوس في مؤخرة المعرض. ورغم أن طبع ذلك الشاب المفعم بالحوية والحماس قد راقني منذ لقائي الأول به، فإنني لم أستطع التغافل عن أن نذيرًا بالشرِّ ارتبط بوجوده هنا. لقد أتى به جوليان فقط لأنه رأى احتمالات مُروعة قائمة. ورغم جلوسنا في الغرفة الساحرة، حيث إبريق الشاي الفضي على طاولة صغيرة أسفل الموقد الكحولي، والمقاعد أنيقة، والجدران تعرض عددًا من أفضل لوحات ريمل، فقد سادت أجواء سوداويّة. وبدت وجبتنا الخفيفة هناك عشاءً أخيرًا مُربِّكًا.

لم يتظاهر جوليان بأننا في مناسبة اجتماعية معتادة. كان رجلًا ازدهرت حساسيته المفرطة فوق صخرة الواقعية، لهذا نجح في العمل تاجرًا للتُّحف. وعليه، في ذلك اليوم، افترض أننا تقبّلنا الوضع كما كان ولم يحاول تهوينه. لهذا تحدث عن الحرب كأنها مستقبل أكيد، سيعود عند انتهائها إلى المعرض الذي سيزدهر بعد سنوات تجذُّره الأولى. لقد تميّز حديثه حينئذٍ ببصيرة استثنائية برهن عليها الواقع.

قال: «تلك الحرب الذي ستتدلع عاجلاً أو آجلاً ستكون أوّل حرب تخوضها المكينات، أقصد أنها ستصبح أوّل حرب تنخرط فيها دول صناعية كبيرة. كان الرجال بعد الحروب السابقة يعودون إلى حقولهم للزراعة كما يملي المنطق. لكنهم هذه المرة سيعودون لتصليح مكيناتهم، التي أتلقتها الحرب وعطلتها. هذا ما سيفعلونه رغم أن تكلفة تصليحها تفوق تكلفة زراعة الحقول، وسيطلب تصليحها أموال طائلة. تعني الحاجة إلى تلك الأموال الطائلة فرض ضرائب باهظة. ويعني فرض ضرائب باهظة أن كثيرين من الأثرياء سيصبحون فقراء. سيبيعون ما يملكون كي يستطيعوا العيش. سيبيعون العقارات؛ هذه أشياء لا تثير اهتمامي. لكنهم سيبيعون أيضاً الكنوز الفنية التي تراكمت عائلاتهم منذ أجيال، وهذا هو صميم اختصاص معرض ريمل». سأله فورنييه: «بالطبع سيُباع الكثير، لكن من سيشتري؟».

أجابه بلهجة قاطعة: «أمريكا. حالما يبدأ العالم في لملمة شتاته سنرى سيلاً من النفائس الأوروبية يتدفق إلى أميركا. من المحتمل أن تُجبر مجريات الأحداث أمريكا على دخول الحرب. لكن من البديهي أنها لن تتلقى الضربات التي ستلقاها أوروبا. ومن البديهي أيضاً أنها ستتشغل طويلاً بالثراء من وراء الحماقات المأساوية التي تُرتكب هنا. عندما تنتهي الحرب ستمتلك أميركا ثروة كبيرة، وستمتلك أوروبا أغراضاً جميلة يلزم سوقٌ لبيعها. هكذا ستزداد مؤسسة ريمل ثراءً».

قلت: «قد تكون مُحققاً فيما قلت، لكنه يبدو وضعاً مؤسفاً».

- لا يا عمتي العزيزة. ينتج الفنّان فنّه للعالم بأسره. ولا يجمد الفنّ الجيد في مكانه أبداً، بل ينتشر. انظري إلى «متحف اللوفر» و«المعرض الوطني» على سبيل المثال. ثم إن هذا البلد يحتوي على كثير من التحف لا يراها سوى مالكيها، لكنهم لا يقدّرونها. أستطيع أن أخبرك بأسماء عديد من النبلاء تغطي جدران منازلهم لوحات رامبرانت وجينزبرو وكونستابل، لكنهم لا يعرفون من الفنانين سوى ماركوس ستون.

قال فورنييه: «لنأمل أن يحلّ السلام وأن نحصل على بعض الربح».

قال جوليان: «أجل، لنأمل. لا ضير في الأمل».

في التاسع والعشرين من شهر يونيو ذاك كان موعد الحفل. أقلنا هنري شيب إلى المنزل الذي أُقيمَ في حديقته الاحتفال؛ منزل جميل تبسط حوله أشجار الأرز أجنتها الداكنة وسط حدائق تنبسط حتى نهر «التمز». كانت تلك المناسبة تابعة لجمعية أخرى من الجمعيات التي انضم إليها دانييل. الآن أراه في معطفه ذي الذيل الطويل، وبنطاله المُخطَّط، وقبعته الرمادية، وربطة عنقه الأرجوانية، يغادر المنزل ليستقل السيارة حيث جلست أرتدي الشيفون المطبوع بالزهور. لا شك أن كلاً منا بدا هادئاً حينئذٍ، لكنني تساءلت إن كان وَجْلاً مثلي. ففي ذلك اليوم ذيع خبر اغتيال وريث عرش «النمسا». وقف دانييل يدلُّ هنري شيب على الطريق الواجب اتباعه. ورغم أنني سمعت حديثهما، بل وشاركتهما فيه، فقد شغلت فكري تلك الكلمات التي تغلغلت في كياني: «قد يكون لتلك الجريمة بالغ الأثر على مصير أوروبا كلها».

فَكُرْتُ أن غداً يحلُّ اليوم الأخير من يونيو، نهاية نصف العام. لكنني كنت مثقلة. أدركت أن الوضع يتخطى نهاية نصف العام. كان نهاية كل شيء عرفت. لقد أزيح القسم الأخير من الستار الذي يحجب الحقيقة عن عيني الطفلة، التي في صباح مايو قبل ثلاثة وستين عاماً استمعت بقلبٍ ملؤه الحماس إلى كلمات خادعة، ورأت شبح السلام يسكن بناءً هشاً تكفي حفنة من الحصى لأن تقطعها الرياح وتبعثره. والآن كنا في انتظار ما يفوق الحصى سوءاً بكثير.

كان دانييل يضع زهرة قرنفل وردية شاحبة. وبإيماءة خطابية أتقن أدائها على آلاف المنصات أخرج من جيبه نظارته، وأخذ يقرأ الملحوظات التي دوَّنها. حتى في حفل غير رسمي كان من المفترض أن يلقي كلمة. تساءلت ما عساه أن يقول الآن.

ثم حوَّلت نظري عنه أتطلع إلى ما حولي من السيارة المفتوحة. حينئذٍ، إذ كنا على أعتاب تغييرٍ تامٍّ مُزَلِّل، استمرت الحياة الإنجليزية بمعالمها القديمة. تقدَّمتنا بسلسلة على الطرقات التي لا تزال مُغْبِرةً، بين سياجات اكتست بالأبيض، نعبر حقولاً حيث الأيدي البشرية هي ما تُقَلِّبُ حصاد التبن. ظلَّلت

أشجار الدردار بلدات ناعسة ومداخل حانات عتيقة. في الحقائق ركَّز لاعبو الكريكت انتباههم على خطواتهم التالية، وفي ملاعب كرة المضرب لمحت الشباب يرتدون الأبيض. جلس الصيَّادون ناعسين على مقاعد بلا ظهور حول قنواتٍ، على ضفافها تهادت الخيول تنقل مراكب مطليةً بألوان بهيجة ويلمع نحاسها.

مرَّت السيارة بين قائمي البوابة اللذين يحملان شارة نبالة تصوِّر الحيوانات على قوائمها الأمامية كالمعتاد. قطعنا نصف ميل تحدُّه شجيرات الورد، ثم انعطفنا إلى الأرض المفروشة بالحصى أمام واجهة المنزل، الذي يشرف على الحديقة والنهر. لقد ذهبنا إلى هناك من قبل. عادةً ما بدا ذلك المكان في نظري مسرحًا للسكينة، إذ ترتفع أشجار الزَّان خلف المنزل. وينبسط العشب الأخضر بلا انقطاع حتى السُّور الذي يطوِّق ضفَّة «التَّمز». وعلى صفحة النهر يتهادى زورق أو بجعة بتمهِّل يعزِّز الشعور بالسكون، براحةٍ تعقب الوصول إلى قَمَّة. لكن الآن علا ضجيج فرقة موسيقية. غطَّت مظلات عريضة مُخطَّطة طاولات الشاي تقيها من الشمس. هتف بعض الحضور يتسلَّون بمختلف ألعاب الرماية والتصويب. وبين المنزل والنهر امتلأت الحديقة بالقبعات الرمادية والحريير والشفيفون ومظلات اليد الملونة.

تحدثت قليلًا مع مضيفنا ومضيفتنا، ثم تركتهما مع دانييل يتناقشون في ترتيب الخطابات التي ستلقى بعد قليل وسيُضطر المدعوون المستمتعون بوقتهم الآن إلى سماعها. مررت بأعضاء الفرق الموسيقية يرتدون بذلاتهم الرسمية، قد احمرَّت عنوقهم وأصبحت تنزُّ عرقًا، منصرفين إلى عزف موسيقى آرثر سوليفان. تبادلت أحاديث مقتضبة مع سيدات الفساتين الصيفية المشرقة. ثم سألت نفسي: «ماذا دهاك؟ من أنتِ لتخالي أن رؤيتك أبعد أو أعمق من الجميع؟». فهنا، في ما بدا، لم يتوجَّس أحد شرًّا. لم تسمع أذن وقع أقدام الجنود. لم يشعر أحد بالريح الباردة التي تتخلَّل حرارة ذلك اليوم الصيفي. علت أصوات الحضور الكرام تتبادل دعوات تناول الشاي، وتأسف لكسر ساق طوني عندما طرحه الفرس أرضًا، وتتباهى بمظهر زهور البازلاء العطرة التي اعتنى بها بُستاني ميليسنت كي تُعرَض في معرض الزهور الأسبوع الماضي. «يا لجمال الألوان! لن تصدقوا أنها حقيقية ما لم ترونها».

فَكَّرْتُ: «هكذا أنتم، لن أصدّق أن هذا حالكم الآن ما لم أركم». وأمعنت في التجول في الحديقة، بعدما أديت واجبي تجاه دانييل بالحديث مع بعض المدعوّين، أبتعد إلى النهر. هناك، على سور الضفّة بالقرب من مستودع اللزوارق، رأيت شاباً في بذلة عسكرية، يلتمع حزامه الجلدي وتبدو سترته خائفة. كان يلقي بحصى وأغصان صغيرة في المياه. شعر بقدومي والتفت لي فأتضح أنه إدوارد. نهض ترتسم الابتسامة على وجهه الأسمر، وقبّلني شارداً الذهن.

- تبدو مشغول الفكر يا عزيزي إدوارد.

تلاشت ابتسامته. وشعرت أنني، بعدما شهدت إشراقة المدعوّين جرّاء الجهل المأفون أو التظاهر بالغباء، أواجه الواقع أخيراً. جلست على العشب فجلس بجواري نشاهد المياه الضحلة تتلأأ وطيور الغرّة واقفة على أوراق النيلوفر.

قال: «أجل، في الحقيقة كنت أفكر في نيكّا».

- كيف لك أن تكون هنا؟ وترتدي هذه البذلة؟

- ألا تعلمين؟ إننا في معسكر على بعد ميلٍ من هنا. لقد علمت أنك ووالد نيكّا مدعوّين، لهذا أقنعت الكولونيل بأن يمنحني إذن المغادرة بضع ساعات. لقد تأخرتما قليلاً، وسأمت من التجول وسط التسلّيات الفارغة هناك. وها أنا ذا أقذف النهر بالحجارة وأفكر في نيكّا. توجد مسائل كثيرة تشغل الفكر، أليس كذلك؟

- بلى، يؤسفني موافقتك في هذا الرأي.

- إن الكولونيل واحد من أذكى الرجال، يعي جيداً ما تعنيه هذه الأخبار. بالطبع لم يخبر الجنود المتطوعين بشيء. لكنه اجتمع بالضباط وصارحهم بحقيقة الموقف. يعجبني الرجل الذي يدرك جيداً ما يتحدث عنه ويخبرك بالحقيقة.

لم يوجد الكثير ليُقال. لهذا سادنا الصمت حتى سألتني: «هل نسيء التهذيب بجلوسنا هنا؟ إنني أسمع جرساً يُقرع، هذا يعني أن إلقاء الخطابات سيبدأ. ألا يجدر بنا العودة؟».

رأيت زورقًا مُقَيَّدًا إلى رصيفٍ إرساءٍ أماننا. قلت: «لقد تَلَقَّيتَ تدريبات كثيرة في نهر «شيرويل». لنستقل الزورق».

عادت الابتسامة إلى وجهه وقال: «فكرة رائعة! أخال أنك اكتفيت من سماع الخطابات».

خطوت إلى الزورق، ثم أجبته: «لنقل إنني سئمت الخطابات وارتاب في مصداقيتها».

حلَّ إدوارد وثاق الزورق، خلع سترته العسكرية وربطة عنقه، وانضم إليّ. - إن رأني الكولونيل فسأقع في مأزق. لكننا سنبحر بعيدًا عن اتجاه المعسكر وعن الحفل في منزله.

شَمَّر عن ساعديه، رفع المجداف، وبدأت رحلتنا. لقد أرهقتني حرارة اليوم وثقله. لهذا خلعت قبعتي ومددت جسدي على طول الزورق، يستند رأسي إلى كومة من الوسائد، وتظلل وجهي مظلة. لم تكن الزوارق البخارية المزودة بالفونوجرافات قد أقلقت راحة النهر العجوز بعد، ولحسن الحظ كان ذلك الأصيل هادئًا. في تلك الحرارة الشديدة توقفت الطيور عن التغريد. بلغ سمعنا لحن النشيد الوطني خافتًا، وأملت عندما ينتهي أن ينتعش أعضاء الفرقة الموسيقية بشراب بعض الجعة. تصورت دانييل يقف في الشرفة التي لفحتها الشمس ممسكًا بقبعته الرمادية يعرب عن تقديره للملك، جَزَلًا باقترب دوره في الحديث. كان صوت المياه حولي عذبًا مُهدِّئًا. من موضعي استطعت أن أرى بنطال إدوارد الكاكي وحذاءه البني اللامع. أزحت المظلة فرأيت وجهه الشاب الذي تعلوه الجدية.

قلت: «لطيف منك يا إدوارد أن تتكلف عناء إسعاد امرأة عجوز».

- هذا من دواعي سروري، وأنتِ لستِ عجوزًا مثلما تقولين. إنني أراك امرأة محفوظة البنية كما يُقال.

- لا يعجبني هذا التعبير، يبدو كأنه يشير إلى سمكة محفوظة في الكحول. وعلى أي حال أنا في السادسة والستين.

واصل التجديف ببطء وسط بريق المياه دون أن يحر جوابًا. وعلى امتداد الضفة المقابلة أبحرت معنا بجعة قوَّست جناحيها حتى شابها خيمة بيضاء

تحملها على ظهرها، أطلَّ منها فرحُ كأنه راكب يستقل جندولاً. كان ذلك المنظر مُضجِجاً مُحبِّباً.

لم نقابل كائنًا آخر وسط النهر. تقدَّمتنا وسط سلامٍ تامٍّ يعبق برائحة النعناع والقشِّ الدافئ، إذ يُجَزَّ العشب في مروج عدَّة.

- أتعلمين؟ أنا لم أصطحب نيكا في رحلة نهريّة بالزورق قط. يجب أن أرْتبَ لهذا. توجد أمور كثيرة لم نفعلها أنا ونيكا معًا، ويجب أن نحرص على أن نتشارك عيشها. بالطبع استقلينا الزورق في بحيرة تريسانت. لكن الرحلة في نهرٍ يمتد ويمتد تختلف كثيرًا. بالمناسبة، إلى مدى تريدين الوصول؟ لا أريد أن يُلحَظ غيابك.

استويّت جالسةً وتطلعت حولي. كنا نقترّب إلى رصيفٍ إرساءٍ وراءه حديقة رُتّبَ فيها بضع طاولات. قلت: «لنتوقف هنا يا إدوارد. تبدو هذه الوجهة لطيفة. إن ما بذلتَه من جهد يستحق تناول المُرطّبات».

أنبني: «يبدو أنك اليوم تودّين الفرار من كل واجب. لكن فقرة إلقاء الخطابات لا بدّ قد انتهت منذ فترة».

طمأنته: «لن يعود زوجي إلى المنزل من دوني. وسينتفع من الاستراحة قليلًا في الظل».

خرجت فتاة من كوخٍ تحمل غطاء طاولة مخطَّط باللونين الأحمر والأبيض. بسطته على الطاولة وأخذت طلبنا. جلسنا وسط زهور الخطميّة والبازلاء العطريّة وخلايا النحل الخوصيّة، في ممرٍّ ظليلٍ يحُدّه سياج من أشجار البندق. شاهدنا طيور السمامة تحلّق في السماء نشيطةً لا تعرف التعب رغم الحرارة.

قال إدوارد وهو يشعل سيجارًا: «لقد تعلمنا أن نفحص أي موقع جديد نصل إليه بحثًا عن أي شيء قد يكون ذا نفع. وقد لاحظت، رغم ضآلة الاحتمال، أن هذا الكوخ يحتوي على هاتف. إليك هذه الفكرة: سأهاتف الكولونيل فورتسكيو ونحن في انتظار الشاي، كي يخبر زوجك بمكانك وأنت ستعودين قريبًا جدًّا في خير حال. كانت هذه الرحلة مغامرة رائعة لكلينا، لكنني أخشى أن يقلق عليك».

هكذا جلست وحدي إذ ذهب إلى الكوخ، وكنت من التعب بحيث غفوت قليلاً. ثم فجأة رأيته أمامي، تعلو الصدمة وجهه حتى إنني استيقظت تماماً وهممت واقفة.

- إدوارد! ما الأمر؟

- هلا تأتين إلى الهاتف؟ يرغب الكولونيل فورتسكيو في التحدث إليك. أمسك بذراعي يقودني إلى الكوخ، ثم قال الكولونيل فورتسكيو: «أخيراً يا سيدة أندريدج! إننا نبحت عنك في كل مكان! أيمكننا أن نرسل إليك سيارة حيث تكونين؟ السيد أندريدج ليس بخير. إنه في حالة حرجة».

- كيف؟! ما الذي حدث؟ كان على ما يرام...

- يجب أن تأتي فوراً. لقد سقط فجأة وهو يلقي خطابه. إن الحرارة... أعطيت إدوارد السماعاة أقول: «أخبره يا عزيزي. أرشده إلى مكاننا».

اتجهت مذهولة إلى مقعدي أجمع أغراضي. وبينما نحن في انتظار السيارة دلّني حال إدوارد على أنه يعلم أكثر مما قيل لي. ولما جلست تلتف ذراعي حول ذراعه، أمانا هنري شيب عريض الظهر، تيقنت مما لم يقو هو أو الكولونيل فورتسكيو على إخباري به. قطعنا مدخل المنزل مارين بعربة تجرّها الخيول تنقل أعضاء الفرقة الموسيقية والآلاتهم. قادني الطبيب إلى الغرفة حيث رقد دانييل على أريكة. كانت الستائر مُسدلة. سُمح لي بالكموث لحظات معه، ومع زهرة القرنفل الوردية، والنظارة التي سقطت إلى جانب الأريكة لكن شريطاً لا يزال يربطها إلى عنقه. تمنيت أن تكون النهاية قد مرّت سريعة وخاطفة، لحظية؛ وألا يكون قد رآني، في اللحظة الأخيرة، أفر من واجبي.

5

أوصلني هنري شيب أنا وإدوارد إلى موضع معسكر الكتيبة العسكرية. طلب إدوارد إذن الكولونيل بالمغادرة لإيصالي إلى المنزل، لكن طلبه قوبل بالرفض. وفي طريق العودة وحدي شعرت براحة غريبة إذ فكرت أن إدوارد تحت إمرة قائد يميّز الأهم عن المهم، ويعطي له الأولوية.

في تشيلسي وجب عليَّ مهاتفة نيكاً وميرفن، ثم جوليان. كان فورنييه من أجنبي. أخبرني أن جوليان ليس هناك، لقد سافر إلى فرنسا. قال: «ياخذ السيد ريمل الأمور على محمل الجد، ربما يبالغ في تقدير جديتها. أليس كذلك يا سيدة أندريدج؟».

قلت إنني لا أوافق الرأي، ووضعت سماعة الهاتف ألتفت إلى المنزل الحارّ الهادئ. هنا عشت أنا ودانيل وريتشارد ونيكا معاً. والآن أصبحت وحدي. قالت نيكاً أنها قادمة على الفور لتكون معي، لكن هذا لن يدوم أكثر من ليلة أو اثنتين من ليالٍ وأيامٍ عدّة قادمة. لقد تنبّأت بهذا الواقع بطريقة ما. علمت أنني سأواصل العيش طويلاً، لكن الوحدة في حياتي ستتفاقم. لقد سقط في مسيرة الحياة من رفاقي ما يكفي لأدرك هذه الحقيقة.

في جرائد اليوم التالي لم يُنشر الكثير حول وفاة دانيل. لقد ملأت الصفحات أخبار أخرى. لكن حتى حينئذٍ لم تبدُ تلك الأخبار من الخطورة ما يسترعي انتباه العامة.

في ذلك الصباح أتى الكولونيل فورتسكيو لتعزيتي. لا بدّ أنه استيقظ مبكراً جداً لأن عند وصوله كنت أنا ونيكا قد جلسنا للإفطار للتو متناقلتين. كان رجلاً طويلاً صابراً شارباً أبيض وعيناه زرقاوان شهدتا، قبل سبعة وخمسين عاماً، مذبحه «كانبور»⁽¹⁾، ومشاهد قاسية كثيرة منذ ذلك.

لقد أتى يطلب مني -وفق تعبيره- أن أمنحه الشرف بأن يرفع عن عاتقي حمل اللحظة. قال إن لا حاجة إلى نقل جثمان دانيل إلى تشيلسي. يمكن إقامة الجنازة في مقبرة بالقرب من منزله في تلك المنطقة، وسيتولى الأمر بنفسه. هكذا، بعد بضعة أيام، إذ الصيف يشتدّ، وقفت في مقبرة كنيسة على أرض مرتفعة قليلاً مكنتني من أرى حديقة الشاي حيث جلست مع إدوارد، ودانيل يُحمَل إلى داخل منزل غريب للمرة الأخيرة. وقف إدوارد يرتدي بذلته العسكرية على جانبي، وميرفن في ثيابه الحريرية على جانبي الآخر. فكّرت: «ما أتفه ما تعني هذه اللحظة لكثيرٍ من الحاضرين هنا». رأيت زورقاً يصل

(1) في عام 1857 م نفّذ الهنود مذبحه كانبور ضد القوات التابعة للشركة البريطانية «إيست إنديا» والمدنيين البريطانيين المُحاصرين جميعاً بالمدينة. كانت هذه المذبحة جزءاً من التمرد الهندي. م

إلى رصيف الإرساء، يغادره شابٌ وفتاته ليدخلا حديقة الشاي، حيث القماش المخطط يكسو الطاولات. أشعل الشابٌ سيجارًا فقلت في قرارة نفسي: «أتمنى لك حظًا سعيدًا كائنًا من تكون. استمتع برفقة فتاتك في الوقت المتاح لك». أبحر البجع باسطًا أشرعةً يداعبها نسيم خفيف، وغرّدت طيور الغرّة. ثم علا صوت القسّ فأدرك الشابٌ فجأةً فحوى كلماته. خلع قبعته وأطفأ سيجاره ووضع بحذر خلف أذنه. فكّرتُ: «لا تهتم، لا تهتم. لن يُتاح لك كثير من الوقت لتمضيه مع فتاتك».

أرسلت الجمعية الأنجلو-ألمانية بعض مُمثليها. وفي الجهة المقابلة من القبر رأيت المُلحق العسكري الذي جلس بجواري في حفل العشاء. عندما انتهت المراسم جاء إليّ، أدّى التحية العسكرية، ثم أمسك بيدي وبالع في الانحناء تحيةً لي، حتى إنني رأيت الشمس تتألق على شعرات مؤخرة رأسه الحليق.

قلت: «هذا صهري إدوارد موستن-لويد. أظن أن أحكما يعرف الآخر». لم يتصافح الجنديان الشابان أو يتبادلا التحية. نظر أحدهما إلى الآخر نظرة مقتضبة تقيميّة، ثم أشاح كلّ منهما بوجهه. عندئذٍ شعرت أنني شهدت المواجهة الأولى في حربٍ أيقنت أنها واقعة، بعدما أمضيت سنوات عمري المديدة أعيش الحرب، أو الخوف من نشوبها، أو التأهب لها.

وقف الكولونيل فورسكيو ذو العينين الزرقاوين المُرهقتين بجواري، ومدّ ذراعه كي أتمسك به. قادني إلى سيارته الفاخرة، وعدنا إلى منزله في استراحة قصيرة. ثم ذهب إدوارد إلى معسكره، وأعادني ميرفن إلى المنزل.

6

الآن أصبح منزل ميرفن في ميدان هانوفر بيتي. لقد رحل جوثرسن العجوز منذ بضع سنوات، وسعدت باقتراح ميرفن العيش في الشقة التي بناها له فوق منزله. كنت قد أخبرته أن المنزل الكبير في تشيلسي لم يعد يناسبني، وإلى هناك انتقلت. بمساعدة الموارد التي يتيحها متجر «موستن-

لويدي» لم يصعب على ميرفن تجهيز المكان في أيام قليلة من وفاة دانييل. نُظِّفَت الشَقَّة، وأُعيد طلاء حوائطها وتلميع أخشابها. استُبدلت بُسْط الأرضية وأُسدلت ستائر جديدة على النوافذ. كان المنزل مُضاءً بالكهرباء، وهذا ترف لم أعرفه في تشيلسي، حتى إن المصعد إلى الشَقَّة أصبح كهربائيًا. زوَّد ميرفن الغرفة بقطع الأثاث القليلة اللازمة، على أن أُحضِر من تشيلسي الأغراض التي أريدها حولي. وقد تفاجأت بقلَّتْها، إذ لم تتضمن سوى لوحة أُمي التي رسمها ج. ف. واتس، ولوحة لوسي إيفانز التي رسمها ميليه، وورثتها ماجي ويل، ثم انتقلت إليَّ. أخذت أيضًا لوحةً لماجي من بواكير أعمال أوجستس جون. ومن بين جميع الأشياء الغريبة عثرت على اللوحة التي رسمها السيد أندريدج الكبير لابنه دانييل، وهو يحدِّق إلى البركة في حديقة مونتروي؛ تلك اللوحة التي أثارت غضب الصبي، لكنها حظيت بتقديره عندما أصبح رجلًا. لا أعلم كيف تحصَّل عليها دانييل. لكنها كانت هناك، تقطر حنيئًا مثلما كان دانييل يقطر ماءً عندما غمسته ماجي في البركة. لقد أعادت إلى ذهني ذكريات كثيرة، لهذا أحببت أن تكوني معي. أحضرت أيضًا مقعدي المُفضَّل والمكتب الذي لزمته منذ أن أصبحت، بطريقتي الطفولية الساذجة، سكرتيرة ماجي ويل في كوخ تريسانت. منح انخراطي في تلك الوظيفة اللورد بيرندج تسليية كبيرة. كان هو من أرسل المكتب من المنزل إلى الكوخ؛ ذلك العمل الفنيّ الأصليّ الذي صنعه توماس شيراتون بنفسه، بشهادةٍ من قسيمة الشراء، وطالما تطلع جوليان إليه باستحسان. كانت تلك الأغراض الحافلة بالذكريات كل ما أحتاج إليه لأشعر أنني في بيتي.

تلاشى ذلك الصيف وأصبح خريفًا. طال ذلك الخريف وفضائعه التي يتذكرها جميع من تعود ذاكرتهم إلى عام 1914. لقد طال كأنه يعي أن انتهاءه سيعلن موت كثير من الأشياء دون أملٍ في عودتها إلى الحياة أبدًا. ثم حلَّ الشتاء وعديدٌ من الحمقى يردّدون: «ستنقضي الحرب بحلول العام الجديد».

لم أرَ كاثي وصوفيا شقيقتي إدوارد كثيرًا. حالما بدأت الحرب أرسل ميرفن الفتاتين إلى منزلٍ ريفيٍّ يمتلكه يُدعى «كوبكس» ويقوم على أطراف غابة «إبينج». لقد شغلت فكره احتمالات الحرب الجوية. كانت تصوراتها صائبة لكنها سابقة لأوانها. أكَّد أن لندن ستعرض لقصف القنابل المكثَّف، كما حدث فعلًا لكن ليس في تلك الفترة. لهذا لم تمكث الشقيقتان في ميدان هانوفر.

ورثت الفتاتان الطويلتان الجذابتان، اللتان كانتا في منتصف العشرينيات، حُسن لوسي إيفانز والدة ميرفن: بشرتها الذهبية وساقها الطويلتين وعينيها الزرقاوين. تشابهتا حتى إنك تخالهما توءمًا، رغم أن كاثي تكبر صوفيا بعامٍ تقريبًا. عاشتا حياة المرح واستمتعتا بها. ابتاعتا ثيابهما من باريس. في العطلات ذهبتا إلى شواطئ فرنسا وإيطاليا. ظهرت صورهما تفتشان الرمال وقد اكتسبت سيقانهما سُمرة في مجلة «تاتلر»، ومجلات أخرى تهتم بأحدث الصيحات وحياةِ عليّة القوم. في المدينة ارتادتا أفخم المطاعم، وحضرتا الحفلات الراقصة وليالي العروض الأولى ومختلف أنواع الاحتفالات. كثيرًا ما تسليت بالتساؤل عن شكل العلاقة التي كانت لتجمع القبطان إدي رودا بحفيدتيه، ونظرة الجميلتين إلى جدّهما. وفي شتاء عام 1915 مسَّهما أثر الحرب.

مع أن والدهما نشأ معي وتزوجت ابنتي بشقيقهما فإن الفتاتين كانتا غريبتين عني. في الماضي عند زيارتي ميدان هانوفر دائمًا ما وجدتُهما غائبتين. في «أسكوت» أو «كاوز»، أو رحلتا إلى فرنسا، أو سافرتا إلى اسكتلندا للصيد أو إقامة حفل عيد الميلاد في منزل فاخر هناك. لقد منحتهما الصلة التي تربط والدتهما بالنبلأ حظوة اجتماعية، وزادت ثروة والدهما من ابتغائهما زوجتين. لم يكن مُرجَّحًا أن تتوق الآنستان موستن-لويد إلى بعض التغيير، مثلما كانت والدتهما إنيد جوثرسن ذات يوم.

في حفل زواج شقيقهما ونیکا أشرق حُسنهما، لكن هذا الإشراق اختفى عن الأنظار سريعًا. فقد غادرتا إلى مقاطعة بعيدة حالما وصل العروسان.

وبعد عودتهما بدأت سماع اسم تشيستر ويلز. ورغم أنني نادراً ما قابلت أيّاً من معارف كاثيري وصوفيا من الشباب، فقد قابلته أنا ودانيل في حفل أقامه ميرفن ترحيباً به. لحظتُ افتتاحان كاثيري به، وفكرتُ: «إن نُوج هذا الافتتاح الواضح بالزفاف فستسعد الفتاة». كان ذلك الشاب من «فيرجينيا»، تعيش عائلته منذ القرن الثامن عشر في واحد من تلك المنازل الأنيقة ذات الطراز الجورجي على الجانب الآخر من المحيط الأطلسي. إنَّ كلمة «أرستقراطي» المكروهة الآن تلخّص كل ما أريد قوله عنه.

في الصيف التالي لذلك سافر ميرفن وإنيد والفتاتين إلى «أمريكا»، وأمضوا العطلة في منزل عائلة تشيستر ويلز. كان والده سيناتور ووالدته من أثرياء شمال الولايات المتحدة الأمريكية. توقعت أن يبلغونا بخطبة كاثيري إلى تشيستر عند عودتهم، لكنهم اكتفوا بقول إن الزيارة كانت رائعة. بدا واضحاً أن الأمر لم يسر على ما يُرام، لكن الأنستين موستن-لويد واصلتا حياتهما المرحّة في أوروبا.

لقد أحببت صوفيا الابنة الصغرى. رأيتها تفوق شقيقتها الكبرى رزانه. عند الحديث إليها، على النقيض من شقيقتها، لم أشعر أنني أضجرتها. في مارس عام 1915، إذ مضى بعض الشهور على انتقالي إلى شقة ميرفن، أتت للجلوس معي. في ذلك المنزل كانت خصوصيتي مصونة. لم أتقيد بتناول الطعام مع العائلة. إن رغبتُ في مشاركتهم الوجبات يرحّبوا بي، وإلا فإن الخادمة تُحضّر لي الطعام. كان يوجد هاتف داخلي متصل بغرفة الجلوس في شقتي. لم يصعد إليّ أحد منهم دون الاتصال أولاً وطلب الإذن بالمجيء. في ذلك المساء هاتفني صوفيا. كانت تلك هي المرة الأولى التي تهاتفني فيها أيُّ الفتاتين. عندما وصلتُ بدت متبعة. قدتها إلى الأريكة بجوار المدفأة وقلت: «اجلسي يا عزيزتي».

لكنها لم تفعل. وقفت لحظات تنقّل نظرها في الغرفة الواسعة قليلة الأثاث، ثم قالت: «يا لها من غرفة هادئة تبعث على السكينة!».

كانت محقة في وصفها. لم يبلغ تلك المساحة أيُّ ضجيج. كانت الستائر مُسدلة والنيران تُرسل حسيستها. هناك طابت لي عزليتي. جلستُ تتنهد، في ما

بدا، ارتياحًا. جذبتُ الكرسي على الجانب الآخر من المدفأة إلى موضعٍ يمكنني فيه النظر إليها. أشعلتُ سيجارًا، واستراحت في جلستها تشاهد الدخان.

قالت: «اليوم غادرت كوبكس أنا وكاثي في السيارة. كان من المفترض أن نتناول العشاء مع بعض المعارف هذا المساء. لكنني تظاهرت بأن رأسي يؤلمني. لم يصبني الصداق حقًا، لكنني أتوق إلى الانفراد بنفسي قليلًا، بخاصة وكاثي في مزاجها الحالي. لهذا أتيت إلى هنا في سيارة أجرة لأجد المنزل بلا روح. قال الخدم أن أبي وأمي خرجا معًا. وقد طلبت منهم إرسال بعض الشطائر إلى هنا. هل تمانعين؟».

سعدت لأنها التجأت إليّ. قلت: «لا بأس يا عزيزتي. ما خطب مزاج كاثي الحالي؟».

لم تجبني حتى وصل عشاؤها، ولحظتُ أنها طلبت زجاجة نبيذ. أطفأت السيجار وشرعت في تناول الطعام شديدة الجوع. فاستنتجت أن الشقيقتين تحرمان نفسيهما من الطعام حفاظًا على قوامهما.

- إن العبث لا يزال قائمًا بينها وبين تشيستر ويلز. لا يغيب الفتى عن فكرها، وهو قادم إلى أوروبا قريبًا.

- لا علم لديّ بهذا الأمر. فأنا لم أسمع اسم هذا الشاب منذ عودتكم من أمريكا.

- كانت تلك الزيارة كارثية! إن كاثي لا تعرف الاعتدال. يعجبها الانخراط في عبث تلو الآخر.

بدا أن «العبث» هو الكلمة الأفصح للتعبير عما يشغل فكرها. لم أقل شيئًا. كانت، في ما بدا، تتوق إلى البوح. قالت إن تلك الرحلة كانت مغامرة رائعة. استمتعوا فيها بركوب الخيل والنزهات على الشواطئ نهارًا والاحتفالات ليلاً. وقد أحسنت العائلة ضيافتهم على نحو فاق توقعاتهم. لكنني استنتجت من حديث صوفيا العفويّ أن هناك قواعد للسلوك لم تستطع كاثي اتّباعها وحدودًا للياقة لم تلزمها. لقد تغلغل الابتذال في المجتمع الذي انغمست فيه في أوروبا حتى أصبح طابعه. لكن الآنسة موستن-لويد التي اعتادت أن ترى الحصون تتهدم أمامها عندما تطرف بعينيها، لم تدرك أن الابتذال لم يعرف طريقًا إلى

منزل عائلة ويلز. وهناك طرقت بعينيها كما يحلو لها. حتى صوفيا لم تستطع أن تدرك الاختلاف الدقيق بين المجتمعين، بل لحظت خطوطه العريضة فقط. قالت: «أعتقد أنها في يوم زفافها ستحاول العبث مع القس أو إشبين زوجها».

فهمتُ من كلماتها أن أجواء الزيارة ظَلَّتْ مثاليَّةً في رسميّتها، لكنها شعرت كأن طبقة رقيقة من الصقيع غطَّت يوماً خريفياً مُعتدلاً. من حين إلى آخر غابت عن الوجوه الابتسامات المعتادة، مثل أوراق شجرة تتساقط واحدة تلو الأخرى. وانتاب صوفيا شعور مُحيرٌ بأن العائلة رأت أنها وكاثي «ليستا لائقتين».

قالت بحيرة يمتزج فيها الغضب: «لم تُسفر تلك الزيارة عن شيء، وهكذا عدنا».

- ماذا تعنين يا عزيزتي بقولك إن العبث لا يزال قائماً بين كاثي وتشيستر ويلز؟

- الحقيقة السخيفة أن أحدهما يهيم بالآخر. ولو لم تذهب إلى منزله حيث الأقرباء يعجَّرون الصفو بينهما...

- أجل، أفهم ما تقصدين.

- إنهما يتراسلان منذ ذلك الحين. لكن مراسلاتهما ليست منتظمة، يتبادلان خطاباً بين الفينة والأخرى. والآن بعدما علمت كاثي أنه قادم إلى أوروبا ستحاول إثارة العبث من جديد. إن مزاجها في الوقت الحالي لا يُحتمل.

- إن كان السيد ويلز يريد لها زوجةً فسيبرهن هذه المرّة على أنه من يبتُّ في هذا الأمر لا عائلته.

- ربما. لكن الاندفاعيّة تسم سلوكها، نظرًا إلى الحرب القائمة ومسائل أخرى متفرقة. أتساءل كيف ستكون نظرتُه إليها.

لكننا لم ندر قط بنظرتِه إليها. فبعد شهرين من تلك المحادثة غادر أمريكا على متن «لوسيتانيا»⁽¹⁾. وبعدها غرقتُ نسفاً كُتِبَ في صحيفة «ديلي ميرور»:

(1) فور اندلاع الحرب العالمية الأولى فرضت بريطانيا حصاراً بحرياً على ألمانيا، وأعلنت بحر الشمال منطقة حرب. لجأت ألمانيا إلى حرب الغواصات لمجابهة البحرية

«امتلات السفينة بالأثرياء والشخصيات البارزة». كان تشيستر ويلز من بين كثيرين ممن فقدوا حياتهم غرقاً.

8

لم يحدث ما يؤكّد توقّع ميرفن أن لندن ستعرض للقصف الثقيل، لهذا عادت الفتاتان إلى المنزل. أصبحت أشارك العائلة الوجبات أكثر مما سبق كي أتعرف إليهما. لقد أثارتا اهتمامي. كانتا فتاتين من نوع لم أعرفه عن قرب قط. أعتقد أنه لولا انفصال أبي وأمي لدُفعت إلى عيش مثل هذه الحياة. لكنني نجوت منها، ونجت منها سالي لأن اللورد بيرندج لم يتفق مع المجتمع وانتمى قلبه إلى تريسانت. وفيما يخص نيكافإنني ودانيل لم نفكر قط في تقديمهما إلى المجتمع، أو حثّها على الانخراط في الهراء المعتاد من الحفلات والمناسبات الاجتماعية. لقد ظهرت صورتها في مجلة «تاتلر» مرة واحدة فقط، مع التعليق: «الشقيقتان موستن-لويد في حفل زفاف شقيقهما».

لقد توصلتُ إلى أن كاثيري، المهووسة بالشهرة السخيفة التي اكتسبتها من جمالها ومغامراتها، ظننت أن طريقتها في عيش الحياة ذات قيمة وأهمية. لكن صوفيا انتابها الشك والحيرة، خاصة عندما انكشفت أمامها أهوال الزمن الذي نعيشه.

مرّ صيف عام 1915 طويلاً، ولم يعد أحد يتحدث عن أن الحرب ستنتهي في غضون بضعة شهور. أصبحت الجرائد تنشر قائمة بأسماء الموتى يومياً. ستظلّ العواميد التي وجب طباعتها بخطّ صغير، كي تكفي المساحة المحددة

البريطانية، وفي فبراير عام 1915 أعلنت أنّ المسطحات المائية المحيطة بالجزر البريطانية وأيرلندا منطقة حرب، ستُدمر أي سفينة تجارية معادية تبحر فيها، وقد تَلحق أضراراً تبعيةً بالسفن المحايدة في المنطقة. كانت آر-إم-إس لوسيتانيا سفينة بريطانية عابرة للمحيطات من أضخم سفن الركاب في العالم. نسفتها غواصة ألمانية في مايو عام 1915 على بعد بضعة أميال من ساحل أيرلندا الجنوبي. قلبت هذه الواقعة الرأي العام في عديد من البلاد ضد ألمانيا، وساهمت في دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى العالمية الأولى. م

لنشر أسماء جميع الراحلين، من أقسى وقائع تلك الحرب. لقد ابتكر بروس بيرنزفاذر شخصية «بيل العجوز» و«ألف الشاب»⁽¹⁾. وبالإطلاع على رسومه الهزلية اكتشفنا كم كانت الحرب مُسَلِّية، هجماتُها مُضِحَّة وانفجاراتها فكاھيَّة. وكم أسفنا إذ علمنا عند قراءة تلك القوائم المطبوعة، أنَّ كثيرًا من الجنود قد لقوا حتفهم بغتةً، وهم يستمتعون بتلك النزاهات المرحية.

لو تمكَّنت «لوسيتانيا» من أن تقطع الأميال القليلة التي تفصلها عن ميناء «كوينزتاون» لربما اختلفت حياة كاثرين. ولأن السفينة لم تصل إلى وجهتها قط فقد جَمَدَ كيان الفتاة الشابة. فَسَتْ الهالة المرحية التي أحاطت بها وتصلَّبت؛ أصبحت ستارًا يحجب شعورها الحقيقي. ولم يستشف لي ما يدور بداخلها قط. فمِنذ ذلك الحين اختفت خلف قناع الطيش واللامبالاة. رغم الحرب كانت التسلية كثيرة لمن يريدها. وقد أرادت كاثرين بشدة ونالتها. التفَّ الفتية الشباب حولها ولم يعترض أحد منهم على وجود غيره في حياتها. تردَّدت على المسارح حيث العروض كثيرة، وانغمست في حفلات الرقص والعشاءات فرارًا من هموم الحرب. حينئذٍ كنت قد بدأت التطوع في «محطة واترلو»، حيث قدَّمنا المرطبات والوجبات الخفيفة للرجال الذين يغادرون القطارات متعبين⁽²⁾.

في ليلة باردة في منتصف شتاء عام 1915، أتذكر أنني عدت إلى المنزل مُنْهَكَة، فاسترحت على كرسيٍّ في الردهة. كنت من الإعياء بحيث لم أقوَّ على السير بضعة أمتار إلى المصعد. هناك جلست أجدب معطفي حولي، سمعت

(1) بروس بيرنزفاذر كاتب ورَّسام هزليٌّ، قاتل في الحرب العالمية الأولى بصفته جنديًا بريطانيًا في فرنسا حتى عام 1915. ظهر اثنان من أبرز الشخصيات التي رسمها -وهما العجوز بيل وزميله الشاب ألف- في رسومه الهزلية بعنوان «لمحات من فرنسا»، التي كانت تُنشر أسبوعيًا في مجلة «بايستندر» في أثناء الحرب. م

(2) في أثناء الحرب العالمية الأولى جُهِّزت موائد مجانية في محطات السكك الحديدية في إنجلترا لخدمة الجنود والبحَّارة. كانت أكبرها مائدة «واترلو» المفتوحة، التي خدمت المارِّين بالمحطة طوال فترة الحرب، من الجنود البريطانيين، والأستراليين والبلجيكيين والإيطاليين والأمريكيين؛ والتجار البحَّارة الذين غرقت سفنهم، وأسرى الحرب العائدين إلى أوطانهم. مؤلَّت التبرعات الخيرية تلك الموائد وكان فريق العمل بأكمله من المتطوعين. م

الساعة تدقُّ مُعلنةً حلول منتصف الليل، ثم غفوت. بعد برهة أيقظني صوتُ سيارة أجرة تتوقف في الخارج وقفل الباب ينفتح. في الوقت نفسه سمعت حفيفًا في الداخل، فالتفتُ لأرى صوفيا تهبط الدرج ينسدل شعرها الأشقر فوق رداء النوم. دخلت كاثي، ألقت معطفها على كرسيٍّ وأشعلت الأضواء، ثم وقفت جامدة ترتدي الساتان الأبيض اللامع.

سألتنا وهي تضحك: «ما هذا؟ لجنة استقبال؟».

أخبرتها بسبب وجودي. ثم تقدمت صوفيا نحوها، أحاطتها بذراعاها وقالت: «كنت أصيخ السمع ترقبًا لمجيئك يا عزيزتي. لم أستطع النوم قبل عودتك».

- لن تنالي وافرًا من النوم إن فعلت ذلك.

حاولت صوفيا أن تقودها إلى الدرج لكنها قالت: «أريد شرابًا».

- لا يا شقيقتي العزيزة. أنت لا تريدينه حقًا. لنذهب إلى النوم.

- أقول إنني أريد شرابًا وسأحصل عليه.

ابتعدت عن صوفيا تقصد غرفة الطعام، لتعود وهي تحمل زجاجة شراب. رفعتها قائلة: «نخب الأيام السعيدة!».

الآن كنا جميعًا واقفات يسودنا الصمت. ارتشفت كاثي الشراب شاردة الذهن، ثم قالت: «لقد فارق الحياة أربعة من الرجال الذين شاهدت معهم مسرحية «تشو تشين شاو»⁽¹⁾. أتساءل إن كان فتى الليلة سيلحق بهم».

وفجأة وضعت الزجاجة على الطاولة عنيقًا، انتزعت معطفها، وركضت إلى الدرج. لحقت بها صوفيا، التي كانت على وشك البكاء، وأحاطتها بذراعاها. جمدتُ في موضعي لحظات بعدما اقتحمت كلمات كاثي قلبي كأنها صقيع. ثم أطفأت الأضواء، وجررت قدميَّ إلى المصعد.

(1) مسرحية كوميدية موسيقية مستوحاة من قصة «علي بابا والأربعين حرامي». أقبل الجنود البريطانيون العائدون من الجبهة الغربية على حضورها في إجازتهم. م

في ربيع عام 1916 سافرت صوفيا لتتطوع ممرضة في مستشفى عسكري في «إتابل»⁽¹⁾. وواصلت كاثي حياتها على النسق نفسه؛ مُرهقة صباحًا بعد السهر ليلاً. أمّا نيكاً فتطوعت للعمل معي في محطة واترلو. كنت واثقة أنها لن تنسى أبداً تلك الليلة حيث الرياح القارسة تُصفر في طريقها من دُجى الليل إلى المحطة، مارةً أسفل الأقواس الزجاجية، فتتشكل رماحاً وسكاكين تتخللنا بلا رحمة.

نظرت نيكاً إلى الأعلى حيث ألواح الزجاج الكبيرة، المظلمة الغامضة، وسألتني فجأة: «هل ما زلتِ تحتفظين بالسَّوار الذي أهديتكِ إياه؟ ذي الأجراس الفضية؟».

- أجل يا عزيزتي. لماذا تسألين؟

ضحكتُ، ثم قالت: «كم كنت طفلة حاملة! لقد أردت أن أهديكِ غرضاً يذكركِ بقصر الكريستال. لكن إن تأملتِ هذا المكان فستجدينه قصراً كريستالياً أيضاً. انظري إلى السطح. يوافقه، أليس كذلك؟».

بلى، شابته المحطة قصراً كريستالياً. لكنه يخلو من النافورات وأشجار الدردار. بلا زهور، أو أساقفة، أو جوقة يرتدون ثياباً مبهرجة.

أردفتُ: «أقصد أن الاسم «واترلو» يوافقه. طالما تذكَّرتُ تلك الكلمة اسماً للمحطة، وقبل بضعة أيام فقط انتبهت فجأةً إلى أنها لا شك قد سُميت باسم المعركة. عندما عدت إلى المنزل أمضيت وقتي أقرأ عنها، وأتذكر بعضاً مما قرأت. «كان القتال من العنف ما أسفر عن مقتل وإصابة 45000 جندي راقدين في بقعة لا تزيد مساحتها على ثلاثة أميال. تحدَّد الموقع الذي شغله المُشاة البريطانيون بدماء القتلى والجرحى». لا يذكر هذا المقطع الضحايا من الخيول. إنني أرتعد عندما أفكر في الخيول المسكينة. أؤكد لك أن هذه

(1) نظرًا إلى الموقع الاستراتيجي لبلدية «إتابل» على ساحل فرنسا الشمالي، فقد شكَّلت مسرحاً لإقامة معسكرات الحملة العسكرية البريطانية. كانت موقعاً لتدريب الجنود ومخزناً للإمدادات، ومركزاً لاحتجاز الأسرى. وأقيم فيها عدد من المستشفيات لعلاج الجرحى. م

المحطة تشبه قصر الكريستال. يجب أن ترتدي سوارك هنا دائماً، وأن تنصتي إلى رنين الأجراس السعيد».

- يجدر بنا الذهاب إلى رصيف المحطة بعيداً عن البرد. سيصل القطار في أي لحظة.

وما أقسى مشهد وصول الفتية المحاربين! كانت ذاكرتي تعود كثيراً إلى ذلك اليوم الصيفي حيث مات دانييل، ووقف إدوارد يقود الزورق في حذائه اللامع وبنطاله الكاكيّ بلا تغضنات. لكن الجنود لم يظهروا بتلك الصورة منذ أن بدأت الحرب، باستثناء فتية كاثي عندما يغسلون عنهم وحل المقبرة ويصعدون إلى النور للحظات. الآن تقدّم نحونا الحشد مثل موجة بُنية موحلة. بعدما توقف القطار مُقعِّعاً انتظر في موضعه يصفرّ عاليًا ويملاً الهواء ببخاره. بدا مثل تننٍ رابض. وعلى طوله ومضت نوافذه وأبوابه كأنها حراشف. ثم تشقّقت تلك الحراشف ليخرج الحشد المتشابه دائماً مع اختلاف أفرادهِ: منه جماعات صاحبة ضاحكة يعزفون الهارمونيكيا ويغنّون، ومنهم الهادئون السائرون وحدهم تصحبهم ظلالهم؛ وجميعهم ينتعلون أحذية موحلة، مُثَقَّلون بالحقائب وأقنعة الغاز والبنادق، ومعدات حفر الخنادق التي تصطّك فتقرقع. تباينت رداءاتهم ما بين معاطف طويلة وقصيرة وأخرى مصنوعة من جلود الخراف تجتذب القمّل. منهم من اعتمر أغطية الرأس، وقد خفق قلبي لمرأى قبعات الكنديين والأستراليين ذات الحافات المطوية إلى الأعلى، إذ ذكّرني بـ «ضحايا تشامبرلين الأبرياء» وريتشارد وتريمر. كانت الدعامات القماشية تلفُ سيقانهم، وأحاطت الأوشحة الصوفية أعناقهم. لو تقربّت إليهم لتبيّن لي أنّ منهم مشتبه فيهم وأنّزال، وعاديّين وأبطال، وصبية مذعورين يتوقون إلى الفرار إلى أحضان أمهاتهم، وقُساة أفضاظ عازمين خلال تلك الاستراحة على تلبية حاجتهم إلى النساء.

لكنني لم أتقرب إليهم، وحينئذٍ لم يدُر في ذهني ما ذكرته الآن. لقد استغرقتُ في أداء مهمة واحدة، وهي الوقوف بجوار غلايات الشاي وسلّات الخبز كي أطعم القادمين أيّاً كانوا. وبينما أعمل أنا ونيكا وباقي المتطوّعين فكّرْتُ في سالي، وتذكّرتُ جوابها ذات يوم: «مجهود؟ أنا لا أبذل أي مجهود، إلا إذا كان المجهود في نظرك أن أضع نفسي حيث يستطيع من يحتاجني

الوصول إليّ، كي يُضفي على وجودي معنى، ثم يتركني في موضعي ويواصل طريقه».

والوجوه! لن أنسى أبدًا تلك الوجوه التي ظهرت في الكُشك أمامنا لحظات، ثم اختفت إلى الأبد. بلغ بعضها من الكبر وبضعها من الصُّبا ما لا يناسب الانخراط في هذا الصراع. وسمتُ بعض الوجوه براءةً ملائكية، وحفرتُ ندوب الخطيئة بعضًا آخر. رأيتُ فيها الخوف، والثبات، والسخرية، والإخلاص. علا الفضول بعضُها، ودمغ المكر بعضًا آخر. بدت بعض الوجوه كأنها، حتى هنا، تُبصر الموت. ومنها ما أرسل نظراتٍ فاحصة تقيِّمنا نحن النساء. مرُّوا بنا ليلة تلو أخرى كأننا نشاهد شريطًا سينمائيًا لا ينتهي، في معظم صُورهِ يغادر الرجال المحطة مُهرولين. لقد عادوا إلى بريطانيا في فاصل قصير، إذ تمضي الدقائق سريعةً وما يرغبون في فعله كثير. كم صغرت الأكواب في أيدي أولئك الرجال الظَّماء بلا ارتواء!

في تلك الليلة امتدَّت يد لتأخذ كوبًا من نيكّا. لقد انهمكتُ في تقديم الأكواب حتى إنها لم تعد ترى وجوه المارّة، بل أياديهم. لكنها عندما لمحت تلك اليد لم تناولها الكوب، بل وضعته. ارتجفت، ثم رفعت رأسها.

قال إدوارد: «لم أخبركِ بهذا الأمر. أردت أن أفاجئك».

رفعتُ يدها إلى قلبها، وأجابته: «تفاجئني؟! لقد كدت تقتلني!».

ثم غادرت الكُشك ركضًا.

لم يخاطبني إدوارد. لقد غادر والشريط السينمائي يدور. ثم سمعت أحدهم يقول: «ربّاه! كم كان هذا سريعًا!».

كتب جوليان:

«عمتي العزيزة،

أنا لم أمارس الصيد قط، لكن مخيلتي حيّة. أتصوّر أحد طيور التدرج يُحلّق على حافة غابة، فوق أشجار أوراقها حمراء وصفراء، أسفل سماء الخريف الزرقاء الشاحبة. ثم يأتي سيّد يرتدي فاخر الثياب لا يجد عملاً نافعا يشغله، يُصوّب أنبوباً معدنيًا نحو ذلك الطائر الجميل، ويضغط الزناد. يثقب الرصاص جسم المسكين، ويترنّخ في الهواء كأنه ثمل. الآن قد أصابني -أنا من يرأف بجميع المخلوقات- مُصاب ذلك الطائر البائس. ولم يكن ما استهدفني، يا عمتي العزيزة، سلاحًا خفيفًا مثل بندقية صيد تُطلق كرات الرصاص. كم أنّ العالم ظالم! رغم ذلك فقد أسعفني الحظ، إذ ألحق بي الانفجار أهون ضرره. لكنه كان من الشدّة ما دفن قطعًا من المعدن في ذراعيّ، وساقيّ، وجذعي، ورأسي. لهذا لم أستطع مراسلتك قبلاً، إذ انشغل الأطباء بالتنقيب في جسدي. لقد أفرغوا عروق المنجم الذي تكوّن داخلي، ولم يتبقّ سوى استكشاف بضعة جيوب متفرقة. أنا الآن في مستشفى بالقرب من باريس كي أخضع لتلك العمليات الأخيرة. أؤكد لك أن الحال هنا أفضل كثيرًا من «فردان». لن أصف لك كم تفتقر «فردان» إلى اللطف. ولا أظن أن «سوم»

تفوقها لطفًا. إِنَّ إدوارد يشغل فكري. إن حصل على
إجازة فعانقيه نيابة عني. أبلغني نيكاً تحيتي. صافحي
فورنييه. وأخبريه أنني أصبحت مصفاةً من أجل
وطني».

11

أرسل جوليان خطابه ذاك في بداية خريف عام 1916. وطوال الصيف
الذي يسبقه شهدت حياة كاثرين تبدُّلاً، بدأ عندما تلقت خطاباً من نيجل لانكستر
الراقد في مستشفى في «هامبستيد». لم أكن قد سمعت به من قبل. عندما
قرأت الخطاب على طاولة الإفطار اتضح أن ميرفن وإنيد لا يعرفانه أيضاً. لقد
سألها أن تزوره في المستشفى.

قالت إنيد: «من يكون هذا الشاب يا عزيزتي؟».

أجابته كاثرين مرهقة كالمعتاد: «لا بد أنني قابلته في مكان ما. أظن أنني
سأتذكره عندما أراه، إن ذهبت لزيارته».

كان ميرفن يقرأ جريدة «ديلي ميل». قال: «يا لها من مصادفة! لا بد أن
هذا هو الشاب!».

نشرت الجريدة صورة فوتوغرافية أسفلها مقال بعنوان: «الفتى الباسل».
ذُكر فيه أن نيجل لانكستر تلقى تدريباً لدى «هيئة تدريب الضباط» في
المدرسة العامة التي ارتادها، ثم انضم إلى الجيش برتبة ملازم ثانٍ، وسرعان
ما أرسل إلى فرنسا للخدمة العسكرية. في ليلته الأولى في الخنادق شنَّ العدو
هجومًا عنيفًا، وكان الفتى ذو الثمانية عشر ربيعًا الضابط الوحيد الناجي.
لقد وُحِدَ جنوده، هاجم جنود العدو وطاردتهم حتى خنادقهم، وأوقف بيديه
الضئيلتين مدفعًا رشاشًا يقذف الدمار. ثم فصل جنوده إلى مجموعتين،
تقدَّما على طول خندق الألمان في اتجاهين متقابلين وقصفوهم. عندما
وصلت قوات الدعم كان الشجعان على بعد مئة متر من خطِّ دفاعهم. وحُمِلَ
نيجل لانكستر، الذي أصيب بطلق ناري في ساقه، على نقالة إلى الخندق. جاء

في ختام المقال أن: «السير نيجل هو البارونيت العاشر. لقد حاز اللقب عقب وفاة والده وهو في العاشرة من عمره».

بعد الإفطار هاتف كاثي المستشفى وتمكنت من الحديث إلى نيجل لانكستر. سألته متى تقابلا فضحك وقال: «لم نتقابل قط. إنني أرسل جميع الحسناوات اللاتي أرى صورهن في مجلة «تاتلر». لقد حصلت على عنوانك من دفتر دليل الهاتف. أتمانعين؟».

لم يتقرب إليها أحد بتلك الطريقة من قبل. وقد أثار اهتمامها. قالت إنها لا تمنع، وسألته عن مواعيد الزيارة.

12

هكذا اتخذت حياة كاثي منعطفًا جديدًا في واحد من أيام أبريل عام 1916. وخلال الشهر التالي ذهبت لزيارة نيجل لانكستر كل يوم. كانت تكبر الفتى بقراءة عشرة أعوام. وفي نهاية الشهر تعافى جرح ساقه بدرجة تمكّنه من مغادرة المستشفى من حين إلى آخر. فدعته كاثي إلى الغداء في ميدان هانوفر. قادت السيارة إلى هامبستيد كي تُقلّه، وصادف أن كنت واقفة عند النافذة وقت عودتها. أخبرتني الطريقة التي ساعدته بها على الخروج من السيارة بكل ما قد أودُ معرفته. لقد خرج رئيس الخدم ليمد يد العون، لكنها لوّحت بيدها كي يبتعد. لم تسمح للغير بمسّ هذه الحمولة النفيسة. أسند الفتى يديه إلى كتفيها وغادر السيارة على مهل. ثم تمسّك بها واقفًا على ساق واحدة وهي تمد يدها لتُخرج عُكّازيه. حالما استند إليهما تقدّم ضاحكًا مَرِحًا. كان قصيرًا ضئيلًا مُعتدًا بنفسه، شابه أريل في «العاصفة». بدا واضحًا أنه اعتاد أن ينال ما يريد مُسخّرًا ظُرفه. تصورت والدته وممرضته ومُربّيته مسحورات به. في المدرسة قد يختلف الأمر قليلًا، لكنه أحاط نفسه بجماعة من الأصدقاء الموثوقين يقفون سدًا أمام الهمج الذين لا يخضعون لسحره. رغم ضآلته كان قويًا ذا لياقة بدنية عالية. افتقرت قسمت وجهه إلى التناسق قليلًا، لكنها كانت مُعبّرة تنبض بالحياة. عندما تعرفت إليه وجدته ذكيًا واسع الحيلة، لكنه لم يشهد الحرب حقًا. لم أحتسب بالواقعة الغريبة التي

جعلت منه بطلاً لأنها لم تُفَضَّ إلى شيء سوى إبعاده عن حربٍ خاض غمارها للتو. كانت الحرب في نظري هي ما انطبع على الوجوه التي مرَّت بنا في كُشْكُ محطة واطرلو. لقد عرفتُ جيداً تلك الأيادي، التي أمضت شهوراً من الحفر والقصف حُفِرَتْ أحداثها على جبهات أصحابها، وسكن أعينهم ألمٌ رحيل زملاء صاروا أشباحاً تسكن الخنادق. سيصبح إدوارد واحداً منهم.

بعد ظهيرة أحد الأيام جلست مع لانكستر وحدي نصف ساعة، وتحدثت إليه عن بطولته الشهيرة. قال: «كانت واقعة غريبة حدثت سريعاً. وصل الأعداء إلى خندقنا بغتة، إذ كنت في مخبأ جانبيٍّ مع بضعة ضباط، وقبل أن نستطيع الخروج ألقوا علينا عدداً من القنابل. انطفأ المصباح، وفي الظلام أخذت أهُتِفُ بالبقية. سرعان ما أدركت أن جميعهم موتى، وعندئذٍ اشتعلت غضباً. أتذكر أنني صعدت إلى الخندق ركضاً أصبح بالجنود وأطلق السُّبَاب، ثم كانت الفجوة. أظن أن غريزة البقاء هي ما قادني، لكنني لا أتذكر ما فعلته بالضبط. لا أعلم ما حدث حتى وُضِعَتْ على النُقْالة».

جلس ينظر إلى يده الضئيلة وسادنا الهدوء، إذ لم يوجد من يمتدحه. كنت أشاهد فيلماً طويلاً بلا عنوان عن أفراح الحرب وأتراحها كل يوم، بحيث لم أتأثر كثيراً بما قال.

سألته: «هل عشت شيئاً كهذا من قبل؟ أقصد تلك الفجوات التي تعقب الغضب؟».

أخبرني أنه في عمر السادسة أو السابعة، بينما هو عائد من درس ركوب الخيل يمسك سوطاً، رأى ابن البستاني الذي يعمل لدى والده؛ صبيّاً في مثل عمره يمسك بأرنب، قال وهو يحمل الكائن المذعور من أذنيه: «هكذا يقتلونهم. وبحافّة يده ضرب عنق الأرنب بغتة». لم يتذكر نيكل ما حدث بعد ذلك. لكنهم أخبروه أن أحد المارة أبعده عن ابن البستاني، الذي كان راقداً رأسه مُلَطَّخٌ بالدماء بعدما نزلت به ضربات السوط.

تكرّر الأمر نفسه في المدرسة. ليس من المعتاد أن يموت طالب في مباراة كريكيت، لكن هذا ما حدث. لقد طارت كرة واصطدمت بصدغ صديق نيكل المُقَرَّب فمات على الفور. احتشد الصبية والمعلمون. وللمرة الثانية لم يدر

نيجل بما حدث حتى أخبروه أنه التقط قوسًا، وركض به مُهاجمًا الفتى الذي رمى بالكرة الرمية المميّنة، لكنهم أوقفوه قبل أن يضربه.

لقد وجدتُ تفسيرًا لتلك التصرفات فيما رواه. إنّ ذلك الفتى يُفجّعه الموت ويخذله وعيه متى يحلُّ، سواء أكان موت أرنب، أو موت صبي يرتدي الأبيض، أو موت الضباط في مخابأ. لكنه الآن ملعون برؤية المزيد والمزيد يموتون. وفي الأيام التالية، حيث اختفى جانب نيجل المظلم وعاد الفتى المرح المحبوب الواصل بنفسه، رُقَّ قلبي له وقلقت عليه.

سرعان ما أصبح يسير مُستندًا إلى عصا، وأخيرًا استطاع المشي بلا عون يُظهر عَرَجًا طفيفًا. أصبح فتى شهيرًا. كان طفلًا وحيدًا ماتت والدته ووالده ووَدَّ الكثيرون مصادقته. لكنه فيما بدا لم يرغب في أحد سوى كاثيري، التي بدورها لم تُرد سواه. لقد فتنها رغم حداثة سنه، مثلما استطاع فتنة من يريد. كان حبه للحياة والمرح هائلًا مُعديًا. لاحظت أن كاثيري أصبحت أكثر لطفًا وتفهمًا. تصدّعت قشرة الجمود التي أحاطت بها مثلما تتصدع طبقة من الجليد عندما تشرق الشمس.

في أغسطس أقيم حفل غداء في منزل ميدان هانوفر للاحتفال بعيد ميلاد نيجل التاسع عشر. وبعدما شرب ميرفن نخب صحته قال نيجل فخورًا إنه وكاثيري مخطوبان. ثم أخبرنا بجديّة ما بدا واضحًا أن كاثيري لا تدري به: «أقررت لجنة طبية بأنني لائق للخدمة العسكرية. هذا يعني أنني سأعود إلى الميدان في أي يوم».

كانت تلك العودة في الأسبوع التالي؛ الأخير من أغسطس. وفي الأسبوع الأول من سبتمبر عاد إدوارد إلى المنزل في إجازة.

كانت معركة «سوم»⁽¹⁾ قائمة منذ شهرين، وقد احتمل إدوارد الكثير قبل بدايتها. في إجازاته الأولى كان مثل معظم الجنود العائدين من الحرب، وأعاد وجوده البهجة إلى حياة نيك. لكنه بمرور الأيام أصبح شارّد الفكر. وشابه وجهه جميع الوجوه التي خبرت رائحة الموت في «المنطقة المحرّمة»⁽²⁾.

في المرة الأخيرة التي عاد فيها إلى المنزل أراد الابتعاد عن لندن. كانت تلك الإجازة في بداية الربيع لكن صادف أنّ الجو دافئ، وقد اصطحب نيكاً إلى كوخ يُطلُّ على نهر «الْتَمَز» حيث التّهيّئ عن دانييل وهو يُحتَضِر. أخبرتني نيكاً أنهما أمضيا معظم الوقت يبحران في زورق. وبعد ظهيرة أحد الأيام قاد إدوارد الزورق إلى حافة حقل، ووقف ينظر إلى العشب النضير حيث ترعى الأبقار.

قال: «هنا كان معسكرنا في 1914. يبدو هذا العام بعيداً جداً. أتساءل لم لم يتبقَّ سواي. أنا لا أزال حيّاً كما ترين. لكن جميع الفتية الذين تدربوا معي هنا أصبحوا الآن موتى. ومعظم الرجال، في ما أظن، لحقوا بهم أيضاً».

عقد وثاق الزورق إلى شجرة صفصاف وخطا إلى الحقل. قال: «لنتناول الغداء هنا».

عارضته نيكاً: «هل هذا ضروري يا عزيزي؟ ألن يُسيئك الأمر؟».

- لن يسيئني تذكُّر الرجال الذين عرفتهم هنا. لم لم يتبقَّ سواي؟ هل يوجد ما عليّ فعله؟

(1) إحدى معارك الحرب العالمية الأولى الأكثر دموية وطولاً. قامت على امتداد الجبهة الغربية بالقرب من نهر «سوم» ودامت أكثر من أربعة أشهر. كان الهدف منها التعجيل بانتصار الحلفاء، لكنها انتهت بخسائر كبيرة للطرفين. م

(2) في خلال الحرب العالمية الأولى كانت المنطقة المحرّمة (no-man's-land) هي تلك الواقعة بين الخندقين المتقابلين للطرفين المتحاربين، تختلف مساحتها باختلاف ساحة القتال. كانت مفتوحة لإطلاق المدافع الرشاشة وقذائف الهاون. تنتشر فيها الأسلاك الشائكة والألغام البرية، والحفر التي خلفها انفجار القذائف؛ وكذلك القتلى والجرحى من الجنود الذين لم ينجوا من تلك الأسلحة. م

عندما ودَّعناه في نهاية تلك الإجازة كان حائرًا، عابسًا وجادًا. ولا شك أن خطابه كانت لتثير استياء مُراقِب خطابات⁽¹⁾ غيره، بخاصة منذ أن بدأت معركة «سوم». لقد اعتادت نيكاً إحضارها لي مفضولة القلب، ولم يكن أمامي الكثير لأفعله كي أطمئنّها.

«عزيزتي،

لديّ قليل من الوقت يكفي لأن أكتب لك بضع كلمات، ثم سأعود إلى مهمتنا اللطيفة. إنَّ الفتى ابن النجّار يسبب لي المتاعب. لقد انضم إلينا الأسبوع الماضي بعد تجنيده إجباريًا⁽²⁾، وهو لا يتوقف عن البكاء. ماذا الذي يدعو إلى البكاء بحق السماء عندما تناضل من أجل قضية مقدّسة كما يقول قادتنا؟ لكن الفتى ابن النجّار مزعج. أشعر أنني الليلة سأدفعه بيديّ هاتين إلى القتال قائلاً: «تحرك أيها اللعين. هيا لأداء واجبك». وإن واصل إزعاجه فسأطلق عليه النار كي يصبح عِبرة لغيره. قد تكون هذه أفضل طريقة للتعامل مع ابن النجّار، ألا توافقيني الرأي؟».

(1) تولّى مُراقِب الخطابات تنقيحها بحذف أي ذكر دقيق للمواقع العسكرية أو التنقّلات المستقبلية، أو عديد من وقائع الحياة الحربية، إمّا بقصّها تاركًا ثقبًا في الخطاب وإما شطبها باستخدام الحبر. م

(2) في عام 1916 أُقرَّ قانون الخدمة العسكرية في إنجلترا، ليُفرض التجنيد الإجباري على جميع الرجال غير المتزوجين أو الأرمال غير المُعيلين الذين تتراوح أعمارهم بين 18 إلى 41 عامًا؛ مع إعفاء غير اللائقين صحيًا، ورجال الدين والمُعلمين وبعض العمال. م

طوت نيكاً الخطاب ووضعتة في حقيبتها، ثم شرعت في النسيج. قالت: «أنا قلقة عليه. أنا خائفة، خائفة».

كنت قلقة عليه مثلها. وبينما أنا جالسة مشغولة البال بإدوارد أدركت فجأة كم بلغ مني التعب. كنت في الثامنة والستين وأعمل بأقصى طاقتي منذ مدة طويلة، حتى كاد جسدي يبلغ نقطة الانهيار. على أنني رحّبت بفكرتها عندما قالت: «هلا تستضيفين الطفلين عندما تحين إجازته القادمة؟ أريد أن يمضي وقته كله معي».

- ما رأيك في أن أصطحبهما إلى كورنوال؟ يمكنني أن أرتّب وجود من يشغل مكاني في محطة واترلو. فأنا لم أحظ بإجازة منذ أن بدأت العمل هناك.

وهذا ما كان. في نهاية أغسطس ذهبت مع كاثي وميرفن وإنيّد لوداع نيجل الأنيق، الذي بدا صبيّاً في معطفه الجديد باللون البني المائل إلى الصفرة. وبعد أسبوع كنت في تريسانت مع نيكولاس وفيرا، اللذين غمرهما الحماس لأنهما لم يذهبا إلى هناك قط. لم أقم بتلك الرحلة بقلبٍ مُثْقَلٍ بهذا القدر قط. وبينما الطفلان يستمتعان بوقتتهما، إذ نمرُ بساحل «ديفونشير»، ندخل أنفاقاً تخترق جروفاً حمراء ونخرج منها، حيناً نرى المياه تتلألأ والسماء تسطع والنوارس البيضاء تُحَلِّق، وحيناً تسودنا ظلمة كريهة الرائحة، فكَرْتُ أن حياة النساء في تلك الفترة تتقلّب بالطريقة نفسها. وأمِلْتُ أن تحظى نيكاً الآن، إذ غادرت النفق بوجود إدوارد بين أحضانها، بمدِّ عالٍ من السعادة يُنسيها الجَزَر القادم لا محالة.

عاد إدوارد إلى إنجلترا في هذا اليوم الذي بدأت فيه رحلتنا. وفي اليوم التالي صحبت الطفلين لزيارة الأماكن التي نُقِشت بداخلي. رافقتنا هاجي تشادرتن، الفتاة الجميلة ذات الطبع الجادّ، التي سعدت بوجودها هناك. كانت هادئة، لكن هالة من العمق الرزين تحيط بها. بعد الغداء بدأنا رحلتنا، وقد عزمنا على التجول حتى الغروب لهذا أخذنا معنا بعض الطعام. كان نيكولاس في الخامسة وفيرا في الثالثة، ويجب أن يخلدا للنوم مبكراً. لكنهما في ذلك اليوم كانا يعيشان حدثاً مميّزاً، لهذا نحيت جميع القواعد جانباً.

تمشينا في الغابة بجوار البحيرة نقصد الحاجز الرملي. لقد انسابت هذه العناصر الثلاثة في كياني حتى أصبحوا أجمل ما أراه في العالم، وفي الوقت نفسه الثلاثة الأكثر زخماً بالموت. هنا خبرت سحر الحياة وقصرها. وبينما هاجي أمامي يمस्क كلا الطفلين بيديها، تبعتهما على مهلٍ أستريح بين الفينة والأخرى. وأثقلني التفكير في الأجيال المتعاقبة: إدي رودا وابنه ميرفن، ميرفن وابنه إدوارد، إدوارد وطفليه اللذين يخطوان خطوات قصيرة، وتتردد ضحكاتهم الحادة في هواء الخريف الساكن، وسط أشجار وديعة اكتسبت مسحة حمراء وصفراء.

تركتهما يواصلون تجوالهم، وعندما وصلت إلى مرتفع أستطيع منه رؤية الحاجز الرملي كانوا قد قطعوا منتصفه. رأيت الطفلين يلهوان راكضين مثل مُهرين. يهتف أحدهما بالآخر عندما يلتقطان العجائب من بين الرمال. ويسرعان إلى المحيط ليتوقفا أمام أمواجه التي تلتوي، فتتكسر على الشاطئ مُرسلةً زبدًا أبيض إلى أقدامهم الصغيرة، ثم تبتعد حاملةً الحصى الذي يقعقع كأنه هدير خافت.

كنت أعلم أنهما سيشعران بالتعب قبل حتى أن تنتهي رحلتنا ولا بأس في هذا، فالיום ذكرى لن ينساها أبدًا. وقد كانا مرهقين بالفعل عندما سلطنا طريق العودة في غروب الشمس تحمل هاجي نيكولاس على ظهرها، وفيرا تنير متناقلة وهي تمسك بيدي. وبعدما اتخذنا منعطفًا في الغابة رأيت نيكو وإدوارد قادمين نحونا. خفق قلبي وجمدت في موضعي وهما يتقدمان نحونا. كان إدوارد يرتدي معطفًا وبنطالًا من الصوف. أشفقت من هذا الطيف وانتظرت سماعه يتحدث.

قال: «أنا ربُّ أسرة ويجب أن أبقى مع طفلي». لقد استقلينا أول قطار إلى هنا».

لكن إدوارد لم يمضِ كثيرًا من الوقت مع نيكّا أو الطفلين أو معي. في الجهة المقابلة من البحيرة قام الكوخ الذي عشت فيه مع ويلي، ثم سكنته لوسي وهاجي. والآن بعدما أصبحت تريسانت ملكي فقد حوّلته إلى بيت ضيافة قليل الأثاث، مكث فيه الأصدقاء للترفيه عن أنفسهم. في الصباح التالي لوصول إدوارد سألني المكوث فيه. قال: «يجب أن أكتب الكثير. وأريد البقاء وحدي حيث يمكنني التركيز».

قالت نيكّا: «لكن يا عزيزي، هل ستنفرد بنفسك الآن؟ إنَّ وقتك ضيق».

- أجل، يجب أن أحسن استغلاله.

كان جوابه سريعًا لطيفًا، لكنه أظهر تصميمًا شديدًا. قبلها هي والطفلين وخرج حاملًا حقيبة مستندات يؤرّجح مفتاح الكوخ. هتف: «لن آتي على الغداء فلا تقلقوا بشأني. استمتعوا بيومكم».

استمتع الطفلان باليوم، لكنني ونيكا أمضينا وقتًا عصيبًا. جهّزت ها جي غداء نيكولاس ونيكا في سلّة، وخرج الثلاثة في رحلة بالزورق. هكذا جلسنا وحدنا في المنزل تملؤ التساؤلات ذهننا. لم يوجد ما يمكننا التحدث فيه لأننا نجهل ما يخطّط له إدوارد. ومع مغادرته المفاجئة التي أنذرت بالكثير تسلّل إلينا اضطرابٌ اشتدت حدّته والصباح يمرُّ بطيئًا.

كان الغداء وجبة بائسة. بعدما انتهينا منها قالت نيكّا: «تبدّين متعبة يا عزيزتي. انذهبي للاستلقاء».

كانت نصيحة جيدة أخذت بها ولم أستيقظ حتى الرابعة عصرًا. ثم هبطت الدرج نافذة الصبر لأرى إن كان إدوارد قد عاد. لكنني لم أجده في المنزل واختفت نيكّا بدورها. أخبرني الخدم أنها خرجت لتتمشّي وأرشدوني إلى الطريق الذي اتخذته فذهبتُ للبحث عنها. وجدتُها جالسةً أسفل أشجار الزّان، في البقعة حيث جلست مع ماجي يوم عرفتُ أنها توشك أن تموت. في ذلك اليوم نظرنا في الجهة المقابلة من البحيرة حيث وقفت ها جي وسط الأرض العشبية. الآن نظرت نيكّا في الاتجاه نفسه. كانت ركبتاها مرفوعتين، يستند

إليها مرفقها، وتحيط يداها بذقنها. بدت كأنها تكتف شوقها وعاطفتها كلها كي تلغي المسافة الفاصلة بينها وإدوارد. تذكرت أن ماجي، في جلستي معها هنا، قد قالت إن هروب نيكاً إلى إدوارد يشبه لجوء سبّاح غلبه المحيط إلى حمامات السباحة العامة. ربما كان الأمر في بدايته كما وصفته. لكنني أدركت الآن، إذ أتطلع إلى الشوق المتجسّد في كيانها الساكن، أنّ نيكاً وإدوارد قد بلغا جوهر الزواج؛ ذلك الذي يجعلهما واحداً لا اثنين. بينما أقرب إليها دون أن تسمعنني رأيت إدوارد يخرج من الكوخ ويتمشى على العشب يدخل غليوناً. ودون أن أرى وجهها شعرت بإشراقه. سقطت يداها على جانبيها تضغط العشب براحتيها، كأنها تدفع جسدها إلى من تشتاق إليه. ثم عاد إدوارد إلى الكوخ فانخفض وجهها حزناً لتحضنه يداها مجدداً. كان من المؤسف رؤيتها جالسة هناك، لولا البحيرة الفاصلة لكانت مع حبيبها.

أرحت عظامي العجوز بجوار جسد ابنتي الشاب الرشيق. أحطتها بذراعي وقربتها إليّ. كانت عيناها رطبتين بدموع لم تسقط. قالت: «لا بد أنه جائع». جلسنا طويلاً نشاهد الكوخ، ثم سرنا إلى المنزل ببطء. كان الطفلان في سريريهما، ونحن الاثنين واقفتان مع هاجي على الحصى أمام المنزل، عندما عاد إدوارد بعد الغروب وتحليق الخفافيش. بدا أن معنوياته مرتفعة. وبينما يقترب إلينا قال: «سار الأمر جيداً، أفضل مما توقعت. لكن يلزمني يوم آخر. هل من الممكن أن تخلي سبيلي مدة يوم يا عزيزتي؟». قبّلت نيكاً وقالت باقتضاب: «افعل ما عليك فعله».

مرّ اليوم التالي مثل سابقه. وعندما عاد إدوارد كان مبتهّجاً، كأنه مريض يشعر بالداء يغادر جسده.

قال: «الآن يمكنني أن أخبركم بما فعلت في خلوتي. أودُّ أن أقرأ لكم شيئاً بعد العشاء».

بينما أنا سائرة في درب الحياة راكمت صوراً لا تنسى، من بينها صورة إدوارد وهو يقرأ لنا بعد ذلك الغداء. لقد نفّر من بذلته العسكرية لهذا ارتدى بنطالاً مريحاً قديماً، ومعطفاً من الصوف مرفقاه باليان وتفرقت حروق الغليون في نسيجه. كان المعطف مفتوحاً فظهر أسفله قميص أزرق زاهٍ زرّاه العلويان مفتوحان. جلس تستند إحدى قدميه إلى الأخرى، أسفل مصباح

قائم، في يده صفحات المخطوطة. لقد شاب وجهه في العامين الماضيين. تفرقت شعرات رمادية في رأسه، وعلا شفتيه شارب أسود مُشَدَّب. جلست نيكا أمامه، على بعد بضعة أقدام منه، في مقعد واطئ بلا ظهر. كانت على الحال الذي وجدتھا عليه بجوار البحيرة. أضاء المصباح وجهيھا. أمَّا أنا فتنحيت إلى زاوية في الظل.

قال وهو يُخرج غليونه: «إنھا ليست طويلة وستُطبع في كتيب. عنوانھا: «أليس هذا الفتى ابن النجَّار؟». (أضاف خَجَلًا) إن يسوع كان نجَّارًا ونحن جميعًا، في نهاية المطاف، رعيَّته. على أي حال يجب أن تستمعا إليها». وشرع في القراءة.

لقد أجاد التعبير عما يريد قوله. كان موجَّزًا وهادئًا ودامعًا، يشجب ادِّعاء القادة أنَّ الحرب القائمة تحت عليها تعاليم الدين الذي يعتنقونه. ساد صمت طويل بعدما أنهى إدوارد القراءة، ثم قطعه قائلاً: «سيتلقَّى كل عضو من أعضاء مجلس العموم ومجلس اللوردات نسخة من هذا الكتيب عبر البريد، وسأرسله إلى جميع من أتذكَّر من ذوي النفوذ. وبعد اتخاذي هذا الموقف سأفعل ما يدعّمه؛ سأرفض العودة إلى تلك المذبحة. بالطبع سيرسلونني إلى لجنة طبية كي أخضع لملاحظة طبيب نفسي. وبالطبع سيجد أنني مضطرب العقل. ففي هذه الأيام يُنظر إلى فجر العقل على أنه ظلام الجنون».

نظر إلى نيكا، التي ظلت ساكنة طوال القراءة، يترقب جوابھا. كانت تحدِّق إليه كأنھا تنفذ إلى أعماقه. أثار سكونھا قلقه، فتناول المخطوطة من الطاولة حيث وضعھا وقال: «لا يستطع سوى شخص واحد إيقافني الآن. (ثم أمسك الأوراق كأنه يوشك أن يمزقھا وسأل نيكا) ما رأيكِ؟».

نهضت نيكا، أخذت المخطوطة من يده، وأعادتها إلى الطاولة. قبلته وكرَّرت ما قالت الليلة الماضية: «يا عزيزي، افعل ما عليك فعله».

نهض بدوره، تعانقا لحظات، ثم قال: «يجب أن نعود إلى لندن غدًا».

نظرت نيكاً وإدوارد إلى هذه المسألة نظرة هادئة، لكنني رأيت أنها قد تُسفر عن أي شيء. لم يراودني شكٌ في أنَّ ما عاشه إدوارد يُخوِّله الحق في التعبير عن نفسه كما يشاء، لكن عواقب فعل شيء كهذا يصعب التكهّن بها. في لحظة كتلك وجب علينا أن نتَّحد وأن نؤازر إدوارد العزيز؛ ابن ميرفن وإنيد؛ زوج ابنتي. لهذا اقترحت عليهما أن نمكث جميعاً في ميدان هانوفر عندما يشرع إدوارد في تنفيذ فكرته. وافقاً على اقتراحي، وفي ذلك المساء هاتفنا ميرفن كي نخبره أننا عائدون صباحاً. على أننا سنترك الطفلين في رعاية هاجي.

في اليوم التالي كانت رحلة العودة في زمن الحرب بطيئة. وصلنا إلى لندن متأخراً، ولم نجلس إلى طاولة العشاء في ميدان هانوفر حتى التاسعة مساءً. كانت كاثي في مزاج سيئ. لم تتحلَّ تلك الفتاة بضبط النفس. دائماً ما ارتسم شعورها على وجهها، ليُبهج جُلساءها حيناً ويغمُّهم حيناً. الآن انتابها اكتئاب عميق. لم يصلها خطابٌ من نيجل لانكستر منذ مغادرته. ولمَّا حُرِمَتْ رفقة التي لا تريد سواها جلستُ على طاولة العشاء متباعدةً تتملل. فتَّتْ أصابعها الخبز، عبثت بغطاء المائدة، ومزَّقت بتلات زهرة أخذتها من مزهرية على الطاولة. استرعى حالها انتباهنا كما اعتزمتُ أن تفعل، وأدركنا جميعاً معاناتها. عندما نظرتُ إلى وجهها الغاضب الثائر خشيت قدوم اللحظة حيث سيفصح إدوارد عمّا يدور في ذهنه. لقد أعلمنا أنه سيخبر عائلته بما اعتزم فعله الليلة.

حالما أخذنا أماكننا في غرفة الجلوس نهضت كاثي قائلة: «اسمحوا لي. سأوي إلى الفراش».

سألها إدوارد: «هل يمكنكِ البقاء بضع دقائق؟ يوجد ما أودُّ أن أخبر العائلة به. لقد أخبرت به نيكاً والديتها، ويجب أن تعلموه أيضاً».

جلست كاثي مجدداً بلا لياقة. أخرج إدوارد غليوناً من فمه ودقَّق النظر إلى فوهته. ثم قال: «أمل ألا يراني أيُّ منكم مندفعاً أو أتعجَّل دون رويّة. صدّقوا أنني قد فكرت ملياً فيما سأفعل. إنه فكرة تختمر بداخلي منذ شهور.

أنا لست برجلٍ أرعن. لم أكن يوماً كذلك. ولا مكان للعاطفة فيما سأقول الآن. باختصار، لقد قررت ألا أعود إلى الجبهة. وسأنشر احتجاجاً ضد استمرار الحرب».

ساد الصمت. لم ينطق أحد أو يتحرك حتى قطعت نيكاً الغرفة، جلست على ذراع مقعده، وأحاطت عنقه بذراعاها. نهضت كاثي فوراً واتجهت إلى باب الغرفة. قالت: «سأوي إلى الفراش. يلزمني الهدوء الآن أكثر من أي وقت لأرى كيف سأواجه صديقاتي، اللاتي يؤدي أزواجهن وإخوتهن واجبهن الوطني».

ثم غادرت. انفجرت إنيد المسكينة في البكاء. لا أدري إن كان تبكي جرأً الخزي الذي ستعانيه ابنتها، أم تبكي ألماً وحيرةً على المأزق الذي وقع ابنها فيه. نهضت بدورها فاتجهت نيكاً إليها، أحاطتها بذراعاها، وصحبتها في طريقها إلى الخارج. لكنهما عندما وصلتا إلى الردهة عادت إنيد مُهرولةً لتعانق إدوارد، وقالت باكية: «لقد عانيت كثيراً، كثيراً».

ثم صعدت برفقة نيكاً إلى غرفة النوم.

كان ميرفن قد نهض ووقف يُقابل ظهره المدفأة، ينظر إلى ولده الجالس. علت الجديّة والتعب وجهه. لكنني عندما رفعت رأسي أنظر إلى الرجل الوسيم، ذي الشعر الأشيب والعينين المرهقتين، لم أضطرب. لقد عرفت هذا الوجه طويلاً واستطعت قراءته. والآن رأيت فيه الشجاعة. اتخذ ميرفن خطوة إلى الأمام، ووضع يده على كتف ابنه قائلاً: «أتفهم شعورك جيداً. تبدو تلك الحرب اللعينة كأنها بلا نهاية. لنناقش هذه المسألة يا إدي».

عندئذٍ صعدت إلى غرفتي وتركتهما هناك معاً.

16

لم تغادر كاثي غرفتها لتتناول معنا الإفطار. عندما أنهينا وجبتنا قال إدوارد: «هل من الممكن أن تأتي معي إلى برمندي هذا الصباح يا أمي؟».

فكرت: «دائماً ما يذهبون إلى سالي. عاجلاً أو آجلاً يقصدون بابها». استقلينا عربة يعلوها منطاد غريب من الغاز، الذي استُبدل بالنفط النادر

توفُّره في زمن الحرب، يرتخي ويرتفع وسط النسيم الخريفي. ارتدى إدوارد ثيابه الصوفية، فقد قال: «لن أرتدي تلك البذلة العسكرية مجددًا أبدًا، حتى إن لزم عرضي أمام اللجنة الطبية. إن أرادوا أن أرتديها فسيُضطرون إلى أن يخلعوا عني ثيابي وإلباسي إياها قسرًا».

ابتسم عندما تخيَّل تلك الصورة، وسرَّني أنه لا يزال يستطيع الابتسام. لقد زال عن وجهه الاضطراب الذي علاه في أثناء إجازته السابقة. وعاد إلى ذاته البسيطة الجديرة بالثقة. ربما سيدعونه مجنونًا كما قال، لكنه بلا شك أصبح أكثر تعقلًا مما كان منذ وقت طويل. بدا أن الحديث عن قراره قد أعاد ذهنه إلى طريق الرُّشد الذي حاد عنه، مثلما أوضحت خطاباته الأخيرة. واستطاع النظر إلى الأمور نظرة بعيدة المدى. إنَّ هذا هو جوهر سلامة العقل في نظري.

لقد أخبرته نيكاً عن نيجل لانكستر، لهذا كان يدرك ما تعانيه كاثي. طرح عليَّ بضعة أسئلة عن الفتى فأخبرته كل ما أعرفه عنه، باستثناء نوبات الغضب وفجوات الذاكرة التي أسرها نيجل إليَّ. قال: «يا لكاثي من مسكينة! دائماً ما تجذب المعاناة إلى حياتها».

قابلنا سالي في الشارع، لكن إدوارد لم يعرفها. لا أظن أنه رآها طوال حياته سوى مرتين أو ثلاث. لكنها ظلَّت مصونةً في قلب والده. لهذا أصبح اسمها مألوفًا لدى جميع أبناء ميرفن.

كانت قد مرَّت بنا عندما أوقفتُ العربة. لفَّ وشاح قديم رأسها وعقدته بدبوس أسفل ذقنها. على الرصيف طُفِق حذاؤها الطويل، الذي تملأ نعله المسامير لتزيده متانةً ودوامًا. وكانت تحمل سلَّة التسوق على ذراعها. هتفت بها فعاتت، واتجهنا معًا إلى بيتها.

قالت: «كنت ذاهبة لأرى إن كان لدى القَصَّاب بعض مخلفات الذبائح، لكن هذا يمكنه الانتظار. إنَّ القَصَّاب على كل حال لا يستلطفني هذه الأيام».

قدَّمت إدوارد إليها فصافحته دون كلمة، لكن نفسها وسَّعته مثل الجميع باختلاف مكانتهم. لو أتى الملك إلى برميندزي مُهتَّمًا بما تفعله هناك لقابلته بالطريقة نفسها.

اجتزنا باب منزلها وجلسنا في مطبخها. سألتها: «كيف أثرت استياء القَصَّاب يا سالي؟».

- هذه نتيجة خلاف الأهالي مع واريك راسل الأسبوع الماضي. لكنني لا أظن أنك سمعتِ بالأمر. إنَّ الخلافات في تلك الفترة كثيرة فلا أعتقد أن هذا سيُحدث ضجة.

كنت أعلم أن واريك راسل، عندما اندلعت الحرب، قد أبدى احتجاجه في مجلس العموم. وترك منصبه لأنه يرفض دعم سياسات المجلس. كنت أعمل أيضًا أن كثيرين ممن كرَّس حياتهم لخدمتهم، في هستيريا ذلك الوقت، قد انقلبوا ضده. لكنه ظلَّ في برميندزي يعمل من أجل من يحتاجون إليه.

الآن اتضح مما قالته سالي أنه حضر لقاءً جماهيريًا، شقَّ طريقه إلى المنصة، وعبر بقوة عن رأيه في الحرب الذي يعلمه الجميع. صرخ الجمهور فيه وأساؤوا إليه، وتبعه حشد منهم إلى منزله.

قالت سالي: «علمت بالفوضى فذهبت لأرى ما يدور. رأيته واقفًا عند عتبة باب منزله يواجههم، لكنه لا يقول شيئًا. كان صامدًا أمامهم والنوافذ تتهشم حوله. ذهبت ووقفت بجواره، وشبَّكت ذراعي بذراعه. لا بد أننا شابهنما زوجًا من الحمقى. ورغم ثقتنا أنَّ أيًا منهم لن يصوب سهمه نحونا، نحن القديسان في نظرهما، فقد مررنا بلحظة عصبية، بخاصة عندما ضرب حجرٌ نافذة الباب الزجاجية فوق رأسينا».

لحظت أن إدوارد كان مدهوشًا حتى إنه لم يستطع الكلام. لقد سمع كثيرًا عن مآثر سالي جايلورد، وربما جاء متأهبًا لخيبة الأمل. لكنه وجد ما يؤكد الصورة في خياله وسمع ما يريد سماعه.

كانت شظايا الزجاج لا تزال متناثرة خارج منزل واريك راسل. سرعان ما سرنا ندهسها في طريقنا إلى الغرفة الكئيبة حيث قابلته سالي، قبل أعوام طويلة، عندما أحضرت القط الذي أصابه توم تشادرتن.

جلسنا هادئين والطبيب راسل يقرأ ما كتبه إدوارد، ثم قال بإيجاز: «هذا جيد. وافٍ وبلا إطناب. هل أنت مستعد لتمضي قدمًا في هذه المسألة؟ أنا لا أنشغل بالمتذبذبين».

أجابه إدوارد: «أجل».

- حسنًا، لقد جئت إلى المكان المناسب. كان بحثك ليطول قبل أن تعثر على من يقبل طباعة هذه الكلمات. لكنني أعرف رجلًا سيقبل أداء تلك المهمة. اترك الأوراق معي.

كان اللقاء قصيرًا وعمليًا. رافقنا واريك راسل إلى الباب يحمل مكنسة ويقول: «يجب أن أكنس تلك الفوضى وإلا فسيأتي الأضياء الحُفاة إلى عيادتي بأقدامٍ مصابة بجروح ملوثة. إلى اللقاء يا ماري». قلت ونحن نبتعد: «إذن لا تزالين ماري».

- ما أهمية من أكون؟ لقد أصبح راسل المسكين يُضطر إلى المجيء إلى بيتي لتناول الطعام، إذ لا توجد امرأة تجرؤ على دخول منزله للاعتناء بشؤونه. تودُّ الكثيرات خدمته، لكنهن يخشين ردَّ فعل الأهالي. في هذا الحيّ تعيش امرأة حصل ابنها على الميدالية العسكرية. فتى قويم السلوك اتجه إلى «دارتمور» في بداية الحرب، وعلى الأرجح أنه سيعود عندما تنتهي. وفي غيابه تفرض علينا والدته المعايير الأخلاقية الخاصة بها. إن سنحت لها الفرصة فستقتلع عيني واريك. لهذا فإنني أفعل ما يمكنني من أجله.

سألتها متفاجئة: «أين بولي؟».

- لقد غادرت. ومن يجرؤ على لومها؟ إنَّ النساء يحتملن الكثير، لكن الكيل يفيض. وعلى القديسين عدم الزواج. تبدين مصدومة.

- لكن...

- لكن هكذا هي الحياة.

17

في ذلك اليوم استلمت كاثرين خطابًا من نيجل. على العشاء قرأت لنا فقرات منه، تضمّنت ما يتوقعه المرء من فتى مقعم بالحماس لا يعرف شيئًا عن الحرب. لحظتُ لمعان عينيها فتأكد لي أن ما أخفته عنا أرضاها. لقد تلقينا مثل تلك الخطابات من إدوارد في بداية خدمته العسكرية. على الأرجح أن

إدوارد أدرك فحواه، بصفته ضابطاً تولّى مراقبة الخطابات، ولم يُعلّق على ما سمع. ومع أن وصول الخطاب لم يُلطّف من غضب كاثيري من شقيقتها فقد أزال بعضاً من انقباض أساريها.

الآن فاقها إدوارد تملّلاً. لقد أتمّ الخطوة الأولى ممّا اعتزم فعله. ولم يشغله سوى انتظار أن يرسل واريك راسل الكتيب المطبوع. لكنه وكاثيري تجادلا بضع مرات. نطق أحدهما بكلمة تبعها ردّ حادّ من الآخر. هكذا ساد التوتر اليوم الأخير في إجازة إدوارد، الذي سيستقلّ القطار في الصباح الباكر. في ذلك اليوم وصلت حزمة الكتيبات المطبوعة إلى ميدان هانوفر. وضع إدوارد عددًا منها على طاولة الغداء.

قال: «ربما تنفعكم قراءة هذه الكلمات. عندما أودع السجن أو مستشفى الأمراض العقلية، أو أيّاً كان ما سيقيدونني إليه، قد ترغبون في معرفة ما يُعد جريمة أو جنوناً في هذه الأيام».

أخذ كل منا نسخة باستثناء كاثيري. لم تقل شيئاً. ثبتت نظرها على طبقها ولم تأخذ الكتيب الذي مدّ إدوارد يده يعطيه لها.

بعد الظهيرة دعوتها لتناول الشاي معي. حاولت للمرة الأخيرة أن أجعلها ترى معقولة ما يفعله إدوارد. ذكّرتها بالتجربة المروّعة الطويلة التي عاشها. فقالت: «أعتقد أنها سلبته عقله». لكنني واصلت المحاولة ولم أياس، حتى أجابني قائلة: «لنواجه الحقيقة حبّاً بالرب! إنه مذعور. حالما ينشر كتيّبه النفيس -إن جرؤ على فعل ذلك- فلن أستطيع رفع رأسي عاليًا مجددًا».

عندئذٍ أدركت أن لا جدوى من المحاولة، ورقّ قلبي لحالها. كانت الآنسة الحسناء موستن-لويد من أكثر من عرفت فقرًا؛ ظلّت طوال حياتها تتمسك بالهواء. ولأن روحها خاوية فقد قبضت بإحكام على ما أوهمتها اللحظة بأنها ستمتلي به، أيّاً كان. الآن أصبح نيجل لانكستر هو المنشود. في كل صباح منذ مغادرة الفتى كانت تنتزع جريدة «تايمز»، وتطالع قوائم الجنود الموتى بعينين نديتين في مشهدٍ يفطر القلوب. لقد تبدّل الزمان. لم تعد قراءة جريدة «تايمز» من عادات الآباء على موائد الإفطار كما عرفتُها يومًا. الآن أصبحت تجتذب الابنات المحزونات.

على أننا لم نقرأ ذلك الخبر في الجريدة. بل قدمت خادمة إلى الصالون في نهاية حديثنا تحمل خطابًا. كان مُرسلاً من فرنسا لهذا أشرق وجه كاثيري. لكنني لاحظت أنها تكفهرُ إذ لم ترَ خطَّ يد نيجل لانكستر. عندما أنهت قراءته نهضت، ووقفت في يدها الخطاب تتطلع بعينين جامدتين إلى أسطح لندن ومداخلها. لكنها بالطبع لم تكن تراهم. ثم سقط الخطاب أرضاً، وغادرتُ الغرفة دون كلمة.

انتظرتُ قليلاً قبل أن أرفع الخطاب من الأرض. لكن لم يلزمني قراءته لأنني علمتُ مضمونه بالفعل. لقد أعطى نيجل الرائد إليوت عنوان كاثيري، وطلب منه أن يرسلها إن «حدث شيء». والآن قد حدث الشيء، وها هو الخطاب، بهذه البساطة. في اليوم التالي قرأتُ اسم الرائد إليوت في قائمة الموتى. وهكذا كانت حياتنا في تلك الأيام: ينعي الموتى من سبقوهم إلى الموت.

لكننا الآن لا نزال في عصر اليوم الأخير من إجازة إدوارد، إذ هبطتُ بالمصعد إلى المنزل وأخبرت العائلة بما حدث. غادر إدوارد كي يُبلغ والده الخبر. صعدتُ إنيد ونيكا إلى غرفة كاثيري، لكن بابها كان مقفلاً. لم يصدر عنها أي صوت، لا نحيب أو جواب لطرق الباب. ثم عادتا باكيتين. كم كثر البكاء في تلك الأيام! سألت الدموع أنهاراً تكفي لأن تُثمر جميع حقول الحياة. لكنها ذهبت هباءً مثل ماء النافورات في قصر الكريستال.

عاد ميرفن شاحباً مصدوماً ولم يكن إدوارد معه، لكنه لم ينتبه لغياب ابنه. صعد الدرج مسرعاً وهتف بكاثي، ثم نزله ببطء. وساد الصمت غرفتها بضع ساعات.

اعتادت العائلة العشاء في الثامنة، ولم يأت إدوارد قبل السابعة والنصف. انمحي من وجهه التصميم وغابت عنه السكينة. بدا مُنهكاً. لم يقل سوى: «كنت أركض». ثم صعد بدوره إلى الغرفة الصامتة وطرق بابها قائلاً: «كاثيري، هل ستتناولين معنا العشاء أم نرسل إليك الطعام هنا؟».

أجابته: «أنا قادمة».

وقد نزلتُ الدرج في كامل أناقتها كما لم يكن أيُّ منا. حاولنا مدَّ جسرٍ إليها، لكن أسوار العزلة التي أحاطت بها نفسها أصبحت شاهقة. كانت جامدة. لقد جمدتُ قلبها تلك الفاجعة التي أذابت قلوبنا. لم ينطق أحد منا بشعوره ولم

يلزم البوح به. كنا جميعًا بجوارها نؤازرها، لكنها رفضتنا. لقد شابه اجتماعنا لتلك الوجبة مشهدًا مزعجًا من مسرحية مريضة. عندما رُفعت المائدة أشعل إدوارد غليونه لكنه لم يعمل. على رفّ المدفأة قامت مزهرية تملؤها مُنظّفات الغليونات؛ تلك الحزم من الأعواد المعقودة بأشرطة ورقية. نهضت كاثي وأحضرت حزمة منها إلى الطاولة. مزقت الشريط الورقي وبسطت الأعواد بجوار طبقها. كانت ألوانها متنوعة. نحّت الأعواد المبرقشة والزاهية جانبًا. ثم تناولت عودًا أبيض ومدّت يدها تعطيه لإدوارد.

عندئذٍ هبّت نيكًا واقفة ومدّت يدها لتصفع كاثي. لكن إدوارد الجالس بينهما أمسك بيدها قائلاً: «لا. لا».

ثم نهض ليغادر الغرفة، وجالت الدموع في الأعين. بكينا نحن النساء الأربع، ولم يستطع ميرفن سوى تهدئتنا ببضع كلمات خافتة. وإنني أتساءل: ما الذي كان يستطيع أي شخص فعله حينئذٍ سوى ترك الجنون يجري مجراه؟ لقد عاد إدوارد يرتدي بذلته العسكرية. فلم يستطع أيُّ منا الكلام سوى كاثي. قالت: «شكرًا لك».

بعد أسبوع تلقت نيكًا برقية تعلن موت إدوارد.

الفصل السابع والعشرون

1

في صيف عام 1924 اصطحبت حفيدي نيكولاس إلى حديقة الحيوان، وهو ما ثقل عليّ فعله. كرهت ذلك السجن الكبير، لكن الفتى أراد زيارته في بداية عطلته المدرسية قبل سفرنا إلى تريسانت. لقد سبقتنا نيكّا إلى هناك مع ابنتها فيرا، التي مرضت وتماثل للشفاء، على أن نلحق بهما قريبًا. هكذا أغلق منزل «سانت جونز وُد»، ومكث الفتى معي أنا وميرفن في ميدان هانوفر. لم يكن في البيت سوانا نحن الثلاثة. لم نعلم أين كانت كاثر بالضببط. اعتادت أن تخبرنا بوجهتها السابقة أو التالية فقط. ذات مرة استلمنا بطاقة بريدية من مكان ما في جنوب فرنسا تقول فيها: «لقد وصل فريدي في يخته البخاري. سنبحر معه أنا وفلاس إلى بحر «إيجه»». لم تذكر فلاس من قبل، وعلى الأرجح أنها لن تذكرها مجددًا. ثم يصل إلينا خطاب من «الأقصر»، أو أي مدينة غيرها، فتتبدّل صُحبته ونسمع بأسماء جديدة. كانت صوفي في شمال إنجلترا تعمل ممرضة في مستشفى كبير. وقد رحلت إنيد. منذ بضع سنوات. لم تكن حيّة حقًا منذ رحيل إدوارد. ساد علاقتها بكاثي توتر شديد، تفاقمته شدّته لأن كلاً منهما حاولت جاهدة تفادي القطيعة التي رأيتها واقعةً لا محالة. لقد حان موعدها عندما صاحت كاثر قائلة: «يجب أن تشكريني لأنني أنقذته من الخزي». منذ ذلك اليوم لم تتحدث إنيد إلى ابنتها. وكدّر

الأعوام التالية بؤس لا أريد الإسهاب في وصفه. لكنه انتهى بوباء الإنفلونزا الذي اجتاح العالم الشقي في نهاية الحرب. حينئذ لم تعد إنيد تقوى على مجابهة الحياة، ورحلت خلال بضعة أيام.

وها أنا جالسة مع الفتى الذي سيبلغ الثالثة عشرة الخريف القادم. كان نسخة من والده: أسمر البشرة قويّ البنية، يرتدي قميصاً أحمر وسروالاً قصيراً قطنياً. كنا نشاهد دُبّاً قطبياً يذرع قفصه جيئةً وذهاباً في مشهد كئيب: يأخذ بضع خطوات في اتجاه، يرمي برأسه إلى الوراء، ثم يعود إلى السير في الاتجاه المعاكس. هكذا تلو أخرى بلا هوادة، على نحو يثير الجنون. سمعت صوتاً خلفنا يقول: «لقد شابهتُ هذا الدُبَّ في نهاية أحد الأيام حتى أصابني الدوار». التفتُ فأردف الرجل: «أعتذر عن إزعاجكِ يا سيدة أندريدج. ألا تتذكريني؟». بدا لي مألوفاً. وبينما أدقق النظر في وجهه قال: «أنا هنري شيب».

بالطبع كان هنري شيب! لكنه تقدّم في العمر، بدا مُتعباً ومُعوزاً: كانت ثيابه قديمة، وحذاءه مُهترئاً، وكُمّا معطفه باليين. أتذكره شاباً هادئاً يتحدث في نطاق وظيفته فقط، وطالما قابلني ظهره العريض ومعطفه العمليّ. مددت يدي لأصافحه، فصافحني متفاجئاً بأنني مددتها إليه. استنتجت من ارتبাকে أنه ليس معتاداً على ترحيب الناس به. عندئذٍ تذكرت أنني أنا عجوز اليوم، قبل أعوام وأعوام، كنت طفلة أمسك بيد ويلي تنتزّه معاً، ومنحتُ الرجال الجالسين أسفل قضبان «هايد بارك» النقود، أولئك الرجال الذين فقدوا ذراعاً أو ساقاً، أو غطّت رُقع سوداء تجاويف أعينهم الفارغة؛ أولئك الرجال العائدين من حرب القرم. الرجال العائدين من الحرب...

سألته: «هل أنت جائع؟».

أجابني باقتضاب: «أجل».

قال نيكولاس: «وأنا أيضاً».

عندئذٍ ابتسم هنري شيب ابتسامة مُتعبة مؤلمة. ثم صحبتُ وريث عائلة موستن-لويد وسائقنا السابق الجائعين إلى المقهى. كان نيكولاس جائعاً، لكنه أحسن التصرف واهتم بضيقنا.

بعدما أنهينا طعامنا سألني هنري: «أتمانعين إن دُخنت؟».

منحته الإذن فأخرج من جيبه كيسًا. أفرغ بحذر نزرًا من التبغ في راحة يده. ثم وضعه في غليونه.

قال نيكولاس: «يدخن جدِّي تبغ «جون كوتن». ما النوع الذي تدخنه؟». الآن كنا قد خرجنا إلى الهواء الطلق مجددًا وجلسنا في أحد المقاعد. أجابه هنري: «لا أعلم. لكنه جيد».

لم يستغرق تدخين تلك الكمية الضئيلة الكثير. وبعدها انتهى منها نهض قائلاً: «أشكرك يا سيدة أندريدج. كان هذا من بالغ لطفك. يجب أن أرحل الآن». لكنني لم أقبل برحيله. أردت أن أعلم ماذا حلَّ بهنري شيب في الأعوام التي تلت لقاءنا الأخير به. بدا واضحًا أن حاله ليس جيدًا، وأنه ليس من الرجال الذين يَرثون ذاتهم كلما أحسن إليهم أحد. ورغم أنه لم يقل إن التبغ الذي دخَّنه هو أعقاب السجائر فقد خَمَّنت ذلك.

قلت: «يسرُّني يا سيد شيب أن تتناول الغداء معي قريبًا. هل الغد يناسبك؟». قال إن الغد مناسب فأعطيته عنواني. وفي اليوم التالي أتى إلى «مقصورة الاعتراف» الخاصة بي. هكذا دعت صوفيا وكاثي تلك الشقة الصغيرة التي عشت فيها، رغم أن كاثي قلَّما اعترفت بمكنون قلبها. كان هنري يرتدي بذلة رمادية مختلفة ولم يكن حذاؤه مهترئًا. قلت في نفسي: «هذا زِيُّ البحث عن عمل»⁽¹⁾.

منذ انتهاء الحرب اعتدتُ حِيلَ الجنود الذين أصبحوا أبطالًا قوميين، لكن العامة سرعان ما ضجروا منهم. لقد سمعت من يقول عنهم: «ليتهم لا يتقلَّدون ميدالياتهم! إنَّ بعضَهم يطرقون الأبواب واضعين الشرائط التي حازوها والميداليات أيضًا. أعتقد أن احترام الذات يتنافى مع محاولة التبرُّج من واجبٍ لزم المرء تأديته».

بعد الغداء قدمت له صندوق التبغ الذي جلبته من مكتب ميرفن. سألته: «إن تقلَّدتَ الميداليات التي حزتها، فماذا عساها أن تكون؟».

(1) بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى قررت الحكومة البريطانية المثقلة بديون الحرب تقديم معاشات الحرب تبعًا لمستوى الإعاقة. لم تتولَّ الدولة خلق فرص العمل أو إعداد برامج تدريبية للجنود ذوي الإعاقات. واعتمدت رئيسيًا على الجهود التطوعية لتوظيف الجنود السابقين المعاقين. م

نظر إليّ بارتياب. وبدا أنه لم يكن في مزاج للكلام اليوم. لكنه قال أخيرًا: «الزوج المعتاد: «ميدالية الخدمة العامة» و«ميدالية النصر». يمكن أن ينال الضباط «وسام الخدمة المتميزة» و«ميدالية الصليب العسكري» أيضًا. لكنني لم أتل أيًا منهما».

كان مغلقًا على نفسه، لكن الهدوء والسكينة أثبتا جدارتهما كما يحدث عادةً. وبحلول الساعة الرابعة، إذ نتناول الشاي، اطمأنّ لي وأخبرني بقصته. عندما كان يعمل لدينا أنا ودانيل أحبّ سوزي، وحلم بأن يشاركها الحياة في شقّة فوق ورشة لتصليح السيارات سيفتتحها لنفسه. ظلّت سوزي مُخلصة له حتى عام 1916. ثم اكتشفت أن أي فتاة تريد المتعة قد تنالها مع الجنود الظّماء للحياة. هكذا أصبحت سوزي تعيش مع طفلين غير شرعيين في «ليستر»، وقضت على حلم هنري بافتتاح ورشته على الطريق الرئيس «جريت نورث رود».

استنتجتُ من حديثه أنه كان جنديًا ذكيًا أمينًا. علمت أنه ترقّى ضابطًا عام 1915. وأصبح رائدًا في عام 1917، لكنه وقع في الأسر قبل انقضاء ربيع ذلك العام. أمضى ثمانية عشر شهرًا في ألمانيا. ولم يكن أحمق، وفقًا لتعبيره، ليحاول الفرار.

- كانت أيامًا بائسة، لكن المرء يطبق احتمالاتها. لقد أدركت أنني لن أحظى مجددًا بفرصة كترك للدراسة.

سألته ماذا كان يدرس فقال: «الرياضيات والميكانيكا على نحو رئيس. إنني أعبت بمحركات السيارات منذ صباي. وقد علمتني التجربة والممارسة تصليحهم. لكنني أردت دراستهم علميًا. (أضاف في تواضع) لقد اكتشفت أنني موهوبًا في التعامل مع هذه الأشياء. بدأت دراسة محركات الطائرات والمبادئ العامة لصنعها. إنها عملية مُعقدة. وبالطبع اكتسبت بعض المعرفة العملية من الجنود الألمان.

- يبدو أنك لم تهدر وقتك.

- ربما. لكنه علم لا يجدي نفعًا في بيع المكنسات الكهربائية والورق. ألقيت عليه نظرة سريعة من فوق كوب الشاي: رجل متوسط البنية شعره بني، في بداية العقد الثالث من عمره، ذو أنف مستقيم وذقن بارز. يتسم وجهه

بالجدية والعملية. لكن القلق علاه الآن، وسيستحيل هلعًا بمرور الوقت. على أنه لم يسألني شيئًا. لم يكن من الرجال الذين قد يسألون الغير أي شيء. كان واحدًا من آلاف من أدوا مهمة قد انتهت، فأهملوا مثل جنود حرب القرم الذين افترشوا الأرصفة في طفولتي. قد يسوء حاله شيئًا فشيئًا، أو قد يتحسن سريعًا إن مُنح الفرصة. شعرت تجاهه بمسؤولية كبيرة لا يمكنني التملص منها.

قلت: «سأذهب الأسبوع القادم إلى كورنوال مع حفيدي، ذلك الفتى الذي رأيته معي بالأمس. هل يمكنك أن توصلنا إلى هناك؟ ستحظى ببعض التغيير، ولا ضير من أن تأخذ إجازة. يمكنك البقاء معنا حتى نعود. سنمكث شهرًا تقريبًا».

قيلَ عرضي بلا تردد مثلما قد يقبل العودة إلى أرض الخراب مجددًا. قال: «يسرني هذا. يسرني أن أعود إلى إيصالك حيثما تريد يا سيدة أندريدج. لقد مرَّ وقت طويل منذ أن وضعت يدي على عجلة قيادة».

2

بعدما غادر أخذت بطاقة الدعوة من رفّ المدفأة حيث كُتب: «حفلة كوكتيل من السادسة إلى الثامنة مساءً». لقد بدأنا «عصر الجنّ». لكن ذلك العصر لم يعجبني، ولم أكن لأتظاهر بنقيض ما أشعر، ورأيت أن الشراب الملائم لأن يصبح رمزًا له هو الخمر الرديء. كان الجنّ عاديًا؛ لا يتطلب خبرة بالشراب أو ذوق رفيع، ولا تستمتع بتجربة تناوله مثل النبيذ. بل تلتقط كأسًا وتجرعه. وتقيم حفلة كوكتيل تُقدّم فيها إلى المدعوين مختلف الكوكتيلات التي يُشكّل الجنّ مُكوّناتها الرئيس، بدلًا من العناية بترفيهم كما سبق. في تلك الحفلات يعلو الضجيج وتكثر الثرثرات بدلًا من أن يتجاذب الحضور أطراف الحديث ويستمتع أحدهم إلى الآخر. وإن كنت ضيفًا فعليك أن تُظهر الاحترام لمضيفك بإخفاء رغبتك في «الرحيل إلى أي مكان بعيد عن هنا».

حضر جوليان تلك الحفلة لأنها أُقيمت احتفالًا بافتتاح معرض «ريميل» في شارع بوند. وبصفتي مُمولّته فقد لزمّني توفير المال لإقامة هذه الحفلة.

والمفارقة الساخرة أنني من تحمّل تكلفة ذلك الجن. لكن تلك الأموال ستعود أضعافًا. لقد بدأ تدفق الكنوز الأوروبية إلى أمريكا، رغم أننا لم ندرك هذه الحقيقة حينئذٍ. وسيلقى المعرض رواجًا مدة أربعة أعوام حتى تضرب رياح الكساد الباردة أمريكا وتجمّد السيل الذهبي. لقد سافر فورنييه إلى هذا البلد. هكذا جُنّد ذلك الشاب الرائع الذي يشبه النبلاء لصالح المعرض.

من العلامات التي ميّزت ذلك العصر أن كاثيري موستن-لويد كانت تخبر جوليان ريميل بممتلكات أصدقائها التي قد تروقه. هل يعلم أن والد تيدي تيزدايل يمتلك إحدى لوحات ميندرت هوبما، والآن بعد موته يرغب ابنه في بيعها؟ ثم تحصل على عمولة مقابل نظرتها العملية إلى تصفية أصدقائها بممتلكاتهم.

على أنني لم أذهب إلى شارع بوند حتى اقتربت الحفلة إلى نهايتها. تحدثت إلى قلّة من الحضور وانتظرت حتى غادر الجميع. ثم صعدت أنا ودانيل إلى شقته التي تعلو المعرض، وتتضمن غرفة للجلوس وأخرى للنوم، ومطبخًا ومرحاضًا. كان خادم نفسه وطاهي وجباتها. تسلّى بالطهو وأبدع فيه. قادني إلى مقعد، ساعدني على الجلوس فيه، وقال: «انتظري لحظات وسنأكل معًا».

كانت الغرفة جميلة قليلة الأثاث، تحوي أغراضًا لم يستطع جوليان بيعها. طُليت الجدران باللون الوردي الفاتح، وكسا الأرضية بساط رمادي يشبه لون جناح النورس الفضي. كانت المقاعد على الطراز الجورجي، مُنّجة بأقمشة عصرية جميلة مطرّزة بغرّز دقيقة. علّقت لوحات فرنسية حديثة نوعًا ما، تصوّر خيولًا تخوض سباق رسمها إدجار ديجا، وشارعًا في قرية من شوارع موريس أوتريو، وأشجارًا وبركًا رآها مونييه؛ وواحدة من نساء أميديو موديليانى الطويلات، وأشياء من هذا القبيل. رأيت بضعة تماثيل برونزية للنحات أوجست رودان، وواحدًا من أعمال جيكونب إيبستين. امتلأت خزانة بمجسمات خزفية. وفوق رفّ المدفأة الرخامي وُضعت مرآة بديعة على الطراز الصيني.

تكوّنت الوجبة من صدور الدجاج ورقائق البطاطا، والكريب الذي جلبه إلى الطاولة يرتفع منه لهب أزرق، وزجاجة نبيذ «شاتو لاروز». قدّم أيضًا جبن «وينزليدايل» والقهوة وشراب «أرمانياك». ولأنه رجل مُرتّب فقد ذهب إلى المطبخ لغسل الأواني قبل أن يعود إلى الجلوس معي. أسهبنا في

الحديث حتى الحادية عشرة في أجواء هادئة، إذ لا ينير الغرفة سوى اللمبات الأسطوانية المثبتة فوق بعض اللوحات.

سألني: «ما رأيك في لوحاتي؟».

- تروقني كثيرًا.

- أنت امرأة رائعة. لكن يجب ألا يروقك مثل ذلك الطراز من الفن في السادسة والسبعين.

- من أخبرك أنني في السادسة والسبعين؟

- إنني أعلم كل شيء عنك! كان من المفترض أن يعلّق ذوقك عند أعمال السير لورينس ألما تديما، الذي تُعدُّ لوحاته الآن قديمة الطراز. إنني أرى أنَّ في درب الحياة توجد نقطة، عندما يبلغها المرء فإنه يحجم عن مواصلة السير. هذه اللوحات التي تحيط بنا تُشكّل هذه النقطة في حياتي. لقد حان الوقت لأن تأوي إلى الفراش.

خرجنا إلى الشارع. وبينما نحن واقفان ننتظر سيارة أجرة مرّت بنا فتاة أنيقة، تقود كلبًا لجامه جلديّ أحمر، وتتهادى في مشيتها. وصفها جوليان قائلاً: «لوحة بتوقيع تولوز لوتريك». فتساءلت إن كان يرى جميع النساء لوحات.

أوصلني إلى باب المنزل وقال إنه سيعود إلى بيته سيرًا. ثم أمسك بيدي طويلاً وقال: «ستسير الأمور على ما يُرام. أنا واثق من ذلك. هل يلزمك شكري؟».

- قليلاً.

- إذن اعلمي أنني ممتن لك دائماً. حفظك الرب.

3

في شهر مارس من عام 1924 تناولت الإفطار مع ميرفن في صباح يوم ميلاده. في السابعة والستين كان طويلاً نحيلًا أشيب. عندما دخلت غرفة الطعام وجدته واقفًا أمام المدفأة يقرأ جريدة «تايمز». كان يرتدي مبدلاً وخُفًا. مازحته قائلة: «يا للمظهر غير الرسمي يا حضرة كبير التجار!».

- يحقُّ لكبير التجار أن يسترخي. ويمكن للعمل أن يسير في غيابي اليوم. ثم قصد النافذة وتطلع إلى الأشجار العارية في الخارج، حيث انتشر الصقيع وظهرت شمس لندن وسط الضباب. ثم عاد إلى الغرفة، ألقى بالجريدة وقال: «أنا أشعر بالوحدة. ما أوسع هذا المنزل لنعيش فيه نحن الاثنان فقط! ثم إننا نسكن في قسمين منفصلين منه».

بُسطت طاولة الإفطار فجلسنا إليها. قلت: «أتفهم شعورك. بعد السنتين لا ينبغي للمرء الاحتفال بعيد ميلاده».

- خلال الأعوام التي أمضيتها في «إيتون» اعتدت أن أُحدِّد هذا اليوم في الروزنامة وأبتهج باقترابه. ذات مرة أخبرني إدوارد أنه كان يفعل الشيء نفسه في فرنسا، والحرب قائمة، حالما يتحدد موعد إجازته. كانت تلك الأيام تقود إلى السعادة. لكنها الآن تشبه أوراق أشجار تتساقط. أشعر أن الشجرة العارية في طريقها إلى الزوال.

- لا تجترِّ الكآبة. لقد اشتريت من أجلك أزرار الأكمام هديةً.

- ما أريده منك يفوق أزرار الأكمام. أريد أن نخوض حديثًا طويلًا عن نشأتي. إنني مُستغرق في الذكريات. في الفترة الأخيرة تدور في ذهني أمور غريبة: أفكر في أخيك جاستن والأنسة ويل، وسالي وتلك المرأة التي أدارت منزل التجمُّع حيث عاشت.

وبَّخته قائلة: «تدعوها «تلك المرأة»! يا له من أسلوب لائق في الحديث عن دام دوروثي ديويرست! لا تنسَ أنها واحدة من أبرز من مُنحوا حقَّ الإقامة الدائمة في هذه الإمبراطورية. هل أخبرتك أنني قابلتها قبل عام تقريبًا؟

- لا.

- أقيم حفل تكريمٍ لها بعدما حصلت على لقب «دام». وقد تحصَّلتُ على دعوة لأرى كيف أصبحت. حضر الحفل المُفكِّرون والكتَّاب اللامعون، أمثال السيد ويبزي. وبدت ملكةً يا عزيزي. لا أجد كلمة أخرى يمكنني وصفها بها. كانت وقورًا، زادهـا الشيب هيبَّة. فيشعر المرء أن من واجبه تقبيل يدها تبجيلًا، إن سمحت له بنيل هذا الشرف. لقد حظيتُ ببضع دقائق من وقتها أمضت معظمها تحاول أن تتذكَّرني. سألتني بلطفٍ

عن سالي. وبعدها أجبته علا الأسف وجهها العريض السمين الذي تغطّيه البودرة، ولم تقل سوى: «يا للخسارة! يا للخسارة!». وكأنّ سالي مسكينة لأن اسمها لم يُذكر في دليل الشخصيات البارزة ولم تصبح موضع ثقة اللجان الملكيّة. سرعان ما أدركت أن تلك المرأة مزهوّة بنفسها. وعندما أوشكت أن ألّقنها درسًا في التواضع أتى وبيزي فتركت أحدهما للآخر.

- من المنطقي أن تشعر بالفوقيّة. ولا شك أن ذلك الحفل عزّز شعورها ذاك. قد يختلف رأينا بشأنها، لكننا نتفق أنها بلغت قمّة ما تسعى إليه. يُعد هذا إنجازًا. وقد شكّت طريقها بنفسها، على النقيض مني أنا الذي نال كل شيء على طبق من فضة. كيف حدث هذا؟ إنني لا أعلم الكثير عن نشأتي.

هكذا أخذنا في الحديث عن تريسانت والأيام الخوالي. أجببت كل الأسئلة التي طرحها عليّ. وفي تلك الليلة، في شقّتي، ازدحم رأسي بالماضي الذي أزلنا عنه الغبار. لقد ازداد وضوحًا بعدما أعدت سرده، وقررت تدوينه كاملاً. هكذا بدأت رحلتي مع هذا الكتاب، الذي سأتركه لجوليان ريمل ذات يوم ليفعل به ما يشاء.

4

كانت زيارتي الأولى إلى تريسانت بصفتي مالكة الإقطاعية في ذلك الصيف، حيث أوصلني هنري شيب أنا والصبي نيكولاس إلى هناك. بعد أعوام طويلة من نزولي بها ضيفّة أصبحت ملكي. أملت أن يرثها نيكولاس يومًا ما. أملت أيضًا أن يعيش في المنزل لا أن يجعله مكانًا للزيارة. لم تربطه صلة دمٌ بعائلة جابلورد. لكنني أنا جدته كنت الأخت غير الشقيقة لآخر رجال تلك العائلة. لقد حان الوقت لأن يتولى رجل أمر تريسانت مثلما تولاه والد جاستن، لقد حان الوقت لأن ينتهي دور الوكلاء.

بعد المحادثة التي أجريتها مع ميرفن في مارس هاتفني واريك راسل.

قال: «لقد مضى وقت طويل منذ قدومكِ إلى هنا لزيارة سالي».

- سالي؟ تقصد ماري.

قال غاضباً: «لا حاجة إلى المراوغة. وفقاً لما أراه لن يعني الاسم أي شيء على الإطلاق خلال بضعة أيام. يجب أن تأتي سريعاً».

هاتفَت ميرفن فأَتى بسيارته على الفور وأخذني إلى برمندي. كان الطبيب راسل في منزل سالي، قال: «لقد أحضرت ممرضة. نحن نفعل ما في وسعنا».

جلس ثلاثتنا في المطبخ، وعندئذٍ قال: «رجاء أعدّي لي كوباً من الشاي». أطعته. وفي أداء تلك المهمة البسيطة اكتشفت صعوبات كثيرة واجهتها سالي في سنوات طوال. لم يُمدَّ الغاز إلى هذا البيت بعد، ناهيك بالكهرباء. امتلأت المدفأة التي طالما رأيت وسط نيرانها غلاية يتصاعد بخارها، مهما كان الجو حاراً، بالغبار والرماد. في غرفة غسل الأطباق عثرت على موقد زيت، لكنه كان فارغاً. بحثت عن زيت البارافين حتى عثرت عليه في علبة صفيحية، وكان الشاي في خزانة. قال راسل: «إن كنتِ تبحثين عن الحليب فهو ذلك السائل في تلك العلبة». لكنه كان مُتخزّراً. فاكثفت بالشاي الذي لم يطلبه غيره. كان متعباً وذقنه ليس حليقاً. قال «لقد سهرت بجوارها طوال الليل. لم أرها منذ ثلاثة أيام ثم أتيت لأجدها طريحة فراشها في ثياب الخروج المُبتلة. لقد ضربتنا عاصفة رعديّة قبل يومين. هل كنتم في نطاقها؟».

أجل، كنا في نطاق العاصفة. وبينما يخبرني الطبيب راسل بتخمينه ما حدث شعرت بالارتياح، بطريقة ما، لأن سالي إن كانت في فراش الموت الآن فإنَّ الطبيعة هي المسؤولة عن موتها. قال إنه لم يعلم أين كانت، لكنها بالتأكيد عادت في وقت متأخر لأن العاصفة الرعدية لم تبدأ حتى منتصف الليل.

- لقد أصابتها ذبحة صدرية. لا بُدَّ أنها حينئذٍ كانت قد وصلت إلى باب منزلها. هناك انهارت وبلّلتها المطر. ثم يبدو أنها استردت بعض قوتها لتسير على مهل إلى سريرها في الطابق الأرضي كما تعلمين.

هناك ظلَّت راقدة، الوشاح معقود أسفل ذقنها والحذاء الطويل المُدعّم بالمسامير في قدميها، حتى جاء لزيارتها.

- لقد خلعتُ ملابسها المُبتَلَّةَ وفعلت ما بوسعي لإسعافها. ثم أرسلت في طلب ممرضة. (أردف بقسوة) لكن حالتها ميؤوس منها. تكفي الإصابة بالالتهاب الرئوي بعد الذبحة الصدرية للقضاء على الأصحاء، وهي ليست منهم. إنها لا تبدو بخير منذ فترة.

منذ فترة لم تراسلني سالي، إذ إنها لم تنشغل بمراسلة الماضي. على أنني تساءلت: هل كانت واعية وهي ترقد على عتبة منزلها أسفل المطر الغزير؟ هل غابت بِرِمندزي عن وعيها وعادت تريسانت؟ على رَفِّ المدفأة كانت قطعة الديكور التي لم تسمح لسواها بتزيين بيتها: ذلك النورس الذي عاد به توم تشادرتن من كورنوال. هل كان محض تذكّار؟ أم أنها تأملته أحياناً، وشرّد بها الفكر بعيداً إلى الطيور التي تعتلي الرياح، والخيول، والأمواج التي تضرب الحاجز الرملي، وبجعات البحيرة؟ إن كانت قد مرّت بلحظات كتلك فإنني واثقة أنَّ شعورها حينئذٍ لم يخالطه الندم.

سألته: «هل يمكننا رؤيتها؟».

أجابني حزناً غاضباً: «كما تشاءان. إنَّ حالها يُرثى له».

قادنا إلى غرفة الجلوس التي أصبحت غرفة النوم. هناك كانت سالي في فراشها بجوارها الممرضة. لقد خُلع طاقم الأسنان الذي تضعه منذ زمن طويل. غار فُكّاها وبرز أنفها وذقنها وعظام وجنتيها. أندت قطرات العرق جبهتها، وكانت تنقل رأسها من جانب إلى آخر على الوسادة تَأَلُّماً. فتحت عينيها ترسل نظرات زائغة. لم تبدُ سالي التي عرفتُها في أي وقت مضى. جذب الطبيب راسل كُمِّيَ للخروج، وعدنا إلى المطبخ.

قال: «هذا هو حالها الذي لا يسرُّ من يراه».

قلت لميرفن: «فلتذهب أنت. سأبقى معها».

بعدما غادر ذهبت إلى منزل الطبيب راسل. لقد تمكّن من توظيف مدبرة للمنزل بعدما تركنا عداوات الحرب وراءنا. أخبرتها بما حدث أحاول التصرف بعقلانية وعملية، مثلما كانت سالي لتفعل في الظروف نفسها. طلبت منها تحضير وجبة بسيطة شهية، وأعدت الطبيب إلى منزله.

لم تتحدث سالي قط وماتت في تلك الليلة. وجدت أوراقها في دُرج طاولة المنضدة. كان من بينها خطاب مُوجَّه إليّ كتبت فيه: «عند موتي لا أريد أن يثير الأهالي أي ضجة، هنا في برمندزي أو في تريسانت. أودُّ أن أُدْفَن مع عائلتي في تريسانت. ضعوا جثمانِي في نعش وانقلوه سريعًا إلى بادنجتون ليلحق بالقطار الليلي إلى كورنوال. في تريسانت لتكن الجنازة خاصَّة في وجود من عرفوني فقط».

لم يكن في الكنيسة سواي أنا وميرفن والطبيب راسل. على جدارها علَّقنا حجرًا رخاميًّا، نُقِشَ بما يفيد بأن في الجوار دُفِن آخر فرد يحمل الاسم «جايلورد» في العائلة.

5

لقد ترك لي هنري شيب عنوانه. وقد راسلته أؤكد الرحلة إلى تريسانت التي سيراقدنا فيها بصفته سائقي الخاص، وأرفقت في خطابي أجرة شهر مقدَّمًا. نظرًا إلى عيشه على الكفاف فقد تراءى لي أنه على الأرجح مُثَقِّل بديون قد يودُّ تسديدها قبل مغادرة لندن.

تطلع ميرفن إلى لقاء هنري شيب، إذ يروقه أن «يتفَقَّد أحوال الناس». لقد قابله في تلك الشهور القليلة حيث عمل لدينا قبل وفاة دانييل، لكنه سقط من ذاكرته بعد مرور أحد عشر عامًا. في المحادثة التي أجريناها أتيننا على ذكر اسم كتيبة هنري وأسماء عدد من زملائه الضباط، صادف أن كان ميرفن يعرف واحدًا منهم. وقد كان من دواعي سروري إشادة ذلك الضابط بهنري، لأنني شعرت أن علاقتي به تتخطَّى كونه سائقي الخاص. عندما تركنا مدينة الزحف العمراني وراءنا ووصلنا إلى الريف المفتوح، فكَرَّت أن هنري هو من أعادني أنا وزوج ابنتي إلى منزل فورتنسكيو في يوم وفاة دانييل. والآن ها هو معي أنا وحفيدي. لهذا لم يكن من الصعب أن تنشأ رابطة تجمع بيني وهذا الشاب. إنني لم أتباع قط عمَّن عملوا في خدمتي، على النقيض من والذي وخادميه.

تقدّمنا في طريقنا على مهل بناءً على إصراري. وكان عليّ الإصرار على ذلك. لقد شعرت برغبة هنري في أن يطلق العنان لمحرك السيارة، لكنني راقبت مؤشر السرعة. متى يتخطى الرقم خمسة وثلاثين فإنني أنكر ظهري بعصاي. أثار هذا البطء استياء الرجل والصبي. ناشدني نيكولاس: «هل يمكن أن نزيد السرعة إلى ستين مسافة بضعة أميال فقط يا جدتي؟ لقد استقلتُ مع جدّي سيارة تتحرك بسرعة سبعين».

أجبتّه بحزم: «دائمًا ما كان جدّك مهووسًا بالسيارات، لكنني لست مثله. وما دمتُ في هذه السيارة فلن نزيد السرعة على خمسة وثلاثين».

قطعنا رحلتنا لنتناول وجبة في «إكستر». وعندما أنهيناها سألني الصبي الجلوس في المقعد الأمامي. هكذا جلس بجوار هنري شيب، وأسعدني حديثهما في مختلف الموضوعات. أسندت رأسي إلى الوراء وغفوت. عندما استيقظت كنا نقطع أرض «بُدمِن». التفتُ إلى مؤشر السرعة لأجده يشير إلى الخامسة والستين. نكزت هنري بعصاي فقال: «عذرًا يا سيدة أندريدج. ظننت أنك لا تزالين نائمة».

- أنا لم أضع شرط النوم أو الاستيقاظ. إن كنت ميتة وأصبحت هذه السيارة تنقل الموتى فستقودها بسرعة لا تتخطى خمسة وثلاثين. مازحني نيكولاس قائلاً: «ستتأخرين على جنازتك».

- لا شك أنني لا أعتزم الوصول إليها مبكرًا.

عندما توقفنا أمام تريسانت كان الجمع مُتأهبًا لاستقبالنا: نيكاً تمسك بيد ابنتها فيرا، بجوارهما هاجي تشادرتن، وللمفاجأة كانت صوفيا موستن-لويد معهن. تقدّمن نحوي يرغبن في فتح باب السيارة، ومدّ أذرعهن ليساعدنني في الخروج، وحمل الأمتعة. بدا لي هذا سخيفاً؛ لم يعجبني أن أعامل مثل المَلِكات الهَرَمات.

لوّحت بعصاي أهتف قائلة: «ابتعدوا جميعاً عن طريقي. إنني قادرة تماماً على أن أضع قدمي على الأرض بثبات وأن أصعد هذه الدرجات. أنا لم أبلغ الثمانين بعد، ولن أبدأ طلب عونكم قبل التسعين».

سارعن إلى تقبيلي ترحيباً بي، وتمسكت هاجي بذراعي لنصعد الدرج معاً. سمعت نيكولاس يخاطب فيرا قائلاً: «أعزفك بهنري شيب. وهو يقول إن هذه السيارة يجب أن تسير بسرعة سبعين».

توقفت والتفتُ أنظر إليهم جميعاً. وتأملت على وجه خاص الصبي والفتاة الواقفين على الحصى تنبسط الأرض وراءهما، ويقطعها الجدول الذي يجري إلى البحيرة. عندئذ انتبهت فجأة إلى أنني كنت أصغر منهما سنًا عندما وقفت مكانهما للمرة الأولى مع سالي جايلورد، وأن أُمي حينئذ كانت أصغر من نيكالآن. عندما دخلت المنزل قالت هاجي: «لا جدوى من التظاهر بأنك لست متعبة. كانت رحلتك طويلة، ويجب أن تنالي قسطاً من الراحة قبل العشاء». أجبتها: «حسنًا، ليكن ما قلت. احرصني على ألا يصرخ الطفلان أسفل نافذتي».

6

سرّرتني رؤية صوفيا هناك إذ كانت في إجازة مُستحقّة. لقد عادت من الحرب امرأة مختلفة، أو ربما كشفت الحرب عن المرأة الحقيقية بداخلها. إنني لم أرَ والدّة لوسي إيفانز قط، لكنني سمعت عنها ما يكفي لأعلم أنها كانت امرأة مثابرة تكتفي بذاتها. ولوسي نفسها، مع جمالها ورقّتها الظاهرة، أدركت دائماً ما تريد وكيف تحصل عليه. وقد اكتشفت حفيذة هاتين المرأتين مبتغاها ولم يُثنها شيء عن الوصول إليه. لقد عاشت أهوال عنابر المستشفيات في فرنسا. خبرت قصفهم شتاءً، وساعدت في حمل الجنود الصارخين إلى الليل المُثلج حتى الخيام، التي تُنصب على عجل أسفل الأشجار الصنوبرية. شاهدت الرجال المُشوّهين، الذين تنتظرهم معاناة بالغة، يغادرون إلى إنجلترا ليلتقوا بمخطوباتهن. وقد رأت الذعر في أعينهم عندما زالت الضمادات عن وجوههم.

- كيف أبدو يا حضرة الممرضة؟

- رائعاً.

- برأيك هل ستظل حبيبتي تحبني؟

- لا تخشَ هذا الأمر أبدًا.

- على أي حال يلزمها العمل الآن، إذ أصبحت حارسة أثرٍ قديم.

- ستكون فخورًا بك.

- إنني أتساءل حول هذا الأمر. أتعلمين يا حضرة الممرضة؟ تدور في ذهني تساؤلات لعينة.

لقد أدركتُ مدى صدقها عندما قالت: «لن أنسى تلك الفترة أبدًا، أبدًا».

على أنها لم تحاول نسيانها. وعندما حدثتها ميرفن عن «جمع خيوط حياتها المتناثرة» قالت ضاحكة: «لكنني لم أكن أعمل في الخياطة يا والدي العزيز. يجب أن توجّه هذه الكلمات إلى كاثي».

من المؤسف أن هذه العائلة قد تفكّكت تمامًا: لن تسامح صوفيا كاثي أبدًا على موقفها من إدوارد ومن الحياة، وقد مات إدوارد وماتت إنيد أيضًا. سافرت صوفيا. وأصبحت كاثي آخر من تبقى من عائلة ميرفن، لهذا تمسّك بهذه الفتاة البائسة المنغمسة في الملذات. عندما عادت إلى المنزل كانت تستيقظ صباحًا امرأةً في منتصف العمر، وفي الليل تخرج في كامل زينتها مثل زهرة جاردينيا اصطناعية.

تذكرت المشهد الأخير الذي جمع بين كاثي وصوفيا في نهاية صيف عام 1919. كنا ننهي إفطارنا وصوفيا جاهزة للسفر. سيوصلها ميرفن إلى «كينجز كروس» كي تستقل القطار الشمالي، لتعود إلى العمل ممرضة مجددًا. كانت كاثي ستسافر في وقت لاحق من الأسبوع نفسه إلى جنوب فرنسا، ولهذا غمرها الحماس.

قالت وأصابها تعبٌ بقطعة خبز: «لا أصدّق أنني عائدة إلى فرنسا من جديد بعد كل هذه الأعوام! ستكون رحلة رائعة! لقد سافرت إليها نانسي نوبل. تقول إن حال البلد كما كان دائمًا وعاد قبله الجميع. إنني أتعجب منك يا صوفي! لم لا تُقلعين عن هذه الفكرة الكئيبة وتأتين معي؟».

كانت صوفيا تتناول طعامها بثبات. أجابتها: «لقد نسيّت أنني تمتعت بامتياز حُرمت منه. لقد سافرتُ إلى فرنسا».

- تقصدين الشمال؟ هل تُسمِّين السفر إلى جبهة الحرب سفرًا إلى فرنسا؟ أجابتها صوفي بصمتٍ مُطَبِّق، فأردفت كاثي: «حسنًا. أصبح الجميع يعلمون أن في منزلنا فلورنس نايتينجيل جديدة. هيّا اذهبي لتضميد القرح البشعة إن كنتِ تجدين المتعة في عمل كهذا».

قالت صوفي: «أرسلني إليّ بطاقة بريدية تُصوِّر البحر الأزرق واليخوت كي أتذكر فرنسا الحقيقية. هيا بنا يا أبي».

عندما غادرا نظرت كاثي إليّ عبر الطاولة، وقالت غاضبة: «كنت سأمضي الصباح في سريري. لكنني نهضت بعد ليلة مُرهقة لأودّعها، وكل ما نلته هو... (تلعثمت قائلة) أنتِ أيضًا لا تحبّينني، أليس كذلك؟ كوني صادقة. تكرهينني، أليس كذلك؟».

نهضتُ ودُرتُ حول الطاولة. ربّتُ على كتفها وقبّلتُ جبهتها. قلت: «عودي لتكملي نومك. سيتحسن مزاجك الليلة بخاصة بعدما ابتعدت صوفيا».

7

في الصباح الصيفيِّ بعد وصولي إلى تريسانت جلبت هاجي الإفطار إلى غرفتي.

أزعجني هذا التصرف فقلت: «لِمَ لم يوقظني أحد كي أتناول الإفطار معكم؟ اعلموا أنني لا ألزم السرير للإفطار، بل أنهض فعلاً».

- كانت هذه فكرة الآنسة صوفيا.

- إذن عليها أن تبدّل أفكارها بشأني. خذي هذه الصينية بعيدًا. سأتحمّم وسأنزل خلال ربع ساعة.

- حسنًا، هل هذه نوبة غضب؟

- ليست كذلك على الإطلاق. إنني لا أغضب أبدًا. أنا امرأة بصحة جيدة وأنتظر أن أعامَل على هذا الأساس. هذا هو كل ما في الأمر.

على طاولة الإفطار جلست صوفيا أمامي. قالت: «هل نهضت رغم كل شيء؟».

- ماذا تقصدين بقولك «رغم كل شيء»؟ بالطبع نهضت. لماذا نهضت بدورك؟ إنك لا تبدين بخير.

- أنا لست بخير لهذا تطفلت عليك. أتمانعين؟

- بالطبع لا أمانع. ماذا بك؟

- إنه إهمالي المعتاد. لقد التقطت عدوى من أحد المرضى. ولأن صحتي لم تكن على ما يُرام فقد تفاقمتم. إنني ألزم الفراش منذ شهر. هذه هي المرة الأولى التي أصبح فيها عاجزة وأشعر بالمهانة.

- ورغم ذلك تنشغلين بإرسال الإفطار إلى غرفتي. لم لم تذهبي إلى لندن؟ يتوق والدك إلى رؤيتك.

- كاثي هناك.

لم يسعني سوى التئهد أسفاً على حال تلك العائلة. قلت: «تعيش كاثي المسكينة حياة صعبة».

أجابتنني صوفيا دون شفقة: «حياتي أيضاً صعبة. لقد أصبحت كاثي في الثامنة والثلاثين. يجب أن تتعقل. إنها تمضي حياتها تجوآلاً كأنها في سيرك رخيص».

بدلتُ مسار الحديث قائلة: «أين ذهب الجميع؟».

- أخذت نيكاً فيرا للتمشية. ذهب نيكولاس إلى الإصطبلات مع ذلك السائق اللطيف. لقد أَدْخَلَ المستشفى الذي أعمل فيه ذات مرّة ولا بُد أنني قابلته. على أنني لا أتذكره، لكنه يقول إنه يتذكرني.

- إن الجو رائع. لنذهب كي نرى ماذا يفعلان.

كانا يفكران في صناعة زورق. لم تكن البحيرة تخلو من الزوارق. لكن زمناً طويلاً قد مرّ منذ أن أبحرت، ولم يتبقَّ سوى زورقين مُهمَلين تغمرهما المياه. في زاوية داخل الإصطبلات صنع أحدهم طاولة للنجارة، عندها عثرنا على نيكولاس وهنري شيب يتأسفان على الحال الذي آلت إليه المعدات. بدا

واضحًا أن هنري يرى معدات النجارة أغراضًا مُقدَّسة. ولم يكن لينزعج إن دُنُسَ معبد بقدر انزعاجه عند رؤيتها على هذا الحال.

قال مُستاءً: «لم أرَ مثل طاقم المعدات هذا من قبل قط. إنها رائعة! هنا يتوفَّر كل ما تريد! لقد حلمت بامتلاك مثلها. لكن انظروا إلى حالها! جميعها صدئة ومُتصلِّبة».

خارج الإصطبلات اشتدت الحرارة، لكننا في الداخل نَعْمنا ببعض البرودة. جلست أنا وصوفيا فوق بضعة صناديق نشاهد الرجل والصبي يعملان. ارتدى هنري بنطال جينز أزرق، ورفع نيكولاس كُمِّي قميصه الأحمر فوق مرفقيه. سَنَّ هنري بضعة مناشير، دهنها بالزيت، ثم علَّقها. شحذ الأزاميل بواسطة حجر دوَّار. حلَّ المساحيج وأخرج شفراتها وشحذها. زَيَّت رؤوس مفاتيح الربط ومفاصل الزردِيَّات. أعطى نيكولاس خِرقة مُزَيَّنة وكومة من المئاقب، وطلب منه مسحها وترتيبها في فتحات مُخصَّصة لها وفقًا لأحجامها.

قال: «يهدر المرء ساعات طويلة إن لم يُرتَّب معداته. إنَّ كل ما يلزمنا هو تزييتها وترتيبها».

قالت صوفيا: «أنت محقٌّ. يغضب الجراحون إن لم تكن جميع الآلات الجراحية في مواضعها المُحدَّدة لنناولهم إياها في الوقت المُحدَّد».

ابتسم هنري إليها وقال: «بالضبط. إنك تستوعبين المبدأ».

سألها نيكولاس: «هل سبق لك أن قطعتِ ساق رجل يا عمَّة صوفي؟».

قال هنري: «العمة في إجازة يا نيكولاس. لنمنحها استراحة من شؤون العمل. أمسك بهذا. هل رأيت من قبل تشكيلة مثل هذه؟».

ناول الفتى صندوقًا كبيرًا يحتوي على مسامير مختلفة الأشكال والأحجام.

- الآن رتَّبها على الطاولة: ضع المسامير الفولاذية في كومة، والنحاسية في كومة أخرى. وعندما تنتهي رتَّب عناصر كل كومة وفقًا لأحجامها. سيلزمنا عديد من الصناديق لنضعها فيها. وعندما تنتهي ستجد هذه البراغي. جميع الصامولات بها عالقة. حلَّها وزَيَّت فتحاتها.

سأله نيكولاس: «متى سنبدأ صنع الزورق؟».

- ربما غداً. لكننا لن نبدأ قبل أن تصبح المعدات جاهزة. سنرسم بعض المخططات مساءً. ابحث في الجوار عن المزيد من المسامير. سيلزمنا المئات منها.

8

شاركنا هنري شيب وجباتنا مثله مثل هاجي. ولم يلزم وقت طويل حتى توطدت علاقته بنيكولاس. لهذا لم ترَ نيكاً ابنها كثيراً طوال تلك العطلة. كانا يذهبان معاً للسباحة في البحيرة قبل الإفطار. ذات مرة لحقت بهما كي أشاهدهما لأن نيكولاس لم يكن يجيد السباحة. ولم يلزمني تكرار الأمر، إذ اتضح أن هنري سباح ماهر، سيسبح عشرة صبية معه بأمان لا واحد فقط. ثم يعودان وجناتهما مُتوردة ويتناولان طعامهما بنهم. بعد ذلك يذهبان إلى ما أصبح الآن ورشة النجارة المُرتبة، حيث يواصلان صنع الزورق.

ذات صباح أخبرتني نيكاً: «تُبدى صوفي اهتماماً كبيراً بالنجارة، ألا توافقيني الرأي؟».

راوغتها قائلة: «من المثير للاهتمام أن يشهد المرء صنع شيء كهذا من البداية. حتى إنني كثيراً ما ذهبت إلى الورشة في زيارة خاطفة».

- أنا أيضاً أقصد الورشة في زيارات قصيرة، لكن صوفي لا تغادرها.

- هل ترينها فكرة سيئة يا عزيزتي؟

- لن أبدي رأيي في هذا الأمر. إنني فقط أتساءل إن كنتِ قد لحظته مثلي.

- لا شك أن صوفي يروقها الوجود هناك لتشهد حماس نيكولاس. لقد تعلقت به شديداً.

- لا شك لديّ في حماس نيكولاس. الأمس جَهدتُ لأقنعه بقضاء الظهيرة معي أنا وفيرا. وحالما عدنا اتجه إلى الورشة. كان هنري شيب مُنهمكاً في عمله وصوفي هناك كالمعتاد. لهذا لا أظن أن نيكولاس هو دافعها.

- صدقت. أقرُّ بأنه قد يوجد تفسير آخر للأمر.

ثم أتى يوم الإطلاق. حُمِلَ الهيكل المطليُّ بالورنيش اللامع إلى البحيرة بسواعد الجميع: هنري ونيكولاس، نيكَا وصوفي، هاجي وبعض الصبية. وُضِعَ على العشب مُقَدَّمُه في الماء، ورُبطَ إليه حبل يُقَيِّدُ حركته عندما يعلو سطح البحيرة. لم يتبقَّ سوى دفعه، فالتفت هنري إلى صوفي وقال: «هلا تُطلِّقينه يا آنسة صوفي؟».

انحنت صوفي كي تدفع الزورق، فقالت هاجي: «أتمنى أن يطفو». نظر إليها نيكولاس مُتَجَهِّمًا وقال بحزم: «بالطبع، إن هنري هو صانعه». قال هنري: «لقد شاركتَ في صنعه يا بُني».

دفعت صوفي الزورق فانزلق يبتعد ببطء على طول الحبل، ثم توقف. بدا مركبةً متوازنةً أنيقةً تلمع أشعة الشمس على سطحها.

كانت الساعة الواحدة إذ قال هنري: «لنتركه في الماء لأننا سنُجَدِّف قليلاً بعد الغداء. ويجدر بنا أن نُخْرِجَ هذين الزورقين الخَرِبَيْنِ كي نجفِّهما ونصلِّحهما».

ثم عدنا إلى المنزل، أسير أنا وصوفي خلف البقية تفصلنا عنهم مسافة. قلت: «لقد استلمت خطاباً من والدكِ هذا الصباح. بدأت كاثي أسفارها مجدداً وهو يشعر بالوحدة».

- يا للأسف! أتقصدين أنه يجدر بي السفر إلى لندن؟

- كما تشائين.

- لكن المكان هنا رائع.

- أحياناً يصبح أي مكان رائع طالما نتجنب مكاناً بعينه.

نظرت إليَّ بحدة وقالت: «أحياناً تكون نظرتكِ أعمق من اللازم».

- لكنني شهدتُ عديداً من الغرائب على مدار حياتي، لهذا يأخذ الجميع كلامي بعين الاعتبار.

- إذن أعتقد أن عليَّ الذهاب إلى لندن.

- كم عمرك يا صوفيا؟

- في الخامسة والثلاثين.

- إذن فأنْتِ لم تعودِي طفلة، وتعلمين جيّدًا ماذا تفعلين.

- لكنني لست من الكِبَر ما يجعلني أزهّد في نصيحتكِ.

- هل وقعتِ في الحب من قبل؟

استغرقت في التفكير بضع لحظات، ثم قالت: «لا. لا أظن ذلك. لم أعش تجربة جدية. بالتأكيد لم أشعر بالحب، بل الشفقة».

استنتجت أنها استعادت ذكرياتها في المستشفى في فترة الحرب، حيث عاشت تجارب كثيرة مثيرة للشفقة لا شك.

قلت: «إن سؤالك نصيحتي يجعلني أشعر بالإطراء، لكنني رغم ذلك لا أحبّد تقديمها. لقد أسديتُ نصائح من قبل وندمت عليها. ألا يمكنكِ البتّ في الأمر بنفسكِ؟».

سرنا بضع خطوات في هدوء، ثم قالت: «لا بأس. سأبتّ في الأمر في بنفسي». كان ذلك اليوم أجمل أيام الإجازة. بعد العشاء أثار القمر السماء. رطب الهواء. ورغم أن الصيف أثقل الأشجار فإنها قامت مثل سفن كبيرة بُسّطت جميع أشرعتها. غادرنا المنزل إلى سكّون المساء، ولحظت أن نيكا تعمّدت إبعاد الطفلين عن البحيرة إذ قالت: «لنذهب كي نرى اليرعات المضيئة. أعرف سياجًا يمتلئ بها».

عرفت أي سياج تقصد. كان في فناء الكنيسة. هناك تلمع تلك الكائنات دائمًا كأنها مجرّة صغيرة. لقد سمعت إدي رودا يقول إن هذه اليرعات هي أرواح الموتى. ربما يكون مُحقّقًا. ربما عندما نرحل عن هذا العالم نترك وراءنا شعاعًا صغيرًا من الضوء وسط ظلمة محيطة هائلة.

وقفنا أنا وهنري شيب وصوفيا في الليل الدافئ خارج المنزل. الآن علا القمر الأرض الشرقية خلف البحيرة. كان في تربيعة الأول لكنّه منيرٌ بما يكفي. شعرت بلهفة أحد مُرافقِيّ إلى الآخر وارتباكهما، فقلت: «لم لا تبحران بالزورق الجديد؟».

شكرني هنري واتجه الاثنان إلى رصيف الإرساء. كان الطريق إليه يحاذي الإصطبلات ويمتد وسط الأشجار. عندما اقتربا إلى ظلالها رأيت صوفي تشبّك ذراعها بذراع.

في فناء المنزل سِرْتُ جيئةً وذهابًا طويلًا، أشعر بثقل الوحدة والكِبَر. ثم تبعت الطريق نفسه، حتى مررت برصيف الإرساء، ثم دخلت الدرب عبر الغابة بمحاذاة البحيرة. كم أَلِفْتُ هذا الطريق، حيث ترتفع أشجار الغابة على اليمين، وعلى اليسار تتلألأ البحيرة عبر أشجار ضفتها! إنني أستطيع أن أقطعه مغمضة العينين. وهنا ستضيء يرعتي عندما يحين وقت الرحيل.

في منتصف الطريق إلى الحاجز الرملي جلست على صخرة لا تزال دافئة، في بقعة حيث تنتصب أشجار الصنوبر على الجانبين وبينهما ينبسط المحيط أمامي. بعد مرور بعض الوقت أتت نيكاً. لقد أوصلت الطفلين إلى غرفتيهما وتبعتهن. جلست بجواري وأمسكت بيدي. لم نتحدث، بل استمعنا معاً إلى حياة النباتات الليلة السريّة، وأنين البوم المُرتعش، والوحدة الموجعة في تغريد الكراوين. شاهدنا الزورق يتبع المسار المُقِمَر، يتمهّل في حركته كأنه يشهد الآن لحظات ثمينة تُسجّلها الذاكرة، وعاطفة قوية وسط الطبيعة البهية.

قالت نيكاً بهدوء: «لا بُدَّ أنَّ العمر يتقدم بي يا عزيزتي، لأن قصص الحب التي يعيشها الآخرون تثير اهتمامي. إنني على أي حالٍ في الأربعين». شددتُ على يديها، وقلبي ملؤه الحب والأسى. لقد رحل زوجها قبل ثمانية أعوام فسَلِبَتْ حياتها.

الآن غاب الزورق في الظلام. أصبح طيفاً مُبهماً يتجه إلى الظلال البعيدة. قالت: «أذكر أنني كثيراً ما أبحرت مع إدوارد هناك في ليالٍ كهذه». وكذلك فعلت أنا ودانيل. إنَّ الأجيال تتعاقب وتمحو آثار خطواتنا. أردفتُ: «أنا سعيدة جداً من أجل صوفي».

- أنا أيضاً سعيدة من أجلهما. لقد انتظرا طويلاً. وهما من الصالحين. اعتصرت يداها الأرض، ففاح عطر الزعتر المكثوم كأنه عَبَقُ سنواتها الضائعة.

قالت: «أجل. أثق أنهما من الصالحين. لكن هذا لا يُشكّل فارقاً دائماً، أليس كذلك؟».

الفصل الثامن والعشرون

مكتبة

t.me/soramnqraa

1

كان من دواعي سروري أنني لا أزال أستطيع الذهاب إلى منزل «سانت جونز وُد» وقتما يحلو لي. لقد أصبحت أنتمي إليه مثل تريسانت. كنت فتاة سخيفة عندما ذهبت إليه للمرة الأولى مع ماجي ويل ليصبح بيتنا. لكنني ازدددت نضجًا وأصبحت امرأةً بين جدرانه. شاهدته ينتقل إلى ابنتي. وُولد حفيداي تحت سقفه. كثيرًا ما تحدثت مع لوسي إيفانز فيه. والآن أصبح مسكن حفيدتها صوفيا وزوجها هنري شيب. في وقت زواجهما قررت نيكا بيعه والعيش في الكوخ الريفي الذي تركته ماجي لها، وقد اشترته صوفي. هكذا استطعت الذهاب إليه من حين إلى آخر، أنظر إلى السيدة العارية في البركة وشجرة التوت، فأشعر بسنوات حياتي تتدفق حولي. كان منزلًا سعيدًا. لا قيودَ تُكَبِّلُ الأشباح التي قد أقابلها فيه. لقد شهدت جدرانه ضحكات جلوري جاين العالية وحكمة ماجي ويل الحنون، التي أقرُّ بأنني مدينة لها أكثر من أي أحد سواها. عاشت نيكا سعيدة هنا. والآن وجدت صوفي السعادة مع هنري شيب.

كثيرًا ما لجأت إليه في تلك الفترة، إذ تدنو الوحدة مني. كانت الحياة تضيق، تتقلَّص، تعزلني في زنزانة تقيِّدني. أنظر عبر كُوتها إلى درب حياتي ولحظات عمري الثمينة، وأدوِّنها. لقد أصبحت أجد عزائي في الكتابة.

مرّت ستة أعوام منذ أن جلست أنا ونيكا بجوار البحيرة نشاهد الزورق. في يونيو من عام 1925 -الأول من تلك الستة- ذهبنا مع صوفيا وزوجها إلى «يوركشير». كان هنري فخورًا بعروسه، وودّ أن تلتقي بعائلته في الشمال. لقد عاشت عائلة هنري في «مالتون». هناك امتلك عمّه ورشة حيث تُباع الدراجات ومستلزماتها، والكشافات الكهربائية، والخردوات الميكانيكية. في تلك الورشة اكتشف الصبي هنري الميكانيكا.

كان اقترابي إلى صوفيا يُزيد إعجابي بها. راقني كثيرًا رغبتها، بل توقها، إلى مقابلة عائلة هنري. لقد ارتضتُ به زوجًا، فقبلتُ بطبعه وبعائلته. يبرهن هذا على رزانة بالغة من فتاة تنتسب إلى أحد النبلاء وإدي رودا!

لكن ما أريد الكتابة عنه الآن ليس أسلاف هنري، بل تجربة عشتها أنا ونيكا. لقد اقترح ميرفن أن نذهب في عطلة إلى الشمال. هكذا انطلقنا في سيارتين: يقود هنري أحدهما معه زوجته ونيكولاس، وفي الثانية اصطحبني ميرفن أنا ونيكا وفيرا. أمضينا وقتًا رائعًا نقطع ساحل بحر «الشمال»، ومررنا وسط الأراضي البرية في «ويتبي». وللمرة الأولى في حياتي رأيت تلال «كليفلاند»، من حيث أتى الحديد ليصنع ثروة عائلة راينبرو.

في نهاية يونيو كنا جميعًا نتأهب للعودة من «مالتون» إلى منازلنا. لكنني لم أكن قد زُرت كاتدرائية «يورك» بعد، ولم يتبقَّ في إجازتنا سوى الغد. ثم اكتشفت أننا في تلك الزيارة لن نراها في حالها المعتاد، إذ سيُقام احتفال للكشف عن «نافذة الأخوات الخمس»⁽¹⁾، بعدما نُظِّفت وُجِّدَت كي تُكرَّس نصبًا تذكاريًا لنساء الإمبراطورية البريطانية اللاتي لقين حتفهن في أثناء الخدمة العسكرية في سنوات الحرب العالمية الأولى.

لقد حضرت أنا ونيكا هذا الاحتفال. أتذكر أن الجنود لا الشامسة هم من أرشدونا إلى مقعدينا. كان الحضور كبيرًا. انتشرت البذلات العسكرية وسط

(1) شُيِّدت نافذة الأخوات الخمس Five Sisters Window في القرن الرابع عشر، في الجدار الشمالي من الجناح الشمالي لكاتدرائية «يورك»، وتتضمن مساحة كبيرة من الزجاج المُلوّن. ليس من المعلوم تحديدًا من أين نشأ الاسم Sisters. قد يكون تحريفًا لكلمة Cistercians التي تعني راهبة سيستريّة. رُوي أيضًا أن أولئك الأخوات الخمس هن من صمّمن جدارية النافذة. م

الثياب المدنية. فعادت ذاكرتي إلى الورا، حيث أمسكتُ بيد أُمي ننتظر الملكة وأنا أحلم بالسلام على الأرض. الآن كنا في انتظار دوقة «يورك» التي ستصبح الملكة، رغم أن هذا لم يكن متوقعًا حينئذٍ. وقد وصلتُ ترتدي الرمادي وعلى رأسها قبعة زرقاء، برفقة زوجها الذي يرتدي بذلة عسكرية وسيصبح الملك. أتذكر الدوقة تجذب حبلاً فيسقط الغطاء الأبيض الطويل عن النافذة وينفذ الضوء، مثلما نفذ عبر الزجاج اللؤلؤي الرقيق نفسه قبل ستمئة عام. طوال تلك الأعوام ظلَّت النافذة قائمة في موضعها، وقاتل الرجال في حرب تلو أخرى، في هذا البلد وفي جميع البلدان الأخرى. أمَّا النساء فلم يشاركن في الحروب قط. لكننا تمكنا من تصويب هذا الوضع، وفي هذا العصر انضمت النساء إلى الجيش للمرة الأولى. لم تكن مشاركتهن فردية أو عَرَضية أو غير رسمية، بل شكَّلت قوات نظامية. وها هنا نحى ذكرى 1465 امرأة منهن لقين حتفهن في أثناء الحرب العالمية الأولى. هكذا اكتسبت تلك النافذة ذات الزجاج الملون، التي مرَّرت الضوء الرقيق إلى هذا البناء الضخم القائم طوال ستمئة عام، مغزى جديدًا كريهاً. من الآن فصاعدًا ستُذكرنا بأن الأمَّ ستتحمل بعضًا من مسؤولية القضاء على أبنائها.

لم أنتبه إلى أن رئيس الأساقفة كوزمو جوردن قد بدأ الحديث لأن رأسي ازدحم بالأفكار. ثم بلغ سمعي صوته العميق الواثق. كان يستهجن خُلو الكنائس والشوارع وساحات القرى من نُصبٍ تذكاريٍّ واحد، مُكرَّس لإحياء ذكرى النساء اللواتي ضحَّين بأرواحهن فداءً للإمبراطورية. عندئذٍ فُكِّرتُ أننا تخطَّينا مرحلة الاستهجان ونعيش الآن لحظة تتبدَّل فيها الحياة. واصل الصوت الحديث يلفُ فصاحته بعاطفة قوية، مؤكِّدًا أنَّ الأمَّ الكبرى؛ الكنيسة، تحتضن أولئك الفتيات والنساء الآن، كما فعلتُ دائمًا، وتحتويهن في سلامها وسكونها.

هناك جلسنا جمعًا صامتًا مطيعًا، نسمع التجديفات بلا اعتراض. أجل، ستحتوي الكنيسة الأمَّ أسماء النساء اللواتي رحلن قبل أوانهن إلى سكون الموت وسلامه. ارتجفتُ إذ دار بخليدي أن التاريخ عندما يعيد نفسه لن يكون موت أولئك النساء تحذيرًا بما يجب عدم فعله، بل نموذجًا يجب على كل النساء أن يتبعنه. فلا عودة للورا، لقد بدأ الموت رقصته ولن يتوقف. دعا

كبير الأساقفة النافذة بـ «بوابة الفردوس اللؤلؤية». لكن الوصف اللائق بها في نظري هو «بوابة الموت».

ترنم صبية الجوقة بأصوات عذبة تشبه تغريد الطيور، يُمجّدون الرب لأن «القديسات ارتحن من الحياة وواجباتها». عندما وقفت إذ بدأ الغناء، أشعر بيد نيكاً دافئة في يدي، كان قلبي ثائراً. فكَرْتُ: أجل، هكذا تتنصّلون من المسؤولية. سُمُوهُن قديسات. أحيطوهن بهالات مقدسة. لكن الحقيقة أنهن مُقَصَّرات مثلنا جميعاً. وإنني أتساءل لم يجب أن نُمجّد المسيح لأن حياتهن انتهت! كانت حياتهن في بدايتها، وأنا واثقة أنهن كُنَّ ليسعدن بمواصلتها بواجباتها.

لقد بلغ منا الاستماع إلى قرع الطبول كلّ مبلغ. كان اللحن الجنائزي مؤثراً بما يكفي. طافت النغمات الحزينة ضائعة بين الحجارة. وبينما تقترب إلى ختامها، ونحن واقفون في صمت شديد، قُرِعَت الطبول هادئة في البداية، كأنها تخبئ في موضع غامض، وأخذت تعلو وتعلو حتى شابها عاصفة تجتاح كل زاوية من البناء. ظلّ قرعها يخفت ثم تتصاعد شدّته، هكذا بضع مرات، حتى تجمّد الدم في عروقي. بدا أن الجدران التي صمدت قروناً تهتز. كانت يد نيكاً ترتعش في يدي كأنها طائر حبيس. وفَكَرْتُ: «ارقدن في سلام أيتها الأخوات. لقد خُلِدَت ذكراكن».

2

توجد فترة من حياتي لم أعرف فيها ميرفن، إذ لم يكن قد وُلد بعد. أقصد تلك السنوات التي عشتها في ميدان بورتمان، التي عرفت فيها أبي وأمي معاً، وميرسي كايت ودوكات، وخرجت إلى المتنزه بصحبة أُمّي؛ تلك السنوات التي أنهارها سؤالي عن سُرّة الملاك الجصّي، الذي تسبب في كارثة أتت بالخلاص، أتت بماجي ويل. بينما أنقّب في ذاكرتي عمّا يخصّ تلك الأيام البعيدة، وهو ما أواظب على فعله الآن، إذ أملأ ساعاتي تدويناً في غرفتي المنعزلة، يبدو لي أننا سافرنا إلى تريسانت حالما دخلت ماجي حياتي. ووقفنا أمام كوخ إدي رودا نشاهد الفتاة الضئيلة لوسي إيفانز تركض باكية وهي تحمل طفلها،

يتبعها صياح السيدة إيفانز الغاضب. كان ذلك الطفل الذي يصغرنى بتسع سنوات هو ميرفن. ومنذ ذلك الحين اتصلت حياته بحياتي. أصبح نيكولاس وفيرا حفيدينا. كان أقرب من حظيت به إلى مُعاصر. وأحياناً ظنّ من رأونا معاً أنه الأكبر سنّاً. لقد عاش سنواتٍ وحيدةٍ ثقيلةٍ في منزله الكبير. إنّ تلك اللحظة حيث التقى إنيّد في متجره واتحد قلباهما لم يخبُ بريقها طوال سنوات زواجهما. ظلّاً حبيبين حتى النهاية. لكن تلك النهاية صاحبها نهايات كثيرة. فقد مات إدوارد، وسافرت صوفيا، وسرعان ما عثرت كاثرى على شقة لها. قالت إنها تريد أن تستقلّ بحياتها، مع أن إقامتها المؤقتة من حين إلى آخر في ميدان هانوفر، التي تناقشت شيئاً فشيئاً، لم تمنعها من العيش كما أرادت. لكنني أدركتُ أن تلك الحياة لن تطول. سيتولّى مرور الزمن تغييرها مثلما تولّى غيرها. لن تظلّ كاثرى نجمة لامعة، إذ تقترب سنوات منتصف عمرها إلى نهايتها، مهما تردّدت على صالونات التجميل والمنتجعات الصحية وأمهر خياطي الثياب. لكنها كانت ثرية. لهذا يلزمها بعض الوقت قبل أن تدرك أن المال هو ما يجعل وجودها في تلك التجمعات مُحتملاً.

هكذا ازددت أنا وميرفن قُرْباً. في تلك الفترة دائماً ما هبطت إلى المنزل كي أتناول العشاء معه. أحياناً نهاتف جوليان ريمل ليشاركنا الطعام، وأحياناً يدعونا جوليان إلى شقته ويُبديع في طهو وجباته الشهية. كان فارق العمر بينه وميرفن عشرين عاماً ويصغرنى بثلاثين عاماً. لكن حياته أكسبته نضجاً. قال: «لقد تزوجت مرّةً، ولا أريد خوض التجربة مجدداً. وأصبحتُ جندياً مدّةً، ولا أريد تكرار هذه التجربة أيضاً. إنني أتعلم الاستغناء. هو جوهر فنّ العيش مثله مثل فنّ الطهو. إنه الإبداع اعتماداً على أبسط الأشياء. حتى إنني قد تخلّيت عن فرنسيّتي. أتنظّين يا عمّتي العزيزة أن الأمّة الإنجليزيّة ستقبل بي بعدما استخرجتُ وثيقة مشاركتهم العيش؟».

قلت: «لقد استوعبنا النورمانديّين في مجتمعنا الإنجليزي على مرّ الزمان. وأعتقد أننا نستطيع استيعابك. قبل أعوام أذكر أن ماجي ويل حدّثتني عن نمو اللغة، وكيف أننا استوعبنا كثيراً من الكلمات الفرنسيّة من النورمانديّين...».

هكذا نعود إلى الحديث عن ماجي ويل، وعن وذكرياتنا الماضية. كان مفاجئاً كم أصبح حديثنا استذكّاراً للماضي! وبعدها تُدفننا القهوة التي أعدّها جوليان والبراندي، نعود أنا وميرفن إلى ميدان هانوفر ذراعاً بذراع.

عندما لا نخرج اعتاد ميرفن الصعود إلى شقتي. كانت الموضع الأكثر دفئاً وراحةً في المنزل كله حيث لا نتكلّف. يجلس ميرفن بجوار المدفأة ينتعل حُفّه المريح، يقرأ ويدخن غليونه. وأجلس إلى طاولة الكتابة أستأنف المهمة التي تشغلني. لقد نفعني وجوده هناك. لجأت إليه عندما تغيب عن بالي الأحداث. هكذا جمعنا معاً الذكريات.

ذات ليلة ترك كتابه وقال لي: «لم أعد أريد قضاء المزيد من الوقت في لندن أو العمل يا سارا. لقد شرعت في إجراءات بيع المتجر وهذا المنزل. إنني فوق السبعين وحن وقت الراحة. سأذهب للعيش في كويكس. وقد أبيعته أيضاً. إنّ ما أريده هو بيت أصغر بكثير».

- لا يمكنك فعل هذا يا عزيزي لأنني أعيش هنا منذ عشر سنوات تقريباً.

- ما عيب تريسانت؟

- لا شيء كما تعلم جيداً. لكنك تعلم أيضاً أنني أمضي معظم وقتي في لندن وأمقت النزول في الفنادق.

- يمكنك استئجار شقة شاملة الخدمة.

- يمكنني أيضاً تعلم الرقصات الجديدة والذهاب إلى الملاهي الليلية، لكنني لا أعترزم فعل هذا.

أتى إلى طاولتي وأخرج من جيبه ظرفاً كبيراً. أخرج الورقة التي تضمّنّها وقال: «لم أرد الإفصاح عن الأمر قبل تسويته لكن ألقى نظرة على هذا. عندما قلت إنني أرغب في بيع هذا المنزل كنت أقصد أنني بعته بالفعل. لن يصبح منزلاً بعد الآن. لكنه لا يُعد منزلاً منذ فترة، أليس كذلك؟ على الأقل هكذا أراه. إنه مساحة تُذكّرني بأشياء يجدر بي نسيانها. أشعر أنني طائر حلّ عليه الشتاء ولا يزال يتمسك بعُشّه، رغم أن فراخه قد هاجروا وانقطع التغريد. على أن الطيور لا تفعل هذا لأنها أكثر حكمة».

سألته مازحة: «ما الذي تخطط له؟ يثير ارتياحي محاولة تاجر كبير صياغة التشبيهات البلاغية».

لكنني أسفتُ لحاله، إذ لم يرحل عن عُشِّه فَرَخَاهُ فقط.

- حسنًا، إليك المخطط. سيصبح المنزل مقرَّ شركة. هذا الشيء المرسوم هنا هو مصعد خارجي. سنشيِّد أنبوبًا قائمًا من القرميد بجوار حائط المنزل الجانبي. سنضع مصعدًا بداخله. وسنشقُّ طريقًا إلى الأعلى حتى هذه الغرفة. هذا يعني أنك لن تحتاجي إلى دخول المنزل. ولن يصل إليك أيُّ من يدخله. كان هذا أحد شروط البيع.

قلت وقد نال مني التأثر: «لا ينسى أحد منكم العجوز سارا، أليس كذلك؟».

- إنَّ هذه الشقة تُعدُّ أثرية على أي حال. هنا عاش جوثرسن العجوز سعيديًا. وقد يرافقك شبحه.

ولم يكن شبحه وحده من رافقني. لقد احتشدت حولي الأشباح التي صرْتُ أعرف منها الآن أكثر ممَّن أعرف من الأحياء. وفي تلك الغرفة، بعد تنفيذ التغييرات الجديدة، استحضرتهم بقلمي. لم أعد أتناول الوجبات في الأسفل، أو أدقُّ الجرس كي يجلب الخدم الطعام إلى الشقة. أصبحت هاجي تشادرتن مرافقتي، سواء أكنت في لندن أم كورنوال. وحوَّلنا جزءًا من الشقة إلى مطبخ. لأيامٍ عدَّةٍ متواصلةٍ لم أرَ أحدًا سوى هاجي. وإن رغبت في بعض التغيير أسير إلى جوليان على مهل في شارع بوند، أو أسافر إلى كوخ نيكافا في الريف.

3

لا أزال أكتب عن الحياة قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية، لكنها قد انتهت بالفعل. أنا الآن في تريسانت، وعلى الأرجح أنني سأظل هنا. لقد انتهى ترحالي. لكنني في الحقيقة لم أكن غير رحَّالة عبر الزمن، وقد نِلْتُ بدل انتقالٍ مُجزٍ. على أنني استمتعت بالتنقل بين الريف والمدينة لأنه منحني سببًا للحنين. في لندن أفكر في سكيانة تريسانت، وفي تريسانت أتوق إلى نبض الحياة في لندن. لقد انغمست في العيش في إحدهما عندما كنت في الأخرى.

إننا الآن في بداية الربيع، وأكثر ما يُذْكَرني بلندن هو جو صباح اليوم. الهواء رطب دافئ، وزهور الكاميليا في ازدهار. لو جئتُ بفقير بائس يجوب شارع «ثريدنيل» أو «ستراند» إلى هنا، لظنَّ أنه انتقل إلى الفردوس. لكنني أشعر بتوق شديد إلى صباحٍ خريفيٍّ رماديٍّ في لندن. الآن سأؤنس نفسي بذكر أحد تلك الصباحات على الورق.

في صباح أكتوبرٍ من عام 1930 هبطت هاجي المصعد معي. رغم أنها أجادت استخدامه فقد بدا لها مُحيرًا. ثم فتحت البوابة وخرجنا إلى الطريق.

قالت: «ها هي عصاك. هل يجب أن تمشي؟ يمكنني إيقاف سيارة أجرة».

- بالطبع يجب أن أمشي. ماذا تظنّيني؟ سقيمة؟

- لا. لكنك في الثمانين من عمركِ على أي حال.

- لن تبغني هذا العمر ما لم تستخدمِي القدمين اللتين منحهما لكِ الرب.

- حسنًا، يبدو أنكِ مستاءة. رجاءً انتبهي عند عبور الطريق واحذري من السيارات.

- فلتحذر السيارات مني.

- بهذه العقلية قد تعودين إلى المنزل على نقالة.

قلت وأنا أتنسّم الهواء البارد: «دعكِ من هذه الأوهام».

كان صباحًا جميلًا يلائم السير على مهل. هكذا اتجهت إلى شارع بوند، حيث تناولت القهوة وكعكة بالقشدة. ثم عبرت الطريق إلى معرض «ريمبل». تطلعت إلى واجهته حيث تظهر المقاعد على الطراز اليعقوبي؛ تلك الثقيلة التي اقتطع معظم ظهورها نحنًا ولم ترُقني قط، تحيط بطاولة أرجلها منتفخة مثل ساعدٍ ملاكمٍ محترف. دخلت المعرض كي أخبر جوليان برأيي هذا، لأجد نيكًا وفيرا بالداخل.

هتفت نيكًا: «أمي! هل خرجتِ بمفردكِ مجددًا؟!».

- تتحدثين كأنني هربت من عنبر المجانين في مستشفى «بِدِلِم». بالطبع خرجت وحدي.

قالت فيرا ضاحكة: «تتمتع أُمي بعاطفة أموميّة طاغية. ترى أن الجميع إمّا صغار جدًّا وإمّا كبار جدًّا بحيث يجب ألا يخرجوا بمفردهم. بالطبع أنا من فئة الصغار جدًّا».

قلت: «لكنكِ في السادسة عشرة لهذا فأنتِ حقًّا صغيرة».

- أنا في السابعة عشرة.

- حسنًا، لا تحاولي إثارة إعجابي بأعوامكِ السبعة عشرة فأنا في الثانية والثمانين. (ثم خاطبتُ نيكًا) هل جئتِ لإهدار المال هنا؟ هنا يُجرّدونكِ من كل ما تملكين.

- لقد جئتُ لأبحث عن هدية مناسبة لنيكولاس. سيبلغ التاسعة عشرة الشهر القادم.

- إذن سنزعج جوليان حتى نحصل على تخفيض. (هتفت بأحد العاملين فأُتي يسير بخفّة على البساط الأخضر، وسألته) هل السيد ريمل هنا؟ - إنه في شقته يا سيدتي. سأهاتفه.

صعدنا إليه لنجده واقفًا عند النافذة، يتطلع إلى ضوء الشمس الهزيل على الأسطح والمداخل. لم يلتفت عند دخولنا فهتفت: «بربك! ليس هذا الوقت المناسب لتأمل الأرذواز والقرميد».

عندئذٍ استدار نحونا فلحظت أنه مهموم، لكنني تغاضيت عن الأمر الآن نظرًا إلى وجود فيرا. سرعان ما اشترت نيكًا ما أرادت وغادرت مع ابنتها. ثم جلسنا، أشعل سيجارًا، وسألته: «ما الأمر؟».

- أي أمر؟

- ما يهْمُك يا عزيزي جوليان.

قال: «لا شيء يفوتكِ. وستعلمين بالأمر عاجلًا أو آجلًا لهذا لا داعي إلى المراوغة. لقد انتحر فورنييه».

عقدت الفاجعة لسانِي. فانتظرت أن يكمل حديثه.

- ليته أخبرني! العزيز المسكين! ليس الانتحار حلًّا. هل ظننني وحشًا؟

كان جوليان يتحدث منذ مدة عن إعادة فورنييه من نيويورك. لقد اندلعت العاصفة الاقتصادية في أميركا العام السابق وحلَّ الخراب. أفلست المصارف، وسعى أصحاب الملايين إلى الحصول على أي وظيفة تسد الرمق. أُغلق فرع «ريميل» في نيويورك قبل فترة. وهناك ظلَّ فورنييه بصفته وكيلٍ يراقب الأوضاع الاقتصادية فقط.

ناولني جوليان الخطاب الذي تلقَّاه من محامٍ في نيويورك، وقال: «هنا تفسير ما حدث».

في سنوات الازدهار القليلة في أميركا عقب الحرب جنى المعرض ثروة، نال منها روبرت فورنييه نصيبه مثلنا. وقد استثمر مكسبه في سوق الأوراق المالية، الذي أثبت تقلقله. فجأةً خسر فورنييه جميع ماله، باستثناء راتبه الذي، رغم كل شيء، تمنَّاه كثيرٌ من الأمريكيين في تلك الفترة. ذُكر في الخطاب أن: «في محاولةٍ من فورنييه لتصحيح وضعه عبث بأموال المعرض التي كانت تحت تصرفه. ومن المتوقع أن تكون الخسارة كبيرة». ولمَّا ضاع ماله، وعجزَ عن مواجهة انكشاف عبثه بما استؤمن عليه، فقد التحق بموكب المنتحرين في نيويورك، الذين كانوا من الكثرة بحيث أصبحوا مثلاً يُتَّبَع.

لم يهتم جوليان لخسارة بضعة آلاف من الجنيهات لم تكن لتُشكِّل فارقاً كبيراً في مؤسسة بحجم معرض «ريميل». لكنه تألَّم لخسارة صديقه الذي لم يلجأ إليه عند الحاجة. في طريق العودة إلى المنزل تأملت ما حدث. وجدته باباً جديداً ينفتح على هذا العالم الكارثي. وتساءلت: ماذا دهانا؟ بعد عشرة أعوام من تمزيقنا حيوات ملايين الشباب باسم العقل، لماذا لا نزال نعيش في عالمٍ أشبه بمأوى المجانين؟

4

سُمِّي انهيار الحياة الاقتصادية لإحدى الدول الكبيرة بـ «الإحباط»، وكان المسؤولين يتعاملون مع شخص استيقظ صباحاً عَكْر المزاج، لكنه سيتحسن بحلول الظهيرة إن تناول شراباً مُنْعِشاً. لكن الإحباط الحقيقي هو ما قرأته في الخطابات التي أرسلها لي ميرفن. لقد قطع الولايات المتحدة الأمريكية من

شرقها إلى غربها، ثم اتجه إلى جزر المحيط الهادئ ومنها إلى أستراليا. لم أدرِ عَمَّ كان يبحث، ربما عن شيء لن يعثر عليه قط. لقد باع متجره ومنزليه، وأصبح مثل سفينة سُحِبَت مرساتها. لم يعد له من يَسْكُن إليه، ولا يزال في طواف. ودَّ أن تصحبه كاثي في تجواله، لكنها رفضت. لقد اتخذ قرارين متناقضين في الوقت نفسه. لأن ميرفن قلَّمَا سافر فقد أقنع نفسه أن ما فاته كثير ولا ينقصه سوى الترحال. أمَّا كاثي التي أمضت حياتها ترحالًا مع جماعة من السخفاء فقد قررت، في الثالثة والأربعين، أن عليها الراحة ولم تنزعج عن موقفها.

في الفترة الأخيرة قبل اتخاذها هذا القرار لم تُبالِ حتى بأن تخبرنا أين كانت. عرفنا مصادفةً أنها انفصلت عن رجل، أو ارتبطت بآخر، أو أنها تأخذ استراحة في مكان ما في الريف.

لقد تلقى ميرفن خطابًا من دار رعاية لجأت إليها كاثي، وسألني الذهاب معه إلى هناك. أخبرنا الطبيب الذي يدير تلك الدار بأن كاثي «تعافت»، لكن من أجل صحتها الجسدية والنفسية يجب أن تتفادى الوصول إلى الحال نفسه مجددًا. لقد تحدثنا إلى كاثي سائرين وسط الورود في حديقة بديعة مألوفة، رأيت البناء نفسه خلفنا تغمره الشمس بنورها. لم أصدق عيني! تفاجأت بأنني سرت من قبل هنا، في هذه الأرض العشبية التي تمتد إلى النهر، حيث رأيت إدوارد شارد الذهن يرتدي بذلته العسكرية. الحقيقة أننا كنا في منزل فورتنسكيو. لقد مات، دُفعت ضريبة إرثه⁽¹⁾، وورث ابنه كبير السنَّ المنزل حتى مات بدوره. هكذا انتهى وجود عائلة فورتنسكيو في هذا المكان، وخُصَّص لإنقاذ حطام الأثرياء. لا شك أن كاثي شابهت الـ «الغزالة الذهبية»⁽²⁾.

(1) ضريبة تُفرض في إنجلترا وويلز على إرث الفرد بعد وفاته إذا تجاوزت قيمته حدًا مُعيَّنًا. يُكَلَّف مُنفذُ وصية الميت، أو المدير المُعيَّن لتوزيع ممتلكاته إن لم يكتب وصية، بالتحقق أنَّ المبلغ المستحق الدفع حُسِبَ صحيحًا ودُفِعَ بالكامل. م

(2) الغزالة الذهبية = The Golden Hinde: مركبة شراعية قادها السير فرانسيس دريك في رحلة زُعم أنها استكشافية، امتدت من ديسمبر 1577 م حتى سبتمبر 1580 م. كان أوَّل رجل إنجليزي يطوف حول العالم. م

لم تعلم كاثي شيئاً عن الرابطة التي تجمعني بهذا المكان، أو أنني فيه قابلت أخاها الذي حكمتُ عليه بالإعدام. كان الحديث في هذا الأمر ممّا قد يعرقل «تعافيتها». لهذا لم آتِ على ذكره وهي تسير معي تستند إلى ذراعي في تلك الحديقة المسكونة. كم كانت خفيفة! لقد شعرت أنني أسند بضع عظام يكسوها القماش، كأن الأنسة الجميلة موستن-لويد تصبح طيفاً.

لقد تعلّمت أنا وميرفن الدبلوماسية بأرقى أساليب اللباقة والدمائة في مدرسة ماجي ويل، لهذا تحدثنا عن «مرض» كاثي كأنها تتعافى من الحصبة. أخبرنا ميرفن المسكين عن جولته الطويلة حول العالم، وسألها إن كان مشاركتها رحلاته قد تسهم في تمام تعافيتها. لكن كاثي لا تعرف الدبلوماسية، ورغم أنني لم يعجبني في طبعها الكثير فقد راقنتني صراحتها.

قالت دون حتى أن تشكره: «هذا آخر ما قد أودُّ فعله. ها أنا ذا. انظر إليّ! (حرّرت نفسها مني ووقفت أمامنا: امرأة هزيلة في منتصف عمرها، ملامحها غائرة وشعرها تالف) هل أبدو قادرة على السياحة والمرح؟ دعوني وشأني. إنني أدرك جيداً أين أقف. وإن كان في إقرارٍي بسوء حالٍي أيُّ عزاء لكم فسأقرُّ بأنني حمقاء لينتهي بي المطاف هنا. على أنني دائماً ما استطعت الاستغناء عنكم، ولن ألجأ إليكم الآن. سأتدبر أمري بعيداً عنكم وعن الجميع. صدّقاني عندما أقول إنني استغنيت عن الجميع. وسأعيش وحدي».

قد تبدو القوة في تلك الكلمات، لكنها كانت خادعة؛ تخدع بها نفسها. فالحقيقة أن الجميع استغنوا عنها.

سرنا حتى ضفة النهر. هناك رأيت زورقاً وحيداً، وتساءلت إن كان هو الزورق نفسه الذي قاده إدوارد برفقتي ثم برفقة نيكاً. فكَرْتُ: «مصيرك إلى وحدة شديدة يا كاثي. لن تسامحك نيكاً أبداً ولن ترضى برؤيتك. ولن يختلف موقف صوفيا عنها».

وبينما نحن الثلاثة واقفون نشاهد سطوع الشمس على صفحة المياه، قال ميرفن وهو يعبث بالعملات المعدنية في جيبه: «ألا يجدر بنا العودة؟».

لا مجال للعودة يا عزيزي. من هنا، حيث تغيبت عن دانييل في احتضاره، وجلس إدوارد في شبابه مهموماً؛ من هنا، من بين جميع الأماكن، أوقن أن لا عودة.

لاحت هذه الأحداث في خاطري وأنا أسير في شارع بوند بعد زيارتي جوليان. بعدما تأملت موت فورنييه تذكّرت خطابات ميرفن المُرسلة من الولايات المتحدة الأمريكية، ثم اقترحه اصطحاب كاثي معه. وقع هذا الحدث قبل عامين تقريباً، وقد سرّرت لأن كاثي رفضته. قالت إنها تستطيع الاستغناء عن الجميع وهو ادّعاء فارغ، لأنها لم تستطع الاستغناء عن مال موستن لويد قط. لكنها وجدت الرّفقة.

لم تتجاوز الساعة الثانية عشرة فقرّرت فجأة الذهاب لزيارتها هي وبوب سيرجيم. لقد راقني بوب وكنت واثقة أنه يناسبها. إنها تعرفه منذ زمن طويل. يكبرها سنّاً، لكنه لم يتخطّ أوائل الخمسينات من عمره. في الفترة التي سبقت الحرب كثيراً ما ظهر حيث كانت. دائماً ما سعى مُصوِّرو الطبقة الراقية لالتقاط صورهِ مثلها مع التعليق: «المُبجّل بوب سيرجيم». كان الشقيق الأصغر لتوّم سبقه بنصف ساعة إلى الحصول على لقب «نبيل» وإقطاعية خربة بانسة. لقد اعتاد أن يقول: «إنها نصف الساعة الأكثر ربحية في حياتي. لكنني عندما أتأمل الأمر أجد أنها لم تُمثّل جزءاً من عمري لأنني لم أكن قد وُلدت بعد، أليس كذلك؟ بل تلكأتُ كي يواجه تشارلز المسكين شقاء الحياة أولاً، أليس كذلك؟».

مع ذلك استطاع بوب الاستمتاع بحياته. دائماً ما قاد خيول الغير واستُضيف في منازلهم؛ استخدم بنادق صيد الآخرين، ودُعي إلى يخوتهم أو فيلاتهم على سواحل فرنسا وإيطاليا. لقد حاز الكأس الوطني لسباقات الخيول في «شلتنهام»، وشارك في «السباق الوطني الكبير» مرتين. في هذه المنافسة الصعبة طُرح من على صهوة الفرس عند قفز الحاجز الأول، والخيول تعدو سريعاً حوله. قال: «لم يسعني سوى التدرج أسفل الحاجز. وبينما أنظر إلى الأعلى رأيت الخيول تمرُّ كالبرق فوق رأسي. كم كان منظرًا مهيبًا! يا لتلك البطون الضخمة!».

في شبابه تسببت مغامراته في كسر معظم عظامه وتحطيم قلوب كثير من الفتيات. لكنه لم يرغب في الزواج من فتاة بلا ثروة، وفي المقابل لم ينل

إعجاب آباء الفتيات صاحبات الثراء. لكنني لا أظن أن هذا الأمر أزعجه. لقد عاش حياة مرح لا يشغله سوى الخيول، وبنادق القنص، وصنارات الصيد.

على أنه تقدّم للزواج من كاثيري بلياقة جمّة، وبعض الجديّة، دون أمل في موافقتها. قال: «هذا هو حالي يا كاثيري. لا أملك ثروة. لم أملكها يوماً ولن أملكها مستقبلاً، أليس كذلك؟ رغم كل شيء، ما قولك؟».

لقد لاحظتُ أن عاطفة قوية نشأت بينهما. لكنني لم أرَ بوب سيجريم منذ سنوات. ولم أعلم أنَّ عند انخفاض سهم كاثيري في الأوساط التي تتردّد عليها، واستمرارها في تجاهل هذه الحقيقة، كان سيجريم دائماً حولها، قد مسّه الإحباط نفسه الذي يلاحقها في سكّون كل ليلة. لقد نالت منه الحرب. فقدَ ساقاً وعيناً أخفى محجرها خلف عصابة سوداء. أثّرت الأسلحة الكيميائية على رثتيه فعانى نوبات شديدة من الكُحة. قلَّ إقراض الخيول لكنه لم يعد يستطيع ركوبها على أي حال. مكّنّته جرأته المعتادة من اقتحام ساحات الرقص بساقه الخشبية، لكن من قد ترغب في النظر إلى ذلك المصراع الأسود الذي قد ينفّث على ما يحسّن نسيانه؟ ثم إن الكثيرين الذين تروقه صلبة بوب سيجريم لم يعودوا موجودين. لقد ظهرت صُورهم الأخيرة في الجرائد، مطبوعة في قوائم الموتى لا أعمدة أخبار صفوة المجتمع.

في ملهى ليلي كانت كاثيري برفقة شابٍّ في نصف عمرها. وقد شاهدها سيجريم، الجالس إلى طاولة بالقرب منهما، ترتاح في مقعدها بعد إحدى الرقصات. ثم سمع الشاب يقول: «لم لا تعودين إلى المنزل يا فاتنتي؟ اخدي إلى الفراش. أنتِ لستِ قادرة على أداء هذا النوع من الأنشطة».

لقد ألمح البعض إلى تلك الحقيقة من قبل. لكن تلك كانت المرة الأولى التي تسمعها فيها بقسوة دون موارد، مع ابتسامة وشدة دافئة على يدها. قالت: «أحضر معطفي».

كانت الليلة في بدايتها، وراقب الحضور ما يحدث بفضول واستمتاع. جلب الشاب المعطف ووضع على كتفها، ثم قال: «لن تمنعني في بقائي هنا، أليس كذلك يا فاتنتي؟».

رأى سيجريم كاثي تخرج نقوداً من حقبيتها فنهض. وقبل أن تُناولها الشاب وقف بينهما رافعاً صوته يقول: «إن لم يستطع الوغد الإيفاء بالتزامه فعليه أن يدفع تكلفة مرحة، أليس كذلك؟».

ثم مدَّ ذراعه لكاثي، تناول معطفه وقبعته، وغادرا الملهى. ثم أوصلها في سيارة أجرة إلى شقتها. بعد بضعة أيام صحبها إلى دار الرعاية في منزل فورتسكيو، ولم ينقطع عن زيارتها. عندما غادرت دار الرعاية وبدأت تستجمع ما تبقى من حياتها كان في عونها. لقد اشترت منزلاً في شارع «ساوث أودلي»، أثَّته، وفيه استقرت. لم تُعد عناوينها تتبدَّل على البطاقات البريدية. أصبحت تعيش وفقاً لما يلائم عمرها، لكنها كانت أكثر إنهاكاً ونحولاً من أقرانها. لم تغادر منزلها أو تدعو أحداً إليه، باستثناء بوب سيجريم. وقد قَبِلَ الدعوة ومكث معها. لكنني لا أعتقد أنهما ذهبا إلى الفراش معاً أبداً. لقد عاشا حياة زوجين، لكن لكلٍّ منهما غرفة نوم خاصة. كانا صديقين قديمين التقيا على طريقٍ لا يقود إلى أي وجهة. قد اطمأن أحدهما في وجود الآخر، ولم يعبا أيٌّ منهما بما يظنُّ الناس حول هذا النمط من الحياة. استعاد سيجريم كامل أناقته، وامتلك سيارة تعمل بآلية خاصَّة ثلاث ساقه الواحدة. أصبح عضواً في عدة نوادٍ راقية وفيها أمضى معظم وقته. لكنه دائماً ما كان حاضراً على طاولة العشاء ولم يغادر المنزل بعده قط، ما لم يذهب مع كاثي إلى المسرح. لقد دفعتُ تكلفة تلك الحياة، لكنها كانت تحظى بأفضل مردودٍ قد تجلبه لها أموالها.

عندما ذهبت إلى شارع «ساوث أودلي» لزيارتها في ذلك الصباح الخريفي قال بوب سيجريم: «كنت أخبر كاثي عن بطِّ الصواي. بالتأكيد لم تَرَ مثله من قبل. ذات مرة مكثتُ لدى عائلة فوربس-فِنك في «نورفوك». أتعرفان بيرسي فوربس-فِنك؟ يحتشد بطِّ الصواي في سهول طينية بالقرب من منزلهم مساحتها أربعة فدادين. ليس فداناً أو اثنين، بل أربعة. لقد أخبرتُ كثيرين بهذا الأمر لكنهم لم يصدّقوني. أظنُّ أنك تعرفين هذا النوع من الطيور يا سيدة أندريدج، أليس كذلك؟».

- معرفة سطحية فقط. لم أتقرب إليهم ببندقية صيد.

- تبدو تلك الطيور جميلة وهي تسبح على سطح المياه. وقد اصطدنا بعضَها بالبنادق.
- أظنَّ أنَّ المدافع الرشَّاشة أكثرَ عمليَّة في حالة كتلك.
- بدا الرائد سيجريم حائراً. قال: «المدافع الرشَّاشة؟ لا، لا. لا يمكن فعل هذا بتلك الطيور. ستصبح ممارسة وحشية شديدة، أليس كذلك؟
- بلى، وحشية شديدة... تجاه بطِّ الصواري.
- بالتأكيد.
- قالت كاثي: «ألست ذاهباً إلى النادي الآن؟».
- هل حان الوقت؟ حسناً، أراك مساءً يا كاث.
- بعدما شاهدناه يرحل قلت: «يروقني بوب خاصَّتكَ».
- أجابتنِي: «يروقني أيضاً. يبدو الأمر كأنني أملك الأعداد الصادرة من مجلة «تاتلر» على مدار عشرين عاماً في منزلي. ماذا يمكنني أن أطلب أكثر؟».

6

لقد أثار الرجلان ربحا قلبي الأنستين موستن-لويد اهتمامي، وكانا مصدر تسلية كبيرة لي. إن معرفتي القصيرة بهنري شيب قبل الحرب، وفي أثناء العطلة في كورنوال حيث التقى صوفيا، جعلتني أتساءل أي نوع من الأزواج سيكون، بخاصَّة بعد زواجه من فتاة ثرية. والآن، إذ مرَّ على زواجهما خمسة أعوام، أصبح لديَّ الجواب. لقد حصل هنري على شهادة في الهندسة من جامعة كامبريدج، وأصبح عضواً في فريق الأبحاث في إحدى شركات تصنيع الطائرات. استخدم أموال صوفي في مساعدته على كسب ماله بنفسه فقط. لقد قال: «الآن إن ساءت الظروف فلن تجوع صوفي». فابتسمت وأنا أفكِّر في الظروف اللازمة لضياح ثروة موستن-لويد الهائلة. لقد عرفت شيئاً عن توظيف تلك الثروة في مختلف المجالات التي تُدرُّ الرِّبح. لهذا حتى إن تبدَّد بعضها -وهو ما ليس محتملاً- فلن تتأثر صوفي. لقد آزرت هنري، ووافقت راضيةً على مختلف اقتراحاته رغم أنها، على سبيل المثال، تمقت

الحيوانات المنزلية. لقد أغدقت عليه من مالها لتحقيق طموحه واستقلاله التام. لم تعيش في شقة في كامبريدج، بل استأجرت منزلاً هناك. واشترت سيارة «رولز رويس» يقودانها إلى منزل «سانت جونز وُد» في عطلة نهاية الأسبوع. ولأن هنري الآن يعمل في «باكينجهامشير» فقد اشترت كوخاً هناك. عاشا هانئين مثلما توقعتُ. كانت سعادتهما هادئة، رأيتها مثل نيران نتجها اتِّحادُ قلبين ناضجين مُضيئين، لكنها لم تفرق شديداً، أو ترتفع ألسنتها عالياً، عندما التهمت شعلتها. لقد أدفأهما الحبُّ، لكنه لم يستنفدهما. أحبَّ كل منهما طباع الآخر، لكنهما لم يهيما ببعض. في رأيي إنَّ تراجع أحدهما عن معيار مُحدَّد يتصوَّره الآخر فإنَّ زواجهما قد يتضرَّر. لكنني كنت واثقة أن شيئاً كهذا لن يحدث. لقد بلغا الأربعينيات من العمر؛ ترسَّخت طباعهما. وبعد خمسة أعوام من الزواج لم ينجبا أطفالاً. هكذا لم يُمثِّل الجيل الجديد سوى نيكولاس وفيرا.

كان نيكولاس في انتظاري عندما عدت من منزل كاثيري في ذلك الصباح. رأيت سيارته مُصطفًة في الشارع فعلمت أنه في الداخل. لم يكن ممكناً ألا تُميَّز سيارة نيكولاس؛ تلك القرمزية التي تشبه الزنبور، المفتوحة للرياح، التي تتزُّرُّ غاضبةً للحظات عندما يدير محركها، ثم تنطلق مثل الرصاصة. لقد اعتاد أن يقول: «لا مجال لخمسة وثلاثين ميلاً في الساعة في سيارتي يا جدتي».

سيذهب نيكولاس إلى أكسفورد خلال بضعة أيام. بعدما قبَّلني قالت هاجي: «ترفَّق بها».

قلت: «ضعيني في صندوق وانتهي من أمري».

- إنكِ تترنحين منذ الصباح. لا بدَّ أنك متعبة.

- لم أكن أترنح، بل أتمشَّى. وأنا مفعمة بالحيوية. نيكولاس، ما سبب الزيارة؟

- جئت لأصطحبكِ إلى «كافيه رويال» ولم أجِدكِ. لكنني حجزت لنا طاولة وعلينا أن نسرع.

- هذا آخر شيء يلزمها فعله الآن يا سيد نيكولاس. عليها الاستلقاء عشر دقائق ثم تناول الغداء هنا. هاتِفِ المطعم وألغِ الحجز وتناول وجبتك معنا.

قلت: «هراء! سنذهب في سيارتك يا نيكولاس، ولتسرع في القيادة كما يحلو لك!».

لكنه كان فتى عاقلًا ولم يُطعني. قال: «أين برأيك قد أستطيع صفَّ تلك السيارة؟ يجب أن أتركها هنا ولنجد سيارة أجرة».

عندما وصلنا إلى ردهة المطعم قلت: «لأجلس هنا قليلًا».

- عذرًا يا جدتي. هل أتعبتك؟

- لا. لا يتعبني شيء سوى التدليل. فقط أريد استعادة ذكريات بعض الأشباح.

- هل هذا كل ما في الأمر؟ حسنًا، ستخبريني بهم عندما ندخل، أليس كذلك؟

لقد رأيتهم في خيالي بوضوح شديد وأخبرته عنهم. قال: «إنهم جماعة لطيفة من التحف الشبحية العتيقة».

- هنا انتظرتُ جدَّتك الكبرى ابنها ميرفن؛ جدُّك. حينئذٍ كانت تتقدم في العمر، لكنها بدت فاتنة. في ذلك الوقت أحسنت النساء التأنق. لكن انظر إلى نساء اليوم! كان الرب في عوننا! إليك هاتين الفتاتين هناك على سبيل المثال».

ابتسم قائلاً: «إنهما لا تبدوان سيئتين في نظري. بخاصة الصغيرة صاحبة الأنف ذي الطرف المرفوع. انظري إلى ساقها».

- لكلِّ جيل نظرته الخاصة بالطبع. سأخذ حساء البصل والخبز الجاف فقط. في ذلك اليوم أتى جدُّك في كامل أناقته. كانت الأناقة في ذلك العصر في أوجها.

- لقد رأيت صورًا قديمة لهم، وأقرأ بأنهم يجذبون الأنظار. لكن ما أسوأ تلك الياقات المُنشأة! ما رأيك في شرائح الدجاج الباردة؟

- حسنًا، إذن لنطلب معها الخس فقط. في ذلك اليوم رأيت جدتك للمرة الأولى. كانت ضئيلة ترتدي ثوبًا أحمر داكن، تبدو حُلوة خجول.
- بالحديث عن الحلوى لنطلبها والنادل هنا. مُهلّبية الكراميل طبق أساسي.
- حسنًا، لكن لا مزيد. إنني أحافظ على صحتي بتناول القليل من الطعام. سأختتم تلك الوجبة بالقهوة والبراندي. كان جدك جالسًا هناك. وأنا جالسة هنا مع ماجي ويل. على يمينك جلس الناشر الخاص بها. هل تدري من كان معه؟
- لا أدري. جيفري تشوسر أبو الأدب الإنجليزي؟ أم شبح قديم يحمل رأسه أسفل ذراعه؟
- جورج ميريديث.
- هذا اسم جديد أسمعه للمرة الأولى. من كان؟ إنني أعرف أفراد العائلة جميعهم! أين يأتي دور جورج؟
- يا إلهي! ألا تقرأ يا فتى؟
- لا أقرأ سوى المفروض عليّ قراءته.
- إذن لماذا أنت ذاهب إلى أكسفورد؟
- لا أعلم السبب تحديدًا. لم يذهب المرء إلى أكسفورد؟ بخلاف التفاخر بالذهاب إلى أكسفورد؟
- إذن ماذا ستفعل عندما تتخرج؟ وماذا تصبُّ في كأسِي؟
- إنه شراب «هوك» يا عزيزتي.
- أنا لا أشرب سوى الماء في وجبة الغداء، لكن لا بأس. أخبر النادل أنني أريد قطعة صغيرة إضافية من هذا الدجاج. إذن ماذا تخطّط؟
- أمل أن أعمل مع هنري وفريقه. إنهم يُطوِّرون أنواعًا جديدة من الطائرات وأريد تجربتها. أودُّ أن أصبح طيارًا اختبار.
- سيصيبك الطيران بدوار شديد.
- لا. لقد جربته من قبل وكنت بخير. من حين إلى آخر أرافق هنري في تحليقه.

- إذن فهو يقود الطائرات؟

- ليس كثيرًا. لكنك تعرفين هنري. عندما يدرس شيئاً فإنه يتناوله من البداية إلى النهاية. ولأنه يعمل في تصميم الطائرات يروقه اختبار عملها. لهذا حصل على شهادة طيار.

- ما الذي تخطّط فيرا لفعله؟

- إنها غريبة الأطوار. مولعة بكل ما يسير على أربع. لن أتفاجأ إن شرعت بدورها في المشي على أربع.

- أقرُّ بأن حفيديّ يتمتعان بذوق استثنائي.

- أجل. إن ذوقي استثنائي جداً حتى إنني سأتناول الجبن الفرنسي مع مُهلبيّة الكراميل. هل تشاركينني؟

- لا.

- ماذا عن قطعة صغيرة فقط؟

- ربما...

- يعجبني فيك الانفتاح على التجربة. سترين أن البراندي يُناغم بين هذه الأطعمة المختلفة.

- يبدو أنك جرّبت الكثير رغم حداثة سنك.

قال بجديّة مُفاجئة: «في هذه الأيام يجب أن يستغل المرء صباه قبل فوات الأوان».

- ماذا تقصد بقولك هذا؟

- إممم... ها هو البراندي. لنُدع الفلسفة وشأنها ولنهنأ بالشراب. إنني أجدك رفيقة شرابٍ رائعة يا جدتي. لنشرب نخبك ونخب أشباحك!

في عائلتنا كان الجمال يشب فوق جيلٍ ليهبط في الجيل التالي له. كانت أُمي جميلة، لكنني لم أُجذب الأنظار. كانت نيكا طفلة حسناء. وبعد زواجها بإدوارد تألَّق جمالها، لكنه خبا بموته. ظلَّت امرأة جذابة، لكن الحيرة كثيرًا ما بدت في عينيها. عندما نجلس وحدنا للقراءة بجوار المدفأة في مساء شتوي ألحظ تشتت انتباهها. كانت تغفل عن القراءة، وتتطلع إلى النيران شاردة الفكر، حتى تعيدها كلمةٌ مني إلى الواقع فجأةً.

الآن كانت فيرا في السابعة عشرة متواضعة الجمال. قصيرة سمراء. أحاط شعرها القصير بوجهٍ ملامحه عادية. لكنها تمتعت ببشرة صحيّة. دائمًا ما ارتدت بنطال ركوب الخيل، حتى إنني أحيانًا تساءلت إن كانت لا تخلعه عند النوم. شكَّل ذلك البنطال، وقميص وربطة عنق ومعطف صوفي، زيَّها المفضَّل. في زمن ويلي لم يوجد إصطبل في الكوخ الذي أصبحت نيكا تعيش فيه، لكن الآن تغير الكثير. شُيِّد مرأب لسيارتي نيكا ونيكولاس، وإصطبل لفرس فيرا العربي المدعو فردوسي، وبيتًا للكلبيها. كانا من الفصيلة «آيريش وولفهاوند»، فراؤهما رمادي، أَسْمَتُهما فن وشيمس. كم أبهجتني رؤية فيرا على صهوة فرسها الذي يرفرف ذيله، والكلبان يركضان خلفها، أو يعدوان عند سفح التلِّ وسط ظلال السحب الجارية.

كانت فيرا طفلة مُتَحَفِّظَة. لم تُثر اهتمامها نزعات الصيد. لم تشارك قط في مسابقات الفروسية المحليّة. لم يكن لها أصدقاء ولم تسعَ إلى اكتسابهم. أحيانًا تأخذ طعامها وتمضي النهار كله في الخارج. عندما تعود تسألها نيكا: «أين كنتِ يا عزيزتي؟ ماذا فعلتِ؟». فتجيبها: «لقد عقدت وثاق فردوسي، ثم جلست أشاهد فن وشيمس يلهوان».

حتى في البيت قلَّمَا رأيناها. كانت تلزم غرفتها، وتساءلت كثيرًا ماذا تفعل. أحيانًا عندما تعود من جولة بالفرس يسترعي نظري توهُّج في عينيها الزرقاوين الداكنتين؛ شيء عميق وراء مظهرها العادي يُمثِّل فيرا الحقيقية. وتنميت أن نصل إليها.

لقد قال نيكولاس إنه لن يتعجب إن مشى على أربع. وفي نظري بدا محتملاً أنها، في أماكنها السرية حيث لا نراها، كانت تُحلّق.

في الأسبوع التالي لذهاب نيكولاس إلى أكسفورد ذهبتُ إلى هناك. لقد اشترت نيكاً مساحات واسعة من الأراضي المحيطة بالكوخ، وضاعفت مساحة الكوخ نفسه. الآن علا غطاءً حديديّ مُزخرفُ البئر الذي مدّنا أنا وويلي بالماء، الذي أصبح مُتوفراً في جميع غرف البيت مثله مثل الكهرباء. لم يعد المكان يشبه ما كان عليه عندما اعتادت ماجي ويل استقبال زائريها في أيام الآحاد، الذين جاؤوا على درّاجاتهم يقطعون طرقاً مُغبرة. لقد غطّى القطران الشوارع. أصبحت السيارات في مكان مكان. عندما تسير في الحدائق تحلّق الطائرات فوق رأسك. وفي حانة البلدة توجد منضدة تجلس أمامها في مقاعد فولاذية يغطيها جلد أحمر مُخطّط كي تشرب الكوكتيلات. أصبح من اليسير الآن السفر من لندن إلى البلدة. لهذا بُني كثير من المنازل الجديدة وتحولت الحظائر إلى مكاتب. جُرّفت البركات القديمة وصُبّت بالإسمنت لتصبح حمّاماتٍ للسباحة. علمت أن واحداً منها تُسخّن الكهرباء مياهه. في ساحة البلدة سارت فتيات يبدون كأنهن جوقة غناء هزلي في عطلة نهاية الأسبوع، يرتدين الوردي والأرجواني، في انتظار أن تفتح حانة الكوكتيلات أبوابها.

رغم ذلك فقد ظلّ المكان هادئاً بما يكفي باستثناء عطلات نهاية الأسبوع، لأن أولئك الشباب وجب عليهم العمل لكسب عيشهم، وهو شيء لم أضطرّ إلى فعله قط. لم يعجبني عالمهم، لكنني في الوقت نفسه لم أستاذ من طريقة استمتاعهم بوقت فراغهم. كنت أستطيع المكوث خلف جدران كوخ نيكاً. لكنهم، كما تصوّرت، لم يملكو رفاهية الانعزال عن العالم المحموم. وعلى الأرجح أنهم كانوا على أتم استعداد لاستبدال حياة فيرا بحياتهم.

لقد ارتادت فيرا مدرسة للفتيات بعض الوقت، لكنها تركتها قبل إتمام دراستها. لم أعلم سبب حدوث ذلك. توجد أمور كثيرة لم أعرفها عن هذه الفتاة. لهذا سعدت عندما أخبرتني نيكاً في أحد أيام تلك الإجازة: «هل يمكنك البقاء مع فيرا يوماً واحداً فقط يا عزيزتي؟».

- أجل، يمكنني هذا. لكن إلى أين ستذهبين؟

- إلى أكسفورد لأرى نيكولاس.

- لكنه غادر للتو!

- أجل، لكنني أريد الذهاب. سأسافر بالسيارة. لقد هاتفت فندق «ميتز» لحجز غرفة. سأمكث هناك ليلة غدٍ وسأعود في اليوم التالي له.

غادرتُ في صباح خريفي رائع يسوده الهدوء. كنا في منتصف الأسبوع، إذ يسافر الرجال إلى عملهم في المدينة، فتصبح البلدة ساكنة. اختفت فيرا بعد الإفطار. ذهبت إلى الإصطبل تعتني بنظافة فرسها وكلبيها. بعد قليل عادت وخاطبتني قائلة: «سأكون في الخارج طوال اليوم يا جدي. أتمانعين؟».

أمضيتُ اليوم في الحديقة. لقد طوّرتها نيكاً فأصبحت رائعة. انتشرت فيها أحواض الزهور والمقاعد الحجرية. وأحاطها سور من الحجارة الرمادية، يجعلها هادئة في معزلٍ عن الحياة خارجها. كسا العشب أرضها. في منتصفها أنشئت بركة تطفو على سطحها الزنابق. تفتّحت زهور النجمية، والهيلينية، والفلوكس مختلفة الألوان، وقليل من الدلفينيوم وسط جو الخريف اللطيف. ملأ الهواء أزيز اليعاسيب، وطنين النحل والعث الصقري المكسوّ بالزغب، الذي تغمز ألسنته الطويلة زهرة تلو أخرى. كاد السور الرمادي يختفي وراء الورود والشجيرات تامة النضج، المرصعة بالثمار العنبية الصفراء والحمراء. في طرفٍ من الحديقة قامت تعريشة مسقوفة بالأردواز. صعدت الدرجات الأنيقة التي تحدّها زهور اللبلاب الوردية وأوراقها الرمادية كي أصل إليها. جلست في مقعدٍ خوصيّ طويل ذي وسائد حمراء، حيث لم أر سوى الحديقة، والسماء الزرقاء، والطيور التي تحلّق في أرجائها. كم بدت حرّة! تساءلت إن كانت نيكاً عندما تجلس في هذا المحبس البديع الذي صنّعه، تفكّر مثلي في تلك الطيور التي تعلو وتغرّد، تتشاجر وتجوع، وقد تموت في يومٍ شتويّ بارد، لكنها تعيش في حرّة.

تناولت أنا وفيرا العشاء معاً ثم ذهبتُ إلى غرفتها. كان ذلك اليوم أكثر دفئاً من المعتاد في نهاية أكتوبر. وحتى الآن، إذ ترحل الشمس، بقيّ الدفء. انتظرتُ ساعة، ثم صعدتُ إلى غرفتها وطرقت بابها. عندما دخلتُ وضعتُ كتابها ونهضتُ.

قلت: «القمر الليلة بدر. وسيطلع خلال نصف ساعة. ما رأيكِ أن نخرج لنشاهده؟».

قطعنا الحديقة إلى الحقول وراءها. ثم بدأنا نصعد بتمهّل الأرض المرتفعة التي تزدان بأشجار الزّان. كانت ليلة رائعة، حانية، مُزهرة. ركضت الأرناب بعيدًا عنا يقصدون جحورهم على أطراف الغابة. وعندما وصلنا إلى وجهتنا كانت الأشجار راسخة لا تهزّها ريح. لقد جلبت فيرا معها وسادة ووشاحًا. ساعدتني في الجلوس على الوسادة ووضعت الوشاح على كتفيّ. في الأسفل رأينا أضواء البلدة ناعمةً مريحة. كان الأفق الشرقي منيرًا. هناك رسمت منحدرات التلال خطأً داكنًا حادًا. وسرعان ما أطلّت ناصية البدر، ثم رفع جسمه إلى الأعلى ببطء، حتى ظهر برونزيًا مُضئًا. في اللحظة نفسها، في الغابة وراءنا، بدأ عندليبٌ أداء أولى نغماته في خفوت. وسرعان ما صدح بثقة يملأ الأثير بتغريده.

جلست فيرا بجواري فقلت: «يطربني سماع هذه التغريدات. إنَّ طيور العندليب لا تُحلّق في كورنوال لأنها لا تذهب إلى أقصى الغرب».

قالت فيرا: «قد تختلف الطيور لكن البشر يتشابهون. هل تحبّين البشر؟».

- يا له من سؤال غريب يا صغیرتي العزیزة! لقد أحببت كثيرين وكرهت كثيرين أيضًا على مدار حياتي.

- لا، لم أقصد ذلك. (بالكاد حاولت التعبير عن فكرتها) لنفترض أنَّ البشر جميعًا كتلة واحدة يمكنكِ النظر إليها مثلما ننظر إلى القمر الآن، هل سيروقونك أم ستزدرينهم؟».

- لا يمكنني الانفصال عنهم بهذه الطريقة. إنني جزء منهم.

- أعتقد أنني لن أستطيع أبدًا أن أجعل أحدًا يفهم ما أعني. لكنني أمقت البشر. إنهم وحشيون.

قالت كلماتها بلهجة قاطعة تغرز أظفارها في العشب. فاستنتجت أنها ستقول المزيد ولزمت الصمت.

- لننظر إلى التاريخ. لقد درسنا الحروب الصليبية في المدرسة، لهذا تركتها.

- طالما تساءلت حول سبب ترككِ المدرسة يا عزيزتي. أخبريني. ماذا حدث؟
- سأخبركِ بما لا شكَّ أنكِ تعلمينه. عند دراسة الحروب الصليبية ملؤوا رؤوسنا بالأوهام عن رجالٍ مثل بطرس الناسك وريتشارد قلب الأسد، وخلعوا عليهم القداسة. ثم وجب علينا كتابة مقال حول تلك الحروب. وقد ذكرت فيه أنني أرى جميع أولئك الرجال المنخرطين في تلك الحروب أشراراً مُتعطّشين للدماء. لقد مثّل طرف منهما الله ومثّل الطرف الآخر يسوع. قلت إن كان مُمثّلاهما يتصرفون بهذه الطريقة فإن تعاليم الله ويسوع لا بدّ مثيرة للريبة. ثم انتقلت إلى الحديث عن الحروب الدينية في أوروبا، التي لم يكن من المفترض أن نناقشها في المقال. كتبت أنّ على الرغم من أن الله لم يكن جزءاً منها، فإنّ البشر لم يتوانوا عن أن يحرق بعضهم بعضاً وأن يمزّق أحدهم الآخر باسم يسوع. هكذا استنتجت أن المشكلة في البشر؛ إنهم وحوش بربرية تتلذذ بالتعذيب.
- ولم يلقَ ما كتبتِه استحساناً.
- بالطبع. لقد تحدثت مديرة المدرسة إليّ برفق شديد. قالت إنني عندما أكبر سأحسن الفهم. يجب ألا أتصور أن طفلة في عمري ستستوعب ما شغل فكر عقولٍ عظيمة كثيرة، وما إلى ذلك. أحببتها أنني أفهم جيداً. قلت إن تلك الحروب أرتني البشر مجرمين قساة، وإنني لا أريد سماع أو قراءة المزيد عنها. قالت إن هذا غير ممكن لأن تحديد المقررات الدراسية ليس من حقي. وشيئاً فشيئاً احتدم النقاش. أخبرتها أنني متفاجئة لأنها تسمح بتدريس التاريخ دون الإشارة إلى حقيقته. سألتها ماذا تظنُّ العالم قد ربح بقتل والدي. ثم قادت كلمة حادة إلى أخرى، حتى أخبرت أُمِّي بأن ابنتها فُصلت من المدرسة لأن لها تأثير سلبي.
- بالإضافة إلى التوهج الذي يتبدّى في عيني فيرا أحياناً فقد تمتعت بميزة أخرى جذابة. كان صوتها عذباً رقيقاً. وبدا غريباً وسط مفاتن الطبيعة: القمر وتغريد الطيور، والأشجار التي تشبه أجنحةً حامية تحيط بالبلدة، أن أسمع صوتها الهادئ يرى في هذا البهاء كله ستاراً خلفياً خادعاً في مسرحٍ تدور على خشبته دراما دموية.

قلت أحاول إنقاذ البرعم الشاب من داء خبيث: «لا تقتصر الحياة البشرية على الحرب».

كانت تجلس مثلما رأيت نيكاً جالسةً تنظر في الجهة المقابلة من البحيرة إلى الكوخ، حيث اختلى إدوارد بنفسه. ركبناها مرفوعتان، يستند إليها مرفقاهما، وتحيط يداها بذقنها. لكنها تنظر إلى البدر اللامبالي.

أجابتنني: «لكنها طاغية. تشبه زلزالاً آثاره مُدمِّرة. يكفي وقوع زلزال واحد فقط في نهاية نصف قرنٍ لهدم كل ما بُني خلاله، أليس كذلك؟ لكن ما يحدث ليس بكارثة طبيعية مثل الزلازل. لقد جُنَّ البُناة أنفسهم، أصابهم سُعار الدم، ويسعى أحدهم في تدمير الآخر».

الآن توقف العندليب عن الغناء، فقالت فيرا ضاحكة: «لا يروق العندليب أن يكشف حقيقته وأفصح عن أنه بلا جدوى».

- بالطبع. كان ليروقه أن تجدي الجمال في تغريده مثل كيتس.

- يا لكيتس من شاعر بائس! لم يرَ سوى التنافر بين عالم العندليب ذاك، وعالم الإنسان الذي يعرفه جيداً:

«حيث يبهت الصُّبا، يذبل ويموت

حيث يملأ الفكر الأسى والقنوط»⁽¹⁾.

عندئذٍ جلسنا في صمت طويل، والبدر يقطع السماء حزيناً. عادت الأرانب تقفز مرحاً في الضوء الشاحب. ومن حين إلى آخر يرتعش صوت العندليب في زقزقة خافته، كأنه يوشك أن يغني مجدداً، لكنه يحجم عنه.

قالت فيرا: «يتوق المسكين إلى هتافنا، لكننا نخذه».

رأينا قطاراً بعيداً في الوادي. لم يصل إلينا صوت عجلاته، لكننا سمعنا صفارته. وشاهدناه يمرُّ مثل عقِدٍ من الياقوتات ترسمها يد خفية على صفحة الظلام.

(1) مقطع من قصيدة «أنشودة إلى عندليب» للشاعر جون كيتس. م

قالت فيرا: «يبدو جميلاً جداً. لكنه على الأرجح يمتلئ بأناس سيئين، مثله مثل تلك المنازل في البلدة المنيرة الجميلة أسفل منا. حقيقةً أنا لا أثق بالمظاهر أبداً. إنَّ الجمال الحقيقي في داخلنا لا في أي مكان آخر».

أشعلتُ سيجاراً، وبدا واضحاً أنها انتهت من الحديث. لهذا لم أقل شيئاً، وواصلت جلستي على ساحل بحر الضوء الشاحب، إذ يرسم البدر ظلال الأشجار في قلب الغابة. وتساءلت كم من صفات إدي رودا الأصيلة والغريبة قد ورثتها حفيدة ابنه الجالسة بجواري.

عندما أنهت سيجارها سألتها: «ألا ترين أنه يجدر بك لقاء مزيد من الناس؟ توجد في البلدة فتيات لطيفات، أليس كذلك؟».

- لا أتفق معكِ. لقد اعتدت ركوب الخيل مع بعضهن. ثم أُقيمت المسابقة السنوية للعروض الفروسية. لقد شاركت في منافسات القفز بالخيول وربحتها جميعها، إذ لم يوجد منافس لفرس مثل فردوسي. لكن قلوبهن اشتعلت غيرةً. حينئذٍ أدركت كيف تبدأ الحروب.

- ما علاقة الغيرة بالحرب؟

- إنها منبعها. فالحروب، مثلها مثل كل شيء، تبدأ في القلوب. الحروب مريعة لأن قلوب البشر وعقولهم مريعة. أيُّ من يتَّصف بالحسد والغيرة والقسوة والفظاظة يمكنه أن يَشُنَّ حرباً. أيُّ شخص يظلم خادماً أو يزدريه ليس أقلَّ سوءاً من كبار الأشرار المذكورين في كتب التاريخ، الذين يُفترض بنا إجلالهم. لهذا قرَّرت ألا أخوض أي منافسة أبداً. سأتابع الحبِّ والاحترام والتناغم.

- أخبريني يا صغيرتي، ما الذي يروقكِ فعله؟

- أن أبقى وحدي.

- وماذا تريد أن تصبحي؟

- شاعرة.

نهضتُ تصرُّ عظامي الهَرمة، ووقفنا جنباً لجنب نتطلع إلى تلِّ الوادي ذي البريق الأبيض الرقيق. لقد اختفت برونزية البدر. الآن ازداد غُلُوًّا وصِغَرًا. أصبح قرصاً ذهبياً لامعاً. في الأسفل أطفئت الأضواء واحداً تلو الآخر. تأثرت

بشدة بالامتياز الذي حظيت به. شعرت أن حتى نيكاً لم تقترب إلى ابنتها مثلاً كنت الليلة.

سألتها: «لَمْ تبوحين لي بهذه الأشياء؟».

- لأنكِ سيدة كبيرة حكيمة.

وعندما نزلنا التلّ سألتني خجلة: «أتودّين أن تري فردوسي قبل أن ندخل البيت؟».

ثم أخرجتُ كلبها من مأواهما ليصحبانا إلى الإصطبل. أشعلتُ الضوء، ووقفتُ عند البوابة أنظر إلى الداخل. لن أنسى أبداً تلك اللحظة حيث رأيت الفتاة، التي أصبحت تمقت البشر، تحيط ذراعها برقّة بعنق فرسها الجميل، والكلبان يتجولان حولها على مهل. كانت تنبض بالحب. تساءلت ما معضلة عالم البشر حتى لا يسعه حبها؟ كان نوع الحبّ الذي شهدته الآن جميلاً صائباً، لكن ليس من الجميل أو الصحيح نبذ كثيرٍ عداه. إنكِ يا صغيرتي العزيزة عَرَضُ مُقْلِق. إنّ المعضلة فيما يمقته الحبُّ ويستغني عنه.

الفصل التاسع والعشرون

1

الآن لم أعد بحاجة إلى النظر بعيدًا إلى الوراء. عندما بدأت هذا الكتاب كنت أبحث عن طفلة بعيدة عني. ظلت تقترب إليّ حتى ظهرت أمامي امرأة هي حتمًا أنا. لن تتغير أبدًا، ولم يتبقّ أمامها الكثير.

قبل عيد ميلادي التسعين في عام 1938، أتذكر أنني قررت قراءة كل ما كتبت. بعد ذلك العام لم يكن متوقعًا أن أخطو عتبة عقد آخر. وجب عليّ أن أقرّ بأنني مُسنّة. تباطأت حركتي، وأحيانًا أمضيت أيامًا دون مغادرة غرفتي. كانت القراءة والكتابة من العزاءات القليلة المتبقية لي. وهاجي أيضًا. في الستين من عمرها كانت رشيقة نشيطة تحتل سخاوتي.

لقد قرأت كل الصفحات التي دوّنتها، وشعرت بالخجل من كتابتي المتواضعة. كم شرد قلبي وطاف! لقد استمتعت بالتنقيب عن طفولتي وشبابي في ركام السنوات. ووجدت أن ما نسيت كثير. بدا الأمر كأنني فتحت خزانة ملائ بدمى طفولية. فأخرجتها حيثما اتفق لا أسعى إلى تسلية أحد سواي. وآمل أن يُغتفر قصوري. الآن إن أردت إتمام هذا الكتاب يجب أن أكتفي بذكر خطوط أيامي العريضة. سأضطر إلى الإيجاز لأن التعب ينال من يدي وعينيّ سريعًا.

مع هذا فإنني في عيد ميلادي التسعين لم أبدأ مُسنَّةً بقدر ما بدا ميرفن موستن-لويد، رغم أنني أكبره بتسعة أعوام. كان هو من اقترح فكرة إقامة حفل عيد ميلاد لي. لقد استمر في عيش حياته الغريبة. طال تجواله أعوامًا. أعتقد أنه عزف عن العودة إلى بلده إذ لم يوجد فيه من ينتظره. لم يتقيد بعمل. باع منزليه. رحلت زوجته وابنه. وعثرت ابنتاه على وجهتيهما المُتباينتين. عندما عاد أخيرًا لم يبدُ أن رحلاته بثَّت فيه الحيوية، بل أنهكته. اكتسب عادة البحث عن أماكن يرتادها الأثرياء، كانت بمنزلة واحات في صحراء حياتهم. وظَّف وصيفًا له؛ رجلًا في منتصف العمر يُعتمد عليه، انضم مُسبقًا إلى مُشاة البحرية الملكية، ويستطيع قيادة السيارات. أصبحا يتجولان معًا في حدود إنجلترا فقط، ولا يمضيان ما يزيد على أسبوعين في أي مكان. مكثا في أفخم الفنادق في «بورنموث»، و«باث»، و«فالموث»، و«تشيلتنهام»، و«بينزانس»، و«توركاى». اعتاد ميرفن أن يقول: «يجب أن أكون حيث تسطع الشمس». فيذهب إلى غرف التشمُّس حيث تنفذ أشعة الشمس عبر الألواح الزجاجية، وهو مُستلقٍ في كرسي يكسو دثار ساقيه ويقرأ رواية بوليسية. لقد أصبح حاله يثير الشفقة.

عندما يكون ميرفن في لندن يمكث في جناح في فندق «كلاريدج»، وهناك أُقيم حفل عيد الميلاد. لقد جلب الزمن تسامحًا، إن لم يكن ودًا، بين نيك وكاثي وصوفيا. في فترة ما بدا أن اجتماعهن في المكان نفسه مستحيلًا، لكن بوب سيجريم جعل هذا ممكنًا. من الصعب وصف ذلك الرجل. تقترح كلمة «طيف» نفسها، لكنها غير مناسبة لأنه حيٌّ موجود. لم يكن نابغة أو مرهف الإحساس. وفيما يتعلق بجهوده فقد وجَّهها، باستثناء فترة الحرب، إلى المغامرات واكتشاف الحياة. ربما كان رجلًا لا ينتمي إلى عصره؛ فارسًا جَوًّا يلزمه مملكة مزدهرة يسودها السلام، يعود إليها بعد مغامرات التجوال. لكن في زماني لم يوجد مثل تلك المملكة، واقتصرت المغامرات على أسواق الأوراق المالية. على أنه الآن ترك المغامرات وراءه. أحاطت به هالة من الأصالة والنزاهة. بالطبع كان يعيش على ثروة كاثي. لكن إنفاقه مالها يمنح تلك الثروة قيمةً، إن نظرنا إلى وضعهما من هذه الناحية. وفي وجوده أصبحت العداوة تَصْغُرُ ويبدو الحقد غباءً.

أدت الجهود التي بذلها في تعافي جروح من حوله إلى حضور جماعتي كلها حفل عيد الميلاد. جاء ميرفن وابنتاه وزوجاهما. كانت هاجي هناك لأنني لا أذهب إلى أي مكان دونها. أتى جوليان ريمل، في الواحد والستين من عمره، ذو مظهر كلاسيكي يُميّزه: منتصب القامة رشيق، لا يخفى طبعه الفرنسي، شاربه ولحيته مُشذبان، ويضع نظارة بعدسة واحدة. قدمت نيكاً وحدها. أمّا فيرا فجاءت تبدو عليها أمارات السعادة برفقة روجر هازرد، الذي ارتدى كنزة زرقاء بعنق طويل وبنطالاً أخضر من القماش المُضلع، وانتعل صندلاً بلا جوارب. لم يكن شعره مُمشطاً، بل ومُتلبّداً، وأظفاره مُتسخة. طاف نادل يرتدي جورباً أبيض طويلاً يُقدّم الكوكيتيلات.

قال روجر: «يا صديقي الطيب، لم توافق على هذا العمل؟ لم لا تتمرد؟ هذا الشراب لا يعجبني. اطلب من أحدهم أن يمزج لي البرتقال بالبراندي». كانت القاعة رائعة طويلة. رغم أننا في بداية مايو كان الجو بارداً قليلاً. لهذا أوصى ميرفن بإشعال مدفأة. أحاط بالمصابيح المُضاءة غطاءً من ورق ناعم يشبه الرق. وعزل البساط وقع الأقدام. وقفت أنا وميرفن بجوار المدفأة بعيداً عن المدعوين. كان ينظر إلى ساعته عابساً، يتململ لأن حفيدنا نيكولاس لم يأت بعد. لكنه عندئذ أتى برفقة فتاة لم أرها قبلاً، كان ليصفها بطاغية الجمال. تأكد لي أنّ نيكاً أيضاً لم تقابلها من قبل. رأيته تنظر إليها نظرة فاحصة، وفكرت: «ها هو الموقف نفسه يتكرر مجدداً. لكنه سيكون الأخير. بالطبع لن أشهد غيره أمّ من جيل آخر على ابنها وقلقها عليه، مثلما تشعر نيكاً الآن».

خاطبت ميرفن بصوت خافت: «انظر إلى نيكاً. لقد رأيتُ وجهها آخر يحاول سبر أغوار امرأة أخرى مثلما تفعل الآن. حدث هذا في اليوم الذي جئت فيه بإنيد إلى «كافيه رويال» كي تتعرف إلى والدتك. أتذكره؟».

لا أزال أتذكره في معطفه الأنيق وقبعته الطويلة، وربطة العنق الحريرية رمادية اللون، وعصاه الفاخر. الآن نقلت نظري من روجر هازرد الذي يحمل كأسه بيده ذات الأظفار القذرة، إلى نيكولاس في بذلته الرسمية غير المكويّة وياقة قميصه المرتخية. فتأكد لي أن الخطأ في تلك الأيام لم يبالوا كثيراً بمظهرهم. لكن فيرا بدت سعيدة، وتألقت تلك الفتاة الجديدة في ثيابها

وزينتها. لقد أتى نيكولاس يُقدِّمها إليَّ قائلاً: «هذه جوليا مارش يا جدتي. جوليا، هذه سيدة الحفل. لقد احتملتُ وأبلاً من العواصف طوال تسعين عامًا. وعلى الأرجح أنها ستظلُّ هنا حتى تراك تهدهدين أحفادك».

صافحتني وابتسمت لي. بدا الخجل في مسلكها رغم مبالغتها في التأنق. فاستنتجت أنه درع تحتمي به، وهو ليس سميكا.

أردفتُ وهي مُمسكة بيدي تتفحصها: «يا له من سوار رائع! ما أجمل تلك الأجراس الفضية الصغيرة!».

قلت: «تظلُّ هذه الأجراس صامتة طوال العام باستثناء اليوم. لقد أهدتني والدة نيكولاس السوار في عيد ميلاد بعيد، ودائمًا ما أرتديه في الأول من مايو».

ثم قدَّمتها نيكولاس إلى جدِّه. لكن ميرفن كان شارد الذهن، يفكر، فيما أعتقد، في اليوم الذي قابلت فيه لوسي إيفانز إنيد. لكنه أفاق من شروده، نظر إلى ساعته، وقال: «يجدر بنا أن نبدأ وجبة الغداء».

ثم مدَّ لي ذراعه بلياقة وقادني إلى رأس الطاولة، حيث جلست وهو على يميني وجوليان على يساري. في منتصف عمره ازداد ميرفن وزنًا وقوة. لكن جسده الآن صار هزيلًا. غار خذاه وارتخى جناحي أنفه. برزت عظام رأسه التي لم يكسها سوى جلد رقيق ذي صُفرة، تحطُّ عروق زرقاء داكنة. اكتسب صوته حدَّة، وأصبح دائم التذمر.

سأل: «ماذا دهى فيرا لتنشر ديوانًا شعريًّا؟ ومن ذلك الفتى المدعو روجر هازرد؟».

أجاب جوليان السؤال الثاني قائلاً: «لقد ذهبْتُ إلى منزل والده الأسبوع الماضي. لديه كثير من الأغراض الرائعة يريد بيعها: أثاث وكتب ولوحات. لكن إن لم أعثر لها على مُشترٍ في أمريكا فلن يستطيع بيعها. تعيش عائلة روجر في مقاطعة «سومرست» الريفية منذ قرون. إنها واحدة من تلك العائلات التي لم تنجز شيئًا سوى الاستمرارية. ليس أفرادها من النبلاء ولم يحصلوا على البارونية. لكن يكفي أن تنتسب إلى عائلتهم لتحظى بالاحترام. لا تزال إقطاعيتهم قائمة. تتضمن منزلًا كبيرًا، وحديقة غزلان واسعة. تبدو بديعة وبائسة في الآن نفسه».

ألقى ميرفن نظرة سريعة على الوريث المستقبلي وقال عابسًا: «يبدو كأنه واحد من جامعي الخردة. ألا يتحمّمون هناك؟».

- توجد حجرة في قبو المنزل تُسمّى المغسل. إليها يذهب أفراد العائلة الأشدّاء ويصُبُّون دلاء الماء فوق رؤوسهم. لا يزال والد روجر يفعل الشيء نفسه لأنه اعتاد الاغتسال بهذه الطريقة. لكن الزائرين الواهنين مثلي يحصلون على الماء الساخن في أحواض تُنقل إلى غرفة تبديل الملابس الملحقة بغرف النوم.

سألتُه: «أليس روجر أحد الطلبة الذين أثاروا ضجة كبيرة في «اتحاد أكسفورد»؟ أولئك الذين أقسموا على ألا يحاربوا باسم الملك أو الدولة؟⁽¹⁾».

- أجل. إنه اليساريُّ المُعارض الأوّل في عائلته. يقول إنه الآن شيوعي. لكنه انضم إلى حركة الفاشيّة المُسمّاة «القمصان السوداء» لبعض الوقت.

تذمّر ميرفن قائلاً: «لا يثبت أولئك الحمقى على رأي. إنهم لا يدركون ما يريدون».

- ربما تكون مُحقّقًا في قولك. لكنهم يحاولون اكتشاف ما يريدون، لهذا فإن التغيير في وضع كهذا محمود. سيكتشف روجر الشاب غايته في النهاية. لقد عاش معظم حياته في بيئة الماضي حتى إنني أعتقد أن الحادثة تبدو له تقدّمًا. لكنها ليست كذلك بالضرورة.

سألتُه: «ما رأي والده فيما يفعل؟».

- لا يبالى به أبدًا. إنّ عائلة هازرد تؤمن أن أفرادها لا يتسبّبون في أي أذى، وأنهم يعودون إلى منزلهم في النهاية مثلما تعود الأبقار إلى الحظيرة مساءً.

قلت: «أخبرتني نيكّا أنه يدير متجرًا لبيع الكتب في شارع «تشارينج كروس». لم أزره قط لأنني لا أذهب إلى تلك الأنحاء. لكنني أرسلت هاجي

(1) في عام 1933 في «اتحاد أكسفورد»، أُقيمت مناظرة حول الاقتراح الذي قدّمه الطلاب بالأبشاركو في الحرب باسم الملك أو الدولة تحت أي ظرف. أيّد الاقتراح 275 صوتًا مقابل 153 صوتًا معارضًا. وعُرف في ما بعد باسم «قسم أكسفورد». م

تشادرتن لتتفحصه. قالت إنه يُدعى متجر «المستقبل» لبيع الكتب، وإن واجهته تملؤها نسخ من كتاب فيرا».

قال ميرفن: «لقد أرسلتُ لي نسخة ولم أفهم منه كلمة».

لم يفاجئني ما قال، لكنني فهمت قصائدها جيدًا. أقصد أنني تفهممت المقت الشديد لحماقات البشر الذي دفعها إلى كتابتها. لقد تحدثت أنا وفيرا في ضوء القمر قبل ثمانية أعوام، ومنذ ذلك الحين لم يحدث ما قد يسهم في تبديل نظرتها. لهذا عندما قرأت هذه النظرة في قصائدها لم أتفاجأ، ولم تزعجني القصائد. كنت من الكبر بحيث لم أرها شعرًا من الأساس. لقد تضمن الكتاب قصيدة عنوانها: «هذا منطقي، أليس كذلك؟»، تقول:

«لماذا يبيع جون

الأسمال والخردوات؟

كي يستطيع جون

أن يأكل الفتات».

وكتبت قصيدة أخرى بعنوان: «هجوم على جميع الجبهات» تقول:

«يرغي الأسقف ويزبد

وتُدوي المدافع وترعد

وأسعار الأسهم تعلو وتهبط

لكن الحانات مزدحمة

وقد بيعت تذاكر المسرح؛

تذاكر «رقصة العصر الأخيرة» كلها».

على أن كتاب فيرا لاقى نجاحًا كبيرًا. أشاد به من يكتبون مثله في مجلاتهم النخبويّة. وفي الجرائد، خارج تلك الدائرة الضيقة، أشاد به النقاد باحتراس خشية أن يُعدّوا غافلين عن عمل أدبيّ مهم. هكذا لقي كتاب فيرا رواجًا، واستقبلت بحفاوة. ألقت كلمةً والتقطت صورها في حفل غداء نظّمه القائمون على متاجر «فويل» الشهيرة لبيع الكتب، لتسليط الضوء على الشعراء الشباب. كانت ضيفة في إحدى حفلات الغداء الفاخرة في منزل الليدي سبيل كولفاكس في شارع «نورث»، حيث تجمع المضيفّة شُعلات العصر المتقدّمة لتتوهج معًا. هناك التقت روجر هازرد الجالس يرتدي كنزة وينتعل صندله، يتوسط شاعرة كئيبة ترتدي الأسود والرمادي، وسكرتير أحد الوزراء أمّلوا ألا يثير الحديث عما يدور في ألمانيا.

عندما انتهى ذلك الغداء قال روجر: «يجب أن أعود إلى متجري، فأنا تاجر في نهاية المطاف. هل سنسلك الطريق نفسه؟ إنّ سيارة الأجرة في الانتظار». هكذا بدأت صداقة فيرا وروجر، وسرعان ما عثرت على شخص واحد فقط يمكن استثناءه من نظرتها الدونيّة إلى الجنس البشري.

في حفل عيد ميلادي التسعين ذاك شغلت فكري مسائل كثيرة حتى إنني لم أنتبه إلى ما أكل. والآن وجدت القهوة أمامي وميرفن يصب البراندي في كأس كبيرة.

قلت: «يا إلهي! هل انتهى الغداء؟!».

أجابني جوليان ضاحكًا: «أجل، وقد أدّيت المهمة شاردة الذهن كالمعتاد». ثم دقّ ميرفن الطاولة بملعقة ونهض. أمسكت بذيل معطفه أقول: «ميرفن، لا هراء. لا داعي إلى إلقاء كلمة».

لكنه لم يتوقف، وشرع في الحديث غير مُدرك أنني أبدو أصغر منه: «لنشرب نخب هذه السيدة الرائعة التي نُجلّها جميعًا. إن بلغت تلك السن، واعلموا أن أمامي شوطًا طويلًا لأقطعه قبل بلوغها (ضحك البعض) فإنني أمل أن يقول الناس في حقي ما سأقوله في حقها الآن. لم تفعل تلك السيدة ما يبدو استثنائيًا، لكنها عاشت حتى هذه السنّ دون أن تكسب أي عداوة. وهذا إنجاز استثنائي بما يكفي. كانت صديقة أُمّي وزوجتي العزيزة، وهي صديقة عمري. إنّ أبنائي الثلاثة هنا اليوم. أنا واثق أن ابني الحبيب إدوارد

هنا رغم أنكم لا ترونه. وإنَّ الصداقة التي منحتها لثلاثتهم تؤثر بي عميقًا، لكنني أعجز عن التعبير عنها. إنها صديقة صهري بحكم القانون هنري شيب، وصهري خارج نطاق القانون بوب سيجريم، وحفيدي فيرا ونيكولاس، وصديقي جوليان ريمل ابن أخت زوجها. الآن أسألكم أن تأخذوا الآتي بعين الاعتبار: إنَّ هؤلاء الأشخاص من أجيال مختلفة وطباعهم متباينة، لكن أمرًا واحدًا يجمعهم: دائمًا ما كانت سارا كتفًا يستندون إليها عند الحزن، وأدنا تصغي إلى آمالهم السعيدة. هذا جوهر ما أريد قوله. لنشرب نخب هذه السيدة الرائعة بكل الحب».

كانت تلك الإشادة الوحيدة التي نلتها طوال حياتي، لهذا قررت تدوينها. وقد وددتُ لو سمعتها ماجي ويل وسالي جيلورد. إنَّ رأسيهما أحقُّ بأيِّ إكليل غارٍ قد يُمنَح لي.

هتف الحضور يطلبون جوابًا لكلمته، لكنني لم أستطع أن أقول سوى: «شكرًا لك».

نهضت هاجي تشادرتن قائلة: «دعوها وشأنها ولا ترهقوها».

عندئذٍ سكت الهتاف، ثم تقدمت فيرا والبعض نحوي يُقبِّلونني. كان من بينهم بوب سيجريم. عندما اقترب يطبع قُبلةً على وجنتي اتسع ظلام عصابة عينه السوداء، ورأيت فيه جميع من غابوا عن ذلك اليوم: جاستن وريتشارد، توم تشادرتن وتريمر، إدوارد والفتى العنيد نيجل الذي فطر قلب كاثي. بدا لي أن بوب سيجريم المسكين قد اقتحم واديًا، مثل الشجعان الستمئة، لكنه لم يخرج منه حقًا رغم وجوده بيننا. ولم أعرف طوال حياتي رابطةً أكثر حزنًا من تلك التي تجمعها بكاثي. كانت تعلقًا منهما ببضع جمرات مُتَقَدَّة، لا مصدر للدفء عداها، عندما تخمد سينتهي كل شيء. لقد رحل توءمه الذي سبقه إلى الحياة بنصف ساعة منذ ثلاثة أعوام، هكذا أصبح بوب سيجريم اللورد شفرينجهام. لكن أيًّا منَّا لم يدعُه بهذا اللقب، حتى إنه واصل توقيع خطاباتهِ باسم بوب سيجريم. لقد قال: «فات أوان التفاخر بالألقاب، أليس كذلك؟ إنَّ أرادت كاثي لقبًا لنفسها فسيختلف الأمر. لكنها لا تريد ألقابًا ولن تتزوجني.

لا تلقوا باللوم عليها لأنني أبدو واحدًا ممن تشير إليهم «بوابة مينين»⁽¹⁾، أليس كذلك؟».

لقد أجّر بوب قلعة شفرينجهام إلى أحد تجّار اللحم المُعلّب في شيكاغو. هكذا كسب عيشه ولم يلزم كاثي مواصلة إيداع المال في حسابه. لقد حاول تعويضها بشراء هدايا فاخرة لا تناسب دُخله حتى طلبت منه التوقف عن فعل ذلك.

تركني بوب وذهب للحديث مع نيكاً وصوفيا وهنري شيب، وضمّ كاثي إلى تلك المجموعة. لقد أبهجتني رؤيتهم معاً يضحكون. على أن نيكاً تابعت بعينيهما نيكولاس والفتاة جوليا مارش. وتوقّعتُ أن أعلم المزيد عن هذه المسألة قريباً. لكن الآن تقدّمتُ فيرا بمسألتها. لقد تلكأتُ بجواري عمداً، ثم اقتربت إليّ وسألتني: «هل أنتِ عائدة إلى ميدان هانوفر؟ هل يمكنني الذهاب معكِ؟».

بعدما أحببتها بالإيجاب قلت في نفسي: «أجل. تعالي كي تخبريني كم أنه شاب رائع. أعلم أن هذا ما تريدين البوح به».

عادت إلى المنزل في سيارة أجرة معي أنا وهاجي التي أبدت صرامتها، إذ قادتني إلى غرفة النوم وقالت: «الآن لتستريحى على هذا السرير، ولتغمضي عينيكِ نصف ساعة. إن أردتِ الآنسة فيرا الحديث يمكنها الانتظار بعض الوقت. إنَّ عيش كل تلك الإثارة في سنِّك يبدو لي قتلاً متعمداً».

كانت مستاءة. أرقدتني على السرير قدميّ مرفوعتان، وضعت وسادة أسفل رأسي، ودثرتني.

كانت الساعة الثالثة. قلت: «أنتِ قوية بما يكفي لترغميني على الرقود هنا. لكن اعلمي أنني أستطيع النهوض حالما يقابلني ظهرك. احرصى على ألا تغادر فيرا».

لم تغادر فيرا حتى استيقظتُ بعد ساعتين. للحظاتٍ تساءلتُ أين أوجد، كما يحدث كثيراً الآن، ثم رفعتُ ذراعي فأنزلتُ السوار إلى مرفقي. عندئذٍ

(1) نصب تذكاري في مقاطعة «إبير» في بلجيكا. مُكرّس للجنود البريطانيين، الذين لقوا حتفهم في تلك المقاطعة في أثناء الحرب العالمية الأولى، المجهولة قبورهم. م

علمت من أكون وأين أوجد وكم يبلغ عمري. أدركت أنني قطعت رحلة طويلة، وأن جسدي، رفيق رحلتي، يهجرتني. إنه يذوي ولا يوجد منه ما يكفي ليمسك بالسوار. أبقيت ذراعي مرفوعة أنظر إلى العصا الهزيلة، ثم أنزلتها فانزلق السوار ترنُّ أجراسه الصغيرة. لكنني لم أسمع سوى صوت رنين خافت. كانت تلك هي المرة الأولى التي أختبر فيها أمرًا كهذا. عندئذٍ لم تعد سارا أندريدج تستطيع سماع طفولتها بوضوح. إن المسكينة تفقد سمعها، ولن تُميِّز تلك الموسيقى السحرية.

على أنني فكرت أن الحياة ملأى بما يفوق بعض الصمم سوءًا. نفضت الغطاء ولمست الأرض بقدمي. جلست أفرك عينيَّ فإذا فيرا تلقى نظرة عبر باب الغرفة. حالما رأنتي مستيقظة ركضت نحوي، ومدَّت لي ذراعها كي تساعدني على الذهاب إلى غرفة الجلوس. لكنني لم أقبل ذراعها الممدودة وقلت: «لا داعي إلى الهراء الذي تصرُّ عليه هاجي».

ثم سرَّت دون عونٍ من أحد.

في غرفة الجلوس اكتشفت أن هاجي قد خرجت وجهَّزت فيرا الشاي. لقد حلَّ المساء باردًا قليلًا وكئيبيًا.

قلت: «اسدلي الستائر وأوقدي المدفأة».

هناك جلسنا يتوسط مصباح واحد طاقم الشاي. لقد اعتدت أن أحجب عني ما تبقي من النهار كي أقترب إلى الليل والهدوء. أصبح المساء وقتي المفضل، حيث أشعر أنني انتهيت من الركض، وأستطيع الجلوس لأتأمل حياتي وحياة كثيرين. لكنني في تلك الليلة لم أستطع فعل ذلك. فالركض شأن أولئك الشباب، وينتظرون مني أن أشاركهم حماس تطلعاتهم.

قلت: «إذن يا صغيرتي كيف تسير حياتك الآن؟».

كانت تتوق إلى الحديث. لقد أصبحت واحدة ممن يسافرون من البلدة إلى المدينة كل صباح إلى مشروعها الصغير. كانت تصل إلى متجر «المستقبل» لبيع الكتب في الظهيرة، فيذهب روجر لتناول الغداء. لقد اعتاد تناول شطيرة في متجره إذ لم يستطع توظيف مساعد، ولم يرغب في إغلاق المتجر بين الساعة الواحدة والثانية حيث يتحرر الموظفون من مكاتبهم ويستطيعون زيارة المتجر. لكن فيرا اقترحت أن تحل محله كي يتناول طعامه كما ينبغي.

وعندما يعود تذهب بدورها لتتناول غداءها، ثم يداوم كلاهما العمل حتى الخامسة.

قالت: «مهمتي هي الرد على الخطابات وتغليف الكتب التي يجب إرسالها عبر البريد وما إلى ذلك. اليوم اضطررنا إلى إغلاق المتجر كي نحضر حفلك. لم نكن لنفعل شيئاً كهذا لو كانت الدعوة إلى مناسبة أخرى. اعلمي كم أنك عظيمة القدر».

- هل قابلت عائلة السيد هازرد؟

- لم يتبقَّ من تلك العائلة سوى والده، وهو يعيش في مكان ما في سومرست. لكنني لم أقابله. ما أهمية ذلك؟

- ألا تعلمين أي شيء عنه؟

- لا أعلم سوى بعض الأمور التي ألمح إليها روجر. والده رجل مُسن. أنجب روجر في وقت متأخر من حياته. ويحاول تدبر أمره دون عمل.

فكرت: «إذن أنت لا تعلمين شيئاً عن المنزل الكبير، أو حديقة الغزلان، أو العائلة التي لم تنل ألقاباً لكنها لا تنتهي. وليس من شأني إخبارك».

سألتها: «هل تفكرين في الزواج به؟».

- جدتي!

- يوجد شيء يُدعى الزواج إن كنت لا تعلمين.

- نحن صديقان مُقرَّبان فقط. ولا أظن أن روجر يبالي بالزواج.

- ما الذي يبالي به؟

قالت بسذاجة الشباب المُحبَّبة: «المستقبل».

- هذا نُبلٌ منه، لكنني لا أظن أن المستقبل سيكون عظيماً. يوجد شيء

واحد فقط مؤكَّد بشأنه، وهو أنه سيسير مثل الماضي في أسابيع

وشهور وسنين. ستمرُّ فترات منه هيَّنة وأخرى صعبة. وسنُضطر إلى

احتمال ما لا يُطاق منه رغم كل شيء.

- ألا ترين أن العالم يتغير للأفضل؟

- يتغير العالم للأفضل ويتغير إلى الأسوأ. يمكن لتغير واحد إلى الأسوأ أن يعيد البشرية إلى الوراثة بسهولة، إلى مرحلة بعيدة ماضية تسبق بداية آخر تغير إلى الأفضل شهده العالم. عندئذ يلزم البشر بذل جهود تفوق ما بذلوه في المرحلة السابقة، إن أرادوا إحداث التغير التالي للأفضل. ابترسمت فيرا وقالت: «أقر بأن الجدة أندريدج تُصوّب كل ما أسمع يوماً تلو آخر».

- إذن يجب أن تزوريني كثيرًا. هل يعتقد فتاك أن تحقق اليوتوبيا الشيوعية بات وشيكًا؟

- ليس هو فقط من يعتقد ذلك، بل وكثيرون ممن يترددون إلى المتجر. إنهم يترقبون انحلال الدولة⁽¹⁾.

سرّني سماع بعض السخرية في حديثها، وقلت: «يمكنك أن تخبرهم أن الجدة أندريدج تقول إن الدولة قد تنحل، لكن بطونهم لن تتبعها. لن تختفي حاجتهم إلى طعام يشبع بطونهم، وثياب تسترهم، وسقف يعلو رؤوسهم. سيعني هذا، مثلما يعني الآن والدولة تسعى إلى تحقيق الازدهار، أن عليهم العمل لا الثروة. أخبرهم أيضًا أن سكان العالم في ازدياد. يشير هذا إلى أن البشر سيضطرون إلى العمل أكثر مقابل حصص أقل من الطعام والثياب والمأوى. سيخلق هذا وضعًا يتحتم معالجته. وسواء أصبح مُعالِجو هذا الوضع هم من يدعوهم فتاك باسم «الدولة» أم أي كيان آخر، فإنهم لن يكونوا شبابًا يثرثر في متاجر بيع الكتب. هذا هو تصور جدتك أندريدج عن المستقبل. الآن لنترك الحديث عن هذا الأمر. أخبريني من تلك الفتاة التي دعاها نيكولاس إلى الغداء؟

قالت: «جوليا مارش. إنها عارضة أزياء».

ونظرت إليّ بابتسامة مُراوغة تنتظر أن ترى الدهشة تملو وجهي. لكنني خيبت ظنها فأردفت: «اعلمي أن حفيدك نيكولاس معجب بفتاة يافعة تامّة اللياقة البدنية».

(1) انحلال الدولة مفهوم ماركسي صاغه فريدريك إنجلز. يشير بإيجاز إلى أن مع تحقيق الاشتراكية ستتحل الدولة تدريجيًا. وسيصبح المجتمع قادرًا على حكم نفسه بنفسه دون حاجة إلى إنفاذ القانون قسريًا. م

- هذه حصافة منه. متى وأين التقاها؟

قالت: «إنَّ الطبيعة البشرية غريبة جدًا. (كأنها تخبرني بحقيقة لا أعلمها) من يجدر بهم العمل في مجالٍ ما يعملوا في غيره. لدى نيكولاس صديق يعمل في تجارة الثياب، لكنه مولع بالطائرات. يرغب في أن يصبح طيارًا اختبارٍ مثل نيكولاس، أو يظن أن هذه رغبته. يصعب على المرء التحقق من ذلك. على أي حالٍ إنه على استعداد لفعل أي شيء يطلبه نيكولاس. وقد تحصَّل له على تذكرة حضور عرض أزياء الموسم الجديد. هناك حيث الأضواء رائعة والسجاد ناعم والمقاعد ذهبية، يجلس نيكولاس يشاهد الفتيات يتمايلن ويدرن ويتخذن مختلف الوضعيات. هكذا قابل نيكولاس جوليا. وفقًا لما سمعت فلن يعيش نيكولاس أي مفاجآت في ليلة الزفاف، إن تكَلَّت علاقتهما بالزواج. إنَّ جوليا تعرض الثياب الأكثر فتنة وحميمية؛ ثيابًا لم أمتلكها قط.

- إمم.

- هذه هي المرة الأولى التي ينعقد فيها لسان جدتي!

- لكن الأفكار تملأ ذهني.

- حسنًا، يمكن لهذه الأفكار أن تكون سعيدة. إنها فتاة جيدة لكنها ساذجة قليلًا. لقد قابلتها مرة أو اثنتين واستلطفتها. وهي تُعيل والدتها الأرملة. الآن يجب أن أجد سيارة أجرة كي ألحق بالقطار.

ثم نهضت وقبَّلتني.

سألتها: «هل يُدرُّ متجر الكتب هذا المال؟».

- ليس بعد.

- من يُموِّله؟

- أمي.

جلستُ وحدي أفكّر أن ابنة دانييل، بالأحرى أموال دانييل، تُموِّل انحلال الدولة. واليوم حاولت فيرا أن توضِّح لي أنا أنَّ الطبيعة البشرية غريبة!

لقد سمحتُ بمرور مدّة مناسبة من الوقت، ثم دعوت روجر هازرد إلى الغداء. بين قبوله الدعوة وتلبيتها مرّت فترة نشب في أثنائها نزاع في شارع «إيست إند». لقد وقع صدام بين جماعة «القمصان السوداء» وعدد من المواطنين يحضرون لقاءً عامًّا في الهواء الطلق، كان روجر أحد المتحدثين فيه. حضرت الشرطة وألقي القبض على البعض، من بينهم روجر الذي مثّل أمام المحكمة. علمتُ أنّ الواقعة كلّفته سماع بعض التقرير، ودفع غرامة صغيرة تساءلتُ إن كانت قد سُدّدت من أموال دانييل أيضًا!

قلت وأنا أصافح يده الرشيقة ذات الأصابع النحيلة والأظفار القذرة: «إذن لم تُسجن؟ لا بدّ أن هذا مثير للإحباط».

أجابني ضاحكًا: «كانت لتصبح تجربة رائعة. إنّ دماء الشهداء هي بذار الكنيسة كما قال ترتليان».

قدّمتُ له الشيري والسيجار. دقق إليّ النظر بعينيه الرماديتين من خلال الدخان، ثم سألني: «هل سأحصل على نسخة من التقرير؟».

سلّاني تعليقه الوقح، لكنني تظاهرت بعدم فهمه وسألته: «أي تقرير؟».

- ألسْتُ مُستدعى أمام زعيمة العشيرة لغرض آخر غير تناول لحم الضأن البارد؟

- لم نعد نُقدّم لحم الضأن البارد هنا. على أن الكثيرين سيروقههم مذاقه وسيسعدون بتناوله. هذه حقيقة قد لا تدركها جيدًا. على أي حال ما دمت هنا فلا ضير من ألقى عليك نظرة.

بعدما جلبت فيرا الحساء البارد قليل الدسم والنبيد سألتُه: «ما رأي والدك فيما تفعل؟».

عندئذ ارتدّ إلى الورااء قليلًا فقلت: «أعلمُ أن صمويل جونسون أكّد أن المحادثة المُتَحَضِّرة لا تسير سؤالًا وجوابًا. وعليه يمكنك أن تصفني بغير المُتَحَضِّرة إن كنت ترى، على النقيض مني، أنّ لجونسون القول الفصل في كل الموضوعات».

ابتهج برأيي هذا وقال: «صراحةً إنني أراه واحدًا من أكثر الرجال المثيرين للضجر في التاريخ، ساقه ضميره والإمساك. لو استخدم المُلِينات وكذب وجود الجحيم لأصبح رجلًا آخر. اسأليني كما يحلو لك نكاية به».

قلت: «اليوم سنتناول شرائح البطّ والبازلاء والبطاطا. إنه طبق تقليدي، لكن التقليدية عادةً ما تكون استمرارًا لشيء رائع».

- إن كان هذا التعليق من قبيل الحكمة فإنني أختلف معك، إذ يوجد كثير من الأمور التقليدية أوْدُ محوها. على أي حال إنَّ إجابة سؤالك الأوّل بسيطة. لا رأي لأبي فيما أفعل لأنه لا يُفكّر. لقد اكتشفت أنني الفرد الوحيد في تلك العائلة الذي تحتكُّ الأجزاء بين حاجبيه ومقدمة رأسه. قبل القرن الثامن عشر قاتلوا في جميع الحروب التي اندلعت. في أثناء القرن الثامن عشر -عصر ازدهار العمارة- انخرطوا في البناء في «سومرست»، وفي المقامرة والإغواء في «لندن». في أثناء القرن التاسع عشر ألفوا كتابًا ضخماً سجّلوا فيه غنائم صيدهم، تشبه قراءته النظر إلى واجهات متاجر بيع الدجاج في موسم عيد الميلاد المجيد. ولأن هذه القرون الثلاثة أرهقتهم لم يفعلوا شيئاً في القرن العشرين.

- دائماً ما يصعب على الخلف الالتزام بمعايير السلف أو معارضتها.

- لكنني أوقّر أسلافي توقيراً شديداً مثل الصينيين. عندما أعود إلى موطني أتجول في المنزل وأتطلع إليهم. أراهم في المكتبة التي تجهّزت بذبح قطعان من الحيوانات المسكينة، كي تؤخذ جلودها لتجليد كتبٍ لم تمسها يد منذ إتمام المُجلّد عمله؛ وفي المكتب حيث يقرأ أبي قصص المغامرات والإثارة طوال الأسبوع، والجرائد التي تتناول فضائح المشاهير والقبل والقال في أيام الآحاد؛ وفي غرفة الطعام حيث يقوم اثنا عشر كرسيّاً فاخراً حول طاولة يجلس أبي على رأسها، كأنه رئيس شركة غاب أعضاء مجلس إدارتها عن الاجتماع خشية أن يكون حاملو أسهمها قد اكتشفوا احتيالهم؛ وفي غرف النوم حيث ينخر البرد عظامك عندما تلجئين إلى سرير ذي أعمدة أربعة يشبه خيمة واسعة. هناك يوجد أسلافي. رُسم من خاضوا منهم الحروب وسط المقذوفات والدخان يقودون خيولاً مناخرها متسعة، وكي يبدو المشهد واقعياً افترش الأرض عدد من جثث

البروليتاريا. صُور من مارسوا الصيد منهم واقفين يحملون البنادق،
ترقد ضحاياهم المكسوة بالريش على الأرض في وداعة، وتنظر الكلاب
إلى أعينهم في تبجيل. في تلك اللوحات تبدو النساء آيات في الجمال،
يمضين وقتهن في شرفات تمتد أميالاً، يصحبهن كلاب ضخمة نبيلة،
أو جراء صغيرة بلهاء. توجد أيضاً مقتطفات من محادثات خاضها
الأسلاف، يبدو فيها أنَّ الرجال يتفحص كلُّ منهم لون ربطة عنق الآخر،
وأنَّ كل امرأة من النساء تُدقُّ النظر في أنوف الأخريات وصدورهن
وتصفيفة شعورهن. لكنهم لا يتواصلون بالحديث حقاً... هل أحتكر
هذه المحادثة؟

- إنك تلاحق أسلافك وتترك شرائح البطِّ تبرد.

- إذن يجدر بي أن ألاحق شرائح البطِّ وليبرد أسلافي.

هكذا بدأت أتفهم لم أعجبت به فيرا.

قال: «من حسن الحظ أن أفراد عائلة هازرد دائماً ما اختاروا أفضل
الفنانين لرسمهم. أظن أنهم انتقوهم قبل أن تذيع شهرتهم فلم يطلبوا أجراً
باهظاً. توجد في المنزل لوحات رسمها توماس جينزبرو، وجورج رومني،
وجوشوا رينولدز. بالإضافة إلى لوحات كاناليتو وأمثاله التي عاد بها بعضهم
من جولاتهم الأوروبية. عندما أبيعها سأصبح ثرياً.

- تبيعها؟ تقصد تتبرأ منها. أليس في بيع مقتنيات أجدادك وجدّاتك، على

الأرجح إلى أمريكا، إشارة إلى أنك طويت صفحة كل ما يُمثّلون؟

- بلى.

- لقد تحدث أحد أصدقائي إلى والدك مؤخراً. يبدو أن والدك ليس منزعجاً
من -ما عساي أن أدعو ما تفعل؟- لنقل أهواءك. فهو يرى أن أفراد
عائلة هازرد دائماً ما يعودون إلى حيث ينتمون.

- إنّه محقّ في هذا الرأي. فالجميع، في نهاية المطاف، يعودون إلى حيث
ينتمون. المسألة أنَّ لا أحد في عائلة هازرد يدري من وضعهم، في
المقام الأول، في المكان الذي يزعمون أنهم ينتمون إليه. ولم يُعمل أي

منهم عقله أو قلبه أو يديه في الإتيان بالجديد أو تعلّم الموجود. الآن أخبريني إلى أين ينتمون حقًا؟

لقد أصبح جادًا. تخضب وجهه بحُمرة الانفعال. أراح جانبًا طبقه الذي لم يُنه بعد وقال: «لقد شبع. أتمانعين إن دُخنت؟».

منحته الإذن فأشعل سيجارًا. ثم نهض وبدأ يذرع الغرفة.

قال: «سأخبرك بقصة حقيقية. في صباي كان يعمل لدى أبي راع اسمه توم نولز، له ابن يُدعى جاك. اتسم سلوكي تجاه جاك باللطف، إذ وجب أن أبقى على علاقة طيبة بالمستأجرين. كان جاك فتى ذكيًا يهوى القراءة. اعتدت ممازحته قائلًا إنها بلا جدوى، لكن مزاحي لم يؤثر به لأنه أدرك جيدًا ما يريد. إنَّ منطقتنا نائية. يجب أن تقطعي طريقًا يمتد أميالًا للوصول إلى المكتبة العامة. ودائمًا ما قطع جاك ذلك الطريق. ذات مرة في أثناء إجازتي من المدرسة الداخلية جاء يسألني عن توفر كتابٍ ما في مكتبتنا. لم يكن لديَّ أدنى فكرة عن الأمر، مثلي مثل سائر أفراد عائلة هازرد. لهذا دعوته إلى المنزل كي يبحث عنه بنفسه، وصادف أن كان أبي في الخارج. في المكتبة لم يعثر جاك على الكتاب الذي يريد فقط، بل وكتب من جميع التصنيفات لمعت عيناه عند رؤيتها. أخبرته أن يأخذ منها ما يريد. فغادر المنزل وملء ذراعيه من الكتب ما نُقش على جميع أغلفتها شعار عائلة هازرد باللون الذهبي. الآن سأحاول اختصار القسم التالي من هذه القصة. سأقول إن خلافًا كبيرًا وقع بيني وبين أبي. إنَّ جاك ليس بالقارئ المُنظم. أعاد بعض الكتب قذرة. أثنى حافات بعض صفحاتها. وخطط بعض الفقرات بالحبر الأحمر. حينما جاء لإرجاعها لم أكن في المنزل، لكن أبي قابله. لو رسم جاك المسكين شاربًا في لوحة رسمها رومني لامرأة من نساء العائلة المُبجَّلات لما تلقَّى توبيخًا أشدَّ مما تلقاه على ما فعل، رغم أن الكتب اللعينة لا يقربها جيل تلو آخر! وما زاد الأمر سوءًا أن ردّه على أبي لم يكن بهذا التهذيب، لكنني لا أعلم بالضبط ما قال. لهذا عاد جاك إلى السير إلى المكتبة العامة.

ثم حدث التالي. يحافظ أبي على عادة صيد الطيور خريفًا، ومن المتوقع أن يحضر جميع المستأجرين ليشهدوا انطلاقته هو ورفاقه. لقد أمر جاك بالحضور كالمعتاد. لكنه أشار إلى ذهابه إلى بلدة مجاورة في يوم الافتتاح،

ليخوض اختبارًا يُحدّد قبوله في إحدى المنح الدراسية. استاء أبي من هذا الرّدّ وربطه بواقعة الكتب. لكنه لم يملك أي سلطة على جاك، الذي لم يكن موظّفًا لديه. وأخبرني أن الفتى مُغترّب بنفسه.

لقد حصل جاك على المنحة الدراسية. وفي الأسبوع الذي ذاع فيه هذا الخبر سرّح والده من العمل بحجة عجزه عن أدائه كما ينبغي. كان توم المسكين مُسنًّا، ضئيلة فرصته في الحصول على وظيفة أخرى. لم تستطع زوجته عونهُ لأنها تعاني الروماتيزم، وهو داء تشيع الإصابة به عند العيش في أكواخ هازرد. هكذا اضطرّ جاك إلى التخلي عن المنحة الدراسية وإعالة والديه. هذا هو الدرس القاسي الذي وجب عليه تعلمه».

توقف عن السير وأطفأ السيجار في طبقه. ثم جلس بهدوء قائلاً: «في ذلك الوقت بدأتُ تعلم بعض الدروس بدوري».

- ماذا حدث لجاك نولز؟

- لقد وصل إلى حيث ينتمي كأنه، للمفارقة الساخرة، أحد أفراد عائلة هازرد. الأسبوع الماضي حصل على زمالة كلية «ميرتون». كنت لأشعر بالفخر لو ساهمت عائلتي في تحقيق هذا الإنجاز. لكنه شرف ناله شقيق السيد نولز، الذي كان يدير متجرًا لبيع التبغ في البلدة حيث التحق جاك بإحدى المدارس العامة. لقد تعرفت إلى ذلك العمّ العجوز. لم يكن ودودًا، بل بخيلًا يكتنز المال منذ أعوام. لكنه يؤمن أن العائلات يجب أن تتعاقد. هكذا استقبلهم في بيته. التحق جاك بالمدرسة. وكسب توم عيشه بتقطيع الأخشاب وإشعال المدافئ والخروج لأداء المهام اللازمة. لم يتزوج ذلك العمّ وجعل حياتهم معًا بائسة، لكن جاك احتملها. هكذا ترين أن لا نبلاء في هذه القصة. وإن كانت تروك المفارقات الساخرة ختامًا للقصص فهذه القصة خاتمة من هذا النوع. لقد أصبح جاك عضوًا في حزب المحافظين، ويرسل لي خطابات طويلة حول توجهاتي السخيفة.

- لا شك أن والديه فخوران به.

- هذا ليس أكيدًا. فهما بالطبع لا يدركان رفعة منصبه، وعلى الأرجح أنهما يرونه نذلًا متعجرفًا. يُرسل إليهما جاك بعض المال، لكنه لا يزورهما

ويحرص على ألا يقتربا إلى محيطه. لقد نبّهتك إلى أن هذه القصة ليست بالنبيلة. في ذلك اليوم حيث أعرتُ جاك الكتب بدأ كل منا يمقت عائلته. كره جاك اجتماع الفقر والجهل في عائلته. أمّا أنا فكرهت اجتماع الجهل والثراء في عائلتي. وعلى الأرجح أنني وباك سيكره أحدهما الآخر في النهاية. لكن في مجتمع غير طبقيّ حيث يتساوى دخل الجميع لن تنشأ هذه الكراهية.

- هل حدّثتك فيرا عني؟

- قليلًا. فهي نادرًا ما تتحدث عن أحد بخلاف ت. س. إليوت وويستن أودن. إنّ نظرتها محدودة. يجب أن تتحقّق.

- إذن لأخبرك شيئًا عن نفسي. كان زوجي سياسيًا صغيرًا. لكنه تمتع بثراء كافٍ، وبدأ في فترة ما أنّ مستقبله السياسي واعد، حتى إنه استضاف شخصيات العصر البارزة. لقد رأيت كثيرًا منهم على طاولة الطعام في منزلي. كان دخلهم متساويًا، أو متقاربًا جدًا بحيث يختفي الفارق المادي بينهم. ولم يحتج أي منهم إلى كسب المزيد. لكنهم امتلأوا بالغيرة والغرور. متى يتوفر منصب أعلى يشتدّ العمل في الخفاء. فالمناصب العليا تمنح سلطة أكبر. لهذا إن استطعت أن تُعلّم الرجال الزهد في السلطة، أو عدم السعي وراءها، فستبدأ في إحداث التغيير. إن كنت ترى أن تساوي الأجور يُشكّل فارقًا فأنت في سذاجة برنارد شو. يمكنك أن تمنح كل فردٍ خمسة جنيهات كل أسبوع، لكن حتمًا سيظهر بينهم أمثال جاك نولز أو أدولف هتلر. لن يرغب أي منهم في المزيد من المال، بل في منزل يؤدي فيه عمله، وسيارة خاصة توفّر وقته الثمين، وحارس خاص للحفاظ على خصوصيته، وسنعود إلى حيث كنا... لقد جهزنا حلوى السوفليه، لكن الآن ليس وقتها المناسب. هل أصبّ لك بعض القهوة؟

- لا، شكرًا لك. يجب أن أعود إلى المتجر.

- لقد حدّثتني عن كثير من الحمقى في عائلة هازرد فلا تزد عليهم واحدًا. أوكد لك أن نظير كل شخص أساء التصرف، مثلما فعل والدك بباك نولز، يوجد شخص في مثل مكانته أحسن التصرف.

هتف غاضبًا: «النظام كله خطأ».

- أوافقك الرأي. لكن الزم الحذر عند تصويبه. قد يحتاج في معاملته إلى بعض اللين.

3

كانت تلك الدعوة في يونيو عام 1938، وفي وقت لاحق من العام نفسه رفضت أخذ قناع الغاز⁽¹⁾.

كنت من الكبر ما يُثني عن مجاراة ذلك الهراء. لِمَ قد أحرص على الحفاظ على حياتي في عالم وصل إلى هذا الحال؟ ثم إنني لم أَلجأ إلى تريسانت، رغم نصيحة نيك، حتى عاد السيد تشامبرلين من ميونيخ ليخبرنا في حماسٍ أن الاتفاقية تهدف إلى تحقيق السلام على الأرض⁽²⁾.

لقد سمعت هذا التبرير في الثالثة من عمري وها أنا اسمعه الآن مجددًا! تساءلت إن كان ذلك الرجل المسكين حَسَن النية صَدَقَ حقًا أن هنا، في مستشفى المجانين الكبير الغارق في البنزين، الذي يحاول مرضاه إشعال أعواد الثقاب في كل زاوية به، لن ينشب حريق عند توقيع ورقة! لقد امتلأ العالم بالمعاهدات والاتفاقيات والمواثيق، واللجنات والهيئات والرابطات. لكنه لم يتحد. وإن غاب الاتحاد فأَيُّ شيء قد يفيد؟ لقد شغل الواقع فكري. عندما يُضطر الجيران القاطنين في حيٍّ إلى وضع اتفاقيات كثيرة تُحدّد السلوك الجيد يصبح منطقيًا القلق على مستقبل ذلك الحيّ.

(1) في أواخر الثلاثينيات من القرن العشرين أشارت مجريات الأحداث إلى حرب وشيكة مع ألمانيا، وتفاقم الخوف من استخدام الأسلحة الكيميائية ضد المدنيين. لهذا قررت الحكومة البريطانية صنع قناع واقٍ من الغاز السام لكل مواطن. م

(2) وُقِّعت اتفاقية ميونخ في ألمانيا في 30 سبتمبر 1938، من طرف ألمانيا النازية والمملكة المتحدة وجمهورية فرنسا وإيطاليا الفاشية. سمحت بضمٍّ ألمانيا النازية إقليم «سوديتلاند»، الذي مثل المناطق الشمالية والجنوبية والغربية من تشيكوسلوفاكيا مسبقًا، ومعظم سكانه من أصل ألماني، في محاولة لاسترضاء ألمانيا النازية وتجنب اندلاع حرب عالمية أخرى. م

لكن ميرفن سافر. غادر البلد وأخذ ماله معه. لقد أتى ليودّعني وأخبرني أن إنجلترا لم تعد مكانًا مناسبًا ليعيش فيه. قال إن صحته بحاجة إلى الشمس وسافر إلى كاليفورنيا. تظاهرت بتصديق ذريعتي، لكنني في الحقيقة استهنت به. وأسفت لأن المطاف انتهى به إلى الفرار من الخطر. لقد عرفت ميرلن ابن إدي رودا منذ أن كان طفلًا يحبو على الأرض العشبية بجوار البحيرة، إذ كانت ماجي امرأة راشدة ولوسي إيفانز شابة فاتنة. جمعتنا علاقة طيبة، تشاركنا الأحفاد، ثم تباعدنا. لقد أحببت الحياة، حتى في التسعين من عمري كنت أحبها. لهذا لم أتملقها أو أتفادي عواقب عيشها قط. نحن لسنا هنا لنحرس حياتنا، بل لنعيشها كاملةً بأفراحها وأتراحها. لهذا بينما أنظر إلى ذراع ميرفن النحيلة ترفع كأس النبيذ وتهتز قليلًا فُكِّرْتُ: «Advienne que pourra»! ليكن شعاري طوال ما تبقى لي من عمر «ليكن ما سيكون»! هكذا سافر ميرفن ومعه أمواله ووصيفه، حيث أشعة الشمس وعصير البرتقال في وفرة. ومات قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية.

كان بوب سيجريم من زارني بشأن قناع الغاز. لقد تنبأ ذلك الجندي المخضرم بالقدام. بعد أعوام من إهداره الوقت بين منزل شارع «ساوث أودلي» ومختلف النوادي رأى الفرصة سانحة أمامه ليشعر بأهميته مجددًا. كان مسؤولاً عن توزيع الأقنعة في حينًا، وقد جاء بسيارة ليصحبني إلى محطة القياس. قلت له أن يكتفي بأخذ بهاجي وقد أزعجه عنادي بشدة.

قال: «إن أصابك شيء فسأحاسب على التقصير، أليس كذلك؟».

تصوّرت السلطات في خضم غارة جوية، حيث قنابل الغاز تُطلق في كل مكان، قلقًا على مصير سارا أندريدج. قلت ضاحكة: «أخبرهم أنني عجز عنيّة. وأوصلني إلى معرض «ريميل» إن كانت ذاهب في الطريق نفسه».

في المعرض قال جوليان: «ها هو التاريخ يعيد نفسه! أتذكرين عندما زرتني هنا كي نناقش مصير العمل في عام 1914؟ عندئذٍ قرّرنا توظيف فورنييه. لكن الحل لن يكون يسيرًا هذه المرة. لقد أحرزت المدنيّة بعض التقدّم منذ ذلك الحين».

كان المساء في بدايته وشارع بوند هادئ. دائمًا ما يُنذر هدوء شوارع المدن الكبرى بالشرّ، على النقيض من هدوء الريف. حينئذٍ بدا أن توترًا

خبيثًا يقطع تلك الأميال من الأبنية ذات المتانة الخادعة التي أحاطت بي. إنَّ الهشاشة تسمُّها سواء أكانت من زجاج مثل قصر الكريستال، أم من حجر مثل حصن عسكري. لقد أدركت هذه الحقيقة جيدًا.

سألني جوليان: «هل سافر ميرفن؟».

- أجل، ولست آسفة على فراقه. لقد أصبح بائسًا. أفضِّل أن أتذكر كيف كان على أن أرى حاله الآن.

- أنت محقة. إنني لا أنتوي اتباع خطاه، لكن كثيرًا من الأغراض في هذا المعرض ستحذو حذوه. ليس بالضرورة إلى أمريكا، بل إلى أي مكان أكثر أمنًا من شارع بوند. إن نيفيل تشامبرلين يُمسِّد رأس الضُّبع حاليًا، لكننا لا ندري عن أي شيء قد يسفر هذا. قد يرقد الضبع بعض الوقت، لكن رقوقه لن يدوم. ويجب أن نقرِّر ما علينا فعله.

اتضح أنه رتَّب الأمور كلها في ذهنه كالمعتاد، إذ أردف: «أفكِّر في الاستعانة بهازرد، والد ذلك الشاب الذي يدير متجرًا لبيع الكتب. إنه في حاجة إلى المال. لقد تولَّيتُ بيع بعض لوحاته، لكن اضطراب الأوضاع العامة لن يساعد في بيع المزيد. لهذا فكرت أن أستأجر منزله طوال فترة الحرب، ويؤسفني قول إنها واقع وشيك. سيصبح ذلك المنزل مخزنًا مناسبًا، لكن يجب أن نُجهِّزه بنظام تدفئة مركزية. أعتقد أن الرجل سيُرْحَب بإضافة كهذه لأن المنزل بارد. يمكننا تعليق جميع اللوحات والجداريات فالحوائط هناك واسعة. وسنودع باقي الأغراض الغرف. سنترك هنا بعض القطع الرمزية فقط».

- إذن فلتَمِضْ قديمًا. يبدو واضحًا أنك عقدت العزم على تنفيذ هذه الخطة مهما كان رأيي. لكنها جيدة على أي حال.

- سيُسَرَّح معظم العاملين هنا بالطبع. لكنَّ واحدًا منهم تخطى سن الخدمة العسكرية سيسافر برفقة الأغراض إلى سومرست. تلك المنطقة نائية وفرصة قصفها ضئيلة. لقد ناقشت مسؤولي التأمين في هذه المسألة.

الآن أظلم الليل. عبر واجهة المتجر رأيت أنابيب المداخن تنتصب سوداء إزاء السماء الرمادية. جلست أسمع جوليان، لكنني لا أستمع إليه. بدا اجتماع

كلماتٍ مثل: القنابل، والتأمين، والخدمة العسكرية وهمًا وحقيقةً في الوقت نفسه. شعرت أنني أرى كابوسًا لا جدوى من محاولة الاستيقاظ منه لأنني لم أكن نائمة، بل إن قلبي هو من يرى هذا الكابوس.

أشعل جوليان مصباح طاولةٍ على هيئة مظلة تظل فتاة راعية مصنوعة من الخرف. اختفى الظلام. ولم أر سوى الغرفة ذات الإضاءة الناعمة، وجوليان، ودفع السنوات التي عرف فيها أحدنا الآخر. انتبهتُ إلى أننا الآن، إذ بلغنا تلك السنَّ المتقدمة، نناقش هذا النوع من المسائل!

قلت: «اسدُل الستائر».

فأطاعني.

أردفتُ: «أمسك بيدي».

فأمسكها.

- والآن، ليُلقِ أولئك الحمقى الأغبياء بقنابلهم اللعينة ولينتهِ الأمر. إنهم يثيرون اشمئزازي.

مسّد جوليان يدي قائلاً: «هوني عليك يا عمتي العزيزة».

- إنني أنفر منهم. لقد تسلّمت الغوريلات المُتَحَضِّرة وحتالة الأرض المُتَقَفِّون أمرنا. لكنهم سينتهون إلى جذوع أشجارهم المبتورة، وسيزحفون وسط القذارة التي جاؤوا منها. ليزدّد حالهم سوءًا!

ثم سحبت يدي من يده أشعر أنني أفضل حالًا بعد التنفيس عن بعض غضبي.

قلت: «عذرًا على هذه الكلمات. إنك خير شاهد على ما يحدث عندما ينسى المرء السلوك اللائق».

- الآن يجب أن أوصلك إلى مكانك.

ابتسمت قائلة: «هذا ما ستفعله بالطبع، أو ما آمل أن يحدث. فلا شيء يضمن أن تسير الحياة وفقًا لُسُنِّها في هذه الأيام. لكنني على أي حال سأسعد بالوصول إلى مكاني».

لقد شعرت الآن، مثلما حدث بضع مرات مؤخرًا، بوطأة عمري الطويل تشتدُّ. إنَّ سنواته تتعلّق بي، يصعب عليّ حملها، وأتمنى أن تفلتني.

لكنها لم تفلتني. اندلعت الحرب، ومكثت طوال أعوامها في لندن. لم أغادرها يوماً. لم أضع قناع الغاز لأنني لم أحصل على واحد قط. لم أحمل بطاقة هوية لأنني ألقيت بها في النيران. لقد اعتدت أن أعامل بصفتي إنساناً لا رقمًا، ولم أعزم تغيير هذه العادة الآن. عندما انتهت الحرب سافرت إلى تريسانت. كنت أعلم أن تلك هي سفرتي الأخيرة، وأنني لن أغادر الإقطاعية مجددًا. وها أنا أملأ الصفحات الأخيرة التي يجدر بي كتابتها، ويا لها من مهمة بطيئة مُرهقة! أحياناً يتطلب رفع القلم إلى دواة الحبر جهداً كبيراً، ولا ترى عيناى آخر ما كتبت من كلمات.

لا حاجة إلى أن أذكر أي شيء عن الحرب. كنت سأقول إن من يريد القراءة عنها سيجد الكثير مُدوّنًا. لكن هذا ليس أكيدًا، لأن في أيام الحرب الأخيرة أُلقيت القنبلة الذرية. لهذا قريباً قد لا يتبقى ما يمكن قراءته، وستزول هذه الصفحات أيضاً. هكذا قد ينتهي سعي الإنسان الدؤوب وراء المعرفة، للمفارقة الساخرة، بتدميره كل ما جَمَعَ من معارف على الأرض.

لكن العناد سِمَة الكُتّاب، حتى الهواة منهم مثلي. لهذا على شفا يوم الحساب، إذ السماء تُطوى كأنها لفافة من ورق، سيواصلون ملء الأوراق بكلماتهم. والآن سأواصل معهم تدوين ما عشته أنا ومعارفي في تلك الأعوام حيث بدأت النهاية.

عندما انتهت الحرب رأيت أن الوقت قد حان لأن أترك المدينة المُنهكة المُدمّرة، التي احتملت الكثير، وقررت أن نبتعد بهدوء أنا وهاجي. في الليلة السابقة لسفري ذهبت لتوديع جوليان ريمل. استندت إلى ذراع هاجي أقطع شارع بوند، حيث انتشرت لافتات «للإيجار» على واجهات متاجر كانت ذات يوم عامرة، والآن اختُزلت إلى إطارات تحيط بصُورٍ بائسة تُذكر بأبهة

فائتة. رأيت قضباناً خلفها حفرات ومغارات تملؤها القذارة والركام، وبعض الزهرات النابتة وسط الخراب، وقططاً تطارد الفئران في تلك البقع البرية. أسفت لتوديع هذا الشارع، مسرح كثير من ذكرياتي، وهو في هذا الحال. لم يتهدم متجر الحلوى الذي دخلته أنا وويلي مع اللورد بيرندج قبل أن يتزوج أمي، وقبل أن أسافر إلى مونتروي أو أن أعرف دانييل أو سالي أو تريسانت. لكن الآن بهت طلاؤه وقلّت معروضاته. لا يزال هناك أيضاً المتجر الذي وقفت عند واجهته امرأة تنتعل حذاءً طويلاً وتحمل بيدها سلّة وعلى رأسها وشاح، ثم رأت والدتها دوقة «فالوشير» تخرج منه. في ذلك المتجر نفسه عملت جوليا مارش، الجميلة الساذجة التي تزوجت بحفيدي نيكولاس. وقد اتضح أنها فتاة جيدة مثلما قالت فيرا. عاشت هي ونيكولاس حياة سعيدة وأنجبا ثلاثة أبناء لم أعرفهم جيداً قط، إذ تأتي مرحلة يتضاءل فيها اهتمام المرء بالأجيال اللاحقة ويدعمهم يتدبرون أمرهم.

كان من الغريب أن يصبح حفيدي «فارساً». لكنه نال هذا اللقب وأصبحت جوليا الليدي موستن-لويد. ما فاق هذا الأمر غرابة، كما كان ليقول دانييل، أن سائقنا القديم أصبح «السير» هنري شيب. لقد أظهر هنري نبوغاً في تصميم الطائرات. وبمساعدة من ثروة صوفيا أسّس شركته الخاصة وأصبح واحداً من أنجح المديرين. كان نيكولاس من يختبر طائراته جَدلاً بالمخاطرة بحياته. وقد رأت الدولة أن هذين الاثنين يستحقان التكريم. لكنني لن أدعي الفرح بما حقّقه. لقد انزويت أنا وهاجي في شقتنا يدبُّ الذعر في أوصالنا ليلة حربٍ تلو أخرى، لهذا لم يعجبني مُصمِّمو الطائرات أو طيارو الاختبار. وبينما أسير في ذلك الشارع الطويل في هدوء المساء، حيث سكون الرهبة الذي غشي العالم كله؛ سكُونُ يفاقم من شعور المرء المؤلم بالفظائع التي حلّت بالعالم، تطلّعت حولي فرأيت نزرًا من نتائج عملهما.

الآن توقفنا أمام معرض ريمل. مثل كثير من المتاجر الأخرى لم تعرض واجهته سوى غرضٍ رمزيٍّ جذابٍ لكنه ليس قيماً. كانت التحف لا تزال في سومرست، لكن السيد تيموثي هازرد لم يعد هناك لينعم بنظام التدفئة المركزية. لقد انضم ببندقيته إلى ميليشيا «متطوعي الدفاع المحلي» حتى تغيّر اسمها ليصبح «الحرس الداخلي»، ولم يعش بعدها طويلاً. في ليلة

شتوية حيث الضباب يكسو الريف، بينما يؤدي مهمة المراقبة سقط في خندق جانبي، لكنه استطاع الرؤية من موضعه. ولأن أفراد عائلة هازرد يجب أن يُمثلوا قدوة فقد ظلَّ في الخندق وسط الماء يواصل أداء مهمته حتى الفجر. ثم تحمَّم بالماء البارد في منزله الحجري. ومات جرَّاء صلابته السخيفة.

كان ابنه روجر في حاجة إلى إثبات صلابته أيضًا، وقد أثبتتها فعلاً. ظلَّ مُعارضًا صريحًا للحرب ما دامت المعاهدة بين روسيا وألمانيا سارية. لكن حالما انضمت روسيا إلى الحرب ضد ألمانيا أدرك صوابية موقف إنجلترا. ثم انضم إلى «قوات الاحتياط البحرية الملكية» ضابطًا، واحتمل الخدمة العسكرية في السفن الحربية المُدمَّرة التي تحرس السفن التجارية في رحلاتها إلى ميناء «مورمانسك» الروسي. نخر البرد عظامه وأُصيب في غارة جوية. لكنه تجلَّد على خدمة قضية الأمة التي ينتمي هواه إليها. لقد قام برحلة الحراسة تلك ثلاث مرات، لكنه لم يعد من الثالثة. لم يتأكد قط إن كانت السفينة فاتته مصادفةً، أم أنه فرَّ إلى الفردوس الروسي الذي تاق إلى اكتشافه. لم نعلم سوى أنه أصبح مفقودًا، وأن الجهات العليا تواصلت مع روسيا بشأنه، وأن روسيا لم تدر شيئًا عن ذلك الجندي وأبدت انزعاجها من الإيماء بأنها تخفي المُلازم روجر هازرد، ضابط قوات الاحتياط البحرية الملكية.

لكن بعد مرور وقت طويل عُثِر على روجر ونُقِل في زورقٍ بخاريٍّ، يتضمن حارسًا مُسلَّحًا، إلى سفينة حربية مُدمَّرة تابعة لبريطانيا في ميناء «مورمانسك» عادت إلى الوطن على الفور. لا أعلم بما علَّل روجر غيابه للسلطات، لكنه في نظري كان فارقًا. لقد قابلته قبل أن ينطلق في مهمة حراسة جديدة على متن سفينة حربية مُدمَّرة أخرى ستبحر في مياه أكثر دفئًا، وبدا لي رجلًا حائرًا. تقدَّم في العمر وازداد حكمةً. لا علم لديَّ بما مرَّ به، لكنني أعلم أن الانغماس في مياه المعرفة الباردة يصبح أكثر سوءًا عندما يُلهب الوهمُ المخيلة. لقد شابَّه رجلًا تسنَّى له قضاء ليلة مع محبوبته التي تمنى وصالها طويلًا، لكنه وجد أحضانها وحشيَّة.

لكنني لا أريد رؤية روجر هازرد مجددًا أو سماع المزيد عنه. الآن عليه أن يُقرَّر مصير الإقطاعية في سومرست، وأن يحاول أن يفوق أسلافه الذين

يمقتهم نفعًا، وأن ينظر إن كان ارتداء الصنادل وعدم العناية بالأظفار سيسهمان في رفاهية مجتمع مستأجري أملاكه.

لو عاشت فيرا لربما اختلف حاله. لقد مرّت عشرين عامًا منذ أن سمعت أنا ونيكا قرع الطبول كأنه عاصفة تجتاح كاتدرائية «يورك»، ورئيس الأساقفة يعرب عن قبول الكنيسة أرواح النساء كأنهن القربان الجديد للإله مولوخ. لقد علا شأن كوزمو جوردين وأعاد التاريخ نفسه. أصبح من المعتاد أن تنضم بناتنا إلى الجيش وينطلقن مع أبنائنا الجنود في طريق الحرب. الآن لم يتبق سوى تجنيد الرُضع. ولأنهم لا يقوون على فعل شيء سيتقرر أن يصبحوا طعامًا لمن يستطيعون القتال. ثم سيتسنى لرئيس الأساقفة التالي أن يُكرّس نصبًا تذكاريًا للعشرة آلاف رضيع الأوائل، الذين سيُضحون بحياتهم من أجل وطنهم.

إن الشعور بالمرارة يغمرنى عندما أتذكر فيرا. كانت طفلة خصصتها بحبي. وملأ الحب قلبها رغم ظنّها أنها تكره البشر وتزدرّهم. كان حبها واكتراثها لهم ما ألهبها حنقها على من لم يرقّ منهم إلى معاييرها. لكنني لم أقلق بشأنها. إنّ الحق الذي أظهرته يَفُضِّل ثرثرة المحتالين والمخادعين عن الحب والأخوة. وكنت أعلم أنها ستجد الحكمة بمرور الوقت. تذكرت الضوء الناعم في الإصطبل، وعيني الفرس النجلاوين الحنونتين، وذراعها تحيط عنقه وخدّها يستند إليه، والكلبين يلهوان أمامها. هناك رسمت لوحة عنوانها الحب، وليس خطأها أن لا رجل رشيد اطلع عليها. في تلك اللحظة أدركت أن الألم سيصبح رفيقها. كان قلبها ينبض بالحب، لهذا ستخبر الأسى. لقد انضمت فيرا إلى نساء «البحرية الملكية» تحذو حذو روجر هازرد. أخبرتنا إحدى الناجيات أنّ في نهار يوم صيفي في البحر المتوسط، حيث ارتدت جميع الفتيات الزي الرسمي الأبيض للمرة الأولى، في طريقهن أسفل السماء الزرقاء إلى أحد الموانئ لبدء العمل، استهدفهن طُريد. ثم أردفت: «لكن واحدة من سفننا الحربية المُدمّرة نالت من الغواصة التي أطلقته». عندئذٍ فُكِّرتُ: «شكرًا لكم. ما أعظم إنجازكم الذي سيؤدي إلى ترمُل مزيدٍ من النساء! ماذا عسانا أن نريد أكثر؟».

لكنني لم أتألم بالقدر نفسه لمصير كاثي وبوب سيجريم لأنهما لم يُمثَّلا المستقبل مثل فيرا. لقد شابها سفينتين محترقتين أُضِرمت فيهما النيران مجدداً على ساحل بحر مضطرب في تلك الأيام، ولم ينعما في النهاية بلحظة أخيرة من السلام. في تلك الأعوام زارتني كاثي أكثر من أي وقت مضى. كانت عجوزاً هزيلةً كثيبة، تغيب عن وجهها أمارات الهدوء والسكينة. اصفرت أصابعها من أثر النيكوتين، ولم يخلُ فمها قط من سجاثر يغشى دخانها عينيها، فتُضيِّقهما طوال الوقت. كانت ترتدي زياً رسمياً غير مُرتَّب، تقود شاحنة تجوب الشوارع التي ملأها خريز المياه وتغيظ النيران وتهدم الأبنية، تُوزِّع الطعام حيث كانت الحاجة إليه. بدا لي أنها تؤدي العمل المناسب لها في أيام الخوف وليالي الفزع تلك. لقد عاشت حياةً تخلو من الحب، والآن شابته راهبةٌ جامحةٌ تقود عربة المؤونة وسط دمارٍ نُفِيَ عنه الحب.

أصبح بوب سيجريم مراقباً للحرائق. لقد حاول الانضمام إلى فريق الإنقاذ، لكنه لم يُقبل نظراً إلى ساقه المفقودة. كثيراً ما زارني بدوره في بذلة العمل والخوذة الفولاذية اللتين لم يخلعهما قط. كان يرتديهما عند الذهاب إلى ناديه الذي صار فُتاتاً، وإلى نادٍ آخر أصبح مأوى للمشردين ثم قُصِف بدوره. لقد ملأه قصف النوادي بغضب بارد حتى قال: «قريباً لن يتبقى شيء، أليس كذلك؟».

الآن لم يتبقَّ شيء من بوب سيجريم وكاثي. كانا معاً عند النهاية، وأعتقد أن هذا ما تمنياه. لقد ضرب صاروخٌ طريقاً يعبرانه.

سألتني هاجي: «هل تريدان حقاً الذهاب إلى السيد ريمل أم نعود إلى المنزل؟ يجب ألا تجلسي في شوارع مثل هذه».

لم أنتبه إلى أنني جلست، لكن هذا ما حدث. على كومة من الطوب الاسمنتي أمام واجهة المتجر حيث قابلت سالي والدتها كنت جالسة أطلع إلى واجهة معرض ريمل، التي تنتصب مصنونة كالمعجزة وذكرياتٍ تفيض حولي.

قلت: «لقد أخبرتك يا عزيزتي هاجي أن سالي قابلت والدتها عند هذا المتجر للمرة الأخيرة. تظاهرت سالي بأنها بائعة زهور وعرضت على والدتها شراء البنفسج. لقد أخبرتني أنها اشترت الزهور لأن مظهرها ورائحتها ذكَّراها بتريسان».

- يجب أن تفكري في تريسانت أيضًا. كان عليك أن تمكثي هناك طوال الأعوام السابقة، والآن حان الوقت الاستقرار فيه.

نهضت من مقعدي البارد، ونقلت نظري في الشارع الذي لن أراه مرة أخرى.

قلت: «أجل يا هاجي. لقد حان وقت الذهاب. لنودع السيد ريمل».

ثم عبرنا الطريق وودّعنا جوليان. وفي الصباح سافرنا.

6

لقد قلت إنني قررت المغادرة بهدوء، لكن في «بادنجتون» أتى وفدٌ عائليٌّ ليوّدّعنا تضمن السير هنري والليدي شيب، والسير نيكولاس والليدي موستن-لويد، ونيكا. لم تفقد نيكا المسكينة كل شيء. كان نيكولاس معها يبدو رجلًا حازمًا عمليًا. لكنه لم يمسك بذراعها، بل بذراع جوليا. وقد رأيت أن هذا التصرف هو الصواب، فهكذا تسير الأمور. نظرت إلى جوليا فرأيت أنها لا تزال امرأة جميلة لم يخبُ الحب الذي جمع بينها وبين نيكولاس. كانت في جمال لوسي إيفانز. لكنها لم تملك إصرارها، أو قدرتها على عقد صفقة صعبة مع العالم والسعي إلى إلزامه بتنفيذها. كانت مظهرًا يجذب الأنظار، شماعة ثيابٍ بهيئة. وهذا ما ميّزها.

تمنيت أن يُولي نيكولاس اهتمامًا أكبر بوالدته. كانت تسير وراء الجمع، تبدو أيقونةً للوحدة. لقد سلبتها الحرب أخًا وزوجًا وابنة. حرمتها الرجل الوحيد الذي يمكنها أن تمنحه كل ما تملك. لقد منحت إدوارد الكثير، لكنه استحقَّ كل ما كان ممكنًا أن تمنحه إياه. ولا أعتقد أنها ترى جوليان ريمل الآن سوى رجل وقور ترتاح في صحبته. إنني أدرك أنها شيدت أحلامًا كثيرة، لكنها لم تُحقّق منها الكثير. توجد في منزلها غرف كثيرة خاوية تعلّمت ألا تفتح أبوابها، ومن المؤسف أن تُجبر الحياة المرء على تعلُّم ذلك.

لكن الحياة ليست حكاية خرافية يصل فيها الأمير بعربته الزجاجة إلى منزل أميرته في الوقت المناسب. إنها، في أحسن الأحوال، جبل لا ينتهي. قمتُه مُبتغاك وستلفظ أنفاسك في الصعود إليه، إن حالفك الحظ.

لقد حاولت إقناع نيكاً بالعودة معي إلى تريسانت، لكنها لم تقبل وكان رفضها منطقيًا. لقد سألتها مرافقتي بدافع من الأنانية. لكن امرأة تقترب مثلي إلى الموت يجب أن تقطع الأمتار الأخيرة في طريقها إلى النهاية بأقل قدر ممكن من إزعاج الآخرين. لقد قُصِفَ منزل نيكاً القديم في «سانت جونز وُد» الذي باعته صوفيا. زالت المرأة الرخامية العارية التي سلَّت جلوري جاين، وشجرة التوت، وغرفة الجلوس حيث عرضت السيدة جريمشو والأبقار المقدسة وتماثيل بوذا. لم يتبقَّ سوى أغراض قليلة تربطني بماجي ويل. لقد حان وقت الرحيل.

الآن عاشت نيكاً وحدها في الكوخ تتولَّى خدمتها فتاة شابة، حيث لن تملك سوى الذكريات: ذكريات ماجي تستقبل ضيوفها في ثوبها الأرجواني، وذكريات زيارتي لها (كما أمل)، وذكريات فيرا تقود فردوسي على التلال كأنها ديانا، ربَّة الطبيعة والصيد، في سعى دائم وراء طريدة خيالها.

قال السير هنري شيب: «أحرص يا هاجي على ألا تذهب السيدة أندريدج إلى عربة الغذاء لأنها قد تسقط في الممرات المتأرجحة. ستعثرين على كل ما ستحتاجان إليه في هذه السلَّة. (ابتسم لي قائلاً) يؤسفني قول إن القطار يسير بسرعة تفوق ثلاثين ميلاً في الساعة. ولن تستطيعي نكز ظهر السائق بعصاك».

بدا لوحةً مثاليةً بثيابه الأنيقة وأظفاره المُشدَّبة، وشعره الأبيض القصير اللامع، وأسنانه الناصعة القوية. فاح عطره كأنه يتحمَّم بالصابون المُعطر مرتين كل يوم. لقد طُبِعَ الصراعُ الطويلُ العالمَ بالرائثة والكآبة. أصبح رمزه ذلك المسخ الاصطناعي الرث للحملة التي أطلقتها الحكومة تحت شعار «دبِّر أمرَك ورتِّق ثيابك». فكَرْتُ: «رتِّق؟ توجد مرحلة إن بلغتها الأشياء فإنها تستعصي على الرتق». لكن السير هنري شيب علا فوق كل ذلك. لقد شابه سيارة «رولز رويس» حديثة وسط سيارات خربة أنهكها الزمان، اجتمعت لتخوض السباق السنوي إلى «برايتون». كان ذلك الحال منطقيًا لأن هنري

ميكانيكي؛ ستُكافأ إسهاماته في إيصال المدينة، أينما تريد، بسخاء. لقد أصبح واحدًا من السادة.

بدت صوفيا فخورًا بهنري، الذي لم يتأمل أحد منه الكثير عندما تزوجته. لقد ظنَّها الكثيرون حمقاء، والآن شعرتُ برضا من يشهد الدليل على صحة إيمانه. لم يُدِّقها هنري لحظة همٍّ، كان مستقيمًا مثل قطار يسير على القضبان. والآن بدت لي أكثر جمالًا وأناقة. تمنيت أن يأتي يوم تجد فيه الإنسانية جمعاء سببًا للفخر بهنري شيب مثل صوفيا، رغم الأحداث التي أدَّت إلى أن يشيب العالم. أمَّا نيكولاس فسيظلُّ سعيدًا دائمًا بالتحليق بعيدًا عن الأرض.

قلت: «الآن فلترحلوا جميعًا. لا يروقني أن ينتظر الأهالي على رصيف المحطة حتى يتحرك القطار. وإليكم حقيقة أكيدة: إن أردتم رؤيتي مجددًا فستأتون إلى كورنوال لأنني لن أعود إلى لندن أبدًا».

تقدَّم الجميع ليقبِّلوني. كانت جوليا آخرهم، وفي عينيها فقط رأيتُ دمعة. كانت تفوق الباقيين شبابًا. عاشت مبكرًا بعض مأساة الحياة. والآن رأت في وجهي شتاء العمر الطويل الذي سيصير إليه ربيعنا جميعًا. لقد انتبهتُ إلى أنني بقيت على قيد الحياة طويلًا أذُكر بالموت.

قلت: «وداعًا يا عزيزتي. قبلي الأطفال نيابة عني».

غادروا جميعًا، ثم أقررتُ بأنني اكتفيت من الاهتمام بالأجيال المتعاقبة. لم يعنِ أطفال جوليا لي شيئًا. عليهم أن يتوصَّلوا بأنفسهم إلى اتفاق مع العالم، تبعًا للظروف التي سيأتي بها الزمان.

الفصل الثلاثون

1

يخال المرء أنه من القوة ما يُمكنه من الصمود في مواجهة الحياة طوال الوقت. حتى في سنِّي هذه قد تكون من الحماسة بحيث تُصدِّق ذلك، مثل الحمقى من السياسيين والعلماء، الذين يظنون أنهم يستطيعون مواصلة العبث بمجتمع البشر وبيئته المادية إلى الأبد. إنني لا أعلم ما عساهم أن يكتشفوا قريباً. لكنني منذ عودتي إلى تريسانت اكتشفت أنني أفنى.

لم أمرض، لكن حياة التوتر في لندن طوال سنوات الحرب أوهنتني. أصبحت نادراً ما أغادر المنزل. عندما وصلنا أنا وهاجي إلى كورنوال كان العام في آخره. سرعان ما حلَّ الشتاء، وسرَّني الخلود إلى الراحة. من حين إلى آخر في بصيص من شمس الشتاء أخرج لأتمشى في حديقة المنزل نصف ساعة، ثم أعود للجلوس بجوار المدفأة. تبرد يداي وقدماي سريعاً رغم أنني لا أخلع الجوارب الصوفيَّ، وأرتدى القفازات الثقيلة التي تحيكها هاجي. أفضل من الأوقات الصباحات والمساءات. أستيقظ من النوم في العاشرة تقريباً، أتناول الإفطار بجوار المدفأة في غرفة النوم، ثم أشرع في الكتابة. الغرفة التي أمكث فيها هي غرفة أمي واللورد بيرندج، حيث مات كلاهما وُلِد جاستن. لا تزعجني هذه الأشباح، أو الأشباح الأخرى التي تحتشد في هذا المكان. إنني لا أزال في أرض الأحياء، لكن الراحلين يزورونني باستمرار.

فأرْحَبْ باستقبالهم هنا بجوار المدفأة، وأنا جالسة إلى المكتب الذي أرسله اللورد بيرندج إلى كوخ ماجي، الذي سافر معي إلى لندن، والآن قد عاد إلى الموضوع حيث أوصله السيد شيراتون أوّل مرة. أجل، أرْحَبْ باستقبال من غابوا عن الحياة منذ سنين لا الأحياء أبناء نيكولاس وجوليا موستن-لويد. عندما يلوح هذا الاسم في فكري لا أتذكر الأحفاد، بل المرأة والدّة لوسي إيفانز، التي أولت اهتمامها لمستقبل ابنتها وقررت الاستعانة بشقيقتها التي تزوجت بتاجر أقمشة ويلزيّ. أتذكرها وشقيقتها التي أخذت لوسي مكانها بلا رأفة، وموستن لويد الذي جمع بين النباهة والمكر والكرم.

حالما أسلك ممرّ الذاكرة ذاك أرى من اجتذبهم لوسي بحضورها مثلما يجتذب طعم لامع كائنات أعماق البحار من مخابئها: كابلز الكريه ومساعدته إيليس، ألويشس سلين الواهن والفتاة البائسة سكيرو التي تزوجها وفرّ منها. ولأنهم يشغلون ضواحي حياتي أشعر بهم بعيدين جدًّا، كأنني قرأت عنهم في حكاية قديمة.

يقوم عقلي بهذه الجولات في غرفتي في الصباحات. أحيانًا تجتذبه تلك الدروب المظلمة والأزقة الخلفية. وأحيانًا يدرك ضرورة العودة إلى السطور لختام هذه السيرة. لكن العمل على تلك الخاتمة بطيء ومُرْهق. إنني أستغرق في التفكير وتشقُّ عليّ الكتابة. حتى الإمساك بالقلم أصبح عسيرًا. ذات مرة أرحت يدي الباردة على الورقة ساعة، أحدّق إلى أوردتها كأنها طُرُق زرقاء تقود إلى تلال عمري وتقطع أوديته. يبدو لي أن من الرائع إنهاء هذا الكتاب نهاية مُحكّمة كأنه عمل فني ذو مغزى. لكنني لا أستطيع فعل ذلك. لقد اختلط كثيرٌ من أحداث هذه المسرحية في ذهني. حتى إنني فقدت بعض شخصياتها. لقد غادروا خشبة المسرح دون إلقاء السطر الأخير. لتكن عائلة كوجان مثالًا. ماذا حدث لِزِيدي كوجان والسيدة الصغيرة؟ لا أعلم. هل لا يزالان على قيد الحياة؟ على الأرجح أنهما قد رحلا.

تأتي هاجي لتشعل المدفأة. تلقي المرأة النحيلة السمراء نظرة على قدمي لترى إن كنت أرّدي الجورب الصوفي، وعلى يدي ثم تقول: «لقد خلعتِ القفاز مجدّدًا وستشعرين بالبرد. هل أنتِ مُضطرة إلى الجلوس هكذا وإجهاد عينيك في كتابة المئات من الصفحات؟ عمّ تكتبين؟».

- لا تبالي بما أكتب يا فتاة.

وعندما تغادر أتأمل سؤالها. عمّ أكتب؟ قصة الطفلة في الثالثة من عمرها التي قفزت مرحًا إذ تسمع أجراس الأمل ترنُّ في العالم، والآن تعتصر القطرات الأخيرة في منشقة قديمة وسط الخراب والأسى. لقد بدأت كتابة هذه الصفحات بيد واثقة، ثم ضعفت وارتعشت، والآن أنهيها بملطحات الجبر والحيرة. عمّ أكتب؟ لا أعلم... لا أعلم... اليوم سأتوقف عن الكتابة.

في المساءات نجلس في غرفة صغيرة في الطابق السفلي، وتقرأ هاجي لي. لا تزال عيناها قادرتين على قراءة الطباعات الكبيرة، لكنني خشيت إجهادهما. لم أفقد أيًا من حواسي، لكنها تضعف. إنني أذوي. وراء النافذة توجد شجيرة تزدان بزهور الثلج التي أعجبت هاجي، لهذا دائمًا ما وضعت بعضها في تلك الغرفة. في طفولتي كانت باقة من تلك الزهور الصفراء تكفي لأن تُعبق يومي كله بعبيرها. لكنني الآن أضطر إلى أن أقحم أنفي في قلبها فأتنسّم رائحة خفيفة. لقد أحزنني اضمحلال تلك القدرات التي تتصل بها الكائنات بالعالم المادي. لهذا تشبّنت ببصري وتركت هاجي تقرأ لي.

لقد أحببت إعادة قراءة كتب معينة أنتقيها بعناية، حيث لن تقابلني حقيقة جديدة أو جمال جديد. ربما تقابلني أشكال جديدة لهما فقط، لكنني تركت السعي وراء أي جديد. كنت أغذي عقلي، مثل جسدي، بالأفكار التي أثبتت تجربتي نفعها. لهذا أفادني سماع كتب ديكنز أكثر من حبوب الفيتامينات. وإن غفوت بجوار المدفأة توقظني هاجي وتسالني: «الآن ستلعبين الدومينو أم ستأوين إلى الفراش؟».

هكذا يعيش المرء في السادسة والتسعين.

ثم بلغت السابعة والتسعين. انقضى الشتاء وحلَّ الأول من مايو مجددًا. أتت هاجي إلى غرفتي وأزاحت الستائر. لقد أحضرت باقة كبيرة من زهور الكاميليا الوردية الكبيرة لا تزال رطبة بالندى. وضعتها في مزهرية بجوار السرير، ثم قبّلت جبّهتي وقالت: «عيد ميلاد سعيد. هل ستنهضين؟».

- بالطبع سأنهض. لا تعامليني كأنني امرأة مُسنّة.

- لكنكِ امرأة مُسنّة.

- أعلم هذه الحقيقة لكن لا تجعليني أشعر بها. سأنهض وسأخرج.

قالت وهي لا تزال تُنسّق الزهور: «ستأتين بنهايتك».

- وماذا في هذا؟ سيأتي شيء ما بنهاية كل منا. اعلمي هذه الحقيقة ولا تخشيها. على أن اليوم لن تكون نهايتي. سأعيش حتى المئة. لقد عذمت على هذا. الآن اضبطي الوسائد.

ساعدتني على النهوض وضبطت الوسائد خلفي. قالت: «أنتِ في مزاج سيء».

- إنني أملك الحق في أن أكون في المزاج الذي يحلو لي فالיום عيد ميلادي. لا يوجد كثيرون على قيد الحياة صاحوا للمرة الأولى قبل سبعة وتسعين عامًا.

- إن خرجت فيجب ألا تبتعدي.

- سنرى. سأخرج بعد الظهيرة في العربة التي يجرّها الحمار. الآن قبّليني ولتكن قبّلتك كما ينبغي. لا تعجبني نفرة الكناري تلك.

قبّلتني كما ينبغي وقالت: «ما الذي تريدين تناوله على الإفطار اليوم؟».

- لمَ تصرّين على طرح هذا السؤال السخيف كل صباح؟ إنكِ تُذكّريني بحوذتي عمل لدينا اسمه دوكلات، كان يوصل والدي إلى مركز المدينة كل صباح. ورغم أنه يعلم جيدًا وجهتهما فقد سأل دائمًا: «إلى أين نتجه يا حضرة السير؟».

- أجل، لقد أخبرتني عنه.
- أعلم أنني عجوز مُضجِرة، لا حاجة إلى أن تُذكّرني بالأمر. ولا حاجة أيضًا إلى أن تسأليني عن الإفطار لأنك تعلمين أنني لا أتناول سوى كوب من الحليب الدافئ. الآن سأشربه مع القهوة.
- قهوة؟! ستأتي القهوة بنهايتك!
- يبدو أنك ترين أن لي لقاءً وشيكًا مع النهاية. ويا للبهجة التي تدخلينها إلى النفوس في صباح عيد الميلاد! فقط أضيفي إلى الحليب ما يكفي من القهوة ليلائم المشروب صباح الاحتفال.
- وصلتكِ كثير من الخطابات والبرقيات.
- يمكنها الانتظار.
- هل أنت بخير الآن؟ هل أذهب لأعدّ لك المشروب؟
- بالطبع أنا بخير كما لم أكن من قبل. الآن يمكنك الذهاب لإعداد القهوة. إن استطعتِ تمييز خط السيد ريمل فلتحضري خطابه. يمكن للباقيين الانتظار.
- فتحت الدرج بجوار سريرتي، وأخرجت السوار الذي أهدته لي نيكاً في صباح بعيدٍ في منزل تشيلسي. إنني أحتفظ به منذ ذلك الحين. تقلدته فانزلق إلى مرفقي بسهولة أكثر من العام السابق. أرحت يدي على غطاء السرير كي لا يتحرك، لأنني لم أرغب في التفكير في أمره. ليس الآن. أردت فقط أن أراه في يوم عيد ميلادي مثل كل عام.
- جلبت لي هاجي القهوة بالحليب وخطاب جوليان ثم غادرت. بعدما شربت القهوة قرأت خطاب جوليان وتأملت حاله. هنا رأيته أول مرة صبيًا مفعماً بالحيوية يمرح بجوار والديه الجامدين. والآن أملت ألا تزعجه جبال الأوراق التي اعتزمت إثقال كاهليه بها. لقد بدأت الكتابة تُثقلني، وأزعجني رؤية الكلمات ترتعش على الصفحات. في البداية كانت السطور ثابتة حازمة، خطتها تلك اليد التي نسخت كتب ويلي العزيزة. والآن اهتزت السطور مثل لهب شمعة تواجه التيار إذ لم يتبق من شمعها سوى القليل.

لقد اتخذت القرار بإنهاء الكتاب. في تلك السنّ لا ينتظر المرء سوى موت بطيء. لقد انتهيت أيتها العجوز، طويت صفحة الحياة.

إذن فليكن. الليلة إن استطعت فسأكتب ترنيمة «أطلق عَبْدَكَ بِسلام»، رغم أنني لا أستطيع التظاهر بأنني راحلة في سلام بعد ما شهدت.

لكن ما الذي شهدت؟ هكذا تساءلت وأنا أطلع إلى المحيط الواسع. إلى هناك أوصلني الحمار في العربة الخوصيّة ذات الإطارات المملوءة بالهواء التي أراحت عظامي الواهنة. سارت هاجي عند رأسه، لكن القيادة لم تُعْزَهِ. لقد عرف الطريق جيدًا بمحاذاة البحيرة حيث أوراق الزنبق تفتersh سطحها، وطيور الغُرّة ودجاج الماء تتهاذى في مشيها، والبجعات البيضاء تبحر كأنها سفن تحرس أفراسها. وعلى اليمين قامت جذوع الأشجار صلبةً سحيقةً شهدت الحياة الفانية وتعمقت جذورها في الأرض. لكنها بدورها إلى زوال، إذ ستحلّ عاصفة عاتية لا بدّ.

فوقنا كانت أوراق الأشجار خضراء رقيقة، ورصّعت زهور شقائق النعمان العشب على حافة الدرب الذي لا أجهل قيد أنملة منه. لقد قطعت أومئ برأسى كأنني لا أراه، بل جزء منه. والآن حانت لحظة الوصول المهيبة، إذ نخرج من ظلال أوراق الأشجار التي تتبدّل كل ربيع، إلى المحيط العميق الثابت.

قلت لهاجي: «الآن ساعديني في الخروج».

أجابتنني: «بالطبع لن تخرجي!».

- افعلي ما قلت يا فتاة وإلا فساخرج وحدي.

قالت ضاحكة: «فتاة بالتأكيد!».

وساعدتني على الخروج من العربة.

ترنحت قليلًا عندما وقفت على الأرض الخشنة، لكن ذراع هاجي أحاطت بي. قلت: «شكرًا لك يا عزيزتي. طالما نفعني وجودك».

- إنك تثيرين حيرتي اليوم. (بدت كأنها على وشك البكاء) لا أدري ما الذي دهاك.

لكنني أدري جيدًا ما دهانني. إنني أدرك أنني لن آتي إلى هنا مجددًا أبدًا. جلست بمساعدتها فوق رقعة من الزعتر أستند إلى صخرة تدفئها الشمس.

أحكمت هاجي المعطف حولي وقلت: «الآن اتركيني وحدي وعودي بعد نصف ساعة».

تساءلت ماذا شهدت وأنا أتطلع إلى الأمواج المتلاحقة، والحاجز الرملي، وبعيداً إلى بورتيفن حيث التمعت أسطحها الرمادية في ضوء الشمس. لم أشهد خلاصاً، أو سلاماً على الأرض، أو مسرةً بحياة البشر. شهدت الشجاعة والولاء والصمود، والمهانة، والخيانة، والخزي. لقد شهدت حياة البشر. قبل زمن بعيد ابتهجت طفلة بالإنسان وسعيه بقلبه وعقله إلى تحقيق هدف نبيل. والآن تبدد كل هذا. لقد أبحرت المركبة الكريستالية بعيداً وغابت عن الأفق، مثلما جاءت تلك البجعات الآن ترفرف أجنحتها صاخبةً من البحيرة المحدودة إلى الزرقة الرحبة فوق المحيط، حتى عجز نظري عن متابعتها. لم أعد أرى سوى نساء ورجال، منهم الصالح ومنهم الطالح ومنهم مزيج غريب. وقبل أن يصبح منهم من الصالحين ما يكفي فلا أرى أملاً في أن يتحقق السلام. يمكن أن يُلْزَم الإنسان نفسه بفعل الكثير، أقصد الأفعال التي كُرِّمت دام دوللي ديورست لمحاولة فعلها. لكن سنوات عمري علمتني أن مدينة الرب لا تشبه حمامات السباحة العامة ولا يمكن بناؤها بالطريقة نفسها.

بدا لي وأنا جالسة أستند إلى الصخرة الدافئة، بعد هذا العيش الطويل، أن هذه الخلاصة مُحِبطة. لكنني لا أغفل عن قيمة العيش نفسه، وتنوع البشر وتفردهم المذهل. لهذا أسفت لأن عمري يشرف على النهاية. إنني لا أمانع في أن أعيش قرناً آخر لأرى إلى أن سيصل العالم. رفعت يدي أحجب الشمس عن عيني، فرنّت الأجراس في سوار نيكا خافتاً تُذَكِّرني بأن العمر انقضى. لقد قُلِّدتني ابنتي السوار قائلة: «ها هي! هل تسمعين الصغيرة سارا راينبرو؟». والآن لم أعد أتقدم في درب الحياة، بل أعود إلى الوراء عبر ذكريات أعوامي الطويلة الفاتنة.

فالمث، كورنوال

19 يناير 1949

11 يناير 1951

مكتبة

t.me/soramnqraa

إهداء المترجمة

إلى أُمِّي زهرة كلِّ الفصول
إلى شقيقتي العذبة كأَمطارِ الخريف

هذه الرواية انكحاس سحري ومجازي للعالم على روافد قصر
الكرستال، القصر الذي يمثل أحلامنا جميعاً، والتي كنا نلتمسها... نور
المنال المتأصلة.

تحتوي لنا سارا بطلاة الرواية قصة مفعمة بالحياة وتقديرها، فبدأ
الحكاية بأول خكري يمكن أن يلقطها عقلاها: عيد ميلادها الثالث، إذ
شهدت سارا الملكة فيكتوريا افتتاح «قصر الكريستال» بلندن حيث أقيم
«المعرض الكبير»، وقُرِضت أحدث البركات التي انتجتها الآدورة
الصناعية. انصب القصر رمزاً للسلام، حيث من المفترض أن تجتمع الأمم
كلها على وفاق ليبدأ عصر ذهبي، لكن سرعان ما الأضح أنه حلم
كريستالي تحطم.

بالغة حالمه وسرد مدغم تحتكي سارا قصتها على خلفية قصة العالم
الذي يعيش فيه، طفولتها مع أهلها ومربياتها ماجي وصديقتها
سامي، شربهما ومخاطبتها الأغنياء والمفراء بأهواء لندن. لقد عاصرت
فضائح عاشت الحب، وقاتلت الخيانة، وبين حلقى هذا الكتاب حُلَّتْ
قصة حياتها التي شهد على سير التاريخ منذ يوم افتتاح القصر في
عام 1901 إلى يوم عيد ميلادها التاسع والستين.

مكتبة
t.me/soramnqraa



www.aseralkotb.com
contact@aseralkotb.com
aseralkotb
aseralkotb
aseralkotb

هذه الرواية انكحاس سحري ومجازي للعالم على روافد قصر
الكرستال، القصر الذي يمثل أحلامنا جميعاً، والتي كنا نلتمسها... نور
المنال المتأصلة.

تحتوي لنا سارا بطلاة الرواية قصة مفعمة بالحياة وتقديرها، فبدأ
الحكاية بأول خكري يمكن أن يلقطها عقلاها: عيد ميلادها الثالث، إذ
شهدت سارا الملكة فيكتوريا افتتاح «قصر الكريستال» بلندن حيث أقيم
«المعرض الكبير»، وقُرِضت أحدث البركات التي انتجتها الآدورة
الصناعية. انصب القصر رمزاً للسلام، حيث من المفترض أن
تجتمع الأمم كلها على وفاق ليبدأ عصر ذهبي، لكن سرعان ما
الأضح أنه حلم كريستالي تحطم.

بالغة حالمه وسرد مدغم تحتكي سارا قصتها على خلفية قصة العالم
الذي يعيش فيه، طفولتها مع أهلها ومربياتها ماجي وصديقتها
سامي، شربهما ومخاطبتها الأغنياء والمفراء بأهواء لندن. لقد عاصرت
فضائح عاشت الحب، وقاتلت الخيانة، وبين حلقى هذا الكتاب حُلَّتْ
قصة حياتها التي شهد على سير التاريخ منذ يوم افتتاح القصر في
عام 1901 إلى يوم عيد ميلادها التاسع والستين.



www.aseralkotb.com
contact@aseralkotb.com
aseralkotb
aseralkotb
aseralkotb